تفسير القرآن العظيم

للإمام الحافظ
عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي

طبعة مجودة قوبلت على أوثق النسخ الخطية والمطبوعة، محققة الأحاديث والآثار، مخرجة القراءات، ذات فوائد منتخبة وفهارس علمية.

تحقيق الأحاديث والآثار
للشيخ عادل بن يوسف العزازي

قام على الخدمة العلمية للكتاب ومقابلة النسخ

أبو الفداء أحمد بن بدر الدين
أبو مجدي جمال بن السيد الأبيض
أبو محمد محمد بن إبراهيم بن شحاتة
أبو طلحة شاهر بن سيد زكي

إشراف ومتابعة
أبي الفداء أحمد بن بدر الدين بن عبد العزيز

المجلد الخامس

مريم - السجدة

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٧٣١٢

الطبعة: الأولى

التاريخ: ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

النشر والتوزيع

المكتبة الإسلامية

الإدارة والفرع الرئيس
القاهرة ٣٣ ش صعب صالح عين شمس الشرقية
ت: ٢٤٩٩١٢٥٤ - ٢٤٩٠٠٦٠٦ فاكس ٢٤٩٠٠٨٠٨
فرع الأزهر: ١ ش البيطار خلف جامع الأزهر درب الأتراك ت/٢٥١٠٨٠٠٤ محمول: ٠١١١٢٧٢٨٧٢٥

E-mail: islamya2005@hotmail.com
facebook Alslamya.2005

سُورَةُ مَرْيَمَ

تفسير سورة مريم «عليها السلام» وهي مكيَّة

وقد روىٰ محمَّد بنُ إسحاق في «السيرة» من حديث أم سلمة، وأحمدُ بنُ حنبل عن ابن مسعودٍ في قصة الهجرة إلىٰ أرض الحبشة من مكة: «أنَّ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السُّورة علىٰ النجاشي وأصحابِهِ»[1][2].

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٣٤٧) من حديث أم سلمة، ورواه أحمد (١/ ٤٦١)، والحاكم (٢/ ٦٢٣) من حديث ابن مسعود، وفيه خديج بن معاوية مُختَلَفٌ في توثيقه وتضعيفه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد وأقرَّه الذَّهبي، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٨٨).

(٢) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:** (أول السورة) مَضْمُونُهَا: تَحْقِيقُ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَأَنَّ خَوَاصَّ الْخَلْقِ هُمْ عِبَادُهُ فَكُلُّ كَرَامَةٍ وَدَرَجَةٍ رَفِيعَةٍ فِي هَذِهِ الْإِضَافَةِ وَتَضَمَّنَتْ الرَّدَّ عَلَىٰ الْغَالِينَ الَّذِينَ زَادُوا فِي النِّسْبَةِ إلَىٰ اللهِ حَتَّىٰ نَسَبُوا إلَيْهِ عِيسَىٰ بِطَرِيقِ الْوِلَادَةِ وَالرَّدَّ عَلَىٰ الْمُفْرِطِينَ فِي تَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ الْكَرَامَةِ وَجَحَدُوا نِعَمَ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُصْطَفَيْنَ. افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ وَنِدَائِهِ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا وَمَوْهِبَتِهِ لَهُ يَحْيَىٰ، ثُمَّ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا وَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.. إلَخْ بَيَّنَ فِيهَا الرَّدَّ عَلَىٰ الْغُلَاةِ فِي الْمَسِيحِ وَعَلَىٰ الْجُفَاةِ النَّافِينَ عَنْهُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ؛ ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِذِكْرِ إبْرَاهِيمَ وَمَا دَعَا إلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَنَهْيِهِ إيَّاهُ عَنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ وَمَوْهِبَتِهِ لَهُ إسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَأَنَّهُ جَعَلَ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا، وَهُوَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ وَأَخْبَرَ عَنْ يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ مَعَ التَّوْحِيدِ، وَذَكَرَ مُوسَىٰ وَمَوْهِبَتَهُ لَهُ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا كَمَا وَهَبَ يَحْيَىٰ لِزَكَرِيَّا وَعِيسَىٰ لِمَرْيَمَ وَإِسْحَاقَ لِإِبْرَاهِيمَ. فَهَذِهِ السُّورَةُ (سُورَةُ الْمَوَاهِبِ) وَهِيَ مَا وَهَبَهُ اللهُ لِأَنْبِيَائِهِ مِنْ الذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، ثُمَّ ذَكَرَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ لِأَجْلِ إدْرِيسَ ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وَهُوَ إبْرَاهِيمُ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ إلَىٰ آخِرِ الْقِصَّةِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الْآيَةُ. فَهَذِهِ حَالُ الْمُفَرِّطِينَ فِي عِبَادَةِ اللهِ ثُمَّ اسْتَثْنَىٰ التَّائِبِينَ وَبَيَّنَ أَنَّ الْجَنَّةَ لِمَنْ تَابَ وَأَنَّ جَنَّاتِ عَدْنٍ وَعَدَهَا الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ وَهُمْ أَهْلُ تَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ ثُمَّ قَالَ: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ مُنْكِرِي الْمَعَادِ، وَحَالَ مَنْ جَعَلَ لَهُ الْأَوْلَادَ، وَقَرَنَ بَيْنَهُمَا فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ»... الْحَدِيثُ. ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾ ثُمَّ ذَكَرَ إقْسَامَهُ عَلَىٰ حَشْدِهِمْ وَالشَّيَاطِينِ وَإِحْضَارِهِمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الْمُخْبِرَ عَنْ خَبَرٍ يَحْصُلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا يَكُونُ إلَّا بِطَرِيقَيْنِ: إمَّا اطِّلَاعُهُ عَلَىٰ الْغَيْبِ وَهُوَ الْعِلْمُ بِمَا سَيَكُونُ؛ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَاللهُ مُوفٍ بِعَهْدِهِ، فَالْأَوَّلُ عِلْمٌ بِالْخَبَرِ وَالثَّانِي عِلْمٌ بِالْأَمْرِ. الْأَوَّلُ عِلْمٌ بِالْكَلِمَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَالثَّانِي عِلْمٌ بِالْكَلِمَاتِ الدِّينِيَّةِ وَهَذَا الَّذِي أَقْسَمَ أَنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْمَعَادِ مَا ذَكَرَ كَاذِبٌ فِي قَسَمِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ اطِّلَاعٌ عَلَىٰ الْغَيْبِ وَلَا اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا. وَهَذَا كَمَا قِيلَ فِي إجَابَةِ الدُّعَاءِ: أَنَّهُ تَارَةً يَكُونُ لِصِحَّةِ الِاعْتِقَادِ وَهُوَ مُطَابَقَةُ الْخَبَرِ، وَتَارَةً لِكَمَالِ الطَّاعَةِ وَهُوَ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾. فَذَكَرَ حَالَ مَنْ تَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ الْبَاطِلَ بِلَا عِلْمٍ بِالْوَاقِعِ وَلَا اتِّخَاذِ عَهْدٍ بِالْمَشْرُوعِ. ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦﴾

أمَّا الكلام علىٰ الحروف المقطَّعة فقد تقدَّم في أوَّلِ سورة البقرة.

وقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا. وقرأ يحيىٰ بن يعمر: «ذَكَّرَ رحمة ربك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا»[١].

و﴿زَكَرِيَّآ﴾: يُمَدُّ ويُقصر[٢]؛ قراءتان مشهورتان. وكان نبيًّا عظيمًا من أنبياء بني إسرائيل. وفي «صحيح البخاري»: «أَنَّهُ كَانَ نَجَّارًا؛ أَيْ: كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ فِي النِّجَارَةِ»[٣].

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾: قال بعض المُفسِّرين: إنما أخفىٰ دعاءه لئلَّا ينسب في طلب الولَدِ إلىٰ الرُّعونة لكبره. حكاه الماوردي.

وقال آخرون: إنَّما أخفاه لأنَّه أحب إلىٰ الله.

كما قال قتادة في هذه الآية ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾: إنَّ الله يعلم القلب التَّقيَّ، ويسمع الصَّوت الخفيَّ.

وقال بعض السلف: قامَ مِن اللَّيل ﷺ وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربِّه يقول خُفْيةً: يا ربِّ، يا ربِّ، يا ربِّ. فقال الله: لبَّيك، لبَّيك، لبَّيك.

= الرَّحْمَنُ وَلَدًا فَنَفَىٰ الْوِلَادَةَ عَنْ نَفْسِهِ وَرَدَّ عَلَىٰ مَنْ أَثْبَتَهَا وَأَثْبَتَ الْمَوَدَّةَ رَدًّا عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَهَا فَقَالَ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ٩٦﴾، أَيْ يُحِبُّهُمْ؛ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَىٰ عِبَادِهِ، وَقَدْ وَافَقَ ذَلِكَ مَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلَ إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ». وَقَالَ فِي الْبُغْضِ عَكْسَ ذَلِكَ. وَفِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ٤٧﴾، وَقَوْلِهِ فِي مُوسَىٰ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ٥٢﴾، وَمَا ذَكَرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَوَدَّةِ: إِثْبَاتٌ لِمَا يُنْكِرُهُ الْجَاحِدُونَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ وَتَكْلِيمِهِ كَمَا فِي الْأَوَّلِ نَفْيٌ لِمَا يُثْبِتُهُ الْمُفْتَرُونَ مِنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ.

(١) قراءة: قَرَأَ (ذَكَّرَ رَّحْمَتَ) يَحْيَىٰ بْنُ يَعْمَرَ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (ذِكْرُ رَحْمَتِ).

(٢) متواترة: قَرَأَ (زَكَرِيَّا) حَفْصٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (زَكَرِيَّاءَ).

(٣) مسلم (٢٣٧٩)، وابن ماجه (٢١٥٠)، وعزوه للبخاري وهمٌ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضَعُفَتْ وخارتِ القُوَى، ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: اضطرم المَشِيبُ في السَّواد، كما قال ابن دُرَيد في «مقصورته»:

إِمَّا تَرَىٰ رَأْسِي حَاكَىٰ لَوْنُهُ ... طُرَّةَ[١] صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَىٰ

وَاشْتَعَلَ المُبْيَضُّ فِي مُسْوَدِّهِ ... مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَمْرِ الغَضَا[٢]

والمراد من هذا: الإخبار عن الضَّعف والكِبر، ودلائله الظَّاهرة والباطنة.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدُّعاء، ولم تردني قطُّ فيما سألتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾: قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ على أنه مفعول، وعن الكسائي أنَّه سكَّن الياء، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ أَيْدِيهُنَّ فِي القَاعِ القَرِقْ ... أَيْدِي جَوَارٍ يَتَعَاطَيْنَ الوَرِقْ[٣]

وقال الآخر:

فَتَىٰ لَوْ يُبَارِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا ... أَوِ القَمَرَ السَّارِي لَأَلْقَىٰ المَقَالِدَا

ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي:

تَغَايَرَ الشِّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ ... حَتَّىٰ ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وقال مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي: أراد بالموالي العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة.

وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أنَّه كان يقرؤها: «وإني خَفَّت الموالِي من ورائي»[٤] بتشديد الفاء[٥] بمعنى: قلَّت عَصَبَاتي من بعدي.

وعلى القراءة الأولى، وَجهُ خَوْفِه أنه خشي أن يتصرَّفوا مِن بعده في النَّاس تصرفًا سيئًا، فسأل الله ولدًا يكون نبيًّا من بعده؛ ليسوسهم بنبوَّته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك، لا أنه خشي مِن وراثتهم له ماله، فإنَّ النَّبيَّ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدرًا مِن أن يُشْفِق على ماله إلى ما هذا حدُّه أن يأنف مِن وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولدٌ، فيحوز ميراثه دونهم. هذا وجه.

---

(١) طُرَّة كلِّ شيء: حافَّته وجانبه، والأذيال: الأطراف، والدُّجى: الظلمة، وهي جمع دجية.

(٢) الغضا: ضرب من الشجر له جمر يبقى طويلًا، واحده: غضاة.

(٣) القَرِق: المكان المستوي، يصف الراجز إبلًا بالسرعة، والوَرِق: الفضة، والشاهد أن الشَّاعر سكَّن ياء (أيديهن) وهي اسم كأن.

(٤) قراءة: قَرَأَ (خَفَّتِ الْمَوَالِي) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (خِفْتُ الْمَوَالِيَ).

(٥) رواه الطبري (١٦/ ٤٧)، ولم يذكر سنده.

الثاني: أنَّه لم يذكر أنَّه كان ذا مالٍ، بل كان نجَّارًا يأكل مِن كسب يدَيْهِ، ومثل هذا لا يجمع مالًا ولا سِيمَا الأنبياء عليهم السلام، فإنَّهم كانوا أزهد شيءٍ في الدُّنيا.

الثَّالث: أنه قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجهٍ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ**»؛ وفي روايةٍ عند الترمذي بإسنادٍ صحيح: «**نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورَثُ**»(١) وعلىٰ هذا فتعيَّن حمل قولِهِ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ علىٰ ميراث النُّبوَّة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، أي: في النبوَّة؛ إذ لو كان في المال لما خَصَّه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدةٍ، إذ من المعلومِ المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يَرِثُ أباه، فلولا أنَّها وراثةٌ خاصةٌ لما أخبر بها، وكل هذا يقرِّره ويثبته ما صح في الحديث: «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ**».

قال مجاهد في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قال: كان وراثته علمًا وكان زكريا من ذرِّيَّة يعقوب.

وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالحٍ في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قال: قد يكون نبيًّا كما كانت آباؤه أنبياء. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن: يرث نبوَّته وعلمه. وقال السُّدِّي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قال: نبوتهم. وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قال: يَرِثُ مالي، ويَرِثُ مِن آل يعقوب النبوة. وهذا اختيار ابن جرير في «تفسيره».

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال: «**يَرْحَمُ اللهُ زَكَرِيَّا، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مَنْ وَرِثَهُ، وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**»(٢).

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا جابر بن نوح، عن مبارك -هو ابن فضالة- عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ أَخِي زَكَرِيَّا، مَا كَانَ عَلَيْهِ مَنْ وَرِثَهُ مَالَه حِينَ يَقُولُ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾**»(٣). وهذه مرسلاتٌ لا تعارض الصِّحاح، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: مرضيًّا عندك وعند خَلْقِك، تحبُّه وتحببه إلىٰ خلقك في دينِهِ وخلقِهِ.

---

(١) البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧)، والترمذي (١٦١٠) من حديث عمر. وثبت عن جماعة آخرين من الصحابة.
(٢) مرسل: رواه ابن جرير (١٦/ ٤٨) مرسلًا عن قتادة والحسن.
(٣) مرسل: رواه الطبري (١٦/ ٤٨).

﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

هذا الكلام يتضمَّن محذوفًا، وهو أنَّه أُجيب إلىٰ ما سأل في دُعَائِه فقيل له: ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: أي لم يُسَمَّ أحدٌ قبلَه بهذا الاسم، واختاره ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال مجاهد: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: شبيهًا.

أخذه من معنىٰ قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي: شبيهًا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: أي لم تلد العَوَاقِر قبله مثله.

وهذا دليلٌ علىٰ أن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لا يُولد له، وكذلك امرأتُهُ كانت عاقرًا من أوَّل عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة -عليهما السلام- فإنَّهما إنَّما تعجبًا من البِشَارَة بإسحاق علىٰ كبرهما لا لعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنَّه كان قد وُلِدَ له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة. وقالت امرأته: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾

هذا تعجبٌ من زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أجيب إلىٰ ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحًا شديدًا، وسأل عن كيفيَّة ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أنَّ امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كِبَرِها، ومع أنه قد كبُر وعَتَا؛ أي: عسا [١] عظمُه ونَحُل ولم يبقَ فيه لقاحٌ ولا جماعٌ.

تقول العرب للعود إذا يبس: «عَتا يَعْتو عِتيًّا وعُتُوًّا، وعَسا يَعْسو عُسوًّا وعِسيًّا».

وقال مجاهد: ﴿عِتِيًّا﴾ بمعنىٰ: نحول العظم. وقال ابن عبَّاس وغيره: ﴿عِتِيًّا﴾ يعني: الكبر. والظاهر أنَّه أخصُّ مِن الكبر.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن، عن عِكْرمة، عن ابن عبَّاس قال: لقد علمتُ السُّنَّة كلها، غير أنِّي لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدري

---

(١) أي: يبس وجفَّ.

كيف كان يقرأ هذا الحرف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أو «عِسِيًّا»[(١)(٢)]. ورواه الإمام أحمد عن سُرَيْج بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيوب، كلاهما عن هشيم به.

﴿قَالَ﴾ أي: الملكُ مجيبًا لزكريا عمَّا استعجب منه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: إيجاد الولدِ منك ومِن زوجتِكَ هذهِ لا من غيرها ﴿هَيِّنٌ﴾ أي: يَسِيرٌ سهلٌ على الله.

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن زكريا عليه السلام أنه ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامةً ودليلًا على وجود ما وعدتني؛ لتستقرَّ نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أي: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليالٍ وأنت صحيحٌ سويٌّ من غيرِ مرضٍ ولا علَّةٍ.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، ووهب بن منبه، والسُّدِّي وقتادة وغير واحدٍ: اعتُقِلَ لسانه من غير مرضٍ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يُكلِّم قومه إلَّا إشارةً.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: متتابعات.

والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالىٰ في أول آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير خَرَسٍ.

وهذا دليلٌ علىٰ أنَّه لم يكن يكلِّم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيَّامها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارةً؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: الذي بُشِّر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارةً خفيةً سريعةً: ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادةً علىٰ أعمالِه، وشكرًا لله علىٰ ما أولاه. قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار. وبه قال وهب وقتادة. وقال

---

(١) صحيح: رواه الطبري (١٦/ ٥١)، وإسناده صحيح، وروىٰ الطرف الأول منه أبو داود (٨٠٩)، ورواه أحمد بتمامه (١/ ٢٥٧).

(٢) متواترة: قرأ (عِتِيًّا) حفصٌ وحمزةُ والكِسائِيُّ ووافقهُمُ الأعمشُ، وقرأ الباقونَ (عُتِيًّا).

مجاهد في روايةٍ عنه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: كَتَبَ لهم في الأرض، كذا قال السُّدِّي.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

وهذا أيضًا تضمَّن محذوفًا، تقديرُه: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ الله علَّمه الكتاب، وهو التَّوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النَّبيُّون الَّذِين أسلموا للَّذين هادوا والرَّبانيُّون والأحبار.

وقد كان سنُّه إذ ذاك صغيرًا، فلهذا نوَّه بذكره، وبما أَنْعَم به عليه وعلىٰ وَالِدَيْه، فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلَّم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفَهْم والعِلْم والجَد والعزم، والإقبال علىٰ الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغيرٌ حديث السِّنِّ.

قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيىٰ بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خلقت، قال: فلهذا أنزل الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1].

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمةً مِن عندنا، وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضَّحَّاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا. وزاد قتادة: رُحِم بها زكريا.

وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وتعطفًا من ربه عليه. وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال: محبةً عليه. وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال: تعظيمًا من لدنَّا. وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنَّه سَمِعَ عكرمة عن ابن عبَّاس قال: لا والله ما أدري مَا حنانًا[2].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا جرير، عن منصور: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فقال: سألت عنها ابن عبَّاس، فلم يحر[3] فيها شيئًا.

والظَّاهر مِن هذا السِّياق أنَّ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: وآتيناه الحكم وحنانًا وزكاةً أي: وجعلناه ذا حنانٍ وزكاةٍ، فالحَنَان هو المحبَّة في شفقةٍ وميلٍ؛ كما تقول العرب: حنَّت النَّاقة علىٰ ولدها، وحنَّت المرأة علىٰ زوجها. ومنه سُمِّيَت المرأة «حَنَّة» من الحَنَّة[4]، وحَنَّ الرَّجل إلىٰ وطنه، ومنه التَّعطُّف والرَّحمة، كما قال الشاعر:

---

(١) رواه الطبري (١٦/ ٥٥)، وهذا مرسل. (٢) رواه الطبري (١٦/ ٥٦)، وإسناده صحيح.

(٣) أي: لم يرد جوابًا.

(٤) الحَنَّة: العطف والشَّفقة والحيطة، ومنه قيل لزوجة الرَّجل: حنته؛ لتحننه عليها.

تَحَــنَّنْ عَلَــيَّ هَــدَاكَ المَلِيــكُ فَــإِنَّ لِكُــلِّ مَقَــامٍ مَقَــالا

وفي «المسند» للإمام أحمد، عن أنسٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يَبْقَىٰ رَجُلٌ فِي النَّارِ يُنَادِي أَلْفَ سَنَةٍ: يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ»(١) . وقد يُثَنِّي ومنهم من يجعل ما ورد من ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة:

أَبَــا مُنْــذِرٍ أفنيــتَ فَاسْــتَبْقِ بَعْــضَنَا حَنَانَيْــكَ(٢) بَعْــضُ الــشَّرِّ أَهْــوَنُ مِــنْ بَعْــضِ

وقوله: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ معطوف علىٰ ﴿وَحَنَانًا﴾ فالزَّكاة: الطَّهارة من الدَّنس والآثام والذُّنوب. وقال قتادة: الزَّكاة العمل الصَّالح. وقال الضَّحَّاك وابن جريج: العمل الصَّالح الزَّكي. وقال العوفي عن ابن عبَّاس ﴿وَزَكَوٰةً﴾ قال: بركةً. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ «طهر، فلم يَعْمَل بذنبٍ».

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لما ذكر تعالىٰ طاعته لربِّه، وأنَّه خلقه ذا رحمةٍ وزكاةٍ وتُقًىٰ، عَطَفَ بذكر طاعته لوالديه وبرِّه بهما، ومجانبته عقوقهما، قولًا وفعلًا وأمرًا ونهيًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاءً له علىٰ ذلك: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال.

وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يُولَد، فيرىٰ نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يمُوتُ فيرىٰ قومًا لم يكن عايَنَهُم، ويوم يُبْعَث فيرىٰ نفسه في محشرٍ عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيىٰ بن زكريا فخصَّه بالسَّلام عليه، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزيِّ عن صدقة بن الفضل عنه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَلْقَىٰ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا ذَا ذَنْبٍ، إِلَّا يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا»(٣) .

قال قتادة: ما أذنب ولا همَّ بامرأةٍ. مرسلٌ.

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٢٣٠)، وفيه أبو ظلال: هلال بن أبي هلال؛ لم يوثقه غير ابن حبان، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه (الكامل ترجمة ٢٠٢٧، والثقات ترجمة ٥٩٥٢). والحديث أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٦٧)، وقال ليس إسناده بذاك، قال الحافظ: ضعيف.

(٢) حَنَانَيْكَ: رحمة بعد رحمة، يقول: لقد أفنيت كثيرًا منا، فكن بنا رحيمًا، وإذا أردت عقابًا فليكن بأهون العقاب وأخفِّه.

(٣) حسن لغيره: رواه ابن جرير (١٦/ ٥٨)، وإسناده مرسل، ورواه موصولًا الطبري (١٦ / ٥٨)، والحاكم (٢/ ٣٧٣) من حديث أبي العاص، وصحَّحه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذَّهبي قلت: رجاله ثقات غير أبي إسحاق فهو صدوقٌ مدلِّسٌ.

ورواه أحمد (١/ ٢٥٤)، وإسناده ضعيف، فيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وبمجموع الطُّرق فالحديث حسنٌ إن شاء الله.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، حدَّثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ يَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّا»[١]؛ ابن إسحاق هذا مدلسٌ، وقد عنعن هذا الحديث، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عبَّاسٍ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا، وَمَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ»[٢]. وهذا أيضًا ضعيفٌ؛ لأنَّ عليَّ بن زيد بن جدعان له منكراتٌ كثيرةٌ، والله أعلم.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة: أن حسنًا قال: إن يحيىٰ وعيسىٰ -عليهما السَّلام- التقيا، فقال له عيسىٰ: استغفر لي، أنت خير منِّي، فقال له الآخر: استغفر لي فأنت خيرٌ مني. فقال له عيسىٰ: أنت خيرٌ مني؛ سَلَّمتُ علىٰ نفسي، وسلَّم الله عليك؛ فَعُرِفَ والله فضلهُما[٣].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾

لما ذكر تعالىٰ قصة زكريا ﷺ وأنَّه أَوْجَدَ منه -في حالِ كبرهِ وعقم زوجتِهِ- ولدًا زكيًّا طاهرًا مباركًا؛ عطف بذكر قصة مريم في إيجادِهِ ولدها عيسىٰ -عليهما السلام-، منها مِن غير أبٍ، فإنَّ بين القصَّتين مناسبةً ومشابهةً؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وهاهنا وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنىٰ؛ ليدل عباده علىٰ قدرته وعظمة سلطانه، وأنَّه علىٰ ما يشاء قادرٌ، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود ﷺ، وكانت مِن بيتٍ طاهرٍ طيِّبٍ في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالىٰ قصَّة ولادة أمِّها لها في «آل عمران»، وأنَّها نذرتها محرَّرةً؛ أي: تخدم مسجد بيت المَقْدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾

---

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) **إسناد ضعيف والحديث حسن لغيره:** رواه أحمد (١/ ٢٥٤، ٢٩١، ٢٩٥، ٣٠١)، وفيه علي بن زيد: ضعيف، لكن للحديث شواهد، والفقرة الأولىٰ يَشْهَدُ لها ما تقدَّم في التَّعليقين السَّابقين، والفقرة الثَّانية لها شواهد صحيحة.

(٣) رواه الطبري (١٦/ ٥٩)، وإسناده مرسل لا يصح. وزاد السيوطي عزوه في «الدُّر المنثور» (٥/ ٤٨٩) إلىٰ عبد الرزاق وأحمد في «الزهد» وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

[آل عمران: ٣٧] ونشأتْ في بني إسرائيل نشأةً عظيمةً، فكانت إحدىٰ العابدات النَّاسكات المشهورات بالعبادة العظيمةِ والتَّبتُّلِ والدُّءُوبِ، وكانت في كفالة زوجِ أختها -وقيل: خالتها- زكريا نبيِّ بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمِهم، الَّذي يرجعون إليه في دينِهم. ورأىٰ لها زكريا من الكرامات الهائلةِ ما بهرهُ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنَّه كان يجدُ عندها ثمر الشِّتاء في الصَّيف وثمر الصَّيف في الشِّتاء، كما تقدَّم بيانه في «آل عمران»؛ فلما أراد الله تعالىٰ -وله الحكمة والحجة البالغة- أن يُوجِد منها عبدَه ورسولَه عيسىٰ عليه السلام أحدَ الرسل أولي العزم[(١)] الخمسة العظام ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: اعتزلتهم وتنحَّت عنهم، وذهبت إلىٰ شرق المسجد المقدس.

قال السُّدِّي: لحيضٍ أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُدَيْنَة، عن قابوس بن أبي ظِبيان، عن أبيه عن ابن عبَّاس قال: إن أهل الكتاب كُتِبَ عليهم الصَّلاة إلىٰ البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ قال: خرجت مريم مكانًا شرقيًّا، فصلوا قبل مَطْلع الشَّمس[(٢)]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا إسحاق بن شاهين، حدَّثنا خالد بن عبد الله، عن داود، عن عامر، عن ابن عبَّاس قال: إنِّي لأعلم خلق الله لأيِّ شيءٍ اتَّخذت النَّصارىٰ المشرق قبلةً؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتَّخذوا ميلاد عيسىٰ قِبلَةً[(٣)]. وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شاسعًا مُتَنَحِّيًا. وقال محمَّد بن إسحاق: ذهبت بِقُلَّتِها تستقي من الماء. وقال نَوْف البِكَالي: اتَّخذت لها منزلًا تتعبَّد فيه. فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالىٰ إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: علىٰ صورة إنسانٍ تامٍّ كامل. قال مجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، وابن جُرَيْج، ووهب بن مُنبِّه، والسُّدِّي، في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبريل عليه السلام.

وهذا الَّذي قالوه هو ظاهرُ القرآن فإنَّه تعالىٰ قد قال في الآية الأخرىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء].

---

(١) قال ابن تيمية رحمه الله: (وأفضلُ أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمد ﷺ «الفتاوىٰ»: (١١/ ١٦١). وأُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُل: الَّذِين عَزَمُوا علىٰ أَمْرِ اللهِ فيما عُهِدَ إليهم، ومنه قَوْلُه تعالَىٰ: [فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ]، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ في (الكَشَّافِ): هم أُولُو الجِدِّ والثَّباتِ والصَّبْرِ. والعَزْمُ في لغة هُذَيْل بمَعْنَىٰ الصَّبْرِ، يَقُولُون: مَالِي عَنْك عَزْمٌ، أي: صَبْرٌ. «تاج العروس»: (٣٣/ ٨٩).

(٢) رواه الطبري (١٦/ ٦٠)، وفي إسناده قابوس بن أبي ظبيان: لَيِّن الحديث، ويشهد له الرواية الآتية.

(٣) رواه الطبري (١٦/ ٥٩)، ورجاله ثقات.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالِيَة، عن أُبيِّ بن كعبٍ قال: إنَّ روح عيسىٰ عليه السلام مِن جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم، وهو الذي تمثَّل لها بشرًا سويًّا، أي: روح عيسىٰ، فحَمَلَت الَّذِي خاطبها وحلَّ في فِيهَا[١] . وهذا في غاية الغَرَابَة والنَّكارة، وكأنَّه إسرائيليٌّ.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: لما تَبَدَّىٰ لها الملك في صورةِ بشرٍ، وهي في مكانٍ منفردٍ وبينَهَا وبين قومِهَا حجابٌ، خافَتْهُ وظنَّتْ أنَّه يُرِيدُها علىٰ نفسها، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كنت تخاف الله. تذكيرٌ لهُ بالله، وهذا هو المشروعُ في الدَّفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفَتْه أولًا بالله عز وجل.

قال ابن جرير: حدَّثني أبو كُرَيْبٍ، حدَّثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل -وذكر قصة مريم- فقال: قد علمت أنَّ التقيَّ ذو نُهْيَةٍ[٢] حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: فقال لها الملك مجيبًا لها ومزيلًا ما حصل عندها من الخوف علىٰ نفسها: لستُ مما تَظُنِّين، ولكنِّي رسول ربك؛ أي: بَعَثَنِي إليكِ؛ ويقال: إنَّها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقًا[٣] وعاد إلىٰ هيئته وقال: «إنَّما أنا رسول ربِّك ليَهَبَ لكِ غلامًا زكيًّا».

هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القرَّاء. وقرأ الآخرون: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[٤] وكلا القراءتين له وجهٌ حسنٌ، ومعنًىٰ صحيحٌ، وكل تستلزم الأخرىٰ.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: فتعجبَتْ مريم مِن هذا، وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي: علىٰ أي صفةٍ يوجد هذا الغلام مِنِّي، ولَسْتُ بذاتِ زوجٍ، ولا يُتصوَّر منِّي الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ والبَغِيُّ: هي الزَّانية؛ ولهذا جاء في الحديثِ نهيٌ عن مهرِ البغي[٥].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: فقال لها المَلك مجيبًا لها عمَّا سألت: إنَّ الله قد قال: إنَّه سيوجِد منكِ غلامًا، وإن لم يكن لكِ بعلٌ ولا توجد منكِ فاحشةٌ، فإنَّه علىٰ ما يشاء قادر؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالةً وعلامةً للنَّاس علىٰ قدرَةِ بارئهم وخالقهم، الَّذِي نوَّع في خلقهم؛ فخلق أباهم آدم مِن غير ذكرٍ ولا أنثىٰ، وخلق حواء من ذكرٍ بلا أنثىٰ، وخلق بقيَّة الذُّرِّيَّة مِن

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٧٣) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، قلتُ: فيه أبو جعفر الرَّازي: سيِّئ الحفظ، وفيه نكارة وغرابة كما قال ابن كثير.

(٢) النُّهْيَة: العقل. (٣) الفَرَق: الجزع والخوف.

(٤) متواترة: قَرَأَ (لِيَهَبَ) أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَوَرْشٌ وَقَالُونُ بِخُلْفٍ عَنْهُ وَوَافَقَهُمُ الْيَزِيدِيُّ وَالْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (لِأَهَبَ) وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي لِقَالُونَ.

(٥) البخاري (٢٢٣٧)، ومسلم (١٥٦٧).

ذكرٍ وأنثىٰ، إلا عيسىٰ فإنَّه أوجده مِن أنثىٰ بلا ذكرٍ، فتمَّت القسمةُ الرُّباعيَّة الدَّالَّة علىٰ كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إِلَهَ غيرُهُ ولا ربَّ سواه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمةً من الله نبيًّا من الأنبياء يدعو إلىٰ عبادة الله تعالىٰ وتوحيدِهِ، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أي: يدعو إلىٰ عبادة الله رَبِّه في مهدِهِ وكهولتِهِ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الرحيم بن إبراهيم -دُحَيْم- حدَّثنا مروان، حدَّثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد قال: قالت مريم -عليها السلام-: «كنتُ إذا خلوتُ حدَّثني عيسىٰ وكلَّمَنِي وهو في بطني، وإذا كنت مع النَّاس سبَّح في بطني وكبَّر»[(١)].

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من كلام جبريل لمريم، يُخبرها أن هذا أمرٌ مقدرٌ في علم الله تعالىٰ وقدره ومشيئته. ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالىٰ لرسولِهِ محمَّدٍ ﷺ، وأنَّه كنَّىٰ بهذا عن النَّفخ في فرجها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال محمَّد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: إن الله قد عزم علىٰ هذا، فليس منه بدٌّ، واختار هذا أيضًا ابن جرير في «تفسيره»، ولم يَحْكِ غيرَهُ، والله أعلم.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن مريم أنَّها لما قال لها جبريل عن الله تعالىٰ ما قَالَ، أنَّها استسلمت لقضاءِ الله تعالىٰ فذَكَر غيرُ واحدٍ من علماء السَّلف أنَّ الملك -وهو جبريل عليه السلام- عند ذلك نفخَ في جَيْب دِرْعِها، فنزلت النَّفخة حتَّىٰ وَلجت في الفرج، فحَمَلَتْ بالوَلَدِ بإذن الله تعالىٰ. فلمَّا حَمَلَت به ضاقت ذرعًا به ولم تَدْرِ ماذا تقول للنَّاس، فإنَّها تعلم أنَّ النَّاس لا يُصَدِّقُونها فيما تخبرُهُم به، غير أنَّها أَفْشَت سِرَّها وذكرت أَمْرَهَا لأختها امرأة زكريَّا. وذلك أنَّ زكريَّا عليه السلام كان قد سأل الله الولَدَ، فأُجِيب إلىٰ ذلك، فحَمَلَتْ امرأته، فدخلت علَيْهَا مريم فقامت إليها فاعتَنَقَتْها، وقالت: أشعرت يا مريم أنِّي حُبْلَىٰ؟ فقالت لها مريم: وهل علمتِ أيضًا أنِّي حُبْلَىٰ؟ وذكرت لها شأنَهَا وما كان مِن خَبَرِها وكانوا بيت إيمانٍ وتصديقٍ، ثم كانت امرأة زكريَّا بعد ذلك إذا وَاجَهَتْ مريم تجدُ الَّذِي في جوفها يسجد للَّذي في بطن مريم؛ أي: يعظمه ويخضع له، فإنَّ السُّجود كان في ملتهم عند السَّلام

(١) عزاه لابن أبي حاتم. وهذا أحسن أحواله أنَّه مرسل. ومثل هذا لا يَصِحُّ الاعتماد عليه في الأخبار، لعدم اتِّصاله إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

مشروعًا، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام ولكن حُرِّم في مِلَّتِنَا هذه تكميلًا لتَعْظِيم جلال الرَّبِّ تعالىٰ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين قال: قُرِئَ علىٰ الحارث بن مسكين وأنَا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك رحمه الله: بلغَنِي أنَّ عيسىٰ ابنَ مريَمَ ويحيىٰ بن زكريا ابنَا خالة، وكان حملهما جميعًا معًا، فبلغني أنَّ أمَّ يحيىٰ قالت لمريم: إنِّي أرىٰ أن ما في بَطْنِي يسجد لما في بَطْنِك. قال مالك: أرىٰ ذلك لتفضيل عيسىٰ عليه السلام؛ لأنَّ الله جعله يحيي الموْتَىٰ ويُبْرِئ الأكمه والأبرص[1].

ثم اختلف المفسِّرون في مدَّة حمل عيسىٰ عليه السلام، فالمشهور عن الجُمهُور أنَّها حملت به تسعَةَ أشهرٍ. وقال عكرمة: ثمانية أشهر -قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثَّقفي، سمع ابن عبَّاس وسئل عن حَبَل مريم، قال: لم يكن إلَّا أن حملت فوضعت[2]؛ وهذا غريبٌ، وكأنَّه أخذه من ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتَّعقيب، ولكن تعقيب كل شيءٍ بحسبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] فهذه الفاء للتَّعقيب بحسبها.

وقد ثبت في «الصحيحين»: «أَنَّ بَيْنَ كُلِّ صِفَتَيْنِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[3] وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] فالمشهور الظاهر -والله علىٰ كل شيءٍ قدير- أنَّها حملت به كما تحمل النِّساء بأولادهنَّ؛ ولهذا لما ظهرت مخايِلُ الحمل عليها وكان معها في المسجد رجلٌ صالحٌ من قراباتها يخدم معهَا البيت المقدَّس، يقال له: «يوسف النَّجَّار»، فلمَّا رأىٰ ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك مِنْ أمرِهَا، ثم صرفه ما يعلم من براءَتِها ونزاهَتِها ودينِهَا وعبادَتِهَا، ثم تأمَّل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوسُ في فكره، لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه علىٰ أن عرض لها في القول، فقال: يا مريم، إني سائلك عن أمرٍ فلا تعجلي عليَّ. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجرٌ من غير حبٍّ؟ وهل يكون زرعٌ من غير بذرٍ؟ وهل يكون ولدٌ من غير أبٍ؟ فقالت: نعم -فَهِمَتْ ما أشار إليه- أما قولك: «هل يكون شجرٌ مِن غير حبٍّ وزرعٍ من غير بذرٍ؟» فإنَّ الله قد خلق الشَّجر والزَّرع أوَّل ما خلقهما من غير حبٍّ ولا بذر، «وهَل خلقٌ يكون مِن غيرِ أبٍ؟» فإنَّ الله قد خلق آدمَ مِن غير أبٍ ولا أمٍّ. فصدَّقها، وسلَّم لها حالها.

---

(١) عزاه المصنف لابن أبي حاتم، وهذا بلاغٌ لم يتَّصل إسناده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

(٢) رواه الطبراني (١٦/ ٦٥)، وهو عند عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

ولما استشعرت مريم مِن قومها اتهامها بالرِّيبة، انتبذَتْ منهم مكانًا قصيًّا؛ أي: قاصيًا منهم بعيدًا عنهم؛ لئلَّا تراهم ولا يروها.

قال محمَّد بن إسحاق: فلمَّا حملت به وملأَت قُلَّتَها ورجعت، استمسك عنها الدَّم وأصابها ما يصيبُ الحامل علىٰ الولد من الوَصَب والتَّرحُّم وتغيُّر اللَّون، حتىٰ فَطَرَ[١] لسانها، فما دخل علىٰ أهل بيتٍ ما دخل علىٰ آل زكريَّا، وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: «إنما صاحبها يوسف»، ولم يكن معها في الكَنِيسَة غيره، وتوارت من الناس، واتَّخذت مِن دونهم حجابًا، فلا يراها أحدٌ ولا تراه.

وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: فاضطرها وألجأها الطَّلق إلىٰ جذع النَّخلة، وهي نخلةٌ في المكان الذي تنحَّت إليه. وقد اختلفوا فيه، فقال السُّدِّي: كان شرقي محرابها الذي تُصَلِّي فيه مِن بيت المقدِسِ. وقال وهب بن مُنَبِّه: ذهبت هاربةً، فلما كانت بين الشَّام وبلاد مصر، ضَرَبَهَا الطَّلق. وفي روايةٍ عن وهب: كان ذلك علىٰ ثمانية أميالٍ مِن بيت المقدس، في قريةٍ هناك يقال لها: «بَيْتَ لحمَ».

قلت: وقد تقدَّم في حديث الإسراء، من رواية النسائي عن أنس رضي الله عنه، والبيهقي عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه: أنَّ ذلك ببَيْتَ لحمَ[٢]، فالله أعلم، وهذا هو المشهور الذي تلقَّاه النَّاس بعضهم عن بعضٍ، ولا يشكُّ فيه النَّصارىٰ أنَّه ببيتَ لحمَ، وقد تلقَّاه النَّاس. وقد ورد به الحديث إنْ صحَّ.

وقوله تعالىٰ إخبارًا عنها: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فيه دليلٌ علىٰ جواز تمنِّي الموت عند الفِتْنَةِ، فإنَّها عرفَتْ أنها ستُبْتَلىٰ وتُمتَحن بهذا المولود الَّذي لا يحمل النَّاس أمرَهَا فيه علىٰ السَّداد، ولا يصدِّقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدةً ناسكةً، تُصبح عندهم فيما يَظُنُّون عاهرةً زانيةً، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي: لم أُخلَق ولم أكُ شيئًا. قاله ابن عبَّاس.

وقال السُّدِّي: قالت وهي تَطَلَّقُ من الحبل استحياءً من النَّاس: يا ليتني مت قبل هذا الكَرْب الَّذي أنا فيه، والحُزْن بولادتي المولود من غير بَعْل ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ نُسِيَ فتُرِك طلبه، كخِرَق الحيض إذا أُلقيت وطُرحت لم تُطلب ولم تُذكر. وكذلك كلُّ شيءٍ نُسِيَ وتُرِكَ فهو نَسْي.

وقال قتادة: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي: شيئًا لا يُعرف، ولا يُذكَر، ولا يُدْرَىٰ مَن أنا.

وقال الرَّبيع بن أنس: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ وهو السَّقط[٣].

وقال ابن زيد: لم أكُن شيئًا قط. وقد قدَّمنا الأحاديث الدَّالَّة علىٰ النَّهي عن تمنِّي الموت إلا عند

---

(١) أي: تشقق.

(٢) وذلك عند تفسير الآية (١) من سورة الإسراء في سرد روايات الإسراء، وقال الحافظ ابن كثير في هذا الموضع: (وفيها غرابة ونكارة جدًّا)، وهي عند النسائي في «المجتبىٰ» (١/ ٢٢١).

(٣) السَّقْط: الولد -ذكرًا كان أو أنثىٰ- يسقط قبل تمامه وهو مستبين الخلق.

الفتنة، عند قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

قرأ بعضهم «مَنْ تَحْتَهَا» بمعنىٰ الذي تحتها. وقرأ آخرون: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ علىٰ أنه حرف جر[1].

واختلف المفسِّرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره، عن ابن عبَّاس: «﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ جبريل، ولم يتكلَّم عيسىٰ حتىٰ أتت به قومها»، وكذا قال سعيد بن جبير، والضَّحَّاك، وعمرو ابن ميمون، والسُّدِّي، وقتادة: إنه الملك جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أي: ناداها مِن أسفل الوَادِي.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قال: عيسىٰ ابن مريم، وكذا قال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها. وهو إحدىٰ الروايتين عن سعيد بن جبير: أنَّه ابنها، قال: أَوَلَمْ تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؟ [مريم: ٢٩] واختاره ابن زيد، وابن جرير في «تفسيره».

وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي: ناداها قائلًا لا تحزني، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال سفيان الثَّوري وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال: الجدول[2]. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: السريّ: النهر[3]. وبه قال عمرو بن ميمون: نهرٌ تشرب منه.

وقال مجاهد: هو النَّهر بالسُّريانيَّة. وقال سعيد بن جُبَيْر: السَّري: النَّهر الصَّغير بالنَّبطيَّة. وقال الضَّحَّاك: هو النَّهر الصَّغير بالسُّريانية. وقال إبراهيم النَّخَعِي: هو النَّهر الصَّغير. وقال قتادة: هو الجَدْوَل بلغةِ أهل الحجاز. وقال وهب بن مُنَبِّه: السَّرِي: هو رَبِيع الماء. وقال السُّدِّي: هو النَّهر، واختار هذا القول ابن جرير. وقد ورد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ، فقال الطبراني:

حدَّثنا أبو شعيب الحَرَّاني: حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الله البَابْلُتِّي، حدَّثنا أيوب بن نَهِيك، سمعت عكرمة مولىٰ ابن عبَّاس يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ السَّرِيَّ الَّذِي قَالَ اللهُ لِمَرْيَمَ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نَهْرٌ أَخْرَجَهُ اللهُ لِتَشْرَبَ مِنْهُ»[4] وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا مِن هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلي؛ قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف. وقال أبو

---

(١) متواترة: قَرَأَ (مِن تَحْتِهَا) نَافِعٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ وَحَفْصٌ وَرَوْحٌ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ وَالْحَسَنُ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مَن تَحْتَهَا).

(٢) رواه الطبري (١٦/ ٦٩)، والحاكم (٢/ ٣٧٣) وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الطبري (٦/ ٦٩)، وفي سنده انقطاع، لكن يشهد له أثر البراء السابق.

(٤) ضعيف: رواه الطبراني (١٢/ ٣٤٦)، وفيه أيوب بن نَهِيك: قال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث. انظر: «الجرح والتعديل» (٢/ ٢٥٦)، والراوي عنه يحيىٰ: ضعيف.

ملحوظة: تفسير السَّري بالنَّهر لا يصحُّ في الحديث، وهذا لا يعني عدم صحَّة المعنىٰ؛ لأنَّه واردٌ تفسيرًا عن المفسِّرين. كما تقدَّم.

زُرْعَة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث.

وقال آخرون: المراد بالسَّري: عيسىٰ عليه السلام، وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمَّد بن عبَّاد بن جعفر. وهو إحدىٰ الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: وخُذِي إليك بجذع النَّخلة. قيل: كانت يابسةً، قاله ابن عبَّاس. وقيل: مثمرةً. قال مجاهد: كانت عجوةً. وقال الثوري، عن أبي داود نُفَيْع الأعمىٰ: كانت صَرَفانه[1].

والظَّاهر أنَّها كانت شجرةً، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه؛ ولهذا امتنَّ عليها بذلك، أن جَعَلَ عندها طعامًا وشرابًا، فقال: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ أي: طِيبي نفسًا؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما مِن شيءٍ خير للنُّفَساء مِن التَّمر والرُّطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا شَيْبَان، حدَّثنا مسرور بن سعيد التميمي، حدَّثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، عن عُروة بن رُوَيْم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الطِّيْنِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ عليه السلام وَلَيْسَ مِنَ الشَّجَرِ شَيْءٌ يُلَقَّحُ غَيْرُهَا»[2]. وقال رسول الله ﷺ: «أَطْعِمُوا نِسَاءَكُمُ الوَلَدَ الرُّطَبَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبٌ فَتَمْرٌ، وَلَيْسَ مِنَ الشَّجَرَةِ شَجَرَةٌ أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ شَجَرَةٍ نَزَلَتْ تَحْتَهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ»[3].

هذا حديثٌ منكرٌ جدًّا، ورواه أبو يعلىٰ، عن شيبان به.

وقرأ بعضهم قوله: «تسَّاقَطْ» بتشديد السِّين، وآخرون بتخفيفها، وقرأ أبو نَهِيك: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ وروىٰ أبو إسحاق عن البراء: أنه قرأها: «تساقط»[4] أي: الجذع. والكل متقاربٌ.

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي: مهما رأيت من أحدٍ، ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لا أنَّ المراد به القَوْلُ اللَّفظِيُّ؛ لئلَّا ينافي: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.

قال أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي: صمتًا، وكذا قال ابن عبَّاس والضَّحَّاك، وفي روايةٍ عن أنس: «صومًا وصَمْتًا»، وكذا قال قتادة وغيرهما.

والمراد أنَّهم كانوا إذا صامُوا في شريعتهم يحرم عليهم الطَّعام والكلام، نصَّ علىٰ ذلك السُّدِّي وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

---

(١) الصَّرَفَان: ضرب من التمر، واحدته: صرفانة، وهو من أجود التَّمر.

(٢) **قال الألباني: موضوع**: رواه أبو يعلىٰ (٤٥٥)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٦٣) وقال ابن كثير: منكر جدًّا.

(٣) **هو بنفس إسناد الحديث السابق: موضوع**، رواه أبو يعلىٰ (٤٥٥).

(٤) **متواترة**: قَرَأَ (تَسَاقَطْ) حَمْزَةُ وَوَافَقَهُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ (تُسَاقِطْ) حَفْصٌ وَوَافَقَهُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ (يَسَّاقَطْ) يَعْقُوبُ وَشُعْبَةُ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (تَسَّاقَطْ) وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي لِشُعْبَةَ.

وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاءَ رجلَانِ فسلَّم أحدهما ولم يسلِّم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلفَ ألَّا يكلِّم النَّاس اليوم. فقال عبد الله بن مسعود: «كلِّمِ النَّاس وسلِّم عليهم، فإِنَّما تلك امرأةٌ عَلِمَت أنَّ أحدًا لا يصدقها أنَّها حَمَلَتْ من غير زوج -يعني بذلك مريم -عليها السلام- ليكون عذرًا لها إذا سُئِلَت»[1]. ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، رحمهما الله.

وقال عبد الرَّحمن بن زيد: لما قال عيسىٰ لمريم: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي؟! لا ذَاتُ زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند النَّاس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا، قال لها عيسىٰ: أنا أكفيك الكلام: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قال: هذا كله من كلام عيسىٰ لأُمِّه[2]. وكذا قال وهب.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عَن مريم حين أُمِرَت أن تصوم يومها ذلك، وألَّا تكلِّم أحدًا من البشر فإنَّها ستكفىٰ أمرها ويُقَام بحُجَّتِها، فسَلَّمت لأمر الله ﷻ واستسلمت لقضائه، وأخذَتْ ولدَهَا ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ فلمَّا رأوها كذلك، أعظموا أَمْرَهَا واستنكروه جدًّا، وقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: أمرًا عظيمًا. قاله مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي، وغير واحدٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن أبي زياد، حدَّثنا سَيَّار، حدَّثنا جعفر بن سليمان، حدَّثنا أبو عمران الجَوْني، عن نوف البِكَاليّ قال: وخرج قومُها في طلبها، وكانت من أهلِ بيت نبوَّةٍ وشرفٍ. فلم يُحِسُّوا منها شيئًا، فرَأَوْا راعيَ بقرٍ فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نَعْتُها؟ قال: لا، ولكنِّي رأيتُ اللَّيلة من بقري ما لم أَرَهُ منها قط. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها سُجَّدًا نحو هذا الوادي. قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيَّار أنَّه قال: رأيت نورًا ساطعًا. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلمَّا رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاءوا حتىٰ قاموا عليها، ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أمرًا عظيمًا. ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ أي: يا شَبِيهَة هارون في العِبَادَة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي: أنتِ مِن بيتٍ طيِّبٍ طاهرٍ، معروفٍ بالصَّلاح والعِبَادَةِ

(١) رواه الطبري (١٦/ ٧٥).

(٢) رواه الطبري (١٦/ ٧٥) هذا من كلام ابن زيد، ولم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

والزَّهادة، فكيف صَدَرَ هذا منك؟[١]

قال علي بن أبي طلحة، والسُّدِّي: قيل لها: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ أي: أخي موسىٰ، وكانت من نسله كما يقال للتَّميمي: يا أخَا تميم، وللمضري: يا أخَا مُضَر. وقيل: نسبت إلىٰ رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تُقَاس به في العبادة، والزَّهادة. وحكىٰ ابن جرير عن بعضهم: أنَّهم شبَّهُوها برجلٍ فاجرٍ كان فيهم. يقال له: هارون. ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

وأغرب مِن هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم.

حدَّثنا علي بن الحسين الهِسِنْجَاني، حدَّثنا ابن أبي مريم، حدَّثنا المفضل بن فَضَالة، حدَّثنا أبو صخر، عن القُرَظي في قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ قال: هي أخت هارون لأبيه وأمه، وهي أخت مُوسَىٰ أخي هارون التي قَصَّت أثر موسىٰ، ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

وهذا القول خطأٌ محضٌ، فإنَّ الله تعالىٰ قد ذَكَر في كتابه أنَّه قفَّىٰ بعِيسَىٰ بعد الرُّسل، فدلَّ علىٰ أنَّه آخر الأنبياء بعثًا، وليس بعده إلا محمَّد صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا ثبت في «الصحيح» عند البخاري، عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**»[٢] ولو كان الأمر كما زعم محمَّد بن كعب القرظي، لم يكن متأخرًا عن الرسل سوىٰ محمَّد. ولكان قبل سليمان و داود؛ فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسىٰ -عليهما السلام- في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فذكر القصة إلىٰ أن قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ الآية [البقرة: ٢٥١].

والذي جرَّأ القرظي علىٰ هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسىٰ وبني إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وقومه، قال: وكانت مريم بنت عمران أخت موسىٰ وهارون النَّبيَّين، تضرب بالدُّفِّ هي والنِّساء معها يسبِّحن الله ويشكرْنَهُ علىٰ ما أنعم به علىٰ بني إسرائيل، فاعتقد القرظي أنَّ هذه هي أم عيسىٰ. وهي هفوةٌ وغلطةٌ شديدةٌ، بل هي باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبي يذكره عن سِمَاك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلىٰ نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرءون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾، وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا**

---

(١) ضعيف: نوف البكالي. قال الحافظ: مستور، وإنَّما كذب ابن عبَّاس ما رواه عن أهل الكتاب. اهـ. قلت: وهذا مِن أخبار أهل الكتاب فلا يَصِح.

(٢) البخاري (٣٤٤٢).

يَتَسَمَّوْنَ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ؟»[١].

انفرد بإخراجه مسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن سماك به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن سعيد بن أبي صدقة، عن محمَّد بن سيرين قال نُبِّئت أنَّ كعبًا قال: إن قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾: ليس بهارون أخي موسىٰ. قال: فقالت له عائشة: كذبت، قال: يا أم المؤمنين، إن كان النَّبيُّ ﷺ قاله، فهو أعلم وأخبر، وإلَّا فإنِّي أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكتتْ[٢]؛ وفي هذا التَّاريخ نظر.

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ قال: كانت مِن أهل بيتٍ يُعْرَفُون بالصَّلاح، ولا يُعْرَفُون بالفساد، ومن النَّاس من يُعرفون بالصَّلاح ويَتَوَالَدُون به، وآخرون يُعرفون بالفساد ويتوالدون به. وكان هارون مصلحًا محببًا في عشيرته، وليس بهارون أخي موسىٰ، ولكنَّه هارون آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفًا، كلهم يسمىٰ هارون، من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أي: إنَّهم لما استرابوا في أمرها واستَنْكَرُوا قضيَّتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفِرْية، وقد كانت يومها ذلك صائمةً، صامتةً فأحالت الكَلَام عليه، وأشارت لهم إلىٰ خطابه وكلامه، فقالوا مُتَهَكِّمين بها، ظانِّين أنَّها تزدري بهم وتلعب بهم: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾.

قال ميمون بن مِهْران: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾، قالت: كلِّمُوه. فقالوا: علىٰ ما جاءت به من الدَّاهية تأمرنا أن نكلِّم مَن كان في المهد صبيًّا!.

وقال السُّدِّي: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَتُها بنا حين تأمرنا أن نكلِّم هذا الصبي أشدُّ علينا مِن زناها.

﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أي: من هو موجودٌ في مَهْدِه في حال صباه وصِغَرِه، كيف يتكلَّم؟ قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أول شيءٍ تكلَّم به أن نزَّه جناب ربِّه تعالىٰ وبرأ الله عن الوَلَدِ، وأثبت لنفسِهِ العبوديةَ لرَبِّه.

وقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ : تبرئةٌ لأمِّه مما نُسِبت إليه مِن الفَاحِشَةِ.

قال نوف البكالي: لما قالوا لأمِّه ما قالوا، كان يَرْتَضِعُ ثديه، فنزع الثَّدي مِن فمِهِ، واتَّكأَ علىٰ

---

(١) مسلم (٢١٣٥)، والترمذي (٣١٥٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣١٥)، وأحمد(٤/ ٢٥٢).

(٢) رواه الطبري (١٦/ ٧٧)، وفي إسناده انقطاع لقول محمَّد بن سيرين: نُبِّئْتُ. ولم يذكر مَن نبَّأه.

جنبِهِ الأيسر، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(١).

وقال حمَّاد بن سلمة، عن ثابت البُناني: رفع إصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية.

وقال عكرمة: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: قضىٰ أنه يؤتيني الكتاب فيما قضىٰ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن المصفىٰ، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيدٍ، عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان عيسىٰ ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه، فذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(٢).

يحيىٰ بن سعيد العطار الحمصي: متروك.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال مجاهد، وعمرو بن قيس، والثوري: وجعلني معلمًا للخير. وفي روايةٍ عن مجاهد: نَفَّاعًا.

وقال ابن جرير: حدَّثني سليمان بن عبد الجبار، حدَّثنا محمَّد بن يزيد بن خُنَيْس المخزومي، سمعت وُهَيْب بن الورد مولىٰ بني مخزوم قال: لقي عالمٌ عالمًا هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله، ما الذي أعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلىٰ عباده، وقد أجمع الفقهاء علىٰ قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أينما كان.

وقوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالىٰ لمحمَّدٍ ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قال: أخبره بما هو كائنٌ مِن أمرِهِ إلىٰ أن يموت، ما أثبتَها لأهلِ القدر.

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي: وأمرني ببرِّ والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربِّه؛ لأنَّ الله تعالىٰ كثيرًا ما يَقْرِن بين الأمر بعبادته وطاعة الوَالِدَيْن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني جبَّارًا مستكبرًا عن عبادته وطاعته وبِرِّ والدتي، فأشقىٰ بذلك.

قال سفيان الثَّوري: الجبَّار الشَّقي: الَّذي يقبل علىٰ الغَضَب.

وقال بعض السَّلف: لا تجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبَّارًا شقيًّا، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ

(١) ضعيف: ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨٠)، وعزاه إلىٰ عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» لأنَّه عن نوف البكالي.

(٢) ضعيف جدًّا: فيه يحيىٰ بن سعيد العطَّار: متروك. رواه ابن أبي حاتم.

يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾، قال: ولا تجد سيئ الملكة(١) إلا وجدته مختالًا فخورًا، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال قتادة: ذكر لنا أنَّ امرأةً رَأَتْ ابنَ مريم يُحْيِي الموتىٰ ويُبْرِئُ الأكمه والأبرص، في آياتٍ سلَّطه الله عليهنَّ، وأُذِن له فيهنَّ، فقالت: طوبىٰ للبَطْنِ الَّذي حملك وللثَّدْي الَّذي أرضعت به، فقال نبيُّ الله عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُجِيبُها: طوبىٰ لمن تلا كلام الله، فاتَّبع ما فيه ولم يكن جبَّارًا شقيًّا(٢).

وقوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ : إثباتٌ منه لعبوديته لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّه مخلوقٌ مِن خلق الله يَحيَا ويمُوت ويُبعث كسائر الخلائق، ولكن له السَّلامة في هذه الأحوال التي هي أشقُّ ما يكون علىٰ العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله محمَّد ﷺ: ذلك الذي قصصنا عَلَيْك مِن خبر عيسىٰ ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به؛ ولهذا قرأ الأكثرون: «قول الحق» برَفْعِ «قول». وقرأ عاصم، وعبد الله بن عامر: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾(٣).

وعن ابن مسعود أنه قرأ: «ذلك عيسىٰ ابن مريم قَالَ الحقَّ»(٤)، والرَّفع أظهر إعرابًا، ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

ولما ذكر تعالىٰ أنَّه خلقه عبدًا نبيًّا، نزَّه نفسه المقدَّسة فقال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ أي: عمَّا يقول هؤلاء الجاهِلُون الظَّالمون المعتدون علوًّا كبيرًا، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد شيئًا فإنَّما يأمر به، فيَصِير كما يشاء، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي: وممَّا أمر عيسىٰ به قومه وهو في مهدِهِ، أن أخبرهم إذ ذاك أنَّ الله ربهم وربه، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي: هذا الَّذي جئتكم به عن الله صراطٌ مستقيمٌ؛ أي: قَوِيم، من اتَّبعه رَشَد وهُدِيَ، ومَن خالَفَهُ ضلَّ وغوىٰ.

---

(١) سيِّئ المَلَكة: هو الَّذي يسيءُ صحبةَ المَماليك.

(٢) رواه الطبري (١٦/ ٨٢)، وهو غيرُ صحيح لقول قتادة: ذكر لنا، ولم يذكر سنده.

(٣) متواترة: قَرَأَ (قَوْلَ) ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالشَّنَبُوذِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (قَوْلُ).

(٤) قراءة: قَرَأَ (قَالُ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَسَبَقَ مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ قَبْلُ.

وقوله: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾ أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسىٰ بعد بيان أمرِهِ ووضوح حالِهِ، وأنَّه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروحٌ منه، فصَمَّمَت طائفةٌ -وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله- علىٰ أنَّه وَلَدُ زنْيَةٍ، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرىٰ: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أَرْشَد اللهُ إليه المؤمنين. وقد رُوي نحو هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحدٍ من السَّلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسىٰ حين رُفِعَ، فقال أحدهم: هو اللهُ هبط إلىٰ الأرض فأحيَا مَن أحيا، وأمَاتَ مَن أمات، ثم صعد إلىٰ السماء -وهم اليعقوبية. فقال الثَّلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل أنت فيه، قال: هو ابن الله -وهم النَّسطُوريَّة. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله -وهم الإسرائيلية ملوك النَّصارىٰ، عليهم لعائن الله. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته، وهم المسلمون. فكان لكلٍّ رجل منهم أتباعٌ علىٰ ما قالوا، فاقتتلوا فظُهِرَ علىٰ المسلمِينَ، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] وقال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾ قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزابًا.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم، عن ابن عبَّاس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريبًا مِن ذلك. وقد ذكر غير واحدٍ مِن علماء التَّاريخ مِن أهل الكِتَاب وغيرهم: أنَّ قسطنطين جمعهم في محفلٍ كبيرٍ مِن مجامعهم الثَّلاثة المشهورة عندهم، فكانَ جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفًا، فاختلفوا في عيسىٰ ابن مريم عليه السلام اختلافًا متباينًا، فقالت كل شرذمةٍ فيه قولًا فمائةٌ تقول فيه قولًا، وسبعون تقول فيه قولًا آخر، وخمسون تقول فيه شيئًا آخر، ومائةٌ وستُّون تقول شيئًا، ولم يجتمع علىٰ مقالةٍ واحدةٍ أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتَّفقوا علىٰ قولٍ وصَمَّموا عليه ومال إليهم الملك، وكان فيلسوفًا، فقدَّمهم ونصرهم وطرَد مَن عداهم، فوَضَعُوا له الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانةُ العظيمةُ، ووضعوا له كتب القوانين، وشرَّعوا له أشياء وابتدعوا بدعًا كثيرةً، وحَرَّفوا دين المسيح، وغيَّروه، فابتنىٰ حينئذٍ لهم الكنائس الكبار في مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قُمامة[1] علىٰ المكان الذي صُلِب فيه المصلوب الَّذِي تزعم اليهود والنَّصارىٰ أنَّه المسيح، وقد كَذَبُوا، بل رفعه الله إلىٰ السَّماء.

---

(١) القُمامةُ: الدير.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أنَّ له ولدًا. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القِيامةِ وأَجَّلَهُم حلمًا وثقةً بقدرته عليهم؛ فإنَّه الَّذي لا يعجل على مَن عصاه، كما جاء في «الصحيحين»: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

وفي «الصَّحيحين» أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أَحَدَ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٢). وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]؛ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة، وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» (٣).

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾

يقول تعالى مخبرًا عن الكفَّار يوم القيامة أنَّهم أسمَعُ شيءٍ وأبصَرُه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] أي: يقُولُون ذلك حين لا ينْفعُهُم ولا يُجْدِي عنهم شيئًا، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعًا لهم ومنقذًا من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدُّنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعْقِلُون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: أنذر الخلائق يومَ الحسرة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فصل بين أهل الجنَّة وأهل النَّار، ودَخل كلٌّ إلى ما صار إليه مخلَّدًا فيه، ﴿وَهُمْ﴾ أي: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أُنذِرُوا به ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصَدقون به.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن عبيد، حدَّثنا الأعمش، عن أبي صالحٍ، عن أبي سعيد

(١) صحيح: تقدم عند تفسير الآيات (١٢٥ - ١٢٨) من سورة البقرة.
(٢) صحيح: تقدم عند تفسير الآية (١١٧) من سورة البقرة.
(٣) البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، يُجَاءُ بِالمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟» قال: «فَيَشْرَئِبُّونَ فَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ». قال: «فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟» قال: «فَيَشْرَئِبُّونَ فَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ» قال: «فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ» قال: «وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده قال: «أَهْلُ الدُّنْيَا فِي غَفْلَةِ الدُّنْيَا» (١).

هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، من حديث الأعمش به. ولفظهما قريبٌ من ذلك. وقد روىٰ هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدَّثني أسباط بن محمَّد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعًا، مثله. وفي «سنن ابن ماجه» وغيره، من حديث محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة (٢) بنحوه، وهو في «الصحيحين» عن ابن عمر (٣). ورواه ابن جُرَيْج قال: قال ابن عبَّاس: فذكر من قبله نحوه (٤). ورواه أيضًا عن أبيه أنَّه سمع عبيد بن عمير يقول في قصصه: يؤتىٰ بالموت كأنه دابةٌ، فيذبح والناس ينظرون (٥). وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كُهَيل، حدَّثنا أبو الزعراء، عن عبد الله -هو ابن مسعود- في قصةٍ ذكرها، قال: فليس نفسٌ إلا وهي تَنْظُر إلىٰ بيتٍ في الجنة وبيتٍ في النار، وهو يوم الحسرة. فيرىٰ أهلُ النَّار البيت الذي كان قد أعدَّه الله لهم لو آمَنُوا، فيقال لهم: لو آمَنْتُم وعَمِلْتُم صالحًا، كان لكم هذا الَّذِي تَرَوْنَه في الجنَّة، فتأخذهم الحسرة، قال: ويرىٰ أهل الجنَّة البيت الذي في النار، فيُقَال: لولا أن مَنَّ الله عليكم (٦)...

وقال السُّدِّي، عن زياد، عن زِرِّ بن حُبَيْش، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قال: إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، أُتِيَ بالموت في صورة كبشٍ أملحَ، حتىٰ يوقف بين الجنَّة والنَّار، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنَّة، هذا الموت الذي كان يُميتُ النَّاس في الدُّنيا، فلا يبقىٰ أحدٌ في أهل عِلِّيِّين ولا في أسفل درجةٍ في الجنَّة إلا نظر إليه، ثم ينادىٰ: يا أهل النَّار، هذا الموت الَّذِي كان يميت النَّاس في الدنيا، فلا يبقىٰ أحدٌ في ضحضاحٍ من نارٍ ولا في أسفل دركٍ مِن جهنَّم إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنَّة والنَّار، ثم ينادىٰ: يا أهل الجنَّة، هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النَّار، هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنَّة فرحةً لو كان أحدٌ ميتًا مِن فرحٍ ماتوا، ويشهق

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٩)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) انظر ابن ماجه (٤٣٢٧). (٣) البخاري (٦٥٤٤)، ومسلم (٢٨٥٠).

(٤) رواه الطبري (١٦/ ٨٨) وفي سنده انقطاع، لكن يشهد لصِحَّتِه الرِّوايات المذكورة في تفسير الآية.

(٥) رواه الطبري (١٦/ ٨٨).

(٦) رواه الطبري (١٦/ ٨٧)، وإسناده صحيح.

أهل النَّار شهقةً لو كان أحدٌ ميِّتًا من شهقةٍ ماتوا، فذلك قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يقول: إذا ذبح الموت[١]. رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره».

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة عظَّمه الله وحذَّره عباده.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يخبر تعالىٰ أنَّه الخالق المالك المتصرِّف، وأنَّ الخلق كلَّهم يهلكون ويبقىٰ هو، تعالىٰ وتقدَّس ولا أحد يَدَّعي مُلْكًا ولا تصرفًا، بل هو الوارِث لجميعِ خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تُظْلَم نفسٌ شيئًا ولا جناح بعوضةٍ ولا مثقال ذرةٍ.

قال ابن أبي حاتم: ذكر هدبة بن خالد القيسي: حدَّثنا حزم بن أبي حزم القُطَعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب علىٰ خَلْقِه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصَّادق الَّذِي حفظه بعلمِهِ، وأشهد ملائكته علىٰ خلقِهِ: أنَّه يرث الأرض ومَن عليها، وإليه يرجعون.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: واذكر في الكتاب إبراهيم واتلُه علىٰ قومِكَ، هؤلاء الَّذِين يعبدون الأصنام، واذكُر لهم ما كان مِن خبر إبراهيم خليل الرحمن الَّذِين هُم مِن ذرِّيَّته، ويدَّعون أنَّهم علىٰ مِلَّته، وهو كان صدِّيقًا نبيًّا -مع أبيه- كيف نهاه عن عِبادَةِ الأصنام فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضررًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: فإن كنت من صلبك وترىٰ أني أصغر منك؛ لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله علىٰ ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقًا مستقيمًا موصلًا إلىٰ نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلىٰ ذلك، والراضي به، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] وقال:

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم، وهو شاهدٌ للرِّواية السَّابقة.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي: مخالفًا مستكبرًا عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تَصِرْ مثله.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: علىٰ شركِك وعصيانِك لما آمرك به، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولًىٰ ولا ناصرًا ولا مغيثًا إلا إبليس، وليس إليه ولا إلىٰ غيره من الأمر شيءٌ، بل اتِّباعك له مُوجِبٌ لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالىٰ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فَانْتَهِ عن سبِّها، وشَتْمِها، وعَيْبِها، فإنَّك إن لم تَنْتَهِ عن ذلك اقتصصتُ منك وشَتَمْتُك، وسَبَبْتُك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عبَّاس، والسُّدِّي، وابن جريج، والضَّحَّاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾: قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمَّد بن إسحاق: يعني دهرًا. وقال الحسن البصري: زمانًا طويلًا. وقال السُّدِّي: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ قال: أبدًا. وقال علي ابن أبي طلحة، والعوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ قال: سويًّا سالمًا، قبل أن تصيبك مني عقوبةٌ. وكذا قال الضَّحَّاك، وقتادة، وعطية الجَدَلي، وأبو مالك، وغيرهم، واختاره ابن جرير.

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالىٰ في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ومعنىٰ قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ يعني: أمَّا أنا فلا ينالك منِّي مكروهٌ ولا أذًىٰ، وذلك لحُرْمَة الأبوَّة، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ أي: ولكن سأسأل الله تعالىٰ فيك أن يهديَك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ قال ابن عبَّاس وغيره: لطيفًا؛ أي: في أنْ هداني لعبادته والإخلاص له، وقال مجاهد وقتادة، وغيرهما: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ قال: وعوَّده الإجابة.

وقال السُّدِّي: «الحفي»: الَّذِي يهْتم بأمره.

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدَّةً طويلةً، وبعد أن هاجر إلىٰ الشَّام وبنىٰ المسجد الحرام، وبعد أن

وُلِد له إسماعيل وإسحاق -عليهما السلام- في قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقد استغفر المسلمون لقَرَاباتِهِم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداءً بإبْرَاهِيم الخليل في ذلك حتىٰ أنزل الله تعالىٰ: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، يعني: إلا في هذا القولِ، فلا تتَأَسَّوْا به. ثم بيَّن تعالىٰ أن إبراهيم أَقْلَع عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أي: أَجْتَنِبُكُم وأتبرأُ منكم ومن آلهتِكُم الَّتِي تعبدونها مِن دون الله، ﴿ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أي: وأعبد رَبِّي وحده لا شريك له، ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ و «عسىٰ» هذه موجبةٌ لا محالة، فإنه عليه السلام سيِّد الأنبياء بعد محمَّدٍ ﷺ.

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول: فلمَّا اعتزل الخليل أباه وقومَهُ في الله، أبدلَهُ الله مَن هو خيرٌ منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب؛ يعني: ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

ولا خلاف أنَّ إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب؛ أي: جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياءَ، أقرَّ الله بهم عينَهُ في حياته؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ ، فلَوْ لَمْ يكُنْ يعقوب قد نُبِّئَ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنَّه نبي أيضًا كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتَّفق علىٰ صحَّته، حين سئل عن خَيْرِ الناس، فقال: «يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ، ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ إِسْحَاقَ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ» وفي اللفظ الآخر: «إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»(١) .

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ : قال علي بن أبي طلحة، عن ابن

---

(١) صحيح: تقدَّم. انظر تفسير الآية (٤) من سورة يوسف.

عبَّاس: يعني الثَّناء الحسن. وكذا قال السُّدِّي، ومالك بن أنس.

وقال ابن جرير: إنَّما قال: ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأنَّ جميع المِلَلِ والأديان يُثْنُون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ إبراهيم الخليل وأثنىٰ عليه، عطف بذكر الكَلِيم، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام(1)، من الإخلاص في العِبَادة. قال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن أبي لبابة قال: قال الحواريون: يا رُوحَ الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الَّذِي يَعْمَلُ لله، لا يُحِبُّ أن يحمدَهُ النَّاس. وقرأ الآخرُون بفتْحِها، بمعنىٰ أنَّه كان مصطفًىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾، جُمِع له بين الوَصْفَيْن، فإنَّه كان من المرسلين الكبار أولي العَزْم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمَّد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلىٰ سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: الجبل ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي: مِن جانبه الأيمن من موسىٰ حين ذهب يبتغي مِن تلك النَّار جذوةً، رآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطُّور الأيمن منه، عند شاطئ الوادي. فكلَّمه الله تعالىٰ، نَادَاه وقرَّبه وناجاه.

قال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا يحيىٰ -هو القطان- حدَّثنا سفيان، عن عطاء بن السَّائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ قال: أُدْنِي حتىٰ سَمَعَ صريفَ القلم(2). وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صَرِيفَ القَلَمِ بكتابة التَّوراة. وقال السُّدِّي: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ قال: أدخل في السَّماء فكلم، وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ قال: نجا بصدقه.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عبد الجبار بن عاصم، حدَّثنا محمَّد بن سلمة الحراني، عن أبي الوصل، عن شهر بن حَوْشَب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسىٰ نجيًّا بطور سيناء، قال: يا موسىٰ، إذا خلقت لك قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجةً تُعِينُ علىٰ الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئًا، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخَيْر شيئًا(3).

---

(1) متواترة: قَرَأَ (مُخْلَصًا) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مُخْلِصًا).

(2) رواه الطبري (١٦/ ٩٤)، وإسناده صحيح.

(3) عزاه لابن أبي حاتم، وفيه شهر بن حوشب: كثيرُ الأوهام والإرسال.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبيًّا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٣، ١٤]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعةً في الدنيا أعظم من شفاعة موسىٰ في هارون أن يكون نبيًّا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾.

قال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عبَّاس: قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾، قال: كان هارونُ أكبرَ من موسىٰ، ولكن أراد، وهبَ له نبوَّته، وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقًا، عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقي به[(١)].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

هذا ثناءٌ من الله تعالىٰ علىٰ إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليهما السلام- وهو والد عرب الحجاز كلِّهم بأنَّه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾.

قال ابن جريج: لم يَعِدْ ربه عدةً إلا أنجزها؛ يعني: ما التزم قطُّ عبادةً بنذرٍ إلَّا قام بها، ووفَّاها حقَّها.

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حدثه، أنَّ إسماعيل النَّبيَّ ﷺ وعد رجلًا مكانًا أن يأتيه، فجاء ونَسِيَ الرَّجل، فظلَّ به إسماعيل وبات حتىٰ جاء الرَّجل من الغد، فقال: ما بَرِحْتُ من هاهنا؟ قال: لا. قال: إني نسيت. قال: لم أكن لأبرح حتىٰ تأتيني. فلذلك ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[(٢)].

وقال سفيان الثوري: بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولًا حتىٰ جاءه. وقال ابن شَوْذَب: بلَغَنِي أنَّه اتَّخذ ذلك الموضع سكنًا. وقد روىٰ أبو داود في «سننه»، وأبو بكر محمَّد بن جعفر الخرائطي في كتابه «مكارم الأخلاق» من طريق إبراهيم بن طَهْمَان، عن عبد الله بن مَيْسَرة، عن عبد الكريم -يعني: ابن عبد الله بن شَقيق- عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقِيَت له عليَّ بقيَّةٌ، فوعدته أن آتِيه بها في مكانِهِ ذلك، قال: فنَسِيتُ يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لي: «يَا فَتَىٰ، لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ، أَنَا هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثٍ

(١) **عزاه السيوطي** في «الدر المنثور» (٤/ ٢٧٣) إلىٰ ابن أبي حاتم.
(٢) رواه الطبري (١٦/ ٩٥)، ولم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، ومثل هذه الآثار لا يُعتَمَد عليها إلَّا إذا اتَّصلت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه ممَّا لا يُقال بالرأي.

أَنْتَظِرُكَ» (١) لفظ الخرائطي، وساق آثارًا حسنةً في ذلك.

ورواه ابن مَنْده أبو عبد الله في كتاب «معرفة الصحابة»، بإسناده عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن بُدَيْل بن ميسرة، عن عبد الكريم به. وقال بعضهم: إنَّما قيل له: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾؛ لأنَّه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصَدَق في ذلك. فصِدْقُ الوعد من الصِّفات الحميدة، كما أنَّ خُلْفَه من الصِّفات الذَّميمة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» (٢).

ولما كانت هذه صِفَات المنافقين، كان التَّلَبُّس بضدِّها مِن صفات المؤمنين، ولهذا أثْنَىٰ الله علىٰ عبده ورسوله إسماعيل بصِدْق الوَعْدِ، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضًا، لا يعد أحدًا شيئًا إلا وفَّىٰ له به، وقد أَثْنَىٰ علىٰ أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَّىٰ لِي» (٣). ولما توفي النَّبيُّ ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: من كان له عند رسول الله ﷺ عِدَةٌ أو دَيْنٌ فلْيأتِني أُنْجزْ له، فجاءه جابر بن عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال: «لَوْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا»، يعني: ملء كفيه، فلما جاء مالُ البحرين أمر الصِّدِّيقُ جابرًا، فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعَدِّه، فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مِثْلَيْهَا معها (٤).

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ في هذا دلالة علىٰ شرف إسماعيل علىٰ أخيه إسحاق؛ لأنَّه إنَّما وصف بالنُّبوَّة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ...» (٥) وذكر تمام الحديث، فدلَّ علىٰ صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ هذا أيضًا من الثَّناء الجميل، والصِّفة الحميدة، والخُلَّة السَّدِيدَة، حيث كان مثابرًا علىٰ طاعة ربه آمرًا بها لأهله، كما قال تعالىٰ لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ الآية [التحريم: ٦] أي: مُرُوهُم بالمعروف، وانْهَوْهُم عن المنكر، ولا تدعوهم هملًا فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (٤٩٩٦)، وابن منده في «معرفة الصحابة» (٦/ ٤٠٩٠ - بتحقيقي)، وفيه عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق: مجهول كما في «التقريب».

(٢) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٢٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به.

(٣) البخاري (٣١١٠، ٣٧٢٩)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٤) البخاري (٢٢٩٦)، ومسلم (٢٣١٤).

(٥) رواه مسلم (٢٢٧٦) مطولًا دون هذه الجملة، فهي زيادة في رواية أحمد (٤/ ١٠٧)، وفيها محمد بن مصعب، قال الحافظ: صدوق كثير الغلط، وانظر تفسيره الآية (١٢٣، ١٢٤) من سورة الأنعام.

فَصَلَّىٰ، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَىٰ نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»(١) أخرجه أبو داود، وابن ماجه.

وعن أبي سعيدٍ، وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»(٢). رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، واللفظ له.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

وهذا ذكر إدريس عليه السلام بالثَّناء عليه، بأنه كان صدِّيقًا نبيًّا، وأنَّ الله رفعه مكانًا عليًّا. وقد تقدَّم في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ مرَّ به في ليلة الإسراء وهو في السَّماء الرابعة(٣).

وقد روىٰ ابن جريرٍ هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا، فقال: حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ، أنبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شَمِر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عبَّاس كعبًا، وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله عز وجل لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فقال كعب: أمَّا إدريس، فإنَّ الله أوحىٰ إليه أنِّي أرفع لك كلَّ يومٍ مثل عمل جميع بني آدم، فأَحَبَّ أن يزداد عملًا فأتاه خليلٌ له من الملائكة فقال: إنَّ الله أوحىٰ إليَّ كذا وكذا، فكلِّم لي ملك الموت، فَلْيُؤَخِّرْني حتىٰ أزدادَ عملًا فحمله بين جناحيه، حتىٰ صعد به إلىٰ السَّماء، فلما كان في السَّماء الرابعة تلقَّاهم مَلَك الموت منحدرًا، فكلَّم ملك الموت في الَّذي كلَّمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو ذا عَلَىٰ ظهري. قال ملك الموت: فالعجب! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السَّماء الرابعة. فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السَّماء الرَّابعة، وهو في الأرض؟ فقبَضَ رُوحَه هناك، فذلك قول الله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(٤).

هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفي بعضه نكارةٌ، والله أعلم.

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجهٍ آخر، عن ابن عبَّاس: أنَّه سأل كعبًا، فذكر نحو ما تقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله -يعني: ملك الموت- كم بَقِيَ مِن أَجَلِي لكي أزدادَ مِن العمل وذكر باقيه، وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال: لا أدري حتىٰ أنظر، ثم نظر، قال: إنك تسألني عن رجلٍ ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظَر الملك تحت جناحه إلىٰ إدريس، فإذا هو قد قبض عليه السلام وهو لا يشعرُ به.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٣٠٨) (١٤٥٠)، وابن ماجه (١٣٣٦).

(٢) حسن: رواه أبو داود (١٣٠٨، ١٤٥٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٣١)، وابن ماجه (١٣٣٥).

(٣) انظر أوَّل سورة الإسراء.

(٤) رواه الطبري (١٦/ ٩٦)، وفي المتن نكارة كما قال ابن كثير رحمه الله.

ثمَّ رواه من وجه آخر عن ابن عبَّاس: أن إدريس كان خيَّاطًا، فكان لا يغرز إبرةً إلا قال: «سُبْحَانَ اللهِ»، فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحدٌ أفضل عملًا منه. وذكر بقيته كالذي قبله، أو نحوه. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: إدريس رُفِع ولم يمُت، كما رفع عيسىٰ. وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: رفع إلىٰ السَّماء الرَّابعة. وقال العوفي عن ابن عبَّاس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: رُفِع إلىٰ السَّماء السَّادسة فمات بها[1]. وهكذا قال الضَّحَّاك بن مُزاحم. وقال الحسن، وغيره، في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: الجنَّة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: هؤلاء النَّبيُّون -وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السُّورة فقط، بل جنس الأنبياء -عليهم السلام-، استطرد من ذكر الأشخاص إلىٰ الجنس- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ الآية قال السُّدِّي وابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالذي عنىٰ به مِن ذرية آدم: إدريس، والَّذي عنىٰ به من ذرية مَن حملنا مع نوح: إبراهيم والَّذي عنىٰ به مِن ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنىٰ به من ذرية إسرائيل: موسىٰ، وهارون، وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ ابن مريم.

قال ابن جرير: ولذلك فرَّق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأنَّ فيهم مَن ليس مِن ولدِ مَن كان مع نوح في السَّفينة، وهو إدريس، فإنَّه جدُّ نوح.

قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح - عليهما السلام-. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذًا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه علىٰ النَّبيِّ ﷺ: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالأَخِ الصَّالِحِ»، ولم يقل: «والوَلَدِ الصَّالح»، كما قال آدم وإبراهيم - عليهما السلام -.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن محمَّد؛ أن إدريس أقدم من نوح، بعثه الله إلىٰ قومه فأمرهم أن يقولوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، ويعملوا ما شاءوا فأبوا، فأهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ.

ومما يؤيِّد أنَّ المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٦/ ٩٦)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، وهذا مخالِفٌ لما تقدَّم أنَّه في السَّماء الرَّابعة.

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام ٨٣-٩٠] وقال تعالىٰ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨]. وفي «صحيح البخاري»، عن مجاهد: أنه سأل ابن عبَّاس: أفي ﴿صٓ ﴾ سجدة؟ قال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾، فنبيُّكم ممن أُمِر أن يَقْتَدِي بهم، قال: وهو منهم؛ يعني: داود(١).

وقال الله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ أي: إذا سمعوا كلامَ الله المتضمِّن حُجَجه ودلائله وبراهينه، سجَدُوا لربِّهم خضوعًا واستكانةً، وحمدًا وشكرًا علىٰ ما هم فيه من النِّعم العظيمة.

«والبُكيُّ»: جمع باكٍ، فلهذا أجمعَ العلماء علىٰ شرعيَّة السُّجود هاهنا، اقتداءً بهم، واتِّباعًا لمنوالهم.

قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمَر قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم، فسَجَدَ وقال: هذا السُّجود، فأين البُكِي؟ يريد البكاء(٢).

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وسَقَط من روايته ذكر «أبي معمر» فيما رأيت، والله أعلم.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالىٰ حزبَ السُّعداء، وهم الأنبياء -عليهم السلام- ومن اتَّبعهم مِن القائمين بحدُودِ الله وأوامِره، المؤدِّين فرائض الله، التَّاركين لزواجره -ذكر أنَّه ﴿خَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾(٣) أي: قرون أخر، ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ - وإذا أضاعوها فهم لما سِوَاها من الوَاجِبَات أضيع؛ لأنها عماد الدِّين وقوامه، وخير أعمال العباد -وأقبلوا علىٰ شهوات الدُّنيا وملاذِّها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا؛ أي: خَسَارًا يوم القيامة.

وقد اختلفوا في المراد بإضاعةِ الصَّلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تَرْكُها بالكلية، قاله محمَّد بن كعب القُرَظي، وابن زيد بن أسلم، والسُّدِّي، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السَّلف والخلف والأئمَّة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلىٰ تكفير تاركِ الصلاة، للحديث: «بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»(٤)، والحديث الآخر: «العَهْدُ الَّذِي

---

(١) البخاري (٤٦٣٢). (٢) رواه الطبري (١٦/ ٩٨)، وإسناده صحيح.

(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله: الخلف: بإسكان اللام خلف سوء وبفتحها خلف خير وصلاح.

(٤) مسلم (٨٢)، والترمذي (٢٦١٨ - ٢٦٢٠).

بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[(١)]. وليس هذا محلَّ بسطِ هذه المسألة.

وقال الأوزاعي، عن موسىٰ بن سليمان، عن القاسم بن مُخَيمرة في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، قال: إنَّما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركًا كان كفرًا[(٢)].

وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن، والحسن بن سعد، عن ابن مسعود أنَّه قيل له: إنَّ الله يكثر ذكر الصَّلاة في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾، و﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، و﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾! قال ابن مسعود: علىٰ مواقيتها. قالوا: ما كنَّا نرىٰ ذلك إلا علىٰ التَّرك! قال: ذاك الكفر[(٣)].

وقال مسروق: لا يحافظ أحدٌ علىٰ الصلوات الخمس، فيُكْتَب من الغافلين، وفي إفراطهنَّ الهلكةُ، وإفراطهن: إضاعتهن عن وَقْتِهِنَّ. وقال الأوزاعي، عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعُوا الوقت. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ قال: عند قيام السَّاعة، وذهاب صالحي أمة محمَّدٍ ﷺ، ينزُو بعضُهم علىٰ بعضٍ في الأزقَّة، وكذا روىٰ ابن جُرَيج، عن مجاهد مثله.

وروىٰ جابر الجُعْفِي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح: أنَّهم مِن هذه الأمَّة، يعنون: في آخر الزَّمان.

وقال ابن جرير: حدَّثني الحارث، حدَّثنا الحسن الأشيب، حدَّثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، قال: هم في هذه الأمة، يتراكبون تراكُب الأنعام والحمر في الطرق، لا يخافون الله في السَّماء، ولا يستحيُون النَّاسَ في الأرضِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنان الواسطي، حدَّثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدَّثنا حيوة، حدَّثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني: أن الوليد بن قيس حدَّثه، أنَّه سَمِعَ أبا سعيدٍ الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَكُونُ خَلْفٌ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً، أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا. ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ. وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلاثَةٌ: مُؤْمِنٌ، وَمُنَافِقٌ، وَفَاجِرٌ**». قال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمنٌ به، والمنافق

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٢١)، والنَّسائي (١/ ٢٣١)، وابن ماجه (١٠٧٢).

(٢) رواه الطبري (١٦/ ٩٩).

(٣) رواه الطبري (١٦/ ٩٩)، وعزاه السيوطي إلىٰ ابن أبي حاتم. قلتُ: ولا يضرُّ اختلاط المسعودي؛ فالرَّاوي عنه وكيع، وقد رَوىٰ عنه قبل الاختلاط فصَحَّ الإسناد. إلا أنَّ طريق الطَّبري من طريق ابن وكيع وفيه ضعف، فإن كان قد تُوبع في رواية ابن أبي حاتم فالأثرُ صحيح.

كافرٌ به، والفاجر يأكل به[١]. وهكذا رواه أحمد عن أبي عبد الرحمن المقرئ به.

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثني أبي، حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، أنبأنا عيسىٰ بن يونس، حدَّثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن مَوْهَب، عن مالكٍ، عن أبي الرجال، أن عائشة كانت ترسل بالشَّيء صدقة لأهل الصُّفَّة، وتقول: لا تعطوا منه بربريًّا ولا بربريَّةً، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هُمُ الخَلْفُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»[٢]. هذا حديثٌ غريبٌ.

وقال أيضًا: حدَّثني أبي، حدَّثنا عبد الرحمن بن الضَّحَّاك، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا حَرِيز، عن شيخٍ مِن أهل المدينة؛ أنَّه سمع محمَّد بن كعبٍ القُرَظِي يقول في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب، يملكون وهم شر من ملك.

وقال كعب الأحبار: والله إنِّي لأجِدُ صفة المنافقين في كتاب الله ﷻ: شرَّابين للقهوات[٣] ترَّاكين للصَّلوات، لعَّابين بالكعبات، رقادين عن العَتْمَات، مفرِّطين في الغدوات، ترَّاكين للجُمُعَات قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾.

وقال الحسن البصري: عطَّلوا المساجد، ولزِمُوا الضَّيْعَات.

وقال أبو الأشهب العُطَارِدي: أوحىٰ الله -تعالىٰ- إلىٰ داود: يا داود، حَذِّر وأنذر أصحابك أكلَ الشَّهوات؛ فإنَّ القلوب المعلَّقة بشهوات الدُّنيا عقولها عنِّي محجوبةٌ، وإنَّ أهون ما أصنع بالعبد مِن عبيدي إذا آثر شهوةً مِن شهواته عليّ أن أحرمه طاعتىٰ.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا زيد بن الحباب، حدَّثنا أبو السَّمح التميمي، عن أبي قبيل، أنه سمع عقبة ابن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي اثْنَتَيْنِ: القُرْآنَ وَاللَّبَنَ، أَمَّا اللَّبَنُ فَيَتَّبِعُونَ الرِّيفَ وَيَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَيَتْرُكُونَ الصَّلَوَاتِ، وَأَمَّا القُرْآنُ فَيَتَعَلَّمُهُ المُنَافِقُونَ، فَيُجَادِلُونَ بِهِ المُؤْمِنِينَ». ورواه عن حسن بن موسىٰ، عن ابن لهيعة، حدَّثنا أبو قبيل، عن عقبة، به مرفوعًا بنحوه تفرد به[٤].

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي: خسرانًا[٥]. وقال قتادة: شرًّا. وقال سفيان الثوري، وشعبة، ومحمَّد بن إسحاق، عن أبي إسحاق

---

(١) رجاله ثقات غير الوليد بن قيس، قال الحافظ: مقبول، والحديث رواه أحمد (٣/ ٣٨)، وابن حبَّان (٣٧٥)، وله طريق أخرىٰ نحوه، وفي إسناده.عنده ابن لهيعة [انظر: «الصحيحة» للألباني (٢٥٨)] وبه يتقوَّىٰ الحديث.

(٢) منقطع، وفيه ضعف:أخرجه الحاكم (٢/ ٢٤٤)، وصححه وتعقبه الذهبي، وفي الإسناد عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب: ضعيف، وقال مالك: لا أعرفه، وعلىٰ كلٍّ فالإسناد منقطع فإن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن بن حارثة روايته عن عائشة منقطعة.

(٣)القهوات: جمعُ قهوة، وهي: الخمرُ.

(٤) ضعيف:رواه أحمد (٤/ ١٥٥)، ورجاله ثقات غير أبي قبيل: صدوق يهم كما في «التقريب»، والحديث رواه أحمد من طريق أخرىٰ (٤/ ١٥٥) عن أبي قبيل به نحوه، وفي إسناده ابن لهيعة: اختلط، لكن بمجموع الطرق يتقوَّىٰ الحديث.

(٥)رواه الطبري (١٦/ ١٠٠) وفي إسناده انقطاع.

السَّبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: وادٍ في جهنم، بعيد القعر، خبيث الطَّعم[١]. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: وادٍ في جهنَّم مِن قيحٍ ودَمٍ[٢].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثني عبَّاس بن أبي طالب، حدَّثنا محمَّد بن زياد بن زيان، حدَّثنا شرقي بن قطامي، عن لقمان بن عامر الخزاعي قال: جئت أبا أمامة صُدَيَّ بن عَجْلان الباهلي فقلت: حدِّثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ صَخْرَةً زِنَةَ عَشْرِ أَوَاقٍ قُذِفَ بِهَا مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ، مَا بَلَغَتْ قَعْرَهَا خَمْسِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ تَنْتَهِي إِلَىٰ غَيٍّ وَآثَامٍ». قال: قلت: وما غي وآثام؟ قال: «بِئْرَانِ فِي أَسْفَلِ جَهَنَّمَ، يَسِيلُ فِيهِمَا صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ، وَهُمَا اللَّتَانِ ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وَقَوْلُهُ فِي الفُرْقَانِ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾»[٣] هذا حديثٌ غريبٌ ورفعه منكرٌ.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، أي: إلا مَن رجع عن ترك الصَّلوات واتِّباع الشَّهوات، فإنَّ الله يقبل توبَتَهُ، ويحسن عاقِبَتَهُ، ويجعله مِن ورثَةِ جنَّة النَّعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ وذلك لأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، وفي الحديث الآخر: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ»[٤]؛ ولهذا لا يُنْقص هؤلاء التَّائبون مِن أعمالهم الَّتي عملوها شيئًا، ولا قُوبِلُوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأنَّ ذلك ذهب هَدَرًا وترك نسيًا، وذهب مَجَّانًا، من كرم الكريم، وحِلم الحَليم.

وهذا الاستثناء هاهنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

---

(١) رواه الطبري (١٦/ ١٠٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٤٧٠ - ٤٧١) من طرق عن أبي إسحاق به، ورجاله ثقات إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من ابن مسعود. ورواه الحاكم (٢/ ٣٧٤) وصحَّحه، ووافقه الذَّهبي.

(٢) رواه هناك في «الزهد» (٢٧٦)، وأبو نعيم في «زيادات الزهد» (٣٣٣).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١٦/ ١٠٠)، وفي إسناده شرقي بن قطامي قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٢٦٨): له نحو عشرة أحاديث منكرة، وفيه محمَّد بن زياد أورده ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٨) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً لكنَّه قال: - يعني ابن زياد -: رأيتُ شرقي ولم أسمع منه.
قلت: والحديث ثابت بلفظ آخر نحوه دون ذلك الأثام والغي، انظر «صحيح الجامع» (٥١٢٤).

(٤) ضعيف: رواه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وفيه انقطاع، انظر: «الضعيفة» للألباني (٦١٥).

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: الجنَّات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أي: إقامة ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ بظهر الغَيْب؛ أي: هي من الغَيْب الَّذِي يُؤْمِنُون به وما رَأَوْهُ؛ وذلك لشدَّة إيقانِهم وقوَّة إيمانهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ تأكيدٌ لحصول ذلك وثبوتِهِ واستقرارِهِ؛ فإنَّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد ولا يُبَدِّلُه، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨] أي: كائنًا لا محالة.

وقوله هاهنا: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: العباد صائِرُون إليه، وسيأْتُونَه. ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنىٰ: آتيًا؛ لأن كل ما أتاكَ فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت عليَّ خمسون سنةً، وأتيت علىٰ خمسين سنة، كلاهُما بمعنًىٰ واحدٍ.

وقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: هذه الجنات ليس فيها كلامٌ ساقطٌ تافهٌ لا معنىٰ له، كما قد يوجد في الدُّنيا.

وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناءٌ منقطعٌ، كقوله: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: في مثل وقت البُكُرات ووقت العَشِيَّات، لا أن هناك ليلًا أو نهارًا، ولكنَّهم في أوقاتٍ تتعاقب، يعرفون مضيَّها بأضواءٍ وأنوارٍ، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا معْمَرٌ، عن هَمَّام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا، وَلا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ**[١] **الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يَرَىٰ مُخَّ سَاقَيْهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ؛ مِنَ الحُسْنِ، لا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ قَلْبٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا**»[٢].

أخرجاه في «الصَّحيحين» من حديث معمر به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدَّثني الحارث بن فضيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد الأنصاري، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشُّهَدَاءُ عَلَىٰ**

---

(١) الاستِجْمَارُ هنا: استعمال الطِّيب والتبخر به، مأخوذ من المجمر وهو: البخور، وأما الألُوّة فقال الأصمعي وأبو عبيد وسائر أهل اللغة والغريب: هي العود يتبخر به، قال الأصمعي: أراها فارسية معربة. «شرح مسلم» للنووي.

(٢) البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤)، وأحمد (٢/ ٣١٦).

بَارِقِ نَهرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[١] تفرَّد به أحمد من هذا الوجه.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: مقادير الليلِ والنهارِ.

وقال ابن جرير: حدَّثنا علي بن سهم، حدَّثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمَّد، عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: ليس في الجنَّة ليلٌ، هم في نور أبدًا، ولهم مقدار اللَّيل والنَّهار، يعرفون مقدار اللَّيل بإرخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النَّهار برفع الحُجُب، وبفتح الأبواب.

وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُلَيْد، عن الحسن البصري، وذكر أبواب الجنة، فقال: أبواب يُرىٰ ظاهِرُها مِن باطنها، فتكَلِّمُ وتُكَلَّمُ، فَتُهَمْهِمُ: انفتحي انغلقي، فتَفْعلُ.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: فيها ساعتان: بكرةٌ وعشيٌّ: ليس ثَمَّ ليلٌ ولا نهارٌ، وإنَّما هو ضوءٌ ونورٌ.

وقال مجاهد: ليس فيها بكرةٌ ولا عشيٌّ، ولكن يُؤتون به علىٰ ما كانوا يشتهون في الدُّنيا.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: كانت العرب الأنْعَمُ فيهم من يتغدَّىٰ ويتعشَّىٰ، ونزل القرآن علىٰ ما في أنفسهم من النَّعيم، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

وقال ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: البكور يرد علىٰ العَشِي، والعشيُّ يرد علىٰ البكور، ليس فيها ليلٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا سليم بن منصور بن عمار، حدَّثني أبي، حدَّثنا محمَّد بن زياد قاضي أهل شَمْشَاط[٢]، عن عبد الله بن جرير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ غَدَاةٍ مِنْ غَدَوَاتِ الجَنَّةِ، وَكُلُّ الجَنَّةِ غَدَوَاتٌ، إِلَّا أَنَّهُ يُزَفُّ إِلَىٰ وَلِيِّ اللهِ فِيهَا زَوْجَةٌ مِنَ الحُورِ العِينِ، أَدْنَاهُنَّ الَّتِي خُلِقَتْ مِنَ الزَّعْفَرَانِ»[٣].

قال أبو محمَّد: هذا حديثٌ منكرٌ.

وقوله تعالىٰ ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: هذه الجنَّة التي وصفنا بهذه الصِّفات العظيمة هي التي نُورِثُها عبادنا المتقين، وهم المُطيعُون لله ﷻ في السَّرَّاء والضَّرَّاء، والكاظمون

---

(١) حسن: تقدم عند تفسير الآيات (١٦٩-١٧٥) من سورة آل عمران.

(٢) شِمْشَاط: مدينة بالروم علىٰ شاطئ الفرات، شرقيها: بالوية، وغربيها: خرتبرت. «معجم البلدان».

(٣) منكر: رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٩٠)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢١٧)، وفيه منصور بن عمار. قال ابن عدي: منكر الحديث.

وانظر ترجمته في «الميزان» للذَّهبي (٤/ ١٨٧). ونقل ابن كثير عن ابن أبي حاتم قوله في حكمه علىٰ الحديث: منكر.

الغيظ والعافون عن النَّاس، وكما قال تعالىٰ في أوَّل سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يَعْلىٰ ووكيع، قالا: حدَّثنا عمر بن ذرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» قال: فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلىٰ آخر الآية[1].

انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعيم، عن عمر بن ذرٍّ به. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عمر بن ذر به، وعندهما زيادة في آخر الحديث، فكان ذلك الجواب لمحمَّدٍ ﷺ[2].

وقال العَوْفي عن ابن عبَّاس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبريل وقال: يا محمَّد، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[3].

وقال مجاهد: لَبِثَ جبريل عن محمَّد ﷺ اثنتي عشرة ليلة، ويقولون: قُلِيَ، فلما جاءه قال: «يَا جِبْرِيلُ لَقَدْ رِثْتَ[4] عَلَيَّ حَتَّىٰ ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ كُلَّ ظَنٍّ». فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال: وهذه الآية كالتي في الضحىٰ[5].

وكذلك قال الضَّحَّاك بن مُزَاحم، وقتادة، والسُّدِّي، وغير واحدٍ: إنَّها نزلت في احتباس جبريل.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريل النزول علىٰ رسول الله ﷺ أربعين يومًا، ثم نزل، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «مَا نَزَلْتَ حَتَّىٰ اشْتَقْتُ إِلَيْكَ» فقال له جبريل: «بَلْ أَنَا كُنْتُ إِلَيْكَ أَشْوَقَ، وَلَكِنِّي مَأْمُورٌ»، فأوحِيَ إلىٰ جبريل أن قُلْ له: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو غريبٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سنان، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن مجاهد قال:

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣١)، وأحمد (١/ ٢٣١).
(٢) ورواه البخاري بهذه الزيادة (٧٤٥٥).
(٣) ضعيف بهذا السياق: رواه الطبري (١٦/ ١٠٢) من طريق عطية العوفي: وهو صدوق يخطئ وكان شيعيًا مدلسًا، والصَّحيح ما تقدَّم في الحديث السَّابق.
(٤) أي: أبطأت.
(٥) رواه الطبري (١٦/ ١٠٤)، وإسناده مرسل عن عكرمة وعن مجاهد، والرِّواية الثَّانية رواها كذلك مرسلة عن عكرمة، وكلها شاهدٌ للرِّواية السَّابقة.

أبطأت الرسلُ على النبيِّ ﷺ، ثم أتاهُ جبريل فقال له: «مَا حَبَسَكَ يَا جِبْرِيلُ؟» فقال له جبريل: «وَكَيْفَ نَأْتِيكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَقُصُّونَ أَظْفَارَكُمْ، وَلا تُنَقُّونَ بَرَاجِمَكُمْ[(١)]، وَلا تَأْخُذُونَ شَوَارِبَكُمْ، وَلا تَسْتَاكُونَ؟» ثم قرأ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلىٰ آخر الآية[(٢)].

وقد قال الطبراني: حدَّثنا أبو عامر النحوي، حدَّثنا محمَّد بن إبراهيم الصوري، حدَّثنا سليمان ابن عبد الرحمن الدمشقي، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، أخبرني ثعلبة بن مسلم، عن أبي كعب مولىٰ ابن عبَّاسٍ، عن ابن عبَّاسٍ عن النبيِّ ﷺ: أن جبريل أبطأ عليه، فذكر ذلك له فقال: «وَكَيْفَ وَأَنْتُمْ لا تَسْتَنُّونَ، وَلا تُقَلِّمُونَ أَظْفَارَكُمْ، وَلا تَقُصُّونَ شَوَارِبَكُمْ، وَلا تُنَقُّونَ رَوَاجِبَكُمْ[(٣)]»[(٤)].

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي اليمان، عن إسماعيل بن عياش به نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سَيَّار، حدَّثنا جعفر بن سليمان، حدَّثنا المغيرة بن حبيب -ختن مالك ابن دينار- حدَّثني شيخٌ من أهل المدينة، عن أم سلمة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أَصْلِحِي لَنَا المَجْلِسَ، فَإِنَّهُ يَنْزِلُ مَلَكٌ إِلَىٰ الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ إِلَيْهَا قَطُّ»[(٥)].

وقوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قيل: المراد ما بين أيدينا: أمر الدُّنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ما بين النَّفختَيْن. هذا قول أبي العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير. وقتادة، في رواية عنهما، والسُّدِّي، والربيع بن أنس.

وقيل: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما نستقبل مِن أمرِ الآخِرَةِ، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: ما مضىٰ من الدنيا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بين الدُّنيا والآخرة. يروىٰ نحوه عن ابن عبَّاسٍ، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك، وقتادة، وابن جريج، والثوري. واختاره ابن جرير أيضًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال مجاهد والسُّدِّي معناه: ما نَسِيَك ربك.

وقد تقدَّم عنه أنَّ هذه الآية كقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحىٰ].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يزيد بن محمَّد بن عبد الصمد الدمشقي، حدَّثنا محمَّد بن عثمان - يعني أبا الجماهر- حدَّثنا إسماعيل بن عياش، حدَّثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن أبيه، عن أبي

---

(١) البَرَاجِم: العُقَد التي في ظهور الأصابع يَجْتمع فيها الوَسَخ، الواحدة: بُرْجُمَة. «النهاية». وإنقاؤها: تنظيفها.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم ، وإسناده مرسل كسابقه.

(٣) الرَّوَاجِبُ: ما بين عُقَد الأصابع من دَاخل، واحدُها: رَاجِبَة، والبَرَاجِمُ: العُقدُ المُتَشَنِّجةُ في ظاهر الأصابع. «النهاية».

(٤) ضعيف: الرِّواية الأولىٰ: رواها مرسلةً وعزاها لابن أبي حاتم. والرواية الثانية: عند الطبراني (١١/ ٤٣٢/ ١٢٢٤)، ورواها أحمد (٥/ ١٦٧)،وفيها أبو كعب مولىٰ ابن عبَّاس، قال أبو حاتم: لا يعرف إلا في هذا الحديث.

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٢٩٦)، وفيه هذا الشَّيخ المبهم، وفيه أيضًا المغيرة بن حبيب، قال الأزدي: منكر الحديث، وقال ابن حبان في «الثقات»: يغرب.

الدرداء يرفعه قال: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَىٰ شَيْئًا» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (١).

وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبِّره، والحاكم فيه والمتصرِّف الَّذي لا معقب لحكمه، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هل تعلم للرَّبِّ مثلًا أو شبهًا.

وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم.

وقال عكرمة، عن ابن عبَّاس: ليس أحدٌ يسمىٰ الرحمن غيره تبارك وتعالىٰ، وتقدَّس اسمه (٢).

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الإنسانِ أنَّه يتعجَّب ويستبعد إعادَتَهُ بعد موتِهِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩]، وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ يستدل تعالىٰ بالبداءة علىٰ الإعادة، يعني: أنَّه تعالىٰ قد خلق الإنسان ولم يكُ شيئًا، أفلا يُعِيدُه وقد صار شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفي «الصحيح»: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَآذَانِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِيَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» (٣).

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أقسم الرَّبُّ، تبارك وتعالىٰ بنفسه الكريمة، أنَّه لا بدَّ أن يحشرهم جميعًا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

قال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: يعني قعودًا؛ كقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ يعني: قيامًا، وروي عن مُرَّة، عن ابن

---

(١) حسن لغيره: تقدم عند تفسير الآيتين (١٧٢، ١٧٣) من سورة البقرة.
(٢) رواه الحاكم (٢/ ٣٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٢)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
(٣) صحيح: تقدم عند تفسير الآية (١١٧) من سورة البقرة.

مسعود مثله.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: من كل أمةٍ، قاله مجاهد، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾

قال الثوري، عن علي بن الأقمر، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر، حتىٰ إذا تكامَلَت العدَّة، أتاهم جميعًا، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرمًا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾(1).

وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ قال: ثم لننزعنَّ مِن أهل كلِّ دينٍ قادتهم ورؤساءهم في الشَّرِّ. وكذا قال ابن جريج، وغير واحدٍ من السَّلف. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ «ثم» هاهنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد: أنَّه تعالىٰ أعلم بمَن يستحقُّ مِن العباد أن يصلىٰ بنارِ جهنَّم ويخلَّد فيها، وبمَن يستحقُّ تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا خالد بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْساني، عن أبي سُمَيَّة قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخُلُها مؤمنٌ. وقال بعضهم: يدخلونها جميعًا، ثم ينجِّي الله الَّذين اتَّقوا. فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الوُرُود، فقال: يردونها جميعًا -وقال سليمان مَرَّةً يدخلونها جميعًا- وأهوىٰ بأصبعيه إلىٰ أُذُنَيْه، وقال: صُمَّتا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَبْقَىٰ بَرٌّ وَلا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلَامًا، كَمَا كَانَتْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، حَتَّىٰ إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ، ثُمَّ يُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا»(2) غريبٌ ولم يخرجوه.

وقال الحسن بن عرفة: حدَّثنا مروان بن معاوية، عن بكار بن أبي مروان، عن خالد بن مَعْدَان قال: قال أهل الجنَّة بعدما دخلوا الجنَّة: ألم يَعِدْنا ربُّنا الورود على النَّار؟ قال: قد مررتم عليها وهي خامدةٌ.

وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم قال: كان

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٣٣) إلىٰ ابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث والنشور»، ورجاله ثقات.
(٢) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٣٢٨)، وفيه أبو سميَّة: قال الحافظ في «التقريب»: مقبول.

عبد الله بن رَوَاحة واضعًا رأسه في حِجْر امرأته، فبكى، فبكَتِ امرأتُهُ، فقال: ما يبكيكِ؟ فقالت: رأيتكَ تبكي فبكيتُ. قال: إني ذكرت قول الله عَجَلّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فلا أدري أنجو منها أمْ لا؟ وفي روايةٍ: وكان مريضًا(١).

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا ابن يَمَان، عن مالك بن مِغْول، عن أبي إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوىٰ إلىٰ فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني ثم يَبْكي، فقيل: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنَّا واردوها، ولم نُخْبَرْ أنَّا صادرون عنها.

وقال عبد الله بن المبارك، عن الحسن البصري قال: قال رجلٌ لأخيه: هل أتاك أنَّك وارد النَّار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنَّك صادرٌ عنها؟ قال: لا. قال: فَفِيمَ الضَّحِك؟ قال: فما رُئِيَ ضاحكًا حتىٰ لَحِقَ بالله.

وقال عبد الرزاق أيضًا: أخبرنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو، أخبرني من سمع ابن عبَّاس يخاصم نافع ابن الأزرق، فقال ابن عبَّاس: الورود الدُّخول؟ فقال نافع: لا، فقرأ ابن عبَّاس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] وَرَدُوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨] أوِرْدٌ هو أم لَا؟ أمَّا أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرىٰ الله مُخْرِجك منها بتكْذِيبك فضَحِك نافع(٢).

وروىٰ ابن جريج، عن عطاء قال: قال أبو راشد الحَرُوري -وهو نافع بن الأزرق-: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] فقال ابن عبَّاس: ويلك: أمجنونٌ أنت؟ أين قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ والله إن كان دعاء من مَضَىٰ: اللَّهمَّ أخرجني من النَّار سالمًا، وأدخلني الجنَّة غانمًا(٣).

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن عبيدٍ المحاربي، حدَّثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عبَّاسٍ، فأتاه رجلٌ يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عبَّاس، أرأيت قول الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشدٍ فسنَرِدُهَا، فانظر: هل نصدُرُ عنها أمْ لا(٤).

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة، أخبرني عبد الله بن السَّائب، عمن سمع ابن عبَّاسٍ يقرؤها

(١) صحيح: رواه الطبري (١٦/ ١١٠).

(٢) رواه الطبري (١٦/ ١٠٨) وفيه جهالة الراوي عن ابن عبَّاس، لكن لهذا الأثر طرقٌ أخرىٰ يتقوَّىٰ بها، وسيذكرها المصنِّف بعد ذلك.

(٣) رواه الطبري (١٦/ ١٠٩)، ورجاله ثقات، وانظر ما بعده.

(٤) حسن: رواه الطبري (١٦/ ١٠٨)، وعزاه السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٥٣٥) إلىٰ عبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث والنُّشور».

كذلك: «وإن منهم إلا واردها» يعني: الكفار(١).

وهكذا روىٰ عمرو بن الوليد الشَّنِّي، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك: «وإنَّ منهم إلا وارِدُهَا»، قال: وهم الظَّلمة. كذلك كنَّا نقرؤها. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(٢).

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ يعني: البر والفاجر، ألا تسمع إلىٰ قولِ الله لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾، فسمَّىٰ الورود في النار دخولًا وليس بصادرٍ(٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السُّدِّي، عن مُرَّة، عن عبد الله -هو ابن مسعود- ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: **«يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ كُلُّهُمْ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ»**(٤).

ورواه التِّرمذي عن عبد بن حميد، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السُّدِّي به. ورواه من طريق شعبة، عن السُّدِّي، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفًا.

هكذا وقع هذا الحديث هاهنا مرفوعًا. وقد رواه أسباط، عن السُّدِّي، عن مُرَّة، عن عبد الله بن مسعود قال: يَرِدُ النَّاس جميعًا الصراط، وورودهم قيامهم حول النَّار، ثم يصدُرُون عن الصراط بأَعْمَالهم، فمِنْهُم مَن يمرُّ مثل البرق، ومنهم مَن يمرُّ مثل الرِّيح، ومنهم من يمرُّ مثل الطَّير، ومنهم من يمرُّ كأجود الخيل، ومنهم من يمرُّ كأجودِ الإبل، ومنهم من يمرُّ كعَدْوِ الرَّجل، حتىٰ إن آخِرَهُم مرًّا رجلٌ نوره علىٰ موضعي إبهامي قدميه، يمرُّ يتكفَّأ به الصِّراط، والصِّراط دَحْضٌ(٥) مَزَلَّةٍ، عليه حَسَكٌ(٦) كَحَسكِ القَتَاد، حافتاه ملائكة، معهم كلاليب مِن نارٍ، يختطفون بها النَّاس. وذكر تمام الحديث. رواه ابن أبي حاتم(٧).

وقال ابن جرير: حدَّثنا خلاد بن أسلم، حدَّثنا النضر، حدَّثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله: قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط علىٰ جهنم مثل حدِّ السَّيف، فتمرُّ الطَّبقة الأولىٰ كالبرق، والثَّانية كالرِّيح، والثَّالثة كأجود الخَيْل، والرَّابعة كأجود البَهَائِم، ثم يمرُّون والملائكة يقولون: اللهم سَلِّم سَلِّم(٨).

ولهذا شواهد في «الصحيحين» وغيرهما، من رواية أنس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر،

---

(١) ورواه الطبري (١٦/ ١١٠)، وفيه رجل لم يُسَم. (٢) رواه الطبري (١٦/ ١١١).

(٣) إسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس، لكن يشهد له الروايات السابقة عن ابن عبَّاس.

(٤) حسن: رواه أحمد (١/ ٤٣٣)، ورواه الترمذي (٣١٦٠) مرفوعًا وموقوفًا.

(٥) الدَّحضُ: الزلق. (٦) الحَسَكُ: الشَّوك، والقتاد: شجر له شوكٌ.

(٧) حسن: عزاه المصنِّف لابن أبي حاتم.

(٨) رواه الطَّبري (١٦/ ١١٠)، ورجاله ثقات وهو شاهدٌ للَّذي قبله.

وغيرهم من الصحابة ﷺ[١].

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة عن الجُرَيري، عن أبي السليل، عن غُنَيْم بن قيس قال: ذكروا وُرُود النَّار، فقال كعب: تمسك النَّار للنَّاس كأنَّها مَتْن إهالةٍ[٢] حتىٰ يستوي عليها أقدام الخلائق، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، ثم يناديها منادٍ: أنِ امسكِي أصحابك، ودعي أصحَابِي، قال: فتخسف بكلِّ وليٍّ لها، ولهي أعلم بهم من الرجل بوَلَدِهِ، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم. قال كعب: ما بين منكبي الخازن من خزنتها مسيرة سنة، مع كل واحدٍ منهم عمود ذو شعبتين، يدفع به الدَّفع فيصرع به في النار سبعمائة ألف[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مُبَشِّرٍ، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلَ النَّارَ -إِنْ شَاءَ اللهُ- أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالحُدَيْبِيَةَ**» قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قالت: فسمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[٤].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا ابن إدريس، حدَّثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر -امرأة زيد بن حارثة- قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة، فقال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالحُدَيْبِيَةَ**» قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾[٥].

وفي «الصحيحين»، من حديث الزهري، عن سعيدٍ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ، إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ**[٦]»[٧].

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، أن النَّبيَّ ﷺ

---

(١) انظر «صحيح البخاري»: (كتاب الأذان)، باب: فضل السجود، و(كتاب الرقاق): باب صفة الجنة والنار، و(كتاب التوحيد)، باب: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾. وانظر «صحيح مسلم»: (كتاب الإيمان)، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلةً، وباب معرفة طريق الرُّؤيا.

(٢) **الإهالةُ**: كلُّ شيءٍ من الأدْهان مما يُؤتدَمُ به إهَالة، وقيل: هو ما أُذِيبَ من الأَلْية والشَّحم، وقيل: الدَّسَم الجامدُ. «النهاية».

(٣) رواه الطبري (١٦/ ١٠٩)، ورجاله ثقات، وإسماعيل بن عليَّة روىٰ عن الجريري قبل الاختلاط، لكن الأثر مِن رواية كعب الأحبار وهو ممن يروي الإسرائيليَّات فمثل هذا الأثر لا يصدَّق ولا يكذَّب.

(٤) حسن: رواه أحمد (٦/ ٢٨٥) (٦/ ٣٦٢)، وأبو سفيان هو طلحة بن نافع: صدوقٌ وبقيَّة رجالِه ثقات.

(٥) انظر التَّعليق السَّابق.

(٦) **قال العلماءُ**: تحلَّة القَسَم ما ينحلُّ به القَسَم وهو اليمين، وجاء مفسرًا في الحديث أنَّ المراد: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وبهذا قال أبو عبيد وجمهور العلماء، والقَسَم مقدَّر، أي: والله إن منكم إلَّا واردها، والمراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾: المرور علىٰ الصِّراط، وهو جسرٌ منصوبٌ عليها، وقيل: الوقوفُ عندها. «شرح مسلم» للنَّوويِّ.

(٧) رواه البخاري (٦٦٥٦)، ومسلم (٢٦٣٢).

قال: «مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ» يعني: الورود(١).

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا زَمْعَة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، تَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ». قال الزهري: كأنَّه يريد هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾(٢)(٣).

وقال ابن جرير: حدَّثني عمران بن بكار الكلاعي، حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، حدَّثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلًا من أصحابه وَعِكًا، وأنا معه، ثم قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَىٰ عَبْدِي المُؤْمِنِ؛ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ»(٤) غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وحدَّثنا أبو كريب، حدَّثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحمىٰ حظ كل مؤمنٍ من النار، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، حدَّثنا زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّىٰ يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ، بَنَىٰ اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الجَنَّةِ». فقال عمر: إذًا نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ»(٥).

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، كُتِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، إِنْ شَاءَ اللهُ. وَمَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ المُسْلِمِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مُتَطَوِّعًا لَا بِأُجْرَةِ سُلْطَانٍ، لَمْ يَرَ النَّارَ بِعَيْنَيْهِ إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وَإِنَّ الذِّكْرَ فِي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٢)، والطبري (١٦/ ١١١).

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: حاول صاحب التحرير أن يردّ مذهب الجمهور في ورود المؤمنين علىٰ الصراط كسائر الخلق ثمّ ينجي الله الذين اتقوا حيث يجتازونه بسلام ويقع فيه الكافرون فلا يخرجون وما هناك حاجة إلىٰ ردّ مذهب الجمهور من أئمة الإسلام إذ حديث الصراط والمرور به ثابت قطعيًا ففي صحيح مسلم: «ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم، وتحل الشفاعة فيقولون: اللهم سلم سلم قيل: يا رسول الله: وما الجسر؟ قال: دحض مزلّة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمرّ المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناجٍ ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جنهم.

وبهذا الصراط. فسّر السلف الورود وصح قول الرسول ﷺ فيمن مات له ثلاثة ولد لم يبلغوا الحنث لا تمسه النار إلّا تحلة القسم» وهو الورود علىٰ متن جهنم نظرًا إلىٰ الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١].

(٣) رواه الطيالسي (٢٣٠٤)، وإسناده صحيح.

(٤) صحيح: رواه الطبري (١٦/ ١١١)، وله شواهد أخرجها ابن أبي الدنيا في «المرض والكفَّارات» (١٥٧)، والحديث صحَّحه الشيخ الألباني. انظر: «الصَّحيحة» (٥٥٧)، وانظر شواهده فيها (١٨٢١ – ١٨٢٢).

(٥) حسنه الألباني: رواه أحمد (٣/ ٤٣٧)، وفيه ابن لهيعة، وزبان بن فائد: ضعيف.
لكن للحديث شاهد عند الطبراني. انظر: «الصحيحة» للألباني (٥٨٩).

سَبِيلِ اللهِ يُضَعَّفُ فَوْقَ النَّفَقَةِ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ». وفي رواية: «بِسَبْعِمِائَةِ أَلْفِ ضِعْفٍ»[١].

وروىٰ أبو داود، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيىٰ بن أيوب، وسعيد بن أبي أيوب، كلاهما عن زبان، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالذِّكْرَ تُضَاعَفُ عَلَىٰ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ»[٢].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: هو الممر عليها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: ورود المسلمين: المرور علىٰ الجِسْر بين ظهريها، وورود المشركين: أن يدخلوها، وقال النَّبيُّ ﷺ: «الزَّالُّونَ وَالزَّالَّاتُ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَقَدْ أَحَاطَ بِالجِسْرِ يَوْمَئِذٍ سِمَاطَانِ[٣] مِنَ المَلَائِكَةِ، دُعَاؤُهُمْ: يَا أَللهُ سَلِّمْ سَلِّمْ»[٤].

وقال السُّدِّي، عن مُرَّةَ، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال: قسمًا واجبًا[٥]. وقال مجاهد: حتمًا، قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: إذا مرّ الخلائق كلهم علىٰ النَّار، وسقط فيها من سقط من الكفَّار والعصاة ذَوِي المعاصي بحسبهم، نجَّىٰ الله تعالىٰ المؤمنين المتَّقين منها بحسب أعمالهم. فجَوَازُهُم علىٰ الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدُّنيا، ثم يَشْفَعُون في أصحابِ الكبَائِرِ مِن المؤمنين، فيشفع الملائكة والنَّبيُّون والمؤمنون، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النَّار، إلا دارات وجوههم -وهي مواضع السجود- وإخراجهم إيَّاهم من النَّار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فَيُخْرِجُونَ أَوَّلًا مَن كان في قلبه مثقالُ دينارٍ من إيمانٍ، ثم الَّذِي يَلِيهِ، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه حتىٰ يخرجوا مَن كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال ذرةٍ من إيمانٍ، ثم يخرج الله من النَّار مَن قال يومًا من الدَّهر: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وإن لم يعمل خيرًا قط، ولا يبقىٰ في النَّار إلا مَن وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٤٣٧)، وأبو يعلىٰ (١١٨٩)، والحاكم (٢/ ٨٧) وصححه ووافقه الذهبي.

قلت: في إسناده ابن لهيعة: اختلط؛ يروي عن زبان بن فائد قال الحافظ: ضعيف الحديث مع صلاحه وعبادته (تقريب - ترجمة ١٩٨٦). وقال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا ينفرد عن سهل بن معاذ بنسخة كأنها موضوعة لا يحتج به (المجروحين ٣٧٨).

فالإسناد لا يصح.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود (٢٤٩٨)، وفيه زبان بن فائد وهو ضعيف.

(٣) السِّمَاط: الصف.

(٤) مرسل: رواه الطبري (١٦/ ١١١).

(٥) رواه الطبري (١٦/ ١١٤).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الكفَّار حين تتلىٰ عليهم آيات الله ظاهرةَ الدَّلالة بيِّنة الحجَّة، واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجِّين علىٰ صحَّة ما هم عليه من الدِّين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: أحسن منازل وأرفع دورًا، وأحسن نديًّا، وهو مجمع الرجال للحديث؛ أي: ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة علىٰ باطلٍ، وأولئك الذين هم مختفون مُسْتَتِرُون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدُّور علىٰ الحقِّ؟ كما قال تعالىٰ مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقال قوم نوح: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالىٰ رادًّا عليهم شبهتهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وكم من أمةٍ وقرنٍ من المُكَذِّبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعةً ومناظرَ وأشكالًا.

وقال الأعمش، عن أبي ظَبْيَان، عن ابن عبَّاس: ﴿قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ قال: المقام: المنزل، والنَّدي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرِّئي: المنظر[(١)].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: المقام: المَسْكَن، والنَّدِي: المجلس والنِّعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنَّعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال الله فيما قص علىٰ رسوله من أمر قوم لوطٍ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، والعرب تسمي المجلس: الناديٰ[(٢)].

وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمَّدٍ ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قشافة، تَعَرَّض أهل الشرك بما تسمعون: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وكذا قال مجاهد، والضَّحَّاك.

ومنهم مَن قال في الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المَتَاع. ومنهم مَن قال: الثِّياب، والرِّئي: المنظر، كما قال ابن عبَّاس، ومجاهد وغير واحدٍ.

---

(١) رواه الطبري (١٦/ ١١٦)، وإسناده صحيح.

(٢) انظر: الطَّبري (١٦/ ١١٦)، وفيه العوفي: شيعي مدلِّس. لكنَّ المعنىٰ صحيح، ويشهد له الرِّواية السَّابقة.

وقال الحسن البصري: يعني الصور، وكذا قال مالك: ﴿أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾: أكثر أموالًا وأحسن صورًا. والكلُّ متقاربٌ صحيحٌ.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد، لهؤلاء المشركين بربهم المدعين، أنَّهم علىٰ الحقِّ وأنَّكم علىٰ الباطل: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ أي: منَّا ومنكم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فأمهله الرَّحمن فيما هو فيه، حتىٰ يَلْقَىٰ ربَّه وينقضي أجله، ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ يصيبه، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ بغتةً تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي: في مقابلة ما احتجُّوا به من خيريَّة المَقام وحُسْنِ النَّدِي.

قال مجاهدُ في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فليدعه الله في طُغْيانه. هكذا قرَّر ذلك أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهذه مباهلةٌ للمُشْركين الذين يزعمون أنهم علىٰ هدًىٰ فيما هم فيه، كما ذكر تعالىٰ مباهلة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] أي: ادعوا علىٰ المبطل منَّا ومنكم بالموت إن كنتم تدَّعون أنَّكم علىٰ الحقِّ، فإنَّه لا يضرُّكم الدُّعاء، فنكلُوا عن ذلك، وقد تقدَّم تقرير ذلك في سورة «البقرة» مبسوطًا، ولله الحمد. وكما ذكر تعالىٰ المباهلة مع النَّصارىٰ في سورة «آل عمران» حين صمَّموا علىٰ الكفر، واستمرُّوا علىٰ الطُّغيان والغلوِّ في دعواهم أنَّ عيسىٰ ولدُ الله، وقد ذكر اللهُ حُججه وبراهينه علىٰ عبوديَّة عيسىٰ، وأنَّه مخلوقٌ كآدم، قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلُوا أيضًا عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

لما ذكر الله تعالىٰ إمداد مَن هو في الضَّلالة فيما هو فيه وزيادته علىٰ ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدِين هُدًىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾(١) قد تقدَّم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلِّقة بها في سورة «الكهف». ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾

---

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات -والله أعلم- أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر، ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: عاقبةً ومردًّا على صاحبها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يومٍ، فأخذ عودًا يابسًا فَحَطَّ ورقةً ثم قال: «إِنَّ قَوْلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، تَحُطُّ الخَطَايَا كَمَا تَحُطُّ وَرَقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ، خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ» قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأُهَلِّلَنَّ الله، ولأُكَبِّرَنَّ الله، ولأُسَبِّحَنَّ الله، حتى إذا رآني الجاهل حسب أنِّي مجنون(١). وهذا ظاهره أنَّه مرسلٌ، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة، عن أبي الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع في «سنن ابن ماجه»، من حديث أبي معاوية، عن عُمر بن راشد، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء، فذكر نحوه.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الأرتِّ قال: كنت رجلًا قينًا(٢)، وكان لي على العاص بن وائل دينٌ، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا والله لا أَقْضِيك حتى تكفر بمحمَّدٍ فقلت: لا والله لا أكفر بمحمَّدٍ ﷺ حتى تموتَ ثمَّ تُبْعَثَ. قال: فإنِّي إذا مِتُّ ثمَّ بُعِثْتُ جِئْتَنِي ولي ثَمَّ مالٌ وولدٌ، فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

أخرجه صاحبا «الصَّحيح» وغيرهما، من غير وجهٍ، عن الأعمش به، وفي لفظ البخاري: كنت قينًا بمكة، فعملت للعَاصِ بن وائل سيفًا، فجئت أتقاضَاهُ. فذكر الحديث وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقًا(٣).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق قال: قال خَبَّاب ابن الأرت، كنت قينًا بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت لأتقاضَاهُ، فقال لي: لا أَقْضِيك حتى تكفرَ بمحمَّدٍ. فقلت: لا أكفر بمحمَّدٍ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بعثت كان لي مالٌ وولدٌ. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٦/ ١٢٠)، ورواه ابن ماجه (٣٨١٣)، وفيه عمر بن راشد: قال الحافظ: ضعيف، وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ١٩٤): هذا إسناد ضعيف، قلت: وقد ثبت أن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم، وبعض أسانيدها حسان كما تقدم بيانه في سورة الكهف الآية (٤٦)، وانظر «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣٢٦٤).

(٢) القَينُ: الحداد.

(٣) البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، وأحمد (٥/ ١١٠، ١١١).

كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[(١)].

وقال العَوْفِيُّ عن ابن عبَّاسٍ: إن رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدَينٍ، فأتوه يتقاضَوْنَه، فقال: ألستم تَزْعُمُون أنَّ في الجنَّة ذهبًا وفضةً وحريرًا، ومن كلِّ الثَّمرات؟ قالوا: بلىٰ. قال: فإن موعدَكُم الآخرة، فوَالله لأوتينَّ مالًا وولدًا، ولأوتينَّ مثل كتابكم الَّذي جئتُم به. فضرب الله مثلَهُ في القرآن فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[(٢)]. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنَّها نزلت في العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولدًا» وقرأ آخرون بضمها[(٣)]، وهو بمعناه، قال رؤبة:

الحَمْـدُ للهِ العَزِيـزِ فَـرْدَا ... لَـمْ يَتَّخِـذْ مِـنْ وُلْـدِ شَـيْءٍ وُلْـدَا

وقال الحارث بن حلزة:

وَلَقَـدْ رَأَيْـتُ مَعَاشِـرًا ... قَـدْ ثَمَّـرُوا مَـالًا وَوُلْـدَا

وقال الشاعر:

فَلَيْـتَ فُلَانًـا كَـانَ فِـي بَطْـنِ أُمِّـهِ ... وَلَيْـتَ فُلَانًـا كَـانَ وُلْـدَ حِمَـارِ

وقيل: إن «الوُلْد» بالضَّمِّ جمع، «والوَلَد» بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾: إنكارٌ علىٰ هذا القائل، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يعني: يوم القيامة؛ أي: أعلم ما له في الآخرة حتىٰ تألَّىٰ وحلفَ علىٰ ذلك؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: أم له عند الله عهدٌ سيُؤْتِيه ذلك؟ وقد تقدَّم عند البخاري: أنَّه الموثق.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فيَرجُو بِهَا. وقال محمَّد بن كعب القرظي: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثم قرأ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾: هي حرفُ رَدْعٍ لما قبلها وتأكيدٌ لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من طلبِهِ ذلك وحُكْمه لنفْسِه بما تمنَّاه، وكفره بالله العظيم ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: في الدَّار الآخرَةِ، علىٰ قوله ذلك، وكفره بالله في الدُّنيا، ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مالٍ وولدٍ، نسلبه منه، عكس ما قال: إنَّه يُؤْتىٰ في الدَّار الآخرة مالًا وولدًا، زيادةً علىٰ الَّذي له في الدُّنيا؛ بل في الآخرةِ يُسلَب مِن الَّذي كان له في الدنيا،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١١٠) من طريق عبد الرزاق به. وإسناده صحيح.
(٢) رواه الطبري (١٦/ ١٢٠) وفيه العوفي: مدلس لكن الرواية يشهد لها ما تقدَّم.
(٣) متواترة: قَرَأَ (وُلْدًا) حَمْزَةُ وَالكِسَائِيُّ وَوَافَقَهُمَا الأَعْمَشُ، وَقَرَأَ البَاقُونَ (وَلَدًا).

ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: مِن المالِ والوَلَدِ. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾، قال: نَرِثُهُ. وقال مجاهد: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وفي حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عِنْدَه»[1].

وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: لا مال له، ولا ولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدُّنيا، وما عَمِلَ فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال: فردًا من ذلك، لا يتبعه قليلٌ ولا كثيرٌ.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الكفَّار المشركين بربِّهم: أنَّهم اتَّخذوا مِن دونه آلهةً؛ لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويَسْتَنْصِرُونها.

ثم أخبر أنَّه ليس الأمر كما زَعَمُوا، ولا يكون ما طَمِعُوا، فقال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخِلَافِ ما ظَنُّوا فيهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقرأ أبو نَهِيك: «كلٌّ سيكفرون بعبادَتِهم»[2].

وقال السُّدِّي: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادةِ الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلَافِ ما رَجَوا منهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعوانًا. قال مجاهد: عونًا عليهم، تُخاصِمُهم وتُكذِّبُهُم. وقال العوفي، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قرناء. وقال قتادة: قرناء في النَّار، يلعن بعضُهُم بعضًا، ويَكْفُر بعضهم ببعضٍ. وقال السُّدِّي: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: الخصماء الأشدَّاء في الخصومَةِ. وقال الضَّحَّاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعداء. وقال ابن زيد: الضد: البلاء. وقال عكرمة: الضد: الحسرة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن

---

(١) قراءة: قَرَأَ (وَنَرِثُهُ مَا عِنْدَهُ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ).

(٢) قراءة: قَرَأَ (كُلٌّ) أَبُو نَهِيكٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (كَلَّا).

عبَّاس: تغويهم إغواءً. وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمَّدٍ وأصحابه. وقال مجاهد: تُشليهم إشلاءً[١]. وقال قتادة: تزعجهم إزعاجًا إلىٰ معاصي الله. وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراءً وتستعجلهم استعجالًا. وقال السُّدِّي: تطغيهم طغيانًا. وقال عبد الرَّحمن بن زيد: هذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: لا تعجَلْ يا محمَّد علىٰ هؤلاءِ في وقوع العَذابِ بهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: إنما نؤخِّرُهُم لأجل معدودٍ مضبوطٍ، وهم صائرون لا محالةَ إلىٰ عذاب الله ونكالِهِ، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

قال السُّدِّي: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ السنين، والشُّهور، والأيَّام، والسَّاعات.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: نَعُدُّ أنفاسَهُم في الدُّنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن أوليائِهِ المتَّقين، الَّذين خافُوهُ في الدَّار الدُّنيا واتَّبعوا رسلَه وصدَّقُوهُم فيما أخبروهُم، وأَطَاعُوهُم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنَّه يحشرُهُم يومَ القِيامة وفدًا إليه. والوفد: هم القَادِمُون ركبانًا، ومنه الوفود وركوبهم علىٰ نَجَائِبَ مِن نورٍ، مِن مراكب الدَّار الآخرَة، وهم قادمون علىٰ خيرِ موفودٍ إليه، إلىٰ دارِ كرامتِهِ ورضوانِهِ. وأمَّا المجرمون المكذِّبون للرُّسل المخالِفُون لهم، فإنَّهم يُسَاقُون عنفًا إلىٰ النَّار، ﴿وِرْدًا﴾ عطاشًا، قاله عطاء، وابن عبَّاس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحدٍ. وهاهنا يقال: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا ابن خالد، عن عمرو بن قيس الملائي، عن ابن مرزوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسنَ صورةٍ رآها، وأَطْيَبَهَا ريحًا، فيقول: مَن أنت؟ فيقول: أمَا تعرفني؟ فيقول: لا، إلَّا أنَّ الله قد طيَّب رِيحَك وحسَّن وجهَكَ. فيقول: أنا عملُكَ الصَّالح، وهكذا كنتَ في الدنيا، حَسَنَ العمل طيِّبَه، فطَالما ركبتك في الدُّنيا، فهلُمَّ اركَبْني، فيركبه. فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[٢].

---

(١) أي: تدعوهم إلىٰ المعاصي وتغريهم بها إغراءً.
(٢) ورواه الطبري (١٦/ ١٢٧)، وهذا من الأمور الغيبيَّة التي تحتاج إلىٰ ثبوتٍ وصحَّةٍ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وغاية ما في هذا الكلام أنه مرسلٌ.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: ركبانًا.

وقال ابن جرير: حدَّثني ابن المثنىٰ، حدَّثنا ابن مهدي، عن شعبة، عن إسماعيل، عن رجلٍ، عن أبي هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: علىٰ الإبل[1]. وقال ابن جُريج: علىٰ النجائب. وقال الثوري: علىٰ الإبل النُّوق. وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: إلىٰ الجنَّة.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في «مسند أبيه»: حدَّثنا سُوَيْد بن سعيد، أخبرنا علي بن مُسْهِرٍ، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدَّثنا النعمان بن سعد قال: كنا جلوسًا عند عليٍّ رضي الله عنه فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: لا والله ما علىٰ أرجلهم يُحْشَرُون، ولا يحشر الوَفْدُ علىٰ أرجلهم، ولكن بِنُوقٍ لم يَرَ الخلائقُ مثلَها، عليها رَحَائِلُ مِن ذهبٍ، فيركبون عليها حتىٰ يضربوا أبواب الجنَّة[2].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني به. وزاد: «عليها رَحَائِلُ الذَّهب، وأزِمَّتُهَا الزَّبرجد» والباقي مثله.

وروىٰ ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا غريبًا جدًّا مرفوعًا، عن عليٍّ، فقال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو غسان مالك ابن إسماعيل النهدي، حدَّثنا مسلمة بن جعفر البَجَليُ، سمعت أبا معاذٍ البصري قال: إن عليًّا كان ذات يومٍ عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ فقال: ما أظنُّ الوفد إلا الرَّكب يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ يُسْتَقْبَلُونَ** -أو: **يُؤْتَوْنَ**- **بِنُوقٍ بِيضٍ لَهَا أَجْنِحَةٌ، وَعَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ، شُرُكُ نِعَالِهِمْ نُورٌ يَتَلأْلأُ، كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْهَا مَدُّ البَصَرِ، فَيَنْتَهُونَ إِلَىٰ شَجَرَةٍ يَنْبُعُ مِنْ أَصْلِهَا عَيْنَانِ، فَيَشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا، فَتَغْسِلُ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ دَنَسٍ، وَيَغْتَسِلُونَ مِنَ الأُخْرَىٰ فَلَا تَشْعَثُ أَبْشَارُهُمْ وَلَا أَشْعَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، فَيَنْتَهُونَ** أَوْ: **فَيَأْتُونَ بَابَ الجَنَّةِ، فَإِذَا حَلْقَةٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ عَلَىٰ صَفَائِحِ الذَّهَبِ، فَيَضْرِبُونَ بِالحَلْقَةِ عَلَىٰ الصَّفِيحَةِ فَيُسْمَعُ لَهَا طَنِينٌ يَا عَلِيُّ، فَيَبْلُغُ كُلَّ حَوْرَاءَ أَنَّ زَوْجَهَا قَدْ أَقْبَلَ، فَتَبْعَثُ قَيِّمَهَا فَيَفْتَحُ لَهُ، فَإِذَا رَآهُ خَرَّ لَهُ** -قال مسلمة: أراه قال: **سَاجِدًا**- **فَيَقُولُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَإِنَّمَا أَنَا قَيِّمُكَ، وُكِلْتُ بِأَمْرِكَ. فَيَتْبَعُهُ وَيَقْفُو أَثَرَهُ، فَتَسْتَخِفُّ الحَوْرَاءَ العَجَلَةُ فَتَخْرُجُ مِنْ خِيَامِ الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ حَتَّىٰ تَعْتَنِقَهُ، ثُمَّ تَقُولُ: أَنْتَ حِبِّي، وَأَنَا حِبُّكَ، وَأَنَا الخَالِدَةُ الَّتِي لَا أَمُوتُ، وَأَنَا النَّاعِمَةُ الَّتِي لَا أَبْأَسُ، وَأَنَا الرَّاضِيَةُ الَّتِي لَا أَسْخَطُ، وَأَنَا المُقِيمَةُ الَّتِي لَا أَظْعَنُ. فَيَدْخُلُ بَيْتًا مِنْ أُسِّهِ إِلَىٰ سَقْفِهِ مِائَةُ أَلْفِ ذِرَاعٍ، بِنَاؤُهُ عَلَىٰ جَنْدَلِ اللُّؤْلُؤِ طَرَائِقُ: أَصْفَرُ وَأَحْمَرُ وَأَخْضَرُ، لَيْسَ مِنْهَا طَرِيقَةٌ**

---

(١) رواه الطبري (١٦/ ١٢٧)، ورجاله ثقات.

(٢) رواه أحمد (١/ ١٥٥)، والطبري (١٦/ ١٢٦)، والحاكم (٢/ ٣٧٨) وصححه، وتعقبه الذهبي؛ لأن النُّعمان ضعَّفُوه.اهـ والنُّعمان بن سعد لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الحافظ: مقبول؛ يعني: إذا تُوبع، وإلَّا فضعيف (انظر تقريب التهذيب ترجمة ٥٥٣٥).

تُشَاكِلُ صَاحِبَتَهَا. وَفِي الْبَيْتِ سَبْعُونَ سَرِيرًا، عَلَىٰ كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ حَشِيَّةً، عَلَىٰ كُلِّ حَشِيَّةٍ سَبْعُونَ زَوْجَةً، عَلَىٰ كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً، يَرَىٰ مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ الْحُلَلِ، يَقْضِي جِمَاعَهَا فِي مِقْدَارِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيكُمْ هَذِهِ. الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِهِمْ تَطَّرِدُ، أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ -قال: صَافٍ لَا كَدَرَ فِيهِ- وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ الْمَاشِيَةِ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، لَمْ يَعْتَصِرْهَا الرِّجَالُ بِأَقْدَامِهِمْ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ، فَيَسْتَحْلِي الثِّمَارَ، فَإِنْ شَاءَ أَكَلَ قَائِمًا، وَإِنْ شَاءَ قَاعِدًا، وَإِنْ شَاءَ مُتَّكِئًا، ثُمَّ تَلَا ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]، فَيَشْتَهِي الطَّعَامَ، فَيَأْتِيهِ طَيْرًا أَبْيَضَ، وَرُبَّمَا قَالَ: أَخْضَرَ فَتَرْفَعُ أَجْنِحَتَهَا، فَيَأْكُلُ مِنْ جُنُوبِهَا أَيَّ الْأَلْوَانِ شَاءَ، ثُمَّ تَطِيرُ فَتَذْهَبُ، فَيَدْخُلُ الْمَلَكُ فَيَقُولُ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] وَلَوْ أَنَّ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ الْحَوْرَاءِ وَقَعَتْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، لَأَضَاءَتِ الشَّمْسُ مَعَهَا سَوَادًا فِي نُورٍ»(1).

هكذا وقع في هٰذه الرِّوَايَة مرفوعًا، وقد رويناه في المقدِّمات من كلام عليٍّ ﷺ بنحوه، وهو أشبه بالصِّحَّة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي: عطاشًا، ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي: ليس لهم من يَشْفَع لهم، كما يَشْفَع المؤمنون بعضهم لبعضٍ، كما قال تعالىٰ مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ هذا استثناءٌ منقطعٌ؛ بمعنىٰ: لكن من اتَّخذ عند الرَّحمن عهدًا، وهو شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، والقيام بحقِّها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: العهد: شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ويبرأ إلىٰ اللهِ مِن الحولِ والقوَّة، ولا يرجو إلا الله ﷻ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عثمان بن خالد الواسطي، حدَّثنا محمَّد بن الحسن الواسطي، عن المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختَةَ، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله -يعني ابن مسعود- هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ ثم قال: اتَّخِذوا عند الله عهدًا، فإنَّ الله يقول يوم القيامة: «مَن كانَ لهُ عندَ الله عهدٌ فليَقُم» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فعلِّمنا. قال: قولوا: اللَّهمَّ، فاطر السَّموات والأرض، عالم الغيب والشَّهادة، فإنِّي أعهد إليك في هذه الحياة الدُّنيا أنَّك إن تكلْنِي إلىٰ عملٍ يُقرِّبُني من الشَّرِّ ويُباعدني من الخير، وإنِّي لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا تُؤدِّيه إليَّ يوم القيامة، إنَّك لا تخلف الميعاد.

---

(١) ضعيف:مسلمة بن جعفر البجلي، أورده ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا (٨/ ١٢٧)، وقال الذهبي: يُجْهل، والإسناد منقطع أيضًا، فأبو معاذ البصري هو سليمان بن أرقم: قال الحافظ: ضعيف من السَّابعة (تقريب - ترجمة ٢٥٣٢). فالإسناد بينه وبين عليٍّ منقطع.

قال المسعودي: فحدَّثني زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلْحِقُ بهن: خائفًا مستجيرًا مستغفرًا، راهبًا راغبًا إليك.

ثم رواه مِن وجهٍ آخر، عن المسعودي بنحوه [(١)].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

لما قرَّر تعالىٰ في هذه السُّورة الشَّريفة عبودية عيسىٰ عليه السلام وذكر خلقه مِن مريمَ بلا أبٍ، شرع في مقام الإنكار علىٰ مَن زَعَم أنَّ له ولدًا -تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا- فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ أي: في قولكم هذا، ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيمًا.

ويقال: ﴿إِدًّا﴾ بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضًا، ثلاث لغاتٍ، أشهرها الأولىٰ.

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي: يكاد يكونُ ذلك عند سماعهنَّ هذه المقالة مِن فجرةِ بني آدم، إعظامًا للرب وإجلالًا؛ لأنهنَّ مخلوقاتٌ ومؤسساتٌ علىٰ توحيده، وأنَّه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له ولا وَلَدَ له، ولا صاحبة له، ولا كُفءَ له، بل هو الأحد الصمد:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

قال ابن جرير: حدَّثني علي، حدَّثنا عبد الله، حدَّثني معاوية، عن عليٍّ، عن ابن عبَّاسٍ، في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ قال: إنَّ الشِّركَ فزعت منه السَّموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثَّقلين، فكادت أن تزول منه لعظَمَة الله، وكما لا ينفع مع الشِّرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: «**تِلْكَ أَوْجَبُ وَأَوْجَبُ**». ثم قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ جِيءَ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ وَمَا فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَمَا تَحْتَهُنَّ، فَوُضِعْنَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوُضِعَتْ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الكِفَّةِ الْأُخْرَىٰ، لَرَجَحَتْ بِهِنَّ**» [(٢)].

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٣٧٨) وصحَّحه ووافقه الذَّهبي، قلت: المسعودي اختلط بآخِرِه، لكن لا يعرف هل الرَّاوي عنه رَوَىٰ عنه قبل الاختلاط أم بعده؟

(٢) رواه الطبري (١٦/ ١٣٠)، وإسناده ضعيف، وعِلَّتُه الانقطاع بين عليِّ بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة[١]، والله أعلم.

وقال الضَّحَّاك: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ أي: يتشقَّقن فَرَقًا من عظمة الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: غضبًا لله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ قال ابن عبَّاس: هدمًا. وقال سعيد بن جبير: ﴿هَدًّا﴾ ينكسر بعضها علىٰ بَعْضٍ متتابعات.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن سُوَيْد المقبري، حدَّثنا سفيان بن عيينة، حدَّثنا مسعر، عن عون [عن][٢] عبد الله قال: إنَّ الجبل ليُنَادِي الجبلَ باسمه: يا فلان، هل مَرَّ بك اليوم ذاكرُ الله عَزَّ وَجَلَّ؟ فيقول: نعم، ويَسْتَبْشِر. قال عونٌ: لَهِيَ للخيرِ أسمع، أفيسمعنَ الزُّور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾[٣].

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا المنذر بن شاذان، حدَّثنا هَوْذَة، حدَّثنا عوف، عن غالب بن عَجْرَد، حدَّثني رَجُلٌ من أهل الشَّام في مسجد مِنَىٰ قال: بلغَنِي أنَّ الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشَّجر، لم يكن في الأرض شجرةٌ يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعةً -أو قال: كان لهم فيها منفعة- ولم تَزَلْ الأرض والشَّجر بذلك، حتىٰ تكلَّم فَجَرَةُ بني آدم بتلك الكلمة العَظِيمة، قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ فلما تكلَّموا بها اقشعرَّت الأرض، وشاكَ الشَّجر[٤].

وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واسْتَعَرَتِ النَّار، حين قالوا ما قالوا[٥].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ»**[٦].

أخرجاه في «الصَّحيحين» وفي لفظٍ: **«إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»**.

وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: لا يصلحُ لَهُ، ولا يليق بِهِ لجلالِهِ وعظمتِهِ؛ لأنَّه لا كفءَ له مِن خلقه؛ لأنَّ جميعَ الخلائقِ عبيدٌ له؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أي: قَد عَلِم عَدَدَهم منذ خلقهم إلىٰ يوم القِيامَة، ذَكَرهم وأُنْثاهم وصغيرهم وكبيرَهُم، ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ أي: لَا ناصرَ له ولا مجيرَ إلا الله وحده لا شَريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العَادِل الذي لا يظلم مثقال ذَرَّةٍ، ولا يظلم أحدًا.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥).

(٢) في (ز): (بن)، والمثبت هو الصواب.

(٣) مرسل: عون هو ابن عبد الله بن مسعود، روايته عنه مرسلة.

(٤) ضعيف: فيه غالب بن عجرد: مجهول، وفي الإسناد أيضًا لم يسم الرجل من أهل الشام.

(٥) رواه الطبري (١٦/ ١٣٠) من رواية كعب الأحبار، وهو يروي الإسرائيليات.

(٦) البخاري (١٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤)، وأحمد (٤/ ٣٩٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه يغرس لعباده المؤمنين الَّذِين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله ﷻ لمتابعتها الشَّريعة المحمَّدية -يغرس لهم في قلوب عباده الصَّالحين مودَّةً، وهذا أمرٌ لا بدَّ منه ولا مَحِيدَ عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجهٍ.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبو عَوَانة، حدَّثنا سُهَيْل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ**. قال: **فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ**». قال: «**ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا**». قال: «**فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ**». قال: «**فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ**». قال: «**فَيُبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ**».

ورواه مسلم من حديث سُهَيْل[1]. ورواه أحمد والبخاري، من حديث ابن جُرَيْج، عن موسىٰ ابن عتبة، عن نافع مولىٰ ابن عمر، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن بكر، حدَّثنا ميمون أبو محمَّد المرئي، حدَّثنا محمَّد بن عباد المخزومي، عن ثوبان رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاتَ اللهِ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِجِبْرِيلَ: إِنَّ فُلَانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي؛ أَلَا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ فُلَانٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ العَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ، حَتَّىٰ يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَىٰ الأَرْضِ**»[2]. غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أسود بن عامر، حدَّثنا شَرِيك، عن محمَّد بن سعد الواسطي، عن أبي ظَبْيَة، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ المِقَةَ مِنَ اللهِ** -قال شريك: هي المحبة- **وَالصِّيتَ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا قَالَ لِجِبْرِيلَ** عليه السلام: **إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ: إِنَّ رَبَّكُمْ يَمِقُ** - يعني: **يُحِبُّ**- **فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ** -وأرىٰ شريكًا قد قال: فتنزل له المحبَّة في الأرض- **وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا قَالَ لِجِبْرِيلَ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ**»، قال: «**فَيُنَادِي جِبْرِيلُ: إِنَّ رَبَّكُمْ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ**». قال:

---

(١) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٣٧)، وأحمد (٢/ ٥١٤).

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/ ٢٧٩)، وفيه محمَّد بن بكر: صدوق قد يخطئ كما في «التقريب».

أرىٰ شريكًا قد قال: فيجري له البغض في الأرض». غريب ولم يخرجوه[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو داود الحَفَريّ، حدَّثنا عبد العزيز -يعني ابن محمَّد، وهو الدَّراوَرْدي- عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا، فَأَحِبَّهُ، فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُنْزَلُ لَهُ المَحَبَّةَ فِي أَهْلِ الأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدّٗا﴾»[٢].

رواه مسلم والترمذي كلاهما عن قتيبة، عن الدراوردي به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدّٗا﴾ قال: حبًّا.

وقال مجاهدُ، عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدّٗا﴾ قال: محبةً في النَّاس في الدُّنيا.

وقال سعيدُ بن جبير، عنه: يحبهم ويُحببهم؛ يعني: إلىٰ خلقهِ المؤمنين. كما قال مجاهد أيضًا، والضَّحَّاك وغيرهم.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاسٍ أيضًا: الود من المسلمين في الدُّنيا، والرِّزق الحسن، واللِّسان الصَّادق.

وقال قتادة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدّٗا﴾ إي والله، في قلوبِ أهل الإيمان، ذُكِر لنا أنَّ هَرِم بن حَيَّان كان يقول: ما أقبل عبدٌ بقلبه إلىٰ الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنينَ إليه، حتىٰ يرزقه مودتهم ورحمتهم.

وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان ؓ يقول: ما من عبدٍ يعمل خيرًا، أو شرًّا، إلا كساه الله ﷻ رِدَاءَ عملِهِ[٣].

وقال ابن أبي حاتم ؒ: حدَّثنا أحمد بن سِنَان، حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، عن الربيع بن صَبِيح، عن الحسن البصري ؒ قال: قال رجلٌ: والله لأعبدنَّ الله عبادةً أُذْكَرُ بها، فكان لا يرىٰ في حين صلاةٍ إلا قائمًا يصلِّي، وكان أوَّل داخلٍ إلىٰ المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهرٍ، وكان لا يمر علىٰ قوم إلا قالوا: «انظُروا إلىٰ هذا المُرَائِي» فأقبل علىٰ نفسه فقال: لا أراني أُذْكَرُ إلا بِشَرٍّ، لأجعلنَّ عملي كلَّه لله ﷻ، فلم يَزِد علىٰ أن قلبَ نيَّته، ولم يزد علىٰ العمل الَّذي كان يعمله، فكان يمرُّ بعد بالقوم، فيقولون: رَحِمَ الله فلانًا الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدّٗا﴾[٤].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٥٩)، وفي إسناده شريك القاضي: ثقة يخطئ كثيرًا، وأبو ظبية الكلاعي قال الحافظ: مقبول، فالإسناد ضعيف، لكن هو بمعنىٰ الأحاديث المذكورة قبله وبعده.

(٢) مسلم (٢٦٣٧)، والتِّرمذي (٣١٦١).

(٣) رواه الطبري (١٣٣٨٦)، ورجاله ثقات.

(٤) رجاله ثقات عدا الرَّبيع بن صبيح فهو صدوق سيِّئ الحفظ، وكان عابدًا مجاهدًا.

وقد روىٰ ابن جرير أثرًا أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف[(١)]. وهو خطأ، فإنَّ هذه السُّورة بتمامها مكيَّةٌ لم ينزل منها شيءٌ بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: يا محمَّد، وهو اللِّسان العربي المبينُ الفَصِيحُ الكاملُ، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المستجيبين لله المصدِّقين لرَسُولِهِ، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: عوجًا عن الحقِّ مائلين إلىٰ الباطِلِ.

وقال ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ لا يستقيمون. وقال الثوري، عن إسماعيل -وهو السُّدِّي- عن أبي صالح: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ عوجًا عن الحق. وقال الضَّحَّاك: هو الخَصِم، وقال القرظي: الألد: الكذَّاب. وقال الحسن البصري: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ صمًّا. وقال غيره: صُمُّ آذان القلوب. وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ يعني: قريشًا. وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ فجارًا، وكذا روىٰ ليث بن أبي سليم عن مجاهد. وقال ابن زيد: الألد: الظَّلوم، وقرأ قول الله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمةٍ كفروا بآيات الله وكذَّبوا رسله، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: هل ترىٰ منهم أحدًا، أو تسمع لهم ركزًا.

قال ابن عبَّاس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جُبَير، والضَّحَّاك، وابن زيد: يعني: صوتًا. وقال الحسن، وقتادة: هل ترىٰ عينًا، أو تسمع صوتًا. والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر:

فَتَوَجَّسَتْ[(٢)] رِكْزَ الأَنِيسِ فَرَاعَهَا   عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالأَنِيسُ سَقَامُهَا

آخر تفسير «سورة مريم» ولله الحمد والمنَّة.

ويتلوه إن شاء الله تعالىٰ تفسير «سورة طه» والحمد لله.

---

(١) رواه الطبري (١٦/ ١٣٣)، وقد ضعَّف ابن كثير إسناد هذه الرواية.

(٢) التَّوجُّس: التسمُّعُ إلىٰ الصَّوت الخَفي، وتَوَجَّسَتْ رِكْزَ الأَنِيسِ: أي تسمَّعتِ البقرةُ صوتَ الأنيس، فأفزعَها، والرز والركز: الصَّوت الخفي، وقوله: والأَنِيسُ سَقَامُهَا، معناه: هلاكُها، أي: يصيدُها.

سُورَةُ طه

تفسير سورة طه وهي مكية

روىٰ إمام الأئمَّة محمَّد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب «التَّوحيد»، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الحِزامي، حدَّثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، عن عمر بن حفص بن ذَكْوان، عن مولىٰ الحُرقة -يعني عبد الرحمن بن يعقوب- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَرَأَ ﴿طه﴾ وَ﴿يس﴾ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِأَلْفِ عَامٍ، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ قَالُوا: طُوبَىٰ لِأُمَّةٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ هَذَا وَطُوبَىٰ لِأَجْوَافٍ تَحْمِلُ هَذَا، وَطُوبَىٰ لِأَلْسُنٍ تَتَكَلَّمُ بِهَذَا**»[1].

هذا حديثٌ غريبٌ، وفيه نكارةٌ، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تُكلِّم فيهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه[2] ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

تقدَّم الكلام علىٰ الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة «البقَرَة» بما أغنَىٰ عن إعادتِهِ.

---

(١) **ضعيف جدًّا**: رواه ابن خزيمة (٢٣٦)، وابن أبي عاصم (٢٦٩)، وفيه إبراهيم بن المهاجر بن مسمار: ضعيف. وشيخه عمر بن حفص: ضعيف.

(٢) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله**: (أول السورة) مَضْمُونُهَا تَخْفِيفُ أَمْرِ الْقُرْآنِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ كُتُبِهِ فَهِيَ «سُورَةُ كُتُبِهِ» - كَمَا أَنَّ مَرْيَمَ «سُورَةُ عِبَادِهِ وَرُسُلِهِ» - افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾.. إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾. ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَىٰ وَنِدَاءَ اللهِ لَهُ وَمُنَاجَاتَهُ إِيَّاهُ وَتَكْلِيمَهُ لَهُ وَقِصَّتُهُ مِنْ أَبْلَغِ أَمْرِ الرُّسُلِ فَلِهَذَا ثُنِّيَتْ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ حَصَلَ لَهُ الْخِطَابُ وَالْكِتَابُ وَأُرْسِلَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ الْجَاحِدِ الْمُرْتَابِ الْمُكَذِّبِ لِلرُّبُوبِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَهَذَا أَعْظَمُ الْكَافِرِينَ عِنَادًا وَاسْتَوْفَىٰ الْقِصَّةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ آدَمَ؛ لِأَنَّهَا أَوَّلُ النُّبُوَّاتِ. وَتَضَمَّنَتْ السُّورَةُ ذِكْرَ مُوسَىٰ وَآدَمَ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُنَاسَبَةِ مِمَّا يَقْتَضِي ذِكْرَهُمَا وَلِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ مُوسَىٰ نَظِيرَ آدَمَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي صَارَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ نَظِيرُ آدَمَ فِي الْخَلْقِ وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الْآيَاتُ وَهَذَا يُشَابِهُ مَا فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ ذِكْرِ نُبُوَّةِ آدَمَ ثُمَّ نُبُوَّةِ مُوسَىٰ بَعْدَهُ وَأَمْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ثُمَّ أَمْرَ نَبِيِّهِ بِالصَّلَاةِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ بِالْقِرَاءَةِ وَالسُّجُودِ فِي أَوَّلِ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ وَخَتَمَهَا بِالرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ لِكُلِّ مَا أُمِرَ بِهِ كَمَا افْتَتَحَهَا بِذِكْرِ التَّنْزِيلِ عَلَيْهِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسين بن محمَّد بن شنبة[(١)] الواسطي[(٢)]، حدَّثنا أبو أحمد -يعني: الزبيري- أنبأنا إسرائيل، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: ﴿طه﴾: يا رجل[(٣)].

وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير[(٤)]، ومحمَّد بن كعب، وأبي مالك[(٥)]، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وابن أبزى أنهم قالوا: ﴿طه﴾ بمعنىٰ: يا رجل.

وفي رواية عن ابن عبَّاس[(٦)]، وسعيد بن جبير والثوري أنَّها كلمة بالنبطيَّة معناها: يا رجل. وقال أبو صالح[(٧)] هي مُعَرَّبةٌ.

وأسند القَاضِي عياض في كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد في «تفسيره»: حدَّثنا هاشم بن [القاسم][(٨)] عن ابن جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا صلَّىٰ قام علىٰ رِجْلٍ ورفع الأخرىٰ، فأنزل الله تعالىٰ ﴿طه﴾؛ يعني: طأ الأرض يا محمَّد، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾. ثم قال: ولا خفاء بما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة[(٩)].

وقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ قال جويبر، عن الضَّحَّاك: لما أنزل الله القُرآن علىٰ رسولِهِ، قام به هو وَأَصْحَابُهُ، فقال المشركون من قريشٍ: ما أنزل هذا القُرْآن علىٰ محمَّدٍ إلا ليَشْقَىٰ! فأنزلَ الله تعالىٰ: ﴿طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[(١٠)].

فليس الأمرُ كما زَعَمَهُ المبطلُون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيرًا كثيرًا، كما ثبت في «الصحيحين»، عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[(١١)].

وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال:

حدَّثنا أحمد بن زهير، حدَّثنا العلاء بن [مسلمة][(١٢)]، حدَّثنا إبراهيم الطالقاني، حدَّثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سِمَاك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ**

---

(١) في (ز): (شيبة)، والمثبت هو الصواب، وقد تصحفت في المطبوع من «تاريخ بحشل» إلىٰ (شيبة)، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٦/ ٤٧٩).

(٢) لوحة (٢٣٩ أ).

(٣) رجاله ثقات: وعزاه السيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٥٥٠) إلىٰ الطَّبراني وابن مردويه.

(٤) في المطبوع زيادة «عطاء»، ولم أجده في (ز) ولا في شيءٍ من الأصول.

(٥) في (ز): (وابن مالك)، والصواب ما أثبتناه، وهو كما في «ابن أبي حاتم».

(٦) رواه الطبري (١٦/ ١٣٥)، وعزاه السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٥٥٠) إلىٰ الحارث بن أبي أسامة، وابن أبي حاتم، ورجاله ثقات.

(٧) في (ز): (أبو مالك)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم».

(٨) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الشفا» (١/ ٤٢).

(٩) مرسل: فالرَّبيع بن أنس ليس صحابيًّا، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٥٤٩) إلى عبد بن حميد وابن المنذر ووصله البزار عن عليٍّ كما أشار إلى ذلك السيوطي وحسن إسناده، وعزاه كذلك إلى ابن مردويه عن ابن عبَّاس.

(١٠) مرسل كسابقه، وانظر التعليق السابق.

(١١) البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(١٢) في (ز): العلاء بن سالم، وهو تحريف.

تَعَالَىٰ لِلْعُلَمَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا قَعَدَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ لِقَضَاءِ عِبَادِهِ: إِنِّي لَمْ أَجْعَلْ عِلْمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْكُمْ، وَلا أُبَالِي»(١).

إسناده جيِّد وثعلبة بن الحكم هذا [هو الليثي](٢) ذكره أبو عمر في استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلىٰ الكوفة، وروىٰ عنه سماك بن حرب.

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾: هي كقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وكانوا يعلِّقون الحبال بصُدُورِهِم في الصَّلاة.

وقال قتادة: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾: لا والله ما جعله شقاءً، ولكن جعله رحمةً ونورًا، ودليلًا إلىٰ الجنَّة.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: إنَّ الله أنزل كتابه، وبعثَ رسلَهُ رحمةً، رَحِمَ بها العِبَادَ؛ ليتذكر ذاكر، وينتفع رجلٌ بما سَمِعَ من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه(٣).

وقوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمَّد هو تنزيلٌ من ربك رب كل شيءٍ ومليكه، القادر علىٰ ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السَّموات العلىٰ في ارْتِفَاعِها ولطافتها. وقد جاء في الحديث الذي صححه الترمذي وغيره. أن سُمْكَ كلِّ سماءٍ مسيرة خمسمائة عام، وبُعْدَ ما بينها والتي تليها [مسيرة](٤) خمسمائة عام(٥).

وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديث الأوعال من رواية العبَّاس عم رسول الله ﷺ ورضي الله عنه(٦).

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: تقدَّم الكلامُ علىٰ ذلك في سورة الأعراف، بما أغنىٰ عن إعادته أيضًا، وأنَّ المسلك الأسلم في ذلك طريقة السَّلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييفٍ ولا تحريفٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصريفِهِ ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكُهُ وإلهُهُ، لا إله سواه، ولا ربَّ غيره.

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني (٣/ ٨٤/ ١٣٨١)، وعلَّته العلاء بن مسلمة أبي سالم. وقد تحرَّف هنا إلىٰ العلاء بن سالم. قال الحافظ في «التقريب»: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع. وفي الإسناد أيضًا سماك بن حرب تغير بآخره.

(٢) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الاستيعاب» (١/ ٢١٢).

(٣) لوحة (٢٣٩ ب).

(٤) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الترمذي»، وقد أخرج الترمذي هذا الحديث من رواية الحسن عن أبي هريرة، ثم قال: (لم يسمع الحسن من أبي هريرة) «الترمذي» (٣٢٩٨).

(٥) حسن: رواه الدارمي في «الرد علىٰ المريسي» (١٠٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٧٨٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٥٠٧)، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (٢/ ٣٩٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٧٩). والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٢٨)، وصحَّح إسناده الذَّهبي في «العلو» (ص١٠٣ ـ مختصر)، وابن القيم في «الصواعق» (٢/ ٣٧٣ – مختصر).

(٦) ضعيف: رواه أبو داود (٤٧٢٤)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٥٣)، واللالكائي (٢/ ٣٨٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٠٤)، وفي إسناده عبد الله بن عميرة: مقبول، ولم يتابعه أحدٌ، فالإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ قال محمَّد بن كعب: أي ما تَحْت الأرض السَّابعة.

وقال الأوزاعي: إنَّ يحيىٰ بن أبي كثيرٍ حدَّثه أنَّ كعبًا سُئِل فقيل له: ما تحت هذه الأرض؟ فقال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: صخرة. قيل: وما تحت الصخرة؟ قال: ملك. قيل: وما تحت الملك؟ قال: حُوت معلَّق طرفاه بالعرش، قيل: وما تحت الحوت؟ قال: الهواء والظلمة وانقطع العلم(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبيد الله بن أخي بن وهب، حدَّثنا عمي، حدَّثنا عبد الله بن عَيَّاش(٢)، حدَّثنا عبد الله بن سليمان، عن دَرَّاج، عن عيسىٰ بن هلال الصَّدَفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الأَرَضِينَ بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالعُلْيَا مِنْهَا عَلَىٰ ظَهْرِ حُوتٍ، قَدِ الْتَقَىٰ طَرَفَاهُ فِي السَّمَاءِ، وَالحُوتُ عَلَىٰ صَخْرَةٍ، وَالصَّخْرَةُ بِيَدِ المَلَكِ، وَالثَّانِيَةُ سِجْنُ الرِّيحِ، وَالثَّالِثَةُ فِيهَا حِجَارَةُ جَهَنَّمَ، وَالرَّابِعَةُ فِيهَا كِبْرِيتُ جَهَنَّمَ، وَالخَامِسَةُ فِيهَا حَيَّاتُ جَهَنَّمَ، وَالسَّادِسَةُ فِيهَا عَقَارِبُ جَهَنَّمَ، وَالسَّابِعَةُ(٣) فِيهَا سَقَرُ، وَفِيهَا إِبْلِيسُ مُصَفَّدٌ بِالحَدِيدِ، يَدٌ أَمَامَهُ وَيَدٌ خَلْفَهُ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُطْلِقَهُ لِمَا يَشَاءُ أَطْلَقَهُ**».

هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا ورفعه فيه نظر(٤).

وقال الحافظ أبو يعلىٰ في «مسنده»: حدَّثنا أبو موسىٰ الهروي، عن العبَّاس بن الفضل قال: قلت: ابن الفضل الأنصاري؟ قال: نعم، [عن القاسم](٥) بن عبد الرَّحمن، عن محمَّد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين في حرٍّ شديدٍ، فنحن متفرِّقون [بين](٦) واحدٍ واثنين، منتشرين، قال: وكنت في أوَّل العسكر: إذ عَارَضَنَا رجل فَسلَّم ثم قال: أيُّكم محمَّد؟ ومضىٰ أصحابي ووقفت معه، فإذا رسول الله ﷺ قد أقبل في وسط العَسْكَر علىٰ جملٍ أحمر، مُقَنَّع بثوبه علىٰ رأسه من الشمس، فقُلْت: أيُّها السَّائل، هذا رسول الله قد أتاك. فقال:

---

(١) لم يعزه لأحدٍ، وهو مِن كلام كعب الأحبار، وهو يروي الإسرائيليَّات، لكن عزاه السُّيوطي من حديث جابر مرفوعًا في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٥٥٢) إلىٰ ابن مردويه، وسيأتي من رواية أبي يعلىٰ، وإسناده ضعيف، انظر رقم (١٢).

(٢) في (ز): (عباس)، والمثبت هو الصواب، وانظر: «الجرح والتعديل» (٥/ ١٢٦).

(٣) لوحة (٢٤٠ أ).

(٤) ضعيف: فيه أبو عبيد الله: تغيَّر بآخرِهِ، وعبد الله بن عياش: صدوق يغلط. والمتن فيه نكارةٌ شديدةٌ ومخالفةٌ للأحاديث الصَّحيحة، بأنَّ إبليس نصب عرشه على الماء (وهو في صحيح مسلم).

(٥) في (ز): (وقال بن عبد الرحمن)، وما أثبتناه موافق لما في «الجرح والتعديل» (٧/ ١١٢)، وهو القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري.

(٦) سقط من (ز).

أيُّهم هو؟ فقلت: صاحب البَكْر[1] الأحمر. فدنا منه، فأخذ بخُطَام راحلته، فكَفَّ عليه رسول الله ﷺ، فقال: أنت محمَّد؟ قال: «نَعَمْ». قال: إنِّي أريد أن أسألك عن خصالٍ، لا يعلمهنَّ أحدٌ من أهل الأرض إلا رجلٌ أو رجلان، فقال رسول الله ﷺ: «سَلْ عَمَّا شِئْتَ». فقال: يا محمَّد، أينام النَّبيُّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ». قال: صدقت. ثم قال: يا محمَّد، مِنْ أين يشبه الوَلَد أباه [وأمه][2]؟ قال: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ، وَمَاءُ المَرْأَةِ [أَصْفَرُ][3] رَقِيقٌ، فَأَيُّ المَاءَيْنِ غَلَبَ عَلَىٰ الآخَرِ [نَزَعَ][4] الوَلَدُ». فقال: صدقت. فقال: ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: «لِلرَّجُلِ العِظَامُ وَالعُرُوقُ وَالعَصَبُ، وَلِلْمَرْأَةِ اللَّحْمُ وَالدَّمُ وَالشَّعْرُ» قال: صدقت. ثم قال: يا محمَّد، ما تحت هذه؛ يعني: الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «خَلْقٌ». فقال: فما تحتهم؟ قال: «أَرْضٌ». قال: فما تحت الأرض؟ قال «المَاءُ» قال: فما تحت الماء؟ قال: «ظُلْمَةٌ». قال: فما تحت الظلمة؟ قال: «الهَوَاءُ». قال: فما تحت الهواء؟ قال: «الثَّرَىٰ». قال: فما تحت الثَّرىٰ؟ ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: «انْقَطَعَ عِلْمُ المَخْلُوقِينَ عِنْدَ عِلْمِ الخَالِقِ، أَيُّهَا السَّائِلُ، مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قال: فقال: صدقت، أشهد أنك رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ تَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هَذَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

هذا[5] حديثٌ غريبٌ جدًّا، وسياق عجيبٌ، تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيىٰ بن معين: ليس يساوي شيئًا، وضعفه أبو حاتم[6] الرازي، وقال ابن عدي: لا يعرف.

قلت: وقد[7] خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيءٌ في شيءٍ، وحديثٌ في حديثٍ. وقد يُحْتَمل أنه تَعَمَّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: أنزل هذا القرآن الذي خلق [الأرض والسَّموات العُلَىٰ، الذي يعلم السِّرَّ وأخفىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى][8] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السِّر ما أسرَّ ابن آدم في نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما أخفىٰ علىٰ ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فاللهُ يعلم ذلك كلَّه، فَعِلْمه فيما مضىٰ من ذلك وما بقي عِلْمٌ واحدٌ، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفسٍ واحدةٍ، وهو قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. وقال الضَّحَّاك: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السِّر: ما تحدِّث

---

(١) البَكْر: الفتيُّ من الإبل.
(٢) سقط من (ز).
(٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز).
(٥) لوحة (٢٤٠ ب).
(٦) في (ز): (ابن أبي حاتم).
(٧) في (ز): (وممن).
(٨) ليست في (ز).

به نفسك، وأخفىٰ: ما لم تُحَدِّث به نفسَك بعد. وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تُسِرُّ اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ غدًا، والله يعلم ما تُسِرُّ اليوم، وما تُسِرُّ غدًا. وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يعني: الوسوسة. وقال أيضًا هو وسعيد بن جبير: ﴿وَأَخْفَى﴾ أي: ما هو عامله مما لم يحدِّث به نفسه.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [أي: الذي أنزل عليك القرآن هو الله الَّذِي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنىٰ][1] والصفات العلىٰ. وقد تقدَّم بيان الأحاديث الواردةِ في الأسماء الحسنىٰ في أواخر سورة «الأعراف» ولله الحمد والمنَّة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ[2] ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾

من هاهنا شَرَعَ -تبارك وتعالىٰ- في ذكر قصة موسىٰ عليه السلام، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إيَّاه، وذلك بعد ما قضىٰ مُوسَىٰ الأجل الَّذِي كان بينه وبين صِهْره في رعاية الغنم، وسار بأهلِهِ قيل: قاصدًا بلاد مصر بعدما طَالَت الغَيْبَة عنها أكثر مِن عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلةً شاتيةً، ونزل منزلًا بين شعابٍ وجبالٍ، في بردٍ وشتاءٍ، وسحابٍ وظلامٍ وضبابٍ، وجعل يقدح بزند معه ليُوريَ نارًا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئًا، ولا يخرج منه شررٌ ولا شيءٌ. فبينا هو كذلك، إذ آنس مِن جانب الطور نارًا؛ أي: ظهرت له نارٌ من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشِّرُهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شهابٌ من نارٍ. وفي الآية الأخرىٰ: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩] وهي الجمر: الذي معه لهب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] دلَّ علىٰ وجودِ البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دلَّ علىٰ وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني الطريق، دلَّ علىٰ أنَّه قد تَاهَ عن الطَّريق[3]، كما قال الثوري، عن أبي سعد[4] الأعور، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: مَن يهديني إلىٰ الطَّريق. وكانوا شَاتِين وضلُّوا الطَّريق، فلمَّا رأىٰ النَّار قال: إن لم أجد أحدًا يهديني إلىٰ الطَّريق آتكم بنارٍ توقدون بها.

---

(١) ليست في (ز).

[illegible] هذا الاستفهام أريد به التشويق لما يلقىٰ لعظيم فائدته، وهل هنا بمعنىٰ قد المفيدة للتحقيق هي كما في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١] أي قد أتىٰ.

لوحة (٢٤١ أ).

في (ز): (أبو سعيد)، والصواب ما أثبتناه، وهو: سعيد بن المرزبان العبسي أبو سعد البقال الكوفي الأعور. انظر: «تهذيب الكمال» (١١/ ٥٢).

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢ وَأَنَا
ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ١٤ إِنَّ
ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا
وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ١٦﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النَّار واقترب منها، ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] وقال هاهنا: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلمك ويخاطبك، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال علي بن أبي طالب، وأبو ذرٍّ، وأبو أيوب، وغير واحد من السَّلف: كانتا من جلد حمارٍ غير مذكًّى[(١)(٢)].

وقيل: إنَّما أمره بخلعِ نعلَيْهِ تعظيمًا للبقعة. قال سعيد بن جبير: كما يُؤْمَر الرَّجل أن يخلع نعلَيْه إذا أراد أن يدخل الكعبة. وقيل: ليطأ الأرض المقدَّسة بقدَمَيْه حافيًا غير منتعل. وقيل: غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحدٍ، فعلىٰ هذا يكون عطف بيان. وقيل: عبارة عَن الأمرِ بالوطءِ بقدَمَيْه. وقيل: لأنه قُدِّس مرَّتين، وطوىٰ له البركة وكررت: والأوَّل أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦].

وقوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: علىٰ جميع النَّاس من الموجودين في زمانه.

وقد قيل: إنَّ الله تعالىٰ قال: يا موسىٰ، أتدري لم خصصتكَ بالتَّكليم من بين النَّاس؟ [قال: لا. قال:][(٣)] لأنِّي لم يتواضع لي أحدٌ تواضعك.

وقوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: اسمع الآن ما أقول لك وأُوحِيهِ إليك ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ هذا أول واجبٍ علىٰ المكلَّفين أن يعلموا أنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وقوله: أي: وحِّدْني وَقُم بعبادتي من غير شريكٍ، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ قيل: معناه: صَلِّ لتذكرني. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذِكْرِكَ لي.

ويشهد لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدَّثنا المثنىٰ بن سعيدٍ، عن قتادة، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾»

أي: غير مذكًّىٰ، وهو الذي زهقت نفسه ولم يُذْبح.
رواه الطبري (١٦/ ١٤٤)، وفي إسناده جابر الجعفي: ضعيف، ورواه نحوه عن ابن مسعود، وضعف إسناده الطبري بعد إيراده.
سقط من (ز). في (ز): (أولىٰ). لوحة (٢٤١ ب).
رواه أحمد (٣/ ١٨٤)، والبخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

وفي «الصحيحين» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ»[١].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ أي: قائمةٌ لا محالة، وكائنةٌ لا بدَّ منها.

وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: أنه كان يقرؤها: «أكاد أُخفِيها من[٢] نَفْسِي»[٣]، يقول: لأنَّها لا تخفىٰ من[٤] نفس الله أبدًا[٥].

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: من نفسه[٦]. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيىٰ بن رافع.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أُطْلِعُ عليها أحدًا غيري[٧].

وقال السُّدِّي: ليس أحدٌ مِن أهل السَّموات والأرضِ إلَّا قد أخفىٰ الله عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود: «إنِّي أكاد أُخفِيها من نفسِي»، يقول: كتمتها عن الخلائق، حتىٰ لو استطعت أن أكتمها مِن نفسي لفَعَلْتُ.

وقال قتادة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ وهي في بعض القراءة أُخفِيها مِن نفسي، ولعمري لقد أخفاها الله مِن الملائكة المقرَّبين[٨]، ومن الأنبياء والمرسلين.

قلت: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: ثَقُل علمُها علىٰ أهل السَّموات والأرض.

وقال ابن أبي حاتم[٩]: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا مِنْجَابٌ، حدَّثنا أبو تُمَيْلَة، حدَّثني محمَّد بن سهل الأسدي، عن وِقَاء[١٠] قال: أقرأنيها سعيد بن جبير (أكاد أَخفيها)؛ يعني: بنصب الألف وخفض الفاء، يقول: أظهرها، ثم قال: أما سمعت قول الشاعر:

---

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) في (ز): (في)، والمثبت كما في «الدر المنثور»، و«ابن أبي حاتم».

(٣) قراءة: قَرَأَ (أَكَادُ أُخْفِيهَا مِن نَّفْسِي) ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ).

(٤) في (ز): (في)، والمثبت كما في «الدر المنثور»، و«ابن أبي حاتم».

(٥) رواه الطبري (١٦/ ١٤٩) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس، وشيخ الطبري محمَّد بن حميد: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه كما في «التقريب»، وفي الإسناد عطاء بن السائب: اختلط، والراوي عنه جرير لا يدرىٰ روىٰ عنه قبل أم بعد الاختلاط.

وأمَّا روايته المذكورة هنا فالضَّحَّاك لم يلقَ ابن عبَّاسٍ وهو كثير الإرسال.

(٦) انظر التعليق السابق.

(٧) رواه الطبري (١٦/ ١٤٩) وإسناده منقطع.

(٨) في (ز): (الملائكة القدس)، والمثبت كما في «الطبري».

(٩) أورده الطبري (١٦/ ١٤٩ - ١٥٠) نحوه، وقال: لا أَستَجِيزُ القراءة بها لخلافها قراءة الحجَّة التي لا يجوز خلافها.

(١٠) في (ز): (ورقا)، والصواب ما أثبتناه، وهو: وقاء بن إياس الأسدي «الجرح والتعديل».

دَأَبَ شَهْرَيْنِ [١] ، ثُمَّ شَهْرًا دَمِيكًا بِأَرِيكَيْنِ يَخْفِيَانِ غَمِيرًا

وقال الأسدي: الغمير: نبتٌ رَطْبٌ، يَنْبُتُ في خلالٍ يَبَسٍ. والأريكين: مَوْضِع، والدَّميك: الشهر التام. وهذا الشعر لكعب بن زهير.

وقوله ﷻ: ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أي: أقيمها لا محالة، لأَجْزِي كل عامل بعمله، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٦].

وقوله: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين؛ أي: لا تَتَّبِعوا سبيل من كذَّب بالسَّاعة، وأقبل على ملاذِّهِ في دنياه، وعصى مولاهُ، واتَّبع هواه، فمَن وافقهم على ذلك فقد خاب وخَسِر ﴿فَتَرْدَىٰ ﴾ أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: ١١].

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا [٢] مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ ﴾

هذا برهانٌ من الله تعالى لموسى عليه السلام ومعجزةٌ عظيمةٌ، وخرقٌ للعادة باهرٌ، دالٌّ على أنَّه لا يقدر على مثلِ هذا إلا الله عز وجل وأنَّه لا يأتي بِهِ إلَّا نبيٌّ مرسلٌ، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ قال بعض المفسِّرين: إنَّما قال له ذلك على سَبِيل الإيناس له. وقيل: إنَّما قال له ذلك على وَجْه التَّقرير؛ أي: أما هذه الَّتِي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ استفهام تقرير.

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أي: أهز بها الشَّجرة ليسقط ورقها؛ لترعاه غنمي.

قال عبد الرحمن بن القاسم: عن الإمام مالك: والهَشُّ: أن يضعَ الرَّجل المحْجَن [٣] في الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثَمَره، ولا يكسر العود، فهَذَا الهش، ولا يخبط [٤]. وكذا قال ميمون بن مهران أيضًا.

---

(١) دأب شهرين: أي يدأب في رعي النَّبات، ودميكًا: تامًّا، والغمير: نبت تصيبه السماء، فينبت عنه نبت آخر، وربما أصاب الإبل منه داء.

(٢) لوحة (٢٤٢ أ). (٣) المِحْجَنُ: عصا معقوفة الرأس، كالصَّولَجان.

(٤) الخبطُ: ضربُ الشَّجر بالعصا ليتناثرَ ورقُها.

وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: مصالح ومنافع وحَاجَات أُخَر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيءٍ من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيءُ له باللَّيل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرةً تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

والظَّاهر أنَّها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسىٰ صيرورتها ثعبانًا، فما كان يَفِرُّ منها هاربًا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيليَّة، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقول الآخر: إنَّها هي الدَّابَّة التي تخرج قبل يوم القيامة. وروي عن ابن عبَّاس أنَّه قال: كان اسمها مَاشَا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: هذه العصا التي في يَدِكَ يا موسىٰ، ألقها ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي: صارت في الحال حَيَّةً عظيمةً، ثعبانًا طويلًا يتحرَّك بحركةٍ سريعةٍ، فإذا هي تهتزُّ كأنَّها جانٌّ، وهو أسرع الحيَّات حركةً، ولكنَّه صغيرٌ، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَىٰ﴾ أي: تمشي وتضطرب.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن عَبْدَة، حدَّثنا حفص بن جُمَيْع، حدَّثنا سِمَاك، عن عكرمة، عن [ابن عبَّاس][1] ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ولم تكن قبل ذلك حيَّةً، فمرَّت بشجرةٍ فأكلتها، ومرَّت بصخرةٍ فابتلعتها، فجعل موسىٰ يسمع وَقْع الصَّخرة في جوفها، فولَّىٰ مدبرًا، فنودي أن: يا موسىٰ، خذها. فلم يأخذها، ثم نُودِيَ الثَّانية أن: خُذْها ولا تَخَفْ. فقيل له في الثَّالثة: إنَّك[2] من الآمِنِينَ. فأخذها[3].

وقال وهب بن مُنَبِّه[4] في قوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قال: فألقاها علىٰ وجه الأرض، ثم حانت منه نظرة فإذا بِأَعْظَم ثعبان نظر إليه النَّاظرون، فَدَبَّ يلتَمِس كأنَّه يبتغي شيئًا يريد أَخْذَه، يمرُّ بالصَّخرة مثل الخَلِفَة[5] من الإبل فيلتقمُهَا، ويطعن بالنَّاب من أنيابه في أصل الشَّجرة العظيمةِ فيَجْتثُّها، عيناه توقَدَان نارًا، وقد عاد المحجَن منها عُرفًا[6]. قيل: شعر مثل النَّيازِك، وعاد الشَّعبتان منها فمًا مثل القليب[7] الواسع، فيه أضراسٌ وأنيابٌ، لها صريفٌ[8]، فلما عايَنَ ذلك موسىٰ ولَّىٰ مدبرًا ولم يُعَقِّب، فذهب حتىٰ أمعن، ورأىٰ أنَّه قد أعجز الحيَّة، ثم ذكر ربَّه فوقف استحياءً منه، ثم

---

(١) بياض بـ(ز)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم». (٢) لوحة (٢٤٢ ب).

(٣) **ضعيف**: رواية سماك عن عكرمة مضطربة، وفي الإسناد حفص بن جميع: ضعيف؛ كما في «التقريب».

(٤) وهب بن منبه يروي من كتب بني إسرائيل، ومثلها يُصدَّق إذا كان له مستند في شرعتنا، وأمَّا إن كان يخالفها فيُكَذَّب، وأمَّا إن كان لا يوافقها ولا يخالفها، فيُحكَىٰ لكنَّه لا يُصدَّق ولا يُكذَّب. وسيأتي لوهب بن منبه رواياتٌ كثيرةٌ في الأخبار والقصص، فانتبه لما كتبته هنا.

(٥) **الخَلِفَةُ**: الحامل من النُّوق. (٦) **العُرْفُ**: شعر العنق، والنيزك: الرُّمح القصير.

(٧) **القَلِيبُ**: البئر. (٨) **الصَّرِيفُ**: صوت ناب البعير.

نودي: يا موسىٰ، أن ارجع حيث كنتَ. فرجع موسىٰ وهو شديد الخوف. فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وعلىٰ موسىٰ حينئذٍ مِدْرَعةٌ من صوفٍ، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأَخْذِها أدلىٰ طرف المدرعة علىٰ يدِهِ، فقال له ملك: أرأيتَ يا موسىٰ، لو أَذِن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تُغْنِي عنك شيئًا؟ قال: لا، ولكنِّي ضعيفٌ، ومن ضَعْفٍ خُلِقْت[1]. فكشف عن يدهِ ثم وضعها علىٰ فمِ الحية، حتىٰ سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قَبض فإذا هي عصاه الَّتي عهدها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكَّأ بين الشعبتين؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: إلىٰ حالها التي تعرف قبل ذلك.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

وهذا بُرهانٌ ثانٍ لموسىٰ عليه السلام، وهو أنَّ الله أمره أن يُدْخِل يده في جيبه، كما صرَّح به في الآية الأخرىٰ، وهاهنا عبَّر عن ذلك[2] بقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ وقال في مكانٍ آخر: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال مجاهد: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ كفه تحت عضده.

وذلك أن موسىٰ عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبِهِ ثمَّ أخرجها، تخرج تتلألأ كأنَّها فلقة قمر.

وقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير بَرَصٍ ولا أذىٰ، ومن غير شينٍ. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وغيرهم.

وقال الحسن البصري: أخرجها -والله- كأنَّها مصباحٌ، فعَلِم موسىٰ أنَّه قد لَقِي ربَّه عز وجل؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ[3] ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾.

وقال وهب: قال له ربه: ادْنُهْ: فلم يزل يدنيه حتىٰ شدَّ ظهره بجِذْع الشَّجرة، فاستقرَّ وذهبت عنه الرِّعدة، وجمع يده في العصا، وخضع برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: اذهب إلىٰ فرعون ملك مصر، الذي خَرَجْتَ فارًّا منه وهاربًا، فادعه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فَلْيُحْسِن إلىٰ بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنَّه قد طغَىٰ وبغَىٰ، وآثر الحياة الدُّنيا، ونَسِيَ الرَّبَّ الأعلىٰ.

---

(١) في (ز): (خاف)، والمثبت كما في «الدر المنثور».

(٢) في (ز): (وهاهنا عين ملك). (٣) لوحة (٢٤٣ أ).

قال وهب بن مُنَبِّه[(١)]: قال الله لموسىٰ: انطلق برسالتي فإنَّك بعَيْنِي وسمعي، وإنِّي معك أيدي ونَصْري، وإني قد ألبستك جُنَّةً من سلطاني لتَسْتكْمِل بها القوَّة في أمري، فأنت جندٌ عظيمٌ من جندي، بعثتك إلىٰ خلقٍ ضعيفٍ من خلقي، بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرَّته الدُّنيا عني، حتَّىٰ جحد حَقِّي، وأنكر رُبُوبِيَّتي، وزعم أنَّه لا يعرفني، فإنِّي أقسم بعِزَّتِي لولا القدر الَّذِي وضعت بيني وبَيْن خلقي، لبطشت به بطشة جبَّارٍ، يغضب لغضبه السَّموات والأرض، والجبال والبِحَار، فإن أمرت السَّماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعَتْه، وإن أمرت الجبال دمَّرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان عليَّ، وسقط مِن عينِي، ووسعه حلمِي، واستغنيت بما عندي، وحقِّي إنِّي أنا الغنيُّ لا غنيَّ غيري، فَبَلِّغْهُ رسالتي، وادْعُهُ إلىٰ عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكِّره أيَّامي[(٢)] وحذِّره نقمتي وبأسي، وأخبره أنَّه لا يقوم شيءٌ لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولًا ليِّنًا لعلَّه يتذكَّر أو يخشىٰ، وخَبِّره أنِّي إلىٰ العفو والمغفرة أسرع منِّي إلىٰ الغَضَب والعقوبة، ولا يَرُوعَنَّك ما ألبسته من لباس الدُّنيا، فإنَّ ناصيته بِيَدِي، ليس يَنْطِق ولا يطرف ولا يتنفَّس إلا بإذني، وقل له: أَجِب ربَّك فإنَّه وَاسِع المغفِرَة، وقد أمهلك أربعمائة سنة، في كلِّها أنت مبارِزُهُ بالمحاربة، تسبُّه وتتمثَّل به[(٣)] وتصدُّ عبادَه عن سبيله وهو يمطر عليك السَّماء، وينبت لك الأرض، و لم تَسقم ولم تهرم ولم تفتقِر [ولم تُغْلَب][(٤)] ولو شاء الله أن يعَجِّل لك العقوبة لفعل، ولكنَّه ذو أناةٍ وحلمٍ عظيمٍ. وجاهِدْه بنفسِكَ وأخيك وأنتما تَحْتَسِبَان[(٥)] بجِهَادِه، فإنِّي لو شئتُ أَن آتِيه بجنودٍ لا قِبلَ له بها لفَعَلْتُ، ولكن [لِيَعْلم][(٦)] هذا العبد الضَّعيف الَّذي قد أعجبته نَفْسُه وجموعه أنَّ الفئة القليلة -ولا قليلٌ مني- تغلب الفئة الكَثِيرَة بإذني، ولا تعجبنكما زِينَته، ولا ما متع به، ولا تمدَّا إلىٰ ذلك أعينكما، فإنَّها زهر الحياة الدنيا، وزينة المترفين. ولو شئت[(٧)] أَن أزيِّنكما من الدُّنيا بزينةٍ؛ ليعلم فرعونُ حين ينظر إليها أنَّ مقدرته تعجَز عن مثل ما أُوتِيتُما فعلت، ولكنِّي أرغب بكما عن ذلك، وأزويه[(٨)] عَنْكُما. وكذلك أفعل بأَوْلِيَائِي، وقديمًا ما خرت لهم في ذلك[(٩)]. فإنِّي لأذودُهم[(١٠)] عن نعيمها ورخائها، كما يذود الرَّاعي الشَّفيق

---

(١) سبق الكلام عن روايات وهب بن منبه قريبًا.

(٢) في (ز): (إياي)، وفي «الدر المنثور»: (بآياتي)، والمثبت كما في «الزهد» لأحمد.

(٣) أي: تتشبه به.

(٤) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الزهد» لأحمد، و«الدر المنثور».

(٥) الاحتسابُ: أن ينوي المرءُ بعمله وجهَ الله.

(٦) بياض بـ(ز)، والمثبت كما في «الزهد» لأحمد و«الدر المنثور».

(٧) لوحة (٢٤٣ ب).

(٨) أي: أقبضه.

(٩) في (ز): (وقديمًا ما جرت في ذلك)، وفي المطبوع: (وقديمًا ما جرت عادتي في ذلك)، والمثبت كما في «الزهد» لأحمد، و«المناظرة» لابن قدامة، و«عدة الصابرين» لابن القيم، وغيرها.

(١٠) أي: أدفعهم.

إبله عَن مَبَارِك الغرة[١][٢]، وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم مِن كرامتي سالمًا موفرًا لم تكْلَمْه[٣] الدنيا.

واعلم أنه لم يتزين لي العباد بزينةٍ هي أبلغ مما عندي من الزُّهد في الدُّنيا، فإنَّها زينة المتَّقين، عليهم مِنها لباسٌ يُعْرَفون به من السَّكينة والخشوع، سِيمَاهم في وجوههم مِن أثر السُّجود، أولئك أوليائي حقًّا حقًّا، فإذا لَقِيتَهم فاخفضْ لهم جنَاحَك، وذَلِّل لهم قلبك[٤] ولسَانَك، واعلم أنَّه من أَهَان لي وليًّا أو أخافه، فقد بارزني بالمحَارَبَة، وبادأني وعرض لي نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيءٍ إلىٰ نصرة أوليَائِي، أفيظن الَّذي يُحَارِبُني أن يقوم لي، أَم يظن الَّذي يُعَادِيني أن يُعْجِزَني، أم يظن الَّذي يبارزني أن يَسْبِقَنِي أو يفوتني. وكيف وأنا الثَّائر[٥] لهم في الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ مضطرَّهم إلىٰ غيري. رواه ابن أبي حاتم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ هذا سؤالٌ من موسىٰ عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنَّه قد أمره بأمرٍ عظيمٍ، وخَطْبٍ جسيمٍ، بعثَهُ إلىٰ أعظم ملكٍ علىٰ وجه الأرض إذ ذاك، وأَجْبَرِهم، وأشَدِّهِم كفرًا، وأكثرِهِم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم تمرُّدًا، بلغ مِن أمره أنِ ادَّعىٰ أنَّه لا يعرف الله، ولا يعلم لرَعَايَاه إلهًا غيره.

هذا وقد مكث موسىٰ في دارِهِ مدةً وليدًا عندهم، في حِجْر فرعون، علىٰ فِرَاشِه، ثم قَتَل منهم نفسًا فخَافَهُم أن يقتلوه، فهَرَبَ منهم هذه المدَّة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيرًا يدعوهم إلىٰ الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ أي: إن لم تكن أنت عَوْنِي ونصيرِي، وعضدِي وظهيرِي، وإلَّا فلا طاقة لِي بذَلِك.

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ وذَلِك لما كان أصابَهُ مِن اللَّثغ، حين عرَضَ عليه التَّمرة والجمرةَ، فأخذ الجمرةَ فوضعها علىٰ لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأَل أن يزول ذلك بالكليَّة، بل بحيث ما يزولُ العِيُّ، ويحصل لهم فَهْم ما يُريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزَالَ، ولكن الأنبياء لا يسألونَ إلَّا بحسب الحاجة، ولهذا بَقِيَت بقيَّة[٦]، قال الله تعالىٰ إخبارًا عن فرعون أنه قال: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف ٥٢] أي: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ قال: حلَّ عقدةً واحدةً، ولو سأل [أكثر مِن][٧] ذلك أعطىٰ.

---

(١) المعرةُ: الأذىٰ.
(٢) في (ز): (مبارك المعرة)، والمثبت كما في «الزهد» لأحمد وغيره من الأصول.
(٣) أي: لم تنقصه.
(٤) في (ز): (وذلل قلبك).
(٥) الثائرُ: طالبُ الثَّأر.
(٦) لوحة (٢٤٤ أ).
(٧) في (ز): (ولو سأل المرء في).

وقال ابن عبَّاس: شكا موسىٰ إلىٰ ربِّه ما يتخوَّف مِن آل فرعون في القَتِيل، وعقدة لسَانِه، فإنَّه كان في لسَانِه عقدةٌ تمنعُهُ مِن كثيرٍ مِن الكلام، وسأل ربَّه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رِدءًا ويتكلَّم عنه بكثيرٍ مما لا يُفْصِح(١) به لسانُهُ، فآتاه سُؤلَه، فحلَّ عقدةً من لسانه.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن عَمْرو بن عثمان، حدَّثنا بَقِيَّة، عن أرطاة بن المنذر، حدَّثني بعض أصحاب محمَّد بن كعب، عنه قال: أتاه ذو قرابةٍ له. فقال له: ما بِك بأسٌ لولا أنَّك تلحنُ في كلامِك، ولست تعرب في قراءتك؟ فقال القرظي: يا ابن أخي، ألست أفهمك إذا حدَّثتك؟. قال: نعم. قال: فإنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّما سأل ربَّه أن يحلَّ عقدةً من لِسَانِه كي يفقه بنو إسرائيل كلامَهُ، ولم يزد عليها. هذا لفظه.

وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي﴾: وهذا أيضًا سؤالٌ من موسىٰ في أمرٍ خارجيٍّ عنه، وهو مساعدة أخِيهِ هارونَ لَهُ.

قال الثَّوري، عن أبي سعيدٍ، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ أنه قال: فَنُبِّئَ هارون ساعتَئِذٍ حين نبِّئَ موسىٰ، عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن نُمَير، حدَّثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة(٢) عن أبيه، عن عائشة أنَّها خرجت فيما كانت تَعْتَمِر، فنزلت ببعض الأعراب، فسَمِعْت رجلًا يقول: أيُّ أخٍ كان في الدنيا أنفع لأخِيهِ؟ قالوا: ما ندري. قال: والله أنا أدري، قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثنىٰ، إنَّه ليعلم أي أخٍ كان في الدنيا أنفع لأخيه. قال: موسىٰ حين سأل لأخيه النبوة. فقلت: صدق والله. قلت: وفي هذا قال الله تعالىٰ في الثناء علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩](٣).

وقوله: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهري. ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ أي: في مشاورَتي، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذَّاكرين الله كثيرًا حتىٰ يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: في اصطفائِكَ لنا، وإعطائِكَ إيَّانا النُّبوَّة، وبعثتك لنا إلىٰ عدوِّك فرعون، فلك الحَمْد علىٰ ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ(٤) فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾

هذه إجابةٌ مِن الله لرسوله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما سأل من ربِّه عَزَّ وَجَلَّ، وتذكيرٌ له بنعمِهِ السَّالفة عليه،

---

(١) في (ز): (مما لا يفضي)، والمثبت كما في «الدر المنثور».
(٢) في (ز): (عون)، وهو خطأ.
(٣) رجاله ثقات، لكنه منقطع بين ابن أبي حاتم وابن نمير.
(٤) لوحة (٢٤٤ ب).

فيما كان أَلْهَم أمَّه حين كانت ترضعه، وتَحْذَرُ عليه مِن فرعون وملئِهِ أن يقتلوه؛ لأنَّه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتَّخذت له تابوتًا، فكانت تُرضِعُه ثم تَضَعُهُ فيه، وترسله في البحر - وهو النِّيل- وتمسكه إلىٰ منزلها بحبلٍ، فذهبت مرَّةً لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغمِّ والهمِّ ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] فذَهَب به البحر إلىٰ دَارِ فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] أي: قدرًا مقدورًا من الله، حيث كانوا هم يَقْتُلُون الغلمان من بني إسرائيل، حذرًا من وجود موسىٰ، فحكم الله -وله السُّلطان العظيم، والقدرة التَّامَّة- أَلَّا(١) يُرَبَّىٰ إلَّا علىٰ فراش فرعون، ويُغَذَّىٰ بطعامِهِ وشرابِهِ، مع محبَّتِهِ وزوجتِهِ له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [أي: عندَ عدوِّك، جعلته يحبُّك.

قال سلمة بن كُهَيْل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾](٢) قال: حبَّبْتُك إلىٰ عبادي.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ قال أبو عمران الجوني: تربىٰ بعين الله.

وقال قتادة: تغذَّىٰ علىٰ عيني.

وقال معمر بن المثنىٰ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ بحيث أَرَىٰ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أجعله في بيت الملك ينَعْم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء المَلِك، فتِلْك الصَّنعَة.

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها، قال الله ﷻ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. تعني هل أدلكم علىٰ مَن تُرْضِعُه لكم بالأجرة؟ فذهبت بِهِ وهم معها إلىٰ أُمِّه، فعرضت عليه ثَدْيَها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، واستأجروها علىٰ إرضاعه فنالَهَا بسببِهِ سعادةٌ ورفعةٌ وراحةٌ في الدنيا وفي الآخرة أغنم وأجزل؛ ولهذا جاء في الحديث: «**مَثَلُ الصَّانِعِ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ [الخَيْرَ]**(٣)**، كَمَثَلِ أُمِّ مُوسَىٰ، تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ**(٤) **أَجْرَهَا**»(٥).

وقال تعالىٰ هاهنا: ﴿فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليك، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني: القبطي، ﴿فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وهو ما حصل لَهُ بسببِ عزم آل فرعون علىٰ قَتْلِهِ ففرَّ منهم هاربًا، حتىٰ وردَ ماءَ مَدْيَن، وقال له ذلك الرَّجل الصَّالح: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

---

(١) في (ز): (أن يربىٰ).
(٢) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».
(٣) ليست في (ز).
(٤) لوحة (٢٤٥ أ).
(٥) الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٥٩٦) بلفظ آخر.

وقوله: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التَّفسير من «سننه»، قوله: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾:

حديث الفتون

حدَّثنا عبد الله بن محمَّد، حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدَّثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبير، قال: سألت عبد الله بن عبَّاس عن قول الله عَزَّوَجَلَّ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استَأْنِف(١) النَّهار يا ابن جبير، [فإنَّ لها](٢) حديثًا طويلًا. فلمَّا أصبحتُ غدوت إلىٰ ابن عبَّاسٍ لأنتجزَ منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يجعل في ذُرِّيَّته أنبياءَ وملوكًا، فقال بعضهم: إنَّ بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكُّون فيه وكانوا يظنُّون أنَّه يوسف بن يعقوب، فلمَّا هلك قالوا: ليس هكذا كان وَعْدُ إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم علىٰ أن يبعث رجالًا معهم الشِّفار(٣)، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلمَّا رأوا أنَّ الكبار من بني إسرائيل يمُوتُون بآجالهم، والصِّغار يُذْبَحُون، قالوا: يوشك أن تفنوا بني إسرائيل، فتَصِيرُوا إلىٰ أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفُونكُم، فاقتلوا عامًا كل مولودٍ ذكر، فيقل أبناؤهم ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا، فيشب الصِّغار مكان مَن يموت مِن الكِبَار؛ فإنَّهم لن يكثروا بمَن تستحيون منهم فتخَافُوا مكاثرتهم إيَّاكم، ولم يفنوا بمن تَقْتُلُون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم علىٰ ذلك.

فحملت أمُّ موسىٰ بهارون في العام الَّذِي لا يُذْبَح فيه الغلمان، فولدته علانيةً آمنةً. فلمَّا كان من قابل حملت بموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فوقع في قلبها الهَمُّ والحزن، وذلك من الفتون -يا بن جبير- ما دخل عليه في بَطْن أُمِّه، مما يراد به، فأوحىٰ الله جلَّ ذكرُهُ إليها أن ﴿لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوتٍ ثم تلقيه في اليَمِّ. فلمَّا ولدت فعلت ذلك، فلما توارىٰ عنها ابنُها أتاها الشَّيطان، فقالت في نفسها: ما فعلتُ بابني، لو ذُبِح عندي فوَارَيْتُه وكفَّنْتُه، كان أحبَّ إليَّ مِن أن(٤) ألقيه إلىٰ دواب البحر وحيتانه.

فانتهىٰ الماء به حتىٰ أوفىٰ به عند فُرْضَة(٥) مستقىٰ جواري امرأة فرعون، فلمَّا رَأَيْنَهُ أخذنه فهَمَمْن أن يفتحن التَّابوت، فقال بعضهنَّ: إن في هذا مالًا وإنَّا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئًا حتىٰ رفعنه إليها. فلمَّا فتحته رأتْ فيه غلامًا، فأُلقي عليه منها محبةٌ لم

---

(١) استأنفَ الشيءَ: أخذ أوَّله، أي: ائتِنِي أوَّلَ النَّهار؛ وذلك لطول القصَّة.

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «النسائي».

(٣) الشِّفَارُ: جمع شفرة، وهي: السكين العريضة.

(٤) لوحة (٢٤٥ ب).

(٥) فُرْضَةُ النَّهر: مشرب الماء منه.

يلق منها علىٰ أحدٍ قط. وأصبح فؤاد أم موسىٰ فارغًا مِن ذكر كلِّ شيءٍ، إلا مِن ذكر موسىٰ.

فلمَّا سَمِع الذَّبَّاحون بأمره، أقبلوا بشفَارِهِم إلىٰ امرأةِ فرعون ليَذْبَحُوه، وذلك من الفُتُون يا بن جبير، فقالت لهم: أقرُّوه، فإنَّ هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتىٰ آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم.

فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرَّتُ[١] عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] فقال فرعون: يكون لك، فأمَّا لي فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ، لَهَدَاهُ اللهُ كَمَا هَدَاهَا، وَلَكِنْ حَرَمَهُ ذَلِكَ**». فأرسلت إلىٰ مَن حولها، إلىٰ كلِّ امرأةٍ لها [لبن لتختار][٢] له ظئرًا[٣]، فجعل كلما أخذته امرأةٌ منهنَّ لِتُرْضِعَه لم يُقْبِل علىٰ ثَدْيِها حتىٰ أشفقت امرأةُ فرعونَ أن يمتنع من اللَّبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت بِهِ فَأُخْرِجَ إلىٰ السُّوق ومجمع النَّاس، ترجو أن تَجِد له ظئرًا تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أمُّ موسىٰ والهًا، فقالت لأخته: قُصِّي أثَرَهُ واطْلُبِيه، هل تسمعين له ذكرًا، أحيٌّ ابني أم قد أكلته الدَّوابُّ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون - والجُنُب: أن يسمو بصر الإنسان إلىٰ شيءٍ بعيدٍ وهو إلىٰ جنبه وهو لا يشعر به- فقالت من الفرح حين أعياهم الظُّؤُرات: أنا أدلكم علىٰ أهل بيت يكفلُونَهُ لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتىٰ شكُّوا في ذلك، وذلك من الفتون يا بن جبير. فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظُؤْرَةِ[٤] الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلىٰ أُمِّها فأخبرتها الخَبَر. فجاءت أمُّه، فلما وضعته في حجرها نَزَا إلىٰ ثَدْيِها فمصَّه، حتىٰ امتلأ جنباه رِيًّا، وانطلق البشراء إلىٰ امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرًا. فأرسلت إليها. فأتت بها وبِهِ فلمَّا رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإنِّي لم أحب شيئًا حبه قط. قالت أم موسىٰ: لا أستطيع أن أدَعَ بَيْتِي وولدي فيَضِيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به[٥] إلىٰ بيتي، فيكون معي لا آلُوه[٦] خيرًا فَعَلْتِ، وإلا فإنِّي غير تاركةٍ بيتي وولدي. وذكرت أمُّ موسىٰ ما كان الله وعدها فيه، فتَعَاسَرَتْ علىٰ امرأة فرعون، وأيقنت أنَّ الله منجزٌ وعده فرجعت به إلىٰ بَيْتِها مِن يومِها، وأنبتَهُ الله نباتًا حسنًا، وحفظه لما قد قَضَىٰ فيه.

فلم يَزَلْ بنو إسرائيل، وهم في ناحِيَة القرية، ممتنعينَ مِن السُّخرة والظُّلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأمِّ موسىٰ: أتريني ابني؟ فَوَعَدَتْها يومًا تريها إيَّاه فيه، وقالت امرأة فرعون

---

(١) القُرةُ: كل شيء قرت به عينك، أي: سررت به وفرحت.

(٢) في (ز): (لأن تختار)، والمثبت كما في «النسائي».

(٣) الظِّئْرُ: المرضعة غير ولدها.

(٤) في (ز): (صهر) وكذلك في «النسائي»، والمثبت من «الطبري» وهو الصواب.

(٥) لوحة (٢٤٦ أ).

(٦) أي: لا أمنعه خيرًا، ولا أقصر في أمره.

لخزَّانها وظُؤُرها[(١)] [وقهارمتها][(٢)]: لا يقين أحدٌ منكم إلا استقبل ابني اليوم بهديَّةٍ وكرامةٍ لأرىٰ ذلك فيه وأنا باعثةٌ أمينًا يحصي ما يصنع كل إنسانٍ منكم، فلم تزَل الهدايا والنِّحل[(٣)] والكرامة تستقبله من حين خرج من بَيْت أمِّه إلىٰ أن دخل علىٰ امرأةِ فرعون، فلما دخل عليها نحلَتْه وأكرمَتْهُ، وفرحت به ونحَلَت أمَّه[(٤)] لحُسْن أثرِهَا عليه، ثم قالت: لآتِيَنَّ به فرعون فَلَيَنْحِلَنَّهُ وليكرمَنَّه، فلما دخلت بِهِ عليه جعله في حجره، فتَنَاوَل موسىٰ لحيةَ فرعون يمدُّها إلىٰ الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترىٰ ما وعد الله إبراهيم نبيَّه، إنَّه زعم أن يَرِثَك ويعْلُوَك ويصرَعَك، فأرسل إلىٰ الذَّبَّاحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يا بن جبير بعد كل بلاءٍ ابتلي به، وأريد به.

فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبتَهُ لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنَّه يصرعني ويعلُونِي! فقالت: اجعل بيني وبينك أمرًا يعرف فيه الحق، ائْتِ بجمرتين ولُؤْلُؤَتَيْن، فَقَرِّبْهُنَّ إليه، فإن بطش باللُّؤْلُؤَتَيْن واجتنب الجمرتَيْن فاعرف أنه يعقل، وإن تناول الجَمْرَتَيْن ولم يرد اللُّؤْلُؤَتين، علمت أن أحـدًا لا يؤثر الجمرتين علىٰ اللُّؤْلُؤَتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترىٰ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همَّ به، وكان الله بالغًا فيه أمره.

فلمَّا بلغ أشده وكان من الرِّجال، لم يكن أحدٌ من آل فرعون يخلص إلىٰ أحدٍ من بني إسرائيل معه بظلمٍ ولا سخرةٍ، حتىٰ امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسىٰ عليه السلام يمشي في ناحية المدينةِ، إذا هو برَجُلَيْن يَقْتَتِلَان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي علىٰ الفرعونيِّ، فغضب موسىٰ غضبًا شديدًا؛ لأنَّه [تناوله][(٥)] وهو يَعْلَم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم النَّاس إلَّا أنَّما ذلك من الرضاع، إلا أم موسىٰ، إلا أن يكون الله سبحانه أطلع موسىٰ مِن ذلك علىٰ ما لم يطلع عليه غيره. فوكز موسىٰ الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحدٌ إلا الله[(٦)] عز وجل والإسرائيلي، فقال موسىٰ حين قتل الرجل: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]. ثم قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦] فأصبح في المدينة خائفًا يترقَّب الأخبار، فأتىٰ فرعون، فقيل له: إنَّ بني إسرائيل قتلوا رجلًا من آلِ فرعون فخُذْ لنا بحقِّنا ولا تُرَخِّص لهم. فقال: ابْغُونِي قاتله، ومَن يشهد عليه، فإنَّ الملك وإن كان صَغْوه[(٧)] مع قومه لا يَسْتَقِيم له أن يقيد بغيرِ بيِّنةٍ ولا ثَبَتٍ[(٨)]، فاطلبوا لي عِلْم ذلك آخذ لكُم بحقِّكُم. فبينما هم يَطُوفُون

---

(١) في (ز): (وطروريتها)، والمثبت كما في «النسائي».

(٢) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «النسائي».

(٣) النِّحَلُ: جمع نحلة، وهي: العَطِيَّة.

(٤) في (ز): (أنه)، والمثبت كما في «النسائي».

(٥) في (ز): (لم يناوله)، والمثبت كما في «النسائي».

(٦) لوحة (٢٤٦ ب).

(٧) صَغْوُه: ميلُه.

(٨) الثَّبَتُ: الحجة والبينة أيضًا.

ولا يجدون ثبتًا، إذا بموسىٰ من الغد قد رأىٰ ذلك الإسرائيلي يقاتِل رجلًا من آل فرعون آخر. فاستغاثه الإسرائيلي علىٰ الفرعوني، فصادف موسىٰ قد ندم علىٰ ما كان منه وكَرِهَ الَّذِي رأىٰ لغضب[١] الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال: للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فنظر الإسرائيلي إلىٰ موسىٰ بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] أن يكون إيَّاه أراد، ولم يكن أراده، وإنَّما أراد الفرعوني. فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩]، وإنَّما قاله مخافة أن يكون إيَّاه أراد موسىٰ ليقتله، فتتاركا[٢]، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ فأرسل فرعون الذَّبَّاحين ليقتلوا موسىٰ، فأخذ رسل فِرْعَون في الطَّريق الأعظم يمشون علىٰ هينتهم[٣] يطلبون موسىٰ، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجلٌ مِن شيعة موسىٰ من أقصىٰ المدينة، فاختصر طريقًا حتىٰ سبقهم إلىٰ موسىٰ، فأخبره وذلك من الفُتُون يا بن جبير.

فخرج موسىٰ متوجهًا نحو مدين، لم يلقَ بلاءً قبل ذلك، وليس له بالطَّريق علمٌ إلا حُسْن ظنِّه بربِّه ﷻ، فإنَّه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٢، ٢٣].

يعني بذلك حَابِسَتَيْن غنمهما، فقال لهما: ما خَطْبُكُما معتزلتين لا تَسْقِيَان مع النَّاس؟ قالتا: ليس لنا قوَّةٌ نزاحم القوم، إنَّما ننتظر فضول حِيَاضِهم. فسقىٰ لهما، فجعل يغترف في الدَّلو ماءً كثيرًا، حتَّىٰ كان أوَّل الرِّعاء[٤]، فانصرفتا بغنَمِهِمَا إلىٰ أبيهما، وانصرف موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فاستظل بشجرةٍ، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. واستنكر أبوهما[٥] سرعة صدورهما بغنَمِهِمَا حُفَّلًا[٦] بطانًا فقال: إنَّ لكما اليوم لشأنًا، فأخبرتاه بما صنع موسىٰ، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسىٰ فدعته، فلما كلَّمه قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكتِه، فقالت إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة علىٰ أن قال لها: ما يدرِيكِ ما قوَّته؟ وما أمانته؟ فقالت: أمَّا قوته، فما رأيت منه في الدَّلو حين سقىٰ لنا، لم أر رجلًا قط أقوىٰ في ذلك السَّقي

---

(١) في (ز): (فغضب الإسرائيلي)، والمثبت من «أبي يعلىٰ» وهو أليق بالسياق.

(٢) في (ز): (فسار)، والمثبت كما في «النسائي».

(٣) الهِينَةُ: السكونُ والرِّفق، أي: يمشون علىٰ عادتهم في ذلك.

(٤) الرِّعَاءُ: جمع راعٍ.

(٥) لوحة (٢٤٧ أ).

(٦) الحُفلُ: جمع حافلٍ، أي: ممتلئة الضرع، وبِطَانًا: ممتلئة البطون.

منه، وأمَّا الأمانة فإنَّه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلمَّا[(١)] عَلِم أنِّي امرأة صوَّب[(٢)] رأسه فلم يَرْفَعْه، حتىٰ بلغته رسالتك. ثم قال لي: امشي خَلْفِي، وانعتي لي الطَّريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمينٌ، فسُرِّيَ عن أبيها وصدَّقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] ففعل فكانت علىٰ نبي الله موسىٰ ثماني سنين واجبة، وكانت سنتان عِدَةً منه، فقضىٰ الله عنه عدته فأتمها عشرًا.

قال سعيد -وهو ابن جبير-: فلقيني رجلٌ مِن أهل النَّصرانيَّة مِن علمائهم قال: هل تدري أيَّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قلت: لا. وأنا يومئذٍ لا أدري. فلقيت ابن عبَّاس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانيًا كانت علىٰ نبي الله واجبة، لم يكن لنبيِّ الله أن ينقص منها شيئًا، ويعلم أن الله كان قاضيًا عن موسىٰ عِدَتَه الَّتِي وعده، فإنَّه قضىٰ عشر سنين. فلَقِيتُ النَّصرانيَّ فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولىٰ.

فلما سار موسىٰ بأهله كان مِن أمر النَّار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلىٰ الله تعالىٰ ما يتخوَّف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنَّه كان في لسانه عقدةٌ تمنعه مِن كثيرٍ من الكلام، وسأل ربَّه أن يعينه بأخِيهِ هارون، يكون له ردءًا، ويتكلَّم عنه بكثيرٍ مما لا يفصح به لسانه. فآتاه الله سؤله، وحلَّ عقدةً مِن لسانه، وأوحىٰ الله إلىٰ هارون وأمره أن يَلْقَاه. فاندفع موسىٰ بعصاه حتىٰ لقي هارون، عليهما السلام. فانطلقا جميعًا إلىٰ فرعون، فأقاما علىٰ بابِهِ حينًا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجابٍ شديدٍ، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. قال: فمن ربُّكما؟ فأخبره بالَّذِي قص الله عليك في القرآن؟ قال: فما تُرِيدَان؟ وذكره القَتِيل، فاعتذر بما قد سمعت. قال[(٣)]: أريد أن تؤمنَ بالله، وترسلَ معي بنىٰ إسرائيل؟ فأبىٰ عليه وقال: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فألقىٰ عصاه [فإذا هي][(٤)] حيَّةٌ تسعىٰ عظيمةٌ فاغرة فاها، مسرعةً إلىٰ فرعون. فلما رآها فرعون قاصدةً إليه خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسىٰ أن يكفَّها[(٥)] عنه. ففعل، ثم أخرج يده مِن جيبِهِ فرآها بيضاء من غير سوءٍ -يعني من غير برص- ثم ردَّها فعادت إلىٰ لونها الأول. فاستشار الملأ حوله فيما رأىٰ، فقالوا له: هذان ساحران ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣] يعني: ملكهم الَّذي هُم فيه والعيش، وأبوا علىٰ موسىٰ أن يُعْطُوه شيئًا مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السَّحرة فإنَّهم بأرضك كثير حتىٰ تَغْلِب بسحرك

---

(١) في (ز): (مهما)، والمثبت كما في «النسائي».
(٢) أي: خفضه.
(٣) لوحة (٢٤٧ ب).
(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «النسائي».
(٥) في (ز): (يلقها)، والمثبت كما في «النسائي».

سحرَهُما. فأرسل إلىٰ المدائن فحَشَر له كلَّ ساحرٍ متعالِم، فلما أتَوْا فرعون قالوا: بم يعمل هذا السَّاحر؟ قالوا: يعمل بالحيَّات. قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسِّحر بالحيَّات والحبال والعصي الذي نعمل. فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقَارِبي وخاصَّتي، وأنا صانع إليكم كل شيءٍ أحببتم، فتواعدوا يوم الزِّينة، وأن يحشر النَّاس ضحًىٰ.

قال سعيد [بن جبير](١): فحدَّثني ابن عبَّاس: أن يومَ الزينةِ الذي أظهر الله فيه موسىٰ علىٰ فرعونَ والسَّحرةِ، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيدٍ [واحدٍ](٢) قال الناسُ بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠] يعنون موسىٰ وهارون استهزاءً بهما، فقالوا: يا موسىٰ -لقُدْرتِهِم بسحرهم- ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ [طه: ٦٦] ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] فرأىٰ موسىٰ مِن سحرهم ما أوجس في نفسه خِيفةً، فأوحىٰ الله إليهِ أن ألْقِ عصاك، فلمَّا ألقاها صارت ثعبانًا عظيمةً فاغرةً فاها، فجعلت العصىٰ تلتبس بالحبال حتىٰ صارت جَزرًا(٣) إلىٰ الثُّعبان، تدخلُ فيه، حتىٰ ما أَبْقَت عصًا ولا حبالًا إلا ابتلعته، فلما عرفت السَّحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرًا لم يبلغ مِن سحرنا كلَّ هذا، ولكنه أمرٌ من الله ﷻ آمنًا بالله وبما جاء به موسَىٰ، ونتوب إلىٰ الله مما كنَّا عليه. فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وامرأة فرعون بارزةٌ متبذِّلةٌ(٤) تدعو الله بالنَّصر لموسىٰ علىٰ فرعون وأشياعه، فمنَ رآها من آل فرعون ظنَّ أنَّها إنَّما ابتذلت للشَّفقة علىٰ فرعون(٥) وأشياعه، وإنَّما كان حزنها وهمها لموسىٰ.

فلما طال مكث موسىٰ بمواعيد فرعون الكاذبة، كلمَّا جاء بآيةٍ وعدَهُ عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربُّك أن يصنع غير هذا؟. فأرسل الله علىٰ قومه الطُّوفان والجراد والقمَّل والضَّفادع والدَّم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلىٰ موسىٰ ويطلب إليه أن يكفَّها عنه، ويواثِقَه علىٰ أن يُرْسِل معه بني إسرائيل، فإذا كفَّ عنه ذلك أخلف موعدَهُ، ونكث عهده.

حتىٰ أمر الله موسىٰ بالخروج بقومه فخرج بهم ليلًا، فلمَّا أصبح فرعون ورأىٰ أنَّهم قد مضوا أرسل في المدائن حَاشِرين، فتبعه بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، وأوحىٰ الله إلىٰ البحر: إذا ضربك عبدي موسَىٰ بعصاهُ فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتىٰ يجوز موسىٰ ومن مَعَه، ثم الْتَقِ علىٰ مَن بقي بعد مِن

---

(١) ليست في (ز). (٢) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الدر المنثور».

(٣) الجَزَرُ: جمع جَزْرة، وهي: الشاة الصَّالحة لأن تجزر، أي: تذبح للأكل.

(٤) التبذُّل: تركُ التزيُّن. (٥) لوحة (٢٤٨ أ).

فرعون وأشياعه. فنَسِيَ موسىٰ أن يضرب البَحْر بالعصا وانتهىٰ إلىٰ البحر وله قصيفٌ(١)، مخافةَ أن يضربه موسىٰ بعصاه وهو غافلٌ فيصير عاصيًا لله.

فلمَّا تراءَىٰ الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسىٰ: إنَّا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنَّه لم يَكْذِب ولم تَكْذِب. قال: وعدني أن إذا أتيت البحر انفرَق اثنتي عشرة فرقةً، حتىٰ أجاوزَهُ. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضَرَبَ البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسىٰ، فانفرق البحر كما أمره رَبُّه وكما وعد موسىٰ، فلمَّا أن جاز موسىٰ وأصحابه كلُّهم البحر، ودخل(٢) فرعون وأصحابه، الْتَقَىٰ عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسىٰ البحر [قال أصحابه](٣): إنَّا نخاف ألَّا يكون فرعون غرق ولا نُؤْمِن بهلاكه. فدعا ربَّه فأخرجه له ببدنه حتىٰ استيقنوا بهلاكه.

ثم مرُّوا بعد ذلك علىٰ قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. قد رأيتم من العِبَر وسَمِعْتُم ما يَكْفِيكُم ومضىٰ. فأنزلهم مُوسَىٰ منزلًا وقال: أطيعوا هارون، فإنِّي قد استخلفته عليكم، فإنِّي ذاهبٌ إلىٰ ربي. وأجلهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها، فلمَّا أتىٰ ربه وأراد أن يُكَلِّمَه في ثلاثين يومًا وقد صامهُنَّ، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه ورِيح فيه ريح فَمِ الصَّائم، فتناول موسىٰ من نبات الأرض شيئًا فمَضَغَه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالَّذِي كان(٤)، قال: يا ربِّ، إنِّي كرهت أن أكلِّمك إلا وفَمِي طَيِّب الريح. قال: أوما علمت يا موسىٰ أن ريح [فم](٥) الصائم أَطْيَب مِن ريح المسك، ارجع فصم عشرًا ثم ائتني. ففعل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أمر به، فلما رأىٰ قوم موسىٰ أنَّه لم يرجع إليهم في الأجل، ساءَهُم ذلك. وكان هارون قد خطبهم وقال: إنَّكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري(٦) وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا أرَىٰ أن تحتسبوا(٧) ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وَدِيعَةً استودعتموها ولا عارِيَةً، ولسنا بِرادِّين إليهم شيئًا من ذلك ولا ممسكيه(٨) لأنفسنا، فحفر حفيرًا، وأمر كل قومٍ عندهم من ذلك من متاعٍ أو حليةٍ أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النَّار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري مِن قومٍ يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل ولم يكن مِن بني إسرائيل، فاحتمل(٩) مع موسىٰ وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضي له أن رأىٰ أثرًا فقبض منه قبضةً، فمر بهارون، فقال له هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا سامري، ألا تُلْقِي ما في يدك؟ وهو قابضٌ عليه، لا يَرَاهُ أحدٌ طوالَ

(١) أي: صوت هائل يشبه صوتَ الرَّعد.

(٢) في (ز): (وكل)، والمثبت كما في «النسائي».

(٣) بياض بـ(ز)، والمثبت كما في «النسائي».

(٤) لوحة (٢٤٨ ب).

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «النسائي».

(٦) العَوَارِي: جمع عَارِية، وهي: ما استعرته من غيرك.

(٧) أي: تصبرون علىٰ ما لكم عندهم، وتطلبون ثوابَ ذلك من الله.

(٨) في (ز): (ولا مهدا)، والمثبت كما في «النسائي».

(٩) أي: ارتحل حين ارتحلوا.

ذلك، فقال: هذه قبضةٌ مِن أثر الرَّسول الَّذِي جاوز بكم البَحْر، ولا ألقيها لشيءٍ إلَّا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أُرِيد. فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلًا. فاجتمع ما كان في الحَفِيرَة من متاعٍ أو حليةٍ أو نحاسٍ أو حديدٍ، فصار عجلًا أجوف. ليس فيه روحٌ، وله خوارٌ.

قال ابن عبَّاس: لا والله، ما كان له صوت قط، إنَّما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقًا، فقالت فرقةٌ: يا سامري ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسىٰ أضلَّ الطريق. وقالت فرقةٌ: لا نكذب بهذا حتىٰ يرجع إلينا موسىٰ، فإن كان ربنا لم نكن ضَيَّعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربَّنا فإنَّا نتبع قول موسىٰ. وقالت فرقة: هذا عمل الشَّيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب[1] فرقة في قلوبهم الصِّدق بما قال السَّامري في العجل، وأعلنوا التَّكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠]. قالوا: فما بال موسىٰ وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا، هذه أربعون يومًا قد مضت؟ وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو[2] يطلبه ويتبعه.

فلمَّا كلَّم الله موسىٰ وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [طه: ٨٦] فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه، وألقىٰ الألواح من الغضب، ثم إنَّه عذر أخاه بعذره، واستغفر له وانصرف إلىٰ السَّامري. فقال له: ما حملك علىٰ ما صنعت؟ قال: قبضت قبضةً مِن أثر الرَّسول، وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ [طه: ٩٦، ٩٧] ولو كان إلهًا لم يخلص إلىٰ ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الَّذِين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعَتِهِم: يا موسىٰ، سَل لنا [ربَّك][3] أن يفتح لنا بابَ توبةٍ نصنعها، فيكفِّر عنَّا ما عملنا. فاختار موسىٰ لقومه سبعين رجلًا لذلك، لا يألو الخَيْر، خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التَّوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله من قومِهِ ومِن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطَّلع الله منه علىٰ ما أُشْرِب قلبه من حب العِجْل وإيمانِهِ به، فلذلك رَجَفَت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ

---

(١) أي: سقيته قلوبهم كما يُسقَىٰ العطشانُ الماءَ. (٢) لوحة (٢٤٩ أ).

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «النسائي».

﴿وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فقال: يا رب، سألتك التَّوبة[١] لقومي، فقلت: إنَّ رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، فَلَيْتَكَ أَخَّرتني حتىٰ تُخرِجَنِي في أمَّة ذلك الرَّجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتلَ كل رجلٍ منهم مَن لَقِيَ مِن والدٍ وولدٍ، فيقتله بالسَّيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئكَ الَّذِين كان خَفِيَ علىٰ موسىٰ وهارون واطَّلع الله مِن ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ متوجهًا نحو الأرض المقدَّسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالَّذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثَقُل ذلك عليهم، وأبوا أن يقروا بها، فنَتَقَ اللهُ عليهم الجبل كأنَّه ظُلَّةٌ، ودنا منهم حتىٰ خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مُصْغُون ينظرون إلىٰ الجبل، والكتاب[٢] بأيديهم، وهم مِن وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتىٰ أتوا الأرض المقدَّسة، فوجدوا مدينةً فيها قومٌ جبَّارون خَلْقُهُم خَلْق منكر -وذكروا من ثمارهم أمرًا عجيبًا من عظمها- فقالوا: يا موسىٰ إنَّ فيها قومًا جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون. قال رجلان من الَّذين يُخَافُون -قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبَّارين، آمنا بموسىٰ، وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنَّما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنَّهم لا قلوب لهم ولا مَنَعَة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون- ويقول أُنَاسٌ: إنهم من قوم موسىٰ. فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، بنو إسرائيل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فأغضبوا موسىٰ، فدعا عليهم وسمَّاهم فاسقين، ولم يدعُ عليهم قبل ذلك؛ لما رأىٰ منهم من المعصية وإساءتهم حتىٰ كان يومئذٍ فاستجاب الله له وسمَّاهم كما سمَّاهم فاسقين، فحرَّمها عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرضِ، يصبحون كل يوم فيَسِيرُون، ليس لهم قرارٌ، ثمَّ ظلَّل عليهم الغمام في التِّيه، وأنزل عليهم المنَّ والسَّلوىٰ، وجعل لهم ثيابًا لا تبلىٰ ولا تتَّسخ، وجعل بين ظهرَانَيْهم حجرًا مربعًا، وأمر موسىٰ فضرَبَه بعصاه. فانفجرت منه اثنتا عشرةَ عينًا، في كلِّ ناحيةٍ ثلاث أعين، وأعلم كل سِبْط عينَهُم التي يَشْرَبون منها، فلا يرتحلون[٣] من مَنْقَلَةٍ[٤] إلا وجدوا ذلك الحجر معهم[٥] بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عبَّاسٍ هذا الحديث إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وصَدَّقَ ذلك عندي أنَّ معاوية سَمِعَ ابن عبَّاسٍ يحدِّث هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفِرْعُوني الَّذِي أفشىٰ علىٰ مُوسَىٰ أمر القَتِيل الَّذِي قتل، فقال: كيف يُفْشي عليه ولم يكن علم به ولَا ظهر عليه إلَّا الإسرائيليُّ الذي حضر ذلك؟. فغَضِب ابن عبَّاسٍ، فأخذَ بيدِ

---

(١) في (ز): (اليوم)، والمثبت كما في «النسائي». (٢) لوحة (٢٤٩ ب).
(٣) في (ز): (يحلون)، والمثبت كما في «النسائي». (٤) المَنْقَلَةُ: المرحلة من مراحل السَّفر، والجمع: مناقِل.
(٥) في (ز): (منهم).

معاوية فانطلَقَ به إلىٰ سعد بن مالك الزُّهري، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدَّثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسىٰ الَّذِي قُتِلَ مِن آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشىٰ عليه أم الفرعوني؟ قال: إنَّما أفشىٰ عليه الفرعوني، بما سَمِع من الإسرائيليِّ الَّذي شهد علىٰ ذلك وحضره[١].

هكذا رواه الإمام النَّسائي في «السنن الكبرىٰ»، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» كلهم من حديث يزيد بن هارون به، وهو موقوف من[٢] كلام ابن عبَّاس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنَّه تلقَّاه ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه مما أبيح نقله من الإسرائيليَّات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزِّي يقول ذلك أيضًا.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا لموسىٰ عليه السلام: إنَّه لبث مقيمًا في أهل «مدين» فارًّا من فرعون وملئِهِ، يرعىٰ علىٰ صهرِهِ، حتىٰ انتهت المدَّة وانقضىٰ الأجل، ثم جاء موافقًا لقدر الله وإرادته من غير ميعادٍ، والأمر كله لله تبارك وتعالىٰ، وهو المُسَيِّرُ عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال مجاهد: أي علىٰ موعد.

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال: علىٰ قدر الرِّسالة والنبوَّة.

وقوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أي: اصطفيتك واجتبيتك رَسُولًا لنفسي؛ أي: كما أُريد وأشاء.

وقال البخاري عند تفسيرها: حدَّثنا الصَّلْتُ بن محمَّد، حدَّثنا مهديُّ بن ميمون، حدَّثنا محمَّد ابن سِيرين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «الْتَقَىٰ آدَمُ وَمُوسَىٰ، فَقَالَ مُوسَىٰ: أَنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ؟ فَقَالَ آدَمُ: وَأَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَوَجَدْتَهُ قَدْ كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ قَالَ: نَعَمْ. فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ» أخرجاه[٣].

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: بحُجَجي وبراهيني ومعجزاتي، ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: لا تُبْطِئَا.

وقال مجاهد، عن ابن عبَّاس: لا تَضْعُفَا.

---

(١) رجاله ثقات؛ رواه النَّسائي في «الكبرىٰ»، وأبو يعلى (٢٦١٨)، والطبري (١٦/ ١٦٤ - ١٦٧) ورجاله ثقات، (انظر ما قاله ابن كثير بعد إيراده لهذا الأثر). وقد تقدَّم طرف منه. انظر (٢١٢).

(٢) لوحة (٢٥٠ أ).

(٣) البخاري (٣٧٣٦)، ومسلم (٢٦٥٢).

والمراد أنَّهما لا يَفْتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حالِ مواجهة فرعون؛ ليكُونَ ذكرُ الله عونًا لهما عليه، وقوَّةً لهما وسلطانًا كاسرًا له، كما جاء في الحديث: «**إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِي لَلَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُنَاجِزٌ قِرْنَهُ**(١)»(٢).

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: تمرَّد وعتا وتجَهْرم علىٰ الله وعصاه.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هذه الآية فيها عبرةٌ عظيمةٌ، وهو أنَّ فرعون في غاية العتوِّ والاستكبار(٣)، وموسَىٰ صفوة الله مِن خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألَّا يخاطب فرعون إلَّا بالملاطفة واللِّين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: يا من يتحَبَّب إلىٰ من يُعَادِيه، فكيف بمَن يتوَلَّاه ويناديه؟

وقال وهب بن مُنَبه: قولَا له: إنِّي إلىٰ العفو والمغفرةِ(٤) أقربُ منِّي إلىٰ الغضبِ والعقوبةِ.

وعن عكرمة في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وقال عمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أعْذرا إليه، قولا له: إنَّ لك ربًّا ولك معادًا، وإن بين يديك جنَّةً ونارًا.

وقال بقيَّة، عن علي بن هارون، عن رجلٍ، عن الضَّحَّاك بن مُزاحم، عن النزال بن سَبْرَة(٥)، عن علي في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قال: كَنِّه.

وكذا روي عن سفيان الثوري: كَنِّه بأبي مُرَّة.

والحاصل مِن أقوالهِم أنَّ دعوتهما له تكون بكلام رقيقٍ ليِّنٍ قريبٍ سهل؛ ليكون أوقع في النُّفوس وأبلغ وأنْجع، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: لعلَّه يرجع عما هو فيه من الضَّلال والهلكة، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: يُوجِد طاعةً مِن خشية ربِّه، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾(٦) [الفرقان] فالتَّذكُّر: الرُّجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطَّاعة.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسىٰ وأخوك هارون: أَهْلِكْه قبل أن أعذر إليه.

---

(١) المناجَزَة: المقاتلة، والقِرْنُ: المكافئ له في الشجاعة والحرب، يعني: أنه لا يغفل عن ذكر ربه ﷻ، حتىٰ في حال معاينة الهلاك.

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٣٥٨٠)، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، قلت: فيه عفير بن معدان: ضعيف، وأبو دوس: مقبول.

(٣) في (ز): (الاستنكار).

(٤) لوحة (٢٥٠ ب).

(٥) في (ز): (ميسرة).

(٦) في (ز): (لمن أراد أن يتذكر أو يخشىٰ) وليست بآية.

وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروىٰ لأميَّة بن أبي الصَّلْت فيما ذكره ابن إسحاق:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ ... بَعَثْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ رَسُولًا مُنَادِيَا
فَقُلْتَ لَهُ يَا اذْهَبْ[1] وَهَارُونَ فَادْعُوَا ... إِلَىٰ اللهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ بَاغِيَا
فَقُولَا لَهُ آأَنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ ... بِلَا وَتَدٍ حَتَّىٰ اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَا
وَقُولَا لَهُ آأَنْتَ رَفَّعْتَ هَذِهِ ... بِلَا عَمَدٍ أَرْفِقْ إِذَنْ بِكَ بَانِيَا
وَقُولَا لَهُ آأَنْتَ سَوَّيْتَ وَسْطَهَا ... مُنِيرًا إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ هَادِيَا
وَقُولَا لَهُ مَنْ يُخْرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً ... فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيَا
وَقُولَا لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فِي الثَّرَىٰ ... فَيُصْبِحُ مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُءُوسِهِ ... فَفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن موسىٰ وهارون -عليهما السلام- أنهما قالا مستجيرين بالله تعالىٰ شاكِيَيْن إليه[2]: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يعنيان أن يَبْدُر إليهما بعقوبةٍ، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يَسْتَحِقَّان منه ذلك. قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ يعجل. وقال مجاهد: يبسط علينا. وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: يعتدي.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: لا تخافا منه، فإنَّني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرىٰ مكانكما ومكانه، لا يخفىٰ عليَّ من أمرِكُم شيءٌ، واعلما أنَّ ناصِيَتَه بِيَدِي، فلا يتكلَّم ولا يتنفَّس ولا يبطش إلا بإذْنِي وبعد أمري، وأنَا معكما بحِفْظِي ونصري وتأْيِيدي.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمَّد الطَّنَافِسيُّ، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما بعث الله عَجَلَّ موسىٰ إلىٰ فرعون قال: رب، أيَّ شيءٍ أقول؟ قال قل: هيا شراهيا. قال الأعمش: فَسَّرَ ذلك[3]: الحي قبل كل شيءٍ،

---

(١) كذا في (ز)، وهو موافق لما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٢٨)، وقوله: (يا اذهبْ) علىٰ حذف المنادىٰ، كأنه قال: (يا هذا اذهبْ) كما قُرِئ: (أَلَا يَا اسْجُدُوا)، ومعناه: يا قومُ اسجُدوا. وانظر: «الروض الأنف» (١/ ٣٨٦).
(٢) لوحة (٢٥١ أ). (٣) أي: تفسير ذلك وبيانه.

والحيُّ بعد كلِّ شيءٍ[١].

إسنادٌ جيدٌ، وشيءٌ غريبٌ.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، قد تقدَّم في حديث «الفتون» عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: مكثا علىٰ بابه حينًا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجابٍ شديدٍ.

وذكر محمَّد بن إسحاق بن يسار[٢]: أن موسىٰ وأخاه هارون خرجَا، فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: إنَّا رسل رب العالمين، فآذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغني سنَتَيْن يَغْدوان ويروحان، لا يعلم بهما ولا يجترئ أحدٌ علىٰ أن يخبره بشأنهما، حتىٰ دخل عليه بَطَّال[٣] له يلاعبه ويُضْحكه، فقال له: أيها الملك، إنَّ علىٰ بابك رجلًا يقول قولًا عجيبًا، يزعم أنَّ له إلهًا غيرك أرسله إليك. قال: ببابي؟ قال: نعم. قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفي يَدِه عصاه، فلمَّا وقف علىٰ فرعون قال: إنِّي رسول ربِّ العالمين. فعرفه فرعون.

وذكر السُّدِّي أنَّه لما قدم بلاد مصر، ضاف أمَّه وأخاه وهما لا يعرفانه، وكان طعامهما ليلتئذٍ الطعثلل وهو اللِّفت، ثم عرفاه وسلَّما عليه، فقال له موسىٰ: يا هارون، إنَّ ربِّي قد أمرني أن آتي هذا الرجل فرعون فأدعوه إلىٰ الله، وأمر أن تعاونني. قال: افعل ما أمرك ربُّك. فذهبا، وكان ذلك ليلًا فضرب موسىٰ باب القصر بعصاه، فسمع فرعون فغضب وقال: مَن يجترئ علىٰ هذا الصَّنيع؟ فأخبره السَّدنة والبَّوابون بأن هاهنا رجلًا مجنونًا يقول: إنَّه رسول الله. فقال: عليَّ به. فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر الله في كتابه.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي: بدلالةٍ ومعجزةٍ من ربك، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي: والسَّلام عليك إن اتبعت[٤] الهدىٰ.

ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلىٰ هرقل عظيم الروم [كتابًا، كان أوله: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**][٥] **سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدَىٰ. أَمَّا بَعْدُ،** [**فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ**][٦] **فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ**»[٧].

وكذلك لما كتب مسيلمة إلىٰ رسول الله ﷺ كتابًا صُورَتُه: من مسيلمة رسول الله إلىٰ محمَّدٍ رسول الله، سلام عليك. أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر مَعَكَ، فلك المدر ولي الوبر، ولكن

---

(١) عزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٥٨٠) إلىٰ ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، قال السُّيوطي: بسندٍ جيِّدٍ، قلت: هو منقطع بين أبي عبيدة وابن مسعود.

(٢) لم يذكر محمَّد بن إسحاق إسناد ما رواه، والله أعلم.

(٣) البَطَّالُ -كشدَّادٍ-: ذو الباطل.

(٤) لوحة (٢٥١ ب).

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري» (٧).

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري» (٧).

(٧) البخاري (٧) ومسلم (١٧٧).

قريش قوم يعتدون. فكتب إليه رسول الله ﷺ: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ، سَلامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدَىٰ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

ولهذا قال موسىٰ وهارون -عليهما السلام- لفرعون: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أنَّ العذاب متمحض لمن كذَّب بآيات الله وتولىٰ عن طاعته[1]، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ -٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ -١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]؛ أي: كذَّب بقلبِهِ وتولَّىٰ بفعله.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى[2] ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن فرعون أنَّه قال لموسىٰ منكرًا وجود الصَّانع الخالق، إله كل شيء وربه ومليكه، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: الَّذي بعثك وأَرْسلَك مَنْ هو؟ فإنِّي لا أعرفه، وما عَلِمْتُ لكم من إلهٍ غيري، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس يقول: خلق لكلِّ شيءٍ زَوْجة.

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: جعل الإنسان إنسانًا، والحمار حمارًا، والشَّاة شاةً.

وقال ليث بن أبي سُلَيم[3]، عن مجاهد: أعطىٰ كل شيء صورته.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: سَوَّىٰ خلق كل دابَّةٍ.

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال: أعطىٰ كل ذي خَلْقٍ ما يصلحه من خَلْقه، ولم يجعل للإنسان من خَلْق الدَّابَّة، ولا للدَّابَّة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشَّاة، وأعطىٰ كلَّ شيءٍ ما ينبغي له من النِّكاح، وهيَّأ كلَّ شيءٍ علىٰ ذلك، ليس شيءٌ منها يُشْبِه شيئًا مِن أفعاله في الخَلْق والرِّزق والنِّكاح.

وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[4] كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٣]

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه:٤٨] هذه أرجىٰ آية للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا.

(٢) قال الشيخ القرطبي رحمه الله: هذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتي تدل علىٰ تدوين العلوم وكتبها لئلا تنسىٰ. فإن الحفظ قد تعتريه الآفات من الغلط والنسيان. وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه.

(٣) في (ز): (ليث بن أبي سلمة)، والصواب ما أثبتناه وانظر: «تاريخ البخاري» (٧/ ٢٤٦).

(٤) لوحة (٢٥٢ أ).

أي: قدَّر قدرًا، وهدىٰ الخلائق إليه؛ أي: كَتَب الأعمال والآجَال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون علىٰ ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحدٌ علىٰ الخروج منه. يقول: ربُّنا الَّذِي خلق الخلق وقدَّر القَدَر، وجَبَل الخليقة علىٰ ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أصح الأقوال في معنىٰ ذلك: أنَّ فرعون لما أخبره موسىٰ بأنَّ ربَّه الَّذِي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدَّر فهدىٰ، شرع يحتج بالقُرُون الأولىٰ؛ أي: الذين لم يعبدوا الله؛ أي: فمَا بالُهُم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربَّك(١) بل عبدوا غيره؟ فقال له موسىٰ في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند اللهِ مضبوطٌ عليهم، وسيَجْزِيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللَّوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يشذُّ عنه شيء، ولا يفوته صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسىٰ شيئًا. يصف علمَهُ تعالىٰ بأنَّه بكلِّ شيءٍ محيطٌ، وأنَّه لا ينسىٰ شيئًا، تبارك وتعالىٰ وتقدَّس، فإنَّ علم المخلوق يعتريه نقصانان(٢): أحدهما: [عدم](٣) الإحاطة بالشيء، والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزَّه نفسه عن ذلك.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

هذا مِن تمام كلامِ موسىٰ فيما وصف به ربه ﷻ حين سأله فرعون عنه(٤)، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا﴾، وفي

---

(١) في (ز): (لم يعبدوه).

(٢) في (ز): نقصانين. (٣) ليست في (ز).

(٤) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: لطيفة: جعل الزمخشري قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ من باب الالتفات. وناقشه الناصر؛ بأن الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد. يصرّف كلامه علىٰ وجوه شتىٰ. وما نحن فيه ليس كذلك. فإن الله تعالىٰ حكىٰ عن موسىٰ عليه السلام قوله لفرعون: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾، ثم قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ فإما أن يجعل من قول موسىٰ، فيكون باب قول خواص الملك: أمرنا وعمرنا وإنما يريدون الملك، وليس هذا بالتفات. وإما أن يكون كلام موسىٰ قد انتهىٰ عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ ثم ابتدأ الله تعالىٰ وصف ذاته بصفات إنعامه علىٰ خلقه، فليس التفاتاً أيضاً. وإنما هو انتقال من حكاية إلىٰ إنشاء خطاب. وعلىٰ هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وُقَيْفَة عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ ليستقر بانتهاء الحكاية. ويحتمل وجهاً آخر وهو؛ أن موسىٰ وصف الله تعالىٰ بهذه الصفات علىٰ لفظ الغيبة. فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ فلما حكاه الله تعالىٰ عنه، أسند الضمير إلىٰ ذاته؛ لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسىٰ. فمرجع الضميرين واحد. وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية. وهذا أقرب الوجوه إلىٰ الالتفات. لكن الزمخشري لم يعنه. والله أعلم. انتهىٰ كلام الناصر.

قراءة بعضهم «مهدًا»(1) أي: قرارًا تستقرُّون عليها [وتقومُونَ وتنامون عليها](2) وتسافِرُون علىٰ ظَهْرِها، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقًا تمشون في مناكبها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: مِن ألوان النَّباتات مِن زروعٍ وثمارٍ، ومِن حامضٍ وحلوٍ ومُرٍّ، وسائِر الأنواع.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرًا ويابسًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: لدَلالاتٍ وحججًا وبراهين ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: لِذَوِي العقول السَّليمة المستقيمة، علىٰ أنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ولا ربَّ سواه.

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: مِن الأرض مبدؤُكُم، فإنَّ أباكم آدم مخلوقٌ مِن ترابٍ من أديم الأرضِ، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وإليها(3) تَصِيرُون إذا مُتُّم وبليتم، ومنها نخرجكم تارةً أخرىٰ. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

وهذه الآية كقولِهِ تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وفي الحديث الذي في «السُّنن» أنَّ رسول الله ﷺ حضر جنازةً، فلما دفن الميت أخذ قبضةً من التراب فألقاها في القبر ثم قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ ثم أخذ أخرىٰ وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. ثم أخذ أخرىٰ وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾؛ يعني: فرعون، أنَّه قامت عليه الحجج والآيات والدَّلالات وعايَن ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفرًا وعنادًا وبغيًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن فرعون أنَّه قال لموسىٰ حين أراه الآية الكبرىٰ، وهي إلقاء عصاه فصارت

قَرَأَ (مَهْدًا) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مِهَادًا).

ليست في (ز).

لوحة (٢٥٢ ب).

فيه عبيد الله بن زحر، قال ابن حبَّان: يروي الموضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطَّامَّات، وإذا اجتمع في إسنادِ خبر عبيد الله وعلي بن يزيد، وأبو عبد الرَّحمن لم يكن ذلك الخبر إلا ممَّا عملت أيديهم.
قلت: وهذا الإسناد كذلك كما رواه أحمد (٥/ ٢٥٤) واعلم أنَّ حثو التُّراب على القَبْر بعد دفنه ثابتٌ بأدلَّةٍ أخرى صحيحةٍ دون ذكر الآية. انظر: «إرواء الغليل» للألباني (٧٤٣).

ثعبانًا عظيمًا ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء مِن غير سوءٍ فقال: هذا سحرٌ، جئت به لِتَسْحَرَنا وتستولي به علىٰ النَّاس، فيتبعونك وتكاثرنَا بهم، ولا يتم هذا معك، فإنَّ عندنا سحرًا مثل سحرك، فلا يغرَّنَّك ما أنت فيه ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السِّحر في مكانٍ معيَّنٍ ووقتٍ معيَّنٍ فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَىٰ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونَوروزُهم[(١)] وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد[(٢)] النَّاس قدرة الله علىٰ ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السِّحر لخوارق العادات النبويَّة، ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أي: ضحوة من النَّهار ليكون أظهر وأجلىٰ وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأَنْبِيَاء، كل أمرهم واضحٌ بيِّنٌ، ليس فيه خفاءٌ ولا ترويجٌ[(٣)]؛ ولهذا لم يقل: «ليلًا» ولكن نهارًا ضحىٰ[(٤)]. قال ابن عبَّاس: وكان يوم الزِّينة يوم عاشوراء. وقال السُّدِّي، وقتادة، وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبير: يوم سوقهم. ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في «الصحيح»[(٥)].

وقال وهب بن مُنَبِّه: قال فرعون: يا موسىٰ، اجعل بيننا وبينك أجلًا ننظر فيه. قال موسىٰ: لم أومر بهذا، إنَّما أمرت[(٦)] بمُنَاجَزَتِك[(٧)]، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ أن اجعل بينك وبَيْنَه أجلًا وقل له أن يجعل هو. [قال فرعون][(٨)]: اجعله إلىٰ أربعين يومًا. ففعل.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مَنْصفًا. وقال السُّدِّي: عدلًا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مستوىٰ يتبيَّن النَّاس ما فيه، لا يكون صَوَب[(٩)(١٠)] ولا شيء يتغيَّب بعض ذلك [عن بعضٍ][(١١)] مستوٍ حتىٰ يُرىٰ.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

---

(١) النَّيْرُوزُ: أوَّل يوم من السَّنة، مُعَرَّبُ نَوْرُوزَ. «تاجُ العَرُوسِ».

(٢) في (ز): (ليشاهدونا).

(٣) روج الشَّيءَ وروج به: عجَّل، وأمرٌ مروجٌ: مختلطٌ.

(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: اختار موسىٰ اليوم والساعة، وهي: الضحىٰ لعلمه أن سيغلب السحرة وينهزمون أمامه، فأحب أن يكون الوقت مناسبًا بكثرة المتفرِّجين ووضح الرؤية لهم في شباب النهار (الضحىٰ).

(٥) انظر «صحيح البخاري» (٤٦٨٠).

(٦) لوحة (٢٥٣ أ).

(٧) المناجَزَةُ: المقاتلة والمخاصمة.

(٨) في (ز): (بآل فرعون)، والمثبت كما في «الزهد» لأحمد.

(٩) الصُّوَبُ: جمع صُوْبة، وهي: الكثبة من ترابٍ وغيره.

(١٠) في (ز): (صوت)، والمثبت من «الطبري».

(١١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

يقول تعالىٰ مخبرًا عن فرعون أنَّه لما تواعد هو وموسىٰ ﷺ إلىٰ وقتٍ ومكانٍ معلومَيْن، تولَّىٰ، أي: شرع في جَمْع السَّحرة مِن مدائن مملكته، كُلُّ من ينسب إلىٰ سحر في ذلك الزمان. وقد كان السِّحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًّا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: اجتمع النَّاس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزِّينة، وجلس فرعون علىٰ سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنةً ويسرةً وأقبل موسىٰ ﷺ يتوكأ علىٰ عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السَّحرة بين يَدَيْ فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثُّهم، ويرغِّبُهُم في إجادةِ عملهم في ذَلِك اليوم، ويَتَمَنَّون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تُخَيِّلُوا للنَّاس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنَّها مخلوقةٌ، وليست مخلوقةً، فتكونون قد كذبتم علىٰ الله، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يهلككم بعقوبةٍ هلاكًا لا [بقيَّة][1] له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنَّهم تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحرٍ، إنَّما هذا كلام نبيٍّ. وقائل يقول: بل هو ساحرٌ. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾[2] هذه لغةٌ لبعضِ العربِ، جاءت هذه القراءة علىٰ إعرابها، ومنهم من قرأ: «إِنَّ هَذَينِ لَسَاحِرَانِ» وهذه اللُّغة المشهورة، وقد توسَّع النُّحاة في الجواب عن القراءة الأولىٰ بما ليس هذا موضعه.

والغرض أنَّ السَّحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أنَّ هذا الرجل وأخاه[3] -يعنون: موسىٰ وهارون- ساحران عالمان خبيران بصناعة السِّحر، يُرِيدَان في هذا اليوم أن يَغْلِبَاكم وقومكم ويستوليا علىٰ النَّاس، وتتبعهما العامَّة ويقاتلا فرعونَ وجنوده، فينتصرا عليه ويخرِجَاكُم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أي: ويستبدا بهذه الطَّريقة، وهي السِّحر، فإنَّهم كانوا معظَّمين بسببها، لهم أموالٌ وأرزاقٌ عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفرَّدَا بذلك، وتمحَّضت لهما الرِّياسة بها دونكم.

وقد تقدَّم في حديث الفتون عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعَيْش.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا نعيم بن حماد، حدَّثنا هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن إسحاق،

---

(١) بياض بـ(ز).

(٢) متواترة: قَرَأَ (إِنْ هَذَانِّ) ابْنُ كَثِيرٍ، وَقَرَأَ (إِنْ هَذَانِ) حَفْصٌ وَوَافَقَهُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ (إِنَّ هَذَيْنِ) أَبُو عَمْرٍو وَوَافَقَهُ الْيَزِيدِيُّ وَالْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (إِنَّ هَذَانِ).

(٣) لوحة (٢٥٣ ب).

سَمِع الشعبي يحدِّث عن عليٍّ في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: يصرفا وجوه النَّاس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [قال: أولي الشَّرف والعقل والأسنان.

وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾][1] أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلىٰ يومئذٍ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القومِ عددًا وأموالًا فقال عدو الله: يريدان أَن يذهبا بِهَا لأنفسهما.

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ بالذي أنتم عليه.

وقوله ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي اجتمعوا كلكم صفًّا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرَّةً واحدةً، لتبهَرُوا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي: منَّا ومنه، أمَّا نحن فقد وَعَدَنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأمَّا هو فينَال الرِّياسة العظِيمة.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن السَّحرة حين توَافقُوا هم وموسىٰ عليه السلام أنَّهم قالوا لموسىٰ: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾[2] أي: أنت أولًا ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أي: أنتم أولًا ليُرىٰ ماذا تصنعون من السِّحر؛ وليظهر للنَّاس جليَّة أمرهم، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ . وفي الآية الأخرىٰ أنَّهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ[3] وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال هاهنا: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم» و«الدر المنثور».

(٢) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: لطيفة: من «الكشاف» و«حواشيه للناصر»: في تخيير السحرة بين إلقاء موسىٰ وإلقائهم، استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح. وتنبيه علىٰ إعطائهم النصفة من أنفسهم. وكأن الله عزّ وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسىٰ -صلوات الله عليه- اختيار إلقائهم أولًا، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتىٰ يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصىٰ طرقهم ومجهودهم. فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق علىٰ الباطل فدمغه، وسلط المعجزة علىٰ السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين. وعبرة بينة للمعتبرين. وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ﴾ ففوضوا ضرب الموعد إليه، وكما ألهم الله عَزَّلَ موسىٰ هاهنا أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ليكون إلقاؤه العصا بعدُ قذفًا بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، كذلك ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ليكون الحق أبلج علىٰ رءوس الأشهاد، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم.

(٣) لوحة (٢٥٤ أ).

وذلك أنَّهم أودعوها من الزِّئبق ما كانت تتحرَّك بسببه وتضطرب وتَمِيد، بحيث يُخَيَّلُ للنَّاظر أنَّها تسعىٰ باختيارها، وإنَّما كانت حيلةً، وكانوا جمًّا غفيرًا وجمعًا كبيرًا فألقىٰ كل منهم عصًا وحبلًا حتىٰ صار الوادي ملآن حيَّات يركب بعضها بعضًا.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي خاف علىٰ النَّاس أن يَفْتَتِنوا بسحرهم ويغترُّوا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه في السَّاعة الرَّاهنة أن ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاه، فإذا هي ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ وذلك أنها صارت تِنِّينًا[1] عظيمًا هائلًا ذا عيونٍ وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعِصِيّ حتىٰ لم تبقِ منها شيئًا إلا تلقَّفَتْه وابتلعَتْه، والسَّحرة والنَّاس ينظرون إلىٰ ذلك عيانًا جَهْرةً، نهارًا ضحوةً. فقامت المعجزة، واتَّضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن موسىٰ الشَّيباني، حدَّثنا حماد بن خالد، حدَّثنا ابن معاذ -أحسبه الصائغ- عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ «**إِذَا أَخَذْتُمْ** -يعني: الساحر- **فَاقْتُلُوهُ**» ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: «**لَا يُؤْمَنُ بِهِ حَيْثُ وُجِدَ**».

وقد روىٰ أصله التِّرمذي موقوفًا ومرفوعًا[2].

فلما عاين السَّحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السِّحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقِين أنَّ هذا الَّذِي فعله موسىٰ ليس من قبيل السِّحر والحيل، وأنَّه حقٌّ لا مِرْيَة فيه، ولا يقدر علىٰ هذا إلا الَّذي يقول للشَّيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

ولهذا قال ابن عبَّاسٍ، وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النَّهار سحرةً، وفي آخر النَّهار شهداءَ بررةً.

قال محمَّد بن كعب: كانوا ثمانين ألفًا، وقال القاسم بن أبي بزَّة[3]: كانوا سبعين ألفًا.

وقال السُّدِّي: بضعة وثلاثين ألفًا.

وقال الثوري: عن عبد العزيز بن رُفَيْع، عن أبي ثمامة: [كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفًا.

وقال محمَّد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفًا.

وقال][4] كعب الأحبار كانوا اثني عشر ألفًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا محمَّد بن علي بن حمزة، حدَّثنا علي بن

---

(١) التِّنينُ: الحيَّة العظيمةُ. (٢) رواه الترمذي (١٤٦٠)، وضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) في (ز): (القاسم بن بريدة)، والمثبت موافق لما في «الدر المنثور».

(٤) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الدر المنثور».

الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي[(١)]، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: كانت السحرة سبعين رجلًا أصبحوا سحرةً وأمسوا شهداء[(٢)].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا المسيب بن واضح بمكة، حدَّثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعي: لما خرَّ السحرة سُجَّدًا رُفعت لهم الجنَّة حتىٰ نظروا إليها[(٣)].

قال: وذُكِر عن سعيد بن سلام: حدَّثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رَأَوْا منازلهم تبنَىٰ لهم وهم في سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بَزَّة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كفرِ فرعون وعناده وبَغْيِه ومكابَرَتِهِ الحقَّ بالباطل، حين رأىٰ ما رأىٰ من المعجزة الباهِرَة والآيَةِ العظيمة، ورأىٰ الَّذِين قد استنصَرَ بهم قد آمنوا بحَضْرَة النَّاس كلِّهم وغُلِب كل الغلب -شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلىٰ استعمال جاهه وسلطانه في السَّحرة، فتهدَّدَهُم وأوعدهم وقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: صدَّقتُموه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: وما أمرتكم بذلك، وَافْتَتُّمْ عليَّ[(٤)] في ذلك. وقال قولًا يعلم هو والسَّحرة والخلق كلهم أنَّه بُهْتٌ وكذبٌ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: أنتم إنَّما أخذتم السِّحر عن موسىٰ، واتَّفقتم أنتم وإيَّاه عليَّ وعلىٰ رعيَّتي؛ لتُظهِرُوه، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ١٢٣].

ثم أخذ يتهدَّدُهُم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: لأجعلنكم مُثْلَةً [ولأقتلنَّكم][(٥)] ولأشهرنَّكم.

قال ابن عبَّاس: فكان أوَّل مَن فعل ذَلِكَ. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أنتم تقولون: إنِّي وقومي علىٰ ضَلَالَةٍ، وأنتم مع موسىٰ وقومه علىٰ الهدىٰ. فسوف تعلمون مَن يكون له العذاب ويَبْقَىٰ فيه.

---

(١) لوحة (٢٥٤ ب). (٢) رجاله ثقات.

(٣) هذه الأقوال موقوفة علىٰ أصحابها ولا دليل عليها، والعلم عند الله.

(٤) أي: عملتم دون أمري، يقال لكلِّ من أحْدَثَ شيئًا في أمْرِكَ دُونَكَ: «قَدِ افْتَاتَ عليك فيه».

(٥) ليست في (ز).

فلمَّا صال عليهم بذَلِك وتوعَّدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ، و﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ(١) ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: لن نختارك علىٰ ما حصل لَنَا مِن الهُدَىٰ واليَقِين. ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفًا علىٰ البيِّنات.

يعنون: لا نختارك علىٰ فَاطِرِنا وخالقِنَا الذي أنشأنا مِن العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعِبَادَة والخضوع لا أنت.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وَصَلَت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي: إنَّما لك تَسَلُّطٌ في هذه الدار، وهي دار الزَّوال ونحن قد رغبنا في دار القرار.

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي: ما كان منَّا من الآثام، خصوصًا ما أكرهتنا عليه من السِّحر لنعارض بِهِ آية الله تعالىٰ ومعجزة نبيِّه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا نعيم بن حماد، حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَة، [عن أبي سعيد](٢)، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلامًا من بني إسرائيل فأمر أن يعلموا السِّحر بالفَرَمَا(٣)، وقال: علموهم تعليمًا لا يعلمه أحدٌ في الأرض. قال ابن عبَّاسٍ: فهم مِن الَّذِين آمنوا بموسىٰ، وهم مِن الذين قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾(٤).

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي: خيرٌ لنا منك، ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي: أدومَ ثوابًا مما كنت وعدتنا ومَنَّيْتَنَا. وهو رواية عن ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال محمَّد بن كعب القُرَظِي: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي: منك عذابًا إن عُصِيَ.

وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضًا:

والظاهر أن فرعون -لعنه الله- صمَّم [علىٰ ذلك](٥) وفعله بهم -رحمهم الله- ولهذا قال ابن عبَّاس وغيره من السلف: أصبحوا سحرةً، وأمسَوْا شهداءَ.

---

(١) لوحة (٢٥٥ أ).

(٢) في (ز): (حدثنا ابن سعد)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».

(٣) الفَرَمَا: مدينة علىٰ السَّاحل من ناحية مصر. «معجم البُلْدَان».

(٤) ورواه الطبري (١٦/ ١٨٩)، وفيه نعيم بن حمَّاد: صدوق يخطئ كثيرًا.

(٥) ليست في (ز).

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

الظَّاهر من السِّياق أن هذا مِن تمام ما وعظ به السَّحرة لفرعون، يحذِّرونه من نقمة الله وعذابه الدَّائم السَّرمدي، ويرغِّبُونه في ثوابه الأبدي المخلَّد، فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ أي: يلقىٰ الله يوم القيامة وهو مجرمٌ، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى[١] ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١١-١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ [نَاسٌ][٢] تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ، فَتُمِيتُهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّىٰ إِذَا صَارُوا فَحْمًا، أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، جِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ، ضَبَائِرَ[٣]، فَبُثُّوا عَلَىٰ أَنْهَارِ الجَنَّةِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحَبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»، فقال رجلٌ من القوم: كأنَّ رسول الله ﷺ كان بالبادية[٤].

وهكذا أخرجه مسلم في كتابه «الصحيح» من رواية شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبي مَسْلَمة[٥] سعيد بن يزيد به.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا حيان، سمعت سليمان التيمي، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيدٍ؛ أن رسول الله ﷺ خَطَبَ فأتىٰ علىٰ هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَلا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ، وَأَمَّا الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَإِنَّ النَّارَ تَمَسُّهُمْ، ثُمَّ يَقُومُ الشُّفَعَاءُ فَيَشْفَعُونَ، فَتُجْعَلُ الضَّبَائِرُ، فَيُؤْتَىٰ بِهِمْ نَهْرًا يُقَالُ لَهُ: الحَيَاةُ -أو: الحَيَوَانُ- فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ القِثَّاءُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»[٦].

---

(١) لوحة (٢٥٥ ب).
(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(٣) أي: جماعات متفرِّقة، الواحدة: ضِبَارَة، مثل: عِمَارَة وعَمَائِر، وكلُّ مجتمع: ضِبَارَةٌ.
(٤) رواه أحمد (٣/ ١١)، وأبو يعلى (١٠٩٧)، وابن حبان (٧٤٨٥) من طريق إسماعيل بن علية، وهو عند مسلم (١٨٥) من طريق سعيد بن يزيد به.
(٥) في (ز): (أبي مسلم)، والمثبت كما في «صحيح مسلم».
(٦) رواه مسلم (١٨٥)، وهو نفس الحديث السابق.

وقوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: ومن لَقِي ربَّه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدَّق ضميره بقولِهِ وعملِهِ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾؛ أي: الجنَّة ذات الدَّرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطَّيِّبات.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، أنبأنا همَّام، حدَّثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبادة بن الصَّامت، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**الجنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الأَنْهَارُ الأَرْبَعَةُ، وَالعَرْشُ فَوْقَهَا، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ**».

ورواه الترمذي، من حديث يزيد بن هارون، عن همام به[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، أخبرنا خالد بن[٢] يزيد بن أبي مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنَّة مائة درجة، في كل درجة مائة درجة، بين كل درجتين[٣] كما بين السَّماء والأرض، فيهنَّ الياقوت والحليّ، في كلِّ درجة أمير، يرون له الفضل والسؤدد[٤].

وفي «الصحيحين»: «**أَنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ فَوْقَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «**بَلَىٰ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»[٥]. وفي «السنن»: «**وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَمِنْهُمْ وَأَنْعِمَا**»[٦].

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى﴾ أي: إقامة وهو بدل من الدَّرجات العلىٰ، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين أبدًا، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهَّر نفسه من الدَّنس والخبث والشِّرك، وعبَدَ الله وحده لا شريك له، وصَدَّق المرسلين فيما جاءوا به من خَبَرٍ وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا أنه أمر موسىٰ عليه السلام حين أبىٰ فرعونُ أن يُرسل معه بني إسرائيل، أن يَسْرِي بهم في اللَّيل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السُّورة الكريمة. وذلك أن موسىٰ لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضبًا شديدًا وأرسل في المدائن حاشرين؛ أي: من يجمعون له الجند من بلدانه

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣١٦)، والترمذي (٢٥٣١).

(٢) في (ز): (خالد أبو يزيد)، والمثبت هو الصواب كما في «تهذيب التهذيب» (٩/ ٥٦).

(٣) لوحة (٢٥٦ أ). (٤) إسناده مرسل.

(٥) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١)، والرِّواية الثَّانية في «السُّنن»: رواها أبو داود (٣٩٨٧)، والترمذي (٣٦٥٨)، وابن ماجة (٩٦).

(٦) انظر التعليق السابق.

ورَسَاتيقه(١)، يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥]، ثم لما جمع جنده واستوسق(٢)(٣) له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]؛ أي: عند طلوع الشَّمس، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾؛ أي: نظر كل من الفريقين إلىٰ الآخر ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء:٦١، ٦٢]، ووقف موسىٰ ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحىٰ الله إليه أن اضرب ﴿لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق بإذنِ الله» ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]؛ أي: الجبل العظيم. فأرسل الله الرِّيح علىٰ أرض البحر فلفحته حتىٰ صار يابسًا كوجه الأرض؛ فلهذا قال: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ أي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ يعني: من البحر أن يُغْرِقَ قومك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمۡ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور(٤)، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أنــا أَبُــو الــنَّجْمِ وَشِــعْرِي شِــعْرِي

أي: الذي يعرف، وهو مشهور.

وكما تقدَّمهم فرعون فسَلَكَ بهم في اليمِّ فأضلَّهم وما هداهم إلىٰ سبيل الرَّشاد، كذلك ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾

يذكر تعالىٰ نعمه علىٰ بني إسرائيل العِظَام، ومننه الجِسَام، حيث نَجَّاهم من عدوِّهم فرعون، وأقرَّ أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلىٰ جنده قد غرقوا في صبيحةٍ واحدةٍ، لم ينجُ منهم أحدٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال البخاري: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا رَوْح بن عبادة، حدَّثنا شعبة، حدَّثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسىٰ علىٰ فرعون، فقال: «نَحْنُ أَوْلَىٰ بِمُوسَىٰ

(١) الرَّسَاتيقُ: القرىٰ.
(٢) أي: اجتمع.
(٣) في (ز): (واستوس).
(٤) لوحة (٢٥٦ ب).

فَصُومُوهُ» رواه مسلم أيضًا في «صحيحه»(١).

ثم إنَّه تعالىٰ وَاعَدَ موسىٰ وبَنِي إسرائيل بعد هلاك فرعونَ إلىٰ جانبِ الطُّور الأيمن، وهو الَّذي كلَّمه تعالىٰ عليه، وسأل فيه الرُّؤية، وأعطاه التَّوراة هناك. وفي غُضُون ذلك عَبَدَ بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالىٰ قريبًا.

وأما المنُّ والسلوىٰ، فقد تقدَّم الكلام علىٰ ذلك في سورة «البقرة» وغيرها. فالمن: حلوىٰ كانت تنزل عليه من السَّماء. والسَّلوىٰ: طائرٌ يسقط عليهم، فيأخذون من كلٍّ قدرَ الحاجة إلىٰ الغدِ، لطفًا من الله ورحمةً بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: كلوا من هذا الرِّزق الَّذي رزقتكم، ولا تطغوا في رِزْقِي، فتأخذُوهُ مِن غير حاجةٍ، وتخالفوا ما آمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: أغضب عليكم ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: أي: فقد شَقِيَ.

وقال شُفَيُّ بن ماتع: إنَّ في جهنم قصرًا يُرمىٰ(٢) الكافر من أعلاهُ، فيهوي في جهنم أربعين خريفًا قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ رواه ابن أبي حاتم(٣).

وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: كل من تاب إليَّ تبتُ عليه من أي ذنبٍ كان، حتىٰ إنَّه تعالىٰ تاب علىٰ مَن عَبَدَ العِجْل مِن بني إسرائيل.

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عمَّا كان فيه من كفرٍ أو شركٍ أو نفاقٍ أو معصيةٍ.

وقوله: ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: أي: ثمَّ لم يشكك، وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: استقام علىٰ السُّنَّة والجماعة. ورُوِي نحوه عن مجاهد، والضَّحَّاك، وغير واحدٍ من السَّلف، وقال قتادة: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: لَزِم الإسلام حتىٰ يموت، وقال سفيان الثوري: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: علم أن لهذا ثوابًا.

و﴿ثُمَّ﴾ هاهنا لترتيب الخبر علىٰ الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾(٤) [البلد:١٧].

---

(١) البخاري (٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠).

(٢) في (ز): (يؤتىٰ)، والمثبت كما في «الدر المنثور».

(٣) لوحة (٢٥٧ أ).

(٤) في (ز): «ثم كان من الذين ءامنوا وعملوا الصالحات» وليست بآية.

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ[(١)] ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾﴾

لما سار موسىٰ عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿وَأَتَوۡاْ[(٢)] عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلةً ثم أتبعها له[(٣)] عشرًا، فتمَّت له أربعين ليلةً، أي: يصومها ليلًا ونهارًا. وقد تقدَّم في حديث «الفتون» بيان ذلك. فسارع موسىٰ عليه السلام مبادرًا إلىٰ الطُّور، واستخلف علىٰ بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي: قادمون ينزلون قريبًا من الطور، ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي: لِتزداد عنِّي رضًا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالىٰ نبيه موسىٰ بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري. وفي الكتب الإسرائيليَّة: أنَّه كان اسمه هارون أيضًا، وكتب الله تعالىٰ[(٤)] له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]؛ أي: عاقبة الخارجين عَن طاعتي المخالفين لأمْري.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ أي: بعد ما أخبره تعالىٰ بذلك، في غاية الغَضَب والحَنَق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتَسلُّم التَّوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرفٌ لهم. وهم قومٌ قد عبدوا غير الله ما يَعْلَمُ كلُّ عاقلٍ له لبٌّ [وحزمٌ][(٥)] بطلان [ما هم فيه][(٦)] وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفًا، والأسف: شدة الغضب.

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الناصر: إنما أراد الله بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم، أن يعلم موسىٰ أدب السفر. وهو أنه ينبغي تأخُرُ رئيس القوم عنهم في المسير، ليكون نظره محيطًا بطائفته، ونافذًا فيهم، ومهيمنًا عليهم. وهذا المعنىٰ لا يحصل في تقدمه عليهم، ألا ترىٰ الله عز وجل كيف علم هذا الأدب لوطا، فقال: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الحجر: ٦٥]، فأمره أن يكون أخيرهم. علىٰ أن موسىٰ عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلىٰ رضاء الله عز وجل، ومسارعة إلىٰ الميعاد. وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير. ولا أَسَرَّ من مواعدة الله تعالىٰ له صلى الله عليه وسلم. انتهىٰ.

(٢) في (ز): (وافوا). (٣) في (ز): (ثم أتمها له). (٤) لوحة (٢٥٧ ب).

(٥) ليست في (ز). (٦) في (ز): (ما لقيه).

وقال مجاهد: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي: جزعًا. وقال قتادة، والسُّدِّي: ﴿أَسِفًا﴾ أي: حزينًا علىٰ ما صنع قومه من بعده.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: أما وعدكم علىٰ لِسَاني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقِبَة كما شاهدتم من نصرته إيَّاكم علىٰ عدوِّكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي: في انتظار ما وَعَدَكُم الله. ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد مِن قِدَم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ﴿أَمْ﴾ هاهنا بمعنىٰ «بل» وهي للإضراب عن الكَلَام الأوَّل، وعدول إلىٰ الثَّاني، كأنَّه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يَحِلّ عليكم غضبٌ مِن ربِّكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسىٰ وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا.

ثمَّ شرعوا يعتذرون بالعُذْر البارد، يخبرونه عن تورُّعِهم عمَّا كان بأيديهم من حُليِّ القبط الَّذِي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي: ألقيناها عنَّا. وقد تقدَّم في حديث «الفتون» أن هارون عليه السلام هو الَّذِي كان أمرهم بإلقاء الحُلِيِّ في حفرةٍ فيها نار.

وفي رواية السُّدِّي، عن أبي مالك، عن ابن عبَّاس: إنَّما أراد هارونُ أن يجتمع الحُلِيُّ كلُّه في تلك الحفيرة ويجعل حجرًا واحدًا. حتىٰ إذا رجع موسىٰ يرىٰ فيه ما يشاء. ثم جاء [بعد][1] ذلك السَّامري فألقىٰ عليها تلك القَبْضَة التي أخذها من أَثَرِ الرَّسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دَعْوَته، فدعا له هارون -وهو لا يعلم ما يريد- فأجيب له، فقال السَّامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلًا[2]. فكان عجلًا له خُوار؛ أي: صوت، استدراجًا وإمهالًا ومحنةً واختبارًا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبادة بن البَخْتَرِيّ[4]، حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حَمَّاد، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس؛ أن هارون مَرَّ بالسَّامري وهو ينحتُ العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضرُّ ولا ينفع، فقال هارون: اللهمَّ أعطه ما سأل علىٰ ما في نفسِهِ ومضىٰ هارون، فقال السَّامري: اللهمَّ إني أسألك أن يَخُور فَخَار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رءوسهم[5].

ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال: [أعمل][6] ما ينفع ولا يضر.

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٢٥٨ أ).

(٣) انظر (حديث الفتُون) عند تفسير الآية (٣٩) من نفس السورة.

(٤) في (ز): (عباد بن النحوي)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم»، وهو الصواب.

(٥) عزاه لابن أبي حاتم، وفيه سِمَاك: تغيَّر بآخرِهِ، والأثر من الأخبار التي يَرْوِيها ابن عبَّاس، وقد تكون مما استجاز روايتها من كُتُبِ بني إسرائيل.

(٦) ليست في (ز).

وقال السُّدِّي(١): كان يخور ويمشي.

فقالوا - أي: الضُّلال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه-: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي: نَسِيَه هاهنا، وذهب يتطلبه. كذا تقدَّم في حديث «الفتون» عن ابن عبَّاس. وبه قال مجاهد.

وقال سِماك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: نسي أن يذكركم أنَّ هذا إلهكم(٢).

وقال محمَّد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير(٣)، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ قال: فعَكَفُوا عليه وأحبوه حبًّا لم يحبوا شيئًا قط؛ يعني: مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام يعني: السَّامري(٤).

قال الله تعالىٰ ردًّا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحتهم وسخافة عقولِهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أي: العجل ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أي: في دنياهم ولا في أخراهم.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الرِّيح في دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت.

وقد تقدَّم في متون الحديث عن الحسن البصري: أنَّ هذا العجل اسمه «بهموت».

وحاصل ما اعتذرَ به هؤلاء الجهلة أنَّهم تورَّعُوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجلٌ من أهل العراق عن دَمِ البعوض إذا أصاب الثوب -يعني: هل يصلي فيه أم لا؟- فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلىٰ أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ -يعني: الحسين- وهم يسألون عن دم البعوض(٥)؟

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ(٦) فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

يخبر تعالىٰ عما كان من نَهْي هارون عليه السلام لهم عن عِبَادَةِ العجل، وإخباره إيَّاهم: إنَّما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الَّذي خلق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديرًا، ذو العرش المجيد، الفعَّال لما يريد ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه.

---

(١) في (ز): (وقال الزي)، والمثبت موافق لما في «تفسير البغوي».

(٢) رواية سماك عن عكرمة مضطربة، فالإسناد ضعيف.

(٣) في (ز): (حكيم بن جرير)، والمثبت كما في «الطبري».

(٤) في إسناده حكيم بن جبير: قال الحافظ: ضعيف رمي بالتشيع. وانظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» (٢/ ٤٤٦).

(٥) رواه البخاري (٥٩٩٤). (٦) لوحة (٢٥٨ ب).

﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالَفُوا هارون في ذلك وحارَبُوهُ وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾

يقول مخبرًا عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حَدَث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غيظًا، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهيَّة، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه، وقد قدمنا في «الأعراف» بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ».

وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أوَّل ما وقع ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي: فيما كنت تقدَّمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. قال: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾ ترفَّق له بذكر الأمِّ مع أنَّه شقيقه لأبوَيْه؛ لأنَّ ذكر الأم هاهنا أرقُّ وأبلغ؛ أي: في الحنوِّ والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

هذا اعتذارٌ مِن هارون عند موسى في سبب تأخُّره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتَّبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرَّقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي: وما راعيت ما أمرتُك به حيث استخلفتك فيهم.

قال ابن عبَّاس: وكان [هارون][1] هائبًا له مطيعًا.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾

يقول موسى عليه السلام[2] للسَّامري: ما حملك على ما صَنعتَ؟ وما الَّذي عرض لك حتَّى فَعَلْتَ ما فَعَلْتَ؟

قال محمَّد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير[3]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كان السَّامري رجلًا من أهل بَاجَرْمَا[4]، وكان من قومٍ يعبدون البقر، وكان حُبُّ عبادة البقر في نفسه،

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٢٥٩ أ).

(٣) في (ز): (حكيم بن جرير)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) بَاجَرْمَا: قرية من أعمال البليخ، قرب الرِّقَّة، من أرضِ الجزيرَة.

وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل[١]. وكان اسم السامري: موسىٰ بن ظفر[٢].

وفي روايةٍ عن ابن عبَّاس: إنه كان من كرمان.

وقال قتادة: كان مِن قريةٍ اسمها سامرا[٣].

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت جبريل حين جاء لَهلاك فرعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثيرٍ من المفسِّرين أو أكثرهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عمار[٤] بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسىٰ، أخبرنا إسرائيل، عن السُّدِّي، عن أبي بن عمارة، عن عليٍّ رضي الله عنه قال: إن جبريل عليه السلام لما نزل فصعد بموسىٰ إلىٰ السَّماء، بصر به السامري من بين النَّاس، فقبض قبضةً من أثر الفرس قال: وحمل جبريل موسىٰ خلفه، حتىٰ إذا دنا مِن باب السَّماء، صعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح. فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده، قال: نزل موسىٰ، فأخذ العجل فأحرقه. غريب[٥]. وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع.

قال مجاهد: نبذ السَّامري؛ أي: ألقىٰ ما كان في يَدِه علىٰ حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسدًا له خُوار حفيف الرِّيح فيه، فهو خواره.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن يحيىٰ، أخبرنا علي بن المديني، حدَّثنا يزيد بن زُرَيْع، حدَّثنا عمارة، حدَّثنا عكرمة؛ أن السامري رأىٰ الرسول، فألقي في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضةً فألقيتها في شيءٍ، فقلت له: «كن فكان»، فقبض قبضةً من أثر الرسول، فيبست أصابعه علىٰ القبضة، فلما ذهب موسىٰ للميقات وكان بنو إسرائيل استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السَّامري: إنَّما أصابكم من أجل هذا الحُلِي، فاجمعوه. فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامري فألقي في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت: «كن» كان. فقذف القبضة وقال: «كن»، فكان عجلًا له خوار، فقال: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾[٦].

ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقيتها مع من ألقىٰ، ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: حَسَّنَتْهُ وأعجبها إذ ذاك[٧].

---

(١) في (ز) بعد هذه الكلمة: (وفي نفسه)، وليست في «الطبري» وحذفناها ليستقيم السياق.
(٢) في إسناده حكيم بن جبير: قال الحافظ: ضعيف رمي بالتشيع، وانظر ترجمته في «التهذيب» (٢/ ٤٤٦).
(٣) سَامرًا: مدينة كانت بين بغداد وتِكْرِيت علىٰ شرق دِجْلَة، وكانت مدينة عتيقة من مدن الفُرْس.
(٤) في (ز): (عثمان)، و الصواب ما أثبتناه، انظر: «الجرح والتعديل» (٨/ ٤٣).
(٥) عزاه المصنِّف لابن أبي حاتم، ورجاله ثقات عدا شيخ المصنِّف لم أقع علىٰ ترجمته.
(٦) إسناده مرسل. (٧) لوحة (٢٥٩ ب).

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: كما أخذت ومَسَسْتَ ما لم يكن لك أخذه ومسّه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: [لا] (١) تماسَّ النَّاس ولا يمسونك (٢).

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوم القيامة، ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لا محيد لك عنه.

وقال قتادة: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم [يقولون] (٣): لا مساس.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ قال الحسن، وقتادة، وأبو نَهيك: لن تغيب عنه.

وقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك، ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: أقمت علىٰ عبادته؛ يعني: العجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ قال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس، والسُّدِّي: سَحَله (٤) بالمبارد، وألقاه؛ علىٰ النار.

وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحمًا ودمًا، فحرقه بالنَّار، ثم ألقاه، أي: رماده في البحر؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن، عن علي ﷺ قال: إنَّ موسىٰ لما تعجَّل إلىٰ ربه، عمد السَّامري فجمع ما قَدَر عليه مِن حُلِيِّ نساء بني إسرائِيلَ، ثمَّ صوَّره عجلًا قال: فعمد موسىٰ إلىٰ العِجْل، فوضع عليه المبارد، فبرده بها، وهو علىٰ شطِّ نهر، فلم يَشْرَب أحدٌ مِن ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلَّا اصفرَّ وجهه مثل الذهب. فقالوا لموسىٰ: ما تَوْبَتُنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضًا (٥).

وهكذا قال السُّدِّي: وقد تقدَّم في تفسير سورة «البقرة» ثم في حديث «الفتون» بسط ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ يقول لهم موسىٰ ﷺ: ليس هذا إلهكم، [إنَّما إلهكم اللهُ الَّذي لا إله إلا هو] (٦)؛ أي: لا يستحق ذلك علىٰ العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا لَهُ، فإنَّ كل شيءٍ فقيرٌ إليه، عبدٌ لديه.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ نصب علىٰ التَّمييز؛ أي: هو عالِمٌ بكلِّ شيءٍ، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا ﴿يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

---

(١) ليست في (ز).
(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري ﷺ: هذه المسألة أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألَّا يخالطوا، وقد فعل النبي ﷺ ذلك بالذين تخلفوا عن غزوة تبوك.
(٣) ليست في (ز). (٤) أي: قشره ونحته وبرده.
(٥) عزاه المصنف لابن أبي حاتم، وفيه أبو إسحاق يرسل؛ فالإسناد ضعيف.
(٦) ليست في (ز).

[هود: ٦] والآيات في هذا كثيرةٌ جدًّا.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: كما قَصصْنا عليك خبر[1] موسىٰ، وما جرىٰ له مع فرعون وجنودِه علىٰ الجليَّة والأمر الواقع، كذلك نقصُّ عليك[2] الأخبارَ الماضية كما وقعت مِن غير زيادةٍ ولا نقصٍ، هذا ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن العظيم، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي لم يُعْطَ نبيٌّ مِن الأنبياء [منذ بعثوا إلىٰ أن ختموا][3] بمحمَّدٍ ﷺ تسليمًا، كتابًا مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين النَّاس منه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كذَّب به وأعرض عن اتِّباعه أمرًا وطلبًا، وابتغىٰ الهدىٰ في غيره، فإنَّ الله يُضِلُّه ويهديه إلىٰ سواءِ الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: إثمًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وهذا عامٌّ في كلِّ مَن بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فكلُّ مَن بلغه القرآن فهو نذيرٌ له وداعٍ، فمَن اتَّبعه هُدِيَ، ومن خالفَهُ وأعرض عنه ضَلَّ وشَقِيَ في الدُّنيا، والنَّار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: لا مَحِيد لهم عنه ولا انفِكاك ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس الحِمْل حِمْلُهُم.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سُئِل عن الصُّور، فقال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»[4].

وقد جاء في حديث «الصور» من رواية أبي هريرة: أنَّه قرنٌ عظيمٌ، الدَّارة[5] منه بقدرِ السَّموات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام. وجاء في الحديث: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ» فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا»[6].

---

(١) في (ز): (وحي موسىٰ). (٢) لوحة (٢٦٠ أ). (٣) بياض بـ(ز)، والمثبت من الطبعات السابقة.

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٤٢)، والترمذي (٢٤٣٩). وله شاهد من حديث ابن عمرو عند أحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٢).

(٥) الدَّارةُ والدَّائِرةُ: ما أحاط بالشيء.

(٦) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٢٦)، (٤/ ٣٧٤)، والحاكم (١/ ٥٥٩)، وتقدم عند تفسير سورة آل عمران (الآية: ١٦٩-١٧٥).

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زُرْق العيونِ مِن شدَّة ما هم فيه من الأهوال(١).

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عبَّاس: يتسارُّون بينهم، أي: يقول بعضُهم لبعضٍ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

أي: في الدَّار الدُّنيا، لقد كان لُبثُكم فيها قليلًا عشرة أيَّام أو نحوها.

قال الله تعالىٰ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: في حال تَناجِيهم بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: لِقِصَرِ مدَّة الدُّنيا في أنفسهم [يوم المعاد؛ لأنَّ الدُّنيا كُلَّها وإن تكرَّرت أوقاتها وتعاقبت ليَالِيها وأيَّامها](٢) وساعاتها كأنَّها يومٌ واحدٌ؛ ولهذا تستقصر مدَّة الحياة الدُّنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك [دَرْء](٣) قيام الحجَّة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ(٤) كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢- ١١٤] أي: إنما كان لُبثكم فيها قليلًا لو كنتم تعلمون لآثرتم البَاقِي علىٰ الفاني، ولكن تصرَّفتُم فأسأتم التَّصرُّف، قَدَّمتُم الحاضر الفَانِي علىٰ الدَّائم الباقي.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقىٰ يوم القِيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويُسَيِّرُها تسييرًا.

· ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطًا واحدًا.

والقاع: هو المستوِي من الأرض. والصَّفصف تأكيدٌ لمعنىٰ ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولىٰ، وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾؛ أي: لا ترىٰ في الأرضِ يومئذٍ واديًا ولا رابيةً، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا، كذلك قال ابن عبَّاسٍ، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضَّحَّاك، وقتادة، وغير واحدٍ من السَّلف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعِينَ

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: الزُّرَق: خلاف الكَحَل، والعرب تتشاءم بزرق العيون وتذمه وسبب هذه الزرقة هو شدة العطش.

(٢) ليست في (ز). (٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (٢٦٠ ب).

إلىٰ الدَّاعي، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان[(١)] هذا في الدُّنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

قال محمَّد بن كعب القُرَظِي: يحشرُ اللهُ النَّاس يوم القِيامة في ظلمةٍ، وتُطْوَىٰ السَّماء، وتتناثر النُّجوم، وتذهب الشَّمس والقمر، وينادي منادٍ، فيتبع النَّاس الصَّوت [فيأتونه][(٢)] فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾. [وقال قتادة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يميلون عنه. وقال أبو صالح: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا عوج عنه][(٣)].

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: قال ابن عبَّاس: سَكَنت، وكذا قال السُّدِّي.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: يعني: وطءَ الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضَّحَّاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الصَّوت الخفي. وهو رواية عن عكرمة، والضَّحَّاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الحديث وسره، ووَطْءُ الأقدام. فقد جمع سعيد[(٤)] كلا القولين وهو محتملٌ، أمَّا وطء الأقدام فالمراد سعي النَّاس إلىٰ المحشر، وهو مَشْيُهُم في سكونٍ وخضوعٍ. وأمَّا الكلام الخفيُّ فقد يكونُ في حالٍ دون حالٍ، فقد قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وفي «الصحيحين»، من غير وجهٍ، عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله ﷻ

---

(١) في (ز): (ولو كان إليه هذا).

(٢) بياض في (ز)، وفي بعض المطبوعات (يؤمونه)، والمثبت كما في «الدر المنثور» و«ابن أبي حاتم».

(٣) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الدر المنثور».

(٤) لوحة (٢٦١ أ).

أنه قال: «آتِي تَحْتَ العَرْشِ، وَأَخِرُّ للهِ سَاجِدًا، وَيَفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِدَ لا أُحْصِيهَا الآنَ، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ». قال: «فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ»، فذكر أربع مراتٍ(١)، صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ سائر الأنبياء.

وفي الحديث أيضًا يقول تعالىٰ: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ [حَبَّةٍ](٢) مِنْ إِيمَانٍ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفُ مِثْقَالٍ مِنْ إِيمَانٍ، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ...» الحديث(٣).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يحيط علمًا بالخلائق كلهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قال ابن عبَّاس، وغير واحدٍ: خضعت وذلَّت واستسلمت الخلائق لجبَّارها الحيِّ الَّذي لا يموت، القيُّوم الَّذي لا ينام، وهو قيِّم علىٰ كلِّ شيءٍ، يدبِّره ويحفظُهُ، فهو الكامل في نفسه، الَّذي كلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، لا قِوَامَ له إلَّا بِهِ.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإنَّ الله سيُؤدِّي كلَّ حقٍّ إلىٰ صاحبه، حتىٰ يقتصَّ للشَّاة الجمَّاء من الشَّاة القرناء.

وفي الحديث: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لا يُجَاوِزُنِي اليَوْمَ ظُلْمُ ظَالِمٍ»(٤)(٥).

وفي «الصحيح»: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٦). والخيبة كل الخيبة لمَن لَقِيَ الله وهو مشركٌ به؛ فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنَّىٰ بالمتَّقين وحكمهم، وهو أنَّهم لا يُظْلَمُون ولا يُهضَمون؛ أي: لا يُزَادُ في سيئاتهم ولا يُنْقَصُ من حسنَاتِهم. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، وغير واحدٍ. فالظُّلم: الزِّيادة بأن يحمل عليه ذنب(٧) غيره، والهضم: النَّقص.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

يقول: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخيرِ والشَّرِّ واقعًا لا محالة، أنزلنا القرآن بشيرًا ونذيرًا،

---

(١) البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (٤٧١٢). (٢) سقط من (ز).

(٣) رواه البخاري (٤٤) (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٢) من حديث أنس.

(٤) لوحة (٢٦١ ب). (٥) لم أقف علىٰ إسناده.

(٦) رواه الإمام مسلم في «صحيحه» (٢٥٧٨).

(٧) في (ز): (بأن عمل عليه ظلم غيره)، والمثبت من الطبعات السابقة.

بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ فصيحٍ لا لَبْسَ فيه ولا عيَّ، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطَّاعة وفعل القُربات. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تنزَّه وتقدَّس الملك الحقُّ، الَّذي هو حقٌّ، ووعده حقٌّ، ووعيده حقٌّ، ورسله حقٌّ، والجنَّة حقٌّ، والنَّار حقٌّ، وكل شيءٍ منه حقٌّ. وعدلُهُ تعالىٰ ألَّا[١] يعذِّب أحدًا قبل الإنذار، وبعثة الرُّسل والإعذار إلىٰ خلقه؛ لئلَّا يبقىٰ لأحدٍ حجَّةٌ ولا شبهةٌ.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[٢] كقوله تعالىٰ في سورة «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وثبت في «الصحيح» عن ابن عبَّاس؛ أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدَّةً، فكان مما يحرِّك لسانه، فأنزل الله هذه الآية[٣] يعني: أنَّه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلَّما قال جبريل آية قالها معه، من شدَّة حرصه علىٰ حفظ القرآن، فأرشده الله تعالىٰ إلىٰ ما هو الأسهل والأخف في حقِّه؛ لئلا يشق عليه. فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه علىٰ النَّاس مِن غير أن تنسىٰ منه شيئًا، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: بل أنصت، فإذا فرغ المَلَكُ مِن قراءته عليك فاقرأه بعده، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي: زِدْني منك علمًا.

قال ابن عُيَيْنَة[٤] رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة [من العلم][٥] حتىٰ توفَّاه الله عز وجل. ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ تَابَعَ الوَحْيَ عَلَىٰ رَسُولِهِ، حَتَّىٰ كَانَ الوَحْيُ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَوْمَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»[٦].

وقال ابن ماجه: حدَّثنا أبو بكر بن أبىٰ شيبة، حدَّثنا عبد الله بن نُمَيْر، عن موسىٰ بن عبيدة، عن محمَّد بن ثابت، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا، وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ»[٧].

وأخرجه التِّرمذي، عن أبي كُرَيْب، عن عبد الله بن نُمَيْر به. وقال: غريبٌ من هذا الوجه. ورواه البزار عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم، عن موسىٰ بن عبيدة به. وزاد في آخره: «وَأَعُوذُ

---

(١) في (ز): (أن يعذب).

(٢) قال العلامة السعدي رحمه الله: ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنىٰ ويصبر حتىٰ يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

(٣) البخاري (٦) (٤٩٢٧). (٤) لوحة (٢٦٢ أ). (٥) ليست في (ز).

(٦) لم أَقِف عليه، ولم يذكُر الحافظ ابن كثير إسناده. وانظر سورة الضحى.

(٧) رواه ابن ماجة (٣٨٣٣)، والترمذي (٣٥٩٩)، قال الألباني: صحيح دون قوله: «والحمد لله... إلخ».

بِاللهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ»(١).

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنَان، حدَّثنا أسباط بن محمَّد، حدَّثنا الأعمش، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عبَّاس قال: إنَّما سُمِّي الإنسانُ؛ لأنَّه عَهِد إليه فنَسِيَ. وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه. وقال مجاهد والحسن: تَرَكَ.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ يذكر تعالىٰ تشريفَ آدم وتكريمَهُ، وما فضَّله به علىٰ كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلًا. وقد تقدَّم الكلام علىٰ هذه القصة في سورة «البقرة» وفي «الأعراف» وفي «الحجر» و«الكهف» وسيأتي في آخر سورة «ص» إن شاء الله تعالىٰ. يذكر فيها تعالىٰ خَلْقَ آدم وأَمْرَه الملائكة بالسجود له تشريفًا وتكريمًا، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديمًا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي: امتنع واستكبر. ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني: حواء، عليهما السلام ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي: إياك أن يسعىٰ في إخراجك منها فتتعب وتعنىٰ وتشقىٰ في طلب رزقك، فإنَّك هاهنا في عيشٍ رغيدٍ هنيءٍ، لا كلفة ولا مشقة. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إنَّما قرن بين الجوع والعُرْي؛ لأنَّ الجوع ذُلُّ الباطن، والعري ذُلُّ الظاهر. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ وهذان أيضًا متقابلان، فالظَّمأ(٢): حرُّ الباطن، وهو العطش. والضُّحىٰ: حرُّ الظاهر(٣).

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ قد تقدَّم أنَّه ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾؛ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. وقد تقدَّم أنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ آدمَ وزَوْجَتِهِ أن يأكلا مِن كلِّ الثِّمار، ولا يقربا هذه الشَّجرة المعيَّنة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتىٰ أكَلَا منها، وكانت شجرةَ الخلد -يعني: التي من أكل منها خُلِّد ودام مكثه، وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا شعبة، عن أبي الضَّحَّاك،

---

(١) انظر التَّعليق السَّابق. (٢) لوحة (٢٦٢ ب).

(٣) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الناصر: في الآية سر بديع من البلاغة يسمىٰ قطع النظير عن النظير. وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة، مع ما بينهما من التناسب. والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلًّا شكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة.

سمعت أبا هريرة يحدث، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، مَا يَقْطَعُهَا، وَهِيَ شَجَرَةُ الخُلْدِ». ورواه الإمام أحمد [(١)].

وقول: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدَّثنا علي بن عاصم، عن سعيد [بن أبي] [(٢)] عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طُوَالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ. فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَىٰ عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ، فَنَازَعَهَا، فَنَادَىٰ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ، مِنِّي تَفِرُّ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ، لَا، وَلَكِنِ اسْتِحْيَاءً أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَرَجَعْتُ، أَعَائِدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾» [(٣)].

وهذا منقطعٌ بين الحسن وأُبيِّ بن كعب، فلم يسمعه منهُ، وفي رفعه نظر أيضًا.

وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة، والسُّدِّي.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا جعفر، عن عون، حدَّثنا سفيان، عن ابن أبي ليلىٰ، عن المِنْهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قال: ينزعان ورق التِّين، فيجعلانه علىٰ سوآتِهما.

وقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ [(٤)] ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ قال البخاري: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا أيوب بن النجار، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «حَاجَّ مُوسَىٰ آدَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ؟ قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَىٰ، أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ [(٥)] يَخْلُقَنِي -أَوْ: قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي» قال رسول الله ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ» [(٦)].

وهذا الحديث له طرق في «الصحيحين»، وغيرهما من «المسانيد».

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن

---

(١) صحيح من غير هذا الطريق دون قوله: «وهي شجرة الخلد»: رواه أحمد (٢/ ٢٥٧، ٤٠٤، ٤١٨) وفي مواضع أخرىٰ، ورواه الطَّيالسي (٢٥٤٧)، وفيه أبو الضَّحَّاك قال الذهبي: لا يعرف، وقال الحافظ: مقبول، فمَعْنَاه إذا توبع؛ فالإسناد ضعيفٌ، لكن ثبت الحديث دون قوله: «وهي شجرة الخلد»، رواه البخاري (٢٣٥٢، ٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٨١).

(٢) في (ز): (عن سعيد عن عروبة)، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وانظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٤/ ٦٥).

(٣) ضعيف: تقدم عند تفسير الآية (٣٧) في سورة البقرة.

(٤) قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ وَأَمْثَالَهَا فِي الْقُرْآنِ هِيَ حُجَّةُ مَنْ قَالَ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ غَيْرُ مَعْصُومِينَ مِنَ الصَّغَائِرِ. وَعِصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ مَبْحَثٌ أُصُولِيٌّ لِعُلَمَاءِ الْأُصُولِ فِيهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ وَاخْتِلَافٌ مَعْرُوفٌ.

(٥) لوحة (٢٦٣ أ).

(٦) رواه البخاري (٥٠٩، ٧٥١٥)، ومسلم (٢٦٥٢)، وله طرق كثيرة كما ذكر ابن كثير.

الحارث بن أبي ذُبَاب، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّ (١) آدَمُ وَمُوسَىٰ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ، قَالَ مُوسَىٰ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ إِلَىٰ الأَرْضِ بِخَطِيئَتِكَ؟ قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىٰ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ، وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ [قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ] (٢). قَالَ مُوسَىٰ: بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَىٰ أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً». قال رسول الله ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ» (٣).

قال الحارث: وحدَّثني عبد الرحمن بن هُرْمُزَ بذلك، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

يقول تعالىٰ لآدم وحوَّاء وإبليس: اهبطوا منها جميعًا؛ أي: من الجنَّة كلكم. وقد بسطنا ذلك في «سورة البقرة».

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: آدم وذريته، وإبليس وذُرِّيَّته (٤).

وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرُّسل والبيَان.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عبَّاس: لا يضل في الدُّنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته علىٰ رَسُولي، أعرض عنه وتنَاسَاه وأخذ مِن غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدُّنيا، فلا طُمَأْنِينة له، ولا انشرَاح لصدرِه، بَل صدرُهُ ضَيِّقٌ حَرَج لضَلَاله، وإن تَنعَّم ظاهره، ولبس ما شَاءَ وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإنَّ قلبه ما لم يخلص إلىٰ اليقين والهدىٰ، فهو في قلقٍ وحيرةٍ وشكٍّ، فلا يزال في ريبةٍ يتردَّد؛ فهذا مِن ضَنْك المعيشة.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: الشَّقاء.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: كلُّ مالٍ أعطيته عبدًا من عبادِي، قلَّ

---

(١) في (ز): (حجَّ) وكذلك في «ابن أبي حاتم»، والمثبت من «صحيح مسلم».

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «صحيح مسلم».

(٣) حسنٌ صحيحٌ: رجاله ثقات عدا الحارث فإنَّه صدوقٌ يَهِم، لكنَّ الحديث يشهد له ما تقدَّم.

(٤) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال المهايمي: فالمرأة عدوّة الزوج في إلجائه إلىٰ تحصيل الحرام. والزوج عدوّها في إنفاقه عليها. وإبليس يوقع الفتنة بينهما، ويدعوهما إلىٰ أنواع المفاسد التي لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماويّ.

أو كثر، لا يَتَّقِيني فيه، فلا خير فيه، وهو الضَّنك في المعيشة. ويقال: إنَّ قومًا ضُلَّالًا أعرضوا عن الحقِّ، وكانوا في سعةٍ من الدُّنيا متكبِّرين، فكانت معيشتهم ضنكًا؛ وذلك أنهم كانوا يرون أنَّ الله ليس مخلفًا لهم معايشهم، من سوء ظنِّهم بالله والتَّكذيب، فإذا كان العبد يكذِّب بالله، ويسيء الظَّن به والثِّقة به اشتدَّت عليه معيشته، فذلك الضَّنك.

وقال الضَّحَّاك: هو العمل السَّيِّئ، والرِّزق الخبيث، وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار.

وقال سفيان بن عيينة، عن أبي حازم، عن أبي سلمة، عن أبي سعيدٍ في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: يَضِيق عليه قبره، حتىٰ تختلف أضلاعه فيه[1]. قال أبو حاتم الرازي: النعمان بن أبي عياش يكنىٰ أبا سلمة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا صفوان، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا عبد الله بن لهيعة، عن درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «ضَمَّةُ القَبْرِ لَهُ» الموقوف أصح[2].

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا الربيع بن سليمان، حدَّثنا أسد بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثنا دراج أبو السمح، عن ابن حُجَيْرة -اسمه عبد الرحمن- عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «المُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَيُرْحَبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ قَبْرُهُ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، أَتَدْرُونَ فِيمَ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؟ أَتَدْرُونَ مَا المَعِيشَةُ الضَّنْكُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «عَذَابُ الكَافِرِ فِي قَبْرِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّينًا، أَتَدْرُونَ مَا التِّنِّينُ؟ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَيَّةً، لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعَةُ رُءُوسٍ، يَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ، وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ»[3]. رفعه منكرٌ جدًّا.

وقال البزار: حدَّثنا محمَّد بن يحيىٰ الأزدي، حدَّثنا محمَّد بن [عمر][4]، حدَّثنا هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي حُجَيْرة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «المَعِيشَةُ الضَّنْكُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَيَّةً، يَنْهَشُونَ لَحْمَهُ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»[5][6].

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا أبو الوليد، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن محمَّد بن عمرو، عن أبي

---

(١) صحيح: رواه الطبري (١٦/ ٢٢٧).

(٢) ضعيف: لأنَّه مِن رواية درَّاج، وروايته عن أبي الهيثم ضَعِيفةٌ. وفي الإسناد أيضًا ابن لهيعة: اختلط. والموقوف أصح.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١٦/ ٢٢٨)، وفي إسناده ابن لهيعة.

(٤) في (ز): (عمرو)، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «مختصر زوائد البزار».

(٥) لوحة (٢٦٤ أ).

(٦) ضعيف جدًّا: رواه البزار (٢٢٣٣ - كشف) وعلَّته: محمَّد بن عمر الواقدي؛ قال الحافظ: متروكٌ مع سعة علمه.

سلمة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «عَذَابُ القَبْرِ». إسناد جيد[١].

وقوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ قال مجاهد، وأبو صالح، والسُّدِّي: لا حجة له.

وقال عكرمة: عُمِّي عليه كلُّ شيءٍ إلا جهنَّم.

ويحتمل أن يكون المراد: أنه يُحشَر أو يبعث إلىٰ النَّار أعمىٰ البَصَر والبصيرة أيضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ أي: في الدُّنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعامَلْتها معاملة من لم يَذْكُرْها بعد بلاغها إليك، تناسَيْتَهَا وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك [اليوم][٢] معاملة مَن ينسَاكَ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]؛ فإنَّ الجزاء من جنسِ العمل، فأمَّا نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقِيَام بمقتضَاه، فليس داخلًا في هذا الوَعِيد الخاصِّ، وإن كان مُتَوعدًا عليه من جهةٍ أخرىٰ، فإنَّه قد وردت السنة بالنَّهي الأكيد، والوعيد الشَّديد في ذلك.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا خلف بن الوليد، حدَّثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسىٰ بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ قَرَأَ القُرْآنَ فَنَسِيَهُ، إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهُوَ أَجْذَمُ»[٣].

ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسىٰ بن فائد، عن عبادة بن الصامت عن النَّبيِّ ﷺ، فذكر مثله سواء[٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾

يقول تعالىٰ: وهكذا نُجَازِي المسرفين المكذِّبين بآيات الله في الدُّنيا والآخرة، ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أي: أشد ألمًا من عذاب الدُّنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلَّدون فيه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ»[٥].

---

(١) حسن: محمَّد بن عمرو بن أبي علقمة: صدوق. وقال ابن كثير: إسناده جيِّد.

(٢) ليست في (ز).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٨٥)، وإسناده ضعيف، فيه يزيد بن أبي زياد: ضعيف.

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وفيه يزيد بن أبي زياد: ضعيف.

(٥) البخاري (٥٣١١)، ومسلم (١٤٩٣). وانظر سورة النور.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ (١) غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

يقولُ تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذِّبين بما جئتهم به: يا محمَّد، كم أهلكنا من الأمم المكذِّبين بالرُّسل قبلهم، فبادُوا فليس لهم باقيةٌ ولا عينٌ ولا أثرٌ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: العقول الصَّحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال في سورة «الم السجدة»: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السَّابقة من الله وهو أنَّه لا يعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجَّة عليه، والأجل المسمَّىٰ الَّذي ضربه الله تعالىٰ لهؤلاء المكذِّبين إلىٰ مدَّةٍ معيَّنةٍ لجاءهم العذاب بغتةً؛ ولهذا قال لنبيِّه مسليًا له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: صلاة العصر، كما جاء في «الصحيحين» عن جرير بن عبد الله البَجَليِّ ﷺ قال: كنَّا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فنظر إلىٰ القمر ليلة البدر، فقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ**[٢] **فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا**» ثم قرأ هذه الآية[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن عمارة بن رُوَيْبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّىٰ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**». رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير به[٤].

وفي «المسند» و«السنن»، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، يَنْظُرُ إِلَىٰ أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَدْنَاهُ، وَإِنَّ أَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ**

---

(١) لوحة (٢٦٤ ب).

(٢) يُروىٰ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ، فالتَّشديد معناه: لا يَنْضَمُّ بعضُكم إلىٰ بَعْض وتَزْدَحِمون وقتَ النَّظَر إليه، ويجوزُ ضمُّ التَّاءِ وفتحها -علىٰ تُفاعِلون وتَفاعَلونَ-، ومعنىٰ التَّخفيف: لا ينَالُكم ضَيمٌ في رُؤيتِه فيَراه بعضُكم دون بعضٍ، والضَّيمُ: الظُّلْمُ. «النِّهاية».

(٣) البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٢).

(٤) مسلم (٦٣٤)، وأحمد (٤/ ١٣٦).

إِلَىٰ اللهِ ﷻ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ»[١].

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾ أي: من ساعاته فتهجَّد به. وحمله بعضهم على المغرب والعِشَاء، ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل، ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[٢] [الضحىٰ: ٥].

وفي «الصحيح»: «يَقُولُ اللهُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[٣].

وفي الحديث [الآخر][٤] يقال: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ. فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَيُزَحْزِحْنَا عَنِ النَّارِ، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمْ خَيْرًا مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ»[٥].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه محمَّد صلوات الله وسلامه عليه: لا تنظر إلىٰ هؤلاء المُتْرَفين وأشباههم ونُظَرائِهم، وما فيه من النِّعم فإنَّما هو زهرةٌ زائلةٌ، ونعمةٌ حائلةٌ، لنَخْتبِرَهُم[٦] بذلك، وقليلٌ من عبادي[٧] الشَّكور[٨].

وقال مجاهد: ﴿أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يعني: الأغنياء فقد آتاك الله خيرًا مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادَّخره الله تعالىٰ لرسوله في الدَّار الآخرة أمرٌ عظيمٌ لا يُحدُّ ولا يُوصَف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ: ٥]؛ ولهذا قال: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾.

وفي «الصحيح»: أن عمر بن الخطاب لما دخل علىٰ رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ١٣، ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣). وفيه ثوير بن أبي فاختة: ضعيف كما في «التقريب».

(٢) لوحة (٢٦٥ أ).

(٣) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٤) ليست في (ز).

(٥) رواه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢، ٣١٠٥).

(٦) في (ز): (ليجربهم بذلك).

(٧) في (ز): (من عبادة).

(٨) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: وفيه: أن النظر غير الممدود معفوّ عنه. وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف. ولما كان النظر إلىٰ الزخارف كالمركوز في الطباع، وإن من أبصر منها شيئًا أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه، قيل: ولا تمدّن عينيك. أي: لا تفعل ما أنت معتاد له وضارٍ به. ولقد شدد العلماء من أهل التقوىٰ في وجوب غض النظر عن أبنية الظلمة، وعدد الفسقة في اللباس و المراكب وغير ذلك، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم،وكالمغري لهم علىٰ اتخاذها.

فيها نساءه، حينَ آلَىٰ منهن[١] فرآه متوسدًا مضطجعًا علىٰ رمال[٢] حصيرٍ وليس في البيت إلا صُبْرَةٌ من قَرَظ[٣]، وأُهَب[٤] معلَّقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله: «مَا يُبْكِيكَ؟» فقال: يا رسول الله، إنَّ كسرىٰ وقيصر فيما هما فيه، وأنت صَفْوَة الله مِن خلقه؟ فقال: «أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا»[٥]. فكان -صلوات الله وسلامه عليه- أزهدَ النَّاس في الدُّنيا مع القُدْرَة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدَّخر لنفسه شيئًا لغدٍ.

قال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرني ابن وهب، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء ابن يَسَار، عن أبي سعيدٍ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يَفْتَحُ اللهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا». قالوا: وما زهرة الدُّنيا يا رسول الله؟ قال: «بَرَكَاتُ الأَرْضِ»[٦].

وقال قتادة والسُّدِّي: زهرةُ الحياة الدُّنيا؛ يعني: زينة الحياة الدنيا. وقال قتادة ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[٧] لنبتليهم.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصَّلاة، واصطبر أنتَ علىٰ فِعْلِها كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن صالح، حدَّثنا ابن وهبٍ، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يَبِيت عنده [من غلمانه][٨] أنا ويرفا[٩]، وكان له ساعةٌ من اللَّيل يصلِّي فيها، فربَّما لم يقم[١٠] فنقول: لا يقوم اللَّيلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ[١١] أقام -يعني أهله- وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[١٢].

وقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرِّزق مِن حيث لا تَحْتَسِب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]؛ ولهذا قال: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وقال الثوري: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلِّفك الطلب.

---

(١) أي: حلَفَ لا يدخل عليهن شهرًا.
(٢) **الرِّمالُ**: ما رمل، أي: نسج.
(٣) **القَرَظُ**: ما يدبغ به، وصبرةُ قَرَظ: أي مصبورًا مَجْمُوعًا قد جُعلَ صُبْرةً كصُبْرةِ الطَّعام، مجتمعٌ كالكَوْمة، **والأهبُ**: جمع إهَاب -علىٰ غير قياسٍ-، وهو الجِلْد من البقر والغنم والوحش، ما لم يُدْبغ.
(٤) في (ز): (واهبة)، والمثبت كما في «البخاري».
(٥) البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).
(٦) **صحيح**: رواه الطبري (١٦/ ٢٣٧).
(٧) لوحة (٢٦٥ ب).
(٨) ليست في (ز)، والمثبت من «الطبري».
(٩) **يَرفَأ** -كـ«يَمْنع»-: اسم مولىٰ لعمر ﷺ.
(١٠) في (ز): (فربما لم ينم)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم».
(١١) في (ز): (استقبل)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم».
(١٢) **صحيح**: رواه الطبري (١٦/ ٢٣٧).

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا حفص بن[1] غياث، عن هشام، عن أبيه؛ أنه كان إذا دخل علىٰ أهل الدُّنيا، فرأىٰ من دنياهم طرفًا فإذا رجع إلىٰ أهله، فدخل الدَّار قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ثم يقول: الصَّلاة الصَّلاة، رحمكم الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن أبي زياد القَطَواني، حدَّثنا سَيَّار[2]، حدَّثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا أصابه خصَاصَةٌ نادىٰ أهلَهُ: «**يَا أَهْلَاهُ، صَلُّوا، صَلُّوا**». قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم [أمرٌ][3] فَزِعُوا إلىٰ الصَّلاة[4].

وقد روىٰ الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًىٰ، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ**»[5].

وروىٰ ابن ماجة من حديث الضَّحَّاك، عن الأسود، عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «**مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ المَعَادِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ. وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ**»[6].

وروي أيضًا من حديث شعبة، عن عُمَر بن سليمان، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد ابن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ[7] نِيَّتَهُ، جَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**»[8].

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وحسن العاقبةِ في الدُّنيا والآخرة، وهي الجنَّة، لمن اتَّقىٰ الله.

وفي «الصحيح»: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّا فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ وَأَنَا أُتِينَا بِرُطَبِ [مِنْ رُطَبِ][9] ابْنِ طَابَ[10]، فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ أَنَّ العَاقِبَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالرِّفْعَةَ، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ**»[11].

---

(١) في (ز): (حفص عن غياث)، والصواب ما أثبتناه، وانظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٨/ ٢٩٠).

(٢) في (ز): (أبي زياد البطراني ثنا سماس)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «ابن أبي حاتم».

(٤) **مرسل**: عزاه لابن أبي حاتم، وعزاه السيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٦١٣) إلى أحمد في «الزهد» والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٥) **صحيحٌ لغيره**: رواه الترمذي (٢٤٦٦)، وابن ماجة (٤١٠٧).

وله شاهد من حديث معقل بن يسار، رواه الحاكم (٤/ ٣٣٦) وصحَّحه ووافقه الذَّهبي.

(٦) **حسَّنه الألباني**: رواه ابن ماجة (٤١٠٦)، وانظر ما بعده.

(٧) لوحة (٢٦٦ أ).

(٨) **صحيح**: رواه ابن ماجة (٤١٠٥).

(٩) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «مسلم».

(١٠) ابن طاب: رجلٌ من أهل المدينة.

(١١) رواه مسلم (٢٢٧٠)، وأبو داود (٥٠٢٥٩).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الكفَّار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلَّا ﴿يَأْتِينَا﴾ محمَّد ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: بعلامةٍ دالَّةٍ علىٰ صدقه في أنَّه رسولُ الله؟ قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ يعني: القرآن العظيم الَّذي أنزله عليه الله وهو أُميٌّ، لا يُحْسِن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأوَّلين، بما كان منهم في سالف الدُّهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدِّمة الصحيحة منها؛ فإن القرآنَ مهيمنٌ عليها، يصدِّق الصحيح، ويُبيِّن خطأَ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقوله تعالىٰ في سورة «العنكبوت»: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١]، وفي «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ[١] إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢].

وإنَّما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها ﷺ وهو القرآن، وله مِن المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه، ومقرر في مواضعه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: لو أنَّا أهلكنا هؤلاء المكذِّبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرَّسول الكريم، ونُنَزِّل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانُوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا، حتىٰ نؤمن به ونتَّبعه؟ كما قال: ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، يبيِّن تعالىٰ أنَّ هؤلاء المكذِّبين مُتعنِّتون معانِدُون [لا يؤمنون][٣] ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ[٤] عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٧]، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ

---

(١) في (ز): (ما من شيءٍ)، والمثبت موافق لما في «مسلم».
(٢) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢). (٣) ليست في (ز).
(٤) لوحة (٢٦٦ ب).

مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠].

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمَّد لمن كذبك وخالفك واستمرَّ علىٰ كفرهِ وعنادهِ ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: منَّا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي: فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ أي: الطَّريق المستقيم، ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلىٰ الحقِّ وسبيلِ الرَّشاد، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦].

آخر تفسير سورة طه، ولله الحمد والمنَّة.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

تفسير سورة الأنبياء وهي مكية

قال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن بشار، [حدَّثنا غُنْدر،][1] حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق[2] الأُوَل، وهنَّ من تلادي[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ [4]

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

هذا تنبيهٌ من الله ﷻ على اقتراب السَّاعة ودُنُوِّها، وأنَّ النَّاسَ في غفلةٍ عنها؛ أي: لا يعملُون لها، ولا يستعِدُّون من أجلها.

وقال النَّسائي: حدَّثنا أحمد بن نصر، حدَّثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، عن النَّبيِّ ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».

(٢) في (ز): (العتاد)، والمثبت كما في «البخاري».

(٣) رواه البخاري (٤٧٣٩).

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أول السورة) سُورَةُ الذِّكْرِ وَسُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ نَزَلَ الذِّكْرُ افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾، يَعْنِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ: انْصُرْ أَهْلَ الْحَقِّ أَوِ انْصُرِ الْحَقَّ، وَقِيلَ: افْصِلِ الْحَقَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا، وَكَانَ الْأَنْبِيَاءُ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، وَأَمَرَ مُحَمَّدًا أَنْ يَقُولَ: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾، وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا شَهِدَ قِتَالًا قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾.

قال: «فِي الدُّنْيَا»[1]، وقال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾[2] [القمر: ١، ٢].

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نُوَاس الشاعر أنه قال: أشعر النَّاس الشَّيخ الطَّاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ ... وَرَحَا المنِيَّةِ تَطْحَنُ

فقيل له: من أين أخذ هَذَا؟ قال: مِن قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾.

[وروىٰ في ترجمة «عامر بن ربيعة»، من طريق موسىٰ بن عبيدة الآمدي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجلٌ منَ العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلَّم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرَّجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ واديًا في العرب، وقد أردت أن أقطعَ لك منه قطعةً تكون لك ولِعَقِبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجةَ لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾[3]][4].

ثم أخبر تعالىٰ أنهم لا يُصْغُون إلىٰ الوحي الَّذِي أنزل الله علىٰ رسوله، والخطاب مع قريش ومَن شَابَهَهُم من الكفَّار، فقال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ أي: جديدٍ إنزالهُ ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ كما قال ابن عبَّاس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عمَّا بأيديهم وقد حرَّفوه وبدَّلوه وزادُوا فيه ونَقَصُوا منه، وكتابكم أحدثُ الكتب بالله تقرءونه[5] محضًا لم يشب. ورواه البخاري بنحوه[6].

وقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: قائلين فيما بينهم خفيَةً ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ يعنونَ: رسول الله ﷺ، يستبعدون كونه نبيًّا؛ لأنَّه بَشَرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دُونَهُم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾؟ أي: أفتتبعونه فتكونون كمن أتىٰ السِّحرَ وهو يعلمُ أنه سحرٌ. فقال تعالىٰ مجيبًا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب.

﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الذي يعلم ذلك، لا يَخفَىٰ عليه خافيةٌ، وهو الَّذِي أنزل هذا القرآن المشتمل علىٰ خبر الأولين والآخرين، الذي لا يَسْتَطِيع أحدٌ أن يأتي بمثله، إلا

---

(١) رواه الطبري (١٧/ ٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٣٢)، ورجاله ثقات غير أن الأعمش مدلِّس وقد عنعن، وعزاه السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٦١٦) إلىٰ ابن مردويه من حديث أبي هريرة.

(٢) لوحة (٢٦٧ أ).

(٣) ضعيف: رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٧٩) وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال في «التقريب»: ضعيف. وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف.

(٤) ليست في (ز)، وهي موافقة لما في «تاريخ ابن عساكر».

(٥) في (ز): (تقرأه)، والمثبت كما في «البخاري».

(٦) رواه البخاري (٧٣٦٣).

الذي يعلم السِّرَّ في السموات والأرض.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوالكم، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديدٌ لهم ووعيدٌ.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هذا إخبارٌ عن[1] تعنُّت الكفَّار وإلحادهم، واختلافهم فيما يَصِفُون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارةً يجعلونه سحرًا، وتارةً يجعلونه شعرًا، وتارةً يجعلونه أضغاثَ أحلامٍ، وتارةً يجعلونه مفترًى، كما قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩].

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: يعنون: ناقة صالح، وآيات موسىٰ وعيسىٰ. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما آتينا قريةً من القرىٰ الَّذين بعث فيهم الرسل آيةً علىٰ يَدَيْ نبيِّها فآمنوا بها، بل كذَّبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يُؤْمِنون بالآيات لو رَأَوْها دون أولئك؟ كلَّا بل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ[2] ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدَّلائل البيِّنات، علىٰ يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلىٰ، وأبهر وأَقْطَع وأقهَر، مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: ذكر عن زيد بن الحباب، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا الحارث بن زيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي، حدَّثني من شهد عبادة بن الصَّامت، يقول: كنَّا في المسجدِ ومعنا أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه يُقْرِئُ بعضنا بعضًا القرآن، فجاء عبد الله بن أبي بن سلول، ومعه نُمْرُقة[3] وزِرْبِيَّة، فوضع واتَّكأ، وكان صبيحًا فصيحًا جدلًا [فقال: يا أبا بكر، قل لمحمَّد يأتِينا بآيةٍ كما جاء الأولون؟ جاء موسىٰ بالألواح][4]، وجاء داود بالزبور، [وجاء][5] صالح بالنَّاقة، وجاء عيسىٰ بالإنجيل وبالمائدة. فبكىٰ أبو بكر رضي الله عنه فخرج رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا بنا إلىٰ رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لا يُقَامُ لِي، إِنَّمَا**[6] **يُقَامُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ**». فقلنا: يا رسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق. فقال: «**إِنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِي: اخْرُجْ فَأَخْبِرْ بِنِعَمِ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا**

---

(١) في (ز): (عما تعنت).
(٢) لوحة (٢٦٧ ب).
(٣) النُّمْرُقَةُ: الوِسَادةُ، وجمعها: نمارق، والزربية -بكسر الزَّاي، وضمِّها، وفتحها-: بساط له قطيفة رقيقة.
(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «ابن أبي حاتم».
(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «ابن أبي حاتم».
(٦) في (ز): (إلا بما يقام)، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه كما في «ابن أبي حاتم».

عَلَيْكَ، وَفَضِيلَتِهِ الَّتِي فُضِّلْتَ بِهَا، فَبَشَّرَنِي أَنِّي بُعِثْتُ إِلَىٰ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَأَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَ الجِنَّ، وَآتَانِي كِتَابَهُ وَأَنَا أُمِّيٌّ، وَغَفَرَ ذَنْبِي مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَذَكَرَ اسْمِي فِي الأَذَانِ وَأَيَّدَنِي بِالمَلَائِكَةِ، وَآتَانِي النَّصْرَ، وَجَعَلَ الرُّعْبَ أَمَامِي، وَآتَانِي الكَوْثَرَ، وَجَعَلَ حَوْضِي مِنْ أَعْظَمِ الحِيَاضِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَوَعَدَنِي المَقَامَ المَحْمُودَ وَالنَّاسُ مُهْطِعُونَ مُقْنِعُو رُءُوسِهِمْ، وَجَعَلَنِي فِي أَوَّلِ زُمْرَةٍ تَخْرُجُ مِنَ النَّاسِ، وَأَدْخَلَ فِي شَفَاعَتِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَآتَانِي السُّلْطَانَ وَالمُلْكَ، وَجَعَلَنِي فِي أَعْلَىٰ غُرْفَةٍ فِي الجَنَّةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فَلَيْسَ فَوْقِي أَحَدٌ إِلَّا المَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ، وَأَحَلَّ لِيَ الغَنَائِمَ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلَنَا»[١]. وهذا الحديث غريبٌ جدًّا.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾

يقول تعالىٰ رادًّا علىٰ مَن أنكر بعثة الرُّسل من البَشَر: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: جميع الرُّسل الَّذِين تقدَّموا كانوا رجالًا مِن البشر، لم يَكُن فيهم أحدٌ مِن الملائكة، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ[٢] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٩]، وقال تعالىٰ حكايةً عمَّن تقدَّم مِن الأُمَم أنَّهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن:٦]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: اسألُوا أهل العِلْم من الأممِ كاليَهُود والنَّصارىٰ وسائر الطَّوائف: هل كان الرُّسل الَّذِين أتوهم بشرًا أو ملائكةً؟ إنَّما كانوا بشرًا، وذلك مِن تمام نِعمَ الله علىٰ خَلْقِهِ؛ إذ بعث فيهم رسلًا منهم يتمكَّنون من تناول البلاغِ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي: بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٢٠] أي: [قد كانوا بشرًا من البشر، يأكلون ويشربون مثل النَّاس، ويدخلون الأسواق][٣] للتَّكسُّب والتِّجارة، وليس ذلك بضارٍّ لهم ولا ناقصٍ منهم شيئًا، كما توهَّمه[٤] المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

---

(١) إسناده ضعيف: لجهالةِ شيخ علي بن رباح اللَّخمي.
(٢) لوحة (٢٦٨ أ).
(٣) هذه العبارة تكررت في (ز).
(٤) في (ز): (كانوا هم).

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي: في الدنيا، بل كانوا يَعيشون ثم يمُوتُونَ، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، وخاصَّتُهم أنُهم يوحَىٰ إليهم من الله ﷻ، تنزلُ عليهم الملائكة عن الله بما يحكم في خلقه مما يأمر به وينهىٰ عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي: الذي وعدهم ربهم: «ليهلكنَّ الظَّالمين»، صدقهم الله وعده ففعَلَ ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أي: أتباعهم مِن المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المكذِّبين بما جاءت الرُّسل به.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالىٰ منبِّهًا علىٰ شرفِ القرآن، ومحرِّضًا لهم علىٰ معرفةِ قَدْرِه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عبَّاس: شَرَفُكم. وقال مجاهد: حديثُكم. وقال الحسن: دينُكم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هذه صيغةُ تكثيرٍ، كما قال[١] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥]. وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: أمةً أخرىٰ بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: تيقَّنوا أن العذابَ واقعٌ بهم، كما وعدَهم نبيُّهم، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يفرُّون هاربين.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ هذا تهكُّمٌ بهم قدرًا؛ أي: قيل لهم قدرًا: لا تركضُوا هاربين مِن نزول العذاب، وارجعوا إلىٰ ما كنتم فيه من النِّعمةِ والسُّرورِ، والمعيشةِ والمساكنِ الطَّيِّبة. قال قتادة: استهزاء بهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عمَّا كنتم فيه من أداء شكر النِّعمة.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي: ما زالت تلك المقالة، وهيَ الاعتراف بالظُّلم، هِجيراهم[٢] حتىٰ حصدْناهُم حصدًا، وخمدت حركَاتُهم وأصواتُهم خمودًا.

---

(١) لوحة (٢٦٨ ب).

(٢) أي: عادتهم.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن
كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ
﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه خلق السَّموات والأرض بالحق؛ أي: بالعدل والقسط، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثًا ولا لعبًا، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنةً ولا نارًا، ولا موتًا، ولا بعثًا، ولا حسابًا.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ اللهو: المرأة[١] بلسان أهل اليمن.

وقال إبراهيم النَّخعِي: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ ﴾ من الحور العِين.

وقال عكرمة والسُّدِّي: المراد باللهو هاهنا: الولد.

وهذا والذي قبله متلازِمَان، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [الزمر:٤]، فنزَّه نفسه عن اتِّخاذ الولد مطلقًا، لا سيِّما عمَّا يقولون من الإفكِ والباطل، من اتِّخاذ عيسىٰ، أو العزير أو الملائكة، سبحان الله[٢] عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وقوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ قال قتادة، والسُّدِّي، وإبراهيم النخعي، ومغيرة بن مِقْسَم؛ أي: ما كنَّا فاعلين. وقال مجاهد: كلَّ شيءٍ في القرآن «إن» فهو إنكارٌ.

وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: نُبيِّن الحقَّ فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذَاهِبٌ مضمَحِلٌّ، ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ أي: أيها القائلون: لله ولد، ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: تقولون وتَفْترُون.

ثم أخبر تعالىٰ عن عبوديَّة الملائكة له، ودأبهم في طاعتِهِ ليلًا ونهارًا، فقال: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ يعني: الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ أي: لا يَسْتَنكِفُون عنها، كما قال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢].

---

(١) في (ز): (اللهو: المراء).
(٢) لوحة (٢٦٩ أ).

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يَتعَبُون ولا يَملُّون.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلًا ونهارًا، مُطِيعُون قصدًا وعملًا قادرُونَ عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وقال ابن أبي حاتم[١]: حدَّثنا علي بن أبي دُلامة البغدادي، أنبأنا عبد الوهَّاب بن عطاء، حدَّثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحرِزٍ، عن حكيم بن حِزَام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ؟» قالوا: ما نسمع من شيءٍ. فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيطَ السَّمَاءِ، وَمَا تُلَامُ أَنْ تَئِطَّ، وَمَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ»[٢]. غريب ولم يخرجوه.

ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زُرَيْع[٣]، عن سعيد، عن قتادة مرسلًا.

وقال أبو[٤] إسحاق، عن حسان بن مخارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلىٰ كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله [للملائكة][٥]: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أما يشغلهم عن التَّسبيح الكلام والرِّسالة والعمل؟. فقال: فمَن هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبَّل رأسي، ثمَّ قال لي: يا بني، إنَّه جعل لهم التَّسبيح، كما جعل لكم النَّفس، أليس تتكلَّم وأنت تَتَنفَّس وتمشي وأنت تَتَنفَّس؟[٦].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ينكر تعالىٰ علىٰ مَن اتَّخذ مِن دونه آلهةً، فقال: بل ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ[٧] ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: أهم يحيون الموتىٰ[٨] وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدِرُون علىٰ شيءٍ من ذلك. فكيف جعلوها لله ندًّا وعبدوها معه.

ثم أخبر تعالىٰ أنَّه لو كان في الوجودِ آلهةٌ غيره لفسدتِ السَّموات والأرض[٩]، فقال: ﴿لَوْ كَانَ

---

(١) وقع هذا الحديث والذي بعده في (ز) بعد الآيات الآتية.

(٢) **صحيح**: تقدَّم عند تفسير الآية (١١٧) من سورة التوبة.

(٣) في (ز): (يزيد بن رافع)، والصواب ما أثبتناه، وانظر: «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٦٤).

(٤) في (ز): (محمد بن إسحاق)، والمثبت كما في «الطبري». (٥) ليست في (ز).

(٦) **ضعيف**: رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٣٢٠)، والطبري في «التَّفسير» (١٧/ ١٣) مختصرًا، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٧٨)، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٥/ ٦٢١) إلىٰ أبي المنذر، وفي إسناده حسان بن مخارق، أورده البخاري في «التَّاريخ» (٣/ ٣٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٢٣٥)، ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا، ولم يوثِّقه إلَّا ابن حبَّان كما في «الثقات» له (٥/ ٣٦٦).

(٧) لوحة (٢٦٩ ب). (٨) وقع هنا في (ز) الحديثان السابق ذكرهما.

(٩) **قال الشيخ أبو بكر الجزائري** ﷾: هذا ما يسمىٰ بدليل أو برهان التمانع وأنه وإن كان فيه ما يردُّه إلا أنه في الجملة =

﴿فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ أي: في السَّماء والأرض، ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عمَّا يقولون إنَّ له ولدًا أو شريكًا، سبحانه وتعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه عن الَّذي يفترون ويأفكون علوًّا كبيرًا.

وقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: هو الحاكم الَّذي لا معقِّب لحكمه، ولا يعترض عليه أحدٌ؛ لعظَمَتِه وجلاله وكبريائه، وعلوِّه وحكمته، وعدلِهِ ولطفِهِ، ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: وهو سائلٌ خلقه عمَّا يعملون، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣]، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ(١) إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: بل ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ﴾ يا محمَّد: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: دليلكم علىٰ ما تقولون، ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يعني: الكتب المتقدِّمة علىٰ خلاف ما تقولون وتزعمون، فكلُّ كتابٍ أُنْزِل علىٰ كلِّ نبيٍّ أرسلَ، ناطقٌ بأنَّه لا إلَهَ إلَّا اللهُ، ولكن أنتُم أيُّها المشركون لا تعلَمُون الحقَّ، فأنتم مُعْرِضُون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فكل نبيٍّ بعثه الله يدعو إلىٰ عبادةِ الله وحدَهُ لا شريك له، والفطرة شاهدةٌ بذلك أيضًا، والمشركون لا برهانَ لهم، وحجَّتُهُم داحضةٌ عند ربِّهم، وعليهم غضبٌ، ولهم عذابٌ شديدٌ.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

= دليل مسكت للخصم مقنع لذوي العقول.

(١) في (ز): (يُوحىٰ إليه).

* متواترة: قَرَأَ (نُوحِي) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَحَفْصٌ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يُوحَىٰ).

يقول تعالىٰ ردًا علىٰ من زعم[1] أن له -تعالىٰ وتقدَّس- ولدًا من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكةَ بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازلَ عاليةٍ ومقاماتٍ ساميةٍ، وهم له في غايةِ الطَّاعة قولًا وفعلًا.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يتقدَّمون بين يديْهِ بأمرٍ، ولا يخالفونه فيما أمرَ به، بل يُبادِرُون إلىٰ فعله، وهو تعالىٰ عِلْمُه محيطٌ بهم، فلا يخفَىٰ عليه منهم خافيةٌ، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، في آياتٍ كثيرةٍ في معنىٰ ذلك.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من ادَّعىٰ منهم أنَّه إلهٌ مِن دون الله؛ أي: مع الله، ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كلُّ مَن قال ذلك، وهذا شرطٌ، والشَّرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالىٰ منبِّهًا علىٰ قدرتِهِ التَّامَّة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهرِهِ لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: الجاحدون لإلهيَّته العابدون معه غيره، ألَمْ يعلموا أنَّ الله هو المستقلُّ بالخلق، المستبدُّ بالتَّدبير، فكيف يَليقُ أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: كان الجميعُ متصلًا بعضه ببعضٍ متلاصقٌ متراكمٌ، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعًا، والأرض سبعًا، وفصل بين سَماء الدُّنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السَّماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئًا فشيئًا عيانًا، وذلك كلُّه دليلٌ علىٰ وجود الصانع الفاعل المختار القادر علىٰ ما يشاء:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة قال: سئل ابن عبَّاسٍ: اللَّيل كان قبل أو النَّهار؟ فقال: أرأيتم[2]

---

(١) لوحة (٢٧٠ أ). (٢) لوحة (٢٧٠ ب).

السَّموات والأرض حين كانتا رتقًا، هل كان بينهما إلَّا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أنَّ اللَّيل قبل النَّهار[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا إبراهيم بن أبي حمزة، حدَّثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمَّد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رجلًا أتاه يسأله عن السَّموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾؟. قال: اذهب إلىٰ ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعالَ فأخبرني بما قال لك. قال: فذهب إلىٰ ابن عبَّاسٍ فسأله. فقال ابن عبَّاسٍ: نعم، كانت السَّموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، فلما خلقَ للأرضِ أهلًا فتَقَ هذه بالمطَرِ، وفتق هذِهِ بالنَّبات. فرجع الرجل إلىٰ ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: [الآنَ قد عَلِمْت أنَّ ابن عبَّاسٍ قد أُوتِيَ في القرآن علمًا، صدق -هكذا كانت- قال ابن عمر:][٢] قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عبَّاس علىٰ تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنَّه قد أُوتِيَ في القرآن علمًا[٣].

وقال عطيَّة العَوْفي: كانت هذه رتقًا لا تمطر، فأمطرت. وكانت هذه رَتْقًا لا تُنْبِت، فأَنْبَتَتْ.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنَفِي عن قوله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، قال: كانت السماء واحدةً، ففَتَق منها سبع سمواتٍ، وكانت الأرض واحدةً ففتَق منها سبع أرضين.

وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السَّماء والأرض متماسَّتَيْن.

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السَّماء والأرض مُلْتَزِقَتَين، فلما رفع السَّماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فَتْقَهُما الَّذِي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن، وقتادة: كانتا جميعًا، ففصل بينهما بهذا الهَوَاء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: أصل كل الأحيَاءِ منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو الجماهر، حدَّثنا سعيد بن بشير[٤]، حدَّثنا قتادة عن أبي[٥] ميمونة، عن أبي هريرة أنَّه قال: يا نبي الله إذا رأيتك قرَّت عيني، وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيءٍ، قال: «كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ»[٦].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد[٧]، حدَّثنا همام، عن قتادة، [عن أبي ميمونة][٨]، عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسولَ الله، إنِّي إذا رأيتك طابت نفسي، وقرَّت عيني، فأَنْبِئْنِي عن كلِّ شيءٍ. قال: «كُلُّ

---

(١) صحيح: رواه الطبري (١٧/ ١٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٨٤) (٨٩٠).

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «ابن أبي حاتم».

(٣) ضعيف: في إسناده حمزة بن أبي محمَّد: ضعيف. (٤) في (ز): (معتز)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم».

(٥) في (ز): (ابن)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم».

(٦) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٩٥)، والحاكم (٤/ ١٦٠) وصحَّحه ووافقه الذَّهبي، ورواه ابن حبَّان (٢٥٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٥٩).

(٧) في (ز): (زيد)، والمثبت كما في «المسند». (٨) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ» قال: قلت: أنبئني عن أمرٍ إذا عملتُ به دخلت الجنة. قال: «أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الأَرْحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ»(١).

ورواه أيضًا عبد الصمد وعفان وبَهْز، عن همام. تفرَّد به أحمد، وهذا إسنادٌ علىٰ شرط الشيخين، إلَّا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والتِّرمذي(٢) يصحح له. وقد(٣) رواه سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة مرسلًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا أرسىٰ الأرض بها وقرَّرها وثقَّلها؛ لئلَّا تميد بالنَّاس؛ أي: تضطرب وتتحرَّك، فلا يحصل لهم عليها قرار؛ لأنَّها غامرةٌ في الماء إلا مقدار الرُّبع، فإنَّه بادٍ(٤) للهواء والشَّمس؛ ليشاهد أهلها السَّماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدَّلالات؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميد بهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: ثغرًا في الجبال، يَسْلُكون فيها طرقًا من قطرٍ إلىٰ قطرٍ، وإقليمٍ إلىٰ إقليمٍ، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلًا بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوةً -ثغرة- ليسلك النَّاس فيها من هاهنا إلىٰ هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ أي: علىٰ الأرض وهي كالقُبَّة عليها، كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:٥]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ»(٥) أي: خمس دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام، علىٰ ما تعهدُهُ العرب.

﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: عاليًا محروسًا أن يُنال. وقال مجاهد: مرفوعًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشتكي، حدَّثني أبي، عن أبيه، عن أشعث -يعني ابن إسحاق القُمِّي- عن جعفر بن أبي المغيرة(٦)، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس، قال رجلٌ: يا رسول الله، ما هذه السماء، قال: «هَذَا مَوْجٌ مَكْفُوفٌ عَنْكُمْ»(٧) إسنادٌ غريبٌ.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] أي: لا يتفكَّرون فيمَا خلق الله فيها من الاتِّساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به مِن الكواكب الثَّوابت والسَّيَّارات في ليلها، وفي نهارها من هذه الشَّمس التي تقطع

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٢٣) (٢/ ٤٩٣)، وانظر التعليق السابق.
(٢) في (ز): (والزهري).
(٣) لوحة (٢٧١ أ).
(٤) في (ز): (نادي الهواء).
(٥) البخاري (٨)، ومسلم (١٦)، والتِّرمذي (٢١٠٩)، والنَّسائي (٨/ ١٠٧).
(٦) في (ز): (عن جعفر عن أبي المغيرة)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم».
(٧) ضعيف: لأنَّ جعفر بن أبي المغيرةِ ضعيفٌ في حديثه عن سعيد بن جبير.

الفلك بكماله، في يومٍ وليلةٍ فتسير غايةً لا يعلم قدرها إلا الذي قدَّرها وسخَّرها وسيَّرها.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «التفكُّر والاعتبار»: أنَّ بعض عبَّاد بني إسرائيل تعبَّد ثلاثين سنةً، وكان الرَّجل منهم إذا تعبَّد ثلاثينَ سنةً أظلَّته غمامةٌ، فلم يَرَ ذلك الرجل شيئًا مما كان يرىٰ لغيره، فشكىٰ ذلك إلىٰ أمه، فقالت له: يا بني، فلعلَّك أذنبت في مدَّة عبادتك هذه، فقال: لا والله ما أعلم، قالت: فلعلَّك همَمْت؟ قال: لا ولا[1] همَمْتُ. قالت: فلعلَّك رفعت بصرك إلىٰ السَّماء ثم رددته بغير فكرٍ؟ فقال: نعم، كثيرًا. قالت: فمِنْ هَاهُنا أُتِيتَ.

ثم قال منبهًا علىٰ بعض آياته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضِيَائِهِ وأُنْسِهِ، يطول هذا تارةً ثم يقصر أخرىٰ، وعكسه الآخر. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هذه لها نور يخصُّها، وفلك بذاته، وزمان علىٰ حدَةٍ، وحركةٍ وسيرٍ خاصٍّ، وهذا بنورٍ خاصٍّ آخر، وفلكٍ آخرَ، وسيرٍ آخرَ، وتقديرٍ آخرَ، ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠]، أي: يدورون.

قال ابن عبَّاس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة. وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النُّجوم والشَّمس والقمر، لا يَدُورُون إلا به، ولا يَدُورُ إلا بهنَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: يا محمَّد، ﴿ٱلْخُلْدَ﴾ أي: في الدُّنيا بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وقد استدل بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلىٰ أنَّ الخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مات وليس بحيٍّ إلىٰ الآن؛ لأنَّه بشرٌ، سواء كان وليًّا أو نبيًّا أو رسولًا، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ...﴾.

وقوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ أي: يا محمَّد، ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟! أي: [يؤملون][2] أن يَعِيشُوا بعدك، لا يكون هذا، بل كلٌّ إلىٰ فناءٍ؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وقد روي عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه أنشد واستشهد بهذين البيْتَيْن:

تَمَنَّىٰ رِجَالٌ أَنْ أَموتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي[3] خِلَافَ الَّذِي مَضَىٰ ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَىٰ مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

---

(١) لوحة (٢٧١ ب). (٢) ليست في (ز).

(٣) في (ز): (يبقىٰ)، والمثبت كما في «بهجة المجالس» (١/ ١٥٩).

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نختبركم بالمصائب تارةً، وبالنِّعم أخرى؛ لننظر مَن يشكر ومَن يكفُر، ومن يَصْبِر ومَن يَقْنُط، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾، يقول: نبتليكم بالشَّرِّ والخيرِ فتنةً، بالشِّدةِ والرَّخاءِ، والصِّحةِ والسُّقمِ، والغِنىٰ والفقرِ، والحلالِ والحرامِ، والطاعةِ والمعصيةِ، والهدىٰ والضلال...

وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم[1] بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه -صلوات الله وسلامه عليه- ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني: كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: يستهزئُونَ بك ويَنْتَقِصُونك، يقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ يعنون: أهذا الذي يسُبُّ آلهتكم ويسفِّه أحلامكم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وهم كافرون بالله، ومَعَ هذا يستهْزِئُون برسول الله، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤١، ٤٢].

وقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١] أي: في الأمور.

قال مجاهد: خلقَ الله آدمَ بعد كل شيءٍ من آخرِ النَّهار، من يوم خلقِ الخلائق، فلمَّا أحيا الرُّوح عينيه ولسانَه ورأسَه، ولم يبلغ أسفله قال: يا رب، استعجل بخلقي قبل غروب الشمس.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنَان، حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمَّد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لا يُوَافِقُهَا مُؤْمِنٌ يُصَلِّي** -وقبض أصابعه قَلَّلها- **فَسَأَلَ اللهَ خَيْرًا، إِلا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**». قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك السَّاعة، وهي آخر ساعات النَّهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[2].

والحكمة في ذِكْر عجلة الإنسان هاهنا أنَّه لما ذكر المستهزئين بالرَّسول -صلوات الله وسلامه

---

(١) لوحة (٢٧٢ أ).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٥٤) نحوه.

عليه- وقع في النُّفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت، فقال الله تعالىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنَّه تعالىٰ يُمْلِي للظَّالم حتَّىٰ إذا أخذه لم يُفْلِتْه، يؤجِّل ثم يُعَجِّل، ويُنْظِر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري علىٰ من عصاني، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن المشركين أنهم يستعجلون أيضًا[١] بوُقُوع العذاب بهم، تكذيبًا وجحودًا وكفرًا وعنادًا واستبعادًا، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تيقنوا أنَّها واقعةٌ بهم لا محالَةَ لما استعجلوا به، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب مِن فوقِهم ومِن تحتِ أرجلهم، ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم:٥٠]، فالعذابُ محيطٌ بهم من جميعِ جهاتهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: تأتيهم النار بغتة؛ أي: فجأةً ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تذعرهم[٢] فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلةٌ في ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مسليًا لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: من العذاب الَّذِي كانوا يَسْتَبْعِدُون وقوعه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤].

---

(١) لوحة (٢٧٢ ب).
(٢) أي: تفزعهم.

ثم ذكر تعالىٰ نعمته علىٰ عَبِيدِهِ في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلَاءَتِهِ وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؟ أي: بدل الرَّحمن بمعني غيره، كما قال الشاعر:

جَارِيَــــــةٌ لَـــــمْ تَلْـــبَسِ المُرَقَّقَــــا وَلَـــم تَـــذُقْ مِـــنَ البُقُـــولِ[١] الفُــسْتُقَا

أي: لم تذق بدل البقول الفُسْتق.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمِهِ عليهم وإحسانِهِ إليهم، بل يعرضون عن آياتِهِ وآلائِهِ، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾؟ استفهامُ إنكارٍ وتقريعٍ وتوبيخٍ؛ أي: أَلَهُمْ آلهةٌ تمنعُهُم وتكلؤُهُم غيرنا؟[٢] ليس الأمر كما توَهَّمُوا ولا كما قد زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هذه [الآلهة][٣] التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصرَ أنفسِهِم.

وقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: يُجَارُونَ[٤]. وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخيرٍ، وقال غيره: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: يمنعون.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين: إنَّما غرَّهم وحملهم علىٰ ما هم فيه من الضَّلال، أنهم مُتِّعوا في الحياة الدُّنيا، ونعِّمُوا وطال عليهم العمر فيما هم فِيهِ، فاعتقدوا أنَّهم علىٰ شيءٍ.

ثم قال واعظًا لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرعد»، وأحسن ما فُسِّر بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف:٢٧].

وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام علىٰ الكفر.

والمعنىٰ: أفلا يَعْتَبِرُون بنصر الله لأوليائه علىٰ أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذِّبة والقرىٰ الظَّالمة، وإنجائِهِ لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يعني: بَل هم المغلوبون الأسفلُون الأخسرُون الأرذلُون.

---

(١) في (ز): (ولم تذر من النقول)، والصواب ما أثبتناه، وانظر: «تصحيح التصحيف» للصفدي (١/ ٨٣)، والبيت لأبي نخيلة الراجز.

(٢) لوحة (٢٧٣ أ). (٣) ليست في (ز). (٤) في (ز): (مجازون).

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا مُبلِّغٌ عن الله ما أُنْذِرُكُم به من العذاب والنَّكال، ليس ذلك إلا عمَّا أوحاه الله إليَّ، ولكن لا يُجْدِي هذا عمَّن أعمىٰ الله بصيرَتَهُ، وختم علىٰ سَمْعِهِ وقلبِهِ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أَدْنَىٰ شيءٍ من عذاب الله، ليعترفنَّ بذُنُوبِهِم، وأنَّهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدُّنْيَا.

وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: ونضع الموازين العدل لِيَوْمِ القيامة. الأكثر علىٰ أنَّه إنَّما هو ميزانٌ واحدٌ، وإنَّما جمع باعتبار تعدُّد الأعمال الموزونَةِ فيه.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(١) كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:١٦].

وفي «الصَّحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إبراهيم بن إسحاق الطَّالَقَاني، حدَّثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدَّثني عامر بن يحيىٰ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ، قَالَ: أَفَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ قَالَ: فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ اليَوْمَ عَلَيْكَ. فَيُخْرِجُ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ [وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ]**(٣)**، قَالَ: فَطَاشَتِ**(٤) **السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ. قَالَ: وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**(٥)»(٦).

---

(١) لوحة (٢٧٣ ب).
(٢) البخاري (٦٤٢٦)، ومسلم (٢٥٩٤).
(٣) بياض بـ(ز)، والمثبت كما في «الترمذي».
(٤) أي: خفت.
(٥) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط ﵀ في تعليقه علىٰ «المسند» (١١/ ٥٧٢) ط: الرسالة: (هكذا ورد في الأصول التي بأيدينا، وجاء عند ابن المبارك وابن حبان: «ولا يثقل اسمَ الله شيء»، وجاء عند غيرهما: «لا يثقل مع اسم الله شيءٌ»، فيظهر أن ما جاء في أصول «المسند» زيادة من النساخ) اهـ.
(٦) صحيح: تقدم. انظر الآية (٩) من سورة الأعراف.

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد به، وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن عمرو بن يحيىٰ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «تُوضَعُ المَوَازِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ، فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، فَيُوضَعُ مَا أُحْصِيَ عَلَيْهِ، فَتَمَايَلَ بِهِ المِيزَانُ قَالَ: فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَىٰ النَّارِ قَالَ: فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ إِذَا صَائِحٌ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ ﷻ يَقُولُ: لا تَعْجَلُوا، فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ، فَيُؤْتَىٰ بِبِطَاقَةٍ فِيهَا (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ حَتَّىٰ يَمِيلَ بِهِ المِيزَانُ»[١].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو نوح قراد، أنبأنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروةَ، عن عائشة؛ أنَّ رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إنَّ لي مملوكَيْن، يكْذِبُونَنِي، ويخونُونَنِي، ويعصونَنِي، وأضربهم وأشتمُهُم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ[٢]، إِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ، كَانَ فَضْلًا[٣] لَكَ [عَلَيْهِمْ][٤]، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ، كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ الَّذِي يَبْقَىٰ قِبَلَكَ». فجعل الرَّجُل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ: ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «مَا لَهُ أَمَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ؟!: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾» فقال الرجل: يا رسول[٥] الله، ما أجد شيئًا خيرًا من فراق هؤلاء -يعني عبيده- إني أشهدكَ أنَّهم أحرارٌ كلهم[٦].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قد تقدَّم التَّنبيه علىٰ أنَّ الله تعالىٰ كثيرًا ما يَقْرِن بين ذِكْر موسىٰ ومحمَّد -صلوات الله وسلامه عليهما- وبين كِتَابَيْهِمَا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. قال مجاهد: يعني: الكِتَاب. وقال أبو صالح: التَّوراة، وقال قتادة: التَّوراة، حلالَها وحرامها، وما فرَّق الله بين الحقِّ والباطِل. وقال ابن زيد: يعني: النَّصر.

وجامع القول في ذلك: أنَّ الكتبَ السَّماويَّة تشتمل علىٰ التَّفرقة بين الحقِّ والباطل، والهدىٰ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٢١)، ورجاله ثقات لكن فيه ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه، لكن يشهد له الحديث السابق.

(٢) أي: يحسب ما خانوك، ويحسب عقابك إيَّاهم.

(٣) لوحة (٢٧٤ أ).

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) في (ز): (فقال الرجل: يريد الله)، والمثبت كما في «المسند».

(٦) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٢٨٠).

والضَّلال، والغيِّ والرَّشاد، والحلالِ والحرام، وعلىٰ ما يحصل نورًا في القلوب، وهدايةً وخوفًا وإنابةً وخشيةً؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: [تذكيرًا][1] لهم وَعِظَةً.

ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ كقوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢]، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وَجِلُون.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا مِن خلفه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ، ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: أفتُنكِرُونه وهو في غاية [الجَلَاء][2] والظُّهور؟.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾

يخبر تعالىٰ عن خليله إبراهيم عليه السلام أنَّه آتاه رشدَهُ مِن قبل؛ أي: مِن صغره ألهمَهُ الحق والحجَّة علىٰ قومه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣]، وما يذكر من الأخبار عنه في[3] إدخال أبيهِ له في السِّرب، وهو رضيع، وأنَّه خرج به بعد أيَّام، فنظر إلىٰ الكوكب والمخلوقات، فتبصَّر فيها، وما قصَّه كثيرٌ من المفسِّرين وغيرهم -فعامتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحقَّ مما بأيدينا عن المعصوم قَبِلْنَاه لموافقته الصَّحيح، وما خالَفَ شيئًا من ذلك رَدَدْنَاه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدِّقه ولا نكذِّبه، بل نجعله وقفًا، وما كان مِن هذا الضَّرب منها فقد ترخَّص كثيرٌ من السَّلفِ في روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين. ولو كانت فيه فائدة تعود علىٰ المكلَّفين في دينهم لبَيَّنَتْه هذه الشَّريعة الكاملة الشَّاملة. والَّذِي نسلكه[4] في هذا التَّفسير الإعراض عن كثيرٍ من الأحاديث الإسرائيليَّة، لما فيها من تضييع الزَّمان، ولما اشتمل عليه كثيرٌ منها من الكَذِب المروج عليهم، فإنَّهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرَّره الأئمَّة الحفَّاظ المتقنون من هذه الأمَّة.

والمقصود هاهنا: أنَّ الله تعالىٰ أخبر أنَّه قد آتىٰ إبراهيم رشده، من قبل؛ أي: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: وكان أهلًا لذلك.

---

(١) ليست في (ز).
(٢) بياض بـ(ز).
(٣) لوحة (٢٧٤ ب).
(٤) في (ز): (والذي يذكر)، والمثبت كما في الطبعات السابقة.

ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ هذا هو الرُّشد الَّذي أوتيه من صِغَرِه، الإنكار علىٰ قومِهِ في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [أي: معتكِفُون علىٰ عِبادَتِها][(١)].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد الصباح، حدَّثنا أبو معاوية الضرير، حدَّثنا سعد[(٢)] ابن طريف، عن الأصبغ بن نُباتَةَ، قال: مر عليٌّ [علىٰ][(٣)] قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التَّماثيل الَّتي أنتم لها عاكفون؟ لأن يمَسَّ أحدكم[(٤)] جمرًا حتىٰ يُطْفَأ خيرٌ له مِن أن يمسَّها[(٥)(٦)].

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾: لم يكن لهم حجَّةٌ سوىٰ صَنيع آبائهم الضُّلَّال؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائِكُم الَّذين احتجَجْتُم بصَنيعِهِم كالكَلَام معكُم، فأنتم وهُم في ضلالٍ علىٰ غير الطَّريقِ المستقيم.

فلما سفَّه أحلامهم، وضلَّل آباءهم، واحتقر آلهتَهُم ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ يقولون: هذا الكلام الصَّادر عنك تقوله لاعبًا أو محقًّا فيه؟ فإنَّا لم نسمع به قبلك.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: ربُّكم الَّذي لا إله غيره، هو الذي خلق السَّموات [والأرض][(٧)] ومَا حَوَتْ من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهنَّ، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنَّه لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم[(٨)] بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم أقسم الخليل قسمًا أسمعهُ بعضَ قومِهِ ليكيدنَّ أصنامهم؛ أي: ليحرصِنَّ علىٰ أذاهم وتكسيرِهِم بعد أن يولُّوا مدبِرين؛ أي: إلىٰ عيدهم. وكان لهم عيدٌ يخرجون[(٩)] إليه.

قال السُّدِّي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بُنَيَّ، لو خرجت معنا إلىٰ عِيدِنا لأَعْجَبَك دينُنَا! فخرج معهم، فلمَّا كان ببعض الطَّريق ألقىٰ نفسَهُ إلىٰ الأرض. وقال: إنِّي سقيمٌ، فجعلوا

---

(١) ليست في (ز). (٢) في (ز): (سعيد). (٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «ابن أبي حاتم».

(٤) في (ز): (صاحبكم)، والمثبت كما في «السنن الصغرىٰ» للبيهقي.

(٥) في (ز) بعد هذه الكلمة: (أي معتكفون علىٰ عبادتها).

(٦) ضعيف جدًّا: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٤١)، وفيه سعد بن طريف وشيخه الأصبغ بن نُباتَةَ: كلاهما متروك كما في «التقريب».

(٧) ليست في (ز). (٨) لوحة (٢٧٥ أ). (٩) في (ز): (يمرحون).

يمرُّون عليه وهو صريعٌ، فيقولون: مَهْ![1] فيقول: إنِّي سقيمٌ، فلمَّا جاز عامَّتُهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ فسَمِعَه أولئك.

وقال أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلىٰ عيدِهم مرُّوا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألَا تخرُجْ معنا؟ قال: إنِّي سقيم. وقد كان بالأمس قال: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ فسَمِعَه ناسٌ منهم.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: حطامًا كسَّرها كلَّها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعني: إلا الصَّنم الكبير عندهم كما قال: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾[الصافات:٩٣].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القَدُّوم في يدِ كبيرهم، لعلَّهم يعتقدون أنَّه هو الَّذي غَارَ لنفسه، وأَنِف أن تُعبَدَ معه هذه الأصنام الصِّغار، فكسرها.

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: حين رَجَعُوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدَّالِّ علىٰ عدم إلهيتها، وعلىٰ سخافةِ عقول عابديها ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: في صنيعِهِ هذا.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: قال مَن سمعه يحلفُ أنَّه ليكيدنَّهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي: شابًّا ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عوف، حدَّثنا سعيد بن منصور، حدَّثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس، [عن أبيه][2]، عن ابن عبَّاس قال: ما بعث الله نبيًّا إلَّا شابًّا، ولا أوتي العلمَ عالمٌ إلا وهو شابٌّ، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[3].

وقوله: ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ أي: علىٰ رءوس الأشهاد في الملإ الأكبر بحضرة النَّاس كلِّهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبيَّن في هذا[4] المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلَّة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفَع عن نفسها ضرًّا، ولا تملك لها نصرًا، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟.

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ يعني: الذي تركه لم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ وإنَّما أراد بهذا أن يُبَادِرُوا من تلقاءِ أنفسهم، فيعترفوا أنَّهم لا ينطقون، فإنَّ هذا لا يصدُرُ عن هذا الصَّنم؛ لأنَّه جمادٌ.

---

(١) أي: ماذا بك؟

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «ابن أبي حاتم» و«الأحاديث المختارة» للمقدسي، وهو قابوس بن أبي ظبيان، وأبوه حصين بن جندب، وانظر «تهذيب الكمال» (٦/ ٥١٤).

(٣) عزاه لابن أبي حاتم، ورجاله ثقات عدا قابُوس بن أبي ظبيان. قال الحافظ: فيه لِين.

(٤) لوحة (٢٧٥ ب).

وفي «الصحيحين» من حديث هشام بن حسان، عن محمَّد بن سيرين، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكْذِبْ غَيْرَ ثَلَاثٍ: ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قَالَ: وَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ فِي أَرْضِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ وَمَعَهُ سَارَةُ، إِذْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَأَتَى الْجَبَّارَ رَجُلٌ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِأَرْضِكَ رَجُلٌ مَعَهُ امْرَأَةٌ أَحْسَنُ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ؟ قَالَ: هِيَ أُخْتِي. قَالَ: فَاذْهَبْ فَأَرْسِلْ بِهَا إِلَيَّ، فَانطَلَقَ إِلَى سَارَةَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ سَأَلَنِي عَنْكِ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبِينِي عِنْدَهُ، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي كِتَابِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، فَانْطَلَقَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي. فَلَمَّا أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ فَرَآهَا أَهْوَى إِلَيْهَا، فَتَنَاوَلَهَا، فَأُخِذَ أَخْذًا شَدِيدًا، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ لَهُ فَأُرْسِلَ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا، فَتَنَاوَلَهَا فَأُخِذَ بِمِثْلِهَا أَوْ أَشَدَّ. فَفَعَلَ ذَلِكَ الثَّالِثَةَ فَأُخِذَ، [فَذَكَرَ][1] مِثْلَ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ. فَقَالَ: ادْعِي اللهَ فَلَا أَضُرُّكِ. فَدَعَتْ لَهُ فَأُرْسِلَ، ثُمَّ [دَعَا][2] أَدْنَى حُجَّابِهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، وَإِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، أَخْرِجْهَا وَأَعْطِهَا هَاجَرَ، فَأُخْرِجَتْ وَأُعْطِيَتْ هَاجَرَ، فَأَقْبَلَتْ، فَلَمَّا أَحَسَّ إِبْرَاهِيمُ بِمَجِيئِهَا انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ، قَالَ: مَهْيَمْ؟[3] قَالَتْ: كَفَى[4] اللهُ كَيْدَ الْكَافِرِ الْفَاجِرِ، وَأَخْدَمَنِي هَاجَرَ» قال محمَّد بن سيرين وكان أبو هريرة إذا حدَّث بهذا الحديث قال: فتلك أمُّكم يا بني ماء السَّماء[5][6].

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم[7]، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم[8] أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) بياض بـ(ز)، والمثبت كما في «السنن الكبرىٰ» للنسائي (٨٥١٣).

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «النسائي». (٣) أي: ما شأنك، وما خبرك؟

(٤) في (ز): (أبىٰ)، وفي «مسلم»: «كفَّ»، والمثبت كما في «النسائي».

(٥) كأنَّه خاطب بذلك العربَ لكثرة ملازمتهم للفلوات الَّتي بها مواقع القطر لأجل رَعْي دوابِّهم، ففيه تمسك لمن زعمَ أنَّ العربَ كلَّهم من ولد إسماعيل، وقيل: أراد بماء السَّماء: زمزم؛ لأنَّ الله أنبعها لهاجرَ فعاش ولدُها بها فصاروا كأنَّهم أولادها. قال ابن حبَّان في «صحيحه»: «كلُّ من كانَ من ولد إسماعيل يقال له: ماءُ السَّماء؛ لأنَّ إسماعيل ولد هاجر وقد ربي بماء زمزم وهي من ماء السماء. وقيل: سمُّوا بذلك لخلوص نسبهم وصفائه فأشبه ماء السماء؛ وعليٰ هذا فلا متمسك فيه، وقيل: المراد بماء السَّماء: عامر ولد عمرو بن عامر بن بقيا بن حارثة بن الغطريف، وهو جدُّ الأوس والخزرج، قالوا: إنَّما سمِّي بذلك لأنَّه كان إذا قَحطَ النَّاسُ أقامَ لهم ماله مقامَ المَطر، وهذا أيضًا علىٰ القول بأنَّ العربَ كلَّها من ولد إسماعيل. «فتح الباري»: (٦/ ٣٩٤).

(٦) البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١). (٧) لوحة (٢٧٦ أ). (٨) في (ز): (أي: هم).

يَنطِقُونَ ﴾ [قال قتادة: أدركت القوم حيرةُ سوءٍ فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾][١].

وقال السُّدِّي: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي: في الفِتْنة.

وقال ابن زيد: أي في الرَّأي.

وقول قتادة أظهر في المعنىٰ؛ لأنَّهم إنَّما فعلوا ذلك حِيرَةً وعجزًا؛ ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾، فكيف تقول لنا: سلُوهُم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنَّها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ أي: إذا كانت لا تَنْطِق، وهي لا تضرُّ ولا تنفع، فَلِمَ تعبدونها من دون الله.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: أفلا تتدبَّرون ما أنتم فيه من الضَّلال والكفر الغليظ، الَّذي لا يروج إلا علىٰ جاهلٍ ظالمٍ فاجرٍ؟ فأقام عليهم الحجَّة، وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية [الانعام:٨٣].

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾

لما دَحَضت حجَّتُهُم، وبان عجزُهُم، وظهر الحقُّ، واندفع الباطل، عَدَلُوا إلىٰ استعمال جاه مُلْكِهِم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًّا -قال السُّدِّي: حتىٰ إن كانت المرأة تمرضُ، فتنذر إن عوفيَت أن تحمل حطبًا لحَرِيقِ إبراهيم- ثم جعلوهُ في جَوْبَةٍ من الأرض، وأضرموها نارًا، فكانَ لها شررٌ عظيمٌ ولهبٌ مرتفعٌ، لم توقد قط نار مثلُهَا، وجعلوا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في كِفَّة المنجنيق بإشارة رجلٍ من أعراب فارس من الأكراد -قال شُعَيب الجبائي: اسمه هيزن- فخَسَفَ الله به الأرض، فهو يتجلجل[٢] فيها إلىٰ يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «**حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**»، كما رواه البخاري، عن ابن عبَّاس أنه قال: «**حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**» قالها إبراهيم حين أُلقِيَ في النَّار، وقالها محمَّدٌ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣][٣].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا ابن هشام، حدَّثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّارِ قَالَ: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ، وَأَنَا[٤] فِي الأَرْضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ**»[٥].

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري». (٢) أي: يغوص. (٣) البخاري (٤٥٦٣).

(٤) في (ز): (وإنك)، وهو خطأ، والمثبت كما في «الحلية» و«البزار».

(٥) ضعيف: فيه عاصم بن عمر بن حفص: ضعيف.

ويروىٰ أنَّه لما جعلوا يوثقونه[(١)] قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانَك لك الحمد، ولك المُلْك، لا شريك لك». وقال شعيب الجبائي: كان[(٢)] عمره ستَّ عشرة سنة. فالله أعلم.

وذكر بعض السَّلف أنَّه عَرَضَ له جبريل وهو في الهواء، فقال: أَلكَ حاجةٌ؟ فقال: أَمَّا إليكَ فلا [وأمَّا مِن الله فبَلَىٰ][(٣)].

وقال سعيد بن جبير -ويروىٰ عن ابن عبَّاسٍ أيضًا- قال: لما أُلقِيَ إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متىٰ أُومَر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله ﷻ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قال: لم يبقَ نارٌ في الأرض إلا طُفِئَت[(٤)].

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع [أحد][(٥)] يومئذٍ بنارٍ، ولم تحرق النَّار من إبراهيم سوىٰ وثاقه[(٦)].

وقال الثوري، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [قال: بَرَدَتْ عليه حتىٰ كادت تقتله، حتىٰ قيل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾، قال:][(٧)] لا تضرِّيه[(٨)].

وقال ابن عبَّاس، وأبو العالية: لولا أن الله ﷻ قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذىٰ إبراهيمَ بَرْدُها[(٩)].

وقال جُوَيبر، عن الضَّحَّاك: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قال: صنعوا له حظيرةً مِن حَطَبٍ جَزْلٍ، وأشعلوا فيه النَّار مِن كلِّ جانبٍ، فأصبح ولم يُصِبْه منها شيءٌ حتىٰ أخمدها الله -قال: ويذكرُونَ أنَّ جبريل كان معه يمسح وجهه من العَرَقِ، فلم يُصِبْه منها شيءٌ غيرَ ذلك.

وقال السُّدِّي: كان معه فيها ملك [الظِّل][(١٠)].

وقال ابن[(١١)] أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا يوسف بن موسىٰ[(١٢)]، حدَّثنا مِهْران، حدَّثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن المِنْهَال بن عمرو قال: أخبرت أنَّ إبراهيم أُلقِيَ في النَّار، فقال: كان فيها إمَّا خمسين وإمَّا أربعين، قال: ما كنت أيَّامًا وليالي قطُّ أطيب عيشًا إذ كنت فيها، وَدِدْتُ أنَّ

---

(١) في (ز): (يوقعونه). (٢) لوحة (٢٧٦ ب).

(٣) ليست في (ز)، ولا «الطبري»، والمثبت من الطبعات السابقة.

(٤) رواه الطبري (١٧/ ٤٤) من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير، وروايته عنه معلولة كما تقدَّم. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٣٨) إلىٰ ابن أبي حاتم من قول ابن عبَّاس.

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٦) رواه الطبري (١٧/ ٤٥) وهو من رواية كعب الأحبار مما ينقل، ولا يُصدَّق ولا يُكذَّب. والعلم عند الله.

(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٨) ضعيف: رواه الطبري (١٧/ ٤٤)، وفيه راوٍ لم يسمَّ وهو الراوي عن عليٍّ. وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٦٤١) إلىٰ الفريابي وابن أبي شيبة.

(٩) عزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٦٤١) إلىٰ الفريابي وابن أبي حاتم.

(١٠) ليست في (ز). (١١) في (ز): (علي ابن أبي حاتم)، وهو خطأ.

(١٢) في (ز): (يوسف أبو موسىٰ)، والمثبت هو الصواب، وانظر: «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٣١).

عيشي وحياتي كلّها مثل عيشِي إذ كنتُ فيها.

وقال أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة قال: إن [أحسن شيء][(١)] قال أبو إبراهيم - لما رفع عنه الطَّبق وهو في النَّار، وجده يرشح جبينه- قال عند ذلك: نعْمَ الربُّ ربك يا إبراهيم[(٢)].

وقال قتادة: لم يأتِ يومئذٍ دابّة إلا أطفأت عنه النَّار، إلا الوَزَغ[(٣)] -وقال الزهري: أمر النَّبيُّ ﷺ: بقتله وسمَّاه فويسقًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبيد الله[(٤)] ابن أخي ابن وهب، حدَّثني عمي، حدَّثنا جرير بن حازم، أنَّ نافعًا حدثه قال: حدَّثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت علىٰ عائشة فرأيت في بَيْتِها رمحًا. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، لَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ دَابَّةٌ إِلَّا تُطْفِئُ النَّارَ، غَيْرَ الوَزَغِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله[(٥)].

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ[(٦)] ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي: [المغلُوبين الأسفلين][(٧)]؛ لأنَّهم أرادوا بنَبِيِّ الله كيدًا، فكادهم اللهُ ونجّاه من النَّار، فغلبوا هنالك.

وقال عطيَّة العوفي: لما أُلقِيَ إبراهيم في النار، جاء ملكهم لينظُر إليه فطارت شرارةٌ فوقعت علىٰ إِبْهَامه، فأحرقته مثل الصُّوفة.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن إبراهيم، أنَّه سلَّمه الله من نارِ قومه، وأخرجه مِن بين أظهرهم مهاجرًا إلىٰ

(١) في (ز): (إن الحسن قال)، والمثبت كما في «الطبري».

(٢) رواه الطبري (١٧/ ٤٤)، ورجاله ثقات عدا شيخ الطَّبري محمَّد بن حميد: قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه.

(٣) الوَزَغ: واحده وَزَغَة، وهي التي يقال لها: سام أبرص.

(٤) في (ز): (حدثنا عبيد الله)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم»، وهو: أحمد بن عبد الرحمن بن وهب (بحشل) وانظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» (٣/ ٤٦).

(٥) صحيح: رواه النسائي (٥/ ١٨٩)، وابن ماجة (٣٢٣١)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٥٨١).

(٦) لوحة (٢٧٧ أ).

(٧) في (ز): (الملعونين الأخسرين).

بلادِ الشَّام، إلىٰ الأرض المقدَّسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعب في قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: الشَّام، وما من ماءٍ عذبٍ إلا يخرج مِن تحت الصَّخرة[1]. وكذا قال أبو العالية أيضًا.

وقال قتادة: كانا بأرض العراق، فألجئا إلىٰ الشَّام، [وكان يقال للشَّام: عمادُ دارِ الهجرَةِ، وما نقص من الأرض زيدَ في الشَّام][2] وما نقص من الشَّام زيد في فلسطين. وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسىٰ ابن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال.

وقال كعب الأحبار في قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ إلىٰ حرَّان.

وقال السُّدِّي: انطلق إبراهيم ولوط قِبَل الشَّام، فلَقِيَ إبراهيم سارَّة، وهي ابنة ملك حرَّان، وقد طَعَنَت علىٰ قومِهَا في دينِهِم، فتزوَّجها علىٰ ألَّا يُغَيِّرها[3][4].

رواه ابن جرير، وهو غريب [والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجرًا من بلاده][5].

وقال العَوفي، عن ابن عبَّاسٍ: إلىٰ مكة؛ ألا تسمع قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦].

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية.

وقال ابن عبَّاس، وقتادة، والحكم بن عُيينة: النافلة ولد الولد؛ يعني: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحدًا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلةً.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: الجميع أهل خيرٍ وصلاحٍ، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: يقتدي بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلىٰ الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ من باب عطف الخاصّ علىٰ العام، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: فاعلين لما يأمرون الناس به.

ثم عطف بذكر لوط -وهو لوط بن هاران بن آزر- كان قد آمَن بإبراهيم[6]، واتَّبعه، وهاجر معه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت:٢٦]، فآتاه الله حكمًا وعلمًا،

---

(١) عزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٦٤٢) إلىٰ ابن أبي حاتم، ورواه الطبري (١٧/ ٤٦)، وهذا أشبه ما يكون بالإسرائيليَّات، وفيه نكارةٌ شديدةٌ.

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري» و«ابن أبي حاتم».

(٣) أي: لا يتزوج عليها، يقال: أغارَ الرجلُ أهلَه، إذا تزوَّج عليها.

(٤) مرسل: رواه الطبري (١٧/ ٤٧). (٥) بياض في (ز). (٦) لوحة (٢٧٧ ب).

وأوحىٰ إليه، وجعلَهُ نبيًّا، وبعثه إلىٰ سَدُوم(١) وأعمالها، فخَالَفُوه وكذَّبوه، فأهلكهم الله ودَمَّر عليهم، كما قصَّ خبرَهُم في غير موضع من كتابِهِ العزيز؛ ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا علىٰ قومه لما كذَّبوه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر:١٠]، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٦، ٢٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: من الشِّدَّة والتَّكذيب والأذىٰ، فإنَّه لبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعوهم إلىٰ الله عز وجل، فلم يُؤْمِن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون(٢) لأذاه ويتواصَوْن قرنًا بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيل علىٰ خلافه.

وقوله: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: ونجَّيْناه وخلَّصْناه منتصرًا من القوم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: أهلكهم الله بعامَّةٍ، ولم يُبْقِ علىٰ وجه الأرض منهم أحدًا؛ إذ دعَا عليهم نبيُّهم.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قال أبو إسحاق، عن مُرَّة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرمًا قد نبَتَتْ عناقيدُهُ، وكذا قال شُرَيْح، قال ابن عبَّاس: النَّفْشُ: الرعي. وقال شُريح، والزُّهري، وقتادة: النَّفْش باللَّيل. زاد قتادة: والهَمْلُ بالنَّهار.

---

(١) سَدُوم هي: سَرْمِين، وهي: بُلَيدَة مشهورة من أعمال حَلَب.

(٢) القصد في اللغة: إتيان الشيء، تقول: قصدته، وقصدت له، وقصدت إليه.

قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب وهارون بن إدريسَ الأصم قالا: حدَّثنا المحاربي، عن أشعث، عن أبي[(١)] إسحاق، عن مُرَّة، عن ابن مسعودٍ في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ قال: كرمٌ قد أنبتت عناقيده، فأفسدته. قال: فقضىٰ داود بالغَنَم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبي الله! قال: وما ذَاكَ؟ قال: تدفع الكرم إلىٰ صاحِب الغنم، فيقومُ عليه حتَّىٰ يعود كما كان، وتدفع الغنم إلىٰ صاحب الكرم فيُصيب منها حتىٰ إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلىٰ صاحبه، ودفعت الغَنَم إلىٰ صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾[(٢)(٣)].

وهكذا روىٰ العَوْفي، عن ابن عبَّاسٍ.

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، حدَّثنا خليفة، عن ابن عبَّاس قال: فحكم داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرِّعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضىٰ بينكم؟

فأخبروه، فقال: لَوْ وُلِّيتُ أمركم لقضيتُ بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلىٰ صاحب الحرث، فيكون له أولَادُها وألبانها وسلاؤها[(٤)] ومنافعها ويبذُر أصحاب الغَنَم لأهل الحَرْث مثلَ حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه [أخذ][(٥)] أصحاب الحرثِ [الحرثَ][(٦)] وردُّوا الغنم إلىٰ أصحابِهَا[(٧)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا خُدَيْج، عن أبي إسحاق، عن مُرَّة، عن مسروق قال: الحرث الذي نفشت فيه الغنم إنَّما كان كرمًا نَفَشَت فيه الغنم، فلم تَدَع فيه ورقَةً ولا عنقودًا مِن عنبٍ إلا أكلته، فأتوا داود، فأعطاهم رقابَهَا، فقال سليمان: لا بل تُؤخَذ الغنم فيُعَطَاها أهلُ الكرم، فيكون لهم لبنُهَا ونفعها، ويعطىٰ أهل الغنم الكرم فيصلحوه ويعمِّرُوه حتىٰ

---

(١) لوحة (٢٧٨ أ).

(٢) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: استدل بالآية علىٰ أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية علىٰ أن كل مجتهد مصيب.

قال: لأنها تدل بظاهرها علىٰ أنه لا حكم لله في هذه المسألة قبل الاجتهاد. وأن الحق ليس بواحد. فكذا غيرها إذ لا قائل بالفصل. إذ لو كان له فيها حكم تعين. وهذا مذهب المعتزلة، كما بيّن في الأصول. وردّ بأن مفهوم قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ لتخصيصه بالفهم دون داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، يدل علىٰ أنه المصيب للحق عند الله. ولولاه لما كان لتخصيصه بالفهم معنىٰ. والمستدلون يقولون: إن الله لما لم يخطئه، دل علىٰ أن كلًّا منهما مصيب. وتخصيصه بالفهم لا يدل علىٰ خطإ داوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ، لجواز كون كلٍّ مصيبًا. ولكن هذا أرفق وذاك أوفق، بالتحريض علىٰ التحفظ من ضرر الغير. فلذلك استدل بهذه الآية كلٌّ. فكما لم يعلم حكم الله فيها، لم يعلم تعين دلالتها. كذا في «العناية».

(٣) رواه الطبري (١٧/ ٥١) وفيه أشعث بن سوار: ضعيف، ورواية ابن عبَّاس عند الطبري (١٧/ ٥١) من طريق العوفي: وهو مدلس.

(٤) السِّلاء: السمن.

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٧) رواه الطبري (١٧/ ٥٢) من طريق ابن جريج عن علي بن زيد به، وعلي بن زيد: ضعيف.

يعود كالَّذِي كان ليلة نَفَشت فيه الغَنَم، ثم يُعطَىٰ أهل الغَنَم غنمهم، وأهل الكَرْم كرمهم.

وهكذا قال شُرَيح، ومُرَّة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغير واحدٍ.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن أبي زياد، حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلىٰ شُرَيح، فقال أحدهما: إنَّ شاة هذا قطعت غزلًا لي، فقال شريح: نهارًا أم ليلًا؟ فإن كان نهارًا فقد بَرِئَ صاحب الشَّاة، وإن كان ليلًا فقد ضَمِن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ﴾ الآية.

وهذا الذي قاله شُرَيح شبيه بما[١] رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث ابن سعد، عن الزُّهري، عن حَرام بن مُحَيْصة؛ أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطًا، فأفسدت فيه، فقضىٰ رسول الله ﷺ علىٰ أهل الحوائط حفظها بالنَّهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن علىٰ أهلها[٢]. وقد عُلِّل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب[٣] «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حماد، عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضىٰ أتاه الحسن فبكىٰ، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أنَّ القضاة: رجلٌ اجتهد فأخطأ، فهو في النَّار، ورجلٌ مال به الهوىٰ فهو في النَّار، ورجلٌ اجتهد فأصاب فهو في الجنَّة. فقال الحسن البصري: إنَّ فيما قص الله من نبإ داود وسليمان -عليهما السلام- والأنبياء حُكْمًا يرد قول هؤلاء النَّاس عن قولهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ فأثنىٰ الله علىٰ سليمان ولم يذم داود. ثم قال -يعني: الحسن: إنَّ الله اتَّخذ علىٰ الحكام[٤] ثلاثًا: لا يشترون به ثمنًا [قليلًا][٥] ولا يتَّبعون فيه الهوىٰ، ولا يخشون فيه أحدًا، ثم تلا ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة:٤٤].

قلت: أما الأنبياء -عليهم السلام- فكلُّهم معصومُونَ مُؤيَّدون من الله ﷻ. وهذا ممَّا لا خلاف فيه بين العُلَمَاء المحقِّقين من السَّلف والخَلَف، وأمَّا مَن سواهم فقد ثبت في «صحيح البخاري»، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[٦] فهذا الحديث يرد نصًّا ما توهمه «إياس» من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النَّار، والله أعلم.

---

(١) في (ز): (سببه ما).

(٢) صححه الألباني: رواه أبو داود (٣٥٦٩)، وابن ماجة (٢٣٣٢)، وأحمد (٥/ ٤٣٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨).

(٣) لوحة (٢٧٨ ب).

(٤) في (ز): (الحكماء)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم» وغيره.

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «ابن أبي حاتم».

(٦) البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

وفي «السنن»: «**الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، وَقَاضِيَانِ فِي النَّارِ: رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَىٰ بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَىٰ جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَىٰ بِخِلَافِهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ**»[(١)].

وقريب من هذه القصَّة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»، حيث قال: حدَّثنا علي بن حَفْص، أخبرنا وَرْقاء، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لَهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَأَخَذَ أَحَدَ الِابْنَيْنِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَىٰ دَاوُدَ، فَقَضَىٰ بِهِ لِلْكُبْرَىٰ، فَخَرَجَتَا. فَدَعَاهُمَا سُلَيْمَانُ فَقَالَ: هَاتُوا السِّكِّينَ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَىٰ: [يَرْحَمُكَ اللهُ][(٢)] هُوَ ابْنُهَا، لَا تَشُقَّهُ، فَقَضَىٰ بِهِ لِلصُّغْرَىٰ**»[(٣)].

وأخرجه البخاري ومسلم في «صحيحهما» وبوَّب [عليه النَّسائي][(٤)] في كتاب القضاء: (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحقَّ).

وهكذا القصَّة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من «تاريخه»، من طريق الحسن بن[(٥)] سفيان، عن [صفوان بن][(٦)] صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس -فذكر قصة مطولة ملخصها-: أن امرأةً حسناء في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت علىٰ كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود عليه السلام أنَّها مَكَّنت مِن نفسها كلبًا لها، قد عوَّدَتْه ذلك منها، فأمر بِرَجْمِهَا. فلما كان عشية ذلك [اليوم][(٧)]، جلس سُلَيْمَان، واجتمع معه وِلْدانٌ مثله، فانتصب حاكمًا وتزيَّا أربعة منهم بزيِّ أولئك، وآخر بزيِّ المرأةِ، وشَهِدُوا عليها بأنَّها مكَّنت من نفسها كلبًا، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فقال لأولهم: ما كانَ لون الكلب؟ فقال: أسود. فعزله، واستدعىٰ الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم، فحكي ذلك لداود، فاستدعىٰ من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ : وذلك لطِيبِ صوته بتلاوةِ كتابه الزَّبور، وكان إذا تَرنَّم به تقف الطير في الهَوَاءِ، فتجاوبه، وتَرد عليه الجبال تأويبًا؛ ولهذا لمَّا مَرَّ

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٣)، والنَّسائي في «الكبرىٰ» (٥٩٢٢)، وابن ماجة (٢٣١٥).

(٢) في (ز): (رحمك هو ابنها)، والمثبت كما في «المسند» و«الصحيحين».

(٣) البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠)، وأحمد (٢/ ٣٢٢).

(٤) في (ز): (وبوب الثاني عليه)، والذي في «المجتبىٰ» للنسائي (٨/ ٢٣٦): «باب: السعة للحاكم في أن يقول للشيء لا يفعله: افعل ليستبين الحق».

(٥) لوحة (٢٧٩ أ).

(٦) بياض في (ز)، والمثبت كما في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٣٢).

(٧) ليست في (ز).

النَّبيُّ ﷺ علىٰ أبي موسىٰ الأشعري، وهو يتلو القرآن من اللَّيل، وكان له صوتٌ طيبٌ [جدًّا][١]. فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ». قال: يا رسول الله، لو علمت أنَّك تسمع لحبَّرتُه لك تحبيرًا[٢][٣].

وقال أبو عثمان النهدي[٤]: ما سمعت صوت صَنْجٍ[٥] ولا بربطٍ ولا مزمار مثل صوت أبي موسىٰ رضي الله عنه ومع هذا قال: لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُم[٦] مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: صنعة الدُّروع.

قال قتادة: إنَّما كانت الدُّروع قبله صفائح، وهو أوَّل مَن سردها حلَقًا. كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:١٠، ١١] أي: لا توسع الحلقة فتقلق المسمَار، ولا تغلظ المسمَار فتَقُدَّ الحَلْقة؛ ولهذا قال: ﴿لِيُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: في القتال، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعَلَّمه ذلك من أجلكم.

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخَّرنا لسليمَان الرِّيح العاصفة، ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾؛ يعني: أرض الشام، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ وذلك أنَّه كان له بساطٌ من خشبٍ، يوضع عليه كلُّ ما يحتاج إليه من أمورِ المملكة، والخيلِ والجمالِ والخيامِ والجندِ، ثم يأمر الرِّيح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحملَه فترفعه وتسيرَ به، وتظله الطَّير من الحرِّ، إلىٰ حيث[٧] يشاء من الأَرضِ، فينزل وتوضع آلاتُه وخشبه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦]، وقال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢].

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبي سِنَان، عن سعيد بن جبير قال: كان يُوضَع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطَّير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷺ.

وقال عبد الله بن عُبَيْد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتَمع كالطَّود العظيم، كالجبل، ثم يأمر

---

(١) ليست في (ز). (٢) أي: لحسنته تحسينًا.

(٣) رواه النسائي (٢/ ٨٠) من حديث عائشة، ورواه من حديث أبي هريرة، والحديث ثابت عن أبي موسىٰ الأشعري، رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٢٣٦).

(٤) في (ز): (أبو عثمان الهمداني)، والمثبت هو الصواب، وانظر ترجمة أبي موسىٰ في «تهذيب التهذيب» (٢٠/ ٣٣٢).

(٥) الصَّنج: آلة تُتخذ من نحاس كالطبقين يضرب أحدهما بالآخر، والبَرْبَط: -بوزن: جعفر- آلة تشبه العود، فارسي مُعرب. «فتح الباري»: (٩/ ٩٣)، والمزمار: آلة من خشب أو معدن تنتهي قصبتها ببوق صغير، (ج): مزامير. «المعجم الوسيط».

(٦) متواترة: قَرَأَ (لِتُحْصِنَكُم) ابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَحَفْصٌ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ (لِنُحْصِنَكُم) شُعْبَةُ وَرُوَيْسٌ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (لِيُحْصِنَكُم).

(٧) لوحة (٢٧٩ ب).

بفراشه فيوضَعُ علىٰ أعلىٰ مكانٍ منها، ثم يدعو بفَرَسٍ من ذواتِ الأجنحة، فترتفع حتىٰ تصعد علىٰ فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كُل شَرَف دون السَّماء، وهو مطأطئٌ رأسه، ما يلتفت يمينًا ولا شمالًا تعظيمًا لله ﷻ، وشكرًا لما يعلم مِن صغر ما هو فيه في ملك الله تعالىٰ حتىٰ تضعه الرِّيح حيث شاء أن تضعه.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: في الماء يستخرجون الجواهر واللآلئ [وغير ذلك. ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ]‏[1] ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: يحرسه الله أن يناله أحدٌ من الشَّياطين بسوءٍ، بل كلٌّ في قبضته وتحتَ قهرِهِ لا يتجاسَرُ أحدٌ منهم علىٰ الدُّنُوِ إليه والقرب منه، بل هو مُحَكَّمٌ فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاءَ حبس منهم من يشاءُ؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يذكر تعالىٰ عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء، في مالِهِ وولدِهِ وجسدِهِ، وذلك أنَّه كان لَه مِن الدَّوابِّ والأنعامِ والحرثِ شيءٌ كثيرٌ، وأولادٌ كثيرةٌ، ومنازل مرضيَّة. فابتلي في ذلك كله[2]، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده -يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبقَ منه سليمٌ سوىٰ قلبه ولسانه، يذكر بهما الله ﷻ حتىٰ عافه الجليس، وأفردَ في ناحيةٍ من البلد، ولم يبقَ من النَّاس أحدٌ يحنو عليه سوىٰ زوجته، كانت تقوم بأمره، ويقال: إنَّها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله[3]،

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: وقد روىٰ المفسرون هاهنا في بلاء أيوب روايات مختلفات، بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن. ولا تُعارُ من الثقة أدنىٰ نظر. نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته، وبنزول مرض شديد به، عدم معه الراحة ولذة الحياة، غرائب. إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها. لما داخلها من المزيج، وتوسع بها في الدخيل، حتىٰ اختلط الحابل بالنابل. وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش. ولو علم الله خيرًا في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم لتفضل علينا بتفصيله. ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصّل.

(٣) قال الدكتور أبو شهبة رحمه الله: (ومن العجيب: أن الحافظ الناقد ابن كثير وقع فيما وقع فيه غيره في قصة أيوب عليه السلام مِن ذِكر الكثير من الإسرائيليات، ولم يعقب عليها، مع أن عهدنا به أنه لا يذكر شيئًا من ذلك إلا وينبه علىٰ مصدره، ومن أين دخل في الرواية الإسلامية، ولا أظن أنه يرىٰ في هذا أنه مما تباح روايته) اهـ «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص:٢٧٨).

ثم قال: (... والذي يجب أن نعتقده: أنه ابتُلي، ولكن بلاءه لم يصل إلىٰ حد هذه الأكاذيب، من أنه أصيب بالجذام، وأن جسمه أصبح قرحة، وأنه أُلقي علىٰ كُناسة [مزبلة] بني إسرائيل، يرعىٰ في جسده الدود، وتعبث به دواب بني إسرائيل، أو أنه أصيب بمرض الجدري.

=

وقد قال النبيُّ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ»(١) وفي الحديث الآخر: «يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ»(٢).

وقد كان نبيُّ الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ غاية في الصَّبر، وبه يضرب المثل في ذلك.

وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلىٰ الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بذَهَاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيءٌ، أحسن الذِّكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الَّذِي أحسنت إليَّ، أعطيتني المال والولد، فلم يبقَ مِن قلبي شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخَذْتَ ذلك كلَّه منِّي، وفرَّغت قلبي، ليس يحولُ بيني وبينك شيءٌ، لو يعلم عدوِّي إبليس بالَّذي صنعت حسدني. قال: فلقي إبليس من ذلك منكرًا.

قال: وقال أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا ربِّ، إنَّك أعطَيْتَنِي المال والولد، فلَم يَقُم علىٰ بابي أحدٌ يشكوني لظُلْم ظلمتُهُ، وأنت تعلم ذلك. وأنَّه كان يوطأ(٣) لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفسُ، إنَّكِ لم تُخْلَقِي لوطءِ الفُرُش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وَجْهِك. رواه ابن أبي حاتم.

وقد ذكر عن وهب بن منبه في خبره قصةً طويلةً، ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحدٍ من متأخري المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول(٤).

وقد روي أنَّه مكث في البلاء مدةً طويلةً، ثم اختلفوا في السَّبب المهيِّج له علىٰ هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلي أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ سبع سنين وأشهرًا، ملقًىٰ علىٰ كُنَاسَة بني إسرائيل، تختلف الدَّواب في جسده ففرَّج الله عنه، وعَظَّمَ له الأجر، وأحسن عليه الثَّناء.

وقال وهب بن منبه: مكث في البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السُّدِّي: تساقط لحم أيوب حتىٰ لم يبقَ إلا العصب والعِظَام(٥)، فكانت امرأته تقوم عليه

= وأيوب - عليه صلوات الله وسلامه - أكرم علىٰ الله من أن يلقي علىٰ مزبلة، وأن يصاب بمرض ينفر الناس عن دعوته، ويقززهم منه، وأي فائدة تحصل من الرسالة وهو علىٰ هذه الحال المزرية التي لا يرضاها الله لأنبيائه ورسله..) اهـ

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في «الكبرىٰ»، وابن ماجة (٤٠٢٣).

(٢) انظر ما قبله. (٣) أي: يهيأ.

(٤) وأكثر الروايات فيها نكارة، وما يذكره المصنف بعد ذلك عن الحسن والسُّدِّي ونوفٍ البكالي وغيرهم مما لا يعتمد عليها إلَّا الأحاديث التي سنشير إلىٰ صحَّتها فقط.

(٥) ما يذكر في صفة مرض أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وبلائه -من تقرح جسده، وانتشار الدود فيه، وغير ذلك- مُنكر لا يليق بمقام الأنبياء؛ قال ابنُ العربي القاضي أبو بكر رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين، الأولىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء]، والثانية: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص]. وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحدٍ إلا قوله: «بينا أيوب يغتسل إذ خرَّ عليه رِجْلٌ من جرادٍ من ذَهَبٍ» الحديث. وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلىٰ أيوب خبره، أم علىٰ أي لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء علىٰ البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالًا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالًا). تفسير القرطبي: (١٨/ ٢١٥)، وانظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» للدكتور/ محمد أبي شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ: (ص ٢٦٧-٢٧٤).

وتأتيه بالزَّاد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دَعَوْت ربَّك يفرِّج عنك؟ فقال: قد عِشْت سبعين سنةً صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر له سَبْعِين سنةً؟ فجَزَعت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للنَّاس بأجرٍ وتأتيه بما تصيب فتطعمه، وإنَّ إبليس انطلق إلىٰ رجلين من فلسطين كانا صَدِيقَيْن له وأخوين، فأتاهما فقال: أخوكما أيُّوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه واحملا معكما مِن خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه بَرَأ. فأتياه، فلمَّا نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما؟ فقالا: نحن فلان وفلان! فرحَّب بهما وقال: مرحبًا بمن لا يجفوني عند البلاء، فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسِرُّ شيئًا وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلىٰ السماء ثم قال: هو يَعْلَم، ما أسررت شيئًا أظهرت غيره. ولكن رَبِّي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع، فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنَّك إن شربت منه بَرَأت. قال: فغضب وقال: جاءَكُما الخبيثُ فأمركما بهذا؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما عليَّ حرام. فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للنَّاس فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قرصًا[(١)(٢)]، وكان ابنهم نائمًا، فكرهوا أن يوقظوه، فوهبوه لها.

فأتت به إلىٰ أيُّوب، فأنكره وقال: ما كنت تأتيني بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبي قد استيقظ، فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي عَلَىٰ أهله. [فانطلقي به إليه. فأقبلت حتىٰ بلغت درجة القوم، فنطحتها شاةٌ لهم، فقالت: تعس أيُّوب الخطَّاء! فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص، ويبكي علىٰ أهله][(٣)]، لا يقبل منهم شيئًا غيره، فقالت: رحم الله أيُّوب فدفعت القرص إليه ورجعت. ثم إن إبليس أتاها في صورة طبيبٍ، فقال لها: إن زوجك قد طال سُقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابًا فليذبحه باسم صنم بني فلان فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيثُ. لله عليَّ إن برأت أن أجلدَكِ مائة جلدةٍ. فخرجت تسعىٰ عليه، فحظر[(٤)] عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيتٍ فيريدونها، فلما اشتدَّ عليها ذلك وخافت علىٰ أيوب الجوع حلقت مِن شعرها قرنًا[(٥)] فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعامًا طيبًا كثيرًا فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فأطعموني. فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضًا قرنًا فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيوب، فقال: والله لا أطعمه حتىٰ أعلم من أين هو؟ فوضعت خمارها، فلما رأىٰ رأسها محلوقًا جزع جزعًا شديدًا، فعند ذلك حين دعا ربه ﷿: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حماد، حدَّثنا أبو عمران الجوني، عن نَوْفٍ البِكَالي؛ أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له: «مسوط»[(٦)]، قال: وكانت

---

(١) القُرْص: الرغيف. (٢) لوحة (٢٨٠ ب).
(٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): (قحط). (٥) أي: ضفيرة.
(٦) في (ز): (سوط)، والمثبت كما في «الدر المنثور» و«ابن أبي حاتم».

امرأة أيوب تقول: «ادعُ اللهَ فيَشْفِيَك»، فجعل لا يدعو[١]، حتىٰ مرَّ به نفرٌ من بني إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه [ما أصابه][٢] إلا بذنبٍ عظيمٍ أصابه، فعند ذلك قال: «رب إني مسَّني الضُّرُّ وأنت أرحم الراحمين».

وحدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمة، حدَّثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب عليه السلام أَخَوَان فجاءا يومًا، فلم يستطيعا أن يَدْنُوا منه، من ريحه، فقاما مِن بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله عَلِم من أيوب خيرًا ما ابتلاه بهذا؟ فجزع أيوب من قولهما جَزَعًا لم يجزع من شيءٍ قط، فقال: اللَّهمَّ، إن كنت تعلم أنِّي لم أبت ليلةً قطُّ شبعان وأنا أعلم مكانَ جائع، فصَدِّقْنِي. فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللَّهمَّ، إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط، وأنا أعلم مكان عارٍ، فَصَدِّقْني فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان. اللَّهمَّ بعزتك ثم خر ساجدًا، ثم قال: اللَّهمَّ بعزَّتك لا أرفع رأسي أبدًا حتىٰ تكشف عنِّي. فما رفع رأسه حتىٰ كُشِفَ عنه.

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجهٍ آخر مرفوعًا بنحو هذا فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن[٣] وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عُقَيل، عن الزُّهري، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ -وَاللهِ- لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ. فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّىٰ ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ عليه السلام: مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ عز وجل يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَىٰ الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ، فَأَرْجِعُ إِلَىٰ بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا، كَرَاهَةَ أَنْ يَذْكُرَا اللهَ إِلَّا فِي حَقٍّ. قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ فِي حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ: أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**»[٤]. رفع هذا الحديث غريب جدًّا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عبَّاسٍ، قال: وألبسه الله حلَّةً من الجنَّة، فتنحىٰ أيوب فجلس في ناحيةٍ، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذهب هذا المبتَلَىٰ الَّذي كان هاهنا؟ لعلَّ الكلاب ذهبت به أو الذِّئاب، فجعلت تكلِّمُهُ ساعةً، فقال: ويحكِ! أنا أيوب! قالت: أتسخرُ منِّي يا عبد الله؟ فقال: ويحك! أنا أيوب، قد ردَّ الله عليَّ جسدي[٥].

وبه قال ابن عبَّاس: وردَّ عليه مالَهُ وولَدَهُ عيانًا، ومثلهم معهم.

---

(١) في (ز): (يذعر).
(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الدر المنثور».
(٣) لوحة (٢٨١ أ).
(٤) صحيح: رواه أبو يعلىٰ (٣٦١٧)، وابن حبان (٢٨٩٨).
(٥) ضعيف: في إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

وقال وهب بن منبه: أوحىٰ الله إلىٰ أيُّوب: قد رَدَدْتُ عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتَسِل بهذا الماء، فإنَّ فيه شفاءك، وقرِّب عن صاحبتك قربانًا، واستغفر لهم، فإنَّهم قد عَصَوْنِي فيكَ. رواه ابن أبي حاتم.

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا عمرو بن مرزوق، حدَّثنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بَشير بن نَهيك، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَمَّا عَافَىٰ اللهُ أَيُّوبَ، أَمْطَرَ عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي ثَوْبِهِ**». قال: «**فَقِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ، أَمَا تَشْبَعُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ رَحْمَتِكَ**»[١].

أصله في «الصَّحيحين»[٢]، وسيأتي في موضع آخر.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قد تقدم عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: ردُّوا عليه بأعيانِهم. وكذا رواه العوفي، عن ابن عبَّاسٍ أيضًا. وروي مثله عن ابن مسعودٍ ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة.

وقد زعم بعضُهم أنَّ اسم زوجتِهِ رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النَّجْعَة[٣]، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب[٤]، وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدَّق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساكر في «تاريخه» رَحِمَهُ اللهُ قال: ويقال: اسمها ليا ابنة مِنَشَّا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: ليا بنت يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ زوجة أيُّوب كانت معه بأرض البَثَنِيَّة[٥].

وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب، إنَّ أهلك لك في الجنَّة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهُم لك في الجنَّة، وعوَّضناك مثلهم. قال: لا، بل اتركهم لي في الجنَّة. قال: فتُركوا له في الجنَّة وعوض مثلهم في الدنيا.

وقال حماد بن زيد، عن أبي عمران الجَوْني، عن نَوف البِكَالي قال: أوتي أجرهم في الآخرة، وأعطي مثلهم في الدُّنيا. قال: فحدثت به مُطَرِّفا، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم.

وهكذا روي عن قتادة، والسُّدِّي، وغير واحدٍ من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فعلنا به ذلك رحمةً مِن الله به، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: وجعلناه في ذلك قدوةً؛ لئلَّا يظنَّ أهل البلاء إنَّما فعلنا بهم ذلك لهَوَانِهم علينا، وليتأسوا به في الصَّبر علىٰ مقدورَاتِ الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله [الحكمة البالغة][٦] في ذلك.

---

(١) البخاري (٢٧٩) (٣٣٩١). (٢) قوله: «أصله في الصحيحين» وهم، وإنما هو من أفراد البخاري.

(٣) أي: أبعد في الأخذ والطلب، والنجعة: الذهاب في طلب الكلأ من موضعه.

(٤) لوحة (٢٨١ ب).

(٥) البَثَنِية: قرية بين دمشق وأذرعات، كان أيوب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ منها. «معجم البلدان».

(٦) في (ز): (وله الحمد).

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾

أمَّا إسماعيل فالمراد بِهِ ابن إبراهيم الخليل -عليهما السلام- وقد تقدَّم ذكره في سورة مريم، وكذلك إدريس عليه السلام، وأمَّا ذو الكِفْل فالظَّاهر من السِّياق أنَّه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنَّما كان رجلًا صالحًا، وكان ملكًا عادلًا وحكمًا مقسطًا، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ قال: رجلٌ صالحٌ غيرُ نبيٍّ، تكفَّل لنبيِّ قومه أن يكفيَه أَمْرَ قومِهِ ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فَسُمِّيَ: ذا الكفل. وكذا روىٰ ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد أيضًا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا عفان، حدَّثنا وُهَيب، حدَّثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبُر اليسع قال: لو أنِّي استخلفت رجلًا علىٰ النَّاس يعمل عليهم في حيَاتِي، حتىٰ أنظر كيف يعمل؟ فجمع النَّاس، فقال: من يتقبَّل مني بثلاثٍ أستخلفه: يصومُ النَّهار، ويقوم اللَّيل، ولا يغضب. قال: فقام رجلٌ تَزْدَرِيه العين، فقال: أنَا. فقال: أنت تصومُ النَّهار، وتقوم اللَّيل، ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فرَدَّهم ذلك اليوم، وقال مثلها في اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل وقال: أنا. فاستخلفه، قال: وجعل إبليسُ يقول للشَّياطين: عليكم بفلانٍ. فأعياهم ذلك، قال: دَعُونِي وإيَّاه، فأتاه في صورة شيخٍ كبيرٍ فقيرٍ، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة[١] -وكان لا ينام اللَّيل والنَّهار إلا تلك النَّومة- فدَقَّ الباب، فقال: مَن[٢] هذا؟ قال: شيخٌ كبيرٌ مظلومٌ. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقصُّ عليه، فقال: إنَّ بيني وبين قومي خصومة، وإنَّهم ظلموني، وفعلوا بي وفعلوا. وجعل يُطَوِّل عليه حتىٰ حضر الرَّواح[٣] وذهبت القائلة، فقال: إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك. فانطلق، وراح. فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرىٰ الشيخ؟ فلم يره، فقام يتَّبعه، فلما كان الغد جعل يقضي بين النَّاس، وينتظره ولا يراه، فلما رجع إلىٰ القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: الشَّيخ الكبير المظلوم. ففتح له فقال: ألم أقل لكَ إذا قعدت فأتني؟ قال: إنَّهم أخبث قومٍ، إذا عرفوا أنَّك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقَّك. وإذا قمت جحدوني. قال: فانطلق، فإذا رحت فأْتِنِي. قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره ولا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحدًا يَقرب هذا الباب حتىٰ أنام، فإنِّي قد شق عليَّ النوم. فلما كان تلك الساعة أتاه فقال له الرجل: وراءك وراءك؟ فقال: إني قد أتيته أمس، فذكرت له أمري، فقال: لا والله لقد أمرنا ألا ندع أحدًا يقربه. فلمَّا أعياه نظر [فرأىٰ][٤] كُوَّةً في البيت، فتسور منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخِل، قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان، ألم آمرك؟ فقال: أما من قبلي والله

---

(١) القائلة: نصف النهار. (٢) لوحة (٢٨٢ أ). (٣) الرواح: يكون آخر النهار.

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

فلم تؤتَ، فانظر من أَيْن أتيت؟ قال: فقام إلىٰ الباب فإذا هو مغلقٌ كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت، فعرفه، فقال: أعدو الله؟ قال: نعم، أعييتني في كلِّ شيءٍ، ففعلت ما ترَىٰ لأغضبك. فسمَّاه الله ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمرٍ فوفىٰ به[١].

وهكذا رواه: ابن أبي حاتم، من حديث زهير بن إسحاق، عن داود، عن مجاهد بمثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن يونس، حدَّثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم قال: قال ابن عبَّاس: كان قاضٍ في بني إسرائيل، فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامِي علىٰ ألا يغضب؟ قال: فقال رجلٌ: أنا. فسُمِّيَ ذا الكفل. قال: فكان ليله جميعًا يصلِّي، ثم يصبح صائمًا فيقضي بين النَّاس -قال: وله ساعة يقيلها- قال: فكان كذلك، فأتاه الشَّيطان عند نومته، فقال له أصحابه: ما لكَ؟ قال: إنسانٌ مسكينٌ، له علىٰ رجلٍ حقٌّ، وقد غلبني عليه. قالوا: كما أنت حتىٰ يستيقظ -قال: وهو فوق نائم- قال: فجعل يصيح عمدًا حتىٰ يوقظه، قال: فسَمِعَ، فقال: ما لك؟ قال: إنسانٌ مسكينٌ، له علىٰ رجلٍ حقٌّ. قال: اذهب فقل له يعطيك. قال: قد أبىٰ. قال: اذهب أنت إليه[٢]. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامكَ رأسًا. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قَالَ[٣]، قال: فقال له أصحابه: اخرج، فَعَلَ الله بك، تجيء كل يوم حين ينام، لا تدعه ينَام؟. فجعل يصيح: مِن أجل أنِّي إنسانٌ مسكينٌ، لو كنت غنيًّا؟ قال: فسمع أيضًا، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربني. قال: امشِ حتىٰ أجيء معك. قال: فهو ممسكٌ بيده، فلما رآه ذهب معه نَثَر يده منه فذهب فَفَر[٤].

وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث، ومحمَّد بن قيس، وابن[٥] حُجَيرة الأكبر، وغيرهم من السلف، نحو من هذه القصة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو الجماهر، أخبرنا سعيد بن بشير، حدَّثنا قتادة، عن أبي كنانة بن الأخنس[٦] قال: سمعت الأشعري وهو يقول علىٰ هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنَبِيٍّ، ولكن كان -يعني: في بني إسرائيل- رجلٌ صالحٌ يصلِّي كل يوم مائة صلاة، فتكفَّل له ذو الكفل مِن

---

(١) رواه الطبري (١٧/ ٧٤) وهو من رواية مجاهد. فهو مرسلٌ؛ لأنَّه لم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

(٢) لوحة (٢٨٢ ب).

(٣) أي: في وقت القائلة.

(٤) رجاله ثقات إلَّا أن أبا بكر بن عياش لما كبر ساء حفظه، والأعمش يدلِّس وقد عنعن.

(٥) في (ز): (وأبي حجيرة)، والصواب ما أثبتناه وهو: أبو عبد الله عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر، وهو مصري تابعي ثقة، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٢١/ ١٦٠).

(٦) في (ز): (كنانة الأخنس)، ولم أجده في الرواة عن أبي موسىٰ، وإنما وجدت أبا كنانة القرشي فلعله هو، كما لم أجد هذا الحديث في المطبوع من «ابن أبي حاتم» وقد عزاه إليه في «الدر المنثور».

بعده، فكان يصلِّي [كلَّ يومٍ][(١)] مائة صلاةٍ، فسُمِّيَ ذَا الكفل[(٢)].

وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: «قال أبو موسىٰ الأشعري...» فذكره منقطعًا[(٣)]، والله أعلم.

وقد روىٰ الإمام أحمد حديثًا[(٤)] غريبًا فقال: حدَّثنا أسباط بن محمَّد، حدَّثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، [عن سعد][(٥)] مولىٰ طلحة، عن [ابن][(٦)] عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرَّة أو مرَّتين -حتىٰ عدَّ سبع مرات- ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: **«كَانَ الكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لا يَتَوَرَّعُ[(٧)] مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا، عَلَىٰ أَنْ يَطَأَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ، أُرْعِدَتْ[(٨)] وَبَكَتْ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟ أَكْرَهْتُكِ؟ قَالَتْ: لا، وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ، وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ الحَاجَةُ. قَالَ: فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ؟ فَنَزَلَ فَقَالَ: اذْهَبِي فَالدَّنَانِيرُ لَكِ. ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ لا يَعْصِي اللهَ الكِفْلُ أَبَدًا. فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَىٰ بَابِهِ: قَدْ غَفَرَ اللهُ لِلْكِفْلِ»**.

هكذا وقع في هذه الرواية «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم.

وهذا الحديث لم يخرجه أحدٌ من أصحاب الكتب السِّتَّة، وإسناده غريب، وعلىٰ كل تقديرٍ فلفظ الحديث إن كان «الكِفْل»، ولم يقل: «ذُو الكِفْلِ»، فلعله رجل آخر[(٩)]، والله أعلم[(١٠)].

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الدر المنثور».

(٢) ضعيف: في إسناده سعيد بن بشير، قال الحافظ: ضعيف (تقريب-٢٢٧٦)، وأبو كنانة: مجهول، وفيه قتادة: مدلس، وقد رواه الطبري (١٧/ ٧٥) من طريقٍ أخرىٰ عن قتادة عن أبي موسىٰ. وهي رواية منقطعة.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) في (ز): (ثنا غريبا).

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٦) سقط من (ز)، والمثبت كما في «المسند».

(٧) أي: لا يحترز ولا يمتنع.

(٨) أي: زلزلت واضطربت من خشية الله.

(٩) إسناده ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٢٣)، والترمذي (٢٤٩٨)، وأبو يعلىٰ (٥٧٢٦)، والحاكم (٤/ ٢٥٤- ٢٥٥) وصحَّحه ووافقه الذهبي. قلت: وفيه سعد مولىٰ طلحة: مجهول. والأعمش: مدلس، وقد عنعن.

(١٠) قال الشيخ مشهور حَفِظَهُ اللهُ: (المذكور هنا -أي: في الحديث) كان مُسرفًا علىٰ نفسه، منحرفًا عن الجادة، فتاب الله عليه، وهو غير المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝﴾ اهـ.
ثم قال: (أما قول الحافظ ابن كثير: «وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وإسناده غريب» اهـ فغريب، إذ قال في «البداية والنهاية» (١/ ٢٢٦): «رواه الترمذي من حديث الأعمش به، وقال: حسن. وذكر أن بعضهم رواه فوقفه علىٰ ابن عمر، فهو حديث غريب جدًّا...». اهـ
ونقول -القائل هو الشيخ مشهور-: «إن وقف الحديث ليس بعلة يُعَلُّ بها الحديث ما دام من رفعه ثقة، وزيادة الثقة مقبوله»). اهـ «قصص الماضين» (ص٢٣٠) وانظر «التحبير للأوهام والتنبيهات في تفسير ابن كثير» (ص٨٢).
ونقول نحن: في تعميم قبول زيادة الثقة في رفع الحديث نظر، وللنُّقاد في هذه المسألة مذاهب، لا سيما إن كان الأثبت علىٰ الوقف، والله أعلم.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[١]

هذه القصة مذكورةٌ هاهنا وفي سورة «الصافات» وفي سورة «ن» وذلك أن يونس بن مَتَّىٰ عليه السلام بعثه الله إلىٰ أهل قريةِ «نينوىٰ»، وهي قريةٌ من أرض الموصل، فدعاهم إلىٰ الله، فأبَوْا عليْهِ وتمادَوْا علىٰ كُفْرِهِم، فخرج من بين أظهرِهِمْ مغاضبًا لهم، ووعدَهُم بالعذابِ بعد ثلاثٍ. فلمَّا تحقَّقوا منه ذلك، وعلموا أنَّ النبيَّ لا يكذب، خرجوا إلىٰ الصَّحراء بأطفالهم وأنعامِهِم ومواشيهم، وفرقوا بَين الأمَّهات وأولادها، ثم تضرَّعوا إلىٰ الله عز وجل، وجَأَرُوا إليه، ورَغتِ الإبل وفُصلَانها، وخارَتِ البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمْلانها[٢]، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس:٩٨].

وأما يونس عليه السلام فإنَّه ذهب فركِب مع قومٍ في سفينةٍ فَلَجَّجت[٣] بِهِم، وخافوا أن تغرق بهم. فاقْتَرَعُوا علىٰ رجلٍ يلقونه مِن بينهم يتخفَّفون منه، فوَقَعَت القرعةُ علىٰ يونس، فأبَوْا أن يلقوه، ثم أعادوا القُرْعَة فوقعت عليه أيضًا، فأبَوْا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤١]، أي: وقعت عليه القرعة، فقام يونس عليه السلام وتجرَّد مِن ثيابِهِ، ثم ألقىٰ نفسَهُ في البحر، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى من البحر الأخضر -فيما قاله ابن مسعود- حوتًا يشقُّ البحار، حتىٰ جاء فالتقم يونس حين ألقىٰ نفسه من السَّفينة، فأوحىٰ الله إلىٰ ذلك الحوت ألا تأكل له لحمًا، ولا تهشم له عظمًا؛ فإن يونس ليس لك [رزقًا][٤]، وإنَّما بطنك له يكون سجنًا.

وقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يعني: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النِّسبة.

وقوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾: قال الضَّحَّاك: لقومه.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: [نضيِّق عليه في بطن الحُوت، يُروَىٰ نحو هذا عن ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق:٧].

وقال عطيَّة العَوفي: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، أي:][٥] نقضي عليهِ، كأنَّه جعل ذلك بمعنىٰ التقدير، فإنَّ العرب تقول: قدَر وقدَّر بمعنًىٰ واحدٍ، وقال الشاعر:

---

(١) لوحة (٢٨٣ أ). (٢) الحُمْلان: جمع حَمَل، وهو الخروف.

(٣) لجحت السفينة: خاضت اللجة، ولجة البحر: حيث لا يدرك قعره.

(٤) ليست في (ز). (٥) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

فَـلَا عَائِـدٌ ذَاكَ الزَّمَـانُ الَّـذِي مَـضَى   تَبَارَكْـتَ(١) مَـا تَقْـدِرْ يَكُـنْ، فَلَـكَ الأَمْـرُ

ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أي: قُدِّر.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال ابن مسعودٍ: ظلمة بَطْنِ الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روي عن ابن عبَّاس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جُبَير، ومحمَّد بن كعب، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة.

وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمةُ حُوت في بطن حوت، في ظلمة البحر.

قال ابن مسعود، وابنُ عبَّاس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوتُ في البحار يَشُقُّها، حتىٰ انتهىٰ به إلىٰ قَرارِ البحر، فسمع يونسُ تسبيح الحصىٰ في قراره، فعند ذلك وهنالكَ قال: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ﴾.

وقال عوف: لما صار يونس في بطن الحوت، ظنَّ أنَّه قد مات، ثم حرَّك رجليه فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادىٰ: يا رب، اتخذت لك مسجدًا في موضعٍ ما اتَّخذه أحدٌ.

وقال سعيد بن أبي الحسن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يومًا. رواهما ابن جبير.

وقال محمَّد بن إسحاق بن يَسَار، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع -مولىٰ أم سلمة- سمعتُ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أَرَادَ اللهُ حَبْسَ يُونُسَ فِي بَطْنِ الحُوتِ، أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ الحُوتِ أَنْ خُذْهُ، وَلَا تَخْدِشْ لَحْمًا وَلَا تَكْسِرْ عَظْمًا، فَلَمَّا انْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ أَسْفَلِ البَحْرِ، سَمِعَ يُونُسُ حِسًّا، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا هَذَا؟ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: إِنَّ هَذَا تَسْبِيحُ دَوَابِّ البَحْرِ. قَالَ: فَسَبَّحَ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ، فَسَمِعَ المَلَائِكَةُ تَسْبِيحَهُ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا، إِنَّا نَسْمَعُ صَوْتًا ضَعِيفًا بِأَرْضٍ غَرِيبَةٍ قَالَ: ذَلِكَ عَبْدِي يُونُسُ، عَصَانِي فَحَبَسْتُهُ فِي بَطْنِ الحُوتِ فِي البَحْرِ. قَالُوا: العَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ إِلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ؟. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَشَفَعُوا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَمَرَ الحُوتَ فَقَذَفَهُ فِي السَّاحِلِ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾» [الصافات: ١٤٥](٢).

ورواه ابن جرير، ورواه البزار في «مسنده»، من طريق محمَّد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروىٰ عن النَّبيِّ ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وروىٰ ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مرَّة، عن عبد الله بن سَلِمَة، عن علي مرفوعًا: «لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ؛ سَبَّحَ للهِ فِي الظُّلُمَاتِ»(٣).

---

(١) في (ز): (تبارك)، والذي في «القرطبي» وغيره: (تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٧/ ٨١)، والبزَّار (٢٢٥٤) وفيه محمَّد بن إسحاق: مدلِّس وقد عنعن، وفيه رجل مجهول، وشيخ الطَّبري وهو محمَّد بن خميس الرَّازي: ضعيف.

(٣) البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة وليس فيها قوله: «سَبَّحَ لله فِي الظُّلُمَاتِ». وهذه الزيادة =

وقد روي هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حديث ابن عبَّاس، وابن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وسيأتي أسانيدها في سورة «ن».

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب، حدَّثنا عمي: حدَّثني أبو صخر: أن يزيد الرقاشي حدثه قال: سمعت أنس بن مالك -ولا أعلم إلا أن أنسًا يرفع الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ- أن يونس النَّبيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللَّهُمَّ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَقْبَلَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ تَحُفُّ بِالعَرْشِ، فَقَالَتِ المَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، صَوْتٌ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ مِنْ بِلَادٍ غَرِيبَةٍ؟ فَقَالَ: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَاكَ؟ قَالُوا: لَا يَا رَبِّ، وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: عَبْدِي يُونُسُ. قَالُوا: عَبْدُكَ يُونُسُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ مُتَقَبَّلٌ، وَدَعْوَةٌ مُجَابَةٌ؟. قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: يَا رَبِّ، أَوَلَا تَرْحَمُ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرَّخَاءِ فَتُنَجِّيَهُ مِنَ البَلَاءِ؟ قَالَ: بَلَىٰ. فَأَمَرَ الحُوتَ فَطَرَحَهُ فِي العَرَاءِ»[(١)].

وقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدُّعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الأنبياء.

قال الإمام أحمد:

حدَّثنا إسماعيل بن عُمَر، حدَّثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني، حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد بن سعد، حدَّثني والدي محمَّد، عن أبيه سعد -وهو ابن أبي وقاص- قال: مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينَيْه مني ثم لم يَردُدْ عليَّ السَّلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررتُ بعثمان آنفًا في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يَرْدُد علي السلام. قال: فأرسل عمر إلىٰ عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رَددت علىٰ أخيك السَّلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعد: قلتُ: بلىٰ حتىٰ حلفَ وحلفتُ، قال: ثم إن عثمان ذكرَ فقال: بلىٰ، وأستَغْفِرُ اللهَ وأتوب إليه، إنَّك مررت بي آنفًا وأنا أحدِّث نفسي بكلمةٍ سمعتُها من رسولِ الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغْشَىٰ بصري وقلبي غشَاوةٌ. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا [أول دعوة][(٢)] ثم جاء أعرابيٌّ فشغله، حتىٰ قَام رسولُ الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلىٰ منزله ضربت

= عزاها السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٦٦٨) إلىٰ ابن أبي شيبة (١١/ ٥٤٠) وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر، وفي الإسناد عبد الله بن سَلِمَة: صدوق تغيَّر حفظه، وبقيَّة رجاله ثقات.

(١) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشِّدَّة» (٣٢)، وعزاه السُّيوطي إلىٰ ابن مردويه.

(٢) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

بقدمي الأرض، فالتفت إليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «مَنْ هَذَا؟ أَبُو إِسْحَاقَ[(١)]؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فَمَهْ[(٢)]؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرتَ لنا أول دعوةٍ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: «نَعَمْ، دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ».

ورواه الترمذي، والنسائي في «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمَّد بن سعد[(٣)]، عن أبيه، عن سعد به[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن كَثِير بن زيد، عن المطلب بن حنطب -قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب -يعني: ابن سعد- عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُونُسَ، اسْتُجِيبَ لَهُ». قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٥)].

وقال[(٦)] ابن جرير: حدَّثني عمران بن بَكّار الكَلاعي، حدَّثنا يحيىٰ بن صالح، حدَّثنا أبو يحيىٰ بن عبد الرحمن، حدَّثني بِشْر بن منصور، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد ابن مالك -وهو ابن أبي وقاص- يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «اسْمُ اللهِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ، دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ». قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هِيَ لِيُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ خَاصَّةً وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً، إِذَا دَعَوْا بِهَا، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللهِ عَجَلَّ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[(٧)]. فهو شرط من الله لمن دعاه به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي سُرَيج[(٨)]، حدَّثنا داود بن المُحَبَّر بن قَحْذَم المقدسي[(٩)]، عن كثير بن معبد[(١٠)] قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ

---

(١) هي كُنية سعد بن أبي وقاص ﷺ. (٢) أي: فماذا تريد؟

(٣) في (ز): (سعيد)، والمثبت كما في «الترمذي»، وهو الصواب.

(٤) حسن: رواه أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٤٩١).

(٥) رواه الحاكم (٢/ ٥٨٤)، وابن عدي (٦/ ٢٠٨٩)، فيه المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب: صدوق كثيرُ التَّدليس والإرسال (انظر التقريب - ترجمة (٦٧١٠)، وانظر ترجمته في تهذيب الكمال ٢٨/ ٨٣). ولكن الحديث شاهد للحديث السابق.

(٦) لوحة (٢٨٤ ب).

(٧) إسناده ضعيف: رواه ابن جرير (١٧/ ٨٢)، وفيه علي بن زيد: ضعيف، ويكفي في الاحتجاج بهذه الدَّعوة ما تقدَّم.

(٨) في (ز): (أبي شريح)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم»، وهو أحمد بن أبي سريج عمر بن الصباح الرازي: ثقة. «السير» (٢٢/ ١٧٠).

(٩) في (ز): (القرشي)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم»، والذي في ترجمته أنه طائي، ويقال: ثقفي بكراوي بصري، وانظر: «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٢٠).

(١٠) كذا في (ز) و«ابن أبي حاتم»، وفي «الميزان» وغيره: (كثير بن معبد القيسي) ضعفه الأزدي، ولا يكاد يعرف.

به أجاب، وإذا سُئِل به أعطىٰ؟ قال: ابنَ أخي، أما تقرأ القرآن؟ قول الله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطىٰ.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن عبده زكريَّا، حين طلب أن يَهبَه اللهُ ولدًا، يكون من بعده نبيًّا. وقد تقدَّمت القصَّة مبسوطةً في أول سورة «مريم»، وفي سورة «آل عمران» أيضًا، وهاهنا أخصر منهما؛ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أي: لا ولدَ لي ولا وارثَ يقوم بعدي في النَّاس، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ دعاءٌ وثناءٌ مناسبٌ للمسألة.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي: امرأته.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: كانت عاقرًا لا تَلِدُ، فولدت.

وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان في لِسَانِها طولٌ فأصلحها الله. وفي روايةٍ: كان في خَلْقِها شيء فأصلحها الله. وهكذا قال محمَّد بن كعب، والسُّدِّي. والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في عمل القُرُبات وفعل الطَّاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: ﴿رَغَبًا﴾ فيما عندنا، ﴿وَرَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا[(١)] خَٰشِعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: أي مصدقين بما أنزل الله.

وقال مجاهد: مؤمنين[(٢)] حقًّا. وقال أبو العالية: خائفِينَ. وقال أبو سِنَان: الخشوع هو الخوف اللَّازم للقلب، لا يفارقه أبدًا. وعن مجاهد أيضًا ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي: متَوَاضِعِين. وقال الحسن، وقتادة، والضَّحَّاك: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي: متذَلِّلين لله ﷻ.

وكلُّ هذه الأقوال متقاربة. وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمَّد الطَّنَافِسيُّ، حدَّثنا محمَّد بن فضيل، حدَّثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن[(٣)] عبد الله القرشي، عن عبد[(٤)] الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أما بعدُ، فإنِّي أوصيكم بتقوىٰ الله، وتُثنُوا عليه بما هو له

---

(١) لوحة (٢٨٥ أ). (٢) في (ز): (من سر حقا).

(٣) كذا في (ز) وهو الصواب، والذي في «ابن أبي حاتم» وبعض المطبوعات: (بن عبد الله) وهو خطأ، وانظر: «الجرح والتعديل» (٥/ ٢١٣).

(٤) في (ز): (عن عبيد الله)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم» وهو الصواب.

أهل، وتخلطوا الرَّغبة بالرَّهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله ﷻ أثنىٰ علىٰ زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (١).

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

هكذا قَرَن تعالىٰ قصة مريم وابنها عيسىٰ ﷺ بقصَّة زكريا وابنه يحيىٰ -عليهما السلام- فيذكر أولًا قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأنَّ تلك مُوطِّئة لهذه، فإنَّها إيجاد ولد مِن شيخ كبير قد طَعَن في السِّن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تَلِد في حال شبابها، ثم يذكر قصَّة مريم وهي أعجب، فإنَّها إيجاد ولد مِن أنثىٰ بلا ذكر. هكذا وقع في سورة «آل عمران»، وفي سورة «مريم»، وهاهنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، فقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: مريم -عليها السلام- كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم:١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دِلالة علىٰ أنَّ الله علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه يخلق ما يشاء، و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عَمْرو بن علي، حدَّثنا أبو عاصم الضَّحَّاك بن مَخْلَد، عن شَبِيب -يعني ابن بشر(٢)- عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ، في قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين: الجن والإنس.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله(٣): ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: دينكم دينٌ واحدٌ.

وقال الحسن البصري؛ في هذه الآية: بيَّن لهم ما يتقون وما يأْتُون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ [أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي:](٤) سنتكم سنَّة واحدةٌ. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ إنَّ واسمها، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾: خبر إن؛ أي: هذه

---

(١) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأحمد (٢/ ٣١٩).

(٢) في (ز): (شعيب يعني ابن بشير)، والمثبت موافق لما في «الطبري»، ولم أجده في «ابن أبي حاتم» بهذا الإسناد وإنما وجدته بإسناد آخر، وانظر: «الجرح والتعديل» (٤/ ٣٥٧).

(٣) لوحة (٢٨٥ ب). (٤) ليست في (ز).

شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ نصب[1] على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ»[2]؛ يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائعَ متنوعة لرسله، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمِن بينِ مُصدِّقٍ لهم ومكذِّبٍ؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازَىٰ كلٌّ بحسب عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: قلبه مصدق، وعمل عملًا صالحًا، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠] أي: لا يُكْفر سعيُه، وهو عمله، بل [يُشْكر][3]، فلا يظلم مثقال ذرةٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: يُكتب جميعُ عمله، فلا يَضِيع عليه منه شيءٌ.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عبَّاس: وجب؛ يعني: قدرًا مُقدرًا أن أهل كل قريةٍ أهلكوا أنَّهم لا يرجعون إلىٰ الدُّنيا قبل يوم القيامة. هكذا صرَّح به ابن عبَّاس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة، وغير واحدٍ. وفي رواية عن ابن عبَّاس: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: [لا][4] يتوبون. والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قد قدمنا أنهم من سلالة آدم ﷺ بل هم من نسلِ نوحٍ أيضًا من أولاد يافث أبي التُّرك، والتُّرك شرذمةٌ منهم، تركوا من وراء السَّدِّ الذي بناه ذو القرنين.

وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:٩٨، ٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي: يسرعون في المشي إلىٰ الفساد.

---

(١) في (ز): (نعت).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم (١٤٣، ١٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا بنحوه.
(٣) بياض بـ(ز).
(٤) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

والحَدَب: هو المرتفع[1] من الأرض، قاله ابنُ عبَّاس، وعكرمة، وأبو صالح، والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السَّموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن مثنىٰ، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن عُبَيد[2] الله بن أبي يزيد قال: رأىٰ ابنُ عبَّاسٍ صبيانًا ينزو بعضهم علىٰ بعضٍ، يلعبون، فقال ابن عبَّاس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج[3].

وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية:

فالحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة، عن محمود بن لَبيد، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فَيَغْشَوْنَ النَّاسَ، وَيَنْحَازُ المُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَىٰ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الأَرْضِ، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهرِ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّىٰ يَتْرُكُوهُ يَبَسًا، حَتَّىٰ إِنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهرِ فَيَقُولُ: قَدْ كَانَ هَاهُنَا مَاءٌ مَرَّةً، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ قَالَ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الأَرْضِ، قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ. قَالَ: ثُمَّ يَهُزُّ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ، ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْتَضِبَةً دَمًا؛ لِلْبَلَاءِ وَالفِتْنَةِ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ ﷻ دُودًا فِي أَعْنَاقِهِمْ كَنَغَفِ الجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِ، فَيُصْبِحُونَ مَوْتَىٰ لا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ، فَيَقُولُ المُسْلِمُونَ: أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي[4] لَنَا نَفْسَهُ، فَيَنْظُرَ مَا فَعَلَ هَذَا العَدُوُّ؟ قَالَ: فَيَتَجَرَّدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ، قَدْ أَوْطَنَهَا عَلَىٰ أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَىٰ، بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَيُنَادِي: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أَلَا أَبْشِرُوا، إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَمَا يَكُونُ لَهَا رَعْيٌ إِلَّا لُحُومَهُمْ، فَتَشْكَرُ عَنْهُ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرَتْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطُّ»[5].

ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق به.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا الوليد بن مسلم أبو العبَّاس الدمشقي، حدَّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدَّثني يحيىٰ بن جابر الطائي -قاضي حمص- حدَّثني عبد الرحمن

---

(١) لوحة (٢٨٦ أ).

(٢) في (ز): (عبد الله)، والمثبت كما في «الطبري»، وانظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٥/ ٣٣٧).

(٣) رواه الطبري (١٧/ ٨٩)، وفيه من لم يسمَّ.

(٤) أي: يبيعها لله ﷻ، وكلمة (يشري) من الأضداد.

(٥) حسن: رواه أحمد (٣/ ٧٧)، وابن ماجة (٤٠٧٩)، والحاكم (٢/ ٢٤٥)، وابن حبَّان (٦٨٣٠)، وقد صرَّح ابن إسحاق بالتَّحديث في بعضِ الطُّرق.

وله شاهد من حديث أبي هريرة، رواه ابن ماجة (٤٠٨٠)، والتِّرمذي (٣١٥٣) وغيرهما.

ابن جُبَير بن نُفَير الحضرمي، عن أبيه، أنه سمع النَّوَّاس بن سمْعانَ الكلابي [(١)] قال: ذكر رسول الله ﷺ الدَّجَّال ذات غداةٍ، فخفَض فيه ورفَع [(٢)]، حتىٰ ظنَنَّاه في [طائفة النَّخل، فلما رُحْنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدَّجَّال الغداةَ، فخفضت فيه ورفعت حتىٰ ظنناه] [(٣)] في طائفة النخل [(٤)]. فقال: «غَيْرَ الدَّجَّالِ أخوف مني عَلَيْكُمْ، فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ: إِنَّهُ شَابٌّ جَعْدٌ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ خَلَّةً [(٥)] بَيْنَ الشَّامِ وَالعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَشِمَالًا يَا عِبَادَ اللهِ اثْبُتُوا».

قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: «أَرْبَعِينَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم وليلةٍ؟ قال: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قلنا: يا رسول الله، فما إسراعه في الأرض؟ قال: «كَالغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ». قال: «فَيَمُرُّ بِالحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، وَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ وَهِيَ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرًىٰ، وَأَمَدُّهُ خَوَاصِرَ، وَأَسْبَغُهُ ضُرُوعًا. وَيَمُرُّ بِالحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَتْبَعُهُ أَمْوَالُهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ. وَيَمُرُّ بِالخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ». قال: «وَيَأْمُرُ بِرَجُلٍ فَيُقْتَلُ، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ إِلَيْهِ [يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ] [(٦)]، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللهُ ﷻ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ، شَرْقِيِّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَىٰ أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، فَيَتْبَعُهُ فَيُدْرِكُهُ، فَيَقْتُلُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ الشَّرْقِيِّ».

قال: «فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ أَوْحَىٰ اللهُ ﷻ إِلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ: أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا مِنْ عِبَادِي لَا يَدَانِ لَكَ بِقِتَالِهِمْ، فَحَوِّزْ [(٧)] عِبَادِي إِلَىٰ الطُّورِ، فَيَبْعَثُ اللهُ ﷻ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فَيَرْغَبُ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ ﷻ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ [(٨)]، كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَيَهْبِطُ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ فَلَا يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ بَيْتًا إِلَّا قَدْ مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ» قال ابن جابر فحدَّثني عطاء بن يزيد السَّكْسَكيّ، عن كعبٍ -أو غيره- قال: فتطرحهم بالمَهْبِل [(٩)].

---

(١) لوحة (٢٨٦ ب).

(٢) أي: بالغ في تقريبه، واستعمل فيه كل فن من خفض للصوت ورفع.

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٤) في (ز): (ناحية المسجد)، والمثبت كما في «المسند».

(٥) أي: في طريق بينهما.

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٧) أي: نحهم وأزلهم عن طريقهم إلىٰ الطور، ولفظ مسلم: (فحرز).

(٨) في (ز): (موتىٰ)، والمثبت كما في «المسند».

(٩) في (ز): (المهل)، والمثبت كما في «المسند».

[قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المَهْبِل(١)؟](٢) قال: مطلع الشمس. قال: «وَيُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كَالزَّلَقَةِ(٣)، وَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ». قال: «فَيَوْمَئِذٍ يَأْكُلُ النَّفَرُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّىٰ إِنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ تَكْفِي الفَخِذَ(٤)، وَالشَّاةَ مِنَ الغَنَمِ تَكْفِي أَهْلَ البَيْتِ» قال: «فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللهُ ﷻ رِيحًا(٥) طَيِّبَةً تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسْلِمٍ -أو قال: كُلِّ مُؤْمِنٍ- وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الحَمِيرِ، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»(٦).

انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه مع بقية أهل السنن من طرق، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن بشر، حدَّثنا محمَّد بن عمرو، [عن](٧) ابن حَرْمَلَة، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عَقْرب، فقال: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: لا عَدُوَّ(٨)، وَإِنَّكُمْ لا تَزَالُونَ تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا، حَتَّىٰ يَأْتِيَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عِرَاضُ الوُجُوهِ، صِغَارُ العُيُونِ، صُهْبُ الشِّعَافِ(٩)، مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ(١٠) المُطْرَقَةُ»(١١).

وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمَّد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن حَرْمَلة المدلجي، عن خالةٍ له، عن النَّبيِّ ﷺ، فذكر مثله.

الحديث الرابع: قد تقدَّم في تفسير آخر سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن هُشَيْم، عن العَوَّام، عن جَبَلَة بن سُحَيْم، عن مُؤثر بن عَفَازَةَ(١٢)، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ، عَلَيْهِمُ السَّلَامَ، قَالَ: فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ، فَرَدُّوا

---

(١) **المَهْبِل**: الهوة الذاهبة في الأرض.

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٣) لوحة (٢٨٧ أ).

(٤) **الفخذ**: الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، **والبطن**: دون القبيلة.

(٥) في (ز): (الحاطية)، والمثبت كما في «المسند».

(٦) مسلم (٢١٣٧)، وأحمد (٤/ ١٨١)، وأبو داود (٤٣٢١)، والتِّرمذي (٢٢٤٠) والنسائي في «الكبرىٰ» (١٢٧٨٣)، وابن ماجة (٤٠٧٥).

(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٨) في (ز): (لا عدو لكم)، والمثبت كما في «المسند».

(٩) **صهب الشعاف**: أي صهب الشعور، **والصهبة**: الشقرة.

(١٠) **المجان**: جمع مِجَن، وهو: الترس الذي يلبسه المحارب، سمي بذلك لأنَّه يجنه ويستره ويقيه من عدوه، وترس مطرق: ما يكون بين جلدين، أحدهما فوق الآخر، ومنه: طارق النعل: إذا صيرها طاقًا فوق طاق، وركَّب بعضها علىٰ بعض، أراد: أنهم عراض الوجوه غلاظها.

(١١) **ضعيف**: رواه أحمد (٥/ ٢١٧): وفي إسناده خالد بن عبد الله بن حرملة: مقبول، وكان يُرْسِل.

(١٢) في (ز): (عفان)، والمثبت كما في «المسند».

أَمْرَهُمْ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ عِيسَىٰ، فَقَالَ: أَمَّا وَجْبَتُهَا[١] فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَمِمَّا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ»، قال: «وَمَعِي قَضِيبَانِ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ» قال: «فَيُهْلِكُهُ اللهُ إِذَا رَآنِي، حَتَّىٰ إِنَّ الحَجَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ: يَا مُسْلِمُ إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ». قال: «فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ». قال: «فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطَئُونَ بِلَادَهُمْ، لَا يَأْتُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ، وَلَا يَمُرُّونَ عَلَىٰ مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ». قال: «ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ [إِلَيَّ][٢] يَشْكُونَهُمْ، فَأَدْعُو اللهَ عَلَيْهِمْ، فَيُهْلِكُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ، حَتَّىٰ تَجْوَىٰ الأَرْضُ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِمْ، وَيُنْزِلُ اللهُ المَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ، حَتَّىٰ يَقْذِفَهُمْ فِي البَحْرِ. فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، أَنَّ السَّاعَةَ كَالحَامِلِ المُتِمِّ، لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَىٰ تَفْجَؤُهُمْ بِوِلَادِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»[٣].

ورواه[٤] ابن ماجه، عن محمَّد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العَوَّام بن حَوْشَب به، نحوه وزاد: قال العَوَّام، ووجد تصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾. ورواه ابن جرير هاهنا من حديث جبلة به.

والأحاديث في هذا كثيرةٌ جدًّا، والآثار عن السَّلفِ كذلك.

وقد روىٰ ابنُ جريرٍ وابن أبي حاتم، من حديث مَعْمَرٍ، عن غير واحدٍ، عن حميد بن هلال، عن أبي الصَّيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوجَ ومأجوجَ، حفروا حتىٰ يسمع الَّذِين يلونَهُم قرعَ فُئُوسِهِم، فإذا كان اللَّيل قالوا: نَجِيءُ غدًا فنخرج، فيُعِيدُه الله كما كان. فيَجِيئُون من الغدِ فيَجِدُونَه قد أعاده الله كما كَانَ، فيحفرونه حتىٰ يسمع الَّذِين يَلُونَهُم قرعَ فُئُوسِهِم، فإذا كان اللَّيل ألقىٰ الله علىٰ لسانِ رجلٍ منهم يقول: نجيء غدًا فنخرج إن شاء الله. فيَجِيئُون من الغد فيجدُونَه كما تركوه، فيَحْفُرُون حتىٰ يخرجوا. فتمرُّ الزُّمرة الأولىٰ بالبُحَيْرَةِ، فيشربون ماءَها، ثم تمرُّ الزُّمرةُ الثَّانية فيلحسُون طينها، ثم تمرُّ الزُّمرة الثَّالثة فيقولون: قد كانَ هاهنا مرَّة ماءٌ، ويفرُّ النَّاس منهم، فلا يقوم لهم شيءٌ. ثم يَرْمُون بسِهَامِهِم إلىٰ السَّماء فتَرْجِع مُخضَّبةً[٥] بالدِّماء فيقولون: غَلَبْنا أهل الأرضِ وأهل السَّماء. فيدعو عليهم عيسىٰ ابن مريم عليه السلام فيقول: «اللَّهمَّ، لا طاقةَ ولا يَدَين لنا بِهِم، فاكفناهم بما شئتَ»، فيسلط الله عليهم دُودًا يقال له: النَّغف، فيَفْرِس[٦] رقابهم، ويبعث الله عليهم

---

(١) في (ز): (أما وجهها)، والمثبت كما في «المسند». (٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٣) حسن: تقدم عند تفسير الآيات (١٥٥ - ١٥٩) من سورة النساء.

(٤) لوحة (٢٨٧ ب).

(٥) كذا في (ز)، والذي في الطبعات السابقة: (فترجع إليهم مخضبة)، وما في (ز) هو الموافق لـ«الطبري» و«ابن أبي حاتم» وغيرهما من الأصول.

(٦) أي: يكسر أعناقهم.

طيرًا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البَحْر، ويبعث الله عينًا يقال لها: «الحياة» يطهر الله الأرض ويُنْبِتُها، حتىٰ إنَّ الرُّمَّانة ليشبع منها السَّكْن. قيل: وما السَّكْن يا كعب؟ قال: أهل البيت -قال: فبينما النَّاس كذلك إذ أتاهم الصَّريخ أَن ذَا السُّويقَتَين [(١)] يُرِيدُه. قال: فيبعث عيسىٰ ابن مريم طليعةً سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتىٰ إذا كانوا ببعض الطَّريق بعث الله ريحًا يمانيةً طيبةً، فيقبض فيها روح كل مؤمنٍ، ثم يبقىٰ عَجَاج [(٢)] النَّاس، فيَتَسافَدُون [(٣)] كما تَسَافَدُ البهائم، فَمَثل السَّاعة كمثل رجل يطيف حول فرسه [ينتظرها] [(٤)] متىٰ تضع؟ قال كعب: فمن [تكلَّف] [(٥)] بعد قولي هذا شيئًا -أو بعد علمي هذا شيئًا- فهو المتكلِّف [(٦)].

هذا مِن أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شهد له مِن صحيح الأخبار.

وقد ثبت في الحديث أن عيسىٰ ابن مريم يحج البيت العتيق، وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سليمان ابن داود، حدَّثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله [(٧)] بن أبي عُتْبَةَ، عن أبي سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيُحَجَّنَّ هَذَا البَيْت، وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ». انفرد بإخراجه البخاري [(٨)].

وقوله: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: يوم القيامة، إذا وُجِدَت هذه الأهوال والزَّلازل والبلابل، أَزِفَت السَّاعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر:٨]. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: من شدَّةِ ما يُشاهِدُونه من الأمور العظام: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي: يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: في الدنيا، ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذَلِكَ.

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ
١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ
وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا لأهلِ مكَّة من مشركي قريش، ومن دَان بدِينِهم مِن عَبَدَةِ الأصنام والأوثَانِ:

---

(١) السويقة: تصغير الساق، وهي مؤنثة، ولهذا ظهرت التاء في تصغيرها، وفي الحديث أنه: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»، وإنما صَغَّر الساق لأنَّ الغالبَ علىٰ سُوق الحبَشة الدِّقة والحُموشَة.

(٢) العجاج: الغوغاء والأراذل ومن لا خير فيه. (٣) السفاد: نزو الذكر علىٰ الأنثىٰ.

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري». (٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٦) رواه الطبري (١٧/ ٨٩)، وفيه من لم يسمَّ، وهو روايةُ كعب الأحبَارِ.

(٧) لوحة (٢٨٨ أ). (٨) البخاري (١٥٩٣)، وأحمد (٣/ ٢٧).

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال ابن عبَّاس: أي وقودها؛ يعني كقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

وقال ابن عبَّاس أيضًا: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى: شجَرُ جهنَّم. وفي روايةٍ قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني: حطَبُ جهنَّم، بالزِّنجيَّة. وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حطبها. وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهما[١]. وقال الضَّحَّاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يُرْمَىٰ به فيها. وكذا قال غيره، والجميع قريب.

وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: داخلون.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتَّخذتموها من دُونِ الله آلهةً صحيحةً لما وَرَدُوا النَّار، ولما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: العابدون ومعبودَاتِهم، كلُّهم فِيهَا خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦]، والزَّفير: خُرُوجُ أنفاسِهِم، والشَّهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمَّد الطَّنَافِسيُّ، حدَّثنا ابن فُضَيْل، حدَّثنا عبد الرحمن -يعني: المسعودي- عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقي مَن يخلد في النار، جُعلوا في توابيت من نارٍ، فيها مساميرُ مِن نارٍ، فلا يَرَىٰ أحدٌ منهم أنَّه يعذب في النَّار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث حجاج بن محمَّد، عن المسعودي، عن يونس بن خَبَّاب[٢]، عن ابن مسعود فذكره[٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: قال عكرمة: الرَّحمة.

وقال غيره: السعادة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لما ذكر تعالىٰ أهلَ النَّارِ وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بِذِكْر السُّعَداء من المؤمنين بالله ورُسُله، وهم الَّذِين سبقَتْ لهم مِن الله السَّعادة، وأَسْلَفُوا الأعمال

---

(١) قراءة: قَرَأَ (حَطَبُ) عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (حَصَبُ). (٢) لوحة (٢٨٨ ب).

(٣) ورواه الطبري (١٧/ ٩٥) من طريق حجاج عن المسعودي -يعني عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي- عن يونس ابن خبَّاب به. والمسعودي قد اختلط، ولا يدرئ هل روىٰ عنه حجَّاج قبل الاختلاط أم بعده.
ورواه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٩٧) من طريق إبراهيم بن الحسين ثنا آدم بن أبي إياس المسعودي (هكذا) ولعلَّ صوابَهُ (عن المسعودي).
ورواه الطَّبراني في «الكبير» (٩/ ٢٥٥/ ٩٠٨٧)، وفيه يحيىٰ الحمَّاني: ضعيف، واتهموه بسرقة الحديث، وفيه رجل لم يسمَّ.
والأثر زاد عزوه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٦٨١) إلىٰ عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «صفة النَّار» والطبراني، وله شاهد عن البراء رواه البيهقي في «البعث» (٥٣٩)، وبالجملة فالأثر عندي حسن لغيره، والله أعلم.

الصَّالحة في الدُّنيا، كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، فكما أحسَنُوا العمل في الدُّنيا، أحسن الله مآلَهم وثوابَهم، فنجَّاهم من العَذَاب، وحَصَل لهم جَزِيلُ الثَّواب، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي: النار ﴿مُبْعَدُونَ ١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حريقها في الأجسَادِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن عمار، حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن أبيه، عن الجريري(١)، عن أبي عثمان: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: حيَّاتٌ علىٰ الصراط تلسَعُهُم، فإذا لَسَعَتْهُم قال: حَسِّ حَسِّ(٢).

وقوله: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ فسَلَّمَهُم من المحذُورِ والمرْهُوب، وحصل لهم المطلُوب والمحبُوب.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي سُرَيج، حدَّثنا محمَّد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن ليث بن أبي سليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال -وسَمَرَ مع عليٍّ ذات ليلةٍ، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزُّبير منهم، وطلحةُ منهم، وعبدُ الرحمن منهم -أو قال: سعد منهم- قال: وأُقِيمَت الصلاة فقام، وأظنُّه يجرُّ ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾(٣).

وقال شعبة، عن أبي بشر، عن يوسف المكي، عن محمَّد بن حاطبٍ قال: سمعت عليًّا يقول في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قال: عُثْمان وأصحابه(٤).

ورواه ابن أبي حاتم أيضًا، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد -وليس بابن ماهك- عن محمَّد بن حاطب، عن عليٍّ، فذكره ولفظه: عثمان منهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: فأولئك أولياء الله يمرُّون علىٰ الصِّراط مرًّا هو أسرع من البَرْق، ويبقىٰ الكفَّار فيها جِثِيًّا.

فهذا مطابقٌ لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناءً مِن المعبودين، وخرج منهم عُزَير والمسيح،

---

(١) في (ز): (أبي عثمان الحريري)، والجريري هو أبو مسعود سعيد الجريري، أو هو أبو محمد عباس الجريري وكلاهما يروي عن أبي عثمان النهدي، وانظر: «تهذيب الكمال» (١٠/ ٣٣١).

(٢) حَسِّ: كلمة يقولُها الإنسان إذا أصابه ما مَضَّه وأحْرَقَه غَفْلَة، كالجَمْرة والضَّرْبة ونحوهما. «النهاية».

(٣) ضعيف: في الإسناد ليث بن أبي سليم، أدخل في حديثه ما ليس فيها فلم تتميَّز فتُرِك، وفي الإسناد ابن عم النعمان بن بشير لم أعرفه، والأثر ثبتَ بسياقٍ آخر أصحُ وهو الآتي.

(٤) صحيح: رواه الطبري (١٧/ ٩٦)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٥١)، وعزاه السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٦٨١ - ٦٨٢) إلىٰ ابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

قلت: ورواه أحمد في «فضائل الصحابة» (٧٧١)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٢٥).

كما قال حجّاج بن محمّد الأعور، عن [ابن][(١)] جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عبّاس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنىٰ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ فيقال: هُم الملائكة، وعيسىٰ، ونحو ذلك مما يعبد من[(٢)] دون الله ﷻ[(٣)]. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: نزلت في عيسىٰ ابن مريم وعُزَير -عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا الحسين بن عيسىٰ بن مَيْسَرَة، حدَّثنا أبو زُهَير، حدَّثنا سعد بن طَرِيف، عن الأصبغ، عن عَليّ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: كل شيء يعبد مِن دُونِ الله في النَّار إلا الشَّمس والقَمَر وعيسىٰ ابن مريم[(٤)]. إسناده ضعيف.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، قال: عيسىٰ، وعُزَيْر، والملائكة.

وقال الضَّحَّاك: عيسىٰ، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا روي عن سعيد بن جُبَيْر، وأبي صالحٍ وغير واحدٍ.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم في ذلك حديثًا غريبًا جدًّا، فقال: حدَّثنا الفضل بن يعقوب الرُّخَاني، حدَّثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدَّثنا الليث بن أبي سليم، عن مُغيث، عن أبي هريرة، عن النَّبيّ ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: عيسىٰ، وعُزَير، والملائكة[(٥)].

وذكر بعضهم قصة ابن الزِّبَعْرَىٰ ومناظرةَ المشركين، قال أبو بكر بن مَرْدويه:

حدَّثنا محمَّد بن علي [بن][(٦)] سهل، حدَّثنا محمَّد بن حسن الأنماطي، حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد ابن عَرْعَرَةَ، حدَّثنا يزيد بن أبي حكيم، حدَّثنا الحكم -يعني: ابن أبان- عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: جاء عبد الله بن الزِّبعرىٰ إلىٰ النَّبيّ ﷺ فقال: تزعم أنَّ الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، فقال ابن الزبعرىٰ: قد عُبِدَت الشَّمس والقَمَر والملائكة، وعُزَير وعيسىٰ ابن مريم، كل هؤلاء في النَّار مع آلهتنا؟ فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٨٩ أ).
(٣) رجاله ثقات غير أنَّ الحجاج تغيَّر بآخره.
(٤) **ضعيف جدًّا**: في إسناده سعد بن طريف، قال الحافظ: متروك، ورمَاهُ ابن حبَّان بالوضع.
(٥) **إسناده ضعيف**: فيه ليث بن أبي سليم: اختلط جدًّا ولم يتميَّز حديثه فتُرِك، وسعيد بن سلمة الرَّاوي عنه: ضعيف.
(٦) في (ز): (حدثنا)، والصواب ما أثبتناه، وانظر: «تاريخ بغداد» (٣/ ٨٥).

رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه «الأحاديث المختارة»[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا قَبِيصة بن عقبة، حدَّثنا سفيان -يعني: الثوري- عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عبَّاس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال المشركون: فالملائكة، وعُزَير، وعيسىٰ يُعْبَدون من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، الآلهة التي يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢].

وروي عن أبي كُدَيْنَة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاسٍ مثل ذلك، وقال فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ[٣] أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٤].

وقال الإمام محمَّد بن إسحاق بن يسار[٥] رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «السيرة»: وجلس رسول الله -فيما بلغني- يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النَّضر بن الحارث حتىٰ جلس معهم، وفي المسجد غير واحدٍ من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلَّمه رسول الله ﷺ حتىٰ أفحمه، وتلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ السهمي حتىٰ جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرىٰ: واللهِ ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفًا ولا قعد[٦]، وقد زعم محمَّد أنَّا وما نعبدُ مِن آلهتنا هذه حَصَب جهنَّم. فقال عبد الله بن الزبعرىٰ: أما والله لو وجدته لَخصمته[٧]، فسلوا محمَّدًا: أكلُّ ما يُعْبَد مِن دُونِ الله في جهنَّم مع مَن عَبَده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرًا، والنَّصارىٰ تعبد عيسىٰ ابن مريم؟ فعجب الوَلِيد ومَن كان مَعَه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرىٰ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فَذُكر ذلك لرسولِ الله ﷺ، فقال: كل مَنْ أَحبَّ أن يُعْبَدَ من دُونِ الله فهو مع من عبده، إنهم إنَّما يَعبُدون الشياطين ومن أَمَرَتْهُم بعبادته. وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أي: عيسىٰ وعزير ومَن عُبِدُوا مِن الأحبار والرُّهبان، الَّذِين مَضَوْا علىٰ طَاعَة الله، فاتَّخذهم مَن يعبدهم من أهل الضَّلالة أربابًا

---

(١) حسن: رواه الحاكم (٢/ ٣٨٥)، وصحَّحه الحاكم وأقرَّه الذَّهبي وعزاه السُّيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٧٩) إلىٰ ابن مردويه والضياء في «المختارة».

(٢) حسن لغيره: رواه الطبري (١٧/ ٩٧)، والطَّحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ١٥/ ٩٨٥)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٢٥)، وطريقهم ضعيف؛ لأنَّه مِن طريق عطاء بن السَّائب وقد اختلط. وهي الرِّواية الآتية بعده، لكن رواية ابن أبي حاتم. رجالها ثقات إلَّا أنَّ فيها مَن لم يُسَمَّ وهم أصحاب الأعمش، وبه يقوىٰ الأثر، ويشهد له أيضًا الرِّواية السابقة.

(٣) لوحة (٢٨٩ ب). (٤) انظر التعليق قبل السابق.

(٥) رواه ابن هشام في «السيرة» (١/ ٣٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٠٦)، وإسناده مرسل.

(٦) هذا كناية عن إفحام رسول الله ﷺ للنضر، وأنه لم تكن له مع الرسول محاولة، بل استسلم غاية الاستسلام.

(٧) أي: لغلَبْته في الخصومة وكنْت صاحب الحجة عليه.

من دون الله. ونزل فيما يذكرون، أنَّهم يعبدون الملائكة، وأنَّهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٢٦ -٢٩]، ونزل فيما ذُكر من: أمر عيسىٰ، وأنَّه يعبد من دون الله، وعَجَبِ الوليدِ ومن حَضَره مِن حُجَّتِه وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ[1] ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:٥٧ -٦١] أي: ما وضعت علىٰ يَدَيْه من الآيات من إحياء الموتىٰ وإبراء الأسقام، فكفىٰ به دليلًا علىٰ علم السَّاعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف:٦١].

وهذا الذي قاله ابن الزبعرىٰ خطأٌ كبيرٌ؛ لأن الآية إنَّما نزلت خطابًا لأهل مكَّة في عبادتهم الأصنام الَّتِي هي جمادٌ لا تعقل؛ ليكون ذلك تقريعًا وتوبيخًا لعَابِدِيهَا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فكيف يورد علىٰ هذا المَسِيح والعُزَيْر ونحوهما، ممن له عَمَلٌ صالحٌ، ولم يَرْضَ بعبادة من عبده. وعوّل ابن جرير في «تفسيره» في الجواب علىٰ أن «ما» لما لا يعقل عندَ العرب. وقد أسلم عبد الله بن الزبعرىٰ بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يُهَاجي المسلمين أولًا ثم قال معتذرًا:

يَا رَسُولَ المَلِيكِ، إنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ[2] مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الغَيْـ ... ـيِ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ[3]

وقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذَلِكَ: الموت. رواه عبد الرزَّاق، عن يحيىٰ ابن ربيعة عن عطاء. وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة في الصُّور. قاله العَوْفي عن ابن عبَّاس، وأبو سِنَان سعيد بن سنان الشَّيباني، واختاره ابن جرير في «تفسيره». وقيل: حين يُؤْمَر بالعبد إلىٰ النَّار. قاله الحسن البصري. وقيل: حين تُطبق النار علىٰ أهلها. قالَهُ سعيد بن جُبَيْر، وابن جُرَيج. وقيل: حين يُذبح الموت بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهذلي، فيما رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، يعني: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يومَ مَعَادِهِم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: قابلوا ما يسرُّكم.

---

(١) لوحة (٢٩٠ أ).
(٢) الرتق: الساد، تقول: رتقت الشيء، إذا سددته، والبور: الهالك.
(٣) المثبور: الهالك.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾

يقول تعالىٰ: هذا كائنٌ يوم القيامة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]

وقد قال البخاري: حدَّثنا مُقدم بن محمَّد، حدَّثني عمي القاسم بن يحيىٰ، [عن](١) عُبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «**إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرَضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ**»(٢). انفرد به من هذا الوجه(٣) البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن الحجاج الرَّقِّي، حدَّثنا محمَّد بن سلمة، عن أبي الواصل، عن أبي المليح الأزدي، عن أبي الجوزاء الأزدي، عن ابن عبَّاسٍ قال: يطوي الله السَّموات السَّبع بما فيها من الخليقة، والأرضين السَّبع بما فيها من الخليقة، يطوي ذلك كله بيمينه، يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة(٤).

وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قيل: المراد بالسِّجل [الكتاب. وقيل: المراد بالسجل](٥) هاهنا: مَلَك من الملائكة.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا محمَّد بن العلاء، حدَّثنا يحيىٰ بن يمان، حدَّثنا أبو الوفاء الأشجعي، عن أبيه، عن ابن عمر في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: السِّجل: مَلَك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نورًا(٦). وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْبٍ، عن ابن يمان به.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي جعفر(٧) محمَّد بن علي بن الحسين أنَّ السِّجل ملك. وقال السُّدِّي في هذه الآية: السِّجل: مَلَكٌ موكَّلٌ بالصُّحف، فإذا مَات الإنسانُ رُفِع كتابُه إلىٰ السِّجل فطواه، ورفعه إلىٰ يوم القيامة. وقيل: المراد به اسمُ رجلٍ صحابيٍّ، كان يكتب للنَّبيِّ ﷺ الوحي: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا نصر بن علي الجَهْضَميّ، حدَّثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن

---

(١) في (ز): (بن)، والمثبت كما في «البخاري».

(٢) رواه البخاري (٧٤١٢)، وانظر آخر سورة الزُّمر. (٣) لوحة (٢٩٠ ب).

(٤) في إسناده أبو الجَوْزَاء: ثقةٌ يُرْسِل كثيرًا، وفيه مَن لم أعرفهم لَكِن يكفي في الاحتجاج ما تقدَّم في الحديث السَّابق.

(٥) ليست في (ز).

(٦) ضعيف: رواه الطبري (١٧/ ٩٩)، وفيه يحيىٰ بن يمان، قال الحافظ: صدوقٌ عابدٌ يخطئ كثيرًا وقد تغيَّر.

(٧) في (ز): (أبي حفص)، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم».

عبَّاس: [﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: السجل: هو الرجل. قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب -هو العَوْذي- عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء عن ابن عبَّاسٍ][1] قال: السِّجل كاتب للنَّبيِّ ﷺ[2]. وهكذا رواه أبو داود والنسائي عن قتيبة بن سعيد، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عبَّاس، قال: السجل كاتب للنَّبيِّ ﷺ.

ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهضمي، كما تقدَّم. ورواه ابن عدي من رواية يحيىٰ بن عمرو بن مالك النُّكْريّ، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عبَّاس قال: كان للنَّبيِّ ﷺ كاتب يسمىٰ: السِّجل وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: كما يطوي السِّجل الكتاب، كذلك نَطْوِي السَّماء، ثم قال: وهو غير محفوظٍ[3].

وقال الخطيب البغدادي في «تاريخه»: أنبأنا أبو بكر البَرْقَاني، أنبأنا محمَّد بن محمَّد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حمدان بن سعيد حدَّثهُم، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السِّجل: كاتبٌ للنَّبيِّ ﷺ[4]. وهذا منكرٌ جدًّا من حديثِ نافعٍ عن ابن عمر، لا يصح أصلًا، وكذلك ما تقدَّم عن ابن عبَّاسٍ، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضًا. وقد صرح جماعةٌ من الحفاظ[5] بوضعه -وإن كان في سنن أبي داود- منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزِّي، فَسَح الله في عمره، ونَسَأ في أجله، وختم له بصَالِحِ عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءًا علىٰ حدةٍ، ولله الحمد. وقد تصدىٰ الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار علىٰ هذا الحديث، وردَّه أتمَّ ردٍّ، وقال: لا يُعرَف في الصحابة أحدٌ اسمه السِّجِل، وكُتَّاب النَّبيِّ ﷺ معروفون، وليس فيهم أحدٌ اسمه السِّجل، وصَدَق رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك، وهو مِن أقوىٰ الأدلَّة علىٰ نكَارة هذا الحَدِيث. وأما مَنْ ذكر في أسماء الصَّحابة هذا، فإنَّما اعتمد علىٰ هذا الحديث، لا علىٰ غيره، والله أعلم.

والصَّحيح عن ابن عبَّاسٍ أن السِّجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعوفي عنه. ونصَّ علىٰ ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحدٍ. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلىٰ هذا يكون معنىٰ الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: علىٰ هذا الكتاب، بمعنىٰ المكتوب، كقوله:

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٧/ ١٠٠)، وفيه أبو الجوزاء أوس بن عبد الله: **ثقة لكنَّه يُرسل كثيرًا. ورواه أبو داود** (٢٩٣٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٣٥). وفي إسنادهما يزيد بن كعب العوذي: مجهول.
قال ابن القيم: سمعتُ شيخنا ابن تيمية يقول: هذا الحديث موضوع، ولا يعرف لرسول الله ﷺ كاتب اسمه السِّجل قطُّ، وليس في الصَّحابة من اسمه السِّجل، وكتَّاب النَّبيِّ ﷺ معروفون لم يكن فيهم مَن يقال له: السِّجل، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ آيةٌ مكيَّةٌ، ولم يكن لرسول الله ﷺ كاتب بمكَّة، والسِّجل: هو الكتاب المكتوب. اهـ

(٣) انظر: «الكامل» لابن عدي (٧/ ٢٠٥).

(٤) «تاريخ بغداد» (٨/ ١٧٥)، وانظر ما قاله ابن كثير بعده من تضعيف الحديث.

(٥) لوحة (٢٩١ أ).

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ يعني: هذا كائنٌ لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقًا جديدًا، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع؛ لأنه من جملة وعد الله الّذِي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذَلِكَ. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكيع وابن جعفر المعنى، قالا[١]: حدَّثنا شعبة، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاسٍ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ ﷻ حُفَاةً [عُرَاةً][٢] غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾...» وذكر تمام الحديث[٣]، أخرجاه في «الصَّحيحين» من حديث شعبة. ورواه البخاري عند هذه الآية في كتابه. وقد روى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النَّبيِّ ﷺ، نحو ذلك. وقال العوفي، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ قال: نهلك كلَّ شيءٍ، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عمَّا حتمه وقضاه لعباده الصَّالحين، من السَّعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدُّنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ[٤] لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ الآية [النور:٥٥]. وأخبر تعالى أن هذا مكتوبٌ مسطورٌ في الكتب الشَّرعيَّة والقدريَّة فهو كائنٌ لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾، [قال الأعمش: سألت سعيد ابن جُبَير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾][٥] فقال: الزبور: التَّوراة، والإنجيل، والقرآن.

وقال مجاهد: الزَّبور: الكتاب. وقال ابن عبَّاس، والشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحدٍ: الزبور: الذي أنزل على داود، والذِّكر: التَّوراة. وعن ابن عبَّاس: الزَّبور: القرآن. وقال سعيد بن جُبَير: الذِّكر: الَّذِي في السماء. وقال مجاهد: الزَّبور: الكتبُ بعد الذِّكر، والذِّكر: أمُّ الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول.

---

(١) في (ز): (حدثنا وكيع وابن جعفر وأبو عفان المعنى قالوا)، والمثبت كما في «المسند»، وقد روى الإمام أحمد بعد ذلك حديث (عفان) بنحوه، وليس (أبو عفان).

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٣) البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠).

(٤) لوحة (٢٩١ ب).

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

وقال الثوري: هو اللَّوح المحفوظ. وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم: الزَّبور: الكُتُب الَّتي نزلت علىٰ الأنبياءِ، والذِّكر: أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء[١] قبلَ ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: أخبر الله سبحانه في التَّوراة والزَّبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يُورثَ أمةَ محمَّدٍ ﷺ الأرضَ ويدخلهم الجنَّة، وهم الصَّالحون[٢].

وقال مجاهد، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قال: أرض الجنَّة[٣]. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والشعبي، وقتادة، والسُّدِّي، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثوري رحمهم الله تعالىٰ، وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون. وقال السدي: هم المؤمنون.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي: إن في هذا القرآن الَّذي أنزلناه علىٰ عبدنا محمَّدٍ ﷺ لبلاغًا: لمَنْفعةً وكفايةً لقوم عابدين، وهم الَّذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعَة الله علىٰ طاعةِ الشَّيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: يخبر تعالىٰ أنَّ الله جعَل محمَّدًا ﷺ رحمةً للعالمين؛ أي: أرسله رحمةً لهم كلِّهم، فمَن قَبِل هذه الرحمةَ وشكَر هذه النِّعمةَ، سَعِدَ في الدُّنيا والآخرة، ومن رَدَّها وجحدها خَسِرَ في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال الله تعالىٰ في صفة القرآن[٤]: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال مسلم في «صحيحه»: حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا مروان الفَزاريُّ، عن يزيد بن كَيْسان، عن ابن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع علىٰ المشركين، قال: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**». انفرد بإخراجه مسلم[٥].

وفي الحديث الآخر: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»[٦]. رواه عبد الله بن أبي عرابة، وغيره، عن وَكِيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعًا. قال إبراهيم الحربي: وقد رواه غيره عن وكيع، فلم يذكر

---

(١) في (ز): (الأنبياء).

(٢) رواه الطبري (١٧/ ١٠٤)، وإسناده ضعيفٌ لانقطاعِهِ، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٦٨٦) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) رواه الطبري (١٤/ ١٠٤)، وفيه أبو يحيىٰ القتات: لين الحديث.

(٤) لوحة (٢٩٢ أ). (٥) مسلم (٢٥٩٩).

(٦) صحيح لشواهده: رواه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٣١) متصلًا، ورواه ابن سعد في «الطَّبقات» (١/ ١٩٢) مرسلًا.

وله طريق أخرىٰ. رواه الطبراني في «الصغير» (١/ ٩٥) والرامهرمزي في «الأمثال والحكم» (١/ ٣٥) وصححه علىٰ شرطهما. وفيه عبد الله بن سعيد: أخرج له البخاري متابعةً، وفيه بعض الضَّعف، والحديث صحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٩٠).

أبا هريرة. وكذا قال البخاري، وقد سُئِلَ عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلًا.

قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن [سُعَير بن الخِمْس][(١)]، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعًا. ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر بن محمَّد ابن إبراهيم الصوفي: حدَّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس[(٢)] بن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**».

ثم أورده من طريق الصَّلْت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن مِسْعَر، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً مُهْدَاةً، بُعِثْتُ بِرَفْعِ قَوْمٍ وَخَفْضِ آخَرِينَ**»[(٣)].

قال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن نافع الطحان، حدَّثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتابًا بالمدينة عن عبد العزيز الدَّراوردي وإبراهيم بن محمَّد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف[(٤)]، عن محمَّد بن صالح التمار، عن [ابن شهاب][(٥)] عن محمَّد بن جُبَير[(٦)] بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قَدِمَ مكَّة[(٧)] منصرفه عن حَمْزَة[(٨)]: يا معشر قريش، إنَّ محمَّدًا نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنَّما يريد أن يُصِيبَ منكم شيئًا، فاحذروا أن تمرُّوا طريقَه أو تقَارِبُوه[(٩)]، فإنَّه كالأسد الضَّاري؛ إنَّه حَنِق عليكم؛ لأنَّكم نفيتموه نفي القِرْدَان[(١٠)] عن المناسِم، والله إنَّ له لَسحْرَةً، ما رأيته قطُّ ولا أحدًا من أصحابه إلا رأيت معهم الشيطان، وإنَّكم قد عرَفْتُم عداوةَ ابني قَيْلَةَ -يعني: الأوس والخزرج- لهو عدوٌّ استعان بعدوٍّ، فقال له مطعم بن عدي: يا أبا الحكم، والله ما رأيتُ أحدًا أصدقَ لسانًا، ولا أصدقَ موعدًا، مِن أخيكُم الَّذي طردتم، وإذ فعلتم الَّذي فعلتم فكونوا أكفَّ الناس عنه. قال [أبو سفيان][(١١)] بن الحارث: كونوا أشدَّ ما كنتم عليه، إن

---

(١) في (ز): (سعيد بن الحميص)، والصواب ما أثبتناه، وانظر: «علل الدارقطني» (١٠/ ١٠٥)، و«تهذيب الكمال» (١١/ ١٣٠).

(٢) في (ز): (حسن)، والصواب ما أثبتناه، وانظر «الجرح والتعديل» (٧/ ١٠٢).

(٣) ضعيف بهذا السياق: لأنَّ فيه رجلًا لم يُسَمَّ، لكنَّ معناه صحيح. انظر الحديث السَّابق.

(٤) في (ز): (إبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عمرو بن عوف)، والمثبت كما في «الطبراني» وكتب الرجال.

(٥) بياض بـ(ز)، والمثبت كما في «الطبراني».

(٦) في (ز): (حسين)، والمثبت كما في «الطبراني».

(٧) في (ز): (حين قدم سلمة)، والمثبت كما في «الطبراني».

(٨) يعني: سرية حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

(٩) في (ز): (أو تحاربون)، والمثبت كما في «الطبراني».

(١٠) **القردان**: واحده قُراد، وهو: دويبة تعض الإبل، **والمناسم**: جمع مِنْسم، وهو طرف خف البعير، وقيل: منسما البعير: ظفراه اللَّذان في يديه.

(١١) بياض بـ(ز)، والمثبت كما في «الطبراني».

ابني قيلَةَ إن ظفَرُوا بكُم لم يرْقُبوا فيكم[١] إلّا ولا ذمَّةً، وإن أطَعْتُمُونِي ألجأتُمُوهم خير كنابة[٢]، أو تخرجوا محمَّدًا مِن بين ظهْرَانِيهم، فيكون وحيدًا مطرودًا، وأمَّا [ابنا قَيْلَةَ فوالله ما هُمَا][٣] وأهل [دهلك[٤] ٣٠٧][٥] في المذلَّة إلا سواء وسأكفيكم حدَّهم، وقال:

سَأَمْنَحُ جَانِبًا مِنِّي غَلِيظًا   عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدِ
رِجَالُ الخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذُلٍّ   إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِدِّ

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأَقْتُلَنَّهُمْ وَلأُصَلِّبَنَّهُمْ وَلأَهْدِيَنَّهُمْ وَهُمْ كَارِهُونَ، إِنِّي رَحْمَةٌ بَعَثَنِي اللهُ، وَلا يَتَوَفَّانِي حَتَّىٰ يُظْهِرَ اللهُ دِينَهُ، لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحِي[٦] اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ». وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديثُ صحيحًا[٧].

وقال الإمامُ أحمد: حدَّثنا معاوية بن عمرو، حدَّثنا زائدة، حدَّثني عَمْرو بن قَيس، عن عمرو بن أبي قُرَّة الكِنْدِيِّ قال: كان حُذيفةُ بالمدائن، فكان يذكر أشياءَ قالها رسولُ الله ﷺ، فجاء حذيفةُ إلىٰ سَلْمان، فقال سلمان: يا حذيفةُ، إنّ رسولَ الله ﷺ [كان يغضب فيقول، ويرضىٰ فيقول: لقد علمت أنَّ رسول الله ﷺ][٨] خطَب فقال: «أَيُّمَا رَجُلٍ [مِنْ أُمَّتِي][٩] سَبَبْتُهُ [سَبَّةً][١٠] فِي غَضَبِي أَوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُونَ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَاجْعَلْهَا صَلاةً عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١١]. ورواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة.

فإن قيل: فأيُّ رحمةٍ حصلت لمن كَفَر به؟ فالجَوَاب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا إسحاق بن شاهين، حدَّثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودي، عن رجلٍ يقال له: سعيد، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال: مَن آمن بالله واليوم الآخر، كُتِبَ له الرَّحمة في

---

(١) لوحة (٢٩٢ ب).
(٢) كذا بالأصل، وفي «الطبراني»: (ألحمتموهم خبر كنانة) وفي غيره من الأصول: (ألحقوهم خبر كنانة).
(٣) بياض بـ(ز)، والمثبت كما في «الطبراني».
(٤) دَهْلَك: اسم أعجمي معرب، وهي: جزيرة في بحر اليمن، وهي: مرسىٰ بين بلاد اليمن والحبشة.
(٥) في (ز): (وهل لك).
(٦) محا الشيء يمحوه ويمحاه محوًا ومحيًا: أذهب أثره.
(٧) رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٢٥/ ١٥٣٢)، ورجاله ثقات إلا أنّه وجادة. وهو بهذا منقطع، ولذا قال أحمد بن صالح واجد الصَّحيفة: أرجو أن يكون الحديث صحيحًا.
(٨) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(٩) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(١٠) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(١١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٤٣٧)، وأبو داود (٤٦٥٩).

الدُّنيا والآخرة، ومَن لم يُؤْمِن بالله ورسولِهِ عُوفِي مما أصاب الأممَ منَ الخسفِ والقذفِ(١).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث المسعودي، عن أبي سعد -وهو سعيد بن المرزبان البقَّال- عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، فذكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد، عن عيسىٰ بن يونس الرَّمْلِي، عن أيوب بن سُوَيد، عن المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: مَن تَبِعَه كان له رحمةٌ في الدُّنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عُوفِي مما كان يُبْتَلَىٰ به سائرُ الأمم من الخَسْفِ والمسخ والقَذْفِ(٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ(٣) ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- أن يقُول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: متبعون علىٰ ذلك، مستسلِمُون منقادون له.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تركُوا ما دعوتهم إليه، ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكُم أنِّي حَرْبٌ لكم، كما أنكم حَرْبٌ لي، بريءٌ منكم كما أنكم بُرآءُ منِّي، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الانفال: ٥٨] أي: ليكن علمك وعلمهم بنبذِ العهود علىٰ السَّواء، وهكذا هاهنا، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم ببرَاءَتِي منكم، وبراءتكم مني؛ لعِلْمِي بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقعٌ لا محالَةَ، ولكن لا علمَ لي بقُرْبِهِ ولا ببعده، ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إن الله يعلم الغيب جميعَهُ، ويعلمُ ما يظهره العباد وما يسرُّون، يعلم الظَّواهر والضَّمائر، ويعلم السِّرَّ وأخفىٰ، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيَجْزِيهم علىٰ ذلك، علىٰ القليل والجليل.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: وما أدري لعلَّ هذا فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلىٰ حين.

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٧/ ١٠٦)، وفيه المسعوديُّ: اختلط، وسعيد بن المرزبان البقال: ضعيف مدلس.
وقد توبع في رواية الطَّبراني الآتية (٢/ ١٢٣) فقد تابعه حبيب بن أبي ثابت وهو ثقة، لكنَّه كثير الإرسال والتَّدليس.
والأثر أورده السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٦٨٧) وزاد عزوه إلىٰ ابن مردويه والبيهقي في «الدلائل».

(٢) انظر التعليق السابق. (٣) لوحة (٢٩٣ أ).

قال ابن جرير: لعلَّ تأخيرَ ذلكَ عنكم فتنةٌ لكم، ومتاعٌ إلىٰ أجلٍ مسمًّىٰ. وحكاه عون، عن ابن عبَّاسٍ، والله أعلم.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذِّبين بالحقِّ. قال قتادة: كان الأنبياء -عليهم السَّلام- يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالًا قال: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾[(١)].

وقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: علىٰ ما يقولُون ويفترُون من الكَذِب، ويتنوَّعون في مقامات التَّكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك والحمد لله وحده.

[آخر تفسير سورة الأنبياء -عليهم السلام- ولله الحمد والمنة،
عفا الله لمن نظر فيه ولكاتبه وللمسلمين أجمعين][(٢)]

---

(١) مرسل: ورواه الطبري (١٧/ ١٠٨) عن قتادة أيضًا مرسلًا.
(٢) ليست في (ز).

سُورَةُ الحَجِّ (١)

[وهي مكية] (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عباده بتقواه، ومخبرًا(٣) لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلىٰ عَرَصَات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٤، ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٤ -٦].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنةٌ في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بَشَّارٍ، حدثنا يحيىٰ، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة.

ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وروي عن الشعبي، وإبراهيم، وعُبَيْد بن عُمَيْر، نحو ذلك. وقال أبو كُدَيْنَةَ، عن عطاء،

---

(١) نقل القرطبيُّ عن الغَزْنَويِّ قوله: وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، مكيًّا ومدنيًّا، سِلميًّا وحربيًّا، ناسخًا ومنسوخًا، محكمًا ومتشابهًا؛ مختلف العدد. «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٣٠٦).
وقال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهَا مَكِّي وَمَدَنِي، وَلَيلِي وَنَهَارِي، وَسَفَرِي وَحَضَرِي، وَشِتَائِي وَصَيْفِي، وَتَضمَّنت منازِلَ الْمَسير إلىٰ الله، بحيث لَا يَكُون مَنْزِلَةٌ وَلَا قَاطعٌ يَقطعُ عنها . ويُوجَد فيها ذِكْر الْقُلوب الأربعةِ : الأعْمَىٰ، والمَرِيض، والقَاسِي، وَالمُخْبِتِ، الْحَيّ الْمُطمئنّ إلىٰ الله . وفيها مِن التَّوحيدِ وَالْحِكَم وَالْمَوَاعظ -علىٰ اخْتِصَارِها- ما هو بَيِّن لِمَنْ تَدبَّرهُ، وفيها ذِكْر الْوَاجبَات والمستحبات كُلها تَوْحِيدًا وصلاةً وزكاةً وحَجًّا وصيامًا، قَدْ تضَمَّن ذلك كُلَّه قَوْله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج]، فَيَدخُل فِي قَوْلِهِ : ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ كُلُّ وَاجِب وَمُستَحَب؛ فَخَصَّص فِي هذه الآية وعَمَّم، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، فهذه الآية ومَا بَعدَها لَم تَتْرُكْ خيرًا إلَّا جمعَتْهُ ولَا شَرًّا إلَّا نَفَتْهُ. «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ٢٦٦).

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٢٩٣/ ب).

عن عامر الشعبي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ الآية، قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قال ذلك في حديث الصُّور، من رواية إسماعيل ابن رافع قاضي أهل المدينة، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه علىٰ فِيه، شاخصٌ ببصره إلىٰ العَرش، ينتظر متىٰ يؤمر**». قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الصور؟ قال: «**قرن**»، قال: فكيف هو؟ قال: «**قرن عظيم ينفخ [فيه]**[(١)] **ثلاث نفخات؛ الأولىٰ: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصَّعْق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين**»، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولىٰ فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزعُ أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص:١٥]، فَيُسيِّرُ الله الجبال فتكون سرابًا، وتُرج الأرض بأهلها رجًّا، وهي التي يقول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات:٦-٨]، فتكون الأرض كالسفينة الموبقة[(٢)] في البحر، تضربها الأمواج تكفؤها[(٣)] بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح.

فيمتد[(٤)] الناس علىٰ ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربةً، حتىٰ تأتي الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولي الناس مدبرين[(٥)]، ينادي بعضهم بعضًا، وهو الذي يقول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر:٣٢، ٣٣]، فبينما هم علىٰ ذلك إذ انصدعت الأرض من قطرٍ إلىٰ قطر، فَرَأوا أمرًا عظيمًا، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلىٰ السماء فإذا هي كالمُهل[(٦)]، ثم خُسف شمسها وخُسفَ قمرها، وانتثرت نجومها، ثم كُشِطت عنهم. قال رسول الله ﷺ: «**والأموات لا يعلمون بشيءٍ من ذلك**»، قال أبو هريرة: فمن[(٧)] استثنىٰ الله حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧]؟ قال: «**أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلىٰ الأحياء، أولئك أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه علىٰ شرار خلقه، وهو الذي يقول [الله]**[(٨)]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا[(٩)]

---

(١) ليست في (ز).

(٢) أوبقه: حبسه، ومنه: قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾، أي: يحبسهن، يعني: الفلك وركبانها، فيهلكون غرقًا.

(٣) أي: تقلبها.

(٤) كذا في طبعة «الشعب»، وفي (ز) غير منقوطة ويمكن أن تُقرأ: (فيميد).

(٥) لوحة (٢٩٤/ أ).

(٦) المهل: درديُّ الزيت، والكشط: الكشف والرفع والإزالة.

(٧) في (ز): ثم استثنىٰ.

(٨) ليست في (ز).

(٩) قال ابن القيم رحمه الله: المرضع: من لها ولد ترضعه. والمرضعة: من ألقمت الثدي للرضيع.
وعلىٰ هذا فقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ من مرضع في هذا المقام، فإن المرأة =

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾»[(١)].

وهذا الحديث قد رواه الطبراني، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغير واحدٍ مطولًا جدًّا.

والغرض منه: أنه دل علىٰ أن هذه الزلزلة كائنةٌ قبل يوم الساعة، وأضيفت إلىٰ الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث:

الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ، عن هشام، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران ابن حُصَين؛ أن رسول الله ﷺ قال -وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير[(٢)(٣)]، رفع بهاتين الآيتين صوته-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حَثُّوا[(٤)] المَطِي، وعرفوا أنه عند قول يقوله[(٥)]، فلما تأشبوا[(٦)] حوله قال: **«أتدرون أي يومٍ ذاك؟ ذاك يوم يُنادىٰ آدم ﷺ، فيناديه ربه ﷻ فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلىٰ النار، فيقول: يا ربِّ، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة»**. قال: فأبلس[(٧)] أصحابه حتىٰ ما أوضحوا بضاحكةٍ[(٨)]، فلما رأىٰ ذلك قال: **«أبشروا واعملوا[(٩)]، فوالذي نفس محمد بيده، إنكم لمع خليقتين[(١٠)] ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه[(١١)]: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس»**. قال: فسُرِّي عنهم[(١٢)]، ثم قال: **«اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في**

= قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشرٍ للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل -رحمك الله تعالىٰ- السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلىٰ قوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾، فإن الحامل قد تطلق علىٰ المُهيأة للحمل وعلىٰ من هي في أول حملها ومبادئه، فإذا قيلَ: ذات حمل لم يكن إلا لمن ظهر حملها وصلح للوضع كاملًا أو سقطًا، كما يقال: ذات ولدٍ، فأتىٰ في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتىٰ في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع والله تعالىٰ أعلم.

(١) **ضعيف**: رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٣٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠٩)، وهو حديثٌ طويلٌ، مداره علىٰ إسماعيل بن رافع، وهو ضعيفُ الحفظ، كما قال الحافظ (تقريب -٤٤٢)، وفي هذا الإسناد رجلٌ مجهولٌ.

(٢) في (ز): (وقد تقارب من أصحابه المسير)، والمثبت كما في «المسند».

(٣) أي: وقع التفاوت والبعد.

(٤) أي: حضوها ودفعوها، والمُطىٰ: جمع مطية، وهي: الدَّابة تمطو في سيرها، أي: تسرع.

(٥) أي: يريد أن يقول قولاً، **وتأشبوا**: اجتمعوا إليه وأطافوا به، والأشابة: أخلاط الناس، تجتمع من كل أوب ومكان.

(٦) في بعض النسخ: «تأشهوا»، والمثبت من (ز)، وهو موافق لما في «المسند».

(٧) **الإبلاس**: الحيرة، وأبلسوا -بالبناء للمجهول-: أسكتوا.

(٨) أي: ما طلعوا بضاحكة ولا أبدوها، **والضاحكة**: إحدىٰ ضواحك الأسنان التي تبدو عند الضحك.

(٩) في (ز): (واعلموا).

(١٠) أي: مخلوقتين.

(١١) لوحة (٢٩٤/ ب).

(١٢) أي: كشف وأزيل عنهم.

الناس إلا كالشامة[(١)] في جنب البعير، أو الرَّقْمَة[(٢)] في ذراع الدابة»[(٣)].

وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من «سننيهما»، عن محمد بن بَشّار، عن يحيىٰ - وهو القَطَّان، - عن هشام - وهو الدستوائي -، عن قتادة، به بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

طريق أخرىٰ لهذا الحديث: قال الترمذي: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حُصَيْن؛ أن النبي ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو في سفرٍ، فقال: «**أتدرون أي يوم ذلك؟**»، فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذلك يومٌ يقول الله لآدم: ابعث بعثَ النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلىٰ النار، وواحد إلىٰ الجنة**». فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «**قاربوا**[(٤)] **وسَدِّدوا، فإنها لم تكن نبوةٌ قط إلا كان بين يديها جاهلية**». قال: «**فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُمِّلت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير**»، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، فكبروا ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»، فكبروا، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة**»، فكبروا، قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا. وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عُيَيْنَةَ به، ثم قال الترمذي أيضا: هذا حديث حسن صحيح[(٥)].

وقد روي عن [سعيد بن أبي][(٦)] عَرُوبة، عن الحسن، عن عمران بن الحصين.

وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي، عن عمران بن الحصين، فذكره.

وهكذا روىٰ ابن جريرٍ عن بُنْدارٍ، عن غُنْدَرٍ، عن عوفٍ، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العُسرة ومعه أصحابه بعد ما شارف المدينة قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر الحديث، فذكر نحو سياق ابن جُدْعَان، فالله أعلم[(٧)].

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن الطَّبَّاع، حدثنا أبو[(٨)] سفيان المعمري، عن مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، وذكر - يعني: نحو

---

(١) أي: الخال في الجسد. (٢) الرَّقْمة: الدائرة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها.

(٣) صحيح لغيره: رواه الترمذي (٣١٦٨، ٣١٦٩)، والنسائي (٢/ ٨٢)، وأحمد (٤/ ٤٣٥) وفيه قتادة: مدلس، والحسن يرسل. وقد توبع في رواية ابن أبي حاتم (١٣٧٦٧) الآتية، وكذا عند الطبري (١٨/ ٥٤٦)، والعلاء ثقة، فالحديث صحيح. والرواية الأخرىٰ عند الترمذي، وقال: حسن صحيح من طريق ابن جدعان وفيه ضعف. وقد ساق ابن كثير شواهد أخرىٰ للحديث تدل علىٰ صحته. وأصل الحديث في «الصحيح»: رواه البخاري (٦٥٣٠) ومسلم (٢٧٩) من حديث أبي سعيد، ورواه البخاري (٦٥٢٩) من حديث أبي هريرة دون ذكر الزلزلة.

(٤) أي: اقتصدوا في الأمور كلها، واتركوا الغلو فيها والتقصير، يقال: قارب فلان في أموره، إذا اقتصد، وسددوا: أي اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة، وهو القصد في الأمر والعدل فيه.

(٥) انظر التعليق السابق. (٦) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٧) الطبري (١٧/ ١١١)، وإسناده مرسل. (٨) في (ز): (ابن)، والمثبت هو الصواب.

سياق الحسن، عن عمران - غير أنه قال: «**ومن هلك**[١] **من كفرة الجن والإنس**». رواه ابن جرير بطوله، من حديث معمر، به[٢].

الحديث الثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد - يعني: ابن العوام - حدثنا هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه، وقال فيه: «**إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة**»، ففرحوا، وزاد أيضًا: «**وإنما أنتم جزء من ألف جزء**»[٣].

الحديث الرابع: قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالىٰ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادىٰ بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلىٰ النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف -أراه قال:- تسعمائة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾**». فشق ذلك علىٰ الناس حتىٰ تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «**مِن يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**». فكبرنا، ثم قال: «**ثلث أهل الجنة**». فكبرنا، ثم قال: «**شطر أهل الجنة**»، فكبرنا[٤]. وقد رواه البخاري أيضًا في غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائي في «تفسيره»، من طرقٍ، عن الأعمش، به.

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عمار بن محمد ابن أخت سفيان الثوري، وعبيدة - المعنىٰ -، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث يوم القيامة مناديًا [ينادي]**[٥]: **يا آدم، إن الله يأمرك أن تبعث بعثًا من ذريتك إلىٰ النار، فيقول آدم: يا رب، من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعين**». فقال رجل من القوم: من هذا الناجي منا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: «**هل تدرون ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير**»[٦]. انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

---

(١) لوحة (٢٩٥/ أ).

(٢) ضعيف من رواية أنس: رواه الطبري (١٧/ ١١٢)، وأبو يعلىٰ (٣١٢٢)، وابن حبان (٧٣٥٤)، والحاكم (٢٩٨ /٤ ٥٦٦) وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
قلت: فيه قتادة، مدلس ولم يصرح بالسماع، ومعمر وهو ثقة، لكن في روايته عن ثابت والأعمش وهشام بن عروة شيء، وكذا فيما حدث به بالبصرة. وقتادة بصري. والذي يترجح أن الرواية من هذه الطريق شاذةٌ؛ لأن كل الذين رووا الحديث عن قتادة إنما رووه من مسند عمران بن حصين كما تقدَّم، غير رواية معمر هذه، فقد خالف فيها أصحاب قتادة، والله أعلم.

رواه ابن أبي حاتم (١٣٧٦٩)، وإسناده حسن.

البخاري (٤٧٤١)، (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٣٩).

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) رواه أحمد (١/ ٣٨٨)، وهو شاهد للحديث السابق، ولكن هذا الإسناد ضعيف، وعلته: إبراهيم بن مسلم الهجري: ضعيف.

الحديث السادس: قال الإمام [أحمد](١): حدثنا يحيىٰ، عن حاتم بن أبي صَغِيرة، حدثنا ابن أبي مُلَيْكَةَ؛ أن القاسم بن محمد أخبره، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «**إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاةً عراةً غرلًا**». قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلىٰ بعض؟ قال: «**يا عائشة، إن الأمر**(٢) **أشد من أن يهمهم ذاك**». أخرجاه في «الصحيحين»(٣).

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعة، عن خالد بن أبي عِمْران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «**يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتىٰ يثقل أو يخف، فلا. وأما عند تطاير الكتب فإما يعطىٰ بيمينه أو يعطىٰ بشماله، فلا. وحين يخرج عُنُق من النار فينطوي عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وُكِّلْتُ بثلاثةٍ، وكِّلْتُ بثلاثةٍ، وُكِّلْتُ بثلاثةٍ: وُكِّلْتُ بمن ادعىٰ مع الله إلهًا آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد**»، قال: «**فينطوي عليهم، ويرميهم في غمراتٍ، ولجهنم جسر أدق من الشعر وَأَحَدُّ من السيف، عليه كلاليبُ**(٤) **وَحَسَكٌ يأخُذْنَ من شاء الله، والناس عليه كالطرف**(٥) **وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رَبِّ، سَلِّم، سَلِّم. فناجٍ مُسَلَّم، ومخدوش مُسَلَّم، ومكوَّر في النار علىٰ وجهه**»(٦).

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرةٌ جدًّا، لها موضعٌ آخر(٧)، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمرٌ كبيرٌ، وخطبٌ جليلٌ، وطارقٌ مفظعٌ، وحادثٌ هائلٌ، وكائنٌ عجيبٌ. والزلزال: هو ما يحصل للنفوس من الفزع والرعب، كما قال تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]. ثم قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾، هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسرًا له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشتغل لهول ما ترىٰ عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مُرْضِع»(٨)، وقال: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن رضيعها قبل فطامه.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قبل تمامه لشدة الهول، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾

---

(١) بياض في (ز). (٢) لوحة (٢٩٥/ ب).

(٣) البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، والنسائي (٤/ ١١٤)، وابن ماجة (٤٢٧٦)، وأحمد (٦/ ٥٣).

(٤) **الكَلاليب**: جمع كُلاَّب، وهي: حديدة معوجة الرأس، **والحَسَك**: واحدها حسكة، وهي: شوكة صلبة.

(٥) **الطَّرْف**: طرف العين.

(٦) **ضعيف**: رواه أحمد (٦/ ١١٠)، وفيه ضعف من أجل ابن لهيعة؛ فقد اختلط بعد احتراق كتبه.

(٧) للوقوف علىٰ ذلك ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢/ ٥٧٩) ط المنهاج، و«النهاية» للمؤلف: (١٩/ ٣٨٠) ط هجر، و«إتحاف الجماعة» للشيخ/ حمود التويجري (٣/ ٢٧٧)، و«القيامة الكبرىٰ» للأشقر -رحم الله الجميع.

(٨) قال أبو زيد: المرضعة التي تُرْضِع وثَدْيُها في فِيِّ ولدها -أي: فمه-، والمُرْضِع: التي معها الصبي الرضيع. وهذا معنىٰ قول الأخفش: أدخل الهاء في المرضعة لأنَّه أراد -والله أعلم-: الفعل، ولو أراد الصفة لقال: مرضع.

وقرئ: «سَكْرَىٰ»[١]، أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكارىٰ، ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ ذامًّا لمن كذَّب بالبعث، وأنكر قدرة الله علىٰ إحياء الموتىٰ، معرضًا عما أنزل الله علىٰ أنبيائه، متبعًا -في قوله وإنكاره وكفره- كل شيطانٍ مريدٍ، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله علىٰ رسوله من الحق المبين، ويتَّبعون أقوال رءوس الضلالة، الدعاة[٢] إلىٰ البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ؛ أي: علمٍ صحيحٍ، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان؛ يعني: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلىٰ عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذلك قال ابن جريج[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سلم[٤] البصري، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمر، حدثنا أبو كعبٍ المكي قال: قال خبيثٌ[٥] من خُبثاء قريش: أَخْبِرْنَا عن ربكم، من ذهبٍ هو، أو من فضةٍ هو، أو من نُحاسٍ هو؟ فقعقعت السماء قعقعةً - والقعقعة في كلام العرب: الرعد - فإذا قِحْف رأسه ساقطٌ بين يديه[٦].

وقال ليثُ بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: جاء يهوديٌّ فقال: يا محمد، أَخْبِرْني عن ربك: من أي شيءٍ هو؟ من دُرٍّ أم من ياقوتٍ؟ قال: فجاءت صاعقةٌ فأخذته[٧].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ

---

(١) متواترة: قَرَأَ (سَكْرَى) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (سُكَارَى).

(٢) لوحة (٢٩٦/ أ).

(٣) ضعيف: وعلته الإرسال، وأثر أبي مالك رواه ابن أبي حاتم (١٣٧٧)، وأثر ابن جريج رواه الطبري (١٧/ ١١٥) وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨) عزوه إلىٰ ابن المنذر.

(٤) في (ز): (عمرو بن مسلم)، والمثبت هو الصواب.

(٥) في (ز): (قال فاحبيب).

(٦) ضعيف: هكذا عزاه المصنف لابن أبي حاتم. وهو مرسل.

(٧) ضعيف: ليث بن أبي سليم صدوق أدخل في أحاديثه ما ليس منها، فلم تتميز فترك، والإسناد مرسل.

ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالىٰ المخالف للبعث المنكر للمعاد، ذكر تعالىٰ الدليل علىٰ قدرته تعالىٰ علىٰ المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾، وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: أصل بَرْئه[1] لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم ﷺ، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهينٍ، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يومًا كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقةً حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يومًا، ثم تستحيل فتصير مضغةً - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيطٍ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[2] ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارةً تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال: هو السقط مخلوقٌ وغير مخلوقٍ. فإذا مضىٰ عليها أربعون يومًا وهي مضغةٌ، أرسل الله تعالىٰ إليها ملكًا فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله ﷻ، من حسنٍ وقبيحٍ، وذكرٍ وأنثىٰ، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في «الصحيحين»، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: «**إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مُضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه المَلَك فيؤمر بأربع كلمات: بِكَتْبِ عملِه، وأجله، ورزقه، وشقيٌّ أو سعيدٍ، ثم ينفخ فيه الروح**»[3].

وروىٰ ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم، أخذها[4] مَلَك بكفه قال: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: «غير مخلقة» لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دمًا. وإن قيل: «مخلقة»، قال: أي رب، ذكر أو أنثىٰ؟ شقي أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأي أرضٍ يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلىٰ الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ[5] أثرها، حتىٰ إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت في ذلك [المكان][6]،

---

(١) في (ز): (أصل تربة). (٢) لوحة (٢٩٦/ ب).

(٣) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٨١)، والترمذي (٢٠٦٣).

(٤) في (ز): (جاءها ملك). (٥) في (ز): (وتعطىٰ أثرها). (٦) سقط من (ز).

ثم تلا عامر الشعبي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمةً، فإن كانت غير مخلقةٍ قذفتها الأرحام دمًا، وإن كانت مخلقةً نكست في الخلق[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أَسِيد - يبلغ به إلىٰ[2] النبي ﷺ - قال: «**يدخل المَلَكُ علىٰ النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثىٰ؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوىٰ الصحف، فلا يزاد علىٰ ما فيها ولا ينتقص**». ورواه مسلم[3] من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرقٍ أخر، عن أبي الطُّفَيل، بنحو معناه.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي: ضعيفًا في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئًا فشيئًا، ويلطف به، ويحنن عليه والديه[4] في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ أي: يتكامل القوىٰ ويتزايد، ويصل إلىٰ عنفوان الشباب وحسن المنظر.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾؛ أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف[5] وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد قال الحافظ أبو يعلىٰ -أحمد بن علي بن المثنىٰ- الموصلي في «مسنده»: حدثنا منصور ابن أبي مزاحم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصاري، عن أنس بن مالك - رفع الحديث - قال: «**المولود حتىٰ يبلغ الحنث[6]، ما عمل من حسنةٍ، كتبت لوالده أو لوالدته، وما عمل من سيئةٍ لم تكتب عليه ولا علىٰ والديه، فإذا بلغ الحنث أجرىٰ[7] الله عليه القلم[8] [و][9] أُمِرَ المَلَكان اللَّذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أَمَّنَهُ الله من البلايا الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشَفَّعَهُ في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئةً لم تُكْتَبْ عليه**»[10].

---

(١) رواه الطبري (١٧/ ١١٧) وإسناده صحيح موقوفًا، ومثله لا يقال بالرأي، فهو في حكم المرفوع.

(٢) كذا في (ز) وحذيفة بن أسيد رضي الله عنه صحابي من أصحاب الشجرة.

(٣) مسلم (٢٦٤٤)، وأحمد (٤/ ٦).

(٤) لوحة (٢٩٧/ أ).

(٥) في (ز): (من الخوف).

(٦) أي: حتىٰ يبلغ مبلغ الرجال.

(٧) في (ز): جرىٰ.

(٨) في (ز): العلم.

(٩) ليست في (ز).

(١٠) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٣٦٧٨)، وفيه خالد الزيات وشيخه: مجهولان، وانظر تعليق ابن كثير بعده.

هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، وفيه نكارةٌ شديدةٌ. ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده» مرفوعًا وموقوفًا فقال:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامري(١)، عن عمرو ابن جعفر(٢)، عن أنس قال: إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة، أمنه الله من أنواع البلايا، من الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ الخمسين لَيَّن الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته، ومحا عنه سيئاته، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في الأرض، وشفع في أهله(٣).

ثم قال: حدثنا [هاشم، حدثنا الفرج](٤)، حدثني محمد بن عبد الله [العامري، عن محمد بن عبد الله](٥) بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، مثله(٦).

ورواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا أنس بن عياض، حدثني يوسف بن أبي ذَرَّة الأنصاري(٧)، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْري، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مُعَمَّرٍ يُعَمَّرُ في الإسلام أربعين سنةً، إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص..**» وذكر تمام الحديث، كما تقدم سواء(٨).

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبي شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك، عن أبي قتادة العُذْري، عن ابن أخي الزهري، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبدٍ يعمر في الإسلام أربعين سنةً، إلا صرف الله عنه أنواعًا من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنةً لَيَّنَ الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنةً رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين سنةً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله، وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غَفَر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسُمي أسير الله في أرضه، وشُفِّعَ في أهل بيته**»(٩).

---

(١) في (ز): (العاملي).

(٢) كذا في (ز) وبقية النسخ الخطية، وهو كذلك في «المسند»، وذكر الحافظ في «التعجيل» في ترجمة «عمرو بن جعفر» أنه: (جعفر بن عمرو بن أمية الضمري)، ورجح ذلك، وردَّ الوهم في ذلك إلى الفرج بن فضالة.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٨٩)، وفي إسناده الفرج بن فضالة: وهو ضعيف، وقد وقع قلب في عمرو بن جعفر، وإنما هو جعفر ابن عمرو كما ذكر ابن حجر في «تعجيل المنفعة» وهو ثقة.

(٤) في (ز): (هشام حدثنا الروح). (٥) سقط من (ز).

(٦) ضعيف: الفرج بن فضالة: ضعيف، ومحمد بن عبد الله بن عمرو الملقب بالديباج، قال الذهبي في «الميزان»: وثقه النسائي، وقال مرة: ليس بالقوي، وقال البخاري: لا يكاد يتابع في الحديث.

(٧) لوحة (٢٩٧/ ب)، ويوسف بن أبي ذَرَّة مذكور في «الإكمال» لابن ماكولا (٣/ ٣٢١)، و«تعجيل المنفعة»: (٢/ ٣٨٨)، و«تبصير المشتبه»: (٢/ ٥٦٠)، و«توضيح المشتبه»: (٤/ ٣٤)، وانظر «مسند أحمد»: (٢١/ ١٢) ط الرسالة، و(٥/ ٢٨٠٦) ط المنهاج.

(٨) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٢١٧)، وفيه يوسف بن أبي ذرة، قال ابن معين: لا شيء. وقال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا.

(٩) إسناده ضعيف: رواه البزار (٣٥٨٨)، وفيه عبد الله بن شبيب: قال في «الميزان»: واهٍ، وأبو قتادة العذري هو عبد الله =

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليلٌ آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي القحلَة التي لا نبت فيها ولا شيء. وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدي: ميتة.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمارٍ وزروعٍ، وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾][(١)]، و﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فـ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: كائنةٌ لا شَكَّ فيها ولا مِرْيَة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رممًا، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ -٨٠]، والآيات في هذا كثيرةٌ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد[(٢)]، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حُدُس[(٣)]، عن عمه أبي رَزين العقيلي - واسمه: لَقِيط بن عامر - أنه قال: يا رسول الله، أَكُلُّنا يرى ربه ﷻ يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْلِيًا[(٤)] به؟**»، قلنا: بلى. قال: «**فالله أعظم**». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «**أما مررت بوادي أهلك ممحلًا[(٥)]؟**»، قال: بلى. قال: «**ثم مررت به يهتز خضرًا؟**». قال: بلى. قال: «**فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه**»[(٦)].

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد بن سلمة، به.

ثم رواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي رَزين العُقَيْلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا

= ابن واقد قال في «التقريب»: متروك، وكان أحمد يثني عليه، وقال: لعله كبر واختلط، وكان يدلس.

(١) ما بين المعكوفين غير موجود في (ز). (٢) لوحة (٢٩٨/ أ).

(٣) في (ز): (عدس). والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «المسند».

(٤) أي: منفردًا به، ويقال: خلوت به، ومعه، وإليه، وأخليت به: إذا انفردت به.

(٥) **المحل** -في الأصل-: انقطاع المطر، ويقال: أرض محل، وزمن محل وماحل.

(٦) **حسنٌ**: رواه أحمد (٤/ ١١)، وأبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجة (١٨٠)، ورجاله ثقات عدا وكيع بن حدس. قال ابن حجر: مقبول. والحديث حسنه الألباني في «ظلال الجنة» (٤٥٩، ٤٦٠).

رسول الله، كيف يحيي الله الموتىٰ؟ قال: «أَمَرَرْتَ بأرضٍ من أرضك مُجْدبةً، ثم مَرَرْتَ بها مخصبةً؟»، قال: نعم. قال: «كذلك النشور»(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُبَيس(٢) بن مرحوم، حدثنا بُكَيْر بن [أبي](٣) السَّمِيْط، عن قتادة، عن أبي الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: مَنْ علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور - دخل الجنة(٤).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ حال الضُّلَّالِ الجُهَّالِ المقلِّدين في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾، ذكر في هذه حال الدعاة إلىٰ الضلال من رءوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: بلا عقلٍ صريحٍ، ولا نقلٍ صحيحٍ صريحٍ، بل بمجرد الرأي والهوىٰ.

وقوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبرًا عن الحق إذا دعي إليه. وقال مجاهد، وقتادة، ومالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: لاوي عنقه، وهي رقبته؛ يعني: يعرض عما يدعىٰ إليه من الحق رقبته استكبارًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]، أي: تميله عنهم استكبارًا عليهم، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ(٥) ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه علىٰ هذا الخلق الذي يجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١١)، وفيه سليمان بن موسىٰ: صدوق فقيه، في حديثه بعض لين، خولط بعد موته، لكن الحديث حسَّنه الألباني. كما في التعليق السابق.

(٢) في (ز): (عنبس)؛ وهو خطأ.

(٣) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١١) إلىٰ عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وفي إسناده من لم أعرف ترجمتهم.

(٥) لوحة (٢٩٨/ ب).

المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمِّه ومبلغ علمه، ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ⑨ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له هذا تقريعًا وتوبيخًا، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان:٤٧ -٥٠].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصبّاح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يُحرق في اليوم سبعين ألف مرة(١).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: علىٰ شكٍّ(٢).

وقال غيرهم: علىٰ طرف. ومنه حرف(٣) الجبل؛ أي: طرفه؛ أي: دخل في الدين علىٰ طرف، فإن وجد [ما يحبه](٤) استقر، وإلا انشمر(٥).

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيىٰ بن أبي بُكَيْر، حدثنا إسرائيل، عن أبي حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، قال: كان الرجل يَقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا، ونُتِجَت خيلُه، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تُنتج خيله قال: هذا دين سوء(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القُمِّي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباسٍ قال: كان ناسٌ من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيُسْلِمون، فإذا رجعوا إلىٰ بلادهم، فإن وجدوا عام غَيثٍ وعام خصبٍ وعام ولادٍ حسنٍ، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمَسَّكوا به». وإن وجدوا عام جُدوبةٍ وعام ولادِ سَوءٍ وعام قحطٍ، قالوا: «ما في ديننا هذا خير». فأنزل الله علىٰ نبيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ(٧) خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾(٨).

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٣٧٩٦) عن الحسن البصري.

(٢) في (ز): (علىٰ شدة). (٣) في (ز): (طرف الجبل). (٤) بياض في (ز).

(٥) الانشمار والاشتمار: المضي والنفوذ. (٦) البخاري (٤٧٤٢). (٧) لوحة (٢٩٩/ أ).

(٨) ضعيف بهذا السياق: رواه ابن أبي حاتم (١٣٧٩٧، ١٣٧٩٨)، ولا يصح لسبب النزول؛ لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة، وقد تقدم أن روايته عن سعيد بن جبير ضعيفة، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٣) إلىٰ ابن مَرْدوَيه.

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قَدم المدينة، [وهي أرضٌ وَبِيئَةٌ][١]، فإن صح بها جسمه، ونُتِجت فرسه مُهْرًا حسنًا، وولدت امرأته غلامًا، رضي به واطمأن إليه، وقال: «ما أصبت منذ كنتُ علىٰ ديني هذا إلا خيرًا». وإن أصابته فتنةٌ - والفتنة: البلاء - أي: وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جاريةً، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذ كنتَ علىٰ دينك هذا إلا شرًّا. وذلك الفتنة[٢]. وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جُريج، وغير واحدٍ من السلف في تفسير هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام علىٰ العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم علىٰ العبادة إلا لِمَا صلح من دنياه، فإن أصابته فتنةٌ أو شدةٌ أو اختبارٌ[٣] أو ضيقٌ، ترك دينه ورجع إلىٰ الكفر.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾؛ أي: ارتدَّ كافرًا.

وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ أي: فلا هو حَصَل من الدنيا علىٰ شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محققٌ متيقنٌ.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾: قال مجاهد: يعني الوثن؛ يعني: بئس هذا الذي دعا به من دون الله مولًىٰ؛ يعني: وليًّا وناصرًا، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر.

واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد الله علىٰ حرفٍ، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾.

وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولىٰ وأقرب إلىٰ سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، [وتركوا المنكرات][٤]، فأورثهم

(١) في (ز): (وهم أرض دونه)؛ والمثبت من «الطبري».

(٢) إسناده ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٣٧٩٩)، ورواه الطبري (١٧/ ١٢٢) من رواية عطية العوفي وهو: شيعي مدلس. ويكفي في الاستشهاد بذلك حديث البخاري السابق.

(٣) في (ز): (أو إجبار).

(٤) سقط من (ز).

ذلك سكنىٰ الدرجات العاليات، في روضات[1] الجنات.

ولما ذكر تعالىٰ[2] أنه أضل أولئك، وهدىٰ هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر[3] الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة، ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ليتوصل إلىٰ بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمدًا ﷺ من السماء، ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ ذلك عنه، إن قدر علىٰ ذلك!!

وقول ابن عباس وأصحابه أولىٰ وأظهر في المعنىٰ، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنىٰ: من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا ﷺ وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

قال السدي: يعني: مِنْ شأن محمدٍ ﷺ.

وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟!

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي: واضحاتٍ في لفظها ومعناها، حجةً من الله علىٰ الناس، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾؛ أي: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة وله الحجة القاطعة في ذلك، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته[4] ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين - وقد قدمنا في سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلافَ الناس فيهم - والنصارىٰ والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالىٰ ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به إلىٰ النار، فإنه تعالىٰ شهيدٌ علىٰ أفعالهم، حفيظٌ لأقوالهم، عليمٌ بسرائرهم وما تُكِنُّ ضمائرهم.

---

(١) لوحة (٢٩٩/ ب).
(٢) في (ز): (ولما وقر تعال).
(٣) في (ز): (ينصره).
(٤) في (ز): (فلحمته).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن (١) مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾

يخبر تعالىٰ أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيءٍ طوعًا وكرهًا، وسجود [كل شيء مما](٢) يختص به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه علىٰ التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبيَّن أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبةٌ مسخرةٌ، ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وفي «الصحيحين» عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أتدري أين تذهب هذه الشمس؟**». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي مِن حَيْثُ جئتِ**»(٣).

وفي «المسند»، و«سنن أبي داود»، و«النسائي»، و«ابن ماجه» في حديث الكسوف: «**إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكن الله ﷻ إذا تَجلَّىٰ لشيءٍ من خلقه خشع له**»(٤).

وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجدًا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتىٰ يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتىٰ يرجع إلىٰ مطلعه.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفَيء ظلالهما عن اليمين والشمائل. وعن ابن عباس قال: جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائمٌ، كأني أصلي خلف شجرةٍ، فسجدتُ فسجَدَت الشجرة لسجودي، فسمعتُها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سَجَد، فسمعته وهو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة(٥). رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبّان في «صحيحه».

---

(١) لوحة (٣٠٠/ أ). (٢) في (ز): (وسجود كما يختص به). (٣) البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

(٤) مرسل: رواه أحمد (٤/ ٢٦٧، ٢٦٩)، وأبو داود (١١٩٣)، والنسائي (٣/ ١٤١)، وابن ماجة (١٢٦٢) وفيه أبو قلابة: لم يسمع من النعمان بن بشير. وأصل الحديث صحيح دون قوله: (لكن الله ... إلخ) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٥) **حسنه الألباني**: رواه الترمذي (٥٧٩) و(٣٤٢٤)، وابن ماجة (١٠٥٣)، وفيه محمد بن يزيد وشيخه الحسن بن محمد: كلاهما مقبول، وانظر: «الصحيحة» (٢٧١٠).

وقوله: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أي: الحيوانات كلها. وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن اتخاذ ظهور الدواب منابر؛ فرب مركوبةٍ خير وأكثر ذكرًا لله من راكبها[١].

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يسجد لله طوعًا مختارًا متعبدًا بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: ممن امتنع وأبىٰ واستكبر، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القَدَّاحُ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه[٢] قال: قيل لعليٍّ: إن هاهنا رجلًا يتكلم في المشيئة. فقال له عليٌّ: يا عبدَ اللهِ، خلقك الله كما يشاء أو كما شئتَ؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئتَ؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئتَ؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئتَ أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلتَ غير ذلك لضربتُ الذي فيه عيناك بالسيف[٣].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابنُ آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا وَيْلَهُ. أُمِرَ ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمِرتُ بالسجود فأبيتُ، فلي النار**». رواه مسلم[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم، وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا: حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا مِشْرَح بن هاعان أبو مُصعب المعافري قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: قلت: يا رسول الله، أَفُضِّلَتْ سورة الحج علىٰ سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «**نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما**»[٥].

ورواه أبو داود والترمذي، من حديث عبد الله بن لهيعة، به. وقال الترمذي: «ليس بقوي». وفي هذا نظر؛ فإن ابن لَهِيعة قد صَرح فيه بالسماع، وأكثر[٦] ما نَقَموا عليه تدليسه.

وقد قال أبو داود في «المراسيل»: حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح، أنبأنا ابن وَهْب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جَشِيب[٧]، عن خالد بن مَعْدان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلت**

---

(١) **صحيح دون جملة «فرب مركوبةٍ خير من راكبها»**: رواه أحمد (٣/ ٤٣٩- ٤٤٠)، وصححه الشيخ الألباني لشواهده عدا الجملة الأخيرة: (فرب مركوبةٍ خير من راكبها)؛ لأنها من رواية زبان عن سهل وهي ضعيفة. وللحديث شواهد، انظر: «الصحيحة» للألباني (٢١).

(٢) لوحة (٣٠٠/ ب)، وفيها: (عن أبيه عن علي قال...)، والمثبت من «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي.

(٣) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٣٨١٥)، ورواه اللالكائي (١٣١٠)، وفي الإسناد عبد الله بن ميمون القداح: منكر الحديث كما في «التقريب».

(٤) مسلم (٨١)، وابن ماجة (١٠٥٢)، وأحمد (٢/ ٤٤٣).

(٥) **إسناده ضعيف**: رواه أحمد (٤/ ١٥١)، ورواه أبو داود (١٤٠٢)، والترمذي (٥٧٨)، والإسناد فيه ابن لهيعة، لكن في الرواة عنه أحد العبادلة، وهو أبو عبد الرحمن: عبد الله بن يزيد المقري فلا يضر، لكن علة الحديث: مشرح بن هاعان: قال في «التقريب»: مقبول. وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقوي. وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢٠٣). وللحديث شواهد تثبت السجدتين في هذه السورة، قال الحاكم (٢/ ٢٩٠): وقد صحت الرواية فيه من قول عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وأبي موسىٰ، وأبي الدرداء، وعمار ﵃. وقال الذهبي في «التلخيص»: صحت الرواية في هذا من قول عمر وطائفة.

(٦) في (ز): (وأليس).

(٧) في (ز): (عامر بن حسيب)، وهو خطأ، والمثبت هو الصواب، انظر: «تهذيب الكمال» (١٤/ ١٤).

سورة الحج على القرآن بسجدتين»[١].

ثم قال أبو داود: وقد أسندَ هذا؛ -يعني: من غير هذا الوجه- ولا يصح.

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثني نافع، حدثني أبو الجهم: أن عمر سجد سجدتين في الحج -وهو بالجابية- وقال: إن هذه فضلت بسجدتين[٢].

وروى أبو داود وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد العُتَقيّ[٣]، عن عبد الله بن مُنَين، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في «المُفَصَّل[٤]»، وفي «سورة الحج» سجدتان[٥]. فهذه شواهد يَشُدّ بعضها بعضًا[٦].

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

ثبت في «الصحيحين»، من حديث أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي ذرٍّ؛ أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟[٧] فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحِبَيه، وعتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا في بدر[٨]. لفظ البخاري عند تفسيرها.

ثم قال البخاري: حدثنا حجاج بن مِنْهَال، حدثنا المعتمر بن سليمان، [سمعت أبي][٩]، حدثنا أبو مِجْلَزٍ، عن قيس ابن عُبَاد، عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدرٍ:

---

(١) مرسل: رواه أبو داود في «المراسيل» (٧٨).

(٢) ضعيف: في إسناده يزيد بن عبد الله بن زريق. قال الحافظ: مقبول، وابن أبي داود صاحب كتاب «المصاحف»: ضعيف الحديث.

(٣) في (ز): (الصفي).

(٤) اختلف في المراد بالمفصل -مع الاتفاق على أن منتهاه آخر القرآن- هل هو من أول الصافات، أو الجاثية، أو القتال، أو الفتح، أو الحجرات، أو ق، أو الصف، أو تبارك، أو سبح، أو الضحى إلى آخر القرآن، أقوال أكثرها مستغرب، اقتصر في «شرح المهذب» على أربعة من الأوائل سوى الأول والرابع... والراجح: الحُجرات. ذكره النووي. «فتح الباري»: (٢/ ٢٤٩).

(٥) ضعيف: رواه أبو داود (١٤٠١)، وابن ماجة (١٠٥٧)، وفيه الحارث بن سعيد العتقي: مقبول.
تنبيه: تدل هذه الروايات السابقة على ثبوت السجدتين في السورة، ولذا قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذه شواهد يشد بعضها بعضًا.

(٦) اعتنى بعض الباحثين بجمع سجدات القرآن والكلام عليها، وبيان الروايات الثابتة في ذلك من غيرها، وغير ذلك من أحكام سجود القرآن. ينظر: «التبيان في سجدات القرآن» للشيخ/ عبد العزيز السدحان، و«سجود القرآن» للشيخ/ مجدي عرفات.

(٧) لوحة (٣٠١/ أ).

(٨) البخاري (٣٩٦٦)، ومسلم (٣٠٣٣) من حديث أبي ذرٍّ.

(٩) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

عليّ وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخاري[١].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم. فنحن أولىٰ بالله منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضي علىٰ الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولىٰ بالله منكم. فأفلج[٢] الله الإسلامَ علىٰ من ناوأه، وأنزل: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾. وكذا روىٰ العَوفي، عن ابن عباس[٣].

وقال شعبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ قال: مُصدق ومكذب. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث. وقال - في رواية هو وعطاء في هذه الآية -: هم المؤمنون والكافرون. وقال عكرمة: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ قال: هي الجنة والنار، قالت النار: اجعلني للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلني للرحمة. وقولُ مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حَسَن؛ ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من نار.

قال سعيد بن جبير: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارةً إذا حمي.

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾؛ أي: إذا صب علىٰ رءوسهم الحميم، وهو الماء الحار في غاية الحرارة.

وقال سعيد: هو النحاس المذاب، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وكذلك تذوب جلودهم، وقال ابن عباسٍ وسعيدٌ: تساقط.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنىٰ، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالَقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سعيد بن يزيد[٤]، عن أبي السَّمْح، عن ابن[٥] حُجَيرة، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: «**إن الحميم ليُصَبُّ علىٰ رءوسهم، فينفُذ الجمجمةَ حتىٰ يخلص إلىٰ**[٦] **جوفه، فيسلت**[٧] **ما في جوفه، حتىٰ يبلغ قدميه، وهو الصهر**[٨][٩]، **ثم يعاد كما كان**».

---

(١) رواه البخاري (٤٧٤٤). (٢) أي: نصره وأعلاه.

(٣) أثر ابن عباسٍ ضعيف: رواه الطبري (١٧/ ٩٩) من طريق العوفي وهو شيعي. وأثر قتادة مرسل، وقد عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠) إلىٰ عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) كذا في (ز) وهو الصواب، وفي بعض النسخ: (زيد)، وهو خطأ، وصوبه في طبعة الطبري (١٦/ ٤٩٥)، وذكر أنه في النسخ زيد، ووقع عندهم (ابن جُجَيرة) وهو خطأ كذلك، وسعيد بن يزيد هو الحميري، ينظر: «تهذيب الكمال» (١١/ ١١٨).

(٥) في (ز): (أبي حجيرة). (٦) لوحة (٣٠١/ ب).

(٧) السَّلت: القطع، أي: يقطع الحميم أمعاءه.

(٨) الصَّهر: الإذابة.

(٩) في (ز): (وهو الضمير)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك، وقال: حسن صحيح[١]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي نعيم، عن ابن المبارك، به، ثم قال ابن أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَاريّ، سمعت عبد الله بن السريِّ قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بِكَلْبتين[٢] من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مِقْمَعَة[٣] معه فيضرب بها رأسه، فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه، فيصل إلىٰ جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾، قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسىٰ، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن مِقْمَعًا مِن حَديدٍ وُضِع في الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أَقلُّوه[٤] من الأرض**»[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسىٰ بن داود، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو ضُرب الجبلُ بمِقْمَعٍ من حديدٍ لتفتت، ثم عاد كما كان، ولو أن دلوًا من غسَّاق[٦] يُهرَاق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا**»[٧].

وقال ابن عباسٍ في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال: يُضْرَبُونَ بها، فيقع كل عضوٍ علىٰ حياله، فيدعون بالثبور[٨].

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، قال الأعمش، عن أبي ظَبْيان، عن سلمان رضي الله عنه قال: النار سوداء مظلمة، لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾[٩].

وقال زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ قال: بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون. وقال الفُضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدةٌ، وإن الأيدي لموثقةٌ، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم مقامعها.

---

(١) **حسن**: رواه الطبري (١٧/ ١٢٣)، والترمذي (٢٥٨٢) وقال: حسن صحيح، ورواه ابن أبي حاتم (١٣٨٢٢).

(٢) **الكَلْبتان**: الحديدة التي تكون مع الحداد يأخذ بها الحديد المحمىٰ.

(٣) **المِقْمَعَة**: واحدة المقامع، وهي: سياط تعمل من حديد رءوسها معوجة.

(٤) **أقلوه**: رفعوه.

(٥) **ضعيف**: رواه أحمد (٣/ ٢٩)، وفي الإسناد ضعف؛ لأن دراجًا ضعيف في روايته عن أبي الهيثم، وفي الإسناد أيضًا ابن لهيعة.

(٦) **الغسَّاق**: ما يسيل من صديد أهل النار وغسالتهم. (٧) **ضعيف كسابقه**: رواه أحمد (٣/ ٨٣)، وانظر ما قبله.

(٨) **الثبور**: الهلاك، والمعنىٰ أنهم يقولون: واثبوراه، أي: يا ثبور هذا أوانك.

(٩) رواه الطبري (١٧/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم (١٣٨٣٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٧٥)، والحاكم (٢/ ٣٨٧) وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢) إلىٰ سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة (٨/ ٩١)، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن المبارك في «الزهد» (٣١٠). قلت: وهو في حكم المرفوع؛ لأنه مما لا يقال بالرأي.

وقوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، ومعنىٰ الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولًا وفعلًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

لما أخبر تعالىٰ عن حال أهل النار -عياذًا بالله من حالهم- وما هم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة - نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة[1] - فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: تتخرّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ -من الحلية- ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾؛ أي: في أيديهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه[2]: «**تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوُضُوء**»[3].

وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكًا -لو شئت أن أسميه لسميتُه-، يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلىٰ يوم القيامة، لو أبرز قُلْب منها - أي: سوار منها - لرد شعاع الشمس، كما ترد الشمس نور القمر[4].

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُندُسه، كما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفي «الصحيح»: «**لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[5].

قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير في الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[6].

وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، كقوله: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلىٰ المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب،

---

(١) لوحة (٣٠٢/ أ).

(٢) لم نقف عليه في «صحيح البخاري» بهذا اللفظ. (٣) مسلم (٢٥٠)، والنسائي (١/ ٢٣).

(٤) من كلام كعب الأحبار، ولم أقف علىٰ إسناده عنه، فإن صح الإسناد إليه فهو من الإسرائيليات التي تروىٰ لا تُصدَّقُ ولا تُكَذَّبُ.

(٥) البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

(٦) هذه الزيادة عزاها الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٨٨) للنسائي والإسماعيلي في «مستخرجه».

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا [كما يهان] (١) أهل النار بالكلام الذي يُروّعون به، ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في «الصحيح»: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَس» (٢).

وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الطريق المستقيم في الدنيا. وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه (٣)، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾

يقول تعالى منكرًا (٤) على الكفار في صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: ﴿[وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ] (٥) إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وفي هذه الآية دليلٌ على أنها مدنيةٌ، كما قال في سورة «البقرة»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ومن صفتهم -مع كفرهم- أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام؛ أي: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، أي: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعًا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾] (٦)، ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، [قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾] (٧): أهل مكة وغيرهم فيه سواء في

---

(١) في (ز) كلمة غير مقروءة. (٢) تقدَّم، انظر تفسير سورة يونس رقم (٣).
(٣) فهو مما يقال فيه: اختلاف تنوع لا تضاد، راجع «مقدمة أصول التفسير» لأبي العباس ابن تيمية، و«مقدمة التفسير» - فضائل القرآن- لابن كثير رحم الله الجميع.
(٤) لوحة (٣٠٢/ ب). (٥) سقط من (ز).
(٦) ما بين المعكوفتين سقط من (ز). (٧) ليست في (ز).

المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][(١)]. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخِيف[(٢)]، وأحمد بن حنبل حاضر أيضًا، فذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهري، عن علي بن الحُسَين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غدًا في دارك بمكة؟ فقال: «**وهل ترك لنا عَقيل من رباع**»[(٣)]. ثم قال: «**لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر**». وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في «الصحيحين»[(٤)]، [وبما[(٥)] ثبت أن عمر بن الخطاب اشترىٰ من صفوان بن أمية دارًا بمكة، فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم[(٦)]. وبه قال طاوس، وعمرو ابن دينار.

وذهب إسحاق بن راهَويه إلىٰ أنها لا تورث ولا تؤجر[(٧)]. [وهو مذهب][(٨)] طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهَويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عيسىٰ بن يونس، عن عُمَر بن سعيد بن أبي حُسَين، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نَضْلة قال: تُوُفي[(٩)] رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعىٰ رباع مكة] إلا السوائب[(١٠)]، من احتاج سكن، ومن استغنىٰ أسكن[(١١)].

وقال عبد الرزاق، عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال[(١٢)]: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها[(١٣)].

وقال أيضًا عن ابن جريج: كان عطاء ينهىٰ عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهي أن تُبوّب دور مكة؛ لِأَنْ يَنْزِلَ الْحَاجُّ في عَرَصاتها، فكان أول من بَوّب داره سُهَيل[(١٤)] بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنتُ امرأً تاجرًا، فأردتُ أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري[(١٥)]. قال: فذلك إذًا[(١٦)].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) **الخَيْف**: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع من مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من منىٰ.

(٣) **الرَّبع**: المنزل ودار الإقامة. (٤) البخاري (٤٢٨٢)، ومسلم (١٦١٤).

(٥) من هنا إلىٰ قوله: «وما تدعىٰ رباع مكة إلا». اضطرب النص في (ز)، والمثبت من المطبوع.

(٦) **ضعيف**: رواه البخاري معلقًا (٥/ ٧٥)، ووصله الفاكهي في «أخبار مكة» (٣/ ٢٥٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٥/ ١٤٨/ ٩٢١٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٧)، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٣٤)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٧/ ٣٤٤)، وفيه عبد الرحمن بن فَرُّوخ، قال الحافظ: مقبول.

(٧) في (ز): (لأنها لا تؤجر). (٨) في (ز): (وقال طائفة). (٩) في (ز): (ترك رسول الله).

(١٠) سَيَّب الشيء: تركه، والسوائب: جمع سائبة، كأنها سيبت وتركت لله ﷻ.

(١١) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (٣١٠٧)، وفيه علقمة بن نضلة: تابعي وهو ضعيف.

(١٢) لوحة (٣٠٣/ أ). (١٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥/ ١٤٨/ ٩٢١٤).

(١٤) في (ز): (سهل). (١٥) **الظَّهْر**: الإبل التي يحمل عليها وتركب، يقال: عند فلان ظهر، أي: إبل.

(١٦) مرسل: رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥/ ١٤٧/ ٩٢١١).

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابًا لينزل البادي حيث يشاء[١].

[قال: وأخبرنا مَعْمر، عمن سمع عطاء يقول في قوله: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، قال: ينزلون حيث شاءوا. وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نَجِيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفًا: من أكل كراء بيوت مكة أكل نارًا[٢]][٣]. وتوسط الإمام أحمد [فيما نقله صالح ابنه][٤] فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعًا بين الأدلة[٥]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تُنْبِتُ الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ تقديره إلحادًا، وكما قال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزق عيالنا أرْماحُنا ... بين المَرَاجِلِ[٦]، والصَّريحَ الأجرد

وقال الآخر:

بوَادٍ يَمانٍ يُنْبِتُ الشَّثَّ[٧] صَدْرُهُ ... وَأسْفَلَه بالمَرْخ والشَّبَهَان[٨]

والأجود: أنه ضمن الفعل هاهنا معنى «يَهُمّ»، ولهذا عداه بالباء، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾، أي: يَهُمّ فيه بأمرٍ فظيعٍ من المعاصي الكبار.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: عامدًا قاصدًا أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن [جريج][٩]، عن ابن عباس: هو [التعمد][١٠].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾ بشرك.

وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحدٍ.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: هو أن تَستحلَّ [من][١١] الحرام ما حَرّم الله عليك من لسانٍ[١٢] أو

---

(١) **ضعيف**: «مصنف عبد الرزاق» (٥/ ١٤٧/ ٩٢١١)، وإسناده منقطع: مجاهد لم يسمع من عمر.
(٢) **ضعيف**: رواه الدارقطني (٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠)، والبيهقي (٦/ ٣٥)، وفيه عبيد الله بن أبي زياد القداح: ضعيف، والرواي عنه ابن إسرائيل: لم أعرفه.
(٣) بياض بـ(ز). (٤) ليست في (ز).
(٥) ووافقه أبو العباس ابن تيمية. ينظر: «مجموع الفتاوى»: (١٧/ ٤٩١)، وذهب الشافعي وغيره إلىٰ جواز بيع دور مكة وإجارتها، وعزىٰ الحافظ ابن حجر الجواز للجمهور -رحم الله الجميع-. ينظر: «المجموع» للنووي (٧/ ٤٦٤)، و«المغني» (٦/ ٣٦٥)، و«المحلى» لابن حزم (٧/ ٢٦٣)، و«فتح الباري» (٣/ ٤٥٠)، و«أضواء البيان» (٢/ ٤٤٧)، و«الشرح الممتع» (٨/ ١٣٨)، و«أحكام الحرم المكي الشرعية» للحويطان (ص٢٧٣).
(٦) **المراجل**: جمع مِرْجل، وهو القدر، والأجرد: يقال: لبن أجرد، أي: لا رغوة فيه.
(٧) **الشَّث**: ضرب من الشجر، وقيل: شجر طيب الريح مر الطعم، يدبغ به، والمَرْخ: شجر النار، والشَّبَهان: ما عظم من شجر الشوك.
(٨) في (ز): (والشبهات). (٩) بياض بـ(ز). (١٠) بياض بـ(ز).
(١١) سقط من (ز). (١٢) أي: من الغيبة وتناول الأعراض.

أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَلَ ذلك فقد وجب له العذاب الأليم.

وقال مجاهد: ﴿بِظُلۡمٍ﴾: يعمل فيه عملًا [سيئًا][(١)]. وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادي فيه الشر، إذا كان عازمًا عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبي حاتم في «تفسيره»:

حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السُّدِّي: أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله - يعني: ابن مسعود - في قوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٍ﴾ قال: لو أن رَجُلًا أراد فيه بإلحادٍ بظلمٍ، وهو بعَدَن أبينَ[(٢)]، أذاقه الله من العذاب الأليم.

قال شعبة: هو رفعه لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قد رفعه[(٣)].

ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به[(٤)].

[قلت: هذا الإسناد][(٥)] صحيحٌ علىٰ شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه؛ ولهذا صَمم شعبة علىٰ وَقْفه[(٦)] من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثوري، عن السدي، عن مُرة، عن ابن مسعود موقوفًا[(٧)]، والله أعلم.

وقال الثوري[(٨)]، عن السدي، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهم بسيئةٍ فتكتب عليه، ولو أن رجلًا بعَدَن أبينَ هَمّ [أن يقتل][(٩)] رجلًا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم[(١٠)]. وكذا قال الضحاك بن مُزاحم.

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: «إلحاد فيه»: لا والله، وبلىٰ والله[(١١)]. وروي عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله[(١٢)].

وقال سعيد بن جُبَير: شتم الخادم ظلم فما[(١٣)] فوقَه.

وقال سفيان الثوري، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٍ﴾ قال: تجارة الأمير فيه[(١٤)].

---

(١) سقط من (ز). (٢) أبين: أبعد. (٣) رواه ابن أبي حاتم (١٣٨٦٢)، وانظر ما بعده.

(٤) حسن: رواه أحمد (١/ ٤٢٨)، والطبري (١٧/ ١٤١). ورواه الحاكم (٢/ ٣٨٧) من طريق أخرىٰ عن مُرَّة به موقوفًا وسيأتي. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦) إلىٰ الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وعبد بن حميد، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مرْدوَيه.

(٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): (رفعه). (٧) في (ز): (مرفوعًا).

(٨) لوحة (٣٠٣/ ب). وفي (ز): (وقال: البزار). (٩) في (ز): (أرسل). والمثبت من «الطبري».

(١٠) حسن: رواه الطبري (١٧/ ١٤١)، والحاكم (٢/ ٣٨٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦) إلىٰ سعيد بن منصور والطبراني.

(١١) أي: أن يحلف المرء: (لا والله، وبلىٰ والله)، ونحو هذا مما يعد لغوًا في غير المسجد الحرام.

(١٢) رواه الطبري (١٧/ ١٤٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧) إلىٰ سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(١٣) في (ز): (لما فوقه).

(١٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٣٨٦٩)، وفي إسناده عبد الله بن عطاء. قال ابن معين: لا شيء، وقال الحافظ: =

وعن ابن عمر: بيع الطعام [بمكة][1] إلحاد[2].

وقال حبيب[3] بن أبي ثابت: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحدٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر ابن يحيىٰ، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثني موسىٰ بن باذان، عن يعلىٰ بن أمية؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**احتكار الطعام بمكة إلحاد**»[4]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا يحيىٰ بن عبد الله بن بُكَيْر[5]، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس في قول الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أُنَيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أُنَيس، فقتل الأنصاريّ، ثم ارتد عن الإسلام، وهَرَب إلىٰ مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ يعني: من لجأ إلىٰ الحرم بإلحادٍ؛ يعني: بميل عن الإسلام[6]. وهذه الآثار، وإن دلت علىٰ أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيهٌ علىٰ ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل علىٰ تخريب البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]؛ أي: دمَّرهم وجعلهم عبرةً ونكالًا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**يغزو هذا البيت جيشٌ، حتىٰ إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم**». الحديث[7].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُنَاسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتىٰ عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حَرَم الله، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنه سيلحدُ فيه رجلٌ من قريش، لو تُوزَن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت**»، فانظر لا تكن هو[8].

وقال أيضا [في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص][9]: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد، حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتىٰ عبدُ الله بن عمرو ابنَ الزبير، وهو جالسٌ في الحِجْر فقال: يا ابن

= صدوق يخطئ ويدلس.

(١) ليست في (ز).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٣٨٦٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨) إلىٰ عبد بن حميد وابن أبي حاتم، ولم أقف علىٰ إسناده.

(٣) في (ز): (جندب).

(٤) **ضعيف**: رواه أبو داود (٢٠٢٠)، وفيه موسىٰ بن باذان: مجهول.

(٥) في (ز): (بكر).

(٦) **ضعيف**: في إسناده ابن لهيعة: اختلط، وفيه عطاء بن دينار، قال الحافظ: صدوق إلا أن روايته عن سعيد بن جبير من صحيفة.

(٧) رواه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).

(٨) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ١٣٦).

(٩) ليست في (ز).

الزبير، إياك والإلحادَ(١) في الحرم، فإني أشهد لسَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يحلها ويحل به رجلٌ من قريشٍ، لو وُزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها**». قال: فانظر لا تكن هو(٢).

ولم يخرجه أحدٌ من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

هذا فيه تقريعٌ وتوبيخٌ لمن [عبد](٣) غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أُسِّسَتْ من أول يوم علىٰ توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالىٰ أنه بَوأ إبراهيم مكانَ البيت؛ أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنىٰ البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت في «الصحيح» عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ وُضعَ أول؟ قال: «**المسجد الحرام**». قلت: ثم أي؟ قال: «**بيت المقدس**»(٤).

قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»(٥).

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من «الصحاح» والآثار، بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا.

وقال تعالىٰ هاهنا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾؛ أي: ابنه علىٰ اسمي وحدي، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾، قال مجاهد وقتادة: من الشرك، ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: اجعله خالصًا لهؤلاء

---

(١) لوحة (٣٠٤/ أ). (٢) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٢١٩). (٣) سقط من (ز).

(٤) كذا في الأصل، والذي في «الصحيحين» وغيرهما: «المسجد الأقصىٰ»، وهوالذي في فلسطين -حررها الله من اليهود وأعوانهم-، ولا يقال لغيره، ولا يعرف مسجد أقصىٰ غيره، ولا عبرة بما يثيره المخرفون الآن ليضللوا المسلمين ويوهموا البعض أنه مسجد آخر ولا يوجد في فلسطين، ولسان حال هؤلاء:

وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

فالمسجد الأقصىٰ هو الذي في فلسطين لا غيره، سمي أقصىٰ لبعد المسافة بينه وبين الكعبة، كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٤٠٨)، وعقيدتنا معشر المسلمين أنه من مقدساتنا، وفي رحابه وفي الشام -وفلسطين من الشام- فرج الله عن أهله وعن سائر المسلمين، تقع الملاحم آخر الزمان، ويقاتل المسلمون اليهود، وينتصر المسلمون ويَهْزِمون اليهود، وقد قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم كذلك**»، فلعل إخواننا في فلسطين من هؤلاء. فرج الله عنهم وأصلحهم وسددهم ونصرهم وحفظهم. آمين.

(٥) البخاري (٣٣٦٦) و(٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠)، وابن ماجة (٧٥٣)، والنسائي (٢/ ٣٢).

الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعةٍ من الأرض سواها، ﴿وَالْقَآئِمِينَ﴾ أي: في الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾؛ أي: ناد في الناس داعيًا لهم إلىٰ الحج إلىٰ هذا البيت الذي أمرناك ببنائه. فَذُكر أنه قال: يا رب، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام علىٰ مقامه، وقيل: علىٰ الحجر، وقيل: علىٰ الصفا، وقيل: علىٰ أبي قُبَيس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتىٰ بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمَعَ مَن في الأرحام[(١)] والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حَجَرٍ ومَدَرٍ وشجرٍ، و[من][(٢)] كتب الله أنه يحج إلىٰ يوم القيامة: «لبيك اللهم لبيك».

هذا مضمون ما روي عن ابن عباس[(٣)]، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وغير واحدٍ من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جَرير، وابن أبي حاتم مُطَوّلةً.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلىٰ أن الحج ماشيًا -لمن قدر عليه- أفضلُ من الحج راكبًا؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل علىٰ الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم.

[وقال وكيع، عن أبي العميس، عن أبي حلحلة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس قال: ما آسىٰ علىٰ شيء، إلا أني وددت أني كنت حججت ماشيًا؛ لأن الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾][(٤)].

والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبًا أفضل[(٥)]؛ اقتداءً برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبًا مع كمال قوته عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعني: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيدٍ. قاله مجاهد، وعطاء، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثوري، وغير واحدٍ.

---

(١) لوحة (٣٠٤/ ب). (٢) سقط من (ز).

(٣) رواه الطبري (١٧/ ١٤٤)، والحاكم (٢/ ٣٨٩)، من طريق قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس، وقابوس هذا فيه لين، لكنه توبع؛ فقد رواه ابن جرير (١٧/ ١٤٤)، والحاكم (٢/ ٥٥٢)، من طريق عطاء بن السائب، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس نحوه، وعطاء بن السائب: صدوق اختلط. ورواه الطبري (١٧/ ١٤٤) من طريق أخرىٰ نحوه، وفيه محمد بن حميد: حافظ ضعيف، وبالجملة فالأثر لا بأس به.

(٤) سقط من (ز)، والأثر رواه ابن أبي حاتم (١٣٨٨٥)، والطبري (١٧/ ١٤٥)، وفي إسناده الحجاج بن أرطأة: ضعيف، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥) إلىٰ ابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٥) ينظر: «المجموع» للنووي (٧/ ٩١)، و«فتح الباري»: (٣/ ٣٨٠)، وتوسط أبو العباس ابن تيمية فذكر أن الأفضلية تكون باختلاف أحوال الناس: «... فإن من الناس من يكون حجه راكبًا أفضل، ومنهم من يكون حجه ماشيًا أفضل». «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١٣٢).

وهذه الآية كقوله تعالىٰ إخبارًا عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يَحِنّ إلىٰ رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾

قال ابن عباس: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾، قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة: فرضوان الله، وأما منافع الدنيا: فما يصيبون من منافع البُدْن والربح والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحدٍ: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقوله: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، قال شعبة، [وهُشَيْم، عن أبي بشر، عن سعيد][1]، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر[2]. وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به[3]. ويروىٰ مثله عن أبي موسىٰ الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد ابن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم النَّخعي. وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن عَرْعَرَة، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**ما العمل في أيامٍ أفضل منها في هذه**»، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع [بشيء]**[4]».

ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه. وقال[5] الترمذي: حديث حسنٌ غريبٌ صحيحٌ، وفي الباب: عن ابن عمر، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر.

قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءًا علىٰ حدته، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا عفَّان، أنبأنا أبو عَوَانة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد**»[6]. وروي من وجه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر، بنحوه. [وقال البخاري: وكان ابن عمر،

في (ز): (عن وهيم).

(٢) صحيح: رواه الطبري (١٧/ ١٤٥)، والبخاري تعليقًا (٢/ ٤٥٧)، وقد ثبت عنه نحوه. عزاه الحافظ (٢/ ٤٥٨) إلىٰ ابن مردويه وصحح إسناده.

(٣) في (ز): (بصيغة الخبرية).

سقط من (ز)، والمثبت من «الصحيح». ورواه البخاري (٩٦٩)، وأبو داود (١٤٣٨)، والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجة (١٧٢٧)، وأحمد (١/ ٢٢٤).

(٥) لوحة (٣٠٥/ أ). (٦) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٧٥)، وفيه يزيد بن أبي زياد: ضعيف.

وأبو هريرة يخرجان إلىٰ [السوق][(١)] في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما][(٢)].

وقد روىٰ أحمد، عن جابر مرفوعًا: أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:١، ٢] [(٣)]. وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وفي «سنن أبي داود»: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر[(٤)]. وهذا العشر مشتمل علىٰ يوم عرفة، الذي ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة؟ فقال: «أحتسبُ علىٰ الله أن يُكفر السنة الماضية والآتية»[(٥)]. ويشتمل علىٰ يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديثٍ أنه أفضل الأيام عند الله[(٦)].

وبالجملة، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير علىٰ عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه.

وقيل: ذاك أفضل لاشتماله علىٰ ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر.

وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل[(٧)]. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قولٌ ثانٍ في الأيام المعلومات: قال الحَكَم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده[(٨)]. ويروىٰ هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النَّخَعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه.

قول ثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المديني، حدثنا يحيىٰ بن سعيدٍ، حدثنا ابن عَجْلان، حدثني نافع؛ أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات: يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات: ثلاثة أيام بعد يوم النحر[(٩)].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ما بين المعكوفتين وقع في (ز) بعد قوله: (كان يصوم هذا العشر) الآتي بعد قليل، وقدمناه لمناسبة الكلام، والأثر علَّقه البخاري في «صحيحه» (٢/ ٤٥٧). قال الحافظ في «الشرح»: لم أره موصولًا عنهما، وقد ذكره البيهقي أيضًا معلقًا عنهما وكذا البغوي.

(٣) **ضعيف:** رواه أحمد (٣/ ٣٢٧) بلفظ: (إن العشر عشر الأضحىٰ)، وفيه أبو الزبير: مدلس وقد عنعن.

(٤) رواه أبو داود (٢٤٣٧)، ورجاله ثقات، لكنه اختلف علىٰ هنيدة بن خالد في إسناده كما ذكر المنذري، وصححه الألباني.

(٥) مسلم (١١٦٢).

(٦) **صحيح:** رواه أبو داود (١٧٦٥)، وأحمد (٤/ ٣٥٠)، والحاكم (٤/ ٢٢١)، وابن حبان (٢٨١١) من حديث عبد الله ابن قُرْط.

(٧) أي: ليالي العشر الأخير من رمضان. والقائل بذلك هو: شيخ الإسلام ابن تيمية، ووافقه تلميذه العلامة: ابن القيم - رحم الله الجميع. ينظر: «الفتاوىٰ الكبرىٰ»: (٢/ ٤٧٧)، و(٥/ ٣٧٩)، و«مجموع الفتاوىٰ: (٢٥/ ٢٨٧)، و«زاد المعاد» (١/ ٥٤).

(٨) عزاه الحافظ في «الفتح» (٢/ ٤٥٨) إلىٰ ابن أبي شيبة، والحكم هو ابن عتيبة، فقيهٌ ثبتٌ، إلا أنه ربما دلس، ومِقسم مولىٰ ابن عباس كان يرسل.

(٩) **حسن:** رواه ابن أبي حاتم (١٣٨٩٤)، ورجاله ثقات عدا محمد بن عجلان فهو صدوق، إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة. كما في «التقريب».

هذا إسنادٌ صحيحٌ إليه، وقاله السدي، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم [١] مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، يعني به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبي حنيفة.

وقال ابن وهب: حدثني ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، يعني: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالىٰ في سورة الأنعام، وأنها: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾، استدل بهذه الآية من ذهب إلىٰ وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قولٌ غريبٌ، والذي عليه الأكثرون: أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة[٢] فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسىٰ من مرقها[٣].

وقال عبد الله بن وهب: [قال لي مالك: أُحِبّ أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾: قال ابن وهب][٤]. وسألت الليث، فقال لي مثل ذلك.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وروي عن مجاهد، وعطاء نحو ذلك.

قال هُشَيْم، عن حُصَين، عن مجاهد في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ هي كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١٠][٥].

وهذا اختيار ابن جرير في «تفسيره»، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحي، ونصف للفقراء. والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء؛ ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به[٦]؛ لقوله في الآية الأخرىٰ: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وسيأتي الكلام عليها عندها إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس، [والفقير][٧] المتعفف.

وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزّمِن[٨]. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

---

(١) لوحة (٣٠٥/ ب). (٢) أي: قطعة. (٣) رواه مسلم (١٢١٨).

(٤) ما بين المعكوفتين سقط من (ز).

(٥) الآيتان فيهما أمر بعد الحَظْر، وفيه أقوال للعلماء منها: أنه للوجوب، والثاني: للإباحة، والثالث: يُرد الحكم إلىٰ ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجبًا فواجب، وإن كان مستحبًّا فمستحب، وإن كان مباحًا فمباح. وهذا الأخير هو الراجح، وهو اختيار المؤلف والإمام الشنقيطي -رحمهما الله- وغيرهما. ينظر: تفسير المؤلف لآيات: البقرة (٢٢٢)، والمائدة (٢)، و«البحر المحيط» للزركشي (٢/ ٣٧٩) ط الكويت، و«المذكرة» للشنقيطي ص(٣٠٣) ط عالم الفوائد.

(٦) راجع «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٧٤). ط الرسالة.

(٧) سقط من (ز). (٨) الزّمِن: هو المصاب بآفة لازمة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع [الإحرام][(١)] من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك[(٢)]. وهكذا روىٰ عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظي عنه. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث: المناسك.

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر[(٣)] ما نذر من أمر البُدن. وقال ابن[(٤)] أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدي، وما نذر الإنسان من شيءٍ يكون في الحج. وقال إبراهيم بن مَيْسَرَة، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: الذبائح. وقال ليث بن أبي سُليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: كل نذرٍ إلىٰ أجلٍ. وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، [قال: حجهم.

وكذا روىٰ الإمام ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾][(٥)]، قال: نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمي الجمار، علىٰ ما أمروا به. وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت[(٦)].

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلىٰ منىٰ يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصياتٍ، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفي «الصحيح» عن ابن عباس أنه قال: أُمِرَ الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض[(٧)].

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فيه مستدل لمن ذهب إلىٰ أنه يجب الطواف من وراء الحِجْر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما علىٰ قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا [ابن][(٨)] أبي عمر العَدَني، حدثنا سفيان، عن هشام بن حُجْر، عن رجل، عن ابن

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه الطبري (١٧/ ١٥٠)، وفيه انقطاع، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠) إلىٰ ابن المنذر، وابن أبي حاتم (١٣٩٠١)، وقد روىٰ ابن أبي شيبة (١٥٦٧٣) نحوه بسندٍ صحيح.

(٣) في (ز): (ما نحر). (٤) لوحة (٣٠٦/ أ). (٥) ما بين المعكوفتين سقط من (ز).

(٦) حسن: عزاه المصنف لابن أبي حاتم. (٧) البخاري (٣٢٩)، ومسلم (١٣٢٨).

(٨) سقط من (ز).

عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله ﷺ من ورائه[١].

وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال: لأنه أول بيتٍ وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح. وقال خَصِيف: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وقال ابن أبي نَجِيح، وليث، عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة. وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرِده أحدٌ بسوءٍ إلا هلك.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن [ابن][٢] الزبير قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة[٣].

وقال الترمذي[٤]: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحدٍ، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار**»[٥].

وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل البخاري[٦]، عن عبد الله بن صالح، به. وقال: إن كان صحيحًا. وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، ثم رواه من وجهٍ آخرَ عن الزهري، مرسلًا[٧].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالىٰ: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فله علىٰ ذلك خيرٌ كثيرٌ وثوابٌ جزيلٌ، فكما علىٰ فعل الطاعات ثوابٌ جزيلٌ وأجرٌ كبيرٌ، كذلك علىٰ ترك المحرمات و[اجتناب][٨] المحظورات.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٣٩٠٩)، وفي إسناده رجل لم يسم، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ ابن مرْدوَيه.

(٢) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٣٢)، وهو موقوف علىٰ ابن الزبير.

(٤) لوحة (٣٠٦/ ب).

(٥) ضعيف: رواه الترمذي (٣١٧٠) وحسنه، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق سيئ الحفظ.

(٦) في (ز): (المحاربي)، وفي معظم الطبعات: (النجاري)، وهو خطأ، وما أثبتناه هو الصواب، كما في «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٣١) ط هجر، ومحمد بن سهل هو ابن عسكر، بخاري سكن بغداد، وهو ثقة، ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢٥/ ٣٢٥).

(٧) وقيل: سمي عتيقًا لأن الله ﷻ يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب. «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٨٤).

(٨) سقط من (ز).

قال ابن جريج: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهىٰ الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرةٍ، ولا سائبةٍ، ولا وصيلةٍ، ولا حام[1].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من تحريم ﴿ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ...﴾ الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾، «من» هاهنا لبيان الجنس؛ أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومنه: شهادة الزور. وفي «الصحيحين» عن أبي بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**»، قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** - وكان متكئًا فجلس، فقال: - **ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**[2]». فما زال يكررها، حتىٰ قلنا: ليته سكت[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خُرَيم قال: قام رسول الله ﷺ خطيبًا فقال: «**يا أيها الناس، عَدَلَتْ شهادة الزور إشراكًا بالله**»، ثلاثًا، ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[4]. وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن منيع، عن [مروان][5] بن معاوية، به. ثم قال: «غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، [ولا نعرف لأيمن][6] بن خريم سماعًا من النبي ﷺ».

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العُصْفُرِيّ، عن أبيه، عن حبيب ابن النعمان الأسدي، عن خُرَيْم بن فَاتِك الأسدي قال: صلىٰ رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائمًا فقال: «**عَدَلَت شهادة الزور الإشراك بالله ﷻ**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾[7].

وقال سفيان الثوري، عن عاصم بن أبي النَّجُود[8]، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعودٍ أنه قال:

---

(١) راجع معانيها وشرحها في «تفسير سورة المائدة» الآية (١٠٣).

(٢) لوحة (٣٠٧/ أ). (٣) البخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٨)، والترمذي (١٢٠٧)، والنسائي (٧/ ٨٨).

(٤) رواه أحمد (٤/ ١٧٨)، وفيه فاتك بن فضالة: مجهول، وأيمن بن خريم: ليس صحابيًّا. وله طريقٌ أخرىٰ؛ رواه أحمد (٤/ ٣٢١)، ورواه أبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٢٩٩)، وابن ماجة (٢٣٧٢) -وهي المذكورة بعده- وفي إسناده حبيب: مقبول، والراوي عنه «زياد» والد سفيان: مقبول، وابنه سفيان: ضعيف.
والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع»، وانظر: «الضعيفة» (١١١٠).

(٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): (ولا يعرف إلا عن ابن خريم).

(٧) انظر التخريج السابق. (٨) في (ز): «المجرد».

تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية[١]. وقوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدًا إلىٰ الحق[٢]؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

ثم ضرب للمشرك مثلًا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدىٰ فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾؛ أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، أي: بعيد مهلك لمن هوىٰ فيه؛ ولهذا جاء في حديث البراء: «**إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلىٰ السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحًا من هناك**». ثم قرأ هذه الآية[٣]. وقد تقدم الحديث في سورة «إبراهيم» بحروفه وألفاظه وطرقه.

وقد ضرب الله تعالىٰ للمشرك مثلًا آخر في سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ٧١].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: هذا﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ -أي: أوامره-، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[٤] ومن ذلك: تعظيم الهدايا والبُدْن، كما قال الحَكَم، عن مِقْسَم[٥]، عن ابن عباسٍ: تعظيمها: استسمانها واستحسانها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيدٍ الأشجّ، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ليلىٰ، عن ابن

---

(١) **إسناده حسن**: موقوف علىٰ ابن مسعود، ورواه الطبري (١٦/ ٥٣٦- ط. هجر).

(٢) **قال الشيخ أبو بكر الجزائري** حفظه الله: لفظ: حنفاء: من الأضداد يقع علىٰ الاستقامة والميل معًا، ومعناها مائلين عن الشرك إلىٰ التوحيد، وعن الأديان إلىٰ الإسلام.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥)، وأبو داود (٤١٥٣، ٤١٥٤)، والنسائي (١/ ٢٨٢)، وابن ماجة (١٥٤٨)، والطيالسي (١٥٣)، والآجري في «الشريعة» (٣٦٧-٣٧٠)، والحاكم (١/ ٣٧-٤٠) وصححه علىٰ شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٤) **قال الشيخ عبد الرحمن المحمود** حفظه الله: «... من تأمل سياق هذه الآيات وجدها لا تقتصر علىٰ حرمات الله في الحج والعمرة، بل هي أعم وأشمل، بل يدخل فيها: مكان البيت...، اجتناب الرجس من الأوثان وكل ما يعبد من دون الله تعالىٰ، اجتناب قول الزور، وكل قول فيه كذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ، وعلىٰ شرعه ودينه، اجتناب الشرك بجميع أنواعه وصوره، وجوب تقوىٰ الله تعالىٰ التي هي مفاتيح تعظيم الحرمات وتعظيم شعائر الله تعالىٰ، وهذا الذي فهمه كثير من أئمة التفسير...». «تعظيم حرمات الله» (ص٣-٤). وللشيخ الدكتور/ عبد العزيز آل عبد اللطيف حفظه الله رسالة قيمة في ذلك ينبغي مطالعتها، ذكر في خاتمتها أسباب وقوع المخالفات المنافية للتعظيم، وعد منها: «الجهل بدين الله تعالىٰ وقلة العلم...، وغلبة نزعة الإرجاء في هذا الزمان، فمرجئة هذا الزمان الذين يقررون: أن الإيمان تصديق فقط، ويهملون العبادات القلبية، كانوا سببًا رئيسًا في ظهور هذه المخالفات، فيمكن أن يكون الرجل -عندهم- مؤمنًا ما دام مصدقًا، وإن استخف بالله تعالىٰ، أو استهزأ برسوله ﷺ أو دينه!! ومنها: وجود علم الكلام... وظهور البدع، ... وكثرة الترخص والمداهنات والتنازلات من علماء السوء الذين أشربوا حب الدنيا والرياسة، فجعلوا الدين ألعوبة للسلاطين. ورحم الله ابن القيم حيث يقول: كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول علىٰ الله غير الحق...». «تعظيم الله تعالىٰ وشعائره» للشيخ آل عبد اللطيف حفظه الله.

(٥) لوحة (٣٠٧/ ب).

أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام. وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة[١]، وكان المسلمون يُسمّنون. رواه البخاري[٢]. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دَمُ عَفْرَاءَ أحبُّ إلىٰ الله من دم سَوداوين»[٣]. رواه أحمد، وابن ماجه.

قالوا: والعفراء هي البيضاء بياضًا ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضًا؛ لما ثبت في «صحيح البخاري»، عن أنس، أن رسول الله ﷺ ضحىٰ بكبشين أملحين أقرنين[٤].

وعن أبي سعيدٍ، أن رسول الله ﷺ ضحىٰ بكبشٍ[٥] أقرن فَحيل، يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد[٦]. رواه أهل السنن، [وصححه الترمذي، أي][٧]: بكبشٍ أسود في هذه الأماكن.

وفي «سنن ابن ماجه»، عن أبي رافع: أن رسول الله ﷺ ضحىٰ بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين[٨].

قيل: هما الخَصِيَّان. وقيل: اللذان رُضَّ[٩] خُصْياهما، ولم يقطعهما، والله أعلم[١٠].

وكذا روىٰ أبو داود وابن ماجة عن جابر: ضحىٰ رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين [موجوءين[١١]. قيل: هما الخصيين][١٢].

وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن[١٣]، وألا نضحي بمقابَلة[١٤]،

---

(١) في (ز): (بالبرية).

(٢) رواه البخاري (١/ ٩) تعليقًا، وقال الحافظ: وصله أبو نعيم في «المستخرج».

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٤١٧) والبخاري تعليقًا (١٠/ ٩).

(٤) البخاري (٥٥٥٨).

(٥) أقرن: ذي قرنين، فحيل: كامل الخلقة لم تقطع أنثياه، ويأكل في سواد: في بطنه سواد، ويمشي في سواد: في رجليه سواد، وينظر في سواد: أي مكحول، في عينيه سواد.

(٦) صحيح: أبو داود (٢٧٩٦)، والترمذي (١٤٩٦)، والنسائي (٧/ ٢٢١)، وابن ماجة (٣١٢٨).

(٧) في (ز): (وضحىٰ الترمذي أبي قتيبة).

(٨) صحيح: رواه ابن ماجة (٣١٢٢) من حديث عائشة وأبي هريرة، ورواه أحمد (٦/ ٨) من حديث أبي رافع. وصححه الألباني في «الإرواء» (١١٣٨) لطرقه. ورواه أبو داود (٢٧٩٥) من حديث جابر.

(٩) الرَّض: الدق.

(١٠) وفي الحديث دليل علىٰ جواز التضحية بالخصي، وأن هذا ليس من العيوب، وسيذكر المؤلف العيوب بعد قليل، وللأضحية شروط أربعة؛ الأول: أن تكون من بهيمة الأنعام، الثاني: أن تبلغ السن المعتبرة شرعًا، الثالث: أن تكون سليمة من العيوب، الرابع: أن تكون في الوقت المشروع. وسيفصل المؤلف رحمه الله فيما يلي الكلام علىٰ ذلك، ينظر: «الشرح الممتع» (٧/ ٤٢٤) وما بعدها، و«أحكام الأضحية»، و«تلخيصه» ثلاثتها للعلامة العثيمين رحمه الله.

(١١) رواه أبو داود (٢٧٩٥).

(١٢) ليست في (ز).

(١٣) أي: ننظر إليهما، ونتأمل في سلامتهما من آفة تكون بهما، كالعور والجدع.

(١٤) المقابَلة: التي قطع من قبل أذنها شيء، ثم ترك معلقًا من مقدمها، والمدابرة: هي التي قطع من دبر أذنها شيء وترك معلقًا من مؤخرها، والشرقاء: المشقوقة الأذن طولًا، -من الشرق-، وهو: الشق، ومنه: أيام التشريق، فإن فيها تشرق لحوم القرابين، والخرقاء: المثقوبة الأذن ثقبًا مستديرًا، وقيل: الشرقاء ما قطعت أذنها طولًا، والخرقاء: ما قطعت أذنها عرضًا.

ولا مدابَرَة، [ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء][1]. رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي. ولهم عنه، قال: نهىٰ رسول الله ﷺ أن نُضحي بأعضب[2] القرن والأذن[3]. وقال سعيد بن المسيب: العضب: النصْف فأكثر. وقال بعض أهل اللغة: إن كُسر قرنها الأعلىٰ فهي قصماء، فأما العَضْب فهو كسر الأسفل، وعضب الأذن قطع بعضها. وعند الشافعي أن التضحية بذلك مجزئة، لكن تكره. وقال أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن؛ لهذا الحديث. وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة: فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هي التي قطعت أذنها طولًا. قاله الشافعي. والخرقاء: هي التي خَرَقت السِّمَةُ أذنها خرقًا مُدَوَّرًا، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البيّن عَوَرها، والمريضة البين مَرَضها، والعرجاء البين ظَلَعها**[4]**، والكسيرة التي لا تُنقِي**[5]»[6]. رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.

وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي؛ لأن الشاء يسبقونها إلىٰ المرعىٰ[7]، فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث.

واختلف قول الشافعي في المريضة مرضًا يسيرًا، علىٰ قولين.

وروىٰ أبو داود، عن عُتبة بن عبد السّلَمي؛ أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن المُصْفَرَةِ، والمستأصَلَة، والبَخْقاء، والمشيَّعة، والكسراء[8].

فالمصفرة قيل: الهزيلة. وقيل: المستأصلة الأذنُ. والمستأصلة: المكسورة القرن. والبخقاء: هي العوراء[9]. والمشيعة: هي التي لا تزال تُشَيَّع خَلفَ الغنم[10]، ولا تَتْبَع لضعفها. والكسراء: العرجاء.

فهذه العيوب كلها مانعة؛ أي: [من الإجزاء، فإن طرأ العيب][11] بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعي، خلافًا لأبي حنيفة.

---

(١) في (ز): (وبلا برئا ولا حرثا). والحديث صحيح: رواه أحمد (١/ ٥٠)، وأبو داود (٢٨٠٤)، والترمذي (١٤٩٨)، والنسائي (٧/ ٢١٧)، وابن ماجة (٣١٤٢)، وفيه أبو إسحاق السبيعي: مدلس وقد عنعن. لكنه بيَّن الواسطة بينه وبين شريح وهو: سعيد بن عمرو بن أشوع، كما رواه الحاكم (٤/ ٢٤٤) فصح الإسناد.

(٢) **أعْضَب القَرْنِ**: المَكْسُور القَرْنِ، وقد يكونُ العَضْب في الأذُن أيضًا، إلا أنَّه في القَرْن أكثرُ. «النهاية».

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٢٨٠٥)، والترمذي (١٥٠٤)، والنسائي (٧/ ١١٧)، وابن ماجة (٣١٤٥). وفيه جري بن كليب، قال الحافظ: مقبول.

(٤) **الظَّلْع**: العرج.

(٥) **أنقت الناقة**: اذا صارت ذات نِقْي، وهو مخ العظام، فالتي لا تنقي هي المهزولة.

(٦) صحيح: رواه أبو داود (٢٨٠٢)، والترمذي (١٤٩٧)، والنسائي (٧/ ٢١٥)، وابن ماجة (٣١٤٤).

(٧) لوحة (٣٠٨/ أ).

(٨) ضعيف: رواه أبو داود (٢٨٠٣)، وفيه يزيد ذو مِصر: مقبول، وأبو حميد الرعيني: مجهول.

(٩) **البَخَق**: أن يذهب البصر وتَبْقىٰ العين قائمةً مُنْفَتِحَة. «النهاية».

(١٠) أي: تحتاج إلىٰ من يشيعها، أي: يسوقها؛ لتأخرها عن الغنم.

(١١) بياض بـ(ز).

وقد روى الإمامُ أحمد، عن أبي سعيدٍ قال: اشتريت كبشًا أضحي به، فعدا الذئب فأخذ الألْيَة[١] . فسألت النبي ﷺ، فقال: «ضَحِّ به»[٢] . ولهذا جاء في الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن[٣] . أي: أن تكون الهدية أو الأضحية سمينةً حسنةً ثمينةً، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدى عمر نَجيبًا[٤] ، فأعطي بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أهديت نجيبًا، فأعطِيتُ بها ثلاثمائة دينار، أفأبيعها وأشتري بثمنها بُدْنًا؟ قال: «**لا انحرها إياها**»[٥] .

وقال الضحاك، عن ابن عباس: البدن من شعائر الله. وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف، ومزدلفة، والجمار، والرمي، والبدن، والحلق، من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أي: لكم في البدن منافع؛ من لبنها، وصوفها، وأوبارها، وأشعارها، وركوبها.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، قال مِقْسَم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، قال: ما لم يُسَمّ بُدْنًا[٦] .

وقال مجاهد في قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُمّيت بَدَنَةً أو هَدْيًا، ذهب ذلك [كله. وكذا][٧] قال[٨] عطاء، والضحاك، وقتادة، ومقاتل، وعطاء الخراساني، وغيرهم.

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديًا، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا يسوق بدَنَةً، قال: «**اركبها**». قال: إنها بَدَنَةٌ!! قال: «**اركبها، ويحك**»، -في الثانية أو الثالثة[٩] -.

وفي رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اركبها بالمعروف إذا ألجئتَ إليها**»[١٠] .

وقال شعبة، عن زهير بن أبي ثابت الأعمى، عن المغيرة بن حَذْف، عن علي؛ أنه رأى رجلًا يسوق بدنةً ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدَها[١١] .

---

(١) **الألْية**: العجيزة أو المؤخرة أو الطرف أو ما ركبها من شحم ولحم، جمعها: ألَيَاتٌ، وألايا. والعامة تسميها: لِيَّة.
(٢) **ضعيف**: رواه أحمد (٣/ ٣٢)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف. وشيخه محمد بن قرظة: مجهول.
(٣) **صحيح**: تقدم تخريجه.
(٤) **النجيب من الإبل**: القوي منها الخفيف السريع، والنجيب: الفاضل من كل حيوان.
(٥) **ضعيف**: رواه أبو داود (١٧٥٦)، وأحمد (٢/ ١٤٥)، وفي إسناده جهم بن الجارود، قال الحافظ: مقبول؛ يعني: إذا توبع.
(٦) أي: ما لم يعينها هديًا إلى بيت الله تعالى في الحج، فلا تركب حينئذ.
(٧) سقط من (ز). (٨) في (ز): (قاله).
(٩) البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٢٣). (١٠) مسلم (١٣٢٣).
(١١) رواه البيهقي (٥/ ٣٨٨)، وفي إسناده من لم أعرفه.

وقوله: ﴿ثُمَّ [(١)] مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: مَحِل الهدي وانتهاؤه إلىٰ البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالىٰ: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقد تقدم الكلام علىٰ معنىٰ «البيت العتيق» قريبًا، ولله الحمد. وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت، فقد حلَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنه لم يَزَل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء علىٰ اسم الله مشروعًا في جميع الملل. قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيدًا. وقال عكرمة: ذبحًا. وقال زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: إنها مكة، لم يجعل الله لأمةٍ قط منسكًا غيرها.

وقوله: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس قال: أتىٰ رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّىٰ وكبَّر، ووضع رجله علىٰ صِفَاحهما [(٢)(٣)].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سَلام بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعي، عن أبي داود - وهو نُفَيْع بن الحارث - عن زيد بن أرقم قال: قلت، أو قالوا: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «سُنَّة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «**بكل شعرة حسنة**»، قالوا: فالصوف؟ قال: «**بكل شعرة من الصوف حسنة**» [(٤)]. وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة في «سننه»، من حديث سلام بن مسكين، به.

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: معبودكم واحدٌ، وإن تنوّعت شرائع الأنبياء ونَسخ بعضها بعضًا، فالجميع يدعون إلىٰ عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] [(٥)].

ولهذا قال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجلين. وقال عمرو بن أوس [(٦)]: المخبتون: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

---

(١) لوحة (٣٠٨/ ب).
(٢) الصِّفَاح: جمع صَفْح، وهو: الجنب، وقيل: جمع صفحة، وهو عرض الوجه، وقيل: نواحي عنقها.
(٣) البخاري (٥٥٥٨)، ومسلم (١٩٦٦).
(٤) ضعيف جدًّا: رواه أحمد (٤/ ٣٦٨)، وفيه أبو داود الأعمىٰ (نفيع بن الحارث) قال الحافظ: متروك، ورواه من طريقه أيضًا ابن ماجة (٥٠٧٥).
(٥) وقال ﷺ: «الأنبياء إخوة لعَلَّات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد». رواه البخاري (٣٤٤٣).
(٦) في (ز): (عمرو بن إدريس).

وقال الثوري: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾، قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له. وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: خافت منه قلوبُهم، ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أي: من المصائب.

قال الحسن البصري: والله لتصبرنّ أو لتهلكنّ.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾، قرأ الجمهور[1] بالإضافة. -السبعةَ-، وبقيةَ العشرة أيضًا. وقرأ ابن السَّمَيْقَع: «والمُقيمينَ الصلاة» -بالنصب-. وقال الحسن البصري: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَاةَ[2]﴾، وإنما حذفت النون هاهنا تخفيفًا، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن[3] على سبيل [التخفيف][4] فنصبت.

أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في سورة «براءة».

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول تعالى ممتنًّا على عباده فيما خلق لهم من البُدْن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى إلى بيته الحرام، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ الآية [المائدة: ٢].

قال ابن جُرَيج: قال عطاء في قوله: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾، قال: البقرة، والبعير. وكذا رُوي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري. وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل.

قلتُ: أما إطلاق البَدَنة على البعير فمتفقٌ عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين؛ أصحهما: أنه يطلق عليها ذلك شرعًا كما صح في الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعةٍ، والبقرة عن سبعةٍ، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله وغيره، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشتركَ في الأضاحي، البدنةُ عن سبعةٍ، والبقرة عن سبعةٍ[5].

---

(١) لوحة (٣٠٩/ أ).

(٢) شاذة قَرَأَ (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ) ابْنُ مُحَيْصِنٍ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ).

(٣) في (ز): (وقيل). (٤) بياض في (ز). (٥) رواه مسلم (١٢١٨).

[وقال إسحاق بنُ رَاهَويه وغيره: بل تُجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة[1]][2]. وقد ورد به حديث في «مسند الإمام أحمد»، و«سنن النسائي»، وغيرهما[3]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾؛ أي: ثواب في الدار الآخرة.

وعن سليمان بن يزيد الكعبي، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: **«ما عَمِل ابن آدم يوم النحر عملًا أحبّ إلىٰ الله من إِرَاقة[4] دم، وإنه لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع علىٰ الأرض، فطِيبُوا بها نفسًا»**[5]. رواه ابن ماجه، والترمذي وحَسنه.

وقال سفيان الثوري: كان أبو حاتم يستدين ويسوق البُدْن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أنفقت[6] الوَرِقَ[7][8] في شيءٍ أفضلَ من نحيرةٍ في يوم عيد»**. رواه الدارقطني في «سننه»[9]. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع[10]. وقال إبراهيم النَّخَعِيّ: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

---

(١) قال في «المغني»: وتُجزئ البدنة عن سبعة وكذلك البقرة. وهذا قول أكثر أهل العلم؛ روي ذلك عن: علي، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وعائشة ﷺ، وبه قال: عطاء، وطاوس، و سالم، والحسن، وعمرو بن دينار، والثوري، والأوزاعي، وأبو ثور، وأصحاب الرأي، وعن عمر أنه قال: لا تُجزئ نفس واحدة عن سبعة، ونحوه قول مالك. قال أحمد: ماعلمتُ أحدًا لا يرخص في ذلك إلا ابن عمر. وعن سعيد بن المسيب: أن الجزور عن عشرة، والبقرة عن سبعة. وبه قال إسحاق؛ لما روىٰ رافع: (أن النبي ﷺ قسم فعدل عشرة من الغنم ببعير). متفق عليه، وعن ابن عباس قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فحضر الأضحىٰ فاشتركنا في الجزور عن عشرة، والبقرة عن سبعة). رواه ابن ماجة. ولنا ما روىٰ جابر قال: (نحرنا بالحديبية مع النبي ﷺ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة)، وقال أيضا: كنا نتمتع مع رسول الله ﷺ فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها. رواه مسلم، وهذا -إن صحَّ من حديثهم-، وأما حديث رافع فهو في القسمة لا في الأضحية. «المغني»: (١٣/ ٣٦٣) وما بعدها، وانظر: «فتح الباري»: (٩/ ٦٢٧).

(٢) ما بين المعكوفتين سقط من (ز)، ذكر ابن قُدامة كلام إسحاق -وقد سبق ابنُ المسيب إسحاقَ في ذلك -رحم الله الجميع، ثم قال: «ولنا ما روىٰ جابر قال: (نحرنا بالحديبية مع النبي ﷺ البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة). وقال أيضًا: (كنا نتمتع مع رسول الله ﷺ فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها). رواه مسلم... وأما حديث رافع -قلت: أي الذي فيه ذكر العشرة- فهو في القسمة لا في الأضحية. «المغني» (١٣/ ٣٦٣) وما بعدها، وانظر كذلك: «فتح الباري» (٩/ ٦٢٧).

(٣) رواه أحمد (١/ ٢٧٥) والنسائي (٧/ ٢٢٢)، وفيه علباء بن أحمد: صدوق، وبقية رجاله ثقات. وقد انفرد به الحسين بن واقد، قال البيهقي: حديث عكرمة ينفرد به الحسين بن واقد عن علباء بن أحمد، وحديث جابر أصح منه. انتهىٰ.
قلت: يشير إلىٰ الحديث السابق.

(٤) في (ز): (هراقة). أي: صبه، (وإنه ليأتي) أي: المذبوح والمضحىٰ به.

(٥) ضعيف: رواه الترمذي (١٤٩٣)، وابن ماجة (٣١٢٦)، وانظر: «ضعيف سنن ابن ماجه» للألباني.

(٦) لوحة (٣٠٩/ ب). (٧) في (ز): (الرزق). (٨) الوَرِق: المال من الدراهم.

(٩) ضعيف جدًا: رواه الدارقطني (٤/ ٢٨٢)، وفيه إبراهيم بن يزيد الخوزي، قال ابن حبان: روىٰ مناكير كثيرةً، وأوهامًا غليظةً حتىٰ سبق إلىٰ القلب أنه المتعمد لها. «المجروحين» (١/ ٨٨)، وقال الحافظ: متروك الحديث (تقريب -ترجمة ٢٧٢).

(١٠) في (ز): (أحرف منافع).

وقوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ﴾، [وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب](١)، عن جابر بن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيدَ الأضحىٰ، فلما انصرف أتىٰ بكبشٍ فذبحه، فقال: «**بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يُضَحِّ من أمتي**»(٢). رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحَّىٰ رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته**». ثم سمىٰ الله وكبر وذبح(٣).

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحىٰ اشترىٰ كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلىٰ وخطب الناس أتىٰ(٤) بأحدهما وهو قائمٌ في مصلاه فذبحه بنفسه بالمُدية، ثم يقول: «**اللهم هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ**». ثم يُؤتىٰ بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «**هذا عن محمد، وآل محمد**»، فيُطعمهما(٥) جميعًا المساكين، ويأكل هو وأهله منهما(٦). [رواه أحمد، وابن ماجه](٧).

وقال الأعمش، عن أبي ظَبْيَان، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ﴾، قال: قيام علىٰ ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرىٰ، يقول: «**بسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك**». وكذلك روىٰ مجاهد، وعلي بن أبي طلحة، والعَوْفي، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُقلت رجلها اليسرىٰ قامت علىٰ ثلاث. ورَوَىٰ ابن أبي نَجِيح، عنه، نحوه. وقال الضحاك: تُعقل رجلٌ واحدةٌ فتكون علىٰ ثلاث.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر: أنه أتىٰ علىٰ رجلٍ قد أناخ بَدَنته وهو ينحرها، فقال: ابعثها قيامًا مقيدةً سنة أبي القاسم ﷺ(٨).

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابَه كانوا ينحَرون البُدْن معقولةَ اليسرىٰ، قائمةً علىٰ ما بقي من قوائمها. رواه أبو داود(٩).

---

(١) سقط من (ز).

(٢) صحيح لغيره: رواه أبو داود (٢٨١٠)، والترمذي (١٥٢١)، وإسناده منقطع، لكن له متابعات وطرق (انظر ما بعده)، وبالجملة فالحديث صحيح، ولذا صححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ انظر «الإرواء» (١١٣٨).

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٢٧٩٥)، وابن ماجة (٣١٢١)، وفيه محمد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن، وأبو عياش المعافري: مجهول، ولكن اللفظ الأخير -وهو التسمية والتكبير-: له متابعات يصحح بها.

(٤) في (ز): (أمر). (٥) في (ز): (فبلغها).

(٦) صحيح: رواه أحمد (٨٦)، وله شاهد، فقد رواه ابن ماجة (٣١٢٢) من حديث عائشة وأبي هريرة، وصححه الألباني في «الإرواء» (١١٣٨) لطرقه.

(٧) ليست في (ز). (٨) البخاري (١٧١٣)، ومسلم (١٣٢٠).

(٩) صحيح: رواه أبو داود (١٧٦٧)، ويشهد له الحديث السابق، فلا يضر تدليس ابن جريج وأبي الزبير.

وقال ابن لَهِيعة: حدثني عطاء بن دينار، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قِفْ من شقها الأيمن، وانْحَر من شقها الأيسر.

وفي «صحيح مسلم»، عن جابر، في صفة حجة الوَدَاع، قال فيه: فنحر رسولُ الله ﷺ بيده ثلاثًا وستين بَدَنةً[١]، جعل يَطعَنُها بحَربةٍ في يده[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: في حرف[٣] ابن مسعود: «صَوَافِن»[٤]؛ أي: مُعقَّلةً قيامًا.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: مَن قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها ﴿صَوَآفَّ﴾ قال: تصف بين يديها. وقال طاوس، والحسن، وغيرهما: «فاذكروا اسم الله عليها صَوَافِيَ»[٥]، يعني: خالصةً لله ﷻ. وكذا رواه مالك، عن الزهري.

وقال عبد الرحمن بن زيد: «صوافيَ»: ليس فيها شركٌ كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: يعني: سقطت إلىٰ الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، يعني: نحرت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعني: ماتت.

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنة إذا نُحرت حتىٰ تموت وتَبْرد حركتها. وقد جاء في حديث مرفوع: «**ولا تُعجِلُوا النفوسَ أن تَزْهَق**»[٦]. وقد رواه الثوري في «جامعه»، عن أيوب، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن فَرافصَة الحنفي، عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك. ويؤيده حديث شَدّاد بن أوس في «صحيح مسلم»[٧]: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، ولْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحته**»[٨].

وعن أبي واقدٍ الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما قُطع من البهيمة وهي حية، فهو ميتة**»[٩].

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه.

وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾، قال بعض السلف[١٠]: قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمر إباحةٍ. وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعية. واختلف في المراد

---

(١) لوحة (٣١٠/ أ). (٢) مسلم (١٢١٠). (٣) أي: قراءته.

(٤) قراءة: قرأ (صَوَافِنَ) ابن مسعود، وليس في المتواتر إلا (صَوَافَّ).

(٥) شاذة: قرأ (صَوَافِيَ) الحسن، وليس في المتواترِ إلا (صَوَافَّ).

(٦) موضوع: رواه الدارقطني (٤/ ٢٨٣)، وإسناده ضعيف، وعلته سعيد بن سلام العطار: كذاب، وقال البخاري: يذكر بوضع الحديث، وكذبه أحمد. وقال الدارقطني: يحدث بالبواطيل متروك انظر: «ميزان الاعتدال».

(٧) في (ز): (حديث مسلم). (٨) مسلم (١٩٥٥).

(٩) صحيح: رواه أبو داود (٢٨٥٨)، والترمذي (١٤٨٠) وصححه، وابن ماجة (٣٢١٦).

(١٠) في (ز): (بعض الناس).

بالقانع والمعتر، فقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: المستغني بما أعطيته وهو في بيته. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: الذي يتعرض لك، ويُلِمّ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد ابن كعب القُرَظِيّ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: المتعفف. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: السائل. وهذا قولُ قتادة، وإبراهيم النَّخَعي، ومجاهد -في روايةٍ عنه-.

وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم، وعِكْرِمَة، والحسن البصري، وابن الكلبي، ومُقَاتِل بن حَيَّان، ومالك بن أنس: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: هو الذي يَقْنع إليك [2] ويسألك. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: الذي يعتريك، ويتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشَّمَّاخ:

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُه فيُغْني مَفَاقِرَه [3]، أَعَفُّ مِنَ القُنُوع

قال: يغني [4] من السؤال. وبه قال ابن زيد.

وقال زيد بن أسلم: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: المسكين الذي يطوف. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: الصديق والضعيف الذي يزور. وهو رواية عن عبد الله بن زيد أيضًا.

وعن مجاهد أيضًا: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: جارك الغني [الذي يبصر ما يدخل بيتك] [5]. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: الذي يعتريك من الناس.

وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذي يَعْتَر [6][7] بالبدن من غنيٍّ أو فقيرٍ.

وعن عكرمة نحوه، وعنه: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: أهل مكة.

واختار ابنُ جرير أنّ القانع: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ -من الاعترار- وهو: الذي يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلىٰ أن الأضحية تُجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به علىٰ الفقراء؛ لأنه تعالىٰ قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾. وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «**إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم**». وفي رواية: «**فكلوا، وادخروا، وتصدقوا**». وفي رواية: «**فكلوا، وأطعموا، وتصدقوا**» [8].

والقول الثاني: أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف؛ لقوله في الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله في الحديث: «**فكلوا، وادخروا، وتصدقوا**».

القانع: من الأضداد يطلق علىٰ ذي القناعة وعلىٰ من لا قناعة له فهو يسأل، إلا أن الماضي لذي القناعة مكسور العين فَعِلَ كعَلِمَ، وفعل: من لا قناعة له فهو يسأل فَعَلَ -بفتح العين- كنَصَحَ ينصح. قنعت إلىٰ فلان، يريد: خضعت له، والتزقت به، وانقطعت إليه. «اللسان».

المفاقر: وجوه الفقر.

لوحة (٣١٠/ ب).

سقط من (ز).

في (ز): (الذي يعين).

أي: يطيف بها.

مسلم (٩٧٧).

فإن أكل الكل فقيل: لا يضمن شيئًا. وبه قال ابن سُرَيج[١] من الشافعية.

وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنىٰ جزءٍ منها. وهو المشهور من مذهب الشافعي.

وأما الجلود، ففي «مسند أحمد» عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي: «**[فكلوا]**[٢]**، وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها**»[٣].

ومن العلماء من رخَّص في ذلك، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.

مسألة

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ**[٤] **لِأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ**»[٥]. أخرجاه.

فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحىٰ إذا طلعت الشمس يوم النحر. ومضىٰ قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء في «صحيح مسلم»: «وألا تذبحوا حتىٰ يذبح الإمام»[٦].

وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرىٰ ونحوهم، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيدٍ عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتىٰ يصلي الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار؛ لتيسر الأضاحي عندهم، وأما أهل القرىٰ فيوم النحر وأيام[٧] التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي؛ لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «**وأيام التشريق كلها ذبح**». رواه أحمد وابن حبان[٨].

---

(١) في (ز): (ابن شريح). (٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ١٥)، وفيه: تدليس ابن جريج، وانقطاع بين زبيد وأبي سعيد.

(٤) في (ز): (يبديه)، والمثبت من «البخاري». (٥) البخاري (٥٥٤٥)، ومسلم (١٩٦١).

(٦) لفظ الحديث في «صحيح مسلم» (١٩٦٤) هكذا: (.. فأمر النبي ﷺ من كان نحر قبله، أن يعيد نحر آخر، ولا ينحروا حتىٰ ينحر النبي ﷺ)، ولعل ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أورد الحديث بالمعنىٰ، فهذا الذي فهمه بعض الأئمة أنه لا ينحر أحدٌ حتىٰ ينحر الإمام، وفي المسألة خلافٌ موضعه كتب الفقه.

(٧) لوحة (٣١١/ أ).

(٨) رواه أحمد (٤/ ٨٢)، وابن حبان (٣٨٥٤)، وفي إسناده عبد الرحمن بن أبي الحسين: لم يوثقه غير ابن حبان، وهو لم يلقَ جبير بن مطعم، فالإسناد منقطع أيضًا، ولكنه توبع، فقد تابعه نافع بن جبير عن أبيه، رواه البزار (٣٤٤٣)، والدارقطني (٤/ ٥١٢) وله شاهد من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، رواه البيهقي في «السنن» (٩/ ٤٩٩).
وهذا القول -أن أيام الذبح أربعة؛ يوم النحر وثلاثة أيام التشريق -هو الراجح، وهو الذي تنصره الأدلة، وهو اختيار العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره. ينظر: «الشرح الممتع» (٧/ ٤٦٠)، وهذا هو الشرط الرابع من شروط الأضحية -الزمن المعتبر شرعًا- وقد تقدم الكلام علىٰ بقية شروطها في تفسير الآية (٣٢) من هذه السورة.

وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلىٰ آخر ذي الحجة، وبه قال إبراهيم النَّخَعِيّ، وأبو سلمة بن [عبد الرحمن] (١). وهو قولٌ غريبٌ.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالىٰ: من أجل هذا ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾، أي: ذللناها لكم؛ أي: جعلناها منقادةً لكم خاضعةً، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ -٧٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾

يقول تعالىٰ: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا؛ لتذكروه عند ذبحها، -فإنه الخالق الرازق- لأنه لا يناله شيءٌ من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالىٰ هو الغني عما سواه. وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (٢)، أي: يتقبل ذلك ويجزي عليه، كما جاء في «الصحيح»: «**إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ولا إلىٰ أموالكم** (٣)**، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**» (٤).

وما جاء في الحديث: «**إن الصدقة تقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يَدِ السائل، وإن الدَّمَ ليقع مِن الله بمكان قبل أن يقع علىٰ الأرض**» (٥). كما تقدم الحديث. رواه ابن ماجه، والترمذي وحَسّنه، عن عائشة مرفوعًا. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله، وليس له معنًىٰ يتبادر عند العلماء المحققين سوىٰ هذا، والله أعلم.

وقال وَكِيع، عن [يحيىٰ] (٦) بن مسلم -أبي (٧) الضحاك-: سألت عامرًا الشعبي عن جلود الأضاحي؟

---

(١) في (ز): (وأبو سلمة بن سمرة).

(٢) ضعيف: وعلته الإرسال، وقد عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥) لابن المنذر وابن مردويه موقوفًا علىٰ ابن عباس. ولم أقف علىٰ سنده. وقد رواه ابن أبي حاتم (١٣٩٥٥)، وإسناده مرسل.

(٣) في (ز): (ألوانكم)، والمثبت من «صحيح مسلم».

(٤) مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجة (٤١٤٣)، وأحمد (٢/ ٤٣٩).

(٥) رواه الترمذي (١٤٩٣)، وابن ماجة (٣١٢٦)، وضعفه الشيخ الألباني، أما الفقرة الأولىٰ المتعلقة بالصدقة فصحيحة. يشهد لها ما تقدَّم في تفسير الآية (١٠٥) من سورة التوبة.

(٦) بياض بـ(ز). (٧) في (ز): (مسلم بن الضحاك) وهو خطأ.

فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾، إن شئت فبع، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾، أي: من أجل ذلك سخَّر لكم البُدن، ﴿لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ [(١)] مَا هَدَىٰكُمْ﴾، أي: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: وبشر يا محمد المحسنين؛ أي: في عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ما شَرَع لهم، المصدقين الرسولَ فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه ﷻ.

مسألة

وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري [إلىٰ القول][(٢)] بوجوب الأضحية علىٰ من ملك نصابًا، وزاد أبو حنيفة: اشتراط الإقامة أيضًا. واحتجَّ لهم بما رواه أحمد وابن ماجة بإسنادٍ رجاله كلهم ثقات، عن أبي هريرة مرفوعًا: «**من وجد سَعَة فلم يُضَحِّ، فلا يقربن مُصَلَّانا**»[(٣)]. علىٰ أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل.

وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي. رواه الترمذي[(٤)]. وقال الشافعي وأحمد: لا تجب الأضحية، بل هي مستحبةً؛ لما جاء في الحديث: «**ليس في المال حق سوىٰ الزكاة**»[(٥)]. وقد تقدم أنه ﷺ ضحىٰ عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم. وقال أبو سَرِيحةَ: كنت جارًا لأبي بكر وعمر، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما. وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحدٌ من أهل دارٍ أو محلةٍ، سقطت عن الباقين؛ لأن المقصود إظهار الشعار[(٦)].

وقد روىٰ الإمام أحمد وأهل السنن - وحسنه الترمذي - عن مِخْنَف بن سليم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «**علىٰ كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعَتِيرة**»[(٧)]، **هل تدرون ما العتيرة؟**

---

(١) لوحة (٣١١/ ب). (٢) في (ز): (بالقول).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٢٢١)، وابن ماجة (٣١٢٣)، وفي إسناده عبد الله بن عياش، قال الحافظ: صدوق يغلط، وضعفه أبو داود والنسائي. وقال أبو حاتم: صدوق يكتب حديثه وهو قريب من ابن لهيعة. وقال الإمام أحمد في رواية حنبل: هذا حديث منكر، وقال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢): واختلف في رفعه ووقفه، والموقوف أشبه بالصواب، قاله الطحاوي وغيره.

(٤) رواه الترمذي (١٥٠٧) وقال: حديث حسن. قلت: فيه حجاج بن أرطأة، قال الحافظ: صدوق كثير الخطأ والتدليس. وقد عنعن، فالإسناد ضعيف. وقد قال الترمذي عقب الحديث الذي قبل هذا في جامعه:

«... والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم؛ أن الأضحية ليست بواجبة ولكنها سنة من سنن رسول الله ﷺ يُستحب أن يعمل بها. وهو قول سفيان الثوري وابن المبارك».

(٥) ضعيف: رواه ابن ماجة (١٧٨٩) وعلته ميمون الأعور: ضعيف، وفيه اضطراب، فقد رواه الترمذي (٦٥٩) بلفظ: «في المال حق سوىٰ الزكاة»، وضعفه الشيخ الألباني، انظر: الضعيفة (٤٣٨٣).

(٦) وقال النووي: «قال الشافعي والأصحاب: التضحية سنة مؤكدة، وشعار ظاهر ينبغي للقادر عليها المحافظة عليها، ولا تجب بأصل الشرع...». «المجموع» (٨/ ٣٥٢) وانظر كذلك: «المغني» (١٣/ ٣٦٠)، و«فتح الباري» (١٠/ ٣) وما بعدها.

(٧) كانَ الرجُلِ من العَرَب يَنْذِرُ النَّذْر يقول: إذا كانَ كذا وكذا أو بَلَغ شَاؤُه كذا فَعَليه أن يَذْبَح من كل عَشْرة منها في رَجَب كذا. وكانوا يُسمُّونها العَتَائِر. وقد عَتَر يَعْتِر عَتْرًا: إذا ذَبَح العَتِيرة. وهكذا كان في صدر الإسلام وأوَّله ثم نُسِخ. قال الخطّابي: =

هي التي تدعونها الرَّجبية[١]». وقد تكلم في إسناده.

وقال أبو[٢] أيوب: كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون، [حتىٰ تباهي][٣] الناس [فصار كما ترىٰ[٤][٥]][٦].

رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه.

وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله. رواه البخاري.

وأما مقدار سِنّ الأضحية، فقد روىٰ مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تذبحوا إلا مُسِنَّةً[٧]، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن**»[٨]. ومن هاهنا ذهب الزهري إلىٰ أن الجذَعَ لا يجزئ. وقابله الأوزاعي فذهب إلىٰ أن الجذَع يجزئ من كل جنسٍ، وهما غريبان. وقال الجمهور: إنما يجزئ الثَّني من الإبل والبقر والمعز، والجذع من الضأن، فأما الثني من الإبل: فهو الذي له خمس سنين، ودخل في السادسة. ومن البقر: ما له [سنتان ودخل في الثالثة، وقيل: ما له][٩] ثلاث وقد دخل في الرابعة. ومن المعز: ما له سنتان. وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل في سِنِّه، وما[١٠] دونه فهو حَمَل، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذَع شعر ظهره نائم، قد انعدل صدْعين، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ[١١] إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾

يخبر تعالىٰ أنه يَدْفَعَ عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفي بما قال. والكفور: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

= (العَتِيرة) تفسيرها في الحديث: أنها شاةٌ تُذْبَحُ في رَجَب. وهذا هو الذي يُشْبه معنىٰ الحديث ويَليقُ بحُكْم الدِّين. وأما العَتِيرة التي كانت تَعْتِرُها الجاهلية فهي الذَّبيحة التي كانت تُذْبحُ للأصْنام فيُصَبُّ دَمُها علىٰ رَأْسِها. «النهاية».

(١) في (ز): (المرجبة). والحديث ضعيف: رواه أبو داود (٢٧٨٨)، والترمذي (١٥١٨) والنسائي (٧/ ١٦٧)، وابن ماجة (٣١٢٥)، وفي إسناده أبو رملة: مجهول.

(٢) في (ز): (ابن أيوب). (٣) سقط من (ز). (٤) أي: مباهاة.

(٥) صحيح: رواه الترمذي (١٥٠٥)، وابن ماجة (٣١٤٧)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٦) سقط من (ز). (٧) المُسنة: هي الثنية. (٨) مسلم (١٩٦٣).

(٩) ما بين المعكوفتين سقط من (ز). (١٠) لوحة (٣١٢/ أ).

(١١) قال ابن القيم ﷺ: «قال ﷻ: ﴿إن الله يَدفَعُ عن الذين آمنوا﴾، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾، فدَفْعُه ودِفَاعُه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالىٰ، فمن كان أكمل إيمانًا وأكثر ذكرًا كان دفع الله تعالىٰ عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكرًا بذكر، ونسيانًا بنسيان». «الوابل الصيب» (ص١٧٣) ط عالم الفوائد، وانظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٤٥).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال العَوفي، عن ابن عباس: نزلت في محمد ﷺ وأصحابه ﷺ حين أُخرجوا من مكة[١].

وقال غير واحدٍ من السلف: هذه أول آيةٍ نزلت في الجهاد. واستدل بهذه الآية بعضهم علىٰ أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحدٍ.

وقال ابن جرير: حدثني يحيىٰ بن داود الواسطي، حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم - هو البَطِين - عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكُنَّ. قال ابن عباس: فأنزل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه: فعرفتُ أنه سيكون قتال[٢].

ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق به. وزاد: قال ابن عباس: وهي أول آيةٍ نزلت في القتال.

ورواه الترمذي، والنسائي في التفسير من «سننيهما»، وابن أبي حاتم، من حديث إسحاق بن يوسف، زاد الترمذي: ووَكيع، كلاهما عن سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: [حديث][٣] حسن. وقد رواه غير واحدٍ، عن الثوري، وليس فيه ابن عباس.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي: هو قادرٌ علىٰ نصر عباده المؤمنين من غير قتالٍ، ولكن هو يريد من عباده أن يبلوا[٤] جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ[٥] ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد:٤-٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٧/ ١٧٢)، من رواية العوفي، وسندها ضعيف، لكن الحديث ثبت كما سيأتي بعده.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢١٦)، والترمذي (٣١٧١)، والنسائي (٦/٢)، والطبري (١٧/ ١٧٢)، والحاكم (٢/ ٦٦)، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم علىٰ شرطهما، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٣) سقط من (ز). (٤) أي: يختبر. (٥) لوحة (٣١٢ ب).

جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢]، [وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

والآيات في هذا كثيرةٌ؛ ولهذا قال ابن عباسٍ في قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾: وقد فعل][1].

وإنما شرع تعالىٰ الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا، فلو أمرَ المسلمين -وهم أقل من العشر- بقتال الباقين[2] لشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفًا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل علىٰ أهل الوادي - يعنون أهل مِنَىٰ - ليالي مِنِىٰ فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر بهذا». فلما بَغَىٰ المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذرَ مَذَر، فذهب منهم طائفةٌ إلىٰ الحبشة، وآخرون إلىٰ المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام، ومَعْقلًا يلجؤون إليه - شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ .

قال العَوْفي، عن ابن عباس: أُخرجوا من مكة إلىٰ المدينة بغير حقٍّ؛ يعني: محمدًا وأصحابه.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: ما كان لهم إلىٰ قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له. وهذا استثناءٌ منقطعٌ بالنسبة إلىٰ ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة:١]، وقال تعالىٰ في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. ولهذا قال لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق، ويقولون:

وَاللهِ[3] لَولا أنتَ ما اهتَدَينا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّينَا
فَأنزلَنْ سَكِينَةً عَلَينَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إنْ لاقَينَا
إنّ الأُلَىٰ قَد بَغَوا عَلَينَا ... إذَا أرَادوا فتْنَةً أبَيْنَا

فيوافقهم رسول الله ﷺ، ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنةً أبينا»، يقول: «أبينا»، يمد بها صوته[4].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشفُ شَرّ أناسٍ عن غيرهم -بما يخلقه[5] ويقدره من الأسباب- لفسدت الأرض، وأهلك القَوي الضعيف؛

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من (ز). (٢) في (ز): (المنافقين).
(٣) في (ز): «لَا هُمّ»، والمثبت من «البخاري»، وفي الموضع الثاني من «البخاري»: «اللهم».
(٤) انظر: «صحيح البخاري» (٤١٠٤ و٤١٠٦)، ومسلم (١٨٠٢).
(٥) لوحة (٣١٣/ أ).

الضعيف؛ ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان[(١)]، قاله [ابن عباس][(٢)]، ومجاهد، وأبو العالية وعكرمة، والضحاك، وغيرهم.

وقال قتادة: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامع المجوس.

وقال مقاتل بن حَيَّان: هي البيوت التي علىٰ الطرق.

﴿وَبِيَعٌ﴾[(٣)]، وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها. وهي للنصارىٰ أيضًا. قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصَيف، وغيرهم.

وحكىٰ ابن جرير[(٤)] عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكىٰ السدي، عمن حَدَّثه، عن ابن عباسٍ: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هي الكنائس، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صَلُوتًا. وحكىٰ السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارىٰ. وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهي للمسلمين.

وقوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، فقد قيل: الضمير في قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ عائدٌ إلىٰ المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرًا.

وقال ابن جرير: الصوابُ: لهدمت صوامع الرهبان، وبِيعُ النصارىٰ، وصلوات اليهود -وهي كنائسهم-، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقل إلىٰ الأكثر، إلىٰ أن ينتهي إلىٰ المساجد، وهي أكثر عُمَّارًا وأكثر عبادًا، [وهم ذوو القصد][(٥)] الصحيح.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٧، ٨].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيءٍ فقدره تقديرًا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيءٍ ذليلٌ لديه، فقيرٌ إليه. ومن كان القويّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ -١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

---

(١) قال الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: في الآية دليل علىٰ أنه لا يجوز لنا هدم معابد اليهود والنصارىٰ، وإنما يمنعون من زيادة البناء حتىٰ لا يكون ذلك إذنًا بالبقاء علىٰ الكفر، وهو حرام.

(٢) بياض بـ(ز). (٣) وهي جمع بيعة.

(٤) في (ز): (جبير)، والمثبت هو الصواب، ونقل الطبري في «تفسيره» عن مجاهد قوله: صوامع الرهبان.

(٥) في (ز): (دور الفصل).

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

قال ابن أبي حاتم: [حدثنا](١) أبي، حدثنا أبو الربيع الزَّهْرَاني، حدثنا حماد بن زيد(٢)، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مُكنّا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي(٣).

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمدٍ ﷺ.

وقال الصباح بن سوادة الكِنْدي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية، ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة(٤) ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها.

وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال زيد بن أسلم: ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى مسليًا نبيّه محمدًا ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾، إلى أن قال: ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٣١٣/ ب).

(٣) رجاله ثقات: رواه ابن أبي حاتم (١٣٩٦٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩) لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) بزه يبزه بزًا: غلبه وغصبه، وبز الشيء: انتزعه، يقول: لا أُلزمكم الطاعة قسرًا.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟! ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة. وفي «الصحيحين» عن أبي موسىٰ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليُمْلي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِتْه»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢][1].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: كم من قريةٍ أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾][2]، أي: مكذبة لرسولها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، قال الضحاك: سقوفها؛ أي: قد خربت منازلها[3] وتعطلت حواضرها.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي: لا يستقىٰ منها، ولا يَرِدُها أحدٌ بعد كثرة وارديها والازدحام عليها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال عكرمة: يعني المُبَيَّض بالجَصِّ.

وروي عن علي بن أبي طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبي المَلِيح، والضحاك، نحو ذلك. وقال آخرون: هو المُنيف المرتفع. وقال آخرون: هو الشديد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها[4]، فإنه لم يَحْمِ أهله شدة بنائه، ولا ارتفاعه، ولا إحكامه، ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضًا، وذلك كافٍ، كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكر والاعتبار»:

حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر[5]، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام أَنْ يا موسىٰ، اتخذ نعلين من حديدٍ وعصا، ثم سِحْ في الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتىٰ تتخرق النعلان وتكسر العصا.

وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أَحْيِ قلبك بالمواعظ[6]، ونَوِّره بالفِكْر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّله بالموت[7]، وقرِّره بالفناء[8][9]، وبَصِّره فجائع الدنيا، وحَذِّره صولةَ الدهر وفحش تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب[10] من كان قبله، وسِرْ في[11] ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا، وعَمَّ انقلبوا.

---

(١) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) ما بين المعكوفتين سقط من (ز).

(٣) لوحة (٣١٤/ أ).

(٤) فهذا من اختلاف التنوع. راجع المقدمة «فضائل القرآن»، و«مقدمة أصول التفسير» لأبي العباس ابن تيمية، رحم الله الجميع.

(٥) في (ز): (سيار بن جعفر)، وهو خطأ.

(٦) في (ز): (أخي عليك بالمواعظ).

(٧) في (ز): (وذلله بالقرب).

(٨) في (ز): (وتدبره بالثناء).

(٩) أي: سكنه وثبته بذكر الموت.

(١٠) في (ز): (وبصره بمجامع).

(١١) في (ز): (وسيأتي).

أي: فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أي: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمىٰ عمىٰ البصر، وإنما العمىٰ عمىٰ البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلىٰ العبر، ولا تدري ما الخبر. وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنىٰ - وهو أبو محمد عبد الله ابن محمد ابن سارة (١) الأندلسي الشَّنْتَريني، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة (٢):

يا مَن يُصيخُ إلىٰ دَاعي الشَّقَاء، وقَد ... نَادَىٰ بـه الناعيَان: الشيبُ والكِبَرُ
إن كُنتَ لا تَسْمَع الذكْرَىٰ، ففيم تُرَىٰ ... في رَأسك الوَاعيان: السمعُ والبَصَرُ؟!
ليسَ الأصَمّ ولا الأعمَىٰ سوَىٰ رَجُلٍ ... لم يَهْده الهَاديان: العَينُ والأثَرُ
لا الدّهر يَبْقَىٰ وَلا الدنيا، وَلا الفَلَك الـ ... أعلىٰ ولا النَّيِّران: الشَّمْسُ وَالقَمَرُ
لَيَرْحَلَنّ عَن الدنيا، وَإن كَرِهَا ... فراقها، الثاويان: البَدْو والحَضَرُ

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٣) ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ -أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر- كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:١٦].

وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: الذي قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

قال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: [أمن العجم أنت؟ إن العرب تَعُدُّ الرجوع عن الوعد لؤما] (٤)، وعن الإيعاد كرمًا، أومَا سمعتَ قول الشاعر (٥):

لا يُرْهِبُ ابنَ العم مني (٦) سَطْوَتي ... ولا أخْتَتِي (٧) من (٨) سَطْوة المُتَهَدّد
فإنّي وَإن أوْعَدْتُه أوْ وَعَدْتُه ... لَمُخْلِفُ إيعَادي ومُنْجزُ مَوْعدي

---

(١) في (ز): (محمد بن جبارة).
(٢) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٩/ ٤٥٩)، ويقال له: ابن سَارة، وصارة -بالسين والصاد المهملتين-.
(٣) لوحة (٣١٤ ب).
(٤) اضطرب النص في (ز) في هذه العبارة فأثبتنا ما في المطبوع.
(٥) هو عامر بن الطفيل.
(٦) في (ز): (ابن العم والجار).
(٧) اختتأ الشيء: اختطفه، واختتأ منه: اختبأ واستتر خوفًا وحياء، وترك الهمزة ضرورة؛ فأصله: اختبئ.
(٨) في (ز): (ولا يثني عن).

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، أي: هو تعالىٰ لا يَعجَل، فإن مقدار ألف سنةٍ عند خلقه كيوم واحدٍ عنده بالنسبة إلىٰ حكمه؛ لعلمه بأنه علىٰ الانتقام قادرٌ، وأنه لا يفوته شيءٌ، وإن أجَّلَ وأنظَرَ وأملىٰ؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفة، حدثني عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم؛ خمسمائة عام**»[(١)].

ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الثوري، عن محمد بن عمرو، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن أبي هريرة موقوفًا، فقال:

حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، حدثنا سعيد الجُرَيري، عن أبي نَضْرَة، عن سُمَيْر بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. [قلت: وما نصف يوم؟][(٢)]، قال: أوَما تقرأ القرآن؟ قلت: بلىٰ. قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[(٣)].

وقال أبو داود في آخر (كتاب الملاحم) من «سننه»: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن سعد بن أبي وَقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني لأرجو ألا تَعْجِزَ أمتي عند**[(٤)] **ربها، أن يؤخرهم نصف يوم**». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة[(٥)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنَان[(٦)]، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيّ، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة[(٧)]، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض[(٨)].

رواه ابن جرير، عن ابن بَشَّار[(٩)]، عن ابن مهدي. وبه قال مجاهد، وعكرمة، ونصَّ عليه أحمد بن حنبل في كتاب «الردّ علىٰ الجهمية»[(١٠)].

وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥].

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٥٤)، وابن ماجة (٤١٢٢). والنسائي، وأحمد (٢/ ٢٩٦، ٤٥١، ٥١٣)، وله شواهد عن أبي سعيد وأنس وجابر وابن عمر ﷺ، انظر: «سنن الترمذي» (٢٣٥٢ - ٢٣٥٥)، وابن ماجة (٤١٢٤).

(٢) سقط من (ز).

(٣) رواه الطبري (١٧/ ١٧٩)، والجريري قد اختلط ولا يضر ذلك؛ فإسماعيل بن علية روىٰ عنه قبل الاختلاط.

(٤) في (ز): (عن ربها).

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٥٠)، وله شاهد عنده: (٤٣٤٩).

(٦) في (ز): (شيبان).

(٧) لوحة (٣١٥/ أ).

(٨) رواه الطبري (١٧/ ١٧٩)، ورواية سماك عن عكرمة مضطربة.

(٩) في (ز): (ابن يسار).

(١٠) (ص١٨٢) ط دار القبس بالرياض، بتحقيق/ دغش العجمي، واسم الكتاب كاملًا: «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية فيما شَكَّتْ فيه من متشابه القرآن وتأولته علىٰ غير تأويله». راجع بدايته (ص١٦٩).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارم -محمد [1] بن الفضل-، حدثنا حماد بن زيد، عن يحيىٰ ابن عَتيق، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلمَ قال: إن الله تعالىٰ خلق السموات والأرض في ستة أيام، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة في اليوم السابع، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم في اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، ففي أية [لحظة] [2] ولدت كان تمامًا [3].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وُقُوعَ العذاب واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، وليس إليَّ من حسابكم من شيءٍ، أمركم إلىٰ الله، إن شاء عجَّل لكم العذاب، وإن شاء أخَّره عنكم، وإن شاء تاب علىٰ من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، و﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاةٌ حَسَنةٌ علىٰ القليل من حسناتهم. وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ: إذا سمعتَ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾، قال مجاهد: يُثَبِّطون الناس عن متابعة النبي ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين. وقال ابن عباس: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مراغمين.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ [4] حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) في (ز): (عارم بن محمد بن الفضل). (٢) سقط من (ز).
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٣٩٨٨)، وهو من الإسرائيليات التي فيها ما يخالف شريعتنا، وهو قوله: وأنتم في اليوم السابع... إلخ.
(٤) لوحة (٣١٥/ ب).

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغَرَانيق[1]، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلىٰ أرض الحبشة، ظَنًّا منهم أن مشركي قريشٍ قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندةً من وجه صحيح، والله أعلم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بِشْر، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم»، فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، قال: فألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه: «تلك الغَرَانيق العُلىٰ. وإن شفاعتهن ترتجىٰ». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجَدَ وسجدوا، فأنزل الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية[2].

ورواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه، وهو مرسل، وقد رواه البزار في «مسنده»، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - فيما أحسب، الشك في الحديث - أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة «النجم»، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩][3]، وذكر بقيته. ثم قال البزار: لا يروىٰ متصلًا إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. وإنما يُروىٰ هذا من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن [ابن عباس][4]، ثم رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالية، وعن السدي، مرسلًا. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس، مرسلًا أيضًا.

وقال قتادة: كان النبي ﷺ يصلي عند المقام إذ نَعَس، فألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه. «وإن شفاعتها لترتجىٰ. وإنها لمع الغرانيق العلىٰ»، فحفظها المشركون. وأجرىٰ الشيطان أن نبي الله قد قرأها، فزَلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ الآية، فدَحَرَ الله الشيطان[5].

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا موسىٰ بن أبي موسىٰ الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبِي، حدثنا محمد بن فُلَيْح، عن موسىٰ بن عقبة، عن ابن شهابٍ قال: أنزلت «سورة النجم»، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف

---

(١) الغَرَانِيق هاهنا: الأصْنَام، وهي في الأَصل: الذكُور من طَيْر الماء، واحِدُها: غُرْنُوق وغُرْنيق، سُمّي به لبياضه. وقيل: هو الكُرْكِيُّ، والغُرْنُوق أيضًا: الشَّابُّ النَّاعِمُ الأبْيض. وكانوا يَزْعمون أن الأصنام تُقرِّبُهم من الله وتَشْفَع لهم. فشُبِّهت بالطيور التي تَعْلُو في السَّماء وتَرْتَفع. «النهاية»، وانظر: «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» للشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) مرسل: رواه الطبراني (١٧/ ١٣٢)، وإسناده مرسل.

تنبيه: ما ورد من أحاديث وآثار عن قصة الغرانيق كلها ضعيفة، وللشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة بعنوان «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق».

(٣) رواه البزار (٢٢٦٣)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٤٥٠)، وقد خالف أمية الثقات في وصل هذا الحديث. راجع كتاب الألباني «نصب المجانيق»، فالقصة لا تصح بحالٍ من الأحوال رغم ما اغتر به بعض العلماء فحكموا بصحة الرواية. وهذا غفلة منهم، والراجح ضعفها، بل قال ابن خزيمة: هذا من وضع الزنادقة.

(٤) سقط من (ز).

(٥) ضعيف: رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٤٠)، والطبري (١٧/ ١٩١)، وإسناده ضعيف، وعلته الإرسال.

دينه من اليهود والنصارىٰ بمثل[١] الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم[٢] وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان يتمنىٰ هُداهم، فلما أنزل الله سورة «النجم» قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢١]، ألقىٰ الشيطان عندها كلماتٍ حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرانيق العلىٰ. وإن شفاعتهن لهي التي ترتجىٰ». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشركٍ بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدًا قد رجع إلىٰ دينه الأول ودين قومه. فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر «النجم»، سَجَد وسجد كل من حضره من مسلمٍ أو مشركٍ. غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلًا كبيرًا، فرفع علىٰ كفه ترابًا فسجد عليه. فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود، لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم علىٰ غير إيمان ولا يقين -ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التي ألقىٰ الشيطان في مسامع المشركين- فاطمأنت أنفسهم لما ألقىٰ الشيطانُ في أمنية رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم. ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان، حتىٰ بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة علىٰ التراب علىٰ كفه، وحُدِّثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة، فأقبلوا سراعًا، وقد نسخ الله ما ألقىٰ الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه الله من الفرية، وقال [تعالىٰ]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، فلما بيَّن الله قضاءه، وبرَّأه من سجع[٣] الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم وعداوتهم للمسلمين، واشتدوا عليهم[٤]. وهذا أيضًا مرسلٌ.

وفي «تفسير ابن جرير» عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه[٥]. وقد رواه الإمام أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجُزْ به موسىٰ بن عقبة. ساقه في «مغازيه» بنحوه، قال: وقد روينا عن ابن إسحاق هذه القصة.

قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في «السيرة»[٦] بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات، فالله أعلم[٧]. وقد ساقها البغوي في «تفسيره» مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظِيّ، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالًا: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة

---

(١) في (ز): (من الذي). (٢) لوحة (٣١٦/ أ). (٣) في (ز): (شجع).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٣٩٩٩)، وإسناده ضعيف لإرساله.

(٥) انظر: الطبري (١٧/ ١٨٩). (٦) لوحة (٣١٦/ ب).

(٧) راجع رسالة الألباني «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق».

من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكىٰ أجوبةً [1]عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان، لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم [2].

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا -بتقدير صحته-. وقد تعرض القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله [3].

وقوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه؛ أي: لا يَهيدنّك ذلك؛ فقد أصاب مثل هذا مَن قبلك مِن المرسلين والأنبياء.

قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾؛ إذا حدث ألقىٰ الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويُحْكِمُ الله آياته.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: [﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، يقول: إذا حدث ألقىٰ الشيطان في حديثه.

وقال مجاهد] [4]: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني: إذا قال.

ويقال: ﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: قراءته، ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، يقولون ولا يكتبون.

قال البغوي: «وأكثر المفسرين قالوا: معنىٰ قوله: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قُتِل:

تَمَنّىٰ كتَابَ الله أوّل لَيْلَة ... وآخرَها لاقىٰ حِمَامَ المَقَادرِ» [5].

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾: إذا تلا. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فيبطل الله ﷻ ما ألقىٰ الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل -بأمر الله- ما ألقىٰ الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، [أي: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفىٰ عليه خافية] [6]،

---

(١) في (ز): (حكىٰ لي).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» -معالم التنزيل- (٥/ ٣٩٤) ط طيبة.

(٣) كذا في (ز) والكلام ناقص، وزادت بعض الطبعات بعدها عبارة: (أنها كذلك لثبوتها)، ولا نشك أنها مقحمة علىٰ عبارة ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، ولفظ القاضي عياض (٢/ ١٠٧-١١١): (...فاعلم -أكرمك الله- أن لنا في الكلام علىٰ مشكل هذا الحديث مأخذين، أحدهما في توهين أصله، والثاني علىٰ تسليمه. أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحدٌ من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب...) ثم قال بعدها: (وأما المأخذ الثاني: فهو مبني علىٰ تسليم الحديث لو صح – وقد أعاذنا الله من صحته- ولكن علىٰ كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين...) مستفاد من ط (الشعب) (٥/ ٤٤١).

(٤) سقط من (ز).

(٥) «تفسير البغوي» -معالم التنزيل- (٥/ ٣٩٤) ط طيبة.

(٦) ما بين المعكوفتين سقط من (ز).

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شكٌّ وشركٌ وكفرٌ ونفاقٌ، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان.

قال ابن جريج: [﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم][1] : المنافقون، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون.

وقال مقاتل بن حيان: هم [الكافرون][2] اليهود.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضلالٍ ومخالفةٍ وعنادٍ بعيد؛ أي: من الحق والصواب.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن[3] رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ﴾ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه، وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتابٌ حكيمٌ، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ﴾ أي: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلىٰ الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلىٰ الصراط المستقيم، الموصل إلىٰ درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الكفار أنهم لا يزالون في مريةٍ؛ أي: في شكٍّ وريبٍ من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مما ألقىٰ الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، قال مجاهد: فجأةً. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾: بغت القوم[4] أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحدٍ. واختاره ابن جرير.

وقال عكرمة، ومجاهد [في رواية عنهما][5] : هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصري.

---

(١) في (ز): (الذين في قلوبهم من كفرهم المنافقون). (٢) ليست في (ز).
(٣) لوحة (٣١٧/ أ). (٤) في (ز): (الله أمر الله). (٥) سقط من (ز).

وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضىٰ ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: كفرت قلوبهم بالحق وجحدوا به وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين [١].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عمن خرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبًا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخِلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرةً لدين الله، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ أي: في الجهاد، ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾، أي: حتف أنفهم [٢][٣]؛ أي: من غير قتالٍ علىٰ فرشهم، فقد حصلوا علىٰ الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: ليُجْرِيَن عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي: الجنة. كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل في سبيل الله من مهاجرٍ أو غير مهاجرٍ، فإنه حيٌّ عند ربه يرزق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث في هذا كثيرةٌ كما تقدم، وأما من تُوُفي في سبيل الله من مهاجرٍ أو غير مهاجرٍ، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة -مع

---

(١) لوحة (٣١٧/ ب). (٢) في (ز): (حتف أنفسهم).

(٣) الحَتْف: الهلاك، كانوا يَتَخَيَّلُون أنَّ رُوح المريض تَخْرُج من أنفه، فإن جُرح خَرجَتْ من جِرَاحَتِه. «النهاية».

الأحاديث الصحيحة- إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيَّب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن ابن شُرَيْح، عن ابن الحارث -يعني: عبد الكريم-، عن ابن عقبة -يعني: أبا عبيدة بن عقبة- قال: حدثنا شُرَحْبِيل بن السِّمْط قال: طال رباطنا وإقامتنا علىٰ حصن بأرض الروم، فمر بي سلمان- يعني: الفارسي ﵁ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات مرابطًا، أجرىٰ الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرىٰ عليه الرزق، وأمن من الفتَّانين**»، واقرءوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[(١)] .

وقال أيضا: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر[(٢)] ، أخبرني همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان: كنا برُودس، ومعنا فَضَالة بن عبيد الأنصاري - صاحب رسول الله ﷺ - فمر بجنازتين، إحداهما قتيل والأخرىٰ متوفىٰ، فمال الناس علىٰ القتيل، فقال فضالة: ما لي أرىٰ الناس مالوا مع هذا، وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا قتيل في سبيل الله تعالىٰ. فقال: والله ما أبالي من أي حُفرتيهما بُعثت، اسمعوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ حتىٰ آخر الآية[(٣)] .

وقال أيضا: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لَهِيعة، حدثنا سلامان بن عامر الشعباني، أن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولاني حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفىٰ، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حفرتيهما بعثتُ، إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾، فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلًا ترضاه ورزقت رزقًا حسنًا؟! والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت[(٤)] .

ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلىٰ، عن ابن وهب، أخبرني عبد الرحمن بن شُرَيْح، عن[(٥)] سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميرًا علىٰ الأرباع، فخرج بجنازتي رجلين، أحدهما قتيل والآخر متوفىٰ... فذكر نحو ما تقدم[(٦)] .

---

(١) حسن لغيره: رواه أبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٦٢١)، وأحمد (٦/ ٢٠)، ورجاله ثقات عدا أبو عبيدة بن عقبة، قال الحافظ: مقبول.
قلت: لكن للحديث المرفوع شواهد من حديث عقبة بن عامر: رواه أحمد (٤/ ١٥٧)، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٩٢)، وله شاهد من حديث أبي هريرة: رواه ابن ماجة (٢٧٦٧)، وفيه معبد بن عبد الله بن هشام: مقبول، وقد توبع في رواية أحمد (٢/ ٤٠٤). وبالجملة فالحديث حسن بهذه الشواهد.

(٢) لوحة (٣١٨أ).

(٣) صحيح: ويشهد له الرواية الآتية أيضًا، وقد رواه الطبري في «تفسيره» من طريق أخرىٰ (١٧/ ١٩٤) وسيذكرها المصنف.

(٤) رواه الطبري (١٧/ ١٩٤).

(٥) في (ز): (عبد الرحمن بن شريح وسلامان)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) رواه الطبري (١٧/ ١٩٤)، وانظر التعليق السابق.

(٧) في (ز): (وابن جرير).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، ذكر مقاتل بن حيان وابن جريج[١]: أنها نزلت في سرية من الصحابة، لقوا جمعًا من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون؛ لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالىٰ منبهًا علىٰ أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ...﴾ الآية [آل عمران: ٢٦، ٢٧]، ومعنىٰ إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار -كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل -كما في الصيف[٣]. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفىٰ عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيءٍ فقيرٌ إليه، ذليلٌ لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالىٰ فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شيءٍ تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلىٰ منه، [الكبير][٤] الذي لا أكبر منه، تعالىٰ وتقدس وتنزه وعز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

---

(١) معضل: لأنه من رواية مقاتل بن حيان وابن جريج.
(٢) لوحة (٣١٨/ ب).
(٣) سقط من (ز).

وهذا أيضًا من الدلالة علىٰ قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح فتثير سحابًا، فيمطر علىٰ الأرض الجُرُز التي لا نبات فيها، وهي هامدةٌ يابسةٌ سوداءُ قحلةٌ، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾، الفاء هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شيءٍ بحسبه، كما قال: ﴿خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت في «الصحيحين»: «**أن بين كل شيئين أربعين يومًا**»[1]. ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾، أي: خضراء بعد يبسها ومُحُولها[2].

وقد ذكر عن بعض أهل[3] الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليمٌ بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفىٰ عليه خافية، فيوصل إلىٰ كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٍ مِّنۡ خَرۡدَلٍ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:١٦]، وقال: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[4] [النمل:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]؛ ولهذا قال أُمية بن [أبي][5] الصَّلْت - أو: زيد بن عمرو بن نُفيل - في قصيدته:

وَقُولا لَه: مَن يُنْبِتُ الحبَّ في الثَّرَىٰ فَيُصبِحَ منهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا
ويُخْرِجُ منْهُ حَبَّه في رءوسه فَفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غنيٌّ عما سواه، وكل شيءٍ فقيرٌ إليه، وعبد لديه.

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، أي: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: بتسخيره وتسييره؛ أي: في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريحٍ طيبةٍ، ورفقٍ وتؤدةٍ، فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلدٍ إلىٰ بلدٍ، وقطرٍ إلىٰ قطرٍ، ويأتون بما عند أولئك إلىٰ هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلىٰ أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت علىٰ الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يُمْسِكُ السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿ ﴾، أي: مع ظلمهم، كما قال في

البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (١٦٤٢)، وأبو داود (٤٧٨١)، والترمذي (٢٠٦٣).

في (ز): (بعد يباسها وطولها). في (ز): (أرض الحجاز).

لوحة (٣١٩/ أ). سقط من (ز).

الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، ومعنى الكلام: كيف تجعلون مع الله أندادًا وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف؟! ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جحود.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[(١)] ﴿٦٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنه جعل لكل قوم منسكًا؛ قال ابن جرير: يعني: لكل أمة نبيٍّ منسكًا. قال: وأصل المنسك في كلام العرب: هو الموضع الذي يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخيرٍ أو شرٍّ. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك؛ لتردد الناس إليها وعكوفهم عليها.

فإن كان كما قال من أن المراد: «لكل أمةِ نبيٍّ جعلنا منسكًا»، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: «لكل أمة جعلنا منسكًا جعلًا قدريًّا - كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: فاعلوه - فالضمير هاهنا عائد علىٰ هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق؛ أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح مستقيم موصل إلىٰ المقصود.

وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ ولهذا[(٢)] قال: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١٥].

---

(١) لوحة (٣١٩/ ب).

(٢) في (ز): ولهذا قال: «الله يحكم بيني وبينكم» ولهذا قال: «يحكم بينكم يوم القيامة...».

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ (١).

يخبر تعالىٰ عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيطٌ بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالىٰ علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قدّر مقادير الخلائق**(٢) **قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء**»(٣).

وفي «السنن»، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرىٰ القلم بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**»(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَيْر، حدثني ابن لَهِيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن(٥) جُبَيْر قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مَسِيرَة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق - وهو علىٰ العرش تبارك وتعالىٰ -: «اكتب». قال القلم: وما أكتب؟ قال: «علمي في خلقي إلىٰ يوم تقوم الساعة». فجرىٰ القلم بما هو كائن في علم الله إلىٰ يوم القيامة. فذلك قوله تعالىٰ للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(٦).

وهذا من تمام علمه تعالىٰ أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضًا، فما العباد عاملون قد علمه تعالىٰ قبل ذلك، علىٰ الوجه الذي يفعلونه، فيعلم -قبل الخلق- أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيءٍ علمًا، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

---

(١) هذه الآية فيها مرتبتان من مراتب القَدَر الأربعة، التي هي: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق؛ «(عِلْمٌ)، (كتابةُ مولانا)، (مَشِيئتُه)...و(خَلْقُه)، وهو إيجادٌ وتكوينٌ». وعلىٰ العبد الإيمان بها ليتم إيمانه بالقدر؛ يؤمن بأن الله علم كل شيء -جملة وتفصيلًا-، وكتب كل شيء -ولا يظلم ربك أحدًا-، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وخلق كل شيء فقدره تقديرًا. ينظر: «شفاء العليل» لابن القيم، و«شرح القصيدة التائية» للسعدي -بتحقيقي-، وشرحها للحمد، و«شرح لمعة الاعتقاد» (ص٨٩)، و«فتاوىٰ العثيمين» (٣/ ٢٥٥) وما بعدها، و(١٠/ ٩٩٠ و١٠١٨) وما بعدهما، و«القضاء والقدر» للدكتور/ عمر الأشقر رَحِمَهُ اللَّهُ، وللدكتور/ عبد الرحمن المحمود حَفِظَهُ اللَّهُ.

(٢) لفظ مسلم: «كتب الله مقادير الخلائق...».

(٣) مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٧).

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) و(٣٣١٩)، من حديث عبادة بن الصامت، وله شواهد انظر كتاب «السنة» لابن أبي عاصم (١٠٢ - ١٠٨)، و«الصحيحة» (١٣٣ و٣١٣٦).

(٥) لوحة (٣٢٠/ أ).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٤٠٢٢)، ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢٢١)، وأورده الذهبي في «العلو» (٢٨٨) وقال: إسناده -لولا ابن لهيعة: جيد. قلت: ابن لهيعة- اختلط بعد احتراق كتبه، وفي الإسناد أيضًا: رواية عطاء بن دينار عن سعيد: صحيفة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا، يعني: حجةً وبرهانًا، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجةٍ، وأصله مما سول لهم الشيطان وزيَّنه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالىٰ بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: من ناصرٍ ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات علىٰ توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حقٌّ وصدقٌ، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء! ﴿ ۝ ﴾ -أي: يا محمد لهؤلاء- ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوِّفون[1] به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة -علىٰ صنيعكم هذا- أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله[2]: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، أي: وبئس النار منزلًا ومقيلًا ومرجعًا وموئلًا ومقامًا، ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالىٰ منبهًا علىٰ حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ - أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به- ﴿فَاسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد علىٰ أن يقدروا علىٰ خلق ذباب واحدٍ ما قدروا علىٰ ذلك، كما قال الإمام أحمد:

---

(١) في (ز): (تحدثون). (٢) لوحة (٣٢٠/ ب).

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعة، عن أبي هريرة - رفع الحديث - قال: «**ومن أظلم ممن خلق [خلقًا]**[1] **كخلقي؟! فليخلقوا مثل خلقي ذَرّة، أو ذبابة، أو حَبَّة**»[2].

وأخرجه صاحبا «الصحيح»، من طريق عُمَارة، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله ﷻ: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟! فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة**»[3].

ثم قال تعالىٰ أيضا: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذبابٍ واحدٍ، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها[4] شيئًا من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت علىٰ ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا [قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾][5].

قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذُّباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عَزَّ كل شيء[6] فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب[7]؛ لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنه يختار من الملائكة رسلًا فيما يشاء من شرعه وقَدَره، ومن[8] الناس لإبلاغ

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣٩٧٢)، وانظر ما بعده.

(٣) البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

(٤) أي: أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم.

(٥) سقط من (ز).

(٦) عَزَّه يعزه عزًّا: قهره وغلبه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾، أي: غلبني في الاحتجاج.

(٧) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النونية»:

وهــو العزيز فلا يرام جُنَابهُ ... أَنّىٰ يُرامُ جنابِ ذي السلطانِ؟!

(٨) اللوحة (٣٢١/ أ).

رسالاته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفىٰ عليه من أمورهم شيء، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٦ -٢٨]، فهو سبحانه رقيبٌ عليهم، شهيدٌ علىٰ ما يقال لهم، حافظٌ لهم، ناصرٌ لجنابهم؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾

اختلف الأئمة -رحمهم الله- في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجودُ فيها أم لا[١]؟ علىٰ قولين. وقد قدمنا عند الأولىٰ حديث عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ: «**فُضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما**»[٢].

وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ -أي: يا هذه الأمة- الله اصطفاكم واختاركم علىٰ سائر الأمم، وفضَّلكم وشرَّفكم وخصَّكم بأكرم رسول، وأكمل شرع.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم[٣] بشيء فَشَقَّ عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا[٤]، فالصلاة - التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب في الحَضَر أربعًا وفي السفر تُقْصَر إلىٰ ثِنْتَين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به

---

(١) ينظر: «التبيان في سجدات القرآن» للشيخ/ عبد العزيز السدحان.

(٢) تقدَّم في أول السورة في تفسير الآية (١٨).

(٣) في (ز): (أكرمكم).

(٤) فالقاعدة أن: «المشقة تجلب التيسير».ينظر «الأشباه والنظائر» للسيوطي (ص١٤٥)، و«شرح القواعد الفقهية» للزرقا (ص١٥٧) ط دار القلم، و«موسوعة القواعد» للبورنو (١٠/ ٦٣٢).

الحديث، وتُصَلىٰ رجالًا وركبانًا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. وكذا في النافلة[١] في السفر إلىٰ القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسًا، فإن لم يستطع فعلىٰ جنبه، إلىٰ غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمحة»[٢]. وقال لمعاذ وأبي موسىٰ -حين بعثهما أميرَين إلىٰ اليمن-: «بَشِّرا ولا تنفرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرَا»[٣]. والأحاديث[٤] في هذا كثيرةٌ؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، قال ابن جرير: نصب علىٰ تقدير: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، أي: من ضيق، بل وَسَّعه عليكم كَمِلَّةِ أبيكم إبراهيم. [قال: ويحتمل أنه منصوب علىٰ تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم][٥].

قلت: وهذا المعنىٰ في هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية [الأنعام: ١٦١].

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾، قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، قال: الله عز وجل.

وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسمّ هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾.

قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ يعني: القرآن. وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب[٦]؛ لأنه تعالىٰ قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ثم حثهم وأغراهم علىٰ ما جاء به الرسول - صلوات الله وسلامه عليه- بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل،

---

(١) في (ز): (القافلة).

(٢) حسن: تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٨٥) من «سورة البقرة».

(٣) البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (١٧٣٣).

(٤) لوحة (٣٢١/ ب).

(٥) ما بين المعكوفتين سقط من (ز).

(٦) في (ز): (بل، وهذا هو الصواب).

ثم ذكر منته، تعالىٰ علىٰ هذه الأمة بما نوّه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء، يتلىٰ علىٰ الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾. وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية:

أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شُعَيب، أنبأنا معاوية بن سلام، أن أخاه زيد بن سلام أخبره، عن أبي سلام أنه أخبره قال: أخبرني الحارث الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا بدعوىٰ الجاهلية فإنه من جِثِيّ جهنم**». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلىٰ؟ قال: «**نعم، وإن صام وصلىٰ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها: المسلمين المؤمنين عباد الله**»[١].

وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من سورة البقرة [الآية: ٢١].

ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إنما جعلناكم هكذا أمةً وسطًا عُدولًا خيارًا، مشهودًا بعدالتكم عند جميع الأمم؛ لتكونوا[٢] يوم القيامة ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها[٣] علىٰ كل أمةٍ سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد علىٰ هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام علىٰ هذا عند قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوحٍ وأمته بما أغنىٰ عن إعادته.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة -وهو الإحسان إلىٰ خلق الله، بما أوجب للفقير علىٰ الغني، من إخراج جزء نزر من ماله في السَّنة للضعفاء والمحاويج- كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة «التوبة».

وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: اعتضدوا به، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: حافظكم وناصركم ومُظفركُم علىٰ أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ يعني: [نعم][٤] الولي ونعم الناصر من الأعداء.

---

(١) صحيح: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٤٩)، ورواه أبو يعلىٰ (١٥٧١)، وابن خزيمة (٩٣٠)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والحاكم (١/ ١١٨)، وهو حديثٌ طويلٌ فيه: أن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلمات... الحديث.

(٢) لوحة (٣٢٢/ أ).

(٣) في (ز): (بسيادتهم وفضلهم).

(٤) سقط من (ز).

قال وُهَيْب بن الورد(١): يقول الله تعالىٰ: ابن آدم، اذكرني إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلمتَ فاصبر، وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم(٢). والله تعالىٰ أعلم، وله الحمد والمنة، والثناء الحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، في سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تفسير سورة «الحج»، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرَّف وكرَّم، ورضي الله تعالىٰ عن الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين(٣).

---

(١) في (ز): (وهيب بن الزرد)، وهو خطأ.

(٢) هذا مما نقله من كتب أهل الكتاب؛ لأنه قال في بعض الروايات: بلغني أنه مكتوبٌ في التوراة أو في بعض الكتب...، ومثله لا مانع من ذكره؛ لأنه لا يخالف شريعتنا. رواه ابن أبي حاتم (٥٣٨٨)، ورواه أحمد في «الزهد» (٢٧٩)، و«مكارم الأخلاق» للطبراني (٣٩)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨/ ١٤٤)، وسبق عند تفسير الآيات (١٣٠ - ١٣٦) في سورة آل عمران.

(٣) جاء بعد هذا في (ز): «وهو آخر الجزء الرابع، يتلوه في الخامس إن شاء الله تعالىٰ «سورة المؤمنين»، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ المُؤْمِنُون، مَكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ
هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ
۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثَنا عبد الرزَّاق، أخبرَني يونس بن سُلَيْم قال: أملَىٰ علَيَّ يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، عن عُرْوَةَ بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عَبْدٍ القاريِّ قال: سمعتُ عُمَرَ بْنَ الخطَّاب يقول: كان إذا نزل علىٰ رسولِ الله ﷺ الوحيُ، يُسْمَعُ عند وجْهِهِ كدَوِيٍّ(٢) النَّحْل، فَمَكثْنَا ساعةً، فاستَقْبَلَ القِبْلَةَ ورفعَ يدَيْهِ، فقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، [وَارْضَ عَنَّا](٣) وَأَرْضِنَا»، ثم قال: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ، مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ثمَّ قرَأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتَّىٰ ختَمَ العَشْرَ(٤).

وكذا روىٰ الترمذيُّ في «تفسيره»، والنَّسائي في «الصَّلاة»، من حديث عبد الرزَّاق، به.

وقال الترمذيُّ: منكر، لا نعرف أحدًا رواه غيرُ يونس بن سليم، ويونس لا نعرفُهُ.

وقال النَّسائيُّ في «تفْسِيره»(٥): أنبأنا قُتَيبَةُ بْنُ سعيد، حدَّثَنا جعفر، عن أبي عمران، عن يزيد بن

---

(١) هكذا جاءت البسملة مرتين في (ز).

(٢) الدَّوي: صوت لا يفهم منه شئ.

(٣) بياض في (ز)، والمثبت من «المسند».

(٤) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٣٤)، والترمذي (٣٧٢١)، وفيه يونس بن سليم، قال الحافظ: مجهُول، والحديث قال عنه النَّسائي في «الكبرىٰ» (١/ ٤٥٠): هذا حديث منكر. وقال العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٤٦١): لا يُتَابع علىٰ حديثه هذا ولا يُعرف إلا به. وقال الألباني في «الضعيفة» (١٢٤٢): منكر.

(٥) (٢/ ٩٦) (٣٧٠) بتحقيق الجليمي والشافعي، وقالا: حسن.

بابَنُوس قال: قلْنَا لعائشةَ: يا أمَّ المؤمنين، كيف كان خُلُقُ رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خُلُقُ رسولِ اللهِ ﷺ القرآنَ، فقَرَأَتْ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، حتىٰ انتهت إلىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾، قالت: هكذا كان خُلُقُ رسولِ الله ﷺ(١).

وقد رُوِيَ عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم: لَمَّا خَلَقَ اللهُ جنَّةَ عَدْنٍ وغَرَسَهَا بِيَدِهِ، نَظَرَ إِلَيْهَا وقال لها: «تكلَّمِي». فقالت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، قال كعب الأحبار: لِمَا أعدَّ لهم فيها من الكرامة. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه.

وقد رُوي ذلك عن أبي سعيدٍ الخدري مرفوعًا، فقال أبو بكرٍ البزَّار(٢): حدَّثَنا محمد بن المُثَنَّىٰ، حدَّثَنا المغيرة بن سلمة، حدَّثَنا وُهَيْب، عن الجُرَيْري، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد قال: خلَقَ اللهُ الجنَّةَ لَبِنَةً من ذَهَبٍ ولَبِنَةً من فضَّةٍ، وغَرَسَهَا وقال لها: «تكلَّمِي». فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، فدخلَتْهَا الملائكةُ فقالت: طوبَىٰ لك، مَنْزِلَ الملوكِ(٣)!

ثم قال: وحدَّثَنا بِشْر بن آدم، [و](٤) حدَّثَنا يونس بن عبيد الله [العُمَيري](٥)، حدَّثَنا عَدِي بن الفضل، حدَّثَنا الجُرَيْرِي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيدٍ، عن النبي ﷺ قال: «**خَلَقَ اللهُ الجنَّةَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ**». قال أبو بكر: ورأيتُ في موضعٍ آخر في هذا الحديث: «**[حَائِطُ](٦) الْجَنَّةِ لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وملاطُهَا الْمِسْكُ. فقال لها: «تَكَلَّمِي». فقالت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: طُوبَىٰ لَكِ، مَنْزِلَ الْمُلُوكِ!**»(٧).

ثم قال البزَّارُ: لا نعلم أحدًا رفعَهُ إلَّا [عَدِيّ](٨) بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثَنا أحمد بن علي، حدَّثَنا هشام بن خالد، حدَّثَنا بَقِيَّة، عن ابن

---

(١) رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٣٠٨)، وفيه يزيد بن بابنوس، قال الحافظ: مقبول لكن الشطر الأول ـ وهو قولها: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» ـ صحيح؛ رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) لوحة (٢ أ).

(٣) **صحيح موقوف**: فإسناد الموقوف - كما أورده ابن كثير- صحيح، وإن كان سياق السند في «كشف الأستار» (٣٥٠٧) فيه اختلاف عمَّا أورده ابن كثير، ولكنَّه أيضًا صحيح، وهو في حكم المرفوع؛ لأنه من قبيل الغيب الذي لا يقال بالرأي فمثله له حكم المرفوع إلىٰ رسول الله ﷺ.
وأما المرفوع: فرواه البزَّار (٣٥٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٤) وفي «صفة الجنة» (١٤٠)، وإسناده ضعيف جدًّا؛ من أجل عدي بن الفضل، قال في «التقريب»: متروك.

(٤) سقط من (ز)، وإثباتها هو الصواب؛ لأنه لا يعرف لـ(بشر) رواية عن (يونس)، ولا لـ(يونس) تحديث لـ(بشر).

(٥) في (ز): (العيير)، والمثبت هو الصواب. (٦) سقط من (ز).

(٧) **هذا الإسناد ضعيف**، والصحيح أنه موقوف. انظر التعليق السابق.

(٨) في (ز): (علي).

جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس قال: قال النبيُّ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، خَلَقَ فِيهَا مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، [وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ][1]، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ. ثُمَّ قَالَ لَهَا: «تَكَلَّمِي». فَقَالَتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»[2].

بَقِيَّة - عن الحجازيين - ضعيف.

وقال الطبرانيُّ: حدَّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا مِنْجَابُ بن الحارث، حدَّثنا حمَّاد بن عيسىٰ العبسي، عن إسماعيل السُّدِّيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس - يرفعه -: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وَدَلَّىٰ فِيهَا ثِمَارَهَا، وَشَقَّ فِيهَا أَنْهَارَهَا، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قَالَ: وَعِزَّتِي لا يُجَاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ»[3].

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدَّثنا محمد بن المثنىٰ البزَّار، حدَّثنا محمد بن زيادٍ الكلبي، حدَّثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قَتادة، عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، لَبِنَةٌ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، وَلَبِنَةٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَلَبِنَةٌ مِنْ زَبَرْجَدَةٍ خَضْرَاءَ، مِلَاطُهَا الْمِسْكُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ، وَحَشِيشُهَا الزَّعْفَرَانُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: «انْطِقِي». قَالَتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فَقَالَ اللهُ: (وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لا يُجَاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ)». ثمَّ تَلَا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩][4].

فقوله تعالىٰ[5]: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد فازُوا وسعِدُوا وحَصَلُوا علىٰ الفلاح، وهم المؤمنون المتَّصِفُون بهذه الأوصاف.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿خَٰشِعُونَ﴾[6]: خائفون ساكنون. وكذا روي [عن][7] مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهري.

وعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوعُ: خشوعُ القلبِ[8]. وكذا قال إبراهيم النخعي.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٨٤/ ١١٤٣٩)، وفي «الأوسط» (٧٣٨)، وأبو نعيم في «وصف الجنة» (١٦). وفيه أكثر من عِلَّةٍ؛ فبَقِيَّة: مدلس تدليس تسوية، والرواية الثانية فيها ضعف أيضًا، والعِلَّة فيها: أبو صالح - باذام-: ضعيف، وحمَّاد بن عيسىٰ العبسي قال الذهبيُّ في «الميزان»: فيه جهالة. وضعَّفَهُ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٢٨٤).

(٣) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٧٤/ ٢)، وفي «الأوسط» (٥٦٤٨)، وفيه أبو صالح - باذام-؛ ضعيف، وحماد ابن عيسىٰ العبسي: مجهول. انظر ما قبله.

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (١٩)، وفي إسناده محمد بن زيد الكلبي، قال ابن معين: لا شيء، وقال صالح جزرة: أخباري ليس بذاك. (الميزان ٣/ ٥٢٢)، ويعيش بن حسين لم أعرف ترجمته.

(٥) لوحة (٢ ب).

(٦) قال العلامة السعدي رحمه الله: والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالىٰ، مستحضرًا لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبًا بين يدي ربه... فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئةً مثابًا عليها، فإن الثواب علىٰ حسب ما يعقل القلب منها.

(٧) سقط من (ز).

(٨) رواه الطبري (١٨/ ٢)، والحاكم (٢/ ٣٩٣) وصحَّحَهُ، ووافَقَهُ الذَّهبيُّ، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١١٤٨) من

وقال الحسن البصري: كان خشوعُهُم في قلوبهم، فَغَضُّوا بذلك أبصارَهُم، وخفَضُوا الجناح.

وقال محمدُ بْنُ سيرين: كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يرفعون أبصارَهم إلىٰ السَّماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خفضُوا أبصارَهُم إلىٰ موضع سجودهم[(١)].

وقال ابْنُ سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوِزُ بصَرُهُ مُصَلَّاهُ، فإن كان قد اعتاد النظَرَ فَلْيُغْمِضْ. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، ثم رَوَىٰ ابن جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رَبَاح أيضًا - مرسلًا - أنَّ رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتىٰ نزلت هذه الآية[(٢)].

والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فَرَّغ قلبَهُ لها، واشتغَلَ بها عمَّا عَدَاهَا، وآثَرَهَا علىٰ غيرِهَا، وحينَئِذٍ تكون راحةً لَهُ وقُرَّةَ عَيْنٍ، كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنَّسائي، عن أنسٍ، عن رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثَنا وَكِيع، حدَّثَنا مِسْعَر، عن عمرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن رجلٍ من أسلَم، أن رسول الله ﷺ قال: «يَا بِلَالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»[(٤)].

وقال الإمام أحمد أيضًا؛ حدَّثَنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدَّثَنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، أن محمد بن الحَنَفِيَّة قال: دخلتُ مع أبي علىٰ صِهْرٍ لنا من الأنصار، فحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فقال: يا جارية، ائْتِنِي بِوَضُوءٍ لَعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيح. فرآنا أَنْكَرْنَا عليه ذلك، فقال: سمعتُ

= طرق عن المسعودي، وقد اختلط، والأثر أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨٤)، وزاد عزوَهُ لعبد الرزَّاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه».

(١) **ضعيف**: رواه الطبري (١٨/ ٣)، والبغوي في «تفسيره» (١٤٧٥)، وإسناده مرسل، وفي إسناده محمد بن حميد الرازي: حافظ ضعيف، قال ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٠٣): كان ممن ينفرد عن الثقات بالمقلوبات. والأثر أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨٣)، وزاد عزوَهُ إلىٰ عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) **مرسل**: رواه الطبري (١٨/ ٣)، وثبت مرسلًا أيضًا عن ابن سيرين، ورواه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٤٠)، والطبري (١٨/ ٣)، والحازمي في «الناسخ والمنسوخ» (ص٦٥)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٥)، وثبت موصولًا عن أبي هريرة، ورواه الحاكم (٢/ ٣٩٣) وصحَّحَه علىٰ شرطهما، وتعقَّبَه الذهبيُّ بقوله: الصحيح مرسل. ورجَّح الإرسال أيضًا البيهقي في «سننه» (٢/ ٢٨٣)، والألباني في «الإرواء» (٢/ ٧٣)، لكن ثبت عنه موصولًا أنه إذا صلىٰ طأطأ رأسه ورمىٰ بصره نحو الأرض؛ رواه البيهقي (٢/ ٢٨٣)، والحاكم (٢/ ٣٩٣) وصحَّحَه، وصحَّحَه الألباني، وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين، واعترض الألباني فقال: علىٰ شرط مسلم. (انظر: صفة الصلاة صـ٢٣٠).

(٣) **صحيح لغيره**: رواه النَّسائي (٧/ ٦١)، وأحمد (٤/ ١٢٨)، وحسنه الحافظ في «التلخيص الحبير» (٣/ ١١٦) من أجل سلام أبي المنذر فإنه صدوق، قلت: لكنه توبع فقد رواه الحاكم (٢/ ١٦٠)، والنسائي من طريق جعفر عن ثابت عن أنس، قال الحاكم: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وأحمد (٥/ ٣٦٤).

رسولَ الله ﷺ يقول: «قُمْ يا بِلَالُ، فَأَرِحْنا بالصَّلاةِ»[(١)].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، أي: عن الباطل، وهو يشْمَل: الشِّرك -كما قاله بعضهم-، والمعاصي -كما قاله آخرون- وما[(٢)] لا فائدةَ فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢].

قال قتادةُ: أتاهُم -واللهِ- من أمر الله ما وقَذَهُم[(٣)] عن ذلك.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾؛ الأكثرون علىٰ أن المرادَ بالزَّكاةِ هاهُنا: زكاةُ الأموال، مع أنَّ هذه [الآية][(٤)] مكِّيَّةٌ، وإنَّما فُرِضَتِ الزَّكاةُ بالمدينة في سنة اثْنتَيْن من الهجْرَةِ. والظَّاهِرُ أنَّ التي فُرِضَتْ بالمدينة إنَّما هي ذات النُّصَبِ والمقادير الخاصَّة، وإلَّا فالظَّاهِرُ أنَّ أصْلَ الزَّكاةِ كان واجبًا بمكَّةَ، كما قال تعالىٰ في «سورة الأنعام»، وهي مكيَّةٌ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد يُحتَمل أن يكون المرادُ بالزَّكاةِ هاهُنا: زكاةَ النَّفْسِ من الشِّرْكِ والدَّنَسِ، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٦، ٧]، علىٰ أحد القولين في تفسيرها.

وقد يُحتَمل أن يكون كِلَا الأمْرين مرادًا - وهو زكاةُ النُّفُوس وزكاةُ الأمْوال-؛ فإنَّهُ من جملةِ زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطىٰ هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾، أي: والذين قد حفظُوا فروجَهُم من الحرام، فلا يَقعُون فيما نَهاهُمُ اللهُ عنه من زِنًا أو لواطٍ، ولا يقربون سوىٰ أزواجهم الَّتِي أحلَّهَا اللهُ لهم[(٥)]، وما ملكَتْ أيمانُهم من السَّرَارِي، ومن تعاطىٰ ما أحلَّهُ اللهُ له فلا لَوْمَ عليهِ ولا حرجَ؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾، -أي: غير الأزواج والإماء- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾، أي: المعتدون.

وقال ابن جريرٍ: حدَّثَنا محمد بن بَشَّار، حدَّثَنا عبد الأعلىٰ، حدَّثَنا سعيد، عن قتادة، أنَّ امرأةً اتَّخذَت مملوكها[(٦)]، وقالت: تأوَّلْتُ [آيةً من][(٧)] كتاب الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾!! قال: فأُتِيَ بها عُمَر بن

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٧١)، ورواه أبو داود أيضًا (٤٩٨٦).

(٢) لوحة (٣ أ). (٣) أي: ما منعهم عن الباطل. (٤) سقط من (ز).

(٥) قال الإمام القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: أجمع المسلمون علىٰ أن حكم التلوّط مع المملوك كحكمه مع غيره، ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز، واحتجّ علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، وقاس ذلك علىٰ أمته المملوكة، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد. فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه. وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره. في الإثم والحكم. أفاد هذا وما قبله بتمامه الإمام ابن القيم في «الجواب الكافي».

(٦) أي: أمكنته من نفسها، وتَسَرَّتْ به كأنه زوج لها. (٧) سقط من (ز).

الخطاب، فقال له ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ: تأوَّلْتَ آيةً من كتاب الله علىٰ غير وجهها. قال: فَغرَّبَ العبْدَ[١] وجزَّ رأسَهُ، وقال: أنتِ بعْدَهُ حرامٌ علىٰ كلِّ مسلم[٢]. هذا أثرٌ غريبٌ منقطعٌ، ذكره ابن جرير في أول تفسير «سورة المائدة»، وهو هاهنا أليق، وإنما حرَّمَها علىٰ الرِّجَال معاملةً لها بنقيض قصْدِها، والله أعلم.

وقد استدل الإمام الشافعي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن وافقَهُ علىٰ تحريم الاسْتِمْنَاءِ باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ[٣] لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ قال: فهذا الصَّنيعُ خارجٌ عن هذين القسمين، وقد قال [الله تعالىٰ][٤]: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ وقد استأنسوا بحديثٍ رواه الإمام الحسن بن عَرَفَةَ في جزئه المشهور حيث قال:

حدَّثني علي بن ثابت الجَزَريّ، عن مسلمة بن جعفر، عن حسَّان بن حميد، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سَبعَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلا يَجْمَعُهُمْ مَعَ الْعَالَمِينَ، وَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ أَوَّلَ الدَّاخِلِينَ -إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا[٥]، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ-: نَاكِحُ يَدِهِ، وَالْفَاعِلُ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالضَّارِبُ وَالِدَيْهِ حَتَّىٰ يَسْتَغِيثَا، وَالْمُؤْذِي جِيرَانَهُ حَتَّىٰ يَلْعَنُوهُ، وَالنَّاكِحُ حَلِيلَةَ جَارِهِ»[٦].

هذا حديثٌ غريبٌ، وإسناده فيه من لا يعرف؛ لجهالته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾، أي: إذا اؤتُمِنُوا لم يَخُونُوا، بل يؤدُّونَها إلىٰ أهلها، وإذا عاهَدُوا أو عاقَدُوا أوْفُوا بذلك، لا كَصِفَات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[٧].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، أي: يُوَاظِبُون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعودٍ: سألتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ العملِ أحبُّ إلىٰ الله؟ قال: «الصَّلاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا». قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ». قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ». أخرجاه في «الصحيحين»[٨]. وفي

---

(١) التغريب: النفي، وجز رأسه: قص شعره.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٥٨٦)، وإسناده منقطع. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨٨) لعبد الرزاق.

(٣) لوحة (٣ ب).

(٤) سقط من (ز).

(٥) في (ز): (إلا أن يتوبوا إلا أن يتوبوا) مكررة.

(٦) ضعيف: رواه الحسن بن عرفة (٦٤)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٧٠) وفي «الخلافيات» له (٥٦١)، ومدارُهُ علىٰ مسلمة بن جعفر: قال الذَّهبيُّ: يُجْهَل هو وشيخه، وقال الأزدي: ضعيف.
وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو: رواه ابن بشران في «الأمالي» (٤١٩-بتحقيقي)، وإسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة اختلط، وعبد الرحمن بن أنعم الأفريقي: ضعيف.

(٧) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، والترمذي (٢٦٣٢)، والنَّسائي (٨/ ١١٧).

(٨) البخاري (٥٢٧، ٥٩٧، ٧٥٣٤)، ومسلم (٨٥).

«مستدرك الحاكم» قال: «الصَّلاةُ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا»(١). وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضُّحَىٰ، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة. وقال قتادة: علىٰ مواقيتِهَا وركوعِهَا وسجودِهَا.

وقد افتتَحَ اللهُ ذكرَ هذه الصفات الحميدة بالصَّلاةِ، واختَتَمَهَا بالصَّلاة، فدلَّ علىٰ أفضليَّتِهَا، كما قال رسول الله ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تحْصُوا(٢)، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةُ، وَلا يُحَافِظُ عَلَىٰ الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»(٣).

ولَمَّا وَصَفَهم اللهُ تعالىٰ بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

وثبت في «الصحيحين»(٤) أنَّ(٥) رسولَ الله ﷺ قال: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثَنا أحمد بن سِنَان، حدَّثَنا أبو معاوية، حدَّثَنا الأعمش، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِنْ مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾»(٧).

وقال ابن جُرَيْج، عن لَيْث، عن مجاهد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ قال: ما من عبدٍ إلَّا وله منزلان؛ منزلٌ في الجَنَّةِ، ومنزلٌ في النَّار، فأمَّا المؤمِنُ فيُبنَىٰ بَيْتُهُ الذي في الجَنَّةِ، ويُهدم بَيْتُهُ الذي في النَّارِ، وأمَّا الكافرُ فيُهْدَم بيتُهُ الذي في الجنَّةِ، ويُبنَىٰ بَيْتُهُ الذي في النَّارِ. ورُوِيَ عن سعيد بن جُبَيْر نحو ذلك.

فالمؤمنون يَرِثُونَ منازلَ الكفَّارِ؛ [لأنَّهم](٨) كلَّهُم خُلِقُوا لعبادة الله تعالىٰ، فلمَّا قام هؤلاء المؤمنون بما وَجَبَ عليهم من العبادة، وترَكَ أولئك ما أُمِرُوا به مما خُلِقُوا له - أحْرَزَ هؤلاء نصيبَ أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضًا، وهو ما ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي بُرْدَةَ بن أبي موسىٰ،

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ١٨٨)، والبيهقي في «السنن» (١/ ٢٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٩٣).

(٢) أي: استقيموا في كل شيءٍ حتىٰ لا تميلوا، وسددوا وقاربوا؛ فلن تقدروا الإحاطة بأعمال البِرِّ كلها ولا تطيقوا ذلك.

(٣) صحَّحَه الألباني: رواه ابن ماجة (٢٧٧، ٢٧٨) من حديث ثوبان، وله طرق وشواهد أوردها الشيخ الألباني، وحكم بصحة الحديث انظر: «الإرواء» (٤١٢).

(٤) هو من أفراد البخاري ونسبته إلىٰ «الصحيحين» وهم.

(٥) لوحة (٤ أ).

(٦) البخاري (٢٧٩٠) و(٧٤٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٥، ٣٣٩).

(٧) صحيح: رواه ابن ماجة (٤٣٤١).

(٨) سقط من (ز).

عن أبيه[١]، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَغْفِرُهَا اللهُ لَهُمْ، وَيَضَعُهَا عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ». وفي لفظٍ له: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيُقَالُ[٢]: هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ». فاستحلف عُمَرُ بْنُ عبدِ العزيز أبا بُردَةَ بالله الذي لا إله إلا هو - ثلاثَ مرَّاتٍ - أنَّ أباه حدَّثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له[٣].

قلت: وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر: الجنة بالرُّوميَّة هي الفردوس.

وقال بعض السلف: لا يُسَمَّىٰ البُسْتَانُ فِرْدَوسًا إلَّا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا[٤] ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن ابتداء خلْقِ الإنسان من سلالةٍ من طين - وهو آدم عليه السلام - خلَقَهُ اللهُ من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ.

وقال الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن أبي يحيىٰ، عن ابن عباس: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، قال: صَفوة الماء[٥].

وقال مجاهد: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي: من مَنِيِّ آدم. قال ابن جرير: وإنما سُمِّي آدمُ طينًا؛ لأنَّه مخلوقٌ منه. وقال قتادةُ: استُلَّ آدمُ من الطِّين. وهذا أظهر في المعنىٰ، وأقرب إلىٰ السياق، فإنَّ آدمَ عليه السلام خُلِقَ من طينٍ لازِبٍ[٦]، وهو الصَّلْصَالُ من الحَمَإِ المسنُونِ، وذلك مَخْلُوقٌ من التُّرَابِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيدٍ، حدَّثنا عَوْفٌ، حدَّثنا قَسامة بن زُهَيْر، عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ»[٧]. وقد رواه أبو داود

(١) في (ز): (عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ، عن أبيه)، وهو خطأ.
(٢) في (ز): (فيقول). (٣) رواه مسلم (٢٧٦٧). (٤) لوحة (٤ ب).
(٥) رواه الطبري (١٨/ ٧). (٦) اللازب: اللاصق الصلب.
(٧) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٤/ ٤٠٠).

والترمذيُّ، من طُرُقٍ، عن عوفٍ الأعرابي، به نحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً ﴾: هذا الضمير عائدٌ على جِنْسِ الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨]، أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾- يعني: الرَّحِمُ مُعَدٌّ لذلك مهيأٌ له - ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٣]؛ أي: [إلىٰ][١] مُدَّةٍ معلومةٍ وأجَلٍ مُعَيَّنٍ، حتَّىٰ استحكم وتنَقَّل من حالٍ إلىٰ حالٍ، وصِفَةٍ إلىٰ صِفَةٍ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾، أي: ثم صَيَّرْنا النُّطْفَةَ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صُلْبِ الرَّجُلِ - وهو ظَهْرُهُ - وتَرَائِبِ المرأة - وهي عِظَامُ صَدْرِهَا ما بين التَّرْقُوَة إلىٰ الثَّنْدُوَة[٢] - فصارت عَلَقَةً حمراءَ علىٰ شكل العلقة مستطيلةً. قال عكرمة: وهي دَمٌ.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾، وهي قطعةٌ كالبَضعة من اللَّحْمِ، لا شكلَ فيها ولا تخطيطَ، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا ﴾، يعني: شكَّلْنَاها ذاتَ رأسٍ ويدينِ ورجْلَينِ بِعِظَامِهَا وعَصَبِهَا وعُرُوقِهَا.

وقرأ آخرون: «فَخَلَقْنَا[٣] الْمُضْغَةَ عَظْمًا»[٤].

قال ابن عبَّاس: وهو عظْم الصلب. وفي «الصحيح»، من حديث أبي الزِّنَاد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ جَسَدِ ابْنِ آدَمَ يَبْلَىٰ إِلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ[٥]، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ»[٦].

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا﴾، أي: وجعلْنَا علىٰ ذلك ما يستُرُهُ ويشدُّهُ ويقوِّيه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، [أي: ثم نَفَخْنَا فيه الروحَ، فتحرَّكَ وصار ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾][٧]، ذا سمْعٍ وبَصَرٍ وإدْرَاكٍ وحركةٍ واضْطِرَابٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عليُّ بن الحسين، حدَّثنا جعفر بن مُسافر، حدَّثنا يحيىٰ بن حسَّانٍ، حدَّثنا النَّضْرُ - يعني: ابن كثير، مولىٰ بني هاشم - حدَّثنا زيد بن علي، عن أبيه، عن عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ قال: إذَا تَمَّتِ النُّطْفَةُ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ، بُعِثَ إِلَيْهَا مَلَكٌ فنَفَخَ فِيهَا الرُّوحَ في الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يعني: [نفخنا فيه][٨] الروح[٩].

ورُوي عن أبي سعيدٍ الخدري أنه [نَفْخُ][١٠] الروح.

---

(١) ليست في (ز). (٢) الثندوة: الثدي. (٣) لوحة (٥ أ).

(٤) متواترة: قَرَأَ (عَظْمًا) ابْنُ عَامِرٍ وَشُعْبَةُ وَوَافَقَهُمَا الْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (عِظَامًا).

(٥) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العظم المحدد أسفل الصُّلْبِ، وهو مكان الذَّنَب من ذوات الأربع. «هدي الساري»: (ص/ ١٥٣).

(٦) البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٨) في (ز): (يعني به الروح).

(٩) رجاله ثقات عدا النضر بن كثير، وهو ضعيف الإسناد، لكنَّ المعنىٰ صحيحٌ لِمَا يأتي من حديث ابن مسعود.

(١٠) سقط من (ز).

[قال ابن عبَّاس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يعني به: الروح [1].] [2]. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابنُ زيد، واختاره ابنُ جرير.

وقال العَوْفيّ، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ يعني: ننقله من حالٍ إلىٰ حالٍ، إلىٰ أن خرج طِفْلًا ثم نشأ صغيرًا، ثمَّ احتلَمَ، ثمَّ صار شابًّا، ثمَّ كَهْلًا ثمَّ شيخًا، [ثمَّ] [3] هَرِمًا [4].

وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك. ولا مُنافاةَ؛ فإنَّه من ابتداء نفخ الروح [فيه] [5] شَرَع في هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم.

قال الإمام أحمد في «مسنده»: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبدالله - هو ابن مسعود- قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق-: «**إنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمَعُ [خَلْقُهُ]** [6] **فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**».

أخرجاه [7] من حديث سليمانَ بن مِهْران الأعمش.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنَان، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خَيْثَمة قال: قال عبد الله -يعني: ابن [8] مسعود-: إنَّ النُّطْفَةَ إذا وقعَتْ في الرَّحِمِ، طارَتْ في كل شَعْرٍ وظفرٍ، فتمكث أربعين يومًا، ثم تتحدَّر في الرَّحِمِ فتكون علقةً.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا حسين بن الحسن، حدَّثنا أبو كُدَيْنة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مَرَّ يهوديٌّ برسولِ الله ﷺ وهو يُحَدِّثُ أصحابَه، فقالت [قريشٌ] [9]: يا يهوديّ، إنَّ هذا يَزعمُ أنه نبيٌّ. فقال: لأَسْأَلَنَّهُ عن شيءٍ لا يَعْلَمُهُ إلا نَبِيٌّ. قال: فجاءَهُ حتَّىٰ جلَسَ، فقال: يا محمد، مِمَّ يُخْلَقُ الإنسانُ؟ فقال: «**يا يهوديّ، من كلٍّ يُخْلَقُ؛ من نُطْفَةِ الرَّجُلِ ومن نُطْفَةِ المرأةِ، فأَمَّا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَنُطْفَةٌ غَلِيظَةٌ مِنْهَا الْعَظْمُ وَالعَصَبُ، وأَمَّا نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ فَنُطْفَةٌ**

---

(١) والأثر رواه الطبري (١٨/ ٩)، من طريق حجاج بن أرطأة (وهو ضعيف)، عن عطاء، وعن ابن جريج، عن ابن عباس، والمعنىٰ صحيح، لِمَا يأتي من حديث ابن مسعود.

(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (١٨/ ١٠)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٥) ليست في (ز). (٦) سقط من (ز).

(٧) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٨١)، والترمذي (٢٠٦٣).

(٨) لوحة (٥ ب). (٩) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «المسند».

رَقِيقَةٌ مِنْهَا اللَّحْمُ والدَّمُ». [فقام اليهودي فقال: هكذا كان يقول من قبلك(١).](٢)

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان عن(٣) عمرو، عن أبي الطُّفَيْل، عن حُذَيْفَة بن أَسِيْد الغفاري قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ المَلَكُ عَلَىٰ النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبعِينَ لَيْلَة، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَاذَا؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فَيَقُول اللهُ، فَيَكْتُبَان. [فَيَقُولَان: مَاذَا؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فيقول اللهُ ﷻ، فَيَكْتُبَان](٤)، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وأَثَرُهُ، ومُصِيبَتُهُ، وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَىٰ الصَّحِيفَةُ، فَلَا يُزَادُ عَلَىٰ مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ»(٥).

وقد رواه مسلم في «صحيحه»، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو -وهو ابن دينار- [به](٦) نحوه. ومن طُرُقٍ أخرىٰ، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أَسِيد -أبي سريحة الغفاري- بنحوه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا أحمد بن عبدة، حدَّثنا حمَّاد بن زيد، حدَّثنا عبيد الله بن أبي بكر، عن أنس؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، نُطْفَةٌ؟ أَيْ رَبِّ، عَلَقَةٌ؟ أَيْ رَبِّ، مُضْغَةٌ؟ فَإِذَا أَرَادَ اللهُ خَلقَهَا قال: يا ربِّ، ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ؟» قال: «فَذَلِكَ يُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ».

أخرجاه في «الصحيحين»(٧) من حديث حمَّاد بن زيد به.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يعني: حين ذَكَرَ قُدْرَتَهُ ولُطْفَهُ في خلق هذه النطفة من حالٍ إلىٰ حالٍ، وشكلٍ إلىٰ شكلٍ، حتىٰ تَصَوَّرَتْ إلىٰ ما صَارَتْ إِلَيْهِ من الإنسان السَّوِيِّ الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن حبيب، حدَّثنا أبو داود، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، حدَّثنا علي بن زيد(٨)، عن أنس ؓ قال: قال عُمَرُ -يعني: ابْنَ الخطاب ؓ-: وَافَقْتُ رَبِّي وَوَافَقَنِي في أَرْبَعٍ؛ نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية، قلتُ: أنا، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٩).

---

(١) والحديث ضعيف: رواه أحمد (١/ ٤٦٥)، وفي إسناده عطاء بن السائب: صدوق اختلط في آخر عمره، وأبو كدينة لم يثبت أنه روىٰ عنه قبل الاختلاط فالحديث ضعيف.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي مثبتة من «المسند».

(٣) في (ز): (سفيان بن عمرو)، وهو خطأ.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي مثبتة من «المسند».

(٥) مسلم (٢٦٤٤)، وأحمد (٤/ ٦).

(٦) سقط من (ز).

(٧) البخاري (٣٠٨)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٨) لوحة (٦ أ).

(٩) ضعيف: في إسناده علي بن زيد: ضعيف: رواه الطيالسي في «مسنده» (٤١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢١٠).
تنبيه: اعلم أنه قد ثَبَتَتْ موافقاتٌ لِعُمَرَ كتحريم الخمر، والحجاب، وحُكمه في أسارىٰ بدر ونحو ذلك، ولكن الرواية =

وقال أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا آدم بن أبي إياس، حدَّثنا شَيْبان، عن جابر الجُعْفي، عن عامر الشَّعْبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أملىٰ عليَّ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾، إلىٰ قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، فضحك رسولُ الله ﷺ. فقال له معاذ: مِمَّ ضحكْتَ يا رسولَ الله؟ قال: «بِهَا خُتِمَتْ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾»(١). وجابر بن يزيد الجُعْفِي ضعيفٌ جدًّا، وفي خبره هذا نكارةٌ شَديدةٌ؛ وذلك أن هذه السورة مكيَّةٌ، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضًا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾(٢)، يعني: بعد هذه النشأة الأولىٰ من العدم تَصيرون إلىٰ الموت، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ يعني: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت:٢٠]، يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيُحَاسِب الخلائق، ويُوَفِّي كلَّ عاملٍ عمَلَهُ، إنْ خيرًا فخيْرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧ ﴾

لما ذكر تعالىٰ خَلْق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيرًا ما يذكر تعالىٰ خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧]. وهكذا في أول ﴿الٓمٓ ﴾ «السَّجْدَة»، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها [في](٣) صبيحة يوم الجمعة، في أوَّلِها خَلْقُ السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالةٍ من طينٍ، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾، قال مجاهد: يعني السموات السبع. وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح:١٥]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ(٤) بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ

= التي معنا هنا إسنادها ضعيف ولا يعني ذلك أنه لم تثبت له موافقات. ينظر: «قطف الثمر في موافقات عمر» (١/ ٣٧٧ ـ الحاوي)، و«تاريخ الخلفاء» (ص٢٤٤) - المنهاج - كلاهما للسيوطي، و«الفيض الوهاب في موافقات سيدنا عمر ابن الخطاب» لبدر الدين الحسني.

(١) ضعيف: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٥٧)، وفي الإسناد: جابر الجعفي، وانظر ما قاله ابن كثير بعد ذكره الحديث.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: لِمَ دَخَلَتْ لَامُ التَّوْكِيدِ فِي الْمَوْتِ وَهُوَ مُشَاهَدٌ وَلَمْ تَدْخُل فِي الْبَعْثِ وَهُوَ غَيْبٌ فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ التَّوْكِيدِ ؟ وَذَلِكَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْمَقْصُودَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ هُوَ الْإِخْبَارُ بِالْجَزَاءِ وَالْمَعَادِ وَأَوَّلُ ذَلِكَ هُوَ الْمَوْتُ . فَنَبَّهَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْمَعَادِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ . وَهُوَ إِنَّمَا قَالَ: «تُبْعَثُونَ» فَقَطْ وَلَمْ يَقُلْ: «تجازُونَ» لَكِنْ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الْبَعْثَ لِلْجَزَاءِ . «الفتاوىٰ» (١٦/ ٢٧٨).

(٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (٦ ب).

ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾، أي: ويعلمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يخرج منها، وما يَنْزِلُ من السَّماء وما يعرُج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو - سبحانه - لا يحجبُ عنه سماء سماء، ولا أرضٌ أرضًا، ولا جبل إلا يعلم ما في وَعْره، ولا بحر إلا يعلم ما في قَعْره، يَعْلَمُ عددَ ما في الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يذكر تعالىٰ نعمَهُ علىٰ عبيده التي لا تعدُّ ولا تُحصىٰ، في إنزاله القَطْر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾، أي: بحسَبِ الحاجةِ، لَا كثيرًا فيُفْسِد الأرضَ والعمران، ولَا قليلًا فلا يَكْفِي الزروعَ والثِّمارَ، بل بِقَدْرِ الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتىٰ إنَّ الأراضي التي تحتاج ماءً كثيرًا لزَرْعِهَا ولا تحتمل دِمْنتها[1] إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلادٍ أخرىٰ، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرُز»، يسوق الله إليها ماءَ النِّيل معه طينٌ أحمرُ يجْترِفُهُ من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماءُ يحمِلُ طينًا أحمرَ، فيَسْقِي أرض مصر، ويَقَرّ الطينُ علىٰ أرضهم لِيَزْدرِعُوا فيه؛ لأنَّ أرضَهُم سِباخٌ يغلِبُ عليها الرمال، فَسُبْحانَ اللَّطيف الخبير، الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماءَ إذا نزل من السَّحابِ يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليَّةً له، تَشْرَبُهُ ويَتَغذَّىٰ به ما فيها من الحبِّ والنَّوىٰ.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شِئْنَا أَلَّا تُمْطِرَ لفعَلْنَا، ولو شِئْنَا لَصَرَفْنَاهُ عنكم إلىٰ السِّباخِ والْبَرَارِي [والبحارِ][2] والقِفَارِ لفعلنَا، ولو شِئْنَا لجعَلْنَاه أُجَاجًا لَا يُنْتَفَعُ به لشُربٍ ولا لسَقْيٍ لفعلنا، ولو شِئْنَا لجعلْنَاهُ لا ينزل في الأرض، بل ينجرُّ علىٰ وجهها لفعلنا. ولو شِئْنَا[3] لجعلْنَاهُ إذا نزل فيها يَغُورُ إلىٰ مَدًىٰ لَا تَصِلُون إليه ولا تنتفعون به لفعلْنَا. ولكن بِلُطْفِهِ ورَحْمَتِهِ ينزل عليكم الماء من السَّحابِ عَذْبًا فُرَاتًا زُلَالًا فَيُسْكِنُهُ في الأرض، ويَسْلُكُه ينابيعَ في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فَيَسْقِي به الزروعَ والثِّمارَ، وتشربون منه ودوابُّكُم وأنعامُكم، وتغتسلون منه وتتطهَّرون وتتنظَّفون، فله الحمدُ والمِنَّةُ.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ يعني: فأخرجْنَا لكم بما أنزلْنَا من الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾

---

(١) يريد بها هنا التربة، والدمنة في الأصل: ما تدمنه الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها؛ أي: تلبده في مرابضها.

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٧ أ).

أي: بساتينَ وحدائقَ ذاتَ بهجةٍ؛ أي: ذاتَ منظرٍ حَسَنٍ.

وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي: فيها نخيلٌ وأعنابٌ. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرقَ بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حقِّ كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يَعْجزُون عن القيام بشكره.

وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١١].

وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنَّهُ معطوفٌ علىٰ شيءٍ مقدَّرٍ، تقديرُهُ: تنظرون إلىٰ حسنه ونُضْجِهِ، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ يعني: الزيتونة. والطُّور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمىٰ طُورًا إذا كان فيه شجرٌ، فإن عَرِيَ عنها سُمِّيَ جَبَلًا لا طُورًا، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كَلَّم اللهُ عَلَيْهِ موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون.

وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾، قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تنبت الدهن، كما في قول العرب: أَلْقَىٰ فُلَان بِيَدِهِ؛ أي: يَدَهُ. وأمَّا علىٰ قول من يُضَمِّن الفعل فتقديره: تخرج بالدُّهن، أو تأتي بالدُّهن؛ ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾، أي: أدْم، قاله قتادة. ﴿لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أي: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيعٌ، عن عبد الله بن عيسىٰ، عن عطاء الشامي، عن أبي أُسَيْد -واسمه: مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري- قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ**»(١).

وقال عبدُ بْنُ حُمَيد في «مسنده» و«تفسيره»: حدَّثنا عبد الرزاق، أخبرنَا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر أنَّ رسولَ الله(٢) ﷺ قال: «**ائْتَدِمُوا بِالزَّيْتِ وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ**»(٣).

ورواه الترمذيُّ وابنُ ماجة، من غير وجهٍ عن عبد الرزَّاق. قال الترمذيُّ: ولا يعرف إلا من حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عُمَر وربما لم يذكره.

قال أبو القاسم الطبرانيُّ: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدَّثنا أبي، حدَّثنا سفيان بن عيينة، حدَّثني الصَّعْب بن حكيم بن شريك بن نملة(٤)، عن أبيه، عن جده قال: ضِفْتُ عُمَرَ بْنَ الخطَّاب ليلةَ عاشوراء(٥)، فأطْعَمَنِي من رأس بَعِيرٍ باردٍ، وأطعَمَنَا زيتًا، وقال: هذا الزَّيْتُ المُبَارَكُ الَّذِي قال اللهُ لنَبِيِّهِ ﷺ(٦).

---

(١) صحَّحَهُ الألباني: أعني لطرقه - رواه أحمد (٣/ ٤٩٧)، وفيه عطاء الشامي. قال الحافظ: مقبول. قلت: أورد الألبانيُّ له شواهدَ وصحَّحَه. انظر: «الصحيحة» للألباني (٣٧٩).

(٢) لوحة (٧ ب).

(٣) رواه الترمذي (١٨٥١)، وابن ماجة (٣٣١٩)، والحاكم (٢/ ١٢٢) وصحَّحَهُ، ووافَقَهُ الذَّهبيُّ، وأعلَّه ابنُ أبي حاتم بالاضطراب. ولكن للحديث شواهدُ أخرىٰ. انظر «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣٧٩).

(٤) في (ز): (نميلة)، وهو خطأ.

(٥) أي: نزلت به ضيفًا.

(٦) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ٧٤)، والصعب بن حكيم قال الحافظ: مقبول، وأبوه وجده مستوران.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾: يذكر تعالىٰ ما جعل لخلْقِهِ في الأنعام من المنافع؛ وذلك أنَّهم يشربون من ألْبانِهَا الخارجةِ من بَين فرْثٍ ودَم، ويأكلون من حملانها، ويلبسون من أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها، ويركبونَ ظهورَها ويُحمِّلُونَها الأحمالَ الثِّقالَ إلىٰ البلادِ النائيَةِ عنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن نوحٍ، ﷺ، حين بعثَهُ إلىٰ قومِهِ؛ لِيُنْذِرَهُم عذابَ اللهِ وبأسَهُ الشَّديدَ، وانتقامَهُ مِمَّنْ أشْرَكَ به وخالَفَ أمْرَهُ وكذَّبَ رُسُلَهُ، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: ألَا تخافون من الله في إشراكِكُم به؟!

فقال الملأُ -وهم السَّادةُ والأكابرُ منهم-: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعْنُونَ: يَترَفَّعُ عليكُم ويَتعاظَمُ بِدعْوىٰ النُّبُوَّةِ، وهو بشرٌ مِثْلُكُم. فكيف أُوحِيَ إليه[1] دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو أرادَ أن يبعثَ نَبيًّا، لَبعَثَ مَلَكًا من عندِهِ ولم يكن بشرًا! ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: ببعثةِ البشر في آبائنا الأولين. يَعْنُونَ بهذا [آبائهم][2] وأجدادهم والأمم الماضية.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه، من أنَّ اللهَ أرسله إليكم، واختصَّهُ من بينكم بالوحي. ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا به ريبَ المنون، واصبروا عليه مدةً حتىٰ تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) لوحة (٨ أ).

(٢) في بعض النسخ: (أسلافهم)، والمثبت من (ز).

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه دعا ربَّهُ يستنصِرُهُ علىٰ قومه، كما قال تعالىٰ مخبرًا [عنه](١) في الآية الأخرىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فعند ذلك أمَرَهُ اللهُ تعالىٰ بصنعة السَّفِينةِ وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين؛ أي: ذكرًا وأنثىٰ من كل صنفٍ من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهلَهُ ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، أي: سَبَقَ فيه القولُ من اللهِ بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنِهِ وزَوْجَتِهِ، واللهُ أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، أي: عند مُعاينةِ إنزالِ المطر العظيم، لا تأخُذَنَّكَ رأفةٌ بقومِكَ وشفقةٌ عليهم، وطَمَعٌ في تأخيرهم لعلَّهُم يؤمنون؛ فإني قد قضيت أنهم مغرقون علىٰ ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدَّمَتِ القِصَّةُ مبسوطةً في سورة «هود» بما يغني عن إعادة ذلك هاهنا.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ(٢) إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. وقد امتثل نوح عليه السلام هذا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]. فذكَرَ اللهَ تعالىٰ عند ابتداء سَيْرِهِ وعند انتهائه، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: إنَّ في هذا الصنيع - وهو إنجاءُ المؤمنين وإهلاكُ الكافرين - ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: لحُجَجًا ودَلالاتٍ واضحاتٍ علىٰ صِدْقِ الأنبياءِ فيما جاءوا به عن الله تعالىٰ، وأنَّهُ تعالىٰ فاعلٌ لما يشاء، وقادرٌ علىٰ كل شيءٍ، عليمٌ بكل شيءٍ.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾؛ أي: لمُخْتَبِرِينَ للعِبادِ بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٨ ب).

يُخبر تعالىٰ أنَّهُ أنشأ بعدَ قوم نُوحٍ قرنًا آخرين - قيل: المراد بهم: عاد، فإنهم كانوا مستَخْلَفِين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود(١)؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ - وأنَّه تعالىٰ أرسل فيهم رسولًا منهم، فدعَاهُم إلىٰ عبادةِ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ له. فكذَّبُوهُ وخالَفُوه، وأبوا(٢) من اتِّباعه لِكَوْنِهِ بشرًا مثلهم، واستنكفوا عن اتِّباع رسولٍ بَشَرِيٍّ، فكذَّبُوا بلِقَاءِ اللهِ في القيامة، وأنكروا المعاد الجثماني، وقالوا ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أي: بعيد بعيد ذلك.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ(٣) ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: فيما جاءكم به من الرِّسَالةِ والنِّذَارةِ والإخبارِ بالمعاد. ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾، أي: استَفْتَحَ عليهم الرسولُ واستنصَرَ ربَّهُ عليهم، فأجاب دعاءَهُ؛ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾، أي: بمخالَفَتِكَ وعنادِكَ فيما جئتَهُم به، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: وكانوا يستحِقُّون ذلك من الله لكُفْرِهم وطُغْيانِهم.

والظَّاهرُ أنّه اجْتَمَع عليْهم صيحةٌ مع الريح الصَّرْصَرِ العاصفِ القويِّ الباردةِ، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾، أي: صَرْعَىٰ هَلْكَىٰ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وهو الشيءُ الحقيرُ التَّافِهُ الهالكُ الَّذي لا يُنْتَفَعُ بشيءٍ منه. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أنْ يُكذِّبُوا رسولَهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا [مِنۢ بَعْدِهِمْ](٤) قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: أُممًا وخلائِق، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، يعني: بل [يُؤْخذون](٥) حَسَب ما قَدَّرَ لهم تعالىٰ في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمةً بعد أمةٍ، وقرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل، وخَلفًا بعد سلفٍ.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾، قال ابنُ عبَّاس: يعني يتبع بعضهم بعضًا. وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: دَرَجَ الجمهور من المفسرين علىٰ أن القصص المذكور هنا كما هو في سائر السور هو قصص هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذهب ابن جرير وبعضٌ آخر إلىٰ أنه قصة صالح لقرينة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وقال الجمهور: يمكن أن تكون الصيحة ضمن عواصف الريح العقيم التي أرسلها تعالىٰ علىٰ عاد قوم هود فأخذتهم فهلكوا بها، والرياح عصفت بهم فمزقت وشتتت شملهم وتركتهم كأعجاز نخلٍ خاويةٍ ثم تفتتوا وصاروا كالغثاء، وهذا الجمع أحسن.

(٢) أبيت الشيء: إذا كرهته. (٣) لوحة (٩ أ).

(٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): (يوجدون).

﴿الضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعني: جُمْهُورُهُم وأكْثَرُهم، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أخبارًا وأحاديثَ للنَّاس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [الآية [سبأ: ١٩]، ﴿فَبُعْدًا [(١)] لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ [(٢)] مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يُخبرُ تعالىٰ أنه بعث رسولَهُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخاه هارون إلىٰ فرعون وملَئِهِ، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأنَّ فرعونَ وقومَهُ استكبروا عن اتِّبَاعِهِمَا، والانقيادِ لأمْرِهِمَا؛ لِكَوْنِهِمَا بَشَرَيْن، كما أنكرَتِ الأممُ الماضيةُ بعثةَ الرُّسُلِ من البشر - تشابهَتْ قلوبُهم -، فأهلكَ اللهُ فرعونَ وملأَهُ، وأغْرَقَهُم في يومٍ واحدٍ أجمعين، وأنزل علىٰ موسىٰ الكتابَ -وهو التوراة- فيها أحكامُهُ وأوامِرُهُ ونواهِيهِ، وذلك بعد ما قَصَمَ اللهُ فرعونَ والقِبْطَ، وأخذَهُمْ أَخْذَ عزيزٍ مقتدِرٍ؛ وبعد أنْ أنزلَ اللهُ التوراةَ لم يهلِكْ أُمَّةً بعامَّةٍ، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. ثم قال تعالىٰ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عبدِهِ ورسولِهِ عيسىٰ ابن مريم -عليهما السلام- أنَّه جعلَهُمَا آيةً للنَّاس، أي: حجةً قاطعةً علىٰ قدرته علىٰ ما يشاء، فإنَّه خَلَقَ آدمَ من غيرِ أبٍ ولا أُمٍّ، وخَلَقَ حوَّاءَ من ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَىٰ، وخَلَقَ عِيسَىٰ مِن أُنْثَىٰ بِلَا ذَكَرٍ، وخَلَقَ بَقِيَّةَ النَّاسِ من ذَكَرٍ وأُنْثَىٰ.

وقوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال الضَّحَّاكُ، عن ابْنِ عبَّاسٍ: الرَّبْوَةُ: المكانُ المرتفعُ من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة. قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، يقول: ذات خصب، ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني: ماءً ظاهرًا. وقال مجاهد: ربوة مستوِيَة. وقال سعيد بن جبير: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: استوىٰ الماء فيها. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماء الجاري.

---

(١) في (ز): «إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون».

(٢) لوحة (٩ ب).

ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة في أيِّ أرضِ اللهِ هِيَ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الرُّبَىٰ إِلَّا بِمِصْرَ. والماءُ حين يُرْسَلُ يكون الرُّبَىٰ عليها القُرَىٰ، ولولا الرُّبَىٰ غَرقَتِ القُرَىٰ. وروي عن وهب بن مُنَبِّه نحو[١] هذا، وهو بعيدٌ جدًّا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثَنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدَّثَنا سفيان، عن يحيىٰ بن سعيدٍ، عن سعيد بن المسيب في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي دمشق.

قال: ورُوي عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن مَعْدان نحو ذلك.

وقال ابن أبي [حاتم][٢]: حدَّثَنا أبو سعيدٍ الأشج، حدَّثَنا وَكِيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق[٣].

وقال لَيْثُ بنُ أبي سُلَيم، عن مجاهد: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾، قال: عيسىٰ ابن مريم وأمه، حين أَوَيَا إلىٰ غُوطَةِ دمشق وما حولها.

وقال عبد الرزَّاق، عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله - ابن عم أبي هريرة - قال: سمعتُ أبا هريرةَ يقول في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي الرَّمْلَةُ من فلسطين[٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثَنا أبي، حدَّثَنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفِرْيابي، حدَّثَنا رَوّاد بن الجراح، حدَّثَنا عبَّاد بن عبَّاد الخوَّاص أبو عتبة، حدَّثَنا السّيباني، عن ابن وَعْلَة، عن كُرَيْب السَّحولي، عن مُرَّة البَهْزي قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول لرجلٍ: «إِنَّكَ مَيِّتٌ بِالرَّبْوَةِ»، فمات بالرملة[٥]. وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا.

وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العَوْفِيّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجاري، وهو النَّهر الذي قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

وكذا قال الضَّحَّاك، وقتادةُ: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيت المقدس. فهذا -والله أعلم- هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرىٰ، والقرآن يُفَسِّرُ بعضُهُ بعضًا، وهو أَوْلَىٰ ما يُفَسَّرُ به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار[٦].

---

(١) لوحة (١٠ أ).
(٢) سقط من (ز).
(٣) ضعيف: رواية سماك عن عكرمة مضطربة، والأثر أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٠١) وعزاه لوكيع، والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وتمام الرازي في «فضائل النبوة» وابن عساكر.
(٤) رواه الطبري (١٨/ ٢٦) وفيه ابن عم أبي هريرة لم أعرفه، والأثر أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٠١) وزاد نسبته لابن أبي حاتم، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو نعيم، وابن عساكر.
(٥) ضعيف: فيه رواد بن الجراح: صدوق اختلط بآخره فترك. وكريب السحولي: لم أعرفه.
(٦) راجع ما تقدم في «مقدمة التفسير» - فضائل القرآن -، و«مقدمة أصول التفسير» للإمام ابن تيمية - رحم الله الجميع.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يأمر تعالىٰ عباده المرسلين -عليهم الصلاة والسلام أجمعين- بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا علىٰ أنَّ الحلالَ عَونٌ علىٰ العمل الصالح[1]، فقام الأنبياءُ - عليهم السلام - بهذا أتمَّ القِيامِ. وجمعُوا بين كلِّ خَيرٍ، قولًا وعَملًا ودَلَالَةً ونُصْحًا، فجزاهم اللهُ عن العِبَادِ خيرًا.

قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، قال: أما واللهِ ما أُمِرُوا بأصْفرِكُم ولا أحْمَرِكُم، ولا حُلْوِكُم ولا حَامِضِكُم، ولكن قال: انتهوا إلىٰ الحلال منه.

وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني: الحلال.

وقال أبو إسحاق السَّبيعي، عن أبي مَيْسَرَةَ بن شُرَحْبِيل: كان عيسىٰ ابن مريم يأكُل من غَزْلِ أُمِّهِ.

وفي «الصحيح»: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَىٰ الْغَنَمَ». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نَعَم، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»[2].

وفي «الصحيح»: أن داود ﷺ كان يأكُل من كَسْبِ يَدِه[3].

وفي «الصحيحين»: «إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَىٰ اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبَّ الْقِيَامِ إِلَىٰ اللهِ قِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَىٰ»[4].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو اليمان - الحكم بن نافع - حدَّثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضَمْرَة بن حبيب، أنَّ أمَّ عبد الله - أختَ[5] شداد بن أوس- بعثَتْ إلىٰ النبيِّ ﷺ بقدَحِ لَبَنٍ عند فِطْرِهِ وهو صائمٌ، وذلك في أوَّلِ النَّهارِ وشِدَّةِ الحرِّ، فرد إليها رسولها: أنَّىٰ كانت لك الشاة[6]؟ فقالت: اشتريتُها من مالي، فشَرِبَ منه، فلمَّا كان من الغدِ أتَتْهُ أمُّ عبد الله أخت شداد فقالت: يا رسولَ الله، بعثْتُ إليكَ بلَبَنٍ مرثيةً[7] لكَ من طول النهار وشدة الحر، فردَدْتَ إليَّ الرسولَ فيه؟! فقال لها: «بِذَلِكَ أُمِرَتِ الرُّسُلُ، أَلَّا تَأْكُلَ[8] إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا تَعْمَلَ إِلَّا صَالِحًا»[9].

---

(١) لوحة (١٠ ب).
(٢) البخاري (٢٢٦٢).
(٣) البخاري (٢٠٧٣).
(٤) البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).
(٥) في (ز): (أم عبد الله بنت شداد). والمثبت من «أسد الغابة».
(٦) أي: علىٰ أية حالة تملكتها؟
(٧) أي: توجعًا لك وإشفاقًا، من: رثىٰ له، إذا رق وتوجع.
(٨) في (ز): (لا يأكلن إلا طيبًا).
(٩) ضعيف: في إسناده أبو بكر بن أبي مريم: ضعيف اختلط، والحديث رواه الحاكم (٤/ ١٢٥)، من طريق أبي بكر وصححه، لكن تعقبه الذهبي فقال: ابن أبي مريم واهٍ.

وقد ثبت في «صحيح مسلم»، و«جامع الترمذي»، و«مسند الإمام أحمد» - واللفظ له - من حديث فُضَيْل بن مرزوق، عن عَدِيِّ بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾** [البقرة: ١٧٢]». **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ**[(١)]: **يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**[(٢)].

وقال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ، لا نعرفه إلا من حديث فُضيل بن مرزوق[(٣)].

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دينكُم - يا معشرَ الأنبياء - دينٌ واحدٌ وملَّةٌ واحدةٌ، وهو الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له[(٤)]؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، وقد تقدَّمَ الكلامُ علىٰ ذلك في سورة «الأنبياء»، وأنَّ قوله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ منصوب علىٰ الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ أي: الأُمَمُ الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضَّلَالِ؛ لأنَّهم يحسبون أنَّهم مهتدون؛ ولهذا قال متهددًا لهم ومتوعدًا: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في غيِّهم وضَلَالِهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلىٰ حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، يعني: أيظنُّ هؤلاء المغرورون أنَّ ما نُعْطِيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومَعَزَّتِهم عندنا؟! كلَّا، ليس الأمرُ كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، لقد أخطؤُوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنَّما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاءً؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾

---

(١) لوحة (١١ أ)، وفي مد الداعي يديه وتوجهه إلىٰ السماء دليل من الأدلة الكثيرة علىٰ علو الله تبارك وتعالىٰ، وهذه الأدلة تقرب من ألف دليل، كما ذكر ابن القيم، وتوجه الداعين وطلبهم للعلو ضرورة، كما قال المُحدِّث الهَمَذاني لأبي المعالي الجُويني: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها، ما قال عَارِف قط: بالله، إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو، لا يلتفتُ يَمنةً ولا يَسْرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟!... فقال: يا حبيبي، ما ثمَّ إلا الحيرة... وقال: حيرني الهمذاني. «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٧٥)، وكلام ابن القيم في «أعلام الموقعين» (٤/ ٧٥). ط دار ابن الجوزي. وسيأتي مزيد في «سورة النمل».

(٢) مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد (٦/ ١٥٩).

(٣) وهذا الحديث هو العاشر في «الأربعين» و«جامع العلوم والحكم»، فليراجع شرحه.

(٤) كما قال النبي ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعلَّات؛ أمهاتهم شتىٰ، ودينهم واحد**». رواه البخاري: (٣٤٤٣)، ومسلم: (٢٣٦٥)، فأصل دينهم واحد ـ وهو التوحيد والدعوة لعبادة إله واحد ـ وشرائعهم مختلفة. ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ١٥٩)، و«فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

[التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١-١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

قال قتادة في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، قال: مُكِرَ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم[(١)]، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمد [بن عُبَيْد، حدَّثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمداني، حدَّثنا عبد الله][(٢)] بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلا يُؤْمِنُ حَتَّىٰ يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ - قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ -قَالَ: غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللهَ لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لا يَمْحُو الْخَبِيثَ»[(٣)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: هُمْ [مع][(٤)] إحْسَانِهم وإيمانهم وعَمَلِهِم

---

(١) لوحة (١١ ب).
(٢) بياض في (ز) قدر كلمة، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٣) ضعيف بهذا السياق: رواه أحمد (١/ ٣٨٧)، وأبو نعيم (٤/ ١٦٦)، (٥/ ٣٥)، وابن عَدِيّ (٣/ ١١٥٨)، وفيه الصبَّاح بن محمد: ضعيف، وللجملة الأولى طرق أخرى صحيحة، تقدم ذكرها عند الآية (٢٦٩) من سورة البقرة، وأما بقية الحديث فقد ضعفه الألباني في «الترغيب والترهيب» (١٠٧٦)، وصحَّح الدَّارَقُطْنِيُّ وَقْفَهُ. قلتُ: الموقوف في حكم المرفوع ولكن ليس بهذا اللفظ رواه ابن المبارك في «الزهد» (١١٣٤)، من طريق سفيان الثوري، ورواه الطبراني في «الكبير» (٨٩٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٦٥)، من طريق محمد بن طلحة، كلاهما عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفًا.
قال الدارقطني في «العلل» (٥/ ٢٧٢): والصحيح موقوف، ولفظه: إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن أحب، فمن ضن بالمال أن ينفقه، وخاف العدو أن يجاهده، وهاب الليل أن يكابده، فليكثر من قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.
(٤) في (ز): (من).

الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وَجِلُون من مَكْرِهِ بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمعَ إحْسَانًا وشَفَقَةً، وإنَّ المنافقَ جَمعَ إِسَاءَةً وأَمْنًا.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بآياتِهِ الكَوْنِيَّةِ والشَّرعِيَّةِ، كقوله تعالىٰ إخْبَارًا عن مريم -عليها السلام-: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]؛ أي: أيْقَنَتْ أنَّ ما كان فإنما هو عن قَدَرِ اللهِ وقَضَائِهِ، وما شَرَعَهُ اللهُ فهو إنْ كان أمرًا فَمِمَّا يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ، وإن كان نهيًا فهو مما يكْرَهُهُ ويَأْبَاهُ، وإن كان خبرًا فهو حقٌّ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾، أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحِّدُونَهُ ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدًا صمدًا، لم يتَّخِذ صاحبةً ولا ولدًا، وأنه لا نظيرَ له ولا كُفْءَ له.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾، أي: يُعْطُون العَطَاءَ فيه وهُمْ خائفون ألَّا يُتَقَبَّل منهم؛ لخوفهم أن يكونوا قد قصَّرُوا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من[١] باب [الإشفاق][٢] والاحتياط، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثَنا يحيىٰ بن آدم، حدَّثَنا مالك بن مِغْوَل، حدَّثَنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو[٣] الذي يَسْرِقُ ويَزْنِي ويَشْرَبُ الخمرَ، وهُوَ يَخَافُ اللهَ ﷻ؟ قال: «**لا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي [يُصَلِّي وَ][٤] يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ اللهَ ﷻ**»[٥].

وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك بن مِغْوَل، به بنحوه. وقال: «**لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُم الَّذِينَ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ**، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾». قال الترمذيُّ: ورُوِيَ هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ نحو هذا.

وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، والحسن البصري في تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «والذين يَأْتُونَ ما أَتَوْا[٦] وقلوبهم وجلة»، أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعًا إلىٰ النبيِّ ﷺ أنه قرأ كذلك.

قال الإمام أحمد: حدَّثَنا عفان، حدَّثَنا صخر بن جُوَيْرِية، حدَّثَنا إسماعيل المكي، حدَّثَني أبو خلف مولىٰ بني جُمَح؛ أنَّه دخل مع عُبَيد بن عُمَير علىٰ عائشة ﵂ فقالت: مرحبًا بأبي عاصم، ما يمنعك أن

---

(١) لوحة (١٢ أ). (٢) في (ز): الاشتقاق.

(٣) في (ز): (يا رسول الله هو الذي يسرق). (٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجة (١١٩٨)، وأحمد (٦/ ١٥٩).

(٦) قراءة: قَرَأَ (يَأْتُونَ مَا أَتَوْا) عَائِشَةُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (يُؤْتُونَ مَا آتَوْا).

تزورَنا – أو: تُلِمَّ بنَا؟[١] – فقال: أَخْشَىٰ أَنْ أُمِلَّكِ. فقالت: ما كنتَ لتفعل؟ قال: جئتُ لِأَسْأَلَ عن آيَةٍ في كتاب الله ﷻ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: أَيَّةُ آيةٍ؟ فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾، أو «والذين يَأْتُونَ مَا أَتَوْا»؟، فقالت: أَيَّتُهُمَا أحبُّ إليك؟ فقلتُ: والذي نفسي بيده، لإحداهما أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعًا – أو: الدنيا وما فيها – قالت: وما هي؟ فقلتُ: «والذين يَأْتُونَ ما أَتَوْا» فقالت: أشهدُ أنَّ رسولَ الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أُنْزِلَت، ولكن الهجاء حُرِّف[٢].

إسماعيل بن مسلم المكي، ضعيف.

والمعنىٰ علىٰ القراءة الأولىٰ – وهي قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم – أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٣]، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنىٰ علىٰ القراءة الأخرىٰ لأَوْشَكَ أَلَّا يكونوا من السابقين، بل من المُقْتَصِدِين أو المقصِّرين، والله تعالىٰ أعلم.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عدْلِهِ في شَرْعِهِ علىٰ عباده في الدنيا: أنه لا يُكَلِّف نفسًا إلَّا وُسْعَهَا؛ أي: إلَّا ما تَطِيقُ حَمْلَهُ والقيامَ به، وأنَّهُ يومَ القيامة يُحَاسِبُهُم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتابٍ مسطورٍ لا يضيع منه شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾، يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: لا يُبْخَسُون من الخير شيئًا، وأمَّا السيئاتُ فَيَعْفُو ويصفحُ عن كثيرٍ منها لعباده المؤمنين.

ثم قال منكرًا علىٰ الكفَّار والمشركين من قُرَيْشٍ: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ﴾[٤]، أي: غَفْلَةٍ وضَلَالَةٍ ﴿مِّنۡ

---

(١) أي: تنزل بنا.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٩٥)، وفيه أبو خلف مولىٰ بني جمح: مجهول الحال. انظر: «تعجيل المنفعة».

(٣) لوحة (١٢ ب).

(٤) قال العلامة القاسمي رحمه الله: أغرب الإمام أبو مسلم الأصفهاني -فيما نقله عنه الرازي- فذهب إلىٰ أن قوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ إلىٰ آخر الآية، من تتمة صفات المؤمنين المشفقين .... قال الرازيّ: وقول أبي مسلم أولىٰ؛ لأنه إذا أمكن رَدُّ الكلام إلىٰ ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أولىٰ من ردّه إلىٰ ما بَعُدَ منه، وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمر آخرته بأن قلبه في غمرةٍ، ويراد أنه قد استولىٰ عليه الفكر في قبول عمله أو رَدِّه، وفي أنه هل أداه كما يجب أو قَصَّرَ. انتهىٰ. وبعدُ فإن نظم الآية الكريمة يحتمل لذلك. ولكن لم يرد وصف الغمرة في حق المؤمنين أصلًا، بل لم يوصف بها إلا قلوب المجرمين، كما تراه في الآيات أولًا. فالذوق الصحيح ورعاية نظائر الآيات يأبىٰ ما أغرب به أبو مسلم أشد الإباء. والله أعلم.

هَٰذَا﴾، أي: القرآن الذي أنزله [اللهُ تعالىٰ][1] علىٰ رسولِهِ ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، قال الحَكَمُ بنُ أَبَان، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾، أي: سيِّئةٌ، ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ يعني: الشِّرْكَ، ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، قال: لا بدَّ أن يَعْمَلُوها. وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وغير واحدٍ.

وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، أي: قد كُتِبَ عليهم أعمالٌ سيئةٌ لا بدَّ أن يعملوها قبل موتهم لا محالةَ، لِتَحِقَّ عليهم كلمةُ الْعَذَابِ[2]. ورُوِي نَحْوُ هذا عن مقاتل بن حيَّان، والسُّدِّيِّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهرٌ قويٌّ حسنٌ. وقد قدَّمْنَا في حديث ابن مسعود: «فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»[3].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾، يعني: حتَّىٰ إذا جاء مترفيهم - وهم السعداء المنعمون في الدنيا - عذابُ الله وبأسُهُ ونِقْمَتُهُ بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾، أي: يصرخون[4] ويستغيثون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١١-١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣].

وقوله: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، أي: لا نُجِيرُكُمْ مِمَّا حَلَّ بِكُم، سواء جَأَرْتُم أو سَكَتُّم، لا محيدَ ولا مناصَ ولا وَزَرَ[5]، لزم الأمرُ ووَجَبَ العذابُ.

ثم ذكرَ أكبرَ ذُنُوبِهِم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾، أي: إذا دُعِيتُم أَبَيْتُم، وإن طُلبتم امتنعتم؛ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا[6] تَهْجُرُونَ﴾، في تفسيره قولان؛ أحدُهُمَا: أَنَّ «مستكبرين» حالٌ منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إيَّاهُ، استكبارًا عليه واحتقارًا له ولأهله، فعلَىٰ هذا الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُهَا: أنَّه الحرمُ بمَكَّةَ، ذُمُّوا؛ لأنهم كانوا يسْمَرُون بالهجْر من الكلام. والثَّاني: أنَّه

---

(١) ليست في (ز).

(٢) ولا يظلم ربك أحدًا؛ فقد سبق في علمه -سبحانه- أنهم يأتيهم الحق والهدىٰ فيعادونه، فكتب عليهم ذلك في اللوح المحفوظ، ولم تكتبه الملائكة في صحفها حتىٰ يفعلوه ويقع منهم. ينظر: «شفاء العليل» لابن القيم، و«شرح القصيدة التائية» للسعدي.

(٣) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٨١)، والترمذي (٢٠٦٣)، وهو الحديث الرابع من «الأربعين»، و«جامع العلوم والحكم».

(٤) لوحة (١٣ أ). (٥) الوَزَر: الملجأ.

(٦) شاذَّة: قَرَأَ (سُمَّرًا) ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (سَامِرًا).

ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنَّه سحرٌ، إنَّه شعرٌ، إنَّه كهانةٌ»، إلىٰ غير ذلك من الأقوال الباطلة. **والثالث:** أنَّه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثالَ الباطلة، من أنَّه شاعرٌ، أو كاهنٌ، أو ساحرٌ، أو كذَّابٌ، أو مجنونٌ. وكل ذلك باطلٌ، بل هو عبد الله ورسوله[١]، الذي أظهره اللهُ عليهم، وأخرجَهُم من الحرم صاغرين أذلَّاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾، أي: بالبيت، يفْتخِرون به ويعتقدون أنَّهم أولياؤه، ولستم بهم، كما قال النَّسائي في (التفسير) من «سننه»:

أخبرَنَا أحمد بن سليمان، أخبرَنَا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلىٰ، أنَّه سَمِعَ سعيد بن جبير يُحَدِّثُ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه قال: إنَّما كُرِهَ السَّمَرُ حين[٢] نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سَٰمِرًا﴾ قال: [كانوا][٣] يتكبرون [ويسمرون فيه، ولا][٣] يعمرونه، يهجرونه[٤]. وقد أطنب ابن أبي حاتم هاهنا بما ذا حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ[٥] بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مُنكِرًا علىٰ المشركين في عدم تَفَهُّمِهِم للقرآن العظيم، وتَدَبُّرِهم له، وفي إعراضهم عنه، مع أنهم قد خُصُّوا بهذا الكتاب الذي لم يُنَزِّلِ اللهُ علىٰ رسولٍ أكملَ منه ولا أشرفَ، لا سيَّما آباؤهم[٦] الذين ماتوا في الجاهِلِيَّةِ، حيثُ لم يبلغْهُم كتابٌ، ولا أتاهم نذيرٌ، فكان اللائقُ بهؤلاء أن يُقَابِلُوا النِّعْمَةَ التي أسْدَاهَا اللهُ إليهم بِقَبُولِهَا، والقيام بشُكْرِهَا وتَفَهُّمِهَا، والعملِ بمقتضاها آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، كما فعله النُّجَباءُ منهم مِمَّن أسْلَم واتَّبعَ الرَّسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عنهم.

وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾: إذًا والله يجدون في القرآن زاجرًا عن معصيةِ اللهِ لو تَدَبَّرَهُ القومُ

---

(١) الذي كانوا يلقبونه بالصادق الأمين؛ فهم ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]، و﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

(٢) في (ز): (حتىٰ)، والمثبت من «السنن الكبرىٰ» للنسائي (١١٢٨٨) ط: الرسالة.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وأثبتناه من «السنن الكبرىٰ»، ط الرسالة.

(٤) النَّسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٥١)، ط دار الكتب العلمية، ت/ كسروي والبنداري وعبد الأعلىٰ هو ابن عامر الثعلبي: ضعَّفَهُ أحمد وأبو زرعة، وقال يحيىٰ: ليس به بأس، وفي «التقريب»: صدوق يهم.

(٥) لوحة (١٣ ب). (٦) لوحة (١٤ أ).

وعَقَلُوهُ، ولَكِنَّهُم أَخَذُوا بما تَشَابَهَ، فهلكوا عند ذلك.

ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾، أي: أَفَهُمْ لا يعرفون محمدًا وصِدْقَهُ وأمانَتَهُ وصيانَتَهُ الَّتي نَشَأَ فيهم بها، أفيَقْدِرُونَ على إنكارِ ذلك والمباهتةِ فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنَّجاشيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ: أَيُّهَا الملكُ، إنَّ اللهَ بَعثَ إلينا رَسُولًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ. وهكذا قال المغيرةُ بْنُ شعبة لنائب كِسْرَىٰ حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ لملك الروم هِرَقل، حين سأله وأصحابَهُ عن صفات النبيِّ ﷺ ونسبِهِ وصدقِهِ وأمانتِهِ، وكانوا بعدُ كفَّارًا لم يُسْلِمُوا، ومع هذا ما أَمْكَنَهُم إلَّا الصِّدْقُ فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، يحكِي قولَ المشركين عن النبيِّ ﷺ أنَّه تقوَّلَ القرآنَ؛ أي: افْتَرَاهُ من عنده، أو أنَّ به جُنُونًا لا يدري ما يقول. وأخبرَ عنهم أنَّ قلوبَهُم لا تُؤْمِنُ به، وهم[1] يعلمون بطلانَ ما يقولُونَهُ في القرآن، فإنَّه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يُدافع، وقد تحدَّاهُم وجميعَ أهل الأرض أن يأتوا بمِثْلِهِ، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبدَ الآبدين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ يُحْتَمَلُ أن تكون هذه جملة حاليَّة؛ أي: في حال كراهةِ أكثرِهم للحق، ويُحْتَمَلُ أن تكون خبريةً مستأنَفَةً، والله أعلم.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن نبيَّ اللهِ ﷺ لَقِي رجُلًا فقال له: «أَسْلِمْ»، فقال الرجل: إنَّك لتدعوني إلى أمرٍ أنا له كارهٌ. فقال نبيُّ اللهِ ﷺ: «وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا». وذُكِر لنا أنَّه لَقِيَ رَجُلًا فقال له: «أَسْلِمْ»، فَتَصَعَّدَه ذلك وكَبُرَ عليه، فقال له نبيُّ الله: «أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتَ فِي طَرِيقٍ وَعْرٍ وَعْثٍ، فَلَقِيتَ رَجُلًا تَعْرِفُ وَجْهَهُ، وَتَعْرِفُ نَسَبَهُ، فَدَعَاكَ إِلَىٰ طَرِيقٍ وَاسِعٍ سَهْلٍ، أَكُنْتَ مُتَّبِعَهُ؟»، قال: نعم. فقال: «فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّكَ لَفِي أَوْعَرَ مِنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ لَوْ قَدْ كُنْتَ عَلَيْهِ، وَإِنِّي لَأَدْعُوكَ إِلَىٰ أَسْهَلَ مِنْ ذَلِكَ لَوْ دُعِيتَ إِلَيهِ». وذُكِرَ لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ لَقِي رجُلًا فقال له: «أَسْلِمْ»، فتَصَعَّدَه ذلكَ، فقال له نبي الله ﷺ: «أَرَأَيْتَ فَتَيَيْكَ، أَحَدُهُمَا إِذَا حَدَّثَكَ صَدَقَكَ، وَإِذَا ائْتَمَنْتَهُ أَدَّىٰ إِلَيْكَ أَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْكَ، أَمْ فَتَاكَ الَّذِي إِذَا حَدَّثَكَ كَذَبَكَ وَإِذَا ائْتَمَنْتَهُ خَانَكَ؟». قال: بل فتاي الذي إذا حدَّثَنِي صَدَقَنِي، وإذا ائْتَمَنْتُهُ أدَّىٰ إليَّ. فقال النبي ﷺ: «كَذَاكُم [أَنْتُم][2] عِنْدَ رَبِّكُمْ»[3].

وقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قال مجاهد، وأبو صالحٍ،

---

(١) في (ز): (وآباؤهم).

(٢) سقط من (ز).

(٣) مرسل، ولم يذكر إسناده، أما الفقرة الأولىٰ، فقد رواها أحمد عن أنس مرفوعًا (٣/ ١٠٩) و(٣/ ١٨١) إلىٰ قوله: وإن كنت كارهًا، وإسناده صحيح.

والسُّدِّيُّ: الحق هو الله ﷻ، والمراد: لو أجابهم الله إلىٰ ما في أنفسهم من الهوىٰ، وشرَعَ الأمورَ علىٰ وفْقِ ذلك ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبرَ عنهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، ففي هذا كله تَبْيِينُ عَجْزِ العباد واختلافِ آرائِهم وأهوائِهم، وأنَّه تعالىٰ[(١)] هو الكامل في جميع صفاتِه وأقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقدَرِه، وتدبيرِه لخَلْقِهِ، تعالَىٰ وتقدَّس، فلَا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواهُ.

ثم قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾، يعني: القرآن، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾، قال الحسن: أجرًا. وقال قتادة: جُعْلًا. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، أي: أنت لا تسألُهُم أجرةً ولا جُعْلًا ولا شيئًا علىٰ دعوتك إيَّاهم إلىٰ الهدىٰ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيلَ ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ:٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورىٰ:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس:٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾، **قال الإمام أحمد:**

حدَّثَنا حسن بن موسىٰ، حدَّثَنا حمَّاد بن سلمة، عن عليِّ بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف بن مِهْران، عن ابْنِ عبَّاسٍ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ أتاهُ - فيما يرىٰ النائم - ملكَان، فقَعَدَ أحدُهُمَا عند رجلَيْه، والآخرُ عند رأْسِهِ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضْرِبْ مَثَلَ هذا ومَثَلَ أُمَّتِهِ. فقال: إنَّ مَثَلَه ومَثَلَ أُمَّتِهِ، كَمَثَلِ قَوْمِ سفْرٍ انتهوا إلىٰ رأس مَفَازةٍ، فلم يكن معهم من الزَّادِ ما يقطعون به المفازةَ ولَا ما يرجعون به، فبَيْنَا هم كذلك إذ أتاهم رجلٌ في حُلَّةٍ حبَرةٍ، فقال: أرأَيْتُم إنْ وردْتُ بِكُم رِياضًا مُعشبةً، وحِياضًا رِواءً تَتَّبِعُونِي؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق، فأوْرَدَهُم رِياضًا معشبةً وحياضًا رواءً، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم (أَلْقَكُمْ)[(٢)] علىٰ تلك الحال، فجعلتُم لي إن وردْتُ بكم رياضًا معشبةً وحِياضًا رواءَ أن تَتَّبِعُوني؟ قالوا: بلىٰ، قال: فإنَّ بين أيديكم رياضًا أعشب من هذه، وحِياضًا هي أرْوَىٰ من هذه، فاتَّبِعوني. قال: فقالت طائفةٌ: صدق والله، لَنَتَّبِعَنَّه. وقالت طائفةٌ: قد رضِينَا بهذا نُقِيمُ عَلَيْهِ[(٣)].

---

(١) لوحة (١٤ ب). (٢) في (ز): (ألفكم)، والمثبت من «المسند».

(٣) رواه أحمد (١/ ٢٦٧)، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا زهير، حدَّثنا يونس بن محمد، حدَّثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري، حدَّثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ، عن عمر بن الخطاب ﷺ(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، وَتَغْلِبُونَنِي وَتَقَاحَمُونَ فِيهَا تَقَاحُمَ الْفَرَاشِ وَالْجَنَادِبِ(٢)!! فَأُوشِكُ أَنْ أُرْسِلَ حُجَزَكُمْ، وَأَنَا فَرَطُكُمْ(٣) عَلَىٰ الْحَوْضِ، فَتَرِدُونَ عَلَيَّ مَعًا وَأَشْتَاتًا، أَعْرِفُكُمْ بِسِيمَاكُمْ وَأَسْمَائِكُمْ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الْغَرِيبَ مِنَ الْإِبِلِ فِي إِبِلِهِ، فَيُذْهَب بِكُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَأُنَاشِدُ فِيكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ: أَيْ رَبِّ، قَوْمِي، أَيْ رَبِّ أُمَّتِي. فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ كَانُوا يَمْشُونَ بَعْدَكَ الْقَهْقَرَىٰ عَلَىٰ أَعْقَابِهِم، فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةً لَهَا ثُغَاءٌ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُول: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا. قَدْ بَلَّغْتُ، وَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُول: لَا أَمْلِكُ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُ، وَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَهَا حَمْحَمَةٌ، فَيُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُول: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُ، وَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ سِقَاءً(٤) مِنْ أَدَمٍ(٥)، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ: فَأَقُول: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُ»(٦).

وقال عليُّ بن المَدِيني: هذا حديثٌ حسن الإسناد، إلَّا أنَّ حفص بن حميدٍ مجهولٌ، لا أعلم روىٰ عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي.

قلتُ: بل قد روىٰ عنه أيضًا أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيىٰ بن مَعِين: صالح. ووثَّقه النَّسائي وابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾، أي: لَعَادِلُون جائِرُون مُنْحَرِفُون. تقول العرب: نَكَبَ فُلَان عن الطَّرِيق: إذا زاغ عَنْهَا.

وقوله: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، يُخْبِرُ تَعَالىٰ عن غِلَظِهِم في كُفْرِهِم؛ بأنَّه لو أَزَاحَ عِلَلَهُمْ وأَفْهَمَهُم الْقُرْآنَ؛ لَمَا انْقَادُوا لَهُ ولاسْتَمَرُّوا علىٰ كُفْرِهِم [وعِنَادِهِم](٧) وطُغْيَانِهِم، كما قال تعالىٰ: [﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾

---

(١) لوحة (١٥ أ).

(٢) الجنادب: جمع جُنْدَب، وهو نوع من الجراد.

(٣) أي: متقدمكم إليه، يقال: فرط يفرط فهو فارط وفَرَط، إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء، ويهيئ لهم الدلاء.

(٤) في (ز): (شيئًا). (٥) أي: جلد.

(٦) حسن صحيح: ورواه البزَّار (٩٠٠)، وابن عبد البرِّ في «التمهيد» (٢/ ٣٠٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٣٠)، و«الأمثال» للرامهرمزي (١٤)، ويعقوب بن عبد الله: صدوق، وله شواهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٨٤)، وفي «السنة» لابن أبي عاصم (٧٤٤).

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

[الأنفال: ٢٣]، وقال][1] : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٩]، فهذا من باب علمه تعالىٰ بما لا يكون - لو كان - كيف كان يكون.

وقال الضَّحَّاك، عن[2] ابنِ عبَّاس: كل ما فيه «لو»، فهو ممَّا لا يكون أبدًا.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ -أي: ابتَلَيناهُم بالمصائب والشدائد- ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: فما ردَّهُم ذلك عمَّا كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استَمَرُّوا علىٰ ضلَالِهِم وغيِّهِم. ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ أي: [ما][3] خشعوا، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: [ما][4] دعوا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عليُّ بن الحسين، حدَّثنا محمد بن حمزة المروزي، حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أبي، عن يزيد - يعني: النَّحوي - عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ، أنَّه قال: جاء أبو سفيان إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا مُحمَّدُ، أَنْشُدُكَ الله والرَّحِمَ، فقد أكَلْنَا العِلْهِزَ - يعني: الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[5].

وهكذا رواه النَّسائي عن محمد بن عقيل، عن علي بن الحسين، عن أبيه، به. وأصل هذا الحديث في «الصحيحين»؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ دعَا علىٰ قُرَيشٍ حين استعصوا فقال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»[6].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا سلمة بن شَبيب، حدَّثنا عبد الله بن إبراهيم بن عمر بن كيسان، عن وهب بن عمر بن كيسان قال: حُبِس وهب بن مُنبِّه، فقال له رجلٌ من الأبناء: ألا

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) لوحة (١٥ ب).
(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).
(٥) صحيح: رواه النَّسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٥٢) ط دار الكتب العلمية، و(١١٢٨٩) ط الرسالة، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٢٠٣٨)، والطبري (١٨/ ٣٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢١٠)، والحاكم (٢/ ٣٩٤)، وصحَّحَهُ ووافَقَهُ الذَّهبيُّ.
(٦) البخاري (٤٦٩٣)، (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨)، والترمذي (٣٢٥١)، عن ابن مسعود ﷺ.

أُنْشِدُكَ بَيْتًا من شِعْرٍ يا أبا عبد الله؟ فقال وهبٌ: نحنُ في طَرَفٍ من عذاب الله، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، قال: وصَامَ وَهْبٌ ثلاثًا متواصِلَةً، فقيل له[1]: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أَحْدَثَ لنا فأحْدَثْنَا. يعني: أَحْدَثَ لَنَا الْحَبْسَ، فَأَحْدَثْنَا زِيَادَةَ عِبَادَةٍ.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: حتَّىٰ إذا جاءهم أمرُ الله وجاءتهم الساعةُ بغتةً وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أَبْلَسُوا[2] من كل خيرٍ، وأَيِسُوا من كل راحةٍ، وانْقَطَعَتْ آمالُهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالىٰ نعمته علىٰ عباده في أنْ جَعَلَ لهم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، وهي العقولُ والفهومُ، الَّتِي يُدْرِكُون بها الأشياءَ، ويَعْتَبِرُون بما في الكون من الآياتِ الدالةِ علىٰ وحدانيةِ اللهِ تعالىٰ، وأنَّه الفاعلُ المختارُ لما يشاء.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي: وما أقلَّ شُكْرَكُم للهِ علَىٰ ما أنْعَمَ به عَلَيْكُم، كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثُمَّ أخبَر تعالىٰ عن قُدْرَتِهِ العظيمةِ وسُلْطَانِهِ القاهِرِ، في بَرْئِهِ[3] الْخَلِيقة وذرئِهِ لهم في سائر أقطار الأرض، علىٰ اختلاف أجناسِهِم ولُغَاتِهم وصِفَاتِهم، ثُمَّ يوم القيامة يَجْمَعُ الأوَّلين منهم والآخرين لميقاتِ يوم مَعْلُوم، فلا يترك منهم صغيرًا ولا كبيرًا، ولا ذكرًا ولا أُنْثَىٰ، ولا جليلًا ولا حقيرًا، إلَّا أعاده كما أبداه[4]؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يُحْيِي الرممَ ويُمِيتُ الأممَ، ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: ومن أمرِه تسخيرُ اللَّيلِ والنَّهارِ، كُلٌّ منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، يَتَعاقَبان لا يَفْتُران، ولا يَفْتَرقان بزمان غيرهما، كقوله تعالىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفَلَيْسَ لكم عقولٌ تَدُلُّكُم علىٰ العزيز العليم، الذي قد قهر كلَّ شيءٍ، وعَزَّ كلَّ شيءٍ[5]، وخَضَعَ له كلُّ شيءٍ.

ثم قال مُخبرًا عن مُنكري البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، يعني: يستبعدون وقوعَ ذلك بعد صَيْرُورَتِهِم إلىٰ البلىٰ، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعنون:

---

(١) لوحة (١٦ أ). (٢) أي: يئسوا.

(٣) البرء: الخلق، وفي أسماء الله تعالىٰ [البارئ]، وهو الذي خلَق الخلْق لا عَنْ مثال، ولهذه اللفظة من الاختصاص بخَلْق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلَّما تستعمل في غير الحيوان، فيقال: بَرأ الله النسَمَة، وخلَق السموات والأرض. «النهاية»: (١/ ١١١)، وانظر: «اللسان»: برأ. والذَّرْء: قال ابن الأثير: وكأن الذرء مختصٌّ بخلق الذرية. «النهاية».

(٤) بدأ وأبدأ؛ أي: خلق. (٥) أي: غلبه.

[أنَّ][١] الإعادةَ مُحالٌ، إنَّما يُخبِرُ بها من تلقَّاها عن كتب الأوَّلين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب[٢] منهم كقوله تعالىٰ إخبارًا عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١-١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠﴾

يُقرِّرُ تعالىٰ وَحْدانيَّتَهُ، واسْتِقْلالَه بالخلق والتَّصرُّفِ والملك؛ لِيُرْشِدَ إلىٰ أنَّه الذي لا إله إلا هو، ولا تَنْبَغِي العبادةُ إلا له وحدَهُ لا شريكَ له، ولهذا قال لِرَسُولِهِ محمدٍ ﷺ أن يقولَ للمُشْرِكين -العابدين معه غيرَهُ، المُعْتَرِفين له بالرُّبُوبيَّةِ، وأنَّه لا شريكَ له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيرَهُ معه، مع اعترافهم أنَّ الَّذِين عَبَدُوهم لا يَخْلُقُون شيئًا، ولا يملكون شيئًا، ولا يَسْتَبِدُّون بشيءٍ، بل اعتقدوا أنَّهم يُقَرِّبُونهم إليه زُلْفَىٰ؛ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقال: -﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾، أي: من مالِكُها الَّذي خَلَقَها ومَنْ فيها مِنَ الحيوانات والنَّباتاتِ والثَّمراتِ، وسائرِ صُنُوفِ المخلوقات؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحدَه لا شريكَ له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أنَّه لا تَنْبَغِي العبادةُ إلَّا للخالقِ الرازقِ لا لِغَيْرِه؟!

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾؟ أي: مَنْ هُوَ خالقُ العالَمِ العُلْوي بما فيه من الكواكبِ النَّيِّراتِ، والملائكةِ الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومَنْ هُوَ رَبُّ العرش العظيم؛ يعني: الذي هُوَ سقفُ المخلوقات، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «...شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؛ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِ هَكَذَا»[٣]، وأشار بيدِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ[٤].

وفي الحديث الآخر: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَإِنَّ الْكُرْسِيَّ بِمَا فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْعَرْشِ كَتِلْكَ الْحَلْقَةِ فِي تِلْكَ الْفَلَاةِ»[٥].

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١٦ ب). (٣) لوحة (١٧ أ).
(٤) رواه أبو داود (٤٧٢٦)، وفيه ابن إسحاق: مدلِّس وقد عنْعَنَ، وجُبَير بن محمد، قال الحافظ: مقبول. فالإسناد ضعيف.
(٥) صحيح لغيره: وقد تقدم، انظر تفسير الآية (٢٥٥) من «سورة البقرة».

ولهذا قال بعضُ السَّلَفِ: إنَّ مسافةَ ما بين قُطْرَيِ الْعَرْشِ -من جانبٍ إلىٰ جانبٍ- مَسِيرةَ خمسين ألف سنة، [وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة][١].

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاسٍ: إِنَّما سُمِّيَ عَرْشًا لِارْتِفَاعِهِ.

وقال الأعمش، عن كعب الأحبار: إنَّ السَّمَواتِ والأرض في العرش كالقنديل المعلَّق بين السماء والأرض.

وقال مجاهد: ما السموات والأرض في العرش إلا كَحَلَقَةٍ في أرْضٍ فَلاةٍ.

وقال ابنُ أَبِي حاتم: حدَّثَنا العلاء بن سالم، حدَّثَنا وَكِيع، حدَّثَنا سفيان الثوري، عن عمار الدُّهْني[٢]، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ قال: العَرْشُ لَا يقدر أحدٌ قَدْرَهُ. وفي روايةٍ: إلَّا الله عَجَّلَ[٣]. وقال بعضُ السلف: العرشُ من يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ[٤].

ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، يعني: الكبير، وقال في آخر السورة: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾، أي: الحسن البهيّ. فقد جمع العرشُ بين العظمةِ في الاتِّسَاعِ والْعُلُوِّ، والحُسْنِ الْبَاهِرِ؛ ولهذا قال من قال: إنَّه من ياقوتةٍ حمراء. وقال ابن مسعود: إنَّ ربَّكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ؟! أي: إذا كنتم تَعْتَرِفُون بأنَّه ربُّ السَّمَوَاتِ وربُّ العرش [العظيم][٥]، أفلا تخافون عقابَهُ، وتَحْذَرُون عَذَابَهُ في عبادتكم معه غيره، وإشراككم به؟!

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب «التفكر والاعتبار»: حدَّثَنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرَنَا عبد الله بن جعفر، أخبرَنِي عبد الله بن دينار، عن ابْنِ عُمَرَ قال: كان رسولُ الله ﷺ كثيرًا ما يُحَدِّثُ عَنِ امْرَأَةٍ كانَتْ في الجاهلية علىٰ رأسِ جَبَلٍ، معها ابْنٌ لها يَرْعَىٰ غَنَمًا، فقال لها ابْنُهَا: يا أُمَّاه، مَنْ خَلَقَكِ؟ قالَتْ: اللهُ. قال: فَمَنْ خلَقَ أَبِي؟ قَالَتْ: اللهُ. قال: فَمَنْ خلَقَنِي؟ قَالَتْ: اللهُ. قال: فَمَنْ خلَقَ السَّماءَ؟ قَالَتْ: اللهُ. قال: فَمَنْ خلَقَ الأرضَ؟ قَالَتْ: اللهُ. قال: فَمَنَ خلَقَ الجبلَ؟ قَالَتْ: اللهُ. قال: فَمَنْ خلَقَ هَٰذِهِ الْغَنَمَ؟ قَالَتْ: اللهُ. قال: فَإِنِّي أَسْمَعُ للهِ شَأْنًا، ثُمَّ أَلْقَىٰ نَفْسَهُ مِنَ الْجَبَلِ فَتَقَطَّعَ. قال ابْنُ عُمَرَ: كان رسولُ الله ﷺ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) في (ز): (الذهبي)، وهو خطأ.

(٣) صحيح: رواه عبد الرزَّاق في «تفسيره» (٣/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم (١٠١٨١)، والحاكم (٢/ ٢٨٢)، وابن أبي شيبة في «صفة العرش»، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٣)، وصحَّحَهُ الحاكم علىٰ شرط الشيخين، ووافقَهُ الذَّهبيُّ، وقال الذَّهبيُّ في «العلو»: رجاله ثقات. وصحَّحَهُ الألباني. انظر: «مختصر العلو» صـ١٠٢.

(٤) ثبت ذلك عن سعد الطائي؛ رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢١٥)، وعن قتادة؛ عزاه في «الفتح» (١٣/ ٤٥) إلىٰ عبد الرزَّاق، وكلا الأثرين مقطوع، والمقاطيع ليست حُجَّةً في مسائل الاعتقاد، ويروىٰ مرفوعًا ولكنَّهُ لا يصح، فقد رواه أبو الشيخ في «العظمة»، وقال الألباني في «الضعيفة» (٣٨٤٧): موضوع.

(٥) سقط من (ز).

كثيرًا ما يُحدِّثُنا هذا الحديثَ. قال عبد الله بن دينار: كان ابنُ عُمَرَ كثيرًا ما يُحدِّثُنا[١] بهذا الحديث[٢].

قلت: في إسناده عبد الله بن جعفر المديني -والد الإمام علي بن المديني- وقد تكلموا فيه، فالله أعلم.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بيده الملك، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]؛ أي: مُتَصرِّفٌ فيها. وكان رسولُ الله ﷺ يقول: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»[٣]، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا وَمُقَلِّبَ الْقُلُوبِ»[٤]، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. كانت العربُ إذا كان السَّيِّدُ فيهم فأجارَ أحدًا، لا يُخْفَرُ[٥] في جُوارِه، ولَيْسَ لمن دونهُ أنْ يُجِير عليه؛ لِئلَّا يفتات عليه[٦]، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلقُ والأمرُ، ولا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ، الَّذِي لا يُمانَعُ ولا يُخالَف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]؛ أي: لا يُسْئَلُ عمَّا يفعل؛ لِعَظَمَتِهِ وكِبْرِيائِهِ، وقَهْرِهِ وغَلَبَتِهِ، وعِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ، والْخَلْقُ كُلُّهُم يُسألون عن أعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: سَيَعْتَرِفُون أنَّ السَّيِّدَ العظيمَ الَّذِي يُجِيرُ ولا يُجَارُ عليه هو الله تعالىٰ، وحده لا شريكَ له، ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، أي: فكيف تَذْهَبُ عُقُولُكُم في عبادَتِكُم معه غيرَهُ، مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟!

ثم قال تعالىٰ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ -وهو الإعلام بأنَّهُ لا إلهَ إلَّا الله، وأقَمْنَا الأدلةَ الصحيحةَ الواضحة القاطعةَ علىٰ ذلك- ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليلَ لهم علىٰ ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فالمشركون لا يفعلون[٧] ذلك [عن دليل قادهم إلىٰ ما هم فيه من الإفْك والضلال، وإنما يفعلون ذلك][٨] اتِّبَاعًا لآبائِهم وأسْلَافِهِم الحَيارَىٰ الجُهَّال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾

---

(١) لوحة (١٧ ب).

(٢) عزاه لابن أبي الدنيا في «التفكر والاعتبار»، وفي إسناده عبد الله بن جعفر المديني: ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٣٢)، من حديث عبد الله بن هشام القرشي ﷺ وله شواهد أخرىٰ كثيرة..

(٤) أخرجه البخاري (٦٦١٧) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٥) أي: لا ينقض عهده.

(٦) أي: يحكم عليه، يقال: (افتات عليه في الأمر): حكم، وكل من أحْدَثَ شيئًا في أمْرِك دُونَك: قَدِ افْتَات عليك فيه.

(٧) في (ز): يعقلون.

(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

يُنَزِّهُ تعالىٰ نَفْسَهُ عن أن يكون له ولدٌ أو شريكٌ في الملك، فقال: ﴿[مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ](١) وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي(٢): لو قُدِّر تعددُ الآلهةِ، لانفَرَدَ كُلٌّ منهم بما يخلق، فما كان يَنْتَظِمُ الْوُجُودُ. والمُشَاهَدُ أنَّ الوجودَ مُنْتَظِمٌ مُتَّسِقٌ، كُلٌّ من العالم العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ مُرْتَبِطٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ في غاية الكمال، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ الملك: ٣]، ثُمَّ لكان كلٌّ منهم يطلبُ قَهْرَ الآخرِ وخِلَافه، فيعلو بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ. والمتكلمون ذكروا هذا المعنىٰ وعبَّروا عنه بدليل التَّمَانُعِ(٣)، وهو أنَّهُ لو فُرِضَ صانِعَان فَصَاعِدًا، فأراد واحدٌ تَحْرِيكَ جِسْمٍ وأراد الآخرُ سُكُونَهُ، فإن لم يحصُلْ مُرَادُ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمَا كانَا عَاجِزَين، والواجبُ لا يكونُ عاجزًا، ويمتنع اجتماعُ مراديْهِمَا للتَّضَاد. وما جاء هذا المُحالُ إلَّا مِنْ فَرْضِ التَّعَدُّدِ، فيكون مُحَالًا، فأمَّا إن حصلَ مُرَادُ أحدِهِمَا دون الآخر، كان الغالبُ هو الْوَاجِبُ، والآخر المغلوب ممكنًا؛ [لأنَّه](٤) لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقْهُورًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عمَّا يقول الظَّالمون المُعْتَدُون في دَعْوَاهُم الولد أو الشَّريك عُلُوًّا كَبِيرًا.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: يعلم [ما](٥) يَغِيبُ عن المخلوقات وما يُشَاهِدُونَه، ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ وتَعَالَىٰ وعَزَّ وَجَلَّ [عمَا يقول الظالمون والجاحدون](٦).

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا [نبيَّهُ محمدًا ﷺ](٧) أن يدعوَ هذا الدُّعاء عند حلول النقم: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن عاقَبْتَهُم - وإنِّي شاهدٌ ذلك - فلا تَجْعَلْنِي فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي - وصحَّحَهُ -: «وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»(٨).

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شِئْنَا لَأَرَيْنَاكَ مَا نُحِلُّ بهم من النِّقَمِ والبلاءِ والمِحَنِ.

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٨ أ).

(٣) ينظر: «جامع المسائل» (٦/ ١٧٤)، و«درء التعارض» (٧/ ١٩٥)، و(٩/ ٣٦٩)، و«منهاج السنة» ٣/ ٣٠٤) - جميعها لأبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للشيخ/ عبد الرحمن المحمود حَفِظَهُ ٱللَّهُ (٣/ ١٠٢١) وما بعدها.

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).

(٦) سقط من (ز). (٧) سقط من (ز).

(٨) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥)، وهو حديثٌ طويلٌ سيأتي بتمامه في آخر تفسير «سورة ص» الآية (٦٩).

ثم قال مُرْشِدًا له إلىٰ التِّرْياقِ(١) النَّافعِ في مُخالَطَةِ النَّاسِ -وهو الإحسان إلىٰ من يُسِيء؛ لِيَسْتَجْلِبَ خاطِرَهُ، فتعود عداوَتُهُ صَداقَةً، وبُغْضُهُ مَحَبَّةً- فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وهذا كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، أي ما يُلْهَمُ هذه الوصية أو الخصْلةَ أو(٢) الصِّفَةَ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، أي: علىٰ أذىٰ النَّاسِ، فعَامَلُوهم بالجميل مع إسدائهم إلَيْهِم القبيح، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أَمَرَهُ أن يستعيذَ من الشَّياطِينِ؛ لأَنَّهُم لا تنفع معهم الحِيَلُ، ولا يَنْقَادُونَ بالمعروف.

وقد قَدَّمْنَا عند الاسْتِعَاذَةِ أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: «**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**»(٣).

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، أي: في شيءٍ من أَمْرِي؛ ولهذا أَمَرَ بذكر الله في ابتداء الأمور - وذلك مطردة للشياطين - عند الأكل والجِمَاعِ والذَّبْحِ، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا رَوَىٰ أبو داود أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَدْمِ وَمِنَ الْغَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ**»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، أخبرَنَا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّهِ قال: كان رسولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا كلماتٍ يَقُولُهُنَّ عند النَّوم من الفزع: «**بِسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ**»(٥). قال: فكان عبد الله بن عمرو يُعَلِّمُهَا من بَلَغَ من ولَدِهِ أن يَقُولَهَا عند نَوْمِهِ، ومن كان منهم صغيرًا لا يَعْقِل أن يَحْفَظَهَا، كَتَبَهَا له، فعلَّقَهَا في عُنُقِهِ(٦). ورواه أبو داود، والترمذيُّ، والنَّسائي، من حديث محمد بن

---

(١) الترياق: ما يستعمل لدفع السم، من الأدوية والمَعَاجين، ويقال فيه: دِرْيَاق -مُعَرَّب.

(٢) لوحة (١٨ ب).

(٣) حسن: تقدم. انظر: تفسير الإستعاذة من «سورة الفاتحة». (٤) **صحيح**: رواه أبو داود (١٥٥٢).

(٥) **حسَّنَهُ الألباني**: رواه أبو داود (٣٨٩٣)، وأحمد (٢/ ١٨١)، والنَّسائي (١٠٦٠١)، والترمذي (٣٥٢٨)، وقال: حسن غريب، **قلت**: فيه محمد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن.
لكن له شاهد رواه ابن السني. وبه حسَّنَهُ الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٦٤).

(٦) تعليق الآيات أو الأذكار والأوراد علىٰ الصغار والمرضىٰ وغيرهم منع منه ابن مسعود رضي الله عنه و كثير من أهل العلم، وهو اختيار العثيمين رحمه الله وغيره. ينظر: «مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين» (١/ ١٠٥)، و(٩/ ١٧٥) وما بعدهما. قال في «التحبير للأوهام والتنبيهات الواردة في تفسير ابن كثير» (ص٨٣، ٨٤): (وقد استدل بهذا الفعل من يجيز تعليق التمائم من القرآن، قال الشيخ الألباني رحمه الله: «قلت: لم يصح إسناده إلىٰ ابن عمرو؛ لأن فيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد عنعنه، فلا يجوز الاحتجاج به علىٰ جواز تعليق التمائم من القرآن؛ لعدم ثبوت ذلك عن ابن عمرو.
=

إسحاق، وقال الترمذيُّ: حسن غريب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ عن حالِ المُحْتَضَرِ عند الموت -من الكافرين أو المُفَرِّطين في أمر الله تعالىٰ- وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلىٰ الدنيا، ليُصْلِحَ ما كان أفسده في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ﴾، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ[1] وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورىٰ: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكرَ تعالىٰ أنَّهم يسألون الرجعةَ فلا يُجابُون، عند الاحْتِضَار، ويوم النشور، ووقت العرض علىٰ الجَبَّار، وحين يُعْرَضُون علىٰ النَّار، وهم في غَمَرَاتِ عذاب الجحيم.

وقوله هاهنا: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، كلَّا: حَرْفُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ؛ أي: لا نُجِيبُهُ إلىٰ ما طلب ولا نَقْبَلُ منه.

= لا سيما وهو موقوف عليه، فلا حجة فيه، قال الشوكاني: «وقد ورد ما يدل علىٰ عدم جواز تعليق التمائم، فلا يقوم بقول عبد الله بن عمرو حجة» والسلف من التابعين وغيرهم مختلفون في ذلك فأجازه بعضهم وكرهه آخرون. وهذا الذي نختاره؛ لعدم ثبوت ذلك عن النبي ﷺ؛ ولأن القول بجوازه يعطل سنة الترقية بالمعوذات وغيرها)اهـ.

(١) لوحة (١٩ أ).

وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لا بدَّ أن يقولَها لا محالة كلُّ مُحْتَضِرٍ ظالمٍ.

ويُحتَمَلُ أن يكونَ ذلك عِلَّةً لقوْلِهِ[1]: «كَلَّا»؛ أي: لِأنَّها كَلِمَةٌ؛ أي: سؤالُهُ الرُّجوعَ لِيَعْمَلَ صالحًا هو كلامٌ منه، وقولٌ لا عَمَلَ معه، ولو رُدَّ لما عَمِلَ صَالحًا، ولكان يَكْذِبُ في مقالتِهِ هذه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال محمد بن كعب القُرَظِي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال: فيقول الجبَّارُ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

وقال عُمَرُ بْنُ عبد الله مولَىٰ غُفْرَة: إذا سمعتَ اللهَ يقول: ﴿كَلَّآ﴾[2]؛ فإنَّما يقول: كَذَبَ.

وقال قتادةُ في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، قال: كان العلاء بن زياد يقول: لِيُنْزِلَ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أنَّه قد حَضَرَهُ الموتُ، فاسْتَقَالَ ربَّهُ فَأَقَالَهُ[3]، فَلْيَعْمَلْ بِطَاعَةِ اللهِ عَجَلَّ.

وقال قتادةُ: واللهِ ما تَمَنَّىٰ أن يرجع إلىٰ أهلٍ ولا إلىٰ عشيرةٍ، ولكن تَمَنَّىٰ أن يرجعَ فَيَعْمَلَ بطاعةِ الله، فانظروا أُمْنِيَةَ الكافرِ المُفَرِّطِ فاعْمَلُوا بها، ولا قوةَ إلَّا بالله. وعن محمد بن كَعْبٍ القُرَظِي نحوه.

وقال [أبو][4] محمد بن أبي حاتم: حدَّثَنا أَبِي، حدَّثَنا أحمد بن يوسف، حدَّثَنا فضيل - يعني: ابن عياض - عن لَيْث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: إذا وُضِعَ - يعني: الكافر - في قَبْرِهِ، فَيَرَىٰ مَقْعَدَهُ من النار. قال: فيقول: ربِّ ارْجِعُونِ؛ أتوب وأعمل صالحًا. قال: فيُقَال: قد عُمِّرْتَ ما كنتَ مُعَمِّرًا. قال: فَيُضَيَّق عليه قَبْرُهُ، قال: فهو كالمَنْهُوش، يَنَامُ ويَفْزَعُ، تَهْوِي إليه هَوَامُّ الأرضِ وحيَّاتُهَا وعَقَارِبُهَا[5].

وقال أيضا: حدَّثَنا أَبِي، حدَّثَنا عمرو[6] بن علي، حدَّثَني سلمة بن تمام، حدَّثَنا علي بن زيد. عن سعيد بن المسيب، عن عائشة أنها قالَتْ: وَيْلٌ لأهل المعاصي من أهل القبور!! تدخل عليهم في قبورهم حيَّاتٌ سُودٌ - أو: دُهْمٌ[7] -، حَيَّةٌ عند رَأسِهِ، وحَيَّةٌ عند رِجلَيْهِ، يَقْرُصَانه حتَّىٰ يَلْتَقِيَا في وسطِهِ، فذلك العذاب في البرْزَخِ الذي قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[8].

---

(١) في (ز): (علمه كقوله). (٢) لوحة (١٩ ب).

(٣) استقاله: طلب إليه أن يقيله، والمعنىٰ هنا: أن يطلب من الله تعالىٰ أن يعيده إلىٰ الدنيا للعمل الصالح، فأجابه الله إلىٰ طلبته.

(٤) سقط من (ز).

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١١٤) إلىٰ ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، وابن أبي حاتم، وفيه ليث بن أبي سليم: اختلَطَت أحاديثُه فلم تتميز فترك.

(٦) في (ز): (عمر بن علي)، وهو خطأ. (٧) الدُّهْم: جمع أدهم، وهو الأسود أيضًا.

(٨) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١١٤) إلىٰ ابن أبي حاتم، وفي إسناده علي بن زيد: ضعيف.

وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ يعني: أمامهم. وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز [ما][١] بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة. ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم. وقال أبو صخرٍ: البرزخ: المقابر، لا هم في الدنيا، ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلىٰ يوم يبعثون.

وفي قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾؛ تهديدٌ لهؤلاء المحتضَرين من الظَّلَمَةِ بعذاب البرزخ[٢]، كما قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠]، وقال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: يستمر به العذاب إلىٰ يوم البعث، كما جاء في الحديث: «فَلا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا»[٣]؛ أي: في الأرض.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ[٤] وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ أنَّه إذا نُفِخَ في الصُّور نفخةَ النُّشُورِ، وقام النَّاسُ من القبور، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لا تنفع الأنساب يومئذٍ، ولا يَرْثِي والدٌ لِوَلَدِهِ، ولا يَلْوِي عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١]، أي: لا يسأل القريبُ عن قَرِيبِهِ وهو يُبْصِرُهُ -ولو كان عليه من الأَوْزَارِ ما قد أَثْقَلَ ظَهْرَهُ، وهو أعزُّ النَّاسِ عليه كان في الدنيا، ما الْتَفَتَ إليه ولا حَمَلَ عنه وَزْنَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ- قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وقال ابن مسعود: إذا كان يومُ القيامةِ جَمَعَ اللهُ الأوَّلين والآخِرين، ثُمَّ نَادَىٰ مُنَادٍ: ألا مَنْ كان له مَظْلَمَةٌ فَلْيَجِئ فَلْيَأْخُذ حَقَّهُ، قال: فَيَفْرَح المرءُ[٥] أن يكونَ له الحقُّ علىٰ وَالِدِهِ أو وَلَدِهِ أو زَوْجَتِهِ- وإن كان صغيرًا؛ ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾. رواه ابن أبي حاتم[٦].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) سيأتي - إن شاء الله - الكلام علىٰ عذاب القبر - البرزخ - في تفسير الآية (٤٦) من «سورة غافر».

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وابن حبان (٣١١٧) عن أبي هريرة مرفوعًا، وإسناده حسن، وحسنه الألباني. انظر: «الصحيحة» (١٣٩١).

(٤) لوحة (٢٠ أ). (٥) في (ز): (فيفرح الله المرء).

(٦) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٤١٦)، والطبري (١٨/ ٥٤)، وفيه هارون بن عنترة: قال الحافظ: لا بأس به، فالإسناد حسن، والأثر أوْرَدَهُ السيوطيُّ في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٨) وزاد عزوَهُ: لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن عساكر.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سعيد - مولىٰ بني هاشم - حدَّثنا عبد الله بن جعفر، حدَّثتنا أم بكر بنت المِسْوَر بن مَخْرَمَة، عن عُبَيْد[١] الله بن أبي رافع، عن المِسْوَر - هو ابن مَخْرَمَة - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يَقْبِضُنِي مَا يَقْبِضُهَا[٢]، وَيَبْسُطُنِي ما بَسَطَهَا[٣] وَإِنَّ الأَنْسَابَ تَنْقَطِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ نَسَبِي وَسَبَبِي[٤] وَصِهْرِي»[٥]. هذا الحديث له أصل في «الصحيحين» عن المسور؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي مَا رَابَهَا[٦]، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عامر، حدَّثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول علىٰ هذا المنبر: «مَا بَالُ رِجَالٍ يَقُولُونَ: إِنَّ رَحِمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا تَنْفَعُ قَوْمَهُ! بَلَىٰ وَاللهِ، إِنَّ رَحِمِي مَوْصُولَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنِّي أَيُّهَا النَّاسُ فَرَطٌ لَكُمْ إِذَا جِئْتُمْ. قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، [وَقَالَ أَخُوهُ: أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ][٨] فَأَقُولُ لَهُمْ: أَمَّا النَّسَبُ فَقَدْ عَرَفْتُ، وَلَكِنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ بَعْدِي[٩] وَارْتَدَدْتُمُ الْقَهْقَرَىٰ»[١٠].

وقد ذكرنا في «مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» من طرق متعددة عنه رضي الله عنه: أَنَّهُ لَمَّا تَزَوَّجَ أُمَّ كُلْثُوم بنتَ عليِّ بْنِ أبي طالب رضي الله عنهما[١١] قال: أَمَا - واللهِ - مَا بِي[١٢]، إِلَّا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول:

---

(١) في (ز): (عبد الله)، وهو خطأ.

(٢) أي: أكره ما تكرهه، وأتجمع مما تتجمع له، (ويبسطني ما يبسطها)، أي: يسرني ما يسرها؛ لأن الإنسان إذا سر انبسط وجهه واستبشر.

(٣) في (ز): (وينشطني ما ينشطها)، والمثبت من «المسند» ط الرسالة (٣١/ ٢٠٧).

(٤) النسب بالولادة، والسبب بالزواج.

(٥) حسن: رواه أحمد (٤/ ٣٢٣)، وفي الإسناد: أم بكر بنت المسور، قال الحافظ: مقبولة، وأصله في «الصحيحين» دون قوله: (وإن الأنساب... إلخ)؛ رواه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩)، وأبو داود (٢٠٧١)، والنَّسائي في «الكبرىٰ» (٨٣٧٠)، والترمذي (٣٨٦٧)، وابن ماجة (١٩٩٨).
والجملة الأخيرة لها شاهد من حديث عليٍّ، وسيأتي بعده.

(٦) يريبني ما رابها: يسوؤني ما ساءها، ويزعجني ما أزعجها، تقول: رابني هذا الأمر، وأرابني: إذا رأيت منه ما تكره.

(٧) البخاري (٣٧١٤)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٨) سقط من (ز).

(٩) قوله ﷺ: «ولكنكم أحدثتم..» يرد علىٰ من ادعىٰ أنه من آل البيت وهو تارك للفرائض والطاعات مقيم علىٰ العصيان والسيئات - فضلًا عن الشرك - ، فآل بيت رسول الله ﷺ وعليهم هم قرابته المؤمنون الصالحون المقيمون علىٰ الأعمال الصالحة الذين هم قدوة للناس؛ لو لم يكن آله إلا قرابته... صلىٰ المصلي علىٰ الطاغي أبي لهب. ينظر: «فضل أهل البيت» للعلامة/ عبد المحسن العباد، و «العقيدة في أهل البيت» للسحيمي (ص٤٠) وما بعدها، و«مكانة أهل البيت عند الأئمة الأربعة» للشيخ الدكتور/ محمد يسري (ص١٦)، و«آل البيت وحقوقهم الشرعية» للدرويش - حفظهم الله جميعًا.

(١٠) رواه أحمد (٣/ ١٨)، وفيه حمزة بن أبي سعيد: مجهول، لكن تُوبِعَ من طريق عبدالرحمن بن أبي سعيد؛ رواه أبو يعلىٰ (١٢٣٨)، ورجاله ثقات عدا عبد الله بن محمد بن عقيل.
وتابَعَهُ سعيد بن المسيب رواه أحمد، وفيه شريك بن عبد الله النخعي: سيئ الحفظ، ويشهد له حديث المسور السابق.
وبالجملة: فالحديث لا تنزل رتبته عن درجة الحسن بل هو إلىٰ الصحيح أقرب وانظر ما بعده.

(١١) لوحة (٢٠ ب).

(١٢) أي: ما بي حاجة إلىٰ الزواج.

«كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ فَإِنَّهُ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي»[(١)].

رواه الطبراني، والبزّار، والهيثم بن كُلَيب، والبيهقيُّ، والحافظ الضياء في «المختارة»[(٢)]. وذكرنا أنَّه أصدقها أربعين ألفًا؛ إعظامًا وإكرامًا ﷺ؛ فقد رَوَىٰ الحافظُ ابْنُ عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع - زوج زينبَ بِنْتِ رسولِ الله ﷺ - من طريق أبي القاسم البغوي[(٣)]: حدَّثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدَّثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد بن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ نَسَبٍ وَصِهْرٍ يَنْقَطِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا نَسَبِي وَصِهْرِي»[(٤)]. وروي فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «سَأَلْتُ رَبِّي عَجَلَّ أَلَّا أَتَزَوَّجَ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِي، وَلَا يَتَزَوَّجُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، إِلَّا كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ، فَأَعْطَانِي ذَلِكَ». ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله بن [عمرو][(٥)(٦)].

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من رجحت حَسَنَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِ ولو بواحدةٍ، قاله ابْنُ عبَّاس.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين فازوا فَنجوا من النَّارِ وأُدْخِلُوا الجنَّة.

وقال ابْنُ عبَّاسٍ: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونَجوا من شَرٍّ ما منه هربوا.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ -أي: ثقلت سيئاتُهُ علىٰ حَسَنَاتِهِ- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابُوا وهلكُوا، وباؤوا[(٧)] بالصَّفْقَةِ الخاسرة.

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا إسماعيل بن [أبي][(٨)] الحارث، حدَّثنا داود بن المُحَبَّر، حدَّثنا صالح المُرِّيّ، عن ثابت البُناني، وجعفر بن زيد، ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرْفَعُهُ قال: «[إِنَّ للهِ][(٩)] مَلَكًا مُوَكَّلًا بِالْمِيزَانِ، فَيُؤْتَىٰ بِابْنِ آدَمَ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كِفَّتَيِ الْمِيزَانِ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ نَادَىٰ مَلَكٌ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَىٰ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُهُ نَادَىٰ مَلَكٌ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ

---

(١) رواه ابن كثير في «مسند عمر» (١/ ٣٨٩)، وصحَّحَهُ الألباني انظر: «الصحيحة» (٢٠٣٦).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٣)، وفي «الكبير» (٣/ ٤٥)، والبزّار (٣٤٤٥-كشف)، والبيهقي (١/ ٦٤)، والضياء في «المختارة» (٢٨٩).

(٣) في (ز): (أبي القاسم بن البغوي).

(٤) «تاريخ دمشق» (١٩/ ١١٩-مخطوط)، و(٦٧/ ٢١) ط الفكر، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٢).

(٥) بياض في (ز).

(٦) ضعيف: رواه الحاكم (٣/ ١٣٧) وصحَّحَهُ، ووافقَهُ الذَّهبيُّ!! وهذه غفلة منهما، فعمار بن سيف: ضعيف كما قال الحافظ وأورده الذَّهبيُّ في «الميزان»!! فالحديث لا يصح، وضَعَّفَهُ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٠٤٠)، وقال ابن حجر في «الفتح» (١/ ٨٥): إسناده واهٍ.

(٧) في (ز): (وفازوا). (٨) سقط من (ز). (٩) سقط من (ز).

الْخَلَائِق: شَقِيَ فُلَان شَقَاوَةً لا يَسْعَدُ بَعْدَهَا أَبَدًا»[١].

إسناده ضعيف، فإن داود بن المُحَبَّر متروك.

ولهذا قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكِثُون فيها دائِمُون مُقِيمُون لا يَظْعَنُون.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ [٢]﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثَنا أبي، حدَّثَنا فَرْوَة بن أبي المغراء، حدَّثَنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سِنَان ضِرَار بن مُرَّة، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: «إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سِيقَ [إِلَيْهَا][٣] أَهْلُهَا يَلْقَاهُمْ لَهَبُهَا، ثُمَّ تَلْفَحُهُمْ لَفْحَةً، فَلَمْ يَبْقَ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَىٰ الْعُرْقُوبِ»[٤].

وقال ابن مَرْدَوَيْه: حدَّثَنا أحمد بن محمد بن يحيىٰ القَزَّاز، حدَّثَنا الخضر بن علي بن يونس القطان، حدَّثَنا عمر بن أبي الحارث بن الخضر القَطَّان، حدَّثَنا سعد بن سعيد المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدَّرْدَاءِ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ في قول الله تعالىٰ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، قال: «تَلْفَحُهُمْ لَفْحَةً، فَتَسِيلُ لُحُومُهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ»[٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني عابسون.

وقال الثَّوريُّ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال: ألم تَرَ إِلَىٰ الرَّأْسِ الْمُشَيَّطِ[٦] الَّذِي قَدْ بَدَا أَسْنَانُهُ وَقَلَصَتْ[٧] شَفَتَاهُ[٨].

وقال الإمام أحمد، رَحِمَهُ اللهُ: أخبرَنَا علي بن إسحاق، أخبرَنَا عبد الله - هو ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ - أخبرَنَا سعيد بن يزيد، عن أبي السَّمْح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخُدْري، عن النبيِّ ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، قال: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقَلَّصُ[٩] شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَىٰ حَتَّىٰ تَضْرِبَ سُرَّتَهُ»[١٠].

ورواه الترمذيُّ، عن سُوَيْد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، به. وقال: حسن غريب.

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه أبو نعيم في «الحلية»، كما في «تخريج الإحياء» (٤٠٩١)، وفيه داود بن المحبر: متروك.
(٢) لوحة (٢١ أ). (٣) ليست في (ز).
(٤) ضعيف: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٨)، وفيه محمد بن سليمان: ضعيف.
(٥) ضعيف: عزاه في «الدر المنثور» (٦/ ١١١) إلىٰ الضياء في «صفة النار»، وفي إسناده سعد بن سعيد: لين الحديث، وأخوه عبد الله بن سعيد: متروك.
(٦) أي: المحرق بعضه، من قولهم: شيّط اللحم، اذا أحرق بعضه. (٧) أي: اجتمعتا.
(٨) رواه الطبري (١٩/ ٤٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٩٩٠)، وابن المبارك في «الزهد» (٢٩١)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١١٤)، ورجاله ثقات.
(٩) أي: تنقبض، وأصله: تتقلص.
(١٠) ضعيف: رواه الترمذيُّ (٢٥٩٠)، وإسناده ضعيف فهو من طريق دراج أبي السمح، وروايته عن أبي الهيثم ضعيفة، كما تقدم مرارًا.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا
ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

هذا تَقْرِيعٌ من الله تعالىٰ لأهل النَّار، وتَوْبِيخٌ لهم علىٰ ما ارْتَكَبُوا، من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوْبقَتْهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أي: قد أرْسَلْتُ إليكم الرسلَ، وأنزلْتُ الكتبَ، وأزَلْتُ شُبهَكُم، ولم يَبْقَ لكم حُجَّةٌ تدلون [بها](١)، كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ (٢) لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١]؛ ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾، أي: قد قامَتْ علينا الحُجَّةُ، ولكن كُنَّا أشْقَىٰ من أن نَنْقادَ لها ونَتَّبِعَها، فَضَلَلْنَا عنها ولم نُرْزَقْها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، أي: رُدَّنَا إلىٰ الدَّار الدنيا، فإنْ عُدْنَا إلىٰ ما سلف منا فَنَحْنُ ظالمون مُسْتَحِقُّون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢]، أي: لا سبيلَ إلىٰ الخروج؛ لأنَّكم كنتم تُشْرِكُون بالله إذا وحَّدَهُ المؤمنون.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى
جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

هذا جوابٌ من الله تعالىٰ للكفَّار إذا سألوا الخروجَ من النَّارِ والرَّجْعَةَ إلىٰ هذه الدار، يقول: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾، أي: امْكُثُوا فيها صاغرين مُهانين أذلَّاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: لا تَعُودُوا إلىٰ سؤالكم هذا، فإنَّه لا جوابَ لكم عندي.

قال العَوْفِي، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، قال: هذا قولُ الرَّحمن حينَ انْقَطَعَ كلامُهُم منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عَبْدَة بن سليمان المروزي، حدَّثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إنَّ أهلَ جَهَنَّمَ يدْعُون مَالِكًا، فلا يُجِيبُهُم أربعين عامًا، ثم يَرُدُّ عليهم: إنَّكُم ماكثون. قال: هانَتْ دَعْوَتُهُم - والله - علىٰ مالِكٍ وربِّ

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (٢١ ب).

مَالِكٍ. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، قال: فَيَسْكُتُ عنهم قدرَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْن، ثُمَّ يَرُدُّ عليهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، قال: واللهِ ما نَبَس[1] القومُ بعدها بكلمةٍ واحدةٍ، وما هو إلا الزَّفِيرُ والشَّهِيقُ في نارِ جَهَنَّمَ. قال: فَشُبِّهَتْ أَصْوَاتُهُم بأَصْوَاتِ الحميرِ، أَوَّلُها زفيرٌ وآخِرُها شَهِيقٌ[2].

وقال أيضًا: حدَّثَنا أحمد بن سِنَان، حدَّثَنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدَّثَنا سفيان، عن سَلَمة بن[3] كُهَيْل، حدَّثَنا أبو الزَّعْرَاء قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أراد اللهُ أَلَّا يُخْرِجَ منهم أحدًا - يعني: من جهنَّمَ - غيَّرَ وجوهَهُم وألوانَهُم، فيجيء الرجل من المؤمنين، فيَشْفَع فيقول: يا رب. فيقول[الله][4]: من عَرَفَ أحدًا فلْيُخْرِجْه. فيجيء الرَّجُلُ فينظر فلا يعرف أحدًا، [فيناديه الرجل: يا فلان][5]، أنا فلان. فيقول: ما أعْرِفُك، [قال][6]: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فعند ذلك يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. وإذا قال ذلك أُطْبِقَتْ عَلَيْهِم، فلا يَخْرُجُ منهم بَشَرٌ[7].

ثُمَّ قال تعالىٰ مُذَكِّرًا لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستَهْزِئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: فَسَخِرْتُم منهم في دعائهم إيَّاي وتَضَرُّعِهم إليَّ، ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي: حملكم بُغْضُهم علىٰ أن نَسِيتُم مُعَامَلَتِي، ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠]، أي: يَلْمِزُونَهم استهزاءً.

ثُمَّ أخبرَ عمَّا جازَىٰ به أولياءَهُ وعبادَهُ الصَّالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: علىٰ أذاكُم لهم واسْتِهزَائِكُم منهم، ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، أي: جعلتُهُم هُمُ الفائزين بالسَّعادة والسَّلامة والجنَّة، النَّاجين من النار.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۝١١٣ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝١١٦﴾

---

(١) أي: ما نطق.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٣/ ١٥٢)، والحاكم (٢/ ٣٩٥) وصحَّحَهُ، ووافقَهُ الذَّهبِيُّ، والبغوي في «شرح السنة» (١٥/ ٢٥٤)، وابن المبارك في «زوائد الزهد» (ص٩١)، والبيهقي في «البعث» (٥٩١)، ورجاله ثقات.

(٣) لوحة (٢٢ أ).

(٤) سقط من (ز).

(٥) في (ز): بدلها: (فيقول).

(٦) سقط من (ز).

(٧) إسناده حسن: رواه ابن أبي حاتم (١٤٠٤٥)، وهو موقوف، لكن مثله لا يقال بالرأي.

يقول تعالىٰ مُنبِّهًا لهم علىٰ ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالىٰ، وعبادته [وحده، و][١]لو صَبَروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتَّقون، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي: كم كانت إقامَتكُم في الدُّنيا؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ أي: الحاسِبين، ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: مدة يسيرة علىٰ كل تقدير، ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لَما آثَرْتُم الفَانِي[٢] علىٰ البَاقِي، ولَمَا تَصرَّفْتُم لأنفسكم هذا التَّصرُّفَ السَّيِّئَ، ولا اسْتَحْقَقْتُم[٣] من اللهِ سَخطَهُ في تلك المدة اليسيرة، ولو أنَّكُم صَبَرْتُم علىٰ عبادَتِهِ وطاعَتِهِ - كما فعل المؤمنون - لَفُزْتُم كما فازوا.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثَنا أَبِي، حدَّثَنا محمد بن الوَزِير، حدَّثَنا الوليد، حدَّثَنا صفوان، عن أَيْفَع بن عبدٍ الكَلاعي؛ أنَّه سَمِعَهُ يَخطُبُ النَّاسَ فقال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالَ: لَنِعْمَ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ؛ رَحْمَتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. فَيَقُولُ: بِئْسَ مَا اتَّجَرْتُم فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ؛ نَارِي وَسَخَطِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ»[٤].

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: أَفَظَنَنْتُمْ أنَّكم مخلوقون عَبَثًا بلا قصدٍ ولا إرادةٍ منكم ولا حكمةٍ لنا؟! ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: لا تَعودُون في الدَّارِ الآخِرَةِ، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، يعني: هَمَلًا[٥].

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تَقدَّسَ أن يَخلُقَ شَيئًا عَبَثًا، فإنَّهُ الملكُ الحقُّ المُنَزَّهُ عن ذلك، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾، فَذكَرَ العَرْشَ؛ لأنَّهُ سقفُ جميعِ المخلوقات، ووَصَفَهُ بأنَّه كريمٌ؛ أي: حَسَنُ المَنْظَرِ بَهِيُّ الشَّكْلِ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان:١٠].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثَنا علي بن الحسين، حدَّثَنا علي بن محمد الطَّنَافِسيّ، حدَّثَنا إسحاق بن سليمان - شيخ من أهل العراق - أنبأَنَا شعيب بن صفوان، عن رجلٍ من آل سعيد بن العاص قال: كان آخرُ خُطْبَةٍ خَطَبَ عُمَرُ بن عبد العزيز أنْ حَمِدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه، ثُمَّ قال: أمَّا بعد، فإنَّكم لم تُخلَقُوا عَبَثًا، ولن تُتْرَكُوا سُدًىٰ، وإنَّ لكم معادًا ينزل اللهُ فيه للحُكْمِ بَيْنَكُم والفَصْلِ بَيْنكم، فخابَ وخسِرَ مَن خرجَ مِن

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٢ ب). (٣) في (ز): (إن استحقيتم).

(٤) مرسل ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٤٠٦٠)، وإسناده ضعيف، فأيفع بن عبدٍ الكلاعي: تابعي صغير. فالإسناد مرسل. انظر: «الإصابة» لابن حجر. الترجمة (٥٧٨)، وفي الإسناد الوليد بن مسلم: كثير التدليس والتسوية.

(٥) في (ز): (مهملًا).

رحمةِ الله، وحُرِمَ جَنَّةً عَرْضها السموات والأرض، أَلَم تعلَمُوا أنَّه لا يأمَنُ غَدًا إلَّا مَنْ حَذِرَ [هذا](١) اليومَ وخَافَهُ، وباع نَافِدًا بباقٍ، وقليلًا بكثيرٍ، وخوفًا بأمان، أَلَا تَرَوْن أنَّكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بَعْدِكُمُ الباقين(٢)، [حتىٰ](٣) تُرَدُّون إلىٰ خَيرِ الوارثين؟ ثم إنَّكم في كل يوم تُشَيِّعون غاديًا ورائحًا إلىٰ الله ﷻ قد قضىٰ نَحْبَهُ، وانقَضىٰ أجَلُه، حتىٰ تُغَيِّبُوه في صَدْعٍ من الأرض، في بَطْنِ صَدْعٍ غَيْرِ مُمَهَّدٍ ولا مُوَسَّدٍ، قد فارَقَ الأحباب، وبَاشَرَ التُّرَاب، وواجَهَ الحساب، مُرْتَهَنٌ بعَمَلِهِ، غَنِيٌّ عمَّا ترك، فقيرٌ إلىٰ ما قدَّم. فاتَّقُوا [اللهَ عِبَادَ الله](٤)، قبل انْقِضَاءِ مَوَاثِيقِهِ، ونُزُولِ الموْتِ بكم. ثُمَّ جَعَلَ(٥) طَرَفَ رِدَائِهِ علىٰ وَجْهِهِ، فبَكَىٰ وأبْكَىٰ مَنْ حَوْلَه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثَنا يحيىٰ بن نصر الخَوْلاني، حدَّثَنا ابن وَهْبٍ، أخبرَني ابن لهيعة، عن [أبي](٦) هُبَيْرَةَ، عن حَنَش بن عبد الله؛ أنَّ رَجُلًا مُصَابًا مرَّ به عبدُ الله بن مسعود، فقرَأَ في أُذُنِهِ هذه الآية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾، حتَّىٰ خَتَمَ السُّورةَ فَبَرَأ، [فذكر ذلك لرسولِ الله ﷺ](٧)، فقال رسولُ الله ﷺ: «**بِمَاذَا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ؟**»، فأَخْبَرَهُ، فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُوقِنًا قَرَأَهَا عَلَىٰ جَبَلٍ لَزَالَ**»(٨).

وروىٰ أبو نُعَيم من طريق خالد بن نزار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المُنْكَدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثَنَا رسولُ الله ﷺ في سَرِيَّةٍ، وأمَرَنا أن نَقُولَ إذا نحنُ أمْسَيْنَا وأَصْبَحْنَا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، قال: فَقَرَأْنَاها، فَغَنِمْنَا وسَلِمْنَا(٩).

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثَنا إسحاق بن وهب العَلَّاف الوَاسِطي، حدَّثَنا أبو المُسَيَّب سلمة بن سلام، حدَّثَنا بكر بن خُنَيْس(١٠)، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضَّحَّاك بن مُزَاحِم، عن عبد الله بن عباس

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٣ أ). (٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): (ثم رفع). (٥) في (ز): (حين). (٦) سقط من (ز).
(٧) سقط من (ز).
(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٤٠٧٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٢) إلىٰ الحكيم الترمذي، وأبي يعلىٰ، وابن أبي حاتم، وابن السني (٦٣١) وأبي نعيم في «الحلية».
قلت: وهو عند العقيلي (٢/ ١٦٣)، وحكم بوضعه، لكنه من غير هذا الطريق. والطريق الذي أورده ابن أبي حاتم رجاله ثقات، عدا يحيىٰ بن نصير الخولاني فلم أعرفه. لكن رواه ابن السني (٦٣١)، وأبو نعيم (١/ ٧)، عن أبي يعلىٰ من طريقٍ أخرىٰ، عن ابن لهيعة به، فالحديث صحيح لغيره إن شاء الله.
(٩) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧٢٨ - بتحقيقي)، وعزاه السيوطي إلىٰ ابن السني، وابن منده، وحسَّن إسناده.
(١٠) في (ز): (بكر بن حبيش)، وهو خطأ.

قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ الْغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا فِي السُّفُنِ: بِسْمِ اللهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود:٤١]»[١].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مُتوعِّدًا من أشرَكَ به غيرَه، وعبَدَ معه سواه[٢]، ومُخبِرًا أن مَنْ أشركَ بالله ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، أي: لا دليلَ له علىٰ قوله[٣] - فقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، وهذه جملةٌ معترضةٌ، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾، أي: اللهُ يُحاسِبُهُ علىٰ ذلك.

ثم أخبرَ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لديه يوم القيامة، لا فلاحَ لهم ولا نجاةَ.

قال قتادةُ: ذُكِرَ لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال لرجل: «مَا تَعْبُدُ؟»، قال: أَعْبُدُ اللهَ، وكذا وكذا، حتَّىٰ عدَّ أصنامًا، فقال رسولُ الله ﷺ: «فَأَيُّهُم إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَه، كَشَفَهُ عَنْكَ؟». قال: الله ﷻ. [قال: «فَأَيُّهُم إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَدَعَوْتَه أَعْطَاكَهَا؟»، قال: الله ﷻ][٤]. قال: «فَمَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْبُدَ هَؤُلَاءِ مَعَهُ؟»، قال: أَرَدْتُ شُكْرَهُ بِعِبَادَةِ هَؤُلَاءِ مَعَهُ، أم حَسِبْتُ أَنْ يَغْلِبَ عَلَيه. فقال رسول الله ﷺ: «تَعْلَمُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ». قال الرجل بعد ما أسلم: لقيتُ رجُلًا خَصمَنِي[٥].

هذا مرسلٌ من هذا الوجه، وقد روىٰ أبو عيسىٰ الترمذي في «جامعه» مسندًا عن عمران بن الحُصَيْن، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك[٦].

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، هذا إرشادٌ من اللهِ إلىٰ هذا الدعاء، فالغَفْرُ - إذا أُطْلِق - معناه: مَحْوُ الذَّنْبِ وسَتْرِهِ عن النَّاسِ، والرَّحْمةُ مَعْنَاهَا: أن يسدِّدَهُ ويُوَفِّقَهُ في الأقوال والأفعال.

آخر تفسير «سورة المؤمنون»

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (١٤٠٧٢)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٤)، من طريق نهشل بن سعيد: وهو متروك، والضَّحَّاك بن مُزَاحِم: صدوق كثير الإرسال، وهو لم يلقَ ابن عباس، إنما روىٰ تفسيره عن سعيد بن جبير.

(٢) لوحة (٢٣ ب).

(٣) قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ: «ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله هنا: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ لا مفهوم مخالفة له، فلا يصح لأحد أن يقول: أما من عبد معه إلهًا آخر له برهان به فلا مانع من ذلك؛ لاستحالة وجود برهان علىٰ عبادة إله آخر معه، بل البراهين القطعية المتواترة دالة علىٰ أنه هو المعبود وحده - جل وعلا- ، ولا يمكن أن يوجد دليل علىٰ عبادة غيره البتة..». «أضواء البيان» (٥/ ٩١١).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) مرسل: ولم يَعْزُهُ لأحدٍ، وانظر ما بعده.

(٦) الترمذي (٣٤٨٣) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ. قلت: ورجاله ثقات، غير أنَّ فيه الحسن البصري: يرسل وقد عنعن.

سُورَةُ النُّورِ

سورة النور وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾[(١)]

يقول تعالىٰ: هذه ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ فيه تنبيهٌ علىٰ الاعتناء بها ولا يَنْفِي ما عداها.

«فَرَّضْنَاهَا» قال مجاهد وقتادة: أيْ: بيَّنَّا الحلال والحرام والأمر والنَّهي، والحدود.

وقال البخاري: ومَن قرأ: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾[(٢)] يقول: فَرَضْنا عليكم وعلىٰ من بعدكم.

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مفسَّراتٍ واضحَاتٍ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[(٣)] هذه الآية الكريمة فيها حكم الزَّاني في الحَدِّ، وللعلماء فيه تفصيلٌ ونزاعٌ[(٤)]؛ فإنَّ الزَّاني لا يخلو إما أن يكون بِكْرًا، وهو الذي لم يتزوَّج، أو محصنًا، وهو الذي قد وَطِئَ في نكاحٍ صحيحٍ، وهو حُرٌّ بالغٌ عاقلٌ. فأمَّا إذا كان بكرًا لم يتزوج، فإن حدَّه جلدُ مائةٍ كما في الآية، ويُزاد علىٰ ذلك أن يُغرَّب عامًا [عن بلده][(٥)] عند جمهور العلماء، خلافًا لأبي حنيفة ﷺ؛ فإنَّ عنده أن التَّغريبَ إلىٰ رأي الإمام، إن شاء غَرَّب وإن شاء لم يُغرِّب.

---

(١) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال صاحب «المقابلات»: إن الشريعة الإسلامية متفقة مع الشرع العبري في أغلب أحكام الزنىٰ، ولم يرد في الديانة المسيحية نصٌّ صريحٌ ينسخ حكم اليهودية في الزنىٰ. ولكن يروىٰ عن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما يؤخذ منه ضمنًا عدم إمكان إقامة حد الرجم؛ لأنه اشترط براءة الراجمين من كل عيب، وأَمَرَ الزانية التي اعترفت بين يديه بالتوبة والاستغفار، أما حكم الزنىٰ في القوانين الحديثة فيخالف مخالفةً كليةً لحكم الشريعة الغراء، وحكم التوراة والإنجيل. انتهىٰ كلامه. وفقنا الله لحفظ حدوده، وجنبنا محارمه بمنه وكرمه.

(٢) متواترة: قَرَأَ (وَفَرَّضْنَاهَا) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَوَافَقَهُمَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَفَرَضْنَاهَا).

(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللَّهُ: لا خلاف في أن الذي يقوم بإقامة هذا الحد هو الإمام أو نائبه والسادة في العبيد، وأن السوط يكون بين اللين والشدة وسطًا بينهما، ولا يتعدىٰ هذا الحد إلا أن يجرؤ الناس علىٰ الجرائم ويكثر الشر والفساد فيعزرون بما يردعهم.

(٤) لوحة (٢٤ أ).

(٥) سقط من (ز).

وحُجَّة الجمهور في ذلك ما ثبت في «الصحيحين»، من رواية الزهري، عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجُهَنيِّ، في الأعرابيين اللَّذين أتيا رسولَ الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله، إنَّ ابني كان عَسِيفًا -يعني أجيرًا- علىٰ هذا فزَنَىٰ بامرأته، فافتديتُ [ابني](١) منه بمائةِ شاةٍ وَوَليدَةٍ، فسألت أهل العِلْم، فأخبروني أنَّ علىٰ ابني جلدُ مائةٍ وتغريب عام، وأنَّ علىٰ امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ: الوَلِيدَةُ وَالغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَىٰ ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ. وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ** -لرجل مِن أسلم- **إِلَىٰ امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا**». فغدا عليها فاعترفت، فرجمها(٢).

ففي هذا دلالة علىٰ تغريب الزَّاني مع جلد مائةٍ إذا كان بكرًا لم يتزوَّج، فأمَّا إن كان محصنًا فإنَّه يُرْجَم، كما قال الإمام مالك:

حدَّثني ابن شهاب، أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن ابن عبَّاسٍ أخبره أن عمر ﷺ قام فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: أمَّا بعد، أيُّها الناس، فإن الله بعث محمَّدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها وَوَعَيْناها، وَرَجَمَ رسول الله ﷺ وَرَجمْنا بعده، فأخشىٰ أن يطول بالنَّاس زمانٌ أن يقول قائلٌ: لا نَجِد آية الرَّجْم في كتاب الله، فيَضِلُّوا بترك فريضةٍ قد أنزلها الله، فالرَّجم في كتاب الله حقٌّ علىٰ مَن زنىٰ، إذا أحصن، من الرجال والنِّساء، إذا قامت البيِّنَة، أو الحَبَلُ، أو الاعترافُ(٣).

أخرجاه في «الصحيحين» من حديث مالك مطولًا، وهذا قطعة منه فيها مقصودنا هاهنا.

وروىٰ الإمام أحمد، عن هُشَيْم، عن الزهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاسٍ: حدَّثني عبد الرحمن بن عوف؛ أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول: ألا وَإنَّ أُناسًا يقولون(٤): ما بالُ الرَّجم؟ في كتاب الله الجلدُ. وقد رَجَم رسول الله ﷺ ورَجَمنا بعده. ولولا أن يقول قائلون -أو يتكلم متكلمون- أنَّ عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت(٥).

وأخرجه النسائي، من حديث عُبَيْد الله بن عبد الله به.

وقد روىٰ أحمد أيضًا، عن هُشَيْم، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عبَّاسٍ قال: خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال: لا تُخْدَعُن عنه؛ فإنَّه حَدٌّ من حدود الله، ألا إنَّ رسول الله ﷺ قد رجم ورَجَمْنا بعده، ولولا أن يقول قائلون: زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه، لكَتَبْتُهُ(٦) في ناحيةٍ من

---

(١) سقط من (ز).
(٢) البخاري (٢٦٩٦)، ومسلم (١٧٩٨).
(٣) البخاري (٦٨٢٩، ٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١)، وأبو داود (٤٤١٨)، والترمذي (١٤٣٢)، وابن ماجة (٢٥٥٣).
(٤) لوحة (٢٤ ب).
(٥) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧١٥٤).
(٦) في (ز): (لكتبت)، والمثبت موافق لما في «المسند».

المصحف: وشهد عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وفلان وفلان: أنَّ رسول الله ﷺ قد رَجَمَ ورَجَمْنَا بعده. ألا وإنَّه سيكون مِن بعدكم قوم يُكَذِّبون بالرَّجم وبالدَّجَّال وبالشَّفاعَة وبعَذاب القبر، وبقومٍ يَخْرُجُون من النار بعد ما امْتُحِشُوا(١).

وروىٰ أحمد أيضًا، عن يحيىٰ القَطَّان، عن يحيىٰ الأنصاري، عن سعيد بن المسيَّب، عن عمر بن الخطاب: إيَّاكم أَن تهلكوا عن آية الرَّجم(٢). الحديث رواه الترمذي، من حديث سعيد، عن عُمَر، وقال: صحيح.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا عُبَيْد الله بن عمر القواريري، حدَّثنا يزيد بن زُرَيْع، حدَّثنا ابن عَوْن، عن محمَّد -هو ابن سِيرين- قال: نُبِّئْتُ عن كَثِير بن الصلت قال: كنَّا عند مروان وفِينَا زيد، فقال زيد: كنا نقرأ: «وَالشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ [إِذَا زَنَيَا](٣) فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ». قال مروان: ألا كتبتَها في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك. قال: قلنا: فكيف؟ قال: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، قال: فذكر كذا وكذا، وذكر الرجم(٤)، فقال: يا رسول الله، أَكْتِبْني آية الرجم؛ قال: «لا أَسْتَطِيعُ الآنَ». هذا أو نحو ذلك(٥).

وقد رواه النسائي، عن محمَّد بن المثنىٰ، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن قتادة، عن يونس بن جُبَير، عن كَثِير بن الصَّلْت، عن زيد بن ثابت به.

وهذه طرقٌ كلُّها متعددةٌ ودالَّةٌ علىٰ أن آية الرجم كانت مكتوبةً فنسخ تلاوتها، وبقي حكمها معمولًا به، ولله الحمد.

وقد أمر رسول الله ﷺ برَجْمِ هذه المرأة، وهي زوجة الرَّجل الذي استأجر الأجير لما زَنَت مع الأجير(٦). ورجم النَّبيُّ ﷺ ماعزًا والغامِدِيَّة. وكل هؤلاء لم يُنقَل عن رسول الله ﷺ أنَّه جلدهم قبل الرَّجم. وإنَّما وردت الأحاديث الصِّحَاح المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار علىٰ رجمهم، وليس فيها ذكر الجلد؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، -رحمهم الله- وذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أنَّه يَجِب أن يُجْمَع علىٰ الزَّاني المحصَن

---

(١) ضعيف: أعني من هذا الطريق. رواه أحمد (١/ ٢٣)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، والروايات السابقة كافية في تحقيق الأمر بالرجم.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (١٤٣١) وصححه.

(٣) ليست في (ز).

(٤) بعده في (ز): (فأتاه فذكر ذلك الرجل الرجم).

(٥) عزاه المصنف لأبي يعلىٰ، ورجاله ثقات غير أن ابن سيرين يقول: نبئت، ولم يذكر الواسطة فالإسناد منقطع. وتابعه قتادة عن يونس بن جبير. رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٢٧٠/ ٧١٤٥)، ورجاله ثقات لكن قتادة عنعن وهو مدلس.

(٦) لوحة (٢٥ أ).

بين الجَلْد للآية والرَّجم للسُّنَّة، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أنَّه لما أتىٰ بشُرَاحة[١] وكانت قد زنت وهي مُحْصَنَةٌ، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، ثم قال: جلدتُها بكتاب الله، ورجمتها بسُنَّة رسول الله ﷺ[٢].

وقد روىٰ الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث قتادة، عن الحسن، عن حِطَّان بن عبد الله الرَّقَاشِيّ، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ**»[٣].

وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله. لا ترجموهما [وترأفوا بهما][٤] في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطَّبيعيَّة [ألا تكون حاصلة][٥] [علىٰ إقامة الحد، وإنَّما هي الرَّأفة الَّتِي تحمل الحاكم][٦] علىٰ ترك الحَدِّ فإنَّه لا يجوز له ذلك.

قال مجاهد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال: إقامة الحدود إذا رُفعت إلىٰ السلطان، فتقام ولا تعطل. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَيْر، وعَطَاء بن أبي رَبَاح. وقد جاء في الحديث: «**تَعَافَوُا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ**»[٧]. وفي الحديث الآخر: «**لَحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْضِ، خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا**»[٨].

وقيل: المراد ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فلا تقيموا الحدَّ كما يَنْبَغِي، من شدة الضرب الزَّاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرِّح.

قال عامر الشعبي: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال: رحمةً في شدة الضرب. وقال عطاء: ضربٌ ليس بالمبرِّح. وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن حماد بن أبي سليمان: يجلد القَاذِف وعليه ثيابه، والزَّاني تخلع ثيابه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فقلت: هذا في الحكم؟ قال: هذا في الحكم والجلد - يعني في إقامة الحد، وفي شدة الضرب.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدِيُّ[٩] حدَّثنا وَكيع، [عن نافع

---

(١) شُرَاحة: كسراقة، امرأة همدانية أقرت بالزنا عند علي ﷺ.

(٢) صحيح: رواه عبد الرزاق (٧/ ٣٢٧)، وإسناده صحيح.

(٣) مسلم (١٦٩٠، ٤ ٢٣٣)، وأبو داود (٤٤١٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧١٤٢)، وابن ماجة (٢٥٥٠)، وأحمد (٥/ ٣١٨).

(٤) في (ز): (وترقوا لهما).

(٥) ليست في (ز).

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٧) حسن: رواه أبو داود (٤٣٧٦)، والنسائي (٤٨٨٦).

(٨) حسنه الألباني: رواه ابن ماجة (٢٥٣٨)، وأحمد (٢/ ١٠٢) وفيه عيسىٰ بن يزيد: مقبول، لكن أورد له الشيخ الألباني شواهد في «السلسلة الصحيحة» (٢٣١).

(٩) لوحة (٢٥ ب).

ابن عمـــر][١] عن ابن أبي مُلَيْكَة، عن عبيد[٢] الله بن عبد الله بن عمر: أنَّ جاريةً لابن عمر زنت، فضرب رجليها -قال نافع: أراه قال: وظهرها- قال: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال: يا بني، ورأيتني أخذتني بها رأفةٌ؟ إنَّ الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جَلدها في رأسها، وقد أوجعت حيث ضربت[٣].

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي: فافعلوا ذلك: أَقِيمُوا الحدود علىٰ مَن زَنَىٰ، وشدِّدُوا عليه الضَّرب، ولكن ليس مبرِّحًا؛ ليرتدع هُو ومَن يصنع مثله بذلك. وقد جاء في «المسند» عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: «وَلَكَ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ»[٤].

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: هذا فيه تنكيلٌ للزَّانِيين إذا جُلِدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في رَدْعِهِما، فإنَّ في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحةً إذا كان الناس حضورًا.

قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: علانية.

ثم قال علي بن أبي طلحة، [عن ابن عبَّاس:][٥] ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الطَّائفة: الرجل فما فوقه.

وقال مجاهد: الطَّائفة: رجل إلىٰ الألف. وكذا قال عكرمة؛ ولهذا قال أحمد: إن الطَّائفة تصدُق علىٰ واحدٍ.

وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان. وبه قال إسحاق بن رَاهَويه. وكذا قال سعيد بن جبير: ﴿طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [قال: يعني: رجلين فصاعدًا. وقال الزهري: ثلاث نفرٍ فصاعدًا.

وقال عبد الرزاق: حدَّثني ابن وَهْبٍ، عن الإمام مالك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾][٦] قال: الطائفة أربعة نفرٍ فصاعدًا؛ لأنَّه لا يكون شهادةً في الزِّنا دون أربعة شهداء فصاعدًا. وبه قال الشافعي.

وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصري: عشرة. وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين؛ أي: نفرٌ من المسلمين؛ ليكون ذلك موعظةً وعبرةً ونكالًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن عثمان، حدَّثنا بَقِيَّةُ قال: سمعت نصر بن علقمة في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: ليس ذلك للفضيحة، إنَّما ذلك ليدعىٰ الله تعالىٰ

---

(١) في بعض النسخ: (عن نافع عن ابن عمر)، وهو خطأ، والمثبت من (ز)، وهو موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٢) في (ز): (عبد الله)، وهو خطأ.

(٣) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٤٠٩٥)، والطبري (١٨/ ٦٦ – ٦٧)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٥)، وزاد عزوه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) رواه أحمد (٢ / ١٣٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٣). وانظر: «الصحيحة» للألباني (٢٦ – ٢٧).

(٥) سقط من (ز).

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

لهما بالتَّوبة والرحمة.

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

هذا خَبَر من الله تعالىٰ بأنَّ الزَّاني لا يَطأ إلا زانيةً أو مشركةً؛ أي: لا يطاوعه علىٰ مراده مِن الزِّنا إلا زانيةٌ عاصيةٌ، أو مشركة لا ترىٰ حرمة ذلك، وكذلك[١]: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاصٍ بزناه ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه.

قال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عَمْرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنِّكاح، إنَّما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشركٌ. وهذا إسنادٌ صحيحٌ عنه[٢]، وقد رُوي عنه من غير وجهٍ أيضًا. وقد رُوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعُرْوَة بن الزبير، والضَّحَّاك، ومكحول، ومُقَاتِل بن حَيَّان، وغير واحدٍ نحوُ ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تعاطيه والتَّزويج بالبغايا، أو تزويج العفائف بالفُجَّار من الرِّجال.

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا قَيْس، عن أبي حُصَين، عن سعيد بن جُبَيْرٍ، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حرَّم الله الزِّنا علىٰ المؤمنين.

وقال قتادة، ومقاتل بن حَيَّان: حرَّم الله علىٰ المؤمنين نكاح البغايا، وتَقدَّم في ذلك فقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ الآية [المائدة: ٥] ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أنَّه لا يصح العقد مِن الرجل العفيف علىٰ المرأة البَغِيِّ ما دامت[٣] كذلك حتىٰ تستتاب، فإن تابت صحَّ العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحُرَّة العفيفة بالرَّجل الفاجر المسافح حتىٰ يَتُوبَ توبةً صحيحةً؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عارم، حدَّثنا مُعْتَمِر بن سليمان قال: قال أبي: حدَّثنا الحضرمي، عن القاسم بن محمَّد، عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما أنَّ رجلًا من المسلمين استأذنَ رسول الله ﷺ في امرأةٍ يقال لها: «أم مهزول» كانت تُسَافِح، وتشترط له أن تنفق عليه، قال: فاستأذن رسول الله ﷺ -أو: ذكر له

---

(١) لوحة (٢٦ أ).

(٢) صحيح: رواه البيهقي (٧/ ١٥٤)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٧١)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٦) وزاد عزوه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي شيبة وأبو داود في «ناسخه»، والضياء في «المختارة».

(٣) في (ز): ما دامها.

أمرها- قال: فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال النَّسائي: أخبرنا عمرو بن علي، حدَّثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحضرمي، عن القاسم ابن محمَّد، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: «أم مهزول» وكانت تُسَافِح، فأراد رجلٌ[٢] من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله ﷻ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقال الترمذي: حدَّثنا عبد بن حميد، حدَّثنا روح بن عُبَادة عن عُبَيد الله بن الأخنس، أخبرني عمرو ابن شُعَيب عن أبيه، عن جَدِّه قال: كان رجل يقال له: «مَرْثَد بن أبي مرثد» وكان رجلًا يحمل الأسارىٰ من مكَّة حتىٰ يأتي بهم المدينة. قال: وكانت امرأةٌ بَغِيٌّ بمكة يقال لها: «عَنَاق»، وكانت صديقةً له، وأنَّه واعد رجلًا من أسارىٰ مكة يحمله. قال: فجِئْتُ حتىٰ انتهيتُ إلىٰ ظلِّ حائطٍ من حوائط مكة في ليلةٍ مقمرةٍ، قال: فجاءت «عناق» فأبصرت سواد ظلي [تحت][٤] الحائط، فلما انتهت إليَّ عرفتني، فقالت: مَرْثَد، فقلت: مَرْثَد، فقالت: مرحبًا وأهلًا هَلُمَّ فبِتْ عندنا اللَّيلة. قال: فقلت: يا عناق، حرَّم الله الزنا. فقالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يَحْمِلُ أسراكم. قال: فتبعني ثمانية وسلكت الخندمة[٥] فانتهيت إلىٰ غارٍ -أو كهفٍ فدخلت فيه فجاءوا حتىٰ قاموا علىٰ رأسي فبالوا، فظل بولهم علىٰ رأسي، فأعماهم[٦] الله عني- قال: ثم رجعوا، فرجعت إلىٰ صاحبي فحملته، وكان رجلًا ثقيلًا حتىٰ انتهيت إلىٰ الإذخر[٧]، ففككت عنه أكبُله[٨]، فجعلت أحمله ويُعِينني، حتىٰ أتيت به المدينة، فأتيت رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقًا؟ أنكح عناقًا؟ -مرتين- فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يَرُدَّ عليَّ شيئًا، حتىٰ نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [فقال رسول الله ﷺ: «يا مَرْثَد، ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾،][٩] فَلَا تَنْكِحْهَا»[١٠] ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ١٥٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٥٩)، والطبري (١٨/ ٥٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢١٢)، ورجاله ثقات عدا الحضرمي. قال الحافظ: لا بأس به.

(٢) لوحة (٢٦ ب). (٣) انظر التخريج السابق. (٤) سقط من (ز).

(٥) الخَندمة: جبل بمكة. (٦) في (ز): ونحاهم.

(٧) قال الأفاضل محققو طبعة الشعب: (في «اللسان»: ذخر: ثنية الأذاخر هي موضع بين مكة والمدينة، وكأنها مسماة بجمع الإذخر).

(٨) أكبله: جمع كبل، وهو القيد. (٩) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(١٠) حسن: رواه الترمذي (٣١٧٧)، وأبو داود (٣٠٥١)، والنسائي (٦/ ٦٦).

والنسائي، في كتاب النكاح من «سننهما» من حديث عبيد الله بن الأخنس به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا مُسَدَّد أبو الحسن، حدَّثنا عبد الوارث، عن حبيب المعلم، حدَّثني عمرو بن شعيب، عن سعيد المَقبُرِيِّ، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ(١): «**لَا يَنْكِحُ الزَّانِي المَجْلُودُ إِلَّا مِثْلَهُ**»(٢).

وهكذا أخرجه أبو داود في «سننه»، عن مسدد وأبي معمر -عبد الله بن عمرو(٣)- كلاهما، عن عبد الوارث به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا عاصم بن محمَّد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن أخيه عمر بن محمَّد، عن عبد الله بن يسار -مولى ابن عمر- قال: أشهد لسَمِعْتُ سالمًا يقول: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَلَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالمَرْأَةُ المُتَرَجِّلَةُ** -المتشبِّهة بالرِّجال- **وَالدَّيُّوثُ. وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ**(٤)، **وَمُدْمِنُ الخَمْرِ، وَالمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى**»(٥).

ورواه النَّسائي، عن عمرو بن عليٍّ الفلاس، عن يزيد بن زُرَيع، عن عُمَر بن محمَّد العُمَري، عن عبد الله بن يسار به.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الوليد بن كثيرٍ، عن قَطَن بن وهب، عن عُوَيْمر بن الأجدع، عمن حدثه، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حدَّثني عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَالعَاقُّ، وَالدَّيُّوثُ الَّذِي يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الخُبْثَ**»(٦).

وقال أبو داود الطيالسي في «مسنده»: حدَّثنا شعبة، حدَّثني رجلٌ -من آل سهل بن حُنَيْف عن محمَّد ابن عَمَّار- عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ دَيُّوثٌ**»(٧).

يستشهد به لما قبله من الأحاديث.

وقال ابن ماجة: حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا سَلام بن سَوَّار، حدَّثنا كَثِير بن سُلَيم، عن الضَّحَّاك بن مُزَاحِم: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللهَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا،**

---

(١) لوحة (٢٧ أ).

(٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٤١٣٣)، ورواه أبو داود (٢٠٥٢)، والحاكم (٢/ ١٨٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) في (ز): (عن عبد الله بن عمرو)، وهو خطأ، وأبو معمر هو: عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج التميمي.

(٤) هكذا في (ز)، وهو موافق لما في «المسند» ط: الرسالة، وبعض مصادر التخريج ذكرت القطعة الأولى فقط، وبعضها ذكر القطعة الثانية.

(٥) رواه أحمد (٢/ ١٣٤)، والنسائي (٥/ ٨٠)، وفي إسناده عبد الله بن يسار: لم يوثقه غير ابن حبان، ولألفاظه شواهد. الرواية الثانية رواها أحمد (٢/ ٦٩)، وفيها من لم يسم، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٦٧٤).

(٦) رواه أحمد (٢/ ٦٩)، وفيه رجل لم يسم، لكن يشهد له الرواية السابقة.

(٧) رواه الطيالسي (٦٤٢)، وفيه رجل لم يسم، لكن يشهد له الروايتان السابقتان.

فَلْيَتَزَوَّجِ الحَرَائِرَ» في إسناده ضعف[(١)].

قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري في كتاب «الصِّحَاح» في اللغة: «الدَّيُّوث القُنْذُع» وهو: الذي لا غَيرَةَ له.

فأمَّا الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب «النكاح» من «سننه»: أخبرنا محمَّد بن إسماعيل بن عُلَيَّة، عن يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة وغيره، عن هارون ابن رئاب، عن عبد الله بن عُبَيد بن عمير -وعبد الكريم، عن عبد الله بن عبيد[(٢)] بن عمير، عن ابن عبَّاس- عبدُ الكريم رفعه إلىٰ ابن عبَّاس، وهارون لم يرفعه - قالا: جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: إنَّ عندِي امرأةً [هي][(٣)] مِن أحبِّ الناس إليَّ، وهي لا تمنع يدَ لامِسٍ[(٤)] قال: «طَلِّقْهَا». قال: لا صبر لي عنها قال: «اسْتَمْتِعْ بِهَا»[(٥)]، ثم قال النَّسائي: هذا الحديث غير ثابت، وعبد الكريم ليس بالقَوِيِّ، وهارون أثبت منه، وقد أرسل الحديث وهو ثقة، وحديثه أولىٰ بالصَّواب مِن حديث عبد الكريم.

قلت: وهو ابن أبي المخارق البصري المؤدب تابعي ضعيف الحديث، وقد خالفه هارون بن رئاب، وهو تابعيٌّ ثقةٌ من رجال مسلم، فحديثه المرسل أولىٰ كما قال النسائي. لكن قد رواه النَّسائي في

---

(١) ضعيف: رواه ابن ماجة (١٨١٢)، وفيه أكثر من علة، فسلام بن سوار وشيخه كثير بن سليم: ضعيفان.

(٢) لوحة (٢٧ ب).

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «السنن».

(٤) يعني: عندها تساهل. قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَالأَقْرَبُ الْمُرَادُ: أَنَّهَا سَهْلَةُ الأَخْلَاقِ لَيْسَ فِيهَا نُفُورٌ وَحِشْمَةٌ عَنِ الأَجَانِبِ، لَا أَنَّهَا تَأْتِي الْفَاحِشَةَ، وَكَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ مَعَ الْبُعْدِ مِنَ الْفَاحِشَةِ، وَلَوْ أَرَادَ بِهِ أَنَّهَا لَا تَمْنَعُ نَفْسَهَا عَنِ الْوِقَاعِ مِنَ الأَجَانِبِ لَكَانَ قَاذِفًا لَهَا). «سبل السلام» (٥/ ٢٢٢).

(٥) الراجح أنه ضعيف: رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٩) في النكاح باب: تزويج الزانية، وهذا الحديث صححه بعض الأئمة وضعفه بعضهم، فقد صححه ابن حزم في «المحلىٰ» (١١/ ص٢٨٠، ٣٧٥) والنووي (التلخيص ٣/ ٢٢٥)، والمنذري في «مختصر السنن»، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٦١٧)، وابن كثير كما في متن الكتاب، وابن حجر (التلخيص ٣/ ٢٢٥)، والألباني في «صحيح سنن أبي داود».
وضعفه يحيىٰ القطان «الجامع للخطيب» (٣/ ٤٥٣)، والإمام أحمد كما ذكر ابن كثير، والنسائي في «السنن» (٦/ ٦٧)، والقاضي ابن العربي، وابن الجوزي في «التذكرة» (٢/ ٢٧٢)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٣٢/ ١١٦)، والعراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٢/ ٣٧)، وأشار الشوكاني إلىٰ ضعفه في «السيل الجرار» (٢/ ٢٩٦).
والراجح مع الذين ضعَّفوه فهم أعلىٰ رتبة في معرفة علل الحديث، ولأن الذين صححوه إنما صححوا بعض أسانيده ولم يتعرضوا لنكارة المتن، ومع ذلك فالراجح المرسل؛ لأن كل الذين رووه إنما رووه مرسلًا إلا حماد بن سلمة فقد اختلف عليه فيه، فرواه عنه النضر بن شميل موصولًا، وهو الذي حكم عليه ابن كثيرٍ بأنه إسناد علىٰ شرط مسلم، ونقل عن النسائي قوله: هذا خطأ والصواب أنه مرسل.
قلت: ما ذهب إليه النسائي هو الراجح؛ لأن يزيد بن هارون رواه عن حماد مرسلًا، ويزيد يقدم في الحفظ علىٰ النضر بن شميل.
وأما الرواية الثانية التي ذكرها ابن كثيرٍ من طريق الحسين بن واقد، وقال: وهذا إسنادٌ جيدٌ، فالجواب أن الحسين بن واقد وإن كان صدوقًا فإنه لا يصح تفرده، وقد تفرد بهذه الرواية فالإسناد لا يصح.

كتاب «الطلاق» عن إسحاق بن راهويه، عن النضر بن شُمَيل عن حماد بن سلمة، عن هارون بن رئاب، عن عبد الله بن عُبَيد بن عمير، عن ابن عبَّاس مسندًا، [فهذا][١] بهذا الإسناد رجاله على شرط مسلم، إلا أنَّ النسائي بعد روايته له قال: «وهذا خطأ، والصواب مرسل» ورواه غير النضر على الصواب[٢].

وقد رواه النسائي أيضًا وأبو داود، عن الحسين بن حُرَيث، أخبرنا الفضل بن موسىٰ، أخبرنا الحسين بن واقد، عن عُمَارة بن أبي حفصة، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ فذكره. وهذا إسنادٌ جيدٌ[٣].

وقد اختلف النَّاس في هذا الحديث ما بين مُضَعِّفٍ له كما تقدَّم عن النسائي، وكما قال الإمام أحمد: هو حديث منكر.

وقال ابن قتيبة: إنَّما أراد أنَّها سخيَّةٌ لا تمنع سائلًا. وحكاه النَّسائي في «سننه»، عن بعضهم فقال: وقيل: «سخيَّة تُعْطِي» ورُدَّ هذا بأنَّه لو كان المراد لقال: لا تَرُدُّ يد مُلْتَمِسٍ.

وقيل: المراد أن سجيتها لا تَرُدُّ يد لامسٍ، لا أن المراد أنَّ هذا واقعٌ منها وأنَّها تفعل الفاحشة[٤]؛ فإنَّ رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة مَن هذه صفتها. فإن زوجها -والحالة هذه- يكون دَيُّوثًا، وقد تقدَّم الوعيد علىٰ ذلك. ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعةٌ ولا مخالفةٌ لِمَن أرادها لو خلا بها أحدٌ، أمره رسولُ ﷺ بفراقها. فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها؛ لأنَّ محبته لها محققةٌ، ووقوع الفاحشة منها متوهَّم[٥] فلا يُصَار إلىٰ الضَّرر العاجل لتوهم الآجل، والله ﷻ أعلم.

قالوا: فأمَّا إذا حصلت توبةٌ فإنَّه يحل التَّزويج، كما قال الإمام أبو محمَّد بن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدَّثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدَّثنا أبو خالد، عن ابن أبي ذِئْب، قال: سمعت [شعبة][٦] -مولىٰ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما- قال: سمعت ابن عبَّاسٍ وسأله رجلٌ قال: إنِّي كنت أُلِمُّ بامرأةٍ آتي منها ما حَرَّم الله ﷻ عليَّ، فرزق الله ﷻ مِن ذلك توبة، فأردت أن أتَزَوَّجَهَا، فقال أناسٌ: إنَّ الزاني لا ينكح إلا زانيةً. فقال ابن عبَّاسٍ: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إِثْمٍ فعليَّ[٧].

وقد ادعىٰ طائفةٌ آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة.

---

(١) في (ز): (فذكره).

(٢) وهو يزيد بن هارون فقد رواه عن حماد بن سلمة مرسلًا، رواه النسائي في «المجتبىٰ» (٦/ ٦٧)، وفي «الكبرىٰ» (٣/ ٢٧٠).

(٣) أبو داود (٢٠٤٩)، والنسائي (٦/ ١٦٩)، وهذه الرواية صححها غير واحدٍ، وضعفها آخرون لتفرد الحسين بن واقدٍ به عن عمارة بن أبي حفصة، والحسين بن واقد خلاصة القول فيه: أنه صدوق ولا يحتمل تفرده، وقد تفرد بهذه الرواية، فالراجح ضعفها.

(٤) راجع كلام الصنعاني الذي نقلناه قريبًا.

(٥) لوحة (٢٨ أ). (٦) سقط من (ز).

(٧) ضعيف: رواه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٧٢)، ورواه الطبري (١٨/ ٧٢) نحوه، وفيه شعبة مولىٰ ابن عباس: صدوق سيئ الحفظ، والأثر رواه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٩) وزاد عزوه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم (١٤١٢٠).

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيدٍ الأشج، حدَّثنا أبو خالد، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب. قال: ذُكر عنده ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال: كان يقال: نسختها الآية التي بعدها: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] قال: كان يقال: الأيامىٰ من المسلمين [(١)].

وهكذا رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له، عن سعيد بن المسيب. ونصَّ علىٰ ذلك أيضًا الإمام أبو عبد الله محمَّد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلًا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا، ليس في هذا نزاعٌ بين العلماء. فأمَّا إن أقام القاذف بيِّنةً علىٰ صحَّة ما قاله رُدَّ عنه الحد؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾، فأوجب علىٰ القاذف إذا لَمْ يُقِم بينة علىٰ صحة ما قاله ثلاثة أحكام:

أحدها: أن يُجْلَدَ ثمانين جلدةً.

الثَّاني: أنه تُرَدُّ شهادته دائمًا.

الثَّالث: أن يكون فاسقًا ليس بعدلٍ، لا عند الله ولا عند النَّاس.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ [(٢)] بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، اختلف العلماء في هذا الاستثناء: هل يعود إلىٰ الجملة الأخيرة فقط فترْفَعُ التوبةُ الفسقَ فقط، ويبقىٰ مردود الشهادة دائمًا وإن تاب، أو يعود إلىٰ الجملتين الثانية والثالثة؟ وأمَّا الجلد فقد ذهب وانقضىٰ، سواء تاب أو أَصَرَّ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف؛ فذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلىٰ أنَّه إذا تاب قُبِلَتْ شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق. ونَصَّ عليه سعيد بن المسيب -سيد التابعين- وجماعة من السَّلف أيضًا.

وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلىٰ الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبةِ، ويبقىٰ مردود الشهادة أبدًا. وممن ذهب إليه من السلف القاضي شُرَيح، وإبراهيم النَّخَعِيُّ، وسعيد بن جُبَيْر، ومكحول، [وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر] [(٣)].

---

(١) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١٤١٣٤)، ورواه ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (ص٤٠٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٥)، وهو مرسل؛ لأنه لم يرفعه، وإن كان الإسناد إليه صحيحًا، لكن لا يجوز الاحتجاج بالمرسل.

(٢) لوحة (٢٨ ب).

(٣) في (ز): (عبد الرحمن بن زيد بن جابر)، وهو خطأ، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال عنه ابن المديني: (يعد في الطبقة الثانية من فقهاء أهل الشام بعد الصحابة). ووقع في بعض النسخ: (عبد الرحمن بن زيد بن جابر)، و(عبد الرحمن بن زيد بن أسلم) وكلاهما خطأ.

وقال الشعبي والضَّحَّاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلَّا أن يعترف على نفسه بأنَّه قد قال البُهْتَان، فحينئذٍ تقبل شهادته، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ(١) وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها فَرَج للأزواج وزيادة مخرجٍ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسَّر عليه إقامة البيِّنة، أن يُلَاعِنَهَا، كما أمر الله ﷻ وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء، ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فيما رماها به من الزِّنا، ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فإذا قال ذلك، بَانَت منه بنفس هذا اللِّعان عند الشَّافعي وطائفة كثيرةٌ من العلماء، وحُرِّمَت عليه أبدًا، ويُعْطِيها مهرها، ويتوجه عليها حَدُّ الزِّنا، ولا يدرأُ عنها [العذاب](٢) إلا أن تُلاعِن، فتشهد أربع شهاداتٍ بالله إنَّه لمن الكاذبين؛ أي: فيما رماها به ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٣)﴾ ولهذا قال: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يعني: الحد، ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فخصها بالغضب، كما أنَّ الغالب أنَّ الرجل لا يَتَجَشَّم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادقٌ معذورٌ، وهي تعلم صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها. والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يَحِيدُ عنه.

ثم ذكر تعالىٰ لُطفَه بخلقه، ورأفته بهم، وشرعه لهم الفَرَجَ والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضِّيق، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: لحرجتم ولشق عليكم كثيرٍ مِن أموركم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ أي: علىٰ عباده -وإن كان [ذلك](٤) بعد الحلف والأيمان المغلظة- ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهىٰ عنه.

وقد وردت الأحاديث بمقتضىٰ العمل بهذه الآية، وذكر سبب نزولها، وفيمن نزلت [فيه](٥) من

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من فوائدها: عموم الآية ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ يشمل ما قبل الدخول وما بعد الدخول، فلو عقد علىٰ امرأةٍ ثم رماها بالزنا أُجرِي بينهما اللعان؛ لأنها زوجته.

والصحيح من أقوال أهل العلم: أنه لا يحدُّ بقذف الرجل ولو عينه، لكن لا ينبغي مثل هذا؛ لأجل ألَّا يدنس عرضه، فالأولىٰ أن يقول: إنها زنت، ولا يُعيِّن، لكن لو عيَّن فإن السنة تدل علىٰ أنه لا يُحَدُّ للرجل، السبب في ذلك هو أن الأصل هنا أن المقصود قذف الزوج للزوجة، وليس الرجل الأجنبي، وما عيَّن الرجل إلا زيادة في إثبات قذف الزوجة.

(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٢٩ أ).
(٤) سقط من (ز).
(٥) سقط من (ز).

الصحابة، فقال الإمام أحمد:

حدَّثنا يزيد، أخبرنا عبَّاد بن منصور، عن عكْرِمَة، عن ابن عبَّاسٍ قال: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾، قال سعد بن عبادة -وهو سيد الأنصار-: هكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ؟» قالوا: يا رسول الله، لا تَلُمه فإنه رجلٌ غيورٌ، والله ما تزوج امرأةً قطُّ [إلا بكرًا، وما طلَّق امرأةً له قطُّ][(١)] فاجترأ رجلٌ منَّا أن يتزوَّجها، مِن شدَّة غيرته. فقال سعد: والله -يا رسول الله- إني لأعلم أنَّها حقٌّ وأنَّها من الله، ولكني قد تعجَّبْت أنِّي لو وجدت لَكَاعًا[(٢)] قد تَفَخَّذها رجلٌ، لم يكن لي أن أُهيِّجه ولا أُحَرِّكه حتىٰ آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتىٰ يَقْضِي حاجته. قال: فما لبثوا إلا يسيرًا حتىٰ جاء هلال بن أمية -وهو أحد الثلاثة الذين تِيبَ عليهم[(٣)] - فجاء مِن أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلًا فرأىٰ بعينيه، وسمع بأُذُنَيْه، فلم يُهَيِّجه حتىٰ أصبح، فغدا علىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي جئت أهلي عشاء، فوجدتُّ عندها رجلًا فرأيت بعيني، وسمعت بأذني. فكَرِهَ رسولُ الله ﷺ ما جاء به، واشتدَّ عليه، واجتمعت الأنصار فقالوا[(٤)]: قد ابتلينا بما قال سعد بن[(٥)] عبادة، الآن يَضْرِب رسول الله ﷺ هلالَ بن أمية، ويُبْطِل شهادته في المسلمين[(٦)]. فقال هلال: والله إنِّي لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا. وقال هلال: يا رسول الله، إنِّي قد أرىٰ ما اشتدَّ عليك مما جئتُ به، والله يعلم إنِّي لصادقٌ. فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، [إذ][(٧)] أنزل الله علىٰ رسول الله ﷺ الوحي -وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك، في تَرَبُّد وجهه[(٨)]. يعني: فأمسكوا عنه حتىٰ فرغ من الوحي- فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ الآية، فَسُرِّي عن رسول الله ﷺ، فقال: «أَبْشِرْ يَا هِلَالُ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا». فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي ﷻ، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْسِلُوا إِلَيْهَا». فأرسلوا إليها، فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما، وذكرهما وأخبرهما أنَّ عذابَ الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله -يا رسول الله- لقد صَدَقْتُ عليها. فقالت: كذب. فقال رسول الله ﷺ: «لَاعِنُوا بَيْنَهُمَا». فقيل لهلال: اشهد. فشهد أربع شهاداتٍ بالله إنَّه لمن الصادقين، فلمَّا كان في الخامسة قيل له: يا هلال، اتَّق الله، فإنَّ عذاب الدُّنيا

---

(١) سقط من (ز).
(٢) اللكاع: الحمقاء، ويقال للرجل أيضًا: لُكَع، وغالب ما يستعمل (لكع) في النداء.
(٣) وقد مرت قصتهم في سورة التوبة.
(٤) في (ز): (فقال)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٥) لوحة (٢٩ ب).
(٦) في (ز): (في الناس)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٧) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٨) أي: تغير لونه إلىٰ الرُّبْدة، وهي حمرة فيها سواد عند الغضب.

أهونُ من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبةُ التي توجب عليك العذاب. فقال: والله لا يُعَذِّبُنِي الله عليها، كما لم يجلدني عليها. فشَهِدَ في الخامسة أنَّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم قيل لها: [اشهدي أربع شهادات بالله إنَّه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسة قيل لها:] (١) اتقي الله، فإنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبةُ التي توجب عليك العذاب. فتلكَّأت ساعة، ثم قالت: والله لا أفضح قومي فشَهِدَت في الخامسة أنَّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما، وقضىٰ ألا يُدْعَىٰ ولدها لأبٍ ولا يرمىٰ ولدها، ومَن رماها أو رمىٰ ولدها فعليه الحَد، وقضىٰ ألا [بيت لها عليه ولا] (٢) قوتَ لها، مِن أجل أنَّهما يتفرقان من غير طلاق، ولا مُتَوَفَّىٰ عنها. وقال: «**إِنْ جَاءَتْ بِهِ أُصَيْهِبَ أُرَيْسِحَ حَمْشَ السَّاقَيْنِ** (٣) **فَهُوَ لِهِلَالٍ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْدًا** (٤) **جَمَالِيًّا خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ سَابِغَ** (٥) **الأَلْيَتَيْنِ، فَهُوَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ**» فجاءت به أورق جعدًا جماليًّا خَدلَّج الساقين سابغ الأَلْيَتين، فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْلَا الأَيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ**». قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميرًا علىٰ مصر، وكان يدعىٰ لأمه ولا يدعىٰ لأب (٦).

ورواه أبو داود عن الحسن بن عليٍّ، عن يزيد بن هارون، به نحوه مختصرًا.

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في «الصحاح» وغيرها من وجوهٍ كثيرةٍ. فمنها ما قال البخاري: حدَّثني محمَّد بن بَشَّار، حدَّثنا ابن أبي عَدِيّ، عن هشام بن حسان، حدَّثني عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاسٍ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النَّبيِّ ﷺ بشَرِيك بن سَحْماء، فقال رسول الله ﷺ: «**الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**» فقال: يا رسول الله، إذا أُرِيَ أحدُنا علىٰ امرأته رجلًا ينطلقُ يلتمس البيِّنة؟ فجعل (٧) النَّبيُّ ﷺ يقول: «**الْبَيِّنَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**». فقال هلال: والذي بعثك بالحق إنِّي لصادقٌ، ولَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبرئ ظهري من الحدِّ. فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، فقرأ حتىٰ بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فانصرف النَّبيُّ ﷺ فأرسل إليهما، فجاء هلال فشَهِدَ، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**اللهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ**»؟ ثم قامت فشَهِدَت، فلمَّا كانت عند الخامسة وَقَّفُوها وقالوا: إنَّها مُوجبةٌ. قال ابن عبَّاس: فتَلَكَّأت ونكصت حتىٰ ظنَنَّا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت، فقال النَّبيُّ ﷺ:

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند». (٢) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) أصيهب: تصغير أصهب، وهو الذي تعلو لونه صهبة، وهي كالشقرة، وأريسح: تصغير أرسح، وهو الذي لا عجز له، وحَمْش: دقيق الساقين.

(٤) الأورق: الأسمر، والوُرْقة: السُّمْرة، وجعدًا: جعد الشعر، وهو ضد السبط المسترسل، وجَماليًّا: الضخم الأعضاء، التام الأوصال، والخدلج: عظيم الساقين.

(٥) لوحة (٣٠ أ). (٦) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٣٨)، وأبو داود (٢٢٥٦).

(٧) في (ز): (فقال).

«أَبْصِرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ العَيْنَيْنِ، سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ». فجاءت به كذلك، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لَوْلا مَا مَضَىٰ مِنْ كِتَابِ اللهِ، لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»(١).

انفرَدَ به البخاري من هذا الوجه وقد رواه من غير وجهٍ، عن ابن عبَّاسٍ وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن منصور الرَّمادي، حدَّثنا يونس بن محمَّد، حدَّثنا صالح -وهو ابن عمر- حدَّثنا عاصم -يعني: ابن كُلَيب-، عن أبيه، حدَّثني ابن عبَّاسٍ قال: جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله، فرمَىٰ امرأته برجل، فكرِهَ ذلك رسولُ الله ﷺ، فلم يزل يُردِّده حتىٰ أنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ [فقرأ](٢) حتىٰ فرغ من الآيتين، فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ فِيكُمَا». فدعا الرَّجل فقرأ عليه، فشَهِدَ أربع شهاداتٍ بالله(٣) إنَّه لمن الصادقين. ثُمَّ أمر به فأمسك علىٰ فِيهِ فوعظَهُ، فقال له: «كُلُّ شَيْءٍ أَهْوَنُ عَلَيْكَ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ». ثمَّ أرسله فقال: ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ثم دعا بها، فقرأ عليها، فشهدت أربع شهاداتٍ بالله إنَّه لمن الكاذبين، ثم أمر بها فأمسك علىٰ فيها فوعظها، وقال: «وَيْحَكِ. كُلُّ شَيْءٍ أَهْوَنُ مِنْ غَضَبِ اللهِ». ثم أرسلها، فقالت: ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا وَاللهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا قَضَاءً فَصْلًا». قال: فولدت، فما رأيت مولودًا بالمدينة [أكثر](٤) غاشية(٥) منه، فقال: «إِنْ جَاءَتْ بِهِ لِكَذَا وَكَذَا فَهُوَ كَذَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ لِكَذَا وَكَذَا فَهُوَ لِكَذَا». فجاءَتْ به يُشْبِه الذي قُذِفَت به(٦).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال: سمعت سعيد بن جُبَير قال: سُئلْتُ عن المتلاعنين أيفرَّق بينهما -في إمارة ابن الزبير-؟ فما دَرَيتُ ما أقول، فقمت من مكاني إلىٰ منزل ابن عمر فقلتُ: أبا عبد الرحمن، المتلاعنان أَيُفرَّق بينهما؟ فقال: سبحان الله، إنَّ أوَّل من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال: يا رسول الله، أرأيت الرَّجل يرىٰ امرأتَهُ علىٰ فاحشةٍ فإن تكلَّم تكلَّم بأمرٍ عظيمٍ، وإن سكت سكت علىٰ مثل ذلك. فسَكَتَ فلم يُجِبْه، فلمَّا كان بعد ذلك أتاه فقال: الَّذي سألتُكَ عنه قد ابتُلِيتُ به. فأنزل الله ﷻ هذه الآيات في سورة النُّور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فبدأ بالرَّجُل فوعظه وذكَّره، وأخبره أن عذاب الدُّنيا أهونُ مِن عذاب الآخرة، فقال: والَّذي بعثك بالحق ما كَذَبْتُك. ثم ثَنَّىٰ بالمرأة فوعظها وذَكَّرها، وأخبرها أنَّ عذاب الدنيا أهون مِن عذاب الآخرة، فقالت: والَّذي بعثك بالحق إنَّه لكاذبٌ. قال: فبدأ بالرجل، فشهد أربع شهاداتٍ بالله إنَّه

(١) البخاري (٢٦٧٣، ٤٧٤٧، ٥٣٠٧).
(٢) ليست في (ز).
(٣) لوحة (٣٠ ب).
(٤) سقط من (ز).
(٥) الغاشية: القوم الحضور.
(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٤١٨٣)، وهو شاهد للأحاديث المذكورة في الباب.

لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم ثَنَّىٰ بالمرأة فشهدت أربع شهاداتٍ بالله إنَّه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم فَرَّقَ بينهما.

رواه النَّسائي في «التفسير»، من حديث عبد الملك بن أبي سليمان به، وأخرجاه في «الصَّحيحين» من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس (١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن حماد، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن (٢) الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كنَّا جلوسًا عشيَّة الجمعة في المسجد، فقال رجلٌ من الأَنْصَار: أحدنا إذا رأىٰ مع امرأته رجلًا فقتله قتلتموه، وإن تكلَّم جلدتموه، وإن سكتَ سكتَ عن غيظ؟ والله لَئِن أصبحت صالحًا لأسألن رسول الله ﷺ. قال: فسأله. فقال: يا رسول الله، إنَّ أحدنا إذا رأىٰ مع امرأته رجلًا فقتله قتلتموه، وإن تكلَّم جلدتموه، وإن سكت سكت علىٰ غيظٍ؟ اللَّهمَّ احكم. قال: فأنزل آية اللِّعان، فكان ذلك الرَّجل أوَّل مَن ابْتُلِيَ به (٣).

انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من طُرُق، عن سليمان بن مِهْران الأعمش به.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو كامل: حدَّثنا إبراهيم بن سعد، حدَّثنا ابن شهابٍ، عن سهل بن سعد، قال: جاء عُوَيْمر إلىٰ عاصم بن عَدِيٍّ فقال: سَلْ رسول الله ﷺ: أرأيت رجلًا وجد رجلًا مع امرأته فقتله، أَيُقْتَل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فعابَ رسول الله ﷺ المسائل. قال: فَلَقِيَه عُويمر فقال: ما صنعْتَ؟ قال: ما صنعت! إنَّك لم تأتني بخيرٍ؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل فقال عُويمر: [والله] (٤) لآتين رسول الله ﷺ فَلَأَسْأَلَنَّه. فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما. قال: فدعا بهما فَلاعَنَ بينهما. قال عُويمر: لئن انطلقتُ بها يا رسول الله لقد كذبت عليها. قال: ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ فصارت سنة المُتَلَاعِنَين، فقال رسول الله ﷺ: «**أَبْصِرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ أَدْعَجَ (٥) العَيْنَيْنِ، عَظِيم الأَلْيَتَيْنِ، فَلَا أُرَاهُ إِلَّا قَدْ صَدَقَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرُ كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ (٦) فَلَا أُرَاهُ إِلَّا كَاذِبًا**». فجاءت به علىٰ النَّعت المكروه (٧).

---

(١) البخاري (٥٣١٢)، ومسلم (١٤٩٣) من حديث ابن عباس، ورواه أحمد (٢/ ١٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٣٥٧) من حديث ابن عمر بسند صحيح.

(٢) لوحة (٣١ أ).

(٣) مسلم (١٤٩٥)، وأحمد (١/ ٤٢١).

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٥) الأسحم: الأسود، والأدعج: شديد سواد العينين.

(٦) الوَحَرة: دويبة تلزق بالأرض.

(٧) البخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (١٤٩٢)، وأبو داود (٢٢٤٥)، والنسائي (٦/ ١٤٣)، وابن ماجة (٢٠٦٦).

أخرجاه في «الصحيحين» وبقيَّة الجماعة إلا الترمذي، من طرق، عن الزهري به.

[ورواه البخاري أيضًا من طرق عن الزهري به، فقال: حدَّثنا سليمان بن داود أبو الربيع، حدَّثنا فليح، عن الزهري، عن سهل بن سعد، أنَّ رجلًا أتىٰ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله! أرأيت رجلًا رأىٰ مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فأنزل الله تعالىٰ فيهما ما ذكر في القرآن من التَّلاعن، فقال له رسول الله ﷺ: «قَدْ قُضِيَ فِيكَ وَفِي امْرَأَتِكَ» قال: فتلاعنا وأنا شاهدٌ عند رسول الله ﷺ ففارقها، فكانت سُنَّة أن يفرق بين المتلاعنين، وكانت حاملًا فأنكر حملها وكان ابنها يدعىٰ إليها، ثمَّ جرت السُّنَّة في الميراث أن يرثها وتَرِثَ منه ما فرض الله لها (١).] (٢)

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا إسحاق بن الضيف، حدَّثنا النضر بن شُمَيْل، حدَّثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن زيد بن يُثَيْع، عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لَوْ رَأَيْتَ مَعَ أُمِّ رُومَانَ رَجُلًا مَا كُنْتَ فَاعِلًا بِهِ؟» قال: كنت والله فاعلًا به شرًّا. قال: «فَأَنْتَ يَا عُمَرُ؟». قال: كنتُ والله فاعلًا، كنت أقول: لعن الله الأعجز، وإنَّه خبيثٌ. قال (٣): فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾.

ثم قال: لا نعلم أحدًا أسنده إلا النَّضر بن شُميْل، عن يونس بن أبي إسحاق، ثم رواه من حديث الثوري عن أبي (٤) إسحاق، عن زيد بن يُثَيْع مرسلًا (٥)، فالله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا مسلم بن أبي مسلم الجَرْمي، حدَّثنا مَخْلَدُ بن الحسين، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك ﷺ قال: لأول لعان كان في الإسلام أن شَرِيكَ بن سَحْمَاء قذفه هلال ابن أمية بامرأته، فرفعه إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعَةُ شُهُودٍ وَإِلَّا فَحَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: يا رسول الله، إن الله يعلم إني لصادقٌ، ولينزلن الله عليك ما يبرئ به ظهري من الجلد. فأنزل الله آية اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ إلىٰ آخر الآية. قال: فدعاه النَّبيُّ ﷺ فقال: «اشْهَدْ بِاللهِ إِنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَيْتَهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا» فشهد بذلك أربع شهاداتٍ، ثم قال له في الخامسة: «وَلَعْنَةُ اللهِ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَيْتَهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا» ففعل. ثم دعاها (٦) رسول الله ﷺ فقال: «قُومِي فَاشْهَدِي بِاللهِ

---

(١) البخاري (٤٧٤٦).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٣) لوحة (٣١ ب).
(٤) في بعض النسخ: (أبي أبي إسحاق)، وهو خطأ.
(٥) رواه البزار (٢٢٣٧ - كشف) ورجاله ثقات غير أن شيخ البزار وهو إسحاق بن الضيف: صدوق يخطئ، ولم يتابعه أحدٌ فيما أعلم؛ فالإسناد ضعيف. وثَمَّ علةٌ أخرىٰ: فيه أبو إسحاق مدلس وقد عنعن، وقد رواه عنه الثوري مرسلًا وهو أصح من رواية يونس بن أبي إسحاق.
(٦) في (ز): ثم رماها.

إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاكِ بِهِ مِنَ الزِّنَا». فشهدت بذلك أربع شهاداتٍ، ثم قال لها في الخامسة: «وَغَضَبُ اللهِ عَلَيْكِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَاكِ بِهِ مِنَ الزِّنَا»، فقالت: فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتةً، حتىٰ ظنُّوا أنَّها ستعترف، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت علىٰ القول، ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما، وقال: «انْظِرُوهُ[١]، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ جَعْدًا حَمْشَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَبْيَضَ سَبْطًا قَصِيرًا قَضِيءَ[٢] العَيْنَيْنِ فَهُوَ لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ». فجاءت به آدَمَ جَعْدًا حَمْش الساقين، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْلا مَا نَزَلَ فِيهِمَا مِنْ كِتَابِ اللهِ، لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ[٤] لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

هذه العشر الآيات[٥] كلُّها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين ؓ حين رماها أهل الإفك والبُهْتَان من المنافقين بما قالوه من الكَذِبِ[٦] البَحْتِ والفِرْيَة الَّتي غار الله تعالىٰ لها ولِنَبِيِّه -صلوات الله وسلامه عليه- فأنزل الله ﷻ براءتها صيانةً لعِرْض الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة منكم؛ يعني: ما هو واحدٌ ولا اثنان بل جماعةٌ، فكان المقدَّم في هذه اللَّعنة عبد الله بن أُبَيِّ ابن سلول رأس المُنَافِقِين، فإنَّه كان يجمعه ويَسْتَوْشِيهِ، حتىٰ دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلَّموا به، وَجوَّزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريبًا مِن شهر، حتَّىٰ نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصَّحيحة.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن الزُّهري قال: أخبرني سعيد بن المسيَّب، وعُرْوَة بن الزُّبير، وعلقمة بن وقَّاص، وعُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله، وكلُّهم قد حدَّثني بطائفةٍ من حديثها، وبعضهم

---

(١)عند أبي يعلىٰ: (انْظُرُوا).

(٢)سبطًا -هنا-: أي ممتدَّ الأعضاء تامَّ الخَلْق. وقَضِيء: فاسد العين.

(٣)مسلم (١٤٩٦) وليس فيه التصريح بسبب النزول، وأبو يعلىٰ (٢٨٢٤)، والنسائي (٥٦/ ١٧٢) وسنده صحيح.

(٤) **قال الشيخ أبو بكر الجزائري** ؒ: هذا كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، والإفك: الكذب الخالص الذي لا شبهة فيه، يفاجأ به المرء فيبهته فيصير بهتانًا، وهو مشتقٌّ من الأَفك بفتح الهمزة، وهو القلب، ومن صوره أن يقال في الصادق: كاذب، والطاهر: خبيث ونحو ذلك.

(٥) يشير الحافظ ابن كثير ر بهذه العبارة إلىٰ الآيات الواردة في شأن «قصة الإفك» بدءًا من هذه الآية، وجميع النسخ الخطية ـ التي بين أيدينا ـ اقتصرت في هذا الموضع علىٰ وضع الآية الحادية عشرة فحسب مع ذكر هذه العبارة للحافظ ابن كثير ؒ.

(٦)لوحة (٣٢أ).

كان أوعىٰ لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصًا، وقد وَعَيْتُ عن كل واحدٍ [منهم][(١)] الحديث الذي حدَّثني، [وبعض حديثهم][(٢)] يصدق بعضًا:

ذكروا أنَّ عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يَخْرُجَ سَفَرًا أقرع بين نسائه، فأَيَّتُهُنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها، فخرج فيها سَهْمِي، وخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أُنْزِل الحجابُ، فأنا أُحْمَل في هَودَجي وأنزل فيه مسيرنا[(٣)]، حتىٰ إذا فرغ رسول الله ﷺ من غَزْوه وقفل ودَنَوْنَا من المدينة، آذن ليلةً بالرَّحيل، فقمت حين آذنوا بالرَّحيل، فمشيت حتىٰ جاوزت الجيش، فلمَّا قضيت شأني أقبلت إلىٰ الرَّحل فلَمَسْتُ صدري، فإذا عِقْد من جَزْع ظَفَار[(٤)] قد انقطع، فرجعت فالتمست عِقْدِي، فحَبَسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي فرحلوه علىٰ بعيري الذي كنت أركب -وهم يحسبون أني فيه- قالت: وكان النِّساء إذ ذاك خفافًا لم يُهَبِّلْهُنَّ[(٥)] ولم يغشهن اللَّحمُ، إنَّما يأكلن العُلْقَة[(٦)] من الطَّعام. فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين[(٧)] رحلوه ورفعوه، وكنت جارية[(٨)] حديثة السِّنِّ، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عِقْدِي بعد ما استمر الجيش، فجِئْتُ منازلهم ولَيْسَ بها دَاعٍ ولا مجيبٌ، فتَيَمَّمْت منزلي[(٩)] الذي كنت فيه، وظننت [أن القوم][(١٠)] سَيَفْقِدُونِي فيرجعون إليَّ.

فبينا أنا جالسةٌ في منزلي، غلبتني عيني فنمت -وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذَّكْوَانِي قد عَرَّس من وراء الجيش- فادَّلج[(١١)] فأصبح عند منزلي، فرأىٰ سواد إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني حين رآني. وقد كان يراني قبل أن يُضْرَب عليَّ الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[(١٢)] حين عرفني، فخَمَّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمةً، ولا سمعت منه كلمةً غيرَ استرجاعه، حين أناخ راحلته، فَوَطِئَ علىٰ يَدها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلة حتىٰ أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغِرِين في نحر الظهيرة[(١٣)].

فهلك مَن هلك في شأني، وكان الَّذِي تولَّىٰ كِبْره عبد الله بن أبي ابن سلول. فَقَدمتُ المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرًا، والنَّاس يُفيضُون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يَرِيبُنِي في وجعي أنِّي لا أعرف مِن رسول الله ﷺ اللُّطْف[(١٤)] الَّذي كنت أرىٰ منه حين أشتكي، إنما يدخل

---

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».
(٢) في (ز): (وبعضهم).
(٣) في (ز): (فسرنا). والمثبت موافق لما في «المسند».
(٤) **الجزع**: الخرز، وظَفار: مدينة لحمير باليمن.
(٥) أي: لم يكثر عليهن.
(٦) **العُلْقة**: الشيء اليسير.
(٧) في (ز): حتىٰ.
(٨) لوحة (٣٢ ب).
(٩) أي: قصدته وتوجهت إليه.
(١٠) في (ز): (أنهم).
(١١) **الإدلاج**: السير من آخر الليل.
(١٢) أي: بقوله: (إنا لله وإنا إليه راجعون).
(١٣) أي: وقت الهاجرة، وقت توسط الشمس السماء، يقال: وغرت الهاجرة وغرًا، وأوغر الرجل: دخل في ذلك الوقت.
(١٤) **اللطف** - بفتح اللام والطاء، وبضم فسكون: الرفق والبر.

رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» فذلك يَرِيبني ولا أشعر بالشر، حتىٰ خرجت بعدما نَقَهْت[١] وخَرَجَت معي أم مِسطَح قِبَلَ المناصع -وهو مُتبَرَّزُنا- ولا نخرج إلا ليلًا إلىٰ ليل، وذلك قبل أن نَتَّخذَ الكُنُف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأوَّل في التَّنَزُّه[٢]، وكنَّا نتأذىٰ بالكُنُف أن نتخذها في بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسْطَح -وهي ابنة أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف[٣]، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسْطَح بن أثاثة بن عَبَّاد بن المطلب[٤]- فأقبلت أنا وابنة أبي رُهْم قِبَلَ بيتي حين فرغنا مِن شأننا، فعَثَرَت أُمُّ مسْطحٍ في مِرْطها[٥] فقالت: «تَعِس مسْطح». فقلت لها: بئسما قلت، تسبِّين رجلًا [قد][٦] شهد بدرًا؟ قالت: أي هَنْتاه[٧]، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُّ مرضًا إلىٰ مرضي. فلما رجعتُ إلىٰ بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلَّم، ثم قال: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» قلت: أتأْذَن لي أن آتي أبويَّ؟ -قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أَتيقَّن الخبر[٨] مِن قِبَلِهما- فأذنَ لي رسول الله ﷺ، فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أمَّتاه، ما يتحدث النَّاس؟ فقالت: أيْ بُنَية هَوِّني عليك، فوالله لقلَّما كانت امرأةٌ قَطُّ وضيئَةً، عند رجلٍ يُحِبُّها، ولها ضرائر إلا أكثَرْنَ عليها. قالت: [فقلتُ:][٩] سبحان الله أَوَقَد تحدَّث الناس بهذا[١٠]؟

قالت: فبَكَيْت تلك الليلة حتىٰ أصبحت، لا يَرْقَأ لي دمع[١١] ولا أَكْتَحِلُ بنَومٍ، ثم أصبحت أبكي. فدعا رسول الله ﷺ عَلِيًّا وأسامة بن زيد حين اسْتَلْبَثَ الوحيُ[١٢]، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأمَّا أسامة بن زيد فأشار علىٰ رسول الله ﷺ بالَّذي يعلمُ مِن براءة أهله، وبالَّذي يَعْلَم في نفسه له مِن الوُدِّ، فقال: يا رسول الله، هُم أَهْلُكَ، ولا نعلم إلا خيرًا. وأمَّا عَلِيُّ بن أبي طالبٍ فقال: لم يُضَيِّق الله عليك، والنِّساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تَصْدُقك الخبر. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ؟» فقالت [له][١٣] بريرة: والذي بعثك بالحق إنْ رَأَيْتُ عليها أمرًا قَطُّ أغمصُه[١٤] عليها، أكثر من أنَّها جاريةٌ حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدَّاجِن[١٥] فتأكله، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سَلُول. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو علىٰ

---

(١) أي: برأتُ وأفقتُ.
(٢) أي: التباعد عن الروائح الكريهة.
(٣) في (ز): (المطلب بن عبد المطلب).
(٤) في (ز): (عباد بن عبد المطلب)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٥) المِرْط: الكساء.
(٦) سقط من (ز).
(٧) أي: يا هذه.
(٨) لوحة (٣٣أ).
(٩) سقط من (ز).
(١٠) في (ز): (بها).
(١١) أي: لا ينقطع.
(١٢) أي: أبطأ وتأخر.
(١٣) سقط من (ز).
(١٤) أي: أعيبها به، وأطعن به عليها.
(١٥) الدَّاجِن: الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.

المنبر: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي[(١)] مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا مَعِي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أَعْذِرُكَ منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا [من][(٢)] الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام سعد بن عبادة -وهو سيد الخزرج، وكان رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية[(٣)]- فقال لسعد بن معاذ: لَعَمْرُ الله لا تقتله ولا تقدر علىٰ قتله. فقام أُسَيد بن حُضير -وهو ابن عم سعد بن معاذ- فقال لسعد بن عبادة: كذبت! لعمر الله لَنَقْتُلَنَّه، فإنَّك منافقٌ تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيَّان الأوس والخزرج حتىٰ هَمُّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ [قائم علىٰ المنبر. فلم يَزَلْ رسول الله ﷺ][(٤)] يُخَفِّضهم حتىٰ سكتوا وسكت[(٥)] رسول الله ﷺ.

قالت: وبكيت يَوْمِي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظُنَّان أن البكاء فالق كبدي. قالت: فبَيْنَمَا هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنَت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن علىٰ ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسَلَّم ثم جلس -قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل [لي][(٦)] ما قيل، وقد لَبِثَ شهرًا لا يُوحَىٰ إليه في شأني شيء- قالت: فتَشَهَّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ ثُمَّ تُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ». قالت: فلما قضىٰ رسول الله ﷺ مقالته قَلَص دمعي[(٧)] حتىٰ ما أُحِسُّ منه قطرةً، فقلت لأبي: أجب عَنِّي رسول الله ﷺ. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت لأمي: أجيبي [عني][(٨)] رسول الله. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله.

قالت: فقلت -وأنا جارية حديثة السن، لا أحفظ كثيرًا من القرآن-: [إني][(٩)] والله لقد عرفت أنَّكم قد سمعتم بهذا، حتىٰ استقر في أنفسكم وصدَّقتم به، ولَئِن قلتُ لكم: إنِّي بريئةٌ والله يعلم أني بريئةٌ لا تُصَدِّقُوني [بذلك. ولَئِن اعترفت لكم بأمر والله ﷻ يعلم أني بريئةٌ تصدقوني،][(١٠)] وإني والله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: ثم تحوَّلْتُ فاضْطَجَعْتُ علىٰ فراشي، قالت: وأنا والله حينئذٍ أعلم أني بريئةٌ، وأنَّ الله مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن

(١) أي: من يقوم بعذري إذا كافأته بسوء صنيعه؟
(٢) سقط من (ز).
(٣) أي: الحمية لقومه وقرابته.
(٤) سقط من (ز).
(٥) لوحة (٣٣ ب).
(٦) سقط من (ز).
(٧) أي: ارتفع وذهب.
(٨) سقط من (ز).
(٩) سقط من (ز).
(١٠) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو موافق لما في «المسند».

والله ما كنت أظن أن يَنْزِل في شأني وحيٌ يُتْلَىٰ، ولشأني كان أحقرَ في نفسي مِن أن يتكلَّم الله فِيَّ بأمرٍ يُتْلَىٰ. ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ في النَّوم رُؤْيا يبرِّئُني الله بها. قالت: فوالله ما رام[١] رسول الله ﷺ من مجلسه، ولا خَرَج من أهل البيت أحد، حتىٰ أنزل الله علىٰ نَبِيِّه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء[٢] عند الوحي، حتىٰ إنَّه لينحدر منه مثل الجُمَان[٣] من العرق في اليوم الشاتي، من ثِقَل القول الذي أنزل عليه[٤]. قالت: فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يَضْحَك، كان أوَّل كلمةٍ تكلم بها أن قال: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ». فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ﷻ، هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ عشر آيات. فأنزل الله هذه الآيات في براءتي قالت: فقال أبو بكر ﵁ -وكان يُنْفِق علىٰ مِسْطَح لقرابته منه وفقره-: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: واللهِ إنِّي لأُحِبُّ أن يغفر الله لي، فَرجَّع إلىٰ مِسْطَح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبدًا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينبَ بنت جحشٍ زوجَ النَّبِيِّ ﷺ عن أمري: [«يَا زَيْنَبُ،][٥] مَا عَلِمْتِ، أَوْ مَا رَأَيْتِ [أَوْ مَا بَلَغَكِ»؟][٦] فقالت: يا رسول الله، أَحْمِي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيرًا. قالت عائشة: وهي التي كانت تُسَامِيني[٧] من أزواج النَّبِيِّ ﷺ، فعصَمَها الله تعالىٰ بالوَرَع. وطَفِقَت أختها حَمنة بنت جحش تحارب لها، فهَلَكَتْ فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا ما انتهىٰ إلينا مِن أمر هؤلاء الرَّهط[٨].

أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، مِن حديث الزهري. وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري كذلك، قال: وحدَّثني يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة. وحدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم.

ثم قال البخاري: وقال أبو أسامة، عن هشام بن عُرْوة قال: أخبَرَني أبي، عن عائشة ﵂ قالت: لما ذُكِرَ من شأني الذي ذُكر وما عَلمتُ به، قام رسولُ الله ﷺ فِيَّ خطيبًا، فتشهَّد فَحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي[٩]، وَايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي مِنْ سُوءٍ،

---

(١) أي: ما برح.
(٢) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي.
(٣) الجُمان: اللؤلؤ.
(٤) لوحة (٣٤ أ).
(٥) سقط من (ز).
(٦) ليست في (ز).
(٧) أي: تُعاليني وتُفاخِرني، وهو مُفاعَلة من السُّموِّ؛ أي: تُطاوِلُني في الحُظْوة عنده. «النهاية».
(٨) البخاري (٢٢٦١، ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤) والرواية الثانية عند البخاري (٤٧٥٧) تعليقًا بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير (١٨/ ٧٤) وإسناده صحيح.
(٩) أي: اتهموها.

وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ! وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي». فقام(١) سعد بن معاذ(٢) الأنصاري فقال: ائْذن يا رسول الله أن نضرب أعناقهم، فقام رجل من الخزرج -وكانت أمُّ حسَّان [بن ثابت](٣) من رهط ذلك الرجل- فقال: كَذَبْتَ، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببتَ أن تُضرب أعناقهم. حتىٰ كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شَرٌّ في المسجد، وما عَلمتُ. فلما كان مساء ذلك اليوم، خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح، فعَثَرتْ فقالت: تَعِسَ مسطح، فقلت: أيْ أمِّ، أَتسُبِّين [ابنك؟](٤) وسكتت، ثم عَثَرت الثَّانية فقالت: تَعِسَ مسطح. فقلت لها: أيْ أمِّ، تَسُبِّين ابنك؟ ثم عَثَرت الثالثة فقالت: تَعِسَ مِسْطح. فانتهرتها فقالت: والله ما أسبه إلَّا فيك، فقلت: في أيِّ شأني؟ قالت: فَبَقَرت(٥) لي الحديث. فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله. فَرَجعتُ إلىٰ بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلًا ولا كثيرًا، ووُعِكْتُ، وقلت لرسول الله ﷺ: أرسلني إلىٰ بيت أبي. فأرسل معي الغلام، فدخلتُ الدَّار، فوجدت أُمَّ رومان في السُّفل، وأبا بكرٍ فوق البيت يقرأ، فقالت لي أمي: ما جاء بك يا بُنَيَّة؟ فأخبرتها، وذكرتُ لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني، [فقالت: يا بُنَيَّة، خَفِّفي عليك الشَّأن؛ فإنه -والله- لَقَلَّما كانت امرأةٌ حسناء، عند رجل يُحِبُّها، لها ضرائر إلا حَسَدْنَهَا، وقيل فيها](٦) فقلت: وقد عَلِم به أبي؟ قالت: نعم. قلت: ورسولُ الله ﷺ؟ قالت: نعم، ورسول الله ﷺ. قالت: فاستَعْبَرْتُ(٧) وبكيت، فسمعَ أبو بكر صوتي، وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأمي: ما شَأْنُها؟ قالت: بلغها الذي ذُكر من شأنها. ففاضت عيناه وقال: أقسمت عليك -أيْ: بُنَيَّة- إلا رجعت إلىٰ بيتك فَرجعتُ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي، فسأل عني خادمتي فقالت: لا والله ما علمت عليها عيبًا، إلا أنَّها كانت ترقد حتىٰ تدخل الشَّاة فتأكل خَميرها -أو: عَجِينَهَا- وانتهرها بعض أصحابه فقال: اصدُقي رَسُولَ الله ﷺ حتىٰ أسقطوا(٨) لها به، فقالت: سبحان الله. والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصَّائغ علىٰ تِبْر الذَّهب الأحمر. وبلغ الأمر ذلك الرجلَ الذي قيل له(٩)، فقال: سبحان الله. والله ما كَشَفت كَنَف(١٠) أُنْثَىٰ قطُّ -قالت عائشة: فقُتِلَ شهيدًا في سبيل الله- قالت: وأَصْبَح

---

(١) لوحة (٣٤ ب). (٢) في (ز): (سعد بن عبادة)، وهو خطأ.
(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز). (٥) أي: فتحته وكشفته.
(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٧) من العَبْرة، وهي: تَحَلُّب الدمع.
(٨) حتىٰ أسقطوا لها به: حتىٰ صرحوا لها بالأمر، فلهذا تعجبت، وقال ابن الجوزي: أسقطوا لها به؛ أي: صرحوا لها بالأمر، وقيل: جاءوا في خطابها بسقط من القول، ووقع في رواية الطبري من طريق أبي أسامة قال عروة: فعيب ذلك علىٰ من قاله. وقال ابن بطال: يحتمل أن يكون من قولهم: سَقَطَ إليَّ الخبر، إذا علمته. قال الشاعر:

إذا هُـــــن سَـــــاقطن الحـــــديثَ

وقُلن لي. قال: فمعناه: ذكروا لها الحديث وشرحوه. «فتح الباري»: (٨/ ٤٦٩).
(٩) أي: صفوان بن المعطل السلمي ﷺ. (١٠) الكَنَف: الجانب والناحية، والكِنْف: الوعاء.

أَبَوَايَ عندي، فلم يزالا حتىٰ دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقد صَلَّىٰ العصر[(١)]، ثم دخل وقد اكْتَنَفَنِي أبواي، عَن يَمِينِي وعَن شِمَالِي، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنْ كُنْتِ قَارَفْتِ سُوءًا أَوْ ظَلَمْتِ فَتُوبِي إِلَىٰ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ». قالت: و[قد][(٢)] جاءتِ امرأةٌ من الأنصار، فهي جالسةٌ بالباب، فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئًا؟ فوعظ رسول الله ﷺ، فالتفتُ إلىٰ أبي، فقلت [له][(٣)]: أَجِبْه. قال: فماذا أقول؟ فالتفتُ إلىٰ أمي فقلت: أَجِيبِيه. قالت: أقول ماذا؟ فلما لم يُجِيبَاه، تَشَهدتُّ فحمدتُّ الله وأثنيت عليه بما هو أهله، ثم قلت: أما بعد، فَوَالله لَئن قلت لكم: إنِّي لم أفعل -والله ﷻ يشهد إنِّي لصادقة- ما ذاكَ بنَافِعِي عندكم، لقد تكلَّمتم به، وأُشْرِبَتْه قلوبكم، وإن قلت: إني قد فعلت -والله يعلم أنِّي لم أفعل- لتقولُنَّ: قد باءت به علىٰ نفسها، وإني -والله- ما أجد لي ولكم مثلًا -والتمستُ اسم يعقوب فلم أقدر عليه- إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وأنزل الله علىٰ رسوله ﷺ مِن ساعته، فسكتنا، فَرُفع عنه وإنِّي لأتبيَّن السُّرور في وجهه، وهو يمسح جبينه ويقول: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكِ» قالت: وكنت أشدَّ ما كنتُ غضبًا، فقال لي أبواي: قومي [إليه][(٤)] فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سَمِعْتُمُوه فما أَنْكَرْتُمُوه ولا غَيَّرتموه، وكانت عائشة تقول: أما زينب بنت جحش فقد عصَمَهَا الله بدينها، فلم تقل إلا خيرًا. وأمَّا أختها حَمنة بنت جحش، فهلكت فيمَنْ هلك. وكان الَّذي يتكلَّم به مسطح وحسَّان بن ثابت. وأمَّا المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول فهو الذي [كان][(٥)] يَسْتَوْشِيهِ ويجمعه، وهو الذي تولَّىٰ كِبْرَه منهم هو وحَمْنَة. قالت: وحلَفَ أبو بكر ألا ينفع مسطحًا بنافعةٍ أبدًا، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلىٰ آخر الآية؛ يعني: أبا بكر، ﴿وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: مسطحًا، إلىٰ قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر: بلىٰ والله يا ربَّنا، إنا لنُحِبُّ أن تغفر لنا[(٦)] وعادَ له بما كان يَصْنَع[(٧)].

هكذا رواه البخاري مِن هذا الوجه مُعلَّقًا بصيغة الجزم عن أبي أسامة حماد بن أسامة [أحد الأئمَّة الثِّقات. وقد رواه ابن جرير في «تفسيره»، عن سفيان بن وَكيع، عن أبي أسامة][(٨)] به مطولًا مثله أو نحوه. ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيدٍ الأشج، عن أبي أسامة ببعضه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن عائشة ﵂ قالت: لما

---

(١) لوحة (٣٥ أ). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) لوحة (٣٥ ب).
(٧) البخاري (٤٧٥٧) تعليقًا، والطبري (١٨/ ٩٣)، والترمذي (٣١٨٠)، وزاد عزوه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٣) لابن أبي حاتم وابن مردويه وإسناده صحيح.
(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

نزل عُذْري من السماء، جاءني النَّبيُّ ﷺ فأخبرني بذلك، فقلت: نَحمدُ الله لا نَحمَدُكَ[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثني ابن أبي عَدِيّ، عن محمَّد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عَمْرَةَ، عن عائشة قالت: لما نزل عُذْري قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أَمَر برجلين وامرأة فَضُربوا حدَّهُم[(٢)].

وأخرجه أهل السُّنَن الأربعة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان بن ثابت، ومِسْطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش.

فهذه طرقٌ متعددةٌ، عن أم المؤمنين عائشة ﵂ في «المسانيد» و«الصحاح» و«السنن» وغيرها.

وقد رُوي من حديث أمها أمِّ رومان ﵂ فقال الإمام أحمد:

حدَّثنا علي بن عاصم، أخبرنا حُصَين، عن أبي وائل، عن مسروق، عن أم رومان قالت: بينا أنا عند عائشة، إذ دَخَلَت عليها امرأةٌ من الأنصار فقالت: فَعَل الله -بابنها- وفَعَل. فقالت عائشة: ولم؟ قالت: إنَّه كان فيمن حَدَّث الحديث. قالت عائشة: وأيُّ حديثٍ؟ قالت: كذا وكذا. قالت: وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، وبلغ أبا بكر؟ قالت: نعم، فخرَّت عائشة ﵂ مغشيًّا عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمَّىٰ بنافضٍ[(٣)]. قالت: فقمت فدَثَّرْتُها، قالت: وجاء النَّبيُّ ﷺ فقال: «مَا شَأْنُ هَذِهِ؟» قلت: يا رسول الله، أَخَذَتْها حُمَّىٰ بنَافِضٍ. قال: «فَلَعَلَّهُ فِي حَدِيثٍ تُحُدِّثَ بِهِ». قالت: فاستوت له عائشة قاعدةً، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني، ولئن اعتذرت إليكم لا تَعذِرُوني، فمَثَلِي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: وخرج رسول الله ﷺ[(٤)]، فأنزل الله عذرها، فرجع رسول الله ﷺ معه أبو بكر، [فدخل فقال: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَنْزَلَ عُذْرَكِ». فقالت: بحمد الله لا بحمدك. فقال لها أبو بكر: تقولين هذا لرسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قالت: فكان فيمن حدث هذا الحديث رجلٌ كان يعوله أبو بكر][(٥)] فحلف أبو بكر ألا يَصِلَه، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلىٰ آخر الآية [النور: ٢٢]، قال أبو بكر: بلىٰ، فَوَصَلَه[(٦)].

تفرَّد به البخاري دون مسلم، من طريق حُصَين وقد رواه البخاري، عن موسىٰ بن إسماعيل، عن أبي عَوَانة -وعن محمَّد بن سلام-، عن محمَّد بن فضيل، كلاهما عن حصين، به وفي لفظ أبي عوانة: حدثتني أم رومان. وهذا صريحٌ في سماع مسروق منها، وقد أنكر ذلك جماعةٌ من الحفاظ، منهم الخطيب

(١) أحمد (٦/ ٣٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٢١)، ورجاله ثقات عدا عمر بن أبي سلمة، قال الحافظ: صدوق يخطئ.

(٢) **حسنه الألباني**: أبو داود (٤٤٧٤)، والترمذي (٣١٨١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٣٥١)، وابن ماجة (٢٥٦٧)، وحسنه الترمذي. وكذا حسنه الألباني.

(٣) أي: برعدة شديدة، كأنها نفضتها؛ أي: حركتها.

(٤) لوحة (٣٦ أ).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) البخاري (٣١٨٨) (٣٣٨٨) (٤١٤٣)، وأحمد (٦/ ٣٦٧).

البغدادي، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت في زمن النَّبيِّ ﷺ، قال الخطيب: وقد كان مسروق يرسله فيقول: «سئلت أُمُّ رومان»، ويسوقه، فلعلَّ بعضهم كتب «سُئِلَت» بألف، فاعتقد الراوي أنها «سَأَلْتُ»، فظنه متصلًا. قال الخطيب: «وقد رواه البخاري كذلك، ولم تظهر له علته». كذا قال، والله أعلم.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أي: بالكذب والبُهْت والافتراء، ﴿عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ منكم، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ أي: يا آل أبي بَكْرٍ ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرة، لسان صدقٍ في الدُّنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهارُ شرفٍ لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين، حيث أنزل الله تعالىٰ براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ولهذا لما دخل عليها ابن عبَّاسٍ ﷺ وهي في سياق الموت، قال لها: أَبْشِري فإنَّك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يُحِبُّك، ولم يتزوج بكرًا غيرك، وأنزل براءتك من السَّماء[(١)].

وقال ابن جرير في «تفسيره»: حدَّثني محمَّد بن عثمان الواسطي، حدَّثنا جعفر بن عون، عن المعلىٰ ابن عرفان، عن محمَّد بن عبد الله بن جَحْش قال: تفاخَرَت عائشةُ وزينبُ ﷺ فقالت زينب: أنا التي نزل تزوُّجي [من السماء][(٢)] قال: وقالت عائشة: أنا التي نزل عُذْرِي في كتابه، حين حملني ابن المعطل علىٰ الرَّاحلة. فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلتِ حين رَكِبْتِيهَا؟ قالت: قلتُ: حسبي الله ونعم الوكيل. قالت: قلتِ كلمة المؤمنين[(٣)].

وقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي[(٤)]: لكل مَن تكلَّم في هذه القضية ورَمَىٰ أم المؤمنين عائشة ﷺ بشيءٍ من الفاحشة، نصيبٌ عظيمٌ من العذاب.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ قيل: ابتدأ به. وقيل: الذي كان يَجْمَعُه ويَسْتَوْشِيهِ ويُذِيعُه ويُشِيعُه، ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: علىٰ ذلك.

ثمَّ الأكثرون علىٰ أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي ابن سَلُول -قبَّحه الله ولعنه- وهو الذي تقدَّم النَّص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد.

وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في «صحيح البخاري» ما قد يدل علىٰ ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنَّه كان من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر،

---

(١) البخاري (٤١٥٣). (٢) سقط من (ز).

(٣) رواه ابن جرير (١٨/ ٨٨)، وفيه معلىٰ بن عرفان.
قال ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي، متروك الحديث. «ميزان الاعتدال» (٤/ ١١٤٩).
واعلم أنه قد ثبت مفاخرة زينب علىٰ بقية نساء النبي بتزويجها من فوق سبع سموات، رواه البخاري (٧٤٢١).

(٤) لوحة (٣٦ ب).

وأحسنُ محاسنِهِ أنَّه كان يَذُبُّ عن رسول الله ﷺ [بشِعْرِه،][(١)] وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ»[(٢)].

وقال الأعمش، عن أبي الضُّحَىٰ، عن مسروقٍ قال: كنتُ عندَ عائشة ﵂ فدخل حسان بن ثابت، فأمرَتْ فأُلقي له وسادة، فلمَّا خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا؟ يعني: يدخل عليك -وفي رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك، وقد قال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ من العمىٰ -وكان قد ذهب بصره- لعلَّ الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم. ثم قالت: إنَّه كان يُنافحُ عن رسول الله ﷺ.

وفي روايةٍ أنَّه أنشدها عندما دخل عليها [شعرًا][(٣)] يمتدحها به، فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ[(٤)]

فقالت: أمَّا أنت فلَسْت كذلك. وفي رواية: لكنَّك لستَ كذلك[(٥)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا الحسن بن قَزْعَة، حدَّثنا سلمة بن علقمة، حدَّثنا داود، عن عامر، عن عائشة أنَّها قالت: ما سمعت بشيءٍ أحسن مِن شعر حسَّان، ولا تمثَّلت به إلا رجوت له الجنَّة، قوله لأبي سفيان -يعني ابن الحارث[(٦)] بن عبد المطلب-:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ[(٧)] عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

أَتَشْتُمُهُ، وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ؟ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ[(٨)]

لِسَانِي صَارِمٌ لا عَيْبَ فِيهِ ... وَبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ[(٩)] الدِّلَاءُ

فقيل: يا أُمَّ المؤمنين، أليس هذا لغوًا؟ قالت: لا إنَّما اللَّغو ما قيل عند النساء. قيل: أليس الله يقول: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قالت: أليس قد أصابه [عذاب][(١٠)] عظيم؟ [أليس][(١١)] قد ذهب بصرُهُ وكُنِّع بالسَّيف[(١٢)]؟ تعني: الضربة التي ضربه إيَّاها صفوان بن المعطل [السُّلَمِي][(١٣)] حين بلَغَهُ عنه أنَّه يتكلَّم في ذلك، فعَلَاهُ بالسَّيْفِ، وكاد أَن يَقْتُلَهُ[(١٤)].

---

(١) ليست في (ز). (٢) البخاري (٣٢١٣). (٣) سقط من (ز).

(٤) الحَصَان: العفيفة، والرَّزَان: ذات الثبات والوقار، تُزَن: تتهم، غَرْثَىٰ: جائعة، الغوافل: جمع غافلة؛ يعني: أنها لا ترتع في أعراض الناس.

(٥) البخاري (٤١٤٦). (٦) في (ز): (ابن حرب). (٧) في (ز): وأجيب.

(٨) لوحة (٣٧ أ). (٩) في (ز): لا تعكره. (١٠) سقط من (ز).

(١١) سقط من (ز). (١٢) كنَّعَه بالسيف: أيبس جلده فرقًا وخوفًا وهلعًا.

(١٣) ليست في (ز).

(١٤) رواه الطبري (١٨/ ٨٨)، ورواية الشعبي عن عائشة مرسلة كما في «جامع التحصيل»، وبقية رجاله ثقات.

﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾[(١)]

هذا تأديبٌ مِن الله للمُؤمِنينَ في قضيَّة عائشة ﵂ حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السَّيِّئ، وما ذكر مِن شأن الإفك، فقال: ﴿لَوْلَآ﴾ بمعنىٰ: هَلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام؛ أي: الَّذي رُمِيَتْ به أم المؤمنين ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام علىٰ أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأُمُّ المؤمنين أولىٰ بالبراءة منه بطريقِ الأَوْلَىٰ والأَحْرَىٰ.

وقد قيل: إنَّها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته ﵄ كما قال الإمام محمَّد بن إسحاق بن يَسَار، عن أبيه، عن بعض رجال بني النَّجَّار؛ أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أمَا تسمع ما يقول النَّاس في عائشة ﵂؟ قال: نعم، وذلك الكذب. أكُنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنتُ لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلمَّا نزل القرآن ذكر الله ﷿ مَنْ قال في الفاحشة ما قال مِن أهل الإفك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] وذلك حسان وأصحابه، الَّذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية؛ أي: كما قال أبو أيوب وصاحبته[(٢)].

وقال محمَّد بن عمر الواقدي: حدَّثني ابن أبي حبيبة[(٣)] عن داود بن الحصين، عن أبي سفيان، عن أفلح مولىٰ أبي أيوب، أن أم أيوب قالت لأَبِي أَيُّوب: ألا تسمع ما يقول النَّاس في عائشة؟ قال: بلىٰ، وذلك الكذب، أفكُنْت يا أم أيُّوب [فاعلة ذلك][(٤)]؟ قالت: لا والله. قال: فعائشة والله خير منك. فلمَّا نزل القرآن، وذكر أهل الإفك، قال الله ﷿: ﴿لَّوْلَآ إِذْ[(٥)] سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[(٦)] يعني: أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال.

ويقال: إنَّما قالها أبي بن كعب.

وقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: هَلا ظنُّوا الخير، فإنَّ أمَّ المؤمنين أهله وأولىٰ به، هذا ما يتعلَّق بالباطن، ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: بألستهم ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذبٌ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: الْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ الْعَدَالَةُ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ بَل الْأَصْلُ فِي بَنِي آدَمَ الظُّلْمُ وَالْجَهْلُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]. وَمُجَرَّدُ التَّكَلُّمِ بِالشَّهَادَتَيْنِ لَا يُوجِبُ انْتِقَالَ الْإِنْسَانِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ إِلَىٰ الْعَدْلِ.

(٢) رواه الطبري (١٨/ ٩٦) من طريق محمد بن إسحاق، وهو صدوق مدلس وقد عنعن، وبقية رجاله ثقات لكن فيه جهالة من يروي عن أبي أيوب.
وثبت نحوه عند الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢١٨) وفي إسناده عطاء وهو صدوقٌ يهم كثيرًا ويرسل ويدلس، ولعله بمجموع هذه الروايات يقوىٰ الحديث. والله أعلم.

(٣) في (ز): (ابن أبي حبيب). (٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٣٧ ب).

(٦) هذه الطريق من رواية الواقدي، وهو متروك، فالسند ضعيفٌ جدًّا.

ظاهرٌ علىٰ أُمِّ المؤمنين، فإنَّ الَّذي وقع لم يكن ريبةً، وذلك أنَّ مجيء أُمِّ المؤمنين راكبة جَهْرَة علىٰ راحلة صفوان بن المُعَطَّل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بَيْنَ أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جَهْرَةً، ولا كانا يُقدمان علىٰ مثل ذلك علىٰ رءوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قُدر- خفيةً مستورًا، فتعيَّن أنَّ ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوا به أُمَّ المؤمنين هو الكذب البَحْت، والقول الزُّور، والرُّعُونة الفَاحشة [الفاجرة][١] والصَّفْقَة الخاسرة.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلا ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون علىٰ صحة ما جاءوا به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: في حكم الله كَذَبَةٌ فاجرون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أيُّها الخائِضُون في شأن عائشة، بأن قَبِلَ توبتكم وإِنَابتكم إليه في الدُّنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنِّسبة إلىٰ الدار الآخرة، ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وهذا فِيمَن عنده إيمانٌ رزقه الله بسببه التَّوبة إليه، كمِسْطَح، وحسَّان، وحَمْنَةَ بنت جحش، أخت زينبَ بنت جحش. فأمَّا مَن خاض فيه مِن المنافقين كعبد الله بن أُبَيّ ابن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنَّه ليس عندهم مِن الإيمان والعمل الصالح ما يُعَادِل هذا ولا ما يعارضه. وهكذا شأن ما يَرِدُ من الوعيد علىٰ فِعلٍ مُعَيَّنٍ، يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التَّوبة، أو ما يقابله مِن عَمَلٍ صالح يوازنُهُ أو يَرجح عليه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبير: أي: يرويه بعضكم عن بعضٍ، يقول هذا: سمعته[٢] من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا.

وقرأ آخرون: «إِذْ تَلِقُونه بِأَلْسِنَتِكُمْ»[٣]. وفي «صحيح البخاري» عن عائشة: أنَّها كانت تقرؤها كذلك وتقول: هو مِنْ وَلَق القول[٤]. يعني: الكَذِب الَّذي يستمر صاحبه فيه، تقول العرب: وَلَق فلان[٥] في السَّير: إذا استمر فيه، والقراءة الأولىٰ أشهر، وعليها الجمهور، ولكن الثَّانية مَرْوِيَّة عن أم المؤمنين عائشة.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشَجُّ، حدَّثنا أبو أسامة، عن نافع بن عمر[٦]، عن ابن أبي مليكة، [عن عائشة أنها كانت تقرأ: «إِذْ تَلِقُونه» وتقول: إنَّما هو وَلَق القول -والوَلَق: الكذب. قال ابن

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٣٨أ).
(٣) قراءة: قَرَأَ (تَلِقُونَهُ) عَائِشَةُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (تَلَقَّوْنَهُ).
(٤) البخاري (٤١٤٤). (٥) في (ز): (في فلان).
(٦) في (ز): (عن نافع عن ابن عمر)، وهو خطأ.

أبي مليكة:][(١)] هي أعلم به من غيرها[(٢)].

وقوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[(٣)] أي: تقولون ما تقولون في شأنِ أُمِّ المؤمنين، وتحسبون ذلك سهلًا يسيرًا ولو لم تكن زوجة النَّبيِّ ﷺ لما كان هيِّنًا، فكيف وهي زوجة النَّبيِّ الأُمِّيِّ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! الله يَغار لهذا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُقدِّر علىٰ زوجة نبيٍّ من أنبيائِهِ ذلك، حاشا وكَلا ولما [لم يكن ذلك][(٤)] فكيف يكون هذا في سَيِّدَة نساء الأنبياء، وزوجة سَيِّد ولد آدم علىٰ الإطلاق في الدُّنيا والآخرة؟! ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وفي «الصَّحِيحَيْن»:

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» وفي روايةٍ: «لا يُلْقِي لَهَا بَالًا»[(٥)].

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

هذا تأديبٌ آخر بعد الأول: الآمر بالظَّنِّ خيرًا؛ أي: إذا ذكر ما لا يَلِيقُ مِن القول في شأن الخِيَرة فأولىٰ ينبغي الظَّنُّ بهم خيرًا، وألا يشعر نفسه سوىٰ ذلك، ثم إنْ عَلِقَ بنَفْسِهِ شيءٌ من ذلك -وسوسةً أو خيالًا- فلا ينبغي أن يتكلَّم به، فإنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» أخرجاه في «الصحيحين»[(٦)].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي: ما ينبغي لنا أن نتفوَّه بهذا الكلام ولا نذكره[(٧)] لأحدٍ ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سبحان الله أن يُقَال هذا الكلام علىٰ زوجة [نَبِيِّه و][(٨)] رَسُولِهِ وحليلة خليله.

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: ينهاكم الله متوعِّدًا أن يقع منكم ما يُشْبِهِ هذا أبدًا؛ أي: فيما يستقبل. فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تُؤْمِنُون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله ﷺ، فأما من كان مُتَّصِفًا بالكفر فذاك له حكم آخر.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) إسناده صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٤٢٣٤)، ورواه الطبري (١٨/ ٩٦)، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٦/ ١٦٠) لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

(٣) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ، وتقدم قدمه، وإحرازه لقصب السبق دون كل سابقٍ فَلْيَتَلَقَّ ذلك من آيات الإفك. وليتأمل كيف غضب الله له في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه.

(٤) سقط من (ز).

(٥) البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٦) البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧).

(٧) لوحة (٣٨ ب).

(٨) ليست في (ز).

ثم قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: يُوضِّح لكم الأحكام الشرعيَّة والحِكَم القَدَريَّة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بما يُصْلِحُ عباده، حكيمٌ في شَرْعه وقَدَره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

وهذا تأديبٌ ثالثٌ لمن سمع شيئًا من الكلام السَّيِّئ، فقام بذِهْنِهِ مِنه شيءٌ، وتكلَّم به، فلا يكثر منه ويُشيعُهُ ويُذِيعُه، فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقَبِيحِ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بالحَدِّ، وفي الآخرة بالعذاب، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فردوا الأمور إليه تَرْشُدُوا.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن بكر، حدَّثنا ميمون بن أبي محمَّد المَرَئيّ، حدَّثنا محمَّد بن عبَّاد المخزومي، عن ثَوْبان، عن النَّبيّ ﷺ قال: «لا تُؤْذُوا عِبادَ اللهِ وَلا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ[(١)] عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِم، طَلَبَ اللهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّىٰ يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ»[(٢)].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ[(٣)] وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

---

(١) في (ز): (من ظلم)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٢٧٩)، وله شواهد سيذكرها المصنف في سورة الحجرات (الآية ١٢).

(٣) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ: وَذَكَرَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ. فَتَارَةً يَخُصُّ اسْمَ الْمُنْكَرِ بِالنَّهْيِ وَتَارَةً يَقْرِنُهُ بِالْفَحْشَاءِ وَتَارَةً يَقْرِنُ مَعَهُمَا الْبَغْيَ وَكَذَلِكَ الْمَعْرُوفُ: تَارَةً يَخُصُّهُ بِالْأَمْرِ وَتَارَةً يَقْرِنُ بِهِ غَيْرَهُ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء:١١٤] وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ قَدْ يَكُونُ عُمُومُهَا وَخُصُوصُهَا بِحَسَبِ الْإِفْرَادِ وَالتَّرْكِيبِ: كَلَفْظِ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ فَإِنَّ أَحَدَهُمَا إذَا أُفْرِدَ كَانَ عَامًّا لِمَا يَدُلَّانِ عَلَيْهِ عِنْدَ الِاقْتِرَانِ؛ بِخِلَافِ اقْتِرَانِهِمَا فَإِنَّهُ يَكُونُ مَعْنَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا لَيْسَ هُوَ مَعْنَىٰ الْآخَرِ بَلْ أَخَصُّ مِنْ مَعْنَاهُ عِنْدَ الْإِفْرَادِ وَأَيْضًا فَقَدْ يُعْطَفُ عَلَىٰ الِاسْمِ الْعَامِّ بَعْضُ أَنْوَاعِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّخْصِيصِ ثُمَّ قَدْ قِيلَ: إنَّ ذَلِكَ الْمُخَصَّصَ يَكُونُ مَذْكُورًا بِالْمَعْنَىٰ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ. فَإِذَا عُرِفَ هَذَا. فَاسْمُ «الْمُنْكَرِ» يَعُمُّ كُلَّ مَا كَرِهَهُ اللهُ وَنَهَىٰ عَنْهُ وَهُوَ الْمُبْغَضُ، وَاسْمُ «الْمَعْرُوفِ» يَعُمُّ كُلَّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ وَيَأْمُرُ بِهِ فَحَيْثُ أُفْرِدَا بِالذِّكْرِ فَإِنَّهُمَا يَعُمَّانِ كُلَّ مَحْبُوبٍ فِي الدِّينِ وَمَكْرُوهٍ، وَإِذَا قُرِنَ الْمُنْكَرُ بِالْفَحْشَاءِ فَإِنَّ الْفَحْشَاءَ مَبْنَاهَا عَلَىٰ الْمَحَبَّةِ وَالشَّهْوَةِ، و«الْمُنْكَرُ» هُوَ الَّذِي تُنْكِرُهُ الْقُلُوبُ فَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ مَا فِي الْفَاحِشَةِ مِنَ الْمَحَبَّةِ يُخْرِجُهَا عَنِ الدُّخُولِ فِي الْمُنْكَرِ وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا تُنْكِرُهَا الْقُلُوبُ فَإِنَّهَا تَشْتَهِيهَا النُّفُوسُ و«الْمُنْكَرُ» قَدْ يُقَالُ: إنَّهُ يَعُمُّ مَعْنَىٰ الْفَحْشَاءِ وَقَدْ يُقَالُ: خُصَّتْ لِقُوَّةِ الْمُقْتَضِي لِمَا فِيهَا مِنَ الشَّهْوَةِ، وَقَدْ يُقَالُ: قَصَدَ بِالْمُنْكَرِ مَا يُنْكَرُ مُطْلَقًا وَالْفَحْشَاءُ لِكَوْنِهَا تُشْتَهَىٰ وَتُحَبُّ، وَكَذَلِكَ «الْبَغْيُ» قُرِنَ بِهَا؛ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنْ مَحَبَّةِ النُّفُوسِ. وَلِهَذَا كَانَ جِنْسُ عَذَابِ صَاحِبِهِ أَعْظَمَ مِنْ جِنْسِ عَذَابِ صَاحِبِ الْفَحْشَاءِ وَمَنْشَؤُهُ مِنْ قُوَّةِ الْغَضَبِ كَمَا أَنَّ الْفَحْشَاءَ مَنْشَؤُهَا عَنْ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ، وَلِكُلٍّ مِنَ النُّفُوسِ لَذَّةٌ بِحُصُولِ مَطْلُوبِهَا، فَالْفَوَاحِشُ وَالْبَغْيُ مَقْرُونَانِ بِالْمُنْكَرِ.

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لولا هذا لكان أَمْرٌ آخر، ولكنَّه تعالىٰ رءوف بعِبادِهِ، رحيمٌ بهِمْ. فتاب علىٰ مَن تاب إليه مِن هذه [القضيَّة][1] وطَهَّر مَن طَهَّر منهم بالحدِّ الذي أُقِيمَ عليه.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني: طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾: هذا تنفيرٌ وتحذيرٌ[2] من ذلك، بأَفْصَح العِبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: عمله. وقال عكرمة: نَزَغاته. وقال قتادة: كلُّ معصيةٍ فهِيَ مِن خطواتِ الشَّيْطَان. وقال أبو مِجْلَز: النُّذور في المعاصي مِن خطوات الشيطان.

[وقال][3] مسروق: سأل رجلٌ ابن مسعود فقال: إنِّي حرَّمْت أن آكُل طعامًا؟ فقال: هذا مِن نزغات الشيطان، كَفِّر عن يمينك، وكُل[4].

وقال الشَّعبي في رجلٍ نَذَر ذَبْحَ ولده: هذا مِن نزغات الشَّيطان، وأفتاه أَن يَذْبَح كبشًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا حسَّان بن عبد الله المصري، حدَّثنا السريُّ بن يحيىٰ، عن سليمان التَّيمي، عن أبي رافعٍ قال: غَضِبَت عليَّ امرأتي فقالت: هي يومًا يهوديَّة، ويومًا نصرانيَّة، وكلُّ مملوكٍ لها حُرٌّ، إن لم تُطَلِّق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنَّما هذه مِن نزغَات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذٍ أفقه امرأةٍ بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر، فقال مثل ذلك[5].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: لولا هو يرزق مَن يشاء التَّوبة والرجوع إليه، ويزكي النُّفوس مِن شركها وفُجُورها ودَنَسِهَا وما فيها مِن أخلاقٍ رديئةٍ، كلٌّ بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاةً ولا خيرًا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أي: من خلقه، ويُضِلُّ من يشاء ويُرْدِيهِ في مهالك الضَّلال والغَيِّ.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميعٌ لأقوال عباده عليمٌ بهِمْ، مَنْ يستحق منهم الهُدَىٰ والضَّلال.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ[6] وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٣٩أ). (٣) بياض في (ز).

(٤) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٣) (٧٩٧٨) (١٤٢٥٤)، والحاكم (٢/ ٣١٣) وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٢) (١٤٢٥٣)، ورواه نحوه الدارقطني (٤٣٣١)، والبيهقي (١٠/ ١١٢).

(٦) قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ لَا تُحْبِطُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ؛ لِأَنَّ هِجْرَةَ مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَقَذْفَهُ لِعَائِشَةَ مِنَ الْكَبَائِرِ وَلَمْ يُبْطِلْ هِجْرَتَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ قَالَ فِيهِ بَعْدَ قَذْفِهِ لَهَا: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢٢] فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ هِجْرَتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، لَمْ يُحْبِطْهَا قَذْفُهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الأليَّة، [وهي: الحلف][(١)] أي: لا يحلف ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: الطَّول والصَّدقة والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أي: الجِدَةِ ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لَا تَحْلِفُوا أَلَّا تَصِلُوا قراباتكم المساكين والمهاجرين. وهذه في غَايَةِ التَّرفُّق والعطف علىٰ صلةِ الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي: عمَّا تقدَّم منهم من الإساءة[(٢)] والأذىٰ، وهذا مِن حلمه تعالىٰ وكرَمِهِ ولطفه بخلْقِهِ مع ظلمهم لأنفسهم.

وهذه الآية نزلت في الصِّدِّيق، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثاثة بنافعةٍ بعد ما قال في عائشة ما قال، كما تقدَّم في الحديث. فلما أنزل الله براءةَ أُمِّ المؤمنين عائشة، وطابت النُّفوس المؤمنة واستقرَّت، وتاب الله علىٰ مَن كان تكلَّم من المؤمنين في ذلك، وأُقِيم الحد علىٰ مَن أقيم عليه -شَرَع تبارك وتعالىٰ، وله الفضل والمنَّة، يعطفُ الصدِّيق علىٰ قريبه ونَسِيبِهِ، وهو مِسْطَح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصدِّيق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما يُنْفِق عليه أبو بكر ﷺ، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وَلَق وَلْقَةً تاب الله عليه منها، وضُرِب الحَدُّ عليها. وكان الصدِّيق ﷺ معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيَادِي علىٰ الأقارب والأجانب. فلمَّا نزلت هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإنّ[(٣)] الجزاء مِن جنس العمل، فكمَا تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تَصْفَح نَصْفَح عنك. فعند ذلك قال الصِّدِّيق: بلىٰ، والله إنَّا نُحِبُّ يا ربنا أن تغفر لَنَا. ثم رَجَع إلىٰ مسطح ما كان يصله مِن النَّفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعةٍ أبدًا، فلهذا كان الصدِّيق هو الصدِّيق [ﷺ وعَن بنته][(٤)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

هذا وعيدٌ من الله تعالىٰ للذين يرمون المحصنات الغافلات -خُرِّج مخرج الغالب- المؤمنات[(٥)].

فأُمَّهات المؤمنين أَولَىٰ بالدُّخول في هذا مِن كُلِّ محصنةٍ، ولا سيما التي كانت سبب النُّزول، وهي

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٣٩ ب).

(٣) في (ز): (كان الجزاء). (٤) ليست في (ز).

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: بالإجماع أن المحصنين مثل المحصنات:

إذن ما وجه ذكر هذا للنساء دون الرجال ما داموا مشتركين في الحكم؟

لأن كثرة القذف في النساء أكثر من الرجال؛ يعني: كون المرأة تُقذف وتتهم بالزنا أكثر من الرجال لذلك ذُكرت هي، والرجل مثلها بالاتفاق.

عائشة بنت الصديق رضي الله عنها.

وقد أجمع العلماء -رحمهم الله- قاطبةً علىٰ أن مَنْ سَبَّها بعد هذا ورماها بما رماها به [بعد هذا الذي ذُكِرَ][1] في هذه الآية، فإنَّه كافرٌ؛ لأنه معاندٌ للقُرْآنِ. وفي بقيَّة أمهات المؤمنين قولان: أَصَحُّهما أنهنَّ كَهِيَ، والله أعلم.

[وقوله تعالىٰ:][2] ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقد ذهب بعضهم إلىٰ أنها خاصةٌ بعائشة[3]، فقال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبو سعيدٍ الأشج، حدَّثنا عبد الله بن خِرَاش، عن العَوَّام، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال: نزلت في عائشة خاصة[4].

وكذا قال مقاتل بن حيان، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال: حدَّثنا أحمد بن عَبْدَة الضَّبِّي، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: رُميت بما رُمِيت به وأنا غافلةٌ، فبلغني بعد ذلك. قالت: فبَيْنَا رسول الله ﷺ جالسٌ عندي إذ أوحي إليه. قالت: وكان إذا أوحي إليه أخذه كهَيْئةِ السُّبات، وإنه أوحي إليه وهو جالسٌ عندي، ثم استوىٰ جالسًا يمسح علىٰ وجهه، وقال: «يَا عَائِشَةُ أَبْشِرِي». قالت: قلت: بحمد الله لا بحمدك. فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، حتىٰ قرأ: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦][5].

هكذا أورده، وليس فيه أن الحكم خاصٌّ بها، وإنَّما فيه أنَّها سبب النُّزول دون غيرها، وإن كان الحكم يعمها كغيرها، ولعله مراد ابن عبَّاس ومَن قال كقوله، والله أعلم.

وقال الضَّحَّاك، وأبو الجوزاء، وسلمة بن نُبَيْط: المراد بها: أزواج النَّبيِّ خاصَّةً، دون غيرهِنَّ مِن النِّساء.

وقال العَوْفِيُّ، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية: يعني أزواج النَّبيِّ ﷺ رماهُنَّ أهلُ النِّفاق، فأوجب الله لهم اللَّعنة والغضب، وباءوا بسخطٍ من الله، فكان ذلك في أزواج النَّبيِّ ﷺ ثم نزل بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

---

(١) في (ز): (الذين ذكروا). (٢) بياض في (ز). (٣) لوحة (٤٠ أ).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٤٢٨٥)، وفي إسناده عبد الله بن خراش: ضعيف كما في «التقريب»، والأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٦٤) وزاد نسبته للحاكم وابن مردويه.

(٥) رواه أحمد (٦/ ٣٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٢١)، ورجاله ثقات، عدا عمر بن أبي سلمة، قال الحافظ: صدوق يخطئ.

﴿رَّحِيمٌ﴾، فأنزل الله الجَلْدَ والتوبة، فالتَّوبة تقبل، والشَّهادة تُرَدُّ[(١)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا العوام بن حوشب، عن شيخ من بني أسد، عن ابن عبَّاس -قال: فَسَّر سورة النور، فلما أتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟﴾ الآية- قال: في شأن عائشة، وأزواج النَّبيِّ ﷺ، وهي مبهمةٌ، وليست لهم توبةٌ، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ الآية [النور: ٤، ٥]، قال: فجعل لهؤلاء توبةً ولم يجعل لِمَنْ قذف أولئك توبةً، قال: فهمَّ بعض القوم أن يقوم إليه فيُقَبِّل رأسه مِن حسن[(٢)] ما فسَّر به سورة النُّور[(٣)].

فقوله: «وهي مبهمة»؛ أي: عامة في تحريم قَذْفِ كلِّ محصنةٍ، ولَعْنته في الدنيا والآخرة.

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة، ومَن صنع مثل هذا أيضًا اليوم في المسلمات، فله ما قال الله ﷻ ولكن عائشة كانت إمامَ ذلك.

وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح، ويُعَضِّد العموم ما رواه ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن -ابن أخي ابن وهب- حدَّثنا عَمِّي، حدَّثنا سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي الغَيث عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ**»[(٤)].

أخرجاه في «الصحيحين»، من حديث سليمان بن بلال به.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عَمْرو بن خالد الحَذَّاء الحراني، حدَّثني أبي (ح) وحدَّثنا أبو شُعَيب الحراني، حدَّثنا جَدِّي أحمد بن أبي شُعَيب، حدَّثنا موسى بن أَعْيَن، عن ليث، عن أبي إسحاق، عن صِلَة بن زُفَر، عن حذيفة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**قَذْفُ المُحْصَنَةِ يَهْدِمُ عَمَلَ مِائَةِ سَنَةٍ**»[(٥)].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم:

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٨/ ١٠٥)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٢) لوحة (٤٠ ب).

(٣) رواه الطبري (١٨/ ١٠٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٣١/ ٢٣٤) وفيه رجل مجهول.

(٤) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٥) ضعيف: رواه الطبراني (٣/ ١٩٦)، وفيه ليث بن أبي سليم: اختلط ولم يتميز حديثه فترك، وشيخه أبو إسحاق اختلط بآخره.

حدَّثنا أبو سعيدٍ الأشجُّ، حدَّثنا أبو يحيىٰ الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن مُطرِّف، عن المِنْهَال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: إنَّهم - يعني: المشركين - إذا رَأَوْا أنَّه لا يدخلُ الجنَّةَ إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتىٰ نجحد. فيجحدون فيختم [الله](١) علىٰ أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يَكتُمُون الله حديثًا(٢).

وقال ابن جرير، وابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني عمرو ابن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، عُرِّفَ الكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَيَجْحَدُ وَيُخَاصِمُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَؤُلَاءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ. فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيَقُولُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ. فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيَقُولُ: احْلِفُوا. فَيَحْلِفُونَ، ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ [اللهُ،](٣) فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ(٤)، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ**»(٥).

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة الكوفي، حدَّثنا مِنْجَاب بن الحارث التميمي، حدَّثنا أبو عامر الأَسَدِيُّ، حدَّثنا سفيان، عن(٦) عبيد المُكْتب، عن فُضَيل بن عمرو الفُقَيمي، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النَّبيِّ ﷺ فضَحِكَ حتىٰ بدت نَوَاجذُه، ثم قال: «**أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**مِنْ مُجَادَلَةِ العَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: لا أُجِيزُ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ اليَوْمَ [عَلَيْكَ شَهِيدًا،](٧) وَبِالْكِرَامِ عَلَيْكَ شُهُودًا فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»(٨).

وقد رواه مسلم والنسائي جميعًا، عن أبي بكر بن أبي النَّضر، عن أبيه، عن عُبَيد الله(٩) الأشجعي، عن سفيان الثوري به. ثم قال النَّسائي: لا أعلم أحدًا روىٰ هذا الحديث عن سفيان الثوري غير

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».

(٢) حسن: رواه ابن أبي حاتم (١٤٢٩٨)، وفيه عمرو بن أبي قيس والمنهال كلاهما صدوق، وبقية رجاله ثقات، وهو موقوف لكنه لا يقال بالرأي فله حكم المرفوع.

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري»، وورد في بعض النسخ [يصمهم الله]، وهو خطأ.

(٤) لوحة (٤١ أ).

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (١٨/ ١٠٥)، وهو من طريق درَّاج وروايته عن أبي الهيثم ضعيفة.

(٦) في (ز): (سفيان بن عبيد المكتب)، وهو خطأ.

(٧) سقط من (ز).

(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٤٣٠١) (١٨٤٥٤) من طريق أبي عامر الأسدي، ورواه مسلم (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٦٥٣).

(٩) في (ز): (عبد الله)، وهو خطأ، وعبيد الله الأشجعي هو: (عبيد الله بن عبيد الرحمن الأشجعي الكوفي) ثقة، وكان من أوثق الناس كتابًا في الثوري.

الأشجعي، وهو حديثٌ غريبٌ[١]، والله أعلم. هكذا قال.

وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لَشُهودًا غيرَ مُتَّهَمةٍ مِن بدنك، فراقبهم واتّق الله في سِرِّك وعلانيتك، فإنَّه لا يخفىٰ عليه خافية، والظُّلمة عنده ضوءٌ والسِّرُّ عنده علانيةٌ، فمَنِ استطاع أن يموت وهو بالله حَسَنُ الظَّنِّ، فليفعل ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ قال ابن عبَّاس: ﴿دِينَهُمُ﴾ أي: حسابهم، وكل ما في القرآن ﴿دِينَهُمُ﴾ أي: حسابهم. وكذا قال غير واحدٍ.

ثم إنَّ قراءة الجمهور بنصب ﴿الْحَقَّ﴾ علىٰ أنَّه صفة لدِينِهم، وقرأ مجاهد بالرفع[٢]، علىٰ أنَّه نعت الجلالة. وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب: «يومئذ يوفيهم الله الحقُّ دينهم»[٣].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي: وعده ووعيده وحسابه هو العدل، الذي لا جَوْرَ فيه.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾

قال ابن عبَّاس: الخَبِيثَات من القول للخَبِيثِين من الرِّجال، والخَبِيثُون من الرِّجال للخَبِيثَات من القول. والطَّيِّبات من القول للطَّيِّبين من الرِّجال، والطيبون من الرِّجال[٤] للطَّيِّبات من القول. قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك[٥].

وهكذا رُوي عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والشعبي، والحسن بن أبي الحسن البصري، وحبيب بن أبي ثابت، والضَّحَّاك. واختاره ابن جرير، ووجَّهَهُ بأن الكلام القبيح أَوْلىٰ بأهل القُبْحِ مِن النَّاس، والكلام الطَّيِّب أولىٰ بالطَّيِّبين من الناس، فما نسبه أهلُ النِّفاق إلىٰ عائشة هم أولىٰ به، وهي أولىٰ بالبراءة والنَّزاهَةِ منهم؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات[٦] من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من

---

(١) قلت: بل رواه عنه أبو عامر الأسدي أيضًا كما تقدم في الرواية السابقة، ورواه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١٨) من طريق مهران بن أبي عمر عن سفيان الثوري به، وقد اعترض ابن كثيرٍ علىٰ ما ادعاه النسائي، فقال في تفسير سورة فصلت: (وليس كما قال). الآية (٢٠).

(٢) قراءة: قَرَأَ (الْحَقُّ) مُجَاهِدٌ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (الْحَقَّ).

(٣) قراءة: (الْحَقُّ دِينَهُمْ) هَكَذَا فِي مُصْحَفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (دِينَهُمُ الْحَقَّ).

(٤) لوحة (٤١ ب).

(٥) ضعيف: رواه الطبري (١٨/ ٨٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٣٥/ ٢٥٠)، وإسناده مسلسل بالضعفاء، وقال السيوطي في «لباب النقول» (ص١٥٨): وأخرج الطبراني بسندين فيهما ضعف عن ابن عباس.

(٦) في (ز): (للخبيثين).

الرجال للطيبات من النساء.

وهذا -أيضًا- يرجع إلىٰ ما قاله أولئك باللَّازم؛ أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجةً لرسول الله ﷺ إلا وهي طَيِّبةٌ؛ لأنَّه أطيبُ مِن كلِّ طَيِّبٍ من البشر، ولو كانت خبيثةً لما صلحت له، لا شرعًا ولا قدرًا؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم. وفيه وعد بأن تكون زوجة النَّبيِّ ﷺ في الجنَّة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن مسلم، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا عبد السلام بن حرب، عن يزيد ابن عبد الرحمن، عن الحكم، عن يحيىٰ بن الجزار قال: جاء أسير بن جابر إلىٰ عبد الله فقال: لقد سمعت الوليد بن عقبة(١) اليوم تكلم بكلامٍ أعجبني. فقال عبد الله: إنَّ الرجل المؤمن يكون في قلبه [الكلمة غير الطَّيِّبة](٢) تَتَجلْجَلُ في صدره [ما تستقر](٣) حتىٰ يَلْفِظَها(٤)، فيسمعها رجلٌ عنده يَتُلُّها(٥) فيضمها إليه. وإنَّ الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطَّيِّبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتىٰ يلفظها، فيسمعها الرجل الذي عنده يَتُلُّها فيضمها إليه، ثم قرأ عبد الله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾(٦).

ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد في «المسند» مرفوعًا: «**مَثَلُ الَّذِي يَسْمَعُ الحِكْمَةَ(٧) ثُمَّ لا يُحَدِّثُ إِلَّا بِشَرِّ مَا سَمِعَ، كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَ إِلَىٰ صَاحِبِ غَنَمٍ، فَقَالَ: أَجْزِرْنِي(٨) شَاةً. فَقَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ بِأُذُنِ أَيِّهَا شِئْتَ. فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ(٩) كَلْبِ الغَنَمِ**»(١٠) وفي الحديث الآخر: «**الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ حَيْثُ وَجَدَهَا أَخَذَهَا**»(١١).

---

(١) في (ز): (الوليد بن عتبة).
(٢) في (ز): (يكون في قلبه غير طائل).
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): (حتىٰ يخرجها).
(٥) أي: يسقطها.
(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٤٣١٣)، ورجاله ثقات عدا يزيد بن عبد الرحمن، فإني لم أعرفه.
(٧) في (ز): (الكلمة)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٨) أي: أعطني شاةً تصلح للذبح.
(٩) لوحة (٤٢ أ).
(١٠) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٣٥٣)، وابن ماجة (٤١٧٢)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٩١)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وفيه أيضًا أوس بن خالد: مجهول.
(١١) ضعيف جدًّا: رواه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجة (٤١٦٩)، وفيه إبراهيم بن الفضل المدني، قال الحافظ: متروك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا (١) ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾

هذه آدابٌ شرعيةٌ، أدَّب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاسْتِئْذَان، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتىٰ يَسْتَأْنِسُوا؛ أي: يستأذنوا قبل الدُّخول ويُسَلِّمُوا بعده. ويَنْبَغِي أن يستأذن ثلاثًا، فإن أُذِنَ له، وإلَّا انصرف، كما ثبت في «الصحيح»: أنَّ أبا موسىٰ حين استأذن علىٰ عُمَرَ ثلاثًا، فلم يُؤذن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رَجَعَك؟ قال: إنِّي استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، فَلْيَنْصَرِفْ». فقال: لَتَأْتِيَنَّ علىٰ هذا ببيِّنَةٍ وإلا أوجعتك ضربًا. فذهب إلىٰ ملإٍ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيدٍ الخُدْريُّ فأخبر عُمَرُ بذلك، فقال: أَلْهَانِي عنه الصَّفْق بالأسواق(٢)(٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ عن ثابتٍ، عن أنس -أو: غيره أنَّ رسول الله ﷺ استأذن علىٰ سعد بن عبادة فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ». فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله ولم يُسْمِعِ النَّبيَّ ﷺ حتَّىٰ سلَّم ثلاثًا. ورد عليه سعدٌ ثلاثًا ولم يُسْمِعْه. فرجع النَّبيُّ ﷺ، واتَّبعه سعدٌ فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سَلَّمتَ تسليمةً إلا وهي بأُذُنِي، ولقد رَدَدتُّ عليك ولم أُسْمِعك، وأردتُّ أن أستكثِرَ مِن سلامك(٤) ومِن البركة. ثم أدخلَهُ البيت، فقرَّب إليه زَبيبًا، فأكل نبي الله. فلما فرغ قال: «أَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ»(٥).

وقد رَوَىٰ أبو داود والنسائي، من حديث(٦) أبي عمرو الأوزاعي: سمعت يحيىٰ بن أبي كثيرٍ يقول:

---

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بغير استئذانٍ، فإن في ذلك عدة مفاسد:
منها ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» فبسبب الإخلال به يقع البصر علىٰ العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.
ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها؛ لأن الدخول خفيةً، يدل علىٰ الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حَتَّىٰ يَسْتَأْنِسُوا؛ أي: يستأذنوا.

(٢) البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣).
(٣) أي: شغلتني التجارة والمعاملة في الأسواق.
(٤) في (ز): (سماعك)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٣٨).
(٦) لوحة (٤٢ ب).

حدَّثني محمَّد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن قيس بن سعد -هو ابن عبادة[١]- قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا، فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ». فردَّ سعدٌ ردًّا خفيًّا، قال قيس: فقلت: ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟ فقال: ذَرْه[٢] يكثر علينا مِن السلام. فقال رسول الله ﷺ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ». فردَّ سعدٌ رَدًّا خفيًّا، ثم قال رسول الله ﷺ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ» ثم رَجَع رسول الله ﷺ، واتَّبعه سعد فقال: يا رسول الله، إني كنت أسمع تسليمك، وأَرُدُّ عليك ردًّا خفيًّا، لتُكثِر علينا من السَّلام. قال: فانصرف معه [رسول الله ﷺ، فأمر له سعدٌ بغُسْلٍ، فاغتسل، ثم ناوله مِلْحَفَةً[٣] مصبوغةً][٤] بزعفران -أو: وَرس- فاشتمل بها، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَىٰ آلِ سَعْدِ ابْنِ عُبَادَةَ». قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام، فلما أراد الانصراف قرَّب إليه سعدٌ حمارًا قد وَطَّأ[٥] عليه بقطيفةٍ، فركب رسول الله ﷺ، فقال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ. قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «ارْكَبْ». فأبيت، فقال: «إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ». قال: فانصرفت[٦].

وقد روي هذا من وجهٍ آخر فهو حديثٌ جيدٌ قويٌّ، والله أعلم.

ثم ليُعْلَمْ أنه ينبغي للمستأذن علىٰ أهل المنزل ألَّا يَقِف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليَكن البابُ عن يمينه أو يساره؛ لما رواه أبو داود: حدَّثنا مُؤَمَّل بن الفضل الحراني -في آخرين- قالوا: حدَّثنا بَقِيَّة، حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن بُسْر[٧] قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتىٰ باب قوم، لم يستقبل الباب مِن تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ». وذلك أنَّ الدور لم يكن عليها يومئذٍ سُتُور. تَفَرَّد به أبو داود[٨].

وقال أبو داود أيضًا: حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا جرير (ح).

قال أبو داود: وحدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا حفص، عن الأعمش، عن طلحة، عن هُزَيل قال: جاء رجلٌ -قال عثمان: سعد- فوقف علىٰ باب النَّبيِّ ﷺ يستأذن، فقام علىٰ الباب -قال عثمان: مستقبل الباب- فقال له النَّبيُّ ﷺ: «هَكَذَا عَنْكَ -أو[٩]: هَكَذَا- فَإِنَّمَا الِاسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ»[١٠].

وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن سفيان الثوري، عن الأعمش عن طلحة بن مُصَرِّفٍ، عن رجلٍ،

---

(١) في (ز): (ابن عباد)، وهو خطأ.
(٢) في (ز): (ودعه).
(٣) الملحفة: ما يلبس فوق سائر اللباس يتدثر به من البرد.
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) أي: جعل عليه فراشًا وطيئًا، وهو الذي لا يؤذي راكبه.
(٦) صحيح: رواه أبو داود (٥١٨٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠١٥٧) (١٠١٥٩).
(٧) في (ز): (بشر)، وهو تصحيف.
(٨) حسن: رواه أبو داود (٥١٨٦)، وفيه بقية بن الوليد: مدلس تدليس التسوية، وللحديث شواهد منها الحديث الآتي.
(٩) لوحة (٤٣ أ).
(١٠) صحيح: رواه أبو داود (٥١٧٤، ٥١٧٥).

عن سعدٍ، عن النَّبيِّ ﷺ. رواه أبو داود من حديثه.

وفي «الصحيحين»، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتَهُ**(١) **بِحَصَاةٍ، فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ**»(٢).

وأخرج الجماعة مِن حديث شعبة، عن محمَّد بن المنكدر، عن جابر قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ في دَينٍ كان علىٰ أبي، فدققت الباب، فقال: «مَنْ ذَا»؟ قلت: أنا. قال: «أَنَا، أَنَا» كأنَّه كرهه(٣).

وإنَّما كَرِهَ ذلك؛ لأنَّ هذه اللَّفظة لا يُعرَف صاحبها حتىٰ يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهورٌ بها، وإلا فكلُّ أحدٍ يُعبِّر عن نفسه بـ«أَنَا» فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان، الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية.

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاسٍ: الاستئناس: الاستئذان. وكذا قال غيرُ واحدٍ.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بَشَّار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن أبي بِشْر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ في هذه الآية: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ قال: إنما هي خطأ من الكاتب، «حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا».

وهكذا رواه هُشَيم، عن أبي بشر -وهو جعفر بن إياس- به. وروىٰ معاذ بن سليمان، عن جعفر بن إياس، عن سعيد، عن ابن عبَّاسٍ بمثله، وزاد: وكان ابن عبَّاس يقرأ: «حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا»، وكان يقرأ علىٰ قراءة أبي بن كعب ﷺ. وهذا غريبٌ جدًّا عن ابن عبَّاس(٤).

وقال هُشَيْم: أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود: «حتىٰ تُسَلِّموا علىٰ أهلها وَتَسْتَأْذِنُوا»(٥). وهذا أيضًا رواية عن ابن عبَّاس، وهو اختيار ابن جرير.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا رَوْح، حدَّثنا ابن جُرَيْج، أخبرني عمرو بن أبي سفيان: أن عمرو بن أبي صفوان أخبره، أن كَلَدَةَ بن الحنبل أخبره، أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بِلبأ(٦) وجَدَايَة وضَغَابيس، والنَّبيُّ ﷺ بأعلىٰ الوادي. قال: فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟**» وذلك بعدما أسلم صفوان(٧).

---

(١) أي: رميته بحصاةٍ أو نواةٍ.

(٢) البخاري (٦٩٠٢)، ومسلم (٢١٥٨).

(٣) البخاري (٦٢٥٠)، ومسلم (٢١٥٥)، وأبو داود (٥١٨٧)، والترمذي (٢٧١١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠١٦٠)، وابن ماجة (٣٧٠٩).

(٤) رواه الطبري (١٨/ ١١٠)، وإسناده صحيح.

(٥) الطبري (١٨/ ١١٠).

(٦) اللبأ - بوزن عنب-: أول ما يحلب عند الولادة، والجَدَاية: من أولاد الظباء ما بلغ ستة أشهر أو سبعة، ذكرًا كان أو أنثىٰ، بمنزلة الجدي من الماعز. والضَّغَابيس -جمع ضُغْبوس-: صغار القثاء.

(٧) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٧١٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦٧٣٥)، وأحمد (٣/ ٤١٤)، ويشهد له الحديث الذي بعده.

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج، به وقال الترمذي: حسن غريب (١)، لا نعرفه إلا من حديثه.

وقال أبو داود: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا أبو الأحوَص، عن منصور، عن رِبْعي قال: حدَّثنا (٢) رجلٌ من بني عامرٍ استأذن علىٰ النَّبيِّ ﷺ، وهو في بيته، فقال: أَألِج؟ فقال النَّبيُّ ﷺ لخادمه: «**اخْرُجْ إِلَىٰ هَذَا فَعَلِّمْهُ الِاسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟**» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النَّبيُّ ﷺ، فدخل (٣).

وقال هُشَيْم: أخبرنا منصور، عن ابن سِيرين -وأخبرنا يونس بن عبيد، عن عَمْرو بن سعيدٍ الثقفي- أنَّ رجلًا استأذن علىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: أألج -أو: أنلج؟- فقال النَّبيُّ ﷺ لأَمَةٍ له، يقال لها روضة: «**قُومِي إِلَىٰ هَذَا فَعَلِّمِيهِ، فَإِنَّهُ لا يُحْسِنُ يَسْتَأْذِنُ، فَقُولِي لَهُ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ**». فسمعها الرجل، فقالها، فقال: «**ادْخُلْ**» (٤).

وقال الترمذي: حدَّثنا الفضل بن الصباح، حدَّثنا سعيد بن زكريا، عن عَنْبَسَة بن عبد الرحمن، عن محمَّد بن زاذان، عن محمَّد بن المنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّلَامُ قَبْلَ الكَلَامِ**» (٥).

ثم قال الترمذي: عنبسة ضعيف الحديث ذاهب، ومحمَّد بن زاذان مُنكَر الحديث.

وقال هُشَيْم: قال مغيرة: قال مجاهد: جاء ابن عمر من حاجة، وقد آذاه الرمضاء (٦)، فأتىٰ فُسْطَاط امرأةٍ من قريش، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ قالت: ادخل بسلام. فأعاد، فأعادت، وهو يُرَاوح بين قدميه (٧)، قال: قولي: ادخل. قالت: ادخل، فدخل (٨).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو نعيم الأحول، حدَّثنا خالد بن إياس، حدثتني جدتي أم إياس قالت: كنتُ في أربع نسوةٍ نستأذن [علىٰ عائشة] (٩) فقلت: ندخل؟ قالت: لا قلن

---

(١) لوحة (٤٣ ب). (٢) في (ز): (جاء رجل)، والمثبت موافق لما في «سنن أبي داود».

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٧٨)، وابن أبي شيبة (٢٦١٨٥)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ٣٤٠).

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٧٨، ٥١٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٦٨).

(٥) **ضعيف جدًّا**: رواه الترمذي (٢٦٩٩)، وفيه عنبسة بن عبد الرحمن، قال الحافظ: متروك، ومحمد بن زاذان: ضعيف.
تنبيه: لكن الحديث ورد بلفظ آخر: «**السلام قبل السؤال، فمن بدأكم بالسؤال قبل السلام فلا تجيبوه**» صححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٨١٦).

(٦) أي: شدة الحر. (٧) أي: يعتمد علىٰ أحداهما مرة، وعلىٰ الأخرىٰ مرة؛ ليريحهما.

(٨) مرسل: رواه الطبري (١٨/ ١١١) وإسناده مرسل، وفيه أشعث بن سوار: ضعيف، والأثر عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٧١) إلىٰ الفريابي في «تفسيره»، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢١٩).

(٩) سقط من (ز).

لصاحبتكن: تستأذن. فقالت: السَّلام عليكم، أندخل؟ قالت: ادخلوا، ثم قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ الآية[١].

وقال هُشَيْم: أخبرنا أشعث بن سَوَّار، عن كُرْدُوس، عن ابن مسعودٍ قال: عليكم أن تستأذنوا علىٰ أُمَّهاتكم وأَخواتِكُم[٢]. قال أشعث، عن عدي بن ثابت: إن امرأةً من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي علىٰ الحال التي لا أُحِبُّ أن يراني أحدٌ عليها، والد ولا ولد، وإنَّه لا يزال يدخل عليَّ رجلٌ مِن أهلي، وأنا علىٰ تلك الحال؟ قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ[٣] وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٤].

وقال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عبَّاسٍ ﷺ قال: ثلاث آيات جَحَدها النَّاس: قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قال: ويقولون: إنَّ أكرمهم عند الله أعظمهم بيتًا. قال: والإِذن كله [قد][٥] جَحَدَه الناس. قال: قلت: أستأذن علىٰ أخواتي أيتام في حِجْري، معي في بيتٍ واحدٍ؟ قال: نعم. فرددت ليرخِّص لي، فأبىٰ. قال: تحب أن تراها عُرْيَانةً؟ قلت: لا. قال: فَاسْتَأْذِنْ. قال: فراجعته أيضًا، فقال: أتُحِبُّ أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فَاستَأْذِن[٦].

قال ابن جُرَيْج: وأخبرني ابن طاوس عن أَبيهِ قال: ما مِن امرأةٍ أكره إليَّ أن أرىٰ عُرْيَتَهَا من ذات محرمٍ. قال: وكان يشدد في ذلك.

وقال ابن جريجٍ، عن الزهري: سمعتُ هُزَيل بن شُرَحْبِيل الأَوْدِيَّ الأعمىٰ، أنَّه سمع ابن مسعودٍ يقول: عليكم الإذن علىٰ أُمَّهاتِكُم[٧].

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل علىٰ امْرَأَتِهِ؟ قال: لا.

وهذا محمولٌ علىٰ عدم الوجوب، وإلا فالأَوْلَىٰ أن يُعْلِمَهَا بدخوله ولا يُفَاجِئَهَا[٨] [به،][٩] لاحتمال أن تكون علىٰ هيئةٍ لا تُحِبُّ أن يراها عليها.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا محمَّد بن حازم، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن يحيىٰ بن الجزار، عن ابن أخي زينب -امرأة عبد الله بن مسعود-، عن زينب ﵁

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٤٣٦٢)، وفي إسناده خالد بن إياس متروك الحديث. فالأثر لا يصح.

(٢) **حسن لغيره**: رواه الطبري (١٨/ ١١٠) وفيه أشعث بن سوار: ضعيف، وشيخه كردوس الثعلبي: مقبول؛ يعني: إذا توبع، وهو لم يتابع، وسيأتي نحوه عن ابن مسعود بما يقوي الرواية عنه إلا أنه ذكر هناك الأم فقط، ولكن الحكم عامٌّ لجميع المحرمات من نسائه.

(٣) لوحة (٤٤ أ).

(٤) رواه الطبري (١٨/ ١١)، ورجاله ثقات.

(٥) سقط من (ز).

(٦) رواه الطبري (١٨/ ١١٢)، ورجاله ثقات.

(٧) **صحيح**: رواه الطبري (١٨/ ١١٣).

(٨) في (ز): (ولا يغامضها).

(٩) سقط من (ز).

قالت: كان عبد الله إذا جاء مِن حاجةٍ فانتهىٰ إلىٰ الباب، تَنَحْنَح وبزَقَ؛ كراهية أن يهجُم منا علىٰ أمرٍ يكرهه. إسناد صحيح[(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنَان الواسطي، حدَّثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدَّثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي هُبَيْرة قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس -تكلم ورفع صوته[(٢)].

وقال مجاهد: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ قال: تنحنحوا أو تَنَخَّموا.

وعن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: إذا دخل الرجل بيته، اسْتُحِبَّ له أن يتَنَحْنَحَ، أو يحرك نعليه.

ولهذا جاء في «الصحيح»، عن رسول الله ﷺ: أنَّه نَهَىٰ أن يطرق الرجل أهلَه طُروقًا - وفي رواية: ليلًا يَتَخوَّنهم[(٣)].

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهارًا، فأناخ بظاهرها، وقال: «**انْتَظِرُوا حَتَّىٰ نَدْخُلَ عِشَاءً** -يعني: آخر النَّهار- **حَتَّىٰ تَمْتَشِطَ الشَّعْثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ**»[(٤)(٥)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي[(٦)]، حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا عبد الرحمن بن سليمان، عن واصل بن السائب، حدَّثني أبو سَوْرة ابن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس؟ قال: «**يَتَكَلَّمُ [الرَّجُلُ]**[(٧)] **بِتَسْبِيحَةٍ وَتَكْبِيرَةٍ وَتَحْمِيدَةٍ، وَيَتَنَحْنَحُ فَيُؤْذِنَ أَهْلَ الْبَيْتِ**». هذا حديثٌ غريبٌ[(٨)].

وقال قتادة في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ قال: هو الاستئذان. [قال: وكان يقال: الاستئذان][(٩)] ثلاث، فمَن لم يؤذن له فيهن[(١٠)] فليرجع. أمَّا الأولىٰ: فليسمع الحي، وأما الثَّانية: فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة: فإن شاءوا أَذِنُوا وإن شاءوا رَدُّوا. ولا تَقِفَنَّ علىٰ باب قومٍ رَدُّوك عن بابهم؛ فإنَّ للنَّاس حاجاتٍ ولهم أشغال، والله أولىٰ بالعذر.

---

(١) **صحيح**: رواه الطبري (١٨/ ١١٣).
(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٤٣٤٣)، وهو شاهد للرواية السابقة.
(٣) البخاري (٥٢٤٣)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر.
(٤) البخاري (٥٢٤١) من حديث جابر.
(٥) **المغيبة**: الغائب عنها زوجها، والاستحداد: حلق العانة، والشعثة: التي اغبرَّ وتلبَّد واتَّسخ شعرها. وهذه هي الحكمة من النهي عن الإسراع للقدوم للأهل دون إعلامهم.
(٦) لوحة (٤٤ ب). (٧) سقط من (ز).
(٨) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (٣٧٠٧)، وأبو سورة ضعيف: كما في « التقريب»، والراوي عنه ضعيف كذلك، وضعفه البوصيري في «الزوائد» (٣/ ١٧١).
(٩) سقط من (ز). (١٠) في (ز): (فيهم).

وقال مقاتل بن حيَّان في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لَقِيَ صاحبه، لا يسلم عليه، ويقول: حُيِّيتَ صباحًا وحُيِّيتَ مساءً، وكان ذلك تحيَّة القوم بينهم. وكان أحدهم ينطلق إلىٰ صاحبه فلا يستأذن حتىٰ يَقْتَحِم، ويقول: «قد دخلتُ». فيشق ذلك علىٰ الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغيَّر الله ذلك كله، في ستر وعفةٍ، وجعله نقيًّا[1] نزهًا من الدنس والقذر والدرن، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾.

وهذا الذي قاله مقاتل حسن؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: الاستئذان خير لكم، بمعنىٰ: هو خيرٌ للطرفين: للمستأذن ولأهل البيت، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وذلك لما فيه من التَّصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أَذِن، وإن شاء لم يَأْذَن ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: إذا رَدُّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: رجوعكم أزكىٰ لكم وأطهر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبتُ عمري كلَّه هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذنَ علىٰ بَعض إخواني، فيقول لي: «ارجع» فأرجع وأنا مغتبط؛ لقوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[2].

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي: لا تَقِفُوا علىٰ أبواب النَّاس.

وقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟[3] بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ هذه الآية الكريمة أخصُّ مِن التي قبلها، وذلك أنَّها تقتضي جواز الدُّخول إلىٰ البُيُوتِ التي ليس فيها أحدٌ، إذا كان له فيها متاعٌ، بغير إذن، كالبيت المُعَدِّ للضَّيف، إذا أذن له فيه أول مرة، كفىٰ.

قال ابن جريج: قال ابن عبَّاس: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، ثم نسخ واستثني فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ﴾: وكذا روي عن عكرمة، والحسن البصري.

وقال آخرون: هي بيوت التُّجَّار، كالخانات[4] ومنازل الأَسْفار، وبيوت مكَّة، وغير ذلك. واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة. والأول أظهر، والله أعلم.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشَّعر.

---

(١) في (ز): (وجعله نبيًّا).
(٢) الطبري (١٩/ ١٥٠ ط.شاكر).
(٣) لوحة (٤٥ أ).
(٤) في (ز): في الخانات.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (١) وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾

هذا أمرٌ مِن الله تعالىٰ لعباده المؤمنين أن يغضُّوا مِن أبصارهم عمَّا حرَّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلىٰ ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغُضُّوا أبصارهم عنِ المحارم، فإنِ اتَّفق أن وقع البصر علىٰ مُحرَّم من غير قصد، فلْيَصْرِف بصره عنه سريعًا، كما رواه مسلم في «صحيحه»، من حديث يونس بن عُبَيد، عن عمرو ابن سعيد، عن أبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن جده جرير[٢] بن عبد الله البجلي ﷺ قال: سألت النَّبيَّ ﷺ عن نظرة الفَجْأَةِ، فأمرني أن أصرفَ بَصَري[٣].

وكذا رواه الإمام أحمد، عن هُشَيْم، عن يونس بن عبيد به. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من حديثه أيضًا. وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي روايةٍ لبعضهم: فقال: «أَطْرِقْ بَصَرَكَ» يعني: انظر إلىٰ الأرض. والصَّرف أعم؛ فإنه قد يكون إلىٰ الأرض، وإلىٰ جهة أخرىٰ، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدَّثنا إسماعيل بن موسىٰ الفَزَاري، حدَّثنا شَريك، عن أبي ربيعة الإيادي، عن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يَا عَلِيُّ، لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الأُولَىٰ وَلَيْسَ لَكَ الآخِرَةُ»[٤].

ورواه الترمذي من حديث شريك[٥]، وقال: غريب، لا نعرفه إلا من حديثه.

وفي «الصحيح» عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ». قالوا: يا رسول الله، لا بد[٦] لنا من مجالسنا، نتحدث[٧] فيها. فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَبَيْتُمْ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ». قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَىٰ، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ»[٨].

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: إن قيل: لِمَ أتىٰ بـ(من) التبعيضية في غض الأبصار وقيدها به دون حفظ الفروج، مع أنه غير مطلق ومقيد في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥-٦]؟ لأن المستثنىٰ في الحفظ هو الأزواج والسراري، وهو قليل بالنسبة لما عداه. فجعل كالعدم ولم يقيد به. مع أنه معلوم من الآية الأخرىٰ. بخلاف ما يطلق فيه البصر، فإنه يباح في أكثر الأشياء، إلا نظر ما حرم عن قصد. فقيّد الغض به ومدخول (من) التبعيضية ينبغي أن يكون أقل من الباقي. وقيل: إن الغض والحفظ عن الأجانب. وبعض الغض ممنوع بالنسبة إليهم، وبعضه جائز: بخلاف الحفظ فلا وجه لدخول من فيه. كذا في «العناية».

(٢) في (ز): (عن جده عن جرير)، وهو خطأ.

(٣) مسلم (٢١٥٩)، وأبو داود (٢١٤٨)، والترمذي (٢٧٧٦).

(٤) رواه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧). وحسنه الألباني.

(٥) لوحة (٤٥ ب).

(٦) في (ز): (ما بد لنا).

(٧) في (ز): (نقعد فيها).

(٨) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

وقال أبو القاسم البغوي: حدَّثنا طالوت بن عباد، حدَّثنا فضل بن جبير: سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اكْفُلُوا لِي بِسِتٍّ أَكْفُلْ لَكُمْ بِالجَنَّةِ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلا يَكْذِبْ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلا يَخُنْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلا يُخْلِفْ. وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ**»(١).

وفي «صحيح البخاري»: «**مَنْ يَكْفُلُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ [وَمَا بَيْنَ]**(٢) **رِجْلَيْهِ، أَكْفُلُ لَهُ الجَنَّةَ**»(٣).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة قال: كل ما عُصِيَ الله به فهو كبيرة. وقد ذكر الطَّرَفين فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾.

ولما كان النَّظر داعية إلىٰ فساد القلب، كما قال بعض السلف: «النَّظر سهام سُمٍّ(٤) إلىٰ القلب»؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلىٰ ذلك، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾. وحفظُ الفَرج تارةً يكون بمنعه من الزنا، كما قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج:٢٩، ٣٠] وتارةً يكون بحفظه من النَّظر إليه، كما جاء في الحديث في «مسند أحمد» و«السنن»: «**احْفَظْ عَوْرَتَكَ، إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**»(٥).

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهر لقلوبهم وأنقىٰ لدينهم، كما قيل: «مَنْ حَفِظ بصره، أورثه الله نورًا في بصيرته». ويروىٰ: «في قَلْبِه».

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا عتاب، حدَّثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيىٰ بن أيوب، عن عُبَيْد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ [أَوَّلَ مَرَّةٍ]**(٦) **ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلاوَتَهَا**(٧)»(٨).

ورُوي هذا مرفوعًا عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة ﷺ ولكن في إسنادها ضعف، إلا أنَّها في

---

(١) حسن لغيره: رواه ابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (ص٨٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٩٢)، وفيه فضل بن جبير. قال ابن حبان في «المجروحين»: لا يحل الاحتجاج به.
قلت: لكن للحديث شواهد: منها ما رواه الحاكم (٤/ ٣٥٨)، وأحمد (٥/ ٣٢٣) من حديث عبادة بن الصامت، ورجاله ثقات لكنه منقطع.
ومنها ما رواه الحاكم (٤/ ٣٥٩) من حديث سعيد بن سنان، وإسناده لا بأس به.

(٢) سقط من (ز). (٣) البخاري (٦٤٧٤). (٤) في (ز): (سهام سهم).

(٥) **حسن**: رواه أبو داود (٤٠١٧)، وابن ماجة (١٩٢٠)، وأحمد (٥/ ٤٠٣).

(٦) سقط من (ز). (٧) لوحة (٤٦ أ).

(٨) **موضوع**: رواه أحمد (٥/ ٢٦٤)، وفيه عبيد الله بن زحر قال ابن حبان: ويروي الموضوعات عن الأثبات، وإذا روىٰ عن علي بن يزيد أتىٰ بالطامات، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم أبي عبد الرحمن لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم.

الترغيب، ومثله يتسامح فيه[(١)].

وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زَحْر[(٢)]، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعًا: «لَتَغُضُّنَّ أَبْصَارَكُمْ، وَلَتَحْفَظُنَّ فُرُوجَكُمْ، وَلَتُقِيمُنَّ وُجُوهَكُمْ أَوْ لَتُكْسَفَنَّ وُجُوهُكُمْ»[(٣)].

وقال الطبراني: حدَّثنا أحمد بن زهير التُّسْتُري قال: قرأنا علىٰ محمَّد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي بُكَيْر، حدَّثنا هُرَيْم بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ النَّظَرَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهُ مَخَافَتِي، أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»[(٤)].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وفي «الصَّحيح»، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُتِبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ. فَزِنَىٰ العَيْنَيْنِ: النَّظَرُ. وَزِنَىٰ اللِّسَانِ: النُّطْقُ. وَزِنَىٰ الأُذُنَيْنِ: الِاسْتِمَاعُ. وَزِنَىٰ اليَدَيْنِ: البَطْشُ. وَزِنَىٰ الرِّجْلَيْنِ: الخُطَىٰ. وَالنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ». رواه البخاري تعليقًا، ومسلم مسندًا من وجهٍ آخر بنحو ما تقدم[(٥)].

وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحدَّ الرجل بَصَره إلىٰ الأمرد. وقد شَدَّد كثيرٌ من أئمَّة الصوفيَّة في ذلك، وحَرَّمه طائفةٌ من أهل العلم؛ لما فيه من الافتتان، وشَدَّد آخرون في ذلك كثيرًا جدًّا.

وقال ابن أبي الدنيا: حدَّثنا أبو سعيدٍ المدني، حدَّثنا عمر بن سهل المازني، حدَّثني عمر بن محمَّد ابن صُهْبَان، حدَّثني صفوان بن سليم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ[(٦)] يَوْمَ القِيَامَةِ، إِلَّا عَيْنًا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَعَيْنًا سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَعَيْنًا يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ»[(٧)].

---

(١) حديث ابن عمر: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣١). وفيه أبو المهدي سعيد بن سنان الحنفي: متروك الحديث.
وحديث حذيفة: رواه الحاكم (٤/ ٣١٤) وصححه، وتعقبه الذهبي قال: إسحاق واهٍ، وعبد الرحمن هو الواسطي: ضعفوه.

(٢) في (ز): (عبيد الله بن يزيد)، وهو خطأ.

(٣) إسناده موضوع: رواه الطبراني (٨/ ٢٤٦)، انظر الحديث قبل السابق.

(٤) ضعيف: «المعجم الكبير» (١٠/ ٢١٤)، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق: ضعيف.

(٥) البخاري (٦٣٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٦) في (ز): (عين زانية)، وهو خطأ.

(٧) ضعيف جدًّا: عمر بن صهبان: منكر الحديث، والحديث رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٦٣). واعلم أن الفقرتين الأخيرتين ثبت صحتهما. ولفظه: «عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»: رواه الترمذي (١٦٣٩) وحسنه من حديث ابن عباس، وله شاهد من حديث أنس، رواه أبو يعلىٰ (٤٣٤٦)، وأبو نعيم

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ[1] وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ[2] أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

هذا أمْرٌ مِن الله تعالىٰ للنِّساء المؤمنات، وغَيْرَة منه لأزواجهنَّ عباده المؤمنين، وتمييز لهن عَن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات. وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيَّان قال: بلغنا -والله أعلم- أن جابر بن عبد الله الأنصاري حَدَّث: أن «أسماء بنت مُرْشِدَة» كانت في محلٍّ لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتَأَزِّراتٍ[3] فيبدو ما في أرجلهن من الخَلَاخِل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا. فأنزل الله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية[4].

فقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ أي: عمَّا[5] حَرَّم الله عليهن من النَّظر إلىٰ غير أزواجهن. ولهذا ذهب [كثير من العلماء][6] إلىٰ أنَّه: لا يجوز للمرأة أن تنظر إلىٰ الأجانب بشهوةٍ ولا بغير شهوةٍ أصلًا. واحتجَّ كثيرٌ منهم بما رواه أبو داود والترمذي، من حديث الزهري، عن نبهان -مولىٰ أم سلمة- أنَّه حدَّثه: أنَّ أُمَّ سلمة حَدَّثته: أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابنُ أُمِّ مكتومٍ فدخل عليه، وذلك بعد ما أُمِرْنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احْتَجِبَا مِنْهُ» فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمىٰ لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ عَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ».

= (٧/ ١١٩)، وإسناده حسن، وبهذا يرتقي الحديث للصحة.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ النِّسَاءَ بِإِرْخَاءِ الْجَلَابِيبِ؛ لِئَلَّا يُعْرَفْنَ وَلَا يُؤْذَيْنَ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، وَقَدْ ذَكَرَ عَبِيدَةُ السلماني وَغَيْرُهُ: أَنَّ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ كُنَّ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبَ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِنَّ حَتَّىٰ لَا يَظْهَرَ إِلَّا عُيُونُهُنَّ لِأَجْلِ رُؤْيَةِ الطَّرِيقِ، وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»: «أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُحْرِمَةَ تُنْهَىٰ عَنْ الِانْتِقَابِ وَالْقُفَّازَيْنِ» وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ النِّقَابَ وَالْقُفَّازَيْنِ كَانَا مَعْرُوفَيْنِ فِي النِّسَاءِ اللَّاتِي لَمْ يُحْرِمْنَ وَذَلِكَ يَقْتَضِي سَتْرَ وُجُوهِهِنَّ وَأَيْدِيهِنَّ.

(٢) لوحة (٤٦ ب). (٣) الإزار: هو ما يستر أسفل البدن.

(٤) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٣)، والإسناد معضل، وفيه بكير بن معروف: ضعيف.

(٥) في (ز): (ما). (٦) سقط من (ز).

ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[(١)].

وذهب آخرون من العلماء إلىٰ جواز نَظَرِهنَّ إلىٰ الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلىٰ الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم حتىٰ مَلَّت[(٢)] ورجعت[(٣)].

وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قال سعيد بن جُبَيْر: عن الفواحش. وقال قتادة وسفيان: عمَّا لا يحل لهن. وقال مقاتل: عن الزِّنا. وقال أبو العالية: كل آيةٍ نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج، فهو من الزنا، إلا هذه الآية: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ألا يراها أحدٌ.

وقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يُظهِرْنَ شيئًا من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه.

وقال ابن مسعودٍ: كالرِّدَاء والثياب[(٤)]. يعني: علىٰ ما كان يتَعانَاه[(٥)] نساء العرب، من المِقْنعة[(٦)] التي تُجَلِّل ثيابها، وما يبدو مِن أسافل الثِّياب فلا حرج عليها فيه؛ لأنَّ هذا لا يمكن إِخْفَاؤُه. [ونظيره في زِيِّ النِّساء ما يظهر مِن إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه. وقال][(٧)] بقول ابن مسعود: الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النَّخَعي، وغيرهم.

وقال الأعمش، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وَجْهَهَا وكفيها والخاتم[(٨)]. ورُوي عن ابن عمر[(٩)]، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء، والضَّحَّاك، وإبراهيم النَّخَعي، وغيرهم -نحوُ ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيرًا للزِّينة التي نُهِينَ عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السَّبيعي، عن أبي الأحْوَص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: الزينة: القُرْط والدُّمْلُج والخلخال والقلادة[(١٠)]. وفي روايةٍ عنه بهذا الإسناد قال: الزِّينة زِينتَان: فزِينةٌ لا يراها إلا الزَّوج: الخاتم والسوار، و[زينة يَرَاها الأجانب، وهي][(١١)] الظاهر من الثياب[(١٢)].

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨) وقال: حسن صحيح.
قلت: فيه نبهان مولىٰ أم سلمة قال الحافظ: مقبول.

(٢) لوحة (٤٧ أ).
(٣) البخاري (٤٥٤).

(٤) صحيح: رواه الطبري (١٨/ ١١٧) من طرق عنه. وأحد أسانيده صحيح، والآخر رجاله ثقات.

(٥) أي: يأخذن أنفسهن به.
(٦) المِقْنعة: ما تغطي به المرأة رأسها.
(٧) سقط من (ز).

(٨) ضعيف: رواه البيهقي (٢/ ٢٢٥)، والطبري (١٨/ ١١٨)، وإسناده ضعيف، فيه أحمد بن عبد الجبار العطاردي: ضعيف، انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٥٠٣).

(٩) ضعيف: رواه البيهقي (٢/ ٢٢٦) بصيغة التمريض ولم يذكر سنده.

(١٠) القرط: الحَلَق، والدملج والدملوج: سوار يحيط بالعضد، والخلخال: حلية كالسوار تلبسها النساء في أرجلهن، والقلادة: ما يجعل في العنق من حلي ونحوه.

(١١) سقط من (ز).

(١٢) رواه الطبري (١٨/ ١١٧)، وابن أبي حاتم (١٤٤٠٠)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٧٩) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر.

وقال الزُّهري: [لا يبدو][(١)] لهؤلاء الذين سَمَّىٰ الله ممَّن لا يحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حَسْرٍ، وأما عامة الناس فلا يَبْدُو منها إلا الخَوَاتِم.

وقال مالك، عن الزهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[(٢)] الخاتم والخلخال.

ويحتمل أن ابن عبَّاس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحَدِيث الذي رواه أبو داود في «سننه»:

حدَّثنا يعقوب بن كعب الأنطاكي ومُؤَمَّل بن الفضل الحَرَّاني[(٣)] قالا: حدَّثنا الوليد، عن سعيد بن بَشِير، عن قتادة، عن خالد بن دُرَيك، عن عائشة ﵂ أنَّ أسماء بنت أبي بكرٍ دخلت على النَّبيِّ ﷺ[(٤)] وعليها ثيابٌ رقاقٌ، فأعرض عنها وقال: «**يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ المَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ المَحِيضَ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يُرَىٰ مِنْهَا إِلَّا هَذَا**»[(٥)] وأشار إلىٰ وجهه وكفيه.

لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي: هذا مرسلٌ؛ خالد بن دُرَيك لم يسمع من عائشة، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: المقَانع يعمل لها صَنفات[(٦)(٧)] ضاربات علىٰ صدور النِّساء؛ لتواري ما تحتها من صَدْرِها وتَرَائِبِها؛ ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهليَّة، فإنَّهن لم يكُنَّ يفعلن ذلك، بل كانت المرأة تَمُرُّ بين الرِّجال مسفحةً[(٨)] بصدرها، لا يُوَارِيه شيءٌ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شَعْرِها وأقرطةِ آذانها. فأمر الله المؤمنات أن يَسْتَتِرْن في هيئاتهن وأحوالهن، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخُمُر: جمع خِمار، وهو ما يُخمر به؛ أي: يُغطَّىٰ به الرأس، وهي التي تسميها الناس المقَانع.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾: ولْيَشْدُدْن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: علىٰ النَّحر والصَّدر، فلا يُرَىٰ منه شيء.

وقال البخاري: وقال[(٩)] أحمد بن شَبِيب: حدَّثنا أبي، عن يونس، عن ابن شِهَابٍ، عن عُرْوَةَ، عن

---

(١) سقط من (ز).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أن الراجح فيه: ما ظهر من اللباس؛ يعني: الشيء الذي لابد من ظهوره، وظهوره ضروري فهذا مباح، ويدل علىٰ ذلك أيضًا، أن الزينة لا تُستعمل إلا فيما يتزيَّن به الإنسان من لباسٍ وغيره، ويؤيده أيضًا ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ ولو كان المراد: الوجه والكفين لقال: «إلا ما أُظهر» مثلًا؛ لأنه لا يظهر إلا إذا أُظهر.

(٣) في (ز): (الفضل الجواني)، وهو خطأ. (٤) لوحة (٤٧ ب).

(٥) ضعيف: رواه أبو داود (٤١٠٤)، وفيه انقطاع بين خالد بن دريك وعائشة، وأيضًا فقتادة مدلس وقد عنعن.

(٦) في (ز): (صيقات).

(٧) الصنفات - جمع صَنِفَة -: حاشية الثوب، أو قطعة من الثوب.

(٨) أي: كاشفة.

(٩) في (ز): (حدثنا أحمد بن شبيب). والمثبت موافق لما في «البخاري».

عائشة ﵂ قالت: يَرحَم الله نساء المهاجرات الأُوَل، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققْنَ مُرُوطهن [(١)] فاختَمَرْن به [(٢)].

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو نُعَيم، حدَّثنا إبراهيم بن نافع، عن الحسن بن مسلم، عن صَفيّة بنت شيبة أنَّ عائشة ﵂ [كانت تقول] [(٣)]: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: أخذن أُزُرَهُنَّ فَشَقَقنها مِن قِبَلِ الحواشي، فاختمرن بها [(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدَّثني الزنجيُّ بن خالد، حدَّثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن صفيَّة بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة، قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن. فقالت عائشة ﵂: إنَّ لِنِسَاء قريشٍ لفضلًا وإني -والله- ما رأيت أفضلَ مِن نساء الأَنصارِ أشدُّ تصديقًا [(٥)] بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتَّنزيل. لقد أُنْزِلَت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، انقلب إليهنَّ رجالهن يتلون عليهنَّ ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل علىٰ امرأته وابنته وأخته، وعلىٰ كلِّ ذي قرابةٍ، فما مِنهُنَّ امرأة إلا قامت إلىٰ مِرْطِها المُرَحَّل [(٦)] فاعتجرت به؛ تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله مِن كتابه، فأصبحْنَ وراء رسول الله ﷺ الصُّبحَ معتجراتٍ، كأن علىٰ رءوسهن الغِرْبَان [(٧)]. ورواه أبو داود من غير وجهٍ، عن صفية بنت شيبة به.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أن قُرَّةَ [(٨)] بن عبد الرحمن أخبره، عن ابن شهاب، عن عُرْوَة، عن عائشة؛ أنَّها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأُوَل، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْن أكثَف مروطهن فاختمَرْنَ به. ورواه أبو داود من حديث ابن وهبٍ به [(٩)].

وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ يعني: أزواجهن، ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كلُّ هؤلاءِ محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير اقتصادٍ وتبهرجٍ.

وقال ابن المنذر: حدَّثنا موسىٰ -يعني: ابن هارون- حدَّثنا أبو بكر -يعني ابن أبي شيبة- حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد بن سلمة، أخبرنا داود، عن الشعبي وعِكْرِمَة في هذه الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

---

(١) **المروط**: جمع مِرْط، وهو كساء من صوف.
(٢) البخاري (٤٧٥٩).
(٣) في (ز): (قالت)، والمثبت موافق لما في «البخاري».
(٤) البخاري (٤٧٥٩).
(٥) لوحة (٤٨ أ).
(٦) **المِرْطُ المُرَحَّلُ**: الذي قد نُقش فيه تَصاوير الرِّحال، **واعتجرت المرأة**: لبست المعجر، وهو الثوب الذي تشده علىٰ رأسها.
(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٤٤٠٦)، ورواه أبو داود (٤١٠٠، ٤١٠١) مختصرًا بإسنادٍ صحيحٍ. ورواه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٨١) وزاد عزوه لابن أبي حاتم وابن مردويه.
(٨) في (ز): (قم قرة)، والصواب ما أثبتناه.
(٩) تقدم.

لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآبِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ -حتىٰ فرغ منها قال: لَمْ يذكر العَمَّ ولا الخَالَ؛ لأنهما يَنعَتَان لأبنائهما، ولا تضع خمارها عند العمِّ والخال فأمَّا الزوج فإنَّما ذلك كله من أجله، فتَتَصَنَّع له ما لا يكون بحضرة غيره.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآبِهِنَّ﴾ يعني: تُظهر زينتها أيضًا للنِّساء المسلمات دون نساء [أهل][1] الذِّمَّة؛ لئلَّا تصفهن لرجالهن، وذلك -وإن كان محذورًا في جميع النساء- إلا أنَّه في نساء أهل الذِّمَّة أشدُّ، فإنَّهن [لا يمنعهن][2] من ذلك مانع، وأمَّا المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تُبَاشِرُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ، تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا»[3]. أخرجاه في «الصحيحين»، عن ابن مسعود.

وقال سعيد بن منصور في «سننه»: حدَّثنا إسماعيل بن عياش، عن هشام بن الغاز، عن عبادة بن نُسَيٍّ، عن أبيه، عن الحارث بن قيس قال[4]: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب إلىٰ أبي عبيدة: أمَّا بعد، فإنَّه بلغني أنَّ نِساء مِن نساء المسلمين يدخلن الحمَّامات مع نساء أهل الشرك، فَانْهَ مَنْ قِبَلَك فلا يحل لامرأةٍ تُؤْمِن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلىٰ عَوْرَتِها إلَّا أهل مِلَّتِها[5].

وقال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ نِسَآبِهِنَّ﴾ قال: نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي المشركة.

وروىٰ عَبدٌ[6] في «تفسيره» عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس: ﴿أَوْ نِسَآبِهِنَّ﴾، قال: هُنَّ المسلمات لا تبديه ليهوديةٍ ولا نصرانيَّةٍ، وهو النَّحْر والقُرْط والوِشَاح، وما [لا][7] يحل أن يراه إلا مَحْرَمٌ[8].

وروىٰ سعيد: حدَّثنا جرير، عن ليث، عن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمَارَهَا عند مشركةٍ؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿أَوْ نِسَآبِهِنَّ﴾ فليست من نسائهن.

وعن مكحول وعبادة بن نُسَيٍّ: أنَّهما كرها أن تُقَبِّل النصرانيةُ واليهوديةُ والمجوسيَّةُ المسلمةَ.

فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أبو عمير، حدَّثنا ضَمْرَة قال: قال ابن

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) البخاري (٥٢٤١)، وأبو داود (٢١٥٠)، والترمذي (٢٧٩٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٢٣١)، ولم أقف عليه عند مسلم كما أشار المصنف.

(٤) لوحة (٤٨ ب).

(٥) **ضعيف**: رواه البيهقي (٧/ ٩٥)، وفي إسناده (نسي الكندي): مجهول وبقية رجاله ثقات، والأثر أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٨٣) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٦) أي: عبد بن حميد الإمام المعروف. (٧) سقط من (ز).

(٨) **ضعيف**: في إسناده الكلبي محمد بن السائب متهم بالكذب، والراوي عنه أبو صالح: باذام مولىٰ أم هانئ: ضعيف يرسل.

عطاء، عن أبيه: ولما قدم أصحاب النَّبيِّ ﷺ بيت المقدس، كان قَوَابل نسائهم اليهوديات والنصرانيات[(١)] فهذا -إن صح- مَحمولٌ علىٰ حال الضرورة، أو أن ذلك مِن باب الامتهان، ثم إنَّه ليس فيه كشف عورة ولا بُدَّ، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قال ابن جُرَيجٍ: يعني: مِن نساء المشركين، فيجوز لها أن تُظهِرَ [زينتها لها وإن كانت مشركةً؛ لأنَّها أمتها. وإليه ذهب سعيد بن المسيَّب. وقال الأكثرون: بل يَجُوز لها أن تظهر][(٢)] علىٰ رقيقها مِن الرِّجال[(٣)] والنِّساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود:

حدَّثنا محمَّد بن عيسىٰ، حدَّثنا أبو جُمَيْعٍ سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس ﵁ أن النَّبيَّ ﷺ أتىٰ فاطمةَ بعبدٍ قد وَهَبَهُ لها. قال: وعلىٰ فاطمة ثوب إذا قَنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأىٰ النَّبيُّ ﷺ ما تلقىٰ قال: «**إِنَّهُ لَيسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ، إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَغُلَامُكِ**»[(٤)].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» [في][(٥)] ترجمة حُدَيْج الخَصِيِّ -مولىٰ معاوية- أنَّ عبد الله بن مَسْعَدَة الفزاري كان أسود شديد الأُدْمَة، وأنَّه قد كان النَّبيُّ ﷺ وهبه لابنته فاطمة، فربته ثم أعتقته، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صِفِّين[(٦)]، وكان [من][(٧)] أشدِّ النَّاس [علىٰ][(٨)] عليِّ بن أبي طالب ﵁.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن الزهري، عن نَبْهَان، عن أم سلمة، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا كَانَ لِإِحْدَاكُنَّ مُكَاتَبٌ، وَكَانَ لَهُ مَا يُؤَدِّي، فَلْتَحْتَجِبْ مِنْهُ**»[(٩)].

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٤٤١٧)، وإسناده معضل.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين** ﵀: لابد أن يكون المُلك تامًّا فإن كان لها عبدٌ مشتركٌ فإنه لا يجوز لها إبداء الزينة له؛ لأنه لا يقال: ملكته وإنما ملكت بعضه، ولهذا لا يجوز للرجل أن يتسرَّىٰ الأمة المشتركة، وعليه فإن كانت أمة مشتركة بينه وبين شخصٍ فلا يجوز أن يتسرَّىٰ بها؛ لأنها ليست ملكه، كما أنه لا يجوز للمرأة أن تبدي شيئًا من زينتها الخفية للمملوك بينها وبين غيرها؛ لأنه لا يصدق عليه أنه ملكها بل إنه مشترك.

الصحيح: أنه لا يجوز للمرأة أن تكشف للمحارم إلا ما جرت العادة به فقط؛ لأن ما جرت العادة به لا يُحتشم منه ولا يُبالَىٰ به، في عرفنا الآن تُخرِج الكف، والذراع، والساق، والرأس، والرقبة، كل هذا يخرج عادةً للمحارم، ولهذا لو زاد علىٰ هذا الأمر لوجدت الناس يُنكرونه.

علىٰ كل حال: الصحيح في هذه المسألة أن يرجع إلىٰ ما جرت به العادة إلَّا في الشيء الذي لا يمكن كشفه إلا بفتنةٍ متوقعةٍ، أو لازمةٍ فهذا لا يجوز.

إذا كان لا يجوز لها أن تضرب بالرِّجْل خوفًا من ظهور صوت الخلخال، فما بالك بمن تُظهر الخلخال نفسه، وتظهر الأسورة في اليدين، وتُظهر القلادة علىٰ العنق، يكون هذا أشد وأولىٰ.

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٤١٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٧٩٩).

(٥) ليست في (ز).

(٦) لوحة (٤٩ أ).

(٧) سقط من (ز).

(٨) سقط من (ز).

(٩) **ضعيف**: رواه أبو داود (٣٩٢٨)، وفي إسناده نبهان مولىٰ أم سلمة: قال الحافظ: مقبول.

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّدٍ، عن سفيان به.

وقوله: ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ يعني: كالأُجَرَاء والأتباع الذين ليسوا بأَكْفَاء، وهم مع ذلك في عقولهم وَلَهٌ وخوث[١]، ولا همَّ لهم إلىٰ النِّساء ولا يَشْتَهُونَهُنَّ.

قال ابن عبَّاس: هو المغفل الذي لا شهوةَ له.

وقال مجاهد: هو الأبْلَه.

وقال عكرمة: هو المخَنَّث الذي لا يقوم زُبُّه[٢]. وكذلك قال غير واحدٍ من السَّلف.

وفي «الصَّحيح» من حديث الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة؛ أنَّ مخنثًا[٣] كان يدخل علىٰ أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدُّونه من غير أولي الإربة، فدخل النَّبيُّ ﷺ وهو يَنْعَت امرأةً: يقول: إنَّها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثَمانٍ[٤]. فقال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أَرَىٰ هَذَا يَعْلَمُ مَا هَاهُنَا، لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ**» فأخرجه، فكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعةٍ يَسْتَطْعِم[٥].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: دخل عليها [رسول الله ﷺ][٦] وعندها مخنثٌ، وعندها [أخوها][٧] عبد الله بن أبي أمية [والمخنَّث يقول لعبد الله: يا عبد الله بن أبي أمية][٨] إن فتح الله عليكم الطائف غدًا، فعليك بابنة غِيلان، فإنها تُقْبِل بأربعٍ وتُدْبِر بثمانٍ. قال: فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة: «**لَا يَدْخُلَنَّ هَذَا عَلَيْكِ**».

أخرجاه في «الصحيحين»، من حديث هشام بن عروة به[٩].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رجل يُدْخَلُ علىٰ أزواج النَّبيِّ ﷺ مخنَّثٌ، وكانوا يَعُدُّونه مِن غير أولي الإربة، فدخل النَّبيُّ ﷺ [يومًا][١٠] وهو عند بعض نسائه، وهو يَنْعَت امرأة. فقال: إنَّها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمانٍ. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَلَا أَرَىٰ هَذَا يَعْلَمُ مَا هَاهُنَا؟ لَا[١١] يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا**» فحجبوه[١٢].

ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي من طريق عبد الرزاق به.

---

(١) الوَلَه: ذهاب العقل، وخوث الرجل: عظم بطنه واسترخىٰ.

(٢) أي: لا ينتصب ذكره. (٣) في (ز): أن مؤنثًا.

(٤) أي: تقبل بأربع عُكَن، وتدبر بثمان عكن، والعكن: جمع عكنة، وهي ما انطوىٰ وتثنىٰ من لحم البطن سمنًا.

(٥) مسلم (٢١٨١) من حديث عائشة. (٦) سقط من (ز).

(٧) سقط من (ز). (٨) سقط من (ز).

(٩) ورواه البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠)، وأحمد (٦/ ٢٩٠) من حديث أم سلمة.

(١٠) سقط من (ز). (١١) لوحة (٤٩ ب).

(١٢) مسلم (٢١٨١)، وأبو داود (٤١٠٧ - ٤١١٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٢٤٧)، وأحمد (٦/ ١٥٢).

وقوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: لِصَغرِهِم لا يفهمون أحوال النِّساء وعوراتهنَّ من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطِّفل صغيرًا لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله علىٰ النِّساء. فأمَّا إن كان مراهقًا أو قريبًا منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرِّق بين الشوهاء والحسناء، فلا يُمَكَّن من الدخول علىٰ النِّساء. وقد ثبت في «الصحيحين»، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَىٰ النِّسَاءِ». قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحَمْو[١]؟ قال: «الحَمْوُ المَوْتُ»[٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت -لا يسمع صوته- ضربت برِجْلِها الأرض، فيعلم الرِّجال طنينه، فنهىٰ الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيءٌ من زينتها مستورًا، فتحركت بحركةٍ لتظهر ما هُو خفيٌّ، دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾: ومن ذلك أيضًا أنَّها تنهىٰ عن التَّعطر والتَّطيب عند خروجها من بيتها ليَشْتَمَّ الرجال طِيبَها، فقد قال أبو عيسىٰ الترمذي:

حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد القَطَّان، عن ثابت بن عُمَارة الحنفي، عن غُنَيْم بن قيس، عن أبي موسىٰ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ، وَالمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا»[٣] يعني: زانية.

قال: وفي الباب، عن أبي هريرة، وهذا حسن صحيح.

رواه أبو داود والنسائي، من حديث ثابت بن عمارة به.

وقال أبو داود: حدَّثنا محمَّد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولىٰ أبي رُهْم، عن أبي هريرة ﷺ قال: لَقِيَتْه امرأةٌ وجد منها ريح الطيب، ولذيلها إعصار[٤] فقال: يا أمة الجبَّار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: وله تَطَيَّبتِ؟ قالت: نعم. قال: إنِّي سمعت حِبِّي أبا القاسم ﷺ

---

(١) اتفق أهل اللغة علىٰ أن الأحماء: أقارب زوج المرأة، كأبيه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه ونحوهم، والأختان: أقارب زوجة الرجل، والأصهار: تقع علىٰ النوعين، وأما قوله ﷺ: الحمو الموت، فمعناه: أن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلىٰ المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه، بخلاف الأجنبي. والمراد بالحمو هنا: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت، وإنما المراد: الأخ وابن الأخ والعم وابنه ونحوهم، ممن ليس بمحرم، وعادة الناس المساهلة فيه وأن يخلو بامرأة أخيه فهذا هو الموت وهو أولىٰ بالمنع من الأجنبي. «شرح مسلم» للنووي: (١٤/ ١٥٤).

(٢) البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

(٣) حسن: رواه الترمذي (٢٧٨٦)، وأبو داود (٤١٧٣) من حديث أبي موسىٰ، وله شواهد كما ذكره المصنف.

(٤) ولذيلها: أي لذيل المرأة، إعصار: ريح ترتفع بتراب بين السماء والأرض وتستدير كأنها عمود، فقال: يا أمة الجبار، ناداها بهذا الاسم تخويفًا لها. «عون المعبود»: (٦/ ٢١٦) ط: المعارف.

يقول[١]: «لا يَقبَلُ اللهُ صَلاةَ امرَأةٍ تَطيَّبَتْ لِهذَا المَسْجِدِ، حَتَّىٰ تَرجِعَ فَتَغْتَسِلَ غُسْلَهَا مِنَ الجَنَابَةِ».

ورواه ابن ماجة، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان -هو ابن عيينة- به[٢].

وروىٰ الترمذي أيضًا من حديث موسىٰ بن عُبَيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونة بنت سعد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الرَّافِلَةُ فِي الزِّينَةِ[٣] فِي غَيْرِ أَهْلِهَا، كَمَثَلِ ظُلْمَةٍ يَوْمَ القِيَامَةِ لا نُورَ لَهَا»[٤].

ومن ذلك أيضًا أنَّهنَّ يُنهَين عن المشي في وسط الطَّريق؛ لما فيه من التَّبرُّج. قال أبو داود:

حدَّثنا القَعْنَبيُّ، حدَّثنا عبد العزيز -يعني: ابن محمَّدٍ- عن أبي اليمان، عن شدَّاد بن أبي عمرو بن حماس، عن أبيه، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارجٌ من المسجد -وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق- فقال رسول الله ﷺ للنساء: «اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ[٥] الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ»، فكانت المرأة تلصق بالجدار، حتىٰ إنَّ ثوبها ليتعلق بالجدار مِن لصوقها به[٦].

وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واترُكُوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصِّفات الرَّذيلة، فإن الفَلاح كل الفَلاح في فعل ما أَمَر الله به ورسوله، وترك ما نهيا عنه، والله تعالىٰ هو المستعان [وعليه التكلان][٧].

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) لوحة (٥٠ أ).

(٢) **حسن لغيره**: رواه أبو داود (٤١٧٤)، وابن ماجة (٤٠٠٢)، وفي إسناده عاصم بن عبيد الله: ضعيف، لكنه توبع في طريق آخر عند ابن خزيمة (١٦٨٢) وفيه انقطاع، وبمجموعهما فالحديث حسن.

(٣) **الرَّافلة**: هي التي تتبختر في ثوبها. في غير أهلها: بين من يحرم نظره إليها.

(٤) **ضعيف**: رواه الترمذي (١١٠٧)، وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف.

(٥) أي: تسرن في حُقها؛ أي: وسط الطريق.

(٦) **حسن لغيره**: رواه أبو داود (٥٢٧٢)، وفيه أبو عمرو بن حماس: مقبول، وابنه مجهول.
لكن للحديث شاهد من حديث أبي هريرة رواه ابن حبان (٥٦٠١)، وفيه ضعف.
وبمجموعهما فالحديث حسن، ولذا حسَّنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٨٥٦)، والشيخ شعيب في «تعليقه علىٰ ابن حبان».

(٧) ليست في (ز).

اشتملتْ هذه الآيات الكريمات المبينة علىٰ جمل مِن الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله[(١)] تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾: هذا أمرٌ بالتَّزويج. وقد ذهب طائفةٌ من العلماء إلىٰ وجوبِهِ، علىٰ كلِّ مَن قَدر عليه[(٢)]. واحتجوا بظاهر قوله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ[(٣)] فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[(٤)]»[(٥)]. أخرجاه مِن حديث ابن مسعود.

وجاء في «السنن» -من غير وجهٍ- أن رسول الله ﷺ قال: «تَزَوَّجُوا، تَوَالَدُوا، تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٦)] وفي رواية: «حَتَّىٰ بِالسَّقْطِ»[(٧)].

الأيامىٰ: جمع أيِّم، ويُقَال ذلك للمرأة التي لا زَوْجَ لها، وللرَّجل الذي لا زوجة له. وسواء كان قد تزوَّج ثم فارق، أو لم يتزوَّج واحدٌ منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللُّغة، يقال: رجلٌ أيِّم وامرأةٌ أيِّم أيضًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: رَغَّبَهُمُ الله في التَّزويج، وأَمَر به الأحرار والعَبِيدَ، ووعدهم عليه الغِنَىٰ، فقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمود بن خالد الأزرق، حدَّثنا عمر بن عبد الواحد، عن

---

(١) لوحة (٥٠ ب).

(٢) **وقال ابن دقيق العيد** رَحِمَهُ اللَّهُ: قسم بعض الفقهاء النكاح إلىٰ الأحكام الخمسة، وجَعَلَ الوجوب: فيما إذا خاف العنت وقَدَرَ علىٰ النكاح وتعذَّر التَّسرِّي...والتحريم: في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق مع عدم قدرته عليه وتوقانه إليه، والكراهة: في حق مثل هذا حيث لا إضرار بالزوجة فإن انقطع بذلك عن شيء من أفعال الطاعة من عبادةٍ أو اشتغالٍ بالعلم اشتدت الكراهة، وقيل: الكراهة فيما إذا كان ذلك في حال العزوبة أجمع منه في حال التزويج، والاستحباب: فيما إذا حصل به معنىٰ مقصودًا من كثر شهوةٍ وإعفاف نفسٍ وتحصين فرجٍ ونحو ذلك، والإباحة: فيما انتفت الدواعي والموانع. «فتح الباري»: (٩/ ١١١).

(٣) **الباءة** -ويقال أيضًا: الباهة-: القدرة علىٰ مُؤَن النكاح، وبالقصر: الوَطء، قال الخَطَّابيُّ: المرادُ بالباءة النكاح، وأصله: الموضع الذي يتبوؤه ويأوي إليه. «فتح الباري»: (٩/ ١٠٨)، وانظر: «اللسان»: بوأ، وبوه.

(٤) **الوِجَاء**: أنْ تُرَضَّ أُنْثيا الفَحْل رَضًا شَدِيدًا يُذْهِبُ شَهْوَةَ الجِماع، ويَتَنَزَّل في قَطْعه مَنْزِلَةَ الخَصْي، وقيل: هو أن تُوجَأَ العُرُوق والخصْيَتانِ بحالِهما. أراد: أنَّ الصَّومَ يَقْطَعُ النِّكاح كما يَقْطَعه الوِجَاء، ورُوِيَ [وَجىً] بوَزْن عَصًا: يريد التَّعَب والحَفَىٰ، وذلك بَعِيدٌ إلا أن يُراد فيه مَعْنىٰ الفُتُور؛ لأنَّ مَن وُجِي فَتَرَ عن المَشْي، فشَبَّه الصَّوم في باب النِّكاح بالتَّعَبِ في باب المَشْي. «النهاية»: (٥/ ١٥٢)، وانظر: «اللسان»: وجأ.

(٥) البخاري (١٩٠٥) (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، وأبو داود (٢٠٤٦)، والترمذي (١٠٨١)، والنسائي (٤/ ١٧١) (٦/ ٥٦)، وابن ماجة (١٨٤٥).

(٦) **حسن صحيح**: رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/ ٦٥) وإسناده حسن، وله طرق يرقىٰ للتصحيح.

(٧) رواه عبد الرزاق (٦/ ١١٣) مرسلًا، وضعفه الحافظ في «التلخيص الحبير» (٣/ ١١٦). وقد ورد نحوه عند ابن عدي (٢/ ٩٨)، وإسناده موضوع. والسين في «السقط» مثلثة، أي: بالفتح، والضم، والكسر، وهو: «الولد لغير تمامه».

سعيد -يعني: ابن عبد العزيز- قال: بلغني أنَّ أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه قال: أطيعُوا الله فيما أمركم بهِ منَ النِّكاح، ينجز [لكم][1] ما وعدكم مِن الغِنَىٰ، قال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

[وعن ابن مسعود: الْتَمِسُوا الغِنَىٰ في النِّكاح، يقول الله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[3]][4] رواه ابن جرير، وذكره البغوي [عن عمر][5] بنحوه[6].

وعن الليث، عن محمَّد بن عَجْلان، عن سعيد المقْبُري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَىٰ اللهِ عَوْنُهُمْ: النَّاكِحُ يُرِيدُ العَفَافَ، وَالمُكَاتَبُ يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ». رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة[7].

وقد زوَّج رسول الله ﷺ ذلك الرجل الَّذي لم يجد إلا إزاره، ولَمْ يقدر علىٰ خاتم مِن حديدٍ، ومع هذا فزوَّجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أَن يُعَلِّمَها ما يحفظه من القرآن[8].

والمعهود مِن كرم الله تعالىٰ ولُطفِهِ أن يَرْزُقَه [وإيَّاها][9] ما فيه كفاية له ولها. فأمَّا ما يورده كثيرٌ من الناس علىٰ أنَّه حديث: «تَزَوَّجُوا فُقَرَاءَ يُغْنِكُمُ اللهُ» فلا أصل له، ولم أره بإسنادٍ قويٍّ ولا ضعيفٍ إلىٰ الآن، وفي القرآن غُنْيَةٌ عنه، وكذا هذا الحديث الذي أوردناه. ولله الحمد.

وقوله[10] تعالىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. هذا أمر من الله تعالىٰ [لمن لا][11] يجد تزويجًا [بالتعفُّف][12] عن الحرام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ. وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[13].

وهذه الآية مُطلَقةٌ، والتي في سورة النساء أخصُّ منها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، إلىٰ أن قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] أي صَبركم عن تَزْوِيج الإماء خَيرٌ؛ لأنَّ الوَلد يجيءُ رقيقًا، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال عكرمة في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قال: هو الرَّجل يرىٰ المرأةَ فكأنَّه يَشْتَهي،

---

(١) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٢) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٤٤٤٩)، وإسناده منقطع، وسعيد بن عبد العزيز: اختلط بآخرة.

(٣) رواه الطبري (١٧/ ٢٢٥).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) بياض في (ز).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (٤٨٩٢).

(٧) **حسنه الألباني**: رواه الترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٦/ ٦١)، وابن ماجة (٢٥١٨)، وأحمد (٢/ ٢٥١)، وانظر: «غاية المرام» (٢١٠) للشيخ الألباني رحمه الله.

(٨) رواه البخاري (٥٠٣٠)، ومسلم (١٤٢٥).

(٩) ليست في (ز).

(١٠) لوحة (٥١ أ).

(١١) في (ز): ألا يجد.

(١٢) سقط من (ز).

(١٣) البخاري (١٩٠٥)، و(٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

فإن كانت له امرأةٌ فليذهب إليها ولْيَقْضِ حاجته منها، وإن لم يكن له امرأةٌ فلينظر في ملكوت السموات [والأرض][(١)] حتىٰ يُغْنِيَهُ الله.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هذا أمرٌ مِن الله تعالىٰ للسَّادة إذا طَلَبَ منهم عبيدُهم الكتابة أن يكاتبوا، بشرط أن يكون للعبد حيلةٌ وكسبٌ يؤدي إلىٰ سيِّده المال الذي شارطَهُ علىٰ أدائه. وقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلىٰ أنَّ هذا الأمر أمرُ إرشادٍ واستحبابٍ، لا أمر تَحتُّمٍ وإيجابٍ، بل السَّيد مخيَّرٌ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتَبَهُ، وإن شاء لم يكاتبه.

وقال الثوري، عن جابر، عن الشعبي: إن شاء كَاتَبَه وإن شاء لم يُكَاتِبْه.

وقال ابن وهبٍ، عن إسماعيل بن عياشٍ، عن رجلٍ، عن عطاء بن أبي رَبَاح: إن يشأ يكاتبه وإن لم يشأ لم يكاتبه، وكذا قال مُقاتل بن حَيَّان، والحسن البصري.

وذهب آخرون إلىٰ أنَّه يجب علىٰ السَّيِّد إذا طلب منه عبدُه ذلك، أن يُجِيبَه إلىٰ ما طلب؛ أخذًا بظاهر هذا الأمر:

قال البخاري: وقال روح، عن ابن جُرَيْج قلت لعطاء: [أواجب عليَّ إذا علمت له مالًا أن أُكَاتِبَه؟ قال: ما أراه إلا واجبًا. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء،][(٢)] أتأثُرُه عن أحدٍ؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسىٰ بن أنس أخبره، أنَّ سيرين سأل أنسًا المكاتبةَ -وكان كثير المال- فأبىٰ. فانطلق إلىٰ عمر بن الخطاب فقال: كاتبه. فأبىٰ، فضربه بالدِّرة، ويتلو عمر ﷺ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، فكَاتَبَهُ. هكذا ذكره البخاري تعليقًا[(٣)]. ورواه عبد[(٤)] الرزاق: أخبرنا ابن جريج قال: قُلتُ لعطاء: أواجبٌ عليَّ إذا علمت له مالًا أن أُكَاتِبَهُ؟ قال: ما أراه إلا واجبًا. وقال عمرو بن دينار، قال: قلت لعطاء: أتأثره عن أحدٍ؟ قال: لا.

وقال ابن جرير[(٥)]: حدَّثنا محمَّد بن بَشَّار، حدَّثنا محمَّد بن بكر، حدَّثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يكاتبه، فتلكَّأ عليه، فقال له عمر: لتكاتِبَنَّه. إسنادٌ صحيحٌ[(٦)].

وقال سعيد بن منصور: حدَّثنا هُشَيْم بن جُوَيْبِر، عن الضَّحَّاك قال: هي عَزْمة[(٧)].

وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذهب في الجديد إلىٰ أنَّه لا يجب؛ لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبٍ مِنْ نَفْسِهِ»[(٨)].

---

(١) سقط من (ز). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو ثابت في «البخاري».

(٣) رواه البخاري (٥/ ١٨٤ - تعليقًا)، ووصله الطبري (١٨/ ١٢٦).

(٤) لوحة (٥١ ب). (٥) في (ز): (ابن جريج)، وهو خطأ. (٦) **صحيح**: الطبري (١٨/ ٩٨).

(٧) المراد: واجب وحتم.

(٨) **صحيح**: ثبت عن جماعة من الصحابة انظر: «الإرواء» (١٤٥٩).

وقال ابن وهب: قال مالك: الأمر عندنا أَنْ ليس علىٰ سيِّد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحدًا من الأئمَّة أَكْرَهَ أحدًا علىٰ أن يُكَاتبَ عبده. قال مالك: وإنَّما ذلك أمرٌ مِن الله، وإذن منه للنَّاس، وليس بواجبٍ.

وكذا قال الثوري، وأبو حنيفة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية.

وقوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضهم: أمانة. وقال بعضهم: صدقًا. [وقال بعضهم: مالًا][1] وقال بعضهم: حيلةً وكسبًا.

وروىٰ أبو داود في كتاب «المراسيل»، عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال: «إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ حِرْفَةً، وَلَا تُرْسِلُوهُمْ كَلًّا[2][3] عَلَىٰ النَّاسِ»[4].

وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اختلف المفسِّرون فيه، فقال قائلون: معناه: اطرحوا لهُم مِن الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع. وقيل: الثُّلث. وقيل: النِّصف. وقيل: جزء من الكتابة من غيرِ حدٍّ.

وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هو النَّصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكوات. وهذا قول الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبيه، ومقاتل بن حيان. واختاره ابن جرير.

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال: حَثَّ النَّاس [عليه مولاه][5] وغيره. وكذلك قال بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلمي، وقتادة.

وقال ابن عبَّاس: أمر الله المؤمنين أن[6] يُعِينُوا في الرِّقاب. وقد تقدَّمَ في الحديث، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَىٰ اللهِ عَوْنُهُمْ»: فذكر منهم المكاتَب يُرِيد الأداء[7]، والقول الأول أشهر.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل، حدَّثنا وَكِيعٌ، عن ابن شَبِيبٍ، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ، عن عمر؛ أنَّه كاتب [عبدًا له][8] يُكْنَىٰ أبا أمية، فجاء بنجمه[9] حين حَلَّ، فقال: يا أبا أمية، اذهب فاستعن به في مكاتبتك. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركتَه حتىٰ يكون مِن آخر نجم؟ قال: أخاف ألا أدرك

---

(١) سقط من (ز).
(٢) الكَلّ: العالة.
(٣) في (ز): (كلابا)، وهو خطأ، وما أثبتناه موافق لما في «المراسيل».
(٤) مرسل: رواه أبو داود في كتاب «المراسيل» (١٨٥).
(٥) في (ز): (علىٰ موالاة).
(٦) لوحة (٥٢ أ).
(٧) تقدم قريبًا.
(٨) في (ز): (عبد البر)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».
(٩) النجم هنا: القسط الذي جاء أوان سداده من العبد المُكاتب إلىٰ سيده.

ذلك. ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال عكرمة: كان أول نجمٍ أُدِّيَ في الإسلام[(١)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا هارون بن المغيرة، عن عنبسَةَ، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتَبه لم يضع عنه شيئًا من أوَّل نجومه، مخافةَ أن يعجز فترجع إليه صدقته. ولكنَّه إذا كان في آخر مكاتبته، وضع عنه مَا أحبَّ[(٢)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال: يعني: ضَعُوا عنهم من مكاتبتهم[(٣)]. وكذلك قال مجاهد، وعطاء، والقاسم بن أبي بَزَّة، وعبد الكريم بن مالك الجَزَرِيُّ، والسُّدِّي.

وقال محمَّد بن سيرين في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾: كان يعجبهم أن يَدَعَ الرجل لمكاتَبه طائفةٌ من مكاتبتِهِ.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان المقرئ، أخبرنا إبراهيم بن موسىٰ، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جُرَيْج، أخبرني عطاء بن السائب: أن عبد الله بن جندب أخبره، عن علي ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «رُبعُ الكِتَابَةِ»[(٤)].

وهذا حديثٌ غريبٌ، ورفعه منكرٌ، والأشبه أنه موقوفٌ علىٰ عليٍّ ﷺ كما رواه [عنه][(٥)] أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية: كان أهل الجاهليَّة إذا كان لأحدهم أَمَةٌ، أرسلها تَزْنِي، وجعل عليها ضريبةً يأخذها منها كلَّ وقتٍ. فلمَّا جاء الإسلام، نهىٰ الله المسلمين عن ذلك.

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة -فيما ذكره غير واحدٍ من المفسرين، من السَّلف والخلف- في شأن[(٦)] عبد الله بن أبي ابن سلول [المنافق][(٧)] فإنَّه كان له إماءٌ، فكان يُكْرِهُهُنَّ علىٰ البِغاء طلبًا لخَراجهنَّ، ورغبةً في أولادهن، ورئاسةً منه فيما يزعم [قبَّحه الله ولعنَه][(٨)].

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزَّار رَحِمَهُ اللَّهُ في «مسنده»: حدَّثنا أحمد بن داود

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٤٥١٠)، ورجاله ثقات.

(٢) رواه الطبري (١٨/ ١٣٠)، وإسناده صحيح.

(٣) رواه الطبري (١٨/ ١٣١)، وإسناده منقطع.

(٤) **ضعيف**: فيه عطاء بن السائب: اختلط، وابن جريج سمع منه بعد الاختلاط، وقد رواه الطبري (١٨/ ١٣١) من طريق جرير عن عطاء به موقوفًا، وجرير أيضًا سمع منه بعد الاختلاط، فالحديث لا يصح مرفوعًا أو موقوفًا.

(٥) سقط من (ز).

(٦) لوحة (٥٢ ب).

(٧) ليست في (ز).

(٨) ليست في (ز).

الواسطي، حدَّثنا أبو عمرو اللخمي -يعني: محمَّد بن الحجاج- حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، عن الزهري، [عن أنس][١] قال: كانت جاريةٌ لعبد الله بن أبي ابن سلول، يقال لها: معاذة، يُكْرِهُهَا علىٰ الزِّنا، فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر في هذه الآية: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ قال: نزلت في أَمَةٍ لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها: مُسَيكَة، كان يكرهها علىٰ الفجور -وكانت لا بأس بها- فتأبىٰ. فأنزل الله ﷻ هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

وروىٰ النَّسائي، من حديث ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر نحوه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا علي بن سعيد، حدَّثنا الأعمش، حدَّثني أبو سفيان، عن جابر قال: كان لعبد الله بن أُبَيٍّ ابنِ سلولَ جاريةٌ يقال لها: مُسَيْكَة، وكان يُكْرِهُها علىٰ البغاء، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤].

صرح الأعمش بالسماع منْ أبي سفيان طلحة بن نافع، فدل علىٰ بطلان قول من قال: «لَمْ يسمع منه، إنَّما هو صَحِيفَة» حكاه البزَّار.

قال أبو داود الطيالسي، عن سليمان بن معاذ، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاسٍ؛ أنَّ جاريةً لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية، فولدت أولادًا من الزنا، فقال لها: مَا لكِ لا تَزْنين؟ قالت: لا والله لا أَزْني. فضربها، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري: أن رجلًا من قريش أُسِرَ يوم بدر، وكان [عند][٦] عبد الله ابن أُبَيٍّ أسيرًا، وكانت لعبد الله بن أُبَيٍّ جاريةٌ يقال لها: معاذة، وكان القرشي الأَسِير يُرِيدُها علىٰ نفسها، وكانت مسلمةً. وكانت تمتنع منه لإسلامِها، وكان عبد الله بن أبي يُكْرِهُهَا علىٰ ذلك ويَضْرِبها، رجاء أن

---

(١) ليست في (ز)، وإثباتها موافق لما في «مسند البزار» (٦٣٥٩)، فالحديث من قول أنس ﷺ، وقد ورد هذا الحديث مكررًا في المخطوط وبعض الطبعات لكنه علىٰ الصواب؛ أي: من قول أنس، وذلك بين حديث أبي داود الطيالسي الآتي قريبًا وعبد الرزاق.

(٢) موضوع: رواه البزار (٢٢٤٠- كشف)، وهي رواية مرسلة، وفيها محمد بن الحجاج: كذاب.

(٣) رواه الطبري (١٨/ ١٠٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٦٥).

(٤) **صحيح**: رواه البزار، وإسناده صحيح، ويشهد له الرواية السابقة.

(٥) رواه الطيالسي، ومن طريق الطبراني (١١/ ٢٢٦)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٨٩)، وفي إسناده سليمان بن معاذ بن قَرْم: ضعيف، ورواية عكرمة عن ابن عباس مضطربة.

قلت: وله طريق أخرىٰ رواه البزار في «مسنده» (٢٢٣٩ -كشف) وفيه عطاء بن السائب اختلط، وخالد الطحان روىٰ عنه بعد الاختلاط، وبالجملة فالإسناد بطريقيه حسن كما يشهد له الروايات السابقة، وصححه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٣).

(٦) سقط من (ز).

تحمل للقرشي، فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (١).

وقال السُّدِّي: أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أُبَي ابن سلول رأس المنافقين، وكانت له جاريةٌ تدعىٰ معاذة، وكان إذا نزل به ضيفٌ أرسلها إليه ليُوَاقِعهَا، إرادة الثَّواب منه والكَرَامَة له. فأقبلت الجارية إلىٰ أبي بكر ﷺ فشَكَتْ إليه ذلك، فذكره أبو بكر للنَّبيِّ ﷺ، فأَمَرَهُ بقبضها. فصاح عبد الله بن أبي: من يَعْذِرني (٢) مِن محمَّدٍ، يَغْلِبُنَا علىٰ مملوكتنا؟ فأنزل الله فيهم هذا (٣).

وقال مُقَاتِل بن حَيَّان: بلغنا -والله أعلم- أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا يكرهان أَمَتَيْن لهما، إحداهما اسمها مُسَيكَة، وكانت للأنصاريِّ (٤)، وكانت أُمَيْمَةُ أُمُّ مُسَيكَة لعبد الله بن أُبَي، وكانت معاذة وأروىٰ بتلك المنزلة، فأتت مُسيكَة وأُمُّهَا النَّبيَّ ﷺ فذكرتا ذلك له، فأنزل الله في ذلك ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ يعني: الزنا (٥).

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا خرج مخرج الغَالِب، فلا مفهوم له. وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: مِن خَرَاجِهِنَّ (٦) ومهورِهِنَّ وأولادِهِنَّ. وقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن كسب الحجَّام، ومهر البَغيِّ وحُلْوان الكاهِنِ (٧) - وفي رواية: «مَهْرُ البَغِيِّ خَبِيثٌ، وَكَسْبُ الحَجَّامِ خَبِيثٌ، وَثَمَنُ الكَلْبِ خَبِيثٌ» (٨).

وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [أي: لهن، كما تقدم في الحديث عن جابر. وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: فإن فعلتم فإنَّ الله لهنَّ غفور رحيمٌ] (٩) وإثْمُهُنَّ علىٰ مَن أكرههن، وكذا قال مجاهد، وعطاء الخراساني، والأعمش، وقتادة.

وقال أبو عبيد: حدَّثني إسحاق (١٠) الأزرق، عن عَوْف، عن الحسن في هذه الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال: لهُنَّ واللهِ. لهُنَّ واللهِ.

وعن الزهري قال: غفورٌ لهُنَّ ما أُكْرِهْن عليه. وعن زيد بن أسلم قال: غفورٌ رحيمٌ للمُكْرَهات. حكاهنَّ ابن المنذر في «تفسيره» بأسانيده.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الله، حدَّثني ابن لَهِيعَة، حدَّثني عطاء، عن سعيد بن جُبَيْر قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ وإثْمُهُنَّ علىٰ

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٥٩)، والطبري (١٨/ ١٠٣)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٨٩)، وإسناده مرسل.
(٢) أي: مَنْ يقوم بعُذري إنْ كافأتُه علىٰ صنيعه فلا يَلُمني.
(٣) ضعيف: أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٣)، وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد.
(٤) في (ز): (وكانت للأنصار)، والمثبت موافق لما في «الدر المنثور».
(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٩٠)، وإسناده معضل.
(٦) الخراج: غلة العبد.
(٧) البخاري (٢٢٣٧)، ومسلم (١٥٦٧).
(٨) مسلم (١٥٦٨)، رواه أحمد (٣/ ٤٦٤).
(٩) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(١٠) لوحة (٥٣ ب).

مَنْ أَكْرَهَهُنَّ»(١)(٢).

وفي الحديث المرفوع، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(٣).

ولما فصل تعالىٰ هذه الأحكام وبيَّنها قال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: القرآن فيه آياتٌ واضحاتٌ مفسَّراتٌ، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: خبرًا عن الأمم المَاضِيَةِ، وما حلَّ بهم في مخالفتهم أوامرَ الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: زاجرًا عن ارتكاب المآثم والمحارِمِ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقىٰ الله وخافه.

قال علي بن أبي طالب ﵁ في صفة القرآن: فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ مَا بعدكم، وهو الفَصْل ليس بالهَزْل، مَنْ تركه مِن جَبَّارٍ قَصَمَه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضلَّه الله(٤).

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ(٥) مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول: هادي أهل السموات والأرض.

وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد وابن عبَّاس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدَبِّر الأمر فيهما، نجومهما وشمسهما وقمرهما.

وقال ابن جرير: حدَّثنا سليمان بن عمر بن خالد الرَّقِّي، حدَّثنا وهب بن راشد، عن فَرْقَد، عن أنس ابن مالك(٦) قال: إن إلهي يقول: نوري هداي(٧).

---

(١) **قراءة:** قَرَأَ بِزِيَادَةِ (وَإِثْمُهُنَّ عَلَىٰ مَنْ أَكْرَهَهُنَّ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَتْ فِي الْمُتَوَاتِرِ.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم، وفيه ابن لهيعة: اختلط، وثبت نحوه من حديث جابر المتقدم، رواه ابن أبي حاتم (١٤٥٣٥)، وفيه سبب نزول الآية: ﴿فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(٣) **صحيح لغيره:** تقدم تخريجه. انظر آخر سورة البقرة.

(٤) **إسناده ضعيف:** رواه الترمذي (٢٩٠٦)، وأحمد (١/ ١٩)، ورواه المصنف في «فضائل القرآن»، والحاكم (١/ ٥٥٥)، والتفسير لسعيد بن منصور (٧٢). وفيه الحارث الأعور، فيه مقال، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٦٣٩٣).

(٥) **قال الشيخ ابن عثيمين** ﵀: أما أهل السنة والجماعة فقالوا: إن الآية علىٰ حقيقتها، وأن الله ﷻ نور السموات والأرض، لكن النور نوعان: نور هو ذات الله جل وعلا وصفاته وآياته وأحكامه، وهذا غير مخلوقٍ، ونور آخر حسيّ مخلوق منفصل بائن عن الله، فالنور الذي نراه في الشمس وفي القمر وفي النجوم، وفي السُّرج، هذه من النوع الثاني، من النور الحسي المخلوق.

(٦) لوحة (٥٤ أ).

(٧) الطبري (١٩/ ١٧٧ -شاكر)، و«الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٣٣٣)، وفي إسناده وهب بن راشد: منكر الحديث.

واختار هذا القول ابن جرير رحمه الله.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيِّ بن كعب في قول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قال: هو المؤمن الذي قد جعل [الله][1] الإيمانَ والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور مَن آمن به. قال: فكان أُبي بن كعب يقرؤها: «مثَلُ نورِ مَن آمن بِهِ[2]» فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره.

وهكذا قال سعيد بن جُبير، وقيس بن سعد، عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قرأها كذلك: «نورُ مَن آمَنَ بالله»[3].

وقرأ بعضهم: «اللهُ نَوَّر السَّموَاتِ وَالأرْضَ».

وعن الضَّحَّاك: «الله نَوَّر السَّموَاتِ والأرْض».

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: فبنوره أضاءَتِ السموات والأرض.

وفي الحديث الذي رواه محمَّد بن إسحاق في «السِّيرة»، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ بِي غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ العُتْبَىٰ[4] حَتَّىٰ تَرْضَىٰ، [وَلا حَوْلَ][5] وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ[6]**»[7].

وفي «الصحيحين»، عن ابن عبَّاس: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**» الحديث[8].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: إن ربكم ليس عنده ليلٌ ولا نهارٌ، نور العرش من نور وجهه[9].

وقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في هذا الضمير قولان:

أحدهما: أنه عائدٌ إلىٰ الله عز وجل؛ أي: مثل هداه في قلب المؤمن، قاله ابن عبَّاس ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾.

والثاني: أنَّ الضمير عائدٌ إلىٰ المؤمن الَّذِي دلَّ عليه سياق الكلام: تقديره: مَثَلُ نور المؤمن الَّذِي في

---

(١) سقط من (ز).

(٢) قراءة: قَرَأَ (مَثَلُ نُورِ مَنْ آمَنَ بِهِ) أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (مَثَلُ نُورِهِ).

(٣) قراءة: قَرَأَ (نُورِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ) ابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (مَثَلُ نُورِهِ).

(٤) العُتْبىٰ: الرجوع عن الذنب.

(٥) ليست في (ز).

(٦) في (ز): (إلا بالله)، والمثبت موافق لما في «ابن هشام».

(٧) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (١/ ٤٢٠) وهو حديثٌ مشهورٌ، لكن في إسناده ضعف.

(٨) البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

(٩) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٧)، وأبو داود في «الزهد» (١٥٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢١١) وأشار إلىٰ ضعفه، و«الرد علىٰ الجهمية» لابن منده (١/ ٥٣)، وقد تقدم الأثر في الآية (٩٠) من سورة المؤمنون.

قلبه، كمشكاةٍ. فشَبَّهَ قلبَ المؤْمِن وما هو مفطُورٌ عليه من الهدىٰ، وما يتلقَّاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، فشَبَّه قلب المؤمن[١] في صفائِهِ في نفسه بالقِنْدِيل من الزُّجاج الشَّفَّاف الجوهري، وما يُسْتَمَدُّ به من القُرآنِ والشَّرع بالزَّيتِ الجيِّد الصَّافي المُشْرق المُعْتَدِل، الذي لا كدَرَ فيه ولا انحراف.

فقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: قال ابن عبَّاس، ومجاهد، ومحمَّد بن كعب، وغير واحدٍ: هو موضع الفَتِيلَة من القنديل. هذا هو المشهور؛ ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو الذُّبالة[٢] الَّتي تُضِيءُ.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: وذلك أنَّ اليهود قالوا لمحمَّدٍ ﷺ: كيف يَخْلُص نور الله مِن دونِ السَّماء؟ فضرب الله مثل [ذلك][٣] لنوره، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾. والمشكاة: كوَّة في البيت -قال: وهو مثلٌ ضَرَبه الله لطاعته. فسمَّىٰ الله طاعَتَه نُورًا، ثم سَمَّاها أنواعًا شَتَّىٰ.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: الكوة بلُغة الحبشة. وزاد غيره فقال: المشكاة: الكوَّة التي لا مَنْفَذَ لها. وعن مجاهد: المشكاة: الحَدَائِد التي يُعَلَّق بها القنديل.

والقول الأول أولىٰ، وهو: أن المشكاة هي موضع الفَتِيلَة مِن القنديل؛ ولهذا قال: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو النُّور الَّذي في الذُّبالة.

قال أبي بن كعب: المصباح: النُّور، وهو القرآن والإيمانُ الَّذي في صدره.

وقال السُّدِّي: هو السِّراج.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: هذا الضَّوء مشرقٌ في زجاجةٍ صافيةٍ.

قال أبيُّ بن كعبٍ وغير واحدٍ: وهي نظير قلب المؤمن. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾: قرأ بعضهم بضَمِّ الدَّال من غير همزة، من الدُّر؛ أي: كأنها كوكبٌ من دُرٍّ.

وقرأ آخرون: «دِرِّيء» و«دُرِّيء» بكسر الدَّال وضمها مع الهمز[٤]، من الدرْء وهو الدَّفع؛ وذلك أنَّ النَّجم إذا رُمِيَ به يكون أشدَّ استنارةٍ مِن سائر الأحوال، والعرب تُسَمِّي ما لا يعرف من الكواكب دراريٌّ.

قال أبيُّ بن كعبٍ: كوكبٌ مضيءٌ. وقال قتادة: مضيءٌ مبينٌ ضخمٌ. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: يستمد مِن زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: ليست في

---

(١) لوحة (٥٤ ب). (٢) هي الفتيلة التي تسرج وتضيء.

(٣) سقط من (ز).

(٤) متواترة: قَرَأَ (دِرِّيءٌ) أَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ وَوَافَقَهُمَا الْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ (دُرِّيءٌ) حَمْزَةُ وَشُعْبَةُ وَوَافَقَهُمَا الْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ (دَرِّيءٌ) الشَّنَبُوذِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (دُرِّيٌّ).

شَرْقيٍّ بقعتها فلا تصل إليها الشَّمس من أول النَّهار، ولا في غَرْبِيِّهَا فيتقلَّص عنها الفيء قبل[1] الغروب، بل هي في مكانٍ وسط، تَفْرَعه[2][3] الشَّمس من أوَّل النهار إلىٰ آخره، فيجيء زيتها معتدلًا صافيًا مشرقًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عمار قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد، أخبرنا عمرو ابن أبي قيس، عن سِمَاك بن حرب، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: شجرةٌ بالصَّحراء، لا يظلها جبلٌ ولا شجرٌ ولا كهفٌ، ولا يُوَارِيها[4] شيءٌ، وهو أجود لزيتها[5].

وقال يحيىٰ بن سعيدٍ القَطَّان، عن عمران بن حُدَيْر، عن عكرمة، في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي بصحراء، وذلك أصفىٰ لزيتها.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو نُعَيْم، حدَّثنا عُمَر بن فَرُّوخ، عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة -وسأله رجلٌ عن: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: تلك [زيتونة][6] بأرضٍ فلاةٍ، إذا أشرقت الشَّمس أشرقت عليها، وإذا غربت غربت عليها فذاك أصفىٰ ما يكون من الزَّيت[7].

وقال مجاهد في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: ليست بشرقيَّةٍ، لا تصيبها الشَّمس إذا غربت، ولا غربيةٍ لا تصيبها الشَّمس إذا طلعت، [ولكنها شرقية وغربية، تُصِيبُهَا إذا طلعت][8] وإذا غربت.

وقال سعيد بن جُبَيْر في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ قال: هو أجود الزَّيت. قال: إذا طلعت الشمس أصابتها مِن صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعَشِيِّ، فتلك لا تُعَدُّ شرقيةً ولا غربيةً.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يقول: ليست بشرقيَّةٍ يحوزها المشرق، ولا غربيةٍ يحوزها المغرب دون المشرق، ولكنَّها علىٰ رأس جبلٍ، أو في صحراء، تُصِيبُها الشمس النهارَ كلَّه.

وقيل: المراد بقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أنَّها في وسط الشَّجر، وليست باديةً للمشرق ولا للمغرب.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب، في قول الله تعالىٰ: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: فهِيَ خضراء ناعمة، لا تُصِيبُها الشمس علىٰ أيِّ حالٍ كانت[9]، لا إذا طلعت ولا إذا غربت. قال: فكذلك هذا المؤمن، قد أُجير مِن أن يُصِيبَه شيءٌ مِن الفتن، وقد ابتلي بها فَيُثَبِّتُه الله فيها، فهو بين أربع خلالٍ: إن قال صَدَق، وإن حَكَم عَدَل، وإن ابْتُلِيَ صَبَر، وإن أُعْطِيَ شَكَر،

---

(١) لوحة (٥٥ أ).
(٢) في (ز): (تقصرها).
(٣) أي: تعلوه.
(٤) في (ز): (ولا يولديها).
(٥) ابن أبي حاتم (١٤٥٩٩).
(٦) ليست في (ز).
(٧) ابن أبي حاتم (١٤٦٠٠).
(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٩) لوحة (٥٥ ب).

فهو في سائر الناس كالرَّجل الحَيِّ يمشي في قبور الأموات[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا مُسَدَّدٌ قال: حدَّثنا أبو عَوَانة، عن أبي بشر، عن سعيد[٢] بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي وسط الشجر، لا تصيبها الشمس شرقًا ولا غربًا.

وقال عطية العوفي: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي شجرةٌ في موضعٍ من الشجر، يرىٰ ظل ثمرها في وَرَقِهَا، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عمار، حدَّثنا عبد الرحمن الدَّشْتكِي، حدَّثنا عمرو بن أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ليست شرقيةً ليس فيها غرب، ولا غربيَّةً ليس فيها شرق، ولكنها شرقيةٌ غربيةٌ[٣].

وقال محمَّد بن كعب القُرظي: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي القِبْلِيَّة.

وقال زيد بن أسلم: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: الشَّام.

وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشَّجرة في الأرض لكانت شرقيَّةً أو غربيَّةً، ولكنَّه مَثَلٌ ضربه الله لنوره.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قال: رجلٌ صالحٌ ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني.

وأولىٰ هذه الأقوال القولُ الأول، وهو أنها في مستوىٰ من الأرض، في مكانٍ فسيحٍ بارزٍ ظاهرٍ ضاحٍ للشمس، تَفْرعه من أول النَّهار إلىٰ آخره؛ ليكون ذلك أصفىٰ لِزَيْتِهَا وألطف، كما قال غير واحدٍ ممَّن تقدَّم؛ ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لضوء إشراقِ الزَّيت.

وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قال العوفي، عن ابن عبَّاس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله.

[وقال][٤] مجاهد، والسُّدِّي: يعني نور النار ونور الزيت.

وقال أبي بن كعب: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ[٥] نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسةٍ من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلىٰ النُّور يوم القيامة إلىٰ الجنَّة.

وقال شِمْر بن عَطِية: جاء ابن عبَّاسٍ إلىٰ كعب الأحبار فقال: حدِّثني عن قول الله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

---

(١) ابن أبي حاتم (١٤٥٩٦).
(٢) في (ز): (عبد بن جبير)، وهو خطأ.
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٤٦٠٣).
(٤) بياض في (ز).
(٥) لوحة (٥٦ أ).

قال: يكاد محمدٌ يُبيِّن للنَّاس، وإن لم يتكلم أنَّه نبيٌّ، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتمعا أضاءا، ولا يضيء واحدٌ بغير صاحبه [كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحدٌ منهما إلا بصاحبه](١).

وقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يرشد الله إلىٰ هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا معاوية بن عمرو، حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد الفزاري، حدَّثنا الأوزاعي، حدَّثني ربيعة بن يزيد(٢)، عن عبد الله [بن](٣) الديلمي، عن عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَ يَوْمَئِذٍ مِنْ نُورِهِ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ. فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ عَلَىٰ عِلْمِ اللهِ ﷻ**»(٤).

طريق أخرىٰ عنه: قال البزار: حدَّثنا [نهار بن عثمان(٥) حدَّثنا](٦) أيوب بن(٧) سُوَيْد، عن يحيىٰ بن أبي عمرو(٨) الشَّيباني، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَىٰ عَلَيْهِمْ نُورًا مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ**». [ورواه البزار، عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر، بلفظه وحروفه(٩).

وقوله تعالىٰ:](١٠) ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لما ذكر تعالىٰ هذا مثلًا لنور هداه في قلب المؤمن، ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممَّن يستحقُّ الإضلال.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو النضر: حدَّثنا أبو معاوية -يعني(١١) شيبان- عن ليث، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَري، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ**(١٢) **فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ**(١٣) **مَرْبُوطٌ عَلَىٰ غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ**(١٤): **فَأَمَّا**

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) في (ز): (ربيعة بن زيد)، وهو خطأ، والمثبت موافق للمسند.
(٣) سقط من (ز).
(٤) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ١٧٦).
(٥) في بعض النسخ: (شهاب بن عثمان)، وهو خطأ، والتصويب من «البزار»، وكتب الرجال.
(٦) سقط من (ز).
(٧) في (ز): (أيوب عن سويد)، وهو خطأ.
(٨) في (ز): (أبي كثير).
(٩) **صحيح**: رواه البزار (٢١٤٥-كشف الأستار).
(١٠) سقط من (ز).
(١١) في (ز): (حدثنا شيبان).
(١٢) أي: ليس فيه غلٌّ ولا غشٌّ، فهو علىٰ أصل الفطرة، فنور الإيمان فيه يزهر.
(١٣) أي: عليه غشاء عن سماع الحق وقبوله.
(١٤) أي: له وجهان، يلقىٰ أهل الكفر بوجه، وأهل الإيمان بوجه، وصفح كل شئ: وجهه وناحيته.

القَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ المُؤْمِنِ، سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ. وَأَمَّا القَلْبُ الأَغْلَفُ[(١)] فَقَلْبُ الكَافِرِ. وَأَمَّا القَلْبُ المَنْكُوسُ فَقَلْبُ [المُنَافِقِ][(٢)] عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ. وَأَمَّا القَلْبُ المُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ البَقْلَةِ يَمُدُّهَا المَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ القُرْحَةِ يَمُدُّهَا القَيحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ المَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ غَلَبَتْ عَلَيْهِ». إسناده جيِّد ولم يخرجوه[(٣)].

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[(٤)] ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

لما ضرب الله تعالىٰ [مثل][(٥)] قلب المؤمنِ، ومَا فيه مِن الهدىٰ والعلم، بالمصباح في الزُّجاجة الصافية المتوقِّد من زيتٍ طيبٍ، وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أَحَبُّ البقاع إلىٰ الله تعالىٰ من الأرض، وهي بيوته الَّتِي يُعْبَد فيها ويُوَحَّد، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي: أمر الله تعالىٰ برفعها؛ أي: بتطهيرها من الدَّنس واللَّغو، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ قال: نهىٰ الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة، وأبو صالح، والضَّحَّاك، ونافع بن جبير، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حَثْمة[(٦)] وسفيان بن حسين، وغيرهم من علماء المفسرين.

وقال قتادة: هي هذه المساجد أمر الله سبحانه ببنائها ورفعها، وأمر بعمارتها وتطهيرها. وقد ذكر لنا أَنَّ كعبًا كان يقول: إنَّ في التوراة مكتوبًا: «ألا إنَّ بيوتي في الأرض المساجد، وإنَّه مَن توضَّأ فأحسن وضوءه، ثم زَارَنِي في بيتي أكرمته، وحَقٌّ علىٰ المَزُورِ كرامةُ الزائر». رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في «تفسيره»[(٧)].

وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد، واحترامها وتوقيرها، وتطييبها وتبخيرها. وذلك له

---

(١) لوحة (٥٦ ب). (٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ١٧)، والطبراني في «الصغير» (صـ٢٢٣ ط.هندية)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٥)، وفيه ليث بن أبي سليم أدخل في حديثه ما ليس منها فلم تتميز فترك، وأيضًا في الإسناد انقطاع بين أبي البختري وحذيفة، وقد ورد الحديث موقوفًا من طريقٍ أخرىٰ، رواه أحمد في «السنة» (١/ ٣٧٧)، والطبري (١/ ٣٢٢)، وإسناده منقطع أيضًا؛ لأنه من طريق أبي البختري عن حذيفة.

(٤) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء؛ أي: يسبح فيها الله، رجالٌ أيُّ رجال، ليسوا ممن يؤثر علىٰ ربه دنيا ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه.

(٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): (خيثمة)، والمثبت هو الصواب.

(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٤٦٣٦)، والإسناد إليه ضعيف، وهو من الإسرائيليات التي لو صحت لكانت مما يروىٰ؛ لأنه لا يخالف شريعتنا.

محل مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءًا على حدَة، ولله الحمد والمِنَّة. ونحن بعون الله تعالىٰ نذكر هاهنا طرفًا من ذلك، إن شاء الله[1] تعالىٰ، وبه الثِّقة وعليه التُّكلان:

فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ، بَنَىٰ اللهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الجَنَّةِ**». أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وروىٰ ابن ماجة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا يُذْكَرُ فِيهِ اسْمُ اللهِ، بَنَىٰ اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ**»[3].

وللنَّسائي عن عمرو بن عَبَسَة[4] مثله[5]. والأحاديث في هذا كثيرةٌ جدًّا.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدُّور، وأن تُنظَّفَ وتُطَيَّبَ. رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي[6].

ولأحمد وأبي داود، عن سَمُرة بن جُنْدب نحوه[7].

وقال البخاري: قال عمر: ابْنِ للنَّاس ما يُكِنُّهم، وإيَّاك أن تُحَمِّر أو تُصَفِّر فتَفْتِن[8] النَّاس[9].

وروىٰ ابن ماجة عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا سَاءَ عَمَلُ قَوْمٍ [قَطُّ][10] إِلَّا زَخْرَفُوا مَسَاجِدَهُمْ**». وفي إسناده ضعف[11].

وروىٰ أبو داود عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المَسَاجِدِ**». قال ابن عبَّاس: لَتُزَخرفُنَّها كما زَخْرَفت اليهود والنصارىٰ[12].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَتَبَاهَىٰ النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ**»[13]. رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي.

وعن بُرَيْدَةَ أن رَجُلًا أنشدَ في المسجد، فقال: من دعا إلىٰ الجَمَلِ الأحمر[14]؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا وَجدتَّ، إِنَّمَا بُنِيتِ المَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ**»[15]. رواه مسلم.

---

(١) لوحة (٥٧ أ).
(٢) البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣) من حديث عثمان.
(٣) رواه ابن ماجة (٧٣٥) من حديث عمر، وفيه انقطاع. لكن يشهد له رواية عثمان السابقة.
(٤) في (ز): (عنبسة)، وهو خطأ.
(٥) انظر: «سنن النسائي» (٢/ ٣١).
(٦) صحيح: رواه أبو داود (٤٥٥)، والترمذي (٥٩٤)، وابن ماجة (٧٥٩) من حديث عائشة.
(٧) رواه أحمد (٥/ ١٧)، وأبو داود (٤٥٦) من حديث سمرة.
(٨) في (ز): (فتعين الناس).
(٩) البخاري تعليقًا (١/ ٥٣٩).
(١٠) سقط من (ز).
(١١) ضعيف: رواه ابن ماجة (٧٤١)، وفيه جُبارة بن المُغَلِّس، قال الحافظ: ضعيف.
(١٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٤٨).
(١٣) صحيح: رواه أبو داود (٤٤٩)، والنسائي (٢/ ٣٢)، وابن ماجة (٧٣٩)، وأحمد (٣/ ١٣٤).
(١٤) يُرِيدُ: مَنْ وَجدَه فَدَعَا إليه صاحبَه؛ لأنه نهىٰ أن تُنْشَدَ الضَّالَّةُ في المسجد. «النهاية».
(١٥) مسلم (٥٦٩).

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: نهىٰ رسول الله ﷺ، عن البيع والابتياع، وعن تناشد الأشعار في المساجد[١]. رواه أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حسن.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: قال: «**إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ. وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً [فِي الْمَسْجِدِ]**[٢]**، فَقُولُوا: لَا رَدَّ اللهُ عَلَيْكَ**»[٣]. رواه الترمذي، وقال: حسنٌ غريبٌ.

وقد روىٰ ابن ماجة وغيره، من حديث ابن عمر مرفوعًا[٤] قال: «**خِصَالٌ لَا تَنْبَغِي فِي الْمَسْجِدِ: لَا يُتَّخَذُ طَرِيقًا، وَلَا يُشْهَرُ فِيهِ سِلَاحٌ، وَلَا يُنْبَضُ**[٥] **فِيهِ بِقَوْسٍ، وَلَا يُنْثَرُ فِيهِ نَبْلٌ، وَلَا يُمَرُّ فِيهِ بِلَحْمٍ نَيِّءٍ: وَلَا يُضْرَبُ فِيهِ حَدٌّ، [وَلَا يُقْتَصُّ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ،]**[٦] **وَلَا يُتَّخَذُ سُوقًا**»[٧].

وعن واثلة بن الأسقع، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**جَنِّبُوا مَسَاجِدَنَا صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ، وَشِرَاءَكُمْ وَبَيْعَكُمْ، وَخُصُومَاتِكُمْ وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ، وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ، وَاتَّخِذُوا عَلَىٰ أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ، وَجَمِّرُوهَا فِي الْجُمَعِ**»[٨]. ورواه ابن ماجة أيضًا وفي إسنادهما ضعف.

أما أنَّه «لا يُتَّخذ طريقًا» فقد كَرِه بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجةٍ إذا وَجَد مندوحةً عنه. وفي الأثر: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَتَعَجَّبُ مِنَ الرَّجُلِ يَمُرُّ فِي الْمَسْجِدِ لَا يُصَلِّي فِيهِ**».

وأما أنَّه «لا يشهر فيه بسلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينثر فيه نبل» فلما يخشىٰ من إصابة بعض الناس به، لكثرة المُصَلِّين فيه؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مَرَّ أحدٌ بسهام أن يقبض عَلَىٰ نِصَالِهَا؛ لئلَّا يؤذي أحدًا، كما ثبت في «الصحيح»[٩].

وأمَّا «النَّهي عن المرور باللَّحْم النَّيِّءِ فِيهِ»، فَلِما يخشىٰ من تقاطر[١٠] الدَّم منه، كما نُهِيَت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التَّلويث.

وأما أنَّه «لا يُضرب فيه حدٌّ أو يُقتَص» فلما يخشىٰ من إيجاد نجاسةٍ فيه من المضروب أو المقطوع.

وأما أنَّه «لا يتخذ سوقًا» فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنَّه إنَّما بُنِيَ لذكر الله والصَّلاة

---

(١) حسن: رواه أبو داود (١٠٧٩)، والترمذي (٣٢٢)، والنسائي (٢/ ٤٧) وابن ماجة (٧٤٩)، وأحمد (٢/ ١٧٩).

(٢) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «مصادر التخريج».

(٣) حسن: رواه الترمذي (١٣٢١)، وحسنه.

(٤) لوحة (٥٧ ب).

(٥) أي: يشد أو يرمىٰ.

(٦) في (ز): (ولا يقص فيه أحد).

(٧) ضعيف: رواه ابن ماجة (٧٤٨)، وفيه زيد بن جبيرة: ضعيف.

(٨) موضوع: رواه ابن ماجة (٧٥٠)، فيه محمد بن سعيد المصلوب في الزندقة، وفيه الحارث بن نبهان وعتبة بن يقظان: كلاهما ضعيف، وقال الذهبي في عتبة: واهٍ.

(٩) البخاري (٤٥١)، ومسلم (٢٦١٥).

(١٠) في (ز): تطاير الدم.

كما قال [النَّبِيُّ][١] عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لذلك الأعرابي الذي بَالَ في طائفة المسجد: «إِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا، إِنَّمَا بُنِيَتْ لِذِكْرِ اللهِ وَالصَّلَاةِ [فِيهَا][٢]»[٣]. ثم أمر بسَجْلٍ من ماءٍ، فأُهْرِيقَ علىٰ بوله.

وفي الحديث الثاني: «جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ»، وذلك لأنَّهم يلعبون فيه ولا يناسبهم، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأىٰ صبيانًا يلعبون في المسجد، ضربهم بالمِخْفَقَة -وهي الدِّرَّة- وكان يَعُسُّ[٤] المسجد بعد العشاء، فلا يترك فيه أحدًا.

«ومجانينكم» يعني: لأجل ضعف عقولهم، وسَخْر النَّاس بهم، فيؤدي إلىٰ اللعب فيها، ولما يخشىٰ مِن تقذيرهم المسجد، ونحو ذلك.

«وبيعكم وشراءكم» كما تقدم.

«وخصوماتكم» يعني: التَّحاكم والحكم فيه؛ ولهذا نص كثيرٌ من[٥] العلماء علىٰ أنَّ الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتَّشاجر والعياط[٦] الذي لا يُنَاسِبُه؛ ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

وقال البخاري: حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا الجُعَيْد بن عبد الرحمن [قال: حدَّثني][٧] يزيد بن خُصَيفَة، عن السائب بن يَزيدَ الكِنْديِّ قال: كنت قائمًا في المسجد، فحصبني رجلٌ، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فأتني بهذين. فجئته بهما، فقال: من أنتما؟ أو: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما: ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ[٨].

وقال النسائي: حدَّثنا سُوَيْد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: «أتدري أين أنت؟» وهذا أيضًا صحيح[٩].

وقوله: «وإقامة حدودكم، وسل سيوفكم»: تقدَّما.

وقوله: «واتخذوا علىٰ أبوابها المطاهر» يعني: المَرَاحِيض التي يُسْتَعَان بها علىٰ الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريبًا من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها، فيشربون ويتطهرون، ويتوضئون وغير ذلك.

وقوله: «وجمِّروها في الجُمَع» يعني: بَخِّروها في أيَّام الجُمَع لكثرة اجتماع الناس يومئذٍ.

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) البخاري (٢٢٠)، ومسلم (٢٨٤).

(٤) أي: يطوف بالليل. (٥) لوحة (٥٨ أ). (٦) العِياط -ككتاب-: الصراخ والزعقة.

(٧) زيادة، وفي (ز): (عبد الرحمن بن يزيد)، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري».

(٨) البخاري (٤٧٠). (٩) رواه النسائي في «الكبرىٰ» كما نسبه إليه المزي في «التحفة» (٨/ ٤).

وقد قال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا عبيد الله، حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن عمر كان يُجَمِّر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعةٍ[١]. إسناده حسن لا بأس به والله أعلم.

وقد ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «صَلاةُ الرَّجُلِ فِي الجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَىٰ صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ المَسْجِدِ، لا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّىٰ لَمْ تَزَلِ المَلائِكَةُ تُصَلِّي [عَلَيْهِ][٢] مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلا يَزَالُ فِي صَلاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاةَ»[٣].

وعند الدارقطني مرفوعًا: «لا صَلاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إِلَّا فِي المَسْجِدِ»[٤].

وفي «السنن»: «بَشِّرِ[٥] المَشَّائِينَ إِلَىٰ المَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٦].

والمُسْتَحَبُّ لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليُمْنَىٰ، وأن يقول كما ثبت في «صحيح البخاري»[٧] عن عبد الله بن عَمرو رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: «أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [قال: أَقَطُّ؟ قال: نعم][٨]. قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفِظَ مني سائر اليوم[٩].

وروىٰ مسلم بسنده عن أبي حميد -أو: أبي أُسَيْد- قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»[١٠]. ورواه النسائي عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ [مثله][١١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (١/ ١٧٠)، فيه عبد الله بن عمر العمري: ضعيف.

(٢) سقط من (ز).

(٣) رواه البخاري (٦٤٧)، ومسلم (٦٤٩).

(٤) ضعيف: رواه الدارقطني (١/ ٤٢٠)، والحاكم (١/ ٣٤٦)، وفيه سليمان بن داود اليمامي: ضعيف جدًا.

(٥) لوحة (٥٨ ب).

(٦) صحيح: رواه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣)، وأخرج نحوه ابن ماجة (٧٨١) من حديث أنس.

(٧) وهذا وهمٌ من الحافظ ابن كثير رحمه الله، وسبحان من جَلَّ عن السهو والخطأ، وانظر: «التحبير للأوهام والتنبيهات في تفسير ابن كثير» لهاني الحاج (ص٨٧).

(٨) سقط من (ز). (٩) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٦).

(١٠) مسلم (٧١٣)، وأبو داود (٤٦٥)، والنسائي (٢/ ٥٣)، وابن ماجة (٧٧٢).

(١١) ليست في (ز).

وَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[١]. ورواه ابن ماجة، وابن خزيمة وابن حِبَّان في «صحيحيهما».

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدَّثنا لَيْث بن أبي سليم، عن عبد الله بن حسن[٢]. عن أمه فاطمة بنت حسين، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلَّىٰ علىٰ محمَّد وسلم، ثم قال: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ». وإذا خرج صلىٰ علىٰ محمَّد وسلم ثم قال: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»[٣].

ورواه الترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ وإسناده ليس بمتصلٍ؛ لأنَّ فاطمة بنت الحسين الصغرىٰ لم تدرك [فاطمة][٤] الكبرىٰ.

فهذا الذي ذكرناه، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك لحال الطول[٥]. كله داخلٌ في قوله تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [أي: اسم الله،][٦] كقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

قال ابن عبَّاس: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا[٧] ٱسْمُهُۥ﴾ يعني: يُتْلَىٰ فيها كتابه.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي: في البُكَرات والعَشِيَّات. والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: كل تَسْبِيحٍ في القرآن هو الصلاة[٨].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني بالغدو: صلاة الغداة، ويعني بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأَحَبَّ أن يَذْكُرهما وأن يُذَكِّر بهما عباده.

---

(١) إسناده جيد: رواه ابن ماجة (٧٧٣)، وابن خزيمة (٤٥٢)، وابن حبان (٢٥٠).

(٢) في (ز): (عن عبد الرحمن بن حسين)، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «المسند».

(٣) هذا إسناد ضعيف، والحديث حسن لغيره: رواه أحمد (٦/ ٢٨٢)، والترمذي (٣١٤)، وابن ماجة (٧٧١)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم. تركت أحاديثه بعد اختلاطه، وفي الإسناد انقطاع بين فاطمة الصغرىٰ وجدتها فاطمة، لكن يكفي في الاستشهاد بالحديث السابق بل يحسن بها الحديث.

(٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): (لحال القول). (٦) سقط من (ز).

(٧) لوحة (٥٩ أ). (٨) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٤٦).

وكذا قال الحسن، والضَّحَّاك: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ يعني: الصلاة.

ومن قرأ من القَرَأَة «يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ» -بفتح الباء من «يُسبح»[١] علىٰ أنه مبني لما لم يسم فاعله- وقف علىٰ قوله: ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ وقفًا تامًّا، وابتدأ بقوله: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وكأنَّه مفسر للفاعل المحذوف، كما قال الشاعر:

لِيُبْــكَ يَزِيــدُ، ضَــارِعٌ لِخُــصُومَةٍ وَمُخْتَــبطٌ مِمَّــا تُطِــيحُ الطَّــوَائِحُ[٢]

كأنَّه قال: من يبكيه؟ قال: هذا يبكيه. وكأنَّه قيل: من يسبح له فيها؟ قال: رجال.

وأمَّا علىٰ قراءة مَنْ قرأ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ -بكسر الباء- فجعله فعلًا وفاعله: ﴿رِجَالٞ﴾ فلا يحسن الوقف إلا علىٰ الفاعل؛ لأنَّه تمام الكلام.

فقوله: ﴿رِجَالٞ﴾ فيه إشعارٌ بهممهم السامية، ونيَّاتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمَّارًا للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادتِهِ وشكره، وتوحيده وتنزيهِهِ، كما قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فأما النِّساء فَصَلاتُهُنَّ في بيوتهن أفضل لهن؛ لما رواه أبو داود، عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «صَلاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي بَيْتِهَا»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن غَيْلان، حدَّثنا رِشْدِين، حدَّثني عمرو، عن أبي السمح، عن السائب مولىٰ أم سلمة، عن أم سلمة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خَيْرُ مَسَاجِدِ النِّسَاءِ [قَعْرُ][٤] بُيُوتِهِنَّ»[٥].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا هارون، أخبرني عبد الله بن وهب، حدَّثنا داود بن قيس، عن عبد الله ابن سُوَيد الأنصاري، عن عمته[٦] أم حميد -امرأة أبي حميد الساعدي- أنَّها جاءت النَّبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك قال: «قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ تُحِبِّينَ الصَّلاةَ مَعِي، وَصَلاتُكِ فِي بَيْتِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلاتِكِ فِي حُجْرَتِكِ، وَصَلاتُكِ فِي حُجْرَتِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلاتِكِ فِي دَارِكِ، وَصَلاتُكِ فِي دَارِكِ خَيْرٌ مِنْ

---

(١) **متواترة:** قَرَأَ (يُسَبَّحُ) ابْنُ عَامِرٍ وَشُعْبَةُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يُسَبِّحُ).

(٢) **الضارع:** الذليل، **والمُختبط:** الذي يأتيك للمعروف من غير وسيلةٍ، **وتطيح:** تذهب وتهلك، **والطوائح:** المطيحات المهلكات.

(٣) **صحيح:** رواه أبو داود (٥٧٠)، والبزار (٢٠٦٠)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٥٧٩).

(٤) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «المسند».

(٥) **حسن:** رواه أحمد (٦/ ٢٩٧)، وفيه رشدين بن سعد: ضعيف، لكن له شواهد يقوىٰ بها: منها حديث ابن عمر الآتي: «لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن».

(٦) لوحة (٥٩ ب).

صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ، وَصَلَاتُكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِي». قال: فأمَرَت فبُنِيَ لها مسجد في أقصىٰ بيت من بيوتها [وأظلمه][1]، فكانت تصلي فيه حتىٰ لقيت الله ﷻ[2]. لم يخرجوه.

هذا ويجوزُ لها شهود جماعة الرجال، بشرط أن لا تؤذي أحدًا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن عُمَر أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ»[3]. رواه البخاري ومسلم، ولأحمد وأبي داود: «وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ»[4] وفي رواية: «وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٍ»[5] أي: لا ريح لهن.

وقد ثبت في «صحيح مسلم»، عن زينب -امرأة ابن مسعود- قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ المَسْجِدَ فَلَا تَمَسَّ طِيبًا»[6].

وفي «الصحيحين» عن عائشة ﵂ أنها قالت: كان نساء المؤمنين[7] يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يَرْجِعْن متلفِّعاتٍ بمُرُوطهن، ما يُعْرَفْن من الغَلَس[8][9].

وفي «الصحيحين» أيضًا عنها أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهُنَّ المساجد، كما مُنِعَت نساء بني إسرائيل[10].

وقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

يقول تعالىٰ: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها ومَلاذ بَيعها وريحها، عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خيرٌ لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم[11] ينفد وما عند الله باقٍ؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: يُقدِّمُون

---

(١) في (ز): (من بيوتها والله).

(٢) حسن: رواه أحمد (٦/ ٢٧١)، وصححه ابن خزيمة (١٦٨٩).

(٣) البخاري (٩٠٠)، ومسلم (١٣٦).

(٤) حسن لغيره: أحمد (٢/ ١٦)، وأبو داود (٥٦١)، وتفرد بهذه الزيادة حبيب بن أبي ثابت، وأشار ابن خزيمة لانقطاعه، لكن يشهد لهذه الزيادة حديث أم حميد السابق.

(٥) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٩٢)، وإسناده حسن.

(٦) رواه مسلم (٤٤٣).

(٧) في (ز): (كان نساء المؤمنات).

(٨) البخاري (٥٧٨)، ومسلم (٦٤٥)، وأصحاب السنن.

(٩) الغَلَس: ظلمة آخر الليل.

(١٠) البخاري (٨٦٩)، ومسلم (٤٤٥).

(١١) لوحة (٦٠ أ).

طاعته ومُرَاده ومحبته علىٰ مرادهم ومحبتهم.

قال هُشَيْم: عن سَيَّار: قال: حُدِّثْتُ عن ابن مسعودٍ أنَّه رأىٰ قومًا من أهل السوق، حيث نُودِيَ بالصَّلاة، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلىٰ الصلاة، فقال عبد الله: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1].

وهكذا روىٰ عَمْرو بن دينار القَهْرَمَانيُّ، عن سالم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنَّه كان في السُّوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن بكر الصنعاني، حدَّثنا أبو سعيد مولىٰ بني[3] هاشم حدَّثنا عبد الله بن بُجَيْر، حدَّثنا أبو عبد رب قال: قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنِّي أقمت علىٰ هذا الدَّرَجِ أبايع عليه، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار، أشهد الصَّلاة في كلِّ يوم في المسجد، أما إني لا أقول: «إن ذلك ليس بحلال» ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4].

وقال عمرو بن دينار الأعور: كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلىٰ الصلاة وخَمَّرُوا متاعهم[5]، فنظر سالم إلىٰ أمتعتهم ليس معها أحدٌ، فتلا سالم هذه الآية: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ﴾ ثم قال: هم هؤلاء.

وكذا قال سعيد بن أبي الحسن، والضَّحَّاك: لا تُلْهِيهِم التِّجارة والبيع أن يأتوا الصَّلاة في وقتها.

وقال مطر الوَرَّاق: كانوا يَبِيعُون ويَشْتَرُون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النِّداء وميزانُه في يده خفضه، وأقبل إلىٰ الصلاة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ﴾ يقول: عن الصَّلاة المكتوبة. وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان.

وقال السُّدِّي: عن الصلاة في جماعة.

وعن مقاتل بن حيَّان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن

---

(١) رواه الطبري (١٨/ ١٣٣)، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٨) إلىٰ سعيد بن منصور والطبراني والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٤٦٤٨)، وفيه عمرو بن دينار وهو ليس بالقوي. وقال في التقريب: ضعيف.

(٣) في (ز): (مولىٰ أبي هاشم).

(٤) **ضعيف**: رواه الطبري (١٨/ ١١٣)، وعبد الرزاق (٢/ ١٦)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٠٧).

(٥) أي: غطوه.

يُحَافِظُوا علىٰ(١) مواقيتها، وما استحفظهم الله فيها.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [أي:](٢) يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار؛ أي: من شدة الفزع وعظمة الأهوال، كما قال تعالىٰ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-١٢].

وقال هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم.

وقوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] كما قال هاهنا: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وعن ابن مسعود: أنَّه جيءَ بلبنٍ فعرضه علىٰ جلسائِهِ واحدًا واحدًا، فكلهم لم يشربه؛ لأنَّه كان صائمًا، فتناوله ابن مسعود وكان مفطرًا فشربه، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾(٣)، رواه النسائي، وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة عنه.

وقال [ابن أبي حاتم](٤) أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سُوَيْد بن سعيد(٥)، حدَّثنا علي بن مُسْهِر عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ، جَاءَ مُنَادٍ فَنَادَىٰ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الخَلَائِقَ: سَيَعْلَمُ أَهْلُ الجَمْعِ مَنْ أَوْلَىٰ بِالكَرَمِ، لِيَقُمِ الَّذِينَ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ. فَيَقُومُونَ، وَهُمْ قَلِيلٌ، ثُمَّ يُحَاسَبُ سَائِرُ الخَلَائِقِ**»(٦).

وروىٰ الطبراني، من حديث بقيَّة، عن(٧) إسماعيل بن عبد الله الكندي، عن الأعمش، عن أبي وائل،

---

(١) لوحة (٦٠ ب). (٢) سقط من (ز).
(٣) **صحيح**: رواه ابن أبي حاتم (١٤٦٦٠).
(٤) ليست في (ز). (٥) في (ز): (سويد بن شعبة).
(٦) ضعيف: «المنتخب من مسند عبد بن حميد» (١٥٨١)، وفيه شهر بن حوشب كثير الوهم والإرسال.
(٧) لوحة (٦١ أ).

عن ابن مسعود، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠] قال: ﴿أُجُورَهُمْ﴾ يدخلهم الجنة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا(١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾(٢)

هذان مثلان ضربهما الله تعالىٰ لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول «البقرة» مثلين ناريًّا ومائيًّا، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدىٰ والعلم في سورة «الرعد» مثلين مائيًّا وناريًّا، وقد تكلمنا علىٰ كلٍّ منها في موضعه بما أغنىٰ عن إعادته، ولله الحمد والمنة.

فأمَّا الأوَّل مِن هذين المثلين: فهو للكفَّار الدُّعاة إلىٰ كفرهم، الَّذين يحسبون أنهم علىٰ شيءٍ من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر علىٰ شيءٍ، فمثلهم في ذلك كالسَّرابِ الذي يُرىٰ في القيعان من الأرض عن بُعْدٍ كأنَّه بحرٌ طامٌّ.

والقِيعَة: جمع قاع، كجار وجيرة. والقاع أيضًا: واحد القِيعَان، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرض المستوية المُتَّسِعَة المنبسطة، وفيه يكون السَّراب، وإنَّما يكون ذلك بعد نصف النَّهار. وأمَّا الآل فإنَّما يكون أول النهار، يرىٰ كأنَّه ماءٌ بين السماء والأرض، فإذا رأىٰ السَّراب مَن هو محتاج إلىٰ الماء حَسِبَه ماءً فقصده ليشرب منه، فلما انتهىٰ إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملًا وأنَّه قد حَصَّل شيئًا، فإذا وافىٰ الله يوم القيامة وحاسبه عليها، ونوقش علىٰ أفعاله، لم يجد له شيئًا بالكلية قد قُبِلَ، إمَّا لعدم الإخلاص، وإمَّا لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال هاهنا: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. وهكذا رُوي(٣) عن أُبي بن كعب، وابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة وغير واحدٍ.

---

(١) ضعيف: إسماعيل بن عبد الله الكندي ضعيف كما في «ميزان الاعتدال» (١/ ٢٣٥)، وأورده ابن حجر في «لسان الميزان» (١/ ٤١٧).

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ: قيل: المراد بالظلمات: أعمال الكفار، وبالبحر اللّجي: قلب الكافر، وبالموج فوق الموج: ما يغشىٰ قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب: الرين والختم والطبع علىٰ قلبه؛ ولذا قال أبي بن كعب: الكافر في خمس من الظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلىٰ ظلمة النار.

(٣) لوحة (٦١ ب).

وفي «الصحيحين»: «أَنَّهُ يُقَالُ يَوْمَ القِيَامَةِ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ، مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أَيْ رَبَّنَا، عَطِشْنَا فَاسْقِنَا. فَيُقَالُ: أَلَا تَرَوْنَ؟ فَتُمَثَّلُ لَهُمُ النَّارُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَنْطَلِقُونَ فَيَتَهَافَتُونَ فِيهَا»(١).

وَهَذَا المثال مثالٌ لذَوِي الجهل المركب(٢). فأمَّا أصحاب الجهل البسيط، وهم الطَّماطم(٣) الأغشام المُقلِّدون لأئمَّة الكفر، الصُّمُّ البُكْم الَّذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ قال قتادة: وهو العميق. ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يدري أين يذهب، ولا هو يعرف حال مَن يقوده، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم. قيل: فإلىٰ أين يذهبون؟ قال: لا أدري.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس ﷺ: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ يعني بذلك: الغِشَاوة التي علىٰ القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وكقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال أُبيُّ بن كعب في قوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فهو يتقلَّب في خمسة من الظُّلَم: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلىٰ الظُّلمات إلىٰ النار(٤).

وقال الربيع بن أنس، والسُّدِّي نحو ذلك أيضًا.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: مَن لَمْ يَهْدِهِ الله فهو هالكٌ جاهلٌ حائرٌ بائرٌ كافرٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وهذا في مُقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورًا، وعن أيماننا(٥) نورًا، وعن شمائلنا نورًا، وأن يُعْظِم لنا نورًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ(٦) لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

---

(١) البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣).

(٢) الجهل المركب: إدراك الشيء علىٰ وجه يخالف ما هو عليه، والجهل البسيط: عدم الإدراك بالكلية. «فتاوىٰ العثيمين»: (١١/ ١٦).

(٣) الطماطم -جمع طِمْطِم-: وهو الذي في لسانه عُجمة.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٥١). (٥) لوحة (٦٢ أ).

(٦) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: التسبيح يشمل التسبيح بالقول وبالحال، بالقول مثل: سبحان الله، وبالحال: أنك إذا تأملت خلقه وما جُبِلَ عليه، علمت بذلك أن الله مُنزَّهٌ عن العبث وعن النقائص، ويسمىٰ هذا التسبيح بالحال.

يخبر تعالىٰ أنه يُسَبِّحه مَن في السموات والأرض؛ أي: مِن الملائكة والأناسِيِّ، والجانِّ والحيوان، حتىٰ الجماد، كما قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: في حال طيرانها تُسَبِّح ربَّها وتعبده بتسبيحٍ ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلةٌ؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي: كلٌّ قد أرشده إلىٰ طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ.

ثم أخبر أنَّه عَالِمٌ بجميع ذلك، لا يخفىٰ عليه مِن ذلك شيءٌ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

ثمَّ أخبر تعالىٰ: أنَّ له ملك السموات والأرض، فهو الحاكم المتصرِّف الذي لا مُعقِّبَ لحكمه، وهو الإلهُ المعبود الذي لا تَنبَغِي العبادة إلا له. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء؛ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فهو الخالق المالك، ألا له الحكم في الدُّنيا والأخرىٰ، وله الحمد في الأولىٰ والآخرة؟!.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

يذكر تعالىٰ أنَّه بقُدْرَتِهِ يسوق السحاب أول ما يُنْشِئُها وهي ضعيفةٌ، وهو الإزجاء[1] ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: يجمعه بعد تفرُّقِهِ، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: متراكمًا؛ أي: يركب بعضه بعضًا، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: من خَلَله. وكذا قرأها ابن عبَّاس والضَّحَّاك[2].

قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فتَقُمُّ الأرض قمًّا[3]، ثم يبعث الله الناشئة فتُنْشِئُ السَّحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللَّواقح فتلقح السحاب. رواه ابن[4] أبي حاتم، وابن جرير -رحمهما الله-.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾: قال بعض النُّحاة[5]: «من» الأولىٰ: لابتداء الغاية، والثانية:

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أولىٰ أن نفسر الإزجاء بالسَّوْق، سواء برفقٍ أو بغير رفقٍ؛ لأننا نشاهد أن السحاب يسير أحيانًا برفقٍ وأحيانًا يسير بسرعةٍ وهو سحاب.

(٢) شاذة: قَرَأَ (خَلَلِهِ) الأَعْمَشُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (خِلَالِهِ).

(٣) أي: تكنسها كنسًا. (٤) لوحة (٦٢ ب).

(٥) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لطيفة: قد ذكرت «من» الجارّة في الآية ثلاث مرات. فالأولىٰ ابتدائية اتفاقًا. والثانية زائدة أو تبعيضية أو ابتدائية، علىٰ جعل مدخولها بدلًا مما قبله بإعادة الجار. والثالثة فيها هذه الأقوال. وتزيد برابع، وهو أنها لبيان الجنس. والتقدير: ينزل من السماء بعض جبال، التي هي البرد.

للتبعيض، والثالثة: لبيان الجنس. وهذا إنَّما يجيء علىٰ قول من ذهب من المُفَسِّرين إلىٰ أن قوله: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ ومعناه: أن في السماء جبالَ بَرَدٍ ينزل الله منها البَرَد. وأما من جعل الجبال هاهنا عبارة كناية عن السحاب، فإنَّ «من» الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضًا، لكنها بَدَل من الأولىٰ، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله: [﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾][١] أي: بما ينزل من السماء من نوعي البَرَدِ والمَطَرِ فيكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ رحمةً لهم، ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي: يؤخر عنهم الغيث.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالبرد نِقْمَةً علىٰ من يشاء لما فيه من نَثْرِ ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم. ويصرفه عمن يشاء؛ أي: رحمةً بهم.

وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: يَكادُ ضوء بَرْقِهِ مِن شدَّته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته[٢].

وقوله ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يتصرف فيهما، فيأخذ مِن طول هذا في قصر هذا حتَّىٰ يعتدلا ثم يأخذ مِن هذا في هذا، فيطول الذي كان قصيرًا، ويقصر الذي كان طويلًا. والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: لدليلًا علىٰ عظمته تعالىٰ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وما بعدها من الآيات الكريمات.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾

يذكر تعالىٰ قدرته التَّامة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع [المخلوقات][٣]. علىٰ اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماءٍ واحدٍ ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالحَيَّة وما شاكلها، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالإنسان[٤] والطير، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات؛ ولهذا قال: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾

يقرر تعالىٰ أنَّه أنزل في هذا القرآن من الحكم[٥] والأمثال البينة المحكمة كثيرًا جدًّا، وأنَّه يُرْشِد إلىٰ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): (إذا اتبعته وأرادته).
(٣) سقط من (ز).
(٤) لوحة (٦٣ أ).
(٥) في (ز): (من الحكم والحكم والأمثال).

تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنُّهىٰ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ
(٤٧) وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ(١) (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ
مُذۡعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ
(٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ(٢) إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (٥٢)﴾(٣)

يخبر تعالىٰ عن صفات المنافقين، الذين يُظْهرون خلَاف ما يُبْطِنُون، يقولون قولًا بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾(٤) أي: إذا طلبوا إلىٰ اتِّباع الهدىٰ، فيما أنزل الله علىٰ رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتِّباعه. وهذه كقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء بن أبي ميمونة، عن أبيه، عن الحسن، عن سَمُرة مرفوعًا: «مَنْ دُعِيَ إِلَىٰ سُلْطَانٍ فَلَمْ يُجِبْ، فَهُوَ ظَالِمٌ لا حَقَّ لَهُ»(٥)(٦).

---

(١) قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي هذه الآية دليلٌ علىٰ وجوب الإجابة إلىٰ القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب والسنة العادلين في القضاء هو: حكم بحكم الله وحكم رسوله، فالداعي إلىٰ التحاكم إليهم قد دعا إلىٰ الله وإلىٰ رسوله؛ أي: إلىٰ حكمهما. قال ابن خويز منداد: واجبٌ علىٰ كل من دعي إلىٰ مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق.

(٢) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي هذه الآيات دليل علىٰ أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتىٰ يقترن به العمل، ولهذا نفىٰ الإيمان عمن تولىٰ عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من لم يَنْقَدْ له دل علىٰ مرض في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يَحْرُم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

(٣) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واشتملت هذه الآية علىٰ الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو: الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو: الخشية والتقوىٰ، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا (٩)﴾ [الفتح].

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الآية دليل علىٰ خطر من يتعصب للمذهب، أو لقولِ واحدٍ من أهل العلم، إذا دُعِيَ إلىٰ الله ورسوله وقيل: هذا كتاب الله وهذه سنة الرسول ﷺ، فالواجب التحاكم إليهما والرجوع إليهما.

(٥) ضعيف: رواه الطبراني (٧/ ٢٢٥)، وفيه روح بن عطاء: ضعيف، والحسن لم يسمع من سمرة ففيه انقطاع.

(٦) هذا الحديث وقع في (ز) قبل الفقرة السابقة له.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُن (١) لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاءوا سامعين مطيعين وهو معنىٰ قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلىٰ غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلىٰ غير النَّبيِّ ﷺ ليروج باطله ثَمَّ. فإذعانه أولًا لم يكن عن اعتقادٍ منه أن ذلك هو الحق؛ بل لأنَّه موافق لهواه؛ ولهذا لما خالف الحقُّ قَصْدَهُ عدل عنه إلىٰ غيره؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مَرَضٌ لازمٌ لها، أو قد عَرَض لها شكٌّ في الدِّين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم. وأيًّا ما كان فهو كفرٌ محضٌ، والله عليمٌ بكل منهم، وما هو عليه مُنْطَوٍ من هذه الصفات.

وقوله: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالىٰ الله ورسوله عن ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا مبارك، حدَّثنا الحسن قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعةٌ، فدعي إلىٰ النَّبيِّ ﷺ وهو مُحِقٌّ أذعن، وعلم أن النَّبيَّ ﷺ سيقضي له بالحق. وإذا أراد أن يظلم فدُعي إلىٰ النَّبيِّ ﷺ أعرض، وقال: أنطلقُ إلىٰ فلان. فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَيْءٌ، فَدُعِيَ إِلَىٰ حَكَمٍ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ فَأَبَىٰ أَنْ يُجِيبَ، فَهُوَ ظَالِمٌ لا حَقَّ لَهُ» (٢).

وهذا حديثٌ غريبٌ، وهو مرسلٌ.

ثم أخبر تعالىٰ عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغون دينًا سوىٰ كتاب الله وسُنَّةِ رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعًا وطاعةً؛ ولهذا وصفهم تعالىٰ بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة مِن المرهوب، فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقال قتادة في هذه الآية: ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ذُكر لنا أن عُبادة بن الصامت -وكان (٣) عَقَبيًّا بدريًّا (٤)، أحد نقباء الأنصار- أنَّه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا أُنبِّئُكَ بماذا عليك وَمَاذا لك؟ قال: بلىٰ. قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومَنْشَطك ومكرهك،

---

(١) لوحة (٦٣ ب).

(٢) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٢٣)، ورواه مختصرًا أبو داود في «المراسيل» (٣٩١)، والدارقطني (٤/ ٢١٤)، والبيهقي (١٠/ ١٤٠)؛ لأنه من رواية الحسن البصري ولم يصله إلىٰ الصحابي عن رسول الله ﷺ.

(٣) لوحة (٦٤ أ).

(٤) أي: شهد بيعة العقبة وغزوة بدر، وهي منزلة رفيعة، فهنيئًا له رضي الله عنه.

وأثرةٍ عليك. وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا تنازع الأمرَ أهله، إلا أن يأمروك بمعصيةِ الله بَوَاحًا، فما أمرت به من شيءٍ يخالف كتاب الله، فاتّبع كتاب الله[(١)].

وقال قتادة: وَذُكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنَّصيحة لله ولرسوله، وللخليفة وللمؤمنين عامة[(٢)].

قال: وقد ذُكِرَ لنا أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ كان يقول: عُروة الإسلام شهادةُ أن لا إله إلا الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطَّاعة لمن ولّاه الله أمر المسلمين[(٣)].

رواه ابن أبي حاتم، والأحاديث والآثار في وجوب الطَّاعة لكتاب الله [وسُنَّة رسوله، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله][(٤)] كثيرةٌ جدًّا، أكثر من أن تحصر في هذا المكان.

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: فيما أمراه به وتَرَكَ ما نهياه عنه، ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضىٰ من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل.

وقوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكلِّ خيرٍ، وأَمِنُوا مِن كلِّ شرٍّ في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن أهل النِّفاق، الذين كانوا يَحْلِفُون للرسول ﷺ لئن أمرهم بالخروج [في الغزو][(٥)] ليَخْرُجُنَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ أي: لا تحلفوا.

وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة؛ أي: قد عُلمت[(٦)] طاعتكم، إنَّما هي قولٌ لا فعلَ معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢]، فهم من سَجِيَّتِهم الكذب حتىٰ فيما يختارونه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟[(٧)] يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٤٧٤٥).
(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٤٧٤٥).
(٣) هو نفس التخريج السابق.
(٤) سقط من (ز).
(٥) ليست في (ز).
(٦) في (ز): (قد علمتم طاعتكم).
(٧) لوحة (٦٤ ب).

وقيل: المعنىٰ في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: لِيَكُنْ أمركم طاعةً معروفةً؛ أي: بالمعروف مِن غير حَلِفٍ ولا إقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلفٍ، فكونوا أنتم مثلهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو خَبِيرٌ بكم وبمن يُطِيعُ ممن يعصي، فالحَلِفُ وإظهار الطاعة - والباطن بخلافه، وإن راج علىٰ المخلوق- فالخالق تعالىٰ يعلم السر وأخفىٰ، لا يَرُوجُ عليه شيءٌ من التَّدليس، بل هو خبيرٌ بضمائر عباده، وإن أظهروا خلافها.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: اتَّبعوا كتاب الله وسنَّة رسوله.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولَّوا عنه وتتركوا ما جاءكم به، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: إبلاغ الرِّسالة وأداء الأمانة، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: مِن قبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾؛ وذلك لأنه يدعو إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورىٰ: ٥٣].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

وقال وهب بن مُنَبِّه: أوحىٰ الله إلىٰ نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل -يقال له: شعياء- أن قُم في بني إسرائيل فإنِّي سأطلق لسانك بوحيٍ. فقام فقال: يا سماء اسمعي، ويا أرض أنصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأنًا ويدبر أمرًا هو منفذه، إنَّه يريد أن يحول الريف إلىٰ الفلاة، والآجام[(١)] في الغيطان، والأنهار في الصحاري، والنعمة[(٢)] في الفقراء، والملك في الرعاة، ويريد أن يبعث أُمِّيًّا من الأميين، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا سَخَّابٍ[(٣)] في الأسواق، لو يَمُرُّ إلىٰ جنب السِّراج لم يطفئه مِن سكينته، ولو يمشي علىٰ القَصَب اليابس لم يسمع من تحت قدميه. أبعثه مُبَشِّرا ونذيرًا[(٤)]، لا يقول الخنا[(٥)]، أفتح به أعينًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا، وأسَدِّده لكلِّ أمرٍ جميلٍ، وأَهَب له كلَّ خلقٍ كريمٍ، وأجعل السَّكِينَة لباسه، والبر شعاره، والتَّقوىٰ ضميره، والحكمة منطقه، والصِّدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحقَّ شريعته، والعَدلَ سِيرَتَه، والهدىٰ إمامه، والإسلام مِلَّته، وأحمد اسمه، أَهْدِي به بعد الضَّلالة، وأعلِّم به من الجهالة، وأَرْفَعُ به بعد الخمَالة[(٦)]، وأعرف به [بعد][(٧)] النُّكْرَة، وأكثر [به][(٨)] بعد القِلَّة، وأغني [به][(٩)] بعد العَيلَة، وأَجْمَعُ به بعد الفرقة، وأُؤَلِّف به بين أُمَمٍ متفرقةٍ، وقلوبٍ مختلفةٍ، وأهواء متشَتِّتةٍ، وأستنقذ به فئامًا[(١٠)] من الناس

---

(١) جمع أَجَمة، وهي الشجر الكثيف الملتف، والغيطان: جمع غائط، وهي الأرض المنبتة.
(٢) في (ز): (والنهار في الصحاري، والنقمة في الفقراء).
(٣) الصخب والسخب: الضجة، واضطراب الأصوات للخصام.
(٤) لوحة (٦٥ أ). (٥) الخنا: الفحش في القول. (٦) خمل ذكره خمولًا: خفي، ضد نبه.
(٧) سقط من (ز). (٨) سقط من (ز). (٩) سقط من (ز).
(١٠) أي: جماعات.

عظيمًا من الهَلَكة، وأجعل أُمَّته خير أُمَّةٍ أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، مُوحِّدين مُؤمِنين مخلصين، مُصدِّقين بما جاءت به رُسُلي. رواه ابن أبي حاتم[١].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾

هذا وَعْدٌ من الله لرسوله ﷺ بأنَّه سيجعل أُمَّته خلفاء الأرض؛ أي: أئمَّةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، [وليُبَدِّلَنَّهُم مِن][٢] بعد خوفهم من النَّاس أمنًا وحكمًا فيهم، وقد فعل تبارك وتعالىٰ ذلك. وله الحمد والمنَّة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتىٰ فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشَّام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تَملَّك بعد أَصْحَمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عِنْدَه من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمَّ شَعَث ما وَهَىٰ عند موته[٣] عليه الصلاة والسلام وأطَّدَ[٤] جزيرة العرب ومَهَّدَها، وبعث الجيوش الإسلاميَّة إلىٰ بلاد فارس صحبة[٥] خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفًا منها، وقتلوا خلقًا من أهلها. وجيشًا آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومَن معه من الأمراء إلىٰ أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلىٰ بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيَّامه بُصرىٰ ودمشق ومَخَاليفهما مِن بلاد حَوران وما والاها، وتوفَّاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنَّ علىٰ الإسلام وأهلِهِ بأن ألْهم الصِّدِّيقَ أنِ استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قيامًا تامًّا، لم يَدُرِ الفلك بعد الأنبياء -عليهم السلام- علىٰ مثله في قوَّة سيرته وكمال عدله. وتمَّ في أيَّامه فتح البلاد الشاميَّة بكمالها، وديار مصر إلىٰ آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرىٰ وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلىٰ أقصىٰ مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلىٰ قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووَعَدَ به رسول الله، عليه من ربه أتم سلامٍ وأزكىٰ صلاةٍ.

ثم لما كانت الدولة العثمانية[٦]، امتدت المماليك الإسْلَاميَّة إلىٰ أقصىٰ مشارق الأرض ومغاربها، فَفُتِحَتْ بلاد المغرب إلىٰ أقصىٰ ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَة مما يلي

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٤٧٥٨)، وهو من رواية وهب بن منبه يروي الإسرائيليات.

(٢) في (ز): (وليبدلن).

(٣) بتصديه للمرتدين ومانعي الزكاة ومواصلة الفتوحات.

(٤) أي: ثبتها وقواها.

(٥) لوحة (٦٥ ب).

(٦) يعني بذلك: خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلىٰ أقصىٰ بلاد الصين، وَقُتِلَ كسرىٰ، وباد ملكه بالكليَّة. وفُتِحَتْ مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتَلَ المسلمون من التُّرك مقتلةً عظيمةً جدًّا، وخذل الله ملكهم الأعظم خَاقَان، وجُبِيَ الخراج من المشارق والمغارب إلىٰ حضرةِ أمير المؤمنين عثمان [بن عفان][1] ﷺ. وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة علىٰ حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ زَوَىٰ[2] [لِيَ][3] الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[4] فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره علىٰ الوجه الذي يرضيه عنَّا.

قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدَّثنا ابن أبي عمر[5]، حدَّثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سَمُرَة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا». ثم[6] تكلم النَّبيُّ ﷺ بكلمةٍ خَفِيت عَنِّي فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»[7].

ورواه البخاري من حديث شعبة، عن عبد الملك بن عمير به.

وفي روايةٍ لمسلمٍ أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك، وذكر معه أحاديث أخر.

وهذا الحديث فيه دلالة علىٰ أنَّه لا بد من [وجود][8] اثني عشر خليفةً عادلًا وليسوا هم بأئمَّة الشِّيعة الإثني عشر، فإنَّ كثيرًا من أولئك لم يكُن إليهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فإنَّهم يكونون مِن قريشٍ، يَلُون فيعدلون. وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدِّمة، ثم لا يشترط أن يكون متتابعين، بل يكون وجودهم في الأُمَّة متتابعًا ومتفرقًا، وقد وُجِد منهم أربعةٌ علىٰ الولاء، وهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي ﷺ. ثم كانت بعدهم فترةٌ بينهم، ثم وُجِد منهم ما شاء الله، ثم قد يُوجَد منهم مَن بقي في وقتٍ يعلمه الله. ومنهم المَهْدِي الذي يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلًا وقسطًا، كما مُلِئَت جورًا وظلمًا.

وقد روىٰ الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث سعيد بن جُمْهان، عن سَفِينة -مولىٰ رسول الله ﷺ- قال: [قال رسول الله ﷺ:][9] «الخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا

(١) سقط من (ز). (٢) أي: جمعها وضمها. (٣) سقط من (ز).
(٤) مسلم (٢٨٨٩). (٥) لوحة (٦٦ أ). (٦) في (ز): (وتكلم النبي).
(٧) البخاري (٧٢٢٢) ومسلم (١٨٢١). (٨) سقط من (ز).
(٩) سقط من (ز).

عَضُوضًا»[(١)] [(٢)].

وقال الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ الآية، قال: كان النَّبيُّ ﷺ وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين، يدعون إلىٰ الله وحده، وعبادته وحده لا شريك له سرًّا وهم خائفون، لا يؤمرون بالقتال، حتىٰ أمروا بعدُ بالهجرة إلىٰ المدينة، فقدموا المدينة، فأمرهم الله بالقِتَال، فكانوا بها خائفين يُمْسُون في السلاح ويُصْبِحون في السِّلاح، فَغَبَرُوا[(٣)] بذلك ما شاء الله. ثم إنَّ رجلًا[(٤)] من أصحابه قال: يا رسول الله، أَبَدَ الدَّهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَنْ تَغْبُرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنكُمْ فِي المَلَإِ العَظِيمِ مُحْتَبِيًا[(٥)] لَيْسَتْ فِيهِمْ حَدِيدَةٌ». وأنزل الله هذه الآية[(٦)]، فأظهر الله نبيَّه علىٰ جزيرة العرب، فأَمِنُوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله ﷻ قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في إمارةِ أبي بكر وعمر وعثمان حتىٰ وقعوا فيما وقعوا، فأدخل الله عليهم الخوف فاتخذوا الحَجَزَةَ والشُّرط وغَيَّروا، فغُيِّر بهم.

وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر ﵄ حقٌّ في كتابه، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية، ونحن في خوفٍ شديدٍ[(٧)].

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالىٰ عن موسىٰ ﵇ أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

---

(١) أي: يُصِيبُ الرَّعيَّة فيه عسْفٌ وظُلْمٌ كأنَّهم يُعَضُّون فيه عَضًّا. والعَضُوضُ: من أبْنية المُبالغة. «النهاية».
(٢) حسن: رواه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦) وأحمد (٥/ ٢٢٠).
(٣) فَغَبَرُوا: أي مكثوا علىٰ هذه الحال.
(٤) لوحة (٦٦ ب).
(٥) الاحْتِبَاء: أن يَضُم الإنسان رجْلَيْه إلىٰ بَطْنه بثَوبٍ يَجْمَعُهُما به مع ظَهْره ويَشُدُّه عليها، وقد يكون الاحتباء باليَدَيْن عوَض الثَّوب. «النهاية»: (١/ ٣٣٥).
(٦) رواه الطبري (١٨/ ١٢٢-١٢٣)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٢٩)، وإسناده ضعيف لإرساله، وضعف أبي جعفر الرازي.
(٧) رواه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٢٨)، وفيه أبو إسحاق السبيعي مدلس وقد اختلط.

وقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، كما قال رسول الله ﷺ لعديِّ بن حاتم، حين وفد عليه: «أَتَعْرِفُ الحِيرَةَ؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها. قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ[1] مِنَ الحِيرَةِ حَتَّىٰ تَطُوفَ بِالبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَتَفْتَحُنَّ كُنُوزَ كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ». قلت: كسرىٰ بن هرمز؟ قال: «نَعَمْ، كِسْرَىٰ بِنِ هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ المَالُ حَتَّىٰ لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ». قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحِيرَة فتطوف بالبيت في غير جوارِ أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرىٰ بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكونن الثَّالثة؛ لأنَّ رسول الله ﷺ[2] قد قالها[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن أبي سلمة، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ[4] بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ»[5].

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ قال الإمام أحمد:

حدَّثنا عفان، حدَّثنا همام، حدَّثنا قتادة، عن أنس، أنَّ معاذ بن جبل حدَّثه قال: بينا أنَا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحْل[6]، قال: «يَا مُعَاذُ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسَعْديك. قال: ثم سار ساعةً، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. [ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك.][7] قال: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «[فَإِنَّ][8] حَقَّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». قال: ثم سار ساعةً. ثم قال: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «فَهَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ»؟، قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّ حَقَّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ»[9].

أخرجاه في «الصحيحين» من حديث قتادة.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد فَسَقَ عن أمر رَبِّه وكفىٰ بذلك ذنبًا عظيمًا. فالصحابة ﭫ لما كانوا أَقْوَمَ الناس بعد النَّبيِّ ﷺ بأوامر الله ﷻ وأطوعهم لله -كان نصرهم بحسبهم، وأظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيَّدهم تأييدًا

---

(١) الظعينة: المرأة. (٢) لوحة (٦٧ أ).

(٣) صحيح: البخاري (٣٥٩٥). (٤) في (ز): (هذه الرفعة)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٥) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٣٤) وابن حبان وغيرهما.

(٦) آخرة الرَّحل: الخشبة التي يستند إليها الراكب من كور البعير.

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٨) سقط من (ز). (٩) البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

عظيمًا، وتحكموا في سائر العباد والبلاد. ولما قَصَّر النَّاس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ» وفي رواية: «حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ». وفي روايةٍ: «حَتَّىٰ يُقَاتِلُوا الدَّجَّالَ». وفي روايةٍ: «حَتَّىٰ يَنْزِلَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[(١)]. وكل هذه الروايات صحيحة[(٢)]، ولا تَعارُض بينها.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلىٰ المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مُطِيعِينَ للرَّسول، صلوات الله وسلامه عليه؛ أي: سالكين وراءه فيما به أمرهُم، وتاركين ما عنه زَجَرَهُم، لعلَّ الله يَرحمهم بذلك. ولا شكَّ أَنَّ مَن فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أي: [لا تظن][(٣)] يا محمَّد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: خالفوك وكذَّبوك، ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجزون الله، بل الله قادرٌ عليهم، وسيُعَذِّبهم علىٰ ذلك أشدَّ العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل مآلُ الكافرين، وبئس القرار وبئس المهاد.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت علىٰ استئذان الأقارب بعضهم علىٰ بعض. وما تقدَّم في أول

---

(١) صحيح: تقدم. انظر تفسير الآية (١٢٠) من سورة البقرة.
(٢) لوحة (٦٧ ب). (٣) بياض في (ز).

السورة فهو(١) استئذان الأجانب بعضهم على بعض. فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدَمُهم مما ملكَت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: الأول من قبل صلاة الغداة(٢)؛ لأنَّ الناس(٣) إذ ذاك يكونون نيامًا في فُرُشِهِم ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي: في وَقْت القيلولة؛ لأنَّ الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾؛ لأنَّه وقت النوم، فيُؤمَرُ الخدمُ والأطفال ألا يهجمُوا على أهل البيت في هذه الأحوال؛ لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله، ونحو ذلك من الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئًا في غير تلك الأحوال؛ لأنَّه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنَّهم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾؛ أي: في الخدمة وغير ذلك، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم؛ ولهذا رَوَى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السُّنن أن رسول الله ﷺ قال في الهِرَّة: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ والطَّوَّافَاتِ»(٤).

ولما كانت هذه الآية محكمةً ولم تنسخ بشيءٍ، وكان عمل النَّاس بها قليلًا جدًّا، أنكر عبد الله بن عبَّاس ذلك على الناس، كما قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر، حدَّثني عبد الله بن لهيعة، حدَّثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَيْر قال: قال ابن عبَّاس: ترك الناس ثلاث آياتٍ فلم يعملوا بهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ إلى آخر الآية، والآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨]، والآية التي في الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣](٥).

ورُوي أيضًا من حديث إسماعيل بن مسلم -وهو ضعيف- عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رَباح، عن ابن عبَّاس قال: غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات، فلم يعملوا بهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إلى آخر الآية(٦).

---

(١) في (ز): فيها استئذان. (٢) أي: صلاة الصبح. (٣) لوحة (٦٨ أ).

(٤) حسن: رواه أبو داود (٧٥)، والترمذي (٩٥)، والنسائي (١/ ٥٥)، وابن ماجة (٢٦٧).

(٥) رواه الطبري (١٨/ ١٦٢) نحوه، ورواه ابن أبي حاتم (١٤٧٨٩)، وانظر: «الدر المنثور» (٦/ ٢١٨)، وفي الإسناد عبد الله بن لهيعة: اختلط، وعطاء بن دينار: صدوق إلَّا أن روايته عن سعيد بن جبير ضعيفة، ويشهد لصحة هذه الرواية الرواية الآتية.

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٤٧٨٨)، وفيه إسماعيل بن مسلم: ضعيف، قال الذهبي: متفق على ضعفه، ولكن الأثر شاهدٌ للإسناد السابق.

وقال أبو داود: حدَّثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة -وهذا حديثه- أخبرنا سفيان، عن[١] عبيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عبَّاس يقول: لم يُؤْمِن بها أكثر الناس[٢] -آية الإذن- وإني لآمر جاريتي هذه تستأذن عليَّ.

قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء، عن ابن عبَّاسٍ يأمر به[٣].

وقال الثوري، عن موسىٰ بن أبي عائشة سألت الشعبي: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾، قال: لم تنسخ. قلت: فإنَّ النَّاس لا يعملون بها. فقال: الله المستعان.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الربيع بن سليمان، حدَّثنا ابن وهب، أخبرنا سليمان بن بلال، عن عمرو ابن أبي عَمرو، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس أنَّ رجلين سألاه عن الاستئذان في الثَّلاث عورات التي أَمَرَ الله بها في القرآن، فقال ابن عبَّاس: إن الله ستِّيرٌ يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور علىٰ أبوابهم ولا حِجَال[٤] في بيوتهم، فربما فاجأ[٥] الرجلَ خادمُه أو ولدُهُ أو يتيمُهُ[٦] في حجره، وهو علىٰ أهله، فأمرهم الله أَن يستأذنوا في تلك العورات التي سمَّىٰ الله. ثم جاء الله بَعْدُ بالسُّتُور، فبسط الله عليهم الرِّزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال، فرأىٰ الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الَّذي أُمِرُوا به[٧].

وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلىٰ ابن عبَّاس، ورواه أبو داود، عن القَعْنَبِيِّ، عن الدَّرَاوَرْدِيِّ، عن عمرو بن أبي عَمْرو به.

وقال السُّدِّي: كان أناسٌ من الصحابة ﷺ يحبون أن يُوَاقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلىٰ الصلاة، فأمرهم الله أن يَأْمُروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن.

وقال مقاتل بن حَيَّان: بلغنا -والله أعلم- أن رجلًا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرْشدة صنعا للنَّبيِّ ﷺ طعامًا، فجعل الناس يدخلون بغير إذنٍ، فقالت أسماء: يا رسول الله، ما أقبح هذا! إنَّه ليدخل علىٰ المرأة وزوجها وهما في ثوبٍ واحدٍ غلامهما بغير إذن! فأنزل الله في ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ الآية[٨].

---

(١) في (ز): (سفيان بن عبيد الله بن أبي يزيد)، والمثبت هو الصواب.
(٢) لوحة (٦٨ ب). (٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٩١).
(٤) **الحَجَلة**: بيت كالقبة يستر بالثياب، وتكون له أزرار كبار، وتجمع علىٰ حِجَال.
(٥) في (ز): (فربما جا). (٦) في (ز): أو قيمه. (٧) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٩٢).
(٨) **لا يصح**: لم يورد إسناده إلا عن مقاتل بن حيان، وهذا مرسل فلا يصح التعويل عليه في إثبات سبب نزول الآية، والأثر رواه ابن أبي حاتم (١٤٧٩٥).

ومما يدلُّ علىٰ أنها محكمة لم تنسخ، قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ[1]﴾ يعني: إذا بلغ الأطفال منكم الحلم الذين إنَّما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذَا بلغوا الحلم، وجب عليهم أن يستأذنوا علىٰ كلِّ حالٍ؛ يعني: بالنسبة إلىٰ أجانبهم وإلىٰ الأحوال التي يكون الرجل علىٰ امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي، عن يحيىٰ بن أبي كثير: إذا كان الغلام رباعيًّا[2] فإنه يستأذن في العورات الثلاث علىٰ أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن علىٰ كلِّ حال. وهكذا قال سعيد بن جبير.

وقال في قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه.

وقوله: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[3] قال سعيد بن جُبَيْر، ومُقَاتل بن حَيَّان، وقتادة، والضَّحَّاك: هنَّ اللَّواتي انقطع عنهن الحيض ويَئِسْنَ من الولد، ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لم يَبْقَ لهنَّ تَشوُّفٌ إلىٰ التزويج، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: ليس عليها من الحرج[4] في التَّستُّر كما علىٰ غيرها من النساء.

قال أبو داود: حدَّثنا أحمد بن محمَّد المروزي، حدَّثني علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن ابن عبَّاس: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣١] فنسخ، واستثنىٰ من ذلك ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآية[5].

قال ابن مسعود في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قال: الجلباب، أو الرداء[6]: وكذا رُوي عن ابن عبَّاس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء وإبراهيم النَّخعِيُّ، والحسن، وقتادة، والزهري، والأوزاعي، وغيرهم.

وقال أبو صالح: تضع الجلباب، وتقوم بين يدي الرجل في الدِّرع[7] والخمار.

وقال سعيد بن جُبَيْر وغيره، في قراءة عبد الله بن مسعود: «أن يضعن من ثيابهن» وهو الجلباب مِن

---

(١) لوحة (٦٩ أ). (٢) أي: طوله أربعة أشبار.

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن فوائدها أيضًا: يقاس علىٰ القواعد مَن لا تُشتَهىٰ لغاية في قُبحِها، فإن التي لا تُشتهىٰ لغاية في قبحها كالعجائز؛ لأنها لا ترجو النكاح، ولا يطمع أحدٌ فيها، ولهذا ألحق العلماء هذا الصنف من النساء بالقواعد.

ومن فوائدها أيضًا: أن التبرج بالزينة حرامٌ علىٰ العجائز؛ لقوله ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ فهذا الشرط إذا تخلف صار عليهن جناح بذلك، وهذا يدل علىٰ التحريم.

(٤) في (ز): من الحجر. (٥) **حسنه الألباني**: رواه أبو داود (٤١١١).

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٥٨)، وابن أبي حاتم (١٤٨٣٨)، والطبراني، والبيهقي في «السنن» والفريابي، وعبد بن حميد.

(٧) **الدرع**: القميص.

فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره، بعد أن يكون عليها خمارٌ صَفيق.

وقال سعيد بن جبير: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب، أن يرى ما عليها من الزينة(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عبيد(٢) الله، حدَّثنا ابن المبارك، حدَّثني سَوَّار بن ميمون، حدثتنا طلحة بنت عاصم، عن أم الضياء(٣)، عن عائشة ﵂ أنها قالت: دخلت عليها فقلت: يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخِضَاب، والنفاض، والصِّباغ، والقُرطين، والخلخال، وخاتم الذَّهب، وثياب الرِّقاق؟ فقالت: يا معشر النساء، قصتكن كلها واحدةٌ، أحل الله لكُنَّ الزينة غير متبرجاتٍ(٤). أي: لا يحلُّ لكُنَّ أن يَرَوْا منكن مُحَرَّمًا.

وقال السُّدِّي: كان شريك لي يقال له: مسلم، وكان مولًىٰ لامرأة حذيفة بن اليمان، فجاء يومًا إلىٰ السوق وأثر الحنَّاء في يده، فسألته عن ذلك، فأخبرني أنه خَضَب رأس مولاته -وهي امرأة حذيفة- فأنكرت ذلك. فقال: إن شئت أدخلتك عليها؟ فقلت: نعم. فأدخلني عليها، فإذا امرأةٌ جليلةٌ، فقلت: إن مسلمًا حدَّثني أنَّه خضَّب رأسكِ؟ فقالت: نعم يا بني، إنِّي من القواعد اللَّاتي لا يرجون نكاحًا، وقد قال الله في ذلك ما سمعت(٥).

وقوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وترك وضعهن لثيابهن -وإن كان جائزًا- خير وأفضل لهن، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: فَرَخَّصَ لِلْعَجُوزِ الَّتِي لَا تَطْمَعُ فِي النِّكَاحِ أَنْ تَضَعَ ثِيَابَهَا فَلَا تُلْقِي عَلَيْهَا جِلْبَابَهَا وَلَا تَحْتَجِبُ وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَثْنَاةً مِنَ الْحَرَائِرِ لِزَوَالِ الْمَفْسَدَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي غَيْرِهَا كَمَا اسْتَثْنَىٰ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ فِي إظْهَارِ الزِّينَةِ لَهُمْ لِعَدَمِ الشَّهْوَةِ الَّتِي تَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْفِتْنَةُ، وَكَذَلِكَ الْأَمَةُ إذَا كَانَ يُخَافُ بِهَا الْفِتْنَةُ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تُرْخِيَ مِنْ جِلْبَابِهَا وَتَحْتَجِبَ، وَوَجَبَ غَضُّ الْبَصَرِ عَنْهَا وَمِنْهَا. وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إبَاحَةُ النَّظَرِ إلَىٰ عَامَّةِ الْإِمَاءِ وَلَا تَرْكُ احْتِجَابِهِنَّ وَإِبْدَاءُ زِينَتِهِنَّ وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَأْمُرْهُنَّ بِمَا أَمَرَ الْحَرَائِرَ، وَالسُّنَّةُ فَرَّقَتْ بِالْفِعْلِ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الْحَرَائِرِ وَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الْحَرَائِرِ بِلَفْظٍ عَامٍّ بَلْ كَانَتْ عَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَحْتَجِبَ مِنْهُمُ الْحَرَائِرُ دُونَ الْإِمَاءِ، وَاسْتَثْنَىٰ الْقُرْآنُ مِنَ النِّسَاءِ الْحَرَائِرِ الْقَوَاعِدَ فَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِنَّ احْتِجَابًا وَاسْتَثْنَىٰ بَعْضَ الرِّجَالِ وَهُمْ غَيْرُ أُولِي الْإِرْبَةِ فَلَمْ يَمْنَعْ مِنْ إبْدَاءِ الزِّينَةِ الْخَفِيَّةِ لَهُمْ لِعَدَمِ الشَّهْوَةِ فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، فَأَنْ يُسْتَثْنَىٰ بَعْضُ الْإِمَاءِ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ وَهُنَّ مَنْ كَانَتْ الشَّهْوَةُ وَالْفِتْنَةُ حَاصِلَةً بِتَرْكِ احْتِجَابِهَا وَإِبْدَاءِ زِينَتِهَا.

(٢) في (ز): (عبد الله)، والمثبت هو الصواب، و(هشام بن عبيد الله) هو الرازي.

(٣) لوحة (٦٩ ب). وفي (ز): (أم الضاعن).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٤٨٤٩).

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٤٨٣٠).

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾(١)

اختلف المفسرون -رحمهم الله- في المعنىٰ الَّذي رفع مِن أجله الحرج عن الأعمىٰ والأعرج والمريض هاهنا، فقال عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في الجِهادِ.

وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتي في سورة الفتح وتلك في الجِهادِ لا محالة؛ أي: أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد؛ لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالىٰ في سورة براءة: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ(٢) ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

وقيل: المراد هاهنا أنَّهم كانوا يتحرَّجون من الأكل مع الأعمىٰ؛ لأنَّه لا يرىٰ الطعام وما فيهِ من الطَّيِّبات، فرُبَّما سبقه غيره إلىٰ ذلك. ولا مع الأعرج؛ لأنَّه لا يتمكن من الجلوس، فيَفْتَاتُ عليه جليسُه، والمريض لا يَسْتَوْفِي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم؛ لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. وهذا قول سعيد بن جبير، ومِقْسَم.

وقال الضَّحَّاك: كانوا قبل المبعث يتحرجون مِن الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتَقَزُّزًا؛ ولئلَّا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية قال: كان الرجل يذهب بالأعمىٰ أو الأعرج أو المريض إلىٰ بيت أبيه أو بيت أَخيهِ، أو بيت

---

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي هذه الآيات دليلٌ علىٰ قاعدةٍ عامةٍ كليةٍ وهي: أن «العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ»؛ فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألةٍ تتوقف علىٰ الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.
وفيها دليلٌ علىٰ أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره؛ لأن الله سمىٰ بيته بيتًا للإنسان.
وفيها دليلٌ علىٰ أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.
وفيها دليل علىٰ جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين أو متفرقين، ولو أفضىٰ ذلك إلىٰ أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

(٢) لوحة (٧٠أ).

أخته، أو بيت عمته، أو بَيت خالتِهِ. فكان الزَّمنىٰ[(١)] يتحرَّجون مِن ذلك، يقولون: إنَّما يذهبون بنا إلىٰ بيوت غيرهم. فنزلت هذه الآية رخصةً لهم[(٢)].

وقال السُّدِّي: كان الرَّجل يدخل بيت أبيه، أو أخيه أو ابنه، فتُتْحِفُه المرأة بالشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن ربَّ البيت ليس ثَمَّ. فقال الله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، إنما ذَكَر هذا -وهو معلوم- ليعطفَ عليه غيره في اللَّفظ، وليستأديه[(٣)] ما بعده في الحكم. وتضمَّن هذا بيوت الأبناء؛ لأنَّه لم يَنُصَّ عليهم. ولهذا استدل بهذا من ذهبَ إلىٰ [أنَّ][(٤)] مال الوَلَدِ بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في «المسند» والسنن، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ[(٥)] أنه قال: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»[(٦)].

وقوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، إلىٰ قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، هذا ظاهر. وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم علىٰ بعض، كما هو مذهب [الإمام][(٧)] أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل، في المشهور عنهما.

وأما قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ فقال سعيد بن جُبَير، والسُّدِّي: هو خادم الرجل من عبدٍ وقَهْرَمان[(٨)]، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف.

وقال الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة ﵂ قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير[(٩)] مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتحهم إلىٰ ضُمَنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه. فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء. فأنزل الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾[(١٠)].

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها، إذا

---

(١) من زَمِنَ زَمَنًا، وزُمْنَةً، وزَمَانَةً: مَرِضَ مَرَضًا يدوم زمانًا طويلًا.

(٢) **ضعيف**: رواه عبد الرزاق (٢/ ٦٤)، والطبري (١٨/ ١٢٩)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٤٥)، والبيهقي (٧/ ٢٧٥)، وإسناده مرسل.

(٣) أي: وليستعن به علىٰ أداء حكم ما بعده.

(٤) سقط من (ز).

(٥) لوحة (٧٠ ب).

(٦) **حسن**: رواه أبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجة (٢٢٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩).

(٧) ليست في (ز).

(٨) **القهرمان**: هو الخازن والوكيل والحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل، وهي كلمة فارسية.

(٩) أي: في الغزو والجهاد.

(١٠) **صحيح**: رواه البزار (٢٢٤١)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٤٦)، والبيهقي (٧/ ٢٧٥)، وصححه السيوطي في «لباب النقول» (ص١٦١).

علمتم أن ذلك لا يَشُقُّ عليهم، ولا يكرهون ذلك.

وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إِذْنِهِ.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال المسلمون: إنَّ الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحدٍ منا أن يأكل عند أحدٍ. فكَفَّ الناسُ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، حتىٰ يكون معه غيره، فرخَّص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[(١)].

وقال قتادة: وكان هذا الحَيُّ من بني كنانة، يرىٰ أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتىٰ إن كان الرجلُ لَيسوقُ الذَّودَ الحُفَّل[(٢)] وهو جائعٌ، حتىٰ يجد من يؤاكله ويشاربه[(٣)]، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

فهذه رُخصةٌ مِن الله تعالىٰ في أن يأكل الرَّجل وحده، ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأَبْرَكُ، كما رواه الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن عبد ربه، حدَّثنا الوليد بن مسلم، عن وَحْشيِّ بن حَرْب، عن أبيه، عن جده؛ أنَّ رجلًا قال للنَّبيِّ ﷺ: إنا نأكلُ ولا نشبَع. قال: «**فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتفَرِّقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَىٰ طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**»[(٤)].

ورواه أبو داود وابن ماجة، من حديث الوليد بن مسلم، به

وقد رَوَىٰ ابن ماجة أيضًا، من حديث عمرو بن دينار القهرماني، عن سالم، عن أبيه، عن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كُلُوا جَمِيعًا وَلا تفرَّقُوا؛ فَإِنَّ البَرَكَةَ مَعَ الجَمَاعَةِ**»[(٥)].

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير، والحسن البصري، وقتادة،

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الطبري (١٨/ ١٢٨)، وابن أبي حاتم (٢٦٤٨)، وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس: منقطع، لكن يشهد له الرواية السابقة.

(٢) **الذَّود**: القطيع من الإبل من الثلاث إلىٰ العشر. **والحُفَّل**: الناقة أو الشاة إذا اجتمع اللبن في ضرعها.

(٣) لوحة (٧١ أ).

(٤) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٣/ ٥٠١)، وأبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجة (٣٢٨٦)، في إسناده وحشي بن حرب، قال في «التقريب»: مستور، وأبوه حرب بن وحشي بن حرب: مقبول، فالإسناد ضعيف، وللحديث شواهد أوردها الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٦٦٤) وحسَّن الحديث، وانظر ما بعده.

(٥) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (٣٢٨٧)، وضعفه البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٧٧)، وضعفه ابن رجب في «فتح الباري» (٣/ ٣٨٢)، والألباني في «ضعيف ابن ماجة».

قلت: علته: عمرو بن دينار القهرماني: ضعيف، فالإسناد ضعيف، عدا الفقرة الأولىٰ فيشهد لها الحديث السابق.

والزهري: فليسلم بعضكم على بَعْضٍ.

وقال ابن جُرَيْج: حدَّثنا أبو الزبير: سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: إذا دخلتَ على أهلك، فسَلِّمْ عليهم تحيةً من عند الله مباركة طيبةً. قال: ما رأيته إلا يوجبه[(١)].

قال ابن جريج: وأخبرني زياد، عن ابن طاوس أنه كان يقول: إذا دخلَ أحدكم بيته، فليسلم.

قال ابن جُرَيْج: قلت لعطاء: أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلِّم عليهم؟ قال: لا ولا آثر[(٢)] وجوبه عن أحد، ولكن هو أحبُّ إليَّ، وما أدعه إلا ناسيًا.

وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله. وإذا دخلت على أهلك فسلِّمْ عليهم، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحدٌ فقل: السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

[وروى الثوري، عن عبد الكريم الجَزَرِيِّ، عن مجاهد: إذا دخلت بيتًا ليس فيه أحدٌ فقل: بسم الله، والحمد لله، السلام علينا من رَبِّنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين][(٣)].

وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسَلِّم عليهم، وإذَا دخلت بيتًا ليس فيه أَحَدٌ، فقل: السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنَّه كان يؤمر بذلك، وحدَّثنا أن الملائكة ترد عليه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا محمَّد بن المثنى، حدَّثنا عَوْبَدُ بن أبي عمران الجوني، عن أبيه، عن أنس قال: أوصاني النَّبيُّ ﷺ بخمس خصال، قال: «يَا أَنَسُ[(٤)]، أَسْبغ الوُضُوءَ يُزَدْ فِي عُمُرِكَ، وَسَلِّمْ عَلَىٰ مَنْ لَقِيكَ مِنْ أُمَّتِي تَكْثُرُ حَسَنَاتُكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ -يعني: بيتك- فَسَلِّمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكَ، يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ، وَصَلِّ صَلَاةَ الضُّحَىٰ فَإِنَّهَا صَلَاةُ الأَوَّابِينَ قَبْلَكَ. يَا أَنَسُ، ارْحَمِ الصَّغِيرَ، وَوَقِّرِ الكَبِيرَ، تَكُنْ مِنْ رُفَقَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٥)].

وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ أنه كان يقول: ما أخذت التشهدَ إلا من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، فالتَّشهد في الصلاة: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله، السلام عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين. ثم يدعو لنفسه ويُسَلِّم[(٦)].

---

(١) رواه الطبري (١٨/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم (١٤٨٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٩٥)، وصحح إسناده الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) أي: ولا أرويه. (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٤) لوحة (٧١ ب).

(٥) ضعيف: رواه ابن عدي (٥/ ٣٨٢)، وأبو يعلى (٤١٨٣)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٨٤٤)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨٠٨)، وفي «الصغير» (٨١٩)، و«فضائل الأعمال» لابن شاهين (٤٨٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ١٢٢) ط: تركي، والبيهقي في الشعب والبزار، وفيه: عوبد بن أبي عمران: ضعيف.

(٦) ضعيف: فيه داود بن الحصين، قال الحافظ: ثقة إلا في عكرمة. ورمي برأي الخوارج (تقريب ترجمة ١٧٧٩)، وقال =

هكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن إسحاق.

والذي في «صحيح مسلم»، عن ابن عبَّاس، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا[(١)]، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لما ذكر تعالىٰ ما في السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، نبَّه تعالىٰ علىٰ أنه يُبيِّن لعباده الآيات بيانًا شافيًا؛ ليتدبروها ويتعقلوها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

وهذا أيضًا أدبٌ أرشد الله عبادَه المؤمنين إليه، فكما أَمَرَهُم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أَمَرَهُم بالاستئذان عند الانصراف -لا سيما إذا كانوا في أمرٍ جامع مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك- أمرهم الله تعالىٰ ألَّا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين، ثم أمر رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- إذا استأذنه أحدٌ منهم في ذلك أن يأذن له، إن شاء؛ ولهذا قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد قال أبو داود: حدَّثنا أحمد بن حَنْبَل ومُسَدَّد، قالا: حدَّثنا بشر -هو ابن المفضل- عن عَجْلان عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا انْتَهَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ، فَلَيْسَتِ الأُولَىٰ بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ»[(٢)] وهكذا رواه الترمذي والنسائي، من[(٣)] حديث محمَّد بن عجلان به. وقال الترمذي: حسن.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: كانوا يقولون: يا محمَّد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك، إعظامًا لنبيِّه -صلوات الله وسلامه عليه- قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله[(٤)]. وهكذا قال مجاهد،

= ابن المديني: ما روىٰ عن عكرمة فمنكر الحديث، وقال أبو زرعة: لين، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال أبو داود: أحاديثه عن عكرمة مناكير، وأحاديثه عن شيوخه مستقيمة، وقال ابن عدي: صالح الحديث إذا روىٰ عنه ثقة فهو صالح الرواية إلا أن يروي عنه ضعيف. «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٧٩). ثم هي مخالفة للرواية الثانية التي رواها مسلم (٤٠٣) كما ذكر الحافظ ابن كثير، وفيه أنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن.

(١) مسلم (٤٠٣).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٧٠٦)، وحسنه، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٢٠١).

(٣) لوحة (٧٢ أ).

(٤) ضعيف والمعنىٰ صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٥٤)، وفيه الضحاك لم يدرك ابن عباس، وبشر بن عمارة: =

وسعيد بن جُبَير.

وقال قتادة: أَمَرَ اللهُ أن يُهَابَ نبيه ﷺ، وأن يُبَجَّل وأن يعظَّم وأن يُسَوَّدَ[١].

وقال مقاتل بن حَيَّان في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يقول: لا تُسَمُّوه إذا دَعوتموه: يا محمَّد، ولا تقولوا: يابن عبد الله، ولكن شَرِّفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال: أمرهم [الله][٢] أن يُشَرِّفوه.

هذا قول. وهو الظاهر من السياق، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٢-٥].

فهذا كله من باب الأدب [في مخاطبة النَّبيِّ ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديمِ الصَّدقةِ قبل مناجاته][٣].

والقول الثاني في ذلك أن المعنىٰ في: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تعتقدوا أنَّ دعاءه علىٰ غيره كدعاءِ غيرِه، فإن دعاءه مستجابٌ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عبَّاسٍ، والحسن البصري، وعطية العَوفي، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال مقاتل بن حَيَّان: هم المنافقون، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة -ويعني بالحديث الخطبة- فيَلُوذُون ببعض الصحابة -أصحاب محمَّد ﷺ- حتىٰ يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذنٍ من النَّبيِّ ﷺ في يوم الجمعة، بعد ما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروجَ أشارَ بإصبعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأنَّ الرجل [منهم][٤] كان إذا تكلم والنَّبيُّ ﷺ يخطب، بطُلَتْ جُمعته[٥].

قال السُّدِّي كانوا إذا كانوا معه في جماعة، لَاذَ بعضهم ببعض، حتىٰ يتغيَّبوا عنه، فلا يراهم.

وقال قتادة في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، [يعني: لواذًا عن نبي الله

= ضعيف، والمعنىٰ هو ما أرشدت إليه الآيات.

(١) في (ز): أن يودد. (٢) ليست في (ز).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).

(٥) **مرسل**: رواه الطبري (١٨/ ١٧٦) عن الحسن وغيره، وكلها مراسيل.

وعن كتابه.

وقال سفيان: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال: من الصَّفِّ. وقال مجاهد في الآية: [﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾](1) قال: خلافًا.

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: عن أمر رسول الله(2) ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته [وسنته](3) وشريعته، فتُوزَن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مَرْدُودٌ علىٰ قائله وفاعله، كائنًا ما كان، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(4).

أي: فليحذَرْ وليخْشَ من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم، مِن كفرٍ أو نفاقٍ أو بدعةٍ، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا، بقتلٍ، أو حَدٍّ، أو حبسٍ، أو نحو ذلك.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الفَرَاشُ وَهِيَ هَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّاتِي [يَقَعْنَ فِي النَّارِ](5) يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ وَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا». قال: «فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا»(6). أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه مالك السموات والأرض، وأنَّه عالم غيب السموات والأرض، وهو عالمٌ بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ و«قد» للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]. وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) لوحة (٧٢ ب).
(٣) سقط من (ز).
(٤) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).
(٥) سقط من (ز).
(٦) البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٢٢٨٣)، والترمذي (٢٨٧٧)، وأحمد (٢/ ٣١٢).

تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة:١٤٤] فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ«قد» كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا: «قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة» فقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالمٌ به، مشاهدٌ له، لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]. وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: هو شهيدٌ علىٰ عباده[1] بما هم فاعلون من خيرٍ وشرٍّ. وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].والآيات والأحاديث في هذا كثيرةٌ جدًّا.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويوم تَرْجِعُ الخلائق إلىٰ الله -وهو يوم القيامة- ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: يخبرهم بما فعلوا في الدنيا، مِنْ جليلٍ وحقيرٍ، وصغيرٍ وكبيرٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.

---

(١) لوحة (٧٣أ).

سُورَةُ الفُرْقَان

تفسير سورة الفرقان، [وهي][1] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾

يقول تعالىٰ حامدًا نفسه الكريمة علىٰ ما نزَّله علىٰ رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:١ -٣] ،وقال هاهنا: ﴿تَبَارَكَ﴾ ، وهو تفاعَل مِن البركة المستقرة الدَّائمة الثَّابتة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ نَزَّل: فَعَّل، من التَّكَرُّر، والتَّكَثُّر، كما قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأنَّ الكتب المتقدِّمة كانت تَنْزِل جملةً واحدةً، والقرآن نزل مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلًا آياتٍ بعد آياتٍ، وأحكامًا بعد أحكام، وسورًا بعد سُوَرٍ، وهذا أشدُّ وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أُنْزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ[2] جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]. ولهذا سمَّاه هاهنا الفرقان؛ لأنَّه يُفَرِّق بين الحَقِّ والباطل، والهدىٰ والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ : هذه صفة مَدْحٍ وثناءٍ؛ لأنَّه أضافه إلىٰ عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[3] .

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٧٣ ب).

(٣) كلام المؤلف هنا مقتبس من كلام شيخيه: ابن تيمية وابن القيم -رحم الله الجميع-. ينظر: «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٥/ ١٥٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٥٠٣)، و«مدارج السالكين»: (٣/ ٤٤٠).

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خصَّه بهذا الكِتَاب العظيم المبين المفصَّل المحكم الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي جعله فرقانًا عظيمًا، إنَّما خصَّه به لِيَخُصَّه بالرِّسالة إلىٰ مَن يستظل بالخضراء، ويستقل علىٰ الغبراء[١]، كما قال -صلوات الله وسلامه عليه-: «بُعِثْتُ إِلَىٰ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»[٢]. وقال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»، فذكر منهن: أنه «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ [خَاصَّةً][٣]، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»[٤]، وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، أي: الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض، الذي يقول للشَّيء كن فيكون، وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال هاهنا: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، فَنَزَّه نفسه عن الولد، وعن الشريك.

ثم أخبر أنه: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: كل شيءٍ مما سواه مخلوقٌ مَرْبُوبٌ، وهو خالق كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكه وإلهه، وكلُّ شيءٍ تحت قدره وتقديره وتَسْخِيره وتدبيره.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾

يخبر تعالىٰ عَن جهل المشركين في اتِّخاذهم آلهةً مِن دون الله، الخالق لكلِّ شيءٍ، المالك لأزِمَّةِ الأمور، الَّذي مَا شاء كان وما لم يَشَأْ لم يكن. ومع هذا عَبَدُوا معه مِن الأصنام ما لا يقدر علىٰ خلقِ جناح بعوضةٍ، بل هم مخلوقون، ولا يَمْلِكُون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فكيف يملكون لعابديهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: ليس لهم من ذلك شيءٌ، بل ذلك مرجعه كله إلىٰ الله ﷻ الَّذي هو يُحْيِي ويُمِيت، وهو الذي يُعِيدُ الخلائق يوم القيامة أوَّلهم وآخرهم[٥]، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. فهو الله الذي لا إله غيره ولا رَبَّ سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عديل ولا نَدِيدَ[٦] ولا وَزِيرَ ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

---

(١) يعني بالخضراء: السماء، وبالغبراء: الأرض.
(٢) مسلم (١٥٣) من حديث جابر ﷺ.
(٣) سقطت من (ز).
(٤) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).
(٥) لوحة (٨٣/ أ).
(٦) من النِّد: وهو المثيل والشبيه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾
وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي
يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكُفَّار، في قولهم عن القرآن: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾: أي: كذب ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ يعنون النَّبيّ ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: واستعان علىٰ جمعه بقوم آخرين. قال الله تعالىٰ: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ أي: فقد افتروا هم قولًا باطلًا هم يعلمون أنَّه باطلٌ، ويَعْرِفُون كَذِبَ أنفسهم فيما يزعمون.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ يعنون: كتب الأوائل اسْتَنْسَخَهَا[1]، ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: في أوَّل النَّهار وآخره.

وهذا الكلام لِسَخَافَتِهِ وكذبِهِ وبَهْتِهِ منهم كُلُّ أحدٍ يعلم بطلانه، [فإنَّه قد عُلِم][2] بالتَّواتُر وبالضَّرورة أنَّ محمَّدًا رسول الله لم يَكُن يُعَاني شيئًا من الكتابة، لا في أوَّل عمرِهِ ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم مِن أوَّل مولده إلىٰ أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنةً، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه وبِرَّه وأمانته ونزاهته مِن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتىٰ إنَّهم لم يكونوا يُسَمُّونه في صغره إلىٰ أن بُعِث إلا الأمين، لما يعلمون مِن صدقه وبره. فلمَّا أكرمه الله بمَا أكرمَهُ به، نصَبُوا له العداوة، ورَمَوْه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقلٍ براءته منها، وحارُوا ماذا يَقْذِفُونَه به، فتارةً مِن إفكهم يقولون: ساحر، وتارةً يقولون: شاعر، وتارةً يقولون: مَجْنُون، وتارةً يقولون: كذَّاب، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٨].

وقال تعالىٰ في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أنزل القرآن المشتمل علىٰ أخبار[3] الأوَّلين والآخرين إخبارًا حقًّا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج ماضيًا ومستقبلًا، ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي: الله الذي يعلم غَيْبَ السموات والأرض، ويعلم السَّرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾: دعاءٌ لهم إلىٰ التَّوبة والإنابة، وإخبار بأنَّ رحمته واسعةٌ، وأنَّ حلمه عظيمٌ، وأنَّ مَن تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كَذِبِهِم وافترائهم وفجورهم وبهْتِهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلىٰ التوبة والإقلاع عما هم فيه إلىٰ الإسلام والهدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن

---

(١) في (ز): استحسنها. (٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٨٣/ ب).

لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣ - ٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلىٰ هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والرحمة [تعالىٰ](١).

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن تعنُّت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحقِّ بلا حجَّةٍ ولا دليلٍ منهم، وإنَّما تعلَّلوا بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾، يعنون: كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: يتردد فيها وإليها طلبًا للتكسُّب والتِّجارة، ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلَّا أنزل إليه [ملك](٢) من عند الله، فيكون له شاهدًا علىٰ صِدْق ما يدَّعيه! وهذا كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء علىٰ السَّواء، تشابهت قلوبهم؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: علم كنز يكون ينفق منه، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: تَسِير معه حيث سار. وهذا كله سهلٌ يسيرٌ علىٰ الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحُجَّة(٣) البالغة، ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

قال الله تعالىٰ: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: جاءوا بما يَقْذِفُونك به ويَكْذِبُون به عليك، من قولهم: «ساحِر، مسحور، مجنون، كذَّاب، شاعر»، وكلها أقوالٌ باطلةٌ، كل أحدٍ ممَّن له أدنىٰ فَهْم وعقل يعرف كَذِبهم وافتراءهم في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾ أي: عن طريق الهدىٰ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ وذلك لأنَّ كل مَن خرج عن الحقِّ فإنَّه ضالٌّ حيثما(٤) توجه؛ لأنَّ الحق واحدٌ ومنهجٌ مُتَّحدٌ، يُصَدِّق بعضه بعضًا.

---

(١) ليست في (ز).
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٨٤/ أ).
(٤) في (ز): (فإنه ضال خبيث).

ثم قال تعالىٰ مخبرًا نبيَّه أنَّه لو شاء لآتاه خيرًا مما يقولون في الدُّنيا وأفضلَ وأحسن، فقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

قال مجاهد: يعني: في الدُّنيا، قال: وقريش يُسَمُّون كل بيتٍ مِن حجارةٍ قصرًا، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا.

وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خَيْثَمَة؛ قيل للنَّبيِّ ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يُعْطَ نبيٌّ قبلك، ولا يُعطىٰ أحدٌ مِن بعدِكَ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله؟ فقال: «اجمعوها لي في الآخرة»، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[(١)].

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي: إنَّما يقول هؤلاء هذا تكذيبًا وعنادًا، لا أنَّهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم علىٰ قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وأرصدنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: عذابًا أليمًا حارًّا لا يُطَاق في نار جهنم.

وقال الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن سعيد بن جبير: «السَّعِير»: وادٍ من قيح جهنم.

وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي: جهنم ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: في مقام المحشر. قال السُّدِّي: من مسيرةِ مائة عام ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: حنقًا عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧، ٨] أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض؛ من شدة غيظها علىٰ مَن كفر بالله.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا إدريس بن حاتم بن الأحنف[(٢)] الواسطي: أنَّه سمع محمَّدَ بن الحسنِ الواسطي، عن أصبغ بن زيد، عن خالد بن كثير، عن خالد بن دُرَيْك، عن رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، أَوِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ وَالِدَيْهِ، أَوِ انْتَمَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ [مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». وفي روايةٍ: «فَلْيَتَبَوَّأْ][(٣)] بَيْنَ عَيْنَيْ جَهَنَّمَ مَقْعَدًا» قيل: يا رسول الله[(٤)]، وهل لها من عينين؟ قال: «أَمَا سَمِعْتُمُ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾» الآية[(٥)].

---

(١) مرسل: رواه الطبري (١٨/ ١٨٦)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥٠٩) عن حبيب، والإسناد مرسل، سواء كان عن خيثمة أو عن حبيب.

(٢) في «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٢/ ٢٦٦): (الأخيف)، والمثبت من (ز)، وهو الصواب، وراجع «تهذيب الكمال» (٢٥/ ٧٢) ط: مؤسسة الرسالة.

(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٨٤/ ب).

(٥) ضعيف: رواه الطبري (١٨/ ١٨٧)، وابن أبي حاتم (١٤٩٩٩)، ورجاله ثقات غير أن خالد بن دُرَيك: يرسل وقد عنعن، وهو لم يدرك أحدًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ. والشطر الأول من الحديث متواتر كما لا يخفىٰ.

ورواه ابن جرير، عن محمَّد بن خِدَاش، عن محمَّد بن يزيد الواسطي، به.

وقال أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمَّد الطَّنَافِسي، حدَّثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسىٰ بن سليم، عن أبي وائلٍ قال: خرجنا مع عبد الله -يعني: ابن مسعود- ومعنا الرَّبيع بن خُثَيْم فمرُّوا علىٰ حداد، فقام عبد الله ينظر إلىٰ حديدةٍ في النار، ونظر الرَّبيع بن خثيم إليها فتمايل ليسقط، فمرَّ عبد الله علىٰ أتُون[١] علىٰ شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنَّار تلتهب في جَوفِهِ قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ فصعق -يعني: الربيع بن خُثَيْم- فحملوه إلىٰ أهل بيته ورابطه عبد الله إلىٰ الظُّهر فلم يُفِقْ رحمه الله[٢].

وحدَّثنا أبي: حدَّثنا عبد الله بن رجاء، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي يحيىٰ، عن مجاهد، عن ابن عبَّاسٍ قال: إنَّ العبد ليُجَرُّ إلىٰ النار، فتَشْهَقُ إليه شهقَةَ البغلة إلىٰ الشَّعير، ثم تزفر زفرةً لا يبقىٰ أحدٌ إلَّا خاف[٣].

هكذا رواه ابن أبي حاتم مختصرًا، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدَّثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقي، حدَّثنا عُبَيْد الله بن موسىٰ، أخبرنا إسرائيل، عن أبي يحيىٰ، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: إن الرجل لَيُجَرُّ إلىٰ النَّار، فتَنْزَوِي وتنقبض بعضها إلىٰ بعض، فيقولُ لها الرَّحمن: ما لَكِ؟ قالت: إنَّه يستجير مِنِّي. فيقول: أرسلوا عبدي. وإنَّ الرجل ليُجَرُّ إلىٰ النَّار، فيقول: يا رب، ما كان هذا الظَّنُّ بك؟ فيقول: فما كان ظَنُّك؟ فيقول: أن تَسَعَنِي رحمتك. فيقول: أرسلوا عبدِي، وإنَّ الرَّجل ليُجَرُّ إلىٰ النار، فتشهق إليه النار شهوقَ[٤] البغلة إلىٰ الشعير، وتزفر زفرةً لا يبقىٰ أحدٌ إلا خاف. وهذا إسنادٌ صحيحٌ[٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد، عن عُبَيد بن عُمَيْر في قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قال: إنَّ جهنَّم تزفر زَفْرَةً، لا يبقىٰ ملكٌ ولا نبيٌّ إلا خَرَّ تُرْعَد فرائصُهُ، حتىٰ إنَّ إبراهيم عليه السلام لَيجْثُو علىٰ ركبتيه ويقول: رَبِّ، لا أسألك اليوم إلا نفسي[٦].

وقوله: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قال قتادة، عن أبي أيوب[٧]، عن عبد الله بن عمرو قال: مثل

---

(١) الأَتُون: الموقد الكبير كموقد الحمام والجصاص، وتشدد التاء. «المعجم الوسيط».
(٢) عزاه المصنف لابن أبي حاتم (١٥٠٠١).
(٣) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٠٢)، ورجاله ثقات، ورواه الطبري أتم وهي الرواية الآتية.
(٤) شَهِقَ شَهِيقًا: تردَّد النفس في حلقه وسُمِع، وردد البكاء في صدره، وجذب الهواء إلىٰ صدره. «المعجم الوسيط».
(٥) صحيح: الطبري (١٨/ ١٨٧)، ومثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع، وصححه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٩).
(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٥٦)، والطبري (١٨/ ١٨٧)، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٩) إلىٰ عبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم (١٥٠٠٣).
(٧) هو أبو أيوب المراغي الأزدي: يحيىٰ بن مالك أحد التابعين الثقات.

الزُّجِّ [١] في الرمح؛ أي: مِن ضِيقِهِ [٢].

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن يحيىٰ بن أبي أسيد -يرفع الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ- أنَّه سُئِلَ عن قول الله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُمْ لَيُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ، كَمَا يُسْتَكْرَهُ الوَتَدُ فِي الحَائِطِ» [٣].

وقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قال [٤] أبو صالح: يعني مكتفين: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ أي: بالوَيل والحسرة والخَيْبَةِ. ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدْعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾. وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس بن مالك؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلُ مَنْ يُكْسَىٰ حُلَّةً مِنَ النَّارِ إِبْلِيسُ، فَيَضَعُهَا عَلَىٰ حَاجِبَيْهِ، وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ، وَذُرِّيَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ يُنَادِي: يَا ثُبُورَاهُ، وَيُنَادُونَ: يَا ثُبُورَهُمْ. حَتَّىٰ يَقِفُوا عَلَىٰ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا ثُبُورَاهُ. وَيَقُولُونَ: يَا ثُبُورَهُمْ. فَيُقَالُ لَهُمْ: لَا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا، وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا» [٥].

لم يخرِّجه أحدٌ مِن أصحاب الكتب السِّتَّة، ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سِنَان، عن عفَّان، به. ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة به.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدْعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ أي: لا تدْعُوا اليوم ويلًا واحدًا، وادعوا ويلًا كثيرًا.

وقال الضَّحَّاك: الثُّبور: الهلاك.

والأظهر: أنَّ الثُّبور يجمع الهلاك والويل والخَسَار والدَّمار، كما قال موسىٰ لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، أي: هالكًا. وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ:

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الغَيْـ ـيِ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ [٦] أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾

---

(١) الزُّج: الحديدة التي تركب في أسفل الرمح، والسنان: يركب في أعلاه، والزج: تركز به الرمح في الأرض، والسنان: يطعن به.
(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٠٧).
(٣) لم أقف علىٰ بقية إسناده فينظر، وأما من ذكرهم فهم ثقات لكن بقي النظر فيما عدا ذلك.
(٤) لوحة (٨٥/ أ).
(٥) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ١٥٢)، والطبري (١٨/ ١٨٨)، وابن أبي حاتم (١٥٠١١)، وفي إسناده علي بن زيد: ضعيف.
(٦) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: إن قيل: كيف قال: (أذلك خير) ولا خير في النار؟ قيل: هذا من باب قول العرب: الشقاء أحبُّ إليك من السعادة؟ وقد علم أن السعادة أحب إليه. قال حسان:

أَتهجوهُ ولستَ لهُ بكُفءٍ فشرُّكُما لخيرِكُما الفِداءُ

وقطعًا الرسول ﷺ لا شرَّ فيه البتة.

يقول تعالىٰ: يا محمَّد، هذا الذي وصفناه مِن حال هؤلاء الأشقياء- الَّذِين يحشرون علىٰ وُجُوهِهِم إلىٰ جهنَّم، فتَتَلَقَّاهم بوجهٍ عبوس وبِغَيْظٍ وزفير، ويُلقون في أماكنها الضَّيِّقة مقرَّنين، لا يستطيعون حراكًا، ولا انتصارًا ولا فكاكًا مما هم فيه- أهذا خيرٌ أم جنَّة الخلد التي وعدها الله المتقين مِن عباده، التي أعدَّها لهم، وجعلها لهم جزاءً علىٰ ما أطاعوه في الدُّنيا، وجعل مآلهم إليها.

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ أي: من الملاذ: من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكِب ومناظر، وغير ذلك، مما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خَطَر علىٰ قلب أحد. وهم في ذلك خالدون دائمًا أبدًا سرمدًا بلا انقطاعٍ ولا زوال ولا انقضاء، لا يَبْغُون عنها حوَلًا. وهذا من وَعْد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ أي: لا بد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنىٰ قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ أي: وعدًا واجبًا[١].

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ يقول: سلوا الذي واعدتُكم -أو قال: واعدناكم- نُنْجِزْ.

وقال محمَّد بن كعبِ القُرَظي في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾: إن الملائكة تسأل لهم ذلك؛ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾ [غافر: ٨].

وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربَّنا عملنا لك بالذي أَمَرْتَنا[٢]، فأَنْجِزْ لنا ما وعدتنا. فذلك قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾.

وهذا المقام في هذه السُّورة مِن ذكر النَّار، ثم التَّنبيه علىٰ حالِ أهل الجنَّة، كما ذكر تعالىٰ في سورة «الصافات» حال أهل الجنَّة، وما فيها من النَّضرة والحُبُور، ثم قال: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٧٠].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[٣] وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ[٤] أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

---

(١) لوحة (٨٥/ ب).
(٢) في (ز): (بالذي وعدتنا).
(٣) في (ز): (نحشرهم).
(٤) في (ز): (هاأنتم).

يقول تعالىٰ مخبرًا عما يَقَع يوم القيامة من تقريع الكفَّار في عبادتهم مَن عبدوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. قال مجاهد: عيسىٰ، والعُزَير، والملائكة. ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي: فيقول الرَّب تبارك وتعالىٰ [للمعبودين](١): أَأَنتم دعوتم هؤلاء إلىٰ عبادَتِكُم مِن دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أَنْفُسِهِم، مِن غير دعوةٍ منكم لهم؟ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ ﴾، إلىٰ آخر الآية؛ [المائدة: ١١٦ -١١٧]، ولهذا قال تعالىٰ مخبرًا عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ . قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس للخلائق كُلِّهم أن يعبدوا أحدًا سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم(٢) إلىٰ ذلك، بل هم قالوا ذلك من تلقاءِ أنفسهم مِن غير أَمْرِنا ولا رِضَانَا، ونحن بُرآء منهم ومِن عبادتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠ -٤١]. وقرأ آخرون: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نُّتَّخَذَ(٣) مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي: ما ينبغي لأحدٍ أن يعبدنا، فإنَّا عبيد لك، فقراء إليك. وهي قريبة المعنىٰ من الأولىٰ.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر حتىٰ نَسُوا الذكر؛ أي: نسوا ما أنزلته إليهم علىٰ أَلْسِنَةِ رسلك، من الدعوة إلىٰ عبادتك وحدك لا شريك لك.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ قال ابن عبَّاس: أي هَلْكَىٰ. وقال الحسن البصري، ومالك عن الزهري: أي لا خير فيهم. وقال ابن الزِّبَعْرَىٰ حين أسلم:

يَـا رَسُـولَ المَلِيـكِ إِنَّ لِـسَانِي رَاتِـقٌ مَـا فَتَقْـتُ إِذْ أَنَـا بُـورُ
إِذْ أُجَـارِي الـشَّيْطَانَ فِـي سَـنَنِ الغَيْـ ـيِ، وَمَـنْ مَـالَ مَيْلَـهُ مَثْبُـورُ

قال الله تعالىٰ: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عَبَدتُّم فيما زعمتم أنَّهم لكم أولياء، وأنَّكم اتَّخذْتُمُوهم قربانًا يقربونكم إليه زلفىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٧٦ أ).
(٣) متواترة: قَرَأَ (نُتَّخَذَ) أَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُ الحَسَنُ، وَقَرَأَ البَاقُونَ (نَتَّخِذَ).

كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ -٦].

وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي: يشرك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن جميع مَنْ بعثه مِن الرسل المتقدمين: إنَّهم كانوا يأكُلُون الطَّعام، ويحتاجون إلى التغذِّي به ﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: للتَّكسُّب والتِّجارة، وليس ذلك بمنافٍ لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله جعل لهم مِن السِّمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلَّة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لُبٍّ سليم، وبصيرةٍ مستقيمةٍ، على صدق ما جاءوا به من الله عز وجل. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾(١) [الأنبياء: ٨].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾؟ أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبَلَوْنا بعضكم ببعض، لنعلم مَن يُطيع ممن يعصي؛ ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمَنْ يستحق [أن يوحىٰ إليه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ومَن يَسْتَحِقُّ](٢) أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يَسْتَحِقُّ ذلك.

وقال محمَّد بن إسحاق في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قال: يقول الله: لو شئتُ أن أجعل الدُّنيا مع رسلي فلا يُخالفُون، لفعلتُ، ولكنِّي قد أردتُّ أن أَبْتَلِيَ العباد بهم، وأبتليهم بهم.

وفي «صحيح مسلم» عن عِياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ: «**يقولُ اللهُ: إنِّي مُبتَلِيك، ومُبتَلٍ بِك**»(٣). وفي «المسند» عن رسول الله ﷺ: «**لَوْ شِئْتُ لَأَجرَىٰ اللهُ مَعِي جِبَالَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ**»(٤)، وفي «الصحيح» أنه -عليه أفضل الصلاة والسلام- خُيِّر بين أن يكون نبيًّا مَلِكًا أو عبدًا رسولًا فاختار أن يكون عبدًا رسولًا(٥).

---

(١) لوحة (٨٦/ ب).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) مسلم (٢٨٦٥).

(٤) حسن: رواه الخطيب (١١/ ١٠٢)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٦٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبيّ» (ص١٦٦)، وفيه مجالِد بن سعيد: ليس بالقوي، وبقية رجاله ثقات، وحسنه الألباني بشاهد له. انظر: «الصحيحة» (٢٤٨٤).

(٥) رواه معمر في «جامعه» (١٩٥٥١)، و«السنن» للبيهقي (٧/ ٧٧)، وفي «الزهد» لابن المبارك (٢٢٠)، وقد تقدم في أول سورة «الإسراء».

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن تعنُّت الكُفَّار في كُفرِهم، وعنادِهم في قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: بالرِّسالة كما نزل علىٰ الأنبياء، كما أخبر عنهم تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فنراهم عيانًا، فيخبرونا أن محمَّدًا رسول الله، كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. وقد تقدَّم تفسيرها في سورة «سبحان»؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: هم لا يرون الملائكة في يَومِ خيرٍ لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشرىٰ يومئذٍ لهم، وذلك يَصْدُق علىٰ وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنَّار، وغَضبِ الجبَّار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: «اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَمُومٍ[1] وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»[2]. فتأبىٰ الخروج وتتفرَّق في البدن، فيضربونه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ - أي: بالضَّرب- ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارِهم، فإنَّهم يُبَشَّرون بالخيرات، وحصول المسرَّات. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أنَّ الملائكة تقول لروح المؤمن: «اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، اخْرُجِي إِلَىٰ رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»[3]. وقد تقدَّم

---

(١) لوحة (٨٧/ أ).

(٢) صحيح: تقدم عند تفسير الآية (٢٧) من سورة إبراهيم.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣).

الحديث في سورة «إبراهيم»[(١)] عند قوله تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضَّحَّاك وغيرهما.

ولا منافاة بين هذا وبَيْن ما تقدَّم، فإن الملائكة في هذين اليَوْمَيْن يوم الممات ويوم المَعَاد تتجلَّىٰ للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرَّحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخَيْبَة والخسران، فلا بشرىٰ يومئذ للمجرمين.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي: وتقول الملائكة للكافِرين: حَرَام محرم عليكم الفلاح اليوم.

وأصل «الحجر»: المنع، ومنه يقال: حَجَر القَاضِي علىٰ فلان، إذا منعَهُ التَّصرُّف إما لسفَهٍ، أو فَلَسٍ، أو صِغَرٍ، أو نحو ذلك. ومنه سمي «الحِجْر» عند البيت الحرام؛ لأنَّه يمنع الطُّوَّاف أن يطوفوا فيه، وإنَّما يطاف من ورائه. ومنه يقال للعقل: «حِجْر» ؛ لأنَّه يمنع صاحبه عن تَعَاطِي ما لا يليق.

والغَرَضُ أنَّ الضَّمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائدٌ عَلَىٰ الملائِكَةِ. هذا قول مجاهد، وعكرمة، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، وعطية العوفي، وعطاء[(٢)] الخُرَاساني، وخُصَيف، وغير واحدٍ. واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا موسىٰ -يعني ابن قيس- عن عطيَّة العوفي، عن أبي سعيدٍ الخدري: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ قال: حرامًا مُحَرَّمًا أن يُبَشَّر بما يُبَشَّر به المتقون[(٣)].

وقد حكىٰ ابن جرير، عن ابن جُرَيْجٍ أنه قال: ذلك مِن كلام المشركين؛ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾، [أي: يتعوَّذُون من الملائكة؛ وذلك أنَّ العرب كانوا إذا نزل بأَحَدِهِم نازلةٌ أو شدةٌ يقولون][(٤)]: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

وهذا القول -وإن كان له مأخذ ووجه- ولكنَّه بالنِّسبة إلىٰ السياق في الآية بعيد، لا سيما قد نَصَّ الجمهور علىٰ خلافه. ولكن قد روىٰ ابنُ أبي نَجِيحٍ، عن مجاهدٍ؛ أنَّه قال في قوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي: عَوذًا مُعاذًا. فيحتمل أنَّه أراد ما ذكره ابن جريج. ولكن في رواية ابن أبي حاتم، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد أنه قال: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي: عوذًا معاذًا، الملائكة تقُوله. فالله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾، وهذا يوم القيامة، حين

---

(١) عند الآية (٢٧). (٢) لوحة (٨٧/ ب).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٥٨)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، والأثر أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٥)، وزاد عزوه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

يحاسب الله العباد علىٰ ما عملوه من خيرٍ وشرٍّ، فأخبر أنَّه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال -التي ظنوا أنَّها منجاةٌ لهم- شيء؛ وذلك لأنَّها فقدت الشرط الشرعي، إمَّا الإخلاص فيها، وإمَّا المتابعة لشرع الله. فكلُّ عملٍ لا يكون خالصًا وعلىٰ الشَّريعة المرضيَّة، فهو[1] باطلٌ. فأعمال الكفَّار لا تخلو مِن واحدٍ مِن هذين، وقد تجمعهما معًا، فتكون أبعد من القبول حينئذٍ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾. قال مجاهد، والثوري: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي: عَمَدنا. وقال السُّدِّي: (قدمنا): عَمَدنا. وبعضهم يقول: أتينا عليه.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، قال: شعاع الشمس إذا دخل في الكوَّة[2]. وكذا روي من غير هذا الوجه عن علي. ورُوي مثله عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، وغيرهم. وكذا قال الحسن البصري: هو الشُّعاع في كوَّة أحدهم، ولو ذَهَب يقبض عليه لم يَسْتَطِع.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: هو الماء المُهْرَاق[3].

وقال أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن الحارث[4]، عن علي: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: الهباء رَهْج الدَّواب[5]. ورُوي مثله عن ابن عبَّاسٍ أيضًا، والضَّحَّاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: أما رأيت يَبِيس الشَّجر إذا أذرته[6] الريح؟ فهو ذلك الورق.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عاصم بن حكيم، عن أبي سريع الطائي، عن [عُبيد بن تِعْلىٰ][7] قال: وإنَّ الهَبَاء الرَّمَاد.

وحاصل هذه الأقوال: التَّنبيهُ علىٰ مضمونِ الآية، وذلك أنَّهم عملوا أعمالًا اعتقدوا أنَّها شيء، فلمَّا عرضت علىٰ الملك الحكيم العَدْل الَّذي لا يجورُ ولا يظلم أحدًا، إذا إنَّها لا شيء بالكلية. وشُبهت في ذلك بالشيء التَّافه الحقير المتفرِّق، الذي لا يقدر منه صاحبه علىٰ شيءٍ بالكليَّة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

---

(١) في (ز): (وإلا فهو باطل). وتقدَّم الكلام علىٰ شرط قبول العمل في أواخر سورة «الكهف».

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٥٩)، وفيه الحارث الأعور: كذاب، والأثر أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٦)، وزاد عزوه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) رواه الطبري (١٩/ ٥)، وإسناده ضعيف للانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٤) في (ز): (عن أبي الحارث)، وهو خطأ.

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٧٠)، وفيه الحارث الأعور، وهو ضعيف. والرَّهْج: الغبار.

(٦) لوحة (٨٨/ أ).

(٧) في (ز): (عبيد بن يعلىٰ)، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه.

عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، وتقدم الكلام علىٰ تفسير ذلك، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: يوم القيامة، ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]؛ وذلك لأن أهل الجنة يَصِيرُون إلىٰ الدرجات العاليات، والغرفات الآمنات، فهم في مقامٍ أمينٍ، حسن المنظر، طيب المقام، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]، وأهل النار يصيرون إلىٰ الدَّرَكَات السَّافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات، ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، أي: بئس المنزل منظرًا وبئس المَقِيل مقامًا؛ ولهذا قال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: بما عملوه من الأعمال المتقبَّلة نالوا ما نالوا، وصاروا إلىٰ ما صاروا إليه، بخلاف أهل النَّار فإنَّه ليس لهم عملٌ واحدٌ يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فنَبَّه -تعالىٰ- بحال السعداء علىٰ حال الأشقياء، وأنَّه لا خير عندهم بالكليَّة، فقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاسٍ: إنما هي ضَحْوَةٌ، فيَقِيلُ أولياء الله علىٰ الأَسِرَّةِ مع الحور العين، ويَقِيلُ أعداء الله مع الشياطين مُقَرَّنِينَ.

وقال سعيد بن جبير: يَفْرُغ الله من الحساب نصف النَّهار، فيَقِيلُ أهل الجنَّة في الجنَّة، وأهل النَّار في النَّار، قال الله تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ [(١)] خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهل النَّارِ النَّارَ: هي السَّاعة التي تكون في الدُّنيا عند ارتفاع الضحىٰ الأكبر، إذا انقلب الناس إلىٰ أهليهم للقَيْلُولَة، فينصرف أهل النَّار إلىٰ النَّار، وأما أهل الجنَّة [فيُنطلق بهم إلىٰ الجنَّة][(٢)]، فكانت قيلولتهم [في الجنَّة][(٣)]، وأُطْعِمُوا كبد حوتٍ، فأشبعهم ذلك كلهم، وذلك قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وقال سفيان، عن[(٤)] ميسرة، عن المِنْهَال، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: لا يَنْتَصِفُ النَّهار حتىٰ يَقِيل هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨][(٥)].

---

(١) لوحة (٧٨ ب).

(٢) سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): (سفيان بن ميسرة)، وهو خطأ.

(٥) رواه الطبري (٢١/ ٥٦)، والحاكم (٢/ ٤٠٢)، وصححه علىٰ شرط مسلم، وأقرّه الذهبي. قلت: والصحيح أنه

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: قَالُوا في الغُرَفِ من الجنَّة، وكان حسابهم أن عُرِضُوا علىٰ [ربِّهم][١] عرضةً واحدةً، وذلك الحساب اليسير، وهو مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩][٢].

وقال قتادة في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مأوىً ومنزلًا، قال قتادة: وحَدَّث صفوان بن مُحْرِز أنه قال: يُجاءُ يوم القِيامَةِ برجلين، كان أحدهما ملكًا في الدُّنيا إلىٰ الحمرة والبياض[٣] فيحاسب، فإذا عبدٌ[٤]، لم يعمل خيرًا فيُؤمَر به إلىٰ النَّار. والآخر كان صاحب كساءٍ في الدُّنيا، فيُحَاسَب فيقول: يا رَبِّ، ما أعطيتني مِن شيءٍ فتحاسبَني به. فيقول: صدق عبدي، فأرسلوه. فيؤمر به إلىٰ الجنَّة، ثم يُتْرَكان ما شاء الله. ثم يُدْعَىٰ صاحب النَّار، فإذا هو مثل الحُممة[٥] السوداء، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: شرَّ مَقيلٍ. فيقال له: عُدْ، ثم يُدعَىٰ بصاحب الجنَّة، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: ربِّ، خَيرَ مَقيلٍ. فيقال له: عُدْ. رواها ابن أبي حاتم كلها[٦].

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، أن سعيدًا الصوَّاف حدثه، أنَّه بلغه: أن يوم القيامة يَقصُرُ علىٰ المؤمن حتىٰ يكون كما بين العصر إلىٰ غروب الشمس، وأنهم لَيَقِيلُون في رياض الجنة حتىٰ يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[٧] عَسِيرًا ۝٢٦ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾

= منقطع بين أبي عبيدة وابن مسعود، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٧) إلىٰ: ابن المبارك في «الزهد» وعبد بن حميد وابن المنذر.

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه الطبري (١٩/ ٥)، وإسناده ضعيف، العوفي: شيعي مدلس.

(٣) أي: أقرب وأميل إلىٰ الحمرة والبياض. (٤) أي: فإذا هو عبد؛ يعني: المَلِك.

(٥) الحُمَمة: الفحمة، جمعها حُمَم.

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٨٥)، وعبد بن حميد، وفيه قتادة: مدلس، وأيضًا فالإسناد مرسل.

(٧) لوحة (٨٩/ أ).

يُخْبِر تعالىٰ عن هَول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتَفطُّرها وانفراجها بالغمام، وهو ظُلَل النُّور العظِيم الذي يَبْهَر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذٍ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر. ثم يجيء الرب تبارك وتعالىٰ لفصل القضاء.

قال مجاهد: وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عمار بن الحارث، حدَّثنا مُؤَمَّلٌ، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عبَّاسٍ، أنَّه قرأ هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ قال ابن عبَّاسٍ: يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيدٍ واحدٍ، الجنَّ والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق، فتنشق السماء الدنيا، فينزل أهلها -وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق- فيُحِيطُون بالجن والإنس وبجميع الخَلْقِ. ثم تنشق السماء الثَّانية فينزل أهلها -وهم أكثر مِن أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق- [فيُحِيطُون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق][(١)]، ثم تنشق السماء الثالثة فيَنْزِلُ أهلها، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وبجميع الخلق. ثم كذلك كل سماء، حتىٰ تنشق السَّماء السابعة [فينزل أهلها][(٢)]، وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجِنِّ والإنس، ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السَّموات، وبالجن والإنس وجميع الخلق، و[ينزل][(٣)] ربنا ﷻ في ظُلَلٍ من الغمام، وحَوْلَه الكَرُوبِيُّون، وهم أكثر من أهل السَّموات السبع ومن الإنس والجن وجميع الخلق، لهم قرون كأكعب القَنَا[(٤)]، وهم تحت العرش، لهم زَجَل بالتَّسبيح والتهليل والتقديس لله ﷻ، ما بين أَخْمَص قدم أحدهم إلىٰ كعبه مسيرة خمسمائة عام، وما بين كعبه إلىٰ ركبته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ركبته إلىٰ حُجْزَته[(٥)] مسيرة خمسمائة عام، وما بين حُجْزَته[(٦)] إلىٰ تَرْقُوَته مسيرة خمسمائة عام، وما بين تَرْقُوَتِه إلىٰ موضع القُرْط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام، وجهنم مجنبته، هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق[(٧)].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الدر المنثور».
(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز). (٤) أي: الرماح.
(٥) في (ز): (أرنبته). والحُجْزة: موضع شد الإزار.
(٦) في (ز): أرنبته. والتَّرْقُوَة: العظم الذي بين ثُغْرة النحر والعاتق.
(٧) ضعيف: رواه الطبري (١٩/ ٦)، وابن أبي حاتم (١٥٠٨٩)، في إسناده علي بن زيد: ضعيف.

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثني الحجاج، عن مبارك بن فَضَالة[1]، عن علي ابن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف بن مِهْرَان، أنه سمع ابن عبَّاسٍ يقول: إنَّ هذه السَّماء إذا انشقَّت نزل منها من الملائكة أكثر مِن الجن والإنس، وهو يوم التَّلاق، يوم يلتقي أهل السماء [وأهل][2] الأرض، فيقول أهل الأرض: جاء رَبُّنا؟ فيقولون: لَمْ يَجِئْ، وهو آتٍ. ثم تَنْشَقُّ السماء الثانية، ثم سماء سماء علىٰ قدر ذلك من التَّضْعِيف إلىٰ السماء السابعة. فينزل منها من الملائكة أكثر مِن [جميع مَن][3] نزل من السَّمَوَات ومِن الجِنِّ والإنس. قال: فتَنْزِل الملائكة الكَرُوبِيُّون، ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثَّمانية، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنةً، وبين فخذه ومَنْكِبِه مسيرة سبعين سنةً. قال: وكل ملك منهم لم يتأمَّل وجه صاحبه، وكلُّ ملكٍ منهم واضع رأسَهُ بين ثدييه يقول: سبحان الملك القُدُّوس. وعلىٰ رءوسهم شيء مبسوط كأنَّه القَبَاء، والعَرش فوق ذلك. ثم وقف[4]. فمَدَارُه علىٰ عليِّ بن زيد بن جُدْعان، وفيه ضعف، وفي سياقاته غالبًا نكارةٌ شديدةٌ. وقد ورد في حديث الصُّورِ المشهور قريب من هذا، والله أعلم.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٥ -١٧]، قال شهر بن حَوْشَب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، لك الحمد علىٰ حِلْمِكَ بعد عِلْمِكَ. وأربعة يقولون: سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، لك الحَمْدُ علىٰ عَفْوِكَ بعد قُدْرَتِكَ. رواه ابن جرير عنه.

وقال أبو بكر بن عبد الله: إذا نظر أهل الأرض إلىٰ العرش يَهْبِطُ عليهم مِن فوقهم، شخصت إليه أبصارهم، ورَجَفت كُلاهم في أجوافهم، وطارت قُلُوبُهُم من مَقَرِّها من صدورِهِم إلىٰ حناجِرِهِم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا معتمر بن سليمان، عن عبد الجليل، عن أبي حازم، عن عبد الله بن عمرو قال: يَهْبِط الله حينَ يَهْبِطُ وبينه وبين خلقه سبعونَ ألف حجاب، منها النُّور والظُّلمة، فيُصَوِّت الماء في تلك الظلمة صوتًا تنخلع منه القلوب[5].

وهذا موقوفٌ علىٰ عبد الله بن عمرو من كلامه، ولعلَّه من الزَّامِلَتَين[6]، والله أعلم.

---

(١) لوحة (٨٩/ ب).

(٢) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «الطبري».

(٣) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «الطبري».

(٤) إسناده ضعيف كسابقه، رواه الطبري (١٩/ ٦).

(٥) رواه الطبري (١٩/ ٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٩٣)، وابن أبي حاتم (١٩٥٨)، ولعل هذا من الإسرائيليات التي يرويها عبد الله بن عمرو.

(٦) كان عبد الله بن عمرو ﵄ قد ظَفِر يوم اليرموك بزاملتين -الزاملة: الحِمْل، أو البعير الذي يُحمل عليه- من زوامل أهل الكتاب، فكان يُحدث منهما بما فهم من قوله ﷺ: «حَدِّثوا عنْ بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ». وقد تقدَّم الكلام علىٰ رواية الإسرائيليات وحكمها في «مقدمة التحقيق» ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وفي «الصحيح»: «**إِنَّ اللهَ يَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، وَيَأْخُذُ الأَرَضِينَ بِيَدِهِ الأُخْرَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا[1] الدَّيَّانُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟ أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**»[2].

وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: شديدًا صعبًا؛ لأنَّه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ -١٠]، فهذا حال الكافرين في هذا اليوم. وأمَّا المؤمنون فكما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لَهيعة، حدَّثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ما أطولَ هذا اليومَ! فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَىٰ المُؤْمِنِ حَتَّىٰ يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا**»[3].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، يخبر تعالىٰ عن نَدم الظَّالم الَّذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به مِن عند الله مِن الحقِّ المُبينِ الذي لا مِرْية فيه، وسلك طريقًا أخرىٰ غيرَ سبيل الرَّسول، فإذا كان يوم القيامة نَدِمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ، وعضَّ علىٰ يديه حسرةً وأسفًا.

وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيطٍ أو غيره مِن الأشقياء، فإنَّها عامَّةٌ في كل ظالم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ -٦٨]، فكل ظالم يندم يوم القِيامة غاية النَّدم، ويَعَضُّ علىٰ يديه قائلًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني: مَن صرفه عن الهدىٰ، وعدل به إلىٰ طريق الضَّلالة [مِن دعاة الضَّلالة][4]، وسواء في ذلك أُمَيَّة بن خلف، أو أخوه أُبَيّ[5] بن خلف، أو غيرهما.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ -[وهو القرآن][6]- ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي: بعد بلوغه إِلَيَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي: يخذله عن الحق، ويَصْرِفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

---

(١) لوحة (٩٠/ أ). (٢) مسلم (٢٧٨٨)، وليس فيه قوله: «أنا الديان».

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٧٥)، وفيه ابن لهيعة اختلط، ودَرَّاج روايته عن أبي الهيثم ضعيفة.

(٤) ليست في (ز). (٥) في (ز): (أخوه أمية بن خلف). (٦) سقط من (ز).

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن رسوله ونبيه محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه[١] دائمًا إلىٰ يوم الدين- أنَّه قال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصْغُون للقرآن ولا يَسْمَعُونَه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآن أَكْثَرُوا اللَّغط والكلام في غيره، حتىٰ لا يسمعوه. فهذا من هِجْرانه، وتَرْك [علمه وحفظه أيضًا من هِجْرانه، وترك][٢] الإيمان به وتصديقه مِن هِجْرانه، [وترك تدبره وتفهمه من هِجْرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه][٣]، والعدولُ عنه إلىٰ غيره -من شِعْرٍ أو قولٍ أو غِنَاءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذة من غيره- مِن هِجْرانه[٤]، فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ علىٰ ما يشاء، أن يخلِّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، مِن حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء اللَّيل وأطرافَ النهار، علىٰ الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنَّه كريم وهَّاب.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: كما حصل لك -يا محمَّد- في قومك مِن الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين؛ لأنَّ الله جعل لكلِّ نبيٍّ عدوًّا من المجرمين، يدعون الناس إلىٰ ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ -١١٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ أي: لمن اتَّبع رسوله، وآمن بكتابِهِ وصدَّقه واتَّبعه، فإنَّ الله هاديه وناصره في الدُّنيا والآخرة. وإنما قال: ﴿هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾؛ لأنَّ المشركين [كانوا][٥] يَصُدُّون النَّاس عن اتِّباع القرآن؛ لئلَّا يهتديَ أحدٌ به، ولتغلب طريقتُهم طريقة القرآن؛ فلهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) لوحة (٩٠/ ب). (٢) ليست في (ز). (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) كلام المؤلف عن هجر القرآن مستفاد من كلام شيخه ابن القيم -رحمهما الله- ينظر: «الفوائد» لابن القيم (ص١٥٦، ط البيان - بشير عيون-، و(ص١١٨، ط عالم الفوائد. وليس الأمر مقصورًا علىٰ قوم النبي ﷺ، بل الأمر مستمر في هذه الأمة ففيها من هو أكثر هجرًا للقرآن وتنحية له من هؤلاء.

(٥) سقط من (ز).

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كثرة اعتراض الكفار وتَعَنُّتِهم، وكلامهم فيما لا يعنيهم، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: هلا أُنْزِل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملةً واحدةً، كما نزلت الكتب قبله، كالتَّوراة والإنجيل والزَّبور، وغيرها من الكتب الإلهيَّة. فأجابهم الله عن ذلك[(١)] بأنَّه إنَّما أنزل منجَّمًا في ثلاثٍ وعشرين سنةً بحسب الوقائع والحوادِثِ، وما يحتاج [إليه][(٢)] من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به، كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] ؛ ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾. قال قتادة: وبيَّنَّاه تَبْيِينًا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسَّرناه تفسيرًا.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجةٍ وشبهةٍ ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحقُّ في نفس الأمر، وأَبْيَن وأوضح وأفصحُ من مقالتهم[(٣)].

قال سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بما يَلْتَمِسُون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: إلا نزل جبريل مِنَ الله بجوابهم.

ثم في هذا اعتناءٌ كبيرٌ لشرف الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحًا ومساءً، ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلىٰ وأجلُّ، وأعظم مكانةً مِن سائر إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- أعظم نبيٍّ أرسله الله، وقد جمع الله تعالىٰ للقرآن الصفتين معًا، ففي الملأ الأعلىٰ أُنْزِلَ جملةً من اللوح المحفوظ إلىٰ بيت العزَّة في سماء الدُّنيا، ثم نزل بعد ذلك إلىٰ الأرض منجَّمًا بحسب الوقائع والحوادث.

قال أبو عبد الرَّحمن النَّسائي: أخبرنا أحمد بن سليمان، حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا داود، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاسٍ قال: أُنْزِل القرآن جملةً إلىٰ سماء الدُّنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عِشْرين سنةً، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦][(٤)].

---

(١) لوحة (٩١/ أ). (٢) سقط من (ز).

(٣) فشُبَهُهم التي يثيرونها ضعيفة لا تقوىٰ علىٰ الثبات أمام سَيل الحق، بل قال ابن تيمية: أنا ألتزمُ أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح علىٰ باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل علىٰ نقيض قوله. اهـ. وأكثر الشُّبَه التي تثار قد ردَّ عليها العلماء وزيَّفوها وبيَّنوا ضعفها منذ قرون لا منذ سَنين، والمُطَّالِعُ لكتب سلفنا الصالح يرىٰ ذلك، ولكن أكثر الناس لا يقرءون!! ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٢٩)، و«بحوث عِلمية مُحكمَة» (ص٣٦٤ - ط الرشد) و«مناظرات ابن تيمية لأهل الملل» (ص٣٧) كلاهما للشيخ/ عبد العزيز آل عبد اللطيف حَفِظَهُ اللَّهُ.

(٤) صحيح: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٧٢) والطبري (١٧/ ٥٧٤- شاكر)، والحاكم (٢/ ٢٤٢) وصححه، ورواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٦٢٥)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٣٨/ ١١٢٤٣)، والحاكم (٢/ ٢٤٣) وصححه علىٰ =

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عن سوء حال الكفار في مَعَادِهِم يوم القيامة وحشرهم إلىٰ جهَنَّم في أسوإ الحالات وأقبح الصِّفات: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وفي «الصحيح» عن أنس: أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر علىٰ وَجْهِهِ يوم القيامة؟ فقال: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١). وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحدٍ(٢) من المفسرين، [والله أعلم](٣).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالىٰ متوعدًا من كذَّب رسولَه محمَّدًا -صلوات الله وسلامه عليه- مِن مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابِهِ، مما أحلَّه بالأُمَم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرًا؛ أي: نبيًّا مُوازرًا ومؤيدًا وناصرًا، فكذبهما فرعون وجنوده، فـ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمَّد: ١٠]، وكذلك فعلَ بقوم نوح حين كذَّبوا رسوله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَن كذَّب برسول فقد كذَّب بجميع الرُّسل؛ إذ لا فرق بين رسولٍ ورسولٍ، ولو فرض أنَّ الله بعث إليهم كل رسولٍ فإنَّهم كانوا يُكَذِّبونه؛ ولهذا قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، ولم يُبْعَث إليهم إلا نوحٌ فقط، وقد لَبِث فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلىٰ الله، ويُحَذِّرهم نِقَمَه، فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أغرقَهُم الله جميعًا، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، ولم يَبْقَ علىٰ وجه الأرض مِن بني آدم سوىٰ أصحاب السَّفينة فقط.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: عبرةً يعتبرون بها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾

= شرطهما ووافقه الذهبي، وداود هو ابن أبي هند كما وقع مصرَّحًا به في الروايات عند النسائي وأبي عبيد في «فضائل القرآن» وهو ثقة، فالإسناد صحيح، وقد توبع داود فقد رواه ابن النحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٣٩٥) من طريق حماد ابن زيد عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس، وقال ابن النحاس: وهذا إسناده لا يرفع.

وتابعه أيضًا سعيد بن جبير، رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٦٨٩) والطبري (٢٤/ ٥٤٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٧٢) من طريق جرير عن منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به وهذا إسناد صحيح.

وتابعه مِقْسَم عن ابن عباس، رواه الطبري (٣/ ١٩١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (صفحة: ٥٠١) وهي متابعة لا بأس بها لما تقدم.

(١) البخاري (٤٠٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦). (٢) لوحة (٩١/ ب). (٣) ليست في (ز).

﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١١ -١٢]. أي: وأبقينا لكم من السُّفن ما تركبون في لُجَجِ البحار؛ لتذكروا نعمةَ الله عليكم في إنجائِكُم من الغرق، وجَعْلكم من ذرِّية مَن آمن به وصَدَّق أمره.

وقوله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ قد تقدَّم الكلام علىٰ قِصَّتَيْهِما في غير ما سورة[1]، منها في سورة «الأعراف» بما أغنىٰ عن الإعادة.

وأمَّا أصحاب الرَّسِّ فقال ابن جُرَيْج، قال ابن عبَّاس: هم أهل قريةٍ من قرىٰ ثمود.

وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرَّسِّ بفَلَج وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فَلَج مِن قرىٰ اليمامة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النَّبيل، حدَّثنا الضَّحَّاك بن مَخْلَد أبو عاصم، حدَّثنا شبيب بن بشر، حدَّثنا عكرمة، عن ابن عبَّاس[2] في قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قال: بِئْرٍ بأَذْرَبِيجَان.

وقال سفيان الثوري، عن أبي بُكَيْر، عن عكرمة: الرَّسُّ بئر رَسُّوا فيها نبيهم؛ أي: دفنوه بها.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ العَبْدُ الأَسْوَدُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ وَتَبَارَكَ- بَعَثَ نَبِيًّا إِلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةٍ، فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا ذَلِكَ [العَبْدُ][3] الأَسْوَدُ، ثُمَّ إِنَّ [أَهْلَ][4] القَرْيَةِ عَدَوْا عَلَىٰ النَّبِيِّ، فَحَفَرُوا لَهُ بِئْرًا فَأَلْقَوْهُ فِيهَا، ثُمَّ أَطْبَقُوا عَلَيْهِ بِحَجَرٍ ضَخْمٍ»[5]، قال: «فَكَانَ ذَلِكَ العَبْدُ يَذْهَبُ فَيَحْتَطِبُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، ثُمَّ يَأْتِي بِحَطَبِهِ فَيَبِيعُهُ، وَيَشْتَرِي بِهِ طَعَامًا وَشَرَابًا، ثُمَّ يَأْتِي بِهِ إِلَىٰ تِلْكَ البِئْرِ، فَيَرْفَعُ تِلْكَ الصَّخْرَةَ، وَيُعِينُهُ اللهُ عَلَيْهَا، فَيُدَلِّي إِلَيْهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، ثُمَّ يَرُدُّهَا كَمَا كَانَتْ». قال: «فَكَانَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ إِنَّهُ ذَهَبَ يَوْمًا يَحْتَطِبُ كَمَا كَانَ [يَصْنَعُ][6]، فَجَمَعَ حَطَبَهُ وَحَزَمَ حُزْمَتَهُ وَفَرَغَ مِنْهَا، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَحْتَمِلَهَا وَجَدَ سِنَةً، فَاضْطَجَعَ فَنَامَ، فَضَرَبَ [اللهُ][7] عَلَىٰ أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ نَائِمًا، ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ فَتَمَطَّىٰ، فَتَحَوَّلَ لِشِقِّهِ الآخَرِ فَاضْطَجَعَ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَىٰ أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ أُخْرَىٰ، ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ وَاحْتَمَلَ حُزْمَتَهُ وَلَا يَحْسَبُ إِلَّا أَنَّهُ نَامَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَجَاءَ إِلَىٰ القَرْيَةِ فَبَاعَ حُزْمَتَهُ، ثُمَّ اشْتَرَىٰ طَعَامًا وَشَرَابًا كَمَا كَانَ يَصْنَعُ. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ الحُفَيْرَةِ فِي مَوْضِعِهَا الَّذِي كَانَتْ فِيهِ، فَالْتَمَسَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ. وَكَانَ قَدْ بَدَا لِقَوْمِهِ فِيهِ بَدَاءٌ، فَاسْتَخْرَجُوهُ وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ». قال: «فَكَانَ نَبِيُّهُمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الأَسْوَدِ: مَا فَعَلَ؟ فَيَقُولُونَ لَهُ: لَا نَدْرِي. حَتَّىٰ قَبَضَ اللهُ النَّبِيَّ، وَأَهَبَّ الأَسْوَدَ مِنْ نَوْمَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ». فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ ذَلِكَ الأَسْوَدَ لَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ»[8].

---

(١) في (ز): (في غير ما موضع سورة ...) ثم ضُرِبَ علىٰ (موضع).
(٢) لوحة (٨٢ أ). (٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).
(٥) في (ز): (بحجر أصم)، والمثبت من «تفسير الطبري». (٦) سقط من (ز).
(٧) سقط من (ز). (٨) رواه الطبري (١٩/ ١٠)، وإسناده مرسل. وفيه محمد بن إسحاق: مدلس.

وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمَّد بن كعب مرسلًا. وفيه غرابة ونكارةٌ، ولعل فيه إدْرَاجًا، والله أعلم. وأما ابن جرير فقال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء علىٰ أنهم أصحاب الرَّسِّ الَّذِين ذكروا في القرآن؛ لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكهم، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم، اللَّهمَّ إلَّا أن يكون حدث لهم أحداث، آمنوا بالنَّبيِّ بعد هلاك آبائهم، والله أعلم.

واختار ابن جريرٍ أنَّ المراد بأصحاب الرَّسِّ هم أصحاب الأخدود، الذين ذكروا في سورة «البروج»، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَقُرُونَا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: وأُمَمًا بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكناهم كثيرة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: بيَّنَّا لهم الحجج، ووضَّحنا لهم الأدلة[1] -كما قال قتادة: أَزَحْنَا عنهم الأعذار- ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا إهلاكًا، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

والقرن: هو الأُمَّة من النَّاس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، وحدَّه بعضهم بمائة وعشرين سنة. وقيل: بمائةِ سنة. وقيل: بثمانين سنة. وقيل: أربعين. وقيل غير ذلك. والأظهر: أنَّ القرن هم الأُمَّة المُتَعَاصِرُون في الزَّمَنِ الواحد؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيلٌ آخر فهُم قرنٌ ثانٍ، كما ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». الحديث[2].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: قوم لوط، وهي سَدُوم ومعاملتها[3] التي أهلكها الله بالقلب، وبالمطر [من الحجارة التي من سجيل][4]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ -١٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦]، وقال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أي: فيعتبروا بما حَلَّ بأهلها من العذاب والنَّكال بسبب تكذيبِهِمْ بالرسول ومخالفتهم أوامر الله.

وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني: المَارِّين بها مِن الكُفَّار لا يَعْتَبِرُون؛ لأَنَّهم لا يرجون نشورًا؛ أي: مَعَادًا يوم القيامة.

---

(١) لوحة (٩٢/ ب).

(٢) البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥) بنحوه.

(٣) أي: القرىٰ التابعة لها.

(٤) في (ز): (الحجارة من سجيل).

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن استهزاء المشركين بالرَّسول - صلوات الله وسلامه عليه- إذا رأوه، كما قال: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، يعنون: بالعَيْبِ والنَّقص، وقال هاهنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؟ أي: علىٰ سبيل التَّنقُّص والازدراء -قبَّحهم الله- كما قال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعنون: أنه كاد يَثْنِيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتَجَلَّدوا واستمروا علىٰ عبادتها[(١)]. قال الله تعالىٰ متوعدًا لهم ومتهددًا: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[(٢)].

ثم قال تعالىٰ لنبيِّه، منبهًا له أنَّ من كتب الله عليه الشَّقاوة والإضلال، فإنَّه لا يهديه أحدٌ إلا الله.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: مهما استحسن مِن شيء ورآه حسنًا في هوىٰ نفسِه، كان دينَهُ ومذهبَهُ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. قال ابن عبَّاس: كان الرَّجل في الجاهليَّة يعبُدُ الحجر الأبيض زمانًا، فإذا رأىٰ غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأوَّل[(٣)].

ثم قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[(٤)]، أي: أسوأ حالًا من الأنعام السَّارحة، فإنَّ تلك تَعْقِل ما خُلِقَت له، وهؤلاء خُلِقُوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويُشْرِكُون به، مع قيام الحُجَّة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

---

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله: والصبر يحمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع؛ فإنه صبر علىٰ أسباب الغضب، وعلىٰ الاستكثار من حطب جهنم.

(٢) لوحة (٩٣/ أ).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٥١٩٩)، وابن مردويه، كما عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٠). وفيه سبب النزول، وإسناده حسن.

(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: هم أضل من الأنعام؛ لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك، بخلاف هؤلاء المشركين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)﴾

مِن هاهنا شرع تعالىٰ في بيان الأدلَّة الدَّالَّة علىٰ وجوده، وقُدْرَتِهِ التَّامَّة علىٰ خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾؟ قال ابن عبَّاس، وابن عمر، وأبو العالية، وأبو مالك، ومسروق، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعِي، والضَّحَّاك، والحسن البصري، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشمس. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائمًا لا يزول، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: لولا أنَّ الشمس تطلع عليه، لما عرف، فإن الضِّدَّ لا يُعرَف إلا بِضِدِّهِ. وقال قتادة، والسُّدِّي: دليلًا يتلوه ويتبعه حتىٰ يأتي عليه كله.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: الظل، وقيل: الشمس. ﴿يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا. قال ابن عبَّاس: سريعًا. وقال مجاهد: خفيًّا. وقال السُّدِّي: قبضًا خفِيًّا، حتىٰ لا يبقىٰ في الأرض ظلٌّ إلا تحت سقفٍ أو تحت شجرةٍ، وقد أظلت الشمس ما فوقه. وقال أيوب بن موسىٰ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: قليلًا قليلًا.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي[1] جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: يلبس الوجود ويُغَشِّيه، كما قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، وقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤].

﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: قَطْعًا للحركة لراحة الأبدان، فإنَّ الأعضاء والجوارح تَكِلُّ مِن كثرة الحركة في الانتشار بالنَّهار في المعايش، فإذا جاء اللَّيل وسكن سكنت الحركات، فاستراحَت، فحصل النَّوم الَّذي فيه راحة البَدَنِ والروح معًا.

﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: ينتشر الناسُ فيه لمعايشهم ومَكَاسِبِهِم وأسبابهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)﴾

وهذا أيضًا مِن قدرته التَّامَّة وسلطانه العظيم، وهو أنَّه تعالىٰ يرسل الرياح مبشراتٍ؛ أي:

(١) لوحة (٩٣/ ب).

بمَجِيءِ السحاب بعدها، والرِّياح أنواع في صفات كثيرة من التَّسخير، فمنها ما يُثِير السَّحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشِّرًا، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمُّ الأرض[١]، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ أي: آلة يتطهر بها، كالسَّحُور والوقود[٢] وما جرىٰ مجراه. فهذا أصحُّ ما يقال في ذلك. وأما مَن قال: إنَّه فعول بمعنىٰ فاعل، أو: إنه مبنيٌّ للمبالغة أو التعدي، فعلىٰ كل منهما إشكالات مِن حيث اللُّغَةُ والحكم، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمر بن حفص بن غياث، حدَّثنا أبي، عن أبي جعفر الرازي، حدَّثني حُمَيد الطويل، عن ثابت البُنَاني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مَطِير -وطرق البصرة قذرة- فصلَّىٰ، فقلت له، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ قال: طَهَّره ماءُ السَّماء.

وقال أيضا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمة، حدَّثنا وُهَيب، عن داود، عن سعيد بن المسيب في هذه الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [قال: أنزله الله ماءً طاهرًا][٣] لا ينجسه شيء.

وعن أبي سعيدٍ قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئرِ بُضَاعَةَ؟ -وهي بئر يُلقَىٰ فيها النَّتَن، ولحوم الكلاب[٤]- فقال: «**إِنَّ المَاءَ طَهُورٌ لا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ**». رواه الشافعي، وأحمد وصححه، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي[٦]، حدَّثنا أبو الأشعث، حدَّثنا معتمر، سمعت أبي، يحدث عن سَيَّار، عن خالد بن يزيد، قال: كان عند عبد الملك بن مروان، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: مِنْه من السماء، ومنه ما يسقيه[٧] الغيم من البحر فَيُعْذِبه[٨] الرعد والبرق. فأمَّا ما كان مِن البحر، فلا يكون له نباتٌ، فأمَّا النبات فمِمَّا كان من السماء.

وروي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرةً إلا أنبت بها في الأرض عشبةً أو في البحر لؤلؤةً. وقال غيره: في البر بُرٌّ، وفي البحر دُرٌّ.

وقوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: أرضًا قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدةٌ لا نبات فيها ولا

---

(١) أي: يكنسها. (٢) في (ز): (كالسحور والوجود). (٣) ليست في (ز).

(٤) قال المباركفوري: «قال الطِّيبي معنىٰ قوله: (يُلقىٰ فيها) أن البئر كانت بمَسِيل من بعض الأودية التي يحتمل أن ينزل فيها أهل البادية، فتلقىٰ تلك القاذورات بأفنية منازلهم، فيكْسَحها السيلُ فيُلْقيها في البئر، فعبَّر عنه القائل بوجهٍ يُوهم أن الإلقاء من الناس لقلة تدينهم، وهذا مما لا يُجوزه مسلم، فأنىٰ يُظن ذلك بالذين هم أفضل القرون وأزكاهم». اهـ. قلت -القائل المباركفوري-: كذلك قال غير واحد من أهل العلم، وهو الظاهر المتعين. «تحفة الأحوذي» (١/ ٢٠٤).

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٦٦)، والترمذي (٦٦)، والنسائي (١/ ١٧٤)، وأحمد (٣/ ٣١)، وقال الترمذي: حديث حسن. وصححه الإمام أحمد، وصححه يحيىٰ بن معين وابن حزم، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٤).

(٦) لوحة (٩٤/ أ). (٧) في (ز): (يسفيه). (٨) أي: يجعله عذبًا.

شيء. فلما جاءها الحَيَا[١] عاشت واكتست رُبَاها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: وليشرب منه الحَيَوان مِن أنعام وأَناسِيّ محتاجين إليه غاية الحاجةِ؛ لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورىٰ: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: أمطرنا هذه الأرض دُونَ هذه، وَسُقْنَا السحاب فمَرَّ علىٰ الأرض وتعدَّاها وجاوزها [إلىٰ الأرض الأخرىٰ، فأمطرتها وكفتها فجعلتها غَدَقًا، والتي وراءها][٢] لم ينزل فيها قطرة مِن ماء، وله في ذلك الحُجَّة البالغة والحكمة القاطعة.

قال ابن مسعودٍ وابن عبَّاسٍ: ليس عامٌ بأكثر مطرًا مِن عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[٣].

أي: ليذَّكروا بإحياءِ الله الأرض الميتة أنه قادرٌ علىٰ إحياء الأموات، والعظام الرفات. أو: ليذَّكر من مُنِع القَطْر أنَّما أصابه ذلك بذنبٍ أصابه، فيُقْلعَ عما هو فيه.

وقال عُمَر مولىٰ غُفْرَة: كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ أَمْرَ السَّحَابِ!!» قال: فقال جبريل: يا نبي الله، هذا مَلَكُ السحاب فسَلْهُ. فقال: تأتينا صِكاكٌ مُخَتَّمة: اسقِ بلاد كذا وكذا[٤]، كذا وكذا قطرة. رواه ابن أبي حاتم، وهو حديث مرسل[٥].

وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قال عكرمة: يعني الذين يقولون: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا.

وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في «صحيح مسلم»، عن رسول الله ﷺ [أنه][٦] قال لأصحابه [يومًا][٧]، علىٰ إِثْرِ سماءٍ أصابتهم من الليل: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَاكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»[٨].

---

(١) الحَيَا -مقصورًا-: المطر. (٢) ليست في (ز).

(٣) رواه الطبري (١٩/ ٢٢)، والحاكم (٢/ ٤٠٣) عن ابن عبَّاس، وصححه الحاكم علىٰ شرطهما، ووافقه الذهبي، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٤) إلىٰ عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
ورواه الطبري (١٩/ ٢٢) عن ابن مسعود، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد: ضعيف، كبر وتغيَّر وصار يتلقَّن، وكان شيعيًّا.

(٤) لوحة (٩٤/ ب). (٥) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١٥٢٤٩).

(٦) سقط من (ز). (٧) سقط من (ز).

(٨) مسلم (٧١)، وهو عند البخاري كذلك (٨٤٦)، ونسبته إلىٰ مسلم فقط وهمٌ.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾، يدعوهم إلىٰ الله ﷻ، ولكنّا خصصْناك -يا محمَّد- بالبَعْثة إلىٰ جميع أهل الأرض، وأَمَرْناك أن تُبَلِّغ النَّاس هذا القرآن، ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

وفي «الصَّحيحين»: «بُعِثْتُ إِلَىٰ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»[(١)]، وفيهما: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»[(٢)]؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن، قاله ابن عبَّاس. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: خلق المَاءَيْن: الحُلْو والمِلْح، فالحلو: كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الفُرات العذب الزلال. قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا الذي لا شَكَّ فيه، فإنَّه ليس في الوجود بحرٌ ساكن وهو عذبٌ فراتٌ. والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لِيُنَبِّه العباد علىٰ نعمه عليهم لِيَشْكُرُوه، فالبَحر العَذْب هو هذا السَّارح بين النَّاس، فَرَّقه تعالىٰ بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا في كل أرضٍ، بحسب حاجتهم وكفَايَتِهِم لأنفسهم وأراضيهم.

وقوله: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مالحٌ مُرٌّ زُعاق[(٣)] لا يُسْتَسَاغ[(٤)]، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يَتَّصِل به من[(٥)] الزُّقاق[(٦)]، وبحر القُلْزُم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس، وبحر الصين والهند، وبحر الروم، وبحر الخَزَر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكِن تَتَمَوَّج وتضطرب وتغتلم[(٧)] في زمن الشِّتاء وشدَّة الرياح، ومنها ما فيه مد وجَزْر، ففي أوَّل كل شهرٍ يَحْصُل مِنْهَا مدٌّ وفَيْضٌ، فإذا شرع الشهر في النقصان جَزَرت[(٨)]، حتىٰ ترجع

---

(١) مسلم (١٥٣) من حديث جابر ﷺ.
(٢) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).
(٣) ماء زُعَاق: مر غليظ لا يطاق شربه.
(٤) في (ز): (لا يستطاع).
(٥) لوحة (٩٥/ أ).
(٦) الزُّقَاق: مجاز البحر بين طَنْجة -وهي مدينة بالمغرب علىٰ البر المتصل بالإسكندرية- والجزيرة الخضراء -وهي في جزيرة الأندلس- قال الحُميدي: وبينهما اثنا عشر ميلًا. «معجم البلدان»: (٣/ ١٤٤). وبحر القُلْزُم: هو البحر الأحمر. «المعجم الوسيط».
(٧) أي: تضطرب وتهيج.
(٨) جَزَر الماء يجزِرُ -بضم الزاي وكسرها-: نقص.

إلىٰ غايتها الأولىٰ، فإذا استهلَّ الهلال مِن الشَّهر الآخر شرعت في المد إلىٰ اللَّيلة الرَّابعةَ عَشْرَة ثم تشرَعُ في النَّقص، فأجرىٰ الله ﷻ -وله القدرة التَّامَّة- العادة بذلك. فكُلُّ هذه البحار الساكنة خلقها الله ﷻ مالحةَ الماء؛ لئلَّا يحصل بسببها نَتَن الهواء، فيَفْسُد الوجود بذلك؛ ولئلَّا تَجْوَىٰ(١) الأرض بما يَمُوت فيها مِن الحيوان. ولما كان ماؤها ملحًا كان هواؤها صحيحًا وميتتها طيبةً؛ ولِهَذا قال رسول الله ﷺ، وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ»(٢). رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وأهل السنن بإسنادٍ جيدٍ.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ -أي: بين العذب والمالح- ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا، وهو اليَبَس من الأرض، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: مانعًا أن يصل أَحدُهُما إلىٰ الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ -٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: خلق الإنسان مِن نطفةٍ ضعيفةٍ، فسوَّاه وعَدَّله، وجعله كامل الخلقة، ذكرًا أو أنثىٰ، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات. وكل ذلك من ماءٍ مهينٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ(٣) عن جهل المشركين في عبادَتِهم غيرَ اللهِ من الأصنام التي لا تَمْلك لهم نفعًا ولا ضرًّا، بلا دليل قادهم إلىٰ ذلك، ولا حُجَّة أدَّتهم إليه، بل بمجرد الآراء، والتَّشهِّي [والأهواء](٤)، فهم يوالونهم ويُقَاتِلُون في سبيلهم، ويُعادُون الله ورسوله [والمؤمنين](٥) فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: عونًا في سبيل الشَّيطان علىٰ حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالىٰ:

---

(١) أي: تنتن.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (١/ ٥٠)، وابن ماجة (٣٨٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) لوحة (٩٥/ ب). (٤) سقط من (ز). (٥) ليست في (ز).

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ - ٧٥]، أي: آلهتهم التي اتَّخذوها مِن دون الله لا تملك لهم نصرًا، وهؤلاء الجهلة للأصنام جندٌ محضرون يقاتلون عنهم، ويَذبُّون عن حَوْزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة. قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ قال: يظاهر الشيطان علىٰ معصية الله، ويُعِينه.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يقول: عونًا للشيطان علىٰ ربه بالعداوة والشرك. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ قال: مواليًا(١).

ثمَّ قال تعالىٰ لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، مبشرًا بالجنَّة لمن أطاع الله، ونذيرًا بين يدي عذابٍ شديدٍ لمن خالف أمر الله.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: علىٰ هذا البلاغ وهذا الإنذار مِن أجرةٍ أطلبها مِن أموالكم، وإنَّما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ومسلكًا ومنهجًا يقْتَدِي فيها بما جئتُ به.

ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: في أمورك كلِّها كُن متوكلًا علىٰ الله الحي الَّذِي لا يموت أبدًا، الذي ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدَّائم الباقي السَّرمدي الأبدي، الحي القيوم ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، اجعله ذُخرك(٢) وملجأك، وهو الذي يُتوكل عليه ويُفزع إليه، فإنَّه كافيك وناصرك ومُؤيِّدك ومُظفرك، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن علي بن نُفَيْل قال: قرأت علىٰ مَعْقِل -يعني ابن عبيد الله- عن عبد الله بن أبي حسين، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: لقي سلمانُ(٣) رسولَ الله ﷺ في بعض فِجاج المدينة(٤)، فسجد له، فقال: «**لا تَسْجُدْ لِي يَا سَلْمَانُ، وَاسْجُدْ لِلْحَيِّ الَّذِي**

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «هذا من ألطف خطاب القرآن، وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائمًا مع الله علىٰ نفسه وهواه وشيطانِهِ وعدوِّ ربه. وهذا معنىٰ كونه من حزب الله وجنده وأوليائه. فهو مع الله علىٰ عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويبغضهم له سبحانه، كما يكون خواصُّ الملكِ معه علىٰ حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به. والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه علىٰ ربه. وعبارات السلف علىٰ هذا تدور... وقال زيد بن أسلم: ظهيرًا أي: مواليًا. والمعنىٰ: أنه يوالي عدوه علىٰ معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معينًا له علىٰ مساخط ربه. فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان، ومع نفسه وهواه وملذاته. ولهذا صدَّر الآية بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وهذه العبادة: هي الموالاة والمحبة والرضىٰ بمعبوديهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة لهم، فظاهَر أعداء الله علىٰ معاداته ومخالفته ومساخطه بخلاف وليه سبحانه. فإنه معه علىٰ نفسه وشيطانه وهواه. وهذا المعنىٰ من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله. وبالله التوفيق.

(٢) في (ز): (ذكرك). (٣) لوحة (٩٦/ أ). (٤) أي: طرقها.

لا يَمُوتُ». وهذا مرسل حسن [١].

[وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: اقرِنْ بَين حمدِهِ وتَسْبِيحِهِ] [٢]؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ» [٣]، أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: لعلمه التَّامِّ الذي لا يخفىٰ عليه خافية، ولا يَعْزُب عنه مثقال ذرةٍ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: هو الحي الَّذي لا يموت، وهو خالق كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكه، الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [٤]؛ أي: يُدبِّر الأمر، ويقضي الحَقَّ، وهو خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: استعلِمْ عنه من هو خبيرٌ به عالمٌ به فاتَّبِعْه واقْتَدِ به، وقد عُلِم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبرُ به من عبده ورسوله محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- سَيِّد ولد آدم- علىٰ الإطلاق، في الدُّنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحيٌ يوحىٰ، فما قاله فهو حق، وما أخبر به فهو صدق، وهو الإمام المُحكَّم الذي إذا تنازع النَّاس في شيءٍ، وجب ردُّ نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله وأفعاله فهو الحَقُّ، وما يخالفها فهو مردودٌ علىٰ قائله وفاعله، كائنًا من كان، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الإخبار، وعدلًا في الأوامر والنَّواهِي؛ ولهذا قال: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال: ما أخبرتك مِن شيءٍ فهو كما أخبرتك. وكذا قال ابن جريج.

وقال شِمْر بن عطية في قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال: هذا القرآن خبير به.

ثمَّ قال تعالىٰ منكرًا علىٰ المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ أي: لا نعرف الرحمن. وكانوا ينكرون أن يُسَمَّىٰ الله باسمه الرحمن، كما

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٥٢٩١)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ١٠٣)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الأوهام والإرسال.

(٢)ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣)البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة ﵂، وله روايات أخرىٰ كثيرة.

(٤)تقدم الكلام علىٰ الاستواء في تفسير «سورة الأعراف» الآية (٥٤).

أنكروا ذلك يوم[(١)] الحديبية، حين قال النبيُّ ﷺ للكاتب: «اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»[(٢)]، فقالوا: لا نعرف الرَّحمن ولا الرَّحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: بِاسْمِكَ اللَّهمَّ؛ ولهذا أنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: هو الله وهو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾؟ أي: لا نعرِفه ولا نُقِرُّ به؟ ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد قولك؟ ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾، أمَّا المؤمنون فإنَّهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفرِدُونه بالإلهيَّة ويسجدون له. وقد اتَّفق العلماء -رحمهم الله- علىٰ أنَّ هذه السجدة التي في الفرقان مشروعٌ السجودُ عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرَّرٌ في موضعه، والله أعلم.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مُمَجِّدًا نفسه ومعظمًا، علىٰ جميل ما خلق في السَّماء من البروج، وهي الكواكب [العظام][(٣)] في قول مجاهد، وسعيد بن جُبير، وأبي صالح، والحسن، وقتادة. وقيل: هي قُصورٌ في السَّماء للحرس، يروىٰ هذا عن علي، وابن عبَّاس، ومحمَّد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مِهْران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضًا، والقول الأول أظهر. اللَّهمَّ إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ وهي الشمس المنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ أي: مضيئًا مشرقًا بنور آخر ونوع وفن آخر غير نور الشمس، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال مخبرًا عن نوح ﵇ أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦]. ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل واحدٍ منهما الآخر، يتعاقبان [لا يَفْتُران][(٤)]. إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ[(٥)] يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: جعلهما يتعاقبان، توقيتًا لعبادة عباده له، فمَن فاته عملٌ في الليل استدركه في النَّهار، ومَن فاته عملٌ في النَّهار استدركه في اللَّيل. وقد جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»[(٦)].

---

(١) لوحة (٩٦/ ب).
(٢) البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وأبو داود (٢٧٦٥)، وأحمد (٤/ ٣٢٨، ٣٣١).
(٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز).
(٥) لوحة (٩٧/ أ).
(٦) مسلم (٢٧٥٩).

قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا أبو حُرّة[١]، عن الحسن: أنَّ عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحىٰ، فقيل له: صنعت اليوم شيئًا لم تكن تَصْنعُهُ؟ فقال: إنَّه بقي عليَّ من وِرْدِي شيءٌ، فأحببت أن أُتِمَّه -أو قال: أقضيه- وتلا هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[٢].

[وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾][٣] يقول: مَن فاته شيءٌ من اللَّيل أن يعمله، أدركه بالنَّهار، أو مِن النَّهار أدركه باللَّيل[٤]. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿خِلْفَةً﴾ أي: مختلفين، هذا بسواده، وهذا بضيائه.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينةٍ ووقارٍ من غير جَبَرِيةٍ[٥] ولا استكبارٍ، كما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. فأمَّا هؤلاء فإنَّهم يمشون مِن غير استكبارٍ ولا مرحٍ، ولا أَشَرٍ ولا بَطَرٍ، وليس المراد أنَّهم يمشون كالمرضىٰ من التَّصانع تصنعًا ورياءً، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشىٰ كأنَّما ينحطُّ من صَبَبٍ[٦]، وكأنَّما الأرض تُطْوَىٰ له. وقد كره بعض السَّلف المشي بتَضَعُّفٍ وتصنُّعٍ، حتىٰ رُوي عن عمر أنه رأىٰ شابًّا يمشي رُويدًا، فقال: ما بالك؟! أأَنْت مريض؟! قال: لا يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدِّرَّة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنَّما المراد بالهَوْن هاهنا: السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**»[٧].

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن يحيىٰ[٨] بن المختار، عن الحسن البصري في قوله:

---

(١) في (ز): (أبو حمزة)، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وأبو حُرَّة معروف بالتدليس عن الحسن.

(٢) ضعيف: رواه الطيالسي في «مسنده» وابن أبي حاتم (١٥٣٢٢)، وإسناده منقطع بين الحسن وعمر.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) رواه الطبري (١٩/ ٣٠).

(٥) الجَبَرِيَّة: الكِبْر.

(٦) أي: مُنْحَدر من الأرض، وأصله: النزول من عُلْو إلىٰ سُفْل، ومنه: صَببت الماء، والمراد التشبيه بالمنحدر من علو إلىٰ سفل بحيث لا إسراع ولا إبطاء، وخير الأمور أوساطها، قال بعضهم: والمشيات عشرة أنواع، هذه أعدلها. «فيض القدير» للمَنَاوي.

(٧) البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٣).

(٨) في (ز): (عمر بن المختار)، وهو خطأ.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: إنَّ[1] المؤمنين قوم ذُلُل، ذلت منهم -والله- الأسماعُ والأبصار والجوارح، حتىٰ تحسبهم مرضىٰ وما بالقوم من مِرضٍ، وإنَّهم لأصحَّاء، ولكنَّهم دخلهم مِن الخوف ما لم يَدْخُل غيرهم، ومنعهم من الدُّنيا علمُهُم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنَّا الحزن. أَمَا والله ما أحزنهم حزن النَّاس، ولا تعاظم في نفوسِهم شيءٌ طلبوا به الجنَّة، أبكاهم الخوف من النَّار، وإنه من لم يتعزَّ بعزاء الله تَقَطَّعُ نفسُه علىٰ الدنيا حسرات، ومن لم يَرَ لله نعمة إلا في مطعمٍ أو في مَشْرَبٍ، فقد قلَّ علمه وحضَر عذابهُ.

وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: إذا سَفِه عليهم الجهَّال بالسَّيِّءِ، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويَصْفَحُون، ولا يَقُولُون إلا خيرًا، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدَّة الجهل عليه إلا حلمًا، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥][2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أسود بن عامر، حدَّثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالبي، عن النُّعمان بن مُقَرِّن المُزَني قال: قال رسول الله ﷺ [-وسبَّ رجلٌ رجلًا عنده- قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السَّلام. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا][3] إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ. وَإِذَا قَالَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا بَلْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ»[4]. إسناده حسن، ولم يخرجوه. وقال مجاهد: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ يعني: قالوا: سدادًا. وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفًا من القول. وقال الحسن البصري: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾[5]، [قال: حلماء لا يجهلون، و][6] إن جُهِل عليهم حَلُمُوا. يصاحبون[7] عباد الله نهارَهُم [بما تَسْمَعُون. ثم ذكر أنَّ ليلهم خير ليل][8].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي: في عبادته وطاعته، كما قال تعالىٰ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ -١٨]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ

---

(١) لوحة (٩٧/ ب).

(٢) وقال الشافعي رحمه الله تعالىٰ:

يخاطبني السَّفِيهُ بكل قُبْحٍ ... فأكرهُ أن أكون له مُجيبَا
يزيد سَفَاهَةً فأزيد حلمًا ... كعُودٍ زاده الإحراق طيبَا

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٤) حسن: رواه أحمد (٥/ ٤٤٥).

(٥) في (ز): (قالوا: السلام عليكم).

(٦) سقط من (ز).

(٧) في (ز): (أيضاحيون).

(٨) في (ز): (ليلهم ثم رد بما يسمعون خير ليل).

ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ الآية [الزمر: ٩]، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا دائمًا، كما قال الشاعر:

إِنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَامًا، وَإِنْ يُعْـ ... ـطِ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لا يُبَالِي

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شيءٍ يصيب ابن آدم ويَزُولُ عنه فليس بغرام، وإنَّما الغرام: اللَّازم ما دامت السموات والأرض. وكذا قال سليمان التيمي.

وقال محمَّد بن كعب [القُرظي](1): ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعني: ما نُعِّمُوا في الدُّنيا؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه(2)، فأغرمهم فأدخلهم النَّار.

﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ أي: بئس المنزل منظرًا، وبئس المَقِيل مقامًا.

وقال ابن أبي حاتم عند قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾: حدَّثنا أبي، حدَّثنا الحسن بن الربيع، حدَّثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مالك بن الحارث قال: إذا طُرح الرَّجل في النار هوىٰ فيها، فإذا انتهىٰ إلىٰ بعض أبوابها قيل له: مكانك حتىٰ تُتْحَف، قال: فيسقىٰ كأسًا من سُمِّ الأساود(3) والعقارب، قال: فيميز الجِلْدَ(4) علىٰ حِدَةٍ، والشَّعر علىٰ حدةٍ، [والعصب علىٰ حدة](5)، والعروق علىٰ حدةٍ(6).

وقال أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا الحسن بن الربيع، حدَّثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عُبيد بن عمير قال: إن في النار لَجِبابًا(7) فيها حيَّات أمثال البُخْت(8)، وعقارب أمثال البِغَال الدُّلْم(9)، فإذا قُذِفَ بهم في النار خرجت إليهم مِن أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلىٰ أقدامهم، فإذا وجدت حَرَّ النَّار رجعت(10).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا الحسن بن موسىٰ، حدَّثنا سلام -يعني ابن مسكين- عن أبي ظِلال، عن أنس بن مالك ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ عَبْدًا فِي جَهَنَّمَ لَيُنَادِي أَلْفَ سَنَةٍ: يَا حَنَّانُ، يَا مَنَّانُ. فَيَقُولُ اللهُ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِعَبْدِي هَذَا. فَيَنْطَلِقُ جِبْرِيلُ فَيَجِدُ أَهْلَ النَّارِ مُنْكَبِّينَ يَبْكُونَ، فَيَرْجِعُ إِلَىٰ رَبِّهِ ﷻ فَيُخْبِرُهُ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: ائْتِنِي بِهِ فَإِنَّهُ فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا. فَيَجِيءُ بِهِ فَيُوقِفُهُ عَلَىٰ رَبِّهِ ﷻ، فَيَقُولُ [لَهُ]**(11):

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (٩٨/ أ).
(٣) الأساود: جمع أسود، وهو أخبث الحيات وأعظمها.
(٤) أي: يعزله.
(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «تفسير ابن أبي حاتم».
(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٥٣٦٩)، موقوفًا علىٰ مالك بن الحارث، ولا يصح؛ لأن مثله لا يقال بالرأي، فلو كان القائل صحابيًّا لحُكِمَ له بحكم المرفوع، ولكن مالك بن الحارث ليس صحابيًّا، فغالب ما هنالك أنه مرسلٌ فلا يصح.
(٧) جِباب: جمع جُب، وهو البئر.
(٨) البُخْت: الإبل الخُراسانية.
(٩) الدُّلْم: جمع أدلم، وهو الأسود.
(١٠) رواه ابن أبي حاتم (١٥٣٧٠) موقوفًا، انظر التعليق السابق.
(١١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

يَا عَبْدِي، كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ وَمَقِيلَكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رِبِّ شَرَّ مَكَانٍ، شَرَّ مَقِيلٍ. فَيَقُولُ: رُدُّوا عَبْدِي. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا كُنْتُ أَرْجُو إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا أَنْ تَرُدَّنِي فِيهَا! فَيَقُولُ: دَعُوا عَبْدِي»(١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصْرِفُون فوق الحاجة، ولا بُخَلاء على أَهْليهم فيُقَصِّرون في حَقِّهم فلا يَكْفُونَهم، بل عَدْلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عصام بن خالد، حدَّثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغَسَّاني، عن ضَمْرَة، عن أبي الدرداء، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ رِفْقُهُ فِي مَعِيشَتِهِ»(٢). لم يخرجوه. وقال [الإمام](٣) أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو عبيدة الحداد، حدَّثنا سُكَين بن عبد العزيز العَبْدي، حدَّثنا إبراهيم الهَجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله(٤) ﷺ: «مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ». لم يخرجوه(٥).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا أحمد بن يحيىٰ، حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد(٦) بن ميمون، حدَّثنا سعيد بن حكيم، عن مسلم بن حبيب، عن بلال -يعني العَبْسي- عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَحْسَنَ القَصْدَ فِي الغِنَىٰ، وَأَحْسَنَ القَصْدَ فِي الفَقْرِ، وَأَحْسَنَ القَصْدَ فِي العِبَادَةِ!»(٧)، ثم قال: لا نعرفه يروىٰ إلا من حديث حذيفة ﵁.

وقال إياس بن معاوية: ما جاوزتَ به أمر الله فهو سَرَف(٨).

وقال غيره: السَّرف: النَّفَقَة في معصية الله.

وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سَرَفٌ.

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٢٣٠)، وفي إسناده أبو ظِلال القَسْمَلِي: ضعيف لم يوثقه غير ابن حبان، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه (الكامل ترجمة ٢٠٢٧، والثقات ترجمة ٥٩٥٢)، وقال الحافظ: ضعيف والحديث أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٦٧)، وقال: ليس إسناده بذاك.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ١٩٤)، وفيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم: ضعيف.

(٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (٩٨/ ب).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٤٤٧)، وفيه إبراهيم بن مسلم الهَجَري: ضعيف.

(٦) في (ز): (إبراهيم بن محمَّد بن محمَّد بن ميمون).

(٧) ضعيف: رواه البزار (٣٦٠٤-كشف الأستار)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٥٢): رواه البزار، عن سعيد بن حكيم، عن مسلم بن حبيب، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان في ترجمة سعيد الراوي عنه، وبقية رجاله ثقات.
قلت: سعيد بن حكيم أيضًا لم يوثقه إلا ابن حبان، والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٢١٦٤) وقال: ضعيف جدًّا.

(٨) راجع ما تقدم في تفسير سورة «الأعراف» الآية (٣١).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ(١) وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾(٢)

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وهاهنا مسألة هذا الموضع أخص المواضع ببيانها، وهي: أن التائب إذا تاب إلىٰ الله توبة نصوحًا فهل تُمْحَىٰ تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه، أو إذا مُحيت أُثبتَ له مكان كلِّ سيئةٍ حسنةٌ؟!

هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديمًا وحديثًا.

- فقال الزجاج: «ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، لكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة».

- قال ابن عطية: «يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولىٰ طاعة. فيكون ذلك سببًا لرحمة الله إياهم. قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن»، وردعلىٰ من قال: هو في يوم القيامة. قال: «وقد ورد حديث في «كتاب مسلم» من طريق أبي ذر يقتضي أن الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري، وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية»، قال ابن عطية: «وهو معنىٰ كرم العفو». هذا آخر كلامه -أي: ابن عطية-...

- وقال الثعلبي: «قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]: يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتلَ المشركين، وبالزنىٰ عفة وإحصانًا. وقال الآخرون: يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسناتٍ يوم القيامة».

- وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهو حسنات؛ وهذا تبديل حقيقة. والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة لا تنقلب حسنة، بل غايتها أن تُمْحَىٰ وُتكفَّر ويذهب أثرها. فأما أن تنقلب حسنة فلا، فإنها لم تكن طاعة، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب، فكيف تنقلب محبوبة له مرضية؟... واحتجت الطائفة الأخرىٰ التي قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة وهذا إنما يكون في السيئة المحققة، وهي التي قد فُعِلتْ ووقَعتْ، فإذا بُدِّلت حسنةً كان معناه أنها مُحيت وأثبت مكانها حسنة...

- فالصواب -إن شاء الله تعالىٰ- في هذه المسألة: أن يقال: لا ريب أنَّ الذنب نفسه لا ينقلب حسنة، والحسنة إنما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضىٰ ثوابًا، ولهذا كان تارك المَنْهيات إنما يثاب علىٰ كف نفسه وحبسها عن مواقعة المنهي، وذلك الكف والحبس أمرٌ وجوديٌّ هو متعلق الثواب. وأما من لم يخطِر بباله الذنبُ أصلًا، ولم يحدِّث به نفسه، فهذا كيف يثاب علىٰ تركه؟! ولو أُثيب مثلُ هذا علىٰ ترك هذا الذنب لكان مثابًا علىٰ ترك ذنوب العالَم التي لا تَخطر بباله، وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصىٰ، فإن الترك مستصحب معه، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط، فهل يثاب علىٰ ذلك كله؟!

هذا مما لا يتوهم. وإذا كانت الحسنة لا بد أن تكون أمرًا وجوديًا، فالتائب من الذنوب التي قد عملها قد قارن كلَّ ذنب منها ندمًا عليه،، وكفَّ نفسِه عنه، وعزمَه علىٰ ترك معاودته، وهذه حسنات بلا ريب، وقد محت التوبة أثرَ الذنب، وخَلَفَه هذا الندم والعزمُ، وهو حسنةٌ، فقد بُدِّلت تلك السيئة حسنة. وهذا معنىٰ قول بعض المفسرين: «يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة». فإذا كانت كلُّ سيئة من سيئاته قد تاب منها، فتوبته منها حسنة حلَّت مكانها، فهذا معنىٰ التبديل، لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة. ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: «يعطيهم بالندم علىٰ كل سيئة أساءوها حسنة».

- وعلىٰ هذا فقد زال بحمد الله الإشكال، واتَّضح الصواب، وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجَب العلم والحجة.

«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٣٤-٥٤٤) باختصار. ط: عالم الفوائد.

(٢) قال الإمام القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: والآية صريحة في أن العمل الصالح والمثابرة عليه قولًا وفعلًا شرط في صحة التوبة

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن شَقيق، عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: سُئل رسول الله ﷺ أي: الذنب أكبر؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قال: ثم أيٌّ؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قال: ثم أيٌّ؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ». قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[(١)]. وهكذا رواه النسائي عن هَنَّاد بن السَّرِي، عن أبي معاوية، به.

وقد أخرجه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش ومنصور -زاد البخاري: وواصل- ثلاثتهم عن أبي وائل -شقيق بن سلمة- عن أبي مَيْسَرة -عمرو بن شرحبيل- عن ابن مسعود به، فالله أعلم. ولفظهما عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ الحديث[(٢)]. طريق غريب

وقال ابن جرير: حدَّثنا أحمد بن إسحاق الأَهْوازي، حدَّثنا عامر بن مُدْرِك، حدَّثنا السَّرِي -يعني ابن إسماعيل- حدَّثنا الشَّعْبي، عن مسروق قال: قال عبد الله: خرج رسول الله ﷺ ذات يومٍ فاتبعته، فجلس على نَشَزٍ[(٣)] من الأرض، وقعدت أسفل منه، ووجهي حِيَالَ رُكْبَتَيْهِ، واغتنمت خلوته وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أيُّ الذنوب أكبرُ؟ قال: «أَنْ تَدْعُوَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثم مَهْ؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قلت: ثم مهْ؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ». ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾. [إلى آخر][(٤)] الآية[(٥)].

وقال النَّسائي: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن يَسَاف، عن سلمة ابن قيس قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «أَلَا إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعٌ -فَمَا أنا بأشحَّ عليهن مني[(٦)] منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ -: لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا»[(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن المديني رَحِمَهُ اللهُ، حدَّثنا محمَّد بن فضيل بن غَزْوان، حدَّثنا محمَّد بن سعد[(٨)] الأنصاري، سمعت أبا ظَبْيَة[(٩)] الكَلاعي، سمعت المقداد بن الأسود رضي الله عنه يقول:

= وقبولها، وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح. فليتفطن لمعنى هذه الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان، أو تخشع بأركان، ولا عملَ صالحٌ له يُرضِي الرحمن.

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٦٨).

(٢) البخاري (٦٨١١)، ومسلم (٨٦). (٣) النشز: الموضع المرتفع.

(٤) ليست في (ز). (٥) لوحة (٩٩/ أ). رواه الطبري (١٩/ ٤٢)، وانظر التعليق السابق.

(٦) في (ز): (عليهن شيء)، والمثبت موافق لما في «النسائي».

(٧) صحيح: رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٧٣).

(٨) في (ز): (محمَّد بن سعيد)، وهو خطأ. (٩) كذا في (ز).

قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا»؟ قالوا: حَرَّمه الله ورسوله، فهو حَرامٌ إلىٰ يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ». قال: «مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ»؟ قالوا: حرَّمها الله ورسوله، فهي حرامٌ. قال: «لأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشَرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»(١).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدَّثنا عمار بن نصر، حدَّثنا بَقيَّة، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لا يَحِلُّ لَهُ»(٢).

وقال ابن جُرَيج: أخبرني يعلىٰ، عن سعيد بن جبير أنه سمعه، يحدث عن ابن عبَّاس: أن ناسا من أهل الشِّرك قتلوا فأكثروا، وزَنُوا فأكثروا، ثم أَتَوْا محمَّدًا ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لحسنٌ، لو تخبرنا أن لِمَا عملنا كفَّارةً، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣](٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي فَاخِتة قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: «إِنَّ اللهَ يَنْهَاكَ أَنْ تَعْبُدَ المَخْلُوقَ وَتَدَعَ الخَالِقَ، وَيَنْهَاكَ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ وَتَغْذُوَ كَلْبَكَ، وَيَنْهَاكَ أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ». قال سفيان: وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾(٤).

وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿أَثَامًا﴾ وادٍ في جهنَّم(٥). وقال عكرمة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أوديةٌ في جهنَّم يُعذَّب فيها الزُّناة. وكذا رُوي(٦) عن سعيد بن جبير،

---

(١) حسنه الألباني: رواه أحمد (٦/ ٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٦٠٥) وفي «الأوسط» (٦٣٢٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٨): رجاله ثقات، قلت: فيه أبو ظبية الكَلاعي، ويقال: أبو طيبة، والأول أصح، وثقه ابن معين، وقال الدارقطني: ليس به بأس، ووثقه ابن حبان «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٤٥٠)، «الثقات» (الترجمة ٦٣٢٤). قال الحافظ: مقبول (التقريب/ ت ٨/٩٢) واعترض عليه الألباني، حيث وثقه ابن المديني وابن حبان؛ لذا قال في «الصحيحية» (٦٥): هذا إسناد جيد.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٣٧). وإسناده مرسل، وفيه أبو بكر بن أبي مريم: ضعيف كما تقدم.

(٣) رواه البخاري (٤٨١٠)، ومسلم (١٢٢)، وأبو داود (٤٢٧٤)، والنسائي (٧/ ٨٦).

(٤) رجاله ثقات: رواه ابن أبي حاتم (١٥٣٩٩)، وإسناده مرسل، ويشهد له ما تقدم من رواية عبد الله بن مسعود ﵁.

(٥) رواه الطبري (١٩/ ٤٤)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٧) إلىٰ ابن أبي حاتم (١٥٤٠٧)، وابن المنذر. ورجاله ثقات عدا أبا أيوب الأزدي، فقد ذكر في «الميزان» و«لسان الميزان» ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا.

(٦) لوحة (٩٩/ ب).

ومجاهد. وقال قتادة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: نكالًا، كنا نحدَّث أنَّه وادٍ في جهنَّم. وقد ذُكِر لنا أنَّ لقمانَ كان يقول: يا بُنَيَّ، إيَّاك والزِّنا، فإن أوَّله مخافةٌ، وآخره ندامةٌ.

وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره، عن أبي أمامة الباهلي -موقوفًا ومرفوعًا-: أنَّ «غيًّا» و«أثامًا» بئران في قعر جهنَّم. أجارنا الله منها بمَنِّه وكرمه[١].

وقال السُّدِّي: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: جزاءً. وهذا أشبه بظاهر الآية؛ ولهذا فسَّره بما بعده مبدلًا منه، وهو قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يُكرر عليه ويغلظ، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أي: حقيرًا ذليلًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصِّفات القبيحةِ ما ذكر ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ في الدُّنيا إلى الله مِن جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه. وفي ذلك دلالةٌ على صحة توبة القاتل، ولا تَعارُض بين هذه وبين آية النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فإن هذه وإن كانت مدنيَّةً إلا أنها مطلقةٌ، فتحمل على من لم يَتُب؛ لأنَّ هذه مقيَّدةٌ بالتَّوبة، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وقد ثبتت السُّنَّة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحَّة توبة القاتل، كما ذكر مقررًا من قصَّة الذي قتل مائة رجلٍ ثم تاب، وقُبِل منه، وغير ذلك من الأحاديث.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ في معنى قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قولان؛ أحدهما: أنَّهم بدَّلوا مكان عملِ السيئات بعمل الحسنات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السَّيِّئات، فرغب الله بهم عن [ذلك][٢] فحوَّلهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئاتِ الحسناتِ[٣].

وروى مجاهد، عن ابن عبَّاسٍ أنه كان ينشد عند هذه الآية:

بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَرِيفَا[٤] ... وَبَعْدَ طُولِ النَّفَسِ الوَجِيفَا[٥]

---

(١) ضعيف مرفوعًا وموقوفًا: رواه الطبري (١٩/ ٤٤ - ٤٥)، وفيه: شَرْقي بن قُطَامي، قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٦٨): له نحو عشرة أحاديث فيها مناكير، ضعفه الساجي، وذكره ابن عدي في «كامله».

وأما الموقوف ففيه زكريا بن أبي مريم. قال النسائي: وليس بالقوي.

(٢) بياض في (ز).

(٣) رواه الطبري (١٩/ ٤٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٠) إلى ابن أبي حاتم (١٥٤٣٢) وابن المنذر.

(٤) في (ز): (جره صريفا).

(٥) وَجَف القلب وَجِيفًا: خَفَق.

يعني: تغيَّرت تلك الأحوال إلىٰ غيرها. وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدُّنيا، يكون الرَّجل علىٰ هيئةٍ قبيحةٍ، ثم يبدله الله بها خيرًا. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم بعبادة الأوثان عبادةَ الله، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالًا مع المسلمين للمشركين[١]، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاحَ المؤمنات. وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعَمَلِ السَّيِّئِ العملَ الصالحَ، وأبدلهم بالشرك[٢] إخلاصًا، وأبدلهم بالفجور إحصانًا، و[بالكفر][٣] إسلامًا. وهذا قول أبي العالية، وقتادة، وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السَّيِّئات الماضية تنقلب بنفس التَّوبة النَّصوح حسنات، وما ذاك إلَّا أنَّه [كلمَّا تذكر ما مضىٰ ندم][٤] واسترجع واستغفر، فيَنْقَلِب الذَّنب طاعةً بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوبًا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنةً في صحيفته، كما ثبتت السُّنَّة بذلك، وصحَّت به الآثار المروية[٥] عن السلف -رحمهم الله تعالىٰ- وهذا سياق الحديث، قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن المعرور بن سُوَيْد، عن أبي ذرٍّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنِّي لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا إِلَىٰ الجَنَّةِ؛ يُؤْتَىٰ بِرَجُلٍ فَيَقُولُ: نَحُّوا كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلُوهُ عَنْ صِغَارِهَا، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَم -لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا- فَيُقَالُ: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا»**. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه. انفرد به مسلم[٦].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا هاشم بن يزيد، حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل، حدَّثني أبي، حدَّثني ضَمْضَم بن زرعة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا نَامَ ابْنُ آدَمَ قَالَ المَلَكُ لِلشَّيْطَانِ: أَعْطِنِي صَحِيفَتَكَ. فَيُعْطِيهِ إِيَّاهَا، فَمَا وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ مِنْ حَسَنَةٍ مَحَا بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مِنْ صَحِيفَةِ الشَّيْطَانِ، وَكَتَبَهُنَّ حَسَنَاتٍ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ أَحَدُكُمْ فَلْيُكَبِّرْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَكْبِيرَةً، وَيَحْمَدْ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ تَحْمِيدَةً، وَيُسَبِّحْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَسْبِيحَةً، فَتِلْكَ مِائَةٌ»**[٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمة وعارم قالا: حدَّثنا ثابت -يعني: ابن يزيد أبو زيد- حدَّثنا عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: يُعْطَىٰ رجلٌ يوم القيامة صحيفتَهُ فيقرأ[٨] أعلاها، فإذا سَيِّئاته، فإذا كاد يسوء ظَنُّه نظر في أسفلها فإذا حسناته، ثم يَنْظُر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات[٩].

---

(١) في (ز): (المشركين). (٢) لوحة (١٠٠/ أ). (٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): (كلما مضىٰ ذكر ما ندم). (٥) في (ز): (الآثار النبوية). (٦) أحمد (٥/ ١٧٠)، ومسلم (١٩٠).

(٧) ضعيف: رواه الطبراني (٣/ ١٩٦)، وفيه محمَّد بن إسماعيل بن عياش: ضعيف.

(٨) في (ز): (فيتبوأ)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».

(٩) رواه ابن أبي حاتم (١٥٤٣٩)، وإسناده حسن، وهو في حكم المرفوع.

وقال أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا سليمان بن موسىٰ الزهري أبو داود، حدَّثنا أبو العَنْبَس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: ليأتينَّ الله ﷻ بأُناسٍ يوم القيامة رأوا أنَّهم قد استكثروا مِن السَّيِّئات(١)، قيل: مَنْ هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبدل الله سَيِّئَاتِهِم حسنات(٢).

وقال أيضا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن أبي زياد، حدَّثنا سَيَّار، حدَّثنا جعفر، حدَّثنا أبو حمزة، عن أبي الضيف -وكان من أصحاب معاذ بن جبل- قال: يدخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ علىٰ أربعة أصنافٍ: المتقين، ثم الشاكرين، ثم الخائفين، ثم أصحاب اليمين. قلت: لِمَ سُمُّوا أصحاب اليمين؟ قال: لأنَّهم عملوا الحسنَات والسَّيِّئات، فأُعْطُوا كتبَهم بأَيْمَانِهِم، فقرءوا سيئاتهم حرفًا حرفًا، قالوا: يا ربنا، هذه سيئاتنا، فأَيْنَ حسناتنا؟ فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات، فعند ذلك قالوا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾، فهم أكثر أهل الجنة(٣). وقال علي بن الحسين -زين العابدين-: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قال: في الآخرة. وقال مكحول: يغفرها لهم فيجعلها حسنات. [رواهما ابن أبي حاتم، وروىٰ ابن جرير، عن سعيد بن المسيب مثله](٤).

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن الوزير الدِّمَشْقي، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا أبو جابر، أنه سمع مكحولًا يحدِّث قال: جاء شيخٌ كبيرٌ هَرِمٌ قد سقط حاجِبَاه علىٰ عينيه، فقال: يا رسول الله، رجل غدَرَ وفَجَرَ، ولم يدع حاجة ولا دَاجَة(٥) إلا اقتطعها بيمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأَوْبَقَتْهم(٦)، فهل له من توبة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أَسْلَمْتَ؟» قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمَّدًا عبده ورسوله. فقال النَّبيُّ ﷺ: «فَإِنَّ اللهَ غَافِرٌ لَكَ مَا كُنْتَ كَذَلِكَ، وَمُبَدِّلٌ سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ». فقال: يا رسول الله، وغَدَراتي وفَجَراتي؟ فقال: «وَغَدَرَاتِكَ وَفَجَرَاتِكَ». فوَلَّىٰ الرجل يهلل ويكبر(٧).

وروىٰ الطبراني من حديث أبي المغيرة، عن صفوان بن عَمْرو، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبي فَرْوَةَ -شَطْب- أنَّه أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلًا عمل الذنوب كُلَّها، ولم يترك حاجَة ولا داجَة، فهل له من توبة؟ فقال: «أَسْلَمْتَ؟» فقال: نعم، قال: «فَافْعَلِ الخَيْرَاتِ، وَاتْرُكِ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلَهَا اللهُ لَكَ

---

(١) لوحة (١٠٠/ ب). (٢) رواه ابن أبي حاتم (١٥٤٢٩). (٣) رواه ابن أبي حاتم (١٥٤٤٢).

(٤) سقط من (ز). (٥) الدَّاجة: كلمة مؤكدة لحاجة. (٦) أي: أهلكتهم.

(٧) صححه الحافظ ابن حجر: هذا الإسناد مرسل، ووصله أحمد (٤/ ٣٤٨)، وفيه انقطاع، والرواية الثانية رواها الطبراني (٧/ ٣١٤). قال الهيثمي في «المجمع»: «رجال البزار رجال الصحيح غيرَ محمَّد بن هارون أبي نَشِيط، وهو ثقة». وقال الحافظ في «الإصابة» (٣/ ٣٥٠): هو علىٰ شرط الصحيح. وساق له طريقًا أخرىٰ في كتاب «حسن الظن» لابن أبي الدنيا (١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» انظر رقم (٣٣٩١).

خَيْرَاتٍ كُلِّهَا». قال: وغدَراتي وفَجَراتي؟ قال: «نَعَمْ». قال: فما زال يكبر حتىٰ تَوَارَىٰ (١).

ورواه الطبراني من طريق أبي فَروة الرَّهاوي، عن ياسين الزيات، عن أبي سلمة الحِمْصي، عن يحيىٰ بن جابر، عن سلمة بن نفيل مرفوعًا (٢).

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا إبراهيم بن المنذر، حدَّثنا عيسىٰ بن شعيب بن ثوبان، عن [فُلَيْح الشماس، عن عبيد بن أبي عبيد] (٣)، عن أبي هريرة ﵁ قال: جاءتني امرأةٌ فقالت: هل لي من توبةٍ؟ إني زَنَيْتُ وولَدتُ وقتلته. فقلتُ: لا، ولا (٤) نَعِمَت العين ولا كرامة. فقامت وهي تدعو بالحسرة. ثم صليت مع النَّبيِّ ﷺ الصُّبح، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها، فقال رسول الله ﷺ: «بِئْسَمَا قُلْتَ! أَمَا كُنْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، إلىٰ قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فقرأتها عليها. فخرَّت ساجدةً وقالت: الحمد لله الذي جعل لي مخرجًا (٥).

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وفي رجاله مَنْ لا يُعرف، والله أعلم. وقد رواه ابن جرير، من حديث إبراهيم بن المنذر الحِزَامي بسنده بنحوه، وعنده: فخرجت تدعو بالحسرة وتقول: يَا حَسْرَتَا! أَخُلِق هذا الحُسْنُ للنَّار؟ وعنده أنَّه لما رجع مِن عند رسول الله ﷺ، تَطَلَّبها في جميع دُورِ المَدِينَةِ فلم يجدها، فلمَّا كان من اللَّيلة المقبلة جاءته، فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ، فخرَّت ساجدةً، وقالت: الحمد لله الذي جعل لي مخرجًا وتوبةً مما عملت. وأَعْتَقَتْ جاريةً كانت معها وابنتها، وتابت إلىٰ الله ﷿.

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عَن عموم رحمته بعباده وأنَّه مَن تاب إليه منهم تَابَ عليه مِن أيِّ ذنبٍ كان، جليلٍ أو حقيرٍ، كبيرٍ أو صغيرٍ، فقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فإنَّ الله يقبل توبته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

(١) انظر التعليق السابق.
(٢) هذا الإسناد لا يصحُّ؛ لأن فيه ياسين الزيات: يروي الموضوعات، رواه الطبراني (٧/ ٥٣)، ولكن انظر التعليقين السابقين.
(٣) في (ز): (عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه). والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٤) لوحة (١٠١/ أ). ولا نعمت العين، أي: لا سرت العين ولا قرت.
(٥) ضعيف: رواه الطبري (١٩)/ ٤٦)، قال ابن كثير: وفيه من لا يعرف، والحديث ضعفه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٩).

﴿اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: لمن تاب إليه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

وهذه أيضًا من صفات عباد الرحمن، أنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام. وقيل: الكذب، والفسق، واللَّغو، والباطل. وقال محمَّد بن الحنفية: [هو][(١)] اللَّهو والغناء. وقال أبو العالية، وطاوس، ومحمَّد بن سيرين، والضَّحَّاك، والربيع[(٢)] بن أنس، وغيرهم: هي أعياد المشركين.

وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخَنَا[(٣)].

وقال مالك، عن الزهري: [شرب الخمر][(٤)] لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَجْلِسْ عَلَىٰ مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الخَمْرُ»[(٥)].

وقيل: المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمدًا علىٰ غيره، كما ثبت في «الصحيحين» عن أبي بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ» ثلاثًا، قلنا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ». وكان متكئًا فجلس، فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ، [أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ»][(٦)]. فما زال يكررها، حتىٰ قلنا: لَيْتَهُ سكت[(٧)].

والأظهر من السِّياق أنَّ المراد: لا يشهدون الزُّور؛ أي: [لا][(٨)] يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتَّفق مرورهم به مرُّوا، ولم يَتَدَنَّسوا منه بشيءٍ؛ ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيدٍ الأشَجُّ، حدَّثنا أبو الحسين العِجْلي، عن محمَّد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن مَيْسَرة، أن ابن مسعودٍ مَرَّ بلهوٍ معرضًا، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لَقَدْ أَصْبَحَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَمْسَىٰ كَرِيمًا»[(٩)].

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (١٠١/ ب).
(٣) الخَنَا: الفحش في القول.
(٤) في (ز): (المعاصي).
(٥) رواه الترمذي (٢٨٠١) وحسنه، قلت: فيه ليث بن أبي سُلَيم: صدوق، لكن أدخل في حديثه ما ليس منه فترك، ورواه النسائي في «الكبرىٰ» (٦٧٤١)، والحاكم (٤/ ٤٢٦) وصححه علىٰ شرط مسلم، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٥٩٦)، وأبو يعلىٰ (١٩٢٥) من طريق أخرىٰ وفيه متابعة لليث. والحديث حسنه الحافظ في «الفتح» (٩/ ٢٥٠)، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (١٩٤٩)، وفي «غاية المرام» (١٩٠).
(٦) ليست في (ز).
(٧) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).
(٨) سقط من (ز).
(٩) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١٥٤٦٣)؛ لأنه من رواية إبراهيم بن ميسرة وهو تابعيٌّ، وفي الإسناد محمَّد بن مسلم:

[وحدَّثنا الحسن بن محمَّد بن سلمة النَّحوي، حدَّثنا حبان، أنا عبد الله، أنا محمَّد بن مسلم، أخبرني ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعودٍ مَرَّ بلهوٍ معرضًا فلم يقف، فقال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ أَصْبَحَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَمْسَىٰ كَرِيمًا**»] (١). ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٢).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ وهذه من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، بخلاف الكافر، فإنَّه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصر (٣) عما كان عليه، بل يبقىٰ مستمرًّا علىٰ كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: بخلاف الكافر، أي: الَّذي ذكر بآيات ربه فاستمرَّ علىٰ حاله كأن لم يسمعها، أَصم أَعْمَىٰ. قال مجاهد: قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: لم يسمعوا ولم يُبْصِروا، ولم يفقهوا شيئًا. وقال الحسن البصري: كم مِن رجلٍ يقرؤها ويَخِرُّ عليها أَصم أَعْمَىٰ.

وقال قتادة: قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يقول: لم يَصَمُّوا عن الحق ولم يَعْمَوا فيه، فهم -والله- قومٌ عقلُوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أسيد بن عاصم، حدَّثنا عبد الله بن حُمْران، حدَّثنا ابن عَوْن قال: سألت (٤) الشعبي قلت: الرَّجل يرىٰ القوم سجودًا ولم يسمع ما سجدوا، أيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يعني: أنَّه لا يسجد معهم؛ لأنه لم يتدبر آية السجدة فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمَّعةً، بل يكون علىٰ بصيرةٍ مِن أمره، ويقينٍ واضحٍ بيِّنٍ.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني: الذين يسألون الله أَنْ يُخرِج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عبَّاسٍ: يعنون من يعمل بالطاعة، فتقرُّ به أعينهم في الدُّنيا والآخرة. وقال عكرمة: لم يريدوا بذلك صَباحةً ولا جمالًا، ولكن أرادوا أن يكونوا مُطِيعِين. وقال الحسن البصري -وسئل عن هذه الآية- فقال: أن يُري الله العبد المسلم مِن زوجته، ومِن أخيه، ومِن حميمه طاعة الله. لا والله ما شيء أقرُّ لعين المسلم مِن أن يرىٰ ولدًا، أو ولد ولدٍ، أو أخًا، أو حميمًا مطيعًا لله ﷻ. وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ

= صدوق يخطئ.

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) أي: لا يكف عنه.

(٤) لوحة (١٠٢/ أ).

أَعْيُنٍ﴾ قال: يعبدونك ويُحْسِنُون عبادتك، ولا يَجُرُّون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: يسألون الله لأزواجهم وذُرِّيَّاتهم أن يهديهم للإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يَعْمَر بن بشر، حدَّثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، حدَّثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: جلسنا إلىٰ المقداد بن الأسود [يومًا](١)، فمر به رجلٌ فقال: طوبىٰ لهاتين العَيْنَيْن اللَّتين رأتا رسول الله ﷺ! لَوَدِدْنَا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت. فاستغضب، فجعلت أعجبُ، ما قال إلا خيرًا! ثم أقبل إليه، فقال: ما يحمل الرجل علىٰ أن يتمنَّىٰ مَحْضَرًا غيَّبه الله عنه، لا يدري لو شَهِدَه كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبَّهم(٢) الله علىٰ مناخرهم في جهنم، لم يُجِيبُوه ولم [يُصدِّقوه](٣)، أَوَلَا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربَّكم مصدِّقين لما جاء به نبيكم، قد كُفيتم البلاء بغيركم! لقد بعث الله النَّبيَّ ﷺ علىٰ أشدِّ حالٍ بعث عليها نبيًّا من الأنبياء في فترةٍ من جاهليةٍ، ما يَرَوْنَ أَنَّ دينًا أفضل من عبادة الأوثان. فجاء بفُرْقَانٍ فَرَقَ به بين الحق والباطل، وفَرَقَ بين الوالد وولده، [حتىٰ](٤) إن كان الرجل ليَرَىٰ والده وولده، أو أخاه كافرًا، وقد فتح الله [قُفْل](٥) قلبه للإيمان، يعلمُ أَنَّه إن هلك دخل النَّار، فلا تَقرُّ عينه وهو(٦) يعلم أَنَّ حبيبه في النار، وإنها التي قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾(٧). وهذا إسنادٌ صحيحٌ، ولم يخرِّجوه.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عبَّاس، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، والربيع بن أنس: أئمَّة يُقْتَدَىٰ بنا في الخير.

وقال غيرهم: هداةً مهتدين ودعاةً إلىٰ الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلةً بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأنْ يكون هُدَاهم متعديًا إلىٰ غيرهم بالنَّفع، وذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مآبًا؛ ولهذا ورد في «صحيح مسلم»، [عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ](٨): «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: وَلَدٍ(٩) صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ(١٠) عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ [مِنْ](١١) بَعْدِهِ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ**»(١٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): (أكبهم)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز).
(٥) سقط من (ز).
(٦) لوحة (١٠٢/ ب).
(٧) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٢)، وصححه ابن كثير رحمه الله.
(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٩) في (ز): (من ولد).
(١٠) في (ز): (وعلم).
(١١) سقط من (ز).
(١٢) رواه مسلم (١٦٣١).

لما ذكر تعالىٰ من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر [من][(١)] هذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة[(٢)] -قال بعد ذلك كله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ وهي الجنَّة. قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: سميت بذلك لارتفاعها.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: علىٰ القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي: يُبْتَدءُونَ فيها بالتَّحيَّة والإكرام، ويلقَّوْن فيها التَّوقير[(٣)] والاحترام، فلهم السَّلام وعليهم السَّلام، فإنَّ الملائكة يدخلون عليهم من كلِّ بابٍ، سلامٌ عليكم بما صبرتم، فنعم عقبىٰ الدار.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين، لا يظعَنُون ولا يَحُولون [ولا يموتون][(٤)]، ولا يزولون عنها، ولا يبغون عنها حِوَلًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وقوله ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حَسُنَت منظرًا وطابت مَقيلًا ومنزلًا، ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى﴾ أي: لا يبالي ولا يَكْتَرِث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنَّه إنَّما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرةً وأصيلًا. وقال مجاهد، وعمرو بن شعيب: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يقول: لولا إيمانكم، فأخبر الله الكفَّار أنَّه لا حاجةَ له بهم إذ لم يَخْلُقْهُم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجةٌ لَحَبَّبَ إليهم الإيمان كما حَبَّبه إلىٰ المؤمنين.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: أيها[(٥)] الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم[(٦)] لزامًا لكم؛ يعني: مقتضيًا لهلاككم وعذابكم ودمارِكُم[(٧)] في الدُّنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسَّره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمَّد بن كعب القُرَظي، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يعني: يوم القيامة. ولا منافاة بينهما. والله أعلم.

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): (الجميلة). (٣) في (ز): (التوفيق).
(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (١٠٣/ أ).
(٦) في (ز): (تكذيبهم). (٧) في (ز): (عذابهم ودمارهم).

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

تفسير سورة الشعراء، وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَوَقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتُها: «سورة الجامعة».

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ[1] ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطَّعة في أوائل السور، فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة «البقرة». وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المبين؛ أي: البين الواضح، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد.

وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مُهلكٌ ﴿نَّفْسَكَ﴾؛ أي: مما تحرص عليهم وتحزن عليهم، ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، وهذه تَسْلِيةٌ من الله لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- في عَدَمِ إيمان مَنْ لم يؤمن بِهِ من الكفَّار، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضَّحَّاك: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتل نفسك. قال الشاعر:

أَلا أَيُّهــذا البَــاخعُ الحُــزنُ نفسَــه ... لــشيءٍ نَحَتْــهُ عَــنْ يَدَيــه المَقَــادِرُ

ثم قال الله تعالىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي: لو شئنا لأنزلنا آيةً تضطرهم إلىٰ الإيمان قهرًا، ولكنَّا لا نفعل ذلك؛ لأنَّا لا نريد مِن أحدٍ إلا الإيمانَ الاختيارِيَّ؛ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟

---

(١) **قال الشيخ أبو بكر الجزائري** ﷺ: المراد ممن نُفِيَ الإيمان عن أكثرهم هم: أكابر مجرمي مكة إذ أكثرُهم مات كافرًا أما غيرهم فنَدُرَ من لم يؤمن منهم إذ دخلوا في دين الله بعد الفتح أفواجًا.

مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا(١) يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨، ١١٩]، فنَفَذ قدرُه، ومَضت حكمتُه، وقامت حجته البالغةُ علىٰ خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكُتُبِ عَلَيْهِم.

ثم قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ(٢) إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي: كُلَّما جاءهم كتابٌ من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:٣٠]، وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٤٤]؛ ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: فقد كذَّبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التَّكذيبِ بعد حينٍ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

ثم نبَّه تعالىٰ علىٰ عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه الَّذين اجترءوا علىٰ مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الَّذي خلق الأرض وأنبت فيهَا مِن كلِّ زوجٍ كريمٍ، من زروعٍ وثمارٍ وحيوانٍ.

قال سفيان الثوري، عن رجلٍ، عن الشعبي: النَّاس مِن نبات الأرض، فمَن دخل الجنَّة فهو كريمٌ، ومن دخل النَّار فهو لَئِيمٌ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: دلالةً علىٰ قدرة الخَالِق للأشياء، الَّذي بسط الأرض ورَفع بناء السَّماء، ومع هذا ما آمَن أكثر النَّاس، بل كذَّبوا به وبرُسُله وكتبه، وخالفوا أمره وارْتكبُوا زواجره.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي عَزَّ كلَّ شيءٍ وقهره وغلبه(٣)، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: بخلقه، فلا يعجل علىٰ مَنْ عصاه، بل يُنْظِرُهُ ويُؤَجِّلُهُ ثم يأخذه أخذ عزيزٍ مقتدرٍ. قال أبو العالية، وقتادة، والربيع ابن أنس، و[محمَّد بن](٤) إسحاق: العزيز في نقمته وانتصاره ممَّن خالف أمره وعبد غيره. وقال سعيد بن جبير: الرحيم بِمَنْ تاب إليه وأناب.

---

(١) لوحة (١٠٣/ ب).

(٢) قال الشيخ الغنيمان حَفِظَهُ اللهُ: «المقصوج بالمُحْدَث: الجديد، ولا يشترط أن يكون مخلوقًا، وقد قال ابن عباس: (ما بالُكم تسألون أهل الكتاب، وكتابكم أحدث شيء بالله؟ والله ما رأينا واحدًا منهم أتىٰ يسألنا). فهو محدث يعني: جديد، ولهذا قال أهل السنة: آحاد كلام الله يتجدد. وقد يقال: حادث، يعني جديدًا، وأما جنسه ونوعه فهو قديم أزلي؛ لأنه صفة من صفات الذات الأزلية». «شرح الواسطية». وانظر كذلك: «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» له (٢/ ٥٠٦)، وانظر ما سيأتي أيضًا أول سورة «الزخرف».

(٣) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «النونية»:

وهـو العزيزُ فلا يُرامُ جنابُهُ ... أنَّىٰ يُرامُ جَنابُ ذِي السُّلطَانِ

(٤) ليست في (ز).

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن
يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾
فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(١)] ﴿٢٢﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا أمر به عبده ورسوله وكليمَه موسىٰ بن عمران، صلوات الله وسلامه عليه، حين ناداه من جانب الطُّور الأيمن، وكلَّمه وناجاه، وأرسله واصْطَفَاه، وأمرَهُ بالذَّهاب إلىٰ فرعون ومَلَئِهِ؛ ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة «طه»: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٢٥-٣٦].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: بسببِ ما كان [من][(٢)] قتل ذلك القِبْطِيِّ الذي كان سبب خروجه من بلاد مِصْرَ.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: قال الله له: لا تَخَفْ مِن شيءٍ من ذلك، كما قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: برهانًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥].

﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، أي: [إنني][(٣)] معكما بحفظي وكلاءَتي ونَصْري وتأْيِيدي.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧] أي: كلٌّ منَّا رسول الله إليك، ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلِقْهُم من إسارِك وقَبْضَتِك وقهرك وتَعْذِيبك، فإنَّهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم مَعَك في العذاب المهين. فلمَّا قال له موسىٰ ذلك أعرض فرعون عمَّا هنالك بالكليَّة، ونظر بعَيْن الازْدِراء والغَمْص فقال:

---

(١) لوحة (١٠٤/ أ). (٢) ليست في (ز). (٣) سقط من (ز).

﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا﴾[1] [أي: أمَا أنت الذي رَبَّيْنَاه فينا][2]، وفي بَيْتِنا، وعلىٰ فراشِنَا، [وغَذَّيْنَاه][3] ، وأنعمنا عليه مُدَّةً من السِّنين، ثمَّ بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفَعْلَة، أن قتلت منا رجلًا وجحدت نعمتنا عليك؟! ولهذا قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الجَاحِدِين. قاله ابن عبَّاسٍ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا﴾ أي: في تلك الحال، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: قبل أن يوحىٰ إليَّ وينعم الله عليَّ بالرسالة والنُّبوَّة.

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ومجاهد، وقتادة، والضَّحَّاك، وغيرهم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: الجاهلين.

قال ابن جُرَيْج: وهي كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[4][5].

﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: الحال الأول انفصل وجاء أمرٌ آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعتَهُ سَلِمت، وإن خالفته عَطِبْتَ[6].

ثم قال موسىٰ: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: وما أحسنت إليَّ وربَّيْتني مقابل ما أَسَأْتَ إلىٰ بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدًا وخدمًا تصرفهم في أعمالك ومشَاقِّ رعيَّتك، أَفَيَفي إحسانك إلىٰ رجلٍ واحدٍ منهم بما أسأتَ إلىٰ مجموعهم؟! أي: ليس ما ذكرتَه شيئًا بالنِّسبة إلىٰ ما فعلتَ بهم.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢٨﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عَن كفر فرعون وتمردِهِ وطغيانه وجحودِهِ في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع - تعالىٰ - ويعتقدون أنَّه لا ربَّ لهم سوىٰ فرعونَ، فلمَّا قال [له][7] موسىٰ: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦]، قال له: ومَنْ هذا الذي تَزْعُمُ أنه ربُّ العالمين غيري؟ هكذا فسَّره علماء السلف وأئمَّة الخلف، حتىٰ قال السُّدِّي: هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩، ٥٠].

---

(١) زيد بعدها في (ز): ﴿مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾، ثم ضَربَ عليها.
(٢) ليست في (ز). (٣) (ز): (وهو ما). (٤) لوحة (١٠٤/ ب).
(٥) قراءة: قَرَأَ (الْجَاهِلِينَ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (الضَّالِّينَ).
(٦) العطب: الهلاك. أي: هلكت. (٧) سقط من (ز).

ومَن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤالٌ عن الماهيَّة فقد غلِط[(١)]؛ فإنه لم يكن مقرًّا بالصَّانع[(٢)] حتىٰ يسأل عن الماهيَّة، بل كان جاحدًا له بالكليَّة فيما يظهر، وإن كانت الحُجَجُ والبَرَاهِين قد قامت عليه، فعِنْد ذلك قال[(٣)] موسىٰ لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالق جميعِ ذلك ومالكه، والمتصرِّف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثَّوابت والسَّيَّارات النَّيِّرات، والعالم السُّفلي وما فيه من بحارٍ وقِفارٍ، وجبال وأشجارٍ، وحيوانٍ ونباتٍ وثمارٍ، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يَحْتوِي عليه الجوُّ، الجميع عبيدٌ له خاضعون ذَلِيلُون.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوبٌ موقنةٌ، وأبصارٌ نافذةٌ. فعند ذلك الْتَفَت فرعون إلىٰ مَنْ حوله من مَلَئه ورؤساء دولتِهِ قائلًا لهم، علىٰ سبيل[(٤)] التَّهكُّم والاستهزاء والتَّكذيب لموسىٰ فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي: ألا تَعْجَبُون مما يقول هذا فِي زعمِهِ: أنَّ لكم إلهًا غيري؟ فقال لهم موسىٰ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأوَّلين، الذي كانوا قبل فرعون وزمانه.

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ليس له عقلٌ في دَعْوَاه أن ثمَّ ربًّا غيري.

﴿قَالَ﴾ أي: موسىٰ لأولئك الَّذين أَوْعَزَ إليهم فرعونُ ما أوعز مِن الشُّبهة، فأجاب موسىٰ بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هو الَّذِي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسيَّاراتها، مع هذا النِّظام الذي سَخَّرها فيه وقدَّرها، فإن كان هذا الَّذِي يزعم أنَّه ربكم وإلهكم صادقًا فلْيَعْكِس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا، والمغرب مشرقًا، كما أخبر تعالىٰ عن ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]؛ ولهذا لما غُلب فرعونُ وانقطعتْ حُجَّتُه، عدل إلىٰ استعمال جاهِهِ وقوتِهِ وسلطانِهِ، واعتقد أنَّ ذلك نافعٌ له ونافذٌ في موسىٰ عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالىٰ عنه:

---

(١) ينظر: «الصَّفَدية»: (١/ ٢٤٢)، و«درء التعارض»: (٨/ ٣٩)، و(١٠/ ٢٧٢)، و«حقيقة مذهب الاتحاديِّين، أو وحدة الوجود» في «الفتاوىٰ» المجلد الثاني.

(٢) سبق عند تفسير الآية (٥) من سورة «هود» بيان أن الصانع ليس من أسماء الله تعالىٰ، وإنما يُذكر ذلك في باب الإخبار، وباب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات، فيخبر عنه تعالىٰ بمثل ذلك إن احتيج إليه، مع التنبيه علىٰ أنه لا يُدعىٰ بها، ولا يُسمَّىٰ بها؛ لأنها لا تحوي ما يدل علىٰ المدح. ينظر «مجموع الفتاوىٰ» (٩/ ٣٠٠)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٢٧٠)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥)، و«فتاوىٰ العثيمين» (٧/ ٢٤٥).

(٣) في (ز): (قد قال).

(٤) لوحة (١٠٥/ أ).

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ
فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ
بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم
بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ
سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)﴾

لما قامت علىٰ فرعون الحُجَّة بالبَيَان والعقل، عدل إلىٰ أن يقهر مُوسَىٰ بِيَدِهِ وسُلْطَانِهِ، وظنَّ أنَّهُ ليس وراء هذا المقام مقال(١) فقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾. فعند ذلك قال موسىٰ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي: ببرهانٍ قاطعٍ واضحٍ.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ واضحٌ في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائمَ وفَمٍ كبيرٍ، وشكل هائلٍ مزعجٍ.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: مِن جَيْبِهِ ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي: تتلألأُ كقطعةٍ من القَمَر. فبادر فرعون(٢) - بشقائه - إلىٰ التَّكذيب والعناد، فـ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فاضلٌ بارعٌ في السِّحر. فَرَوَّج عليهم فرعون أنَّ هذا من قبيل السِّحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيَّجهم وحرَّضهم علىٰ مخالفته، والكفر به. فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أي: [أراد أن](٣) يذهب بقلوبِ النَّاس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم علىٰ دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به؟

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [أي: أخِّره وأخاه حتىٰ تجمع له من مِدائِن مملكتك وأقاليم دولتِكَ كل سحَّارٍ عليمٍ](٤) يقابلونه(٥)، ويأتون بنظيرِ ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النُّصرة والتَّأييد. فأجابهم إلىٰ ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالىٰ لهم في ذلك؛ لِيَجْتَمِع الناس في صعيدٍ واحدٍ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه علىٰ النَّاس في النَّهار جهرةً.

---

(١) في (ز): (مقام).
(٢) لوحة (١٠٥/ ب).
(٣) سقط من (ز).
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) في (ز): (يقاتلونه).

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ذكر تعالىٰ هذه المناظرة العقليَّة[(١)] بين موسىٰ والقبط في «سورة الأعراف» وفي «سورة طه»، وفي هذه السورة، وذلك أنَّ القبط أرادوا أنَّ يطفئوا نورَ الله بأفواههم، فأبَىٰ الله إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨]، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء:٨١]، ولهذا لما جاء السَّحرة، قد جمعوهم من أقاليم بلادِ مصر، وكانوا إذ ذاكَ أسحرَ النَّاس وأصنعهم وأشدَّهم تخييلًا في ذلك، وكان السَّحرة جمعًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا، قيل: كانوا اثني عشر ألفًا. وقيل: خمسة عشر ألفًا. وقيل: سبعة عشر ألفًا، [وقيل: تسعة عشر ألفًا. وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا][(٢)]، وقيل: ثمانين ألفًا. وقيل غير ذلك، والله أعلم بعِدَّتِهم.

قال ابن إسحاق: وكان أمرهم راجعًا إلىٰ أربعة منهم وهم رُؤساؤهم: وهم: ساتُور وعازُور وحَطحَط ويَصْفىٰ.

واجتهد[(٣)] الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾، ولم يقولوا: نَتَّبع الحقَّ سواء كان من السَّحرة أو مِن موسىٰ[(٤)]، بل الرَّعيَّة علىٰ دِينِ[(٥)] مَلِكِهم. ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أي: إلىٰ مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقًا[(٦)]، وجمع حشمَهُ وخدَمَهُ وأمراءَهُ ووزراءَهُ ورؤساء دولتِهِ وجنودَ مملكتِهِ، فقام السَّحرة بين يدي فرعون يطلبُون منه الإحسان إليهم والتَّقرُّب إليه إن غلبوا؛ أي: هذا الذي جمعتنا مِن أجله، فقالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وأخصُّ ممَّا تطلبون أجعلكم من المُقرَّبين عندي وجلسائي. فعادوا إلىٰ مقام المناظرة ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، وقد اختُصِرَ هذا هاهنا فقال لهم موسىٰ: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ

---

(١) في بعض النسخ: (الفعلية)، والمثبت من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) في (ز): (وحشر).

(٤) كما قالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، بدلًا من أن يقولوا: فاهدنا إليه!!

(٥) لوحة (٦/١٠٦ أ).

(٦) كذا في (ز)، وجاء في ط: «الشعب» (٦/ ١٥٠): (كذا، ولا ندري ما المقصود بالوطاق. ولعله من عامية أهل الشام). اهـ.

وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئا: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في سورة «الأعراف»: أنهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، وقال في «سورة طه»: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٦، ٦٩].

وقال هاهنا: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: تخطفه وتجمعه من كلِّ بقعةٍ وتبتلعه فلم تدع منه شيئًا.

قال تعالىٰ: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف:١١٨-١٢٢] وكان هذا أمرًا عظيمًا جدًّا، وبرهانًا قاطعًا للعذرِ وحجَّةً دامغةً، وذلك أن الَّذين استنصر بهم وطلب منهم أن يَغْلِبُوا، قد[1] غُلِبُوا وخضعوا وآمنوا بموسىٰ في السَّاعة الرَّاهنة، وسجدوا لله ربِّ العالمين، الَّذي أرسل موسىٰ وهارون بالحقِّ وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحًا جريئًا عليه لعنة الله، فعدل إلىٰ المكابرة والعناد ودعوىٰ الباطل، فشرع يَتَهَدَّدُهم ويتوعَّدُهم، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٢٣].

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

تهدَّدهم فلم يقطع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانًا[2] وتسليمًا. وذلك أنَّه قد كُشِفَ عَن قلوبهم حجابُ الكفر، وظهر لهم الحقُّ بعلمهم ما جهل قومهم، مِن أنَّ هذا الذي جاء به موسىٰ لا يصدر عن بَشَرٍ، إلا أن يكون الله قد أيَّده به، وجعله له حجةً ودلالةً علىٰ صدق ما جاء به من ربِّه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ أي: كان ينبغي أن تَسْتَأْذِنُوني فيما فعلتم، ولا تفْتَاتُوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. وهذه مكابرةٌ يعلم كل أحدٍ بُطلانها، فإنَّهم لم يجتمعوا بموسىٰ قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الَّذي أفادهم صناعةَ السِّحر؟ هذا لا يقوله عاقلٌ.

ثم توعَّدهم فرعونُ بقطع الأيدي والأرجلِ والصَّلب، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا حرج ولا

---

(١) في (ز): (منه غلبوا).
(٢) لوحة (١٠٦/ ب).

يَضُرُّنا ذلك ولا نبالي به ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: المرجع إلىٰ الله، وهو لا يُضِيعُ أجر مَنْ أحسن عملًا ولا يخفىٰ عليه ما فعلت [بنا] (١)، وَسَيَجْزِينا علىٰ ذلك أتم الجزاءِ؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكْرَهْتَنَا عليه مِنَ السِّحر، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب أَنَّا بَادَرْنَا قومَنَا من القِبطِ إلىٰ الإيمان. فقتلهم كلهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

لما طال مُقام موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه علىٰ فرعون وملئِهِ، وهم مع ذلك يُكابِرُون ويُعَانِدُون، لم يَبْقَ لهم إلَّا العذاب والنَّكال، فأمر الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يخرج ببني إسرائيل ليلًا من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤْمَر، ففعل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أمره به ربه عَزَّ وَجَلَّ. خرج بهم بعدما استعاروا مِن قوم فرعون حليًّا كثيرًا، وكان خروجه بهم، فيما ذكر غير واحدٍ من المفسِّرين، وقت طلوع القمر. وذكر مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّهُ كُسِف القمر تلك الليلة، فالله أعلم، وأنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل عن قبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فدلَّته امرأةٌ عجوزٌ من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، ويقال: إنه هو الذي حمله بنفسه -عليهما السلام- وكان يوسف قد أوصىٰ بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يَحْمِلُوه مَعَهُم، وقد ورد في ذلك حديثٌ رواه ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال:

حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا عبد الله بن عمر بن [محمَّد بن] (٢) أبان بن صالح، حدَّثنا ابن فضيل (٣) عن عبد الله بن أبي إسحاق، عن ابن أبي بردة، [عن أبيه] (٤)، عن أبي موسىٰ قال: نزل رسول الله ﷺ بأعرابيٍّ (٥) فأكرمه، فقال له رسول الله ﷺ: تعاهدنا. فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ: «[مَا] (٦) حَاجَتُكَ؟» قال: ناقة برحلها وأعْنُز يحتلبها أهلي، فقال: «أَعَجَزْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟» فقال له أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله؟ قال: «إِنَّ مُوسَىٰ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسِيرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَقَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: نَحْنُ نُحَدِّثُكَ، إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللهِ أَلَّا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّىٰ نَنْقُلَ تَابُوتَهُ مَعَنَا، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ: فَأَيُّكُمْ يَدْرِي أَيْنَ قَبْرُ يُوسُفَ؟ قَالُوا: مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَجُوزٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَرْسَلَ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) سقط من (ز)، والمثبت هو الصواب وهو موافق لما في «ابن أبي حاتم».
(٣) في (ز): (ابن فضل). وهو تصحيف.
(٤) سقط من (ز).
(٥) لوحة (١٠٧/ أ).
(٦) سقط من (ز).

إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: دُلِّينِي عَلَىٰ قَبْرِ يُوسُفَ. فَقَالَتْ: وَاللهِ لَا أَفْعَلُ حَتَّىٰ تُعْطِيَنِي حُكْمِي. قَالَ لَهَا: وَمَا حُكْمُكِ؟ قَالَتْ: حُكْمِي أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي الجَنَّةِ. فَكَأَنَّهُ ثَقُلَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ: أَعْطِهَا حُكْمَهَا. قَالَ: فَانْطَلَقَتْ مَعَهُمْ إِلَىٰ بُحَيْرَةٍ -مستنقع ماء- فَقَالَتْ لَهُمْ: أَنْضِبُوا (١) هَذَا المَاءَ. فَلَمَّا أَنْضَبُوهُ قَالَتْ: احْتَفِرُوا، فَلَمَّا احْتَفَرُوا اسْتَخْرَجُوا قَبْرَ يُوسُفَ، فَلَمَّا احْتَمَلُوهُ إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ»(٢). هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، والأقرب أنَّه موقوفٌ، والله أعلم.

فلمَّا أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيبٌ، غاظ ذلك فرعون واشتدَّ غضبه علىٰ بني إسرائيل؛ لما يُريد الله به من الدَّمار، فأرسل سريعًا في بلاده حاشِرين؛ أي: مَنْ يحشر الجندَ ويجمعه، كالنُّقباء والحُجَّاب، ونادىٰ فيهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ -يعني: بني إسرائيل- ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: لطائفةٌ قليلةٌ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يَغِيظنا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: نحن كل وقتٍ نَحْذَر من غائلتهم، وإنِّي أُريد أن أستأصل شَأْفتَهُم، وأُبيدَ خضراءهم. فجُوزِيَ في نفسه وجُنْدِه بما أراد لهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: فخرجوا من هذا النَّعيم إلىٰ الجَحِيم، وتركوا تلك المَنَازِل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدُّنيا.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ(٣)﴾ [القصص:٥، ٦].

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

---

(١) نَضَبَ الماءُ -من باب قَعَد-: إذا ذهب في الأرض.

(٢) حسن: رواه أبو يعلىٰ (١٣/ ٢٣٦)، وابن حبان (٧٢٣). وإسناده حسن: ولكن قال ابن كثير: هذا حديث غريبٌ جدًّا، والأشبه أنه موقوف.

قلت: ومثله لا يقال بالرأي. فهو في حكم المرفوع.

(٣) لوحة (١٠٧/ ب).

ذكر غير واحدٍ من المفسِّرين أن فرعون خرج في جَحْفَلٍ عظيمٍ وجمعٍ كبيرٍ، وهو عبارة عن مملكة الديار المصريَّة في زمانه، أولي الحل والعقد والدول، مِن الأمراء والوزراء والكبراء والرُّؤساء والجنود، فأمَّا ما ذكره غير واحدٍ من الإسرائيليات[١]، من أنَّه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألفٍ علىٰ خَيلٍ دُهْمٍ، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم، ففي ذلك نظر. والظاهر أنَّه من مجازفات بني إسرائيل والله ﷻ أعلم. والذي أخبر به هو النَّافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحتَهُ، إلا أنَّهم خرجوا بأجمعهم.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: رأىٰ كلٌّ من الفريقَيْن صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وذلك أنه انتهىٰ بهم السَّير إلىٰ سِيفِ البحر[٢]، وهو بحر القُلْزُم، فصَار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنُودِهِ، فلهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي: لا يصل إليكم شيءٌ ممَّا تحذرون، فإن الله، سبحانه، هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد.

وكان هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقدمة، ومعه يُوشَع بن نون، [ومؤمن آل فرعون وموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في السَّاقة، وقد ذكر غير واحدٍ من المفسِّرين: أنَّهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون][٣]، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسىٰ ﷺ: يا نبي الله، هاهنا أمرك الله أَن تَسِير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبقَ إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيَّه موسىٰ أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، وقال: انْفَلِقْ بإذن الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا صفوان بن صالح، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا محمَّد بن حمزة بن [محمَّد بن][٤] يوسف بن[٥] عبد الله بن سلام: أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما انتهىٰ إلىٰ البحر قال: يا مَن كان قبل كل شيءٍ والمكوِّن لكلِّ شيءٍ، والكائن قبل[٦] كل شيءٍ، اجعل لنا مخرجًا. فأوحىٰ الله إليه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾.

وقال قتادة: أوحىٰ الله تلك الليلة إلىٰ البحر أَنْ إذا ضربك موسىٰ بعصاه فاسمع له وأَطِع، فبات البَحْر تلك الليلة، وله [اضطراب][٧]، ولا يدري من أيِّ جانبٍ يضربه موسىٰ، فلما انتهىٰ إليه موسىٰ قال له فتاه

---

(١) تقدَّم الكلام علىٰ الإسرائيليات وأقسامها في «مقدمة التحقيق»، وفي أول التفسير.
(٢) سِيفُ البحر: شاطئه، وبحر القُلْزُم: هو البحر الأحمر.
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.
(٥) في (ز): (عن عبد الله بن سلام)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».
(٦) في (ز): (بعد)
(٧) في (ز): (ولم) ثم بياض مكان كلمة اضطراب المثبتة هنا.

يوشع بن نون: يا نبيَّ الله، أين أمرك ربك؟ قال[1]: أمرني أن أضرب البحر. قال: فاضربه.

وقال محمَّد بن إسحاق: أوحىٰ الله - فيما ذكر لي - إلىٰ البحر: أنْ إذا ضربك موسىٰ بعصاه فانفلق له. قال: فبات البحر يضرب بعضه بعضًا، فَرَقًا من الله تعالىٰ، وانتظارًا لما أمره الله، وأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾، فضربه بها وفيها سلطان الله الذي أعطاه، فانفلق.

وذكر غير واحدٍ أنه كناه فقال: انفلق عليَّ [أبا خالد[2]][3] بحول الله.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل الكبير. قاله ابن مسعود، وابن عبَّاس، ومحمَّد بن كعب، والضَّحَّاك، وقتادة، وغيرهم.

وقال عطاء الخُرَاساني: هو الفَجُّ بين الجبلين.

وقال ابن عبَّاس: صار البحر اثني عشر طريقًا، لكل سِبْطٍ طريقٌ، وزاد السُّدِّي: وصار فيه طاقاتٌ ينظر بعضُهم إلىٰ بعضٍ، وقام الماءُ علىٰ حَيْلِهِ[4] كالحيطان، وبعث الله الريح علىٰ قعر البحر فَلَفَحَتْهُ، فصار يَبَسًا كوجه الأرض، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧].

وقال في هذه القصة: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ أي: هنالك ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾.

قال ابن عبَّاس، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسُّدِّي: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي: قربنا فرعون وجنوده من البَحْر وأدنيناهم إليه.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: أنجَيْنا موسىٰ وبني إسرائيل ومَن معهم علىٰ دينهم فلم يهلِكْ منهم أحدٌ، وأُغْرِق فرعون وجنوده، فلم يبقَ منهم رجلٌ إلَّا هلك.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أبو بكر ابن أبي شيبة، حدَّثنا شبابة، حدَّثنا يونس ابن أبي إسحاق، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله - هو ابن مسعود -: أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أَسْرَىٰ ببني إسرائيل بلغ فرعون [ذلك][5]، فأمر بشاةٍ فذبحت، ثم قال: لا والله لا يفرغ من سلخها حتىٰ يجتمع إليَّ ستمائة ألف مِن القبط. فانطلق موسىٰ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ البحر، فقال له: انفرق. فقال البحر: لقد استكبرت يا موسىٰ، وهل انفرقت لأحدٍ من ولد آدم فأنفرق لَكَ؟ قال: ومع موسىٰ رجلٌ علىٰ حصانٍ له، فقال له ذلك الرجل: أين أُمِرْتَ يا نبيَّ الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه [يعني: البحر، فأَقْحَم فرسه، فسَبح به فخرج، فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه][6]. قال: والله ما كَذَبت ولا

---

(١) لوحة (١٠٨/ أ).

(٢) أبو خالدٍ: كُنْية الكلْبِ والثَّعْلبِ، كما في (المزهر). وكُنْية البحْرِ أيضـًا، كما في (الرَّوض) للسُّهيليِّ. «تاج العروس»: (٨/ ٦٥).

(٣) في (ز): (انفلق علي إنه بحول الله).

(٤) أي: انتصب.

(٥) سقط من (ز).

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

كُذِبت. ثم اقتحم الثانية فسبح، ثم خرج فقال: أين أمرت يا نبيَّ الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه! قال: والله ما كَذَبت ولا كُذِبت. قال: فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ أن اضرب بعصاك البحر، فضربه موسىٰ بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقًا[1]، لكل سِبطٍ طريقٌ يتراءون، فلما خرج أصحاب موسىٰ وتَتَامَّ أصحابُ فرعون، التقىٰ البحر عليهم فأغرقهم[2].

وفي رواية إسرائيل[3]، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله قال: فلما خَرَج آخر أصحاب موسىٰ، وتكامل أصحاب فرعون، اضطَمَّ عليهم البحر، فما رُئِي سوادٌ أكثر من يومئذٍ، وغرِق فرعون لعنه الله.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتَّأْيِيدِ لعباد الله المؤمنين؛ لدلالةً وحجةً قاطعةً وحكمةً بالغةً، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، تقدم تفسيره.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

هذا إخبارٌ مِن الله تعالىٰ عن عبده ورسولِهِ وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمَّدًا -صلوات الله وسلامه عليه- أن يتلوَهُ علىٰ أُمَّته؛ ليقتدوا به في الإخلاص والتَّوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتَّبرؤِ مِن الشرك وأهله؛ فإن الله تعالىٰ آتىٰ إبراهيم رُشْدَه مِن قبل؛ أي: من صِغَرِه إلىٰ كِبَرِه، فإنَّه من وقت نَشَأ وشَبَّ، أنكر علىٰ قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ فقال ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾؟ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي: مقيمين علىٰ عبادتها ودعائها، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئًا من ذلك، وإنَّما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم علىٰ آثارهم يُهرَعُون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئًا ولها تأثير، فَلْتَخْلُص إليَّ بالمساءَةِ، فإني عدوٌّ لها لا أُبَالِيها ولا أُفكِّر فيها. وهذا كما قال تعالىٰ مخبرًا عن نوح ﵇: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١]، وقال هود ﵇: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ

---

(١) في (ز): (اثنا عشر سبطًا).

(٢) رجاله ثقات: رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٤٠).

(٣) لوحة (١٠٨/ ب).

وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٤-٥٦]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام:٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ[(١)] الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨]، يعني: لا إله إلا الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾
وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

يعني: لا أَعْبُد إلَّا الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: هو الخالق الذي قدَّر قدرًا، وهدىٰ الخلائق إليه، فكُلٌّ يجري علىٰ [ما][(٢)] قدر، وهو الذي يَهْدِي مَن يشاء ويُضِلُّ مَن يشاء.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي: هو خالقِي ورازقِي، بما سخَّر ويَسَّر من الأسباب السماويَّة والأرضيَّة، فساقَ المُزْنَ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كلِّ الثَّمرات رزقًا للعباد، وأنزل الماء عذبًا زلالًا لـ ﴿نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلىٰ نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخَلْقِه، ولكن أضافه إلىٰ نفسه أدبًا، كما قال تعالىٰ آمرًا للمصلي أن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، فأسند الإنعام إلىٰ الله ﷻ والغضب حُذِف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلىٰ العبيد[(٣)]، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]؛ ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي: إذا وقعت في مرضٍ فإنَّه لا يَقْدِر علىٰ شفائي أحدٌ غيره، بما يقدرُ من الأسباب الموصلة إليه.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يَقْدِر علىٰ ذلك أحدٌ سواهُ، فإنَّه هو الذي يُبْدِئ ويُعِيد.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: هو الذي لا يَقْدِر علىٰ غَفْر الذُّنوب في الدُّنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعَّال لما يشاء.

---

(١) لوحة (١٠٩/ أ).
(٢) ليست في (ز).
(٣) وكما في الحديث المرفوع: «... والشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ». «صحيح مسلم» (٧٧١).

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

وهذا سؤالٌ من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه [ربه][1] حُكْمًا.

قال ابن عبَّاس: وهو العلم. وقال عكرمة: هو اللُّب. وقال مجاهد: هو القرآن. وقال السُّدِّي: هو النُّبوَّة[2]. وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: اجعلني مع الصالحين في الدُّنيا والآخرة، كما قال النَّبيُّ ﷺ عند الاحتضار: [«اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَىٰ»[3] قالها ثلاثًا. وفي الحديث في الدعاء:][4] «اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَمِتْنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مُبَدِّلِينَ»[5].

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: واجعل لي ذكرًا جميلًا بعدي أُذْكَرُ به، ويُقْتَدَىٰ بي في الخير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٨-١١٠].

قال مجاهد، وقتادة: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[6] يعني: الثناء الحسن. قال مجاهد: وهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، وكقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢].

وقال ليث بن أبي سُلَيم: كل ملَّةٍ تحبه وتتولَّاه. وكذا قال عكرمة.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي: أَنْعِمْ عليَّ في الدُّنيا ببقاء الذكر الجميل بعدِي، وفي الآخرة بأن تجعلني مِن ورثة جنَّة النَّعيم.

وقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ كقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم:٤١]، وهذا

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (١٠٩/ ب).
(٣) البخاري (٦٥٠٩)، ومسلم (٢١٩١).
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) رواه أحمد (٣/ ٤٢٤). و«معجم البغوي» (٦٨٤)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤١٢٣ - بتحقيقي)، والحاكم (١/ ٦٨٧) وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٤١) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»، رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح. وقد توسع في تخريج طرقه الشيخ شعيب الأرنؤوط في «تخريجه علىٰ المسند» فراجعه إن شئت.
(٦) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: وقد استجاب الله تعالىٰ له حيث اجتمع أهل الأديان علىٰ الثناء عليه والانتساب إلىٰ ملته، وإن كانوا مُبْطِلين لما خالطهم من الشرك، وها هي ذي أمة الإسلام لا تُصلي صلاة إلَّا وتصلي عليه وعلىٰ آله، فهذا ذكر حسن خالد وثناء عطر باقٍ، قال مالك: لا بأس أن يحب المرء أن يُثْنَىٰ عليه صالحًا ويُرىٰ في عمل الصالحين إذا قصد به وجه الله تعالىٰ لهذه الآية وغيرها نحو: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

مما رجعَ عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]. وقد قطع تعالىٰ الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة:٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: أجرني مِن الخزي يوم القِيامَة و[يوم][1] يبعث الخلائق أوّلهم وآخرهم.

قال البخاري في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾: وقال إبراهيم بن طَهْمان، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري، [عن أبيه][2]، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ رَأَىٰ أَبَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ**»[3][4].

حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا أخي، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنَّكَ لا تُخْزِيَنِي**[5] **يَوْمَ يُبْعَثُونَ. فَيَقُولُ اللهُ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَىٰ الكَافِرِينَ**».

هكذا رواه[6] عند هذه الآية. وفي (أحاديث الأنبياء) بهذا الإسناد بعينه منفردًا به، ولفظه: «**يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَلَّا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَىٰ الكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟! فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ**[7] **مُتَلَطِّخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ**»[8].

وقال أبو عبد الرحمن النَّسائي في التفسير من «سننه الكبير» قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾: أخبرنا أحمد ابن حفص بن عبد الله، حدَّثني أبي، حدَّثني إبراهيم بن طَهْمَان، عن محمَّد بن عبد الرحمن، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ رَأَىٰ أَبَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ الغَبَرَةُ وَالقَتَرَةُ، وَقَالَ لَهُ: قَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا فَعَصَيْتَنِي. قَالَ: لَكِنِّي اليَوْمَ لا أَعْصِيكَ وَاحِدَةً. قَالَ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَإِنْ أَخْزَيْتَ أَبَاهُ فَقَدْ أَخْزَيْتَ الأَبْعَدَ. قَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، إِنِّي حَرَّمْتُهَا عَلَىٰ الكَافِرِينَ. فَأُخِذَ**

---

(١) سقط من (ز).
(٢) سقط من (ز)، وأثبتناها من البخاري.
(٣) البخاري (٤٧٦٨).
(٤) القَتَرَة: الغبرة أيضًا.
(٥) في البخاري (٤٧٦٩): «تخزني».
(٦) لوحة (١١٠/ أ).
(٧) الذِّيخ: ذكر الضبع.
(٨) البخاري (٤٧٦٩، ٣٣٥٠).

مِنْهُ، قَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَنْتَ أَخَذْتَهُ مِنِّي. قَالَ: انْظُرْ أَسْفَلَ مِنْكَ. فَنَظَرَ فَإِذَا ذِيخٌ يَتَمَرَّغُ فِي نَتَنِهِ، فَأُخِذَ بِقَوَائِمِهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ». هذا إسنادٌ غريبٌ، وفيه نكارة(١).

والذِّيخ: هو الذكر من الضباع، كأنَّه حوَّل آزر إلىٰ صورة ذِيخٍ متلطِّخٍ بعَذِرَتِهِ، فيلقىٰ في النار كذلك.

وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ، وفيه غرابة. ورواه أيضًا من حديث قتادة، عن جعفر بن عبد الغافر، عن أبي سعيدٍ، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لا يقِي المرءَ من عذاب الله ماله، ولو افتدىٰ بملء الأرض ذهبًا، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ ولو افتدىٰ بِمَنْ في الأرض جميعا، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاص الدين له، والتبرِّي من الشرك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي: سالم من الدنس والشرك.

قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يَعْلَمَ أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور.

وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ حَيِي يشهد أن لا إله إلا الله(٢).

وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ يعني: من الشرك.

وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب [الكافر و](٣) المنافق مَرِيضٌ، قال الله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال أبو عثمان النَّيْسَابُورِي: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن علىٰ السُّنَّة.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ٩٣ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ٩٥ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ﴾ أي: قُرِّبت الجنة وأُدْنِيت من أهلها يوم القيامة مزخرفةً مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها، وعملوا لها [عملها](٤) في الدنيا.

---

(١) صحيح: «سنن النسائي الكبرىٰ» (١١٣٧٥).
(٢) لوحة (١١٠/ ب).
(٣) ليست في (ز).
(٤) ليست في (ز).

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي: أُظهِرَتْ وكُشِفَ عنها، وبدت منها عُنقٌ[1]، فزفرت زَفْرة بلغت منها القلوب إلىٰ الحناجر، وقيل لأهلها تقريعا وتوبيخا: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تُغني عنكم اليوم شيئًا، ولا تدفع عن أنفسها؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جَهَنم أنتم لها واردون.

وقوله: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ قال مجاهد: يعني: فَدُهْوِرُوا[2] فيها.

وقال غيره: كُبِّبوا فيها. والكاف مكررة، كما يقال: صرصر. والمراد: أنه ألقي بعضهم علىٰ بعض، من الكفار وقادتهم الذين دَعَوْهم إلىٰ الشرك.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أي: ألقوا فيها عن آخرهم.

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ [غافر:٤٧]. ويقولون -وقد عادوا علىٰ أنفسهم بالملامة-: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع ربِ العالمين.

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: ما دعانا إلىٰ ذلك إلا المجرمون.

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف:٥٣]. وكذا قالوا: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أي: قريب.

قال قتادة: يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأنَّ الحميم إذا كان صالحًا شفع.

﴿ فَلَوْ أَنَّ[3] لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يُرَدُّونَ إلىٰ الدار الدنيا؛ ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو ﷻ، يعلم أنه لو ردهم إلىٰ الدار الدنيا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالىٰ عن تَخاصُم أهل النَّار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص:٦٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي: إن في مُحاجَّة إبراهيم لقومه وإقامتِهِ الحججَ عليهم في التوحيد - لآيةً ودلالةً واضحةً جلية علىٰ أنَّه لا إله إلا الله، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ

---

(١) أي: قطعة منها.

(٢) قال الزجاج في قوله: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾؛ أي: في الجحيم، قال: ومعنىٰ كبكبوا: طُرِحَ بعضهم علىٰ بعض، وقال غيره من أهل اللغة: معناه دُهْوِرُوا، ودَهْوَرَ: سَلَحَ، ودَهْوَرَ كلامَه: قَحَّمَ بعضَه في إِثْر بعض، ودَهْوَرَ الحائط: دفعه فسقط. «اللسان»: دَهَرَ، وانظر: كَبَبَ.

(٣) لوحة (١١١/ أ).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾

هذا إخبارٌ من الله ﷻ، عن عبده ورسوله نوح ﵇، وهو أوَّل رسول بُعِث إلىٰ الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهيًا عن ذلك، ومحذِّرًا من وَبيل عقابه، فكذَّبه قومه واستمرُّوا علىٰ ما هم عليه مِن الفعال الخَبيثَة في عبادتهم أصنامهم، ويتنزَّل تكذيبهم له بمنزلة تكذيبِ جميع الرُّسل؛ ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ أي: إنِّي رسول من الله إليكم، أَمِين فيما بَعَثَنِي به، أبلغكم رسالة الله لا أَزِيد فيها ولا أنقص منها، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا أطلُب منكم جزاءً علىٰ نُصْحِي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به وائْتَمَنَنِي عليه.

﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝١١٥﴾

يقولون: أَنُؤْمن لك ونتَّبعك، ونتساوىٰ في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتَّبعوك وصدَّقوك، وهم أراذلنا؛ ولهذا قالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؟ أي: وأي شيءٍ يلزمني من اتِّباع هؤلاء لي، ولو كانوا علىٰ أيِّ شيء كانوا عليه لا يلزمني التَّنقيب عنه والبحث والفحص، إنَّما عليَّ أن أقبل منهم[(١)] تَصْدِيقَهُم إِيَّاي، [وَأَكِلَ][(٢)] سرائرهم إلىٰ الله ﷻ، ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليُتَابِعُوه، فأبىٰ عليهم ذلك، وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: إنَّما بُعِثْت نذيرًا، فمن أطاعني واتَّبعني وصدَّقَنِي كان مني وكنت منه، سواء كان شريفًا أو وضيعًا، أو جليلًا أو حقيرًا.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١٨ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ۝١٢٠ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٢﴾

---

(١) لوحة (١١١/ ب).
(٢) سقط من (ز).

لما طال مقام نبيِّ الله بين أظهرهم يدعوهم إلىٰ الله ليلًا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا[(١)]، وكلما كرر عليهم الدَّعوة صمَّمُوا علىٰ الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أي: عن دعوتك إيانا إلىٰ دينك يا نوح ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لنرجمنَّك. فعند ذلك دعا عليهم دعوةً استجاب الله منه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٠-١٤].

وقال هاهنا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾. والمشحون: هو المملوء بالأَمْتِعَة والأزواج التي حمل فيه مِن كلٍّ زوجين اثنين؛ أي: نجيناه ومَن معه كلَّهم، وأغرقنا مَنْ كذَّبه وخالف أمره كلَّهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾

وهذا إخبارٌ من [الله تعالىٰ عن][(٢)] عبده ورسوله هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه دعا قومه عادًا، وكانوا قومًا يسكنون الأحقاف، وهي: جبال الرَّمل قريبًا مِن بلاد حضرموت متاخمة لبلادِ اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوحٍ، [كما قال في «سورة الأعراف»: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ][(٣)] وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩]، وذلك أنَّهم كانوا في غاية من قوةِ التركيب، والقوَّة والبطش الشَّديد، والطُّول المديد، والأرزاق الدَّارَّة[(٤)]، والأموال والجنَّات والعيون، والأبناء والزُّروع والثِّمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلًا منهم رسولًا وبشيرًا ونذيرًا، فدعاهم إلىٰ الله وحده، وحذَّرهم نقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلىٰ أن قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾.

اختلف المفسرون في الرِّيع بما حاصله: أنَّه المكان المرتفع عند جَوَادِّ[(٥)] الطُّرُق المشهورة.

---

(١) قبلها في (ز): (سرًّا وإجهارًا)، ثم ضُرِبَ عليها.
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) لوحة (١١٢/ أ).
(٥) الجَوَادُّ: جمع جادَّة، وهي الطريق الأعظم الذي يجمع الطرق ولابد من المرور عليه.

تبنون هناك بناء محكمًا باهرًا هائلًا؛ ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ أي: معلمًا بناءً مشهورًا، ﴿تَعْبَثُونَ﴾، وإنَّما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللَّعب واللَّهو وإظهار القوَّة؛ ولهذا أنكر عليهم نبيُّهم عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك؛ لأنَّه تضييعٌ للزَّمان وإتعابٌ للأبدانِ في غير فائدةٍ، واشتغالٌ بما لا يُجْدِي في الدُّنيا ولا في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. قال مجاهد: المصانع: البروج المَشِيدَة، والبُنْيَان المخلد. وفي رواية عنه: بروج الحمام.

وقال قتادة: هي مأخذ الماءِ. قال قتادة: وقرأ بعض القراء: «وتتَّخِذُون مصانع كأنَّكم خالدون».

وفي القراءة المشهورة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: لكي تقيموا فيها [أبدًا][(١)]، وليس ذلك بحاصلٍ لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمَّن كان قبلكم.

قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا أبي، حدَّثنا الحكم بن موسىٰ، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا ابن عَجْلان، حدَّثني عَوْن بن عبد الله بن عتبة، أن أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأىٰ ما أحدث المُسْلِمُون في الغُوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادىٰ: يا أهل دِمْشَق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: ألا تستحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما لا تَأْكُلُون، وتبنون ما لا تسكنون، وتَأْمُلُون ما لا تدركون، إنه كانت قبلكم قرون، يجمعون فَيُوعُون، ويبنون فَيُوثِقُون، ويأمُلُون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورًا، وأصبح جمعهم بورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن وعُمَان خيلًا وركابًا، فمن يشتري مني ميراث عادٍ بدرهمين؟[(٢)].

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم.

ثم شرع يذكِّرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلىٰ الله بالتَّرغيب والتَّرهيب، فما نفع فيهم.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[(٣)] ﴿١٤٠﴾﴾

---

(١) سقط من (ز).
(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٥٨٤٠)، وأبو داود في «الزهد» (٢٤٧)، وإسناده حسن.
(٣) لوحة (١١٢/ ب).

يقول تعالىٰ مخبرًا عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم، وَرَغَّبَهُم ورهَّبهم، وبيَّن لهم الحق ووضحه: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أي: لا نرجع عما نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٥٣]، وهكذا الأمر؛ فإن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: قرأ بعضهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خَلْقُ﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام.

قال ابن مسعود، والعَوْفي، عن عبد الله بن عبَّاس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون: ما هذا الذي جِئْتَنا به إلا أَخْلاق الأوَّلين. كما قال المشركون من قريش: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ [ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٤، ٥]، وقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾][1] [النحل: ٢٤].

وقرأ آخرون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ - بضم الخاء واللام[2] - يعنون: دينهم وما هم عليه مِن الأمر هو دين الأوائل مِن الآباء والأجداد. ونحن تَابِعُون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعثَ ولا مَعَادَ؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

[قال][3] علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: دين الأولين. وقاله عكرمة، وعطاء الخُراساني، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: فاستمروا علىٰ تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بيَّن سبب إهلاكه إيَّاهم في غير موضع من القرآن بأنَّه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية؛ أي: ريحًا شديدةَ الهبوب ذات بردٍ شديدٍ جدًّا، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتىٰ شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتىٰ منهم وأشد قوة، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر:٦، ٧]، وهم عاد الأولىٰ، كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم:٥٠]، وهم من [نسل][4] إِرَمَ بن سام بن نوح. ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أي: الذين كانوا يسكنون العمد. ومن زَعَم أن «إرم» مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل. ولهذا قال: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٨]؛ أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يُبْنَ مثلها في البلاد، وقال:

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) متواترة: قَرَأَ (خُلُقُ) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (خَلْقُ).

(٣) بياض في (ز). (٤) سقط من (ز).

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وقد قدَّمنا أن الله تعالىٰ لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور[(١)]، عَتَتْ علىٰ الخَزَنة، بإذن الله لها في ذلك، وسلكت وحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧]؛ أي: كاملة ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]؛ أي: بقُوا أبدانًا بلا رءوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه علىٰ أُمّ رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلىٰ أنصافهم، فلم يُغنِ عنهم ذلك من أمر الله شيئًا، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٤٥﴾

وهذا إخبارٌ من الله ﷻ، عن عبده ورسوله صالح ؑ أنه بعثه إلىٰ قوم ثمود، وكانوا عربًا يسكنون مدينة الحِجْر، التي بين وادي القُرىٰ وبلاد الشام، ومساكنهم معروفةٌ مشهورةٌ.

وقد قدمنا في «سورة الأعراف» الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غَزْوَ الشام، فوصل إلىٰ تَبُوك، ثم عاد إلىٰ المدينة ليتأهب لذلك. وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل، عليه السلام. فدعاهم نبيهم صالح إلىٰ الله ﷻ، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرِّسالة، فأَبَوْا عليه وكذَّبوه وخالفوه. فأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجرًا منهم، وإنَّما يطلب ثواب ذلك من الله ﷻ، ثم ذكَّرهُم آلاء الله عليهم فقال:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾

يقول لهم واعظًا لهم ومحذِّرًا إياهم نِقَمَ الله أن تَحُلَّ بهم، ومُذَكِّرًا بأنعم الله عليهم فيما رزقَهم

---

(١) لوحة (١١٣/ أ).

من الأرزاق الدارَّة، وجعلهم في أمن من المحذورات. وأنبت لهم مِن الجنَّات، وأنبع لهم مِن العيون الجاريات، وأخرج لهم من[1] الزُّروع والثَّمرات؛ ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. قال العوفي، عن ابن عبَّاس: أينع وبَلَغ، فهو هضيمٌ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ يقول: مُعشبة.

وقال إسماعيل بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو - وقد أدرك الصحابة - عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: إذا رَطُبَ واسترخىٰ. رواه ابن أبي حاتم، قال: ورُوي عن أبي صالح نحو هذا.

وقال أبو إسحاق، عن أبي العلاء: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: هو المُذَنِّب من الرطب.

وقال مجاهد: هو الذي إذا كُبس تهشم وتفتت وتناثَرَ.

وقال ابن جريج: سمعت عبد الكريم أبا أمية، سمعت مجاهدا يقول: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: حين يطلعُ تقبض عليه فتهضمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليَابِس الهشيم، تقبض عليه فتهشمه.

وقال عكرمة وقتادة: الهضيم: الرطب الليِّن.

وقال الضَّحَّاك: إذا كثر حمل الثمرة، وركب بعضه بعضًا، فهو هضيم.

وقال مرَّة: هو الطَّلْعُ[2] حين يتفرق ويخضر.

وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوىٰ له.

وقال أبو صخر: ما رأيت الطلعَ حين يُشق عنه الكِمُّ[3]، فترىٰ الطلع قد لصِق بعضه ببعضٍ، فهو الهضيم.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ قال ابن عباسٍ، وغير واحدٍ: يعني: حاذقين. وفي رواية عنه: شَرِهين أَشِرين. وهو اختيار مجاهد وجماعة. ولا منافاة بينهما؛ فإنَّهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتَةَ في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجةٍ إلىٰ سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنَحْتِهَا ونَقْشِها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأىٰ منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أقْبِلُوا علىٰ عَمَل ما يعود نفُعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرةً وأصيلًا.

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدُّعاة لهم إلىٰ الشرك والكفر، ومخالفة الحق.

---

(١) لوحة (١١٣/ ب).

(٢) الطَّلْع من النخلِ: شيءٌ يَخْرُجُ كأنّه نَعْلانِ مُطبِقانِ، والحَمْلُ بينهما مَنْضُودٌ، والطَّرَفُ مُحَدَّدٌ، أو هو ما يبدو من ثَمَرَتِه في أوّلِ ظُهورِها. «تاج العروس»: (٢١/ ٤٤٩).

(٣) الكِم: غلاف التمر.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن ثمود في جوابهم لنبيِّهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلىٰ عبادة ربهم، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾. قال مجاهد، وقتادة: يعنون[١]: من المسحورين.

وروىٰ أبو صالح، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾: يعني: [من][٢] المخلوقين، واستشهد بعضهم علىٰ هذا القول بما قال الشاعر:

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحنُ؟ فإنَّنا عَصافِيرُ مِنْ هَذَا الأَنَامِ المُسَحَّرِ

يعني: الذين لهم سُحور، والسَّحر: هو الرئة.

والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحورٌ لا عقل لك.

ثم قالوا: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ يعني: فكيف أُوحِيَ إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرىٰ: ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦].

ثم إنَّهم اقترحوا عليه آيةً يأتيهم بها؛ ليعلموا صِدْقَه بما جاءهم به من رَبِّهم، فطلبوا منه، وقد اجتمع ملؤهم، أن يخرج لهم الآن مِن هذه الصخرة - وأشاروا إلىٰ صخرة عندهم - ناقةً عُشَراءَ من صفتها كذا وكذا فعند ذلك أخذ عليهم نبيُّ الله صالح العهود والمواثيق، لَئِن أجابهم إلىٰ ما سألوا لَيُؤمنُنَّ به، [وليصدِّقُنَّه][٣]، ولَيتبعُنَّه، فأنعموا[٤] بذلك. فقام [نبي الله][٥] صالح عليه السلام فصلىٰ، ثم دعا الله عز وجل، أن يجيبهم إلىٰ سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء، علىٰ الصِّفة التي وصفوها. فآمن بعضهم وكفر أكثرهم، ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ يعني: تَرِد ماءكم يومًا، ويومًا تَرِدُونَه أنتم، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ فحذَّرهم نقمة الله إن أصابوها بسوءٍ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر تَرِدُ الماء، وتأكل الورق والمرعىٰ. وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًّا، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا علىٰ قتلها وعقرها.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ وهو أن أرضهم زُلزلت زلزالا شديدًا، وجاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ اقتلعت القلوب عن محالِّها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

---

(١) لوحة (١١٤/ أ). (٢) ليست في (ز). (٣) سقط من (ز).
(٤) أي: قالوا له: نعم. (٥) سقط من (ز).

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالىٰ قد[١] بعثه إلىٰ أمةٍ عظيمةٍ في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون «سَدُوم» وأعمالَها التي أهلكها [الله بها][٢]، وجعل مكانها بحيرةً منتنةً خبيثةً، وهي مشهورةٌ ببلاد الغُور، متاخمة لجبال بيت المقدس، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك[٣]، فدعاهم إلىٰ الله عز وجل، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يُطِيعُوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، مما لم يسبقهم الخلائق إلىٰ فعله، من إتيان الذُّكْران دون الإناث؛ ولهذا قال تعالىٰ:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ[٤] بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

---

(١) لوحة (١١٤/ ب). (٢) سقط من (ز).

(٣) الكَرَك: قلعة حصينة جدا في طرف الشام، من نواحي البلقاء في جبالها. والشوبك: قلعة حصينة أيضًا في أطراف الشام، بين عَمَّان وأَيْلة.

(٤) قال الإمام القاسمي رحمه الله: ونقل السيوطيّ في «الإكليل» عن محمد بن كعب القُرَظيّ ، أن معنىٰ الآية : تذرون مثله من المباح . فاستدل بذلك علىٰ إباحة وطء الزوجة من دبرها . انتهىٰ . وخالفه غيره . فاستدل بها علىٰ حظره . وبيانه كما في «الكشاف» و «حواشيه» أنّ «مِنْ» إمّا تبيين لما خلق ، أو للتبعيض . ويراد به العضو المباح منهن ، تعريضًا بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم . ومن الوجه الثاني يستدل علىٰ حظر إتيان المرأة في غير المأتىٰ . وتقريره في «الانتصاف» أن «مِنْ» لو كانت بيانًا لكان المعنىٰ حينئذ علىٰ ذمهم بترك الأزواج . ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلىٰ إتيان الذكران . وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران ، لا أن ترك الأزواج وحده منكر . ولا كان الأمر كذلك ، لكان النصب في الثاني متوجهًا علىٰ الجمع . وكان إما الأفصح أو المتعين . وقد اجتمعت العامة – عامة القراء – علىٰ القراءة به مرفوعًا، ولا يتفقون علىٰ ترك الأفصح إلىٰ ما لا مدخل له في الفصاحة ، أو في الجواز أصلاً . فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنىٰ غير مراد ، فتعين حمل «مِنْ» علىٰ البَعْضيَّة . فيكون المنكر عليهم أمرين . كل واحد منهما مستقل بالإنكار : أحدهما إتيان الذكران . والثاني مجانبة إتيان النساء في المأتىٰ ، رغبة في إتيانهن في غيره . وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم علىٰ الوجه الأول ، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير. انتهىٰ .
ومثله من دَقيق الاستنباط الذي يوسع المدارك ويفتح للتفهم أبوابًا ، وإن أمكن أن يقال: إن سياق الآية في الملام لهم أعمّ مما ذكره ومن غيره . والله أعلم .

لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغِشْيَانِهم الذكور، وأرشدهم إلىٰ إتيان نسائِهم اللَّاتي خلقهن الله لهم - ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ يعنون: عمَّا جئتنا به، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: نَنْفيكَ من بين أظهرنا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]، فلما رأىٰ أنَّهم لا يَرْتَدِعُون عما هم فيه وأنهم مستمرون علىٰ ضلالتهم، تبرأ منهم فقال: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: المُبْغِضين، لا أُحِبُّه ولا أرضىٰ به؛ فأنا بريء منكم. ثم دعا الله عليهم قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال الله تعالىٰ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كلهم.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وهي امرأته، وكانت عجوزَ سوءٍ، بَقِيَت فهلكت مع مَنْ بَقِيَ من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالىٰ عنهم في «سورة الأعراف»، و«هود»، وكذا في «الحِجْر» حين أمره الله أن يسرِيَ بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يَلْتَفِتُون إذا سمعوا الصَّيحة حين تنزل علىٰ قومه، فصبروا لأمر الله واستمرُّوا، وأنزل الله علىٰ أولئك العذاب الذي عمَّ جميعهم، وأمطر عليهم حجارةً من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ[(١)] ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

هؤلاء - أعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين علىٰ الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسِهِم، وإنما لم يقل هاهنا: «أخوهم [شعيب]»[(٢)]؛ لأنهم نسبوا إلىٰ عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغَيضة كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ لم يقل: «إذ قال لهم أخوهم شعيب»، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطع نِسْبَة الأخوَّة بينهم؛ للمعنىٰ الذي نُسِبُوا إليه، وإن كان أخاهم نسبًا. ومن النَّاس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عليه السلام، بعثه الله إلىٰ أُمَّتَيْن، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أُمَمٍ.

وقد روىٰ إسحاق بن بشر الكاهلي - وهو ضعيف - حدَّثني ابن السُّدِّي، عن أبيه، وزكريا بن عمر، عن خُصَيف، عن عِكْرِمة قالا ما بعث الله نبيًّا مرتين إلا شعيبًا، مرَّةً إلىٰ مدين فأخذهم الله بالصَّيحة، ومرَّةً إلىٰ أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذابِ يوم الظُّلَّة.

وروىٰ أبو القاسم البغَوي، عن هُدْبَة، عن هَمَّام، عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ [ق:١٢] قوم شعيب، وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ [ق:١٤] قوم شعيب.

---

(١) لوحة (١١٥/ أ). (٢) سقط من (ز).

قال إسحاق بن بشر: وقال غير جُوَيْبر: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد. والله أعلم.

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة «شعيب»، من طريق محمَّد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد[(١)]، عن سعيد بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ قَوْمَ مَدْيَنَ وَأَصْحَابَ الأَيْكَةِ أُمَّتَانِ، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمَا شُعَيْبًا النَّبِيَّ عليه السلام»[(٢)].

وهذا غريبٌ، وفي رفعه نظرٌ، والأشبه أن يكون موقوفًا[(٣)]. والصحيح: أنهم أمةٌ واحدةٌ، وُصِفوا في كل مقامٍ بشيءٍ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدلَّ ذلك علىٰ أنهم أمةٌ واحدةٌ.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

يأمرهم تعالىٰ بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما[(٤)]، فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: إذا دفعتم إلىٰ الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا، وتأخذوه - إذا كان لكم - تامًا وافيًا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾: والقسطاس هو: الميزان، وقيل: القَبَّانُ[(٥)]. قال بعضهم: هو معربٌ من الرُّوميَّة.

قال مجاهد: القسطاس المستقيم: العدلُ - بالرومية. وقال قتادة: القسطاس: العدل.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: تَنْقُصوهم أموالَهم، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: يعني: قَطْع الطَّريق، كما في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ]﴾ [الأعراف:٨٦].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾، يخوِّفهم بأسَ الله الذي خلقهم وخلقَ آباءَهم الأوائل، كما قال موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات:١٢٦]. قال ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّي، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول: خُلُق الأولين. وقرأ ابن زيد: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس:٦٢].

---

(١) في (ز): (هشام بن سعيد)، والمثبت هو الصواب.

(٢) في إسناده ربيعة بن سيف: صدوق له مناكير، وسعيد بن أبي هلال: صدوق، وقال عنه أحمد: اختلط، فالإسناد ضعيف وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٩١) إلىٰ ابن مردويه وابن عساكر وقد ساقه المصنف في كتابه «البداية والنهاية» (١/ ٢١٩).

(٣) في (ز): (مرفوعًا)!! (٤) لوحة (١١٥/ ب).

(٥) القَبَّان -كشداد-: القسطاس، وفي «المعجم الوسيط»: قبن الشيء: وزنه بالقبان. (محدثة).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾
فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن جواب قومه له بمِثْل ما أجابت به ثمود لرسولها - تشابهت قلوبهم - حيث قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ يعنون: مِن المَسْحُورِين، كما تقدَّم.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: تتعمَّد الكَذِب فيما تقوله، لا أنَّ الله أرسلك إلينا.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قال الضَّحَّاك: جانبًا من السماء. وقال قتادة: قِطَعًا من السماء. وقال السُّدِّي: عذابًا من السماء. وهذا شبيهٌ بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾، إلىٰ أن قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢]. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: الله أعلم بِكُم، فإن كنتُم تستحِقُّون ذلك جازاكُم به غير ظالمٍ لكم[1]، وكذلك وقع بهم كَمَا سألوا، جزاءً وفاقًا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله ﷻ، جعل عقوبتهم أن أَصَابَهُم حرٌّ شديدٌ جدًّا مدة سبعة أَيَّامٍ لا يَكُنُّهم[2] منه شيءٌ، ثم أقبلت إليهم سحابةٌ أظلَّتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يَسْتَظِلُّون بظلِّها من الحرِّ، فَلَمَّا اجتمعوا [كلهم][3] تحتها أرسل الله تعالىٰ عليهم منها شررًا من نارٍ، ولهبًا ووَهَجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ أزهقت أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكر الله تعالىٰ صفةَ إهلاكهم في ثلاثة مواطنَ، كل موطنٍ بصفةٍ تناسب ذلك السِّياق، ففي «الأعراف» ذكر أنَّهم أخذتهم الرَّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنَّهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨]، فأرجفوا[4] بنَبِيِّ الله ومَن

---

(١) لوحة (١١٦/ أ). (٢) أي: لا يسترهم. (٣) ليست في (ز).
(٤) الإرجاف: ايقاع الرجفة – وهي الزلزلة – إما بالقول وإما بالفعل، ويقال: أرجفوا في الشيء وبه: اذا خاضوا فيه.

اتَّبعه، فأخذتهم الرَّجفة. وفي «سورة هود» قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾(١) [هود:٩٤]؛ وذلك لأنَّهم استهزءوا بنبيِّ الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]. قالوا ذلك علىٰ سَبيل التَّهكُّم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحةٌ تُسْكِتُهُم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾(٢) وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ علىٰ وجه التَّعنُّت والعناد، فناسب أن يَحِقَّ عليهم ما استبعدوا وقوعه. ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال قتادة: قال عبد الله بن عمر ﷺ: إن الله سلَّط عليهم الحَرَّ سبعة أيَّام حتىٰ ما يظلهم منه شيءٌ، ثمَّ إنَّ الله أنشأ لهم سحابةً، فانطلق إليها أحدُهُم واستظل بها، فأصاب تحتَها بردًا وراحةً، فأعلم بذلك قومَه، فأتوها جميعًا، فاستظلوا تحتها، فأجّجتْ عليهم نارًا.

وهكذا روي عن عِكْرِمَة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظُّلَّةَ، حتىٰ إذا اجتمعوا كلهم، كشف الله عنهم الظُّلَّة، وأحمىٰ عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المِقْلَىٰ.

وقال محمَّد بن كعب القُرَظيُّ: إنَّ أهل مدين عُذِّبوا بثلاثة أصنافٍ مِن العذاب؛ أخذتهم الرَّجفة في دارِهم حتىٰ خرجُوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزعٌ شديدٌ، فَفَرِقُوا(٣) أن يدخلوا إلىٰ البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظُّلَّة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلًّا أطْيَب ولا أبرد [مِن هذا](٤). هَلُمُّوا أَيُّهَا النَّاس. فدخلوا جميعًا تحت الظُّلَّة، فصاح بهم صيحةً واحدةً، فماتوا جميعًا. ثم تلا محمَّد بن كعب: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثني الحسن، حدثني سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صَغِيرة، حدثني يزيد الباهلي: سألت ابن عبَّاسٍ، عن هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؟ قال: بعث الله عليهم وَمَدَةً(٥)(٦) وحرًّا شديدًا، فأخذ بأنفاسهم [فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم](٧) فخرجوا من البيوت هرابًا إلىٰ البرِّيَّةِ، فبعث الله سحابةً فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردًا ولذةً، فنادىٰ بعضُهُم بعضًا، حتىٰ إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله عليهم نارًا. قال ابن عباسٍ: فذلك عذاب يوم الظُّلَّة، إنَّه

---

(١) في (ز): ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [المؤمنون: ٤١].
(٢) في (ز): ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾.
(٣) لوحة (١١٦/ ب).
(٤) سقط من (ز).
(٥) الوَمَدة: ندىٰ من البحر يقع علىٰ الناس في شدة الحر وسكون الريح.
(٦) في (ز): (رعدة)، والمثبت موافق لما في «الطبري»، و«ابن أبي حاتم».
(٧) سقط من (ز). وأثبتناه من «الطبري».

كان عذابَ يوم عظيم[(١)].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله علىٰ عبده ورسولِهِ محمَّدٍ -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن -الذي تقدَّم ذكره فِي أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾[(٢)] الآية-. ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام قاله غير واحدٍ من السَّلف: ابن عبَّاس، ومحمَّد بن كعب، وقتادة، وعطية العَوْفي، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، والزُّهري، وابن جُرَيج. وهذا ما لا نِزَاعَ فيه.

قال الزُّهْري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة:٩٧].

وقال مجاهد: مَن كلَّمه الرُّوح الأمين لا تأكله الأرض.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [أي: نزل به ملك كريمٌ أمينٌ، ذو مكانةٍ عند الله، مطاع في الملأ الأعلىٰ، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمَّد، سالمًا من الدَّنس والزِّيادة والنَّقص؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾][(٣)] أي: لِتُنْذِر به بأس الله ونِقْمَتَه علىٰ مَن خالفَهُ وكذَّبه، وتبشِّر به المؤمنين المُتَّبِعين له.

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: هذا القرآن الَّذي أنزلناه إليك أنزلنَاه بلِسَانِك العربي الفَصِيح الكامل الشَّامل؛ ليكون بَيِّنًا واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعذر، مقيمًا للحُجَّة، دليلًا إلىٰ المَحَجَّة[(٤)(٥)].

---

(١) رواه الطبري (١٩/ ١١٠) (١٧/ ٦٣٨). ط هجر.

(٢) في (ز): ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ وهي آية (٢) في سورة الأنبياء، وأما أوَّل الشعراء فهو كما أثبتناه.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) **المَحَجَّة**: الطريق.

(٥) **قال الإمام القرطبي** رحمه الله: لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب علىٰ أساليب غير العرب، وأن فيه أسماءً أعلامًا لمن لسانه غير العرب، كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط. واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من كلام غير العرب، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب والطبري وغيرهما إلىٰ أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربي صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلىٰ سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلىٰ وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تُخرِج القرآن عن كونه عربيًا مبينًا، ولا رسولَ اللهِ عن كونه متكلمًا بلسان قومه، فالمِشْكاة: الكُوَّة ونشأ: قام من الليل، ومنه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ و﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي ضعفين. و﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ أي الأسد، كله بلسان الحبشة. **والغَسَّاق**: البارد المنتن بلسان الترك. **والقِسْطَاس**: الميزان، بلغة الروم. **والسجيل**: الحجارة والطين بلسان الفرس. **والطور**: الجبل. **واليم**: البحر بالسريانية. **والتنور**: وجه الأرض بالعجمية. قال ابن

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن أبي بكر[١] العَتكيُّ، حدَّثنا عباد بن عباد المُهَلَّبي، عن موسىٰ بن محمَّد بن إبراهيم التَّيمي، عن أبيه قال: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دَجْن[٢] إذ قال لهم: «كَيْفَ تَرَوْنَ بَوَاسِقَهَا؟[٣]». قالوا: ما أحسَنَها وأشدَّ تراكُمَهَا[٤]! قال: «فَكَيْفَ تَرَوْنَ قَوَاعِدَهَا؟[٥]؟». قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنَهَا! قال: «فَكَيْفَ تَرَوْنَ جَوْنَهَا؟[٦]». قالوا: ما أحسنه وأشدَّ سوادَهُ! قال: «فَكَيْفَ تَرَوْنَ رَحَاهَا اسْتَدَارَتْ؟». قالوا: ما أحسَنَها وأشدَّ استدارتَهَا! قال: «فَكَيْفَ تَرَوْنَ بَرْقَهَا، أَوَمِيضٌ أَمْ خَفْوٌ[٧][٨] أَمْ يَشُقُّ شَقًّا؟». قالوا: بل يشُقُّ شقًّا. قال: «الْحَيَاءُ الْحَيَاءُ إِنْ شَاءَ اللهُ». قال: فقال رجلٌ: يا رسول الله، بأبي وأُمِّي ما أفصحك[٩]! ما رأيت الذي هو أعربُ منك. قال: فقال: «حُقَّ لِي، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِي، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾»[١٠].

وقال سفيان الثَّوري: لم ينزل وحيٌ إلا بالعربيَّة، ثم تَرْجم كل نبيٍّ لقومه، واللسان يوم القيامة

= عطية: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه. وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتيْ قريش، وكسفر مسافر بن أبي عمرو إلىٰ الشام، وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلىٰ أرض الحبشة، وكسفر الأعشىٰ إلىٰ الحِيرَة وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة فعَلِقَت العرب بهذا كله ألفاظًا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلىٰ تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتىٰ جرت مجرىٰ العربي الصحيح، ووقع بها البيان، وعلىٰ هذا الحد نزل بها القرآن. فإن جهِلَها عربيٌّ ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنىٰ «فاطر» إلىٰ غير ذلك. قال ابن عطية: «وما ذهب إليه الطبري رَحِمَهُ اللهُ من أن اللغتين اتفقتا في لفظة فذلك بعيد، بل إحداهما أصل والأخرىٰ فرع في الأكثر، لأنا لا ندفع أيضًا جواز الاتفاق [لأنَّ وجوده] قليلًا شاذ». قال غيره: والأول أصح. وقوله: هي أصل في كلام غيرهم دخيلة في كلامهم، ليس بأولىٰ من العكس، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولًا، فإن كان الأول فهي من كلامهم، إذ لا معنىٰ للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم علىٰ بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة. فإن قيل: ليست هذه الكلمات علىٰ أوزان كلام العرب فلا تكون منه. قلنا: ومن سلَّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتىٰ تخرجوا هذه منها، فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب ورد هذه الأسماء إليها علىٰ الطريقة النحوية، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربيًّا مبينًا، ولا يكون الرسول مخاطبًا لقومه بلسانهم، والله أعلم.

(١) لوحة (١١٧/ أ). (٢) **الدَّجْن**: الغيم.

(٣) **بواسقها**، أي: ما استطال من فروعها. (٤) **ارتكم الشيء وتراكم**: اجتمع.

(٥) **أراد بالقَوَاعِد**: ما اعْتَرض منها وما سَفَل، تشبيهـًا بقَواعد البِناء. «النهاية».

(٦) في (ز): (حربها). **والجَوْن**: النبات يضرب إلىٰ السواد من خضرته. «القاموس المحيط» (ص١٣٢٦): (جون).

(٧) **خَفا البَرْق يَخْفو ويَخْفِي خَفْوًا وخَفْيًا**: إذا بَرَق بَرْقـًا ضعيفـًا. «النهاية».

(٨) في (ز): (أم خفق). (٩) في (ز): (أفحك).

(١٠) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٥٩٤٤)، و«العظمة» لأبي الشيخ (٤/ ١٢٤٠)، رواه الرَّامَهُرْمُزي في «أمثال الحديث» (١٢٣). ومحمد بن إبراهيم من التابعين فالإسناد مرسل، وفيه موسىٰ بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: منكر الحديث

بالسُّرْيَانِيَّة، فَمَنْ دخل الجنة تكلَّم بالعربيَّة[١]. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: وإنَّ ذِكْر هذا القرآن والتَّنويه به لموجودٌ في كتب الأوَّلين المأثورة عن أنبيائهم، الَّذين بشَّروا به في قَدِيمِ الدَّهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتىٰ قام آخرهم خطيبًا في مَلَئِهِ بالبِشَارة بأحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، والزُّبر هاهنا هي الكتب، وهي جمع زَبُور[٢]، وكذلك الزَّبور، وهو كتابُ داود. وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر:٥٢]، أي: مكتوبٌ عليهم في صحف الملائكةِ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أو ليس يكفيهم[٣] من الشَّاهد الصَّادق علىٰ ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدُون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يَدْرُسُونَهَا؟ والمراد: العدول منهم، الَّذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمَّد ﷺ ومبعثه وأُمَّته، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عَمَّنْ أدركه منهم ومَنْ شاكلهم[٤]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف:١٥٧].

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عن شدة كفر قريش وعنادِهم لهذا القرآن؛ أنَّه لو أنزله علىٰ رجل من الأعاجم مِمَّنْ لا يدري من العربية كلمة، وأنزلَ عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، كما أخبر عنهم في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٤، ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

---

(١) أكثر كلام أهل العلم علىٰ هذا، واعترض عليه ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره؛ لأنه لا دليل عليه من النقل أو الإجماع. راجع «الأحكام» (١/ ٣٢).

(٢) في (ز): (جمع زبرة).

(٣) في (ز): (يكفيكهم).

(٤) لوحة (١١٧/ ب).

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾
فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾
أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ
﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: كذلك سلكنا التَّكْذِيب والكفر والعناد والجحود؛ أي: أدخلناه في قلوب المجرمين.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ -أي: بالحق- ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: عذاب الله بغتة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾؟ أي: يتمنون حين يشاهدون العذاب أَنْ لو أُنظروا قليلًا ليعملوا [من فزعهم][1] بطاعة الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:٤٤]، فكل ظالمٍ وفاجرٍ وكافرٍ إذا شاهد عقوبته ندم ندمًا شديدًا، هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ[2] ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٨، ٨٩]، فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتىٰ رأىٰ العذاب الأليم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩٠، ٩١]، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤، ٨٥].

وقوله [تعالىٰ]: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكار عليهم، وتهديد لهم؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ [مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾][3] أي: ولو أخرناهم وأنظرناهم، وأَمْلَيْنا لهم بُرْهَةً من الزمان وحينًا من الدَّهر -وإن طال- ثم جاءهم أمر الله أيّ شيء يُجدِي عنهم ما كانوا فيه من النعيم؟! ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١١٨/ أ). (٣) سقط من (ز).

عَشِيَّةً أَوْ ضُحَنهَا﴾ [النازعات:٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة:٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل:١١]؛ ولهذا قال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «يُؤْتَىٰ بِالكَافِرِ فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا [وَاللهِ يَا رَبِّ](١). وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُصْبَغُ فِي الجَنَّةِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا [وَاللهِ يَا رَبِّ»](٢) أي: ما كأن شيئًا كان؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

كأنَّكَ لَمْ تُوتَرْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً ... إذا أنْتَ أدْرَكْتَ الذي كنتَ تطْلُبُ(٣)

ثم قال الله تعالىٰ مخبرًا عن عدله في خلقه: أنَّه ما أهلك أُمَّةً من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنْذار لهم، وبعثة الرُّسل إليهم، وقيامِ الحُجَج عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا(٤) يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميد: أنَّه نزل به الروح الأمين المؤيَّد من الله، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾. ثم ذكر أنَّه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه لا ينبغي لهم؛ أي: ليس هُو من بُغْيَتِهم ولا مِن طِلْبَتِهِم؛ لأنَّ من سجاياهم الفسادَ وإضلالَ العبادِ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ونورٌ وهدىٰ وبرهان عظيم، فبيْنَه وبَيْنَ الشياطين منافاةٌ عظيمةٌ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ولو انبغىٰ(٥) لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

ثم بيَّن أنه لو انبغىٰ لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلىٰ ذلك؛ لأنهم بمعْزِلٍ عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا في مُدَّة إنزال القرآن علىٰ رسولِهِ، فلم يَخْلُص

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الصحيح». (٢) سقط من (ز).
(٣) يعني: كأنك لم يصبك الدهر بشيء عندما تدرك مناك.
(٤) لوحة (١١٨/ ب). (٥) في (ز): (ولو ابتغىٰ)، في الموضعين.

أحدٌ منَ الشياطين إلىٰ استماع حرفٍ واحدٍ منه؛ لئلا يشتبه الأمر. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعِهِ، وتأييدِهِ لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، كما قال تعالىٰ مخبرًا عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:٨-١٠].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ومخبرًا أنَّ مَنْ أشرك به عذَّبه.

ثم قال تعالىٰ آمرًا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه أن يُنْذِر عشيرته الأقربين؛ أي: الأَدْنَيْنَ إليه، وأنَّه لا يُخَلِّص أحدًا منهم إلا إيمانهُ بربه ﷻ، وأمره أن يُلين جانبه لمن اتَّبعه مِن عباد الله المؤمنين. ومَن عصاه من خلق الله كائنًا مَنْ كان فليتبرَّأْ منه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وهذه النِّذارة الخاصَّة لا تنافي العامة، بل هي فردٌ من أجزائها، كما قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦]، وقال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورىٰ:٧]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٥١]، وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(١) [الأنعام:١٩]، كما قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وفي «صحيح مسلم»: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»(٢). وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا عبد الله بن نُمَيْر، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباسٍ قال: لما أنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أتىٰ النَّبيُّ ﷺ الصفا فصعِدَ عليه، ثم نادىٰ: «يَا صَبَاحَاهُ(٣)». فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي [لُؤَيٍّ](٤)، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، صَدَّقْتُمُونِي؟». قالوا: نعم. قال:

---

(١) لوحة (١١٩/ أ).
(٢) رواه مسلم (١٥٣).
(٣) يا صباحاه: كلمة تقال عند هجوم العدو، وخص هذا الوقت لأنه كان الأغلب لوقت الغارة، فكأن المعنىٰ: جاء وقت القتال فتأهبوا. «هدي الساري»: ص/ ١٤٢.
(٤) بياض في (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

«فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ اليومِ، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١][(١)]. ورواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي، من طرقٍ، عن الأعمش، به.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيعٌ، حدَّثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، قام رسول الله ﷺ فقال: **«يَا فَاطِمَةُ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ»**. انفرد بإخراجه مسلم[(٢)].

الحديث الثالث: قال أحمد: حدَّثنا معاوية بن عمرو، حدَّثنا زائدة، حدَّثنا عبد الملك بن عُمَير، عن موسىٰ بن طلحة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، دعا رسول الله ﷺ [قريشًا،][(٣)] فعمَّ وخصَّ[(٤)]، فقال: **«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. [يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ][(٥)]. يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. [يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ][(٦)]، فَإِنِّي -وَاللهِ- مَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، إِلَّا أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا[(٧)] بِبِلَالِهَا»**[(٨)].

ورواه مسلم والترمذي، من حديث عبد الملك بن عمير، به. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه. ورواه النسائي من حديث موسىٰ بن طلحة مرسلًا، لم يذكر فيه أبا هريرة. والموصول هو الصحيح. وأخرجاه في «الصحيحين» من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا محمد - يعني ابن إسحاق - عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال[(٩)] رسول الله ﷺ: **«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ. يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ، اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللهِ، لا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللهِ**

---

(١) البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٦٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٧١٤).

(٢) مسلم (٢٠٥)، وأحمد (٦/ ١٣٦)، والترمذي (٢٣١٠، ٣١٨٤)، والنسائي (٦/ ٢٥٠).

(٣) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٤) فعمَّ وخصَّ: أي في النداء، وقوله: (يامعشر قريش) وما بعده: بيان لما عمه وخصه.

(٥) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) سقط من (ز) وهي ثابتة في «المسند».

(٧) سَأَبُلُّها: سأَصِلُها، والبِلال: جمع بَلَل، وهو كل ما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره.

(٨) البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤) والنسائي (٦/ ٢٤٨)، وأحمد (٢/ ٣٦٠، ٤٤٨). قال ابن الأثير: أي أَصِلُكُم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئًا. «النهاية».

(٩) لوحة (١١٩/ ب).

شَيْئًا، سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا»[(١)] تفرَّد به من هذا الوجه. وتفرَّد به أيضًا عن معاوية، عن زائدة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه[(٢)]. ورواه أيضًا عن حسن، ثنا ابن لَهِيعة، عن الأعرج: [سمعت][(٣)] أبا هريرة... مرفوعًا[(٤)].

وقال أبو يعلىٰ: حدَّثنا سُوَيد بن سَعيد، حدَّثنا ضِمَام بن إسماعيل، عن موسىٰ بن وَرْدَان، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ: «يَا بَنِي قُصَيٍّ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ. أَنَا النَّذِيرُ وَالمَوْتُ المُغِيرُ. وَالسَّاعَةُ المَوْعِدُ»[(٥)].

الحديث الرابع: قال أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا التيمي، عن أبي عثمان، عن قَبِيصة بن مُخَارق وزُهَير بن عمرو قالا: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِد رسول الله ﷺ رَضْمَةً[(٦)] من جبل علىٰ أعلاها حجر، فجعل [ينادي][(٧)]: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَرَجُلٍ رَأَىٰ العَدُوَّ، فَذَهَبَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ، يَخْشَىٰ أَنْ يَسْبِقُوهُ، فَجَعَلَ يُنَادِي وَيَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهُ»[(٨)].

ورواه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن طَرْخان التيمي، عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مُلٍّ النَّهْديِّ، عن قَبِيصة وزُهَير بن عَمْرو الهلالي به.

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أسود بن عامر، حدَّثنا شَريك، عن الأعمش، عن المِنهَال، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن علي ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جمع النَّبيُّ ﷺ مِن أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا قال: وقال لهم: «مَنْ يَضْمَنُ عَنِّي دَيْنِي وَمَوَاعِيدِي، وَيَكُونُ مَعِي فِي الجَنَّةِ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟». فقال رجلٌ - لم يسمه شريك - يا رسول الله، أنت كنت بحرًا[(٩)(١٠)] مَن يقوم بهذا؟! قال: ثم قال لآخر، قال: فعرض ذلك علىٰ أهل بيته، فقال عَلِيٌّ: أنا[(١١)].

---

(١) حسن صحيح: رواه أحمد (٢/ ٤٤٨)، (٢/ ٣٩٨)، (٢/ ٣٥٠)، ورجاله ثقات عدا محمد بن إسحاق، فهو صدوق مدلس، لكن يشهد له الروايات السابقة.

(٢) أحمد (٢/ ٣٩٠). (٣) سقط من (ز). (٤) أحمد (٢/ ٣٥٠).

(٥) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٦١٤٩)، وفيه سويد بن سعيد: صدوق إلا أنه عَمِيَ فتلقن ما ليس من حديثه.

(٦) الرَّضْمة: واحدةُ الرَّضَم والرِّضام. وهي دون الهِضاب. وقيل: صُخور بعضُها علىٰ بعض. «النهاية».

(٧) بياض في (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٨) مسلم (٢٠٧)، وأحمد (٥/ ٦٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٧٩).

(٩) أي: واسع الكرم والجود.

(١٠) في (ز): (بحري). والمثبت موافق لما في «المسند». ويعني بها: واسع الكرم والجود.

(١١) حسن لغيره: رواه أحمد (١/ ١١١) والضياء في «المختارة» (٥٠٠)، ورجاله ثقات عدا شريك بن عبد الله بن أبي نَمِر: صدوق يخطئ. لكن يشهد له الإسناد الثاني الذي بعده والذي أورده ابن كثير (يا بني عبد المطلب..)، رواه أحمد (١/ ١٥٩) فهو إسناده حسن، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره. وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١١٣): إسناده جيد.

طريق أخرىٰ بأبسط من هذا السياق: قال أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبو عوَانة، عن عثمان بن المغيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن علي رضي الله عنه [قال][١]: جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بني عبد المطلب، وهم رَهْطٌ، كلهم يأكل الجَذَعَة ويشرب الفَرَق[٢] - قال: وصنع لهم مدًّا[٣] من طعام فأكلوا حتىٰ شبعوا - قال: وبَقِي الطعام كما هو كأنَّه لم يُمَسَّ. ثم دعا بغُمَرٍ[٤] فشَربوا حتىٰ رَوُوا، وبقي الشراب كأنه لم يُمَسَّ - أولم يُشرب - وقال: «**يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، إِنِّي بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ مَا رَأَيْتُمْ، فَأَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي؟**». قال: فلم يقم إليه أحدٌ. قال: فقمتُ إليه[٥] - وكنت أصغر القوم - قال: فقال: «**اجْلِسْ**». ثم قال ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «**اجْلِسْ**». حتىٰ كان في الثالثة ضرب بيده علىٰ يدي[٦].

طريق أخرىٰ أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة»: أخبرنا محمَّد بن عبد الله الحافظ، حدَّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدَّثنا أحمد ابن عبد الجبار، حدَّثنا يُونُس[٧] بن بُكَيْر، عن محمَّد بن إسحاق قال: فحدَّثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل - واستكتمني اسمَهُ - عن ابن عبَّاس، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال رسول الله ﷺ: «**عَرَفْتُ أَنِّي إِنْ بَادَأْتُ بِهَا قَوْمِي رَأَيْتُ مِنْهُمْ مَا أَكْرَهُ، فَصَمَتُّ. فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ؛ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ عَذَّبَكَ رَبُّكَ**». قال علي رضي الله عنه: فدعاني فقال: «**يَا عَلِيُّ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَ عَشِيرَتِي الأَقْرَبِينَ، فَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ بَادَأْتُهُمْ بِذَلِكَ رَأَيْتُ مِنْهُمْ مَا أَكْرَهُ، فَصَمَتُّ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَنِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ بِهِ عَذَّبَكَ رَبُّكَ. فَاصْنَعْ لَنَا يَا عَلِيُّ شَاةً عَلَىٰ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَأَعِدَّ لَنَا عُسَّ[٨] لَبَنٍ، ثُمَّ اجْمَعْ لِي بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ**». ففعلتُ فاجتمعوا له، وهم يومئذٍ أربعون رجلًا يزيدون رجلًا أو ينقصون رجلًا. فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعبَّاس، وأبو لهب الكافر الخبيث. فقدَّمت إليهم تلك الجَفْنَةَ، فأخذ رسول الله ﷺ منها حِذْيَة[٩] فشقَّها بأسنانه ثم رمىٰ بها في نواحيها، وقال: «**كُلُوا بِاسْمِ اللهِ**». فأكل القومُ حتىٰ نَهِلُوا[١٠] عنه ما يرىٰ إلا آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله

---

(١) سقط من (ز).
(٢) **الفَرَق**: مكيال يسع ستة عشر رطلاً.
(٣) **المُدُّ**: مجموع كفَّي الرجل المعتدل، وهو ربع الصاع.
(٤) **الغُمَر**: القدح الصغير.
(٥) لوحة (١٢٠/ أ).
(٦) انظر التخريج السابق.
(٧) في (ز): (يوسف بن بكير)، وهو خطأ.
(٨) **العُسُّ**: القَدَح الكبير.
(٩) **الحِذْية**: ما قطع من اللحم طولاً.
(١٠) أي: شبعوا واحتاجوا للشرب للزومه للأكل.

ﷺ: «اسْقِهِمْ يَا عَلِيُّ». فجئت بذلك القَعْب[(١)] فشربوا منه حتىٰ نَهِلُوا جميعًا، وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله. فلما أراد[(٢)] رسول الله ﷺ أن يُكَلِّمَهم بَدَره أبو لهب إلىٰ الكلام فقال: لَهَدَّ[(٣)] ما سحَّركم صاحبكم. فتفرَّقوا ولم يكلِّمهم رسول الله ﷺ. فلمَّا كان الغدُ قال رسول الله ﷺ: «يَا عَلِيُّ، عُدْ لَنَا بِمِثْلِ الَّذِي كُنْتَ صَنَعْتَ بِالأَمْسِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ بَدَرَنِي إِلَىٰ مَا سَمِعْتَ قَبْلَ أَنْ أُكَلِّمَ القَوْمَ». ففعلت، ثم جمعتهم له، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتىٰ نَهِلُوا عنه، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ: «اسْقِهِمْ يَا عَلِيُّ». فجئت بذلك القَعْب فشربوا[(٤)] [منه][(٥)] حتىٰ نهلُوا جميعًا. وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بَدَره أبو لهب بالكلام فقال: لَهَدَّما سحركم صاحبكم. فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ: «يَا عَلِيُّ، عُدْ لَنَا بِمِثْلِ الَّذِي كُنْتَ صَنَعْتَ لَنَا بِالأَمْسِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ بَدَرَنِي إِلَىٰ مَا سَمِعْتَ قَبْلَ أَنْ أُكَلِّمَ القَوْمَ». ففعلت، ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ [كما صنع][(٦)] بالأمس، فأكلوا [حتىٰ نهلوا][(٧)] عنه، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتىٰ نهلوا عنه، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها، ثم قال رسول الله ﷺ: «يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، إِنِّي -والله- مَا أَعْلَمُ شَابًّا مِنَ العَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[(٨)].

قال أحمد بن عبد الجبار: بلغني أن ابن إسحاق إنَّما سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبي[(٩)] مريم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث.

وقد رواه أبو جعفر بن جرير، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الغفار بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عبَّاس، عن علي بن أبي طالب، فذكر مثله، وزاد بعد قوله: «إِنِّي جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ». «وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَخِي، وَكَذَا وَكَذَا»؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعًا، وقلت -

---

(١) القَعْب: القَدَح العظيم.
(٢) في (ز): (رأىٰ)، والمثبت موافق لما في «الدلائل».
(٣) لَهَد: كلمة يتعجب بها، يقال: لهد الرجل، أي: ما أجلده؟ ويقال: إنه لهد الرجل: أي لنعم الرجل!
(٤) لوحة (١٢٠/ ب).
(٥) سقط من (ز).
(٦) سقط من (ز).
(٧) سقط من (ز).
(٨) ضعيف جدًّا: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٧٨) وفيه رجل مجهول.
ورواه الطبري (١٩/ ٤٠) وسمىٰ المجهول: عبد الغفار بن القاسم. ترجم له الذهبي في «الميزان» (٢/ ٦٤٠) قال: رافضي، ليس بثقةٍ، وقد اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث، وضعفه الأئمة، فهذا من أحاديث الشيعة المبتدعة وهي علة أخرىٰ في الحديث، وانظر ما قاله ابن كثير بعد إيراده الحديث.
(٩) في (ز): (بن أبي مريم)، وهو خطأ.

[وإني][1] لأحْدَثُهُمْ سنًا، وأرمصُهم[2] عينًا، وأعظمهم بطنًا[3]، وأحمشهم ساقًا[4]. أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه، فأخذ يَرْقُبُني ثم قال: «إِنَّ هَذَا أَخِي، وَكَذَا وَكَذَا، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا». قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

تفرَّد بهذا السِّياق عبد الغفار بن القاسم أبو[5] مريم، وهو متروكٌ كذَّابٌ شيعيٌّ، اتَّهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث، وضعَّفه الأئمة رحمهم الله.

طريق أخرىٰ: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا الحسين بن عيسىٰ بن مَيْسَرة الحارثي، حدَّثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث قال: قال علي ﷺ: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، قال لي رسول الله ﷺ: «اصْنَعْ لِي رِجْلَ شَاةٍ بِصَاعٍ مِنْ طَعَامٍ وَإِنَاءٍ لَبَنًا». قال: ففعلت، ثم قال: «ادْعُ بَنِي هَاشِمٍ». قال: فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل - أو: أربعون ورجل - قال: وفيهم عشرة كلُّهم يأكل الجذَعَة بإدامها. قال: فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ[6] من ذرْوَتها ثم قال: «كُلُوا»، فأكلوا حتىٰ شبعوا، وهي علىٰ هيئتها لم يَرْزَءُوا[7] منها إلا يسيرًا، قال: ثم أَتَيْتُهُم بالإناءِ فشربُوا حتىٰ رَوُوا. قال: وفَضَل فَضْلٌ، فلمَّا فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم، فبدرُوه الكلام، فقالوا: ما رأينا كاليوم في السحر. فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «اصْنَعْ لِي[8] رِجْلَ شَاةٍ بِصَاعٍ مِنْ طَعَامٍ». [فصنعت، قال][9]: فدعاهم، فلمَّا أكلوا وشربوا، قال: فبدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولىٰ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال لي: «اصْنَعْ [لِي][10] رِجْلَ شَاةٍ بِصَاعٍ مِنْ طَعَامٍ». فصنعت، قال: فجمعتهم، فلمَّا أكلوا وشربوا بَدَرهم رسول الله ﷺ الكلام فقال: «أَيُّكُمْ يَقْضِي عَنِّي دَيْنِي وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟». قال: فسكتوا وسكت العبَّاس خشية أن يحيط ذلك بماله، قال: وسكتُّ أنا لسِنِّ العباس. ثم قالها مرةً أخرىٰ فسكت العبَّاس، فلما رأيت ذلك قلت: أنا يا رسول الله. [فقال: «أَنْتَ»][11]، قال: وإني يومئذٍ لأسوأهم هيئةً، وإني لأعمش العينين، ضخم البطن، حَمْش الساقين[12].

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن علي ﷺ. ومعنىٰ سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا

---

(١) سقط من (ز).
(٢) الرَّمَص: البياض الذي يجتمع في زوايا الأجفان.
(٣) في (ز): (نطقًا).
(٤) أي: دقيق الساق.
(٥) في (ز): (بن أبي مريم).
(٦) لوحة (١٢١/ أ).
(٧) أي: لم ينقصوا منها الا شيئًا يسيراً.
(٨) في (ز): (ثم قال لي: اصنع رجل).
(٩) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».
(١٠) سقط من (ز)، وهي مثبتة عند «ابن أبي حاتم».
(١١) سقط من (ز).
(١٢) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (١٦٠١٥)، وفيه عبد الله بن عبد القدوس، ضعفه الأئمة، وقال يحيىٰ: ليس بشيء رافضي خبيث، انظر: «الميزان» (٢/ ٤٥٧).

عنه دينه، ويخلفوه في أهله؛ يعني: إن قُتِل في سبيل الله، كأنَّه خَشِيَ إذا قام بأعباء الإنْذار أن يقتل، ولما أنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، فعند ذلك أمِن.

وكان أوَّلًا يُحْرَس حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. ولم يكن في بني هاشم إذ ذاك أشد إيمانًا وإيقانًا وتصديقًا لرسول الله ﷺ من عليٍّ ﷺ؛ ولهذا بَدَرَهُم إلىٰ التزام ما طلب منهم رسولُ الله ﷺ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناسَ جَهرةً علىٰ الصَّفا، وإنذاره لبطون قريش عمومًا وخصوصًا، حتىٰ سَمَّىٰ مَنْ سَمَّىٰ مِن أعمامه وعمَّاته وبناته، ليُنَبِّه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ؛ أي: إنَّما أنا نذير، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ.

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي - غير منسوب - من طريق عمرو بن [شَمْر][(١)]، عن محمَّد بن سُوقَةَ، عن عبد الواحد الدمشقي قال: رأيت أبا الدرداء ﷺ يحدث النَّاس ويُفْتِيهِم، وولده إلىٰ جنبه، وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدَّثون، فقيل له: ما بال النَّاس يرغبون فيما عندك من العِلْم، وأهل بيتك جلوسٌ لاهين؟ فقال: لأني سمعت رسول الله ﷺ[(٢)] يقول: «أَزْهَدُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا الأَنْبِيَاءُ، وَأَشَدُّهُمْ عَلَيْهِمْ[(٣)] الأَقْرَبُونَ». وذلك فيما أنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الآية، ثم قال: «إِنَّ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي العَالِمِ أَهْلُهُ حَتَّىٰ يُفَارِقَهُمْ». ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: في جميع أمورك؛ فإنَّه مؤيِّدُك وناصرك وحافِظُك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتَكَ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: هو معتنٍ بك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

قال ابن عبَّاس: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يعني: إلىٰ الصلاة.

وقال عكرمة: يرىٰ قيامه وركوعه وسجوده.

وقال الحسن: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾: إذا صَلَّيْت وحدَكَ.

وقال الضَّحَّاك: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من فِرَاشِكَ أو مجلسك.

---

(١) في (ز): (سمرة)، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «تاريخ دمشق»، و(عمرو بن شَمِر) هو: الجعفي الكوفي الشيعي أبو عبد الله، وراجع: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٢٦٨) ط: البجاوي.

(٢) لوحة (١٢١/ ب).

(٣) في (ز): (عليه).

(٤) موضوع: رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٣٩١)، والدَّيْلَمي في «المسند» (١/ ١/ ١٧٣)، وفيه عمرو بن شمر: متهم بالكذب وقال ابن حبان: رافضي يشتم الصحابة ويروي الموضوعات عن الثقات. وقال البخاري: منكر الحديث

وقال قتادة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾: قائمًا وجالسًا وعلىٰ حالاتك.

وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ قال قتادة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال: في الصلاة، يراكَ وحدَكَ ويراكَ في الجَمِيع. وهذا قول عكرمة، وعطاء الخُراساني، والحسن البصري.

وقال مجاهد: كان رسول الله ﷺ يرىٰ مَنْ خلفه كما يرىٰ مَنْ أمامه؛ ويشهد لهذا ما صحَّ في الحديث: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ؛ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي»(١).

وروىٰ البزار وابن أبي حاتم، من طريقين، عن ابن عبَّاس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبيٍّ إلىٰ صلب نبيٍّ، حتىٰ أخرجه نبيًّا(٢).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية. [يونس: ٦١].

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا لِمَنْ زعم من المشركين أنَّ ما جاء به الرسول ليس حقًّا، وأنَّه شيءٌ افتعَلَهُ مِن تلقاءِ نَفْسِهِ، أو أنَّه أتاه به رَئِيٌّ مِن الجنِّ(٣)، فنزَّه الله، سبحانه، جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبَّه أنَّ ما جاء به إنَّما هو [الحق](٤) من عند الله، وأنَّه تنزيله ووَحْيُهُ، نزل به ملكٌ كريمٌ أمينٌ عظيمٌ، وأنَّه ليس من قَبيل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبةٌ فِي مثل(٥) هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون علىٰ من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم. ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك الأثيم؛ أي: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الَّذي تنزَّل عليه الشياطين كالكُهَّان وما جرىٰ مجراهم من الكذَبةِ الفسَقَةِ،

---

(١) البخاري (١٧٢٣).

(٢) منكر: رواه ابن أبي حاتم (١٦٠٢٨)، (١٦٠٢٩)، والبزار (٢٢٤٢ - كشف الأستار).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٨): رواه البزار والطبراني ورجالهما رجال الصحيح غير شبيب بن بشر وهو ثقة. والأثر فيه نكارة؛ لأن آباء النبي ﷺ ليسوا بأنبياء.

(٣) الرَّئِيُّ: التابع من الجن، سمي كذلك لأنه يتراءىٰ لمتبوعه.

(٤) ليست في (ز). (٥) لوحة (١٢٢/ أ).

فإنَّ الشياطين أيضًا كذبةٌ فسقةٌ.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: يسترقُون السمع من السَّماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كَذْبةٍ، ثم يلقونها إلىٰ أوليائهم من الإنس فيتحدَّثون بها، فيُصدِّقُهُم النَّاس في كلِّ ما قالوه، بسبب صدقِهِم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صحَّ بذلك الحديث، كما رواه البخاري، من حديث الزهري: أخبرني يحيىٰ بن عُروَةَ بن الزبير، أنه سمع عُرْوَةَ بن الزبير يقول: قالت عائشة ﵂: سأل ناسٌ النَّبيَّ ﷺ عن الكهان؟ فقال: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ». قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقًّا!! فقال النَّبيُّ ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطِفُهَا الجِنِّيُّ، فَيُقَرْقِرُهَا[١] فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»[٢].

وقال البخاري أيضا: حدَّثنا الحُميدي، حدَّثنا سفيان، حدَّثنا عمرو قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: لِلَّذِي[٣] قَالَ الحَقُّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُم فَوْقَ بَعْضٍ» -ووصف سفيان بيده فَحرَّفها[٤]، وبدَّدَ بين أصابعه- «فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ -أَوِ الكَاهِنِ- فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ. فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ[٥] مِنَ السَّمَاءِ». انفرد به البخاري[٦].

وروىٰ مسلم من حديث الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عبَّاسٍ، عن رجالٍ من الأنصار قريبًا من هذا[٧]. وسيأتي عند قوله تعالىٰ في سبأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ الآية [سبأ:٢٣].

وقال البخاري: وقال الليث: حدَّثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال: أن أبا الأسود أخبره، عن عروة، عن عائشة، عن النَّبيِّ ﷺ[٨] أنه قال: «إِنَّ المَلَائِكَةَ تَحَدَّثُ فِي العَنَانِ -والعَنَان: الغَمَامُ- بِالأَمْرِ [يَكُونُ][٩] فِي الأَرْضِ، فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الكَلِمَةَ، فَتَقُرُّهَا فِي أُذُنِ الكَاهِنِ كَمَا تُقَرُّ

---

(١) أي: يكررها ويرددها، وقرقرت الدجاجة: رددت صوتها.

(٢) البخاري (٧٥٦١)، ورواه مسلم (٢٢٢٨).

(٣) في (ز): (قال الذي).

(٤) حرفها: أمالها، وبدد بين أصابعه: فرق بينها.

(٥) في (ز): (سمعت).

(٦) البخاري (٤٨٠٠).

(٧) مسلم (٢٢٢٨).

(٨) لوحة (١٢٢/ ب).

(٩) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «الصحيح».

القَارُورَةُ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ»[١].

وروىٰ البخاري في موضع آخر من كتاب «بدء الخلق» عن سعيد بن أبي مريم، عن الليث، عن عبد الله بن أبي جعفر، عن أبي الأسود محمَّد بن عبد الرحمن، عن عروة، عن عائشة، بنحوه.

وقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجنِّ. وكذا قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجَيَان، فينتصر لهذا فِئَامٌ[٢] من الناس، ولهذا فئَامٌ من النَّاس، فأنزل الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قُتَيْبَةُ، حدَّثنا لَيث، عن ابن الهاد، عن يُحَنَّس - مولىٰ مصعب بن الزبير - عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْج[٣]، إذ عَرَض شاعرٌ يُنشد، فقال النَّبيُّ ﷺ: «خُذُوا الشَّيْطَانَ - أَوْ: أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ -؛ لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»[٤].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: [في][٥] كل لغوٍ يخوضُون.

وقال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: في كل فنٍّ من الكلام. وكذا قال مجاهد وغيره.

وقال الحسن البصري: قد - والله - رأيْنا أوديتهم التي يهيمون فيها، مرَّةً في شتمة فلانٍ، ومرَّةً في مدحة فلان.

وقال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطلٍ، ويذمُّ قومًا بباطلٍ.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ قال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: كان رجلان علىٰ عهد رسول الله ﷺ، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تَهاجَيَا، فكان مع كل واحدٍ منهما غُوَاة من قومه - وهم السفهاء - فقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[٦].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: أكثر قولهم يكذبون فيه.

وهذا الذي قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما هو الواقع في نفس الأمر؛ فإنَّ الشعراء يتبجَّحون بأقوال وأفعال

---

(١) البخاري (٢٢١٠، ٣٢٨٨).
(٢) أي: جماعات.
(٣) العَرْج: قرية جامعة في واد من نواحي الطائف.
(٤) ضعيف بهذا السياق: رواه أحمد (٣/ ٨)، والإسناد فيه ليث بن أبي سليم، وبقية رجاله ثقات. لكن جملة (لأن يمتلئ جوف أحدكم... إلخ) صحيح. رواه مسلم (٣٣٥٧).
(٥) سقط من (ز).
(٦) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (١٩/ ٧٨)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٣٣)، وسنده مسلسل بالضعفاء.

لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس [لهم](١)؛ ولهذا اختلف العلماء -رحمهم الله- فيما إذا اعترف الشَّاعر في شِعْرِهِ بما يُوجِب حَدًّا، هل يقام عليه بهذا الاعتراف أَمْ لا لأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ علىٰ قولين. وقد ذكر محمَّد(٢) بن إسحاق، ومحمَّد بن سعد في «الطبقات»، والزُّبير بن بَكَّار في كتاب «الفكاهة»: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عدي بن نَضْلَة علىٰ «مَيْسَان» - من أرض البصرة - وكان يقول الشعر، فقال:

أَلا هَلْ أَتَىٰ الحَسْنَاءَ أَنّ حَلِيلَهَا ... بِمَيْسَانَ، يُسقَىٰ فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ(٣)

إِذَا شِئْتُ(٤) غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَجْذُو عَلَىٰ كُلِّ مَنْسِمِ(٥)

فَإِنْ كُنتَ نَدْمَانِي فَبالأَكْبَرِ اسْقِنِي ... وَلا تَسْقِنِي بالأَصْغَرِ المُتَثَلَّمِ

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤمِنِينَ يَسُوءُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ(٦)

فلما بلغ [ذلك](٧) أمير المؤمنين قال: إي والله، إنَّه ليسوءني ذلك، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته. وكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:١-٣] أمَّا بعد فقد بلغني قولك:

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤمِنِينَ يَسُوءُه ... تَنَادُمُنَا بالجَوْسَقِ المُتَهَدّمِ

وايم الله(٨)، إنَّه ليسوءني وقد عزلتك. فلمَّا قَدِمَ علىٰ عمر بَكَّتَهُ بهذا الشعر، فقال: والله - يا أمير المؤمنين - ما شربتها قَطُّ، وما ذاك الشعر إلا شيء طَفَح علىٰ لساني. فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي علىٰ عمل أبدًا، وقد قُلتَ ما قلتَ.

فلم يُذكر أنه حَدَّه علىٰ الشَّراب، وقد ضمَّنه شعره؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولكنه ذمَّه عمر رضي الله عنه ولامه علىٰ ذلك وعزله به. ولهذا جاء في الحديث: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ**(٩) **خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**»(١٠).

والمراد من هذا: أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهنٍ ولا بشاعرٍ؛ لأنَّ حاله منافٍ لحالهم من وجوهٍ ظاهرةٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (١٢٣/ أ).
(٣) الحَنْتَم: جِرَارٌ خضرٌ تضربُ إلىٰ الحمرة.
(٤) في هامش (ز): «في السيرة: فإن شئت».
(٥) تجذوا: تثبت قائمة، وقيل: علىٰ أطراف الأصابع، ومَنْسِم: الأصل فيها منسما خُفِّ البعير، وهما كالظفرين في مقدَّمه، بهما يُسْتَبَان أثر البعير الضال، واستعماله هنا علىٰ سبيل الاستعارة.
(٦) الجَوْسَق: الحصن.
(٧) ليست في (ز).
(٨) هذا قَسَم، قيل أصله: أيمن الله.
(٩) أي: يفسده، من الوَرْي، وهو الداء.
(١٠) رواه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧).

قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، إلىٰ أن قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، إلىٰ أن قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال محمَّد بن إسحاق(١)، عن يزيد(٢) بن عبد الله ابن قُسَيط، عن أبي الحسن -سالم البَرَّاد مولىٰ تميم الداري - قال: لما نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رَوَاحة، وكعب بن مالك إلىٰ رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقالوا: قد عَلِمَ الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبيُّ ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: «أَنْتُم»، ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «أَنْتُم»، ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ قال: «أَنْتُم»(٣). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من رواية ابن إسحاق.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم أيضا، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسن مولىٰ [بني](٤) نوفل؛ أن حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ يبكيان، فقال رسول الله ﷺ وهو يقرؤها عليهما: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، حتىٰ بلغ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: «أَنْتُم»(٥).

وقال أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمة، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عُرْوَة، عن عروة قال: لما نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، إلىٰ قوله: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، قد علم الله أنِّي مِنهُم. فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، إلىٰ قوله: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾(٦).

وهكذا قال ابن عباسٍ، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، وغير واحدٍ، أن هذا استثناءٌ مما تقدَّم. ولا شكَّ أنَّه استثناءٌ، ولكن هذه السورة مكيةٌ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية في شعراء الأنصار؟ في ذَٰلِكَ نظر، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتىٰ يدخل فيه مَنْ كان متلبسًا من شعراء(٧) الجَاهِلِيَّة

---

(١) لوحة (١٢٣/ ب). (٢) في (ز): (زيد بن عبد الله).

(٣) ضعيف: إسناده مرسل، وأبو الحسن: مقبول، ولم يتابَعْ. رواه الطبري (١٩/ ٧٩).

(٤) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «ابن أبي حاتم».

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٠٧٤)، وإسناده مرسل.

(٦) مرسل: لأن عروة بن الزبير لم يسنده إلىٰ الصحابة، رواه ابن أبي حاتم (١٦٠٦٩).

(٧) في (ز): من شعر.

بذمِّ الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجع وأقلع، وعمل صالحًا، وذكر الله كثيرًا في مقابلة ما تقدَّم مِن الكلام السَّيِّئ، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بذمِّه، كما قال عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ حين أسلم:

يَــا رَسُــولَ المَليــكِ، إنّ لِــسَانِي رَاتِــقٌ مَــا فَتَقْــتُ إذْ أنــا بُــورُ
إذْ أجَــارِي الــشَّيْطَانَ فِي سَــنَنِ الغَيْـــيِ وَمَــنْ مَــالَ مَيْلَــه مَثْبُــورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوةً للنَّبيِّ ﷺ، وهو ابن عمه، وأكثرهم له هَجْوًا، فلما أسلم لم يكن أحدٌ أحب إليه من رسول الله ﷺ[1]، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعدما كان يهجوه، ويتولاه بعدما كان قد عاداه. وهكذا روىٰ مسلم في «صحيحه»، عن ابن عباس: أن أبا سفيان صخرَ بنَ حربٍ لما أسلم قال: يا رسول الله، ثلاث أعطنيهن قال: «نَعَمْ». قال: معاوية تجعله كاتبًا بين يديك. قال: «نَعَمْ». قال: وتُؤمرني حتىٰ أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين. قال: «نَعَمْ». وذكر الثالثة[2].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل: معناه ذكروا الله كثيرًا في كلامهم. وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مُكَفِّر لما سبق[3].

وقوله: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قال ابن عبَّاس: يَرُدُّون علىٰ الكفَّار الَّذين كانوا يهجون به المؤمنين. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وغير واحدٍ. وهذا كما ثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهْجُهُمْ -أو قال: هَاجِهِمْ- وَجِبْرِيلُ مَعَكَ»[4].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ الله ﷻ قد أنزل في الشِّعر ما أنزل، فقال: «إِنَّ المُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ[5]، لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ[6]»[7].

وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥٢]، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ،

---

(١) لوحة (١٢٤/ أ).
(٢) مسلم (٢٥٠١).
(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله في الآية دليل علىٰ جواز دراية الشعر الحسن، فقد روىٰ مسلم أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال يومًا [للشَّريد الثقفي]: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قال: نعم، قال: هِيهِ، فأنشد بيتًا فقال: هِيهِ، حتىٰ أنشدته مائة بيت.
(٤) البخاري (٦١٥٣)، ومسلم (٢٤٨٦).
(٥) في (ز): (نفسي به)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٦) أي: رَمْيُ النبل.
(٧) صحيح رواه أحمد (٦/ ٣٨٧).

فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

وقال قتادة بن دِعَامَة في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ يعني: من الشعراء وغيرهم.

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا إياس بن أبي تَمِيمة، قال: حضرت الحسن وَمُرَّ عليه بجنازة نصرانيٍّ، فقال الحسن: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وقال عبد الله بن رَبَاح، عن صفوان بن مُحْرِز: أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكىٰ حتىٰ أقول: قد اندقَّ قَضِيب زَوْرِه - ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾-.

وقال ابن وهب: أخبرني ابن سُرَيج[٢] الإسكندراني، عن بعض المَشْيَخة: أنهم كانوا بأرض الروم، فبينما هم ليلةً علىٰ نار يَشْتَوُون عليها[٣] - أو: يصطلون - إذا بركَاب[٤] قد أقبلوا، فقاموا إليهم، فإذا فَضَالة ابن عُبيد فيهم، فأنزلوه فجلس معهم - قال: وصاحبٌ لنا قائمٌ يُصَلِّي - قال: حتىٰ مَرَّ بهذه الآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ قال فَضَالة بن عبيد: هؤلاء الذين يخربون البيت[٥].

وقيل: المراد بهم أهل مكة. وقيل: الذين ظلموا من المشركين. والصحيح أن هذه الآية عامَّةٌ في كل ظالم[٦]، كما قال ابن أبي حاتم[٧]: ذُكر عن زكريا بن يحيىٰ الواسطي: حدَّثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النَّهْدي، حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحمن بن [المجبر][٨]، حدَّثنا هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، ﵂، قالت: كتب أبي وَصِيتَّه سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أَوْصَىٰ به أبو بكر بن أبي قُحَافة، عند خروجه من الدُّنيَا، حين يؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويَصدُق الكاذب: إنِّي استخلفت عليكم عُمَر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظَنِّي به، ورجائي فيه، وإن يَجُرْ ويُبَدِّل فلا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٩].

آخر تفسير سورة «الشعراء» [و][١٠] الحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨). (٢) في (ز): (ابن شريح)، وهو خطأ.

(٣) أي: يتخذون عليها شِواءً، ويصطلون: يستدفئون.

(٤) الرِّكاب: جمع راكب. (٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٠٨٥)، وفيه جهالة (بعض المشيخة).

(٦) فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو متقرر.

(٧) لوحة (١٢٤/ ب). (٨) في (ز): (المحبر).

(٩) رواه ابن أبي حاتم (١٦٠٨٤)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٨/ ٢٥٧)، وابن سعد (٣/ ١٩٩)، وابن عساكر (٤٤/ ٢٥١)، وأبو سعد النهدي: مجهول.

(١٠) سقط من (ز).

سُورَةُ النَّمۡلِ

تفسير سورة النمل، وهي مكيَّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾

قد تقدَّم الكلام في «سورة البقرة» على الحروف [المُقَطَّعَة][1] في أوائل السُّوَر.

وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾ أي: هذه آيات ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّنٌ واضحٌ.

﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: إنَّما تحصل الهِداية والبِشارة من القرآن لِمَنْ آمَن به واتَّبعه وصدَّقه، وعَمِلَ بما فيه، وأقام الصَّلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمَنَ بالدَّار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرِّها، والجنَّة والنَّار، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ [مريم]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: يكذبون بها، ويَسْتَبْعِدُون وقوعها ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أي: حَسَّنَّا لهم ما هم فيه، ومَدَدْنا لهم في غَيِّهم فهم يَتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كَذَّبُوا به من الدَّار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ أي: ليس يخسر[2] أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: ﴿وَإِنَّكَ﴾ -يا محمد- قال قتادة: ﴿لَتُلَقَّى﴾ أي: لَتَأخُذ. ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: من عند حكيم عليم؛ أي: حكيم في أوامره ونواهيه، عليم بالأمور جليلِها وحقيرِها، فخبره هو الصِّدق المحض، وحكمه هو العَدل التَّام، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥].

---

(١) في (ز): (المتقطعة).

(٢) لوحة (١٢٥/ أ).

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً
قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ مذكرًا له ما كان مِن أَمْرِ موسىٰ، كيف اصطفاه، الله وكلَّمه، وناجَاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلَّة القاهرة، وابتعثه إلىٰ فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا، واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: اذكر حين سار موسىٰ بأهله فأضلَّ الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور نارًا؛ أي: رأىٰ نارًا تأجَّجُ وتضطرم، فقال: ﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تتدفئون به. وكان كما قال، فإنَّه رجع منها بخبرٍ عظيمٍ، واقتبس منها نورًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: فلمَّا أتاها رأىٰ منظرًا هائلًا عظيمًا، حيث انتهىٰ إليها، والنَّار تضطرم في شجرةٍ خضراءَ، لا تزداد النَّار إلا توقدًا، ولا تزداد الشَّجرة إلا خُضْرَةً ونُضْرَةً، ثم رفع رأسه فإذا نورها مُتَّصِلٌ بعَنَان السماء.

قال ابن عبَّاس وغيره: ولم تكن نارًا، إنما كانت نورًا يَتَوهَّج [(١)].

وفي رواية عن ابن عبَّاس: نور رب العالمين [(٢)]. فوقف موسىٰ متعجبًا مما رأىٰ، فنودي ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾. قال ابن عبَّاسٍ: أي قُدِّس.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: مِن الملائكة. قاله ابن عبَّاس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن حبيب، حدَّثنا أبو داود -هو الطيالسي- حدَّثنا شعبة والمسعودي، عن عمرو بن مُرَّة، سمع أبا عُبَيْدة يحدث، عن أبي موسىٰ [(٣)] رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ [(٤)] وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٦١١٦) نحوه من طريق السُّدِّي وهو منقطع.
(٢) انظر التعليق السابق. (٣) لوحة (١٢٥/ ب).
(٤) القِسْطُ: العَدْل، والمِيزانُ، سمي به لأن القِسْطَ هو العَدْلِ، وأَراد أَن الله يَخفِضُ ويَرْفَعُ مِيزانَ أَعمالِ العِبادِ المرتفعةِ إِلَيه وأَرزاقَهم النازلةَ من عنده. «اللسان»: قسط.

النَّهار، وَعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ اللَّيْلِ». زاد المسعودي: «وَحِجَابُهُ [النُّورُ - أو](١) النَّارُ- لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ(٢) كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ». ثم قرأ أبو عُبَيْدَة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وأصل هذا الحديث مخرج في «الصحيح» لمسلم(٣)، من حديث عمرو بن مُرَّة، به.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئًا من مخلوقاته، ولا يحيط به شيءٌ مِن مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، الْمُنَزَّه عن مماثلة المحدثات.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أعلمه أنَّ الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز، الذي عزَّ كلَّ شيءٍ وقهرَهُ وغلبه، الحكيم في أفعاله وأقواله.

ثم أمره أن يلقي عصاه مِن يده؛ لِيُظْهِر له دليلًا واضحًا علىٰ أنَّه الفاعل المختار، القادرُ علىٰ كلِّ شيءٍ. فلما ألقىٰ موسىٰ تلك العصا من يده انْقَلَبت في الحال حَيَّةً عظيمةً هائلةً في غاية الكِبَر، وسرعة الحركة مع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجانُّ: ضربٌ من الحيَّات، أسرعه حركةً، وأكثرُهُ اضطرابًا - وفي الحديث: «نَهَىٰ عن قتل جِنَّان(٤) البيوت»(٥) - فلمَّا عايَن موسىٰ ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لَمْ يَلْتَفِتْ من شدَّةِ فَرَقِهِ(٦). ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا تخف مما ترىٰ، فإني أريد أن أَصْطَفِيك رسولًا وأجعلَك نبيًّا وجيهًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا استثناءٌ منقطعٌ، وفيه بشارةٌ عظيمةٌ للبشر، وذلك أنَّ مَن كان علىٰ [عمل](٧) شيءٍ ثم أقلع عنه، ورجع وتاب وأناب، فإنَّ الله يتوبُ عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، والآيات في هذا كثيرةٌ جدًّا.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ هذه آيةٌ أخرىٰ، ودليلٌ باهرٌ علىٰ قدرة الله الفاعل المختار، وصِدْق من جعل له معجزة، وذلك أن الله - تعالىٰ - أَمَرَهُ أن يُدخل يَدَهُ في جيب دِرْعِه، فإذا أدخلها وأخرجها خَرجت بيضاءَ ساطعةً، كأنَّها قطعة قمرٍ، لها لمعانٌ(٨) يتلألأ كالبرق الخاطف.

وقوله: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أُؤَيِّدُكَ بهنَّ، وأجعلهن برهانًا لك ﴿إِلَىٰ

---

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «ابن أبي حاتم».
(٢) (سُبُحات وجهه) يعني: بهاءه وعظمته وجلاله ونوره. «فتاوىٰ العثيمين»: (٨/ ٢٣٧-شرح الواسطية).
(٣) رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجة (١٩٥)، وأحمد (٢/ ٣١٢).
(٤) الجِنَّان: جمع جانٍّ، وهي الحية الصغيرة.
(٥) رواه البخاري (١٢٠٤) (٣١٣٥) ومسلم (٢٢٣٣)، ولفظه: «نهىٰ عن قتل الجنان التي في البيوت»، وأما اللفظ المذكور فقد رواه أحمد (٢/ ٤٣٠) (٦/ ٢٩)، والترمذي (١٤٨٥).
(٦) الفَرَق: الخوف. (٧) ليست في (ز). (٨) لوحة (١٢٦/ أ).

﴿فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، كما تقدَّم تقرير ذلك هنالك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: بيِّنةً واضحةً ظاهرةً، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسِحْرِهم فغُلِبُوا [هنالك][1] ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي: في ظاهر أمرهم، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: عَلِمُوا في أنفسهم أنَّها حقٌّ مِن عند الله، ولكن جَحَدوها وعاندوها وكابروها، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: ظلمًا من أنفسهم، سَجِيَّة ملعونة، ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: استكبارًا عن اتِّباع الحقِّ؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمَّد كيف كان عاقبةُ كُفرهم، في إهلاك الله إيَّاهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحةٍ واحدةٍ.

وفحوىٰ الخطاب يقول: احذروا أيها المكذِّبون بمحمَّدٍ، الجاحدون لما جاء به من رَبِّه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولىٰ والأحرىٰ؛ فإنَّ محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه أشرف وأعظم مِن موسىٰ، وبرهانه أدلُّ وأقوىٰ مِن برهان موسىٰ، بما آتاه الله تعالىٰ مِن الدَّلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البِشَارَات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ[2] ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ[3] وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ[4] ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ
وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال العلامة السعدي رحمه الله: ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون ثم فوقهم الأنبياء، وداود وسليمان من خواص الرسل وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة.

(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: مما يُؤثَر عن سليمان عليه السلام في معرفة منطق الطير: (لِدُوا للموت وابنوا للخراب) «لورشان» نوع من الحمام البري أكدر، (ليت هذا الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا) «لفاختة» نوع من الحمام البري له طرق، (من لا يرحم لا يُرحم) «لهدهد»، (استغفروا الله يا مذنبين) «لصرد»، (قدموا خيرًا تجدوه) «لخطافة»، (اللهم العن العشار) «للغراب»، (كل شيء هالك إلا وجهه) «للحدأة»، (من سكت سلم) «للقطاة»، (ويل لمن الدنيا همه) «للقطاة»، (سبحان ربي القدوس) «للضفدع»، (اذكروا الله يا غافلين) «للديك».

(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: وقد اختلف في هل كان سليمان يعلم غير منطق الطير من سائر الحيوان، والذي عليه الأكثر أنه كان يعلم أصوات سائر الحيوانات، من ذلك النمل، قال ابن العربي: من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد اتفق الناس علىٰ أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم من النبات فكان الشجر يقول له: أنا شجر كذا أنفع من كذا وأضر من كذا فما ظنك بالحيوان.

يُخْبِرُ تعالىٰ عما أنعم بِهِ علىٰ عبديه ونَبِيَّيْهِ داود وابنه سليمان، عليهما منَ الله السلام، من النِّعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصِّفات الجميلة، وما جَمَع لهما بَيْنَ سعادة الدُّنيا والآخرة، والملك والتَّمْكِين التَّام في الدُّنيا، والنُّبوَّة والرِّسالة في الدِّين؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا [١] ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن إبراهيم بن يحيىٰ بن تمام: أخبرني أبي، عن جدي قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إنَّ الله لم يُنْعِم علىٰ عَبدٍ نعمةً فحمد الله عليها، إلَّا كان حَمْدُه أفضل مِن نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلَّا من كتاب الله المنزل؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وأي نعمةٍ أفضل مما أُوتِيَ داود وسليمان عليهما السلام؟[٢].

وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في الملك والنُّبوَّة، وليس المراد وراثَةَ المال؛ إذ لو كان كذلك لم يُخَصَّ سليمان وَحْدَهُ مِن بين سائر أولاد داود، فإنَّه قد كان لداود مائةُ امرأةٍ. ولكن المراد بذلك وراثةُ الملك والنُّبوَّة؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تُورَث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ [في قوله][٣]: «نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»[٤].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له مِن الملك التَّامِّ، والتَّمكين العظيم، حتىٰ إنه سَخَّر له الإنس والجنَّ والطَّير. وكان يعرف لغة الطَّير والحيوان أيضًا، وهذا شيءٌ لم يُعطَه أحدٌ مِن البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله. وَمَنْ زعم من الجهلة والرِّعاع أنَّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قولٌ بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لِتَخْصِيص سليمان بذلك فائدةٌ؛ إذ كلهم يَسْمَعُ كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطُّيور وسائرُ المخلوقات مِن وقت خُلقت إلىٰ زماننا هذا علىٰ هذا الشكل والمنوال، ولكن الله ﷻ كان قد أفهم سليمان ﵇ ما يتخاطب به الطُّيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات علىٰ اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [أي: مما يحتاج إليه الملك][٥]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر البين لله علينا.

---

(١) لوحة (١٢٦/ ب).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١٨٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٣)، وقد ثبت مرفوعًا من حديث أنس ولفظه: «ما أنعم الله علىٰ عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أَعطَىٰ أفضل مما أَخَذ» وإسناده حسن، تقدم تخريجه عند تفسير سورة الفاتحة.

(٣) سقط من (ز).

(٤) البخاري (٦٧٢٧)، ومسلم (١٧٥٧)، والترمذي (١٦١٠) من حديث عائشة ﵂.

(٥) سقط من (ز).

قال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطَّلِب، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ دَاوُدُ ﷺ فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، فَكَانَ إِذَا خَرَجَ أُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ، فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَىٰ أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّىٰ يَرْجِعَ». قال: « فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَأُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ، فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ(١) تَطَّلِعُ إِلَىٰ الدَّارِ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَتْ لِمَنْ فِي البَيْتِ: مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ، وَالدَّارُ مُغْلَقَةٌ(٢) ؟وَاللهِ لَنَفْتَضِحَنَّ بِدَاوُدَ، فَجَاءَ دَاوُدُ ﷺ فَإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: الَّذِي لا يَهَابُ المُلُوكَ، وَلا يَمْتَنِعُ مِنَ الحُجَّابِ. فَقَالَ دَاوُدُ: أَنْتَ وَاللهِ إِذًا مَلَكُ المَوْتِ. مَرْحَبًا بِأَمْرِ اللهِ، فَتَزَمَّلَ دَاوُدُ ﷺ مَكَانَهُ حَتَّىٰ قُبِضَتْ نَفْسُهُ، حَتَّىٰ فَرَغَ مِنْ شَأْنِهِ وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ ﷺ لِلطَّيْرِ: أَظِلِّي عَلَىٰ دَاوُدَ، فَأَظَلَّتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَتَّىٰ أَظْلَمَتْ [عَلَيْهِمَا](٣) الأَرْضُ، فَقَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ: اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا». قال أبو هريرة: يا رسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله ﷺ يده، وغلبت عليه يومئذٍ المَضْرَحيَّة(٤)(٥)(٦).

قال أبو الفرج بن الجَوْزِيِّ: المَضْرَحيَّة النُّسُور الحُمر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجمع لسليمان جنوده مِن الجنِّ والإنس والطَّير؛ يعني: رَكِبَ فيهم في أُبَّهةٍ وعظمةٍ كبيرةٍ في الإنس، وكانوا هم الذين يَلُونه، والجن وهُم بعدهم في الْمَنْزِلَةِ، والطَّير ومنزلتها فوقَ رَأْسِهِ، فإن كان حرًّا أَظَلَّتْهُ منه بأَجْنِحَتِهَا.

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكَفُّ أولُهُم علىٰ آخِرِهِم؛ لئلَّا يتقدَّم أحدٌ عَنْ مَنْزِلَتِهِ التي هي مرتَّبة له.

قال مجاهد: جُعِل علىٰ كل صنف وَزَعَة، يردون أُولَاها علىٰ أُخراها؛ لئلَّا يتقدموا في الْمَسِيرِ، كما يفعل الملوك اليوم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي: حتىٰ إذا مرَّ سليمان ﷺ بمَن معه من الْجُيُوش والجنود علىٰ وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أورد ابن عساكر، من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن: أن اسم هذه النَّملة حرس، وأنَّها مِن قبيلة يقال لهم: بنو الشِّيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذِّيب(٧).

---

(١) في (ز): (امرأة). والمثبت موافق لما في «المسند». (٢) لوحة (١٢٧/ أ).

(٣) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «المسند».

(٤) رواه أحمد (٢/ ٤١٩)، والمطلب بن حَنْطَب لم يسمع من أبي هريرة.

(٥) المَضْرَحِيُّ من الصُّقور: ما طال جناحاه وهو كريم، وقيل: المَضْرَحِيُّ النَّسْرُ، وبجناحيه شبه طرف ذَنَب الناقة وما عليه من الهُلْبِ. «لسان العرب»: (٢/ ٥٢٦) -ضرح-.

(٦) في (ز): (المصرحية) بالصاد المهملة. والمثبت هو الصواب، ويؤيده شرح ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ بعده، وهو موافق لما في «المعاجم»، انظر: «لسان العرب» مادة (ضرح). وأما في ط: الرسالة للمسند فقد ورد (المُصَرِّحية) من التصريح.

(٧) وهذا الكلام لا يثبت ولا يصح، وهذه الأمور العلم بها لا ينفع، والجهل بها لا يضر، ولو كان فيها فائدة لذكرها الله ﷻ وسماها.

أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدُّخول إلىٰ مساكنها، ففهم ذلك سليمان عليه السلام عنها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: ألهمني أن أشكُرَ نعمتك التي مَنَنْتَ بها عليَّ، من تعليمي منطق الطَّير والحيوان، وعلىٰ والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: عملًا تحبه وترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من[(١)] عبادك، والرَّفيق الأعلىٰ من أوليائك[(٢)].

ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشَّام أو بغيره، وإن هذه النَّملة كانت ذات جناحين كالذُّباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

وعن نَوْف البِكَالي أَنَّه قال: كان نمل سليمان أمثال الذِّياب. هكذا رأيته مضبوطًا بالياء المثناة مِن تحت. وإنما هو بالباء الموحدة، وذلك تصحيفٌ، والله أعلم.

والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها، وتبسَّم ضاحكًا مِن ذلك، وهذا أمرٌ عظيمٌ جدًّا.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمد بن بشار، حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا مِسْعَر، عن زيد العَمّي، عن أبي الصدِّيق الناجي قال: خرج سليمان عليه السلام يَسْتَسْقِي، فإذا هو بنملةٍ مستلقيةٍ علىٰ ظهرها، رافعةً قوائمها إلىٰ السماء[(٣)]، وهي تقول: اللَّهمَّ إنَّا خلق مِن خلقك، ولا غنىٰ بنا عن سقياك، وإلَّا تَسْقِنَا تهلكْنَا. فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سُقِيتُم بدعوة غيركم[(٤)].

وقد ثبت في «الصحيح» - عند مسلم - من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ**،

---

(١) لوحة (١٢٧/ ب).

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** كيف دعا الله أن يكون من عباده الصالحين مع أنه نبي أعلىٰ درجة من مرتبة الصلاح؟ هذا هو الأصل، الأصل: أن المراد بالصلاح هنا الصلاح المطلق، والصلاح المطلق هذا أعلىٰ مرتبة، وقد قال يوسف - عليه الصلاة والسلام- ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] نعم، وقال الله تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فالمراد هنا الصلاح المطلق لا الصلاح الذي يذكر مع المراتب، فإن مقام الصلاح مع المراتب دون مقام النبوة.

(٣) وهذا من الأدلة المتوافرة الكثيرة علىٰ علو الله عز وجل وهي ضرورة، كما قال المُحدِّث الهَمَذاني لأبي المَعَالي الجويني: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها، ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو، لا يلتفت يَمْنة ولا يَسْرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا، أو قال: فهل عندك دواء لدفع هذه الضرورة التي نجدها؟ فقال: يا حبيبي ما ثَمَّ إلا الحيرة، ولطم علىٰ رأسه، وقال: حيرني الهمذاني. «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (١٨/ ٤٧٥)، وانظر ما تقدم في تفسير آية الاستواء في الأعراف آية (٥٤).

(٤) **ضعيف:** زيد العَمِّي ضعيف، وأبو الصدِّيق الناجي تابعي ولم يوصل الإسناد إلىٰ النبي ﷺ.

أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ! فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً!»[١].

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ[٢] فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ[٣] ﴿٢١﴾﴾

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عبَّاس وغيره: كان الهدهد مهندسًا، يدلُّ سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرضٍ فلاةٍ طلبه فنظرَ له الماءَ في تُخُوم الأرض، كما يرى الإنسان الشَّيء الظَّاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بُعْدِهِ مِن وجه الأرض، فإذا دلَّهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فَحَفَرُوا له ذلك المكان، حتى يَسْتَنْبِطَ الماء مِن قراره، فنزل سليمان، عليه السلام [يوما][٤] بفلاةٍ من الأرض، فتفقَّد الطَّير لِيَرى الهدهدَ، فَلَمْ يَرَهُ، ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ﴾.

حدَّث يومًا عبد الله بن عبَّاس بنحو هذا، وفي القوم رجلٌ من الخوارج، يقال له: «نافع بن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عبَّاس، فقال له: قِف يا أبا عبَّاس، غُلِبْتَ اليوم! قال: وَلِمَ؟ قال: إِنَّكَ تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وَإِنَّ الصَّبيَّ ليضع له الحبَّة في الفَخِّ، ويحثو على الفخ ترابًا، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ، فَيَصِيدَه الصَّبِيُّ!! فقال ابن عبَّاسٍ: لولا أَن يذهب هذا فيقول: رددتُ على ابن عبَّاس، لما أَجَبْتُهُ. فقال له: ويحك! إِنَّهُ إذا نزل القَدَر[٥] عَمِيَ البصر، وذَهَب الحَذَر. فقال له نافع: والله لا أُجَادِلُكَ في شيء مِن القرآن أبدًا[٦].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البَرْزِيِّ - من أهل «بَرْزَة» من غُوطَةِ[٧] دمشق، وكان مِنَ الصالحين يصوم يوم الاثنين والخميس، وكان أعور قد بلغ الثَّمانين - فروى ابن

---

(١) مسلم (٢٢٤١).

(٢) قال الإمام القرطبي رحمه الله: في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوالَ رعيتِهِ ؛ والمحافظة عليهم. فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخْفَ على سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك. ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن سَخْلَة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر. فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرُّعيان.

(٣) قال العلامة السعدي رحمه الله: دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه .

(٤) ليست في (ز). (٥) لوحة (١٢٨/ أ).

(٦) رواه الحاكم (٢/ ٤٠٥)، وصححه، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٩) إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٦٢١٣)، وعزاه من طريقٍ أخرى إلى سعيد بن منصور وابن أبي حاتم.

(٧) في (ز): (حولط).

عساكر بسنده إلىٰ أبي سليمان بن زيد: [أنه سأله](١) عن سبب عَوَره، فامتنع عليه، فألحَّ عَلَيْهِ شُهُورًا، فأخبره أنَّ رجلين مِن أهل خُرَاسان نزلَا عنده جمعة في قرية بَرْزَة، وسألاه عن وادٍ بها، فأريتهما إيَّاه، فأخرجا مجامِرَ وأوقدا فيها بخورًا كثيرًا، حتىٰ عَجْعَجَ الوادي بالدخان، فأخذا يُعَزِّمان(٢) والحيَّات تقبل مِن كلِّ مكانٍ إليهما، فلا يلتفتان إلىٰ شيء منها، حتىٰ أقبلت حيةٌ نحو الذِّرَاع، وعيناها تَوَقَّدان مثل الدِّينار. فاستبشرا بها عظيمًا، وقالا الحمد لله الَّذِي لم يُخَيِّب سفرنا مِن سنةٍ، وكسرا المجامر، وأخذا الحيَّة فأدخلا في عينهَا ميلًا فاكتحلا به، فسألتهما أن يكحلاني، فأبيا، فألححت عليهما وقلت: لا بد من ذلك، وتوعدتهما بالدَّولة(٣)، فكحلا عيني الواحدة اليمنىٰ، فحين وقع في عيْنِي نظرت إلىٰ الأرض تحتي مثل المرآة، أنظر ما تحتها كما تُري المرآة، ثم قالا لي: سر معنا قليلًا فسرت معهما وهما يحدثان، حتىٰ [إذا](٤) بعدت عن القرية، أخذاني فكَتَّفَاني، وأدخل أحدهما يده في عيني ففقأها، ورمىٰ بها ومضيَا. فلم أزل كذلك ملقًىٰ مكتوفًا، حتىٰ مرَّ بي نفرٌ ففَكَّ وَثَاقي. فهذا ما كان مِن خبر عَيْنِي(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا صَدَقَةُ بن عمرو الغَسَّاني، حدَّثنا عَبَّاد بن مَيْسَرة الْمِنْقَرِيُّ، عن الحسن قال: اسم هدهد سليمان عليه السلام: عنبر(٦).

وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلىٰ مجلسه الَّذِي كان يجلس فيه: تفقَّد الطَّير، وكان فيما يزعمون يأتيه نُوَبٌ من كل صنفٍ مِن الطير، كلَّ يوم طائرٌ، فنظر فرأىٰ مِن أصناف الطير كلِّهَا مَن حَضَره إلا الهدهد، ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أخطأه بَصَرِي من الطير، أم غاب فَلَمْ يحضر؟(٧).

وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد، عن ابن عبَّاس: يعني نتف ريشه.

وقال عبد الله بن شداد: نتف ريشه وتشميسه. وكذا قال غير واحدٍ من السلف: إنَّه نَتْفُ ريشه، وتركه مُلْقًىٰ يأكله الذَّر(٨) والنَّمل(٩).

وقوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يعني: قتله، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بعذرٍ واضح بيِّنٍ.

قال سفيان بن عيينة، وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قال له الطير: ما خَلَّفَك، فقد نذر

سقط من (ز).

(٢) أي: يقرآن العزائم، وهي: الرقىٰ. والجائز منها ما خلا من الشرك.

الدولة: العاقبة.

(٤) سقط من (ز).

«تاريخ دمشق» (٦٧/ ٤٧) ط الفكر.

(٦) ويقال في هذا ما قلناه فيما تقدم قريبًا عن النملة ونحوها.

إسناده مرسل.

(٨) لوحة (١٢٨/ ب).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فالصواب: أن هذا التعذيب الذي قاله سليمان غير معلوم لنا إنه عذاب شديد، والله تبارك وتعالىٰ لم يبينه، ولكن يكفي أن نعرف أنه شديد.

سليمان دمَكَ؟ فقال: هل استثنىٰ؟ فقالوا: نعم، قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فقال: نجوت إذًا.

قال مجاهد: إنَّما دفع [الله][(١)] عنه ببرِّه بأُمِّه.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَمَكَثَ﴾ الْهُدْهُدُ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: غاب زمانًا يسيرًا، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: اطَّلعت علىٰ ما لم تَطَّلِع عليه أنت ولا جنودك، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبرٍ صدقٍ حقٍّ يقينٍ.

وسبأ هم: حِمْير، وهم ملوك اليمن[(٢)].

ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، قال الحسن البصري: وهي بِلْقِيس بنت شَراحيل ملكة سَبأ.

وقال قتادة: كانت أُمُّها جنيَّةً، وكان مُؤخَّر قدميها مثل حافر الدَّابَّة، مِن بيت مملكة.

وقال زهير بن محمَّد: وهي بِلْقِيس بنت شَراحيل بن مالك بن الريان، وأُمُّها فارعة الجِنِّيَّة.

وقال ابن جُرَيْج: بِلْقِيس بنت ذي شرخ، وأُمُّها يَلْتَقَة.

وقال ابن أبىٰ حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا مُسَدَّدٌ، حدَّثنا سفيان - يعني ابن عيينة - عن عطاء بن السائب، عن مجاهد، عن ابن عبَّاسٍ قال: [كان مع][(٣)] صاحبة سليمان ألف قَيْلٍ، تحت كل قَيْلٍ مائة ألف [مقاتل][(٤)].

وقال الأعمش، عن مجاهد: كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قَيْلٍ[(٥)]، تحت كل قَيْلٍ: مائة ألف مُقَاتِل.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾: كانت من بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلًا، كل رجلٍ منهم علىٰ عشرة آلاف رجلٍ.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: في شرعنا لا يجوز أن تولَّىٰ المرأة علىٰ الرجال، فلا يمكن أن تكون ملكة، ولا يمكن أن تكون أميرًا، ولا يمكن أن تكون وزيرة، ولا يمكن أن تكون قاضية، كل هذا لا يجوز؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «لن يفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة».

(٣) سقط من (ز). (٤) ليست في (ز). (٥) القَيل بلسانهم: الملك دون الملك الأعظم.

وكانت بأرضٍ يقال لها مَأْرِب، علىٰ ثلاثة أميالٍ من صنعاء.

وهذا القول هو أقرب، علىٰ أنه كثيرٌ علىٰ مملكة اليمن، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من متاع الدُّنيا ما يحتاج إليه الملِكُ الْمُتمكِّن، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (١)﴾ يعني: سرير تجلس عليه عظيمٌ هائلٌ مزخرفٌ بالذَّهب، وأنواع الجواهر واللآلئ.

قال زهير بن محمَّد: كان مِن ذهبٍ، صفحتاه مرمولة(٢) بالياقوت والزَّبرجد. [طوله ثمانون ذراعًا، وعرضه أربعون ذراعًا.

وقال محمَّد بن إسحاق: كان مِن ذهبٍ مُفَصَّصٍ بالياقوت والزَّبرجد](٣) واللؤلؤ، وكان إِنَّما يخدمها(٤) النِّسَاء، لها ستمائة امرأة تليها للخدمة.

قال علماء التَّاريخ: وكان هذا السَّرير في قصرٍ عظيمٍ مَشِيدٍ رَفِيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقةً مِن شرقه ومثلها من غَرْبِهِ، قد وضع بناؤه علىٰ أن تدخل الشَّمس كل يوم من طاقةٍ، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً؛ ولهذا قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾(٥) أي: عن طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [معناه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾](٦) أي: لا يعرفون سبيل الحقِّ التي هي إخلاص السُّجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقرأ بعض القراء: «ألا يَا اسجدوا لله»(٧) جعلها «أَلَا» الاستفتاحية، و«يَا» للنِّداء، وحذف

---

(١) لوحة (١٢٩/ أ).

(٢) في (ز): (مرمول)، وهو المنسوج. أي: مزين ومطعَّم.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) في (ز): (يحدثها).

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: في هذه الآية: دليل علىٰ أن الأعمال السيئة من تزيين الشيطان؛ لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فكيف يجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالىٰ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أضاف الله التزيين إليه، وهنا أضافه إلىٰ الشيطان، وفي آية ثالثة: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ وقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ مبنية للمجهول، لكن هذه ما تعارض الآيات الأخرىٰ.

الجواب: يُضاف إلىٰ الله تقديرًا، وإلىٰ الشيطان مباشرة.

إذن فإذا قال قائل: إن الأعمال السيئة تزين للناس في رمضان، وقد ثبت أن الشياطين تصفد فيها، وتُغَلّ، ومع ذلك نرىٰ أن كثيرًا من الخلق يزين لهم سوء الأعمال في رمضان، فكيف الجمع بين الواقع؟

قلنا: هذه من تزيين النفس؛ لأنها تزين -أيضًا- سوء الأعمال.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٧) متواترة: قَرَأَ (أَلَا يَا اسْجُدُوا لِلَّهِ) أَبُو جَعْفَرٍ وَالْكِسَائِيُّ وَرُوَيْسٌ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ بِخُلْفِ الْمُطَّوِّعِيِّ، وَقَرَأَ (هَلَّا يَسْجُدُوا) الْمُطَّوِّعِيُّ فِي وَجْهِهِ الثَّانِي، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (أَلَّا يَسْجُدُوا).

المنادى، تقديره عنده: «ألَا يا قَوْم، اسجدوا لله».

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: يعلم كل خَبِيئةٍ في السماء والأرض. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحدٍ.

وقال سعيد بن المسيب: الخَبْءُ: الماء. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خَبْءُ السَّموات والأرض: ما جعل فيها من الأرزاق، المطر من السَّماء، والنَّبات من الأرض.

وهذا مناسبٌ مِن كلام الهدهد، الَّذي جعل الله فيه من الخاصيَّة ما ذكره ابن عبَّاسٍ وغيره، من[(١)] أنَّه يرىٰ الماء يَجْرِي في تُخُوم الأرض ودَوَاخِلَها.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم ما يُخْفِيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رَبُّ العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه[(٢)].

ولما كان الهدهد داعيًا إلىٰ الخير، وعبادة الله وحده والسُّجود له، نُهِيَ عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن[(٣)] ماجه، عن أبي هريرة، ﷺ، قال: «نَهَىٰ النَّبيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ وَالهُدْهُدِ وَالصُّرَدِ»[(٤)]. وإسناده صحيح[(٥)].

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يخبر تعالىٰ عَن قِيلِ سليمان ﷺ للهدهد حين أخبره عن [أهل][(٦)] سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: أصدقت في إخبارك هذا، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتك،

---

(١) في (ز): (ما إنه). (٢) أي: العرش. (٣) لوحة (١٢٩/ ب).

(٤) الصُّرَد: طائرٌ ضخمُ الرأسِ والمِنْقار، له رِيشٌ عظيم، نِصْفُه أبيض ونصفه أسْود. قال الخطابي: إنما جاء في قَتْل النَّمل عن نوعٍ منه خاصٍّ، وهو الكِبَار ذَوات الأرجُل الطِّوال لأنها قَليلةُ الأذىٰ والضَّرر. والنحلة: فلِمَا فيها من المَنْفَعة وهو العَسَلُ والشَّمع. وأما الهُدهُد والصُّرَد: فلتحريم لحمهما؛ لأنَّ الحَيَوانَ إذا نُهِي عن قَتْله ولم يكن ذلك لاحْتِرَامِه أوْ لضَرر فيه كان لتحريم لَحْمِه، ألاَ ترىٰ أنه نُهِي عن قتْل الحَيوان لِغَير مأكَلَةٍ. ويقال: إنَّ الهُدهُد مُنْتِن الريح، فصار في مَعْنىٰ الجَلاَّلة. «النهاية»، وانظر: «تاج العروس»: (٨/ ٢٧٣).

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٧٢٦٧)، وابن ماجة (٣٢٢٤)، وأحمد (٩/ ١٢٠).

(٦) سقط من (ز).

فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك.

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾، وذلك أنَّ سليمان عليه السلام كتب كتابًا إلىٰ بِلْقِيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: في جَنَاحِهِ كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلىٰ بلادِهِم فجاء إلىٰ قصر بِلْقِيس، إلىٰ الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كُوَّة هنالك بين يديها، ثم تولَّىٰ ناحية أدبًا ورِيَاسَةً، فتحيَّرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عَمَدَت إلىٰ الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دَوْلَتِهَا ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعني بكرمه: ما رَأَتْهُ من عجيب أمره، كون طائر أتىٰ به فألقاه إليها، ثم تولَّىٰ عنها أدبًا. وهذا أمرٌ لا يَقْدِرُ عليه أحدٌ من الملوك، ولا سبيل لهم إلىٰ ذلك، ثم قرأته عليهم.

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فعرفوا أنه مِن نبيِّ الله سليمان، وأنَّه لا قِبَل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حَصَّل المعنىٰ بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان، عليه السلام.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم في ذلك حديثًا في تفسيره، حيث قال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هارون بن الفضل أبو يعلىٰ الحنَّاط[1]، حدَّثنا أبو يوسف، عن سلمة بن صالح، [عن عبد الكريم][2] أبي أمية، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «**إِنِّي أَعْلَمُ آيَةً لَمْ تَنْزِلْ عَلَىٰ نَبِيٍّ قَبْلِي بَعْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ**»، قال: قلت: يا رسول الله، أي آية؟ قال: «**سَأُعَلِّمُكَهَا قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ**». قال[3]: فانتهىٰ إلىٰ الباب، فأخرج إحدىٰ قدميه، فقلت: نَسِيَ، ثم التفت إليَّ وقال ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾[4].

هذا حديثٌ غريبٌ، وإسناده ضعيف.

وقال ميمون بن مِهْرَان: كان رسول الله ﷺ يكتب: باسمك اللَّهمَّ، حتىٰ نزلت هذه الآية، فكتب: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾[5].

وقوله: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾: يقول قتادة: لا تَجَبَّروا [عليَّ][6] ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا عليَّ. ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾، قال ابن عبَّاسٍ: مُوَحِّدِين. وقال غيره: مُخْلِصِين. وقال سفيان بن عُيَيْنَة: طَائِعِين.

---

(1) في (ز): (الخياط)، وهو خطأ. (2) سقط من (ز). (3) لوحة (١٣٠/ أ).

(4) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٣٠٦)، وأبو نعيم في «تاريخ أصفهان» (٢/ ١٨٧)، وفيه عبد الكريم أبو أمية: ضعيف.

(5) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١٦٣٠٣) ولم يذكر إسناده. (6) سقط من (ز).

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: حتىٰ تحضرون وتشيرون.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: مَنُّوا إليها بعَدَدهم وعُدَدِهِمْ وقوتهم، ثم فَوَّضُوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: نحن ليس لنا عاقة [ولا بنا بَأْسٌ، إن شئتِ أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة] [(١)] عنه. وبعد هذا فالأمر إليكِ، مُرِي فينا برأيك نمتثلْهُ و[نُطِعْه] [(٢)].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَوَّضُوا أمرهم إلىٰ عِلْجَةٍ [(٣)] تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هِيَ أَحْزَم رأيًا منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنَّه لا قِبَلَ لها بجنوده وجيوشه، وما سُخِّر له من الجِنِّ والإنس والطَّير، وقد شاهَدَت مِن قضيَّة الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا، فقالت لهم: إني أخشىٰ أن نُحَارِبَه وَنَمْتَنِعَ عليه، فيقصدنا بجنودِهِ، ويهلكنا بمَنْ مَعَهُ، ويخلص إليَّ وإليكم الهَلَاك والدَّمار دون غيرنا؛ ولهذا قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

قال ابن عبَّاس: أي إذا دخلوا بلدًا عَنْوَةً أفسدوه؛ أي: خرَّبوه، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: وقصدوا مَن فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غايةَ الهوان، إمَّا بالقتل أو بالأسر.

قال ابن عبَّاس: قالت بلْقِيس: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، قال الرب عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. ثم عدلت إلىٰ المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة [(٤)]، فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: سأبعث إليه بهديَّةٍ تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعلَّه يَقْبَل ذلك ويَكُفُّ عنَّا، أو يضرب علينا خَرَاجًا نحمله إليه في كلِّ عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها الله ورضي عنها، ما كان أَعْقَلَها في إسلامها وفي شِرْكِهَا!! علمت أن الهدية تقع موقعًا من النَّاس.

وقال ابن عبَّاسٍ وغير واحدٍ: قالت لقومها: إنْ قَبِلَ الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نَبِيٌّ فاتَّبعوه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) في (ز): (نطيعه).

(٣) العِلْجَة: مؤنث عِلْج، وهو الرجل من كفار العجم.

(٤) لوحة (١٣٠/ ب).

ذكر غير واحدٍ من الْمُفَسِّرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهديةٍ عظيمةٍ من ذهبٍ وجواهر ولآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت إليه بلَبِنَةٍ[١] من ذهبٍ. والصحيح: أنها أرسلت إليه بآنيةٍ من ذهبٍ.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما: وأرسلت جواري في زي الغلمان، وغلمان في زِيِّ الجواري، وقالت: إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نَبِيٌّ. قالوا: فأمرهم [سليمان][٢] عليه السلام أن يتوضؤوا، فجعلت الجارية تُفْرغ علىٰ يدها من الماء، وجعل الغلام يغترف، فمَيَّزَهم بذلك.

وقيل: بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها، والغلام بالعكس.

وقيل: بل جعلت الجواري يغتسلن من أكفهن إلىٰ مَرَافِقِهِنَّ، والغلمان من مرافقهم إلىٰ أكفهم. ولا منافاة بين ذلك كله، والله أعلم.

وذكر بعضهم: أنَّهَا أرسلت إليه بقَدَحٍ ليملأهُ ماءً رَوَاءً[٣]، لا من السماء ولا من الأرض، فأجرىٰ الخيل حتىٰ عَرِقَت، ثم ملأه مِن ذلك، وبخرزةٍ وسلكٍ ليجعله فيها، ففعل ذلك، والله أعلم أكان ذلك أم لا؟! وأكثره مأخوذٌ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلىٰ ما جاءوا به بالكليَّة، ولا اعتنىٰ به، بل أعرض عنه، وقال منكرًا عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: أتصانعونني بمالٍ لأترككم علىٰ شرككم وملككم؟! ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: الذي أعطاني الله مِن الملك والمال والْجُنُودِ خيرٌ مما أنتم فيه، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتُّحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السَّيف.

قال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس، رضي الله عنهما: أمر سليمان الشَّيَاطين فَمَوَّهُوا له ألف قصرٍ[٤] من ذهبٍ وفِضَّةٍ. فلما رأت رسلُهَا ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهَدِيَّتِنا[٥]. وفي هذا دلالةٌ علىٰ جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزِّينة للرُّسل والقُصَّاد.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: بهديتهم، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بقتالهم، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من بلدهم، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مهانون مدحورون.

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها، وبما قال سليمان، سَمِعَت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تَسِير إليه في جنودها خاضعةً ذليلةً، معظمةً لسليمان، ناويةً متابعته في الإسلام، ولمَّا تحقَّق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسَرَّه.

---

(١) اللَّبِنَة: واحدة اللَّبِن، وهي التي يبنىٰ بها الجدار.
(٢) ليست في (ز).
(٣) في (ز): (ماء دواء)، والرواء: هو العذب.
(٤) لوحة (١٣١/ أ).
(٥) رجاله ثقات، لكنها أخبارٌ، ومثلها لا يقال بالرأي، وإنما يصح إذا كان الصحابي لم يأخذ من كتب أهل الكتاب، ولم يروِ عنهم، وهذا لا يتوفر في روايات ابن عباس، والأشبه أنها من الإسرائيليات التي لا تصدَّق ولا تكذَّب.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾

قال محمَّد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومَان قال: فلمَّا رجعت إليها الرُّسل بما قال سليمان قالت: قد - والله - عرفتُ، ما هذا بمَلِكٍ، وما لنا بِهِ من طاقةٍ، وما نصنع بمكاثرته[1] شيئًا. وبعثت إليه: إني قادمةٌ عليك[2] بملوك قومي؛ لأنظر ما أمرُكَ وما تدعونا إليه من دِينِكَ. ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه - وكان من ذهبٍ مُفصَّصٍ بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ - فجعل في سبعة أبيات، بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خَلَّفت علىٰ سلطانها: احتفظ بما قِبَلَك، وسرير ملكي، فلا يخلُصْ إليه أحدٌ مِن عباد الله، ولا يَرَينَّه أحدٌ حتىٰ آتيك. ثم شَخَصَت إلىٰ سليمان في اثني عشر [ألف][3] قَيْلٍ من ملوك اليمن، تحت يدي كل قَيْلٍ منهم ألوف كثيرة. فجعل سليمان يبعث الجنَّ يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يومٍ وليلةٍ، حتىٰ إذا دَنَت جَمَعَ مَنْ عنده من الجنِّ والإنس، مِمَّنْ تحت يديه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؟

وقال قتادة: [لما][4] بلغ سليمان أنَّها جائيَةٌ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهبٍ، وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مسترًا بالديباج والحرير، وكانت عليه تسعة مَغَالِيق، فكرِهَ أن يأخذه بعد إسلامهم. وقد عَلِمَ نبي الله أنَّهم متىٰ أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[5].

وهكذا قال عطاء الخُرَاساني[6]، والسُّدِّي، وزُهير بن محمَّد: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فتحرم عليَّ أموالهم بإسلامهم.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال مجاهد: أي: مارد مِن الْجِنِّ.

قال شُعَيب الجُبَّائي: وكان اسمه كوزن. وكذا قال محمَّد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومَان. وكذا قال أيضا وهب بن منبه.

قال أبو صالح: وكان كأنَّه جبل.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال ابن عبَّاس: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك. وقال

---

(١) في (ز): (بمكابرته)، والمثبت موافق لما في «تاريخ الطبري».
(٢) في (ز): (قادمة عليك قادمة). (٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).
(٥) هذا الكلام من الإسرائيليات التي لا تليق بنبي الله، فمثلها مردود. (٦) لوحة (١٣١/ ب).

مجاهد: مَقْعَدِكَ وقال السُّدِّي، وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أوَّل النَّهار إلىٰ أن تَزول الشمس.

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾: قال ابن عبَّاسٍ: أي قَوِيٌّ عَلَىٰ حمله، أمينٌ علىٰ ما فيه من الجوهر.

فقال سليمان عليه السلام: أريد أَعْجَلَ من ذلك. ومِن هاهنا يظهر أن النَّبيَّ سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وَهَبَهُ الله تعالىٰ له من الملك، وسَخَّر له من الجنود، الذي لم يُعْطَه أحدٌ قبله، ولا يكون لأحدٍ من بعده. وليَتَّخِذ ذلك حُجَّةً علىٰ نُبُوَّتِهِ عند بِلْقِيس وقومها؛ لأنَّ هذا خارقٌ عظيمٌ أَن يأتي بعرشها كما هو مِن بلادها قبل أن يَقْدَمُوا عليه. هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحَفَظَة. فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال ابن عبَّاس: وهو آصَفُ كاتب سليمان. وكذا رَوَىٰ محمَّد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومَان: أنه آصَفُ بن برخياء، وكان صِدِّيقًا يعلم الاسم الأعظم.

وقال قتادة: كان مؤمنًا من الإنس، واسمه آصَف (١). وكذا قال أبو صالح، والضَّحَّاك، وقتادة: إنَّه كان من الإنس، زاد قتادة: من بني إسرائيل.

وقال مجاهد: كان اسمه أسطوم.

وقال قتادة - في رواية عنه -: كان اسمه بليخا.

وقال زهير بن محمَّد: هو رجلٌ من الإنس يقال له: ذُو النُّور.

وزعم عبد الله ابن لهيعة أنه الخضر. وهو غريب جدًّا (٢).

وقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: ارفع بصرك وانظر مَدَّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يَكِلُّ بصرك إلا وهو حاضر عندك.

وقال وهب بن منبه: امْدُدْ بصرك، فلا يبلغ مَدَاه حتَّىٰ آتيك به.

فذكروا أنَّه أَمَرَهُ أن ينظر نَحْوَ اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ، ودعا الله عز وجل.

قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام. وقال الزُّهري: قال: يا إلهنا وإلهَ كُلِّ شيءٍ، إلهًا واحدًا، لا إله إلا أنت، ائْتِنِي بعرشها. قال: فتمثَّل له بين يديه.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمَّد بن إسحاق، وزهير بن محمَّد، وغيرهم (٣): لما دعا الله عز وجل وسأله أن يَأْتِيَهِ بعرش بلقيس -وكان في اليمن، وسليمان عليه السلام ببيت المقدس- غابَ السرير وغاصَ في الأَرْضِ، ثم نبع مِن بين يدي سليمان عليه السلام.

---

(١) علىٰ وزن: هَاجَر.

(٢) كل هذه الأقوال لا دليل عليها، والعلم عند الله.

(٣) لوحة (١٣٢/ أ).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه. قال: وكان هذا الذي جاء به من عُبَّاد البحْرِ، فلمَّا عاين سليمان ومَلَؤه ذلك، ورآه مستقرًّا عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: هذا من نِعَم الله عليَّ ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي: لِيَختبرني، ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: هو غنيٌّ عن العباد وعبادتهم، ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريمٌ في نفسه، وإن لم يعبده أحدٌ، فإن عظمته ليست مُفْتَقِرةً إلىٰ أحدٍ، وهذا كما قال موسىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفي «صحيح مسلم»: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ مِنكُمْ، مَا زَادَ ذَٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، [ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا][1]، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[2].

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ[3] ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

لما جيء سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعرش بِلْقِيس قبل قدومِها، أمر به أن يُغيِّر بعض صفاته، لِيَخْتَبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تُقْدِم علىٰ أنَّه عرشها أو أنَّه ليس [عرشها][4]، فقال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

قال ابن عبَّاس: نزع عنه فصوصه ومرافقه.

وقال مجاهد: أَمَر به فغُيِّرَ ما كان أحمر جُعِلَ أصفر، وما كان أصفر جُعِل أحمر: وما كان أَخْضَر جُعِلَ أحمر، غَيَّر كل شيءٍ عن حاله.

وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا.

---

(١) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «صحيح مسلم». (٢) مسلم (٢٥٧٧).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: من فوائد الآية: الإشارة إلىٰ أنها إذا كانت تعرف عرشها مع تغييره، فستعرف أن الذي يستحق العبادة هو الله؛ لأنها هي وقومها يسجدون للشمس من دون الله، كما مرَّ، فإذا كانت هي تعرف عرشها مع تنكيره، فإنه لاشك أن معرفتها بأن الله تعالىٰ هو المستحق للعبادة من باب أولىٰ.

(٤) في (ز): (به).

[وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه، ومقدَّمه مُؤَخَّرَه، وزادوا فيه ونقصوا] (١).

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: عرض (٢) عليها عَرْشَها، وقد غُيِّر ونكِّر، وزِيد فيه ونُقِص منه، فكان فيها ثباتٌ وعقلٌ، ولها لُبٌّ وَدَهَاءٌ وحَزْمٌ، فلم تقدَمْ علىٰ أنَّه هو لِبُعْد مسافته عنها، ولا أنه غيْره، لما رأت مِن آثاره وصفاته، وإن غُيِّر وبُدِّل ونُكِّر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي: يشبهه ويُقارِبه. وهذا غايةٌ في الذَّكاء والحزم.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، قال مجاهد: سليمان يقوله.

وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ هذا مِن تمام كلام سليمان ﷺ - في قول مجاهد، وسعيد بن جبير، رحمهما الله - أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وهي كانت قد صَدَّها؛ أي: منعها من عبادة الله وحده. ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهدٌ وسعيدٌ حَسَنٌ، وقاله ابن جرير أيضًا.

ثم قال ابن جرير: وَيُحْتَمَلُ أن يكون في قولِهِ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلىٰ سليمان، أو إلىٰ الله، عز وجل، تقديره: ومنعها ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: صدَّها عَن عِبادَةِ غير الله (٣) ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

قلت: ويُؤَيِّد قول مجاهد: أَنَّهَا إِنَّمَا أظهرت الإسلام بعد دخولها إلىٰ الصَّرح، كما سيأتي.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وذلك أن سليمان ﷺ أمر الشياطين فَبَنَوْا لها قصرًا عظيمًا من قوارير؛ أي: من زجاج، وَأَجْرَىٰ تحته الماء، فالَّذِي لا يَعْرِف أمره يحسب أَنَّهُ مَاءٌ، ولكن الزُّجَاج يحول بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان ﷺ إلىٰ اتِّخاذه، فقيل: إنه لما عزم علىٰ تزويجها واصطفائها لنفسه؛ ذُكِرَ له جمالُها وحسنها، ولكِن في ساقيها هُلْبٌ (٤) عظيمٌ، ومؤخَّرُ أقدامها كمُؤَخَّر الدَّابة (٥). فساءه ذلك، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا؟ - هذا قول محمد بن كعب القُرَظي، وغيره - فلمَّا دخلت وكشفت عن ساقيها، رأىٰ أحسن الناس [ساقًا وأحسنهم] (٦) قدمًا، ولكن رأىٰ علىٰ رجليها شعرًا؛ لأنها ملكةٌ ليس لها بَعْلٌ فَأَحَبَّ أن يذهب ذلك عنها فقيل لها: المُوسَىٰ؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وَكَرِهَ سليمان ذلك، وقال للجِنِّ: اصنعوا شيئًا غير الْمُوسىٰ يذهب به هذا الشعر، فصنعوا له النُّوْرَةَ (٧). وكان أول مَنِ اتُّخذت له النُّورَة، قاله ابن عبَّاسٍ، ومجاهد، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي،

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) لوحة (١٣٢/ ب).

(٣) في (ز): (عن عبادة الله، غير).

(٤) أي: شعر.

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: يقولون: إن الجن لما أن سليمان أعجبته هذه المرأة همَّ أن يتزوجها، فحسدوها علىٰ ذلك، فقالوا له: إن قدميها وساقيها قَدَمَا دابةٍ وساقَا دابةٍ؛ لأنه أقبح، وهذا ليس بصحيح، وإنما المقصود من هذا الصرح اختبار المرأة. أما القول بأن قدميها كقدمي حمار وساقيها كساقي حمار فهذا كذب بلا شك، والأصل أنها امرأة مثلق أي: امرأة من بنات آدم وليس بها شيء من هذا.

(٦) ما بين المعقوفتين في (ز): (وأحسنه).

(٧) النُّوْرَة: حجر يُحرَق ويُسوَّىٰ منه الكِلسُ ويُحلَق به شعرُ العانة. «تاج العروس».

والسُّدِّي، وابن جُرَيْج، وغيرهم[(١)].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان: ثم قال لها: ادْخُلِي الصَّرح، ليُرِيَها[(٢)] مُلْكًا هو أَعزُّ مِن ملكها، وسلطانًا هو أعظم من سلطانها. فلما رَأَتْهُ حَسِبَتْه لُجَّةً وكشفت عن ساقيها، لا تشك أنَّه ماءٌ تخوضه، فقيل لها: إِنَّه صرحٌ مُمَرَّدٌ مِن قوارير. فلمَّا وقفت علىٰ سليمان، دعاها إلىٰ عبادة الله وعَاتَبَهَا في عبادتِها الشمس[(٣)] [مِن][(٤)] دون الله.

وقال الحسن البصري: لما رأت العِلْجَةُ الصرح عرفت - واللهِ - أَن قد رأت ملكًا أعظمَ من ملكها.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن بعض أهل العِلْمِ، عن وهب بن منبِّه قال: أمر سليمان بالصَّرح، وقد عَمِلَتْه له الشَّيَاطِين مِن زُجَاجٍ، كَأَنَّه الْمَاء بياضًا. ثم أُرْسِل الماء تحته، ثم وُضِعَ له فِيهِ سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطَّيرُ والجن والإنس، ثم قال: ادخلي الصَّرح، ليُرِيَها ملكًا هو أَعَزُّ من ملكها، وسلطانًا هو أعظم مِن سلطانها، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، لا تشك أنه ماءٌ تَخُوضُه، قيل لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، فلما وقفت علىٰ سليمان، دعاها إلىٰ عبادة الله ﷻ، وعاتبها في عبادتِها الشمسِ من دون الله. فقالت بقول الزَّنَادِقَة، فوقع سليمان ساجدًا إعظامًا لما قالت، وسجد معه النَّاس، فَسُقِطَ فِي يَدَيْهَا حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلمَّا رفع سليمان رأسه قال: ويحك! ماذا قلت؟ قال -وأُنسِيَت ما قالت-: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فأسلمت وحسن إسلامها.

وقد روىٰ الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثرًا غريبًا عن ابن عبَّاسٍ، قال: حدَّثنا الحسين بن علي، عن زائدة، حدَّثني عطاء بن السائب، حدَّثنا مجاهد -ونحن في الأزد- قال: حدَّثنا ابن عبَّاسٍ قال: كان سليمان عليه السلام يَجْلِس علىٰ سَرِيرِه، ثم تُوضَعُ كراسي حوله، فَيَجْلِسُ عليها الإنس، ثم يجلس الجِنُّ، ثم الشَّيَاطِين، ثم تأتي الرِّيح فترفعهم، ثم تُظِلُّهُم الطَّير، ثم يَغْدُونَ قدر ما يشتهي الرَّاكب أَن يترك شهرًا ورواحها شهرًا، قال: فَبَيْنَمَا هو ذات يوم في مسيرٍ له، إذ تَفَقَّد الطير ففقد الهُدْهُد فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، قال: فكان عذابه إِيَّاه أن يَنْتِفَه، ثم يُلْقِيَهُ في الأرض، فلا يمتنع مِن نَمْلَةٍ ولا مِن شيءٍ مِن هوامِّ الأرض قال عطاء: وذكر سعيد بن جُبَير عن ابن عبَّاس مثل حديث مجاهد. ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ - فقرأ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قوله - ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾، وكتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إلىٰ بِلْقِيس: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، فلما ألقىٰ الهُدْهُدُ بالكتاب إليها، أُلْقِيَ في رُوعها: إِنَّه كتابٌ كريمٌ، وإنَّه من سليمان[(٥)]، وأَن لا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين. قالوا: نحن أولو قوةٍ.

---

(١) وهذه كلها أخبار لا دليل عليها، وهي أشبه بالإسرائيليات.
(٢) لوحة (١٢٣أ).
(٣) في (ز): (عبادتها الشيطان).
(٤) سقط من (ز).
(٥) لوحة (١٣٣/ ب).

قالت: إنَّ الملوك إذا دَخلُوا قريةً أفسدوها، وإنِّي مرسلةٌ إليهم بهديةٍ. فلمَّا جاءت الهَدِيَّة سليمان قال: أَتُمِدُّونني بمالٍ، ارجع إليهم. فلمَّا نظر إلىٰ الغبار - أخبرنا ابن عبَّاس قال: وكان بَيْنَ سليمان وبَيْنَ ملكة سبأ ومَنْ معها حين نظر إلىٰ الغبار كما بيننا وبين الحِيرة[1]، قال عطاء: ومجاهد حينئذٍ في الأزد - قال سليمان: أيُّكم يَأْتِينِي بعرشها؟ قال: وبَيْنَ عرشها وبين سليمان حين نظر إلىٰ الغبار مسيرة شهرين، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾. قال: وكان لسليمان مجلسٌ يجلس فيه للنَّاس، كما يجلس الأمراء ثم يقوم، قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾. قال سليمان: أُرِيدُ أعجل من ذلك. فقال الذي عنده علمٌ مِن الكتاب: أنا أنظر في كِتَابِ ربِّي، ثم آتيك بِهِ قبل أن يَرْتَدَّ إليك طرفك. قال: [فنظر إليه سُلَيْمَان فلمَّا قطع كلامه رد سليمان بصره][2]، فنبع عرشها مِن تحت قدم سليمَان، مِن تحت كُرْسِيٍّ كان سليمان يَضَعُ عليه رجله، ثم يَصْعَدُ إلىٰ السرير. قال: فلما رأىٰ سليمان عرشها [مستقرًا عنده][3] قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾، فلما جاءت قيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنَّه هو. قال: فسألته عَن أمرين، قالت لسليمان: [أُرِيد][4] ماء [من زُبْد رَوَاء][5] ليس من أرض ولا [من][6] سماء - وكان سليمان إذا سُئِل عن شيءٍ، سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين- قال: فقالت الشياطين: هذا هينٌ، أجْرِ الخيلَ ثم خذ عرقها، ثم املأْ منه الآنية. قال: فأمر بالخيل فأجريت، ثم أخذ عرقها فملأ منه الآنية. قال: وسألت عن لون الله عز وجل. قال: فوثب سليمان عن سريره، فخرَّ ساجدًا، فقال: يا ربِّ، لقد سألَتْني عن أمرٍ إنَّه يتكايد، [أي: يتعاظم][7] في قَلْبِي أن أذكره لك. قال: ارجع فقد كَفَيْتُكَهُم، قال: فرجع إلىٰ سريره فقال: ما سألت عنه؟ قالت: ما سألتك إلا عن الماء. فقال لجنوده: ما سألت عنه؟ فقالوا: ما سألتك إلا عن الماء. قال: ونَسُوه كلُّهم. قال: وقالت الشياطين لسُلَيمان: تُرِيدُ أن تتخذها لنفسك؟ فإنِ اتَّخذها لنفسه ثم وُلِدَ بَيْنَهُمَا ولدٌ، لم ننفكَّ من عبوديَّته. قال: فجعلوا صرحًا ممردًا مِن قوارير، فيه السَّمك. قال: فقيل لها: ادْخُلِي الصَّرح، فلمَّا رأته حسبته لُجَّةً، وكشفت عن سَاقَيْهَا، فإذا هي شَعْرَاء. فقال سليمان: هذا قبيحٌ، ما يُذْهِبُه؟ فقالوا: تذهبه المواسىٰ. فقال: أثر الموسىٰ قبيحٌ! قال: فجعلت الشياطين النُّورَة. قال: فهو أول من جُعلت له النُّورَة.

ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة: ما أحسنه من حديث[8]!

قلت: بل هو منكرٌ غريبٌ جدًّا، ولعله مِن أوهام عطاء بن السَّائب علىٰ ابن عبَّاس[9]، والله

(١) في (ز): (الحرة). (٢) سقط من (ز). (٣) ليست في (ز).
(٤) سقط من (ز). (٥) بياض في (ز). (٦) سقط من (ز).
(٧) مكتوب علىٰ هامش (ز).
(٨) منكر: رواه ابن أبي حاتم (١٦٤٤٨)، ورواه ابن أبي شيبة، وفيه عطاء بن السائب: له أوهام. وانظر ما قاله ابن كثير بعد سياقه لهذا الأثر.
(٩) لوحة (١٣٤/ أ).

أعلم. والأقرب في مثل هذه السِّياقات أنها متلقَّاةٌ عن أهل الكتاب، مما يُوجَد في صُحُفِهِم، كروايات كعب ووهب، سامحهما الله فيما نقلاه إلىٰ هذه الأُمَّة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، ممَّا كان وما لم يكن، ومما حُرِّفَ وبُدِّلَ ونُسِخَ. وقد أغنانا [1] الله سبحانه وتعالىٰ، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة.

أصل الصَّرح في كلام العرب: هو القَصْر، وكلُّ بناءٍ مرتفع، قال الله ﷻ إخبارًا عن فرعون - لعنه الله - أنَّه قال لوزيرِهِ هامان ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الآية [غافر:٣٦، ٣٧]. والصَّرح: قصرٌ في اليَمَنِ عالي البناء، والممرَّد؛ أي: المَبْنِيُّ بناءً محكمًا أملس، ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج. وتمريد البِناء تمليسه. ومارد: حصن بدَوْمةِ الجَنْدَلِ.

والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا مُنيفًا مِن زجاجٍ لهذه الملكة؛ لِيُرِيَهَا عظمةَ سلطانه وتَمَكُّنَهُ، فلما رأت ما آتاه الله تعالىٰ، وجلالَة ما هو فيه، وتَبَصَّرت في أمره انقادت لأمر الله، وعَرَفت أنَّه نبيٌّ كريمٌ، وملكٌ عظيمٌ، فأسلمت لله ﷻ، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾، أي: بما سلف من كُفرِها وشِرْكِهَا وعبادتها وقومِها الشمسَ من دون الله ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له، الذي خلق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديرًا.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا [2] أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ٤٥ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٧﴾

يخبر تعالىٰ عَن ثمود وما كان مِن أمرها مع نَبِيِّها صالحٍ عليه السلام حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر، كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: لِمَ تدعون بحضور [3] العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته؟! ولهذا قال: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ

---

(١) في (ز): (وقد أغنىٰ).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: من فوائد الآية: أنه يصح إطلاق الأخوة النسبية بين المسلم والكافر، فلا يقال: إذا انتفت الأخوة الإيمانية انتفت الأخوة النسبية؛ بل كل منهما إذا انتفىٰ يبقىٰ الآخر؛ لقوله: ﴿أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾.

(٣) في (ز): (بحضون).

وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: ما رَأَيْنا علىٰ وجهك ووجوه مَنْ اتبعك خيرا. وذلك أنهم - لشقائهم - كان لا يُصِيبُ أحدًا منهم سوءٌ إلا قال: هذا[١] من قِبَلِ صالح وأصحابه.

قال مجاهد: تشاءموا بهم. وهذا كما قال تعالىٰ إخبارًا عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، أي: بقضاء الله وقدره. وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٨، ١٩]. وقال هؤلاء: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: [الله][٢] يجازيكم علىٰ ذلك، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال قتادة: تُبْتَلُون بالطاعة والمعصية.

والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُسْتَدْرَجون فيمَا أنتم فيه من الضَّلَال.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ عَن طغاة ثمود ورءوسهم، الَّذِين كانوا دعاةَ قومِهِم إلىٰ الضَّلالة والكُفْر وتكذيب صالح، وآلَ بهم الحال إلىٰ أنهم عَقَرُوا النَّاقة، وهَمُّوا بقتل صالح أيضًا، بأن يُبَيِّتُوه في أهله ليلًا فيقتلوه غِيلَةً، ثم يقولوا لأوليائِهِ مِن أقربيه: إنهم ما علموا بشيءٍ من أمره، وإنَّهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنَّهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة ثمود، ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة نفرٍ، ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ، وإنما غلب هؤلاء علىٰ أمرِ ثمود؛ لأنَّهم كانوا كبراءَ فيهِم ورؤساءهم.

قال العَوْفِي، عن ابن عبَّاسٍ: هؤلاء هم الَّذِين عقروا النَّاقة؛ أي: الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم - قبَّحَهُم الله ولعنهم - وقد فعل ذلك.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالكٍ، عن ابن عبَّاسٍ: كان أسماء هؤلاء التِّسعة: دعمىٰ، ودعيم، وهرما، وهريم، وداب، وصواب، [ورياب][٣] ، ومسطع، وقُدَار بن سالف -عاقر الناقة- أي: الذي باشر

---

(١) لوحة (١٣٤/ ب). (٢) ليست في (ز). (٣) سقط من (ز).

ذلك بيده. قال الله تعالىٰ: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا يحيىٰ بن ربيعة الصَّنعاني، سمعت عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ قال: كانوا يَقْرِضُون الدَّراهم؛ يعني: أنَّهم كانوا يأخذون منها، وكأنَّهم كانوا يَتَعَامَلُون بها عددًا، كما كان العرب يَتَعامَلُون.

قال الإمام[١] مالك، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قَطْعُ الذَّهب والوَرِق من الفساد في الأرض.

وفي الحديث - الذي رواه أبو داود وغيره - : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنْ كَسْرِ سِكَّةِ[٢] المُسْلِمِينَ الجَائِزَةِ بَيْنَهُمْ إِلَّا مِنْ بَأْسٍ[٣].

والغرض أنَّ هؤلاء الكفرة الفسقة، كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكلِّ طريقٍ يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمَّة وغير ذلك.

وقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: تحالفوا وتبايعوا علىٰ قتل نبي الله صالح عليه السلام من لَقِيَه ليلًا غِيلةً. فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم.

قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا علىٰ هلاكه، فَلَمْ يصلوا إليه حتىٰ هَلَكُوا وقَوْمهم أجمعين.

وقال قتادة: توافقوا علىٰ أن يأخذوه ليلًا فيقتلوه، وذكر لنا أنَّهم بينما هم مَعَانيق[٤] إلىٰ صالح ليفتكوا به، إذ بعث الله عليهم صخرةً فأهمدتهم.

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاسٍ: هم الذين عقروا النَّاقة، قالوا حين عقروها: نُبَيِّت[٥] صالحًا وأهله وقومه فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شَهِدْنَا مِن هذا شيئًا، وما لنا به [مِن][٦] علمٍ. فدمرهم الله أجمعين.

وقال محمَّد بن إسحاق: قال هؤلاء التِّسعة بعدما عقَرُوا النَّاقة: هَلُمَّ فلنقتل صالحًا، فإن كان صادقًا عَجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذبًا كنا قد ألحقناه بناقته! فأتوه ليلًا ليبيِّتوه في أهله، فدَمَغَتْهُم الملائكة بالحِجَارَة، فلمَّا أبطؤوا علىٰ أصحابهم، أتوا مَنْزِل صالح، فَوَجَدُوهُم مُنْشَدِخين قد رُضِخُوا[٧] بالحِجَارَة، فقالوا لصالحٍ: أنت قتلتهم، ثم هَمُّوا به، فقامت عشيرته دونه، وَلَبِسُوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه[٨] أبدًا، وقد وعدكم أنَّ العذاب نازلٌ بكم في ثلاثٍ، فإن كان صادقًا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبًا، وإن كان كاذبًا

---

(١) لوحة (١٣٥/ أ).
(٢) السِّكة: الدراهم والدنانير المضروبة.
(٣) **ضعيف**: رواه أبو داود (٣٤٤٩)، وابن ماجة (٢٢٦٣)، وفيه محمد بن فَضَاءٍ: ضعيف، وأبوه: مجهول.
(٤) **معانيق**: مُسرعين.
(٥) **تبييت العدو**: أن يُقْصَد ليلًا من غير أن يعلم، فيؤخذ بغتة.
(٦) سقط من (ز).
(٧) **الرَّضْخ**: الدق والشدخ.
(٨) في (ز): (لا تقتلونهم).

فأنتم[1] من وراءِ ما تريدون. فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا النَّاقة وقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، قالوا: زعم صالحٌ أنَّه يفرغ منا إلىٰ ثلاثة أيَّام، فنحن نفرُغ منه وأهله قبل ثلاثٍ. وكان لصالح مسجد في الحِجْر عند شِعْب هناك يُصَلِّي فيه، فخرجوا إلىٰ كهفٍ؛ أي: غارٍ هناك ليلًا فقالوا: إذا جاء يُصَلِّي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلىٰ أهله، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرةً مِن الهِضَبِ[2] حيالهم، فخَشُوا أن تَشْدَخَهُم فتبادروا فانطَبَقَت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغارِ، فلا يَدْرِي قومهم أين هم، ولا يَدْرُون ما فُعِلَ بقومهم، فعذَّب الله هؤلاء هاهنا، وهؤلاء هاهنا، وأنجىٰ الله صالحًا ومن معه، ثم قرأ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي: فارغة[3] ليس فيها أحدٌ ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن عبده لوطٍ ﵇، أنه أنذر قومه نِقمةَ الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يَسْبِقْهُم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيانُ الذُّكور دونَ الإناث، وذلك فاحشةٌ عظيمةٌ، استغنىٰ الرِّجال بالرِّجال، والنِّساء بالنِّساء، قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يرىٰ بعضكم بعضًا، وتأتون في نادِيكُم المنكر؟

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: لا تعرفون شيئًا لا طبعًا ولا شرعًا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يتحرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم علىٰ صَنيعِكُم، فَأَخْرِجُوهُم من بَيْنِ أظهركم فإنَّهم لا يَصْلُحُون لمجَاوَرَتِكُم في بلادكم. فعزموا علىٰ ذلك، فدَمَّر الله عليهم، وللكافرين أمثالها.

---

(١) في (ز): (فإنهم).

(٢) الهِضَب: جمع هَضْبَة، وهي الجبل المنبسط علىٰ الأرض.

(٣) لوحة (١٣٥/ ب).

قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي: من الهالكين مَعَ قَوْمِها؛ لأَنَّها كانت ردءًا لهم علىٰ دِينِهم، وعلىٰ طَرِيقَتِهم في رضاها بأَفْعَالِهم القَبِيحَة، فكانت تدلُّ قومها علىٰ ضِيفانِ لوط؛ ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش[1] تكرمةً لنبي الله صلوات الله وسلامه عليه لا كرامةً لها.

وقوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي: ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ [مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ][2] وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾[3]؛ ولهذا قال: ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[4] أي: الذين قامت عليهم الحُجَّة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذَّبوه، وهمُّوا بإخراجه من بينهم.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي: علىٰ نِعَمِهِ علىٰ عباده، من النِّعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَىٰ، وعلىٰ ما اتَّصف به مِن الصِّفات العُلىٰ والأسماء الحُسْنىٰ، وأن يُسَلِّم علىٰ عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهُم رسلُه وأنبياؤه الكرام، عليهم من الله الصلاة والسلام[5]، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره؛ إنَّ المراد بعباده الذين اصطفىٰ: هم الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

---

(١) فإنه ما بَغَتْ ولا زَنَتْ امرأةُ نبيٍّ قط كما قال ابن عباس والسلف، وراجع ما تقدم في قصة الإفك في سورة «النور»، وما سيأتي في تفسير سورة «التحريم» آية (١٠)، وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٤٧٣)، و(١٥/ ٣٢٣ و٣٦٢)، و(٣٢/ ١١٧ و١٤٥)، و«منهاج السنة»: (٤/ ٣٤٨)، و«البداية والنهاية» (١/ ٤٤٢)، وغيرها.

(٢) سقط من (ز).

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين تَعَلَللهُ:** المطر الذي أصابهم كان حجارة من سجيل، كما قال الله تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ هذه الحجارة أهلكت، وجعلت عالي القرية سافلها؛ بمعنىٰ: أنها تهدمت عليهم، حتىٰ صار عاليها سافلها، وانهدم البناء فصار أعلاه أسفله، هذا هو الظاهر، وأما ما رُوِي من أن جبريل حملها من الأرض السفلىٰ، وأنه صعِدَ بهم، حتىٰ سمع أهل السماء نُباح كلابهم، ونهيق حميرهم ثم قلبها، فإن هذا لا دليل عليه، لا من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ، فالأقرب أن هذه الحجارة لما أصابت قريتهم صار عاليها سافلها.

(٤) هذا السوء ليس في فعل الله، ولكنه في مفعوله، فهذا المطر هو الذي حُكِم عليه بالسوء ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾، وأما فِعْل الله فإنه ليس بشَرٍّ، بل إنه من كمال العدل، والقوة، والسلطان، حيث عاقب المجرمين بما يستحقون، وعقوبة المجرم بما يستحق لا شك أنها ليست ظلمًا، وليست بسيئة، ولا يحكم علىٰ فاعلها بالسوء فتبين بهذا أنه لا ينافي قول الرسول ﷺ: **«والشر ليس إليك»**.

(٥) لوحة (١٣٦/ أ).

وقال الثوري، والسُّدِّي: هم أصحاب محمَّدٍ ﷺ ورضي عنهم أجمعين، وروي نحوه عن ابن عبَّاسٍ.

ولا منافاةَ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفىٰ، فالأنبياء بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، والقصد أنَّ الله تعالىٰ أمر رسوله ومَنِ اتَّبعه -بعد ما ذكر لهم ما فعل بأَوْلِيَائِهِ من النَّجَاةِ والنَّصر والتَّأْيِيد، وما أحل بأَعْدَائِهِ مِن الخِزْيِ والنَّكال والقَهْر- أن يحمدوه علىٰ جَمِيلِ أفعاله، وأن يسلموا علىٰ عباده المُصْطَفَيْنَ الأخيار.

وقد قال أبو بكر البزار: حدَّثنا محمَّد بن عمارة بن صبيح، حدَّثنا طَلْق بن غَنَّام، حدَّثنا الحكم ابن ظُهَيْر، عن السُّدِّي - إن شاء الله - عن أبي مالك، عن ابن عبَّاس: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيِّه ﷺ(١).

وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكارٍ علىٰ المشركين في عبادتهم مع الله آلهةً أخرىٰ.

ثم شرع تعالىٰ يُبيِّن أنَّه المنفرد بالخلق والرِّزق والتَّدْبير دون غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: تلك [السموات](٢) بِارْتِفَاعِهَا وصفائها، وما جعل فيها مِن الكواكب النَّيِّرة والنُّجوم الزَّاهرة والأفلاك الدَّائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار، والسُّهول والفَيَافِي والقفار، والأشجار والزُّروع والثِّمار، والبُحُور والحيوان علىٰ اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: جعله رزقًا للعباد، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: منظرٍ حسنٍ وشكلٍ بَهِيٍّ، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي: لم تكونوا تقدرون علىٰ إِنْبَات شجرها، وإنَّما يقدر علىٰ ذلك الخالقُ الرازقُ المستقِلُّ بذلك، المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يَعْتَرِف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً [فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا](٣) لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، أي: هم معترفون بأنَّه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثمَّ هم يعبدون معه غيره مما يَعْتَرِفُون أَنَّه لا يخلق ولا يرزق، وإنَّما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخَلْقِ والرِّزْق؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أَإِلَهٌ مَع الله يُعْبَد، وقد تَبَيَّنَ لكم، ولِكُلِّ ذي لُبٍّ مما يعرفون به أيضًا أَنَّه الخالق الرَّازق؟!

ومن المفسِّرين مَن يقول(٤): معنىٰ قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [أي: أَإِلَهٌ مع الله](٥) فعل هذا؟! وهو يرجع إلىٰ معنىٰ الأول؛ لأنَّ تقدير الجواب أنَّهم يقولون: ليس ثَمَّ أحدٌ فعل هذا مَعَهُ، بل هو المُتَفَرِّد

---

(١) البزار (٢٢٤٣/ كشف الأستار)، وفيه: الحكم بن ظُهَيْر: متروك، رُمِي بالرفض، واتهمه ابن معين. كما في «التقريب» (١٤٤٥).
(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).
(٤) لوحة (١٣٦/ ب). (٥) سقط من (ز).

به. فيقال: فكيف تعْبدون معه غيره وهو المستقل المُتفرِّد بالخلق والتَّدْبير؟ كما قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وقوله هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿أَمَّنْ﴾(١) في هذه الآيات [كلها](٢) تقديره: أَمَّن يفعل هذه الأشياء كَمَنْ لا يقدر عَلَىٰ شيءٍ منها؟ هذا معنىٰ السِّياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلىٰ ذلك، وقد قال: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون لله عِدْلًا ونظيرًا. وهكذا قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، أي: أَمَّن(٣) هو هكذا كَمَنْ ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، أي: أَمَنْ هو شَهِيدٌ علىٰ أفعال الخَلْق، حركاتِهم وسكناتِهم، يَعْلَم الغيب جَلِيلَهُ وحقيره، كَمَنْ هو لا يَعْلَم ولا يَسْمَع ولا يُبْصِر من هذه الأصنام التي عبدوها؟! ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها.

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ(٤) أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾

يقول: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارَّةً ساكنةً ثابتةً، لا تَميدُ ولا تتحرَّك بأهلها و[لا](٥) تَرْجُف بهم، فإنَّها لو كانت كذلك لما طاب عليها العَيْشُ والحياة، بل جعلها -مِن فضلِهِ ورحمته- مِهادًا بساطًا ثابتةً لا تتزلزل ولا تتحرَّك، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العَذْبة الطَّيِّبة تشقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبارٍ وصغارٍ وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا بحسب مصالح عباده في

---

(١) في (ز): (أَمَّن أَمَّن) مكررة. (٢) ليست في (ز).
(٣) في (ز): (أي ليس في هكذا).
(٤) إن هذا الحاجز ليس جسمًا غير الماء إنما هو تفاوت الثِّقْل النسبي؛ لاختلاف أجزاء الماء المركب منها الماء المالح والماء العذب، فالحاجز من طعميهما وليس جسمًا آخر فاصلًا بينهما.
(٥) سقط من (ز).

أقاليمهم وأقطارِهِم حيث ذرأَهُم في(١) أرجاء الأرض، وسَيَّرَ إليهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالًا شامخةً ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلَّا تميد بكم، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العَذْبَة والمالحة حاجزًا؛ أي: مانعًا يَمْنَعُهَا من الاختلاط، لئلَّا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإنَّ الحكمة الإلهيَّة تقتضي بقاءَ كلٍّ(٢) منهما علىٰ صفته المقصودة منه، فإنَّ البحر الحلو هو هذه الأنهار السَّارحة الجارية بين النَّاس، والمقصود منها: أن تكون عذبةً زلالًا تسقىٰ الحيوان والنَّبات والثِّمار منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها مِلحًا أُجاجًا؛ لئلَّا يفسد الهواء بِريحِهَا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]؛ ولهذا قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا؟! [أو يعبد](٣)؟! علىٰ القول [الأول و](٤) الآخر، وكلاهما متلازمٌ صحيحٌ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: في عبادتهم غيره.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ينبه تعالىٰ أنه هو المدعُوُّ عند الشدائد، المرجُوُّ عند النَّوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: مَنْ هو الذي لا يلجأ المضطر إلَّا إليه، والَّذي لا يكشف ضُرَّ المضرورين سواه.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفَّان، حدَّثنا وُهَيب، حدَّثنا خالد الحَذَّاء، عن أبي تَمِيمة الهُجَيْمي، عن رجل من بَلْهُجيم(٥) قال: قلت: يا رسول الله، إلامَ تدعو؟ قال: «**أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ، الَّذِي إِنْ مَسَّكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَ عَنْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَضْلَلْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ فَدَعَوْتَهُ رَدَّ عَلَيْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ(٦) فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَ لَكَ**». قال: قلت: أوصني. قال: «**لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا، وَلَا تَزْهَدَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ(٧) أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَقِي، وَاتَّزِرْ إِلَىٰ نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَىٰ الْكَعْبَيْنِ. وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ، فَإِنَّ إِسْبَالَ الإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ**(٨)، [**وَإِنَّ اللهَ لَا**

---

(١) في (ز): (من أرجاء). (٢) لوحة (١٣٧/ أ). (٣) في (ز): (وبعد هذا).

(٤) سقط من (ز). (٥) بلهجيم، أي: من بني الهجيم، وهم بطون في العرب.

(٦) السَّنَة: الجدب والقحط. (٧) في (ز): (يلقاك)، والمثبت من «المسند» (٣٤/ ٢٣٩) ط الرسالة.

(٨) وهذا نص صريح صحيح من المعصوم ﷺ بأن الإسبال نفسه مَخيلة، وإن ادعىٰ فاعله أنه لا يفعله للخُيَلاء. وانظر للمزيد: «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (١٠/ ٢٦٤)، و«حد الثوب والأُزرة» للعلامة/ بكر أبي زيد -رحم الله الجميع-، و«الإسبال في اللباس» للشيخ الدكتور/ سعد الخثلان (ص٢٤ وما بعدها).

يُحِبُّ المَخِيلَةَ»[١] .[[٢]

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، فذكر اسم الصحابي فقال: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد بن سلمة، حدَّثنا يونس - هو ابن عبيد - حدَّثنا عبيدة الهُجَيْمي[٣]، عن أبي تَميمَةَ الهُجَيْمي، عن جابر ابن سُلَيم الهُجَيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو مُحْتَبٍ[٤] بِشَمْلَةٍ، وقد وقع هُدْبها[٥] علىٰ قدميه، فقلت: أيكم محمَّد - أو: رسول الله؟ - فأومأ بيده إلىٰ نفسه، فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل البادية، وفِيَّ جفاؤهم، فأوصني. فقال: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ المُسْتَقِي، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ، فَلَا تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وِزْرُهُ. وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الإِزَارِ[٦] مِنَ المَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المَخِيلَةَ، وَلَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا». قال: فما سببت بعده أحدًا، ولا شاة ولا بعيرًا[٧].

وقد روىٰ أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقًا، وعندهما طَرَفٌ صالحٌ منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن هاشم، حدَّثنا عبدَةُ بن نوح، عن عمر بن الحجاج، عن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل عليَّ طاوس يعودني، فقلت له: ادْعُ الله لي يا أبا عبد الرحمن[٨]. [فقال][٩]: ادعُ لنفسك، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

وقال وهب بن منبِّه: قرأت في الكتاب الأول: إنَّ الله يقول: بعزتي إنَّه مَن اعتصم بي فإن كادته السموات ومَن فيهنَّ، والأرض بمَن فيها، فإنِّي أجعل له مِن بين ذلك مخرجًا. ومن لم يَعْتَصِم بي فإنِّي أخسف به مِن تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، فأَكِلُهُ إلىٰ نفسه[١٠].

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل - حكىٰ عنه أبو بكر محمَّد بن داود الدِّيْنَوَري، المعروف بالدُّقِّيِّ الصوفي - قال هذا الرجل: كنت أكاري علىٰ بغلٍ لي من دمشق إلىٰ بلد الزَّبَدَاني[١١]، فركب معي ذات مرةٍ رجلٌ، فمررنا علىٰ بعض الطريق، علىٰ طريقٍ غيرِ مسلوكةٍ، فقال لي: خُذْ في هذه، فإنها أقرب،

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٦٤).
(٢) سقط من (ز). وأثبتناها من «المسند».
(٣) في (ز): (عبيدة الهجيمي عن أبيه) وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٤) الاحْتِبَاء: أن يَضُم الإنسان رجلَيْه إلىٰ بَطْنه بثَوْب يَجْمَعُهُما به مع ظَهْره ويَشُدُّه عليها، وقد يكون الاحتباء باليَدَيْن عِوَض الثَّوب. «النهاية»: (١/ ٣٣٥).
(٥) الهُدْب: فضول الثوب.
(٦) لوحة (١٣٧/ ب).
(٧) صحيح: رواه أبو داود (٤٠٧٥) مختصرًا، ورواه (٤٠٨٤، ٥٢٠٩)، والترمذي (٢٧٢١، ٢٧٢٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٤٩ - ١٠٥٢) من طرق عنه، وبعضها صحيح.
(٨) في (ز): (قال: يا أبا عبد الرحمن).
(٩) سقط من (ز).
(١٠) هذا من روايات وهب بن منبه، وقد ذكر هنا أنه مما قرأه في الكتب السابقة.
(١١) الزَّبَدَاني: بلدة مشهورة بين دمشق وبَعْلَبَك، منها مخرج نهر دمشق.

فقلت: لا خبرةَ لي فيها، فقال: بل هي أقرب، فسلكناها فانتهينا إلىٰ مكانٍ وَعْرٍ ووادٍ عميقٍ، وفيه قتلىٰ كثير، فقال لي: أمسك رأس البغل حتىٰ أنزل، فنزل وتشمر، وجمع عليه ثيابه، وسلَّ سكينًا معه وقصدني، ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه، فقال: هو لي، وإنَّما أريد قتلك، فخوَّفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه وقلت: إن رأيت أن تتركني حتىٰ أصلي ركعتين؟ فقال: [صَلِّ][(١)] وعجِّل، فقمت أُصَلِّي فَأُرْتِجَ[(٢)] عليَّ القرآن فلم يَحضرني منه حرفٌ واحدٌ، فبقيت واقفًا متحيرًا وهو يقول: هِيهِ؛ افرُغ، فأجرىٰ الله علىٰ لساني قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، فإذا أنا بفارسٍ قد أقبل من فَمِ الوادي، وبيده حربةٌ، فرمىٰ بها الرجل فما أخطأت فؤاده، فخَرَّ صريعًا، فتَعَلَّقت بالفارس وقلت: بالله مَنْ أنت؟ فقال: أنا رسول الَّذِي يُجِيبُ المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالمًا[(٣)].

وذكر[(٤)] في ترجمة «فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية» قالت: هزم الكفار يوما المسلمين في غَزاةٍ، فوقف جَوَادٌ جَيِّدٌ بصاحبه، وكان من ذَوِي اليسار ومن الصُّلحاء، فقال للجَوَادِ: ما لك؟ وَيْلَك. إنما كنت أُعِدُّك لمثل هذا اليوم، فقال له الجواد: وما لي لا أقصِّر وأنت تَكِلُ علوفتي إلىٰ السُّوَّاس[(٥)] فيظلمونني ولا يطعمونني إلا القليل؟ فقال: لك عليَّ عهد الله أني لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في[(٦)] حِجْري. فجرىٰ الجواد عند ذلك، ونجَّىٰ صاحبه، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حِجْره، واشتهر أمره بين النَّاس، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك، وبلغ ملكَ الروم أمرُه، فقال: ما تُضَامُ بلدة يكون هذا الرجل فيها، واحتال ليحصِّله في بلده، فبعث إليه رجلًا من المرتدين عنده، فلما انتهىٰ إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نيته في الإسلام وقومه، حتىٰ استوثق، ثم خرجا يوما يمشيان علىٰ جنب السَّاحل، وقد واعدَ شخصًا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا علىٰ أسره، فلما اكتنفاه ليأخذاه رَفَع طرْفَه إلىٰ السماء وقال: اللَّهم، إنَّه إنَّما خَدَعني بك فاكْفِنِيهِمَا بما شئت، قال: فخرج سبعان إليهما فأخذاهما، ورجع الرجل سالمًا[(٧)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُخْلفُ قَرنًا لقرنٍ قبلهم وخَلَفًا لسلفٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي: قومًا يَخْلُف بعضهم بعضًا كما قدمنا تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ

---

(١) ليست في (ز).

(٢) أي: استغلقت عليه القراءة.

(٣) «تاريخ دمشق» (٦٨/ ٢٥١) ط الفكر.

(٤) في (ز): (وذكرت).

(٥) جمع سائس، وهو المدرب.

(٦) لوحة (١٣٨/ أ).

(٧) «تاريخ دمشق» (٧٠/ ٩) ط الفكر.

﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أمَّةً بعد أمَّةٍ، وجيلًا بعد جيل، وقومًا بعد قوم. ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقتٍ واحدٍ، ولم يجعل بعضَهم من ذُرِّيَّة بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذريَّة[١] بعض، ولكن لا يميت أحدًا حتىٰ تكون وفاة الجميع في وقتٍ واحدٍ، فكانت تضيق عليهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفسٍ واحدةٍ، ثم يكثِّرهم غاية الكثرة، ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قرونًا بعد قرونٍ، وأممًا بعد أمم، حتىٰ ينقضي الأجل وتفرغ البَرية[٢]، كما قدر ذلك تبارك وتعالىٰ، وكما أحصاهم وعَدَّهم عَدًّا، ثم يقيم القيامة، ويُوفي كلَّ عاملٍ عمله إذا بلغ الكتاب أجله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟! أي: يقدر علىٰ ذلك؟! أو أَإِلَهٌ مع الله يُعْبد؟! وقد عُلِمَ أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقلَّ تذكرَهُم فيما يرشدهم إلىٰ الحق، ويهديهم إلىٰ الصراط المستقيم!

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي[٣]: بما خلق من الدَّلائل السَّماويَّة والأرضيَّة، كما قال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الآية [الأنعام: ٩٧].

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يغيث به عباده المُجْدِبين الأزِلين[٤] القَنِطين، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يُعِيدُه، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

---

(١) في (ز): (لأن يجعلهم من ذرية بعضهم بعضًا).
(٢) في (ز): (البشرية).
(٣) لوحة (١٣٨/ ب).
(٤) الأَزْل: الضيق والشدة.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بما ينزل من مطر السَّماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]، فهو -تبارك وتعالىٰ- ينزل مِن السَّماء ماءً مباركًا فيُسْكِنُه في الأرض، ثم يخرج به [منها][١] أنواع الزُّرُوع والثِّمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوانٍ شتَّىٰ، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] ؛ ولهذا قال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا؟! وعلىٰ القول الآخر: يعبد[٢] ؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ علىٰ صحة ما[٣] تدَّعُونه من عبادة آلهةٍ أخرىٰ، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حُجَّة لهم ولا برهان، كما قال [الله][٤] : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله ﷺ أن يقول معلمًا لجميع الخلق: أنَّه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناءٌ مِنقطعٌ؛ أي: لا يعلم أحدٌ ذلك إلا الله، عز وجل، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، والآيات في[٥] هذا كثيرةٌ.

وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يشعر الخلائق السَّاكنون في السَّموات والأرض بوَقْتِ السَّاعة، كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ أي: ثَقُل علمُهَا علىٰ أهل السَّموات والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن الجَعْد، حدَّثنا أبو جعفر الرازي، عن داود بن أبي هند، عن الشَّعْبي، عن مسروق، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: مَنْ زعم أنه يعلم - يعني: النَّبيَّ ﷺ - ما يكون في غدٍ فقد أعظم علىٰ الله الفِرْيَةَ؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[٦] .

وقال قتادة: إنَّما جعل الله هذه النُّجوم لثلاث خَصْلات: جعلها زينةً للسَّماء، وجعلها يُهْتَدَىٰ بها، وجعلها رجومًا للشَّياطين، فمن تعاطىٰ فيها غير ذلك فقد قال برَأْيِه، وأخطأ حظَّه، وأضاع

---

(١) ليست في (ز). (٢) في (ز): (بعد هذا). (٣) في (ز): (من تدعونه).
(٤) ليست في (ز). (٥) لوحة (١٣٩/ أ).
(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٦٥٣٥)، ورواه مسلم (١١٧)، والترمذي (٣٠٦٨).

نصيبه وتكلَّف ما لا علم له به، وإنَّ ناسًا جَهَلَةً بأمر الله، قد أَحْدَثُوا مِن هذه النُّجوم كِهانة: مَن أعْرَس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومَنْ سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومَنْ ولد بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ولعمري ما مِن نجمٍ إلا يولد به الأحمر والأسود، والقصير والطويل، والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدَّابَّة وهذا الطير بشيءٍ من الغيب! وقضىٰ الله: أنه لا يعلم مَنْ في السموات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون.

رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه، وهو كلامٌ جليلٌ متينٌ صحيحٌ.

وقوله: ﴿بَلْ أَدْرَكَ[(١)] عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ﴾ أي: انتهىٰ علمهم وعجز عن معرفةِ وقتها.

وقرأ آخرون: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾؛ أي: تساوىٰ علمهم في ذلك، كما في «الصحيح» لمسلم: أنَّ رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة - «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[(٢)]. أي: تساوىٰ في العجز عن دَرْك ذلك علمُ المسئول والسَّائل.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿بلىٰ أَدَّارك عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: غاب.

وقال قتادة: ﴿بَلْ آدرَكَ[(٣)] عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ يعني: بجهلِهِم ربَّهم، يقول: لم يَنْفُذْ لهم إلىٰ الآخرة علم، هذا قول.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء الخُرَاساني، عن ابن عبَّاس: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِۚ﴾ حين لم ينفع العلم، وبه قال عطاء الخراساني، والسُّدِّي: أنَّ علمهم إنما يُدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم[(٤)] ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقال سفيان، عن[(٥)] عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقرأ: «بل أَدْرَكَ علمهم» قال: اضمحَلَّ علمهم في الدنيا، حين عاينوا الآخرة.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ عائد علىٰ الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: الكافرون منكم. وهكذا قال هاهنا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: شاكُّون في وجودها ووقوعها، ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: في عَمَايةٍ وجهلٍ كبيرٍ في أمرها وشأنها.

---

(١) في (ز) رسمها هكذا «بل ادرك» في جميع المواضع.

(٢) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) متواترة: قَرَأَ (بَلْ أَدْرَكَ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ الْيَزِيدِيُّ وَالْحَسَنُ، وَقَرَأَ (بَلْ آدْرَكَ) ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (بَلِ ادَّارَكَ).

(٤) لوحة (١٣٩/ ب).

(٥) في (ز): (سفيان بن عمرو).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن منكري البعث من المشركين: أنَّهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتِها عظامًا ورفاتًا وترابًا، ثم قال: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: ما زِلْنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرىٰ له حقيقةً ولا وقوعًا.

وقولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: أخذه قوم عمَّن قبلهم، مَنْ قبلهم يتلقَّاه [بعضهم][1] عن بعض، وليس له حقيقةٌ.

قال الله تعالىٰ مجيبًا لهم عما ظَنُّوه من الكفر وعدم المَعَاد: ﴿ قُلْ ﴾ -يا محمَّد- لهؤلاء: ﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: المكذِّبين بالرسل وما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلَّت بهم نِقَمُ الله وعذابه ونكاله، ونجَّىٰ الله من بينهم رسله الكرام وَمَنِ اتبعهم من المؤمنين، فدلَّ ذلك علىٰ صدق ما جاءت به الرُّسل وصحته.

ثم قال تعالىٰ مسلِّيًا لنبيِّه -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي: في كيدك وردِّ ما جئت به، فإنَّ الله مؤيدك وناصرك، ومظهرٌ دينك علىٰ مَنْ خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن[2] كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قال الله مجيبًا لهم: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمَّد ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾. [قال ابن عبَّاس: أن يكون قَرُب - أو: أن يقرب - لكم بعض الذي تستعجلون][3]. وهكذا قال مجاهد، والضَّحَّاك، وعطاء الخُراساني، وقتادة، والسُّدِّي.

وهذا هو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

وإنما دخلت «اللام» في قوله: ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾؛ لأنه ضُمِّن معنىٰ «عَجِلَ لَكُم» كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾: عَجِلَ لكم.

(١) في (ز): (بعض). (٢) لوحة (١٤٠/ أ). (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

ثم قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي: في إسباغه نعمَه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونهُ علىٰ ذلك إلا القليل منهم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي: يعلم السَّرائِر والضَّمائر، كما يعلم الظَّواهر، ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود: ٥].

ثم أخبر تعالىٰ بأنَّه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال ابن عبَّاس: يعني: وما من شيء، ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ [1] وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدىٰ والبيِّنات والفرقان: إنَّه يقُصُّ علىٰ بني إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل - ﴿ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، كاختلافهم في عيسىٰ وتباينهم فيه، فاليهود افترَوْا، والنَّصارىٰ غلَوْا، فجاء [إليهم][2] القرآن بالقولِ الوَسَط الحقِّ[3] العدل: أنَّه عبدٌ من عباد الله وأنبيائِه ورسلِه الكرام، عليه الصَّلاة والسَّلام، كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ الآية [مريم: ٣٤].

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: هدًىٰ لقلوب المؤمنين، ورحمةً لهم في العمليات.

ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ في انتقامه، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: في أمورك، وبلِّغ رسالة ربِّك، ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: أنت علىٰ الحقِّ المبين، وإن خالفك مَنْ خالفك مِمَّنْ كُتبت عليه الشَّقاوة وحقَّت عليهم كلمة ربِّك أنَّهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي: لا تسمعهم شيئًا ينفعهم،

---

(١) قال العلامة الشِّنقيطي رحمه الله: اعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يَقْتَضِي الدَّلِيلُ رُجْحَانَهُ هُوَ أَنَّ الْمَوْتَىٰ فِي قُبُورِهِمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ مَنْ كَلَّمَهُمْ، وَأَنَّ قَوْلَ عَائِشَةَ رضي الله عنها وَمَنْ تَبِعَهَا: إِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، وَمَا جَاءَ بِمَعْنَاهَا مِنَ الْآيَاتِ غَلَطٌ مِنْهَا رضي الله عنها، وَمِمَّنْ تَبِعَهَا.

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (١٣٠ب).

فكذلك هؤلاء علىٰ قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وَقْرُ الكفر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [أي][1]: إنما يستجيب لك مَنْ هو سميعٌ بصيرٌ، السمع والبصر النافعُ في القلب والبصيرة، الخاضع لله، ولما جاء عنه علىٰ ألسنة الرسل عليهم السلام.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

هذه الدَّابَّة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتَرْكِهم أوامرَ الله وتبديلِهم الدِّينَ الحقَّ، يخرج الله لهم دابةً من الأرض - [قيل][2]: من مكة. وقيل: من غيرها. كما سيأتي تفصيله - فتُكلِّم الناس علىٰ ذلك. قال ابن عبَّاس، والحسن، وقتادة - ورُوي عن علي رضي الله عنه - : تُكَلِّمُهُم كلاما؛ أي: تخاطبهم مخاطبة[3].

وقال عطاء الخُرَاساني: تُكَلِّمُهُم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. ويروىٰ هذا عن علي، واختاره ابن جرير، وفي هذا [القول][4] نظر لا يخفىٰ، والله أعلم.

وقال ابن عبَّاس - في رواية - تَجْرَحُهُم[5]. وعنه رواية، قال: كُلًّا تفعل[6]، يعني: هذا وهذا، وهو قولٌ حسن، ولا منافاة، والله أعلم.

وقد ورد في ذكر الدَّابَّة أحاديثُ وآثارٌ كثيرة[7]، فلنذكرْ ما تيسر منها، والله المستعان[8]:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان، عن فُرات، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذَيفة بن أَسِيد الغِفَاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفةٍ ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ، وَالدَّجَّالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالمَغْرِبِ[9]، وَخَسْفٌ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ**

---

(١) ليست في (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) رواه الطبري (٢٠/ ١٦) عن ابن عباس نحوه. (٤) ليست في (ز)

(٥) **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** يرىٰ بعض المفسرين أن المراد هنا الجرح ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تجرحهم بأظفارهم، قالوا: لأن الكَلْمَ يأتي بمعنىٰ الجرح؛ لقوله ﷺ: «**ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكَلْمُه يَثْعَبُ دمًا**»، ولكن هذا القول ليس بصحيح؛ لأن الأصل في الكلام هو النطق ولا معنىٰ لكونها تجرح الناس.

(٦) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٨) إلىٰ عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٦٦٠٥).

(٧) **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** أن هذه الدابة التي ذكرها الله مبهمة فلا تُعلَم صفتها، ولا كيف تخرج، ولا من أين تخرج، وما ذكر من الآثار في ذلك فكلها ضعيفة لا يعوّل عليها، وحسبنا أن نؤمن بما ذكر الله -تبارك وتعالىٰ- مطلقًا.

(٨) الكلام علىٰ الدابة في «البداية والنهاية» للمؤلف: (١٩/ ٢٤٧) ط هجر، و«شرح الطحاوية» (ص٥٠١) ط المكتب الإسلامي، و«إتحاف الجماعة» للشيخ: حمود التويجري: (٣/ ١٧٥)، و«شرح لُمْعة الاعتقاد» للعثيمين رحم الله الجميع (ص١١٠) أضواء السلف.

(٩) لوحة (١٤١/ أ).

النَّاسَ -أَوْ: تَحْشُرُ النَّاسَ- تَبِيتُ مَعَهُم حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا»(١).

وهكذا رواه مسلم وأهل السُّنن، من طرق، عن فُرات القَزَّاز، عن أبي الطُّفَيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة موقوفًا. وقال التِّرمذي: حسن صحيح. ورواه مسلم أيضًا مِن حديث عبد العزيز بن رُفَيْع، عن أبي الطفيل، عنه مرفوعًا(٢). والله أعلم.

طريق أخرىٰ: قال أبو داود الطيالسي، عن طلحة بن عمرو، وجرير بن حازم، فأما طلحة فقال: أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن عمَير اللَّيثي: أنَّ أبا الطُّفيل حدثه، عن حذَيفة بن أَسِيد الغِفَاري أبي سَريحَةَ. وأمَّا جريرٌ فقال: عن عبد الله بن عُبيد، عن رجلٍ من آل عبدالله بن مسعود - وحديث طلحة أتمُّ وأحسن - قال: ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الدَّابَّة فقال: «لَهَا ثَلاثُ خَرَجَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ، فَتَخْرُجُ خَرْجَةً مِنْ أَقْصَىٰ البَادِيَةِ، وَلَا يَدْخُلُ ذِكْرُهَا القَرْيَةَ -يَعْنِي: مَكَّةَ- ثُمَّ تَكْمُنُ زَمَانًا طَوِيلًا، ثُمَّ تَخْرُجُ خَرْجَةً أُخْرَىٰ دُونَ تِلْكَ، فَيَعْلُو ذِكْرُهَا فِي أَهْلِ البَادِيَةِ، وَيَدْخُلُ ذِكْرُهَا القَرْيَةَ»، يعني: مكة. - قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ بَيْنَمَا النَّاسُ فِي أَعْظَمِ المَسَاجِدِ عَلَىٰ اللهِ حُرْمَةً وَأَكْرَمِهَا: المَسْجِدِ الحَرَامِ، لَمْ يَرُعْهُمْ إِلَّا وَهِيَ تَرْغُو(٣) بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمَقَامِ، تَنْفُضُ عَنْ رَأْسِهَا التُّرَابَ. فَارْفَضَّ النَّاسُ عَنْهَا شَتَّىٰ وَمَعًا، وَبَقِيَتْ عِصَابَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُعْجِزُوا اللهَ، فَبَدَأَتْ بِهِمْ فَجَلَتْ وُجُوهَهُمْ حَتَّىٰ جَعَلَتْهَا كَأَنَّهَا الكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ، وَوَلَّتْ فِي الأَرْضِ لا يُدْرِكُهَا طَالِبٌ، وَلَا يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ، حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَعَوَّذُ مِنْهَا بِالصَّلَاةِ، فَتَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِهِ فَتَقُولُ: يَا فُلَانُ، الآنَ تُصَلِّي؟! فَيُقْبِلُ عَلَيْهَا فَتَسِمُهُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ تَنْطَلِقُ وَيَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي الأَمْوَالِ، وَيَصْطَحِبُونَ فِي الأَمْصَارِ، يُعْرَفُ المُؤْمِنُ مِنَ الكَافِرِ، حَتَّىٰ إِنَّ المُؤْمِنَ لَيَقُولُ: يَا كَافِرُ، اقْضِنِي حَقِّي. وَحَتَّىٰ إِنَّ الكَافِرَ لَيَقُولُ: يَا مُؤْمِنُ، اقْضِنِي حَقِّي»(٤).

ورواه ابن جرير من طريقين، عن حذيفة بن أَسِيْد موقوفًا(٥)، فالله أعلم. ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعًا(٦)، وأن ذلك فِي زمان عيسىٰ بن مريم، وهو يطوف بِالْبَيْتِ، ولكن إسناده لا يصح.

حديث آخر: قال مسلم بن الحجاج: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا محمَّد بن بشر، عن أبي

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١)، والترمذي (٢١٨٣)، والطبري (٢٣/ ٢٦٢ - شاكر)، والبغوي في «التفسير» (١٣٥٦٥).

(٢) في (ز): (موقوفًا). (٣) أي: تصوت.

(٤) ضعيف: «مسند الطيالسي» (١٠٦٩) والحاكم (٤/ ١٨٤) وصححه وقال الذهبي: طلحة بن عمرو الحضرمي ضعفوه وتركه أحمد، قلت: وهو ضعيف: فالطريق الأولىٰ: فيه طلحة بن عمرو المكي: متروك.
والطريق الثانية: فيه جهالة الرجل من آل ابن مسعود.

(٥) ورواه الطبري (٢٠/ ١٤) موقوفًا من حديث حذيفة بن أسيد من طرق لا تخلو من ضعف.

(٦) ورواه كذلك الطبري (٢٠/ ١٥) مرفوعًا من حديث حذيفة بن اليمان نحوه ولم يذكر إلا خَرْجَةً واحدة فقط، وهي الأخيرة، وإسناده لا يصح كما قال ابن كثير.

حَيَّان، عن أبي زُرْعَة، عن عبد الله بن عمرو قال: حَفظْتُ عن رسول الله ﷺ[١] حديثًا لم أنْسَهُ بعدُ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ ضُحًىٰ، وَأَيَّتُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالأُخْرَىٰ عَلَىٰ أَثَرِهَا قَرِيبًا**»[٢].

حديث آخر: روىٰ «مسلم» في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب - مولىٰ الحُرَقَة - عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: « **بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ العَامَّةِ**»[٣][٤] وله من حديث قتادة، عن الحسن، عن زياد بن رباح، عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: « **بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الأَرْضِ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَمْرَ العَامَّةِ، وَخُوَيِّصَةَ[٥] أَحَدِكُمْ** »[٦].

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدَّثنا حَرْمَلَة بن يحيىٰ، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني عَمْرُو بن الحارث وابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سِنَان بن سعد، عن أنس بن مالك ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الأَرْضِ، وَالدَّجَّالَ، وَخُوَيِّصَةَ أَحَدِكُمْ، وَأَمْرَ العَامَّةِ**». تفرَّد به[٧].

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي أيضا: حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أوس[٨] بن خالد، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: « **تَخْرُجُ دَابَّةُ الأَرْضِ، وَمَعَهَا عَصَا مُوسَىٰ وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ -عليهما السلام- فَتَخْطِمُ[٩] أَنْفَ الكَافِرِ بِالعَصَا، وَتُجْلِي وَجْهَ المُؤْمِنِ بِالخَاتَمِ، حَتَّىٰ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَىٰ الخِوَانِ[١٠] يُعْرَفُ المُؤْمِنُ مِنَ الكَافِرِ**»[١١].

ورواه الإمام أحمد، عن بَهْز وعفان ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة، به. وقال: «**فَتَخْطِمُ أَنْفَ الكَافِرِ بِالخَاتَمِ، وَتَجْلُو وَجْهَ المُؤْمِنِ بِالعَصَا، حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ الخِوَانِ الوَاحِدِ لَيَجْتَمِعُونَ فَيَقُولُ هَذَا: يَا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ هَذَا: يَا كَافِرُ**». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن

---

(١) لوحة (١٤١/ ب). (٢) مسلم (٢٩٤١)، وأبو داود (٤٣١٠)، وابن ماجة (٤٠٦٨)، وأحمد (٢/ ٢٠١).

(٣) خاصة أحدكم: الموت، وقال قتادة: أمر العامة: القيامة. «شرح مسلم» للنووي.

(٤) صحيح مسلم (٢٩٤٧).

(٥) خويصة: تصغير خاصة. ومعنىٰ الحديث: الحث علىٰ المبادرة إلىٰ الاعمال الصالحة قبل تعذُّرِها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة.

(٦) مسلم (٢٩٤١)، وابن ماجة (٤٠٥٦).

(٧) رواه ابن ماجة (٤٠٥٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٥٩).

(٨) في (ز): (أويس بن خالد)، وهو الصواب.

(٩) خَطَمَه يخطِمُه: ضرب أنفه. (١٠) الخِوان: ما يؤكل عليه الطعام.

(١١) ضعيف: الطيالسي (٢٦٨٧) وابن ماجة (٤٠٦٦)، وأحمد (٢/ ٤٩١) وفيه علي بن زيد: ضعيف. وأوس ابن خالد: مجهول.

محمَّد المؤدب، عن حماد بن سلمة، به[١].

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدَّثنا أبو غسان محمَّد بن عمرو، حدَّثنا أبو تُمَيْلة، حدَّثنا خالد بن عُبَيْد، حدَّثنا عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه قال: ذهب بي رسول الله ﷺ[٢] إلىٰ موضعٍ بالبادية، قريبٍ من مكة، فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله ﷺ: «**تَخرُجُ الدَّابَّةُ مِنْ هَذَا المَوْضِعِ**». فَإِذَا فِتْرٌ[٣] فِي شِبْرٍ.

قال ابن بُرَيدة: فحججت بعد ذلك بِسِنِين، فأرانا عصًا له، فإذا هو بعَصاي هذه، كذا وكذا[٤].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة؛ أن ابن عبَّاسٍ قال: هي دابَّةٌ ذات زَغَبٍ[٥]، لها أربع قوائمَ، تخرج من بعض أودية تِهَامة[٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله [بن][٧] رَجَاء، حدَّثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية قال: قال عبد الله: تخرج الدَّابَّة مِن صَدْعٍ من الصَّفا كجَرْي الفرس ثلاثة أيام، لم يخرج ثلثها[٨].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن أبان بن صالح قال: سئل عبد الله بن عمرو عن الدَّابَّة؟ فقال: الدابة تخرج مِن تحت صخرةٍ بجيادٍ[٩]، والله لو كنت معهم، أو لو شِئْتُ بعصايَ الصخرةَ التي تخرج الدَّابَّة من تحتها. قيل: فتصنعُ ماذا يا عبد الله بن عمرو؟ قال: تستقبل المشرق فتصرخ صرخةً تنفُذُه، ثم تستقبل الشَّام فتصرخ صرخةً تنفذه، [ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخةً تنفذه، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخةً تنفذه][١٠]، ثم تروح مِن مكَّة فتصبح بعُسْفَان. قيل: ثم مَاذَا؟ قال: لا أعلم[١١].

وعن عبد الله بن عمر، أنَّه قال: تخرج الدَّابَّة ليلة جَمْعٍ[١٢][١٣]. ورواه ابن أبي حاتم. وفي إسناده ابن البَيْلَماني.

وعن وهب بن منبه: أنَّه حكىٰ مِن كلام عُزَير عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابَّة تكلِّم النَّاس كلٌّ يَسْمَعُهَا، وتضع الحَبالىٰ قبل التَّمام، ويعود الماء العذب أُجاجًا، ويتعادىٰ الأَخِلَّاء، وتُحرَقُ الحكمة، ويُرفَعُ الْعِلْم، وَتُكَلِّم الأرض التي تليها. وفي ذلك الزَّمان يرجو الناس ما لا

---

(١) انظر التعليق السابق. (٢) لوحة (١٤٢/ أ). (٣) الفِتْر: ما بين الابهام والسبابة.

(٤) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (٤٠٦٧). (٥) الزغب: الشعر أو الريش.

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧١)، وابن أبي حاتم (١٦٦٠٢) وفيه قتادة بن دِعَامة: مدلس، فالإسناد ضعيف.

(٧) سقط من (ز).

(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٦٦٠١)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٨٠) وإسناده ضعيف فيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٩) جِياد -هي أجياد-: موضع بمكة يلي الصفا. (١٠) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(١١) **ضعيف**: في إسناده أبان بن صالح، قال الحافظ: وثَّقه الائمة، ووهم ابن حزم فجهَّله، وابن عبد البر ضعفه.
قلت: وضعفه البوصيري في «الزوائد»: ضعيف، ومحمد بن إسحاق مدلس، وقد عنعن.

(١٢) جَمْع: هي المُزْدلفة.

(١٣) **ضعيف**: رواه ابن أبي شيبة (١٥/ ١٨٠) وفي إسناده ابن البَيْلماني: ضعيف.

يبلغون، وَيَتْعَبُون فيما لا ينالون، ويعملون فيما لا يأكلون. رواه ابن أبي حاتم، عنه[(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدَّثني معاوية بن صالح، عن أبي مريم: أنَّه سَمِعَ أبا هريرة، رضي الله عنه، يقول: إنَّ الدَّابَّة فيها من كل لونٍ، ما بين قرنيها فرسخ للراكب[(٢)].

وقال ابن عبَّاس: هي مثل الحربة[(٣)] الضَّخْمَة. وعن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، أَنَّه قال: إِنَّها دابَّةٌ لها ريشٌ وزغبٌ وحافرٌ، وما لها ذَنَبٌ، ولها لِحْيَةٌ، وإنها لتخرج حُضْر[(٤)] الفرس الجواد ثلاثًا، وما خرج ثلثاها[(٥)]. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جُرَيْج، عن أبي[(٦)] الزُّبير أَنَّه وصف الدَّابة فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين[(٧)] خِنْزِيرٍ، وأذنها أذن فِيلٍ، وقرنها قرن أُيَّل[(٨)]، وعُنُقُها عنق نعامةٍ، وصدرها صدر أَسَدٍ، ولونها لون نَمِرٍ، وخاصرتها خاصرة هِرٍّ، وذنبها ذنب كَبْشٍ، وقوائمها قوائم بعيرٍ، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعًا، تخرُجُ معها عصا موسىٰ، وخاتم سليمان، فلا يبقىٰ مؤمنٌ إلا نكتَت في وجهه بعصا موسىٰ نكتةً بيضاءَ، فتَفْشُو تلك النُّكتة حتىٰ يبيضَّ لها وجهه، ولا يبقىٰ كافرٌ إلا نكتت في وجهه نُكتةً سوداءَ بخاتم سليمان، فتفشو تلك النُّكتة حتىٰ يسودَّ لها وجهه، حتىٰ إنَّ النَّاس يتبايعون في الأسواق: بِكَمْ ذَا يا مُؤمِنُ، بِكَمْ ذَا يا كافرُ؟ وحتىٰ إنَّ أهل البيت يجلسون علىٰ مائدتهم، فيعرفون مؤمنهم من كافِرِهم، ثم تقول لهم الدَّابَّة: يا فلان، أبشر، أنت من أهل الجنَّة، ويا فلان، أنت من أهل النار. فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[(٩)].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلىٰ بَيْنِ يدي الله عز وجل لِيَسْأَلهم عمَّا فعلوه في الدَّار الدُّنيا، تقريعًا وتوبيخًا، وتصغيرًا وتحقيرًا، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: مِن كلِّ قومٍ وقرنٍ فوجًا؛ أي: جماعة، ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾، كما قال تعالىٰ:

---

(١) روايات وهب بن منبه من الإسرائيليات، والأثر رواه ابن أبي حاتم (١٦٦٠٣).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٥٩٩)، وفي إسناده أبو صالح كاتب الليث: صدوق يخطئ.

(٣) في (ز): (الخربة).

(٤) الحُضْر: العَدْوُ، وهو الجري.

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٦٥٩٥) وفيه ليث بن أبي سُلَيم، أدخل في حديثه ما ليس منه فلم يتميز فتُرِكَ.

(٦) في الأصل: ابن.

(٧) لوحة (١٤٢/ ب).

(٨) الأُيَّل: الذكر من الأوعال.

(٩) هذا من كلام أبي الزبير، وأحسن أحواله أنه مرسل ضعيف، فأبو الزبير مدلس، والراوي عنه ابن جريج مدلس أيضًا، والأثر رواه ابن أبي حاتم (١٦٥٩٧).

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧].

وقوله: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: يدفعون. وقال قتادة: وَزَعَةٌ ترد أولهم علىٰ آخرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ أي: أُوقِفُوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة، ﴿قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: ويسألون عن اعتقادهم وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة، وكانوا كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، فحينئذٍ قامت عليهم[(١)] الحُجَّة، ولم يكن لهم عذرٌ يعتذرون به، كما قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٥- ٣٧]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: بُهِتُوا فلم يكن لهم جواب؛ لأنَّهم كانوا في الدَّار الدُّنيا ظَلَمَةً لأنفسهم، وقد رُدُّوا إلىٰ عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفىٰ عليه خافيةٌ.

ثم قال تعالىٰ منبهًا علىٰ قدرته التَّامَّة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديقِ أنبيائه فيما جاءوا به مِن الحَقِّ الذي لا مَحيد عنه، فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: فيه ظلام تَسْكُن بسببه حركاتهم، وتهدأ أَنْفاسُهُم، وَيَسْتَرِيحُون مِن نَصَب التَّعب في نهارهم. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أي: منيرًا مشرقًا، فبِسَبَبِ ذلك يتصرَّفون في المعايش والمكاسب، والأَسْفار والتِّجارات، وغير ذلك من شؤونهم الَّتي يحتاجون إليها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ[(٢)] فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عَن هول يوم نفخة الفَزَع في الصُّور، وهو كما جاء في الحديث: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»[(٣)]. وفي حديث [الصُّور][(٤)] أن إسرافيل هو الَّذِي ينفخ فيه بأمر الله تعالىٰ، فينفخ فيه أولًا نفخة الفزع ويطوِّلها، وذلك في آخر عمر الدُّنيا، حين تقوم السَّاعة علىٰ شرار النَّاس مِن الأحياء، فيَفْزَعُ مَنْ في السَّموات ومَنْ في

---

(١) لوحة (١٤٣/ أ).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: المراد بالحسنة الجنس يعني: أيُّ حسنة يأتي بها الإنسان فله خير منها، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «من هَمَّ بحسنة فعملها»، بحسنة نكرة يشمل جميع الحسنات.

(٣) صحيح: رواه أحمد في المسند (٢/ ١٩٢).

(٤) سقط من (ز).

الأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، وهم الشُّهداء، فإنَّهم [أحياء][١] عند ربِّهم يُرزَقُون[٢] .

قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدَّثنا عُبَيد الله بن مُعاذ العنبري، حدَّثنا أبي، حدَّثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، سمعت يعقوب بن عاصم بن عُرْوَة بن مسعود الثقفي، سمعت عبد الله بن عمرو ﷺ، وجاءه رجلٌ فقال: ما هذا الحديث الذي تُحدث أنَّ السَّاعة تقوم إلىٰ كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله - أو: لا إله إلا الله - أو كلمة نحوهما، لقد هَمَمْت ألَّا أُحدِّث أحدًا شيئًا أبدًا، إنَّما قلت: إنكم سترون[٣] بعد قليل أمرًا عظيمًا يخرب البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: « يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ -[لا أدري أَرْبَعِينَ][٤] يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا- فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ. ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ[٥] جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَقْبِضَهُ ». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، قال: « فَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ[٦] ،لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَٰلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ[٧] ،حَسَنٌ عَيْشُهُمْ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا». قال: « وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ[٨] حَوْضَ إِبِلِهِ». قال: « فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاس، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ، أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ[٩] ، أَوْ قَالَ: الظِّلُّ -نعمان الشَّاكُّ- فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ. فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ». قال: «فَذَٰلِكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَٰلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»[١٠] .

وقوله: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا»، «الليت»: هو صَفْحَة العنق؛ أي:

---

(١) سقط من (ز).

(٢) تقدم. انظر الآية (٢١٠) من سورة البقرة، والآية (١٣) من سورة الأنعام، والإسناد ضعيف، والفِقْرة التي استشهد بها المصنف بأن الذي ينفخ في الصور هو إسرافيل: صحيح.

(٣) لوحة (١٤٣/ ب).

(٤) سقط من (ز)، وهو في «الصحيح».

(٥) كَبِد الجبل: جوفه.

(٦) أي: يكونون في سرعتهم الىٰ الشر وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطير، وفي العدوان وظلم بعضهم بعضاً في أخلاق السباع العادية.

(٧) أي: كثير.

(٨) أي: يطيِّنه ويُصلحه.

(٩) الطَّلُّ: الذي ينزل من السماء في الصَّحْوِ، والطل أيضًا: أضعف المطر.

(١٠) مسلم (٢٩٤٠).

أمال عنقه ليستمعه من السَّماء جيدًا، فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصَّعق، وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لربِّ العالمين[(١)]، وهو النُّشور من القبور لجميع الخلائق؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ - قُرئ بالمد، وبغيره[(٢)] على الفعل، وكلٌّ بمعنًى[(٣)] واحدٍ - و ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين مطيعين، لا يتخلف أحدٌ عن أمره، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ[(٤)]﴾ [الروم: ٢٥]. وفي حديث الصور: أنَّه في النَّفخة الثَّالِثَة يأمر الله الأرواح، فتُوضَع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قُبُورِها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح، تتوهج أرواح المؤمنين نورًا، وأرواح الكافرين ظُلمةً، فيقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي لَتَرْجِعَنَّ كلُّ روحٍ إلى جسدها. فتجيء الأرواح إلى أجسادها، فتَدِبُّ فيها كما يَدِبُّ السُّمُّ في اللديغ، ثم يقومون فينفضون التُّراب من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣][(٥)].

وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: تراها كأنَّها ثابتةٌ باقيةٌ على ما كانت عليه، وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب؛ أي: تزولُ عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وقوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: يَفْعَل ذلك بقُدْرَتِهِ العظيمة الَّذِي قد أَتْقَنَ كلَّ مَا خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عليمٌ بما يَفْعَل عباده من خيرٍ وشرٍّ فيُجَازِيهم عليه، ثم بيَّن تعالى حال السُّعداء والأشقياء يومئذٍ فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾، قال قتادة: بالإخلاص. وقال زين العابدين: هي لا إله إلا الله. وقد بيَّن في المكان الآخر أن له عشرَ أمثالِها﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

---

(١) سيأتي الكلام عن عدد النفخات عند تفسير الآية (٦٨) من سورة الزمر.

(٢) **متواترة:** قَرَأَ (أَتَوْهُ) حَفْصٌ وَحَمْزَةُ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (آتُوهُ).

(٣) في (ز): (بفعل واحد). (٤) لوحة (١٤٤/ أ).

(٥) انظر تفسير الآية (٢١٠) من سورة البقرة، وتفسير الآية (١٣) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: مَنْ لَقِيَ الله مسيئًا لا حسنة له، أو: قد رَجَحَت سيئاته علىٰ حسناته، كلٌّ بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١)﴾.

وقال ابن مسعودٍ وأبو هريرة وابن عبَّاس، ﷺ، وأنس بن مالك، وعطاء، وسعيد بن جبير(٢)، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النَّخعي، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمَّد بن كعب، وزيد ابن أسلم، والزهري، والسُّدِّي، والضحاك، والحسن، وقتادة، وابن زيد، في قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: بالشِّرك.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن رسوله وآمرًا له أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، كما قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]. وإضافة الربوبية إلىٰ البلدة علىٰ سَبيل التَّشريف [لها](٣) والاعتناء بها، كما قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حرامًا -قدرًا وشرعًا- بتحريمه لها، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عبَّاسٍ قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ(٤)، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلا يُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إِلَّا لِمَنْ عَرَّفَهَا، وَلا يُخْتَلَىٰ خَلاهَا(٥)»(٦) الحديث بتمامه. وقد ثبت في «الصحاح» والحسان و«المسانيد» من طرق جماعة تُفِيدُ القطع، كما هو مُبيَّنٌ في موضعه من كتاب «الأحكام»(٧)، ولله الحمد.

وقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، من باب عطف العام علىٰ الخاص؛ أي: هو رب هذه البلدة، وربُّ كل شيءٍ ومليكه، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحدين المخلصين المُنْقادين لأمره المطيعين [له](٨).

---

(١) في (ز): ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، وهو موضع آخر.

(٢) لوحة (١٤٤/ ب). (٣) سقط من (ز). (٤) أي: لا يقطع.

(٥) أي: لا يُجزُّ، والخَلَىٰ: الرَّطب من النبات.

(٦) البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، وأبو داود (٢٠١٨)، والترمذي (١٥٩٠)، والنسائي (٥/ ٢٠٣)، وأحمد (١/ ٢٥٩).

(٧) كتاب «الأحكام» للمؤلف ﵀ طُبع قريبًا في دار النوادر بالشام -فرج الله عن أهله وكان لهم- في ثلاثة مجلدات، وهذه القطعة التي طبعت هي كل ما وجد منه، فإن المؤلف لم يتمه.

(٨) سقط من (ز).

وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾[(١)] أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وكقوله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣]، أي: أنا مُبلِّغٌ ومُنذِرٌ، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لي سوية[(٢)(٣)] الرُّسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم مِن أداء الرسالة إليهم، وخلَصُوا من عهدتهم، وحساب أُمَمِهم على الله، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: لله الحمد الذي لا يُعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه؛ ولهذا قال: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيدٌ على كلِّ شيءٍ.

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي عمر الحوضي حفص بن عمر: حدَّثنا أبو أمية بن يعلى الثقفي، حدَّثنا سعيد بن أبي سعيد، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لا يَغْتَرَّنَّ أَحَدُكُمْ بِاللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَوْ كَانَ غَافِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ البَعُوضَةَ وَالخَرْدَلَةَ وَالذَّرَّةَ»**[(٤)].

[وقال أيضًا][(٥)]: حدَّثنا محمَّد بن يحيى، حدَّثنا نصر بن علي، قال أبي: أخبرني خالد[(٦)] بن قيس، عن مطر، عن عمر بن عبد العزيز قال: فلو كان الله مُغْفِلًا شيئًا لأغفل ما تُعَفِّي[(٧)] الرِّياح من أثر قدَمَي ابن آدم[(٨)]. وقد ذُكِر عن الإمام أحمد، رحمه الله، أنه كان يُنْشِد هذين البيتين، إما له أو لغيره:

إِذَا مَا خَلَوتَ الدهْرَ يومًا فَلا تَقُلْ ... خَلَوتُ وَلكن قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ ساعةً ... وَلا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: التلاوة تنقسم إلى قسمين: تلاوة لفظية، وتلاوة معنوية، فالتلاوة الأولى: قراءة القرآن، والتلاوة الثانية: العمل بما جاء به القرآن، مأخوذ من تلا الشيء يتلوه إذا تبعه وصار تِلْوًا له، فقول الرسول: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ يشمل هذا وهذا.

(٢) يقال: هما على سوية من هذا الأمر، أي: على سواء.

(٣) لوحة (١٤٥/ أ).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٦٥٩)، إسناده معلق لم يذكر أول سنده فالأثر منقطع، وفيه أبو أمية وهو إسماعيل ابن يعلى ضعفه الدارقطني. وقال ابن حبان: لا تحل الرواية عنه إلا للخواص. انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٩٣)، وقال الذهبي في «الضعفاء»: بصري متروك.

(٥) بياض في (ز).

(٦) في (ز): (أخبرني عن خالد).

(٧) أي: تمحو.

(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٦٦٠).

سُورَةُ القَصَص

تفسير سورة القصص [وهي مكية][1]

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، حدَّثنا وَكِيع، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن معد يكرب قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسٓمٓ﴾ المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم مَن أخذها من رسول الله ﷺ: خَبَّاب بن الأرَت. قال: فأتينا خَبَّاب بن الأرت، فقرأها علينا رضي الله عنه[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ[3] وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ[4] وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

قد تقدَّم الكلام علىٰ الحروف المقطَّعة.

وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الواضِح الجلِي الكاشف عن حقائقِ الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائنٌ.

[وقوله:][5] ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] أي: نذكر لك [الأمر علىٰ][6] ما كان عليه، كأنَّك تشاهِد

---

(١) ليست في (ز).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٤١٩) وفيه أبو إسحاق: مدلس، ومعديكرب: لم يوثِّقه غير ابن حبَّان.

(٣) لوحة (١٤٥ / ب).

(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللَّهُ: المراد من الأرض أرض الشَّام حيث ورَّثهم أرض الكَنْعَانِيِّين وهم الذين كانوا يُعْرَفُون بالجبَابِرَةِ، أمَّا أرض مصر فإنَّ بني إسرائيلَ لم يرجعوا إليها بعد أن خرجوا منها هكذا يرىٰ بعضهم، وأكثر المفسِّرين أنَّ بني إسرائيل عادُوا إلىٰ أرض مصر وملكُوهَا وسادوا أهلها، والله أعلم.

(٥) بياض في (ز).

(٦) في (ز): «كما كان عليه».

وكأنَّك حاضرٌ.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تكبَّر وتجبَّر وطغىٰ. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: أصنافًا، قد صرف كل صنفٍ فيما يريد من أمور دولته.

وقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلَّط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخسِّ الأعمال، ويكُدُّهُم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءَهُم، ويستحيي نساءهم، إهانةً لهم واحتقارًا، وخوفًا مِن أن يوجد منهم الغلَام الذي كان قد تخوَّف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلامٌ، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته علىٰ يَدَيْه. وكانت القبط قد تلقَّوْا هذا مِن بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قولِ إبراهيم الخليل، حين ورد الدِّيار المصريَّة، وجرىٰ له مع جبارها ما جرىٰ، حين أخذ سارَّة ليتَّخِذَها جاريةً، فصانها الله منه، ومنعه منها بقدرته وسلطانه. فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيُولَد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك ملك مِصْر علىٰ يديه، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمَرَ بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذرٌ من قدرٍ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكلِّ أجلٍ كتابٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾. وقد فعل تعالىٰ ذلك بهم، كما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ[1] وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، أراد فرعون بحولِهِ وقوَّتِهِ أن ينجو من موسىٰ، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القَدَرِي، بل نفذ حكمه وجرىٰ قلمه في القِدَم بأن يكون إهلاك فرعون علىٰ يديه، بل يكون هذا الغُلَام الذي احترزت من وجوده، وقتلتْ بسببه ألوفًا من الولدان إنما منشؤه ومربَّاه علىٰ فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامِكَ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه[2]، وحتفك، وهلاكك وهلاك جنودك علىٰ يديه؛ لتعلم أنَّ ربَّ السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم، العزيز القوي الشديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) لوحة (١٤٦/ أ).

(٢) في (ز): «تنفذه».

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ (١) وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

ذكروا أنَّ فرعون لمَّا أكثر مِن قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبطُ أن يُفْني بني إسرائيل فيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشَّاقَّة. فقالوا لفرعون: إنه يوشك -إن استمر هذا الحال- أن يموت شيوخهم، وغلمانهم لا يعيشون، ونساؤُهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك. فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون عليه السلام في السَّنة التي يتركون فيها [الولدان][٢] وولد موسىٰ عليه السلام في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناسٌ موكَّلُون بذلك، وقوابل[٣] يَدُرْنَ علىٰ النِّساء، فمَن رأَيْنَهَا قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقتُ ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط، فإذا ولدت المرأة جاريةً تركنها وذهبن، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذبَّاحون، بأيديهم الشِّفار المرهفة، فقتلوه ومضوا قَبَّحَهُم الله. فلما حملت أم موسىٰ [به][٤] عليه السلام لم يظهر عليها مخايِلُ الحمل كغيرها، ولم تفطن لها[٥] الدَّايات، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا وأحبته حبًّا زائدًا، وكان موسىٰ عليه السلام لا يراه أحدٌ إلا أحبه، فالسَّعيد من أحبَّه طبعًا وشرعًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩]. فلما ضاقت ذرعًا به ألهمت في سِرِّها، وألقي في خلدها، ونفث في رُوعها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. وذلك أنه كانت دارها علىٰ حافَّة النِّيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدَت فيه مهدًا، وجعلت ترضع[٦] ولدها، فإذا دخل عليها أحدٌ مِمَّنْ تخاف جعلته في ذلك التَّابوت، وسيَّرته في البحر، [وربطته][٧] بحبلٍ عندها. فلما كان [ذات يوم][٨] دخل عليها مَنْ تخافه، فذَهَبَت فوضعته في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع المَاء واحتمله، حتىٰ مرَّ به علىٰ دار فرعون،

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: من الغرائب أَنَّ مَن يُخَاف عليه يُلْقَىٰ فيما فيه هلاكه؛ لأنَّ إلقاءه في البحر معناه: استعجالُ الهلاك له، إذ أنَّ المعروف أنَّه يموت إذا أُلْقِي في البحر، وهذا من آيات الله عز وجل أن يكون موسىٰ ملقًىٰ في مكان الخوف فلا يموت.

(٢) سقط من (ز).

(٣) القَوَابِل: جمع قَابِلَة، وهي المرأةُ التي تساعد الوَالِدَة تتلقىٰ الولد عند الوِلَادَة. «المعجم الوسيط».

(٤) سقط من (ز).

(٥) لوحة (١٤٦/ ب).

(٦) في (ز): «ترجع».

(٧) سقط من (ز).

(٨) في (ز): «في بعض الأيام».

فالتقطه الجواري فاحتملنه، فذهبن به إلىٰ امرأةِ فِرْعَون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يَفْتَتِنَّ عليها في فتحه دونها. فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد [الله][١] من كَرَامَتِها وشقاوة بعلها[٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ قال محمَّد بن إسحاق وغيره: «اللام» هنا لام العاقبة لا لام التَّعليل؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شكَّ أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نُظر إلىٰ معنىٰ السِّياق فإنَّه تبقىٰ اللَّام للتعليل؛ لأن معناه أن الله تعالىٰ، قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا فيكون أبلغ [في إبطال][٣] حذرهم منه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾[٤].

وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتابًا إلىٰ قومٍ من القدرية، في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النَّافذة في علمه السابق: «وموسىٰ في علم الله السَّابق لفرعون عدو وحزن، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾، وقلتم أنتم: لو شاء فرعون أن يكون لموسىٰ وليًّا ونصيرًا، والله يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا[٥] وَحَزَنًا﴾».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يعني: أن فرعون لما رآه همَّ بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحَاجُّ عنه وتَذب دونه، وتحببه إلىٰ فرعون، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾ فقال: أمَّا لك فَنَعَم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها الله به، وأهلكه الله علىٰ يديه، وقد تقدَّم في حديث الفتون في سورة «طه»[٦] هذه القصَّة بطولها، من رواية ابن عبَّاس مرفوعًا عن النسائي وغيره.

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنَّة بسببه. وقولها: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أي: أرادت أن تتخذه ولدًا [وتتبنَّاه][٧] وذلك أنه لم يكن لها ولد منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون ما أراد الله منهُ بالْتِقَاطِهِم إيَّاه، من الحكمةِ العظيمةِ البالغة، والحجَّة القاطعة[٨].

---

(١) سقط من (ز). (٢) بعلها: زوجها. (٣) سقط من (ز).

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: ما ذهب إليه ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ من أنَّ اللَّام للتَّعليل باعتبار عِلْم الله، له وجه ويقال: التقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحزنًا في عِلْم الله، وليس تعليلًا للالتقاط، هذا له وجه، لكن الأقرب أن اللام هنا للعاقبة وليست للتعليل.

(٥) لوحة (١٤٧/ أ). (٦) انظر حديث الفتون عند تفسير الآية (٣٩) من سورة طه.

(٧) في (ز): «وتثبت له». (٨) في (ز): «الحكمة العظيمة والحجة البالغة».

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞وَحَرَّمۡنَا
عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن فؤاد أمِّ موسىٰ، حين ذهب ولدها في البحر، إنَّه أصبح فارغًا؛ أي: مِن كل شيءٍ من أمور الدُّنيا إلا من موسىٰ. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو عبيدة، والضَّحَّاك، والحسن البصري، وقتادة، وغيرهم.

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ أي: إن كادت مِن شدَّة وجدها وحُزْنِها وأسفها لَتُظهر أنه ذهب لها ولدٌ، وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبَّتها وصبَّرها، قال الله تعالىٰ: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: أمرت ابنتها -وكانت كبيرةً تعي ما يقال لها- فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبِعي أثره، وخذِي خبرَهُ، وتَطَلَّبي شأنه من نَوَاحِي البلد. فخرجت لذلك، ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾، قال ابن عبَّاس: عن جانبٍ.

وقال مجاهد: ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾: عن بعيد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنَّها لا تريده.

وذلك أنه لما استقرَّ [١] موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بدار فرعون، وأحبَّته امرأة الملك، واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضِعَ التي في دارهم، فلم يقبل منها ثديًا، وأبىٰ أن يقبل شيئًا من ذلك. فخرجوا به إلىٰ سوقٍ لعلهم يجدون امرأةً تصلح لرضاعته، فلمَّا رأته بأيديهم عرفته، ولَمْ تظهر ذلك ولم يَشْعُرُوا بها.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: تحريمًا قَدَرِيًّا، وذلك لكرامة الله له صانه عن أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ولأن الله -سبحانه- جعل ذلك سببًا إلىٰ رجوعه إلىٰ أمِّه، لتُرْضِعَه وهي آمنةٌ، بعدما كانت خائفةً. فلما رأتْهم [أخته] [٢] حائرين فيمن يرضعه قالت: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

قال ابن عبَّاس: لما قالَتْ ذلك أخذوها، وشكُّوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك نصحهم له وشَفَقَتهم عليه؟ فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظُؤُورة [٣][٤] الملك ورجاء منفعته. فأرسلوها، فلمَّا قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم، ذهبوا معها إلىٰ منزلهم، فدخلوا بِهِ علىٰ أُمِّه، فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا. وذهب البشير إلىٰ امرأة الملك، فاستدعت أم

---

(١) لوحة (١٤٧ب). (٢) ليست في (ز).
(٣) في (ز): «صهر الملك»، والصَّواب ما أثبتناه مِن حديث الفتون.
(٤) الظئورة: مصدر كالفحولة والبعولة، والظئْر: العاطفة علىٰ غير ولدها، المرضعة له.

موسىٰ، وأحسنت إليها، وأعطتها عطاءً جزيلًا وهي لا تعرف أنَّها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها. ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها وقالت: إنَّ لي بعلًا وأولادًا، ولا أقدِرُ علىٰ المقام عندك. ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلتُ. فأجابتها امرأة فرعون إلىٰ ذلك، وأَجْرَتْ عليها النَّفقة والصِّلات والكساوي والإحسان الجزيل. فرجعت أم موسىٰ بولدها راضيةً مرضيَّةً، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمنًا، في عزٍّ وجاهٍ ورزقٍ دارٍّ[(١)]. ولهذا جاء في الحديث: «مَثَلُ الَّذِي يَعْمَلُ وَيَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الخَيْرَ، كَمَثَلِ أُمِّ مُوسَىٰ تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا»[(٢)] ولم يكن بين الشِّدَّة والفرج إلا القليل: يوم وليلة، أو نحوه، والله سبحانه أعلم، فسبحان مَن بيديه الأمر! ما شاء كان وما لَمْ يشأْ لم يكُن، الذي يجعل لمن اتَّقاه بعد كل همٍّ فرجًا، وبعد كلِّ ضيقٍ مخرجًا. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: به، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليه: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فيما وعدَها مِن ردِّه إليها، وجعله من[(٣)] المرسلين. فحينئذٍ تحقَّقت برده إليها أنه كائنٌ منه رسول من المرسلين، فعامَلَتْهُ في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشرعًا.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: حُكْمَ الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهًا إلىٰ النفوس، وعاقبته محمودةٌ في نفس الأمر، كما قال تعالىٰ: [﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال تعالىٰ:][(٤)] ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ[(٥)] عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) أي: كثير.

(٢) ضعيف: وعلَّته الإرسال رواه سعيد بن منصور (٣٦١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٨)، والبيهقي (٩/ ٢٧) وأبو داود «مراسيل» (٣٣٢) نحوه، ولفظه: «مَثَلُ الَّذِينَ يَغْزُونَ مِنْ أُمَّتِي وَيَأْخُذُونَ الجُعْلَ مَثَلُ أُمِّ مُوسَىٰ تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا»، وضعفه الشيخ الألباني في «الضَّعيفة» (٤٥٠٠).

(٣) لوحة (١٤٨/ أ). (٤) سقط من (ز).

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: يُستفاد من قوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ جواز الاستغاثة بالمخلوقِ، لكنَّه مشروطٌ بما يُفيد فيه، أمَّا ما لا يُفيد فيه فلا يجوزُ، فعلىٰ هذا إذا استغاث بالميِّت فلا يجوزُ؛ لأنَّه لا يُفيدُه، وإذا استغاث بحيٍّ فيما لا يقدر عليه فلا يجوز؛ لأنَّه لا يُفيدُه، وإذا استغاث بحيٍّ فيما يقدرُ عليه فهو جائزٌ، إذن الاستغاثة جائزةٌ بشرط أن تكون فيما يُفيدُ، وذلك في حيٍّ قادرٍ علىٰ دفع الشِّدَّة.

لما ذكر تعالىٰ مبدأ أمر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر أنَّه لمَّا بلغ أشدَّه واستوىٰ، آتاه الله حكمًا وعلمًا -قال مجاهد: يعني النبوة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم ذكر تعالىٰ سبب وصوله إلىٰ ما كان تعالىٰ قَدَّر له من النُّبوَّة والتَّكليم: قضية قتله ذلك القبطي، الذي كان سبب خروجه من الدِّيار المصريَّة إلىٰ بلاد مدين، فقال تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن جُريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عبَّاس: وذلك بين المغرب والعشاء.

وقال ابن المنْكَدر، عن عطاء بن يسار، عن ابن عبَّاس: كان ذلك نصف النهار. وكذلك قال سعيد بن جبير، وعِكْرمة، والسُّدِّي، وقتادة.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتضاربان ويتنازعان، ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: قبطي، قاله ابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق. فاستغاث الإسرائيلي بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ووجد موسىٰ فرصةً، وهي غفلة النَّاس، فعمد إلىٰ القبطي ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

قال مجاهد: وكزه؛ أي: طعنه بجُمْع[1] كفه[2]. وقال قتادة: وكزه بعصا[3] كانت معه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: كان فيها حتفه فمات، قال موسىٰ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ[4] ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ[5] إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: بما جعلت لي من الجاه والعزَّة والمنعة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعينًا[6] ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

---

(١) في (ز): «بجميع».
(٢) جُمْع الكف: قبضتها.
(٣) في (ز): «بعصاه».
(٤) لوحة (١٤٨/ ب).
(٥) **قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:** في هذه الآية: إثبات أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد يخطئون قبل الرِّسالة، فقبل الرِّسالة ممكن أن يقعَ منهم هذا الشيء؛ لكن لا يقع منهم فسَاد الأخلاق، وشرب الخمر وما أشبه ذَلِكَ، أمَّا الغيرة والحمية فهذا قد يقع منهم.
(٦) **قال أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ:** رُوِيَ عن عطاء، قيل له: إنَّ أخًا لي يأخذ بقلمِهِ وإنَّما يحسب ما يدخل وما يخرج وله عيالٌ ولو ترك ذلك لاحتاج وأدان. فقال: مَن الرَّأس؟ قال: خالد بن عبد الله القسري. قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ وقال عطاء: فلا يحلُّ لأحدٍ أن يعين ظالمًا ولا يكتب له ولا يصحبه، وإنَّه إن فعل شيئًا من ذلك فقد صار معينًا للظَّالمين، وفي الحديث: «**يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ الظَّلَمَةُ وَأَشْبَاهُ الظَّلَمَةِ وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ حَتَّىٰ مَنْ لَاقَ لَهُمْ دَوَاةً أَوْ بَرَىٰ لَهُمْ قَلَمًا فَيُجْمَعُونَ فِي تَابُوتٍ مِنْ حَدِيدٍ فَيُرْمَىٰ بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ**» لاق الدواة: أصلحها.

قلت: ذكر الزيلعي هذا الحديث في «تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الزمخشري»، وقال عنه: غريب، وذكره الديلمي في «الفردوس».

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن موسىٰ عليه السلام لما قتل ذلك القبطي: إنَّه أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾أي: من مَعَرَّة ما فعل، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾أي: يتلفَّتُ ويتوقَّع[1] ما يكون من هذا الأمر، فمرَّ في بعض الطُّرق، فإذا ذاك الذي استنصره بالأمس علىٰ ذلكَ القبطي يقاتل آخر، فلمَّا مرَّ موسىٰ استصرخه علىٰ الآخر، فقال له موسىٰ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾أي: ظاهر الغواية كثير الشَّرِّ. ثم عزم علىٰ البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوَرِه وضعفه وذِلَّتِهِ أنَّ موسىٰ إنَّما يُريدُ قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يَدْفع عن نفسه: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾وذلك لأنَّه لَم يعلم به إلا هو وموسىٰ عليه السلام فلمَّا سَمِعَهَا ذلك القبطيُّ لقفَها مِن فَمِهِ، ثم ذهب بها إلىٰ باب فرعون فألقاها عنده، فعَلِمَ بذلك، فاشتدَّ حنقه، وعزم علىٰ قتل موسىٰ، فطلبوه فبعثوا وراءَهُ ليحضروه لذلك.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قال تعالىٰ: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾وصفه بالرُّجُولية؛ لأنَّه خالف الطَّريق، فسلك طريقًا أقرب من طريقِ الذين بُعثوا وراءه، فسبق إلىٰ موسىٰ، فقال له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾أي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾أي: من البلد ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا[2] نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

لما أخبرَهُ ذلك الرَّجُل بما تمالأَ عليه فرعون ودَوْلَتُه في أمره، خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهيةٍ ونعمةٍ ورئاسةٍ، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾أي: يتلفَّت ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾أي: من فرعون وملئه. فذكروا أنَّ الله تبارك وتعالى بعث له ملكًا علىٰ فرسٍ، فأرشده إلىٰ الطريق، فالله أعلم.

---

(١) في (ز): «أي: يتقلب أي يتوقع».

(٢) لوحة (١٤٩/ أ).

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: أخذ طريقًا سالكًا مَهْيعا[1] فرح بذلك، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: إلىٰ الطريق الأقوم. ففعل الله به ذلك، وهداه إلىٰ الطريق المستقيم في الدُّنيا والآخرة، فَجُعِلَ هاديًا مهديًّا.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: ولما وصل إلىٰ مدين وورد ماءها، وكان لها بئرٌ تَرده رِعاء[2] الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: جماعة ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرِّعاء؛ لئلا يُؤذَيا. فلما رآهما موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَقَّ لهما ورحمهما، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما خبركما لا تَرِدَان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: لا يحصل لنا سقيٌ إلا بعد فراغ هؤلاء، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فهذا الحال الملجئ لنا إلىٰ ما ترىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا عبد الله، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عَمْرو[3] بن ميمون الأوْدي، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا ورد ماءَ مدين، وجد عليه أمَّةً من النَّاس يسقون، قال: فلمَّا فرغوا أعادوا الصَّخرة علىٰ البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدَّثتاه، فأتىٰ الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتىٰ رُوِيَتِ الغنمُ. إسنادٌ صحيحٌ[4].

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عبَّاس: سار موسىٰ من مصر إلىٰ مدين، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فما وصل مَدْيَن حتىٰ سقطت نعل قدمه. وجلس[5] في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجُوعِ، وإن[6] خضرة البقل لترىٰ من داخل جوفه وإنه لمحتاجٌ إلىٰ شق تمرةٍ.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ قال ابن عبَّاس، وابن مسعود، والسُّدِّي: جَلَسَ تحت شجرة.

وقال ابن جرير: حدَّثني الحسين بن عمرو العَنْقَزِيّ، حدَّثنا أبي، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: حَثَثْتُ علىٰ جملٍ ليلتين، حتىٰ صَبَّحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوىٰ إليها موسىٰ، فإذا شجرة خضراء ترف، فأهوىٰ إليها جملي -وكان جائعًا- فأخذها جملي فعالجها ساعة، ثم لفظها، فدعوت الله لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم انصرفت[7].

وفي رواية عن ابن مسعود: أنه ذهب إلىٰ الشجرة التي كلَّم الله منها موسىٰ، كما سيأتي والله أعلم. وقال السُّدِّي: كانت من شجر السَّمُر[8].

---

(١) أي: بينًا.
(٢) رِعَاء: جمع راع.
(٣) في (ز): «عروة بن ميمون»، وهو خطأ.
(٤) رواه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٠).
(٥) في (ز): «ولما جلس».
(٦) لوحة (١٤٩/ ب).
(٧) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٣١).
(٨) السَّمُر: واحده سمرة، وهو شجر عظام له شوك.

وقال عطاء بن السائب: لما قال موسىٰ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾، أسمعَ المرأة.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ[1] عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾

لما رجعت المرأتان سراعًا بالغنم إلىٰ أبيهما، أنكر حالهما ومجيئهما سريعًا، فسألهما عن خبرهما، فقصَّتا عليه ما فعل موسىٰ ﵇. فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلىٰ أبيها، قال الله تعالىٰ: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أي: مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر ﵁ أنَّه قال: كانت مستَتِرَةً بكُمِّ دِرْعها[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا [أبي، حدَّثنا][3] أبو نعيم، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر ﵁: جاءت تمشي علىٰ استحياء، قائلة بثوبها[4] علىٰ وجهها، ليست بسلفعٍ خَرَّاجة ولَّاجة. هذا إسناد صحيح[5].

قال الجوهري: السَّلفَع من الرِّجال: الجسُورُ، ومن النِّساء: الجريئة السَّليطة، ومن النُّوق: الشديدة.

﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾، وهذا تأدُّب في[6] العبارة، لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يُوهِمَ ريبة، بل قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ يعني: ليُثيبَك ويُكافِئَك علىٰ سقيك لغنمنا، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: ذكر له ما كان من أمره، وما جرىٰ له من السبب الذي خرج مِن أَجلِهِ مِن بلده، ﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. يقول: طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا، فقد خرجتَ مِن مملكتهم فلا حُكْم لهم في بلادنا. ولهذا قال: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد اختلف المفسِّرون في هذا الرجل: مَنْ هو؟ علىٰ أقوال: أحدها: أنه شعيبٌ النَّبيُّ ﵇ الذي أرسل إلىٰ أهلِ مدين. وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد. ورواه ابن أبي حاتم.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: يستفاد منها أيضًا: جواز خطبة الإنسان الرجل لابنته.
(٢) درع المرأة: قميصها. (٣) سقط من (ز). (٤) أي: رافعة له علىٰ وجهها.
(٥) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٤٠٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٠). (٦) لوحة (١٥٠/ أ).

حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد العزيز الأويسي [(١)]، حدَّثنا مالك بن أنس؛ أنَّه بلغه أنَّ شعيبًا هو الَّذِي قصَّ عليه موسىٰ القصصَ قال: ﴿لَا تَخَفۡ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [(٢)].

وقد روىٰ الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي أنه وفد علىٰ رسول الله ﷺ فقال له: «مَرْحَبًا بِقَوْمِ شُعَيْبٍ وَأَخْتَانِ [(٣)] مُوسَىٰ، هُدِيتَ» [(٤)].

وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن مِن قوم شعيب. وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسىٰ عليه السلام بمدَّةٍ طويلةٍ؛ لأنَّه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود:٨٩]. وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنَصِّ القرآن، وقد عَلِم أنَّه كان بين موسىٰ والخليل -عليهما السلام- مدَّةٌ طويلةٌ تزيد علىٰ أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحدٍ. وما قيل: إن شعيبًا عاش مدةً طويلةً، إنما هو -والله أعلم- احترازٌ من هذا الإشكال، ثم من المقوِّي لكونه ليس بشعيب أنَّه لو كان إيَّاه لأَوْشَك أن يُنَصَّ علىٰ اسمه في القرآن هاهنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التَّصريح بذكره في قصة موسىٰ لم يصح إسناده، كما سنذكره قريبًا إن شاء الله. ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: «ثبرون»، والله أعلم.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: و«أثرون» هو ابن أخي شعيب عليه السلام.

وعن أبي حمزة [(٥)] عن ابن عبَّاس: الذي استأجر موسىٰ «يثرىٰ» [صاحب مدين] [(٦)] رواه ابن جرير، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا [بخبر] [(٧)] ولا خبر تجب به [(٨)] الحجة في ذلك [(٩)].

وقوله: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ أي: قالت إحدىٰ ابنتي هذا الرَّجل. قيل: هي التي ذهبت وراء موسىٰ عليه السلام قالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ أي: لرَعْيَة هذه الغنم.

قال عمر، وابن عبَّاس، وشُريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمَّد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت: إنَّه رفع الصَّخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإنَّه لما جئت معه تقدمتُ أمامهُ، فقال لي: كوني من

---

(١) في (ز): «الأودي»، والمثبت هو الصواب.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٤٠) عن مالك بلاغًا فهو إسناد منقطع.

(٣) الأختان: كل ما كان من قِبَل المرأة كأبيها وأخيها.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٥٥/ ٦٣٦٤) وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٤٢١- بتحقيقي) وقال الألباني في «الضعيفة»: منكر، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: وفيه من لم أعرفهم.

(٥) في (ز): «أبي سمرة»، والمثبت موافق لما في «الطبري». (٦) سقط من (ز).

(٧) سقط من (ز). (٨) في (ز): «فيه». (٩) لوحة (١٥٠ب).

ورائي، فإذا اجتنبت الطَّريق فاحذفي[١] لي بحصاةٍ أعلم بها كيف الطريق لأتَهدَّىٰ[٢] إليه.

قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: أفرس النَّاس ثلاثة: أبو بكر حين تفرَّس في عُمَر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وصاحبة موسىٰ حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[٣].

قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ أي: طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعىٰ عنه ويزوجه إحدىٰ ابنتيه هاتين. قال شُعَيب الجبَّائي: وهما صَفُورَا، وَلِيَّا.

وقال محمَّد بن إسحاق: صَفُورَا وشرقَا، ويقال: ليَّا. وقد استدلَّ أصحاب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية علىٰ صحَّة البيع فيما إذا قال: «بعتُكَ أحد هذين العبدين بمائة. فقال: اشتريت» أنَّه يصح، والله أعلم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: علىٰ أن ترعىٰ عليَّ ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي ثمان كفاية، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: لا أُشَاقك، ولا أُؤَاذِيك، ولا أُمَارِيك.

وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي، فيما إذا قال: «بعتُكَ هذا بعشرةٍ نقدًا، أو بعشرين نسيئةً» أنَّه يصح، ويختار المشتَرِي بأيِّهما أخذه صح. وحُمل الحديث المروي في «سنن أبي داود»: «مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ، فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا[٤] أَوِ الرِّبَا»[٥] علىٰ هذا المذهب. وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث علىٰ هذا المذهب نظر، ليس هذا موضع بسطه لطوله. والله أعلم.

ثم قد استدلَّ أصحاب الإمام أحمد ومَنْ تبعهم، في صحَّة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية، واستأنسوا[٦] في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمَّد بن يزيد بن ماجة في كتابه «السنن»، حيث قال: «باب استئجار الأجير علىٰ طعام بطنِهِ» حدَّثنا محمَّد بن المصفَّىٰ الحِمْصي، حدَّثنا بَقيَّة بن الوليد، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن أبي أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رَبَاح قال: سمعت عُتبَةَ بن النُّدَّر[٧] يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ ﴿طسم﴾، حتىٰ إذا بلغ قصة موسىٰ قال: «إِنَّ مُوسَىٰ أَجَّرَ نَفْسَهُ ثَمَانِيَ سِنِينَ أَوْ: عَشْرَ سِنِينَ عَلَىٰ عِفَّةِ فَرْجِهِ وَطَعَامِ بَطْنِهِ»[٨].

---

(١) أي: ارْمِي. (٢) في بعض النسخ المطبوعة: (لأهْتَدِي إليه).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٨٣٨) وفيه أبو عبيدة: عبد الله بن عتبة لم يسمع من أبيه ابن مسعود، فالإسناد منقطع.

(٤) الوكس: النقص؛ أي: أنقصهما.

(٥) حسن: رواه أبو داود (٣٤٦١). (٦) لوحة (١٥١/ أ).

(٧) في (ز): «المنذر»، وهو تصحيف، والمثبت هو الصواب.

(٨) ضعيف جدًّا: رواه ابن ماجة (٢٤٤٤)، وفيه بقيَّة: مدلِّس وقد عنعن، وسلمة بن علي: متروك.
والإسناد الثاني فيه ابن لهيعة وقد اختلط.

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف؛ لأنَّ مسلمة بن علي وهو الخُشَني الدمشقي البلاطيّ ضعيف الرواية عند الأئمة، ولكن قد رُوي من وجه آخر، وفيه نظر أيضًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا صفوان، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا عبد الله بن لَهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رَبَاح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُّدَّر [(١)] السلمي - صاحب رسول الله ﷺ- يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مُوسَىٰ آجَرَ نَفْسَهُ بِعِفَّةِ فَرْجِهِ، وَطُعْمَةِ بَطْنِهِ» [(٢)].

وقوله تعالىٰ إخبارًا عن موسىٰ ﷺ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، يقول: إن موسىٰ قال لصِهْرِه: الأمر علىٰ ما قلتُ مِن أنَّك استأجَرْتَني علىٰ ثمانِ سنين، فإن أتممتَ عشرًا فمن عندي، فأنا متىٰ فعلت أقلهما فقد بَرِئْتُ مِن العهد، وخرجت من الشرط؛ ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي: فلا حرج عليَّ مع أن الكامل -وإن كان مباحًا لكنَّه فاضل من جهةٍ أخرىٰ، بدليل من خارج. كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ﴾ [البقرة:٢٠٣].

وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي ﷺ وكان كثير الصِّيام، وسأله عن الصوم في السفر -فقال: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ» [(٣)] مع أنَّ فعل الصِّيام راجحٌ مِن دليلٍ آخَرَ.

هذا وقد دلَّ الدَّليل علىٰ أنَّ موسىٰ ﷺ إنَّما فعل أكمل الأجلين وأتمهما؛ قال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحيم، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا مَرْوان بن شُجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: سألني يهوديٌّ من أهل الحيرة: أي الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ فقلت: لا أدري حتىٰ [(٤)] أقدم علىٰ حَبْر العربِ فأسأله. فقدمت فسألت ابن عبَّاسٍ ﷺ فقال: قضىٰ أكثرهما وأطيبهما، إنَّ رسول الله إذا قال فعل [(٥)]. هكذا رواه البخاري وهكذا رواه حكيم ابن جبير وغيره، عن سعيد بن جبير. ووقع في «حديث الفُتُون» [(٦)]، من رواية القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: أنَّ الذي سأله رجل من أهل النصرانيَّة. والأول أشبه، والله أعلم، وقد رُوي من حديث ابن عبَّاس مرفوعًا، قال ابن جرير: حدَّثنا أحمد بن محمَّد الطوسي، حدَّثنا الحميدي، حدَّثنا سفيان، حدَّثني إبراهيم بن يحيىٰ بن أبي يعقوب، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «سَأَلْتُ جِبْرِيلَ: أَيَّ الأَجَلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَىٰ قَالَ: أَكْمَلَهُمَا وَأَتَمَّهُمَا» [(٧)].

---

(١) انظر التعليق قبل السابق.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٨٥٦) وفيه ابن لهيعة اختلط بعد احتراق كتبه. انظر التعليق السابق.

(٣) انظر البخاري (١٩٤٣)، ومسلم (١١٢١)، وأبو داود (٢٤٠٢)، والترمذي (٧١١)، والنسائي (٤/ ١٨٧) وابن ماجة (١٦٦٢).

(٤) لوحة (١٥١/ ب).

(٥) البخاري (٢٦٨٤).

(٦) انظر الآية (٣٩) من سورة طه.

(٧) منكر: رواه الطبري (٢٠/ ٤٤) وقال الحافظ في «لسان الميزان» (١/ ١٢٤): إبراهيم بن يحيىٰ العدني، عن الحكم

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الحميدي، عن سفيان -وهو ابن عيينة- حدَّثني إبراهيم بن يحيىٰ بن أبي يعقوب -وكان من أسناني أو أصغر مني- فذكره (١).

قلت: وإبراهيم هذا ليس بمعروف.

ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي، عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم (٢) بن أعين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ، فذكره. ثم قال: لا نعرفه مرفوعًا عن ابن عبَّاس إلا من هذا الوجه (٣).

وقال ابن أبي حاتم: قُرئ علىٰ يونس بن عبد الأعلىٰ، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، عن يحيىٰ بن ميمون الحضرمي، عن يوسف بن تيرَح: أنَّ رسول الله ﷺ سئل: أيُّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قال: «**لا عِلْمَ لِي**». فسأل [رسول الله ﷺ جبريلَ، فقال جبريلُ: لا علم لي، فسأل] (٤) جبريلُ ملكًا فوقه فقال: لا علمَ لِي. فسأل ذلك المَلَك ربه ﷻ عمَّا سأله عنه جبريل عمَّا سأله عنه محمَّد ﷺ فقال الرب ﷻ: «[**قَضَىٰ**] (٥) **أَبَرَّهُمَا وَأَبْقَاهُمَا** -أو قال: **أَزْكَاهُمَا**» (٦).

وهذا مرسلٌ، وقد جاء مرسلًا مِن وجهٍ آخر، وقال سُنَيد: حدَّثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج قال: قال مجاهد: إنَّ النَّبيَّ ﷺ سأل جبريل: «**أَيُّ الأَجَلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَىٰ؟**» فقال: سوف أسأل إسرافيل. فسأله فقال: سوف أسأل الرَّبَّ ﷻ. فسأله فقال: «**أَبَرَّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا**» (٧).

طريق أخرىٰ مرسلة أيضًا: قال ابن جرير: حدَّثنا ابن وكيع، حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو مَعْشَر، عن محمَّد بن كعب القُرظي قال: سُئِل رسول الله (٨) ﷺ: أيُّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قال: «**أَوْفَاهُمَا وَأَتَمَّهُمَا**» (٩).

فهذه طرقٌ متعاضدةٌ، ثم قد روي [هذا] (١٠) مرفوعًا من رواية أبي ذر ﷺ، قال الحافظُ أبو بكر

= ابن أبان، وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكر وساق الخبر.

قلت: والرَّاجح رواية ابن عبَّاس السابقة أنها موقوفة، ولكن مثلها لا يُقَالُ بالرَّأي، فهي في حكم المرفوع.

(١) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٦٨٦٥) وهو ضعيف كسابقه.

(٢) في (ز): «عن إبراهيم عن إبراهيم بن أعين».

(٣) قال الحافظ في «لسان الميزان» (١/ ١٢٤): إبراهيم بن يحيىٰ العدني عن الحكم بن أبان وعنه سفيان بن عيينة بخبرٍ منكرٍ والرجل نكرةٌ.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٦٨٦٦)، والبزار (٢٢٤٥- كشف) عن يوسف بن سرج ورجاله ثقات لكنه مرسل. ورواه الطبري (٢٠/ ٦٨) عن مجاهد. وكلاهما مرسل.

ورواه الطبري (٢٠/ ٦٨) عن محمَّد بن كعب القرظي مرسلًا.

(٧) **مرسل**: رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٨). (٨) لوحة (١٥٢/ أ).

(٩) **مرسل**: رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٨). (١٠) ليست في (ز).

البزَّار: حدَّثنا أبو عبيد الله يحيىٰ بن محمَّد بن السكن، حدَّثنا إسحاق بن إدريس، حدَّثنا عَوْبَد بن أبي عمران الجَوْني، عن أبيه، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِل: أيُّ الأجلَيْنِ قَضىٰ موسىٰ؟ قال: «أَوْفَاهُمَا وَأَبَرَّهُمَا»، قال: «وَإِنْ سُئِلْتَ أَيَّ المَرْأَتَيْنِ تَزَوَّجَ؟ فَقُلِ: الصُّغْرَىٰ مِنْهُمَا»(١).

ثم قال البزار: لا نعلم يروىٰ عن أبي ذرٍّ إلا بهذا الإسناد.

وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عَوبَد بن أبي عمران -وهو ضعيف- ثم قد روي أيضًا نحوه من حديث عتبة بن النُّدَّر بزيادةٍ غريبةٍ جدًّا، فقال أبو بكر البزار: حدَّثنا عمر بن الخطاب السجستاني، حدَّثنا يحيىٰ بن بُكَيْر، حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثنا الحارث بن يزيد عن علي بن رباح اللَّخمي قال: سمعت عتبة بن النّدر يقول: إنَّ رسول الله ﷺ سُئِل: أيُّ الأجلين قَضىٰ موسىٰ؟ قال: «أَبَرُّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا». ثم قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَرَادَ فُرَاقَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ امْرَأَتَهُ أَنْ تَسْأَلَ أَبَاهَا أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعِيشُونَ بِهِ. فَأَعْطَاهَا مَا وَلَدَتْ غَنَمُهُ فِي ذَلِكَ العَامِ مِنْ قَالِبِ لَوْنٍ(٢). قَالَ: فَمَا مَرَّتْ شَاةٌ إِلَّا ضَرَبَ مُوسَىٰ جَنْبَهَا بِعَصَاهُ، فَوَلَدَتْ قَوَالِبَ أَلْوَانٍ كُلُّهَا، وَوَلَدَتْ ثِنْتَيْنِ وَثَلَاثًا، كُلُّ شَاةٍ لَيْسَ فِيهَا فَشُوشٌ(٣) وَلَا ضَبُوبٌ، وَلَا كَمِيشَةٌ تُفَوِّتُ الكَفَّ، وَلَا ثَعُولٌ». وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا افْتَتَحْتُمُ الشَّامَ فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَقَايَا مِنْهَا، وَهِيَ السَّامِرِيَّةُ»(٤).

هكذا أورده البزار. وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسطَ مِن هذا فقال:

حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الله بن بُكَير، حدَّثني عبد الله ابن لهيعة (ح) وحدَّثنا أبو زرعة، حدَّثنا صفوان، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن عليِّ بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُّدَّر السلمي -صاحب رسول الله ﷺ- يحدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ آجَرَ نَفْسَهُ بِعِفَّةِ فَرْجِهِ وَطُعْمَةِ بَطْنِهِ. فَلَمَّا وَفَّىٰ الأَجَلَ(٥) -قيل: يا رسول الله، أي الأجلين؟ قال:- أَبَرَّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا. فَلَمَّا أَرَادَ فِرَاقَ شُعَيْبٍ أَمَرَ امْرَأَتَهُ أَنْ تَسْأَلَ أَبَاهَا أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعِيشُونَ بِهِ، فَأَعْطَاهَا مَا وَلَدَتْ مِنْ غَنَمِهِ مِنْ قَالِب(٦) لَوْنٍ مِنْ وَلَدِ ذَلِكَ العَامِ،

---

(١) **ضعيف جدًّا**: رواه البزار (٢٢٤٤). قال البزار: وفيه: إسحاق بن إدريس وهو متروك.

(٢) أي: ما جاء من الغَنَم علىٰ غير ألوان أمهاتها، كأن لونها قد انقلب.

(٣) الفَشوش -بزنة أكول-: التي ينفش لبنها مِن غيرِ حلبٍ؛ أي: يجري؛ وذلك لسعة الإحليل، ومثله الفتوح والثرور. والضَّبوب -بزنة الفشوش-: الضَّيِّقة ثقب الإحليل، علىٰ عكس الفشوش.
وأمَّا الكميشة: فهي الصَّغيرة الضِّرع؛ لانكماش ضرعها وتقلُّصه، والثعول -بزنة ما سبق-: الشَّاة التي لها حلمة زائدة.

(٤) **ضعيف**: رواه البزار (٢٢٤٦- كشف) وفيه ابن لهيعة وقد اختلط. وانظر تعليق ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.
تنبيه: المستفادُ مِن كلِّ هذه الرِّوايات أنَّ موسىٰ قضىٰ أكثرَ الأجلين كما هو ثابتٌ في رواية ابن عبَّاس عند البخاري، وأمَّا ما وَرَدَ مِن أمورٍ أخرىٰ كطريقةِ خروجه، وأخذه الشِّياه، ونحو ذلك فكلُّ هذا لا دليل صحيح عليه.

(٥) لوحة (١٥٢/ ب).

(٦) في (ز): «قابلة». بدون نقط.

وَكَانَتْ غَنَمُهُ سَوْدَاءَ حَسْنَاءَ، فَانْطَلَقَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ عَصَاهُ فَسَمَلَهَا مِنْ طَرَفِهَا، ثُمَّ وَضَعَهَا فِي أَدْنَىٰ الحَوْضِ، ثُمَّ أَوْرَدَهَا فَسَقَاهَا، وَوَقَفَ مُوسَىٰ بِإِزَاءِ الحَوْضِ فَلَمْ تَصْدُرْ مِنْهَا شَاةٌ إِلَّا ضَرَبَ جَنْبَهَا شَاةً شَاةً قَالَ: فَأَتْأَمَتْ وَأَثْلَثَتْ(١)(٢)، وَوَضَعَتْ كُلُّهَا قَوَالِبَ أَلْوَانٍ، إِلَّا شَاةً أَوْ شَاتَيْنِ لَيْسَ فِيهَا فَشُوشٌ(٣)». قال يحيىٰ: «وَلَا ضَبُونٌ»(٤). وقال صفوان: «وَلَا ضَبُوبٌ». قال أبو زرعة: الصَّواب: «ضَبُوبٌ- وَلَا عَزُوزٌ(٥) وَلَا ثَعُولٌ، وَلَا كَمِيشَةَ تُفَوِّتُ الكَفَّ»، قال النَّبيُّ ﷺ: «فَلَوِ افْتَتَحْتُمُ الشَّامَ وَجَدْتُمْ بَقَايَا تِلْكَ الغَنَمِ وَهِيَ السَّامِرِيَّةُ»(٦).

وحدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا صفوان قال: سمعت الوليد قال: فسألت ابن لَهِيعة: ما الفشوش؟ قال: التي تَفُشُّ بلبنها واسعة الشَّخب(٧). قلت: [فما الضبوب؟ قال: الطَّويلة الضَّرع تجره. قلت: فما العَزُوز؟ قال: ضيقة الشَّخب. قلت](٨) فما الثَّعُول؟ قال: التي ليس لها ضرع [إلا](٩) كهيئة حلمتين. قلت: فما الكميشة؟ قال(١٠): التي تُفَوِّت الكف، كميشة الضرع، صغير لا يدركه الكف.

مدار هذا الحديث علىٰ عبد الله ابن لهيعة المصري -وفي حفظه سوء- وأخشىٰ أن يكون رفعه خطأً، والله أعلم. وينبغي أن يُرْوَىٰ ليس فيها فشوش ولا عزوز، ولا ضبوب ولا ثَعول ولا كميشة؛ لتذكر كل صفةٍ ناقصةٍ مع ما يقابلها من الصِّفات الناقصة. وقد روىٰ ابن جرير من كلام أنس بن مالك -موقوفًا عليه- ما يُقَارِب بعضه بإسنادٍ جيِّدٍ، فقال: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا معاذ بن هشام، حدَّثنا أبي، عن قتادة، حدَّثنا(١١) أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما دعا نبي الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ صاحبه إلىٰ الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كلُّ شاةٍ ولدت علىٰ [غير](١٢) لونها فذلك ولدها لَكَ. فعمد فرفع حبالًا علىٰ الماء، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولةً، فولدن كلهن بلقًا إلا شاةً واحدةً، فذهب بأولادهن ذلك العام(١٣).

---

(١) في (ز): «فأنمت واثنتيت».

(٢) أي: وضعت اثنان أو ثلاثة في بطن. (٣) في (ز): «قنوش».

(٤) في (ز): «صبوب».

(٥) العزوز: الشَّاة البكيئةُ القليلة اللَّبن، الضَّيِّقة الإحليل.

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٦٨٦٧) وفي إسناده ابن لهيعة وقد اختلط.

(٧) الشَّخب: ما خرج من اللبن إذا احتلب.

(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٩) سقط من (ز). (١٠) في (ز): «قلت».

(١١) في (ز): «عن أنس»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(١٢) سقط من (ز). (١٣) حسن: رواه الطبري (٢٠/ ٩٨).

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا (١) لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ (٢) أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قضىٰ أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأتقاهما، وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي: الأكمل منهما (٣)، والله أعلم.

قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: قضىٰ عشر سنين، وبعدها عشرًا أخر. وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قالوا: كان موسىٰ قد اشتاق إلىٰ بلادِهِ وأهلِهِ، فعزم علىٰ زيارتهم في خفيةٍ مِن فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلةٍ مطيرةٍ مظلمةٍ باردةٍ، فنزل منزلًا، فجعل كلَّما أورىٰ زَنْدَهُ (٤) لا يُضيء شيئًا، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي: رأىٰ نارًا تضيء له علىٰ بعد، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: حتىٰ أذهب إليها، ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾. وذلك لأنَّه كان قد أضل الطريق، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قطعة منها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تتدفؤون بها من البرد.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾،

---

(١) لوحة (١٥٣أ).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فهي مباركةٌ في ذلك الوقتِ بالنِّسبة لموسىٰ أمَّا بعد ذلك فليس لها صبغةٌ دينيةٌ وليست مقدَّسةً بعد ذلك؛ لأنَّ هذا خاصٌّ في وقتِ تكليمِ موسَىٰ، ومنه أيضًا غار حراء بالنِّسبة لرسولِ الله ﷺ مبارك لرسول الله حين نزولِ الوحي عليه فيهِ أمَّا بعد ذلك فليس له صبغةٌ دينيَّةٌ، ولهذا من البدعة أن الإنسان يذهب إلىٰ غارِ حراء ليزوره متعبدًا وكذلك غارُ ثورٍ، أمَّا إذا كان يزوره اطلاعًا فقط فإن هذا لا بأس به ولا حرج؛ لأنَّه لا يريد التَّعبُّد، ومنه أنَّ هذه الأماكن التي لا يثبت لها قدسيةٌ عامَّةٌ تكون قدسيَّتُها خاصَّة متىٰ؟ في حينها فقط، ولمن هي له أيضًا وأما لغيره فلا يكون لها هذا الحكم.

(٣) في الأصل: «بينهما».

(٤) أي: أخرج ناره، والزَّند: العود الذي تقدح به النار.

فهذا ممَّا يُرشِد إلىٰ أن موسىٰ قصد النَّار إلىٰ جهة القِبْلَة، والجبل الغربي عن يمينِهِ، والنَّار وجدها تَضْطَرِم في شجرةٍ خضراءَ في لحف[1] الجبل ممَّا يلي الوادي، فوقف باهتًا في أمرها، فناداه ربُّه: ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

قال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: رأيت الشجرة التي نودي منها[2] موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ سمرة خضراء ترف[3]. إسناده مقارب.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن بعض مَنْ لا يتهم، عن وهب بن منبِّه قال: شجرة من العُلَّيق[4]، وبعض أهل الكتاب يقول: من العوسج [وقال قتادة: هي من العوسج، وعصاه من العوسج[5]][6].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: الَّذي يخاطبُكَ ويكلِّمُك هو ربُّ العالَمِينَ، الفعَّال لما يشاءُ، لا إله غيره، ولا ربَّ سواهُ، تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه عن مماثلة المخلوقات في ذاتِهِ وصفاتِهِ، [وأقواله][7] وأفعاله سبحانه!

وقوله: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ أي: التي في يدك. كما قرَّرَهُ علىٰ ذلك في قوله: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٧، ١٨]. والمعنىٰ: أمَّا هذه عصَاك التي تعرفها ألقها ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ فعرَف وتحقق أنَّ الَّذي يخاطبه ويكلمه هو الَّذي يقول للشَّيءِ: كن، فيكون. كما تقدَّم بيان ذلك في سورة «طه».

وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ أي: تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ أي: في حركتها السَّريعة مع عِظَم خَلْق قوائِمِهَا واتِّساع فمها، واصطكَاكِ أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرةٍ إلا ابتلعتها، فتنْحَدِرُ في فِيهَا تتقعْقَعُ، كأنَّها حادرةٌ في وادٍ. فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أي: ولَمْ [يكن][8] يلتفت؛ لأنَّ طبع البشريَّة ينفرُ مِن ذلك. فلمَّا قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، رجع فوقف في مقامِهِ الأوَّل. ثم قال الله له: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي: إذا أدخلت يدك في جيبِ دِرْعِك ثم أخرجتها فإنَّها تخرج تتلألأ كأنَّها قطعة قمرٍ في لَمَعَان البرق؛ ولهذا قال: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي: من غيرِ برصٍ[9].

وقوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ قال مجاهد: من الفزَع. وقال قتادة: من الرُّعب.

---

(١) لِحْف الجبل: أصله. (٢) لوحة (١٥٣/ ب).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٢٠/ ٧١) وفيه انقطاع؛ لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود.

(٤) العُلَّيْق: نبت يتعلق بالشجر. وقال أبوحنيفة: يسمىٰ بالفارسية: دركة، وهو من شجر الشوك لا يعظم.

(٥) العوسج: شجر كثير الشوك. (٦) سقط من (ز).

(٧) سقط من (ز). (٨) سقط من (ز).

(٩) في (ز): «من غير مرض».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: ممَّا حصل لك من خوفك من الحيَّة.

والظَّاهر أنَّ المراد أعم من هذا، وهو أنه أمر عَلَيْسَلَامِ إذا خاف مِن شيءٍ أن يضُمَّ إليه جناحه مِن الرَّهب، وهي يدُهُ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخَوْف. وربَّما إذا استعمل أحدٌ ذَلِكَ علىٰ سبيل الاقتداء فوضع يديه علىٰ فؤادِهِ، فإنَّه يزول عنه ما يجد أو يَخف، إن شاء الله، وبه الثِّقة.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين [١]، حدَّثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدِّب، عن عبد الله بن مسلم، عن مجاهد، قال: كان موسىٰ عَلَيْسَلَامِ قد مُلِئَ قلبُهُ رعبًا من فرعون، فكان إذا رآه قال: اللَّهمَّ إنِّي أدرأُ بك في نحرِهِ، وأعوذ بك من شرِّه، ففرَّغ الله ما كان في قلب موسىٰ عَلَيْسَلَامِ وجعله في قلبِ فِرْعَوْن، فكان إذا رآه بالَ كما يبول الحمَار.

وقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: إلقاءه العصا وجعلها حيَّةً تسعىٰ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء -دليلان قاطعان واضحان علىٰ قدرة الفاعل المختار، وصحَّةِ نبوَّةِ مَنْ جرىٰ هذا الخارق علىٰ يديه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: وقومه من الرُّؤَساء والكبراء والأتباع، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي: خارجِينَ عن طاعة الله، مخالِفِينَ لدين الله، والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ [٢] هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لمَّا أمره الله تعالىٰ بالذَّهاب إلىٰ فرعون، الذي إنَّما خرج مِن ديارِ مصر فرارًا منه وخوفًا من سطوته، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني: ذلك القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: إذا رأوني.

﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾، وذلك أن موسىٰ عَلَيْسَلَامِ كان في لسانه لثغةٌ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، حين خُيِّر بينها وبين التَّمرة أو الدرَّة، [فأخذ الجمرة][٣] فوضعها علىٰ لسانه، فحصل فيه [٤] شدَّة في التَّعبير؛ ولهذا قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٧ -٣٢] أي: يؤنسني فيما أمرتني به مِن هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النُّبوَّة والرِّسالة إلىٰ هذا الملك المتكبِّر الجبَّار

---

(١) لوحة (١٥٤/ أ).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ﴾ أخوه من أمه وأبيه، وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾، فإنَّهم ذكروا أنَّه نسبه إلىٰ أمِّه؛ لأنها أشفق من الأب، فذكَّره بأمِّه لكونها أشفق ليشفق عليه.

(٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): «منه».

العَنِيد. ولهذا قال: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾؛ أي: وزيرًا ومعينًا ومقويًّا لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله ﷻ؛ لأنَّ خبر اثنين أنجعُ في النُّفوس من خبرِ واحدٍ؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

وقال محمَّد بن إسحاق: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ أي: يبين لهم عني ما [(١)] أكلمهم به، فإنه يفهم [عني] [(٢)] ما لا يفهمون.

فلما سأل ذلك قال الله تعالىٰ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنُقوِّي أمرك، ونعز جانبك بأخيك، الذي سألت لهُ أن يكون نبيًّا معكَ. كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. ولهذا قال بعض السلف: ليس أحدٌ أعظم مِنَّةً علىٰ أخيه، من موسىٰ علىٰ هارون -عليهما السَّلام- فإنَّه شَفَعَ فيه حتَّىٰ جعله الله نبيًّا ورسولًا معه إلىٰ فرعون وملئِهِ، ولهذا قال [الله تعالىٰ] [(٣)] في حقِّ موسىٰ: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ أي: حجةً قاهرةً، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: لا سبيلَ لهُمْ إلىٰ الوصول إلىٰ أذاكما [(٤)] بسبب إبلاغكما آيات الله، كما قال الله تعالىٰ [لرسوله محمَّد ﷺ:] [(٥)] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]؛ أي: وكفىٰ بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا. ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولِمَن اتَّبعهما في الدُّنيا والآخرة، فقال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

ووجه ابن جرير علىٰ أن المعنىٰ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، ثم يبتدئ فيقول: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، تقديره: أنتما ومَنِ اتَّبعَكُما الغالبون بآياتِنا.

ولا شكَّ أنَّ هذا المعنىٰ صحيح، وهو حاصلٌ من التَّوجِيهِ الأوَّل، فلا حاجة إلىٰ هذا، والله أعلم.

---

(١) لوحة (١٥٤ب).
(٢) ليست في (ز).
(٣) ليست في (ز).
(٤) في (ز): «أذاكم».
(٥) ليست في (ز).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ(١) رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن مَجِيءِ موسىٰ وأخيه هارون إلىٰ فرعون وملئِهِ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرةِ والدَّلالات القاهرة، علىٰ صدقهما فيما أخبر عن الله ﷻ من توحيدِهِ واتِّباعِ أوامِرِهِ. فلمَّا عاين(٢) فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله، عدَلُوا بكُفْرِهِم [وبغيهم](٣) إلىٰ العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتِّباع الحقِّ، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ أي: مفتعلٌ مصنوعٌ. وأرادوا معارضته بالحيلة والجاهِ، فما صعد معهم ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحدًا مِن آبائنا علىٰ هذا الدين، ولم نَرَ النَّاس إلا يشركون مع الله آلهةً أخرىٰ. فقال موسىٰ عليه السلام مجيبًا لهم: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ يعني: مني ومنكم، وسَيَفْصِل بيني وبينكم. ولهذا قال: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: النصرة والظفر والتأييد، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون بالله ﷻ.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن كُفْرِ فرعون وطغيانِهِ وافترائِهِ فِي دعوىٰ الإلهيَّة لنفسِهِ القبيحة -لعنه الله- كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ وذلك لأنَّه دعاهم إلىٰ الاعتراف له بالإلهيَّة فأجابوه إلىٰ ذلك بقلَّةِ عقولهم وسخافَة أذهانِهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) قال أبو بكر الجزائري حفظه الله: كان مقتضىٰ الكلام في سياق الحوار أن يقال: قال موسىٰ بدون واو العطف إلا أنَّه خُولِف هنا وأتىٰ بالواو: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ وهي قراءة الجمهور، والمقصود منها: هو ذكر التوازن بين حجة فرعون وحجة موسىٰ؛ ليظهر للسَّامع التفاوت بينهما بخلاف لو حذفت الواو كما قرأ ابن كثير، فإنها مجرَّد حكاية قول موسىٰ عليه السلام فليس فيها ما يلفت النظر.

(٢) لوحة (١٥٥ أ).

(٣) سقط من (ز).

﴿ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وقال تعالى إخبارًا عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٣ -٢٦] يعني: أَنَّه جمع قومَهُ ونادىٰ فيهم بصوته العالي مُصَرِّحًا لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين. ولهذا انتقم الله تعالىٰ منه، فجعله عبرةً لغيرِهِ في الدُّنيا والآخرة، وحتىٰ إنه واجه موسىٰ الكليم بذلك فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ [1] أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي: أمر وزيره هامان ومدبِّر رعيَّته ومشير دولتِهِ أن يوقد له علىٰ الطِّين؛ ليتخذ له آجُرًّا لبناء الصَّرح، وهو القصر المنيف الرفيع -كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]؛ وذلك لأن فرعون بنىٰ هذا الصَّرح الذي لم يُرَ في الدنيا بناءً أعلىٰ منه، إنَّما أراد بهذا أن يظهر لرعيَّتِهِ تكذيب موسىٰ فيما زعمه مِن دعوىٰ إلهٍ غير فرعون؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: في قوله: إنَّ ثَمَّ ربًّا غيري، لا أنَّه كذَّبه في أنَّ الله أرسله؛ لأنَّه لم يكن يعترف بوجود الصانع، فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] وقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وهذا قول ابن جرير.

وقوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: طَغَوْا وتجبَّروا، وأكثَروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنَّه لا معاد ولا قيامة، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: أغرقناهم في البَحْرِ في صبيحةٍ واحدةٍ، فلم يبقَ منهم أحدٌ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم، في تكذيب الرُّسل وتعطيل الصانع، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: فاجتمع عليهم خزي الدُّنيا موصولًا بذُلِّ الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمَّد: ١٣].

وقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة مَلِكهم فرعون علىٰ ألسنةِ المؤمنين من عباده المتبعين رسله، وكما أنَّهم في الدنيا ملعونون علىٰ ألسنة الأنبياءِ وأتباعهم كذلك، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ . قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

---

(١) لوحة (١٥٥/ ب).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ[1] بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ عمَّا أنعم به علىٰ عبده ورسوله موسىٰ الكليم، عليه مِن ربِّه الصَّلاة والتَّسليم، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: أنَّه بعد إنزال التَّوراة لم يعذِّب أمَّةً بعامَّةٍ، بل أمرَ المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركِينَ، كما قال: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩، ١٠].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا محمَّد وعبد الوهاب قالا: حدَّثنا عوف، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيدٍ الخُدْري قال: ما أهلك الله قومًا بعذابٍ من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التَّوراة علىٰ وجه الأرض، غير القريةِ التي مُسِخُوا قردةً، ألم تر أن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾[2].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عوف بن أبي جَميلة[3] الأعرابي، بنحوه. وهكذا رواه أبو بكر البزار في «مسنده»، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيىٰ القَطَّان، عن عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيدٍ موقوفًا[4].

ثم رواه عن نصر بن علي، عن عبد الأعلىٰ، عن عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد -رفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ- قال: «مَا أَهْلَكَ اللهُ قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا مِنَ الأَرْضِ إِلَّا قَبْلَ مُوسَىٰ»، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: من العمىٰ والغيِّ، ﴿وَهُدًى﴾ إلىٰ الحقِّ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: إرشادًا إلىٰ الأعمال الصالحة، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلَّ النَّاس يتذكَّرُون به، ويهتدُونَ بسببِه.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

---

(١) لوحة (١٥٦/ أ).

(٢) **صحيح**: رواه البزار (٢٢٤٨) وقال الهيثمي: رواه البزار موقوفًا ومرفوعًا ورجالهما رجال الصحيح: «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٨)، ورواه الطبري (٢٠/ ٨٠).

(٣) في (ز): «عوف بن حميد»، وهو خطأ.

(٤) انظر التعليق قبل السابق.

يقول تعالىٰ منبِّهًا علىٰ برهان نبوَّة محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- حيث أخبر بالغيوب [(١)] الماضِية، خبرًا كأنَّ سامعَهُ شاهدٌ وَرَاءٍ لمَا تقدَّم، وهو رجلٌ أُمِّيٌّ لا يقرأ شيئًا من الكتب، نشأ بين قومٍ لا يعرفون شيئًا من ذلك، كما أنَّه لمَّا أخبره عن مريم وما كان من أمرها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]؛ أي: ما كنت حاضرًا لذلك، ولكنَّ الله أوحاه إليك. وهكذا لما أخبره عن نوحٍ وقومه، وما كان من [(٢)] إنجاء الله له وإغراقِ قومه، ثم قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] وقال في آخر السورة ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ [هود: ١٠٠]، وقال بعد ذكر قصَّة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال في سورة طه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩] وقال هاهنا -بعدما أخبر عن قصة موسىٰ من أولها إلىٰ آخرها، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له-: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعني: يا محمَّد، ما كنت بجانب الجبل الغربيِّ الَّذِي كلَّم الله موسىٰ من الشَّجرة التي هي شرقيَّة علىٰ شاطئِ الوادي، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك، ولكن الله ﷻ أوحىٰ إليك ذلك؛ ليجعله حجَّةً وبرهانًا علىٰ قرونٍ قد تطاول عهدها، ونَسُوا حُجَجَ الله عليهم، وما أوحاه إلىٰ الأنبياءِ المتقدِّمين.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: وما كنت مقيمًا في أهل مدين تتلُو عليهم آياتنا، حين أخْبرتَ عن نبيِّها شعيب، وما قال لقومه، وما ردُّوا عليه، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رسولًا.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ -قال أبو عبد الرحمن النَّسائي، في التفسير من «سننه»: أخبرنا علي بن حُجْرٍ، أخبرنا عيسىٰ -وهو ابن يونس- عن حمزة الزَّيَّات، عن الأعمش، عن علي بن مُدْرِك، عن أبي زُرْعَة، عن أبي هريرة، ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، قال: نودوا: يا أمَّة محمَّد، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وأجبتكم قبلَ أن تدعوني [(٣)(٤)].

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث جماعةٍ، عن حمزة -وهو ابن حبيب الزَّيَّات- عن الأعمش. ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيىٰ بن عيسىٰ، عن الأعمش، عن علي

(١) لوحة (١٥٦ب). (٢) في (ز): «بين».
(٣) لوحة (١٥٧أ).
(٤) حسن: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ٤٢٤) (١١٣٨٢) موقوفًا علىٰ أبي هريرة.

ابن مُدْرِك، عن أبي زُرْعَة -وهو ابن عمرو بن جرير- أنَّه قال ذلك من كلامه[(١)]، والله أعلم.

وقال مُقاتِل بن حَيَّان: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾: أمتك في أصلابِ آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت.

وقال قتادة: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسىٰ. وهذا -والله أعلم- أشبه بقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، ثمَّ أخبر هاهنا بصيغةٍ[(٢)] أخرىٰ أخص من ذلك، وهو النِّداء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، وقال: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله: ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي: ما كنت مشاهدًا لشيءٍ مِن ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به، رحمةً منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم[(٣)] مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لعلَّهم يهتدون بما جئتهم به من الله ﷻ.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: وأرسلناك إليهِمْ لتُقِيمَ عليهم الحجَّة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذابٌ من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسولٌ ولا نذيرٌ، كما قال تعالىٰ بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، وقال: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩]، والآيات في هذا كثيرةٌ والله أعلم.

---

(١) الطبري (٤٠/ ٥١).

(٢) في (ز): «بقصة».

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قال بعض المفسِّرين: إنَّ الضَّمير يعود علىٰ قريش؛ يعني: ما كنت ثاويًا في أهل مدين فتتْلُو عليهم القصَّة التي قصصتها بآياتنا، وهذا أقرب إلىٰ المعنىٰ، وإن كان الأول أقرب إلىٰ اللَّفظ؛ لأنَّ الضَّمير يعود علىٰ أقربِ مذكورٍ، لكنَّه لا يعود علىٰ أهلِ مدين إلا بتعسُّفٍ شديدٍ، فالصَّواب: أنَّه يعود علىٰ قريشٍ؛ يعني: ما كنت ثاويًا في أهل مدين فتتْلُو عليهم القصَّة التي جاءت بآياتِنا.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ (١) مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ
أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ
وَمَنْ أَضَلُّ (٢) مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ
وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ (٣)

---

(١) لوحة (١٥٧ب). (٢) في (ز): «ومن أظلم»، وهو خطأ.

(٣) قال السعدي رحمه الله: ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها: أنَّ آيات اللّه تعالىٰ وَعِبَرَهُ، وأيَّامه في الأمم السابقة، إنَّما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلىٰ حسب إيمان العبدِ تكون عبرته، وإن الله تعالىٰ إنَّما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعبأ الله بهم، وليس لهم منها نور وهدىٰ.

ومنها: أنَّ الله تعالىٰ إذا أراد أمرًا هيَّأ أسبابه، وأتىٰ بها شيئًا فشيئًا بالتَّدْرِيج، لا دفعةً واحدةً.

ومنها: أنَّ الأمَّة المستضعفة، ولو بلغت في الضَّعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولِي عليها الكسل عن طلب حقِّها، ولا الإياس من ارتِقَائِها إلىٰ أعلىٰ الأمور، خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمَّة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أنَّ الأمَّة ما دامت ذليلةً مقهورةً لا تأخذ حقَّها ولا تتكلَّم به، لا يقوم لها أمرُ دينها ولا دنياها ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأمِّ موسىٰ، وتهوينِهِ عليها المصيبة بالبِشَارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المُرْسَلِين.

ومنها: أنَّ الله يقدِّر علىٰ عبده بعض المشاقِّ؛ لينيله سرورًا أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شرًّا أكثر منه، كما قدر علىٰ أمِّ موسىٰ ذلك الحزن الشَّديد، والهمَّ البليغ، الذي هو وسيلة إلىٰ أن يصل إليها ابنها، علىٰ وجه تطمئنُّ به نفسها، وتقرُّ به عينها، وتزداد به غبطةً وسرورًا.

ومنها: أنَّ الخوف الطَّبيعي من الخلق، لا يُنَافِي الإيمان ولا يزيله، كما جرىٰ لأمِّ موسىٰ ولموسىٰ من تلك المخاوف.

ومنها: أنَّ الإيمان يزيدُ وينقص. وأنَّ مِن أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتَّثبيت من الله، عند المقلقات، كما قال تعالىٰ. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: ليزداد إيمانُها بذلك ويطمئنَّ قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله علىٰ عبده، وأعظم معونة للعبد علىٰ أموره، تثبيت الله إيَّاه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوِفِ، وعند الأمور المذهِلَةِ، فإنَّه بذلك يتمكَّن من القول الصَّواب، والفعل الصَّواب، بخلاف من استمرَّ قلقه وروعه، وانزعاجه، فإنَّه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد -ولو عرف أنَّ القضاء والقدر ووعد الله نافذٌ لا بد منه- فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أمَّ موسىٰ أن يرده عليها، ومع ذلك، اجتهدت علىٰ ردِّه، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرِّجال، من غير محذورٍ، كما جرىٰ لأخت موسىٰ وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة علىٰ الكفالة والرضاع، والدلالة علىٰ من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله مِن رحمته بعبده الضَّعيف الذي يُرِيدُ إكرامه، أن يُرِيَه مِن آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما ردَّ الله موسىٰ علىٰ أمه؛ لتعلم أنَّ وعد الله حق.

ومنها: أنَّ قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسىٰ عليه السلام عدَّ قتله القبطي الكافر ذنبًا، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النُّفوس بغير حقٍّ يعد من الجبَّارِين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أنَّ مَن قتل النُّفوس بغير حقٍّ، وزعم أنَّه يريد الإصلاح في الأرض، وتهييب أهل المعاصي، فإنَّه كاذبٌ في ذلك، =

يقول تعالىٰ مخبرًا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجَّة عليهم لاحتجُّوا بأنَّهم لم يأتهم رسول: إنَّهم لمَّا جاءهم الحق من عنده علىٰ لسان محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- قالوا علىٰ وجه التَّعنُّتِ والعناد والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، يعنون -والله أعلم-: من الآيات الكثيرة، مثل العصَا واليَدِ، والطُّوفان والجراد والقمَّل والضَّفادع والدَّم، وتنقُّص الزُّرُوع والثِّمار، مما يضيِّق علىٰ أعداء الله، وكفلق البحر،

= وهو مفسدٌ كما حكىٰ الله قول القبطي ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ علىٰ وجه التَّقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أنَّ إخبار الرَّجل غيرَهُ بما قيل فيه، علىٰ وجه التَّحذير له مِن شرٍّ يقع فيه، لا يكون ذلك نميمةً -بل قد يكون واجبًا- كما أخبر ذلك الرجل لموسىٰ، ناصحًا له ومحذِّرًا.

ومنها: أنَّه إذا خاف القتل والتَّلف في الإقامة، فإنَّه لا يلقي بيده إلىٰ التَّهلُكَة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسىٰ.

ومنها: أنَّه عند تزاحم المَفْسَدَتَيْنِ، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما أنَّه يرتكب الأخف منهما والأسلم، كما أنَّ موسىٰ، لمَّا دار الأمر بين بقائِهِ في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب إلىٰ بعض البلدان البعيدة، التي لا يُعْرَفُ الطَّرِيق إليها، وليس معه دليل يدله غير ربِّه، ولكن هذه الحالة أقرب للسَّلامة من الأولىٰ، فتبعها موسىٰ.

ومنها: أنَّ النَّاظر في العِلْم عند الحاجة إلىٰ التَّكلُّم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديَهُ الصَّواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحقَّ ويبحث عنه، فإن الله لا يخيِّب مَنْ هذه حاله. كما خرج موسىٰ تلقاء مدين فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ومنها: أنَّ الرَّحمة بالخلق، والإحسان علىٰ من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدُّعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالمًا لها؛ لأنَّه تعالىٰ يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ومنها: أن الحياء -خصوصًا من الكرام- من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافَأَة علىٰ الإحسان لم يزل دَأْب الأمم السَّابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالىٰ، ثم حصل له مكافأةٌ عليه من غير قصدٍ بالقصد الأوَّل، أنَّه لا يلام علىٰ ذلك، كما قَبِلَ موسىٰ مجازاة صاحب مدين عن معروفِهِ الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه علىٰ عوضٍ.

ومنها: مشروعيَّة الإجارة، وأنَّها تجوز علىٰ رعاية الغَنَم ونحوها، ممَّا لا يقدر العمل، وإنَّما مرده العرف.

ومنها: أنَّه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعًا.

ومنها: أنَّ خطبة الرَّجل لابنته الرَّجل الذي يتخيَّره، لا يلام عليه.

ومنها: أنَّ خير أجيرٍ وعامل [يعمل] للإنسان، أن يكون قويًّا أمينًا.

ومنها: أنَّ من مكارم الأخلاق، أن يُحسِّن خلقه لأجيرِهِ، وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهادٍ؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ومنها: ما أجرىٰ الله علىٰ يد موسىٰ من الآيات البيِّنات، والمعجزات الظَّاهرة، من الحيَّة، وانقلاب يده بيضاء من غير سوءٍ، ومن عصمة الله لموسىٰ وهارون، من فرعون، ومن الغرق.

ومنها: أنَّ مِن أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إمامًا في الشَّرِّ، وذلك بحسب معارضتِهِ لآياتِ الله وبيناته، كما أنَّ مِن أعظم نعمةٍ أنعم الله بها علىٰ عبده، أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًّا.

وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسَّلوىٰ، إلىٰ غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله علىٰ يدي موسىٰ عليه السلام حجَّة وبراهين له علىٰ فرعون وملئه وبني إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئِهِ، بل كفروا بموسىٰ وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨]. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: أولم يكفر البشر بما أُوتِيَ موسىٰ من تلك الآيات العظيمة. ﴿قَالُوا۟ سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[1]؛ أي: تعاونا، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بكلٍّ منهما كافرُونَ. ولشدَّة التَّلازُم والتَّصاحُب والمقارنة بين موسىٰ وهارون، دلَّ ذكر أحدهما علىٰ الآخر، كما قال الشاعر:

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

أي: فما أدري أَيَلِينِي الخير أو الشَّر. قال مجاهد بن جبر: أَمَرَتِ اليهود قريشًا أن يقولوا لمحمَّدٍ ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ[2] أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ قال: يعني موسىٰ وهارون -عليهما السلام- ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاونا وتناصرا وصَدَّق كلٌّ منهما الآخر. وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رَزين في قوله: ﴿سَاحِرَانِ﴾ يعنون: موسىٰ وهارون. وهذا قولٌ جيدٌ قويٌّ، والله أعلم.

وقال مسلم بن يَسَار[3]، عن ابن عبَّاس ﴿قَالُوا۟ سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ يعني: موسىٰ ومحمَّدًا، صلوات الله وسلامه عليهما وهذا رواية عن الحسن البصري.

[وقال الحسن][4] وقتادة: يعني: عيسىٰ ومحمَّدًا -صلَّىٰ الله عليهِمَا وسلَّم- وهذا فيه بعدٌ؛ لأنَّ عيسىٰ لم يَجْرِ له ذكرٌ هاهنا، والله أعلم.

وأما من قرأ: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، فقال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عبَّاس: يعنون: التَّوراة والقُرْآن. وكذا قال عاصم الجَنَديِّ، والسُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال السُّدِّي: يعني صَدَّق كلُّ واحدٍ منهما الآخر.

وقال عكرمة: يعنون: التَّوراة والإنجيل. وهو رواية عن أبي زُرْعَة، واختاره ابن جرير.

وقال الضَّحَّاك وقتادة: الإنجيل والقرآن. والله سبحانه أعلم بالصَّواب. والظَّاهر علىٰ قراءة: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ أنَّهم يعنون: التَّوراة والقرآن؛ لأنَّه قال بعده: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ

---

(١) متواترة: قَرَأَ (سِحْرَانِ) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (سَاحِرَانِ).

(٢) لوحة (١٥٨أ). (٣) في (ز): «بشار»، وهو خطأ.

(٤) سقط من (ز).

مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ﴾، وكثيرًا ما يقرن الله بين التَّوراة والقرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢]، وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾، إلىٰ أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٤، ١٥٥]، وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [الأحقاف:٣٠] وقال ورقة بن نوفل: هذا النَّاموس الَّذِي أَنْزَل الله علىٰ موسىٰ. وقد عُلِمَ بالضَّرورة لذوِي الألباب أنَّ الله لم يُنْزِلْ كتابًا من السَّماء فيما أنزل من الكتب المتعددة علىٰ أنبيائِهِ أكملَ ولا أشملَ ولا أفصحَ ولا أعظمَ ولا أشرفَ مِن الكتاب الذي أُنْزِل علىٰ محمَّدٍ ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الَّذِي أنزله علىٰ موسىٰ بن عمران عليه السلام وهو التَّوراة (١) التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. والإنجيل إنما نزل متممًا للتوراة ومُحلًّا لبعضِ ما حُرِّم علىٰ بني إسرائيل. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فيما تدافعون به الحَقَّ وتعارضون به من الباطل.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾ أي: فإن لم يُجِيبُوك عمَّا قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أي: بلا دليلٍ ولا حجَّةٍ ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بغير حجَّةٍ مأخوذةٍ مِن كتاب الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ قال مجاهد: فصَّلْنا لهم القول. وقال السُّدِّي: بيَّنَّا لهم القول.

وقال قتادة: يقول تعالىٰ: أخبَرهم كيف صنع بِمَنْ مَضَىٰ وكيف هو صَانعٌ، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال مجاهد وغيره: ﴿وَصَّلۡنَا لَهُمُ﴾ يعني: قريشًا. وهذا هو الظَّاهر، لكن قال حمَّاد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن يحيىٰ بن جَعْدَة، عن رفاعة -رفاعة هذا هو ابن قَرَظَة القُرَظِيّ، وجعله ابن منده: رفاعة بن سموال، خال صفية بنت حيي، وهو الذي طلق تميمة بنت وهب التي تزوَّجها بعده عبد الرحمن بن الزَّبير ابن باطا، كذا ذكره ابن الأثير- [قال: نزلت ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ في عشرةٍ أنا أحدهم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديثه] (٢)(٣).

(١) لوحة (١٥٨ب).

(٢) بياض في (ز) قدر كلمتين، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) صحيح: رواه الطبري (٢٠/ ٨٨)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٨٧) وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ١٨٠) والبغوي في «معجم الصحابة» (٢/ ٣٣٩/ ٦٩١).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن العلماء الألبَّاء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقُرْآن، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ (١) خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ (٢) مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النَّجاشي، فلمَّا قدموا علىٰ النَّبيِّ ﷺ قرأ عليهم: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ حتىٰ ختمها، فجعلوا يبكُونَ وأسلموا، ونزلَتْ فيهم هذه الآية الأخرىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ يعني: مِن قبل هذا القرآن كنَّا مسلمين؛ أي: موحِّدين مخلصين لله مستجيبين له(٣).

قال الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: هؤلاء المتَّصِفُون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأوَّل ثمَّ بالثَّاني [يؤتَون أجرهُم مرَّتَين بإيمانِهم بالرَّسول الأول ثم بالثاني](٤) ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: علىٰ اتباع الحق؛ فإنَّ تجشُّمَ مثل هذا شديدٌ علىٰ النفوس. وقد ورد في «الصحيحين» من حديث عامر الشعبي، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ [كَانَتْ لَهُ](٥) أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا»(٦).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن إسحاق السَّيلَحيني، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن سليمان بن

---

(١) لوحة (١٥٩/ أ). (٢) في (ز): «إن الذين أوتوا الكتاب»، وهو خطأ.

(٣) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٨٨) من رواية جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير، وروايته عنه خاصة ضعيفة كما تقدَّم، ثُمَّ إنَّ الخبر مرسلٌ؛ لأنَّه مِن رواية سعيد بن جبيرٍ لم يُسْنِدْهُ.

(٤) ليست في (ز). (٥) في (ز): «كان».

(٦) البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤)، وأبو داود (٢٥٥٤)، والترمذي (١١١٦)، وابن ماجة (١٩٥٦) والنسائي (٦/ ١١٥).

عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إنِّي لتحتَ راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولًا حسنًا جميلًا وقال فيما قال: «مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا، [وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَلَهُ أَجْرُهُ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا][(١)]»[(٢)].

وقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: لا يقابلون السَّيِّئَ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ[(٣)] يُنفِقُونَ﴾ أي: ومَن الَّذي رزقَهُم من الحلال [ينفقون][(٤)] علىٰ خَلْقِ الله في النَّفَقات الواجبة لأهلِهِم وأقاربهم، والزَّكاة المفروضة والمستحبَّة من التَّطَوُّعات، وصدقات النفل والقربات.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: لا يخالِطُونَ أهله ولا يُعَاشِرُونَهُم، بل كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: إذا سَفه عليهم سَفيهٌ، وكلَّمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله مِن الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلامٌ طيبٌ. ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نُريد طَريق الجاهلين ولا نُحبُّها.

قال محمَّد بن إسحاق في «السيرة»: ثم قدم علىٰ رسول الله ﷺ وهو بمكَّة عشرون رجلًا أو قريبٌ من ذلك من النَّصارىٰ، حين بلغهم خبره من الحبشة. فوَجَدُوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه -ورجال من قريش في أَنْدِيَتِهِم حول الكعبة- فلمَّا فرغوا مِن مساءَلَةِ رسول الله عمَّا أرادوا، دعَاهُم إلىٰ الله وتَلَا عليهم القُرْآن، فلمَّا سَمِعُوا القُرْآن فاضَتْ أعينهم من الدَّمْعِ، ثم استجابوا لله وآمَنُوا به وصدَّقُوه، وعرفوا منه ما كان يوصَفُ لهُم في كتابِهِم مِن أَمْرِهِ. فلمَّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفرٍ من قريش، فقالوا لهم: خَيَّبَكُم اللهُ مِنْ ركبٍ. بعثكم مَنْ وراءَكُم مِن أهلِ دِينِكُم ترتادُونَ لهم لتَأْتُوهُم بخبرِ الرَّجُل، فلم تَطْمَئِنَّ مجالسكم عنده حتىٰ فارقتم دينكم وصَدَّقْتُمُوه فيما قال؛ ما نعلم ركبًا أحمق منكم. أو كما قالوا لهم. فقالوا لهم: سلامٌ عليكم، لا نُجاهِلُكُم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أَنْتُم عليه، لم نَأْلُ أنفسَنا خيرًا[(٥)][(٦)].

قال: ويقال: إنَّ النَّفر النَّصارىٰ من أهل نجران، فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).

(٢) أحمد (٥/ ٢٥٩) وفيه ابن لهيعة وقد اختلط. ولكن يشهد له الحديث السابق.

(٣) لوحة (١٥٩ب).

(٤) سقط من (ز).

(٥) أي: لم نزل نطلب لأنفسنا الخير.

(٦) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٢٨٧)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩١)، و«الدلائل» للبيهقي (٢/ ٣٠٦).

قال: ويقال -والله أعلم- إن فيهم نزلت هذه الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قال: وقد سألت الزُّهري عن هذه الآيات[١] فيمن أنزلْنَ، قال: ما زلتُ أسمع من علمائنا أنهنَّ أنزلن في النجاشي وأصحابه ﷺ والآيات التي في سورة المائدة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٢، ٨٣][٢].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالىٰ لرَسُولِهِ -صلوات الله وسلامه عليه-: إنَّك يا محمَّد ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: ليس إليك ذلك، إنَّما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحِكْمَة البالغة والحجَّة الدَّامغة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وهذه الآية أخصُّ مِن هذا كله؛ فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بِمَنْ يستحق الهداية مِمَّنْ يستحق الغِوَاية، وقد ثبت في «الصحيحين» أنَّها نزلت في أبي طالب عَمّ رسول الله ﷺ، وقد كان يَحوطُه وينصره، ويقوم في صفِّه ويحبُّه حبًّا [شديدًا][٣] طبعيًا لا شرعيًا، فلما حضرته الوفاةُ وحان أجلُهُ، دعاه رسول الله ﷺ إلىٰ الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القَدَرُ فيه، واختطف من يده، فاستمر علىٰ ما كَانَ عليهِ مِن الكفر، ولله الحكمة التَّامَّة.

قال الزُّهري: حدَّثني سعيد بن المسَيَّب، عن أبيه -وهو المسيب بن حَزْن المخزومي ﷺ- قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال رسول الله ﷺ: **«يَا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»**. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟ فلم يزل رسولُ الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتىٰ قال آخر ما قال: هو علىٰ ملَّة[٤] عبد المطلب. وأبىٰ أن يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فقال رسول الله ﷺ: **«أَمَا لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»**. فأنزل الله

---

(١) لوحة (١٦٠/ أ).
(٢) انظر «السِّيرة النبويَّة» لابن هشام (١/ ٣٩٢).
(٣) ليست في (ز).
(٤) لوحة (١٦٠/ ب).

وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[١].

أخرجاه من حديث الزهري. وهكذا رواه مسلم في «صحيحه»، والترمذي، من حديث يزيد بن كَيْسَان، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: لما حَضَرَتْ وفاةُ أبي طالبٍ أتاه رسولُ الله ﷺ فقال: «**يَا عَمَّاهُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ**». فقال: لولا أن تُعَيِّرني بها قريش، يقولون: ما حمله عليه إلا جَزَع الموت، لأقررْتُ بها عينَك، لا أقولها إلا لأقرَّ بها عينك. فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾. وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ، لا نعرفه إلَّا من حديث يزيد بن كيسان[٢].

ورواه الإمام أحمد، عن يحيىٰ بن سعيدٍ القَطَّان، عن يزيد بن كيسان، حدَّثني أبو حازم، عن أبي هريرة، فذكره بنحوه.

وهكذا قال ابن عبَّاس، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي، وقتادة: إنها نزلت في أبي طالب حين عَرَضَ عليه رسولُ الله ﷺ أن يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» فأبىٰ عليه ذلك، وقال: أيْ ابن أخي، ملةَ الأشياخ. وكان آخر ما قال: هو علىٰ ملة عبد المطلب.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمة، حدَّثنا حماد بن سلمة، حدَّثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن سعيد بن أبي راشد قال: كان رسول قيصر جاء إليَّ قال: كتب معي قيصر إلىٰ رسول الله ﷺ كتابًا، فأتيته فدفعت الكتاب، فوضعه في حجره، ثم قال: «**مِمَّنِ الرَّجُلُ؟**» قلت: من تنوخ[٣]. قال: «**هَلْ لَكَ فِي دِينِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِيَّةِ؟**» قلت: إنِّي رسول قوم، وعلىٰ دينهم حتىٰ أرجع إليهم. فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلىٰ أصحابه وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[٤].

وقوله: ﴿**وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ**[٥] **أَرْضِنَآ**﴾: [يقول تعالىٰ مخبرًا عن اعتذار بعضِ الكفَّار في عدم اتِّباع الهدىٰ حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿**وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ**﴾][٦] أي: نخشىٰ إن اتبعنا[٧] ما جئتَ به من الهدىٰ، وخالفنا مَنْ حولنا من أحياءِ العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذىٰ والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، فقال الله تعالىٰ مجيبًا لهم: ﴿**أَوَلَمْ**

---

(١) البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤). (٢) مسلم (٢٥)، والترمذي (٣١٨٨)، وأحمد (٢/ ٤٣٤).

(٣) في (ز): «يترح»، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم».

(٤) حسن: ورواه أحمد (٣/ ٤٤١) نحوه، عبد الله بن خيثم: صدوق وبقية رجاله ثقات.

(٥) لوحة (١٦١/ أ). (٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٧) في (ز): «اتبعت».

﴿نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني: هذا الذي اعتذروا به كذبٌ وباطلٌ؛ لأنَّ الله جعلهم في بلدٍ أمينٍ، وحَرَمٍ معظَّمٍ آمنٍ(١) منذ وُضع، فكيف يكون هذا الحرم آمنًا لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟.

وقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [أي: من سائر الثِّمار ممَّا حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأَمْتِعَةِ](٢) ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا قالوا ما قالوا.

وقد قال النَّسائي: أنبأنا الحسن بن محمَّد، حدَّثنا الحجاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرني ابن أبي مُلَيْكة قال: قال عمرو بن شعيب، عن ابن عبَّاسٍ -ولم يسمعه منه-: أنَّ الحارث بن عامر بن نوفل الَّذي قال: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾(٣).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مُعرِّضًا بأهل مكة في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: طغت وأشرَتْ وكفرَتْ نعمة الله، فيما أنعمَ بِهِ عليهم من الأَرْزاق، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل ١١٢، ١١٣] ولهذا قال: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: دَثَرت(٤) ديارهم فلا ترىٰ إلا مساكنهم.

وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: رجعت خرابًا ليس فيها أحدٌ.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا عن ابن مسعودٍ أنه سمع كعبًا يقول لعمر: إن سليمان عليه السلام قال للهامة -يعني البومة- ما لكِ لا تأكُلِينَ الزَّرع؟ قالت: لأنَّه أخرج آدم(٥) بسببه من الجنَّة. قال: فما لك لا تشربين الماء؟ قالت: لأنَّ الله أغرق قوم نوحٍ به. قال: فما لك لا تأْوِينَ إلَّا إلىٰ الخراب؟

---

(١) في (ز): «أمين». (٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٨٥)، وإسناده منقطع بين عمرو بن شعيب وابن عبَّاسٍ، ورواه الطبري (٢٠/ ٦٠) من طريق أخرىٰ من طريق سنيد صاحب التفسير وهو ضعيف.

(٤) دثر الشيء دثورًا: قدم ودَرَس، ويقال: «دثر المنزل»: بَلِيَ وتهدَّم. «المعجم الوسيط».

(٥) لوحة (١٦١/ ب).

قالت: لأنه ميراث الله ﷻ، ثم تلا ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

ثم قال الله مخبرًا عن عدلِه، وأنَّه لا يهلك أحدًا ظالمًا له، وإنَّما يهلك من أهلك بعد قيام الحجَّة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ وهي مكة ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾. فيه دلالة على أنَّ النَّبيَّ الأمي، وهو محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- المبعوث مِن أمِّ القرى، رسول إلى جميع القرى، من عربٍ وأعجامٍ، كما قال تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. وتمام الدليل قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨]. فأخبر أنَّه سيُهْلِك كل قريةٍ قبل يوم القيامة، وقد قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فجعل تعالى بعثة النَّبيِّ الأُمِّيِّ شاملةً لجميع القرى؛ لأنه مبعوث إلى أمِّها وأصلها التي ترجع إليها. وثبت في «الصحيحين» عنه -صلوات الله وسلامه عليه- أنه قال: «بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»[2]. ولهذا ختم به الرِّسالة والنُّبوَّة، فلا نبيَّ بعده ولا رسولَ، بل شرعه باقٍ بقاءَ اللَّيل والنَّهار إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد بقوله: ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾؛ أي: أصلها وعظيمتها، كأمَّهات الرساتيق[3] والأقاليم. حكاه الزمخشري وابن الجوزيّ، وغيرهما، وليس ببعيدٍ.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)﴾

يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدُّنيا، وما فيها من الزِّينة الدَّنيئة والزَّهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعدَّه الله لعباده الصَّالحين في الدَّار الآخرة من النَّعيم العظيم المقيم، كما قال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦]، وقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]، وقال رسول الله ﷺ[4]: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ، إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٧٠١٧) بسند معلق، وفيه كذلك مالك بن سليمان وهو الهروي: ضعيف، انظر: «ميزان الاعتدال (٣/ ٤٢٧).

(٢) مسلم (٥٢١) من حديث جابر.

(٣) الرساتيق: القرى.

(٤) لوحة (١٦٢/ أ).

فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ»[(١)].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يعقل مَنْ يقدم الدُّنيا على الآخِرَةِ؟.

وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: يقول: أَفَمَن هو مؤمنٌ مصدِّقٌ بما وَعَدَهُ الله على صالِحِ أعماله من الثَّواب الَّذِي هو صائرٌ إليه لا محالة، كمَنْ هو كافرٌ مكذِّبٌ بلقاءِ الله ووَعْدِهِ ووَعِيدِهِ، فهو مُمَتَّعٌ في الحياة الدنيا أيامًا قلائل، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: من المعذبين.

ثم قد قيل: إنَّها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة وعلي وأبي جهل، وكلاهما عن مجاهد. والظَّاهر أنَّها عامَّةٌ، وهذا كقوله تعالى إخبارًا عن ذلك المؤمن حين أشرفَ على صاحِبِهِ، وهو في الدَّرجات وذاك في الدَّركات: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عمَّا يوبِّخ به الكفَّار المشركين يوم القِيامَة، حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدَّار الدُّنيا مِن الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التَّقريع والتَّهديد، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني: من الشَّياطين والمَرَدَة والدُّعاة إلى الكفر، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ[(٢)]﴾، فشهدوا عليهم أنَّهم أغْوَوْهم

---

(١) مسلم (٢٥٥٨)، والتِّرمذي (٢٣٢٤)، والنسائي في «الكبرى» وابن ماجة (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨).

(٢) لوحة (١٦٢/ ب).

فاتَّبعوهم، ثم تبرَّؤُوا من عبادتِهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال الله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: ليخلِّصوكُم ممَّا أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدَّار الدُّنيا، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلىٰ النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودوا[1] حين عاينُوا العذاب لو أنَّهم كانوا من المهتَدِينَ في الدَّار الدُّنيا. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: النِّداء الأوَّل عن سؤال التَّوحيد، وهذا فيه إثباتُ النُّبوَّات: ماذا كان جوابكم للمُرْسَلِين إليكم؟ وكيف كانَ حَالُكُم معهم؟ وهذا كما يُسأَل العبدُ في قبرِهِ: مَنْ ربك؟ ومَنْ نبيُّك؟ وما دينُكَ؟ فأمَّا المؤمنُ فيشهد أنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا عبدُ اللهِ ورسولُهُ. وأمَّا الكافر فيقول: هَاهْ ..هَاهْ[2]. لا أدري؛ ولهذا لا جواب لَهُ يومَ القِيامةِ غير السُّكُوت؛ لأنَّ مَنْ كان في هذِهِ أعمىٰ فهُوَ في الآخرة أعمىٰ وأضلُّ سبيلًا ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

وقال مجاهد: فعَمِيَتْ عليهم الحجج، فهم لا يتساءَلُون بالأنساب.

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ[3] وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾.

---

(١) في (ز): «فردوا».

(٢) هذه كَلمَة تُقال في الإِبْعاد في حكاية الضَّحِك. وقد تُقال للتَّوجُّع؛ فتكُون الهاء الأولىٰ مُبْدَلَة من هَمْزَة (آهْ)، وهو الأَلْيَق بِمعْنىٰ هذا الحديث. يقال: تَأَوَّه وتَهَوَّه آهَةً وهَاهَةً. «النهاية».

(٣) لوحة (١٦٣/ أ).

أي: يوم القيامة، و«عسىٰ» من الله موجبةٌ، فإنَّ هذا واقعٌ بفضلِ الله ومَنِّه [١] لا محالة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه المنفرد بالخَلْقِ والاختيار، وأنَّه ليس له في ذَلِكَ منازعٌ ولا مُعقِّبٌ فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كَانَ، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلُّها خيرُها وشرُّها بيَدِهِ، ومرجعها إليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفي علىٰ أصحِّ القولين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد اختار ابن جرير أن ﴿مَا﴾ هاهنا بمعنىٰ «الذي»، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة. وقد احتجَّ بهذا المسلك طائفة المعتزلة علىٰ وجوب مراعَاةِ الأصلح. والصحيح أنها نافيةٌ، كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس وغيره أيضًا [٢]، فإنَّ المقام في بيَانِ انفراده تعالىٰ بالخلقِ والتَّقديرِ والاختيار، وأنَّه لا نظير له في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، التي لا تخلق ولا تختار شيئًا.

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يعلم [ما تكن] [٣] الضَّمائر، وما تنطوي عليه السَّرائر، كما يعلم ما تُبْدِيهِ الظَّواهرُ مِن سائرِ الخلائق، ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المنفرد بالإلهيَّة، فلا معبود سواه، كما لا رَبَّ يخلقُ ويختارُ سواهُ ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ أي: في جميعِ ما يفعله هو المحمود عليه؛ لعدلِهِ وحكمَتِهِ ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: الذي لا معقِّب له، لقهرِهِ وغلبتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة فيُجَازِي كلَّ عاملٍ بعمله، من خيرٍ وشرٍّ، ولا يخفىٰ عليه منهم خافيةٌ في سائر الأعمال.

---

(١) المَنُّ هنا بمعنىٰ العطاء.

(٢) قال د. حكمت بشير ياسين: (لم يرد في تفسير ابن أبي حاتم ما يفيد أنها نافية).

(٣) في (ز): «مكتمة».

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا (١) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ (٢) ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ عباده بما سخَّر لهم من اللَّيل والنَّهار، اللَّذين لا قِوامَ لهم بدونهما. وبيَّن أنَّه لو جعلَ اللَّيلَ دائمًا عليهم سرمدًا إلىٰ يوم القِيامة، لأضرَّ ذلك بهم، ولسئمته (٣) النُّفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

ثم أخبر أنَّه لو جعل النَّهار سرمدًا دائمًا مستمرًّا إلىٰ يوم القيامة، لأضرَّ ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلَّتْ مِن كثرة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأَشْغالِكُم. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في النهار بالأسفار والتَّرحال، والحركات والأشغال، وهذا مِن بابِ اللَّف والنَّشر.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في اللَّيل والنَّهار، ومن فاته شيء باللَّيل استدركه بالنَّهار، أو بالنَّهار استدركه باللَّيل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. والآيات في هذا كثيرةٌ.

[فصل: فانظُر إلىٰ هذه الآيات وما تضمنته من العبرة والدَّلالة علىٰ رُبُوبيَّةِ الله وحكمته، كيف جعل اللَّيل سكنًا ولباسًا، يغشي العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوِي الحيوانات إلىٰ بيوتها، والطَّير إلىٰ أَوْكَارِها وتستجم فيه النُّفوس، وتستريحُ مِن كدِّ السَّعْيِ والتَّعَبِ، حتىٰ إذا أخذت منه النُّفوس راحتها وثُبَاتَها، وتطلَّعَتْ إلىٰ معايشها وتصرُّفها. جاء فالق الإصباح سبحانَهُ بالنَّهار، فقدم جيشه بَشِيرَ الصَّباح، فهزم تلك الظُّلْمَة ومزَّقها كل ممزَّقٍ، وأزالها وكَشَفَهَا عَن العالم فإذَا هُم مُبْصِرُون، فانتشَرَ الحيوان وتصرَّفَ في معايِشِهِ ومصالِحِهِ، وخرَجَتِ الطُّيور من أوكارها، فيا له من ميعاد! ونشأةٍ دالةٍ علىٰ قدرة الله سبحانه علىٰ المعاد الأكبر، وتكرره ومشاهدة النفوس له بحيث صار عادةً ومألفًا منعهَا مِن الاعتبار

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿سَرْمَدًا﴾ قيل: إنَّ أصلها سردًا، والسرد التتابع؛ يعني: متتابعًا، وعلىٰ هذا التَّقدير فالميم زائدة ويكونُ وزنه الصَّرفي سرمدًا مفعلًا، وأنَّ الميم زائدة، لو قلنا: إنَّ الميم أصليَّة، وأنَّه من سرمد إذا استمرَّ، وعلىٰ هذا فيكون الوزن الصرفي: فعللًا؛ يعني: تكون الميم أصليةً، الذي يهمنا معنىٰ السَّرمد، معناه: الدَّائم المستمر.

(٢) لوحة (١٦٣/ ب). (٣) في (ز): «لساء منه».

والاستدلال به على النَّشأة الثَّانية وإحياء الخَلْقِ بعد موتهم كما وردت السُّنَّة بذلك، أنَّه يستجابُ للعبد إذا قامَ مِن نومِهِ يقول: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَوْتِنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[(١)]][(٢)].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾

وهذا أيضًا نداءٌ [ثانٍ][(٣)] على سبيل التَّقريع والتَّوبيخ لِمَنْ عبد مع الله إلهًا آخر، يناديهم الرب -تبارك وتعالى- على رءوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في الدَّار الدُّنيا.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: قال مجاهد: يعني رسولًا[(٤)]. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: على صحَّة ما ادَّعيْتُمُوه من أن لله شركاء، ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره؛ أي: فلم ينطقوا ولم[(٥)] يحيروا[(٦)] جوابًا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ[(٧)] عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾

قال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاسٍ قال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، قال: كان ابن عمه. وهكذا قال إبراهيم النَّخَعي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسماك بن حرب، وقتادة، ومالك بن دينار، وابن جُرَيْج، وغيرهم: أنه كان ابن عم موسى عليه السلام.

قال ابن جُرَيْج: هو قارون بن يصهر بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث.

وزعم محمَّد بن إسحاق بن يَسَار: أن قارون كان عمَّ موسى عليه السلام.

قال ابن جرير: وأكثر أهل العِلْم على أنَّه كان ابن عمه، والله أعلم. وقال قتادة بن دِعَامة: كنا نُحدِّث أنَّه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنوَّر لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدوَّ الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة مالِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وهو عند مسلم (٢٧١١) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في (ز)، وهو مستفاد من هامش طبعة طيبة (٦/ ٢٥٢).

(٣) ليست في (ز).

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فالأقرب -والله أعلم- ما ذهب إليه شيخنا عبد الرحمن أنَّ المراد بالشهيد: من يكون شهيدًا بينهم، ومعتبرًا بينهم، وهذه منزلة العريف.

(٥) في (ز): «ولا يحيروا». (٦) لم يحيروا: لم يرجعوا ولم يردوا.

(٧) لوحة (١٦٤/ أ).

وقال شَهْر بن حَوْشَب: زاد في ثيابه شبرًا طولًا ترفعًا علىٰ قومه.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: من الأموال ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: لَيُثقلُ حملُهَا الفئامَ[1] من النَّاس لكثرتها.

قال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ: كانت مفاتيح كنوز قارون مِن جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كلُّ مفتاح علىٰ خزانة علىٰ حدته، فإذا ركب حُمِلَت[2] علىٰ سِتِّين بغلًا أغرَّ محجلًا. وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: وعظه فيما هو فيه صالح قومه، فقالوا علىٰ سبيل النُّصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون: لا تبطر بما أنت فيه من الأموال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عبَّاس: يعني المَرِحِينَ. وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين، الَّذِين لا يشكرون الله علىٰ ما أعطاهم.

وقوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: استعمل ما وَهَبَكَ الله من هذا المال الجزيل والنِّعمة الطَّائلة، في طاعةِ ربِّك والتَّقرُّب إليه بأنواع القُرُبَات، التي يحصل لك بها الثواب في الدَّار الآخرة. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ[3] مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ممَّا أباح الله فيهَا مِن المآكل والمشَارِب والملابس والمسَاكِن والمناكح، فإن لربِّك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزورِكَ[4] عليك حقًّا، فآتِ كلَّ ذِي حقٍّ حقَّه.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسن إلىٰ خلقه كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تكُنْ همَّتُك بما أنت فِيهِ أن تُفْسِد به الأرض، وتُسِيءَ إلىٰ خلق اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن جواب قارون لقومِهِ، حين نصحُوهُ وأرشدوه إلىٰ الخير ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أنا لا أفتقر إلىٰ ما تقولُونَ، فإنَّ الله تعالىٰ إنَّما أعطاني هذا المالَ لعلمه بأنِّي أستحقه، ولمحبَّتِهِ لي فتقديرُهُ: إنَّما أعطيتُهُ لعلم الله فيَّ أنِّي أهلُ له، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] [أي: علىٰ علمٍ مِن الله بي][5] وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠] أي: هذا أستحقه.

---

(١) الفئام: الجماعات.
(٢) في (ز): «جعلت».
(٣) لوحة (١٦٤/ ب).
(٤) الزَّوْر: الزائرون.
(٥) سقط من (ز).

وقد رُوي عن بعضهم أنه أراد: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ أي: إنه كان يعاني علم الكيمياء: وهذا القول ضعيف؛ لأنَّ عِلْم الكيمياءِ في نفسِهِ علمٌ باطلٌ (١)؛ لأنَّ قلب الأعيان لا يقدر أحدٌ عليها إلا الله ﷻ قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، وفي «الصحيح» عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعالَىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**»(٢). وهذا ورد في المصوِّرينَ الَّذِين يُشَبِّهُون بخلق الله في مجرَّد الصُّورة الظَّاهرة أو الشَّكل، فكيف بِمَنْ يدَّعي أنَّه يُحِيلُ ماهيَّةَ هذه الذَّات إلىٰ ماهيَّة ذاتٍ أخرىٰ، هذا زورٌ ومُحالٌ، وجهلٌ وضلالٌ. وإنَّما يقدرون علىٰ الصَّبغ في الصورة الظاهرة، وهو كذبٌ وزغلٌ(٣) وتمويهٌ وترويجٌ أنَّه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قطعًا لا محالة، ولم يثبُتْ بطريقٍ شرعيٍّ أنَّه صحَّ مع أحدٍ مِن النَّاس من هذِهِ الطَّرِيقَةِ(٤) التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفَسَقَةِ الأفَّاكون فأمَّا ما يُجْرِيه الله تعالىٰ من خَرْق العوائد علىٰ يدي بعضِ الأولياء مِن قلب بعض الأعيان ذهبًا أو فضَّةً أو نحو ذلك، فهذا أمرٌ لا يُنْكِرُه مُسْلِمٌ، ولا يردُّه مؤمنٌ، ولكن هذا ليس مِن قبيل الصِّناعات وإنَّما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات، واختياره وفعله، كما روي عن حَيْوة بن شُرَيح المصري رَحِمَهُ اللهُ أنَّه سأله سائلٌ، فلم يكُن عنده ما يُعْطِيه، ورأىٰ ضرورته، فأخذ حصاةً مِن الأرضِ فأجالها(٥) في كفه، ثم ألقاها إلىٰ ذلك السَّائل فإذا هي ذهبٌ أحمرُ. والأحاديث والآثار في هذا كثيرةٌ جدًّا يطول ذكرها.

---

(١) **أنكر الزجاج ذلك القول**، والمقصود بها هنا: الحيلة والحذق، وهي عند القدماء: تحويل بعض المعادن إلىٰ بعض، فهو علم يُعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية، وجلب خاصة جديدة إليها، ولا سيما تحويلها إلىٰ ذهب علىٰ وجه الخصوص، وأما عند المحدثين فهو: علم يُبحث فيه عن خواص العناصر المادية والقوانين التي تخضع لها الظروف المختلفة، وبخاصة عند اتحاد بعضها ببعض.

- ولذلك تكلم عنها أهل العلم وذموا متعاطيها علىٰ المعنىٰ القديم؛ لما فيها من الغش والتدليس والخداع؛ إذ فيها يشبه المصنوع بالمخلوق، وقصد أهلُها أن يجعل هذا كهذا فينفِّقونه، ويعاملون به الناس، وهذا من أعظم الغش، ولهذا لا يظهرون للناس إذا عاملوهم أن هذا من الكيمياء، ولو أظهروا للناس ذلك لم يشتروه منهم فالمصنوع من الكيمياء يستحيل ويفسد ولو بعد حين بخلاف الذهب المعدني.

- وذكر شيخ الإسلام أنه ناظر أحد رءوس هؤلاء المتعاملين بالكيمياء، فكان مما اعترض به علىٰ شيخ الإسلام أن قال: إن قارون كان يعمل بالكيمياء، فرد عليه الشيخ بقوله: وهذا أيضًا باطل، فإنه لم يقله عالم معروف، وإنما يذكره مثل الثعلبي في تفسيره عمن لا يُسمَّىٰ، وفي «تفسير الثعلبي» الغث والسمين، فإنه حاطب ليل، ولو كان مال قارون من الكيمياء لم يكن له بذلك اختصاص، فإن الذين عملوا الكيمياء خلق كثير لا يحصون، والله سبحانه قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]. فأخبر أنه آتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، والكنوز إما أن يكون هو كنزها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤]، وإما أن يكون اطلع علىٰ كنائز مدفونه، وهو الركاز، وهذا لا ريب أنه موجود. وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٩/ ٣٧٠-٣٧٧).

(٢) البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

(٣) **الزَّغَلُ**: الغِشُّ. «تاج العروس».

(٤) لوحة (١٦٥/ أ).

(٥) أي: أدارها.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعَا الله به، فتموَّل(١) بسببه. والصحيح المعنىٰ الأول؛ ولهذا قال الله تعالىٰ -رادًّا عليه فيما ادَّعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: قد كانَ مَن هو أكثر منه مالًا وما كان ذلك عن محبَّة منَّا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شُكْرِهِم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم.

قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾: علىٰ خيرٍ عندي.

وقال السُّدِّي: علىٰ علمٍ أنِّي أهلٌ لذلك.

وقد أجاد في تَفْسِير هذه الآية الإمام عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم، فإنَّه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ قال: لولا رضا الله عنِّي، ومعرفتُهُ بفضْلِي ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [وهكذا يقول مَنْ قلَّ علمُهُ إذا رأىٰ مَنْ وسَّع الله عليه يقول: لولا أنَّه يستحق ذلك لما أُعْطِيَ](٢).

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن قارون: إنَّه خرج ذات يومٍ علىٰ قومِهِ في زينةٍ عظيمةٍ، وتجمُّلٍ باهرٍ، من مراكبَ وملابسَ عليه وعلىٰ خدمِهِ وحشمِهِ، فلمَّا رآهُ مَنْ يريدُ الحياة الدُّنيا ويميل إلىٰ زُخْرُفِهَا وزينتِهَا، تمنَّوْا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي، قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو حظٍّ وافرٍ من(٣) الدُّنيا. فلمَّا سَمِعَ مقالتَهُم أهل العلم النَّافع قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصَّالحين في الدَّار الآخرة خيرٌ مما تَرَوْنَ.

[كما في الحديث الصحيح: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**»(٤)] [السجدة:١٧](٥).

وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الصَّٰبِرُونَ﴾: قال السُّدِّي: وما يُلَقَّىٰ الجنَّة إلا الصَّابرون. كأنه جعل

---

(١) أي: كثر ماله. (٢) ليست في (ز).
(٣) لوحة (١٦٥ب). (٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) رواه البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤).

ذلك من تمام كلام الَّذِين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يُلَقَّىٰ هذه الكلمة إلا الصَّابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة. وكأنَّه جعل ذلك مقطوعًا [١] من كلام أولئك، وجعله من كلام الله ﷻ وإخباره [٢] بذلك.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ اختيال قارون في زينته، وفخره علىٰ قومه وبغيه عليهم، عَقَّبَ ذلك بأنَّه خسف به وبدارِهِ الأرض، كما ثبت في «الصحيح» -عند البخاري من حديث الزهري، عن سالم- أنَّ أباه حدَّثه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ» [٣].

ثم رواه من حديث جرير بن زيد، عن سالم عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص، حدَّثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ أَخْضَرَيْنِ يَخْتَالُ فِيهِمَا، أَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، فَإِنَّهُ لَيَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ». تفرَّد به أحمد، وإسناده حسن [٤].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدَّثنا أبو يعلىٰ بن منصور [٥]، أخبرني محمَّد بن مسلم، سمعت زيادًا النميري يحدِّث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ فَاخْتَالَ فِيهِمَا، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ» [٦].

وقد ذكر [الحافظ] [٧] محمَّد بن المنذر -شكَّر [٨]- في كتاب «العجائب الغريبة» بسنده عن نوفل [٩] بن مساحق قال: رأيت شابًّا في مسجد نجران، فجعلت أنظر إليه وأتعجَّب مِن طولِهِ وتمامِهِ

(١) في (ز): «معطوفًا». (٢) في (ز): «واختاره».

(٣) رواه البخاري (٥٧٩٠)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٤) رواه أحمد (٣/ ٤٠) من حديث أبي سعيد، وفي إسناده عطيَّة العوفي: شيعيٌّ مدلِّس، لكن يشهد له الرِّواية السابقة.

(٥) في (ز): «أبو معلىٰ»، والصَّواب ما أثبتناه، وأبو يعلىٰ هو معلىٰ بن منصور الرازي.

(٦) رواه أبو يعلىٰ (٢٣٠٢)، وفي إسناده زياد النمري: ضعيف، ولكن الحديث يشهد له ما تقدَّم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

(٧) ليست في (ز).

(٨) هو الإمام محمد بن المنذر بن سعيد السُّلمي أبو عبد الرحمن المشهور بـ(شَكَّر)، كان واسع الرواية، جيد التصنيف، ت (١٣٣ هـ) وانظر «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٢٢).

(٩) لوحة (١٦٦أ).

وجمالِهِ، فقال: ما لك تنظر إليَّ؟ فقلت: أعجب مِن جمالك وكمالك. فقال: إنَّ الله ليعجب مِنِّي. قال: فما زال ينقص وينقُصُ حتىٰ صار بطُولِ الشِّبر، فأخذه بعض قرابته في كمِّهِ وذهب.

وقد ذُكر أنَّ هلاكَ قارون كان عن دعوة نبي الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ واختلف في سَبَبِهِ، فعن ابن عبَّاسٍ والسُّدِّي: أنَّ قارون أعطىٰ امرأةً بَغِيًّا مالًا علىٰ أن تَبْهَت موسىٰ بحضرة الملإ من بَنِي إسرائيل، وهو قائمٌ فيهم يتلو عليهم كتابَ الله، فتقول: يا مُوسَىٰ، إنَّك فعلت بي كذا وكذا. فلمَّا قالت في الملإ ذلك لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُرْعِدَ من الفَرَق، وأقبل عليها وصلىٰ ركعتين ثم قال: أنشدك بالله الذي فَرَق البحر، وأنجاكم من فرعون، وفعل كذا [وفعل][1] كذا، لما أخبرتني بالَّذِي حملك علىٰ ما قلت؟ فقالت: أما إذ نَشَدْتَني فإن قارون أعطاني كذا وكذا، علىٰ أن أقولَ لكِ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه. فعند ذلك خَرَّ موسىٰ لله عَزَّ وَجَلَّ ساجدًا، وسأَلَ الله في قارون. فأوحىٰ الله إليه أني قد أمرت الأرضَ أن تُطِيعَك فيه، فأمر موسَىٰ الأرض أن تبتَلِعَه وداره فكان ذلك.

وقيل: إنَّ قارون لمَّا خرج علىٰ قومه في زينته تلك، وهو راكبٌ علىٰ البغال الشُّهب، وعليه وعلىٰ خدمه الثياب الأرجوان الصَّبغة، فمَرَّ في جَحْفَله ذلك علىٰ مجلس نبيِّ الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يذكرهم بأيَّام الله. فلمَّا رأىٰ النَّاس قارون انصرفت وجوه النَّاس حوله، ينظرُونَ إلىٰ ما هو فِيهِ. فدعاه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال: ما حَمَلَكَ علىٰ ما صنعتَ؟ فقال: يا موسىٰ، أما لَئِن كنت فُضِّلتَ عَلَيَّ بالنُّبوَّة، فلقد فُضِّلْتُ عليك بالدُّنيا، ولَئِن شئتَ لتخرجنَّ، فلتدعونَّ عليَّ وأدعو عليك. فخرج وخرج قارونُ في قومِهِ، فقال موسىٰ: تدعو أو أدعُو أَنَا؟ قال: بل أَنَا أدعُو. فدعا قارون فلم يَجِب له، ثم قال موسىٰ: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسىٰ: اللَّهمَّ، مُرِ الأرض أن تطيعني اليوم. فأوحىٰ الله إليه أني قد فعلت، فقال موسىٰ: يا أرض، خذيهم[2]. فأخذتهم إلىٰ أقدامهم. ثم قال: خذيهم. فأخذتهم إلىٰ ركبهم، ثم إلىٰ مناكبهم. ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم. قال: فأقبلت بها حتىٰ نظروا إليها. ثم أشار موسىٰ بيده فقال: اذهبوا بني لاوىٰ فاستوت بهم الأرض.

وعن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: خُسف بهم إلىٰ الأرض السَّابعة.

وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يومٍ قامةً، [فهم][3] يتجَلْجَلُون فيها إلىٰ يوم القيامة.

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات [غريبة][4] أضربنا[5] عنها صفحًا.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ أي: ما أغنىٰ عنه مالُه، وما جَمْعه، ولا خدمه و [لا][6] حشمه. ولا دفعوا عنه نقمةَ الله وعذابَهُ ونكالَهُ به، [ولا كان هو في نفسِهِ منتصرًا لنَفْسِهِ، فلا ناصرَ له لا مِن نفسِهِ، ولا مِن غيرِهِ.

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١٦٦ب). (٣) سقط من (ز).
(٤) ليست في (ز). (٥) في (ز): «أغربنا». (٦) ليست في (ز).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: الَّذين لمَّا رأوه في زِينَتِهِ قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فلمَّا خسف به] [١] أصبحوا يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ليس المال بدالٍّ علىٰ رضا الله عن صاحِبِهِ [وعن عبادِهِ] [٢]؛ فإنَّ الله يعطِي ويمنَعُ، ويضيق ويوسع، [ويخفض ويرفع] [٣] وله الحكمة التَّامَّة والحجَّة البالغة. وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي المَالَ مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلا يُعْطِي الإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ» [٤].

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا لُطفُ اللهِ بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف بِهِ، لأنَّا وَدِدْنا أن نكون مثله.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعنون: أنَّه كان كافرًا، ولا يفلح الكافر عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخِرَةِ.

وقد اختلف النُّحاة في معنىٰ قوله تعالىٰ هاهنا: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾، فقال بعضهم: معناها: «ويلك اعلَمْ أنَّ»، ولكن خُفِّفت فقيل: «ويك»، ودلَّ فتح «أنَّ» علىٰ حذف «اعلَمْ». وهذا القول ضعَّفه ابن جرير، والظاهر أنه قويٌّ، ولا يشكل علىٰ ذلك إلا كتابتها في المصاحف متَّصِلَةً «ويكأنَّ». والكتابة أمرٌ وضعيٌّ اصطلاحيٌّ، والمرجع إلىٰ اللَّفظ العربي، والله أعلم.

وقيل: معناها: ويكأنَّ؛ أي: ألم تَرَ أنَّ. قاله قتادة. وقيل: معناها «وَيْ كأنَّ»، ففصلها وجعل حرف «وَيْ» للتَّعَجُّب أو للتَّنبِيهِ، و«كأنَّ» بمعنىٰ «أظنُّ وأحسب». قال ابن جرير: وأقوىٰ الأقوال في هذا قول قتادة: إنَّها بمعنىٰ: ألم تَرَ أنَّ، واستشهد بقول الشاعر [٥]:

سَأَلَتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَتَانِي ... قَلَّ مَالِي، وَقَدْ [٦] جِئْتُمَانِي بِنُكْرِ

وَيْكَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرٍّ

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾ [٧]

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) ليست في (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٣٨٧)، وأبو نعيم (٤/ ١٦٦) (٥/ ٣٥)، وابن عدي (٣/ ١١٥٨)، وفيه الصباح بن محمَّد: ضعيف، ولكن للحديث طرق أخرىٰ صحيحة: رواه الإسماعيلي في «المعجم» (١/ ١١٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٢٦) والحاكم (١/ ٣٤)، ووافقه الذهبي وصححه، واعلم أن للحديث زيادة تقدم ذكرها عند الآية (٢٦٩) من سورة البقرة لكنها ليس لها شواهد ومتابعات فهي زيادة ضعيفة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧١٤).

(٥) لوحة (١٦٧ أ). (٦) في (ز): «إن جئتماني».

(٧) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من فوائد الآية أيضًا: أنَّ السَّيِّئة لا تضاعفُ مِن قوله: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

يخبر تعالىٰ أنَّ الدَّار الآخرة ونعيمها المقيم الَّذِي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضِعِين، الَّذِين لا يريدون علوًّا في الأرض؛ أي: ترفعًا علىٰ خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبرًا بهم، ولا فسادًا فيهم. كما قال عكرمة: العلوُّ: التَّجبُّر.

وقال سعيد بن جبير: العلو: البغي.

وقال سفيان بن سعيد الثَّوري، عن منصور، عن مسلم البطين: العلوُّ في الأرض: التَّكبُّر بغيرِ حقٍّ. والفساد: أخذ المال بغير حقٍّ.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تعظمًا وتجبُّرًا، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملًا بالمعاصي.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا أبي، عن أشعث السمان، عن أبي سلام الأعرج، عن عليٍّ رضي الله عنه قال: إنَّ الرجلَ ليُعْجِبُهُ مِن شراك نعله أَن يكون أجودَ مِن شِرَاكِ صاحِبِهِ، فيدخل في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(١)].

وهذا محمول علىٰ ما إذا أراد [بذلك][(٢)] الفخر [والتَّطاول][(٣)] علىٰ غيره؛ [فإنَّ ذلك مذموم، كما ثبت في «الصحيح»، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّىٰ لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**][(٤)]»[(٥)]، وأمَّا إذا أحبَّ ذلك لمجرَّد التَّجمُّل فهذا لا بأس به، فقد ثبتَ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، إنِّي أُحِبُّ أن يكون ردائي حسنًا ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «**لا، إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**»[(٦)].

وقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: ثواب الله خير من حَسَنَة العبد، فكيف والله يُضَاعِفُه أضعافًا كثيرةً فهذا مقام الفَضْل.

ثم قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل] وهذا مقام الفصل والعدل.

= ومنها: أن عدم مضاعفة السيئة عامٌّ في مكة وغيرها، وجهه: أن الآية عامةٌ ليس فيها استثناءٌ، ثم إنَّ السُّورة التي معنا مكيَّةٌ، السُّورة نازلةٌ بمكَّة والآية بمكَّة ولم يستثن شيءٌ، وأمَّا ما يُروَىٰ عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: لا أُقِيمُ في بلدٍ حسناته كسيئاته، فهذا باطلٌ، لا يصح عن ابن عبَّاس؛ لأن ابن عبَّاس أفقهُ مِن أن يقول مثل هذا القولِ، لكن السَّيِّئة في مكَّة تضاعف ما من جهة الكمِّيَّة ولكن من جهة الكيفية؛ يعني: عقوبتها أشد وأبلغ ألمًا.

(١) رواه الطبري (٢٠/ ١٢٢) وإسناده ضعيف، ففيه سفيان بن وكيع: ضعيف، وأبو سلام الأعرج هو مطور الحبشي، وأشعث السمان لم يوثقه غير ابن حبان، وقال وكيع: لا يتابع عليه. انظر: «لسان الميزان» (١/ ٤٥٨)

(٢) ليست في (ز). (٣) ليست في (ز). (٤) سقط من (ز).

(٥) مسلم (٢٨٦٥). (٦) مسلم (٩١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ (١) وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسولَه -صلوات الله وسلامه عليه- ببَلَاغ الرِّسالة وتلاوة القرآن علىٰ النَّاس، ومخبرًا له بأنَّه سيرده إلىٰ معادٍ، وهو يوم القيامة، فيَسْأله عمَّا استرعاه من أعباء النُّبوَّة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: افترض عليك أداءه إلىٰ النَّاس، ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلىٰ يوم القيامة فيَسْألك عن ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقال: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال السُّدِّي عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، يقول: لرادُّك إلىٰ الجنَّة، ثم سائلك عن القرآن. قال السُّدِّي: وقال أبو سعيدٍ مثلها.

وقال الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس ﵄: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلىٰ يوم القيامة. ورواه مالك، عن الزهري.

وقال الثَّوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إلىٰ الموت.

ولهذا طُرُقٌ عن ابن عبَّاسٍ ﵄ وفي بعضها: لرادُّكَ إلىٰ معدنك من الجنَّة.

وقال مجاهد: يُحْيِيكَ يوم القيامة. وكذا روي عن عكرمة، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبي قَزَعَةَ، وأبي مالك، وأبي صالح.

وقال الحسن البصري: أي وَاللهِ، إن له لمعادًا، يبعثه (٢) الله يوم القيامة ثم يدخله الجنَّة.

وقد رُوِيَ عن ابن عبَّاس غير ذلك، كما قال البخاري في التَّفسير من صحيحه:

حدَّثنا محمَّد بن مقاتل، أنبأنا يعلىٰ، حدَّثنا سفيان العُصْفُرِيِّ، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلىٰ مكة (٣).

---

(١) لوحة (١٦٧ب). (٢) في (ز): «ابتعثه». (٣) البخاري (٤٤٩٥).

وهكذا رواه النَّسائي في تفسير سننه، وابن جرير من حديث يعلىٰ -وهو ابن عبيد الطَّنَافِسيّ- به[1]. وهكذا روىٰ العَوْفيُّ، عن ابن عبَّاس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: لرادك إلىٰ مكة كما أخرجَكَ مِنْهَا.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن مجاهد في[2] قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إلىٰ مولدك بمكَّة.

قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن ابن عبَّاسٍ، ويحيىٰ بن الجزار، وسعيد بن جبير، وعطية، والضَّحَّاك، نحو ذلك. [وحدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: فسمعناه من مقاتل مُنْذُ سبعين سنةً، عن الضَّحَّاك][3] قال: لما خرج النَّبيُّ ﷺ من مكَّة، فبلغ الجُحْفَةَ، اشتاق إلىٰ مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلىٰ مكة[4].

وهذا من كلام الضَّحَّاك يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكيًّا، والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق: حدَّثنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: هذه مما كان [ابن عبَّاس][5] يكتمها، وقد رَوَىٰ ابنُ أبي حاتم بسنده عن نَعيمٍ القارئ أنَّه قال في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلىٰ بيت المقدس.

وهذا -والله أعلم- يرجع إلىٰ قول من فسَّر ذلك بيومِ القِيامَة؛ لأنَّ بيت المقدس هو أرض المَحْشَر والمَنْشَر، والله الموفِّق للصَّواب.

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عبَّاسٍ فسَّر ذلك تارةً برُجُوعِهِ إلىٰ مكَّة، وهو الفتح الَّذي هو عند ابن عبَّاس أمارة علىٰ اقتراب أجلِهِ -صلوات الله وسلامه عليه- كما فسَّره ابن عبَّاسٍ بسورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ أنه أجَلُ رسول الله ﷺ نُعِيَ إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب، ووافقه عمر علىٰ ذلك، وقال: لا أعلم منها غَيْرَ الَّذي تعلم. ولهذا فسر ابن عبَّاسٍ تارةً أخرىٰ قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارةً بيومِ القيامة الذي هو بعد الموت، وتارةً بالجنَّة التي هي جزاؤه ومصيره علىٰ أداء رسالةِ الله وإبلاغها إلىٰ الثَّقلين: الجن والإنس؛ ولأنَّه أكمل خلقِ الله،

---

(١) النسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٨٦)، والطبري (٢٠/ ٨٠).
(٢) لوحة (١٦٨/ أ).
(٣) سقط من (ز).
(٤) معضل: لأنَّه مِن رواية الضَّحَّاك ولم يُسْنِدْهُ، رواه ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٢٩) رقم (١٧٢٠٥).
(٥) سقط من (ز).

وأفصح خلقِ الله، وأشرف خلق الله علىٰ الإطلاق.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: قل -لِمَنْ خالفك وكذَّبك يا محمَّد من قومك من المشركين ومَنْ تبعهم علىٰ كفرهم- قل: ربِّي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمَن تكون عاقبة الدَّار، ولِمَنْ تكون العاقبة والنُّصرة في الدُّنيا والآخرة.

ثم قال تعالىٰ مذكِّرًا لنبيِّه نعمته العظيمة عليه [(١)] وعلىٰ العباد إذْ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوَحْي إليك أن الوحي ينزل عليك، ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إنما نزل الوحي عليك مِن الله مِن رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النِّعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا﴾ أي: مُعِينًا ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَ﴾ أي: لا تتأثَّر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طَريقِك لا تلوي علىٰ ذلك ولا تباله؛ فإنَّ الله مُعْلٍ كلمتك، ومؤيِّدٌ دينك، ومظهرٌ ما أُرسِلْتَ به علىٰ سائر الأديان؛ ولهذا قال: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلىٰ عبادة ربك وحده لا شريك لَهُ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمَتِهِ.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ : إخبارٌ بأنه الدَّائم الباقي الحيُّ القيُّوم، الَّذي تموت الخلَائِق ولا يموت، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هاهنا: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ أي: إلا إيَّاه.

وقد ثبت في «الصَّحيح»، من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ» [(٢)]

وقال مجاهد والثَّوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ أي: إلا ما أُرِيدَ به وجهه، وحكاه البخاريُّ في «صحيحه» كالمقرر له.

قال ابن جرير: ويستشهد مَن قال ذلك بقول الشاعر:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبُّ العِبَادِ، إِلَيْهِ الوَجْهُ وَالعَمَلُ

---

(١) لوحة (١٦٨/ ب).

(٢) البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).

وهذا القول لا يُنَافِي القول الأول، فإنَّ هذا إخبارٌ عن كلِّ الأعمال بأنَّها باطلةٌ إلَّا ما أريد بها وجهُ الله عَزَّ وَجَلَّ مِن الأعمال الصَّالحة المطابقة للشَّريعة. والقول الأوَّل مقتضاه أن كل الذَّوات فانيةٌ وهالكةٌ وزَائِلةٌ إلا ذاته تعالىٰ، فإنَّه الأوَّل الآخر الَّذِي هو قبل كلِّ شيءٍ وبعد كلِّ شيءٍ.

قال أبو بكر عبد الله بن محمَّد بن أبي الدنيا في كتاب «التفكُّر والاعتبار [(١)]»: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن أبي بكر، حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا عمر بن سليم الباهلي، حدَّثنا أبو الوليد قال: كان ابنُ عمرَ إذا أراد أن يتعَاهَدَ قلبه، يأتي الخَربَة فيقف علىٰ بابها، فينادي بصوتٍ حزينٍ فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلىٰ نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي: الملك والتَّصرُّف، ولا معقِّب لحكمه، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: يومَ معادِكُم، فيجزيكم بأعمالكم، إن كان خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. والله أعلم.

آخر تفسير سورة «القصص»

---

(١) لوحة (١٦٩/ أ).

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

تفسير سورة العنكبوت [وهي][1] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾

أمَّا الكلام على الحروف [المقطَّعة][2] فقد تقدَّم في أوَّل سورة «البقرة».

وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ، ومعناه: أنَّ الله تعالى لا بدَّ أن يبتليَ عباده المؤمنِينَ بحسبِ ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسْبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي البَلَاءِ»[3]. وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ[4] وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ومثلها في سورة «براءة» وقال في البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: الَّذِين صدقوا في دَعْواهُم الإيمان مِمَّنْ هو كاذبٌ في قولِهِ ودعواه. والله تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن[5] لو كان كيف كان يكون. وهذا مجمعٌ عليه عند أئمَّة السُّنَّة والجماعة؛ ولهذا يقول ابن عبَّاس وغيره في مثل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ[6]﴾ [البقرة: ١٤٣]: إلا لِنَرىٰ؛ وذلك أنَّ الرُّؤْية إنَّما تتعلَّق بالمَوْجُودِ، والعلم أَعَمُّ مِن الرُّؤْيةِ، فإنَّه [يتعلَّق][7] بالمعدومِ والموجودِ.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا فِي الإيمَانِ أنَّهم يتخلَّصُون من هذه الفِتْنَةِ والامتحان، فإنَّ مِن ورائهم مِن العقوبة والنَّكال

---

(١) ليست في (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٤٧)، وابن ماجة (٤٠٢٣).

(٤) في (ز): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾، وهو موضع آخر في سورة التوبة.

(٥) في (ز): «ولو لم يكن». (٦) لوحة (١٦٩ ب). (٧) سقط من (ز).

ما هو أغلظ من هذا وأطمُّ؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يظنُّون.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

يقول تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدَّار الآخرة، وعمل الصَّالحات رجاءَ ما عند الله من الثَّواب الجزيل، فإنَّ الله سيُحقِّق له رجاءَهُ ويُوَفِّيه عمله كاملًا موفورًا، فإنَّ ذلك كائنٌ لا محالةَ؛ لأنَّه سميعُ الدُّعاء، بصيرٌ بكلِّ الكائنات؛ ولهذا قال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦] أي: من عَمِلَ صالحًا فإنَّما يعود نفع عملِهِ علىٰ نفسِهِ، فإنَّ الله غنيٌّ عن أفعال العبادِ، ولو كانوا كلهم علىٰ أتقىٰ قلب رجل [واحد](١) منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الحسن البصري: إنَّ الرَّجُل ليُجَاهِدُ، وما ضرب يومًا من الدَّهر بسيفٍ.

ثمَّ أخبر أنَّه مع غناه عَن الخلائق جميعهم من إحسانه وبرِّه بهم يُجَازي الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات أحسنَ الجَزاءِ، وهو أنَّه يكفِّر عنهم أسوأَ الَّذِي عَمِلُوا، ويجزيَهُم أجرَهُم بأحسن ما كانوا يعملون، فيَقْبَلُ القليل من الحسنات، ويُثِيبُ عليها الواحدة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، ويجزي علىٰ السَّيِّئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ(٢) وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال هاهنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ(٣) إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عبادَهُ بالإحسان إلىٰ الوالدَيْنِ بعد الحث علىٰ التَّمسُّك بتوحيده، فإنَّ الوالدَيْن

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١٧٠/ أ).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: من فوائد الآية الكريمة: وجوب طاعتهما في غير معصية؛ لأنَّه إنَّما نهي عن طاعتهما في المعصية حيث إنَّه نُهِي المرء عن طاعة الوالدين في الشِّرك وأُمِرَ بطاعتهما في غير الشرك، ومعلوم أنَّ المنهيَّ عنه طاعتهما في المعصية وهي أعم من طاعتهما في الشِّرك، ونرىٰ أن طاعتهما في الواجب واجبةٌ؛ لأنَّ الله أوجبه، مثل لو قال لك الأب: قم صلِّ مع الجماعة وجب عليك أن تصلِّي.

هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غايةُ الإحسان، فالوَالِدُ بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

ومع هذه الوصيَّة بالرَّأفة والرَّحمةِ والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدِّم، قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي: وإن حَرَصا عليك أن تتابعهما علىٰ دينهما إذا كانا مشركين، فإيَّاك وإيَّاهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إليَّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصَبْرِك علىٰ دينك، وأحشرك مع الصَّالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب النَّاس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنَّما يُحْشَر يوم القيامة مع مَنْ أحب؛ أي: حبًّا دينيًّا؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

وقال التِّرمذي عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا محمَّد بن بشار ومحمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن سِمَاك بن حرب [قال:](١) سمعت مُصعَب بن سعد يحدِّث عن أبيه سعد، قال: نزلت فيَّ أربع آيات. فذكر قصةً، وقالت أم سعد: أليس قد أمرك الله بالبرِّ؟ والله لا أطعَمُ طعامًا ولا أشرب شرابًا حتىٰ أموتَ أو تكفرَ، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَروا فَاهَا(٢)، فأنزل الله ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ الآية(٣)(٤).

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضا، وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن صفات قوم من [المكذِّبين](٥) الَّذِين يدَّعون الإيمان بألستهم، ولم يَثْبُتِ الإيمان في قلوبهم، بأنَّهم إذا جاءَتْهُم فتنةٌ ومحنةٌ في الدنيا، اعتقدوا أن هذا مِن نقمةِ الله تعالىٰ بهم، فارْتَدُّوا عن الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ .

---

(١) سقط من (ز).

(٢) في «صحيح مسلم»: «فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصًا ثم أوجروها». قال النووي: أي فتحوه ثم صبُّوا فيها الطعام. «شرح مسلم» (١٥/ ١٨٧).

(٣) لوحة (١٧٠/ ب).

(٤) مسلم في «فضائل الصحابة» (١٧٤٨) رواه مختصرًا، وأبو دواد (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩) وأحمد (١/ ١٨١)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) سقط من (ز).

قال ابن عبَّاس: يعني فتنَتَهُ أن يرتدَّ عن دينه إذا أُوذِيَ في الله. وكذا قال غيره من علماء السَّلف. وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

ثم قال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء نصرٌ قريبٌ من ربك -يا محمَّد- وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنَّا [كنَّا][١] معكم؛ أي: كنَّا إخوانكم في الدين، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقال تعالىٰ مخبرًا عنهم هاهنا: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، ثم قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أوليس الله بأعلَمَ بما في قلوبهم، وما تكنُّه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟.

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: وليختبرنَّ الله النَّاس بالضَّرَّاء والسَّرَّاء، ليتميَّز هؤلاء من هؤلاء، ومَن يُطيع الله في الضَّرَّاء والسَّرَّاء، ومن إنَّما يطيعه في حظِّ نفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ[٢] حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمَّد: ٣١]، وقال تعالىٰ بعد وقعة أحدٍ، التي كان فيها [ما كان][٣] من الاختبار والامتحان: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كفَّار قريشٍ: أنَّهم قالوا لِمَنْ آمن منهم واتَّبع الهدىٰ: ارجعوا عن دينكم إلىٰ ديننا، واتَّبِعُوا سبيلنا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: وآثامكم -إن كانت لكم آثام -وذلك علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: «افعل هذا وخطيئَتُكَ في رَقَبَتِي». قال الله تكذيبًا لهم: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه: إنَّهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنَّه لا يحمل أحدٌ وزرَ أحدٍ، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١٧١/ أ). (٣) سقط من (ز).

تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١].

وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: إخبارٌ عن الدُّعاة إلىٰ الكفر والضَّلالة، أنَّهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزارًا أخر بسبب مَنْ أضلوا مِنَ النَّاس، مِن غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وفي «الصحيح»: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(١) وفي «الصَّحيح»: «مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»(٢).

وقوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذِّبون ويختلقون من البهتان.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا فقال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا صدقة، حدَّثنا عثمان بن حفص بن أبي العالية، حدَّثني سليمان بن حبيب المحاربي(٣) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ بَلَّغَ ما أُرسِلَ به، ثم قال: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ اللهَ يَعْزِمُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي لا يَجُوزُنِي اليَوْمَ ظُلْمٌ! ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: أَيْنَ فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ؟ فَيَأْتِي يَتْبَعُهُ مِنَ الحَسَنَاتِ أَمْثَالُ الجِبَالِ، فَيَشْخَصُ النَّاسُ إِلَيْهَا أَبْصَارَهُمْ حَتَّىٰ يَقُومَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الرَّحْمَنِ عز وجل ثُمَّ يَأْمُرُ المُنَادِي فَيُنَادِي: مَنْ كَانَتْ لَهُ تِبَاعَةٌ(٤) -أو: ظُلَامَةٌ- عِنْدَ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ، فَهَلُمَّ. فَيُقْبِلُونَ حَتَّىٰ يَجْتَمِعُوا قِيَامًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ الرَّحْمَنُ: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي. فَيَقُولُونَ: كَيْفَ نَقْضِي عَنْهُ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: خُذُوا [لَهُمْ](٥) مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَلَا يَزَالُونَ يَأْخُذُونَ مِنْهَا حَتَّىٰ لا يَبْقَىٰ لَهُ حَسَنَةٌ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ الظُّلَامَاتِ، فَيَقُولُ: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي. فَيَقُولُونَ: لَمْ يَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ. فَيَقُولُ: [خُذُوا](٦) مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَاحْمِلُوهَا عَلَيْهِ». ثم نزع(٧) النَّبيُّ ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾(٨).

---

(١) مسلم (٢٦٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٤)، وابن ماجة (٢٠٦)، وأحمد (٢/ ٣٩٧).
(٢) البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧)، وابن ماجة (٢٦١٦)، وأحمد (١/ ٣٨٣).
(٣) لوحة (١٧١/ ب).
(٤) التَّبَاعة: ما فيه إثم يتبع به، يقال: ما عليه من الله في هذا تبعة ولا تباعة.
(٥) سقط من (ز).
(٦) سقط من (ز).
(٧) أي: استشهد.
(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٧١٨٦).

وهذا الحديث له شاهد في «الصحيح» من غير هذا الوجه (١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن أبي الحواري، حدَّثنا أبو بشر الحذاء، عن أبي حمزة الثمالي، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا مُعَاذُ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ سَعْيِهِ، حَتَّىٰ عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ، وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِإِصْبَعَيْهِ، فَلَا أُلْفِيَنَّكَ تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدٌ أَسْعَدُ بِمَا آتَاكَ اللهُ مِنْكَ» (٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

هذه تسليةٌ مِن الله تعالىٰ لعبده ورسوله محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- يخبره عن نوحٍ عليه السلام: أنَّه مكث في قومِهِ هذه المدَّة يدعوهم إلىٰ الله ليلًا ونهارًا، وسرًّا، وجهارًا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارًا عن الحق، وإعراضًا عنه وتكذيبًا له، وما آمن معه منهم إلا قليلٌ؛ ولهذا قال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: بعد هذه المدَّة الطَّويلة ما نجع فيهم البَلَاغ والإنذار، فأنت -يا محمَّد (٣)- لا تأْسَف علىٰ مَنْ كَفَرَ بكَ مِن قومِكَ، ولا تحزن عليهم؛ فإنَّ الله يهدي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ، وبيَدِهِ الأمر وإليه ترجع الأمور، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، واعلم أنَّ الله سيُظْهِرُكَ وينصرُكَ ويؤيِّدُكَ، ويذلُّ عدوَّكَ، ويكبِتُهُم ويجعلهم أسفَلَ السَّافِلِين.

قال حمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهَك، عن ابن عبَّاس قال: بعث نوح وهو لأربَعِينَ سنة، ولَبِثَ في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا، حتىٰ كثر النَّاس وفشوا (٤).

وقال قتادة: يقال: إن عمره كله كان ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، لَبِثَ فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة، ودعاهم ثلثمائة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة.

---

(١) يشير إلىٰ حديث: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ مَعَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا...» رواه مسلم (١٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، ورواه البخاري معلقًا (١٠/ ٥٦٦).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧١٦٠)، وأبو نعيم (١٠/ ٣١) فيه أبو حمزة الثمالي: ضعيف. لم يوثقه غير ابن حبان، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: لين الحديث يكتب حديثه لا يحتج به، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال ابن عدي: هو إلىٰ الضعف أقرب (تهذيب الكمال ترجمة ٨١٩) (٤/ ٣٥٩)، والحديث ضعفه الألباني في الضعيفة (٥٦٨٥).

(٣) لوحة (١٧٢/ أ).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٠٤٠) (١٦٢٠٤)، وفيه علي بن زيد: ضعيف.

وهذا قولٌ غريبٌ، وظاهر السياق من الآية أنَّه مكث في قومِهِ يدعوهم إلىٰ الله ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا.

وقال عون بن أبي شداد: إنَّ الله أرسل نوحًا إلىٰ قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة، فدعاهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة.

وهذا أيضًا غريبٌ، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وقول ابن عبَّاسٍ أقرب، والله أعلم.

وقال الثَّوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوحٌ في قومه؟ قال: قلت ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا. قال: فإنَّ النَّاس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلىٰ يومك هذا[1].

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: الذين آمنوا بنوحٍ ﷺ. وقد تقدَّم ذكر ذلك مفصلًا في سورة «هود»، وتقدَّم تفسيره بما أغنىٰ عن إعادته.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وجعلنا تلك السَّفينة باقيةً، إمَّا عينها كما قال قتادة: إنَّها بَقِيت إلىٰ أول الإسلام علىٰ جبل الجوديِّ، أو نوعها جعله للنَّاس تذكرةً لنعمه علىٰ الخلق، كيف نجَّاهُم من الطُّوفان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤١-٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ[2] حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال هاهنا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا من باب التَّدريجِ من الشَّخص إلىٰ الجنس، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]

أي: وجعلنا نوعها، فإنَّ التي يرمىٰ بها ليست هي التي زينة للسَّماء. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، ولهذا نظائرُ كثيرةٌ.

وقال ابن جرير: لو قيل: إنَّ الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾، عائدٌ إلىٰ العقوبة، لكان وجهًا، والله أعلم.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

---

(١) حسن: رواه ابن أبي حاتم (١٧١٩٣)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٩٨٦)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٨٠) من طرقٍ عن مجاهد.

(٢) لوحة (١٧٢/ ب).

يخبر تعالىٰ عن عبدِهِ ورسولِهِ وخليلِهِ إبراهيم إمَام الحنفاء: أنَّه دعا قومه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التَّقْوَىٰ، وطلب الرِّزق منه وحدَهُ لا شَرِيكَ له، وتوحيدِهِ في الشُّكر، فإنَّه المَشكُور علىٰ النِّعم، لا مُسْدٍ لها غيره، فقال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ أي: أخلصُوا له العبادة والخوْف، ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك حَصَل لكم الخَيْرُ فِي الدُّنيا والآخرَةِ، واندفع عنكم الشَّرُّ في الدُّنيا والآخرة.

ثم أخبرهم أنَّ الأصنام الَّتِي يعبدونها والأوثان، لا تضرُّ ولا تنفع، وإنَّما اختلقتم أنتم لها أسماءَ سمَّيتمُوهَا آلهةً، وإنَّما هي مخلوقةٌ مثلكم. هكذا روىٰ العوفي عن ابن عبَّاس. وبه قال مجاهد، والسُّدِّي.

وروىٰ الوالبي[1]، عن ابن عبَّاس: وتصنعون إفكًا؛ أي: تنحتونها أصنامًا. وبه قال مجاهد -في رواية- وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهي لا تملك لكم رزقًا، ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، ولهذا قال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾ أي: فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[2] أي: لا عند[3] غيره، فإنَّ غيره لا يملك شيئًا، ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ أي: كلوا من رزقِهِ واعبدوه وحدَهُ، واشكروا له علىٰ ما أنعم به عليكم، ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيُجازِي كلَّ عاملٍ بعمله.

وقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ أي: فبلغكم ما حلَّ بهم من العَذاب والنَّكال في مخالَفَةِ الرُّسل ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يعني: إنَّما علىٰ الرَّسول أن يُبَلِّغكُم ما أمره الله تعالىٰ به من الرِّسالة، والله يُضِلُّ مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء، فاحْرِصُوا لأنفسكم أن تكونوا من السُّعداء.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ قال: يُعزِّي نبيَّه ﷺ. وهذا من قتادَةَ يقتَضِي أنَّه قد انقطع الكلام الأوَّل، واعترض بهذا إلىٰ قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾. وهكذا نصَّ علىٰ ذلك ابن جرير أيضًا.

والظَّاهر من السِّياق أنَّ كلَّ هذا مِن كلام إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه[4] يحتج عليهم لإثبات المعاد؛ لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾، والله أعلم.

---

(١) علي بن أبي طلحة الوالبي.
(٢) لوحة (١٧٣/ أ).
(٣) في (ز): «أي: لا تعبدوا غيره».
(٤) في (ز): «لقوله».

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾
يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الخليل عليه السلام أنَّه أرشدَهمُ إلىٰ إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم مِن خلق الله إيَّاهم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم وُجِدُوا وصاروا أناسًا سامعين مُبْصِرِين، فالَّذي بدأ هذا قادرٌ علىٰ إعادَتِهِ؛ فإنَّه سهلٌ عليه يسيرٌ لديه.

ثم أرشدهم إلىٰ الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السَّموات وما فيها من الكواكب النَّيِّرة: الثَّوابت، والسَّيَّارات، والأرضين وما فيها من مهادٍ وجبالٍ، وأوديةٍ وبرَارٍ وقفارٍ، وأشجارٍ وأنهارٍ، وثمارٍ وبحارٍ، كلُّ ذلك دالٌّ[1] علىٰ حدوثِهَا في أنفسها، وعلىٰ وجود صانعها الفاعل المختار، الَّذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وكقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو الحاكم المتصرِّف، الذي يفعل ما يشاء، ويَحكُمُ ما يُرِيد، لا معقِّب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعلُ وهم يُسْألُون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فَعدْلٌ؛ لأنَّه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرةٍ، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ»[2]. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: ترجعون يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا يُعْجِزُه أحدٌ مِن أهل سماواته وأرضِهِ، بل هو القاهِرُ فوق عبادِهِ، وكلُّ شيءٍ خائفٌ منه، فقيرٌ إليه، وهو الغني عمَّا سواه.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أي:

---

(١) لوحة (١٧٣/ ب).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجة (٧٧).

جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجعٌ في الدُّنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن قوم إبراهيم في كفرِهِمْ وعنادِهِمْ ومكابَرَتِهم، ودفعهم الحق بالباطل: أنَّه ما كان لهم جوابٌ بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة علىٰ الهدىٰ والبيان، ﴿إِلَّا أَن [1] قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجَّهت عليهم الحجَّة، فعدلوا إلىٰ استعمال جَاههم وقوَّة ملكهم، ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨]، وذلك أنهم حَشَدوا في جَمْعِ أحطاب عظيمةٍ مدَّةً طويلةً، وحَوَّطوا حولها، ثم أضرموا فيها النَّار [2]، فارتفع لها لهبٌ إلىٰ عَنَان السماء: ولم توقد نارٌ قطُّ أعظم منها، ثم عمدوا إلىٰ إبراهيم فكتَّفُوه وألقوه في كِفَّة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وخرج منها سالمًا بعد ما مكث فيها أيَّامًا. ولهذا وأمثاله جعله الله للنَّاس إمامًا. فإنَّه بذل نفسَهُ للرَّحمن، وجسده للنِّيران، وسَخَا بولَدِهِ للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع علىٰ محبَّته جميع أهل الأديان.

وقوله: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: سَلَّمه الله منها، بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مقرِّعًا لهم وموبخًا علىٰ سوءِ صنيعِهِم في عبادتهم الأوثان: إنَّما اتَّخذتم هذه لتَجْتَمِعُوا علىٰ عبادتها في الدُّنيا صداقةً وألفةً منكم بعضكم لبعضٍ [3] في الحياة الدنيا. وهذا علىٰ قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ علىٰ أنَّه مفعولٌ له، وأما علىٰ قراءة الرفع [4] فمعناه: إنَّما اتِّخاذكم هذا يُحَصِّل لكم المودَّة في الدنيا فقط ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ينعكس هذا الحال، فتبقىٰ هذه الصَّداقة والمودة بَغْضَةً وشنآنًا، فـ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاحَدُون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمَتْبُوعُون الأتباع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال هاهنا:

---

(١) لوحة (١٧٤/ أ). (٢) في (ز): «أضرموا فيها النهار».

(٣) في (ز): «لبعضكم بعضًا».

(٤) متواترة: قَرَأَ (مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ وَرُوَيْسٌ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ (مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ) حَمْزَةُ وَحَفْصٌ وَرَوْحٌ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مَوَدَّةً بَيْنِكُمْ).

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلىٰ النَّار، وما لكم مِن ناصرٍ ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذابِ الله. وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخِلَافِ ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل الأحْمَسي، حدَّثنا أبو عاصمِ الثقفي[1] الربيع بن إسماعيل[2] بن عمرو بن سعيد[3] بن جعدة بن هُبَيْرة المخزومي، عن أبيه، عن جده عن أم هانئ -أخت علي بن أبي طالب- قالت: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «أُخْبِرُكِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَجْمَعُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَمَنْ يَدْرِي أَيْنَ الطَّرَفَانِ»، فقالت: الله ورسوله أعلم. «ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ، فَيَشْرَئِبُّونَ» قال أبو عاصم: يرفعون رءوسهم. «ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَةَ: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ، إِنَّ اللهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ» قال: «فَيَقُومُ النَّاسُ قَدْ تَعَلَّقَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فِي ظُلَامَاتِ الدُّنْيَا -يعني: المظالِم- ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ، لِيَعْفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَعَلَىٰ اللهِ الثَّوَابُ»[4].

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن إبراهيم: أنَّه آمَنَ له لوط، يقال: إنَّه ابن أخي إبراهيم، يقولون هو: لوط بن هاران بن آزر؛ يعني: ولم يُؤْمِن به مِن قومِهِ سواه، وسارَّة امرأة [إبراهيم][5] الخليل. لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين الحديث الوارد في «الصحيح»: أن إبراهيم حين مَرَّ علىٰ ذلك الجبَّار، فسأل إبراهيم عن سارة: ما هي منه؟ فقال: [هي][6] أختي، ثم جاء إليها. فقال لها: إني قد قلت له: «إنك: أختي»، فلا تكذِّبيني، فإنه ليس علىٰ وجه الأرض [أحد][7] مؤمن غيرك وغيري، فأنت أختي في الدين[8]. وكأن المراد من هذا -والله أعلم- أنَّه ليس علىٰ وجه الأرض زوجان علىٰ الإسلامِ غيري وغيرك، فإنَّ لوطًا ﵇ آمَن به مِن قومِهِ، وهاجر معه إلىٰ بلاد الشَّام، ثم أرسِل في حياة الخليل إلىٰ أهل «سَدوم» وإقليمها، وكان مِن أمرهم[9] ما تقدَّم وما سيأتي.

---

(١) هكذا في (ز) وهو الصَّواب، ووقع في تفسير «ابن أبي حاتم»: «حدَّثنا أبو عاصم الثقفي، حدَّثنا الربيع بن إسماعيل»، و هو خطأ، وهكذا أورده صاحب طبعة «طيبة» لتفسير ابن كثير، والصواب حذف حدَّثنا بين «الثقفي» و«الربيع»، فهو راوٍ واحدٌ، وهذه كنيته، ترجمه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٣٠٥٥)، وهو منكر الحديث.

(٢) في (ز): «الربيع بن سليمان»، وهو خطأ.

(٣) لوحة (١٧٤/ ب).

(٤) إسناده ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٨٠٣)، وفيه أبو عاصم: الربيع بن إسماعيل، قال أبو حاتم: منكر الحديث.

(٥) ليست في (ز).

(٦) ليست في (ز).

(٧) ليست في (ز).

(٨) انظر: «صحيح البخاري» (٢٢١٧)، مسلم (٢٣٧١).

(٩) في (ز): «وكان من إبراهيم».

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ يحتمل عود الضَّمير في قوله: ﴿وَقَالَ﴾، علىٰ لوط؛ لأنَّه أقرب المذكُورِينَ، ويحتمل عوده إلىٰ إبراهيم -قال ابن عبَّاسٍ، والضَّحَّاك: وهو المكنَّىٰ عنه بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: من قومه.

ثم أخبر عنه بأنَّه اختار المهاجَرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدِّين والتَّمكُّن مِن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: له العزَّة ولرسوله [1] وللمُؤمِنِين به، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ القدريَّة والشرعيَّة.

وقال قتادة: هاجرَا جميعًا من «كوثىٰ»، وهي من سواد الكوفة إلىٰ الشَّام. قال: وذُكر لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إِنَّهَا سَتكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، يَنْحَازُ [2] أَهْلُ الأَرْضِ إِلَىٰ مُهَاجَرِ إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَىٰ فِي الأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا، حَتَّىٰ تَلْفَظُهُمْ أَرْضُهُمْ وَتَقْذَرُهُمْ رُوحُ اللهِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، تَبِيتُ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا [3]، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَتَأْكُلُ مَا سَقَطَ مِنْهُمْ» [4].

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث، فرواه مطولًا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: حدَّثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية، قدمت الشام فَأُخْبِرْتُ بمقامٍ يقومُهُ نوف البِكَالي، فجئته؛ إذ جاء رجلٌ فانتبذَ النَّاس [5] وعليه خَمِيصةٌ، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص. فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّهَا سَتكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَيَنْحَازُ النَّاسُ إِلَىٰ مُهَاجَرِ إِبْرَاهِيمَ، لا يَبْقَىٰ فِي الأَرْضِ إِلَّا شِرَارُ أَهْلِهَا، فَتَلْفَظُهُمْ أَرْضُوهُمْ، تَقْذَرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمَنِ، تَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ فَتَبِيتُ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَتَأْكُلُ مِنْهُمْ مَنْ تَخَلَّفَ». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَيَخْرُجُ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ [6]، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ [7]، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ» حتىٰ عَدَّها زيادة علىٰ عشرين مرَّة «كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّىٰ يَخْرُجَ الدَّجَّالُ فِي بَقِيَّتِهِمْ» [8].

---

(١) لوحة (١٧٥/ أ). (٢) في (ز): «حيان». (٣) في (ز): «إذا ناموا».

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٧٢٤٩)، وإسناده منقطع وسيأتي موصولًا. انظر الحديث الآتي.

(٥) انتبذ فلان: ذهب ناحية، وانتبذ عن قومه: تنحىٰ. والخميصة: كساء أسود مربع.

(٦) التَّراقِي: جمع تَرْقُوَة، وهي العَظْم الذي بين ثُغْرة النَّحر والعَاتِق. وهما تَرْقُوتان من الجانِبَين. ووَزْنها: فَعْلُوَة -بالفتح. والمعنىٰ: أنَّ قِراءتهم لا يرفعُها الله ولا يَقبَلها، فكأنها لن تتجاوز حُلوقَهُم. وقيل: المعنىٰ أنَّهم لا يَعْملون بالقرآن ولا يُثابُون علىٰ قراءته، فلا يحصل لهم غير القراءة. «النهاية».

(٧) أي: لا يأتي قرن آخر علىٰ شاكلته.

(٨) حسن لغيره: رواه أحمد (٢/ ٢٠٩)، أبو داود (٢٤٨٢). فيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام، لكن رواه =

ورواه أحمد عن أبي داود، وعبد الصمد، كلاهما عن هشام الدَّسْتُوائي [(١)]، عن قتادة، به، وقد رواه أبو داود في «سننه»، فقال في كتاب الجهاد، باب ما جاء في سكنىٰ الشام:

حدَّثنا عبيد الله بن عمر، حدَّثنا معاذ بن هشام، حدَّثني [أبي][(٢)]، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَتكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَخِيَارُ أَهْلِ الأَرْضِ أَلْزَمُهُمْ مُهاجَر إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَىٰ فِي الأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا تَلْفُظُهُمْ أَرْضُهُمْ وَتَقْذَرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمَنِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ [(٣)]» [(٤)].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا يزيد، أخبرنا أبو جَنَاب [(٥)] يحيىٰ بن أبي حيَّة، عن شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عُمَر يقول [(٦)] لقد رأيتُنا وما صَاحِبِ الدِّينار والدِّرهم بأحق مِن أخيه المسلم، [ثم][(٧)] لقد رأيتنا بآخِرَة الآن، والدِّينار والدِّرهم أحب إلىٰ أحدنا من أخيه المسلم، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَئِنْ أَنْتُمْ اتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ [(٨)]، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، لَيُلْزِمَنكُمُ اللهُ مَذَلَّةً فِي أَعْنَاقِكُمْ، [ثُمَّ][(٩)] لا تُنْزَعُ [(١٠)] مِنكُمْ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ، وَتَتُوبُوا إِلَىٰ اللهِ ﷻ». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتكُونَنَّ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ إِلَىٰ مُهَاجَرِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ حَتَّىٰ لا يَبْقَىٰ فِي الأَرَضِينَ إِلَّا شِرَارُ أَهْلِهَا وَتَلْفَظُهُمْ أَرَضُوهُمْ [(١١)]، وَتَقْذُرُهُمْ رُوحُ الرَّحْمَنِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، تَقِيلُ حَيْثُ يَقِيلُونَ [(١٢)]، وَتَبِيتُ حَيْثُ يَبِيتُونَ، وَمَا سَقَطَ مِنْهُمْ فَلَهَا [(١٣)]». ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ يُسِيئُونَ الأَعْمَالَ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ -قال يزيد: لا أعلمه إلا قال- يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ عَمَلَهُ مَعَ عَمَلِهِمْ،

= الحاكم (٤/ ٥١٠) من طرق أخرىٰ وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي، ولكن في الإسناد عبد الله بن صالح كاتب اللَّيث وهو صدوق يخطئ، ويشهد له أيضًا حديث ابن عمر الآتي والحديث قال عنه الحافظ: إسناده لا بأس به (الفتح: ١١/ ٣٨٠) وأشار المنذري إلىٰ تقويته بمجموع طرقه. انظر: «الترغيب والترهيب» (٣/ ٦٢) والجزء الأخير من الحديث من قوله: «سَيَخْرُجُ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي.... إلخ» يشهد لمعناه ما ورد في أحاديث الخوارج. انظر: «البخاري» (١١٦٣) (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) وله شاهد من حديث ابن عمر رواه ابن ماجة (١٧٤) وصححه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٤٦).

(١) في (ز): «هشام بن سواي»، وهو خطأ. (٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «سنن أبي داود».

(٣) لوحة (١٧٥/ ب). (٤) انظر التعليق السابق.

(٥) في (ز): «أبو حباب»، وهو خطأ. (٦) في (ز): «قال». (٧) سقط من (ز).

(٨) العِينَة: أن يَبيعَ من رَجُل سِلْعةً بِثَمنٍ مَعْلوم إلىٰ أجل مُسمًّىٰ، ثم يَشْتَرِيها منه بأقَلّ من الثَّمن الذي باعَها به، وسُمِّيت عِينَةً لحصُول النَّقْد لصاحب العِينَة؛ لأنَّ العَيْن هو المَال. «النهاية»: (٣/ ٣٣٣- ٣٣٤).

(٩) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(١٠) في (ز): «لا ترجع»، والمثبت موافق للمسند. (١١) في (ز): «أرضهم».

(١٢) في (ز): «حيث قالوا». (١٣) في (ز): «مثلها».

يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ[١]، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، فَطُوبَىٰ لِمَنْ قَتَلَهُمْ، وَطُوبَىٰ لِمَنْ قَتَلُوهُ. كُلَّمَا طَلَعَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قَطَعَهُ اللهُ». فردَّد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرةً، أو أكثر، وأنا أسمع[٢].

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو الحُسَيْن بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدَّثنا يعقوب بن سفيان، حدَّثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا: حدَّثنا يحيىٰ بن حمزة، حدَّثنا الأوزاعي، عن نافع -وقال أبو النَّضر، عمن حدَّثه، عن نافع- عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «سَيُهَاجِرُ أَهْلُ الأَرْضِ هِجْرَةً بَعْدَ هِجْرَةٍ، إِلَىٰ مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ إِلَّا شِرَارُ أَهْلِهَا، تَلْفَظُهُمُ الأَرَضُونَ وَتَقْذَرُهُمْ رُوحُ الرَّحْمَنِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، لَهَا مَا سَقَطَ مِنْهُمْ»[٣].

غريبٌ من حديثِ نافعٍ. والظَّاهر[٤] أنَّ الأوزاعيَّ قد رواه عن شيخ له من الضعفاء، والله أعلم. وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلىٰ الحفظ.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] أي: إنَّه لمَّا فارقَ قومَه أقرَّ الله عينه بوجودِ ولدٍ صالحٍ نبيٍّ [وولد له ولد صالح][٥] في حياةِ جدِّه. وكذلك قال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] أي: زيادة، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: ويولد لهذا الولد ولد في حياتِكُمَا، تقرُّ به أعينكما. وكون يعقوب ولد لإسحاق نصَّ عليه القرآن، وثبتت به السُّنَّة النبويَّة، قال الله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وفي «الصحيحين»: «إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنَ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»[٦].

فأمَّا ما رواه العوفي عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال: «هما ولدا إبراهيم». فمعناه: أن ولد الولد بمنزلة الولَد؛ فإن هذا أمرٌ لا يكاد يخفىٰ علىٰ من هو دون ابن عبَّاس.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، هذه خِلْعةٌ سَنِيَّةٌ عظيمةٌ، مع اتِّخاذ الله إيَّاه خليلًا وجعله

---

(١) في (ز): «قاتلوهم».

(٢) حسن لغيره: رواه أحمد (٢/ ٨٤)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام، وأبو جناب الكلبي: ضعيف لكثرة تدليسه، ويشهد له حديث ابن عمر الآتي.

(٣) حسن لغيره: رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص:٤٦٤)، وابن عساكر (١/ ١٥١)، وهذا إسناد ضعيف: وعلَّته جهالة الراوي عن نافع، وفي الطريق الأول انقطاع، لكن يشهد له رواية عبد الله بن عمرو السابقة.

(٤) لوحة (١٧٦/ أ). (٥) سقط من (ز). (٦) البخاري (٣٣٨٢)، (٤٦٨٨).

للنَّاس إمامًا، أن جعل في ذرِّيَّته النُّبوَّة والكتاب، فلم يوجد نبيٌّ بعد إبراهيم عليه السلام إلَّا وهو مِن سُلالَتِهِ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سُلالَةِ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتىٰ كان آخرهم عيسىٰ ابن مريم، فقامَ فِي ملئهم مبشرًا بالنَّبيِّ العربيِّ القرشيِّ الهاشميِّ، خاتم الرُّسل علىٰ الإطلاق، وسيِّد ولد آدم في الدُّنيا والآخرة، الَّذِي اصطفاه الله مِن صميم العرب العَرْباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم -عليهم السلام- ولم يُوجَد نبيٌّ من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام من الله تعالىٰ [(١)].

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: جمع الله له بين سعادة الدُّنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرِّزق الواسع الهنيُّ والمنزل الرَّحْب، والمورد العذب، والزَّوجة الحسنة الصَّالحة، والثَّناء الجميل، والذِّكر الحسن، فكلُّ أحدٍ يحبُّه ويتولَّاه، كما قال ابن عبَّاسٍ ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]؛ أي: قام بجميع ما أمر به، وكمَّلَ طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٢].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نبيِّه لوط عليه السلام إنَّه أنكر علىٰ قومِهِ سُوءَ صنيعِهِم، وما كانوا يفعلونه مِن قبيح الأعمَالِ، في إتيانهم الذُّكران من العالمين، ولم يسبقهم إلىٰ هذه الفعلة أحدٌ مِن بَنِي آدم قبلهم. وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذِّبون رسوله ويخالِفُونَه ويقطعون السَّبيل؛ أي: يَقِفُون في طريق النَّاس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: يفعلون ما لا يَلِيق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضُهُم علىٰ بعضٍ شيئًا من ذلك، فمِن قائلٍ: كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملإِ قاله مجاهد. ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضَاحَكُون؛ قالته عائشة رضي الله عنها [(٢)]، والقاسم. ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل

---

(١) لوحة (١٧٦/ ب).

(٢) رواه الطبري (٢٠/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم (١٧٢٧٢) وعزاه السيوطي في «الدُّر المنثور» (٦/ ٤٦١) إلىٰ البخاري في «التاريخ»، وابن المنذر وابن مَرْدوَيه، وابن أبي حاتم (١٧٢٧١).

ذلك كان يصدُرُ عنهم، وكانوا شرًّا من ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حماد بن أسامة، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة، حدَّثنا سِمَاك بن حرب، عن أبي صالح -مولىٰ أمّ هانئ- عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾، قال: «يَحْذِفُونَ [(١)] أَهْلَ الطَّرِيقِ، وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ المُنْكَرُ الَّذِي كَانُوا يَأْتُونَهُ» [(٢)].

ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة [عن] [(٣)] أبي يونس القُشَيري حاتم بن أبي صَغِيرة به. ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سِمَاك.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا محمَّد بن كثير، عن عمرو بن قيس، عن الحكم، عن مجاهد: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ قال: الصَّفِير، ولعب الحَمَام والجُلاهق [(٤)]، والسؤال في المجلس، وحل أزرار القباء.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وهذا مِن كُفْرِهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنْصَرَ عليهم نبي الله فقال: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لما استنصر لوط عليه السلام الله عليهم، بعث الله لنُصْرَتِهِ ملائكةً فمرُّوا علىٰ [(٥)] إبراهيم عليه السلام في هيئة أضيافٍ، فجاءهم بما ينبغي للضَّيف، فلمَّا رأىٰ أنَّه لا همَّة لهم إلىٰ الطَّعام نكرَهم، وأوجس منهم خيفةً،

---

(١) لوحة (١٧٧/ أ).
(٢) ضعيف: وراه أحمد (٦/ ٣٤١)، والترمذي (٣١٩٠)، وفيه أبو صالح باذام: ضعيف يرسل.
(٣) سقط من (ز).
(٤) الجُلاهق: الطِّين المدور الأملس، والبندق الذي يرمىٰ به. (فارسي مُعَرب). «المعجم الوسيط».
(٥) في (ز): «مع إبراهيم».

فشرعوا يؤانسونه ويبشِّرُونَه بوجود ولد صالح من امرأته سارة -وكانت حاضرة- فتعجبت من ذلك، كما تقدَّم بيانه في سورة «هود» و«الحجر». فلمَّا جاءت إبراهيم بالبشرىٰ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون، لعلَّ الله أن يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: مِن الهالكين؛ لأنَّها كانت تُمالِئُهم علىٰ كفرهم وبغيهم ودبرهم. ثم ساروا من عنده فدَخلُوا علىٰ لوط في صورة شباب حسانٍ(١)، فلمَّا رآهم كذلك، ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا(٢)﴾ أي: اهتمَّ بأمرهم، إن هو أضافهم خافَ عليهِمْ مِن قومِهِ، وإن لم يضفهم خَشِيَ عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في السَّاعة الرَّاهنة.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، وذلك أنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ اقتلع قُراهُم مِن قرار الأرض، ثم رفعها إلىٰ عَنَان السَّماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حجارةً من سجِّيل منضُودٍ، مسوَّمةً عند ربك وما هِيَ من الظَّالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرةً خبيثةً منتنةً، وجعلهم عبرةً إلىٰ يوم التَّناد، وهم مِن أشدِّ النَّاس عذابًا يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي: واضحةً، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن عبدِهِ ورسولِهِ شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه أنذر قومَهُ أهل مَدين، فأمرهم بعبادة اللهِ وحده لا شريك له، وأن يَخافُوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾.

قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦] ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي علىٰ أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق علىٰ النَّاس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفةٍ عظيمةٍ زلزلت عليهم بلادهم، وصيحةٍ أخرجت القلوب من حناجرها. وعذاب يوم الظُّلَّة الذي أزهق الأرواح مِن مستقرها، إنَّه كان عذابَ يومٍ عظيمٍ. وقد تقدَّمت قصتهم مبسوطةً في سورة «الأعراف، وهود، والشعراء».

---

(١) لوحة (١٧٧/ ب).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: الصَّحيح: إنَّ الذرع بمعنىٰ: الطَّاقة؛ أي: ضَاقَ بهم طاقةً، فصار غير محتمل لهم، وهذا موجودٌ في اللُّغة العربيَّة، فسمِّيت الطَّاقة ذرعًا من الذِّراع محمل الحمل، والطَّاقة هي التي بها يستطيع المرء أن يحمل أو لا يحمل.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، قال قتادة: مَيِّتين. وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعضٍ[(١)].

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن هؤلاء الأمم المكذِّبة للرُّسل كيف أبادهم وتنوَّع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعادٌ قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبةٌ من حضرموت ببلاد اليَمَن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرىٰ. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيِّدًا، وتمرُّ عليها كثيرًا. وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثَّقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسىٰ ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم عاد، وذلك أنَّهم قالوا: مَنْ أشدُّ منَّا قوَّة؟ فجاءتهم ريحٌ صرصرٌ باردةٌ شديدةُ البردِ، عاتيةٌ شديدةُ الهبوب جدًّا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتَقْلِبُهَا عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلىٰ عَنان السماء، ثم تنكسه علىٰ أمِّ رأسه فتشدخه فيبقىٰ بدنًا بلا رأسٍ، كأنَّهم أعجاز نخلٍ منقعرٍ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجَّة وظهرت لهم الدَّلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصَّخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا علىٰ طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحًا ومَنْ آمن معه، وتوعَّدوهُم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحةٌ أخمدت الأصوَاتَ منهم والحركات. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو قارون الذي طغىٰ وبغىٰ وعتا، وعصىٰ الرب الأعلىٰ، ومشىٰ في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتَاهَ بنفسه، واعتقد أنَّه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها[(٢)] إلىٰ يوم القيامة. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنودُهُ عن آخرهم، أغرقوا في صبيحةٍ واحدةٍ، فلم ينج منهم مخبر[(٣)]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم.

---

(١) لوحة (١٧٨/ أ). (٢) لوحة (١٧٨/ ب). (٣) أي: فلم يَنْجُ منهم إنسان.

وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللَّفِّ والنَّشر، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ الآية؛ أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهتُ علىٰ هذا؛ لأنه قد روي أن ابن جريج قال: قال ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قال: قوم لوط. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، قال: قوم نوح.

وهذا منقطعٌ عن ابن عبَّاس؛ فإن ابن جُرَيج لم يدركه. ثم قد ذكر في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطُّوفان، وقوم لوط بإنزال الرِّجز من السماء، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق.

وقال قتادة: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ قال: قوم لوط، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، قوم شعيب. وهذا بعيدٌ أيضًا لما تقدم، والله أعلم.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا مثلٌ ضربَهُ الله تعالىٰ للمشركين في اتخاذهم آلهةً [من][1] دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسَّكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء مِن آلهتهم إلا كمَنْ يتمسَّك ببيت العنكبوت، فإنَّه لا يُجْدِي عنه شيئًا، فلو عَلموا هذا الحال لما اتَّخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشَّرع فإنَّه مستمسكٌ بالعروة الوثقىٰ لا انفصام لها؛ لقوتها وثباتها.

ثم قال تعالىٰ متوعدًا لِمَنْ عبد غيره وأشرك به: إنَّه تعالىٰ يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يُشْرِكُون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنَّه حكيمٌ عليمٌ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ[2] وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: وما يفهمها ويتدبَّرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن عيسىٰ، حدَّثني ابن لَهِيعة، عن أبي قَبِيل، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: عَقَلْتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل[3].

وهذه منقبةٌ عظيمةٌ لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٧٩/ أ).

(٣) ضعيف: ورواه أحمد (٤/ ٢٠٣)، وفيه ابن لهيعة: وقد اختلط.

لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن سنان، عن عمرو بن مرَّة قال: ما مررت بآيةٍ مِن كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأنِّي سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالىٰ [مخبرًا][١] عن قدرته العظيمة: أنَّه خلق السَّموات والأرض بالحق؛ يعني: لا علىٰ وجه العبثِ واللَّعب، ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لدلالة واضحة علىٰ أنه تعالىٰ المتفرِّد بالخلق والتَّدبير والإلهيَّة، ثم قال تعالىٰ آمرًا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ يعني: أن الصلاة تشتمل علىٰ شيئين: علىٰ ترك الفواحش والمنكرات[٢]؛ أي: إنَّ مواظبتها تحمل علىٰ ترك ذلك[٣]. وقد جاء في الحديث من رواية عمران، وابن عبَّاس مرفوعًا: «**مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا**»[٤].

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن هارون المخرمي الفلاس، حدَّثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد، حدَّثنا عمر بن أبي عثمان، حدَّثنا الحسن، عن عمران بن حصين قال: سُئِل النَّبيُّ ﷺ عن قول

---

(١) سقط من (ز).

(٢) هذا أحد الأمرين وسيأتي الأمر الثَّاني بعد ذكر الآثار الواردة في الأمرِ الأوَّل، مستفاد من ط. «الشعب».

(٣) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ووجه كون الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، أنَّ العبد المقيم لها، المتمم لأركانِهَا وشروطها وخشوعها، يَسْتَنِير قلبه، ويتطهَّر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوِّي رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبِالضَّرُورة، مداومتها والمحافظة عليها علىٰ هذا الوجه، تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، فهذا مِن أعظم مقاصدها وثمراتها. وثَمَّ في الصلاة مقصودٌ أعظَمُ مِن هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللِّسان والبدن. فإن الله تعالىٰ، إنَّما خلق الخَلْقَ لعبادته، وأفضل عبادةٍ تقع منهم الصَّلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها.

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٣٣٠) وفيه انقطاع فالحسن لم يسمع من عمران، وأيضًا فعمر بن أبي عثمان: فيه جهالة، وأمَّا رواية ابن عبَّاس فرواها ابن أبي حاتم (١٧٣٤٠) الطبراني (١١/ ٥٤)، وفيها ليث بن أبي سليم: لم تتميَّز أحاديثه فتُرِكَ.

وذهب الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ رد متن الحديث وأن معناه غير صحيح بالإضافة إلىٰ ضعف سنده؛ لأن ظاهره يشمل من صلىٰ صلاة بشروطها وأركانها، فكيف يكون بسبب المعاصي لا يزداد بهذه الصلاة إلىٰ بُعدًا. وانظر: «الضعيفة» (٢).

الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ قال: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ، فَلا صَلاةَ لَهُ»(١).

وحدَّثنا علي بن (٢) الحسين، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي طلحة اليربوعي، حدَّثنا أبو معاوية، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عبَّاسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا». ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية(٣).

وقال ابن جرير: حدَّثنا [القاسم، حدَّثنا](٤) الحسين، حدَّثنا خالد بن عبد الله، عن العلاء بن المسيب، عمن ذكره، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ قال: فَمَنْ لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدًا. فهذا موقوف(٥).

قال ابن جرير: وحدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا علي بن هاشم بن البريد، عن جويبر، عن الضَّحَّاك، عن ابن مسعود، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِعِ الصَّلاةَ، وَطَاعَةُ الصَّلاةِ أَنْ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ». قال: وقال سفيان: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] قال: فقال سفيان: أي والله، تأمره وتنهاه(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدَّثنا أبو خالد، عن جويبر، عن الضَّحَّاك، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ -وقال أبو خالد مَرَّة: عن عبد الله-: «لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِعِ الصَّلاةَ، وَطَاعَةُ الصَّلاةِ تَنْهَاهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ»(٧).

والموقوف أصحُّ، كما رواه الأعمش، عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قيل لعبد الله: إنَّ فلانًا يطيلُ الصَّلاة؟ قال: إنَّ الصَّلاة لا تنفع إلا مَن أطاعها(٨).

وقال ابن جرير: قال علي: حدَّثنا (٩) إسماعيل بن مسلم، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ صَلاةً لَمْ تَنْهَهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»(١٠).

والأصحُّ في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عبَّاس، والحسن وقتادة، والأعمش وغيرهم، والله أعلم.

---

(١) انظر التعليق السابق. (٢) لوحة (١٧٩/ ب). (٣) انظر التخريج السابق.

(٤) سقط من (ز)، والصواب ما أثبتناه. (٥) رواه الطبري (٢/ ١٥٥)، وفيه رجل لم يسم.

(٦) ضعيف جدًّا رواه الطبري (٢٠/ ١٥٥)، وفيه جويبر: ضعيف جدًّا كما قال الحافظ ابن حجر، وسيأتي موقوفًا علىٰ ابن مسعود والموقوف أصح.

(٧) ضعيف كسابقه: رواه ابن أبي حاتم (١٧٣٤١) نحوه.

(٨) حسن: رواه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩٨) من طريق أخرىٰ عنه وإسناده حسن. وانظر: «الطبري» (٢٠/ ١٥٥).

(٩) في (ز): «قال ابن جرير: حدَّثنا علي بن إسماعيل بن مسلم»، وهذا خطأ.

(١٠) رواه الطبري (٢٠/ ١٥٥) وإسناده مرسل.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا يوسف بن موسىٰ، حدَّثنا جرير -يعني: ابن عبد الحميد- عن الأعمش، عن أبي صالح قال: أراه عن جابر -شَكَّ الأعمش- قال: قال رجلٌ للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ فلانًا يصلِّي فإذا أصبح سرق، قال: «سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ»(١).

وحدَّثنا محمَّد بن موسىٰ الحَرَشي، حدَّثنا زياد بن عبد الله، عن الأعمش عن أبي صالح(٢)، عن جابر، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه -ولم يشك- ثم قال: وهذا الحديث قد رواه غير واحدٍ عن الأعمش واختلفوا في إسناده، فرواه غير واحدٍ عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو غيره، وقال قيس: عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، وقال جرير وزياد: عن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا الأعمش قال: أنبأنا أبو صالح عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: إن فلانًا يصلِّي باللَّيل فإذا أصبح سرق؟ فقال: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ»(٣).

وتشتمل الصلاة أيضًا علىٰ ذكر الله تعالىٰ(٤)، وهو المطلوب الأكبر؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم من الأول، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصالٍ(٥) فكل(٦) صلاةٍ لا يكون فيها شيءٌ من هذه الخلال فليست بصلاةٍ: الإخلاص، والخشية، وذكر الله. فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله -القرآن- يأمره وينهاه. وقال ابن عَوْنٍ الأنصاري: إذا كنت في صلاةٍ فأنت في معروفٍ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر. وقال حماد بن أبي سليمان: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يعني: ما دمت فيها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يقول: ولذكر الله لعباده، إذا [ذكروه](٧) أكبر من ذكرهم إيَّاه(٨).

وكذا روىٰ غير واحدٍ عن ابن عبَّاس. [وبه قال مجاهد، وغيره.

---

(١) صححه الألباني: رواه البزار (٧٢١، ٧٢٢- كشف) ورجاله ثقات من حديث جابر، ورواه أحمد (٢/ ٤٤٧) والبزار (٧٢٠- كشف) من حديث أبي هريرة وقد وقع الاختلاف في إسناده عن أبي صالح، فمرة يرويه عن جابر، ومرَّة عن أبي هريرة. وعندي أنَّ هذا لا يضر والله أعلم، لكن مداره علىٰ الأعمش وهو مدلِّس ولم يذكر سماعًا. وانظر كلام الشيخ الألباني أثناء تعليقه علىٰ الحديث (٢) من «الضعيفة»، فقد صححه هناك.

(٢) لوحة (١٨٠/ أ). (٣) رواه أحمد (٢/ ٤٤٧). وانظر التعليق السابق.

(٤) وهذا هو الأمر (الشيء) الثاني من الشيئين اللذين تشتمل عليهما الصلاة، وقد تقدم الإشارة إلىٰ ذلك.

(٥) في (ز): «خلال». (٦) في (ز): «فعل الصلاة». (٧) سقط من (ز).

(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٧٣٥٠)، والطبري (٢٠/ ١٥٦)، وقد رواه من طرقٍ أخرىٰ عنه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن رجل، عن ابن عبَّاس:][1]

في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: ذكر الله عند طعامك وعند منامك. قلت: فإن صاحبًا لي في المنزل يقول غير الذي تقول: قال: وأي شيء يقول؟ قلت: قال: يقول الله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فلذكر الله إيَّانا أكبر من ذكرنا إيَّاه. قال: صدق[2].

قال: وحدَّثنا أبي، حدَّثنا النفيلي، حدَّثنا إسماعيل، عن خالد، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: لها وجهان، قال: ذكر الله عند ما حرمه، قال: وذكر الله إيَّاكم أعظم مِن ذكركم إيَّاه[3].

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هُشَيْم[4]، أخبرنا عطاء بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عبَّاس: هل تدري ما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلت: نعم. قال: فما هو؟ قلت: التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير في الصلاة، وقراءة القرآن، ونحو ذلك. قال: لقد قلت قولًا عجبًا، وما هو كذلك، ولكنَّه إنَّما يقول: ذكر الله إيَّاكم عندما أمرَ بِهِ أو نهىٰ عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذِكرِكُم إيَّاه[5]، وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عبَّاس. وروي أيضًا عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنَّما هو الإسلام أو الجزية أو السَّيف.

وقال آخرون: بل هي باقيةٌ أو محكمةٌ لِمَنْ أراد الاستبصار منهم في الدِّين، فيجادل بالتي هي أحسن؛ ليكون أنجع[6] فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال تعالىٰ لموسىٰ وهارون حين بعثهما إلىٰ فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه [عن][7] ابن زيد.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٧٣٤٩) وفي إسناده رجل مجهول.
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٧٣٥٢).
(٤) لوحة (١٨٠/ ب).
(٥) حسن: رواه الطبري (٢٠/ ١٥٦).
(٦) في (ز): «الجمع».
(٧) سقط من (ز).

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: حادوا عن وجه الحقِّ، وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابَرُوا، فحينئذ ينتقل من [(١)] الجدال إلىٰ الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد:٢٥].

قال جابر: أُمِرْنَا مَن خالف كتاب الله أن نضربه بالسَّيف.

قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ يعني: أهل الحرب، وَمَنِ امتنع [(٢)] منهم عن أداء الجزية.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نُقدِم علىٰ تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقًّا، ولا علىٰ تصديقه، فلعله أن يكون باطلًا، ولكن نؤمن به إيمانًا مجملًا معلقًا علىٰ شرط وهو أن يكون منزلًا لا مبدلًا ولا مؤولًا.

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا عثمان بن عُمَر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب [(٣)] يقرءون التَّوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها بالعربيَّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**» [(٤)]. وهذا الحديث تفرَّد به البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عثمان بن عُمَر [(٥)]، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني ابن أبي نملة أن أبا نَمْلَةَ الأنصاري أخبره، أنه بينما هو جالسٌ عند رسول الله ﷺ، جاءه رجلٌ من اليهود، فقال: يا محمَّد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: «**اللهُ أَعْلَمُ**». قال اليهودي: أنا أشهد أنَّها تتكلَّم. فقال رسول الله ﷺ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ**» [(٦)].

قلت: وأبو نَمْلَةَ هذا هو: عُمَارة [(٧)]. وقيل: عمار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرَارة الأنصاري رضي الله عنه.

ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدِّثون به غالبُه كذبٌ وبهتانٌ؛ لأنَّه قد دخله تحريفٌ وتبديلٌ وتغييرٌ وتأويلٌ، وما أقل الصِّدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثيرٍ منه لو كان صحيحًا.

---

(١) في (ز): «عن».
(٢) لوحة (١٨١/ أ).
(٣) في (ز): «أهل التوراة»، والمثبت هو ما في «صحيح البخاري».
(٤) رواه البخاري (٤٤٨٥) (٧٣٦٢).
(٥) في (ز): «عثمان بن عمرو»، وهو تحريف.
(٦) رواه أحمد (٤/ ١٣٦)، وفيه ابن أبي نملة: مقبول، لكن الحديث يشهد له ما تقدَّم.
(٧) في (ز): «أبو عمارة»، وهو خطأ.

قال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا [أبو][١] عاصم، حدَّثنا سفيان، عن سليمان بن عامر، عن عمارة بن عمير، عن حُرَيْث بن ظهير، عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ، فإنَّهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمَّا أن تكذِّبوا بحقٍّ أو تصدِّقوا بباطلٍ، فإنَّه ليس أحدٌ من أهل الكتاب إلا وفي[٢] [قلبه][٣] تالية[٤]، تدعوه إلىٰ دينه كتالية المال[٥][٦].

وقال البخاري: حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل حدَّثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنا ابن شهاب، عن عبيد[٧] الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاس قال: كيف تسألون أهلَ الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل إليكم علىٰ رسوله ﷺ أحدث تقرؤونه محضًا لم يُشَب، وقد حدَّثكم أنَّ أهل الكتاب بدَّلوا كتاب الله، وغيَّروه وكتبُوا بأيدِيهِم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عَن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم[٨].

وقال البخاري: وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حُمَيد[٩] بن عبد الرحمن: أنَّه سمع معاوية يحدث رهطًا من قريشٍ بالمدينة -وذكرَ كعبَ الأحبار- فقال: إنْ كان مِن أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[١٠].

قلت: معناه أنَّه يقع منه الكذب لغةً من غير قصدٍ؛ لأنَّه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في مِلَّتِهم حُفَّاظٌ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرةٌ في هذه الأمَّة، لا يعلمها إلا الله ومَن مَنَحَهُ الله علمًا بذلك، كلٌّ بحسبه، ولله الحمد والمنَّة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (١٨١/ ب).
(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».
(٤) تَلِيَتْ له تَلِيَةٌ: أي بقِيَت له بَقِيَّة. «اللسان»: تلا.
(٥) في (ز): «ما له تدعوه إلىٰ دينه كمالية المال»، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٦) رواه الطبري (٢١/ ٣)، وفيه حريث بن ظهير: مجهول.
(٧) في (ز): «عبد الله بن عبد الله»، والمثبت كما في «البخاري».
(٨) البخاري (٧٣٦٣).
(٩) في (ز): «عبيد»، والمثبت موافق لما في «البخاري».
(١٠) البخاري (٧٣٦١).

قال ابن جرير: يقول الله تعالىٰ: كما أنزلنا الكُتُب علىٰ مَنْ قبلك -يا محمَّد- من الرُّسُل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب.

وهذا الذي قاله حسنٌ ومناسبةٌ وارتباطٌ جيِّدٌ.

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: الَّذِين أخذوه فتلَوْه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما.

وقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾، يعني: العرب من قريش وغيرهم [١]، ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا مَنْ يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشَّمس بالوصائل، وهيهات.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾؛ أي: قد لبثت في قومك -يا محمَّد- ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمرًا لا تقرأ كتابًا ولا تحسن الكتابة، بل كل أحدٍ من قومك وغيرهم يعرف أنك رجلٌ أُمِّيٌّ لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدِّمة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. وهكذا كان -صلوات الله وسلامه عليه- [دائمًا أبدًا] [٢] إلىٰ يوم القيامة، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كُتَّابٌ يكتبون بين يديه الوحي والرَّسائل إلىٰ الأقاليم. ومَن زعم مِن متأخِّري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنَّه ﷺ كتب يوم الحديبية: «هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» فإنَّما حمله علىٰ ذلك رواية في «صحيح البخاري»: «ثُمَّ أَخَذَ فَكَتَبَ»، وهذه محمولةٌ علىٰ الرواية الأخرىٰ: «ثُمَّ أَمَرَ فَكَتَبَ». ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق علىٰ من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالًا وخطبوا به في محافلهم: وإنَّما أراد الرجل -أعني الباجي، فيما يظهر عنه- أنَّه كتب ذلك علىٰ وجه المعجزة، لا أنَّه كان يحسن الكتابة، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إخبارًا عن الدَّجَّال: «مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ» وفي رواية: «ك ف ر، يَقْرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ» [٣]، وما أورده بعضهم من الحديث أنَّه لم يمت ﷺ حتىٰ تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾ أي: تقرأ ﴿مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ لتأكيد النفي، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيدٌ أيضًا، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تحسنها [٤] لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول:

---

(١) لوحة (١٨٢/ أ).

(٢) ليست في (ز).

(٣) رواه البخاري (٧١٣١).

(٤) في (ز): «نحطها».

إنَّما تعلَّم هذا من كُتبٍ قبله مأثورةٍ عن الأنبياء، مع أنهم [(١)] قالوا ذلك مع علمهم بأنَّه أُميٌّ لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، وقال هاهنا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: هذا القرآن آياتٌ بيِّنةٌ واضحةٌ في الدَّلالة علىٰ الحق، أمرًا ونهيًا وخبرًا، يحفظه العلماء، يَسَّره الله عليهم حفظًا وتلاوةً وتفسيرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا» [(٢)].

وفي حديث عياض بن حمار، في «صحيح مسلم»: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلٍ بِكَ، وَمُنْزِلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الماءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ» [(٣)]. أي: لو غسل الماء المحلَّ المكتوب فيه لما احتيج إلىٰ ذلك المحل، كما جاء في الحديث الآخر: «لَوْ كَانَ القُرْآنُ فِي إِهَابٍ، مَا أَحْرَقَتْهُ النَّارُ» [(٤)]؛ لأنَّه محفوظٌ في الصُّدور، ميسَّرٌ علىٰ الألسنة، مهيمنٌ علىٰ القلوب، معجزٌ لفظًا ومعنًىٰ؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة، في صفة هذه الأمة: «أَنَاجِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ» [(٥)].

واختار ابن جرير أنَّ المعنىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، بل العلم بأنَّك [(٦)] ما كنت تتلو مِن قبل هذا الكتاب كتابًا ولا تخُطُّه بيمينك، آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الَّذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جريج. وحكىٰ الأول عن الحسن [البصري] [(٧)] فقط.

قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عبَّاس، وقاله الضَّحَّاك، وهو الأظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ما يُكذِّب بِها ويبخس حقَّها ويردُّها إلا الظَّالمون؛ أي: المعتدون المكابِرون، الذينَ يعلمون الحقَّ ويَحِيدُون عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

---

(١) لوحة (١٨٢/ ب). (٢) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢). (٣) مسلم (٢٨٦٥).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ١٥١، ١٥٤)، وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٥) ضعيف: رواه الطبري (١٧/ ٣٦٣ - شاكر)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٢٥)، وفي إسناده علي بن زيد: ضعيف.

(٦) في (ز): «بل العلم تماثل». (٧) ليست في (ز).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ(١)(٢) قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آياتٍ -يعنون- ترشدهم إلىٰ أنَّ محمَّدًا رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: إنَّما أمر ذلك إلىٰ الله، فإنَّه لَوْ عَلِمَ أنكم تهتدون لأجابكم إلىٰ سؤالكم؛ لأن ذلك سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، ولكنَّه يعلم منكم أنَّما قصدكم التَّعنُّت والامتحان، فلا يجيبكم إلىٰ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيرًا لكم بيِّنَ النِّذارة فَعَليَّ أن أبلغكم رسالة الله و﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ثم قال تعالىٰ مبينًا كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آياتٍ تدلهم علىٰ صدق محمَّدٍ فيما جاءهم به -وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، الذي هو أعظم من كل معجزةٍ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه- فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجلٌ أُمِّيٌّ لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحدًا من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولىٰ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحقِّ الواضِح البيِّن الجلي، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ(٣) أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حجاج، حدَّثنا ليث، حدَّثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه عن

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «من فوائدها: أنَّ المتعنِّت مكابرٌ؛ لإنكاره ما هو ظاهر، فإنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ مع أنَّها قد جاءت الآيات، والنَّبيُّ ﷺ وغيره من الأنبياء ما أرسلوا إلا بالآيات التي يُؤمِن علىٰ مثلها البشر.

(٢) لوحة (١٨٣/ أ).

(٣) في (ز): «وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه».

أبي هريرة[(١)] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ [مِنَ الآيَاتِ][(٢)] مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ». أخرجاه من حديث الليث[(٣)].

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في هذا القرآن: ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: بيانًا للحق، وإزاحةً للباطل و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ بما فيه حلول النِّقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين، ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التَّكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه، بأنَّه أرسلني، فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، وإنَّما أنا صادقٌ عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيَّدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا تخفىٰ عليه خافيةٌ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: يوم معادهم سيجزيهم علىٰ ما فعلوا، ويقابلهم علىٰ ما صنعوا، مِن تكذيبِهم بالحقِّ واتِّباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلَّة علىٰ صدقهم، وآمنوا بالطَّواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم علىٰ ذلك، إنَّه حكيمٌ عليمٌ.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يَقَع بهم، وبأس الله أن يَحِلَّ عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال هاهنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: لولا ما حتَّم الله من تأخير العذاب إلىٰ يوم القيامة لجاءَهم العذاب قريبًا سريعًا كما استعجلوه[(٤)].

---

(١) لوحة (١٨٣/ ب).

(٢) سقط من (ز)، وهي ثابتة في مصادر التخريج.

(٣) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

(٤) لوحة (١٨٤/ أ).

ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: يستعجلون بالعذاب، وهو واقعٌ بِهِم لا محالة.

قال شعبة، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة قال في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، قال: البحر.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين. حدَّثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد، حدَّثنا أبي عن مجالد، عن الشَّعبي؛ أنَّه سَمِعَ ابن عبَّاس يقول: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: وجهنَّم هو هذا البحر الأخضر، تنتثر الكواكب فيه، وتُكور فيه الشمس والقمر، ثم يستوقد فيكون هو جهنم[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عاصم، حدَّثنا عبد الله بن أمية، حدَّثني محمَّد بن حُيَي، حدَّثنا صفوان بن يعلىٰ، عن أبيه، أن النَّبيَّ ﷺ قال: «البَحْرُ هُوَ جَهَنَّمُ». قالوا: ليعلىٰ، فقال: ألا ترون أن الله يقول: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، قال: لا والذي نفس يعلىٰ بِيَدِهِ لا أدخلها أبدًا حتىٰ أعرض علىٰ الله، ولا يصيبني منها قطرةٌ حتىٰ أعرض علىٰ الله ﷻ[(٢)].

هذا تفسيرٌ غريبٌ، وحديثٌ غريبٌ جدًّا، والله أعلم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء:٣٩]، فالنَّار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذابِ الحسِّيِّ.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تهديدٌ وتقريعٌ وتوبيخٌ، وهذا عذابٌ معنويٌّ علىٰ النُّفوس، كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٨، ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٣-١٦].

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[(٣)] لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن
دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦٠﴾

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٣٩٤)، وفي إسناده مجالد بن سعيد: ليس بالقوي.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٢٣٣) والطبري: (١٥/ ٢٣٩)، وفيه محمَّد بن حيي لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الحافظ: مقبول، والحديث ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٠٢٣).

(٣) لوحة (١٨٤/ ب).

هذا أمرٌ من الله لعبادِهِ المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يَقْدِرُونَ فيه علىٰ إقامة الدِّين، إلىٰ أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يُوَحِّدُوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن عبد ربه، حدَّثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدَّثني جُبَيْر بن عمرو القرشي، حدَّثني أبو سعدٍ الأنصاري، عن أبي يحيىٰ مولىٰ الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «البِلَادُ بِلَادُ اللهِ، وَالعِبَادُ عِبَادُ اللهِ، فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِمْ[(١)] »[(٢)] .

ولهذا لما ضاق علىٰ المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلىٰ أرض الحبشة، ليأمنوا علىٰ دينهم هناك، فوجدوا هناك خير المنزِلين، أصحمة النَّجاشي ملك الحبشة رَحِمَهُ ٱللَّهُ آواهم وأيَّدَهُم بنصره، وجعلهم سُيُومًا[(٣)] ببلاده. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلىٰ المدينة النبوية يثرب المطهَّرة.

ثم قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعةِ الله وحيث أمركم الله، فهو خيرٌ لكم، فإنَّ الموت لا بدَّ منه، ولا محيد عنه، ثم إلىٰ الله المرجع [والمآب][(٤)] ، فَمَنْ كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتمَّ الثواب؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: لنسكننهم منازل عاليةً في الجنة تجري من تحتها الأنهار، علىٰ اختلاف أصنافها، من ماءٍ وخمرٍ، وعسلٍ ولبنٍ، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ : نعمت هذه الغرفُ أجرًا علىٰ أعمال المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: علىٰ دينهم، وهاجروا إلىٰ الله، ونابذوا[(٥)] الأعداء، وفارقوا الأهل

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي علىٰ سبيل الاختصاص وهي أرض عبادة الله، يراد بها البلاد الإسلامية، وهذا هو الظاهر، وأنه ﷺ يحثُّ المقيمين في بلاد الكفر علىٰ أن يهاجروا إلىٰ أرض الله، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ ... وَٰسِعَةٗ﴾ [النساء:٩٧]، وهذا واضحٌ بأنَّ المراد بأرض الله هنا: أرض الإيمان والعبادة التي هي دار الإسلام.

(٢) ضعيف عدا الجزء الأول فحسن لغيره: رواه أحمد (١/ ١٦٦) والطبراني في «الكبير» (٢٥٠). وقال الهيثمي: فيه جماعةٌ لم أعرفهم. قلت: فيه جبير بن عمرو القرشي: لا يدرىٰ من هو. انظر: «تعجيل المنفعة». وضعفه العراقي في «تخريج أحاديث الأحياء» (٢/ ٢٢٤)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٤٧) قلت: والجزء الأول من الحديث له شاهدٌ عند أبي داود الطيالسي (١/ ٢٠٤)، ومن طريق البيهقي (١/ ١٤٣)، وإسناده حسن، ولفظه: «العِبَادُ عِبَادُ اللهِ، وَالبِلَادُ بِلَادُ اللهِ فَمَنْ أَحْيَا مَوَاتَ أَرْضٍ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ».

(٣) سُيُوم؛ أي: آمنون، كذا جاء تفسيرُه في الحديث، وهي كلمةٌ حَبَشية. وتُروىٰ بفتح السين، وقيل: سُيُوم جمع سائم؛ أي: تَسُومون في بَلَدي كالغَنَم السَّائمة لا يُعارِضُكم أحدٌ. «النهاية».

(٤) ليست في (ز).

(٥) لوحة (١٨٥/ أ).

والأقرباء، ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتَصْدِيق موعوده.

قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثني أبي، حدَّثنا صفوان المؤذِنُ، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، حدَّثني أبو معانق(١) الأشعري، أن أبا مالك الأشعري حدثه أنَّ رسول الله ﷺ حدَّثه: «أَنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبِاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَطَابَ الكَلَامَ، وَأَبَاحَ الصِّيَامَ(٢)، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(٣).

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم.

ثم أخبرهم تعالىٰ أنَّ الرِّزق لا يختص ببقعةٍ، بل رزقه تعالىٰ عامٌّ لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنَّهم بعد قليلٍ صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار؛ ولهذا قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر شيئًا لغدٍ، ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: الله يقيِّض لها رزقها علىٰ ضعفها، وييسره عليها، فيبعث إلىٰ كلِّ مخلوقٍ من الرزق ما يصلحه، حتىٰ الذَّرَّ في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحمن الهروي، حدَّثنا يزيد -يعني: ابن هارون- حدَّثنا الجراح بن(٤) مِنْهَال الجزري -هو أبو العطوف- عن الزهري، عن رجلٍ، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتىٰ دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التَّمر ويأكل، فقال لي: «يَا ابْنَ عُمَرَ، مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ؟» قال: قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «لَكِنِّي أَشْتَهِيهِ، وَهَذِهِ صُبْحُ رَابِعَةٍ مُنْذُ لَمْ أَذُقْ طَعَامًا وَلَمْ أَجِدْهُ، وَلَوْ شِئْتُ لَدَعَوْتُ رَبِّي فَأَعْطَانِي مِثْلَ مُلْكِ قَيْصَرَ وَكِسْرَىٰ فَكَيْفَ بِكَ يَا ابْنَ عُمَرَ إِذَا بَقِيتَ فِي قَوْمٍ يُخَبِّئُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ لِضَعْفِ(٥) اليَقِينِ؟». قال: فوالله ما برحنا ولا رِمْنَا(٦) حتىٰ نزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْنِي بِكَنْزِ الدُّنْيَا، وَلَا بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، فَمَنْ كَنَزَ دُنْيَاهُ يُرِيدُ بِهَا حَيَاةً بَاقِيَةً فَإِنَّ الحَيَاةَ بِيَدِ اللهِ، أَلَا وَإِنِّي لَا أَكْنِزُ دِينَارًا وَلَا

---

(١) في بعض النسخ الخطية: «أبو معاوية»، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما عند «ابن أبي حاتم».

(٢) أباح الشيء: أطلقه.

(٣) صحيح لغيره: رواه الطبراني (٣٤٦٦)، وأحمد (٥/ ٣٤٣)، وعبد الرزاق (٢٠٨٨٣)، وإسناده لا بأس به، وله شواهد، فقد رواه الترمذي (٢٥٢٧)، وأحمد (١/ ١٥٦) من حديث علي وفيه النعمان بن سعد: ضعيف، ورواه أحمد (٢/ ١٧٣)، والحاكم (١/ ٣٢١) من حديث عبد الله بن عمرو، وإسناده حسن.

(٤) في (ز): «الجراح عن منهال»، وهو خطأ.

(٥) لوحة (١٨٥/ ب).

(٦) أي: ولا برحنا، يقال: رام يريم: إذا برح وزال من مكانه، وأكثر ما يستعمل في النفي.

دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا أُخَبِّئُ رِزْقًا لِغَدٍ»[(١)][(٢)].

وهذا حديثٌ غريبٌ، وأبو العطوف الجزري: ضعيف.

وقد ذكروا أنَّ الغراب إذا فَقَسَ عن فراخه البَيض، خرجوا وهم بيضٌ فإذا رآهم أبواهم كذلك، نفرَا عنهم أيَّامًا حتىٰ يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحًا فاه [يتفقد][(٣)] أبويه، فيقيض الله له طيرًا صغارًا كالبرَغَش[(٤)] فيغشاه فيتقوَّت منه تلك الأيام حتىٰ يسوَدَّ ريشه، والأبوان يتفقَّدَانِهِ كل وقتٍ، فكلما رأوه أبيض الريش نفرَا عنه، فإذَا رَأَوْهُ قد اسودَّ ريشه عطفَا عليه بالحضانة والرزق[(٥)]، ولهذا قال الشاعر:

يَـا رَازِقَ النَّعَّـابِ[(٦)] فِـي عُـشِّهِ وَجَـابِرَ العَظْـمِ الكَـسِيرِ المَهِـيضِ

وقد قال الشَّافعي في جملة كلام له في الأوامر، كقول النَّبيِّ ﷺ: «**سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتُرْزَقُوا**».

قال البيهقي: أخبرنا إملاء أبو الحسن[(٧)] علي بن أحمد بن عبدان[(٨)]، أخبرنا أحمد بن عبيد، أخبرنا محمَّد بن غالب، حدَّثني محمَّد بن سِنان، حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحمن بن رَدَّاد - شيخ من أهل المدينة- حدَّثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا**». قال: ورويناه عن ابن عبَّاسٍ[(٩)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة، [حدَّثنا][(١٠)] ابن لَهِيعة، عن دَرّاج، عن عبد الرحمن بن حُجَيرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَافِرُوا تَرْبَحُوا، وَصُومُوا تَصِحُّوا، وَاغْزُوا تَغْنَمُوا**»[(١١)].

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عبَّاس مرفوعًا، وعن معاذ بن جبل موقوفًا. وفي لفظ:

---

(١) في (ز): «لأحد».

(٢) ضعيف جدًّا: أبو العطوف الجزري، الجراح بن منهال: ضعيف. قال ابن حبان: يكذب في الحديث ويشرب الخمر، وقال البخاري ومسلم: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك. انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٣٩٠). والحديث رواه ابن أبي حاتم (١١/ ٤٦٥ برقم ١٨٢٦٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٣١) وابن حميد في «مسنده» (٢/ ٣٩، ٤٠).

(٣) في (ز): «وقال أبويه».

(٤) البرغش -بوزن جعفر-: البعوض.

(٥) في (ز): «الزق».

(٦) النعاب: فرخ الغراب، سمي بذلك لكثرة نعبه.

(٧) في (ز): «الحسين»، وهو خطأ.

(٨) هكذا في (ز)، وهو المثبت عند البيهقي في «الكبرىٰ»، وهو الصواب، خلافًا لما في بعض الطبعات «علي بن محمَّد بن عبدان».

(٩) منكر: البيهقي (٧/ ١٠٢)، والخطيب في «تاريخه» (١٠/ ٣٨٧) وفيه محمَّد بن عبد الرحمن الرواد. ساق الذهبي حديثه هذا في «الميزان» من منكراته، وقال أبو حاتم: هذا حديثٌ منكرٌ.

(١٠) سقط من (ز).

(١١) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٣٨٠)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف. ورواه البيهقي (٧/ ١٠٢) من حديث ابن عبَّاسٍ وإسناده ضعيف لانقطاعه بين الضَّحَّاك وابن عبَّاس.

«سَافِرُوا مَعَ ذَوِي الجُدُودِ وَالمَيْسَرَةِ»[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوالِ عبادِهِ، العليم بحركاتِهِم[٢] وسكناتِهِم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مقررًا أنَّه لا إله إلا هو؛ لأنَّ المشركين -الذين يعبدون معه غيره- معترفُونَ أنَّه المستقل بخلق السموات والأرض والشَّمس والقمر، وتسخير اللَّيل والنَّهار، وأنَّه الخالق الرَّازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغَنِيُّ والفقير، وهو العليم بما يصلح كُلًّا منهم، ومَنْ يستحق الغنىٰ ممن يستحق الفقر، فذكر أنَّه المستبدُّ بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره؟ ولم يتوكَّل علىٰ غيره؟ فكما أنَّه الواحد في ملكِهِ فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرِّر تعالىٰ مقام الإلهيَّة بالاعتراف بتوحيد الربوبيَّة. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانُوا يقولون في تلبيتهم: «لبَّيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك».

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ[٣] ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنَّها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدَّائمة الحق الَّذي لا زوال لها ولا انقضاء،

---

(١) موضوع: أخرجه الديلمي (٣٣٨٧) وفيه إسماعيل بن أبي زياد، وأورده السيوطي في «ذيل الأحاديث الموضوعة»، وقال: إسماعيل كذَّاب، والحسن وإبراهيم: مجروحان، انظر: «الضعيفة» للألباني (٣٦٨٤).

(٢) لوحة (١٨٦/ أ).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الرَّافضة مثلًا يدعون عليًّا: يا علي، وسمعت رجلًا منهم يدعو عند المقام، ويرفع صوته: يا علي، فجاءه أحد رجال الحسبة فزجره، وقال: تشرك تحت الكعبة! اخرج، فقال: إنما أنا أقول: يا علي، والله يقول في القرآن: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني: أنه ينادي الله، وهذا من التقية التي يتخذونها، وهي سبيل المنافقين، فهذا لا شك -فيما يظهر لي والله أعلم- أنَّه لا يريد الله إنَّما يريد عليًّا؛ لأنه لو كان يريد الله لقال: يا رب، أو اللَّهمَّ، أو ما أشبه ذلك، لكن لما وقع في شرك العدل والتَّوحيد ادَّعىٰ هذه الدعوة.

بل هي مستمرةٌ أبد الآباد.

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ.

ثم أخبر تعالىٰ عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائمًا، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقال[١] هاهنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقد ذكر محمَّد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنَّه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارًّا منها، فلمَّا رَكِب في البحر ليذهب إلىٰ الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أَخْلِصُوا لربِّكم الدُّعاء، فإنَّه لا ينجي هاهنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنَّه لا يُنَجِّي غيره في البر أيضًا، اللَّهمَّ لك عليَّ عهدٌ لئن خرجتُ لأذهبن فلأضعَنَّ يدي في يد محمَّدٍ فلأجدنه رءوفًا رحيمًا، وكان كذلك.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾: هذه اللَّام يسمِّيها كثيرٌ مِن أهل العربيَّة والتَّفسير وعلماء الأصولِ لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون[٢] ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأمَّا بالنِّسبةِ إلىٰ تقدير الله عليهِمْ ذلك وتقييضه إيَّاهم لذلك فهي لام التَّعليل. وقد قدَّمْنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا[٣] وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ قريش فيما أحلهم من حرمه[٤]، الَّذِي جعله للنَّاس سواء العاكف فيه والبَادِي، ومَن دخلَهُ كان آمنًا، فهم في أمنٍ عظيمٍ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١-٤].

وقوله: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرُهُم علىٰ هذه النِّعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه [غيره من][٥] الأصنام والأنداد، و﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ

---

(١) لوحة (١٨٦/ ب). (٢) في (ز): «يعدون».

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: يشمل الأمرين: هداية الدلالة، وهداية التوفيق والإرشاد.

(٤) في (ز): «حريمه». (٥) ليست في (ز).

﴿ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللَّائق بهم إخلاص العبادة لله، وألَّا يُشْرِكوا به، وتصديق [١] الرَّسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه وأخرجُوهُ مِن بين ظهرِهِم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدرٍ، وصارت الدَّولة لله ولرسوله [وللمؤمنين] [٢] ففتح الله علىٰ رسوله مكَّة، وأرغم آنافهم وأذلَّ رِقَابَهُم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي: لا أحدَ أشدُّ عقوبةً ممَّن كذب علىٰ الله فقال: إن الله أوحىٰ إليه، ولم يوحَ إليه شيءٌ. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله. وهكذا لا أحدَ أشدُّ عقوبةً ممن كذَّب بالحق لما جاءه، فالأول مفترٍ، والثاني مكذِّبٌ؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ يعني: الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- وأصحابه وأتباعه إلىٰ يومِ الدِّين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: لنُبَصرنهم سبلنا؛ أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي الحَواري، حدَّثنا عبَّاس الهمداني أبو أحمد -من أهل عكَّا- في قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدَّثت به أبا سليمان الدَّاراني فأعجبه، وقال: [ليس] [٣] ينبغي لِمَنْ ألهم شيئًا من الخير أن يَعْمَل به حتىٰ يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثرِ عمل به، وحمد الله حين وافق ما [٤] في نفسه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا عيسىٰ بن جعفر -قاضي الري- حدَّثنا أبو جعفر الرازي، عن المغيرة، عن الشَّعبي قال: قال عيسىٰ بن مريم، عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّما الإحسان أن تُحْسِن إلىٰ مَنْ أساء إليك، ليس الإحسانُ أن تُحْسِن إلىٰ مَنْ أحسن إليك. والله أعلم.

[وفي حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ». قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ [٥]» انتهىٰ تفسير سورة العنكبوت، ولله الحمد والمنة] [٦].

---

(١) لوحة (١٨٧/ أ). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): «فيما في». (٥) مسلم (٨). (٦) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).

سُورَةُ الرُّومِ

تفسير سورة الروم، مكية[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ[2] وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ[3] يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾

[نزلت][4] هذه الآيات حين غلب «سابور» ملك الفرس علىٰ بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، واضطر هرَقْل مَلكَ الرومَ حتىٰ ألجأه إلىٰ القسطنطينية، وحاصره فيها مدَّةً طويلةً، ثم عادت الدَّولة لهرقل، كما سيأتي.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا معاوية بن عمرو، حدَّثنا أبو إسحاق، عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: غُلبت وغَلَبت. قال: كان المشركون يُحِبُّون أن تظهر فارس علىٰ الرُّوم؛ لأنَّهم أصحاب أوثانٍ، و[كان][5] المسلمون يحبُّون أن تظهر الرُّوم علىٰ فارس؛ لأنَّهم أهل كتابٍ، فذُكِرَ ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ»، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلًا[6] خمس سنين، فلم يظهروا،

---

(١) لوحة (١٨٧ ب).

(٢) **قال الشيخ أبو بكر الجزائري** ﷺ: اختُلِفَ في أدنىٰ الأرضِ هل هذا الإدناء إلىٰ أرضِ الرُّوم أو إلىٰ أرضِ الفُرسِ كما في التَّفسير أو أدنىٰ الأرضِ إلىٰ أرضِ الرُّوم أو إلىٰ أرضِ العَرَبِ، وهذا الخلاف سببه الخلاف في تحديد موقع المعركة فإن كانت بالجزيرةِ فأدنىٰ الأرض هو بالنِّسبة إلىٰ أرض فارس، وإن كانت الوقعة بالأردن فهي أقرب إلىٰ أرض الرُّوم، وإن كانت الوقعة بأذرعات جنوب الشَّام فهي أقرب إلىٰ دِيَارِ العرب الحجاز وما حوله، والرَّاجح الأول كما في التفسير.

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين** ﷺ: قوله تعالىٰ: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ سُمِيَ نصرًا مع أنَّه لكفَّارٍ علىٰ كفَّارٍ؛ لأنَّنا نقول: إن النَّصر هو العون والظُّهور، ولا فرق أن يكون بَيْنَ مؤمنٍ وكافرٍ، أو بينَ كافرٍ وكافرٍ، ثمَّ إنَّ أهل الكتاب أقرب من الفُرْسِ، ولهذا لهم أحكامٌ خاصَّةٌ تقرِّبهم من المسلمين.

(٤) سقط من (ز).

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) في (ز): «فجعل رجل» والمثبت موافق للمسند.

فذكر ذلك أبو بكر للنَّبيِّ ﷺ فقال: «أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَىٰ دُونٍ؟» - أراه قال-: «العَشْرِ». قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر. ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١].

هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعًا، عن الحسين بن حُرَيْث، عن معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان بن سعيد الثوري به، وقال[٢] الترمذي: حسن غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان، عن حبيب. ورواه ابن أبي حاتم، عن محمَّد بن إسحاق الصاغاني[٣]، عن معاوية بن عمرو، به.

ورواه ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا محمَّد بن أسعد، أبو سعيد التَّغْلَبِي[٤]، الذي يقال له: أبو سعيد[٥]، من أهل طَرَسُوس، حدَّثنا أبو إسحاق الفزاري، فذكره. وعندهم: قال سفيان: فبلغني أنَّهم غلبوا يوم بدر.

حديث آخر: قال سليمان بن مِهْران الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله: خمس[٦] قد مضين: الدخان، واللِّزام، والبطشة[٧]، والقمر، والروم. أخرجاه[٨].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن عامر -هو الشعبي-، عن عبد الله -هو ابن مسعود رضي الله عنه- قال: كانت فارس ظاهرة علىٰ الروم، وكان المشركون يحبُّون أن تظهر فارس علىٰ الرُّوم. وكان المسلمون يحبُّون أن تظهر الروم علىٰ فارس؛ لأنَّهم أهل كتابٍ وهم أقرب إلىٰ دينهم، فلمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ قالوا: يا أبا بكر، إنَّ صاحبك يقول: إنَّ الروم تظهر علىٰ فارس في بضع سنين! قال: صدق. قالوا: هل لك إلىٰ أن نقامرك؟ فبايعوه علىٰ أربع قلائص[٩] إلىٰ سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيءٌ، ففرح المشركون بذلك وشقَّ علىٰ المسلمين، فذُكِر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال:

---

(١) **صحيح**: التِّرمذي (٣١٩٣)، وقال: حسن غريب، والنَّسائي في «سننه» (٢٠/ ١٤٩)، وأحمد (١/ ٢٧٦)، والطبري (٢١/ ١٦)، وابن أبي حاتم (١٧٤٥٧).

(٢) لوحة (١٨٨ أ).

(٣) في (ز): «الصنعاني».

(٤) في (ز): «محمد بن سعيد، أبو سعيد الثعلبي»، والتصويب من تفسير الطبري، وكتب الرجال.

(٥) في (ز): «أبو أسعد» والتصيب من الطبري وكتب الرجال.

(٦) أي: خمس علامات.

(٧) الدُّخَان: سيأتي الكلام عنه في سورة الدُّخَان، واللِّزام: اختلفَ فيه، فقيل: هو القتل يوم بدر، وقيل: التصاق القتلىٰ ببعضهم في بدرٍ، وقيل: الأسر ببدر، وقيل: القَحْط، والبطشة: قال الله فيها: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾، ذُكِرَ أنَّ المقصود بذلك يوم بدرٍ، والقمر: قال تعالىٰ فيه: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

(٨) البخاري (٤٧٦٧)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٩) **القلائص**: جمع قلوص، وهي من الإبل: الشَّابَّة.

«مَا بِضْعُ سِنِينَ عِنْدَكُمْ؟»، قالوا: دون العشر. قال: «اذْهَبْ فَزَايِدْهُمْ وَازْدَدْ سَنَتَيْنِ فِي الأَجَلِ». قال: فما مضت السَّنتان حتىٰ جاءت الرُّكبان بظهور الرُّوم علىٰ فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾[1].

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أحمد بن عمر الوَكِيعي، حدَّثنا مُؤَمَّل، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، قال المشركون لأبي بكر: ألا ترىٰ إلىٰ ما يقول صاحبك؟! يزعم أن الروم تغلب فارس؟! قال: صدق صاحبي. قالوا: هل لكَ أن نُخاطِرك[2]؟ فجعل بينه وبينهم أجلًا، فحلَّ الأجل قبل أن تغلب الرومُ فارسَ[3]، فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ فساءه ذلك وكرهه، وقال لأبي بكر: «مَا دَعَاكَ إِلَىٰ هَذَا؟»، قال: تصديقًا لله ولرسوله. فقال: «تَعَرَّضْ لَهُمْ وَأَعْظِمِ الخَطَرَ وَاجْعَلْهُ إِلَىٰ بِضْعِ سِنِينَ». فأتاهم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العود، فإنَّ العود أحمد؟ قالوا: نعم. قال: فلم تمض تلك السُّنون حتىٰ غلبت الرومُ فارسَ، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا الرومية، فجاء به أبو بكر إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: هذا السحت، قال: «تَصَدَّقْ بِهِ»[4].

حديث آخر: قال أبو عيسىٰ الترمذي: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل، حدَّثنا إسماعيل بن أبي أويس، أخبرني ابن أبي الزِّنَاد، عن عروة بن الزُّبير، عن نيار بن مُكرَم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾، وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للرُّوم، وكان المسلمُونَ يُحبُّون [ظهور][5] الرُّوم عليهم؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنَّهم وإيَّاهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلمَّا أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكَّة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾، قال ناسٌ مِن قريشٍ لأبي بكرٍ: فذاك بَيْننا وبينك. زعم صاحبُكَ أن الرُّوم ستَغْلِبُ فارس في بِضع سنين، أفلَا نُراهِنُك علىٰ ذلك؟ قال: بلىٰ -وذلك قبل

---

(١) حسن لغيره: رواه الطبري (٢١/ ١٨) وفيها بن وكيع: ضعيف، وبقيَّة رجاله ثقات إلَّا أنَّ الشَّعبي لم يدرك ابن مسعود، ولكن يشهد لصحَّتِهِ الرِّوايات المذكورة كرواية ابن عبَّاس السَّابقة.

(٢) أي: نراهنك، والخَطَر: ما يراهن عليه.

(٣) لوحة (١٨٨ ب).

(٤) حسن لغيره: رواه أبو حاتم (١٧٤٥٩)، وأبو يعلىٰ كما في «المطالب العالية» (٣٦٩٣)، من طريق المؤمل بن إسماعيل، به. وهو صدوق سيِّئ الحفظ، وأبو إسحاق: يرسل. ولكن له شواهد كما تقدَّم دون قولِهِ: وهذا السُّحت إلىٰ آخره. وانظر ما بعده.

(٥) سقط من (ز).

تحريم الرهان- [فارْتَهَن أبو بكر والمشركون، وتواضَعُوا الرهان][(١)] ، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع، ثلاث سنين إلىٰ تسع[(٢)] سنين؟ فَسمِّ[(٣)] بيننا وبينك وَسَطًا ننتهي إليه. قال: فسموا بينهم سِتَّ سنين. قال: فمضت ست السِّنين قبل أن يظهروا، فأخذ المُشْرِكُون رهن أبي بكر، فلمَّا دخلت السَّنة السَّابعة ظهرت الروم علىٰ فارِسَ، فعاب المسلمون علىٰ أبي بكر تسميةَ ستِّ سنين، قال: لأن الله قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾. قال: فأسلم عند ذلك ناسٌ كثيرٌ[(٤)] .

هكذا ساقه التِّرمذي، ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن ابن أبي الزِّناد[(٥)] ، وقد روي نحو هذا مرسلًا عن جماعة من التَّابعين، مثل: عِكْرِمة، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والسُّدِّي، والزهري، وغيرهم.

ومن أغرب هذه السِّياقات ما رواه الإمام سُنَيد بن داود في «تفسيره»؛ حيث قال: حدَّثني حجاج، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عكرمة قال: كانت في فارس امرأةٌ لا تلد إلا الملوك الأبطال، فدعاها كسرىٰ فقال: إني أريد أن أبعث إلىٰ الروم جيشًا وأستعمل عليهم رجلًا من بَنِيك، فأشيري عَلَيَّ، أيَّهم أستعمل؟ فقالت: هذا فلان، وهو أروغ من ثعلب، وأحذر من صقر. وهذا فرخان، وهو أنفذ من سنان[(٦)] . وهذا شهربراز، وهو أحلم من كذا -تعني أولادها الثلاثة- فاستعمل أيهم شئت. قال: فإنِّي قد استعملت الحليم. فاستعمل شهربراز، فسار إلىٰ الرُّوم بأهل فارس، فظهر عليهم فقتلهم، وخرَّب مدائنهم، وقطع زيتونهم، قال أبو بكر بن عبد الله: فحدَّثت بهذا الحديث عطاء الخراساني؛ فقال: أما رأيت بلاد الشام؟ قلت: لا، قال: أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت، والزيتون الذي قطع. فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته، قال عطاء الخراساني: حدَّثني يحيىٰ بن يَعْمَر: أن قيصر بعث رجلًا يدعىٰ قطمة[(٧)] بجيش من الروم، وبعث كسرىٰ شهربراز، فالتقيا بأذرعات وبُصرىٰ، وهي أدنىٰ الشَّام إليكم، فلقيت فارس الروم، فغلبتهم فارس. ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون.

قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النَّبيِّ ﷺ وقالوا: إنَّكم أهل كتابٍ، والنصارىٰ أهل كتاب، [ونحن أُمِّيُّون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس علىٰ إخوانكم من أهل الكتاب][(٨)] ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرَنَّ عليكم، فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) في (ز): «سبع سنين». (٣) في (ز): «قم بيننا».

(٤) حسن لغيره: رواه الترمذي (٣١٩٤) وقال: حسن صحيح.

وفيه ابن أبي الزِّناد: صدوقٌ تغيَّر حفظه، وإسماعيل بن أبي أويس كذلك: صدوق أخطأ في أحاديث من حفظه، لكن الحديث له شواهد، وهي المذكورة قبله مما يعضد الحديث ويقويه.

(٥) لوحة (١٨٩ أ). (٦) السِّنان: الرمح.

(٧) في (ز): «بطنة». (٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾، فخرج أبو بكر الصِّدِّيق إلىٰ الكفَّار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم علىٰ إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يُقرَّن الله أعينكم، فوالله ليُظْهِرَنَّ الله الروم علىٰ فارس، أخبرنا[(١)] بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أبيُّ ابن خَلَف فقال: كذبت يا أبا فضيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله. فقال: أناحبُكَ[(٢)] عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الرُّوم علىٰ فارس غَرِمتُ، وإن ظهرت فارس غرمتَ إلىٰ ثلاث سنين. ثم جاء أبو بكر إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فأخبره، فقال: «**مَا هَكَذَا ذَكَرْتُ، إِنَّمَا البِضْعُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَىٰ التِّسْعِ، فَزَايِدْهُ فِي الخطَرِ وَمَادَّه فِي الأَجَلِ**»، فخرج أبو بكر فلقي أبيًّا فقال: لعلَّك نَدِمْتَ؟ فقال: لا، تعالَ أُزَايِدُكَ في الخَطَر وأمادُّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوصٍ إلىٰ تسع سنين. قال: قد فعلت، فظهرت الروم علىٰ فارس قبل ذلك، فغلبهم المسلمون.

قال عكرمة: لمَّا أن ظهرت فارس علىٰ الرُّوم، جلس فرخان يشرَبُ -وهو أخو شهربراز- فقال لأصحابه: لقد رأيتُ كأنِّي جالسٌ علىٰ سريرِ كسرىٰ. فبلغت كسرىٰ فكتب إلىٰ شهربراز إذا أتاك كتابي هذا فابعث إليَّ برأس فرخان. فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تَجِد مثل فرخان، له نكاية[(٣)] وصوت في العدوِّ، فلا تفعل. فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفًا منه، فعجِّل إليَّ برأسه. فراجعه، فغضب كسرىٰ فلم يجبه، وبعث بريدًا إلىٰ أهل فارس: إنِّي قد نزعت عنكم شهربراز، واستعملت عليكم فرخان. ثم دفع إلىٰ البريد صحيفةً لطيفةً صغيرةً فقال: إذا وَلِيَ فرخان المُلْكَ، وانقاد له أخوه، فأعطه هذه. فلما قرأ شهربراز الكتاب قال: سمعًا وطاعةً، ونزل عن سريره، وجلس فرخان، ودفع إليه الصحيفة، قال: ائتوني بشهربراز وقَدَّمَه ليضرب عنقه، قال: لا تعجل عليَّ حتىٰ أكتب وصيتي، قال: نعم. فدعا بالسَّفط[(٤)] فأعطاه الصحائف وقال: كل هذا راجعتُ فيك كسرىٰ، وأنت أردت أن تقتلني بكتابٍ واحدٍ!!. فرد المُلْكَ إلىٰ أخيه شهربراز وكتب شهربراز، إلىٰ قيصر ملك الروم: إنَّ لي إليك حاجة لا تحملها البُرُد ولا تحملها الصُّحف، فالقني، ولا تلقني إلا في خمسينَ روميًّا[(٥)]، فإنِّي ألقاك في خمسين فارسيًّا. فأقبل قيصر في خمسمائة [ألف][(٦)] رومي، وجعل [يضع][(٧)] العيون بين يديه في الطريق، وخاف أن يكون [قد][(٨)] مَكَرَ به، حتىٰ أتاه عيونَهُ أنه ليس معه

---

(١) لوحة (١٨٩ ب).
(٢) في (ز): (أناجيك). ومعنىٰ (أناحِبُكَ)، أي: أراهنك.
(٣) نكىٰ العدو، نكاية: أوقع به وهزمه وغلبه. «المعجم الوسيط».
(٤) السَّفَطُ -محركةً-: كالجُوالِقِ أو كالقُفَّةِ، ج: أسْفاطٌ. «القاموس المحيط».
(٥) لوحة (١٩٠ أ).
(٦) سقط من (ز).
(٧) سقط من (ز).
(٨) لوحة (١٨٠ ب).

إلا خمسون رجلًا. ثم بسط لهما والتقيا في قبَّةٍ ديباج ضربت لهما، مع كلِّ واحدٍ منهما سكينٌ، فدعيا تُرجمانًا بينهما، فقال شهربراز: إن الذين خربوا مدائِنَك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرىٰ حَسَدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت، ثم أمر أخي أن يقتلني. وقد خلعناه جميعًا، فنحن نقاتله معك. قال: قد أصبتما. ثم أشار أحدهما إلىٰ صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا. قال: أجل. فقتلا الترجمان جميعًا بسكينيهما. قال: فأهلك الله كسرىٰ، وجاء الخبر إلىٰ رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ففرح والمسلمون معه[١].

فهذا سياقٌ غريبٌ، وبناءٌ عجيبٌ. ولنتكلم علىٰ كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ قد تقدَّم الكلام علىٰ الحروف المقطَّعة في أوائل السور، في أول سورة «البقرة». وأمَّا الرُّوم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر. وكانوا علىٰ دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم التُّرك. وكانوا يعبدون الكواكب السَّيَّارة السَّبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويصلون إلىٰ القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبَنَوْا معبدها، وفيه محاريب إلىٰ جهة الشمال، فكان الروم علىٰ دينهم إلىٰ بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشَّام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر. فكان أوَّل من دخل في دين النَّصارىٰ من الملوك قسطنطين بن قسطس، وأمُّه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حران، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلىٰ دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفًا، فتابعها -يقال: تَقِيَّة[٢]- واجتمعت به النَّصارىٰ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافًا [كثيرًا][٣] منتشرًا[٤] متشتتًا لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها: الأمانة الكبيرة، وإنما هي: الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين -يعنون: كتب الأحكام من تحليلٍ وتحريمٍ وغير ذلك ممَّا يحتاجون إليه-، وغيَّروا دين المسيح عليه السلام، وزادوا فيه ونَقَصُوا منه. وصلَّوا إلىٰ المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير. واتخذوا أعيادًا أحدثوها كعيد الصَّلِيب والقدَّاس والغطاس، وغير ذلك من البَوَاعِيث والشعانين[٥]، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساقسة، ثم الشمامسة. وابتدعوا الرهبانية. وبنىٰ لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي «القسطنطينية»، يقال: إنه بنىٰ في أيَّامه اثنىٰ عشر ألف كنيسة، وبنىٰ بيت لحم بثلاثة محاريب، وبنت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكيَّة؛ يعنون: الذين هم علىٰ دين الملك.

---

(١) **ضعيف**: رواه الطبري (٢١/ ١٧)، وفيه حجاج بن أرطأة: ضعيف، والرِّواية مرسلة.

(٢) أي: اتقاءً وحذرًا. (٣) ليست في (ز). (٤) ليست في (ز).

(٥) **الشعانين**: عيدٌ للنَّصارىٰ، يقع يوم الأحد السَّابق لعيدِ الفِصْحِ، يحتفل فيه بذكرىٰ دخول المسيح بيت المقدس. ينظر: «المعجم الوسيط» (ص/ ٤٨٥)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٤٧٨).

ثم حدثت بعدهم اليعقوبيَّة أتباع يعقوب الإسكاف، ثم النسطورية أتباع نسطورًا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُمُ افْتَرَقُوا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»[١]. والغرضُ أنَّهم استمروا علىٰ النَّصرانيَّة، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتىٰ كان آخرهم هِرَقْل. وكان مِن عقلاءِ الرِّجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غورًا وأقصاهم رأيًا، فتمَلَّكَ عليهم في رِياسَةٍ عظيمةٍ وأبهةٍ كبيرةٍ، فناوأه كسرىٰ ملك الفرس، ومَلَكَ البلاد كالعراق وخراسان والرَّي، وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف. وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم وحماقة الفُرْسِ، وكانوا مجوسًا يعبدون النار. فتقدَّم عن عكرمة أنه بعث إليه نوَّابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرىٰ غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكَسَره وقصره، حتىٰ لم يبق معه سوىٰ مدينة قسطنطينية. فحاصره[٢] بها مدَّةً طويلةً حتىٰ ضاقت عليه، وكانت النَّصارىٰ تعظِّمُهُ تعظيمًا زائدًا، ولم يقدر كسرىٰ علىٰ فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لحصانتها؛ لأنَّ نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمَدَد من هنالك. فلمَّا طال الأمر دبَّر قيصر مكيدةً، ورأىٰ في نفسه خديعةً، فطلب من كسرىٰ أن يقلع عَن بلاده علىٰ مالٍ يصالحه عليه، ويشترط عليه مَا شَاء. فأجابه إلىٰ ذلك، وطلب منه أموالًا عظيمةً لا يقدر عليها أحدٌ من ملوك الدنيا، مِن ذهبٍ وجواهرَ وأقمشةٍ وجوارٍ وخدامٍ وأصنافٍ كثيرةٍ. فطاوعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإيَّاه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشْره، وسأل من كسرىٰ أن يُمكِّنه من الخروج إلىٰ بلاد الشام وأقاليم مملكته؛ ليسعىٰ في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر علىٰ الخروج من مدينة قسطنطينية، جمع أهل ملَّتِهِ وقال: إني خارجٌ في أمرٍ قد أبرمته، في جندٍ قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم علىٰ بَيْعَتِي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنَّك ملكنا ما دمت حيًّا، ولو غبت عشرة أعوام. فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط، هذا وكسرىٰ مُخَيِّم علىٰ القسطنطينية ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار[٣] مسرعًا حتىٰ انتهىٰ إلىٰ بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلًا لرِجَالِها ومَن بها من المقاتلة، أولًا فأولًا ولم يزل يقتل حتىٰ انتهىٰ إلىٰ المدائن، وهي كرسي مملكة كسرىٰ، فقتل من بها، وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده، ورَكَّبه علىٰ حمار وبعث معه من الأساورة[٤] من قومه في غاية الهوان والذِّلَّة، وكتب إلىٰ كسرىٰ يقول: هذا ما طلبت فخُذْهُ. فلما بلغ ذلك كسرىٰ أخذه من الغمِّ ما لا[٥] يحصيه إلا الله ﷻ، واشتد حنقه علىٰ البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكنٍ فلم يقدِرْ علىٰ ذلك. فلما عجز ركب ليأخذ

---

(١) تقدم تخريجه، انظر: تفسير الآية (٥) من سورة آل عمران. والكلام علىٰ النصارىٰ وفرقها في «الجواب الصحيح» لابن تيمية، و«محاضرات في النصرانية» لأبي زهرة، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة».

(٢) لوحة (١٩١ أ).

(٣) في (ز): «وساق مسرعًا».

(٤) أي: الفرسان منهم، جمع أسوار، وهو الفارس والقائد.

(٥) لوحة (١٩١ ب).

عليه الطريق من مخاضة[1] جيحون، التي لا سبيل لقيصر إلىٰ القسطنطينية إلا منها، فلمَّا علم قيصر بذلك احتال بحيلةٍ عظيمةٍ لم يسبق إليها، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمالٍ من التِّبن والبعر والروث فحملت معه، وسار إلىٰ قريب من يوم في الماء مصعدًا، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرىٰ ظن هو وجنده[2] أنهم [قد][3] خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت[4] المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض في الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرىٰ وجنوده، ودخلوا القسطنطينية. وكان ذلك يومًا مشهودًا عند النصارىٰ، وبقي كسرىٰ وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون؟ لم يحصلوا علىٰ بلاد قيصر، وبلادُهم قد خَرَّبتها الروم وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم [ونساءهم][5]!! فكان هذا من غَلب الروم فارسَ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم.

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم -حين غلبت الروم- بين أذرعات وبُصرىٰ، علىٰ ما ذكره ابن عبَّاس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام ممَّا يلي بلاد الحجاز.

وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم مِن فارس، فالله أعلم.

ثم كان غلب الرُّوم لفارس بعد بضع سنين، وهي تسع؛ فإنَّ البِضْعَ في كلام العرب ما بين الثلاث إلىٰ التِّسع. وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، وابن جرير وغيرهما، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحي، عن الزهري، عن عبُيَد الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاس؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي بكر في مُناحَبَة[6] ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾: «**أَلَا احْتَطْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ البِضْعَ مَا بَيْنَ ثَلَاثٍ إِلَىٰ تِسْعٍ**»[7]، ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه. وروىٰ ابن[8] جرير، عن عبد الله بن عمرو أنه قال ذلك[9].

وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبني علىٰ الضم لما قُطع المضاف -وهو قوله: ﴿قَبۡلُ﴾- عن الإضافة، ونُويت.

﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: للرُّوم أصحاب قيصر ملك الشام، علىٰ فارس أصحاب كسرىٰ، وهم المجوس. وقد كانت نصرةُ الرُّوم علىٰ فارس يوم وقعة بدر في قول طائفةٍ كبيرةٍ من العلماء، كابن عبَّاس، والثوري، والسُّدِّي، وغيرهم. وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبزار، من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيدٍ قال:

---

(١) المخاضة والمخاض من النَّهر الكبير: الموضع الذي يتخضخض ماؤه ويتحرَّك عند العبور عليه.
(٢) في (ز): «ظن هو وجنده ظن أنهم».
(٣) سقط من (ز).
(٤) أي: خلت منهم.
(٥) سقط من (ز).
(٦) أي: مراهنة.
(٧) رواه الترمذي (٣١٩١)، والطبري (٢١/ ١٧).
(٨) لوحة (١٩٢ أ).
(٩) انظر: الطبري (٢١/ ١٧).

لما كان يوم بدر، ظهرت الروم علىٰ فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

وقال آخرون: بل كان نصرة الروم علىٰ فارس عام الحديبية؛ قاله عكرمة، والزهري، وقتادة، وغيرهم. ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرىٰ ليمشين من حِمْص إلىٰ إيليا -وهو بيت المقدس- شكرًا لله ﷻ، ففعل، فلمَّا بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتىٰ وافاه كتاب رسول الله ﷺ، الذي بعثه مع دِحْية بن خليفة، فأعطاه دِحْيَة لعظيم بُصْرَىٰ، فدفعه عظيم بُصرىٰ إلىٰ قيصر. فلمَّا وصل إليه سأل مَن بالشَّام من عَرَب الحجاز، فأُحضِرَ له أبو سفيان -صَخْر بن حرب الأموي- في جماعةٍ من كفار قريشٍ كانوا في غزّة، فجيء بهم إليه، فجلسوا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟ فقال أبو سفيان: أنا. فقال لأصحابه -وأجلسهم خلفه-: إنِّي سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كذب فكذِّبوه. فقال أبو سفيان: فوالله لولا [أن] (٢) يأثُروا عليَّ الكذب لكذبت. فسأله هِرَقْل عن نسبه وصفته، فكان فيما سأله أن قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في مُدَّةٍ لا ندري ما هو صانعٌ فيها -يعني بذلك: الهدنة التي كانت [قد] (٣) وقعت بين رسول الله (٤) ﷺ وكفار قريش يوم الحديبية، علىٰ وضع الحرب بينهم عشر سنين-، فاستدلوا بهذا علىٰ أن نصر الروم علىٰ فارس كان عام الحديبية؛ لأن قيصر إنما وَفَّىٰ بنذره بعد الحديبية، والله أعلم.

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت، فما تمكن من وفاء نَذْرِه حتىٰ أصلح ما ينبغي إصلاحه وتفقد بلاده، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفَّىٰ بنذره، والله أعلم.

والأمر في هذا سهلٌ قريبٌ، إلا أنه لما انتصرت فارس علىٰ الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم علىٰ فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأنَّ الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلىٰ المؤمنين من المجوس، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالىٰ هاهنا: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا صَفْوان، حدَّثنا الوليد، حدَّثني أسيد الكلابي، قال: سمعت العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه، قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الرُّوم فارس، ثم رأيت غلبةَ المسلِمين فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة (٥).

---

(١) ضعيف: رواه التِّرمذي (٣١٩٢)، والطَّبري (٢١/ ٢٠)، وفيه عطيَّة العوفي: وهو شِيعِيٌّ مدلِّسٌ كثيرُ الخطأ.
(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).
(٤) لوحة (١٩٢ ب). (٥) رواه ابن أبي حاتم (١٧٤٦٢).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائِهِ[١]، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك [به][٢] يا محمَّد -من أنَّا سننصر الروم علىٰ فارس- وعدٌ مِن الله حقٌّ، وخَبَر صدقٍ لا يخلف، ولا بدَّ مِن كونِهِ ووقوعِهِ؛ لأنَّ الله قد جرت سنته أن ينصر أقربَ الطَّائفتين المقتتلتين إلىٰ الحقِّ، ويجعل لها العاقبة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية علىٰ وفق العدل.

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا[٣] وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: أكثر الناس ليس لهم علمٌ إلا بالدُّنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاقٌ أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عمَّا ينفعهم في الدَّار الآخرة، كأنَّ أحدهم مُغفَّلٌ لا ذهن له ولا فكرة.

قال الحسن البصري: والله لَبَلَغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم علىٰ ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي.

وقال ابن عبَّاس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يعني: الكفار، يعرفون عُمْرَان الدُّنيا، وهم في أمر الدين جهَّال.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالىٰ منبِّهًا علىٰ التَّفكُّر في مخلوقاتِهِ، الدَّالَّة علىٰ وجودِهِ وانفرادِهِ بخلقها، وأنَّه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يعني به[٤]: النظر والتَّدبُّر والتَّأمُّل لخلق اللهِ الأشياء من العالم العلويِّ والسفليِّ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سُدًىٰ ولا باطلًا، بل بالحقِّ، وأنَّها مؤجَّلةٌ إلىٰ أجلٍ مسمًّىٰ، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

ثم نبَّهَهُم علىٰ صدقِ رُسُلِهِ فيما جاءوا به عنه، بما أيَّدهُم به من المعجزات، والدَّلالات الواضحات، مِن إهلاكِ مَنْ كفر بهم، ونجاة مَنْ صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامِهِم وعقولِهِم ونظرِهِم وسماعِهِم[٥] أخبار الماضين؛ ولهذا قال: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

---

(١) قال ابن القيم ؒ في «النونية»:

وهـو العزيز فلا يرام جنـابه ... أنىٰ يرام جناب ذي السلطان

(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (١٩٣ أ). (٤) في (ز): «يعني في». (٥) في (ز): «وسماع».

مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم -أيُّها المبعوث إليهم محمَّد صلوات الله وسلامه عليه [(١)]- وأكثر أموالًا وأولادًا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومُكنوا في الدنيا تمكينًا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارًا طوالًا فعمَرُوهَا أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومعَ هذا لمَّا جاءتهم رسلهم بالبيِّنات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله مِنْ واقٍ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مِثْقال ذرَّةٍ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحلَّ بهم من العذاب والنكال، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهِمْ حيثُ كذَّبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدِّم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

وعلىٰ هذا تكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [منصوبة مفعولًا لـ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾ وقيل: بل المعنىٰ في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾] [(٢)] أي: كانت السوأىٰ عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلىٰ هذا تكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ منصوبة خبر «كان». هذا توجيه ابن جرير، ونقله عن ابن عبَّاسٍ وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضَّحَّاك بن مُزاحم، وهو الظَّاهر، والله أعلم، ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: كما هو قادرٌ علىٰ بَداءته فهو قادرٌ علىٰ إعادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمَلِهِ.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قال ابن عبَّاس: ييأس المجرمون.

[وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يكْتَئِبُ المجرمون] [(٣)].

---

(١) لوحة (١٩٣ ب).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

﴿ وَلَمْ [(١)] يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ ﴾أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكفروا بهم وخانوهم أحوجَ مَا كانوا إليهم.

ثم قال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ قال قتادة: هي -والله- الفرقة التي لَا اجتِمَاع بعدها؛ يعني: إذا رفع هذا إلىٰ علِّيين، وخفض هذا إلىٰ أسفل السَّافلين، فذاك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون.

وقال يحيىٰ بن أبي كثير: يعني سماع الغناء. والحبرة أعَمُّ مِن هذا كله، قال العجاج:

الحَمْـــدُ للهِ الَّـــذِي أَعْطَـــىٰ الحَبَـــرْ   مَـــوَالِيَ الحَـــقِّ إِنِ المَـــوْلَىٰ شَـــكَر

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [(٢)]

هذا تسبيحٌ منه تعالىٰ لنفسِهِ المقدَّسة، وإرشاد لعبادِهِ إلىٰ تسبيحِهِ وتحميدِهِ في هذه الأوقات المتعاقبة الدَّالَّة علىٰ كمال قدرته وعظيم سلطانه: عند المساء، وهو إقبال اللَّيل بظلامِهِ، وعند الصَّباح، وهو إسفار النَّهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمدِهِ -مناسبةً للتَّسبيح وهو التَّحميد- فقال: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾أي: هو المحمود علىٰ ما خلق في السموات والأرض.

ثم قال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فالعشاء هو: شدة الظَّلام، والإظهار: قوَّة الضِّياء. فسبحان خالِق هذا وهذا، فالق الإصباح وجاعل اللَّيل سكنًا، كما قال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٣، ٤]، وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحىٰ: ١، ٢]، والآيات في هذا كثيرةٌ.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ا ابن لهيعة، حدَّثنا زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّىٰ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِي وَفَّىٰ؟ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَصْبَحَ وَأَمْسَىٰ: سُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ» [(٣)].

---

(١) لوحة (١٩٤ أ).

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: في هذه الآية دَليل علىٰ مشروعيَّة القياس وصحَّته، وجه القياس في الآية هو قِيَاس المعاد علىٰ الخلق الأوَّل والإيجاد.

(٣) موضوع: رواه أحمد (٣/ ٤٣٩)، والطبراني (٢٠/ ١٩٢/ ٤٢٧)، والطبري (١/ ٥٢٨)، وفيه زبان بن فائد: قال الحافظ: ضعيف الحديث مع صلاحه وعبادته (تقريب -ترجمة ١٩٨٦)، وقال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا ينفرد =

وقال(١) الطبراني: حدَّثنا مطلب بن شُعَيب الأزدي، حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني الليث بن سعد، عن سعيد بن بشير، عن محمَّد بن عبد الرحمن بن البيلماني، عن أبيه، عن عبد الله بن عبَّاس، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الآيَةَ بِكَمَالِهَا، أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي لَيْلَتِهِ». إسنادٌ جيدٌ(٢)، ورواه أبو داود في «سننه»(٣).

وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ هو ما نحن فيه مِن قدرته علىٰ خلق(٤) الأشياء المتقابلة. وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها مِن هذا النَّمط، فإنَّه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها؛ ليدل خلقه علىٰ كمال قدرتِهِ، فمِن ذلك إخراج النَّبات من الحَبِّ، والحَبّ مِن النَّبات، والبَيْض مِن الدَّجاج، والدَّجاج من البَيْضِ، والإنسان من النُّطفة، والنُّطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٣، ٣٤]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ -٧]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدَّالَّة علىٰ عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من(٥) ترابٍ ﴿ثُمَّ

= عن سهل بن معاذ بنسخةٍ كأنَّها موضوعة لا يحتج به (المجروحين ٣٧٨).

(١) لوحة (١٩٤ ب).

(٢) قال محقق ط/ طيبة: «في (أ): «إسناد ضعيف»، وهو الصَّواب» (٦/ ٣٠٨). قلت: وكذا في الشعب.

(٣) ضعيف: رواه الطبراني (١٢/ ٢٣٩)، وأبو داود (٥٠٧٦)، وإسناده مسلسل بالضُّعفَاء؛ فسعيد بن بشير ومحمَّد وأبوه جميعًا ضعفاء. وهذه غفلة من الحافظ ابن كثير لتجويده إسناد الحديث.

(٤) في (ز): «علىٰ فعل». (٥) لوحة (١٩٥ أ).

﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، فأصلكم من ترابٍ، ثمَّ مِن ماءٍ مهينٍ، ثم تَصَوَّر فكان علقةً، ثم مضغةً، ثم صار عظامًا شكله علىٰ شكلِ الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحمًا، ثم نفخ فيه الرُّوح، فإذَا هو سَمِيعٌ بصيرٌ. ثمَّ خرج مِن بطنِ أمِّه صغيرًا ضعيف القُوىٰ والحركَةِ، ثم كلَّما طال عمره تكاملت قواهُ وحركاته، حتىٰ آلَ بِهِ الحال إلىٰ أن صار يَبْنِي المدَائِن والحُصُون، ويسَافِر في أقطار الأقاليم، ويَرْكَبُ مَتْن البُحُور، ويدور أقطارَ الأرض ويتكسَّب ويجمعُ الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كلٌّ بحسبه.

فسبحان مَنْ أقدرهم وسَيَّرهم وسخَّرهم وصرَّفهم في فنون المعايِشِ والمكاسِبِ، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحُسْن والقُبْح، والغنىٰ والفقر، والسَّعادة والشَّقاوة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد وغُنْدَر، قالا: حدَّثنا عَوْف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الأَبْيَضُ وَالأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ**»[(١)].

ورواه أبو داود والترمذي من طرق، عن عوف الأعرابي به. وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثًا يَكُنَّ لكم أزواجًا، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، يعني بذلك: حوَّاء، خلقها الله من آدم من ضِلَعه الأقصر الأيسر. ولو أنَّه جعل بني آدمَ كلَّهم ذكورًا أو جعل إناثهم من جنسٍ آخر [من غيرهم][(٢)] إمَّا مِن جانٍّ أو حيوانٍ لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نَفْرَة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم مِن تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم مِن جنسهم، وجعل بينهم وبينهنَّ مودَّةً: -وهي المحبَّة[(٣)]- ورحمة- وهي الرَّأفة- فإنَّ الرَّجل يُمْسِك المَرْأَة إمَّا لمحبَّته لها، أو لرَحْمَةٍ بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للأُلْفَة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾!.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والتِّرمذي (٢٩٥٥)، وأحمد (٤/ ٤٠٠).
(٢) ليست في (ز). (٣) اللوحة (١٩٥ ب).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: ومِن آياتِ قدرته العظيمة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [أي: خلق السموات][(١)] في ارتفاعها واتِّساعها، وشُفُوف أجرامها، وزهارة كواكبها[(٢)] ونجومها الثَّوابت والسَّيَّارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبالٍ وأوديةٍ، وبحار وقفارٍ، وحيوانٍ وأشجارٍ.

وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾[(٣)] يعني: اللُّغات، فهؤلاء بلغةِ العرب، وهؤلاء تترٌ لهم لغة أخرىٰ، وهؤلاء كَرَج، وهؤلاء رُوم، وهؤلاء إِفْرَنْج، وهؤلاء بَرْبَرٌ، وهؤلاء تَكْرُور، وهؤلاء حَبَشَة، وهؤلاء هُنُود، وهؤلاء عَجَم، وهؤلاء صَقَالِبَة، وهؤلاء خَزَر، وهؤلاء أَرْمَن، وهؤلاء أَكْرَاد، إلىٰ غير ذلك ممَّا لا يعلمه إلا الله مِن اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم -وهي حُلاهم-، فجميع أهل الأرض - بل أهل الدنيا- منذ خلق الله آدم إلىٰ قيام الساعة: كل له عينَانِ وحاجبان، وأنف وجَبين، وفَم وخَدَّان. وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيءٍ مِن السَّمت أو الهَيْئَة أو الكَلامِ، ظاهرًا كان أو خفيًّا، يظهر عند التَّأمُّل، كل وجهٍ منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرىٰ. ولو توافق جماعةٌ في صفةٍ مِن جمالٍ أو قبحٍ، لا بد من فارق بين كل واحدٍ منهم وبين الآخر، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النَّوم في اللَّيل والنَّهار، فيه تحصل الرَّاحة وسكُونُ الحركة، وذهاب الكلال[(٤)] والتَّعب، وجعل لكم الانتشار والسَّعْيَ في الأسباب والأسفار [في النَّهار][(٥)] وهذا ضد النَّوم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يعون.

---

(١) سقط من (ز). (٢) أي: بياضها.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يشمل أصل اللُّغة، ويشمل اللَّهجات، ويشتمل السَّلامة من العيوب، ويشتمل العيوب أيضًا، ويشمل الفَصَاحة، ويشمل العِيَّ؛ يعني: لا تظنُّوا أنَّ اختلاف الألسنةِ فقط في جنس اللُّغة، لا بل بكلِّ هذا، فأجناسُ اللُّغات من آيات الله ﷻ، وكون هذا الإنسان ينطق بالحروف نطقًا تامًّا، هذا مِن آيات الله، والثَّاني بالعكس، ينطق بها علىٰ وجه اللَّثْغَة، أو يتثاقل، أو ما أشبه ذلك، كذلك أيضًا قد نقولُ: إنَّ مِن اختلاف اللِّسان: الصَّوت، باختلاف الأصواتِ يكون هذا صوتُه جيِّدٌ، وهذا حسنٌ، والآخر بالعكس، كذلك من اختلاف الألسن: الفصاحة وعدمها، فإنَّ مِن النَّاس من يُعطيه الله تعالىٰ بلاغةً في نطق الكلام وحُسْن أدائِهِ، حتىٰ إنَّه يؤدِّي إليك المعنىٰ بعبارةٍ واضحةٍ، تفهمها لأوَّل مرَّة، ومن النَّاس من يكون بالعكس، فجميع ما يمكن أن يرد علىٰ اختلافِ اللِّسان، فإنَّه داخلٌ فِي كونهِ من آيات الله ﷻ.

(٤) في (ز): «الكلام». (٥) سقط من (ز).

قال الطبراني: حدَّثنا حجاج بن عمران السدوسي[(١)]، حدَّثنا عمرو بن الحصين العقيلي، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن عُلاثة، حدَّثني ثور بن يزيد، عن خالد بن مَعْدان، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت ﵁ قال: أصابني أرقٌ من الليل، فشكوت ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: «قُلْ: اللَّهُمَّ غَارتِ النُّجُومُ، وَهَدَأَتِ العُيُونُ، وَأَنْتَ حَيٌّ قَيُّومٌ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، [أَنِمْ عَيْنِي وَ][(٢)] أَهْدِئْ لَيْلِي»[(٣)]. فقلتُها فذهب عني.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدَّالَّة علىٰ عظمته أنَّه ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ [خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي][(٤)]: تارةً تخافُون ممَّا يحدث بعده مِن أمطارٍ مزعجةٍ، أو صواعق متلِفَةٍ، وتارةً ترجون وَمِيضَه وما يأتي بعده من المَطَر المحتاجِ إليه؛ ولهذا قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: بعدما كانت هامدةً لا نبات فيها ولا شيْءَ، فلمَّا جاءها المَاءُ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرةٌ ودَلالَةٌ واضحةٌ علىٰ المعاد وقيام السَّاعة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾، كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وكان عمر بن الخطاب ﵁ إذا اجتهدَ فِي اليمين يقول: «لا والَّذِي تقوم السَّماء والأرض بأمرِهِ»؛ أي: هي قائمةٌ ثابتةٌ بأمرِهِ لها وتسخيرِهِ إيَّاها، ثم إذا كان يوم القيامة بُدِّلَت الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّموات، وخرجت الأموات مِن قبورها أحياء بأمره تعالىٰ ودُعائِهِ إيَّاهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً[(٥)] وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

---

(١) لوحة (١٩٦ أ). (٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبراني».

(٣) ضعيف جدًا: الطبراني (٥/ ١٢٤)، وفيه عمرو بن الحصين، قال ابن عدي: مظلم الحديث، وقال الحافظ: متروك.
وفيه محمَّد بن علاثة: قال عنه في «التقريب»: صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (١٩٦ ب).

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: ملكه وعبيده، ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي: خاضعون خاشعون طوعًا وكرهًا.

وفي حديث درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، مرفوعًا: «**كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ**»[(١)].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ ﴾، قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني: أيسرُ عليه.

وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البَدَاءة، والبداءة عليه هَيْنٌ. وكذا قال عكرمة وغيره.

وقال البخاري: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**»[(٢)].

انفرد بإخراجه [البخاري][(٣)]، كما انفرد بروايته -أيضًا- من حديث عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة به . وقد رواه الإمام أحمد منفردًا به، عن حسن بن موسىٰ، عن ا ابن لهيعة، حدَّثنا أبو يونس سليم بن جُبَيْر، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه، أو مثله.

وقال آخرون: كلاهما بالنِّسبة إلىٰ القدرة علىٰ السَّواء.

قال العَوْفي، عن ابن عبَّاسٍ: كلٌّ عليه هَيِّنٌ. وكذا قال الرَّبيع بن خُثَيْم. ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة، قال: ويحتمل أن يعود الضَّمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ ﴾ إلىٰ الخلق؛ أي: وهو أهون علىٰ الخلق.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: كقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورىٰ: ١١][(٤)].

وقال قتادة: [مَثَله][(٥)] أنه لا إله إلا هو، ولا ربَّ غيره، وقال مثل هذا ابن جرير. وقد[(٦)] أنشد بعض المُفسِّرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إِذَا سَكَنَ الغَدِيرُ عَلَىٰ صَفَاءٍ وَجُنِّبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٧٥)، ومدارُهُ علىٰ دراج أبي السَّمح: روايته عن أبي الهيثم ضعيفة وهذا منها.
(٢) البخاري (٤٩٧٤) (٤٩٧٥)، وأحمد (٢/ ٣٥٠).
(٣) سقط من (ز).
(٤) رواه الطبري (٢١/ ٣٨).
(٥) سقط من (ز).
(٦) لوحة (١٩٧ أ).

تُــرَىٰ فِيــهِ الــسَّمَاءُ بِــلَا امْتِــرَاءِ كَــذَاكَ الــشَّمْسُ تَبْــدُو وَالنُّجُــومُ
كَــذَاكَ قُلُــوبُ أَرْبَــابِ التَّجَلِّــي يُــرَىٰ فِــي صَــفْوِهَا اللهُ العَظِــيمُ

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالَب ولا يُمانَع، بل قد غلب كلَّ شيءٍ، وقهر كلَّ شيءٍ بقدرته وسلطانه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، شرْعًا وقدَرًا.

وعن مالك في تفسيره المروي عنه، عن محمَّد بن المنكَدِر، في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

هذا مثلٌ ضربَهُ الله تعالىٰ للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أنَّ شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبَّيك لا شريكَ لك، إلا شريكًا هو لك، تملكهُ وما ملك. فقال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: لا يرتضي[1] أحدٌ منكم أن يكون عبده شريكًا له في مالِهِ، فهو وهو فيه علىٰ السَّواء، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: تخافون أن يُقاسِمُوكُم[2] الأموال. قال أبو مِجْلَز: إن مملوكك لَا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذَاكَ، كذاك الله لا شريك له.

والمعنىٰ: أنَّ أحدَكُم يأنَفُ مِن ذلك، فكيف تجعلُونَ لله الأنداد من خلقه. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، أي: من البنات، حيث جعلوا الملائكة الَّذين هم عِبَادُ الرَّحمن إناثًا، وجعلوها بناتَ الله، وقد كان أحدُهُم إذا بُشِّر بالأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مسودًّا وهو كظيم، يتوارىٰ من القوم[3] مِن سوء ما بشِّر به، أيمسكُهُ علىٰ هونٍ أم يدُسُّه في التُّراب، فهم يأنفون من البَنَاتِ. وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسِهُم، فهذا أغلظ الكُفْر. وهكذا[4] في هذا المقام جعلوا له شركاءَ مِن عَبِيدِهِ وخلقِهِ، وأحدهم يأبىٰ غاية الإباءِ ويأنف غايةَ الأَنَفَةِ مِن ذلك، أن يكون عبدهُ شريكَه في ماله يساويه فيه. ولو شاء لقاسمه عليه، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال الطَّبراني: حدَّثنا محمود بن الفرج الأصبهاني، حدَّثنا إسماعيل بن عمرو البجلي، حدَّثنا حماد ابن شعيب، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ قال: كان يُلَبِّي أهل الشِّرك:

---

(١) في (ز): (ليرتضي). (٢) في (ز): «أن يقاسمكم».
(٣) لوحة (١٩٧ ب). (٤) في (ز): «وهذا في هذا».

لبَّيك اللَّهم لبيَّك، لبَّيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك!! فأنزل الله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (١).

ولما كان التَّنبيه بهذا المثل على براءته تعالىٰ ونزاهته (٢) -بطريق الأولىٰ والأحرىٰ- قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال تعالىٰ مبينًا أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهًا من أنفسهم وجهلًا: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ -أي: المشركون- ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؟ [أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم] (٣)، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم [من قدرة الله] (٤) مُنقِذٌ ولا مُجِيرٌ، ولا مَحِيدَ لهم عنه؛ لأنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (٥)

يقول تعالىٰ: فسدِّدْ وجهك واستمر علىٰ الدين الَّذي شرعه الله لك، من الحنيفيَّة -ملَّة إبراهيم- التي هَدَاكَ الله لها، وكمَّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنَّه تعالىٰ فطر خلقه (٦) علىٰ [معرفتِهِ وتوحيدِهِ، وأنَّه لا إله غيره، كما تقدَّم عند قوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وفي الحديث: «إِنِّي خَلَقْتُ

---

(١) ضعيف: رواه الطبراني (١٢/ ٢٠)، وفيه حمَّاد بن شعيب: ضعيف. انظر: «الميزان» (١/ ٥٩٦)، وإسماعيل بن عمرو: ضعيف، وحبيب: مدلس وقد عنعن، واعلم أنَّ المقصود ضعف سبب النُّزول، أمَّا كون المشركين كانوا يُلَبُّون بهذه التَّلبيَةِ فصحيحٌ مِن غير سببِ النُّزول. انظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) يعني: براءته من الشُّركاءِ وتنزهه عنهم. (٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): «عن ذلك».

(٥) قال العلامة السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي هذا تحذيرٌ للمسلمين من تشتُّتهم وتفرُّقهم فرقًا، كلُّ فريقٍ يتعصَّب لما معه من حقٍّ وباطل، فيكونون مشابِهين بذلك للمُشرِكين في التَّفرُّق، بل الدِّينُ واحدٌ والرَّسولُ واحدٌ والإلهُ واحدٌ.

وأكثرُ الأمورِ الدِّينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمَّة، والأخوة الإيمانيَّة قد عقدها الله وربطها أتم ربطٍ، فما بال ذلك كله يُلْغَىٰ ويُبْنَىٰ التَّفرُّق والشِّقاق بين المسلمين علىٰ مسائلَ خفيَّةٍ أو فروعٍ خلافيَّةٍ يضلل بها بعضهم بعضًا، ويتميَّز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا مِن أكبر نزغَاتِ الشَّيطان وأعظم مقاصِدِهِ التي كاد بها للمُسْلِمين؟

وهل السَّعي في جمعِ كَلِمَتِهِم وإزالة ما بينهم من الشِّقاق المبني علىٰ ذلك الأصل الباطل، إلا مِن أفضل الجِهَاد في سبيل اللهِ وأفضل الأعمال المقرِّبة إلىٰ الله؟

(٦) لوحة (١٩٨أ).

عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ (١) الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ» (٢). وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالىٰ فطر خلقه علىٰ] (٣) الإسلام، ثم طرأ علىٰ بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدِّلوا خلق الله، فتغيِّروا النَّاس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خبرًا بمعنىٰ الطَّلب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا معنًىٰ حسنٌ صحيحٌ.

وقال آخرون: هو خبرٌ علىٰ بابه، ومعناه: أنَّه تعالىٰ ساوىٰ بين خلقه كلِّهم في الفِطْرَةِ علىٰ الجبلَّة المستقيمة، لا يولد أحدٌ إلا علىٰ ذلك، ولا تفاوُتَ بين النَّاس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عبَّاسٍ، وإبراهيم النَّخعي، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، وعِكْرِمة، وقتادة، والضَّحَّاك، وابن زيد في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لدين الله (٤).

وقال البخاري: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: لدين الله، خَلْقُ الأولين: [دين الأولين، و] (٥) «الدِّين» و«الفطرة»: الإسلام.

حدَّثنا عَبْدَانُ، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ [إِلَّا يُولَدُ] (٦) عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ (٧)، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟»، ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (٨). ورواه مسلمٌ من حديث عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري به. وأخرجاه -أيضًا- من حديث عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ.

وفي معنىٰ هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعةٍ من الصحابة:

فمنهم: الأسودُ بن سَرِيع التميمي، قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا يونس، عن

---

(١) أي: اسْتَخَفَّتْهم، فجَالُوا مَعهم في الضَّلال. يقال: جَال واجْتَال: إذا ذهب وجَاءَ، ومنه الجَوَلَانُ في الحرْب، واجْتَالَ الشَّيءَ: إذَا ذَهَبَ به وسَاقَه، والجَائِل: الزَّائلُ عن مكانه، ورُوي بالحاء المهملة. «النهاية» (١/ ٣١٧)، وانظر: «اللسان»: جول.

(٢) البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: في الآية وجهان:

الأول: أنَّها خبر بمعنىٰ النَّهي. الثاني: أنَّها خبرٌ علىٰ بَابِه.

وعلىٰ الأوَّل الأمر ظاهرٌ؛ المعنىٰ ظاهر أنَّه «لا تبدلوا» فيكون نهانًا عن الإشراك، وعلىٰ المعنىٰ الثاني: يكون وجهُهُ أنَّ هذه الفطرة التي فطر الله عليها الخلق لا أحد يستطيع أن يبدِّلها بل الَّذِي يبدِّلها هو الله، فمن أراد الله هدايتَهُ لن يُضِلَّهُ أحدٌ، ومَن أراد الله أن يُضِلَّه فلن يَهْدِيَه أحدٌ، لا سيَّما وأنَّه قال قبل هذا: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

(٥) سقط من (ز)، وأثبتناه من البخاري - قُبَيْل الحديث - (٤٧٧٥).

(٦) في (ز): (يولد إلا)، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري».

(٧) أي: كاملة الأعضاء سليمة، وجدعاء: مَقْطوعة الأطراف أو وَاحِدها.

(٨) تقدَّم عند تفسير الآيات (١١٦ - ١٢٢) مِن سورة النِّساء.

الحسن، عن الأسود بن سَرِيع قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وغزوتُ معه، فأصبتُ ظَهْرًا[(١)]، فقتل الناس يومئذ، حتىٰ قتلوا الولدان. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَهُمُ القَتْلُ اليَوْمَ حَتَّىٰ قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ؟**». فقال رجلٌ: يا رسول الله، أما[(٢)] هم أبناء المشركين[(٣)]؟ فقال: «**أَلَا إِنَّمَا خِيَارُكُمْ أَبْنَاءُ المُشْرِكِينَ**»[(٤)]. ثم قال: «**لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً، لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً**». وقال: «**كُلُّ نَسَمَةٍ تُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، حَتَّىٰ يُعْرِبَ[(٥)] عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا**»[(٦)].

ورواه النسائي في (كتاب السير)، عن زياد بن أيوب، عن هُشَيْم، عن يونس -وهو ابن عبيد-، عن الحسن البصري، به.

ومنهم: جابر بن عبد الله الأنصاري، قال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم، حدَّثنا أبو جعفر، عن الربيع ابن أنس، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، حَتَّىٰ يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، فَإِذَا عَبَّرَ عَنْهُ لِسَانُهُ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**»[(٧)].

ومنهم: عبد الله بن عبَّاس الهاشمي، قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبو عَوانة، حدَّثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن أولاد المشركين؟ فقال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ**». أخرجاه في «الصحيحين»[(٨)]، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس اليَشْكُرِي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ مرفوعًا بذلك[(٩)].

وقد قال أحمد أيضًا: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد -يعني ابن سلمة- أنبأنا عمار بن أبي عمار، عن ابن عبَّاسٍ قال: أتىٰ عليَّ زمانٌ وأنا أقول: أولاد المسلمين مع المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين. حتىٰ حدَّثني فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**». قال: فلقيت الرجل فأخبرني. فأمسكت عن قولي[(١٠)].

ومنهم: عياض بن حِمار المُجَاشعي، قال الإمام أحمد:

حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا هشام، حدَّثنا قتادة، عن مُطَرِّفٍ، عن عياض بن حمار؛ أن

---

(١) الظَّهْر: الإبل التي يحمل عليها ويركب.
(٢) في (ز): «إنما هم».
(٣) لوحة (١٩٨ ب).
(٤) أي: إن خيار الصحابة رضي الله عنهم وُلِدُوا في الجاهليَّة لآباء مشركين، ثمَّ أسلموا بعد أن صاروا رجالًا.
(٥) أي: يبين.
(٦) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٤٣٥)، والنَّسائي في «الكبرىٰ» (٨٦١٦)، وفي إسناده الحسن البصري: مدلِّس، لكنَّه صرَّح بالسَّماع في رواية الحاكم (٢/ ١٢٣).
(٧) **صحيح لغيره**: رواه أحمد (٣/ ٣٥٣)، وفيه الحسن البصري: مدلِّس وقد عَنْعَنَ، وأبو جعفر الرَّازي: صدوقٌ سَيِّئ الحِفْظِ، لكن يشهد للحديث الحديثان السابقان.
(٨) البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠).
(٩) في (ز): «كذلك».
(١٠) أحمد (٥/ ٧٣)، ورجاله ثقات عدا عمَّار بن أبي عمار: صدوقٌ ربَّما أخطأ.

رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إِنَّ رَبِّي ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، ثُمَّ إِنَّ اللهَ ﷻ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ (١)، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ المَاءُ (٢)، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا، ثُمَّ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً. قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ [عَلَيْهِمْ] (٣) فَسَنُنْفِقَ (٤) عَلَيْكَ. وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ». قال: «وَأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٍ مُتَصَدِّقٍ مُوَفَّقٍ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ فَقِيرٌ مُتَصَدِّقٌ. وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ (٥)، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا، لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا. وَالخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَىٰ لَهُ طَمَعٌ (٦) وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ. وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ». وذكر البخل، أو الكذب، والشنظير: الفاحش.

انفرد بإخراجه مسلم (٧)، فرواه من طرقٍ عن قتادة به.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: التمسُّك بالشَّريعة والفطرة السَّليمةِ هو الدِّين القويم المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا لا يعرفه [أكثر] (٨) النَّاس، فهم عنه ناكِبُونَ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام:١١٦] (٩).

وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد، وابن جُرَيْج: أي راجِعِينَ إليه، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل من

---

(١) لوحة (١٩٩ أ).

(٢) أرادَ أنه لَا يُمحَىٰ أبدًا، بل هو مَحفوظٌ في صُدُور الَّذِين أُوتُوا العِلْم لا يأتيه الباطلُ من بين يَديه ولا مِن خَلْفه. وكانت الكُتُب المُنَزَّلة لا تُجمَع حِفظًا وإنَّما يُعْتَمد في حِفْظها علىٰ الصُّحف بخلاف القرآن؛ فإن حُفَّاظَه أضْعاف مُضَاعَفَةٌ لصُحُفه. وقوله: «تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ» أي: تَجْمَعُه حِفظًا في حَالَتَي النَّوم واليَقَظة. وقيل: أراد تَقرؤه في يُسْرٍ وسُهولةٍ. «النهاية».

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٤) في (ز): «استنفق».

(٥) أي: لا عَقْل له يزبُرُه وينهاهُ عن الإقدامِ علىٰ ما لا ينبغي. «النهاية».

(٦) أي: لا يظهر، والخفاء من الأضداد.

(٧) مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢).

(٨) سقط من (ز).

(٩) فالكثرة - غالبًا- هم الغوغاء أتباع كل ناعق، والقلة - غالبًا- هم المؤمنون الممتدحون؛ ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

المُوَحِّدِينَ المخلِصِينَ له العبادة، لا يريدون بها سواه.

قال ابن جرير: حدَّثنا [ابن حُمَيد، حدَّثنا][١] يحيىٰ بن واضح، حدَّثنا يونس بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة[٢]؟ قال معاذ: ثلاث، وهن [من][٣] المنجيات: الإخلاص -وهي الفطرة، [فطرة الله][٤] التي فَطرَ النَّاس عليها- والصلاة -وهي الملَّة-، والطَّاعة -وهي العصمة-. فقال عمر: صدقت.

حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، حدَّثنا أيوب، عن أبي قِلابة[٥]: أن عمر رضي الله عنه قال لمعاذ: ما قوام هذا الأمر؟ فذكره نحوه[٦].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ[٧] بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرَّقُوا دينهم؛ أي: بدَّلُوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وقرأ بعضهم: ﴿فَارَقُوا دِينهم﴾[٨]، أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنَّصارىٰ والمجوس وعَبَدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم علىٰ آراء ومِلَل باطلةٍ، وكل فرقةٍ منهم تزعم أنَّهم علىٰ شيءٍ، وهذه الأمَّة أيضًا اختلفوا فيما بينهم علىٰ نِحَلٍ كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السُّنَّة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصَّدر الأوَّل مِن الصَّحابة والتَّابعين، وأئمَّة المسلمين في قديم الدَّهر وحديثه، كما رواه الحاكم في «مستدركه» أنه سئل عليه السلام عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ [اليَوْمَ][٩] وَأَصْحَابِي»[١٠].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) سقط من (ز)، والصَّواب إثباتها، كما في «الطبري».
(٢) في (ز): (الآية).
(٣) ليست في (ز).
(٤) سقط من (ز).
(٥) في (ز): «أبي ذلابة»، وهو خطأ.
(٦) رواه الطبري (٢١/ ٤٠).
(٧) لوحة (١٩٩ ب).
(٨) متواترة: قَرَأَ (فَارَقُوا) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَوَافَقَهُمَا الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (فَرَّقُوا).
(٩) ليست في (ز).
(١٠) رواه الحاكم (١/ ١٢٨)، وانظر تفسير الآية (٧) من سورة آل عمران.

يقول تعالىٰ مخبرًا عن النَّاس إنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحدَهُ لا شريك له، وأنَّه إذا أسبغ عليهم النِّعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يُشرِكُون بالله، ويعبدون معه غيره.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بَعْضِهِم، ولام التَّعليل عند آخرين، ولكنَّها تعليلٌ لتَقْيِيضِ الله لهم ذلك.

ثم توعَّدَهُم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال بعضهم: والله لو توعَّدَنِي حارسُ دَرْبٍ لخِفْتُ مُنه، فكيف والمتوعد هاهنا هو الذي يقول للشَّيْءِ: «كن» فيكون!!.

ثم قال منكرًا علىٰ المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجَّةٍ ولا[١] برهان: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ -أي: حجة- ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ -أي: يَنْطِقُ- ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ؛ أي: لم يكن لهم شيءٌ مِن ذَلِكَ.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾، هذا إنكارٌ علىٰ الإنسان من حيث هو، إلا مَنْ عَصَمه [الله][٢] ووفقه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمةٌ بَطِر وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]؛ أي: يفرح في نفسه ويفخر علىٰ غيره، وإذا أصابته شدةٌ قَنط وأَيِسَ أن يحصل له بعد ذلك خيرٌ بالكلِّيَّة؛ قال الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]؛ أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في «الصحيح»: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[٣].

[وقوله تعالىٰ][٤]: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو المتصرِّف الفاعل لذلك بحكمتِهِ وعدلِهِ، فيوسِّع علىٰ قومٍ ويضيِّق علىٰ آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ[٥] وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) لوحة (٢٠٠ أ). (٢) سقط من (ز).

(٣) مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٤/ ٣٣٢)، (٦/ ١٥، ١٦) من حديث صهيب.

(٤) بياض في (ز).

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الصَّواب: أنَّ المُرَادَ بوجهِ الله الذي هو صفته، وأنَّ في الآية إشارةً إلىٰ أنَّ من فعل مثل هذه الأمور لله فإنَّه سوف يرىٰ الله عز وجل ويلقاه، كما ثبت ذلك في الكتاب والسُّنَّة وإجماع السَّلف أن المؤمنين يَرَوْنَ ربَّهم كما يرَوْنَ القمر ليلة البدر.

يقول تعالىٰ آمرًا بإعطاء ذي ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: مِن البرِّ والصِّلة، ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ وهو: الذي لا شيءَ له ينفق عليه، أو له شيء لا يقومُ بكفايته، ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج إلىٰ نفقةٍ وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القِيَامَة، وهو الغاية القصوىٰ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مَن أعطىٰ عطيَّةً يريد أن يَرُدَّ النَّاس عليه أكثر مما أهدىٰ لهم، فهذا لا ثواب له عند الله -بهذا فسره ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، وعكرمة، ومحمَّد بن كعب، والشعبي- وهذا الصَّنيع مباحٌ -وإن[(١)] كان لا ثواب فيه- إلَّا أنه قد نهىٰ عنه رسول الله ﷺ خاصةً، قاله الضَّحَّاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، أي: لا تعطِ العطاء تريد أكثر منه.

وقال ابن عبَّاس: الرِّبا رباءَان، فرِبًا لا يصح؛ يعني: رِبَا البيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرَّجُل يريد فضلها[(٢)] وأضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

وإنَّما الثَّواب عند الله في الزَّكاة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما جاء في «الصحيح»: «**وَمَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ، حَتَّىٰ تَصِيرَ التَّمْرَةُ أَعْظَمَ مِنْ أُحُدٍ**»[(٤)].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾، أي: هو الخالق الرازق، يخرج الإنسان مِن بطن أمِّه عريانًا لا عِلْمَ له ولا سَمْعَ ولا بصر ولا قُوَىٰ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرِّياش واللِّباس والمال والأملاك والمَكَاسِب، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن سلام أبي شُرَحْبيل، عن حَبَّة وسواء ابني خالد قالا:

---

(١) لوحة (٢٠٠ ب). (٢) في (ز): «أفضلها».

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٧٤٩٥). ولو اقترض شخص من آخر مالًا أو غيره شُرِعَ له أن يرد ما اقترضه بأحسن وأزيد مما أخذ دون أن يشترط ذلك عند الأخذ واحد من الطرفين؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ اقترض جملًا من رجل، فلما حضر موعد القضاء لم يجد جملًا في نفس سنه وقيمته، وما وجد إلا أحسن وأزيد منه، فقال ﷺ لعُماله: «أعطوه؛ إن خياركم أحسنكم قضاءً». رواه البخاري: (٢٣٠٥) عن أبي هريرة ﵁، وانظر: «الإرواء»: (١٣٨٨).

(٤) البخاري (١٤١٠ و٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤)، و الترمذي (٦٦١) من حديث أبي هريرة.

دخلنا على النَّبيِّ ﷺ وهو يصلح شيئًا فأعنَّاه، فقال: «لا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ(١) رءوسكُمَا؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرَةٌ(٢)، ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللهُ ﷻ»(٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾؛ أي: بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة.

وقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ -أي: الذين تعبدونهم مِن دُونِ الله- ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؟ أي: لا يَقْدِرُ أحدٌ مِنهم على فعل شيءٍ من ذلك، بل الله ﷻ هو المستقِلُّ بالخلق والرِّزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة؛ ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتعاظَم وجلَّ وعزَّ عن أن يكون له شريكٌ أو نظيرٌ أو مساوٍ، أو ولد أو والد، بل هو الأحدُ الفردُ الصَّمد، الذي لم يَلِد ولم يُولَدْ، ولم يكن له كفوًا أحد.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ(٤) فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قال ابن عبَّاس، وعِكْرِمة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وغيرهم: المراد بالبَرِّ هاهنا: الفَيَافي، وبالبحر: الأَمْصَار والقُرَىٰ، وفي رواية عن ابن عبَّاسٍ وعكرمة: البحر: الأمصار والقرىٰ، ما كان منها على جانب نهرٍ.

وقال آخرون: بل المراد بالبَرِّ هو البَرُّ المعروف، وبالبَحْرِ: البحرُ المعروف.

وقال زيد بن رُفَيْع: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ يعني: انقطاع المطر عن البَرِّ يعقبه القحط، وعن البحر تعمىٰ دوابه. رواه ابن أبي حاتم.

وقال: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن يزيد المقري، عن سفيان، عن حميد بن قيس الأعرج، عن مجاهد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، قال: فساد البر: قتل ابن آدم، وفساد(٥) البحر: أخذ السفينة غصبًا(٦).

وقال عطاء الخراساني: المراد بـ«البر»: ما فيه من المدائن والقرىٰ، وبـ«البحر»: جزائره.

والقول الأول أظهر، وعليه الأكثر، ويؤيده ما ذكره محمَّد بن إسحاق في «السيرة»: أن

---

(١) أي: تحركت. (٢) أي: لباس.

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٤٦٩)، وفيه سلام بن شرحبيل -أبو شرحبيل- قال الحافظ: مقبول، وانظر: «ضعيف الجامع» (٦٢٩٥).

(٤) لوحة (٢٠١ أ). (٥) في (ز): «وفي البحر».

(٦) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: أمَّا الفساد في البحر، فقد قال العلماء: يكون بموت الحِيتَان، وفسادها، وكذلك تغيُّر المياه، وخروجها عن العادة.

رسول الله ﷺ صالَح ملك أيلة، وكتب إليه[(١)] ببحرِه؛ يعني: ببلده.

ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: بان النَّقص في الثِّمار والزُّروع بسبب المعاصي.

وقال أبو العالية: مَنْ عصىٰ الله في الأرض فقد أفسدَ في الأرض؛ لأنَّ صلاح الأرض والسَّماء بالطَّاعة؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «**لَحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْضِ أَحَبُّ إِلَىٰ أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا**»[(٢)] . والسبب في هذا: أنَّ الحدود إذا أقيمت انكفَّ الناس -أو أكثرهم، أو كثير منهم- عن تعاطي المُحَرَّمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سببًا في محاق البركات من السَّماء والأرض؛ ولهذا إذا نزل عيسىٰ [ابن مريم][(٣)] عليه السلام في آخر الزَّمان فحَكَمَ بهذه الشَّريعة المطهَّرة في ذلك الوقت، مِن قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية -وهو تركها -فلا يقبل إلا الإسلام أو السَّيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدَّجَّال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أَخرِجي بركاتك. فيأكل من الرُّمَّانة الفِئَام[(٤)] من النَّاس، ويستظلون بقَحْفها[(٥)]، ويكفي لبن اللَّقحة الجماعةَ من النَّاس. وما ذاك إلا ببركة[(٦)] تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير؛ ولهذا ثبت في «الصحيح»: «**أَنَّ الفَاجِرَ إِذَا مَاتَ تَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**»[(٧)] .

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا محمَّد والحسين قالا: حدَّثنا عَوْف، عن أبي قحذم قال: وجد [رجل][(٨)] في زمان زياد -أو: ابن زياد- صرَّةً فيها حَبٌّ؛ يعني: من بُرٍّ أمثال النَّوَىٰ، عليه مكتوب: هذا نبت في زمان [كان][(٩)] يعمل فيه بالعدل[(١٠)] .

وروىٰ مالك، عن زيد بن أسلم: أن المراد بالفساد هاهنا: الشرك. وفيه نظرٌ.

وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يبتليهم بنقصِ الأموال والأنفسِ والثَّمرات، اختبارًا منه ومجازاةً علىٰ صنيعهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

---

(١) في (ز): «وكتب له».

(٢) حسَّنه الألباني: رواه ابن ماجة (٢٥٣٨)، وأحمد (٢/ ١٠٢)، ولم أقف عليه -بعد البحث- في «سنن أبي داود»، وفيه جرير بن يزيد: ضعيف، لكن أَوْرَدَ له الألبانِيُّ شواهد. انظر: «الصحيحة» (٢٣١).

(٣) ليست في (ز). (٤) أي: الجماعة. (٥) أي: بقشرها.

(٦) لوحة (٢٠١ ب). (٧) البخاري (٦٥١٢). (٨) سقط من (ز).

(٩) سقط من (ز). (١٠) رواه أحمد (٢/ ٢٩٦)، وفيه انقطاع بين أبي قحذم وواجد الصرة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من [قبلكم][(١)]، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: فانظروا ماذا حلَّ بهم مِن تكذيب الرُّسُل وكفر النِّعَم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا [عباده][(٢)] بالمبادرة إلىٰ الاستقامة في طاعتِه، والمبادرة إلىٰ الخيرات: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا رادَّ له، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، ففريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير؛ ولهذا قال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ[(٣)] ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: يجازيهم مجازاة الفضل: الحسنة بعشر أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ[(٤)] وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يذكر تعالىٰ نعَمه علىٰ خلقه في إرساله الرياح مبشِّراتٍ بين يَدَيْ رحمته بمجيء الغيث عقيبها؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: في البحر، وإنما سيَّرها بالريح، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: في التِّجارات والمعايش، والسير من إقليمٍ إلىٰ إقليم، وقطرٍ إلىٰ قطرٍ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكُرُونَ الله علىٰ ما أنعم به عليكم من النِّعَم الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ، التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَىٰ.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ هذه تسليةٌ مِن الله لعبدِهِ ورسولِهِ محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- بأنَّه وإن كذَّبه كثيرٌ من قومِهِ ومن

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) قال ابن جرير الطبري رحمه الله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يقول: فلأنفسهم يَستَعِدُّون، ويسوُّون المضجع ليسلموا مِن عقابِ ربِّهم، وينجوا من عذابه، كما قال الشاعر:

امْهدْ لنفسِكَ حانَ السُّقْمُ والتَّلَفُ ... وَلا تُضيعَنَّ نَفْسًا ما لها خَلَفُ

(٤) لوحة (٢٠٢ أ).

النَّاس، فقد كُذِّبت الرُّسل المتقدِّمُون[(١)] مع ما جاءوا أممهم به من الدَّلائل الواضحات، ولكن الله انتقم ممن كذَّبهم وخالَفَهُم، وأنجىٰ المؤمنين بهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هو حقٌّ أوجبَهُ علىٰ نفسه الكريمة، تكرمًا وتفضلًا، كقوله تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن نفيل، حدَّثنا موسىٰ بن أعين، عن ليث، عن شهر ابن حَوْشَب، عن أمِّ الدرداء، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ[(٣)] فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يبيِّن تعالىٰ كيف يَخلُقُ السَّحابَ التي ينزل منها الماءُ فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، إمَّا[(٤)] من البحر علىٰ ما ذكره غير واحدٍ، أو مما يشاء الله ﷻ. ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: يَمُدُّه فيكثِّرُهُ ويُنَمِّيه، ويجعل من القليل كثيرًا، ينشئ سحابةً فترىٰ في رأيِ العين مثل التُّرس، ثم يبسطها حتىٰ تملأ أرجاءَ الأُفُقِ. وتارةً يأتي السَّحاب من نحو البحر ثقالًا مملوءةً ماءً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:

---

(١) في (ز): «المتقدمين»، وهو خطأ.

(٢) حسن لغيره دون ذكر الآية: رواه ابن أبي حاتم (١٧٥١٣)، وأحمد (٦/ ٤٤٨)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٦٧)، وفيه ليث بن أبي سليم: لم تتميَّز أحاديثُهُ فتُرِكَ، وشهر بن حوشب: صدوقٌ كثيرُ الإرسالِ والأوهام، ورواه التِّرمذي (١٩٣١) وحسَّنه، وأحمد (٦/ ٤٥٠) من طريق أخرىٰ عن أمِّ الدَّرداء به، بدون ذكر الآية، وفي إسناده مرزوق أبو بكر التيمي: مجهول.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ إذا قال قائل: نحن لا نراهَا بأعيننا المجرَّدة، لا نرىٰ أن المَطَر يتخلَّل هذا السَّحاب وينزل، فيُقال: إنَّه خبرُ صدقٍ فيكون كالمشاهدة، ما دام الله تعالىٰ أخبر به فإنَّنا كأنَّما تشاهده أعيُننا، ثم إنَّه في الوقت الحاضر وجدت الآلات القويَّة التي يستطيع بها أن يرىٰ كيف تخرج هذه النقط من خلال السحاب.

(٤) لوحة (٢٠٢ ب).

٥٧]، وكذلك قال هاهنا: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ . قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر الوَرَّاق، وقتادة: يعني: قِطَعًا.

وقال غيرهم: متراكمًا، قاله الضَّحَّاك.

وقال غيره: أسودُ مِن كثرةِ الماءِ، تراه مدلهمًّا ثقيلًا قريبًا من الأرض.

وقوله ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ ، أي: فترىٰ المطر -وهو القطر- يخرج مِن بين ذلك السَّحاب، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصولِهِ إليهم.

وقوله: ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾، معنىٰ الكلام: أن هؤلاء القوم الَّذِين أصابهم هذا المطر كانوا أَزِلِين[١] قَنِطِينَ مِن نزولِ المَطَرِ إليهم قبل ذلك، فلمَّا جاءهم جاءهم علىٰ فاقةٍ، فوقع منهم موقعًا عظيمًا.

وقد اختلف النُّحاة في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ ، فقال ابن جرير: هو تأكيد. وحكاه عن بعض أهل العربية.

وقال آخرون: [وإن كانوا][٢] من قبل أن ينزل عليهم المطر، ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ -أي: الإنزال- ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾.

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنىٰ الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله -أيضًا- قد فاتَ عندهم نزوله وقتًا بعد وقتٍ، فترقبوه في إبانه فتأخر، فمضت مدةٌ فترقبوه فتأخَّر، ثم جاءهم بغتةً بعد الإِيَاس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرةً هامدةً أصبحت وقد اهتزَّت وربت، وأنبتت مِن كلِّ زوجٍ بهيجٍ؛ ولهذا قال: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ ، يعني: المطر، ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ .

ثم نبَّه بذلك علىٰ إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال[٣] :﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي: إنَّ الذي فعل ذلك لقادرٌ علىٰ إحياء الأموات،﴿وَهُوَ[٤] عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

ثم قال تعالىٰ:﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ ، يقول: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يابسةً علىٰ الزَّرع الذي زَرَعُوهُ ونبت وشبَّ واستوىٰ علىٰ سوقه فرأَوْهُ مصفرًا؛ أي: قد اصفرَّ وشرع في الفَسَادِ، لظلُّوا مِن بعده؛ أي: بعد هذا الحال يكفرون؛ أي: يجحدون ما تقدَّم [إليهم][٥] من النِّعم، كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا

---

(١) الأَزْل: الشدة. (٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٢٠٣ أ).

(٤) في (ز): ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (٥) ليست في (ز).

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ -٦٧].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن عيسىٰ بن الطباع، حدَّثنا هُشَيْم، عن يَعْلَىٰ بن عطاء، عن، أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: الرِّياح ثمانية، أربعةٌ منها رحمةٌ، وأربعةٌ عذابٌ، فأمَّا الرحمة: فالنَّاشرات والمبشِّرات والمرسَلَات والذَّارِيَات. وأمَّا العذاب: فالعَقِيم والصَّرصر -وهما في البرِّ-، والعاصف والقاصِف، وهما في البحر[1]. [فإذا شاء ﷻ حركه بحركة الرَّحمة فجعله رخاءً ورحمةً وبشرَىٰ بين يدي رَحْمَتِه، ولاقحًا للسَّحاب تلقحه بحمله الماء، كما يلقح الذَّكَرُ الأنثىٰ بالحملِ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا، وأودعه عذابًا أليمًا، وجعله نقمةً علىٰ من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمرُّ عليه، والرِّياح مختلفة في مهابها: صبًا ودَبُور، وجنوب وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريحٌ لَيِّنَةٌ رطبةٌ تغذِّي النبات وأبدان الحيوان، وأخرىٰ تجففه، وأخرىٰ تهلكه وتعطبه، وأخرىٰ تسيره وتصلبه، وأخرىٰ توهنه وتضعفه][2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عُبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدَّثنا عمي، حدَّثنا عبد الله بن عَيَّاش، حدَّثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسىٰ بن هلال الصدَفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّيحُ مُسَخَّرَةٌ[3] مِنَ الثَّانِيَةِ -يعني: الأرض الثانية- فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُهْلِكَ عَادًا، أَمَرَ خَازِنَ الرِّيحِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا تُهْلِكُ عَادًا، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُرْسِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ قَدْرَ مِنْخَرِ الثَّوْرِ. قَالَ لَهُ الجَبَّارُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: لَا، إِذًا تَكْفَأُ الأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَرْسِلْ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ خَاتَمٍ». فهي التي قال الله في كتابه: [﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾][4] [الذاريات: ٤٢][5]. هذا حديثٌ غريبٌ، ورفعه منكرٌ. والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو ﷺ[6].

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: كما أنَّك ليس في قُدْرَتِكَ أن تُسْمِع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامَك الصُّمَّ

(١) لم أقف عليه في المطبوع من تفسير «ابن أبي حاتم»، ورجال إسناده ثقات عدا عطاء والد يعلىٰ، وهو العامري الطائفي: ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال أبو الحسن بن القطان: «مجهول الحال» ما روىٰ عنه غير ابنه يعلىٰ. وتبعه الذهبي علىٰ ذلك.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في (ز)، وزادته بعض النسخ.

(٣) في (ز): «الريح تسخر»، والمثبت كما في ابن أبي حاتم. (٤) بياض في (ز).

(٥) منكر: في إسناده عبد الله بن سليمان الطَّويل: صدوق يُخطِئ، وعبد الله بن عيَّاش: صدوقٌ يَغْلَطُ، ورواه ابن أبي حاتم (١٨٦٦٥)، والحاكم (٤/ ٦٣٦) وصحَّحه، وعارضه الذَّهَبِي فقال: بل منكر.

(٦) ومن المشهور عنه ﷺ أن يحدث بالإسرائيليات.

الذين لا يسمعون -وهم مع ذلك مُدْبِرُون عنك- كذلك لا تقدر علىٰ هداية العميان عن الحقِّ، وردهم عن ضلالتهم[١]، بل ذلك إلىٰ الله تعالىٰ، فإنَّه بقُدْرَته يُسمع الأموات[٢] أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي مَنْ يشاء، ويُضِلُّ مَنْ يشاء، وليس ذلك لأحدٍ سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعونَ، فأولئك هم الذين يستمعون الحقَّ ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأوَّل مَثَلُ الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦].

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة ﵂ بهذه الآية: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، علىٰ توهيم عبد الله بن عمر[٣] في روايته مخاطبة النَّبيِّ ﷺ القتلىٰ الذين ألقوا في القَلِيب -قَلِيب بدر- بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتىٰ قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جَيَّفُوا[٤]؟ فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لا يُجِيبُونَ**»[٥]. وتأولته عائشة علىٰ أنَّه قال: «**إِنَّهُمْ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ**». وقال قتادة: أحياهم الله له حتىٰ سمعوا مقالته تقريعًا وتوبيخًا ونقمةً[٦].

والصَّحيح عند العلماء رواية ابن عمر، لما لها من الشَّواهد علىٰ صحتها من وجوهٍ[٧] كثيرةٍ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححًا له عن ابن عبَّاسٍ مرفوعًا: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ المُسْلِمِ، كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ، إِلَّا رَدَّ [اللهُ][٨] عَلَيْهِ رُوحَهُ، حَتَّىٰ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**[٩]»[١٠].

[وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه، وقد شرع النَّبيُّ ﷺ لأُمَّته إذا سلَّموا علىٰ أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**»، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم

---

(١) لوحة (٢٠٣ ب).
(٢) في (ز): «يسمع الأصوات».
(٣) ولها ﵂ تعقبات واستدراكات علىٰ بعض الصحابة ﵃ في بعض القضايا والمسائل، وقد جمع الكثير منها البدر الزركشي -وهو تلميذ المؤلف- رحمهما الله- في جزء أسماه: «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة علىٰ الصحابة»، طبع عدة طبعات، منها طبعة بمكتب الشيخ زهير الشاويش ﵀، وللسيوطي ﵀: «عين الإصابة في استدراك عائشة علىٰ الصحابة» مطبوع كذلك.
(٤) أي: أنتنوا وصاروا جيفة.
(٥) البخاري (٣٩٧٩)، ومسلم (٩٣٢)، وأحمد (٦/ ٢٧٦).
(٦) ينظر في ذلك «التذكرة» للقرطبي، و«الفتاوىٰ» لابن تيمية (٢٤/ ٣٦٢)، و«الروح» لابن القيم، و«الآيات البينات» للآلوسي.
(٧) في (ز): «من وجه».
(٨) سقط من (ز)، والصَّواب إثباتها.
(٩) قال في ط. «الشعب»: «وقع بعد هذا الحديث في الطَّبعات السَّابقة زيادات عن النُّسخة المكيَّة وهي أحاديث من رواية ابن أبي الدُّنيا في كتابه «القبور» وأوردنا هذه الزِّيادة بين المعقوفتين، وهي ليست في (ز)، وتابعنا «الشعب» في إثباتها.
(١٠) **ضعيف جدًّا**: أخرجه تمام في «فوائده» (١٣٩)، والخطيب (٦/ ١٣٧)، وابن عساكر (٧/ ٣٨٠)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٢/ ٥٩٠)، وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضعيف، ومنهم من تركه؛ ولذا ساق الذَّهبي حديثه هذا في جملةٍ ما أنكر عليه، وقد صحَّحه بعض العلماء منهم أبو بكر الإشبيلي في «أحكامه» (١/ ٨٠)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٤١٩)، وسكت عنه المؤلف، وأشار إلىٰ تصحيح ابن عبد البر له في «الاستذكار» (١/ ١٨٥)، قلت: وضعَّفه آخرون -وهو الرَّاجح- منهم: ابن الجوزي، والذَّهبي وابن رجب في «أهوال القبور» (٢/ ٨٣)، والألباني في «ضعيف الجامع» (٥٢٠٨).

والجماد، والسَّلف مُجْمِعُون علىٰ هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأنَّ الميت يعرف بزيارة الحيِّ له ويَسْتَبْشِر، فروىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب «القبور» عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ، إِلَّا اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَقُومَ»(١) .

وروي عن أبي هريرة ﵁ قال: إذا مر رجلٌ بقبرٍ يعرفه فسلَّم عليه رَدَّ عليه السَّلام(٢) .

وروىٰ ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجَحْدَرِي قال: رأيت عاصمًا الجحدري في منامي بعد موته بسنتين، فقلت: أليس قد متَّ؟ قال: بلىٰ، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا -والله- في روضةٍ مِن رياض الجنَّة، أنا ونفرٌ مِن أصحابي نجتمع كلَّ ليلة جمعةٍ وصبيحتها إلىٰ بكر بن عبد الله المُزَنِي، فنتلقىٰ أخبارَكُم. قال: قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! قد بَلِيَت الأجسام، وإنَّما تتلاقىٰ الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إيَّاكم؟ قال: نعلم بها عَشِيَّة الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السَّبت إلىٰ طلوع الشمس، قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته(٣) .

قال: وحدَّثنا محمَّد بن الحسين، ثنا بكر بن محمَّد، ثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمَّد بن واسع في كل غداة سبت حتىٰ نأتي أهل الجبَّان، فنقف علىٰ القبور فنسلم عليهم، وندعو لهم ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين؟ قال: بلغني أنَّ الموتىٰ يعلمون بزُوَّارِهم يوم الجُمُعَة ويومًا قبلها ويومًا بعدها(٤) . قال: ثنا محمَّد، ثنا عبد العزيز بن أبان قال: ثنا سفيان الثوري قال: بلغني عن الضَّحَّاك أنه قال: من زار قبرًا يوم السَّبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة(٥) .

حدَّثنا خالد بن خِدَاش، ثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التَّيَّاح يقول: كان مُطَرِّفٌ يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أدلج. قال: وسمعت أبا التَّيَّاح يقول: بلغنا أنه كان ينزل بغوطةٍ، فأقبل ليلةً حتىٰ إذا كان عند المقابر يقوم وهو علىٰ فرسه، فرأىٰ أهل القبور كل صاحب قبرٍ جالسًا علىٰ قبرِهِ، فقالوا: هذا

---

(١) **ضعيف جدًّا:** رواه ابن أبي الدُّنيا في «القبور» (١/ ٦٤٧)، وفي سنده يحيىٰ بن يمان: صدوقٌ يُخطِئ كثيرًا وقد تغيَّر، وفيه عبد الله بن زياد بن سليمان، قال ابن حجر: متروك، اتَّهمه أبو داود وغيره بالوضع.

(٢) **ضعيف:** رواه ابن أبي الدنيا في «القبور» (١/ ٦٤٧)، وفيه محمَّد بن قدامة الجوهري: لين الحديث، وهشام بن سعد المدني: صدوق له أوهام وكان متشيعًا، ضعَّفه يحيىٰ بن معينٍ والنَّسائي.

(٣) **ضعيف:** رواه ابن أبي الدنيا في «القبور» (١/ ٦٤٨)، وفي سنده رجلٌ مبهمٌ، وفيه يحيىٰ بن بسطام قال فيه أبو حاتم: صدوق، لكن قال ابن حبان: لا تحلُّ الرِّواية عنه؛ لأنَّه داعيةٌ إلىٰ القدر؛ ولأنَّ في روايته مناكير، وقال أبو داود: تركوا حديثه، قلت: ومع هذا فلا يَصِحُّ الاستدلال بهذا الخبر؛ لأنَّه رؤيا، والأحكام إنَّما تثبت بالكتاب والسنة.

(٤) **ضعيف:** رواه ابن أبي الدنيا في «القبور» (١/ ٦٤٩)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٨٦٢)، والإسناد بلاغ لم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وفيه بكر بن محمَّد بن فرقد، قال الدارقطني: ليس بالقوي، وحسن القصاب: ضعيف.

(٥) **ضعيف جدًّا:** رواه ابن أبي الدنيا في «القبور» (١/ ٦٤٩)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٨٨٦٣)، وفيه عبد العزيز ابن أبان: متروك.

مطرِّفٌ يأتي الجمعة، ويُصَلُّون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير. قلت: وما يقولون؟ قال: يقولون: سلامٌ عليكم (١).

حدَّثني محمَّد بن الحسن، ثنا يحيىٰ بن أبي بكر، ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال: لمَّا مات أبي جزعت عليه جزعًا شديدًا، فكنت آتِي قبرهُ في كلِّ يومٍ، ثم قصَّرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إنِّي أتيتُهُ يومًا، فبينا أنا جالسٌ عند القبر غلبتني عيناي فنمتُ، فرأيت كأنَّ قبر أبِي قد انفرج، وكأنَّه قاعد في قبرِهِ متوشِّح أكفانه، عليه سِحْنَة الموتىٰ، قال: فكأنِّي بكيت لما رأيته. قال: يا بنيَّ، ما أبطأ بك عنِّي؟ قلت: وإنَّك لتعلم بمجِيئي؟ قال: ما جئتَ مرَّة إلا علمتها، وقد كنت تَأْتِينِي فأُسَرُّ بك ويُسَرُّ مَن حولي بدُعَائِك، قال: فكنت آتِيهِ بعد ذلك كثيرًا (٢).

حدَّثني محمَّد، حدَّثنا يحيىٰ بن بسْطام، ثنا عثمان بن سُوَيْد الطُّفَاوي قال -وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة-: لما احتضرت رَفَعَتْ رأسَهَا إلىٰ السَّماء فقالت: يا ذخري وذَخِيرَتي، مَن عليه اعتمادي في حياتي وبعد مَوْتِي، لا تخذلني عند الموت ولا توحشني. قال: فمَاتَتْ. فكنت آتيها في كل جمعةٍ فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمي، كيف أنت؟ قالت: أَيْ بُنَيَّ، إن للموت لكربةً شديدةً، وإني بحمد الله لفي برزخ محمود يفرش فيه الريحان، ونتوسد السندس والإستبرق إلىٰ يوم النُّشور، فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع مِن زياراتنا والدعاء لنا، فإنِّي لأُبَشَّر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلِكَ، يقال لي: يا راهبة، هذا ابنك قد أقبل، فأُسَرُّ ويُسَرُّ بذلك مَنْ حولي من الأموات.

حدَّثني محمَّد، حدَّثنا محمَّد بن عبد العزيز بن سليمان، حدَّثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمن الطَّاعون كان رجلٌ يَخْتَلِفُ إلىٰ الجبَّان، فيشهد الصَّلاة علىٰ الجنائز، فإذا أمسىٰ وقف علىٰ المقابر فقال: آنس الله وحشتكم، ورَحِم غُرْبَتَكُمْ، وتجاوز عن مسيئكم، وقبل حسناتكم، لا يزيد علىٰ هؤلاء الكلمات، قال: فَأَمْسَيْت ذاتَ ليلةٍ وانصرفت إلىٰ أَهْلِي ولم آتِ المقَابِرَ فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينا أنا نائمٌ إذَا بخلقٍ قد جاءُونِي، فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقَابِر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنَّك عوَّدْتَنا منك هديةً عند انصرَافِكَ إلىٰ أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدَّعوات التي كنت تدعو بها، قال: قلت فإنِّي أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد.

وأبلغ مِن ذلك: أن الميت يعلم بعمل الحيِّ مِن أقاربِهِ وإخوانِهِ. قال عبد الله بن المبارك: حدَّثني ثور بن يزيد، عن إبراهيم، عن أيوب قال: تعرض أعمال الأحياء علىٰ الموتىٰ، فإذا رأوا

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن أبي الدنيا في «القبور» (١/ ٦٤٩)، وعبدالله ابن الإمام أحمد في «الزهد» (ص٢٤٦)، وأبو نعيم (٢/ ٢٠٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨٨٦٤)، وفيه خالد بن خِداش: صدوق يخطئ، وهو منام ورؤيا لا يكون مستندًا للأحكام الشرعية.

(٢) هذه كلها رؤىٰ ومنامات لا يَسْتَنِدُ بها علىٰ حكمٍ شرعيٍّ.

حسنًا فرحوا واستبشروا، وإن رأوا سوءًا قالوا: اللَّهمَّ راجع به[١].

وذكر ابن أبي الدنيا، عن أحمد بن أبي الحواري قال: ثنا محمَّد أخي قال: دخل عباد بن عباد علىٰ إبراهيم بن صالح وهو علىٰ فلسطين فقال: عِظني، قال: بِمَ أعظك -أصلحك الله-؟ بلغني أنَّ أعمال الأحياء تعرض علىٰ أقاربهم من الموتىٰ، فانظر ما يعرض علىٰ رسول الله ﷺ مِن عَمَلِك، فبكىٰ إبراهيم حتىٰ أخضل لحيته. قال ابن أبي الدنيا: وحدَّثني محمَّد بن الحسين، ثنا خالد بن عمرو الأموي، ثنا صدقة بن سليمان الجعفري قال: كانت لي شِرَّةٌ سَمِجَةٌ، فمَاتَ أبي فتُبْتُ ونَدِمْتُ علىٰ ما فرطت، ثم زللت أيَّما زلَّة، فرأيت أبي في المنام، فقال: أي بني، ما كان أشد فرحي بكَ وأعمالك تعرض علينا، فنشبهها بأعمالِ الصَّالحين، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياءً شديدًا، فلا تُخْزِني فِيمَنْ حولي مِن الأموات، قال: فكنت أسمعه بعد ذلك يقول في دعائِهِ في السحر -وكان جارًا لي بالكوفة-: أسألك إيابَة لا رجعة فيها ولا حور، يا مُصْلِح الصَّالحين، ويا هادي المضلين، ويا أرحم الراحمين.

وهذا بابٌ فيه آثارٌ كثيرةٌ عن الصحابة. وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللَّهمَّ إني أعوذ بك من عمل أخزىٰ به عند عبدِ الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله.

وقد شرع السَّلام علىٰ الموتىٰ، والسَّلام علىٰ مَنْ لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علَّم النَّبيُّ ﷺ أمَّته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، يَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ»[٢]، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجودٍ يسمع ويُخَاطبُ ويعقلُ ويَرُدُّ، وإن لم يسمع المسلم الرَّدَّ، والله أعلم][٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) لم أقف علىٰ تخريجه، وهو موقوفٌ علىٰ أيُّوب لم يسنده، ولكن ورد الحديث بلفظ: «إِنَّ أَعْمَالَكُم تُعْرَضُ عَلَىٰ أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا بِهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا: اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُمْ حَتَّىٰ تَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَيْتَنَا». رواه الطبراني (٤/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم (١٨٨٠ - ١٠٠٦٨)، وأحمد (٣/ ١٦٤) من حديث أنس، وفي إسناده انقطاع وله شاهد من حديث أبي أيوب. رواه الطبراني في «الأوسط» (١٤٨) وفيه مسلمة بن علي الخشني: متروك؛ لهذا ضعفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٣٧)، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٤٣/١٤٩) عن أبي أيوب موقوفًا، وإسناده صحيح ومثله لا يقال بالرَّأي فهو في حكم المرفوع، وله شاهد آخر: رواه ابن المبارك في «زوائد الزهد» (٤٢/ ١٦٥)، وأبو داود في «الزهد» (٢٢٢) عن أبي الدَّرداء موقوفًا وإسناده حسن، وبالجملة فالحديث له أصل وهذه المرويَّات يعضد بعضها بعضًا.

(٢) مسلم (٩٧٤)، والنسائي (٤/ ٩١)، وأحمد (٦/ ٢٢١).

(٣) ما بين المعقوفتين غير موجود في (ز)، وهو مستفاد من طبعة طيبة.

ينبِّه تعالىٰ علىٰ تنقُّلِ الإنسان في أطوار الخلق حالًا بعد حالٍ، فأصله مِن ترابٍ، ثم من نطفةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من مضغةٍ، ثم يصيرُ عظامًا، ثم يُكسَىٰ لحمًا ويُنفَخ فيه الرُّوح، ثم يَخْرُج مِن بطن أمِّه ضعيفًا نحيفًا واهن القُوَىٰ. ثم يشب قليلًا قليلًا حتىٰ يكون صغيرًا، ثم حَدَثًا، ثم مراهقًا، ثم شابًّا -وهي القوة بعد الضَّعف- ثم يشرع في النَّقص فيكتهل، ثم يَشِيخُ ثم يَهْرَم -وهو الضَّعف بعد القوَّة- فتضعف الهمَّة والحركة والبطش، وتَشِيب اللِّمَّة، وتتغير الصِّفات الظَّاهرة والباطنة[1] ؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويتصرَّف في عبيدِهِ بما يُريد، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، عن فضيل[2] ويزيد، حدَّثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي قال: قرأت علىٰ ابن عمر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا﴾، فقال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا﴾[3] ، ثم قال: قرأتُ علىٰ رسول الله ﷺ كما قرأت عليَّ، فأخذ عليَّ كما أخذتُ عليك[4] .

ورواه أبو داود والترمذي -وحَسَّنه- من حديث فضيل به. ورواه أبو داود من حديث عبد الله ابن جابر، عن عطية، عن أبي سعيدٍ، بنحوه.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾

يخبر تعالىٰ عن جهل الكفَّار في الدُّنيا والآخرة، ففي الدُّنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهلٌ عظيمٌ أيضًا، فمِنْهُ إقسامهم بالله أنَّهم ما لَبِثُوا في الدُّنيا إلا ساعةً واحدةً، ومقصودهم[5] بذلك عدم قيام الحجَّة عليهم، وأنَّهم لم يُنْظَروا حتىٰ يُعذَر إليهم. قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ﴾ ، أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة -كما أقاموا عليهم حُجَّة الله في الدُّنيا- فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعةٍ: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ، أي: في كتاب الأعمال، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ﴾ ، أي: مِن يوم خلقتم إلىٰ أن بعثتم ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ .

قال الله تعالىٰ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ ، أي: يوم القيامة، ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ ، أي: [لا

---

(١) لوحة (٢٠٤ أ). (٢) في (ز): «عن فضل»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) قرأ ﴿ضَعۡفٖ﴾ بفتح الضَّاد فأعادَها عليه ابن عمر بضَمِّها، وكلاهما وجهان لحفصٍ صَحِيحَان.

(٤) حسَّنه الألباني: رواه أحمد (٢/ ٥٨)، وأبو داود (٣٩٧٨)، والترمذي (٢٩٣٦) وحسنه، وانظر: «صحيح أبي داود».

(٥) في (ز): (ومقصودهم هم).

ينفعهم][(١)] اعتذارهم عما فعلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلىٰ الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[(٢)] [فصلت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا[(٣)] لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ[(٤)] الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا[(٥)] لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: قد بينا لهم الحق، ووضَّحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبيَّنوا الحقَّ ويتَّبعُوه. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾، أي: لو رأوا أي آيةٍ كانت -سواء كانت باقتراحهم أو غيره- لا يُؤمِنُون بها، ويعتقدون أنَّها سحْرٌ وباطلٌ، كما قالوا في انشقاق القَمَرِ ونحوه، كما قَالَ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: اصبر علىٰ مخالفتهم وعنادهم، فإنَّ الله تعالىٰ منجزٌ لك ما وعَدَكَ من نصرهِ إيَّاك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدُّنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، أي: بل اثبت علىٰ ما بعثكَ الله بِهِ، فإنَّه الحقُّ الَّذي [لا مِرْيَة فيه][(٦)]، ولا تعدِلُ عنه، وليس فيما سِوَاهُ هُدًىٰ يُتَّبع، بل الحقُّ كلُّه منحصرٌ فيه. قال سعيد، عن قتادة: نادىٰ رجلٌ من الخوارج عليًّا رضي الله عنه وهو في الصلاة -صلاة الغداة- فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فأنصت له [عليّ][(٧)] حتىٰ فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقد رواه ابن جرير من وجهٍ آخر فقال: حدَّثنا ابن وَكِيعٍ، حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، عن شَرِيك، عن عثمان بن أبي زُرْعَة، عن عليّ بن ربيعة قال: نادىٰ رجل من الخوارج عليًّا رضي الله عنه وهو في صلاة الفجر، فقال:

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (٢٠٤ ب).
(٣) في (ز): «ولقد صرفنا»- في الموضعين-، وهو خطأ.
(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: الاستخفاف: طلب خفَّة الشَّيء بفقدِ ثقله ورصانته فيغضب ويترك العمل، والَّذين لا يوقنون هم المُشرِكُون كالنَّضر بن الحارث وأبي جهل، والمراد بنفي اليقين عنهم: اليقين بالأمور البَدَهيَّات اليقينيَّة للنَّاس لكون الله تعالىٰ خلَقَ كلَّ شيءٍ، وربُّ كلِّ شيءٍ؛ وقدرته علىٰ كلِّ شيءٍ؛ إذ هذه يقينيَّاتٌ لدىٰ عامَّة النَّاس.
(٥) في (ز): «ولقد صرفنا»، وهو خطأ.
(٦) في (ز): «الذي أمر به».
(٧) سقط من (ز).

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فأجابه عليٌّ وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ[(١)]﴾[(٢)].

طريق أخرىٰ: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن الجَعْد، أخبرنا شريك، عن عمران ابن ظَبْيان، عن أبي تحيا قال: صلىٰ عليٌّ ﷺ صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فأجابه عليٌّ ﷺ وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[(٣)].

ما روي في فضل هذه السورة الشريفة، واستحباب قراءتها في الفجر

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيبًا -أبا روح- يحدِّث عن رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ صلَّىٰ بهم الصُّبح، فقرأ فيها «الرُّوم» فأُوهِم، فقال: «**إِنَّهُ يُلَبِّسُ عَلَيْنَا القُرْآنُ، فَإِنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لا يُحْسِنُونَ الوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الوُضُوءَ**»[(٤)].

وهذا إسنادٌ حسنٌ ومتنٌ حسنٌ، وفيه سرٌّ عجيبٌ[(٥)] ونبأٌ غريبٌ، وهو: أنَّه ﷺ تأثَّر بنقصان وُضوءِ مَنِ ائْتَمَّ به، فدلَّ ذلك أن صلاة المأموم متعلِّقةٌ[(٦)] بصلاة الإمام.

[آخر تفسير سورة «الروم»][(٧)].

---

(١) لوحة (٢٠٥ أ).

(٢) رواه الطبري (٢١/ ٥٩).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٧٥٢٠).

(٤) رواه أحمد (٣/ ٤٧١)، والنسائي (٢/ ١٥٦). ورجاله ثقات عدا عبد الملك بن عمير: ضعَّفه بعضهم، ووثَّقه بعضهم، وكان قد تغيَّر واختلط بآخره، وربما دلس، وتقدم الحكم علىٰ الحديث. انظر الآية (١٠٨) من تفسير سورة التوبة. والحديث حسَّنه الحافظ ابن كثير، وضعَّفه الألباني في «ضعيف النسائي».
واعلم أن ثبوت قِرَاءَتِه ﷺ لسورة الروم -دون ذكر النسيان- في صلاة الفجر صحيح. انظر: «صفة الصلاة» للألباني.

(٥) في (ز): «سر غريب».

(٦) في (ز): «معدوقة».

(٧) ليست في (ز).

سُورَةُ لُقْمَانَ

تفسير سورة لقمان، وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾

تقدَّم في أوَّل سورة «البقرة» عامَّة الكلام علىٰ ما يتعلَّق بصدر هذه السُّورة، وهو أنَّه تعالىٰ جعل هذا القُرآن هدًىٰ وشفاءً ورحمةً للمُحْسِنِين، وهم الَّذِين أحسنوا العمل في اتِّباع الشَّريعة، فأقاموا الصَّلاة المفروضة بحدُودِهَا وأوقَاتِهَا، وما يَتْبَعُهَا من نوافلَ راتبةٍ وغير راتبةٍ، وآتوا الزَّكاة المفروضة عليهم إلىٰ مستحقِّيهَا، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدَّار الآخرة، فرَغِبُوا إلىٰ الله في ثوابِ ذلك، لم يُرَاؤُوا به ولا أرادوا جزاءً من النَّاس ولا شكورًا، فَمَنْ فعل ذلك كذلك فهو من الَّذين قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[1] أي: [علىٰ][2] بصيرةٍ وبيِّنةٍ ومنهجٍ واضحٍ وجليٍّ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾

لما ذكر تعالىٰ حال السُّعَدَاء - وهم الَّذِين يهتدُونَ بكتاب الله ويَنْتَفِعُون بسمَاعِهِ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]- عطف بذكر حال الأشقِيَاء، الَّذِين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا علىٰ استماع المزامير والغناء بالألحَان وآلاتِ الطَّرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: هو -واللهِ- الغِنَاءُ[3].

---

(١) لوحة (٢٠٥ ب). (٢) سقط من (ز).

(٣) ووافقه علىٰ ذلك جمع من الصحابة ﷺ، وجمع من التابعين ومَن بعدهم، ومِن أهل العلم من حكىٰ الإجماع علىٰ =

قال ابن جرير: حدَّثني يونس [بن عبد الأعلىٰ][(١)]، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يزيد بن يونس، عن أبي صخر، عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء البكري، أنَّه سَمِعَ عبد الله ابن مسعود -وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾- فقال عبد الله: الغِنَاء، واللهِ الَّذِي لا إله إلا هو، يردِّدُها ثلاث مرات[(٢)].

حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا صفوان بن عيسىٰ، أخبرنا حُمَيْد الخراط، عن عمار، عن سعيد ابن جبير، عن أبي الصهباء: أنه سأل ابن مسعود عن قول الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾؟ قال: الغناء. وكذا قال ابن عبَّاس، وجابر، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، ومكحول، وعمرو ابن شعيب، وعلي بن بَذيمة[(٣)].

= حُرمة الغناء والمعازف كالأجري وابن رجب وغيرهما. ينظر: «نزهة الأسماع» لابن رجب (ص٢٥ و٧٩) - ط طيبة (٢/ ٤٤٤ ـ رسائل ابن رجب)، ط الفاروق، وقال ابن رجب: «ويوجب أيضًا سماع الملاهي: النفرة عن سماع القرآن، كما أشار إليه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعدم حضور القلب عند سماعه، وقلة الانتفاع بسماعه. ويوجب أيضًا: قلة التعظيم لحرمات الله، فلا يكاد المدمن لسماع الملاهي يشتد غضبه لمحارم الله إذا انتهكت.. ومفاسد الغناء كثيرة جدًّا. وفي الجملة: فسماع القرآن ينبت الإيمان في القلب.. وسماع الغناء ينبت النفاق..» «نزهة الأسماع» (ص٩٢) (٢/ ٤٧٤) ط الفاروق. وللمزيد ينظر: «تفسير القرطبي»: (١٣/ ١١٨)، و(١٦/ ٤٥٦) وما بعدها، و«إغاثة اللهفان»: (١/ ٢٢٤) وما بعدها، و«الكلام علىٰ مسألة السماع» كلاهما لابن القيم، و«السيف اليماني» للبولاقي الأزهري، و«تحريم آلات الطرب» للألباني، وغيرها كثير.

(١) سقط من (ز).

(٢) **صحيح**: رواه الحاكم (٣/ ٤١١)، والطَّبري (٢١/ ٦١)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٧٨)، وفي أبي الصهباء اختلاف في توثيقه وتضعيفه، لكن الأثر ثبت نحوه عن ابن عبَّاس وغيره. انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٤ -٥٠٥)، والأثر صحَّحه الحاكم ووَافَقَهُ الذَّهبي، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٦/ ١٠١٧).

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: فتفسير ابن مسعود وابن عبَّاس وغيرهما للهوِ الحديث بأنَّه الغناء لا يعني: أنَّه يمتنع أن يُراد بالآيةِ ما هو أعم، وعلىٰ هذا فنقول: الآيةُ تشملُ كلَّ لهوِ الحديث الذي لا نَفْعَ فيه من الغناء، ومنه أيضًا: مطالعةُ ما يُكتب في الصُّحف والمجلَّات من الكلام الهُراء الذي لا فائدة منه، فإنه في الحقيقة مضيعةٌ للوقت، وإذا كان يشدُّ الإنسان إلىٰ ما هو أعظم صار أشد، فعلىٰ كل حالٍ نقول: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: كلُّ حديثٍ لا فائدةَ منه، سواء كان ذلك يَجُرُّ إلىٰ مُحَرَّم أو لا يجرُّ إلىٰ مُحرَّم، لكن إن جَرَّ إلىٰ مُحَرَّم صار أعظم، ويوجد الآن: ما يُسمَّىٰ بالأناشيد الإسلاميَّة التي استولت علىٰ عقولِ كثيرٍ من النَّاس، حتىٰ صار كأنَّما يقرءون القرآنَ، دائمًا علىٰ لِسَانِه وعلىٰ قلبه، وهذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتاوىٰ» أنَّ ذلك ممَّا يُلهِي عن القُرآن والسُّنَّة، وحذَّر منه تحذيرًا كثيرًا.

وبعضُ النَّاس -أيضًا- في هذه القصائد يجعل معها دُفًّا، فيكون إلىٰ اللهو أقرب من الذِّكر، وبعضُ النَّاس يقول: أيُّها - هذه أو أم كلثوم-؟ تقول: أنت الآن مفروض عليكَ أن تفعل هذا أو هذا حتىٰ تقول: أنا مخيَّر بين الأمرَيْن فاختار أيسرهما؟ علىٰ أنَّ أم كلثوم قد يسمعها الإنسان وهو يشعر أنَّه مُذْنِبٌ فيحاول الإقلاع، لكن هذا يفعله علىٰ أنَّه متقرِّبٌ إلىٰ الله بذلك فيستمر عليه، وما هذا إلا نَظِير هؤلاء الذين يتحيَّلون علىٰ الرِّبا بالخِدَاع وبيع الخام والهِيل وما أشبهها، ويقولون: هذَا أحسنُ أو الرِّبا الَّذِي في البنوك؟ فنقول: ليس الإنسانُ مخيرًا بين هذا وهذا، والحمد لله توجد أشياء مباحة يتمكن من فعلها بدون أن يفعل هذه الأشياء التي تصدُّه عن القرآن والسُّنَّة.

وقال الحسن البصري: أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ في الغناء والمزامير (١).

وقال قتادة: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: والله لعلَّه لا ينفق فيه مالًا، ولكنْ شراؤه استحبابه، بحسب المرءِ مِن الضَّلَالَةِ أن يختارَ حديثَ الباطل علىٰ حديث الحق، وما يضر علىٰ ما ينفع.

وقيل: عنىٰ بقوله: ﴿يَشۡتَرِي (٢) لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: اشتراء المُغَنِّيَات من الجَوَارِي.

قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل الأحْمَسي، حدَّثنا وَكِيع، عن خَلاد الصفار، عن عُبَيْد الله بن زَحْر، عن علي ابن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا يَحِلُّ بَيْعُ المُغَنِّيَاتِ وَلَا شِرَاؤُهُنَّ، وَأَكْلُ أَثْمَانِهِنَّ حَرَامٌ، وَفِيهِنَّ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَيَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾**» (٣).

وهكذا رواه الترمذي وابن جرير، من حديث عُبَيد الله بن زحر بنحوه، ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ. وضعف علي بن يزيد المذكور.

قلتُ: علي، وشيخه، والراوي عنه، كلهم ضعفاء. والله أعلم.

وقال الضَّحَّاك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني: الشرك. وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ واختار ابن جرير أنَّه كلُّ كلام يَصُدُّ عن آيات الله واتِّباع سبيلِهِ.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّما يصنع هذا للتَّخالُفِ للإسلام وأهله.

وعلىٰ قراءة فتح الياء (٤) تكون اللام لام العاقبة، أو تعليلًا للأَمْرِ القدري؛ أي: قُيضوا (٥) لذلك ليكونوا كذلك.

وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزوًا، يستهزئ بها.

وقال قتادة: يعني: ويتخذ آيات الله هزوًا (٦). وقول مجاهد أولىٰ.

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٥٢٦)، وإسناده مرسل.

(٢) لوحة (٢٠٦ أ).

(٣) ضعيف: رواه الترمذي (١٢٨٢، ٣١٩٥)، وابن ماجة (٢١٦٨) وفيه عبيد الله بن زحر: صدوق يخطئ، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات، وعلي بن يزيد: ضعيف وكذلك شيخه.

(٤) متواترة: قَرَأَ (لِيَضِلَّ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَرُوَيْسٌ بِخُلْفٍ عَنْهُ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (لِيُضِلَّ).

(٥) في (ز): «أي: أفيضوا».

(٦) ليُعلم أن الاستهزاء بالدِّين أو شعائره، أو سبَّ الدِّين، أو سب الله أو الرسول، أو الاستهزاء بهما، أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة كفر وردة عن دين الله ﷻ، ولا يعذر فاعلهما بالجهل، وقد نص العلماء علىٰ كون هذه الأمور وغيرها من المكفرات. ينظر: «الإعلام بقواطع الإسلام» للهيتمي، و«شروح نواقض الإسلام»، و«نواقض الإيمان» لشيخنا/ آل عبد اللطيف. وفي كتب الفقه المذهبية وكذا كتب السنة يذكرون كتاب الحدود، ويذكرون فيه حد الردة، وينصون علىٰ هذه النواقض وغيرها، فلتراجع ليحذرها الحريص علىٰ دينه.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: كما استهانوا بآياتِ الله وسبيله، أهينوا يوم القِيَامَة في العذاب الدَّائم المستمِرِّ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: هذا المقبل علىٰ اللَّهو واللَّعب والطَّرَب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولَّىٰ عنها وأعرض وأدبرَ وتَصامَّ -وما به من صَمَم- كأنَّه ما يسمعُهَا؛ لأنَّه يتأذَّىٰ بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرَبَ له فيها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة يُؤْلِمُهُ، كما تألَّم بسماع كتاب الله وآياته!!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

هذا ذكر مآلِ الأبرَارِ مِن السُّعدَاء في الدَّار الآخرَة، الَّذين آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشَرِيعَةِ الله ﴿لَهُمْ [١] جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: يَتَنَعَّمُون فيها بأنواع الملاذِّ والمسارِّ، من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب والنِّساء، والنُّضرة والسَّماع الَّذي لم يخطر ببالِ أحدٍ، وهم في ذلك مُقِيمُون دائمًا فيها لا يَظْعَنُون، ولا يَبْغُون عنها حولًا.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي: هذا كائنٌ لا محالة؛ لأنَّه مِن وعد الله، والله لا يُخْلِفُ الميعادَ؛ لأنَّه الكريم المنَّان، الفعَّال لما يشاء، القادِرُ علىٰ كلِّ شيءٍ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ -الذي قد قهر كل شيءٍ، ودَانَ له كلُّ شيءٍ- ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، في أقوالِهِ وأفعالِهِ، الَّذي جعل القرآن هدًىٰ للمؤمنين، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

يبيِّن [سبحانه] بهذا[٢] قدرَتَهُ العظيمة علىٰ خلق السَّموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، قال الحسن وقتادة: ليس لها عُمُدٌ مرئيَّةٌ ولا غير مرئيَّة.

وقال ابن عبَّاس، وَعِكْرِمة، ومجاهد: لها عُمُدٌ لا تَرَوْنَها. وقد تقدَّم تقرير هذه المسألة في أوَّل سورة «الرعد» بما أغنىٰ عن إعادته.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ يعني: الجبال أرست الأرض وثقلتها؛ لئلَّا تضطرب بأهلها علىٰ وَجْهِ

---

(١) لوحة (٢٠٦ ب).

(٢) في (ز): «يبين بذا».

الماءِ؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي: لئلَّا تَمِيدَ بكم.

وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، أي: وذَرَأَ فيها مِن أصناف الحيَوانات ممَّا لا يعلم عدد أشكالِها وألوانِها إلا الَّذِي خلقها.

ولمَّا قرَّر أنَّه الخالق نبَّه علىٰ أنَّه الرازق بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، أي: من كلِّ زوج مِن النَّباتِ كريمٌ؛ أي: حسن المَنْظَرِ.

وقال الشَّعبي: والنَّاس -أيضًا- من نبات الأرض، فَمَنْ دخل الجنَّة فهو كريمٌ، ومَنْ دخل النَّار فهو لئيمٌ.

وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكره تعالىٰ -مِن خلق [1] السموات والأرض وما بينهما- صادرٌ عَن فعل الله وخلقه وتقديرِه، وحدَهُ لا شريك له في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: ممَّا تعبدون [وتدعون][2] من الأصنام والأنداد، ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يعني: المشركين بالله العابدِينَ معه غيره ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي: جهل وعمىٰ، ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: واضح ظاهر لا خفاء به.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

اختلف السَّلف في لقمان عليه السلام: هل كان نبيًّا، أو عبدًا صالحًا من غير نبوَّةٍ؟ علىٰ قولين، الأكثرون علىٰ الثاني[3][4].

وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا[5].

وقال قتادة، عن عبد الله بن الزبير، قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهىٰ إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيرًا أفطس من النُّوبة[6].

وقال يحيىٰ بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمانُ من سودان مصر، ذا مَشَافِر[7]، أعطاه الله الحكمة ومنعه النُّبوَّة[8].

---

(١) لوحة (٢٠٧ أ). (٢) سقط من (ز). (٣) ينظر: «فتح الباري»: (٦/ ٤٦٦).

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الصحيح: أنَّه ليس بنَبِيٍّ، وإنَّما رجلٌ حكيمٌ ذو أمرٍ رشيدٍ، أعطاه اللهُ هذه الحكمةَ، كما قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة:٢٦٩].

(٥) رواه الطبري (٢١/ ٦٧)، وزاد السُّيوطي عزوه في «الدُّرِّ المنثور» (٦/ ٥٠٩) إلىٰ ابن أبي شيبة في «الزهد»، وأحمد، وابن أبي الدنيا في «المملوكين»، وابن المنذر. وفي إسناده الأشعث بن سوار: ضعيف الحديث.

(٦) رواه ابن أبي حاتم (٧٥٢٩)، هكذا عزاه السيوطي إليه (٦/ ٥٠٩).

(٧) جمع مِشْفَر، وهي الشفة، يعني: أنه كان عظيم الشفتين.

(٨) رواه الطبري (٢١/ ٩٧)، وابن أبي حاتم (١٧٥٣٠)، عن سعيد بن المسيب.

وقال الأوزاعي: حدَّثني عبد الرحمن بن حَرْمَلة قال: جاء [رجل](١) أسود إلىٰ سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن مِن أجل أنَّك أسود، فإنه كان من أخير النَّاس ثلاثةٌ من السُّودان: بلال، ومهْجَع مولىٰ عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسودَ نوبيًّا ذا مشافِرَ(٢).

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا أبي، عن أبي الأشهب، عن خالد الرَّبعِيِّ قال: كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا، فقال له مولاه: اذبحْ لنا هذه الشَّاة. [فذبحها](٣) فقال: أَخْرِجْ أطيب مُضغَتَيْن فيها. فأخرج اللِّسان والقلب، فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح [لنا](٤) هذه الشَّاة. فذَبحَهَا، فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها. فأخرج اللِّسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما!! فقال لقمان: إنه ليس من شيءٍ أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا(٥).

وقال شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: كان لقمان عبدًا صالحًا، ولم يكن نبيًّا(٦).

وقال الأعمش(٧): قال مجاهد: كان لقمان عبدًا أسودَ عظيمَ الشَّفَتَيْن، مشقَّق القَدَمَيْنِ(٨).

وقال حَكَّام بن سَلْم، عن سعيد الزبيدي، عن مجاهد: كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًّا غليظ الشفتين، مُصَفَّحَ القدمين(٩)، قاضيًا علىٰ بَنِي إسرائيل(١٠).

وذكر غيره: أنه كان قاضيًا علىٰ بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام(١١).

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا الحكم، حدَّثنا عمرو بن قيس قال: كان لقمان عليه السلام عبدًا أسود غليظ الشَّفتين، مُصَفَّح القدمين، فأتاه رجلٌ وهو في مجلس أناسٍ يحدِّثُهُم، فقال له: ألستَ الَّذِي كنت ترعىٰ مَعِي الغنم في مكان كذا وكذا؟! قال: نعم. فقال: فما بَلَغ بك ما أرىٰ؟! قال: صِدْقُ الحديثِ، والصَّمتُ عمَّا لا يَعْنِينِي(١٢)(١٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا صفوان، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر(١٤) قال: إنَّ الله رَفَعَ لقمانَ الحكيمَ بحكمتِهِ، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه الطبري (٢٠/ ١٣٥ - شاكر).

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٥) رواه الطبري (٢١/ ٩٧)، وهو كسابقه يحتاج لثبوته إسناده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وفي الإسناد ابن وكيع: ضعيف.

(٦) رواه الطبري (٢١/ ٩٧)، وهو الصحيح، أنه ليس بنبيٍّ، وهو قول الجمهور كما قال القرطبي في «تفسيره»: (١٦/ ٤٦٨) - ط الرسالة..

(٧) لوحة (٢٠٧ب).

(٨) رواه الطبري (٢١/ ٩٧).

(٩) أي: عريضهما.

(١٠) رواه الطبري (٢١/ ٩٧).

(١١) رواه الطبري (٢١/ ٩٧). وهو كسابقه.

(١٢) في (ز): «عما لا يعني»، والمثبت من «الطبري».

(١٣) رواه ابن جرير (٢١/ ٩٨) وإسناده ضعيف.

(١٤) المثبت من (ز)، وهو الصواب، ووقع في بعض النسخ المطبوعة: «عبد الرحمن بن يزيد عن جابر»، وليس في الرواة =

[له][1]: ألستَ عبد بني فلان الذي كنت ترعىٰ بالأمْسِ؟! قال: بلىٰ. قال: فما بَلَغَ بكَ ما أرىٰ، قال: قَدَرُ الله، وأداء الأمانة، وصِدْقُ الحَدِيثِ، وتَرْكِي ما لا يعنيني.

فهذه الآثار منها ما هو مُصرَّح فيه بنفي كونه نبيًّا، ومنها ما هو مشعرٌ بذلك؛ [لأنَّ كونه][2] عبدًا قد مَسَّه الرِّق ينافي كونه نبيًّا؛ لأنَّ الرُّسل كَانَت تُبْعَث فِي أحسابِ قَومِهَا؛ ولهذا كان جمهور السَّلف علىٰ أنَّه لم يكن نبيًّا، وإنَّما ينقل كونه نبيًّا عن عكرمة -إن صحَّ السَّند إليه، فإنَّه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وَكِيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة قال: كان لقمان نبيًّا. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم[3].

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الله بن عياش القِتْباني، عن عُمَر مولىٰ غُفْرَة قال: وقف رجل علىٰ لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان، أنت عبدُ بني الحسحاس؟ قال: نعم. قال: أنت راعي الغَنَم؟ قال: نعم. قال: أنت الأسود؟ قال: أما سَوَادِي فظاهر، فما الذي يعجبك من أمرِي؟ قال: وَطءُ النَّاس بسَاطك، وغَشْيُهم بابك، ورضاهم بقولك!! قال: يا ابن أخي، إن صَغَيتَ إلىٰ ما أقول لك كنتَ كذلك. قال لقمان: غَضِّي[4] بَصَرِي، وكَفِّي لساني[5]، وعِفَّة طُعْمَتِي، وحِفْظِي فَرْجِي، وقَوْلِي بصدقٍ[6]، ووَفَائِي بعَهْدِي، وتكرِمَتِي ضيفي، وحِفْظِي جَارِي، وتَرْكِي ما لا يَعْنِينِي، فذاك الَّذِي صيَّرَنِي إلىٰ ما ترىٰ[7].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن نُفَيل[8]، حدَّثنا عمرو بن واقد، عن عَبْدَةَ بن رَبَاح، عن ربيعة، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال يومًا -وذُكرَ لقمان الحكيم- فقال: ما أُوتِيَ ما أُوتِي عن أهلٍ ولا مالٍ، ولا حسبٍ ولا خصالٍ، ولكنَّه كان رجلًا [صَمْصَامة[9]][10] سِكِّيتًا، طويل التَّفكُّر، عميقَ النَّظر، لم يَنَمْ نهارًا قطُّ، ولم يره أحدٌ قط يَبْزُق ولا يَتَنَخَّع[11]، ولا يبولُ ولا يتغَوَّطُ ولا

= عن «جابر رضي الله عنه» من يُسمَّىٰ بـ«عبد الرحمن بن يزيد»، وإنَّما عبد الرحمن المذكور في هذا الإسناد هو عبد الرَّحمن بن يزيد بن جابر الأَزْدِي أبو عتبة الدَّاراني وهو ثقة، أخرج له الجماعة، وقال ابن المديني: يُعَد في الطَّبقة الثَّانية مِن فقهاء الشَّام بعد الصَّحابة، وممَّا يؤكِّد صحَّة ما ذكرنا أنَّ في الرُّواة عنه: الوليد بن مسلم، والوليد بن مزيد البيروتي.

(١) سقط من (ز).

(٢) في (ز): «لكونه».

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٢١/ ٩٨)، وابن أبي حاتم (١٧٥٣٥)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف الحديث.

(٤) لوحة (٢٠٨ أ).

(٥) في (ز): «وكفىٰ إساءتي».

(٦) في (ز): «وقواي بصدقي».

(٧) رواه الطبري (٢١/ ٩٨) وإسناده مرسل.

(٨) في (ز): «ابن فضيل»، والمثبت هو الصواب.

(٩) أي: مصمم، وقيل: هو الشديد الصلب.

(١٠) سقط من (ز) وصمصامة، أي: مصمم، وقيل: هو الشديد الصلب.

(١١) تنخع الرَّجل: رمىٰ بنخاعته، وهي البزقة التي تخرج من أصل الفَمِ ممَّا يَلِي أصل النُّخاع.

يغتسل، ولا يَعْبَث ولا يَضْحَك، وكان لا يعيد منطقًا نطقه إلَّا أن يقولَ حكمةً يستعيدها إيَّاه أحد، وكان قد تزوَّج وولد له أولاد، فماتوا فلَمْ يَبْكِ عليهم. وكان يغشىٰ السُّلطان، ويأتي الحكَّام؛ لينظر ويتفكَّر ويعتبر،فبذلك أُوتي ما أُوتي (١).

وقد ورد أثرٌ غريبٌ عن قتادة، رواه ابن أبي حاتم، فقال:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا العبَّاس بن الوليد، حدَّثنا زيد بن يحيىٰ بن عبيد الخزاعي، حدَّثنا سعيد بن بشير، عن قتادة قال: خَيَّرَ الله لقمان الحكيم بين النُّبوَّة والحكمة، فاختار الحكمة علىٰ النُّبوَّة. قال: فأتاه جبريل وهو نائمٌ فَذرَّ عليه الحكمة -قال: أو رَشَّ (٢) عليه الحكمة- قال: فأَصْبَحَ ينطِقُ بها.

قال سعيد: فسَمِعْتُ عن قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة علىٰ النُّبوَّة وقد خَيَّرَك ربُّك؟ فقال: إنَّه لو أرسل إليَّ بالنُّبوَّة عَزْمَةً (٣) لرجوت فيه الفوزَ منه، ولكنت أرجو أن أَقُومَ بها، ولكنَّه خَيَّرني فخِفْتُ أن أَضْعُفَ عن النُّبوَّة، فكانت الحكمةُ أحبُّ إليَّ (٤).

فهذا مِن رواية سعيد بن بشير، وفيه ضعف قد تكلَّموا فيه بسببه، فالله أعلم.

والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقهَ في الإِسْلَام، ولم يكن نبيًّا، ولم يُوحَ إليه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعِلْم والتَّعبير، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر الله عَجَّلَ علىٰ ما أتاه الله ومنحه ووَهَبَه من الفضل (٥)، الذي خصَّه به عمَّن سِوَاه مِن أبناءِ جِنْسِه وأهل زَمانِه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنَّما يعود نَفْعُ ذلك وثوابه علىٰ الشَّاكرين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غَنِيٌّ عن العِباد، لا يتضرَّرُ بذلك، ولو كفرَ أهل الأرض كلُّهم جميعًا، فإنَّه الغني عمَّا سواه؛ فلا إلَهَ إلَّا اللهُ، ولا نعبد إلا إيَّاه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) ضعيف جدًّا: في إسناده عمرو بن واقد: متروك، رواه ابن أبي حاتم (١٧٥٣٧).
(٢) في (ز): «أورش قال».
(٣) يقال: عزمت عليك؛ أي: أمرتك أمرًا جادًّا، وهي العزمة.
(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٧٥٣٣)، وإسناده مرسل، وسعيد بن بشير فيه: ضعف.
(٥) لوحة (٢٠٨ ب).

يقول تعالىٰ مخبراً عن وَصِيَّة لقمان لولده - وهو: لقمان بن عنقاء بن سدون- واسم ابنه: ثاران في قول حكاه السهيلي. وقد ذكره الله تعالىٰ بأحسن الذِّكر، فإنَّه آتاه الحِكْمَة، وهو يوصِي ولَدَهُ الذي هو أشفق النَّاس عليه وأحبُّهم إليه، فهو حقيقٌ أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولًا بأَن يعبُدَ الله وحدَهُ ولا يُشْرِك به شيئًا، ثم قال محذِّرًا له: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم.

قال البخاري: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يَلْبِس إيمانَهُ بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَىٰ قَوْلِ لُقْمَانَ:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»، ورواه مسلم من حديث الأعمش به[(١)].

ثم قَرَنَ بوصيته إيَّاه بعبادة الله وحده البر بالوالدين. كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وكثيرًا ما يقرن تعالىٰ بين ذلك في القرآن.

وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾. قال مجاهد: مشقة وَهْن الولد.

وقال[(٢)] قتادة: جهدًا علىٰ جهد. وقال عطاء الخراساني: ضعفًا علىٰ ضعف.

وقوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وَضْعِهِ في عامين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ومِن هاهنا استنبطَ ابنُ عبَّاسٍ وغيره من الأئمَّة أنَّ أقلَّ مدَّة الحمل ستَّة أشهرٍ؛ لأنَّه قال تعالىٰ في الآيَةِ الأخرىٰ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وإنَّما يذكر تعالىٰ تربيةَ الوالدةِ وتعبها ومشقَّتِهَا في سهرها ليلًا ونهارًا؛ ليُذكِّر الولد بإحسَانِهَا المتقدِّم إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: فإنِّي سأَجْزِيكَ علىٰ ذَلِكَ أوفر الجَزَاءِ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا عبد الله بن أبي شيبة، ومحمود بن غَيْلان قالا: حدَّثنا عبيد الله، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل، -وكان بعثه النَّبيُّ ﷺ- فقام فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: إنِّي رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تطيعوني لا آلُوكُم[(٣)] خيرًا، وأنَّ المصير إلىٰ اللهِ، وإلىٰ الجنَّة أو إلىٰ النَّار، إقامة فلا ظعنَ، وخلود فلا مَوْتَ[(٤)].

---

(١) البخاري (٣٢) وفي مواضع أخرىٰ من «صحيحه»، ومسلم (١٢٤).

(٢) لوحة (٢٠٩ أ). (٣) أي: لا أُقصِّر في بلوغ الخير إليكم.

(٤) **صحيح**: رواه ابن أبي حاتم، ورجاله ثقات عدا أبي إسحاق فهو مدلِّس وقد عنعن، ولكن للحديث طريق أخرىٰ، رواه ابن عساكر (١٦/ ٦٢١) وفيه جابر الجعفي: ضعيف، عن خالته، والأثر أورده الحافظ في «المطالب العالية» (٢٨٦٢)، وفي «إتحاف المهرة» (٥٨) وقال: إسناده صحيح.

وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن حرَصا عليك كل الحِرْصِ علىٰ أن تتابعهما علىٰ دِينِهِمَا، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعنَّك ذلك مِن أن تُصاحِبَهُما في الدُّنيا معروفًا؛ أي: محسنًا إليهما، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال الطَّبراني في «كتاب العشرة»: حدَّثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدَّثنا أحمد ابن أيوب بن راشد، حدَّثنا مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند، [عن أبي عثمان النهدي][1]: أن سعد بن مالك قال: أنزلت فيَّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، وقال: كنتُ رجلًا برًّا بأُمِّي، فلمَّا أسلَمْتُ قالت: يا سعدُ، ما هذا الذي أراكَ قد أَحدَثْتَ؟ لتدَعنَّ [2] دينَكَ هذا، أو لا آكُلُ ولا أشرب حتىٰ أَمُوت، فتُعيَّر بي، فيقال: «يا قَاتِلَ أُمِّه». فقلت: لا [3] تفعلي يا أُمَّه، فإنِّي لا أَدَعُ دِينِي هذا لشيءٍ. فمكثَتْ يومًا وليلةً لم تأكل، فأصبحَتْ قد جَهِدَت، فمكثَتْ يومًا آخرَ وليلةً أخرَىٰ لا تأكل، فأصْبَحَتْ قد اشتدَّ جَهْدُهَا، فلمَّا رأيت ذلك قلت: يا أُمَّه، تعلمينَ والله لو كانت لكِ مائة نفسٍ فخَرجتْ نَفْسًا نَفْسًا، ما تركتُ دِينِي هذا لشيءٍ، فإن شئتِ فكُلِي، وإن شئتِ لا تأكُلِي. فأكَلَتْ[4].

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ[5] إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

هذه وصايا نافعةٌ قد حكاها الله تعالىٰ عن لقمانَ الحكيم؛ ليَمْتَثِلَها النَّاس ويَقْتَدُوا بها، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إنَّ المظلمةَ أو الخَطِيئَةَ لو كانت مثقالَ حبَّةٍ مِن خردلٍ. وجوَّز بعضهم أن يكون الضَّمير في قوله: ﴿إِنَّهَآ﴾ ضمير الشَّأن والقصَّة. وجوَّز علىٰ هذا رفع ﴿مِثْقَال﴾ والأول أولىٰ.

وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القِيامَة حين يضع المَوَازِين القسط، وجازَىٰ عليها إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ. كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالىٰ:

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «لتعدن دينك». (٣) لوحة (٢٠٩ ب).

(٤) ورواه مسلم (١٧٤٨) مختصرًا، وأبو داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، وأحمد (١/ ١٨١).

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إمَّا أن تكون علىٰ سبيل المبالغة، أو يكون مثلًا في هذه الصَّخرة شيءٌ مِن غير جنسِهَا بقدرِ حبَّة الخردلِ فيُعْتَبر فيها، أو يُقال: إنَّ المراد أنَّ حبَّة الخردل قد تكون في شقٍّ مِن هذه الصَّخرة.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، ولو كانت تلك الذَّرَّة محصنةً محجبةً في داخل صخرةٍ صَمَّاءَ، أو غائبةً[١] ذاهبةً في أرجاءِ السَّموات أو الأرض فإن الله يأتي بها؛ لأنَّه لا تخفىٰ عليه خافيةٌ، ولا يَعْزُب عنه مثقالُ ذَرَّةٍ في السَّموات ولا في الأرض؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ أي: لطيف العِلْمِ، فلا تخفىٰ عليه الأشياء وإن دَقَّت ولَطُفَت وتَضاءَلَتْ، ﴿خَبِيرٞ﴾ بدبيب النَّمل في اللَّيل البهيم.

وقد زَعَم بعضُهُم أنَّ المراد بقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾؛ أنَّها صخرةٌ تحت الأَرَضِينَ السَّبع، ذكره السُّدِّي بإسناده ذلك المطروق[٢] عن ابن عبَّاس، وابن مسعود، وجماعة من الصَّحابة -إن صحَّ ذلك. ويروىٰ هذا عَن عَطِيَّة العوفي، وأبي مالك، والثَّوري، والمِنهال بن عمرو، وغيرهم. وهذا -والله أعلم- كأنَّه متلقَّىٰ من الإسرائيليات التي لا تصدَّق ولا تكذَّب، والظَّاهر -والله أعلم- أن المراد: أنَّ هذه الحبَّة في حقارَتِهَا لو كانت داخلَ صخرةٍ، فإنَّ الله سيُبْدِيهَا ويُظْهِرُها بلطيفِ علمِهِ، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لَهيعة، حدَّثنا دَراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ، لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلا كُوَّةٌ، لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ**»[٣].

ثم قال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودِهَا وفروضِهَا وأوقاتِهَا، ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ عَلِمَ أنَّ الآمِرَ بالمعروفِ والنَّاهِيَ عن المنكر، لا بد أن يَنالَه من النَّاس أذًىٰ، فأَمَرَهُ بالصَّبر.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر علىٰ أذىٰ النَّاسِ لَمِن عَزْمِ الأُمُورِ.

وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تُعرِضْ بوَجْهِكَ عن النَّاس إذا كلَّمْتَهُم أو كلَّمُوكَ، احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولكن أَلِنْ جانِبَكَ، وابسط وجهَكَ إليهم، كما جاءَ في الحديث: «**وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ المَخِيلَةِ**[٤]**، وَالمَخِيلَةُ لا يُحِبُّهَا اللهُ**»[٥].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحقِرَ

---

(١) في (ز): (أو عاتية).

(٢) لوحة (٢١٠ أ).

(٣) **ضعيف**: رواه أحمد (٣/ ٣٨)، والحاكم (٣٥٤) وصححه، وأبو يعلىٰ (١٣٧٨)، وابن حبان (٥٦٧٨)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، ودراج أبو السمح: ضعيف خاصَّة في روايته عن أبي الهيثم، وهذا منها، والحديث ضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (٧، ١٨) وضعَّفه شعيب الأرنؤوط في تعليقِهِ علىٰ «المسند».

(٤) تقدم الكلام علىٰ الإسبال وحكمه في تفسير سورة «آل عمران» وتفسير سورة «النمل» وغيرهما.

(٥) **صحيح**: رواه النَّسائي في «الكبرىٰ» (٩٦٩٦)، وأحمد (٥/ ٦٣)، ورواه أبو يعلىٰ، وابن حبان (٥٣٢)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٥/ ١٦٦/ ٢٤٨٢٢)، وابن الجعد في «مسنده» (٣١٠٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٨٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٣٥)، والطبراني (٧/ ٦٣).

عبادَ الله، وتعرض عنهم بوَجْهِكَ إذا كلَّمُوكَ. وكذا روىٰ العَوفِيُّ وعكرمة عنه.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: لا تكلَّم وأنت معرض. وكذا رُوي عن مجاهد، وعِكْرِمة، ويزيد بن الأصم، وأبي الجوزاء، وسعيد بن جُبَيْر، والضَّحَّاك، وابن زيد، وغيرهم.

وقال إبراهيم النَّخعِي: يعني بذلك: التَّشْدِيق(١) في الكلام.

والصَّواب: القول الأول.

قال ابن جرير: وأصل الصَّعَر: داءٌ يأخُذُ الإبلَ في أعناقِهَا أو رءوسهَا، حتىٰ تُلفَتَ أعناقُها عن رءوسهَا، فشبَّه به الرَّجل المتكبِّر(٢)، ومنه قول عَمْرُو بن حُني التَّغْلبي:

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا

وقال أبو طالب في شعره:

وَكُنَّا قَدِيمًا لا نُقِرُّ ظُلَامَةً ... إِذَا مَا ثَنَوْا صُعْرَ الرءوس نُقِيمُهَا

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: جذلًا متكبِّرًا جبَّارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يَبْغَضُكَ الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختالٌ معجبٌ في نفسِهِ، فخورٌ؛ أي: علىٰ غيرِهِ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقد تقدَّم الكلام علىٰ ذلك في موضعه.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الحضرمي، حدَّثنا محمَّد بن عمران ابن أبي ليلىٰ، حدَّثنا أبي، عن ابن أبي ليلىٰ، عن عيسىٰ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس قال: ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدَّد فيه، فقال: «إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ». فقال رجلٌ من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيُعجِبُنِي بياضُهَا، ويعجبني شِراك نعلي، وعِلاقة سَوْطي، فقال: «لَيْسَ ذَلِكَ الكِبْرُ، إِنَّمَا الكِبْرُ أَنْ تَسْفَهَ(٣) الحَقَّ وَتَغْمِطَ النَّاسَ»(٤).

ورواه من طريق أخرىٰ بمثله، وفيه قصةٌ طويلةٌ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته.

وقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش مشيًا مقتصدًا ليسَ بالبطيءِ(٥) المتثبِّط، ولا بالسَّرِيعِ المفرِطِ، بل عدلًا وسطًا بَيْنَ بَيْنَ.

وقوله: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، أي: لا تبالغ في الكلام، ولا تَرْفَع صوتَكَ فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا

---

(١) المتشدق: الذي يلوي شِدْقه -وهو جانب الفم- عندما يتكلَّم للتفصُّح، أو استهزاءً بالنَّاس.

(٢) لوحة (٢١٠ ب)، ووقع في (ز): (المنكر).

(٣) السَّفه: الخفَّة والطَّيش، وسفه الحق -من باب علم-: جَهِلَه.

(٤) رواه الطبراني (٢/ ٦٩/ ١٣١٧) وفيه محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلىٰ، قال الحافظ: صدوق سيِّئ الحفظ جدًّا، وله طريق أخرىٰ عند الطبراني (٢/ ٧٠/ ١٣٢٠) وفيها جهالة ابنة ثابت، وله شاهدٌ صحيحٌ بمعناه. رواه مسلم (٩١).

(٥) في (ز): «ليس بالبسيط».

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، قال مجاهد وغير واحدٍ: إن أقبح الأصوات لصوتُ الحمير؛ أي: غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشَبه بالحَمِير في علوِّهِ ورفعِهِ، ومع هذا هو بغيضٌ إلىٰ الله تعالىٰ. وهذا التَّشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذَمَّه غايةَ الذَّمِّ؛ لأنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ لَنا مَثَلُ السَّوْءِ، العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ»(١).

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية(٢): حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا الليث، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا»(٣).

وقد أخرجه بقيَّة الجماعة سوىٰ ابن ماجة، من طرق، عن جعفر بن ربيعة به، وفي بعض الألفاظ: «بِاللَّيْلِ»، فالله أعلم.

فهذه وصايا نافعةٌ جدًّا، وهي من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم. وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها أنموذجًا ودستورًا إلىٰ ذلك.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن إسحاق، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا سفيان، أخبرني نَهْشَل(٤) ابن مُجَمِّع الضبي، [عن قزعة](٥)، عن ابن عمر ﷺ قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لُقْمَانَ الحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ»(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا عيسىٰ بن يونس، عن الأوزاعي، عن موسىٰ ابن سليمان، عن القاسم [بن مُخَيْمِرة يحدِّث عن أبي موسىٰ الأشعري](٧)، أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَالتَّقَنُّعَ؛ فَإِنَّهُ مَخْوَفَةٌ بِاللَّيْلِ، مَذَلَّةٌ بِالنَّهَارِ»(٨).

وقال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمرو بن عثمان، عن ضَمْرَة، حدَّثنا السَّريُّ بن يحيىٰ قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إنَّ الحكمة أجلست المسَاكِين مجالسَ المُلُوك.

وقال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبدة بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدَّثنا عبد الرحمن المسعودي، عن عَوْن بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام -يعني السَّلام- ثم اجلس في ناحِيَتِهم، فلا تَنْطِق حتىٰ ترَاهُم قد نطقوا، فإن أفَاضُوا في ذِكْرِ الله فَأجِلْ(٩)

---

(١) البخاري (٢٦٢٢). (٢) لوحة (٢١١ أ).

(٣) البخاري (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩)، وأبو داود (٥١٠٢)، والترمذي (٣٤٥٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٧٩٩).

(٤) في (ز): «نهيل»، والمثبت هو الصواب. (٥) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٦) **حسن**: رواه أحمد (٢/ ٨٧)، وإسناده حسنٌ مِن أجل نَهْشَل فهو صدوق.

(٧) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٨) **ضعيف**: رواه الحاكم (٢/ ٤١١) وصحَّحه، وأقرَّه الذَّهبي، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٩٣)، وفيه موسىٰ بن سليمان القرشي، قال الحافظ: مقبول.

(٩) **أَجَالَ السهام بين القوم**: حَرَّكها وأَفْضَىٰ بها في القِسْمة، يريد: شارِكْهم وأَدْلِ بدَلْوِك معهم.

سَهْمكَ معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحَوَّلْ عنهم إلىٰ غيرهم (١).

وحدَّثنا أبي، حدَّثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدَّثنا ضمرة، عن حفص بن عمر ﷺ قال: وضع لقمان جرابًا مِن خَرْدَلٍ إلىٰ جانبه، وجعل يَعِظُ ابنَهُ وعظةً ويُخْرِجُ خردلَةً، حتىٰ نفد الخردل، فقال: يا بُنَيَّ، لقد وَعَظْتُكَ موعظةً لو وُعِظَها جبلٌ لتفطَّر. قال: فتفَطَّر ابنُهُ (٢)(٣).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الباقي (٤) المِصِّيصي، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني، حدَّثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي، حدَّثنا أبين (٥) بن سفيان المقدسي، عن خليفة بن سلام، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتَّخِذُوا السُّودَانَ؛ فَإِنَّ ثَلَاثَةً مِنْهُمْ مِنْ سَادَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ: لُقْمَانَ الحَكِيمِ، وَالنَّجَاشِيَّ، وَبِلَالَ المُؤَذِّنِ**».

قال أبو القاسم الطبراني: أراد: الحبش (٦).

فصل في الخمول والتَّواضع (٧)

وذلك متعلِّقٌ بوصيَّة لقمان ﷺ لابنِهِ، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتابًا مفردًا، ونحن نذكر منه مقاصده، قال: حدَّثنا إبراهيم بن المنذر، حدَّثنا عبد الله بن موسىٰ المدني، عن أسامة بن زيد، عن حفص بن عبيد (٨) الله بن أنس، عن جدِّه أنس بن مالك: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**رُبَّ أَشْعَثَ ذِي** (٩) **طِمْرَيْنِ** (١٠) **يُصْفَحُ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ، إِذَا أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ**» (١١).

ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان، عن ثابت وعلي بن زيد، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ فذكره، وزاد: منهم البراء بن مالك (١٢).

[ورُوي أيضًا عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**طُوبَىٰ لِلْأَتْقِيَاءِ الأَثْرِيَاءِ الَّذِينَ إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، وَإِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ مُجَرَّدُونَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ غَبْرَاءَ مَشِينَةٍ**»] (١٣)(١٤).

وقال أبو بكر بن سهل التميمي: حدَّثنا ابن أبي مريم، حدَّثنا نافع بن يزيد، عن عياش بن عبَّاس، عن

---

(١) **ضعيف**: وفيه المسعودي: اختلط بآخره، والإسناد مُرْسَلٌ لم يصله، وعزاه المصنِّف لابن أبي حاتم.

(٢) **التَّفطُّر**: التَّشقُّق، والمراد: أنَّ الموعِظَةَ قد بلغت مِن ابنِهِ مبلَغَهَا.

(٣) لم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ. (٤) لوحة (٢٠١ ب). (٥) في (ز): «أنس»، وهو خطأ.

(٦) **ضعيف جدًّا**: رواه الطبراني (١١/ ١٩٨)، وفيه أَبْيَن بن سفيان، قال ابن حبان: كان يقلب الأخبار، وأكثر روايته عن الضُّعفاء، وقال البخاري: لا يكتب حديثه، والحديث قال فيه الألباني في «الضعيفة» (٦٨٧): ضعيف جدًّا.

(٧) ينظر: «مكارم الأخلاق» للخرائطي، و«فتح الباري» (١١/ ٣٤١).

(٨) في (ز): «عبد الله»، والصواب ما أثبتناه. (٩) في (ز): «في طمرين».

(١٠) **الطِّمْر**: الثوب البالي، ويصفح: يمال ويجنب أن يقرب هذه الأبواب.

(١١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٨٥٤)، وللحديث شواهد منها: ما رواه مسلم (٢٠٢٤) و(٢١٩١) من حديث أبي هريرة.

(١٢) **صحيح**: انظر: «سنن الترمذي» (٣٨٥٤)، و«المختارة» للمقدسي (١٥٩٥)، والحاكم (٤/ ٣٦٤) وصححه.

(١٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (١٤) لم أقف علىٰ تخريجه.

عيسىٰ بن عبد الرحمن، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر ﷺ أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ، فقال له: ما يُبكيك يا معاذ؟ قال: حديثٌ سمعتُهُ من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «**إنَّ اليَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الأَثْرِيَاءَ**(١)**، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الهُدَىٰ، يَنْجُوْنَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ**»(٢).

حدَّثنا الوليد بن شجاع، حدَّثنا عَثَّام بن علي، عن حميد بن عطاء الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ، لَوْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ لأَعْطَاهُ الجَنَّةَ، وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا**»(٣).

وقال أيضًا: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله صلىٰ الله (٤)عليه وسلم: «**إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَىٰ بَابَ أَحَدِكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا أَوْ دِرْهَمًا أَوْ فِلْسًا لَمْ يُعْطِهِ، وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الجَنَّةَ لأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَلَوْ سَأَلَهُ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهَا -وَلَمْ يَمْنَعْهَا إِيَّاهُ لِهَوَانِهِ عَلَيْهِ- ذُو طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ**». وهذا مرسلٌ من هذا الوجه(٥).

وقال أيضًا: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدَّثنا عَوْف قال: قال أبو هريرة(٦): قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ مُلُوكِ الجَنَّةِ كُلَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذي**(٧) **طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَىٰ الأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ، وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يُنْكَحُوا، وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْصَتْ لَهُمْ، حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَجَلْجَلُ فِي صَدْرِهِ، لَوْ قُسِّمَ نُورُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْنَ النَّاسِ لَوَسِعَهُمْ**»(٨). قال: وأنشدني عُمر بن شَبَّةَ، عن ابن عائشة قال: قال عبد الله بن المبارك:

أَلا رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ فِي مَنْزِلٍ غَدًا ... زَرَابِيُّهُ مَبْثُوثَةٌ وَنَمَارِقُهْ
قَدِ اطَّرَدَتْ أَنْهَارُهُ حَوْلَ قَصْرِهِ ... وَأَشْرَقَ وَالْتَفَّتْ عَلَيْهِ حَدَائِقُهْ

وروىٰ أيضًا من حديث عُبيد الله بن زَحْر، عن علي بن يَزيد(٩)، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعًا:

---

(١) الأثرياء: الأغنياء.
(٢) **ضعيف جدًّا**: رواه ابن أبي الدُّنيا في «التَّواضع والخمول» (٨)، وابن ماجة (٣٩٨٩)، وفيه عيسىٰ بن عبد الرحمن الزرقي: متروك.
(٣) **ضعيف**: عدا الفقرة الأولىٰ: في إسناده حميد الأعرج: ضعيف، لكنَّ الفقرة الأُولَىٰ يشهد لها حديث أنس المتقدِّم.
(٤) لوحة (٢١٢ أ).
(٥) **مرسل**: رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (١).
(٦) في (ز): «قال أبو هريرة:/ قال قال:..».
(٧) في (ز): (ذو).
(٨) **رجاله ثقات**: لكنَّه مُنْقَطِعٌ فعوفٌ لم يسمع من أبي هريرة، لكن رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٨٧) من طريقِ عوفٍ، عن الحسن، عن أبي هريرة، وفي سَمَاعِ الحسن مِن أبي هريرةَ خلاف.
(٩) في: (ز): «زيد».

«قَالَ اللهُ: مِنْ أَغْبَطِ أَوْلِيَائِي عِنْدِي: مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ [١]، ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ، وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ، لا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ. إِنْ صَبرَ عَلَىٰ ذَلِكَ». قال: ثم نَقَر [٢] رسول الله بيده وقال: «عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ، وَقَلَّ تُرَاثُهُ، وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ» [٣].

وعن عبد الله بن عمرو قال: أحبُّ عبادِ الله إلىٰ اللهِ الغُرَبَاءُ. قيل: ومَن الغُرَبَاء؟ قال: الفَرَّارُون بدِينِهِم، يجمعون يوم القيامة إلىٰ عيسىٰ ابن مريم [٤].

وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالىٰ يقول للعَبْدِ يوم القيامة: ألم أُنْعِم عليك؟ ألم أُعْطِكَ؟ ألم أَسْتُرْك؟ ألم... ؟ ألم...؟ ألم أُخْمِلْ ذِكْرَك؟ ثم قال الفضيل: إنِ استطعتَ ألا تُعرَف فافعل، وما عليك ألا يُثنىٰ عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند النَّاس محمودًا عند الله [٥]؟

وكان ابن مُحَيْرِيز يقول: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ ذكرًا خاملًا [٦].

وكان الخليل بن أحمد يقول: اللَّهمَّ اجعَلْنِي عندك مِن أَرْفَعِ خلقك، واجعلني في نفسِي مِن أَوْضَعِ خلقك، وعند النَّاس مِن أوسطِ خَلْقِكَ [٧].

ثم قال [٨]:

باب ما جاء في الشهرة

حدَّثنا [٩] أحمد بن عيسىٰ المصري، حدَّثنا ابن وهب، عن عمر بن الحارث وابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سِنَان بن سعد، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ -إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ- أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَإِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [١٠].

---

(١) أي: خفيف الحال، الذي يكون قليل المال، وخفيف الظهر من العيال.

(٢) في (ز): (نفذ)، وفي الترمذي: (نقر)، أي: جعل يضرب الأنملة علىٰ الأنملة، أو علىٰ الأرض كالمتقلِّل من الشَّيء، وقيل: للتَّنبيه علىٰ أنَّ ما بعده ممَّا يهتم به.

(٣) ضعيف: رواه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٥/ ٢٥٢)، وفيه علي بن يزيد الألهاني: ضعيف.

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «التَّواضع والخمول» (١٦)، والآجري في «الغرباء»، وفي إسناده محمَّد بن مسلم الطائفي. قال الحافظ: صدوقٌ يُخطِئُ مِن حفظه، وشيخه عثمان بن عبد الله بن أوس: ضعيف.

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «التَّواضع والخمول» (١٧)، وفيه إبراهيم بن الأشعث: ضعيف. وأيضًا فالحديث من بلاغات الفضيل بن عياض لم يسنده إلىٰ رسول الله ﷺ.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا (١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٤٠)، وفيه عبد الله بن الوضاح أبو محمَّد الكوفي اللؤلؤي، قال الحافظ: مقبول، ويحيىٰ بن يمان العجلي: صدوق يخطئ كثيرًا.

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢١).

(٨) أي: ابن أبي الدنيا في كتابه «التواضع والخمول».

(٩) لوحة (٢١٢ ب).

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في «التَّواضع والخمول» (٣٠)، وهذا إسناد حسن، وابن لهيعة اختلط، لكن الراوي عنه عبد الله =

ورُوِيَ مثله عن إسحاق بن البهلول، عن ابن أبي فُدَيْك، عن محمَّد بن عبد الواحد الأَخْنَسِيِّ [(١)]، عن عبد الواحد بن أبي كثير، عن جابر بن عبد الله مرفوعًا مثله [(٢)].

وروي عن الحسن مرسلًا نحوه، فقيل للحسن: فإنَّه يُشار إليكَ بالأصابع!! فقال: إنَّما المرادُ مَن يشار إليه في دينِهِ بالبدعة وفي دنياه بالفِسْقِ [(٣)].

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: لا تبدأْ لِأَنْ تَشْتَهِر، ولا ترفع شخصَكَ لتُذْكَرَ، وتعلَّم واكْتُمْ، واصْمُت تَسْلَم، تَسُرّ الأبرار، وتَغِيظُ الفجّار [(٤)].

وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدَقَ الله من أحبَّ الشُّهرة.

وقال أيوب: ما صدقَ اللهَ عبدُهُ إلا سَرَّهُ ألا يُشْعَرَ بمكَانِهِ.

وقال محمَّد بن العلاء: من أَحَبَّ اللهَ أَحَبَّ ألا يعرفه النَّاس.

وقال سِمَاك بن سلمة: إيَّاك وكَثْرَةَ الأخلَّاء.

وقال أَبَان بن عثمان: إن أحببت أن يَسْلَم لك دينُكَ فأَقِلَّ مِن المَعَارِف؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر مِن ثلاثة نهض وتركهم [(٥)].

وقال: حدَّثنا علي بن الجَعْد، أخبرنا شعبة، عن عَوْف، عن أبي رَجَاء قال: رأىٰ طلحة قومًا يمشُونَ معه، فقال: ذبابُ طَمَعٍ، وفراشُ النَّارِ [(٦)].

وقال ابن إدريس، عن هارون بن عنترة [(٧)]، عن سليم بن حنظلة قال: بينا نحن حول أبي إِذْ عَلَاهُ عمر بن الخطاب بالدِّرَّة وقال: إنَّها مذلَّةٌ للتَّابع، وفتنةٌ للمَتْبُوعِ [(٨)].

= ابن وهب وروايته عنه صحيحة، ثم إنه توبع، ويشهد لآخره حديث مسلم: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». وروىٰ ابن أبي الدنيا له شواهد عن جابر (٣١)، والحسن مرسلًا (٣٢، ٣٣).

(١) في «التواضع والخمول»: (محمد بن سليمان الأخنسي): لم نقف له علىٰ ترجمة.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٣١)، وفي إسناده محمَّد بن سليمان الأَخْنَسِيّ (هكذا عند ابن أبي الدنيا)، وعبد الواحد ابن أبي كثير لم أقف علىٰ ترجمتهما.

(٣) **مرسل**: رواه ابن أبي الدنيا (٣٢، ٣٣)، وفيه الإرسال، وفيه المبارك بن فضالة: يدلس ويسوي، وقد عنعن، فإسناده ضعيف.

(٤) **ضعيف**: رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٣٤)، وفيه إبراهيم بن هراسة: قال النسائي: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: ليس بالقوي، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وفيه رجل لم يسم.

(٥) فلا يغترن أحد أبدًا - كائنًا من كان - ولا يفرح بكثرة أتباعه، فالناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة، إلا من رحم ربك وقليل ما هم، وهذه الكثرة فتنة للتابع والمتبوع، وقد ذكر النبي ﷺ أن من الأنبياء الذين أرسلوا وبلَّغوا الناس رسالات الله منهم من يأتي يوم القيامة ولم يؤمن به إلا الرجل أو الرجلان، ومنهم من ليس معه أحد!!! أي: لم يؤمن به أحد، كما في «الصحيحين»، وهذا لا يضر النبي عند ربه، فليعتبر وليتعظ الدعاة ورؤس الناس ومقدموهم من ذلك، فالعبرة ليست أبدًا بالكثرة.

(٦) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٥٠).

(٧) في (ز): «هارون بن أبي عسرة»، والمثبت من «الجرح والتعديل».

(٨) **لا بأس به**: رواه ابن أبي الدنيا (٥١)، ونعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٤٨)، والدارمي (٢/ ١٣٢).

وقال ابن عون، عن الحسن: خرج ابن مسعودٍ فاتَّبعه أناسٌ، فقال: والله، لَو تعلَمُونَ ما أغلِقُ عليه بَابِي، ما اتَّبعنِي منكم رجلان[١].

وقال حمَّاد بن زيد: كنَّا إذا مررنا علىٰ المجلس، ومعنا أيُّوب، فسلَّم، ردوا ردًّا شديدًا، فكان ذلك يَغُمه.

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر: كان أيوب يطيل قميصَهُ، فقيل له في ذلك، فقال: إن الشُّهرة فيما مَضَىٰ كانت في طولِ القَمِيصِ، واليومَ في تَشْمِيرِهِ. واصطنَعَ مرَّةً نعلَيْنِ علىٰ حذوِ نعْلَي النَّبيِّ ﷺ، فلَبِسَهُمَا أيَّامًا ثم خلَعَهُمَا، وقال: لم أرَ النَّاس يلبسونهما[٢].

وقال إبراهيم النَّخَعي: لا تلبس من الثِّياب ما يُشهر في الفقهاء[٣]، ولا ما يَزْدَرِيكَ السُّفَهَاء.

وقال الثوري: كانوا يكرهون من الثياب الجياد، الَّتِي يُشتَهر بها، ويرفع[٤] الناس إليه فيها أبصارَهُم. والثِّياب الرَّديئَة التي يحتقر فيها، ويستذلُّ دينه.

وحدَّثنا خالد بن خِدَاش: حدَّثنا حماد، عن أبي حسنة -صاحب الزِّيادي- قال: كنا عند أبي قِلابة إِذْ دخل عليه رجلٌ عليه أكسِيَةٌ، فقال: إيَّاكم وهذا الحِمَار النَّهَّاق.

وقال الحسن: إنَّ قومًا جعلوا الكبر في قلوبهم، والتَّواضُعَ في ثيابهم، فصَاحِب الكساءِ بكسائِهِ أعجب[٥] من صاحب المطرف[٦] بمطرفه، ما لهم تفَاقَدُوا.

وفي بعض الأخبار أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لبَنِي إسرائيل: ما لَكُم تأتُونِي عليكم ثِيَابُ الرُّهبان، وقلوبكم قلوب الذِّئاب؟! البسوا ثياب المُلُوكِ، وألينوا قلوبكم بالخَشْيَة[٧].

فصل في حسن الخلق[٨]

قال أبو التياح، عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ مِن أحسن النَّاس خُلقًا[٩].

وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل: يا رسول الله، أيُّ المُؤمِنِين أفضل؟ قال: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[١٠].

وعن نوح بن عباد، [عن ثابت][١١] عن أنس مرفوعًا: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ**

---

(١) **رجاله ثقات**: رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٥٢)، والدارمي في «السنن» (٢/ ١٣٤).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٦١).

(٣) الكلام علىٰ لباس الشهرة في: «الفتاوىٰ الكبرىٰ»: (٥/ ٣٥١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٢/ ١٣٨)، و«زاد المعاد»: (١/ ١٣٠)، و«فتح الباري»: (١٠/ ٣١٠)، و«نيل الأوطار» (٢/ ٤٧٠)، و«حد الثوب والأُزرة» للعلامة/ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) في (ز): «ويرفعون الناس». (٥) في (ز): «أعظم». (٦) **المِطْرَف**: ثوب من خزٍّ مربَّع.

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في «التَّواضع والخمول» (١٥٣)، لكنه عن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وليس عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وأيًّا كان فالخبر معضل.

(٨) ينظر: «الشمائل المحمدية» للترمذي (ص٢٨٤) وما بعدها، و«شروح الشمائل»، و«مكارم الأخلاق» للخرائطي، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٥٦).

(٩) البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

(١٠) **حسن بمجموع طرقه**: رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٦٥)، وابن ماجة (٤٢٥٩)، وفيه فروة بن قيس مجهول. لكن للحديث طرق أوردها الألباني في «الصحيحة» (١٣٨٤) وحسَّن الحديث.

(١١) سقط من (ز).

الآخِرَةِ وَشَرَفَ المَنَازِلِ، وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ العِبَادَةِ. وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ بِسُوءِ خُلُقِهِ دَرَكَ جَهَنَّمَ وَهُوَ عَابِدٌ»(١).

وعن سِنَان(٢) ابن هارون، عن حميد، عن أنس مرفوعًا: «ذَهَبَ حُسْنُ الخُلُقِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»(٣).

وعن المطلب عن عائشة مرفوعًا: «إِنَّ العَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ قَائِمِ اللَّيْلِ وَصَائِمِ النَّهَارِ»(٤).

وقال ابن أبي الدنيا: حدَّثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدَّثنا عبد الله بن إدريس، أخبرني أبي وعمِّي، عن جدِّي، عن أبي هريرة رضي الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ الناسَ الجنَّةَ، فقال: «تَقْوَىٰ اللهِ وَحُسْنَ الخُلُقِ». وسئل عن أكثر ما يدخل النَّاس النار(٥)، فقال: «الأَجْوَفَانِ: الفَمُ وَالفَرْجُ»(٦).

وقال أسامة بن شَريك: كنت عند رسول الله ﷺ، فجاءَتْهُ الأعراب مِن كلِّ مكانٍ، فقالوا: يا رسول الله، ما خير ما أُعْطِيَ الإنسان؟ قال: «حُسْنُ الخُلُقِ»(٧).

وقال يعلىٰ بن مَمْلُك(٨): عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء -يبلغ به- قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ». وكذا رواه عطاء، عن أم الدرداء به(٩).

وعن مسروق، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»(١٠).

حدَّثنا عبد الله بن أبي بدر، حدَّثنا محمَّد بن عبيد(١١)، عن محمَّد بن أبي سارة، عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُعْطِي العَبْدَ مِنَ الثَّوَابِ عَلَىٰ حُسْنِ الخُلُقِ، كَمَا يُعْطِي المُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَغْدُو عَلَيْهِ الأَجْرُ وَيَرُوحُ»(١٢).

---

(١) **حسن لشواهده:** ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٦٨)، وإسناده لا بأس به، ويشهد له حديث عائشة: رواه أبو داود (٥٠٠٣)، وابن حبان (٤٨٠)، وفيه انقطاع، وله شاهد عن أبي هريرة، وأبي أمامة، كما سيأتي.

(٢) في (ز): «سيار بن هارون».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٦٩)، وإسناده ضعيف جدًّا فيه سنان بن هارون: صدوق فيه لين. ولكن يشهد له الأحاديث التي في الباب.

(٤) **صحيح:** رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وفيه انقطاع، وله شاهد بإسناد حسن من حديث أبي هريرة: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٤) والحاكم (١/ ٦٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي. وله شاهد آخر عند البغوي في «شرح السنة» (٣٤٩٩). من حديث أبي أمامة.

(٥) لوحة (٢١٣ ب).

(٦) **صحيح:** رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (١٧٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٠)، وأحمد (٢/ ٢٩١، ٣٩٢، ٤٤٢)، والحاكم (٤/ ٣٦٠)، والترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجة (٤٢٤٦)، وصححه الترمذي وصححه الحاكم.

(٧) **صحيح:** رواه ابن ماجة (٣٤٣٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٥٩)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (١٧١).

(٨) في (ز): «يعلىٰ بن سماك»، والمثبت من الترمذي والمصادر وهو الصواب.

(٩) **صحيح:** رواه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)، وابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٧٣)، ويشهد له الأحاديث التي في الباب، وصححه الألباني.

(١٠) البخاري (٣٥٥٩، ٣٧٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(١١) في (ز): «محمَّد بن عنين».

(١٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٧٦).

وعن مَكْحُول، عن أبي ثَعْلَبة مرفوعًا: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَنْزِلًا فِي الجَنَّةِ: مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ المُتَشَدِّقُونَ المُتَفَيْهِقُونَ(١)»(٢).

وعن أبي أويس، عن محمَّد بن المنكَدِر، عن جابر مرفوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُم بِأَكْمَلِكُمْ إِيمَانًا؟ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، المُوَطَّؤُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يُؤْلَفُونَ وَيَأْلَفُونَ»(٣).

وقال الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة، عن بكر بن أبي الفرات قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا حَسَّنَ اللهُ خَلْقَ رَجُلٍ وَخُلُقَهُ فَتَطْعَمَهُ النَّارُ»(٤).

وعن عبد الله بن غالب الحُدَّاني، عن أبي سعيد مرفوعًا: «خَصْلَتَانِ لا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: البُخْلُ، وَسُوءُ الخُلُقِ»(٥). وقال ميمون بن مِهْرَان، عن رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ سُوءِ الخُلُقِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَهُ لا يَخْرُجُ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَقَعَ فِي آخَرَ»(٦).

حدَّثنا علي بن الجعد، حدَّثنا أبو المغيرة الأَحْمَسِيّ، حدَّثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن رجل من قريش قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ سُوءِ الخُلُقِ؛ إِنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ لَيُذِيبُ الذُّنُوبَ كَمَا تُذِيبُ الشَّمْسُ الجَلِيدَ، وَإِنَّ الخُلُقَ السَّيِّئَ لَيُفْسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ»(٧).

وقال عبد الله بن (٨) إدريس، عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة مرفوعًا: «إِنَّكُمْ لا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ: بَسْطُ وُجُوهٍ وَحُسْنُ خُلُقٍ»(٩).

وقال محمَّد بن سيرين: حسن الخلق عون على الدِّين.

---

(١) الثرثار: الَّذي يكثر الكلام في تكلُّفٍ وخروجٍ عن الحد، والمُتَشَدِّق: الذي يَلْوي شِدْقَه للتَّفَصُّح، ورجل أَشْدَق إذا كان مُتفَوِّهًا ذا بيانٍ، ويقال: هو مُتَشَدِّق في منطقه، إذا كان يتوسع فيه ويَتَفَيْهَق، وقيل: المُتَشَدِّق المُسْتهزئ بالنَّاس؛ يَلْوي شِدْقه بهم وعليهم، والمُتَفَيْقِهُون: الذين يتوسَّعُون في الكلام ويفتحون به أفواههم.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٩٣)، ورجاله ثقات، لكنَّه منقطعٌ بين مكحول وأبي ثعلبة، وله شاهد من حديث جابر، رواه الترمذي والخطيب (٤/ ٦٣)، وإسناده حسن.

(٣) حسن: «التواضع والخمول» (١٧٦)، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري، رواه الطبراني في «الصغير» (ص١٢٥)، وإسناده حسن.

(٤) موضوع: في إسناده أبو سعيد العدوي، وخراش، كلاهما كذاب. انظر: «اللآلئ المصنوعة» للسيوطي (١/ ١١٩).

(٥) ضعيف: رواه الترمذي (١٩٦٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٦)، وفيه صدقة بن موسىٰ: ضعيف لسوء حفظه.

(٦) مرسل: لأنه من رواية ميمون بن مهران، ولم يسنده إلىٰ الصحابة.

(٧) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٨٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٦)، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي: ضعيف.

(٨) لوحة (٢١٤ أ).

(٩) رواه البزَّار (١٩٧٩)، وفيه ابن إدريس وجدُّه يزيد كلاهما لم يوثِّقه غير ابن حبَّان والعجلي، فالإسناد فيه ضعف، ورواه أبو يعلىٰ من طريق آخر ضعيف (٦٥٥٠)، وبمجموعهما فالحديث حسن إن شاء الله.
قال المنذري: رواه أبو يعلىٰ والبزار من طرق أحدهما حسن جيِّد.

فصل في ذمِّ الكبر [١]

قال علقمة، عن ابن مسعود -رفعه-: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ** [٢] **مِنْ إِيمَانٍ**» [٣].

وقال إبراهيم بن أبي عَبْلَة، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ أَكَبَّهُ اللهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي النَّارِ**» [٤].

حدَّثنا إسحاق بن إسماعيل، حدَّثنا أبو معاوية، عن عمر بن راشد، عن إياس بن سلمة، عن أبيه مرفوعًا: «**لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ** [٥] **حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الجَبَّارِينَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ العَذَابِ**» [٦].

وقال مالك بن دينار: ركب سليمان بن داود -عليهما السلام- ذات يوم البسَاطَ في مائتَيْ ألفٍ مِن الإنس، ومِائتَيْ ألفٍ من الجنِّ، فَرُفع حتىٰ سمع تسبيح الملائكة في السَّماء، ثم خَفَضُوه حتىٰ مسَّت قدمه ماءَ البحر، فسَمِعُوا صوتًا: لو كان في قلبِ صاحِبِكُم مثقال ذرَّةٍ [٧] من كِبْرٍ لخُسِفَ به أبعد ممَّا رفع [٨].

حدَّثنا أبو خَيثَمة، حدَّثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان، حتىٰ إن أحدنا ليقذر نفسه، يقول: خرج من مجرىٰ البَوْلِ مرَّتَيْن [٩].

وقال الشعبي: من قتل اثنين فهو جبَّارٌ، ثم تلا ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩]. وقال الحسن: عجبًا لابن آدم، يَغْسِل الخُرْءَ [١٠] بيدِهِ في اليوم مرَّتَيْنِ ثم يتكبَّر! يعارض جبَّار السَّموات.

قال: حدَّثنا خالد بن خِدَاش، حدَّثنا حماد بن زيد، عن عليّ، عن [١١] الحسن، عن الضَّحَّاك بن

---

(١) ينظر: «مساوئ الأخلاق» للخرائطي، و«الكبائر» للذهبي (١٧)، و«فتح الباري»: (١٠/ ٤٨٩)، و«الزواجر» لابن حجر الهيتمي (٤).

(٢) في (ز): «ذرة».

(٣) رواه مسلم (٩١)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٨).

(٤) رواه أحمد (٢/ ١٦٤)، وابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٩٦)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب»: رواه أحمد، ورواته رواة الصَّحيح. وصححه العراقي في «تخريج الإحياء». قلت: ويشهد له الحديث السابق.

(٥) أي: يُعْلي نفسَه ويرفعها ويتعالىٰ علىٰ الناس.

(٦) رواه الترمذي، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٤٥٠)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٧٦)، وابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٩٨)، وفيه عمر بن راشد: ضعيف، وبقيَّة رجاله ثقات.

(٧) في (ز): «مثقال حبَّة ذرة».

(٨) معضل: رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (١٩٩).

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٠٠) ورجاله ثقات.

(١٠) الخرْء: العذرة، وهي فضلات الإنسان.

(١١) في (ز): (علي بن الحسن).

سفيان، فذكر حديث: «ضربَ مثلَ الدنيَا بما يخرج من ابن آدم»(١).

وقال الحسن، عن يحيىٰ، عن أُبيٍّ قال: إن مطعمَ ابنِ آدمَ ضُرِبَ مَثَلًا للدُّنيا، وإن قَزَّحَه(٢) ومَلَّحَهُ(٣).

وقال محمَّد بن الحسين بن علي -من ولد عليٍّ -: ما دخل قلبَ(٤) رجلٍ شيءٌ من الكِبْرِ إلا نَقَصَ مِن عقلِهِ بقدر ذلك.

وقال يونس بن عبيد: ليس مع السجود كبرٌ، ولا مع التَّوحيد نفاقٌ.

ونظر طاوس إلىٰ عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مِشْيَتِهِ -وذلك قبل أن يُسْتَخْلَفَ- فطَعَنَهُ طاوس في جنبِهِ بأصبعه، وقال: ليس هذا شأنُ مَن في بطنه خُرْءٌ؟ فقال له كالمعتذر إليه: يَا عمِّ، لقد ضُرِبَ كلّ عضوٍ منِّي علىٰ هذه المشية حتىٰ تعلمتها.

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: كانت بنو أمية يضربون أولادَهُم حتىٰ يتعلَّمُوا هذه المشية(٥).

فصل في الاختيال

عن ابن أبي ليلىٰ، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه مرفوعًا: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ»(٦).

ورواه عن إسحاق بن إسماعيل، عن سفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعًا مثله(٧).

وحدَّثنا محمَّد بن بكَّار، حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَىٰ مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ»(٨).

و«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْهِ، أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، خَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»(٩).

---

(١) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٢/ ٤٥٢)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٥٩)، وابن أبي الدنيا في «التواضع» (٢١٠)، وفيه علي بن زيد: ضعيف، وقد ثبت نحوه عن أبي بن كعب موقوفًا. رواه ابن أبي الدنيا (٢١١)، وإسناده صحيح، ومثله لا يقال بالرأي، فهو في حكم المرفوع.

(٢) في (ز): (فرخه)، وقَزَّحَه ومَلَّحَه؛ أي: تَوبَلَه، من القِزح، وهو التابِلُ الذي يُطرح في القِدْر كالكمُّون والكُزْبرة ونحو ذلك. يقال: قَزَحْتُ القِدْر، إذا تركْتُ فيها الأبازِير، والمعنىٰ: أنَّ المَطْعَم وإن تكلَّف الإنسان التَّنوقَ في صنْعته وتَطْييبه، فإنَّه عائدٌ إلىٰ حالٍ يُكْرَه ويُسْتَقْذَر، فكذلك الدنيا المَحْرُوص علىٰ عِمارتها ونَظْم أسْبابها راجِعة إلىٰ خَرابٍ وإدْبار. «النهاية».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٠١)، ورجاله ثقات.

(٤) لوحة (٢١٤ب).

(٥) هذا الكلام وغيره مما ينسب علىٰ بني أمية ـ وليسوا بالمعصومين ولا بالمنزهين ـ يفتقر إثباته إلىٰ دليل. ينظر: «شبهات بني أمية» للشيخ الدكتور/ السيد شحات رمضان حفظه الله.

(٦) البخاري (٥٧٨٤) من حديث بريدة.

(٧) رواه البخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر.

(٨) تقدم أن الإسبال وجر الثياب محرم، سواء فُعل للخيلاء أم لغيره. وانظر: «فتح الباري»: (١٠/ ٢٦٤)، و«الإسبال في اللباس» للشيخ الدكتور/ سعد الخثلان.

(٩) ورواه البخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧، ٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة.

وروى الزهري، عن سالم، عن أبيه: «بَيْنَمَا رَجُلٌ...» إلى آخره.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالىٰ منبهًا خلقه علىٰ نعمه عليهم في الدُّنيا والآخرة، بأنَّه سخَّر لهم ما في السَّموات من نجوم يستضيئون بها في لَيْلِهم ونهارِهم، وما يخلق فيها مِن سحابٍ وأمطارٍ وثلجٍ وبردٍ، وجعله إيَّاها لهم سقفًا محفوظًا، وما خلق لهم في الأرض مِن قرارٍ وأنهارٍ وأشجارٍ وزروعٍ وثمارٍ، وأسبغ عليهم نعمه الظَّاهرة والباطنة مِن إرسال الرُّسُل وإنزال الكُتُبِ وإزاحة الشُّبه والعِلَل، ثم مع هذا كله ما آمن النَّاس كلُّهم، بل منهم مَن يجادل في الله؛ أي: في توحيدِهِ وإرسال الرُّسل. ومجادلَتُهُ في ذلك بغيرِ علم، [ولا مستندٍ مِن حجَّةٍ صحيحةٍ، ولا كتابٍ مأثورٍ صحيحٍ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾][(1)] ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: مبينٍ مضيءٍ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾[(2)] أي: لهؤلاء المجادلين في توحيدِ الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: علىٰ رسوله من الشَّرائع المطهَّرة، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: لم يكن لهم حجَّةٌ إلا اتِّباع الآباء الأقدمين، قال الله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، أي: فما ظنُّكُم أيُّها المحتجُّون بصنيعِ آبائهم، أنَّهم كانوا علىٰ ضلالةٍ وأنتم خَلَفٌ لهم فيما كانوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمن أسلم وجهه [لله][(3)] أي: أخلص له العَمَلَ وانقاد لأمرِهِ واتَّبعَ شرعَهُ؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عملِهِ[(4)]، باتِّباع ما به أَمَرَ، وترك ما عَنْهُ زَجَرَ، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أَخَذَ موثقًا مِن الله متينًا أنَّه لا يُعذِّبُه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ أي: لا تحزن يا محمَّد عليهم فِي كفرِهم بالله وبما جِئْتَ به؛ فإنَّ قَدَرَ الله نافذٌ فيهم، وإلىٰ الله مرجعُهُم فيُنبِّئُهم بما عَمِلُوا؛ أي: فيجزيهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فلا تخفىٰ عليه خافية.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) لوحة (٢١٥ أ).
(٣) سقط من (ز).
(٤) وهذه الآية فيها شرطا قبول العمل - الإخلاص والمتابعة - وقد تقدم الكلام عليهما في آخر تفسير سورة الكهف.

ثم قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾، أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾، أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب مشقٍّ على النُّفوس، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن هؤلاء المشركين به: إنَّهم يعرفون أنَّ الله خالقُ السَّموات والأرضِ، وحدَه لا شَريكَ له، ومع هذا يعبُدُونَ معه شركاءَ(١) يعترفون أنها خَلْقٌ له ومِلْكٌ له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [أي: إذْ قامت عليكُمُ الحجَّة باعترافكم](٢) ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ(٣)﴾ أي: هو خلقه وملكه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الغنيُّ عمَّا سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، الحميدُ في جميع ما خَلَقَ، له الحَمْدُ في السَّمَوَاتِ والأرض علىٰ ما خَلَقَ وشَرَعَ، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ(٤) ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائِهِ الحسنىٰ وصفاته العلا وكلماتِهِ التَّامَّة التي لا يُحِيطُ بها أحدٌ، ولا اطِّلاع لبشرٍ علىٰ كُنْهِهَا وإحصائها، كما قال سيِّد البشر وخاتم الرسل: «لا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»(٥)، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [أي: ولو أنَّ جميع أشجارِ الأرضِ جُعِلَت أقلامًا، وجعل البحر مدادًا ومَدَّه سبعة أبحر](٦) معه، فكتبت بها كلمات الله الدَّالَّة علىٰ

---

(١) في (ز): «شريكًا». (٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٢١٥ ب).

(٤) قال العلامة السعدي رحمه الله: وهذا التَّمثيل من باب تقريب المعنىٰ، الذي لا يطاق الوصول إليه إلىٰ الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار وإن تضاعفت علىٰ ما ذُكِرَ أضعافًا كثيرةً، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة، فإنَّه يتصور نفادها وانقضاؤها؛ لكونها مخلوقةً.

وأمَّا كلام الله تعالىٰ، فلا يتصوَّر نفاده، بل دلَّنا الدليل الشرعي والعقلي، علىٰ أنَّه لا نفاد له ولا منتهىٰ، وكلُّ شيءٍ ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾، والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيءٍ من أقواله وأفعاله، فإذا تصوَّر العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامِهِ، ليدرك العباد شيئًا منه، وإلَّا فالأمر أعظم وأَجَلُّ.

(٥) مسلم (٢٢٢). (٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

عظمتِهِ وصفاتِهِ وجلالِهِ لتكسَّرتِ الأقلام، ونَفِدَ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مَدَدًا.

وإنَّما ذكرت «السبعة» علىٰ وجه المبالغة، ولم يُرِدِ الحصرَ ولا أنَّ ثَمَّ سبعة أبحرٍ موجودةً تحيط بالعَالَم، كما يقوله مَن تلقَّاه من كلام الإسرائيليين التي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب، بل كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هلُمَّ جرًّا؛ لأنَّه لا حصر لآياتِ الله وكلماته. وقال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلامًا، وجعل البحر مدادًا، وقال الله: «إِنَّ مِنْ أَمْرِي كَذَا، وَمِنْ أَمْرِي كَذَا» لنفد ما في البحور، وتكسَّرت الأقلام.

وقال قتادة: قال المشركون: إنَّما هذا كلامٌ يُوشِكُ أن ينفد، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلامًا، ومع[١] البحر سبعة أبحرٍ، ما كان لتنفد عجائب رَبِّي وحكمته وخلقه وعلمه[٢].

وقال الرَّبيع بن أنس: إنَّ مثل علم العِباد كلِّهم في عِلْم الله كقطرةٍ مِن ماءِ البُحُورِ كلِّها، وقد أنزلَ الله ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية[٣].

يقول: لَو كانَ ذلك البحر مدادًا لكلمات الله والأشجار[٤] كلُّها أقلامًا لانكسرت الأقلام، وفَنِيَ ماءُ البَحْرِ، وبَقِيَت كلماتُ الله قائمةً لا يُفْنِيهَا شيءٌ؛ لأنَّ أحدًا لا يستطيع أن يَقْدُرَ قَدْرَهُ، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتىٰ يكون هو الذي يُثْنِي علىٰ نفسه. إنَّ ربنا كما يقولُ، وفوقَ ما نقولُ.

وقد روي: أنَّ هذه الآية نزلت جوابًا لليهود، قال ابن إسحاق: حدَّثني ابن أبي محمَّد، عن سعيد ابن جبير أو عكرمة، عن ابن عبَّاس؛ أنَّ أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بـ«المدينة»: يا محمَّد، أرأيت قولك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، إيَّانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله ﷺ: «كُلًّا». فقالوا: ألستَ تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التَّوراة فيها تِبيانٌ لكل شيءٍ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا فِي عِلْمِ اللهِ قَلِيلٌ، وَعِنْدَكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَكْفِيكُمْ». وأنزل الله تعالىٰ فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية[٥].

وهكذا روي عن عكرمة وعطاء بن يَسَار. وهذا يقتضي: أنَّ هذه الآية مدنيةٌ لا مكيَّةٌ، والمشهُورُ أنَّها مكيَّةٌ، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيزٌ قد عَزَّ كلَّ شيءٍ وقهرَهُ وغلبَهُ، فلا مانِعَ لِمَا أرادَ ولا مُخَالِفَ ولا مُعَقِّب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقِهِ وأمرِهِ، وأقوالِهِ وأفعالِهِ، وشرعِهِ وجميعِ شؤونِهِ.

---

(١) في (ز): «وبلغ البحر».

(٢) **ضعيف**: رواه الطبري (٢١/ ٥١) وإسناده مرسل.

(٣) لوحة (٢١٦ أ).

(٤) في (ز): «والشجر».

(٥) **إسناده ضعيف**: فيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول، رواه الطبري (٢١/ ٥١).

وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما خَلْقُ جميع النَّاس وبعثهم يوم المعاد بالنِّسبة إلىٰ قدرتِهِ إلا كنسبة [خلقِ][1] نفسٍ واحدةٍ، الجميع هيِّنٌ عليه و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، أي: لا يأمر بالشَّيءِ إلَّا مرَّةً واحدةً، فيكون ذلك الشَّيءُ لا يحتاج إلىٰ تكرُّرِهِ وتوكده. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميعٌ لأقوالِهم بصيرٌ بأفعالِهم كسمعِهِ وبصرِهِ بالنِّسبةِ إلىٰ نفسٍ واحدةٍ كذلك قدرته عليهم كقدرَتِهِ علىٰ نفسٍ واحدةٍ؛ ولهذا قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[2].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

يُخبِرُ تعالىٰ أنَّه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بمعنىٰ: يأخذُ منهُ في النَّهار، فيطولُ ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زَمَنَ الصَّيف يطول النَّهار إلىٰ الغاية، ثم يسرع في النَّقص فيطول اللَّيل ويقصر النَّهار، وهذا يكون في زمن الشتاء، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلىٰ غايةٍ محدودةٍ. وقيل: إلىٰ يوم القِيامَة. وكلا المعنيين صحيحٌ، ويستشهد للقولِ الأول بحديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه الذي في «الصَّحِيحَيْن»: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا، فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ»[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو صالح، حدَّثنا يحيىٰ بن أيوب، عن ابن جُرَيْج، عن عَطَاء بن أبي رباح، عن ابن عبَّاس أنه قال: الشمس بمنزلة السَّاقية، تجري بالنَّهار في السَّماء في فَلَكِهَا، فإذا غَرَبَت جرتْ باللَّيل في فلكها تحتَ الأرض حتىٰ تطلع مِن مشرقها. قال: وكذلك القَمَرُ. إسناده صحيح[4].

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]. ومعنىٰ هذا: أنَّه تعالىٰ الخالق العَالِم بجميع الأشياء، كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: إنَّما يظهر لكم آياتِهِ لتستدلُّوا بها

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢١٦ ب).

(٣) البخاري (٣١٩٩) و(٣٨٠٢) و(٧٤٢٤)، ومسلم (١٥٩).

(٤) ضعيف: في إسناده أبو صالح -عبد الله بن صالح كاتب الليث-: صدوق كثير الخطأ، وشيخه ربما أخطأ، وابن جريج مدلس وقد عنعن، والغالب أن الرواية من الإسرائيليات التي يرويها ابن عبَّاس.

علىٰ أنَّه الحق؛ أي: الموجود الحق، الإله[١] الحَق، وأنَّ كلَّ ما سواه باطلٌ، فإنَّه الغنيُّ عمَّا سِواهُ، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه؛ لأنَّ كلَّ ما في السَّموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يَقْدِر أحدٌ منهم علىٰ تحريكِ ذرَّةٍ إلا بإذنِهِ، ولو اجتمع كلُّ أهلِ الأرض علىٰ أن يخلقوا ذبابًا لعَجَزُوا عن[٢] ذلك ؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، أي: العلي الذي لا أعلىٰ مِنْهُ، الكبير: الَّذي هو أكبر من كلِّ شيءٍ، فكلُّ شيءٍ خاضعٌ حقيرٌ بالنِّسبة إليه.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه هو الَّذي سَخَّر البحر لتَجْرِيَ فيه الفُلْكُ بأمرِهِ؛ أي: بلطفِهِ وتسخيرِهِ؛ فإنَّه لولا ما جعل في المَاءِ مِن قوَّةٍ يحمل بها السُّفُن لما جَرَتْ؛ ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: مِن قُدْرَتِهِ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ أي: صبَّارٌ في الضَّرَّاء، شكورٌ في الرَّخاء.

ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ -أي: كالجبال والغَمَام- ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ قال مجاهد: أي كافرٌ. كأنه فَسَّرَ المقتصد هاهنا بالجاحد، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال ابن زيد: هو المتوسِّط في العمل.

وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد هاهنا هو: المتوسِّط في العمل. ويحتمل أن يكون مرادًا هنا أيضًا، ويكون من باب الإنكار علىٰ مَن شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعدما أنعم عليه مِن الخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعَمَل التَّامِّ، والدُّؤُوبِ في العِبادَةِ، والمبادَرَةِ إلىٰ الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرًا -والحالة هذه- والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾: فـ«الختَّار» هو: الغَدَّار[٣]. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلَّما عاهد نقض عهده، و«الخَتْر»: أتم الغَدْر وأبلغه، قال عمرو بن معد يكرب[٤]:

---

(١) في (ز): «ألا إنَّه الحق».
(٢) لوحة (٢١٧ أ).
(٣) في (ز): «هو العذاب».
(٤) لوحة (٢١٧ ب).

وَإِنَّـــكَ لَـــوْ رَأَيْـــتَ أَبَـــا عُمَيْـــرٍ مَـــلأْتَ يَـــدَيْكَ مِـــنْ غَـــدْرٍ وَخَتْـــرِ

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنِّعم لا يشكرها، بل يتناسَاها ولا يذكرها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا(١) إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالىٰ منذرًا للنَّاس يوم المَعَادِ، وآمرًا لهم بتقواهُ والخوف منه، والخشيةَ مِن يوم القيامة حيث ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لو أَرادَ أن يفدِيَهُ بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه.

ثم عاد بالموعظةِ عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي: لا تلهينكم بالطُّمأْنينة فيها عن الدَّارِ الآخرة] (٢)، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشَّيطان. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة. فإنَّه يَغُرُّ ابنَ آدمَ ويَعِدهُ ويمنِّيهِ، وليس مِن ذلك شيءٌ بَلْ كما قال تعالىٰ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

قال وَهْب بن مُنَبه: قال عُزَير عليه السلام: لمَّا رأيتُ بلاءَ قومِي اشتدَّ حُزْنِي وكثُرَ هَمِّي، وأَرِق نومِي، فضرعتُ إلىٰ رَبِّي وصلَّيْتُ وصُمْتُ، فأنا في ذلك أتضرَّع أبكي؛ إذ أتاني المَلَكُ فقلت له: أَخبِرْنِي هل تشفعُ أرواح المصدِّقين للظَّلَمَةِ، أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصلُ القضاء ومُلْكٌ ظاهرٌ، ليس فيه رخصةٌ، لا يتكلَّم فيه أحدٌ إلا بإذن الرحمن، ولا يُؤْخَذُ فيه والدٌ عن ولده، ولا ولدٌ عن والده، ولا أخٌ عن أخيه، ولا عبدٌ عن سيده، ولا يهتم أحدٌ بِهَمِّ غَيْره ولا يحزن لحزنِهِ، ولا أَحَدَ يَرْحَمُهُ، كلٌّ مشفقٌ علىٰ نفسِهِ، ولا يؤخذ إنسانٌ عن إنسانٍ، كلٌّ يَهُمُّ همَّه ويبكي عَوله (٣)، ويحمل وِزْرَهُ، ولا يحمل وِزْرَهُ معه غَيْرُهُ. رواه ابن أبي حاتم (٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

هذه مفاتِيحُ الغيب التي استأثر الله تعالىٰ بعِلْمِهَا، فلا يعلَمُهَا أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالىٰ بها؛ فعلم

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: فإن قيل: لقد ثبت بالسُّنَّة ما ظاهره خلاف هذا فقد قال ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ»، وقال: «مَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ» فالجواب أنَّ المراد بالآية أنَّ الولد لا يحمل ذنبَ والدِهِ وأنَّ الوالِدَ لا يحملُ ذنبَ ولدِهِ، وأمَّا موتُ الأولاد فأجْرُ المصيبةِ مع الصَّبر والاحتساب هو الَّذي منع الوالد من دخول النَّار كما أنَّ تربية البنات والإحسان إليهنَّ جعل الله تعالىٰ جزاءَهُ النَّجاة من النَّار فليس في الحديث أنَّ الولد يجزي عن والدِهِ ولا الوالِدُ يجزي عن ولدِهِ.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) أعول الرجل والمرأة: رفعا صوتهما بالبكاء والصياح.

(٤) عزاه لابن أبي حاتم، ولم أقف عليه، وهذا من أخبار وهب بن منبه وهو يروي الإسرائيليات.

وقت السَّاعة لا يعلمه نبيٌّ مرسلٌ[١]، ولا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومَنْ شاء الله من خلقه. وكذلك لا يَعْلَم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالىٰ سِوَاهُ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا أو أنثىٰ، أو شقيًا أو سعيدًا علم الملائكة الموكَّلون بذلك، ومَنْ شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا في دنياها وأُخراها، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحدٍ بذلك. وهذه شبيهةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ».

قال الإمام أحمد: حدَّثنا زيد بن الحباب، حدَّثني حسين بن واقد، حدَّثني عبد الله بن بُرَيدة، سمعت أبي -بُرَيدة- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَمْسٌ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾». هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرِّجوه[٢].

حديث ابن عمر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»[٣].

انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في (كتاب الاستسقاء) من «صحيحه»، عن محمَّد بن يوسف الفريابي، عن سفيان بن سعيد الثوري، به[٤].

ورواه في (التفسير) من وجه آخر فقال:

حدَّثنا يحيىٰ بن سليمان، حدَّثنا ابن وهب، حدَّثني عمر بن محمَّد بن زيد بن عبد الله بن عمر: أن أباه حدثه، أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ». ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾. انفرد به أيضًا[٥].

ورواه الإمام أحمد عن غُنْدَر، عن[٦] شعبة، عن عمر بن محمَّد؛ أنه سمع أباه يحدث، عن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الخَمْسَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»[٧].

[**حديث ابن مسعود** ﷺ: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ، عن شعبة، حدَّثني عمرو بن مُرَّة، عن

---

(١) لوحة (٢١٨ أ). (٢) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٥٣)، ويشهد له الحديث الآتي.
(٣) أحمد (٢/ ٢٤، ٥٨)، والبخاري (٧٣٧٩). (٤) البخاري (١٠٣٩).
(٥) البخاري (٤٧٧٨). (٦) لوحة (٢١٨ ب). (٧) أحمد (٢/ ٨٥).

عبد الله بن سلمة قال: قال عبد الله: أُوتي نبيُّكم ﷺ مفاتيحَ كلِّ شيءٍ غير خمسٍ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾](١).

وكذا رواه عن محمَّد بن جعفر، عن شعبة، عن عمرو بن مرَّة، به. وزاد في آخره: قال: قلت له: أنتَ سَمِعْتَهُ مِن عبد الله؟ قال: نعم، أكثر مِن خمسِينَ مرَّةً(٢).

ورواه أيضًا عن وَكِيع، عن مِسْعَرٍ، عن عمرو بن مرَّة بِهِ.

وهذا إسنادٌ حسنٌ علىٰ شرط [أصحاب](٣) السُّنَن ولم يخرِّجوه.

حديث أبي هريرة: قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا إسحاق، عن جرير، عن أبي حيان، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان يومًا بارزًا للناس، إذ أتاه رجلٌ يمشِي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «**الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ الآخِرِ**». قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «**الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**». فقال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «**الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». قال: يا رسول الله، متىٰ السَّاعة؟ قال: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا. قَالَ: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّتَهَا**(٤)**، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا. وَإِذَا كَانَ الحُفَاةُ العُرَاةُ رءوس النَّاسِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾**»، ثم انصرف الرجل فقال: «**رُدُّوهُ عَلَيَّ**». فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئًا، فقال: «**هَذَا جِبْرِيلُ، جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ**»(٥).

ورواه البخاري أيضًا في «كتاب الإيمان»، ومسلم من طرق، عن أبي حيَّان به. وقد تكلَّمنا عليه في أوَّل «شرح البخاري». وذكرنا ثَمَّ حديثَ أميرِ المؤمنين عمر(٦) بن الخطاب في ذلك بطوله، وهو من أفراد مسلم(٧).

حديث ابن عبَّاس: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو النَّضر، حدَّثنا عبد الحميد، حدَّثنا شَهْر(٨)،

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) حسن صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٨٦) (٣٤٨)، وفيه عبد الله بن سلمة: صدوق تغير حفظه، لكنه أكد سماعه كما في آخر الرِّواية، وبقيَّة رجاله ثقات، وعليه فالإسناد لا يصح، لكن يشهد له ما تقدم.

(٣) سقط من (ز).

(٤) ربتها: سيدتها ومولاتها، والمعنىٰ: أن الناس يبيعون أمهات أولادهم في الأسواق، فينتقلن من يدٍ إلىٰ يدٍ، حتىٰ يقعنَ في ملك هؤلاء الأولاد، فتكون الأم جاريةً لابنتها.

(٥) البخاري (٥٠)، (٤٧٧٧)، ومسلم (٩).

(٦) لوحة (٢١٩ أ).

(٧) مسلم (٨).

(٨) في (ز): «بهز»، وهو خطأ.

حدَّثنا عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: جلس رسولُ الله ﷺ مجلسًا له، فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعًا كفيه على ركبتي النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، [حدِّثني](١): ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإِسْلامُ: أَنْ تُسْلِمَ وَجْهَكَ للهِ عَجَلَّ، وَتَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». قال: فإذا فعلتُ ذلك فقد أسلمتُ؟ قال: «إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْلَمْتَ». قال: يا رسول الله، فحدِّثني ما الإيمان؟ قال: «الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالمَلَائِكَةِ، وَالكِتَابِ، وَالنَّبِيِّينَ، وَتُؤْمِنَ بِالمَوْتِ، وَبِالحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ، وَتُؤْمِنَ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالحِسَابِ وَالمِيزَانِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قال: فإذا فعلتُ ذلك فقد آمنتُ؟ قال: «إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتَ». قال: يا رسول الله، حدِّثني ما الإحسان؟ قال رسول الله ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْمَلَ للهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ لا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قال: يا رسول الله، فحدِّثني متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا هُوَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ حَدَّثْتُكَ بِمَعَالِمَ لَهَا دُونَ ذَلِكَ؟». قال: أَجَلْ، يا رسول الله، فحدِّثني. قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ الأَمَةَ وَلَدَتْ رَبَّتَهَا -أو: رَبَّهَا- وَرَأَيْتَ أَصْحَابَ الشَّاءِ(٢) يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ، وَرَأَيْتَ الحُفَاةَ الجِيَاعَ العَالَةَ [كَانُوا رءوس النَّاسِ، فَذَلِكَ مِنْ مَعَالِمِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا». قال: يا رسول الله، ومَنْ أصحاب الشَّاء والحُفَاة الجِيَاع العالَة؟](٣) قال: «العَرَبُ». حديثٌ غريبٌ، ولم يخرِّجوه(٤).

- حديث رجلٍ من بني عامر:

[روى الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن منصور](٥)، عن رِبْعي بن حِرَاش، عن رجل من بني عامر؛ أنه استأذن على النَّبيِّ ﷺ فقال: أَأَلِجُ؟ فقال النَّبيُّ ﷺ(٦) لخادمه: «اخْرُجِي إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لا يُحْسِنُ الاسْتِئْذَانَ فَقُولِي لَهُ: فَلْيَقُلِ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟»، قال: فسمعتهُ يقول ذلك، فقلت: السَّلام عليكم، أَأَدْخُلُ؟ فأذن، فدخلت، فقلت: بم أتيتنا به؟ قال: «لَمْ آتِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، أَتَيْتُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ تَدَعُوا اللَّاتَ وَالعُزَّى، وَأَنْ تُصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ؛ وَأَنْ تَصُومُوا مِنَ السَّنَةِ شَهْرًا، وَأَنْ تَحُجُّوا البَيْتَ، وَأَنْ تَأْخُذُوا الزَّكَاةَ مِنْ مَالِ أَغْنِيَائِكُمْ فَتَرُدُّوهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ». قال: فقال: فهل بقي من العلم شيءٌ لا تعلمه؟ قال: «قَدْ عَلِمَ اللهُ خَيْرًا، وَإِنَّ مِنَ العِلْمِ مَا لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ: الخَمْسُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا

---

(١) ليست في (ز).
(٢) في (ز): «أصحاب البنيان».
(٣) بياض في (ز) قدرَ كَلِمَتَيْن، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٤) رواه أحمد (١/ ٣١٨) وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام، لكن يشهد له الأحاديث الأخرى المذكورة قبله.
(٥) سقط من (ز).
(٦) لوحة (٢١٩ ب).

﴿تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. وهذا إسنادٌ صحيحٌ(١).

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: جاء رجلٌ من أهل البادية فقال: إنَّ امرأتي حبلىٰ، [فَأَخْبِرْنِي](٢) ما تَلِدُ؟ وبلادنا جَدِبَةٌ، فأَخبِرْنِي متىٰ ينزل الغَيْثُ؟ وقد عَلِمتُ متىٰ وُلِدْتُ فأخبرني متىٰ أَمُوتُ؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾، إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. قال مجاهد: وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير(٣).

وقال الشَّعبي، عن مسروق، عن عائشة ﵂ أنَّها قالت: مَنْ حدَّثك أنَّه يعلم ما في غد فقد كَذَبَ، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾(٤).

وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: قال قتادة: أشياءَ استأثر الله بهنَّ، فلم يُطلِعْ عليهن مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ -فلا يدري أحدٌ من الناس متىٰ تقوم السَّاعة، في أيِّ سنةٍ أو في أيِّ شهرٍ، أو ليلٍ أو نهارٍ- ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾- فلا يعلم أحدٌ متىٰ ينزلُ الغيثُ: ليلًا أو نهارًا؟ -﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾- فلا يعلم أحدٌ ما في الأرحام، أذكرٌ أم أنثىٰ؟ أحمر أو أسود؟ وما هو؟ -﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾- أخيرٌ(٥) أم شرٌّ؟ ولا تدري يا ابن آدمَ متَىٰ تموت؟ لعلَّك الميِّتُ غدًا، لعلَّك المصابُ غدًا - ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، ليس أحد من الناس يدري أين مَضْجَعُهُ مِن الأرض: أفي بحرٍ أم برٍّ، أو سهلٍ أو جبلٍ؟

وقد جاء في الحديث: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ، جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً**»، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «معجمه الكبير»، في «مسند أسامة بن زيد»:

حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا جَعَلَ اللهُ مِيتَةَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ إِلَّا جَعَلَ لَهُ فِيهَا حَاجَةً**»(٦).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا أبو داود الحَفَرِيّ، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن مَطَر بن عُكَامِس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَضَىٰ اللهُ مِيتَةَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ**

---

(١) رواه أبو داود (٥١٧٧)، وأحمد (٥/ ٣٦٨)، وإسناده صحيح.

(٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٢١/ ٨٧)، وإسناده مرسل، واعلم أنَّ أصل الحديث صحيحٌ، إلَّا أنَّ الآية التي قرأها هي قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، رواه مسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٠٦٨).

(٤) صحيح: رواه الطبري (٢١/ ٨٨). (٥) لوحة (٢٢٠ أ).

(٦) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» (٤٦١)، من حديث أسامة، ورواه أحمد (٤/ ٤٢٩)، والترمذي (٢١٤٨)، من حديث أبي عزة، ويشهد له الأحاديث التي أوردها في الباب عن مطر بن عكامس، وعن ابن مسعود.

لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً»[١].

وهكذا رواه الترمذي في (القدر)، من حديث سفيان الثوري به. ثم قال: حسنٌ غريبٌ، ولا يعرف لمطر عن النَّبيِّ ﷺ غير هذا الحديث. وقد رواه أبو داود في «المراسيل». فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا أيوب، عن أبي المَلِيح بن أسامة، عن أبي عزة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ فِيهَا -أو قال: بِهَا- حَاجَةً»[٢].

وأبو عَزَّة هذا هو: يَسَار بن عبد الله[٣]، ويقال: ابن عَبد الهُذَلي.

وأخرجه التِّرمذي مِن حديث إسماعيل [بن إبراهيم -وهو ابن عُلَيَّة- وقال: صحيح.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عصام الأصفهاني، حدَّثنا المؤمل بن إسماعيل][٤]، حدَّثنا عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المَلَيح، عن أبي عزة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً فَلَمْ يَنْتَهِ حَتَّىٰ يَقْدُمَهَا». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[٥].

حديثٌ آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا أحمد بن ثابتٍ الجَحْدَري ومحمَّد بن يحيىٰ القُطَعي قالا: حدَّثنا عُمَرُ بن عليٍّ، حدَّثنا إسماعيل، عن قيس، عن عبد الله قال[٦]: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً». ثم قال البزَّار: وهذا الحديث لا نعلم أحدًا يرفعه إلا عُمَرُ بن عليٍّ المُقَدميُّ[٧].

وقال ابن أبي الدُّنيا: حدَّثني سليمان بن أبي مسيح قال: أنشدني محمَّد بن الحكم لأعشىٰ هَمْدان:

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ سِوَىٰ حَنُوطٍ غَدَاةَ البَيْنِ مَعَ خِرَقِ
[وَغَيْرِ][٨] نَفْحَةِ أَعْوَادٍ تُشَبُّ لَهُ وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمُنْطَلِقِ

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٢٧)، والترمذي (٢١٤٦)، ورجاله ثقات، ويشهد له الحديث السابق.
(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٢٩)، والترمذي (٢١٤٧) وصحَّحه. ويشهد له الأحاديث السابقة.
(٣) في (ز): «بشار بن عبيد الله»، وهو تصحيف.
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٧٥٦٩)، وهو نفس الحديث السابق مع زيادة قراءة الآية، ولكن هذه الطريق ضعيفة جدًّا؛ لأن عبيد الله بن أبي حميد متروك.
(٦) لوحة (٢٢٠ ب).
(٧) رواه البزَّار (١٨٩٩)، وابن ماجة (٤٢٦٣)، والحاكم (١/ ٢٥٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٢٢٢).
(٨) سقط من (ز).

لا تَأْسَـيَنَّ[١] عَلَـىٰ شَـيْءٍ فَكُـلُّ فَتًـىٰ إِلَـىٰ مَنِيَّتِـهِ سَـيَّارُ فِـي عَنَـقِ[٢][٣]
وَكُـلُّ مَـنْ ظَـنَّ أَنَّ المَـوْتَ يُخْطِئُـهُ مُعَلَّـلٌ بِأَعَالِيـلَ مِـنَ الحَمَـقِ
بِأَيِّمَـا بَلْـدَةٍ تُقْـدَرُ مَنِيَّتُـهُ إِنْ لا يُـسَيَّرْ إِلَيْهَـا طَائِعًـا يُـسَقِ

أورده الحافظ ابن عساكر: في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وهو أعشىٰ هَمْدَان، وكان الشعبي زوجَ أخته، وهو مُزَوّجٌ بأخت الشعبي أيضًا، وقد كان ممن طلب العلم وتَفَقَّه، ثم عدل إلىٰ صناعة [الشعر][٤] فعُرِفَ به.

وقد رواه ابن ماجة عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة، كلاهما عن عمر بن عليٍّ مرفوعًا: «**إِذَا كَانَ أَجَلُ أَحَدِكُمْ بِأَرْضٍ أَوْثَبَتْهُ[٥] إِلَيْهَا حَاجَةٌ، فَإِذَا بَلَغَ أَقْصَىٰ أَثَرِهِ[٦] قَبَضَهُ اللهُ ﷻ، فَتَقُولُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَبِّ، هَذَا مَا أَوْدَعْتَنِي**»[٧].

قال الطبراني: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا معمرٌ، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا جَعَلَ اللهُ مَنِيَّةَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ، إِلَّا جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً**»[٨].

آخر تفسير سورة «لقمان»، والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) في (ز): «لا تيأسن».
(٢) في (ز): «في غسق».
(٣) **العَنَق**: السير السريع.
(٤) سقط من (ز).
(٥) في (ز): «أتت له».
(٦) **الأثر**: الأجل.
(٧) **صحيح**: رواه ابن ماجة (٤٢٦٣)، وقال البوصيري: هذا إسنادٌ صحيحٌ.
(٨) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» (٤٦١)، ويشهد له الأحاديث الواردة في الباب.

سُورَةُ السَّجْدَة

تفسير سورة الم السجدة، [وهي مكية][1]

قال البخاري في (كتاب الجمعة): حدَّثنا أبو نُعيم، حدَّثنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ يقرأ في الفجر يومَ الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة[2]، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾. ورواه مسلم أيضًا من حديث سفيان الثوري، به[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أسود بن عامر، أخبرنا الحسن بن صالح، عن لَيْث، عن أبي الزبير، عن جابرٍ قال: كان النَّبيُّ ﷺ لا ينام حتىٰ يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾. تفرَّد به أحمد[4].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾

قد تقدَّم الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أوَّل سورة «البقرة» بما أغنىٰ عن إعادته.

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه ولا مِرْيَة أنَّه نزل، ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ثم قال مخبرًا عن المشركين: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، [بل يقولون: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾][5]، أي: اختلقه من تلقاءِ نفسِهِ، ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، أي: يتبعون الحق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٢١ أ). (٣) البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠).

(٤) صحَّحه الألباني رحمه الله: رواه الترمذي (٢٨٩٢) و(٣٤٠٤)، وأحمد (٣/ ٣٤٠)، وغيرهم، من طريق ليث بن أبي سليم، وهو قد أدخل في حديثِهِ ما ليس منها فلم تتميَّز أحاديثُهُ فتُرِكَ. وقد توبع من طرقٍ عن أبي الزبير كما عند النَّسائي في «عمل اليوم والليلة» من «السنن الكبرىٰ» (١٠٥٤٢).
والحديث أورده الألباني في «الصحيحة» (٥٨٥) وحكم عليه بالصحة.

(٥) سقط من (ز).

يخبر تعالىٰ أنَّه الخالق للأشْيَاء، فخَلَقَ السَّموات والأرض وما بينهما في ستَّةِ أيَّام، ثم استوىٰ علىٰ العرش. وقد تقدَّم الكلام علىٰ ذلك[١].

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ ، أي: بل هو المالك لأزِمَّةِ الأمور، الخالق لكلِّ شيءٍ، المدبِّر لكلِّ شيءٍ، القادر[٢] علىٰ كلِّ شيءٍ، فلا وَلِيّ لخلقه سواهُ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ، يعني: أيها العابدون غيره، المتوكِّلون علىٰ من عداه -تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه أن يكون له نظيرٌ أو شريكٌ أو نديدٌ، أو وزيرٌ أو عديلٌ- لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ولا ربَّ سواهُ.

وقد أورد النَّسائي هاهنا حديثًا فقال: حدَّثنا إبراهيم بن يعقوب، حدَّثني محمد بن الصباح، حدَّثنا أبو عبيدة الحداد، حدَّثنا الأخضر بن عَجْلان، عن ابن جُرِيْجٍ المكي، عن عطاء، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي[٣] فقال: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ فِي اليَوْمِ السَّابِعِ، فَخَلَقَ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَالجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ، وَالشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَالمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَالنُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَالدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَآدَمَ يَوْمَ الجُمُعَةِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ بَعْدَ العَصْرِ، وَخَلَقَهُ مِنْ أَدِيمِ الأَرْضِ، بِأَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، وَطَيِّبِهَا وَخَبِيثِهَا، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَعَلَ اللهُ مِنْ بَنِي آدَمَ الطَّيِّبَ وَالخَبِيثَ**»[٤].

هكذا أورد هذا الحديث إسنادًا ومتنًا، وقد أخرج مسلم والنَّسائي أيضًا من حديث الحجاج ابن محمد الأعور، عن ابن جُرَيجٍ، عن إسماعيل بن أميَّة، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوٍ من هذا السياق.

وقد علَّله البخاري في كتاب «التاريخ الكبير» فقال: «وقال بعضهم: أبو هريرة عن كعب الأحبار، وهو أصح»[٥]، وكذا علله غير واحدٍ من الحفاظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يتنزَّل أمرُهُ من أعلىٰ السَّموات إلىٰ أقصىٰ تخوم الأرض السَّابعة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وترفع الأعمال إلىٰ دِيوَانِهَا فوق سماء الدُّنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض [مسيرة][٦]

---

(١) تقدم الكلام علىٰ الاستواء في «تفسير سورة الأعراف» الآية (٥٤).

(٢) في (ز): «القاهر».

(٣) لوحة (٢٢١ ب).

(٤) صحيح: في إسناد النسائي (١١٣٩٢) و(١١٠١٠) ابن جريج: مدلِّس وقد عنعن، وبقيَّة رجاله ثقات. لكن رواه مسلم (٢٧٨٩) نحوه.

(٥) «التاريخ الكبير» (١/ ٤١٣).

(٦) سقط من (ز).

خمسمائة سنة، وسُمك السماء خمسمائة سنة. وقال مجاهد، وقتادة، والضَّحَّاك: النُّزُول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة [1] خمسمائة عام، ولكنَّه يقطعها في طرفة عينٍ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فِى يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: المدبِّر لهذه الأُمُورِ، الَّذي هو شهيدٌ علىٰ أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرُها، وصغيرُها وكبيرُها -هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي قد عَزَّ كلَّ شيءٍ فقهره وغلَبَهُ، ودانت لَهُ العباد والرِّقاب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المُؤْمِنين. فهو عزيزٌ في رحمتِهِ، رحيمٌ في عزَّتِهِ [2]، [وهذا هو الكمال: العزَّة مع الرَّحمة، والرَّحمة مع العِزَّة، فهو رحيمٌ بلا ذُلٍّ] [3].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ⑨﴾

يقول تعالىٰ: إنَّه الذي أحسن خلقَ الأشياء وأَتْقنَهَا [4] وأَحْكَمَهَا.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أحسن خلق كل شيءٍ. كأنَّه جعله من المقدَّم والمؤخَّر.

ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذِكْرِ خلق الإنسان فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ يعني: خلق أبا البشر آدم من طين.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، أي: يتناسلون كذلك مِن نطفةٍ تخرج مِن بين صلبِ الرَّجُل وترائب المَرْأَةِ.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ يعني: آدم، لمَّا خلقه من ترابٍ خلقه سويًّا مستقيمًا، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾، يعني: العقول، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾، أي: بهذه القوىٰ التي رزقكموها الله ﷻ؛ فالسَّعيد مَن استعملها في طاعة ربه ﷻ.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ⑩ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ⑪﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: تمزَّقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرضِ وذهبت، ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۭ﴾؟ أي: أئنا لَنعُودُ بعد

---

(١) في (ز): «مسافة».
(٢) لوحة (٢٢٢ أ).
(٣) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).
(٤) في (ز): «وأثبتها».

تلك الحال؟! يستبعدون ذلك [١]، وهذا إنَّما هو بعيدٌ بالنِّسبة إلىٰ قُدَرِهِم العاجزة، لا بالنسبة إلىٰ قُدْرةِ الَّذِي بدأهم وخلقهم من العَدَمِ، الَّذِي إنَّما أمرُهُ إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كُنْ» فيكون؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

ثم قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾، الظَّاهر مِن هذه الآية أنَّ ملك الموتِ شخصٌ معيَّنٌ مِن الملائكة، كما هو المتبادر مِن حديث البراء المتقدِّم ذكره في سورة «إبراهيم» [٢]، وقد سُمِّيَ في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور [٣]، قاله قتادة وغير واحدٍ، وله أعوانٌ. وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد [٤]، حتىٰ إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت [٥].

قال مجاهد: حُويت له [٦] الأرض فجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء [٧]. ورواه زهير بن محمد، عن النَّبيِّ ﷺ، بنحوه مرسلًا [٨]. وقاله ابن عبَّاس ﵄.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي يحيىٰ المقري، حدَّثنا عمرو بن شَمِرٍ [٩]، [عن جعفر بن محمد] [١٠] قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ﷺ إلىٰ ملك الموت عند رأسِ رجلٍ من الأنصار، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**يَا مَلَكَ المَوْتِ، ارْفُقْ بِصَاحِبِي فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ**». فقال مَلَك الموت: يا محمد، طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا؛ فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ، واعلم أنَّ ما في الأرض بيتَ مَدَرٍ ولا شَعْرٍ، في برٍّ ولا بحرٍ، إلا وأنا أتصفَّحُهُ في كل يومٍ خمس مرَّاتٍ، حتىٰ إني أَعْرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد، لو أني أردت أن أقبض روحَ بعوضةٍ ما قَدَرتُ علىٰ ذلك حتىٰ يكون الله هو الآمر بِقَبْضِهَا [١١].

---

(١) في (ز): «يستبعدون تلك الحال».

(٢) عند تفسير الآية (٢٧) من سورة إبراهيم، وانظر تفسير الآيات (٧١- ٧٣) من سورة الأنعام.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: وقد سُمِّي في بعض الآثار بعَزْرَائِيل، ولكنَّه لم يصح عن رسول الله ﷺ وقد سبقَ أنَّ الَّذين صحَّت أسماؤهم: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك خازِنُ النَّار، ورضوان خازن الجنَّة، وأما منكر ونكير ففيه بعضِ الشَّيءِ، بعضهم أنكر هذا، أمَّا عزرائيل ما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ، علىٰ الرَّغم مِن أنَّ هذا الاسم أشهرُ أسماء الملائكة عند العامَّة. اهـ. وكذا قال الشيخ الألباني ﵀ بعدم ثبوت هذا الاسم، ينظر: «أحكام الجنائز» للألباني (ص١٥٦ و٢٥٤)، وتعليق علىٰ «متن الطحاوية» (ص٧٢).

(٤) لوحة (٢٢٢ ب).

(٥) رواه الطبري (٧/ ٢١٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٣١) وفي إسناده أبو جعفر الرازي: سيئ الحفظ.

(٦) حُويت: جُمِعَت.

(٧) الطبري (٢١/ ٩٨)، و«العظمة» لأبي الشيخ (٤٣٣)، وابن أبي زمنين في «أصول السنة» (٧٦)، وفي إسناده بشير بن عاصم: ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/ ٣٧٧) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وكذلك ابن أبي ليلىٰ: سيئ الحفظ.

(٨) عزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ١٧٢) إلىٰ ابن أبي حاتم، والإسناد مرسل.

(٩) في (ز): «عمرو بن سمرة».

(١٠) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، والصواب إثباته.

(١١) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٢١/ ١٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٢٠/ ٤١٨٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٢٥٤)، وفيه عمرو بن شمر الجعفي، قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن حبان في «الضعفاء» (٢/ ٧٥): وكان رافضيًّا يشتم أصحاب النَّبيِّ ﷺ وكان ممَّن يروي الموضوعات عن الثِّقات.

قال جعفر: بلغني أنَّه إنَّما يتصفَّحُهُم عند مواقيتِ الصَّلاة، فإذا حضرهم عند الموت فإن[(١)] كان ممَّن يحافظ علىٰ الصلاة دنا منه الملك، ودفع عنه الشَّيطان، ولقنه المَلَكُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» في تلك الحال العظيمة.

وقال عبد الرزَّاق: حدَّثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيم بن مَيْسَرة قال: سمعت مجاهدًا يقول: ما علىٰ ظهر الأرض من بيتِ شعرٍ أو مدرٍ إلا وملك الموت يُطيف به كلَّ يوم مرَّتَيْنِ.

وقال كعب الأحبار: والله ما مِن بيتٍ فيه أحدٌ مِن أهل الدُّنيا إلا ومَلَكُ الموت يقوم علىٰ بابِهِ كلَّ يوم سبعَ مرَّاتٍ. ينظر هل فيه أحدٌ أمر أن يتوفَّاه. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم وقيامكم مِن قُبُورِكُم لجزائكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟[(٢)] بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن حال المشركين يوم القيامة، وقالهم[(٣)] حين[(٤)] عاينوا البعث، وقاموا بَيْنَ يدي الله حَقِيرين ذَلِيلين، ناكسي رءوسهم؛ أي: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمع قولك ونُطِيعُ أمرك، كما قال تعالىٰ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وكذلك يعودون علىٰ أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ -أي: إلىٰ الدار الدنيا- ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحقَّقنا أنَّ وعدك حقٌّ ولقاءك حقٌّ، وقد علم الرَّبُّ تعالىٰ منهم أنَّه لو أعادهم إلىٰ الدَّار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفَّارًا يكذِّبون آيات الله ويخالفون رُسُلَهُ، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٩].

---

(١) في (ز): «قال سمان».

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله [معلقًا علىٰ حرف الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾]: ولهذا لو قلت: تزوَّج زيدٌ فوُلِدَ له، الفاء للتَّرتيب والتَّعقيب، ومِن المعلوم أنَّه لا يولد له فور عقد النِّكاح له، هل يُولَد له بمجرَّد ما يعقد له الزَّواج؟ لا، إِذَن الفاء للتَّرتيب والتَّعقيب، نقول: ترتيب كلِّ شيءٍ بحسبه.

(٣) وقالهم: أي: قولهم.

(٤) لوحة (٢٢٣ أ).

وقال هاهنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الصِّنفين، فدارهم(١) النَّار لا محيد لهم عنها ولا محيصَ لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: يقال لأهل النَّار على سبيل التَّقريع والتَّوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة مَن هو ناسٍ له، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي: إنَّا سنعاملكم معاملة النَّاسي؛ لأنَّه تعالى [لا ينسى شيئًا](٢)، ولا يضل عنه شيء، بل مِن باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسببِ كُفركُم وتكذيبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا(٣) خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: إنَّما يصدق بها ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولًا وفعلًا، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن اتِّباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، يعني بذلك: قيام اللَّيل، [وترك النَّوم والاضطجاع على الفُرُشِ الوطيئة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ يعني بذلك: قيام اللَّيل](٤)، وعن أنس(٥)، وعكرمة، ومحمد بن المُنْكَدِر، وأبي حازم، وقتادة: هو الصَّلاة بين العِشاءَيْن. وعن أنس أيضًا: هو انتظار صلاة العتمة(٦). رواه ابن جرير بإسنادٍ جيدٍ. وقال الضَّحَّاك: هو صلاة العشاء في جماعةٍ، وصلاة الغداة في جماعةٍ.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: خوفًا من وَبَال عقابِهِ، وطمعًا في جزيل ثوابه، ﴿وَمِمَّا

---

(١) في (ز): «قد ذرأتهم النار».
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٢٢٣ ب).
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٢٠)، وفي إسناده عمرو بن شمر الجعفي: متروك الحديث.
(٦) رواه الطبري (٢١/ ١٠١)، وإسناده حسن.

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فيجمعون بين فعل القُرُبَاتِ اللَّازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدُّنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رَوَاحة رضي الله عنه:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ

[أَرَانَا الهُدَىٰ بَعْدَ العَمَىٰ فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ](١)

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالمُشْرِكِينَ المَضَاجِعُ

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا روح وعفان(٢) قالا: حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن مُرَّة الهمداني، عن ابن مسعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ ثَارَ مِنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ وَمِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحَيِّهِ إِلَىٰ صَلاتِهِ، [فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَىٰ عَبْدِي، ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، وَمِنْ بَيْنِ حَيِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَىٰ صَلَاتِهِ](٣) رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي. وَرَجُلٌ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ فَانْهَزَمُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّىٰ أُهْرِيقَ دَمُهُ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِلْمَلَائِكَةِ: انْظُرُوا إِلَىٰ عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي، حَتَّىٰ أُهْرِيقَ دَمُهُ».

وهكذا رواه أبو داود في(٤) (الجهاد)، عن موسىٰ بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به بنحوه(٥).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النَّبيِّ ﷺ في سفرٍ، فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أَخْبِرْنِي بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ وَلا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ». ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ». ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، حتىٰ بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: «أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» فقلت: بلىٰ، يا رسول الله. فقال: «رَأْسُ الأَمْرِ: الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ». ثم قال: «أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ(٦) كُلِّهِ؟» فقلت: بلىٰ يا نبي الله. فأخذ بلسانه ثم قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ -

---

(١) سقط من (ز).

(٢) في (ز): «حدَّثنا روح وعثمان»، والمثبت هو الصواب.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) لوحة (٢٢٤ أ).

(٥) حسن: رواه أحمد (١/ ٤١٦)، وأبو داود (٢٥٣٦).

(٦) المِلاك: ما بِهِ إحكام الشَّئ وتقويته.

أو قال: [عَلَىٰ][1] مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[2].

رواه التِّرمذي، والنسائي، وابن ماجة في «سننهم»، من طرقٍ عن معمر به. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وقد رواه ابن جرير من حديث شعبة، عن الحكم قال: سمعتُ عُرْوَة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل؛ أن رسول الله ﷺ قال له: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُكَفِّرُ الخَطِيئَةَ، وَقِيَامُ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، وتلا هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

ورواه أيضًا من حديث الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن الحكم، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه. ومن حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت[3]، والحكم، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ مرفوعًا بنحوه. ومن حديث حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن شهر، عن معاذ بن جبل، عن النَّبيِّ ﷺ، في قوله تعالىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، قال[4]: «قِيَامُ العَبْدِ مِنَ اللَّيْلِ»[5].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سنَان الواسطي، حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا فِطْر بن خليفة، عن حبيب بن أبي ثابت، والحكم، وحكيم بن جُبَيْر، عن ميمون بن [أبي][6] شبيب، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النَّبيِّ ﷺ في غزوة تبوك فقال: «إِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِأَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[7].

ثم قال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سويد بن سعيد، حدَّثنا علي بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ، جَاءَ مُنَادٍ فَنَادَىٰ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الخَلَائِقَ: سَيَعْلَمُ أَهْلُ الجَمْعِ اليَوْمَ مَنْ أَوْلَىٰ بِالكَرَمِ. ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُنَادِي: لِيَقُمِ الَّذِينَ كَانَتْ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ الآية، فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيلٌ»[8].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) صحَّحه الألباني رحمه الله: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجة (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح، قلت: في سنده انقطاع، لكن أشار الألباني إلىٰ تصحيحه (صحيح ابن ماجه)، وقال في تعليقه علىٰ كتاب «الإيمان» لابن أبي شيبة (١): حديث صحيح بالطريق التي بعده، ورجاله ثقات.

(٣) في (ز): «عن أبي حبيب بن ثابت»، وهو خطأ. (٤) لوحة (٢٢٤ ب).

(٥) رواه الطبري من مجموع هذه الطرق (٢١/ ١٠٢ - ١٠٣). (٦) سقط من (ز).

(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٧٨٤٠) وانظر التعليقات السابقة.

(٨) ضعيف: تقدَّم انظر تفسير الآية (٣٨) من سورة النور.

وقال البزَّار: حدَّثنا عبد الله بن شَبيبٍ، حدَّثنا الوليد بن عطاء بن الأغر، حدَّثنا عبد الحميد بن سليمان، حدَّثني مصعب، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال بلالٌ لما نزلت هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ الآية، كنَّا نَجْلِس في المجلس، وناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلىٰ العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[(١)].

ثم قال: لا نعلم روىٰ أسلم عن بلال سواه، وليس له طريقٌ عن بلالٍ غير هذه الطريق.

وقوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: فلا يعلم أحدٌ عظمة ما أخفىٰ الله لهم في الجنَّات من النَّعيم المقيم، واللَّذَّات التي لم يَطَّلع علىٰ مثلِها أحدٌ، لَمَّا أَخْفَوْا أعمالهم أخفىٰ الله لهُمْ من الثَّواب، جزاءً وفاقًا؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جنس العمل.

قال الحسن البصري: أخفىٰ قومٌ [عملهم][(٢)]، فأخفىٰ اللهُ لَهُم ما لم تَرَ عينٌ، ولم يخطُرْ علىٰ قلب بشرٍ. رواه ابن أبي حاتم.

قال البخاري: قوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية؛ حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا سفيان، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن [(٣)] أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**». قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[(٤)].

قال: وحدَّثنا سفيان، حدَّثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال الله تعالىٰ [مثله][(٥)]، قيل لسفيان: روايةً؟ قال: فَأَيُّ شيءٍ؟.

ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عيينة به. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

ثم قال البخاري: حدَّثنا إسحاق بن نصر، حدَّثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن [(٦)] أبي صالح، عن أبي هريرة ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، دُخْرًا مِنْ بَلْهَ[(٧)] مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ**»، ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[(٨)]. [و] قال أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالحٍ،

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه البزَّار (٢٢٥٠ - كشف)، وفيه عبد الله بن شبيب: واهٍ، وعبد الحميد الخزاعي: ضعيف، ومصعب ابن ثابت الأسدي: لين الحديث.

(٢) سقط من (ز).

(٣) لوحة (٢٢٥ أ).

(٤) البخاري (٤٧٧٩، ٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣١٩٧)، من حديث أبي هريرة.

(٥) سقط من (ز).

(٦) كذا في (ز)، وفي البخاري: (حدثنا).

(٧) قال الحافظ ابن حجر ﵀: «أي: جعلت ذلك لهم مدخورًا... ودخرًا من بله ما اطلعتم، بمعنىٰ: غير...»: «فتح الباري»: (٨/ ٥١٦ - ٥١٧).

(٨) البخاري (٤٧٨٠) وذكر رواية أبي معاوية بعده.

قرأ أبو هريرة ﷺ: «قُرَّاتِ أَعْيُنٍ». انفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**»[١].

أخرجاه في «الصحيحين» من رواية عبد الرزَّاق. ورواه الترمذي في (التفسير)، وابن جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ بمثله. ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة ﷺ -قال حماد: أحسبه عن النَّبيِّ ﷺ- قال: «**مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ، وَلا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ، فِي الجَنَّةِ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**»[٢].

رواه [مسلم][٣] من حديث حماد بن سلمة به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هارون، حدَّثنا ابن وهبٍ، حدَّثني أبو صخر، أن أبا حازم حدَّثه قال: سمعت سهل بن سعدٍ الساعدي[٤] ﷺ يقول: شهدت من رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنَّة حتىٰ انتهىٰ، ثم قال في آخر حديثه: «**فِيهَا مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**»، ثم قرأ[٥] هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، إلىٰ قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

وأخرجه مسلم في «صحيحه»[٦] عن هارون بن معروف، وهارون بن سعيد، كلاهما عن ابن وهب به.

وقال ابن جرير: حدَّثني العبَّاس بن أبي طالب، حدَّثنا معلىٰ بن أسد، حدَّثنا سلام بن أبي مطيع، عن قتادة، عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيدٍ الخدري، عن رسول الله ﷺ، يروي عن ربه ﷻ قال: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**». لم يخرِّجوه[٧].

وقال مسلم أيضًا في «صحيحه»: حدَّثنا ابن أبي عمر وغيره، حدَّثنا سفيان، حدَّثنا مُطَرِّف بن طَرِيف وعبد الملك بن سعيد، سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال: سمعته علىٰ المنبر -

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٧٤٩٨) من طريق معمر به.
(٢) مسلم (٢٨٣٦)، وأحمد (٢/ ٣٧٩)، وأبو يعلىٰ (٦٤٢٨).
(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٢٢٥ ب). (٥) في (ز): «ثم اقترأ».
(٦) مسلم (٢٨٢٥)، وأحمد (٥/ ٣٣٤).
(٧) ورواه الطبري (٢١/ ٦٧) من حديث أبي سعيد.

يرفعه إلى النَّبيِّ ﷺ- قال: «سَأَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ[1]؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ». قال: ومصداقه من كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر، وقال: حسنٌ صحيحٌ. قال: ورواه بعضهم عن الشَّعْبي، عن المغيرة، ولم يرفعه، والمرفوع أصح.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا [جعفر][3] بن منير المدائني، حدَّثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد، حدَّثنا زياد بن خَيْثَمة، عن محمد بن جُحَادة، عن عامر[4] بن[5] عبد الواحد قال: بلغني أن الرَّجل من أهل الجنَّة يمكث في مكانِهِ سبعِينَ سنةً، ثمَّ يلتفت فإذا هو بامرأةٍ أحسن ممَّا كان فيه، فتقولُ له: قد أنَىٰ[6] لك أن يكون لنا منك نصيب؟ فيقول: مَن أنتِ؟! فتقول: أنا من المَزِيد. فيمكث معها سبعين سنةً، ثم يلتفت فإذا هو بامرأةٍ أحسن ممَّا كان فيه، فتقول له: قد أنىٰ لك أن يكون لنا منكَ نصيبٌ، فيقول: من أنتِ؟! فتقول: أنَا الَّتِي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[7].

وقال ابن لَهِيعَة: حدَّثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَيْر قال: تدخل عليهم الملائكة في مقدارِ كلِّ يوم مِن أيَّام الدُّنيا ثلاث مرَّاتٍ، معهم التُّحَف مِن الله من جنَّات عدنٍ ما ليس في جنَّاتِهِم، وذلك قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ويُخْبَرون أن الله عنهم راضٍ[8].

وقال ابن جرير: حدَّثنا سهل بن موسىٰ الرازي، حدَّثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبي اليمان الهوزني -أو غيره- قال: الجنَّة مائةُ درجةٍ، أوَّلها: درجةٌ فضَّةٌ وأرضها فضَّةٌ، ومساكنها فضَّةٌ، [وآنيتها فضَّة][9]، وترابها المسك. والثَّانية ذهبٌ، وأرضُهَا ذهبٌ، ومساكنها ذَهَبٌ،

---

(١) أي: أخذوا ما أخذوا مِن كرامةٍ ومنزلة.
(٢) مسلم (١٨٩)، والترمذي (٣١٩٨).
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): «عن عبَّاس».
(٥) لوحة (٢٢٦ أ).
(٦) أي: حان.
(٧) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٨٤٦)، وعامر بن عبد الواحد: صدوقٌ يُخطِئ، ثم هو يروي ذلك بلاغًا مرسلًا، ولم يسنده.
(٨) في الإسناد ابن لهيعة: اختلَطَ بآخرة، وهذا عن سعيد بن جبير، فأحسنُ أحوالِهِ أنَّه مُرسَلٌ، والمرسل من قسم الضَّعيف.
(٩) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

وآنيتها ذهبٌ، وترابها المسك. والثَّالثة: لؤلؤٌ، وأرضها لؤلؤٌ، ومساكنها اللُّؤلؤُ، وآنيتها اللُّؤلؤُ، وترابها المسكُ. وسبع وتسعون بعد ذلك، ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطر علىٰ قلب بشرٍ. ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغِطْرِيف، عن جابر بن زيد، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، عن الروح الأمين قال: «يُؤْتَىٰ بِحَسَنَاتِ العَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ، يَنْقُصُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، فَإِنْ بَقِيَتْ حَسَنَةٌ [وَاحِدَةٌ] (٢) وَسَّعَ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ»، قال: فدخلت علىٰ «يزداد» فَحَدَّث (٣) بمثل هذا الحديث، قال: فقلت: فأين ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٦]. قلتُ: قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾؟ قال: العبد يعمل سرًّا أسرَّه (٤) إلىٰ الله، لم يعلم به النَّاس، فأسرَّ الله له يوم القيامة قُرَّة أعينٍ (٥).

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٦)

يخبر تعالىٰ عن عدله [وكرمه] (٧): أنه لا يساوي في حُكمِهِ يوم القيامة مَنْ كان مُؤمنًا بآياتِهِ متبعًا لرسله، بمن كان فاسقًا؛ أي: خارجًا عن طاعة رَبِّه مكذِّبًا لرُسُله إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا

---

(١) رواه الطبري (٢١/ ١٠٥) ولم يرفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.
(٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».
(٣) في (ز): «فحدثت».
(٤) لوحة (٢٢٦ ب).
(٥) إسناده ضعيف: رواه ابن جرير (٢١/ ١٠٥-١٠٦)، وفيه الغطريف أبو هارون: أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٧/ ٥٨) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وبقية رجاله ثقات.
(٦) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: والانتقام لا شكَّ أنَّه حسنٌ في محله، وعليه فلا يَصِح أن يوصف الله به علىٰ سبيل الإطلاقِ، وهو معدودٌ مِن الأسماء الحسنىٰ المشهورة، ولكن هذه الأسماء الحسنىٰ المشهورة -كما قال شيخ الإسلام وغيره من أهل التَّحقيق-: ليست ثابتةً عن الرسول ﷺ؛ لأنَّ فيها أشياء من الأسماء لا تصحُّ اسمًا لله، إذن هل يوصف الله بالانتقام مطلقًا، فيقال: المنتقم؟ الجواب: لا؛ لأنَّه ما ورد إلا مقيدًا، وورد ذو انتقام نكرة في سياق الإثبات فلا تدلُّ علىٰ العموم؛ لأنَّ النَّكرة في سياق الإثبات -كما هو معروف- لا تفيد العموم إنَّما تُفِيد العموم إذا كانت في سياق النَّفي أو النَّهيّ، أو الشَّرط أو الاستفهام الإنكاري كما ذكره أهل الأصول.
(٧) ليست في (ز).

يحكمون ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠]؛ ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ أي: عند الله يومَ القِيامَة.

وقد ذكر عطاء بن يَسَار والسُّدِّي وغيرهما: أَنَّها نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي مُعَيط(١)؛ ولهذا فَصَّل حكمهم فقال: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصَّالحات ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿نُزُلًۢا﴾ أي: ضيافةً وكرامةً ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ أي: خرجوا عن الطاعة، ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ ، [كقوله: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ الآية](٢) [الحج: ٢٢].

قال الفُضَيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقةٌ، وإن الأرجلَ لمقيَّدةٌ، وإن اللَّهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ (٣) دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ ، قال ابن عبَّاسٍ: يعني بالعذَابِ الأدنىٰ: مصائب الدُّنيا، وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليَتُوبُوا إليه. وروي مثله عن أبي بن كعب، [وأبي العالية](٤)، والحسن، وإبراهيم النَّخَعِي، والضَّحَّاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجَزَري، وخَصِيف.

وقال ابن عبَّاسٍ -في رواية عنه-: يعني به إقامة الحُدُودِ عليهم.

وقال البَرَاء بن عازِبٍ، ومجاهد، وأبو عبيدة: يعني به عذَابَ القبر(٥).

وقال النَّسائي: أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة، عن عبد الله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: سنون أصابتهم(٦).

---

(١) رواه الطبري (٢١/ ١٠٨) وإسناده مرسل، وثبت نحوه عن ابن عبَّاسٍ، رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٣٦)، وفيه محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلىٰ: قال الحافظ: صدوق سيِّئ الحفظ جدًا، فالإسناد ضعيف.

(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٢٢٧ أ). (٤) سقط من (ز).

(٥) سيأتي الكلام علىٰ عذاب القبر في تفسير سورة المؤمن - غافر - الآية (٤٦).

(٦) النسائي في «السنن الكبرىٰ» (١١٣٩٥) وإسناده حسن.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثني عبيدالله[(١)] بن عُمَر القَوَاريري، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيدٍ، عن شعبة، عن قتادة، عن عَزْرَة[(٢)]، عن الحسن العُرَني، عن يحيىٰ بن الجزار، عن ابن أبي ليلىٰ، عن أُبي بن كعب في هذه الآية: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: المصيبات[(٣)] والدخان قد مَضيَا، والبطشة واللِّزام[(٤)]. ورواه مسلم من حديث شعبة [به] موقوفًا نحوه[(٥)]. وعند البخاري عن ابن مسعود [نحوه[(٦)].

وقال عبد الله بن مسعود][(٧)] أيضًا في رواية عنه: «العذاب الأدنىٰ»: ما أصابهم من القَتْل والسَّبْيِ يوم «بدر». وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم.

قال السُّدِّي وغيره: لم يبقَ بيتٌ بمكة إلا دخله الحُزْنُ علىٰ قتيلٍ لهم أو أسيرٍ، فأصيبوا أو غَرموا[(٨)]، ومنهم مَنْ جمع له الأمران.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي: لا أظلم ممَّن ذَكَّره الله بآياتِهِ وبيَّنَها له ووضَّحَها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها.

قال قتادة: إيَّاكم والإعراض عن ذكر الله، فإنَّ مَنْ أعرض عَن ذكره فقد اغترَّ أكبر الغرَّة، وأعوز أشد العَوَز، وعظم مِن أعظم الذنوب.

ولهذا قال تعالىٰ متهددًا لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام[(٩)].

قال ابن جرير: حدَّثني عمران بن بكار الكِلاعي، حدَّثنا محمد بن المبارك، حدَّثنا إسماعيل بن عياشٍ، حدَّثنا عبد العزيز بن عبيد الله، عن عبادة بن نُسَيٍّ، عن جنادة بن أبي أمية، عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ أَجْرَمَ، مَنْ عَقَدَ لِوَاءً فِي غَيْرِ حَقٍّ، أَوْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، أَوْ مَشَىٰ مَعَ ظَالِمٍ يَنْصُرُهُ، فَقَدْ أَجْرَمَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾**»[(١٠)].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث إسماعيل بن عياش به، وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عبده ورسوله موسىٰ عليه السلام أنَّه آتاه الكتاب وهو التَّوراة.

---

(١) في (ز): «عبد الله»، وهو خطأ.
(٢) في (ز): «عروة»، وهو خطأ.
(٣) في (ز): «الصماد».
(٤) رواه أحمد (٥/ ١٢٨).
(٥) مسلم (٢٧٩٩).
(٦) البخاري (٤٨٢٠).
(٧) سقط من (ز).
(٨) في (ز): «هزموا».
(٩) لوحة (٢٢٧ ب).
(١٠) ضعيف: رواه الطَّبري (٢١/ ١٠٨)، وفي إسناده عبد العزيز بن عبيد الله بن حمزة: ضعيف كما في «التقريب».

وقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾: قال قتادة: يعني به ليلةَ الإسراء. ثم روىٰ عن أبي العالية الرِّياحي قال: حدَّثني ابن عم نبيكم -يعني: ابن عبَّاس- قال: قال رسول الله ﷺ: «أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ، رَجُلًا [آدمَ](١) طُوَالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ. وَرَأَيْتُ عِيسَىٰ رَجُلًا مَرْبُوعَ الخَلْقِ، إِلَىٰ الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ، سَبْطَ الرَّأْسِ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ، وَالدَّجَّالَ»، فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ . ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، أنَّه قد رأىٰ موسىٰ، ولَقِي موسىٰ ليلةَ أُسْرِيَ به(٢) .

وقال الطبراني: حدَّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا الحسن بن علي الحُلْوَاني، حدَّثنا روح بن عبادة، حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عبَّاسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، قال: «جُعِلَ مُوسَىٰ هُدًىٰ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ»، وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قال: «مِنْ لِقَاءِ مُوسَىٰ رَبَّهُ ﷻ»(٣) .

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه [﴿هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، كما قال تعالىٰ في «سورة الإسراء»: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ](٤) هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟(٥) بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لما كانوا صابرين علىٰ أَوَامرِ الله وتَرْكِ زواجرِه، وتصديق رسلِهِ واتِّباعهم فيما جاؤوهُمْ بِهِ، كان منهم أئمَّةٌ يهدون إلىٰ الحقِّ بأمرِ الله، ويدعون إلىٰ الخير، ويأمرون بالمَعْرُوفِ، وينهَوْنَ عن المنكر. ثم لمَّا بدَّلوا وحرَّفوا وأوَّلوا سُلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسيةً، يحرِّفون الكلم عن مَوَاضِعِه، فلا عَملَ صالحًا، ولا اعتقاد صحيحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾(٦) قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا. وكذلك قال الحسن بن صالح.

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إمامًا يُقتدىٰ به حتىٰ يتحامىٰ عن الدنيا.

قال وكيعٌ: قال سفيان: لا بد للدِّين من العِلْم كما لا بدَّ للجسد من الخُبْزِ.

وقال ابن بنت الشافعي: قرأ أبي علىٰ عمي -أو: عمي علىٰ أبي- سئل سفيان عن قول علي ﵁: الصَّبر من الإيمانِ بمنزلة الرَّأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رءوسا. [قال بعض العلماء: بالصَّبرِ واليقين تُنالُ الإمامة في الدِّين(٧) .

---

(١) سقط من (ز).
(٢) تقدَّم (أول سورة الإسراء).
(٣) رجاله ثقات: رواه الطبراني (١٢/ ١٦٠) ورجاله ثقات لكن فيه قتادة: مدلس وقد عنعن.
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) لوحة (٢٢٨ أ).
(٦) في (ز): بدلًا من هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.
(٧) قائل هذه العبارة هو شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀، كما ذكر ذلك ابن القيم - رحمهما الله تعالىٰ-، ينظر: «مدارج السالكين» =

ولهذا قال تعالىٰ][1]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ[2]﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧]، [كما قال هنا][3]: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: أولم يَهْدِ لهؤلاء المكذِّبين بالرُّسل ما أهلك الله قبلهم من الأُمَمِ الماضية، بتكذِيبِهم الرُّسل ومخالفتهم إيَّاهم فيما جاؤوهم به مِن قويم[4] السُّبُل، فلم يبق منهم باقيةٌ ولا عينٌ ولا أثرٌ؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ [مريم: ٩٨]؛ ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾، أي: وهؤلاء المكذِّبون يمشُونَ في مساكنِ أولئك المكذِّبين، فلا يَرَوْنَ فيها أحدًا ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن[5] مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: إنَّ في ذهاب أولئك القوم ودَمَارهم، وما حلَّ بهم بسبب تكذيبهم الرُّسل، ونجاة مَن آمَنَ بهم، لآياتٍ وعبرًا ومواعظ ودلائل متظاهرة.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾: يُبيِّن تعالىٰ لطفَهُ بخلقه، وإحسانه إليهم في إرسالِهِ الماء إمَّا مِن السَّماء أو مِن السيح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلىٰ الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته؛ ولهذا قال: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾، وهي [الأرض][6] التي لا نبات فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨]؛ أي: يَبسًا لا تنبت شيئًا. وليس المراد

= (٢/ ١٥٤)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٦٩) بتحقيق الشيخ زهير الشاويش رحمه الله تعالى.

(١) مابين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) وقع في (ز) في هذه الآية سقط وخطأ أصلحناه.
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): «كريم».
(٥) لوحة (٢٢٨ب). وفي (ز): «وكأين...».
(٦) ليست في (ز).

من قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مَثَّل بها كثير من المفسِّرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنَّها مرادةٌ قطعًا من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رخوةٌ غليظةٌ تحتاج من الماءِ ما لو نَزَلَ عليها مطرًا لتهدَّمَتْ أبنيَتُهَا، فيسوقُ الله إليها النِّيل بما يتحمَّلُه من الزِّيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة[١]، وفيه طين أحمر، فيغشىٰ أرض مصر، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلىٰ ذلك الماء، وذلك الطين أيضًا لينبُتَ الزرع فيه، فيستغلون كل سنة علىٰ ماءٍ جديدٍ ممطورٍ في غير بلادهم، وطينٍ جديدٍ مِن غيرِ أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء.

قال ابن لَهِيعَة، عن قيس بن حجاج، عمن حدثه قال: لما فُتِحَت مصر، أتىٰ أهلها عمرو بن العاص -[وكان أميرًا بها][٢]- حين دخل بؤونة من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير، إنَّ لِنِيلِنَا سُنَّة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عَمَدنا إلىٰ جارية بِكْر بين أَبَوَيْها، فأرضينا أَبَوَيْها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا[٣] النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا ما لا يكون في الإسلام، إنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة والنِّيل لا يجري، حتىٰ همُّوا بالجلاء، فكتب عمرو إلىٰ عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنَّك قد أصبت بالَّذِي فعلتَ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا، فألقها فِي النِّيل. فلمَّا قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلىٰ نيل أهل مصر، أما بعد... فإنَّك إن كنت إنَّما تجري من قِبَلِك فلا تَجْرِ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجْرِيك فنسأل الله أن يُجْرِيك. قال: فألقىٰ البطاقة في النِّيل، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرىٰ الله النِّيل ستة عشر ذراعًا في ليلة واحدة، وقطع الله تلك السُّنَّة عن أهل مصر إلىٰ اليوم. رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب «السُّنَّة» له[٤].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ

---

(١) وهي إثيوبيا الآن، وكان هذا الماء يأتي قديمًا!!!.

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٢٢٩ أ).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٩/ ١٢٦ - كرامات الأولياء» - ط: طيبة، وأعاد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هذه القصة في «البداية والنهاية» (١٠/ ٩٦) - ط: هجر، وسندها ضعيف؛ ابن لهيعة: اختلط، وفيها أيضًا جهالة شيخ قيس بن حجاج. ولأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه غيرها كرامات كثيرة ثابتة. ينظر: «كرامات الأولياء» لعبد الرقيب الإبي (ص٦٠) وما بعدها، ولمعرفة كلام أئمة السنة في مسألة الكرامات ينظر: «كرامات الأولياء» للدكتور/ عبد الله العَنقري - ط: التوحيد.

شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾. وقال ابن أبي نَجِيح، عن رجل، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ قال: هي التي لا تُمطر إلا مطرًا لا يغني عنها شيئًا، إلا ما يأتيها من السيول. وعن ابن عبَّاس، ومجاهد: هي أرض باليمن. وقال الحسن: هي قرىٰ فيما بين اليمن والشَّام. وقال عِكْرِمة، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد: «الأرض الجرز»: التي لا نَباتَ فيها وهي مغبرة. قلتُ: وهذا كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ (١) وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن استعجال الكفار وقوعَ بأس اللهِ بِهِم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعادًا وتكذيبًا وعنادًا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: متىٰ تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أنَّ لك وقتًا تُدال علينا، ويُنْتَقم لك منَّا، فمتىٰ يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين!

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي: إذا حَلَّ بكم بأس الله وسَخَطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرىٰ، ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٣-٨٥]، ومَنْ زعم أن المراد من هذا الفَتح فتحُ مكة فقد أبعد النَّجْعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريبًا من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿إِن

(١) لوحة (٢٢٩ ب).

﴿تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

ثم قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبَلِّغ ما أُنْزِل إليك من ربك، كقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وانتظر فإن الله سيُنْجِزُ لك ما وعدك، وسينصرك علىٰ من خالَفَكَ، إنَّه لا يخلف الميعاد.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾[١] أي: أنت منتظر، وهم مُنْتَظِرون، ويتربصون بكم الدوائر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وسترىٰ أنت عاقبة صبرك عليهم، وعلىٰ أداءِ رسالةِ الله، في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غِبَّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وَبِيلِ عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، [والله أعلم][٢].

[آخر تفسير سورة «الم السجدة»][٣]

---

(١) لوحة (٢٣٠ أ).

(٢) لست في (ز).

(٣) ليست في (ز).

الفهرس

❁ **تفسير سورة مريم** ٣

❁ **تفسير سورة طه** ٦٣

_ حديث الفتون ٧٨

_ قصة السامري وعبادة بني إسرائيل العجل ١٠٤

❁ **تفسير سورة الأنبياء** ١٢٦

_ قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه ١٤٣

_ قصة سيدنا داود وسليمان عليهما السلام ١٥١

_ قصة سيدنا أيوب عليه السلام ١٥٦

_ قصة سيدنا إسماعيل وإدريس عليهما السلام ١٦١

_ قصة سيدنا يونس عليه السلام ١٦٤

_ نبأ يأجوج ومأجوج ١٧٠

_ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ ١٧٦

_ ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ ١٨١

_ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ ١٨٤

❁ **تفسير سورة الحج** ١٨٩

_ أصل خلق بني آدم ومراحل ذلك ١٩٦

_ المخلوقات كلها تسجد لله طوعًا وكرهًا ٢٠٤

_ الكافرون يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام ٢١٠

_ الذبح مشروع في جميع الملل ٢٢٧

_ أحكام تتعلق بالهدي إلىٰ البيت الحرام ٢٢٨

_ مسألة: علىٰ من تجب الأضحية ٢٣٥

_ أول آية نزلت في الجهاد في سبيل الله ٢٣٧

❁ **تفسير سورة المؤمنين** ٢٦١

_ حال المحتضر عند الموت من الكافرين والمفرطين ٢٩٧

_ النفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم ٢٩٩

❁ **تفسير سورة النور** ٣٠٨

_ الملاعنة بين الزوجين ٣١٩

- حادثة الإفك ٣٢٥
- آداب الاستئذان ٣٤٦
- الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج والحجاب ٣٥٣
- حكم الزواج والتزويج ٣٦٥
- ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ٣٧٢
- المساجد: أحب البقاع إلىٰ الله، وصفة روادها ٣٧٨
- مثل لصنفين من الكفار ٣٨٨
- قول المؤمنين إذا دعوا إلىٰ حكم الله ورسوله ٣٩٢
- التمكين للمؤمنين وشروطه ٣٩٦
- آداب استئذان الأقارب بعضهم علىٰ بعض ٤٠٠
۞ **تفسير سورة الفرقان** ٤١٣
- أنواع هجر القرآن ٤٣١
- صفات عباد الرحمن ٤٤٥
۞ **تفسير سورة الشعراء** ٤٦٠
- قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون وملئه ٤٦٢
- قصة إبراهيم عليه السلام ٤٧٢
- قصة نوح عليه السلام ٤٧٨
- قصة هود عليه السلام ٤٧٩
- قصة صالح عليه السلام ٤٨٢
- قصة لوط عليه السلام ٤٨٥
- قصة شعيب عليه السلام ٤٨٦
- القرآن وما فيه من الحق، وصفة إنزاله بلسان عربي مبين ٤٩٠
- القرآن: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٤٩٤
- ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ ٤٩٥
- ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) ﴾ ٥٠٢
۞ **تفسير سورة النمل** ٥٠٩
- قصة سليمان وداود عليهما السلام ٥١٢
- نبأ الهدهد وما كان من شأن ملكة سبأ ٥١٦
- قصة صالح عليه السلام وما كان من شأن مكر المفسدين ٥٣٠

- طرف من قصة لوط عليه السلام ٥٣٣
- قوله تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ٥٣٤
- خروج الدابة في آخر الزمان ٥٤٥

❁ **تفسير سورة القصص** **٥٥٥**

- قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون وملئه........................ ٥٥٥
- قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ ٥٨٦
- ما كان من خبر قارون وكنوزه ٥٩٤

❁ **تفسير سورة العنكبوت** **٦٠٦**

- طرف من قصة نوح عليه السلام مع قومه ٦١١
- دعوة إبراهيم عليه السلام قومه للتوحيد، ومعاداتهم له ٦١٣
- إيمان لوط عليه السلام بدعوة إبراهيم عليه السلام ٦١٦
- المشركون في ابتغائهم النصرة من آلهتهم كبيت العنكبوت في ضعفه ٦٢٤

❁ **تفسير سورة الروم** **٦٤٢**

- نبأ ما كان بين الفرس والروم ٦٤٢
- كل مولود يولد علىٰ الفطرة، وبيان معناها ٦٦١
- السبب في ظهور الفساد في الأرض ٦٦٧
- ما روي في فضل هذه السورة الشريفة، واستحباب قراءتها في الفجر ٦٧٩

❁ **تفسير سورة لقمان** **٦٨٠**

- فصل في الخمول والتواضع ٦٩٣
- باب ما جاء في الشهرة........................ ٦٩٥
- فصل في حسن الخلق ٦٩٧
- فصل في ذم الكبر ٧٠٠
- فصل في الاختيال........................ ٧٠١

❁ **تفسير سورة السجدة** **٧١٤**

❁ **الفهرس** **٧٣٣**